
المركز القومى للترجمة
مايكا وولتارى
المصرى
دنيا سنوحى
تعريب: حامد القصبى
تقديم: طه حسين
ميراث الترجمة
1400



الكتاب لا يصور الحياة المصرية فى عصر "أخناتون" فحسب، لكنه يصور الحياة فى العالم الذى عرفه المصريون فى ذلك الوقت. فبطل الكتاب الذى يتحدث إليك حديثًا مباشرًا؛ لأنه يقص عليك حياته، قد اضطر إلى أن يكون أخا سفر، جواب آفاق. فهو ينتقل فى مصر، ثم يتجاوز حدودها إلى فلسطين وسوريا، ثم يمضى إلى "بابل" ثم إلى جزيرة أقرطيش أو "كريت".

وهو عاشر حكام هذه البلاد كلها، كما يتصل بأهلها اتصالاً دقيقًا، ويقص علينا من سير أولئك وهؤلاء، وأنبائهم، أطرافًا أيسر ما توصف به أنها تخلب وتروع.

.. دهشت حين أقبل على ذات يوم، الأستاذ "حامد القصبى" ومعه ترجمة عربية لهذه القصة، نقلها من اللغة الإنجليزية الأمريكية.

دهشت، لأنى لم أكن أنتظر أن أراها فى لغتنا، ودهشت لأن الذى يحمل إلىّ ترجمتها مهندس، أنفق حياته فى فنون الهندسة على اختلافها، وفى شئون وزارة الأشغال، له مشاركة حسنة فى الأدب.. وكان أشد ما راعنى حين قرأتُ فصولاً من هذه القصة أن اللغة التى نُقل إليها الكتاب، ليست أقل جمالاً، وروعة أداء، من التراجم الأخرى التى قرأتُ فيها الكتاب. وقد وفق المترجم إلى أن يحسن النقل إحسانًا، لا زيادة فيه لمستزيد، وكأنه سبق المترجم الأمريكى إلى نفس الكاتب الفنلندى، فعبرّ عما فيها تعبيرًا صادقًا دقيقًا.

طه حسين

تصميم الغلاف: نسرين كشك

المصرى

دنيا سنوحى

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : ١٤٠٠
- المصرى دنيا سنوحى
- مايكا ولتارى
- حامد القصبى
- طه حسين
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية :
SINUHE
Egypti Läinen
Mika Waltari

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

المصرى

دنيا سنوحى

للكاتب الفنلندى

مايكا وولتارى

تعريب

حامد القصبى

تقديم

طه حسين



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ولتاري ، مايكا .
المصرى دنيا سنوحي/لمايكا ولتاري؛ تعريب: حامد القصبي؛ تقديم: طه حسين
القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩
٨٣٢ ص، ٢٤ سم
١ - القصص الفنلندية
٢ - الأدب الفنلندى
(أ) القصبي ؛ حامد (مترجم)
(ب) طه حسين ؛ طه حسين بن على بن سلامة ، ١٨٨٩ - ١٩٧٣ (مقدم)
(جـ) العنوان
٨٩٤,٥٤٣

رقم الإيداع ٢٠٦٥٩/٢٠٠٩
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 479-635-4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

تقديم الكتاب

لعميد الأدب العربى
الدكتور طـه حسين

هذا الكتاب قرأته مترجما إلى اللغة الفرنسية منذ أكثر من عامين فأعجبت به أشد الإعجاب، وكان من أشق الأشياء على، أن تقف القراءة بى فيه عند حد من هذه الحدود التى تفرضها ظروف الحياة المادية والاجتماعية على الناس.

فأنت تأخذ فى القراءة كلفا بها، مشوقا إليها، تريد أن تفرغ لها، وألا يشغلك عنها شىء، ولكنك لا تكاد تمضى فيها ساعة أو ساعات، حتى يصرفك عنها زائر جاء على موعد أو غير موعد، أو زيارة وعدت بها قبل أن تأخذ فيما أنت آخذ فيه من القراءة، وليس لك بد من أن تفى بالوعد، أو عمل لا ترى سبيلا إلى إرجائه، أو موعد الغداء أو العشاء أو النوم ، أو ما شئت من هذه الصوارف التى تصرف الناس عما يحبون إلى ما ليس لهم منه بد.

وقد كنت أكره الانصراف عن هذا الكتاب، لأنى لم أكد أمضى فى قراءته حتى شغفت به أشد الشغف، وأحببت أن أصل إلى غايته، وتمنيت أن تكون هذه الغاية بعيدة أشد البعد.

ذلك أن الكتاب سحرنى واستأثر بنفسى، نقلنى نقلة بعيدة جدا من بيئة الحياة الواقعية التى كنت غارقا فيها، ومن بيئة الدراسة الأدبية التى كنت مقبلا عليها، إلى بيئة غريبة بالقياس إلى أشد الغرابة، هى هذه البيئة الشرقية القديمة التى عاش فيها « إخناتون » ومعاصروه من المصريين وغير المصريين فى ذلك العالم القديم.

فالكتاب لا يصور الحياة المصرية فى عصر « إخناتون » فحسب، ولكنه يصور الحياة فى العالم الذى عرفه المصريون فى ذلك الوقت . فبطل الكتاب الذى يتحدث إليك حديثًا مباشرًا لأنه يقص عليك حياته، قد اضطر إلى أن يكون أخا سفر، جواب آفاق، فهو ينتقل فى مصر، ثم يتجاوز حدودها إلى فلسطين وسوريا، ثم يمضى إلى « بابل » ثم إلى جزيرة أقرطيش أو « كريت » .

وهو يعاشر حكام هذه البلاد كلها، كما يتصل بأهلها اتصالاً دقيقًا ، ويقص علينا من سير أولئك وهؤلاء، وأنبائهم، أطرافًا أيسر ما توصف به أنها تخلب وتروع.

ثم هو يتصل بالقصر المصرى، فيصوره لنا أدق تصوير وأخلبه ، وهو طبيب قد طلب الطب فى معبد « أمون »، فيصف لنا درس الطب وطلابه، ودقائق حياة الكهنة فى معابدهم، ودقائق الصلة بين الكهنة والقصر. ولست أدرى ماذا يرى العلماء الإخصائيون فى كل ما يقص علينا الكاتب من تاريخ مصر والشرق فى ذلك العصر؟!

وليس يعنينى أن يرضى العلماء عن هذا كله أو يسخطوا، ولا أن يعرفوا أو ينكروا؛ لأنى لم أقرأ هذا الكتاب ملتمسًا للعلم بالتاريخ، فللعلم بالتاريخ مراجعه ومصادره، وإنما قرأته ملتمسًا للمتعة الفنية، والروعة الأدبية، والبراعة فى الاختراع والابتكار وفى الوصف والتصوير، وفى القصص الذى ينتقل بك بين ألوان الفن فى غير مشقة ولا جهد، كأنه ينتقل بك بين صور من الحياة التى تحياها دون تكلف أو تصنع، إلا مايأتى من أنه يصور لك عصرًا بعيدًا أشد البعد عن عصرك الذى تعيش فيه.

وما أكثر ما تمنيت أن أرى مثل هذه القصة مكتوبة فى لغتنا العربية، مع أنى قرأت فى لغتنا لبعض أدبائنا قصصا مختلفًا قيما عن عصر « إخناتون » ، ولكنه لم يبلغ من السعة والدقة والتفصيل والتنوع والروعة ما بلغت هذه القصة.

وهنالك تمنيت أن أرى هذه القصة نفسها مترجمة إلى العربية ، كما ترجمت إلى غيرها من اللغات الحية الكبرى.

ولكنى لم أطمع في ذلك؛ لأن صاحب القصة فنلندى، قد كتبها في لغته الخاصة، وهى من اللغات الكثيرة التى لم يصل إلينا العلم بها.

ونحن قوم. أرادت ظروف التعليم في بلادنا أن نجهل أكثر اللغات الكبرى، فكيف باللغات التى لا تتجاوز حدود بلادها إلا قليلا بين حين وحين ؟!

لذلك كله. دهشت حين أقبل على ذات يوم، الأستاذ "حامد القصبى" ومعه ترجمة عربية لهذه القصة، نقلها من اللغة الإنجليزية الأمريكية.

دهشت؛ لأنى لم أكن أنتظر أن أراها في لغتنا، ودهشت؛ لأن الذى يحمل إلى ترجمتها مهندس، أنفق حياته في فنون الهندسة على اختلافها، وفى شئون وزارة الأشغال، له مشاركة حسنة في الأدب، ولكنى لم أكن أنتظر أن يفرغ لكتاب طويل عسير كهذا الكتاب، تحتاج ترجمته إلى الوقت وإلى الجهد العنيف الثقيل، فليس أشد عسرا من ترجمة الكتب الأدبية الرائعة .. ! وأسفت آخر الأمر؛ لأن الكتاب لم ينقل عن لغته الأولى نقلاً مباشراً، ولكن شيئًا خير من لا شيء .

وكان أشد ما راعنى – حين قرأت فصولا كثيرة من هذه القصة – أن اللغة التى نقل إليها الكتاب، ليست أقل جمالا، وروعة أداء، من التراجم الأخرى التى قرأت فيها الكتاب. وقد وفق المترجم إلى أن يحسن النقل إحسانا، لا زيادة فيه لمستزيد، وكأنه سبق المترجم الأمريكي إلى نفس الكاتب الفنلندى، فعبر عما فيها تعبيراً صادقًا دقيقًا، في لغة جمعت .. إلى الجزالة والرصانة .. عذوبة ورقة ويسرا. لا تجتمع لكثير من كتابنا المعاصرين.

فمن الحق – إذن – أن الأدب ليس مقصورا على الذين يفرغون له ، ويقفون حياتهم وجهودهم كلها عليه، وإنما هو شيء حر طلق، يستطيع أن يتجاوز أصحابه الذين أخلصوا له ذات نفوسهم، إلى المهندسين والأطباء وأصحاب الفنون المختلفة إذا

أتيح لهم أن يحبوا الجمال ويذوقوه، وأن يجمعوا إلى حب الجمال وذوقه، القدرة على أن يمنحوه من أوقاتهم وجهودهم بين حين وحين ما ينبغي له.

وقد أتيح هذا كله للأستاذ « حامد القصبي » ، فأهدى إليهم هذه الطرفة القيمة من الأدب الأجنبي، الذي يصور عصرا من أعظم عصور تاريخهم خطرا. فحق له عليهم أجمل الشكر وأصدقه، ما أراه يريد منهم جزاء ولا شكورا أكثر من أن يقرءوا ويستمتعوا وينتفعوا، عسى أن يكون لهم من ذلك ما يدعو بعضهم إلى أن يصنعوا مثل صنيعه، ويمتعوا مواطنيهم بطرائف الأدب الأجنبي، سواء أكان هذا الأدب قريباً منهم أم بعيداً عنهم، فما أشد حاجة مصر إلى هذا النوع من الإنتاج الخصب.

طه حسين

كلمة المعرّب

هذا الكتاب، الذى أقدمه لقراء العربية مترجمًا بلغتهم، من تاليف الكاتب الفنلندى «مايكا وولتارى» ، وهو كاتب من أعلام مؤلفى القصة فى العصر الحديث، وقد ذاعت شهرته فى بلاده وتجاوزتها إلى أوروبا وأمريكا، وكانت لآثاره الأدبية فى كل مكان من دنيا الأدب الرفيع روعة أخاذة ، وجاءت قصته التى ينطوى عليها هذا الكتاب من خير هذه الآثار ومن أجلاها دلالة على قوته وخصب بيانه، ولهذا لم تكد تظهر فى لغتها الفنلندية فى عام ١٩٤٩ حتى تدوولت تداولا سريعًا واسعًا فى مختلف المجتمعات الأدبية، وتبارى فى ترجمتها إلى اللغة الفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها من اللغات الحية الكبرى مشاهير الكتاب فى بلادهم حيث قرأها واستمتع بها ملايين القراء هنالك.

وقد أتيح لى أخيرا أن أقرأ هذه القصة باللغة الإنجليزية، فاستهوانى منها بادئ ذى بدء أن حوادثها تنبعث من مصر وتتدفق من ينابيع تاريخها القديم الزاخر، ثم استهوانى منها بعد ذلك تسلسلها الرائع الساحر، فعكفت عليها قراءة ، ثم عكفت عليها ترجمة، لأجلو بها لقراء العربية على العموم وللمصريين منهم على الخصوص، صفحات مشرقة من تاريخ مصر العظيمة، موشاة بجمال الفن القصصى البديع.

ولئن كان يسرنى أنى قد وفقت بهذا إلى استظهار بعض أمجادنا العريقة التى تجتذب قرائح الكتاب الأجانب وتستثير نشاطهم وإعجابهم ، فإنه ليسرنى كذلك، بل ليشرفنى أن أظفر على هذا الجهد المتواضع بذلك التقدير الكريم ممثلا فى كلمة أستاذنا الجليل، عميد الأدب العربى : الدكتور طه حسين.

إن هذه الكلمة التى تفضل بها مشكورا لتقديم ترجمة هذه القصة، تشعرنى بأنى قد فعلت شيئا يرضى عنه الأدب. ويرضى عنه الشعور الوطنى. وهذا خليق أن يشعرنى أيضا بأنى – وقد انقطعت صلتى بالخدمة العامة فى إطارها الرسمى – استطعت فى فترة فراغى أن أكون أوثق صلة بهذه الخدمة العامة فى أفقها الحر الرحيب. وحين يكون الأمر كذلك حقا، فإنى به لسعيد فخور.

وفى تقديم هذا الكتاب، يطيب لى – كمصرى – أن أقف حيال حوادثه القصصية الشائقة وقفة المتأمل فيما تنبئ به من عراقة مصر وسبقها فى تاريخ الحضارة البشرية، فلا شك أن المؤلف قد استهدى بهذا التاريخ فى نسج الكتاب وما أراه إلا مؤرخًا عصرًا من عصور التاريخ المصرى فى قالب قصصى، فما من شىء فى القصة إلا وله بالحقائق التاريخية صلة وارتباط. ومن هنا كانت أحداث القصة ومشاهدها تقريرًا للحياة المصرية القديمة، وتسجيلاً لما استوى لمصر فى تلكم الأزمان البعيدة من أمجاد عظيمة تقدمت بها على سائر الأمم والشعوب.

وقد ذكرنى هذا بما كنت قد قرأته – قراءة سريعة – منذ ربع قرن فى دائرة المعارف الإنجليزية للكاتب الإنجليزى المعروف « أرثر مى » فقد قرأت وقتئذ فى بعض فصول هذه الدائرة شيئا عن مدنية المصريين القدماء مقارنا بما كان عليه إذ ذاك حال غيرهم من الأجناس البشرية المتناثرة فى أرجاء الدنيا.

ذكرت هذا، وكانت قد أعجلتنى عنه شواغل العمل خلال تلك الفترة الطويلة فعدت إليه أقرأه مرة أخرى، فرأيت فيه حديثا يجدر بنا روايته فى عرض قصة الكاتب الفنلندى عن البطل المصرى « سنوحى » ولهذا فإنى ناقله فيما يلى لقراء القصة، إبرازًا للحقيقة التاريخية الكبرى التى يستشف المصريون فى ثناياها صورًا جميلة من ماضيهم المجيد .

قال الكاتب الإنجليزى « أرثر مى » :

« كانت جماعات وأقوام شتى من البشر تحيا، قريبا من دجلة والفرات، حياة ملؤها الخشونة، فلم يكن بينها إلا ما يكون بين الجماعات المتنافرة من الضراوة والتقاتل، والشر المقيم المتصل ».

« وفى ذلك الحين كانت هناك، فى مصر، جماعة بشرية أخرى تحيا حياة إنسانية متوادعة متوادة، ناعمة بالأمن والسلام ».

« هؤلاء المصريون كانوا – فى ذلك الوقت – مجتمعًا ممتازا، ففيهم تحرك العقل المنظم، واندفع بهم إلى ممارسة الحياة على أسلوب إنساني بعيد كل البعد عن وحشية الآخرين وهمجيتهم ».

« ويبدو أنهم كانوا كذلك ؛ لأن بلادهم كانت محصنة بالبحر والصحراء، فأمنهم هذا من تطاول الأعداء عليهم ، وأغناهم عن الاستعداد للقتال والتفكير فى رد العدوان، وبذلك شاع بينهم السلام، وفي ظله نمت عقولهم وانحسرت عنها غواشي الظلمات، فأخذوا يتأملون بها سر الوجود، وينسقون أسباب العيش ومصادر الحياة، وكانوا بذلك أقوى الأمم انبعاثا للحضارة الإنسانية، وأعرقها نسبًا إليها ».

« فبوحي عقلهم البشرى المتحرك المدرك، نثروا حبوب القمح على الطمي الذى كان يتخلف عن فيضان النيل فى مدى الشهور من يوليو إلى سبتمبر من كل عام، وساقوا عليها قطعان الأغنام تمكينا لها من الطمي الرخو، فقويت عناصر نمائها وثمرها بما يختلط من أرواث هذه الأغنام بالطين، فكانوا أول من اهتدى إلى النظام الزراعي على الأسس الكفيلة بوفرة الإنتاج ».

« ولقد زرعوا الفاكهة وصنعوا الحبال من البردى، وانداحت أمام تفكيرهم آفاق الخلق والإبداع، فنظموا وسائل الرى، وأقاموا الحواجز والمعابر، وأنشئوا لهم دورًا ومساكن، وتوسعوا فى ذلك، فكانت لهم أضخم البيوت والقصور مما لم يسبقهم إليه سابق ».

« وارتقى بهم العقل المستيقظ إلى البحث والتأمل فى مصدر الحياة وعلل وجودها، والقوى المتفاعلة فيها، وكان أول ما اتجه إليه تفكيرهم هو « النيل » ذلك النهر العظيم، فتساءلوا: كيف ومن أين يفيض ؟! وأية قوة هذه التى تدفعه فى دورة زمنية منتظمة، فيقبل عليهم جياشا، ويتدفق فى أرضهم غامرا حتى ليملأ الأودية ويعلو على الشطآن؟! .. وقالوا : إن هذه معجزة تجاوز طاقة الرجل الواحد، بل مجموعة الرجال، فالواحد منهم يستنفد قوته فى رفع الماء فى دلاء صغيرة لجزء محدود من الأرض جد قريب، فما بال هذا النهر يتعالى كأنه الجبال، وينحط من بعيد على الوادى الفسيح فيغمره من جميع أقطاره بالماء فى لحظاتٍ ؟! فليس الذى يفعل ذلك من البشر ، وليست قوته بالتى تقاس بقوتهم ! .. وانتقلت تأملاتهم فى ظاهرة النيل إلى التأمل فى أنفسهم وفيما يتصل بأنفسهم من حياة وموت، وصحة ومرض وشبع وجوع، إلى غير ذلك مما لم يكونوا يفكرون فيه من قبل، وأسلمهم هذا التفتح الذهنى الجديد إلى الاعتقاد بأن من وراء هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه قوة خارقة، هى فوق القوى جميعًا ».

"وكان لا بد من أن يصطلحوا على تعريف هذه القوة الخارقة ، فسموها إلها ! ورسموا لصلتهم بهذا الإله طقوساً تعبدية ، سموها ديانة ! .. "

« فهم أول من اهتدوا إلى إله، وأول من اشترعوا شريعة تقربهم إليه. وقد تساموا فى النظر إليه على الأرض، فراحوا يلتمسونه فى السماء، فكانوا دائمًا يرفعون رءوسهم إلى أعلى، ويديرون عيونهم فى الكواكب والنجوم والأفلاك، فزادهم إدمان النظر لها والتطلع إليها استنارة فكر، ويقظة عقل، وقوة روح. وشيئا فشيئا ربطوا بين السماء بكواكبها ونجومها وأفلاكها وسائر ظواهرها، وبين أحداث الأرض وتفاعلات الكون والناس كافة. وخلصت لهم من ذلك معتقدات دينية تتباين فى مراسمها ومسمياتها، ولكنها آخر الأمر تتحد فى لبابها وجوهرها، إذ ينتهى بها كل فريق منهم إلى إله يمثل القوة الخارقة المسيطرة على خلقه وأفعاله وحركاته ».

« ومن مظاهر تقريراتهم العقلية أنهم اعتقدوا أن من وراء قوى الطبيعة الهائلة، قوى أخرى أعظم منها، تسيرها وتؤثر فيها، فسموا هذه القوى غير المنظورة بأسماء يتعارفونها عليها للتأليه والعبادة والتمييز. فلقوة الخير عندهم إله اسمه « أوزوريس » ، ولقوة الشر إله اسمه « ست » وجعلوا لإله الخير « أوزوريس » زوجة أسموها « إيزيس » وابنا أسموه « حورأس » . فمن شاء منهم مرضاة « أوزوريس » وبلوغ الحظوة عنده، تقدم بالهدايا والقرابين إلى « إيزيس » وهكذا » .

وهذه وأمثالها مما زخرت به حياة المصريين القدماء ، قد لا تسلم من الخطأ لقيامها على الفروض والتخيلات، ولكنها – ويجب ألا ننسى هذا – كانت مقدمات التفتح العقلى، واجتهادا فى سبيل استكناه الحقيقة الكبرى، ولم يكن من سبيل سوى ذلك فى كشف سرها المجهول. ولم يشذ المصريون فى هذا عن سنة التطور، كما أن معتقداتهم هذه المفترضة أو المتخيلة لم تكن تبعد كثيراً عن الحقيقة المنشودة، فقد كانت فى القليل إرهاصًا لها وتبشيراً بها. ونحن نرى أن قوانين العلوم الثابتة بدأت على فروض متعثرة ومحاولات تجريبية قائمة على محض الإلهامات الغامضة. ومن أمثلة ذلك علم الفلك، فهو ثمرة النظر الشارد إلى النجوم، وكذلك علم الكيمياء، فهو وليد السيمياء. وفى سائر الأحوال لا تخلص الحقائق مستكملة العناصر إلا بعد محاولات شاقة يتخللها الشك والخطأ ».

« فمهما يكن من شأن معتقدات قدماء المصريين، فإن ثمة أمرا لا يمكن تجاهله وهو أنها كانت الطلقة الأولى فى اتجاه العقيدة الصحيحة التى انتبه إليها وسار فى طريقها من جاءوا بعد ذلك من عظماء البشرية. وقد استطاع عقل أولئك المصريين أن يرتبط مبكرا جدا بذلك العقل الكبير الكامن خلف قوى الكون وأن يلهمهم بأن لهم حياة أخرى بعد هذه الحياة، وأنهم محاسبون حسابا دقيقا أمام ذلك العقل الكبير عن أفعالهم فى حياتهم الأولى، حينما تتجرد أرواحهم من هياكلها المادية لتخلد هناك فى برازخ الأبدية، حيث تجزى أرواحهم بالخير خيرا وبالشر شرا. وبهذه العقيدة خطا

المصرى خطوة واسعة نحو المدنية الرشيدة التي جاءت مخاض إيمان صحيح وديانات سماوية قويمة » .

« وهذا الذى بلغه المصريون القدماء عن طريق العقل حينذاك، كان بلا ريب مشرق نور الحضارة الإنسانية فى عالم بدائى يعيش وسط ظلمات متراكمة ودياجير حالكة السواد، وهو أمر يرفعهم إلى القمة والصدارة من التاريخ البشرى المتحضر ».

« ومن الحق، تبعًا لذلك، أن يقال : إنه فى الوقت الذى كان أجدادنا يضطربون فى متاهات الهمجية والتوحش، وكانت هذه الجزر البريطانية أدغالا أو كالأدغال، تحيا على شريعة الغاب، وقوانين الظفر والناب، فى ذلك الوقت .. كانت معابد المصريين، وأهراماتهم الشاهقة، وآثارهم الرائعة، تنهض على عين الدنيا دليلا على مدنيتهم وحضارتهم. وعلى أنهم كانوا الشمس التى قبست منها كل أمة شعاعا من نور ».

« وكم هى جليلة مؤثرة تلك الإحساسات الروحية التى استشف بها أولئك المصريون القدماء قوة الإله، واستظهروا بها صلة الكون به، فاتخذوا منها - كما ينبغى أن يكون - منارة الحق والخير والسلام، ثم تداعوا إليها، وتنادوا بها، فكان دعاؤهم وتناديهم حفزا قويا إلى تخليص البشرية من الجهالة والبهيمية العمياء والتقدم بها خطوات واسعة إلى حظيرة الألوهية، وإلى الإيمان بالحياة الخالدة بعد الموت ».

« من أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح - أى من ضعف الزمن الطويل لحادث مولده السامى - كان المصرى ينحنى حتى يمس بجبهته تراب الأرض أمام هرمه الأكبر، متخشعا لإلهه الذى يتمثله متجليا فى هذا الأثر الرامز إلى القوة العتيدة.

وكثيرا ما كان يفعل ذلك فى كل ما يهيئ له وسيلة التعبير عن إيمانه بهذا الإله الذى يراه فوق صور البشر وأفعالهم ».

"فهؤلاء المصريون قد تقدموا جميع من جاءوا بعدهم ، فسلكوا سبيلهم، وإذا كان أولئك الذين جاءوا بعدهم قد حرروا آخر الأمر اتجاهات العقل الإنسانى من بقايا الخوف والخرافة، فالواقع أنهم إنما أتموا بفعل التطور العقلى ما بدأ المصريون به. فالسبق لا ينفك معقودا لهم - أى للمصريين - فى هذا المجال، والعالم كله - بلا مراء - مدين بالفضل لهم فى ذلك ».

« ثم إنهم - إلى هذا - يمتازون بخصال إنسانية .. قلما توافرت لغيرهم ، منها الانبعاث للعمل والكفاح فى أنحاء الحياة الشتى، فمهدوا الأرض وأثاروها واستنبتوا فيها الزروع المختلفة كالشعير والقمح والعدس والبصل والبقول والفاكهة، وأحسنوا تربية الأنعام واستكثروا منها، وغزلوا أصوافها ونسجوها واستعملوها لباسا لهم، واصطنعوا الصيد وأجادوه ودربوا عليه كلابهم وقططهم ، وغير ذلك كثير مما أفاء عليهم رغادة العيش ونمى فيهم ملكات الاستنباط والابتداع، حتى إنهم أجادوا علم الحساب. وهذه أهراماتهم الخالدة التى تثير الإعجاب على وجه الزمان، لم يكونوا ليستطيعوا تشييدها هذا التشييد العجيب المدهش، لو لم يكونوا قد حذقوا جيدا علوم الرياضة. وكذلك مدنهم الكبيرة العظيمة وهياكل معابدهم الهائلة التى تأخذ بألباب مكتشفيها ومشاهديها، فإنها أيضا من آثار أيديهم الصناع، ومجالى عقلهم المنظم الخصيب ».

« وجماع القول إن مصر كانت ذائعة الشهرة بعيدة الصوت فى أقطار الدنيا جميعا، وكانت ملتقى أسواق العالم، تتوافد عليها قوافل التجار والرحالة ومن إليهم من كل صوب وحدب، كما كانت السفن المصرية تجوب البحار فى كل الأراضين والأصقاع، وبهذا وبغيره من الثقافات والعلوم، كان لها السبق والتقدم على سائر الأمم والشعوب ».

وبعد .... فهذا إجمال ما سيراه القارئ مبسوطا مفصلا فى سيرة بطل قصتنا « سنوحى » . ونحن معشر المصريين أحرياء بأن نعتز به لقوة دلالته على ماضينا البعيد الجليل .

حامد القصبى

فبراير ١٩٥٥

قارب الغاب

- ١ -

أكتب هذا أنا « سنوحى » ابن « سنموت » وزوجته « كيفا » ، ولست أريد به تمجيداً لآلهة أرض « كيم » أو إشادة بأمجاد الفراعنة، فقد أجدبت في نفسي هذه المعاني، فسئمت الآلهة، وضقت ذرعا بأفاعيل الفراعنة.

ولا أكتبه عن خشية من حاضر، أو بأمل في مستقبل، فقد عشت ماعشت من حياتي. ورأيت وعرفت وفقدت الكثير، وراح كل هذا فريسة باطل طاغ مزعج.

إنما أكتب كتابي لنفسي وحدها، لا تحدوني رغبة في تخليد اسمي، فقد برمت بالخلود مثلما برمت بالآلهة والملوك مخالفا بذلك ما اصطلح عليه الكتاب الذين تقدموني، والذين يجيئون بعدي .

وقد أخذت في نظم حلقات هذا الكتاب بعد ثلاثة أعوام قضيتها بمنفاي على شاطئ البحر الشرقي (البحر الأحمر) ، حيث لا شيء غير سفن تروح عليه وتغدو إلى أرض « بنت » ، وغير هاتيك التلال المتراكمة يستخرجون منها أحجارا يصنعون بها تماثيل الملوك الذاهبين .

والحق أن الكتابة الآن هي لذتي الوحيدة في الحياة، بعد أن أصبح « النبيذ » مر المذاق على لساني، وزايلني الهوى إلى النساء، وعدت لا أحس متاعا في النظر إلى الحدائق ريانة الزهر، فواحة العبير، أو إلى الأسماك الجميلة الملونة سابحة في مسارب الماء، كما لم أعد أستشعر شيئًا من الطرب للغناء، فقد عافت أذناي نغم القيثار وألحان المزامير.

وهأنذا فى منفاى أجد من حولى ثرائى العريض، وأكوابى الذهبية، وأدوات العاج والأبنوس، وأعواد المسك نفاحة العطر، وها هم الأرقاء والحراس يهابون سلطانى ويحنون بين يدى هاماتهم حتى لتكاد تلمس الأرض إجلالا لمكانتى واحتراما لقدرى، ولكن ماذا أنا من هذا كله والقيود تحد خطاى، وتغلل إرادتى، ولا يؤذن لسفينة أن ترسو على شاطئ منفاى.

لقد استحال على أن أتنسم ريح الأرض الطيبة السوداء، ولو فى ليلة واحدة من ليالى الربيع ..

كان اسمى منقوشا فى سجل فرعون الذهبى، وكان مكانى دائما إلى يمينه، وآرائى تعلو فى أهميتها آراء الكبار المقدمين من أهل أرض « كيم » .

وكان النبلاء يجزلون لى عطاياهم وهداياهم، كما كان عنقى يزدان بالقلائد الذهبية ذات البريق الأخاذ، وكنت من هذا كمن أوتى أقصى ما تهفو إليه النفس، ولكن طبيعة البشر مسرفة فى مطامعها نزاعة إلى المزيد من شهواتها، ومن هنا بقيت كما كنت ! ..

لقد أبعدت من « طيبة » إلى هذا المنفى فى السنة السادسة لحكم فرعون « حور محب » محكوما علىّ بالقتل إن جاوزت أو حاولت مجاوزة النطاق المحدد لإقامتى، هكذا قضت مشيئة فرعون الملك الذى كان صديقى يوما ما .

وإنه حينما أبدأ فى شرح قصتى، لتند عن قلبى صرخة الألم الممضى الذى يغمرنى بالمنفى، فإن من ارتوى مرة من مياه نهر النيل، ليظل دائم التحنان إليه والتلهف عليه . ولو انتهل أعذب مياه أنهار العالم، لما ابتردت بذلك كبده الحرى الظامئة.

وهذه ثروتى الطائلة، أعطيها عن طواعية وكامل رضا، لمن يمكّن لقدمى فى أن تعود فتطأ ولو مرة واحدة، أرض (كيم) الطيبة. وإنى لأتمنى لو استبدلت بأثوابى

التيلية التى يرفل فى مثلها النبلاء جلد عبد مسترق، لقاء عودتى لأستمع إلى حفيف رياح الربيع وهى تهب رخاء على أعشاب النيل ..

كم كانت أيام شبابى مونقة صافية .

وكم كانت جميلة ممتعة .. حماقات الشباب.

ألا ليت الشباب يعود يوما ... لأشكو إليه أفاعيل المشيب.

وليت (أمون) يبحر من الغرب إلى الشرق، ويخترق السموات العلى، ليرد علىّ ما أدبر من شبابى ..

ولكننى، مع هذا، لن أستطيع أن أبدل مما فعلت فتيلاً، ولن أقدر على نقض شىء مما أبرمت .

إذن، فهلم أيها القلم، يا حليفى وصديقى ومؤنسى فى الشدائد، لتعيد إلىّ على صفحات البردى الناعمة .. ذكريات شبابى وحماقاتى .

- ٢ -

كان « سنموت » الذى أدعوه أبى، طبيبا لفقراء « طيبة »، ولم يعقب من زوجته « كيفا » إلى أن وافيتهما وهما عجوزان ، ولفرط سذاجتهما حسبانى هبة من الآلهة، غير مستشعرين شيئًا مما ستصيبهما به هذه الهبة فى المستقبل .

وقد أطلقت علىّ « كيفا » اسم « سنوحى » على اسم بطل إحدى الأساطير التى كانت مولعة بالاستماع إليها ، ظنا منها أنى جئت ناجيا من خطر، كذلك البطل الذى سميت باسمه. ففيما ترويه الأساطير، أنه قد تناهى إليه عرضًا - وهو فى خيمة فرعون - سر خطير ، ففر هاربا وعاش عدة أعوام حاشدة بالمغامرات فى بلاد أجنبية.

وكانت « كيفا » – في براءتها – وهي تختار لي هذا الاسم ... تأمل أن أتخطى به الأخطار وأن يكون عاصمي من سوء الحظ . وقد كان كهنة « أمون » يتخذون من الاسم فالاً لصاحبه. وما أدراني فلعل هذه التسمية هي التي جرتني إلى ما لقيت من الأخطار ودفعتني إلى ألوان شتى من المغامرات، وقذفت بي إلى بلاد بعيدة، وربطت بيني وبين أسرار مخيفة تتصل بالملوك وزوجاتهم وتحمل لي الموت في ثناياها حتى انتهت بي آخر الأمر إلى ما أعاني من النفي والشراد .

على أني كنت أحسب من البلاهة موافقة « كيفا » في اعتقادها أن للاسم أثرا في مقدرات الإنسان. أترى لو سميت « خفرع» أو « خفرو » أو « موسى » كان يحدث لي غير ما حدث ؟! لا أظن ذلك .

ومهما يكن من أمر الأسماء ومسمياتها فالواقع أن « سنوحي » أصبح طريدا منفيا، في حين قد توج « حب » الذي يدعي بابن الصقر تحت اسم « حورمحب » ملكا على المملكتين العليا والسفلى، وحمل فوق رأسه التاج الأحمر والأبيض . فلندع ... إذن .. لكل إنسان تقديره الخاص للأسماء ومميزاتها وما قد ينطوي عليه هذا التقدير من عزاء فيما يقع من شرور الحياة ومفارقاتها .

ولقد ولدت في عهد حكم الملك العظيم « امنحوتب الثالث » مقدورا أن أكون مجهول المنبت، محروما من الاستمتاع بحقوقي، ثم يشاء القدر أن يقع بعد مولدي بقليل مولد آخر تهتز له جنبات القصر الملكي فرحا وابتهاجا، فتقام له هنا وهناك معالم الزينات ومجالي الغبطة والسرور ، ويتقدم الملك من أجله بالقرابين إلى « أمون » في معبده ، ويهرع الشعب، متنافسا، إلى مشاركة مليكه في فرحه وابتهاجه ، ذلك لأن الملكة « تايا » التي ظلت اثنين وعشرين عاما تتوسل إلى الآلهة أن ترزق مولودا ذكرا، قد وافاها أخيرا ذلك المولود المنشود، فنودي به وليا للعهد بعد إتمام مراسم ختانه بوساطة الكهنة .

لم يكن هذا الولي للعهد قد ولد حتى الربيع، وهو موسم الحصاد، في حين أني ولدت في الخريف المتقدم عليه عندما بلغ فيضان النيل ذروته، وبقي يوم مولدي

مجهولا؛ لأنني وسدت قاربا من الغاب مطليا بالقطران، ومضى به تيار نهر النيل، حتى اكتشفته أمي « كيفا » وسط حشائش الشاطئ على مقربة من عتبة دارها، وكانت الطيور ساعتئذ تهوم فوقي، وقد بدوت لأمي ساكنا بلا حراك حتى ظننتني ميتا، ولكنها عندما نقلتني داخل دارها أخذت توقد النار حولي لتمدني بالدفء والحرارة وراحت تنفخ في فمي حتى ظهرت على أمارات الحياة من جديد .

وما لبث أبي « سنموت » أن رجع إلى داره بعد فراغه من زيارة مرضاه حاملا معه بطتين ودقيقًا، فسمع صراخًا خيل إليه أنه مواء هرة جاءت بها زوجته، فأوشك أن يؤنبها على ذلك لولا أن عاجلته ببشرى عثورها على المولود الذى بعثت به إليهما الآلهة.

ولم يبد أبي ارتياحا لذلك بادئ الأمر ، ولكن « كيفا » حملتني إليه فحركت فيه عاطفة الإشفاق على مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة ، ومن ثم اتفقا على أن يتخذاني ابنا لهما، وأذاعا بين الجيران أن « كيفا » قد ولدتني .. ولست أدرى كيف جازت عليهم هذه الأكذوبة السافرة .

بيد أن « كيفا » حرصت على أن تحتفظ بالقارب الذى حملني إليها ورفعته معلقا بالسقف فوق فراشي. وذهب أبي لفوره إلى المعبد، يحملني على إناء نحاسي ليقيد اسمي هنالك في سجل المواليد باعتبارى ابنه من زوجته « كيفا » . وتولى هو عملية ختاني؛ لأنه ، كطبيب لا يطمئن إلى آلات الكهنة غير المعقمة، والتي كثيرا ما تنشأ عنها جروح معدية، ذلك إلى أنه قد وفر ما كان سيدفعه أجرا للكهنة وهو أحوج إليه منهم. فطبيب الفقراء لا يمكن أن يكون إلا فقيرًا كذلك .

كانت هذه المعلومات تتساقط على سمعي في الفينة بعد الفينة، خلال أحاديث وعبارات بريئة يدور بها لسان أبي أو أمي، في مناسبات مختلفة،غير أني في طور طفولتي لم أكن أشك أبدا أن « سنموت » و « كيفا » أبواى حقا. فعشت تلك الفترة في ظلهما سعيدا لا تكدر الأيام صفو حياتي .

وما كاد عود شبابى يزدهر، وأصبح فتى يافعا مقصوص الشعر. حتى أخذ أبواى يظهراننى على حقيقة أمرى مجردة من الشك ، فهما يخشيان الآلهة ويقدسانها، ولا يرى أبى- بخاصة - أن ثمة خيرا فى أن أعيش حياتى جاهلا هذه الحقيقة.

وحينئذ ساورنى القلق والحيرة، فمن أنا ؟ ! ومن أين جئت ؟ ! ومن يكون أبى وأمى؟! ذلك ما لم أتبين سره الدفين إلا فيما بعد .

ولم يغب عنى - وأنا فى عراك الحيرة بينى وبين السر المجهول - أننى لست الوحيد الذى ساقه القدر محمولا على قارب من الغاب يدفعه تيار مياه النهر . « فطيبة » بقصورها ومعابدها كانت مدينة عظيمة، وكانت الأكواخ التافهة المبنية باللبن التى يسكنها الفقراء تنتشر بكثافة ملحوظة حول الأبنية الفخمة والدور المنيفة، وكانت مصر أيام الفراعنة العظام تحكم بقوتها وثروتها عدة شعوب مختلفة العادات والتقاليد، فكان التجار والصناع من أهل تلك الشعوب يقبلون على « طيبة » ويستقرون بها ويقيمون فيها المعابد لآلهتهم، وفى هذا المجتمع الزاخر المتباين، كان ثراء أصحاب القصور والمعابد، يتحدى فى سعته وكثرته، بؤس الفقراء والمساكين الذين كان الكثيرون منهم، لشدة إملاقهم، يتخففون من أطفالهم فيسلمونهم إلى النهر، عند ولادتهم ، فى قوارب من الغاب. كما أن كثيرات من زوجات الأغنياء الذين تطول أسفارهم كن يتخلصن من خطيئاتهن بهذه الطريقة.

ربما كنت واحدا من هؤلاء الأطفال، أو قد أكون ضحية الفقر والإملاق، وقد أكون خطيئة زوجة تمثلت طفلا! ..

لقد وضعت « كيفا » خصائل شعرى المقصوص فى صندوق خشبى صغير، وفى هذا الصندوق نفسه وضعت « الصندل » الذى كان فى قدمى يوم ساقتنى المقادير إليها .

إنى لأنظر كثيرا إلى قارب الغاب، وأطيل النظر والتأمل فى دعاماته المحطمة وعقده المتشابكة ولونه الذى أعتمه دخان الموقد، فلا يزيدنى ذلك إلا إبهاما وحيرة، ولا أجد فيه بصيصا من نور أهتدى به إلى أبى وأمى، وقومى وأهلى .

وكان هذا هو الجرح الأول الذى أصاب قلبى وأدماه .

- ٣ -

عندما يتقدم عمر الإنسان، تحلق روحه كالطائر فى سماء طفولته البعيدة، لتجمع إلى حاضره ذكريات ماضيه، والناس جميعا فى ذلك سواء، لا فرق بين أغنياء وفقراء، وأحسبنى راضيا عن حاضرى فيما عدا بدوات قليلة كنت أتمنى ألا تكون.

كان أبى « سنموت » يقطن فى حى كثير الأوساخ دائم الصخب والضجيج يقع بالجانب القبلى من أسوار المعبد، ويقوم على مقربة من داره مرفأ السفن الجارية فى النيل حيث تلقى أحمالها، وتزدحم الأزقة الموصلة إليه بالحانات ودور المباذل واللهو الرخيص يرتادها البحارة ورجال التجارة، ويفد عليها أصحاب الثراء من أقصى المدينة على محفاتهم التى يحملها الأرقاء .

وجيراننا من جباة الضرائب وربابنة السفن وضباط الصف والكهنة من المرتبة الخامسة كانوا كأبى، يعتبرون من الطبقة المحترمة التى ترتفع عن عامة الشعب بمقدار ارتفاع الحائط عن سطح الماء .

أما دارنا فكانت رحبة فسيحة بالقياس إلى أكواخ الفقراء الطينية التى تتكاثف فى الأزقة الضيقة وتتغشاها الكآبة. ولهذه الدار حديقة صغيرة تتوسطها شجرة الجميز الذى يسمى « تين فرعون » وهى من غرس أبى، ويحد الحديقة من ناحية الطريق سور من أشجار السنط وبها حوض بنائى لا يملأ بالماء إلا وقت الفيضان. ويتألف مبنى الدار من أربع غرف إحداها لطهى الطعام الذى كنا نتناوله فى شرفة

متصلة بغرفة عيادة أبى الطبية، وكانت تتردد علينا خادم مرتين خلال الأسبوع لتعاون أمي في تنظيف البيت، وفي يوم واحد من أيام الأسبوع كانت إحدى النساء توافينا لتحمل ملابسنا إلى شاطئ النيل لتغسلها بالمكان المخصص لذلك .

وفى هذا الحى الذى يصطخب شغبا، والذى كان مسرحا لتفاهات الحياة التى يحياها أهله وبينهم أخلاط من الأجانب، كان أبي وجيرانه يحرصون على التمسك بالتقاليد والعادات الكريمة حتى في الوقت الذى جافت فيه الطبقة الراقية بالمدينة هذه التقاليد والعادات وانحرفت عن جادتها. ولعل أبي ورفاقه وأهل طبقته قد قصدوا من وراء ذلك إلى تمييز سلوكهم وسيرتهم عن أولئك الذين يتصلون بهم بأسباب الحياة والعمل .

ولكن مالى أعرض لهذه الأمور، وهى التى كانت ترسم لى فى غمار طفولتى صورا بلهاء ساذجة، فلم أتبين مكنون أسرارها إلا بعد أن شببت عن الطوق، واستوت عندى ملكة الفهم والإدراك ؟ !

إن فى ذكريات هذه الطفولة يطيب الآن حديثى، أكثر من أى شىء آخر، عن شجرة الجميز .. ذات العقد الكثيرة ، التى كنت أجلس إلى جذعها لأحتمى بوارف أغصانها من لفحات الشمس المتقدة، وعن تلك اللعبة الخشبية الجميلة التى تصور تمساحا يفغر فاه ويلوح بين فكيه بلعومه الأحمر، فأجره ورائى مسحوبا بخيط رفيع وأمضى به فرحا مزهوا على الطريق المرصوف. لقد كان أترابى من أطفال جيرتنا لا يقلون عنى ولعًا بهذه اللعبة الطريفة التى تهيئ لهم أن يعبثوا بالتمساح الذى يخشاه فى دنيا الحقيقة أشداء الرجال .. ولم يكن باستطاعتهم أن يفوزوا بمثلها فقد كانت لعبة الأطفال من الطبقة الراقية، وقد أهداها لأبى نجار القصر الملكى لقاء إبرائه من دمل كان يوجعه ويمنعه من الجلوس ... وكنت أعرف ، لتفردى بها بينهم ، مقدار قيمتها عندهم، فلم أكن أسمح لهم باستعمالها إلا إذا منحونى الكثير من الحلوى والأحجار اللامعة وقطع النحاس البراق .

لقد كانت أمى فى الصباح تصحبنى معها وهى ذاهبة إلى سوق الخضر، وقد تعودت أن أراها تستعرض الأشياء وتطيل النظر إليها متأملة فاحصة، حتى لتقضى ساعات فى ابتياع حزمة من البصل، فإن كان الأمر متعلقا بشراء حذاء جديد فلا أقل من أسبوع تقضى صباح كل يوم فيه متنقلة بين الحوانيت إلى أن يستقر رأيها على شرائه، وكانت تقول : إن الناس يظنونها ثرية لا تشترى إلا القليل الذى ينال إعجابها. وطالما كانت تردد على سمعى أنها لا تحاول أن تقتنى دائمًا كل ما يروقها لتلهمنى عادة الاعتدال فى الحياة .. ومن رأيها على أى حال أن الغنى ليس بالمال وما إليه من مظاهر الثراء، وإنما الغنى الحقيقى هو غنى النفس والرضا بالقليل، وكانت تؤكد لى وهى تنظر إلى المنسوجات الزاهية الألوان المستوردة من « صيدا » و « بابل » أنها لا تعدل نسيج بلادها العادى ولا ترقى إلى مستواه جودة وأناقة، وما أكثر ما كانت تصف بالغرور والسفه أولئك الذين ينفقون أموالهم فى اقتناء ريش النعام والآنية العاجية ... وهكذا كانت تذهب معى فى التعبير عن فلسفة القناعة والحث عليها .. ولكن فى سمع الطفولة صممًا لا يصغى إلى تلك النصائح والتوجيهات، بل إنه ليتمرد عليها ويجرى فى غير سبيلها . ولذلك طالما تمنيت لو أن لى قردا كذلك الذى يلف ذراعيه حول عنق صاحبه، أو طائرا بريشه الجميل الزاهى الألوان يتصايح بكلمات من السورية حينا ومن المصرية حينا آخر، ولماذا لا أتحلى بالقلائد الذهبية وأنتعل الصنادل المطعمة بالذهب ؟!..

على أنى لم أعرف إلا أخيرا أن (كيفا) المسكينة كثيرا ما التاعت بحسرة العجز والحرمان، وكثيرا ما تمنت الغنى والثراء، بيد أنها كزوجة طبيب فقير كانت تخفف من حنينها إلى الثروة، وتحد من تحسرها عليها، بما كانت تدأب على روايته من القصص والأساطير إحياء للأمل فى المستقبل المجهول.

وفى المساء، عندما نأوى إلى فراشنا ، كانت لا تفتأ تردد على سمعى، بالصوت الخفيض، قصص الأبطال والآلهة والملوك ، فسمعت منها قصص « سنوحى » الذى سميت باسمه، والرجل الذى تحطمت سفينته فى اليوم وعاد رغم ذلك بالثراء الطائل،

وقصص الآلهة والأرواح الشريرة والسحرة والفراعين القدماء. وكانت كلما أغربت في هذا القصص وأوغلت فيه أشعر برغبة متجددة في الاستماع والتكرار، وكان هذا يروقها فتمضي فيه. ولكن أبي في بعض الأحيان كان يفجؤنا باعتراضاته، مبديا خشيته من أن تحشو زوجته رأسي بالخرافات. وكنت في نفسي أنكر عليه. هذه المداخلات؛ لأنها كانت تقطع علينا ما كنت ألقاه في قصص أمي من لذة وسلوى وبخاصة في ليالي الصيف المؤرقة.

وإن أنس لا أنسى ذلك الحنان السخي الذي كانت تضفيه على أمي « كيفا » ، وما أحسبني كنت أظفر بمثله من أمي التي ولدتني ... حقا لقد كانت أمي « كيفا » امرأة عطوفا طيبة القلب، حتى ما كانت لتبخل بعطفها وكرمها على أولئك الغرباء من القصاصين ورواة الأساطير الذين كانوا يتواردون عليها ، فيجدون عنده عشاء طيبا وتحيات لطافا.

وكما كانت أقاصيص أمي تسليني وترويني، كانت الجلبة الدائمة في الشارع، والروائح الكريهة المتطايرة منه، وأسراب الذباب المطوفة به، تضايقني وتؤذيني وتكدر صفو خيالي.

غير أنه بين أونة وأخرى كانت تهب علينا رياح مقبلة من المرفأ حاملة عبق أشجار السدر وأعواد المسك وأنفاس العطور التي تتضمخ بها الغانيات السانحات بالشارع على محفاتهن فوق رءوس الأرقاء ، فتتفتح بذلك نفسي المكظومة وينشرح صدري المنقبض ..

وفي كل مساء حينما كان قارب « أمون » الذهبي يتوارى خلف التلال الغربية، كانت تتصاعد من أكواخ الفقراء القريبة منا ريح شواء السمك والخبز الطازج، وكنت في طفولتي أستطيبها، وإني لأتشممها الآن ولا أزال أستروحها.

وقد تلقيت الومضة الأولى من ثقافتي التعليمية في شرفة منزلنا، حيث بدأ أبي يتعهدني ويدارسني بعد تناول الطعام ، ثم درجنا على ذلك .

وكان أبى يهل علينا من حديقة المنزل عائدا من زيارة مرضاه أو خارجا من غرفة عيادته، ورائحة العقاقير الطبية النفاذة تنبعث من ملابسه، فتخف أمى إلى لقائه، وتصب الماء على يديه، ونجلس معا لنتناول الطعام فى حين تظل أمى ناهضة على قدميها لخدمتنا . وكثيرا ما كانت تمر أمامنا جماعات من البحارة الثملين فيضربون حوائط المنازل بعصيهم ويقف من يشتد بهم الثمل ليتجشئوا ما فى أجوافهم بجانب أشجار سور منزلنا. وكان أبى ، فى هدوئه ورزانته، لا يقول شيئا حتى يمضوا ، فيلتفت إلى ويقول : لا يمكن أن يكون هؤلاء إلا رعاعا، فالمصرى المهذب يتخفف من جوفه المثقل بالخمر بعيدا فى إحدى الخرائب، لا هكذا قريبا من الدور والأسوار، والنبيذ هبة من الآلهة إذا اعتدلنا فى تعاطيه، وقدح منه لا يضر أحدا، وقدحان يحلان عقدة اللسان، وأكثر من ذلك يضل شاربه ويستلب لبه، ويلقى به على قارعة الطريق ، فإن أفاق بعد ذلك وجد نفسه مضروبا منهوبا.

وقد يحدث ونحن جالسون بشرفة منزلنا أن تتسلل إلى أنوفنا روائح معطرة، تنفضها حسناء تمشى بالشارع متثنية متدللة بملابسها الرقيقة التى تشف عن محاسنها وتجلو مفاتنها، وعلى خديها وشفتيها وحاجبيها قشرة من التمويه الملون الدقيق، وفى عينيها بريق أشد إثارة وفتنة، وأبعد ما يكون من معنى الفضيلة. فإذا ما وقع عليها نظرى أخذتنى من جمالها غشية المفتون، فينبهنى أبى قائلا: إياك - ياولدى - والمرأة التى تستميل بمثل ما ترى مشاعرك ، فحبائل المرأة مصيدة للرجال وجسمها يحرق أشد مما تحرق النار.

فلم يكن عجيبا بعد تلك التعاليم والنذر التى لقنتها فى طفولتى أن أشب وجلا من الخمر خائفا من الحسان، ولو أنهما - كليهما - ما برحا فى غمر من الغموض جعلهما أكثر إثارة للفكر وأقوى سيطرة على العاطفة.

وسمح لى أبى - وأنا ما أزال صغيرا - أن أشهد استشاراته الطبية وأستمع إلى تشخيصه لأدواء مرضاه، ثم كشف لى عن آلاته الجراحية من مشارط وملاقيط وقوارير دواء شارحا لى وسائل استعمالها. وطاب لى أن أكون إلى جانبه وهو يفحص

المرضى ويعالجهم ، فأناوله أواني المياه الساخنة والضمادات والزيت والنبيذ، ولم تكن أمي تطيق رؤية الجروح، فكانت تعجب من هوايتي هذه، ولكن الطفل عادة لا يقدر الآلام والأوجاع حتى يجربها بنفسه، وكنت إذا أتيحت لي رؤية جراحة بسيطة لفتح دمل أو نحوه أروح أروي خبرها لرفاقي في فخار طمعا في نيل احترامهم.

وفي عناية واهتمام كنت أتابع أسئلة أبي لمرضاه وهو يتولى الفحص عما بهم ، فإذا انتهى من هذه المهمة سمعته يقول : هذا المرض قريب من الشفاء ، أو يعبر عن اطمئنانه قائلا لمريضه : سأتولى علاجك .. وفي حالات يأسه من برء المريض كان يكتب له بضعة أسطر على ورقة البردي ليذهب بها إلى « دار الحياة » بالمعبد . فإذا غاب هذا المريض عن نظره تنهد وهز رأسه وقال : مسكين هذا المخلوق ! ..

ولم يكن مرضى أبي كلهم من الفقراء المعوزين، بل كثيرا ما كان يقدم عليه رواد بيوت اللهو والمباذل بملابسهم التيلية الفاخرة ليضمد لهم جراحا أصيبوا بها خلال منافراتهم العابثة، كما كان يقدم عليه أصحاب السفن من السوريين لعلاج أسنانهم. وقد أقبلت على عيادة أبي سيدة في أبهى زينتها متحلية بحليها الذهبية وأحجارها الثمينة ، تلتمس عنده الشفاء من علتها التي كانت تشكو متوجعة منها، وكان أبي يستمع إليها في انتباه شديد ، ولما فرغ من تعرف ما بها تناول القلم ليكتب على ورقة البردي، فعندئذ خاب أملي في أن يعالجها بنفسه لتؤجره أجرا مجزيا، وفي حركة غير إرادية تنهدت وهززت رأسي قائلا : مسكينة هذه المخلوقة ! فما كادت هي تسمع ذلك حتى ارتجفت وحدقت في أبي قلقة ، غير أنه مضى يكتب سطورا باللغة القديمة، ثم جاء بوعاء خلط فيه الزيت بالنبيذ، وألقى في هذا المخلوط بورقة البردي وظل يديرها ويقلبها حتى اصطبغ السائل بلون المداد الذي كتب به السطور، وبعد ذلك أفرغ السائل في زجاجة ناولها إياها وطلب إليها أن تتجرع منه كلما أحست ألما في رأسها أو أمعائها. وعندما انصرفت السيدة نظرت إلى أبي الذي كان بادي الارتباك، فتنحنح مرة أو اثنتين وقال : إن كثيرا من الأدواء يعالج بالمداد ! ألسنا نكتب به

الأدعية المستجابة ؟ ثم استمر يتمتم كأنما يخاطب نفسه : على أية حال فإن هذا الدواء لن يحدث ضررا.

ولما بلغت السابعة من عمرى ألبستنى أمى مئزرى وأخذتنى معها إلى المعبد لنشهد تقديم القرابين إلى الآلهة، وكان معبد « آمون » فى (طيبة) أهم معابد مصر كلها، وكان الطريق المؤدى إليه من بحيرة آلهة القمر يخترق المدينة وتقوم على جانبيه رءوس الكباش وتماثيل أبى الهول، وكانت تحيط بالمعبد أسوار من الحوائط السميكة، وهو يلوح كأنه مدينة داخل المدينة لكثرة ما يعمره من بنايات وأبراج تخفق فوقها الأعلام الملونة، وعلى أبوابه ومداخله النحاسية تقوم تماثيل الملوك الضخمة.

فلما اجتزنا الباب الذى دلفنا منه إلى الداخل أحاط بنا بائعو كتب الموتى وأخذوا يعرضون علينا كتبهم فى إغراء، حتى لقد كانوا يجذبون ثوب أمى إمعانا فى رغبتهم الملحة لتشترى منهم شيئا، ولكنها تخلصت منهم ومضت بى إلى حيث يصنع النجارون من الأخشاب تماثيل الأرقاء والخدم لتكون ، بعد رسامتها بوساطة الكهنة ، فى خدمة أصحابها بالدار الثانية، وليكون لهم بها غناء عن خدمة أنفسهم بأنفسهم ..

ودفعت أمى الإتاوة المقررة لتشهد بعض الكهنة وهم بملابسهم البيضاء يقدمون القرابين للآلهة . فرأيناهم حينئذ يذبحون بأيديهم الصناع الماهرة ثورا ويشطرونه أربعا، بعد أن ألصقت بين قرنيه ورقة بردى تشهد بأنه مبرأ من العيوب، وليست به شعرة بيضاء واحدة ، وكانت أجسامهم مكتنزة وتعلو وجوههم سمات القداسة ، ورءوسهم حليقة عارية اكتسبت بدهن الزيت لمعانا، وهم مسترسلون فى أحاديثهم الخاصة بعضهم مع بعض لا يعيروننا التفاتا، نحن النظارة وشهود الاحتفال، وكنا نحو مئة، وكنت فى شغل بما يقع عليه نظرى خلال ذلك من الصور الحربية المنقوشة على الجدران. وقد هالتنى بخاصة ضخامة أعمدة المعبد، ولم أفطن بعد هذا إلى السبب الذى حرك عواطف أمى وأعجلها لتأخذ بيدى عائدة إلى المنزل والدموع تنحدر على خديها .

فور وصولنا إلى المنزل أبدلت أمى حذائى الذى كنت أحتذيه بصندل أتعبنى بادئ الأمر ثم ما لبث بالمران والاستعمال أن أصبح مريحا.

وبعد أن تناولنا غداءنا جعل أبى يمسح على رأسى بحنان وعطف، وقال لى وعلى وجهه أمارات الجد : إنك الآن « يا سنوحى » فى السابعة من عمرك، فعليك إذن أن تختار الحرفة التى تتعلمها، ويكون عليها اعتمادك فى مستقبل أيامك.

فأجبت على الفور : أريد أن أكون محاربا .. قلتها عن رغبة صادقة متفاعلة فى نفسى، فلم يكن فى تقديرى ما هو أفضل من حياة المحارب. وقد كانت آثر الألعاب وأحبها عند رفاقى وعندى هى التى تمثل أدوات الحرب وتتصل بمعانيها، ولطالما شاهدت الجنود وهم يهيئون أنفسهم فى غبطة لحمل أسلحتهم أو التدرب عليها أمام ثكناتهم. وكانت تبهجنى مشاهد العجلات الحربية وهى تتسابق إلى خارج المدينة للقيام بمناوراتها، وأكثر من ذلك فى إيثار الجندية أنها لا تشترط فى الجندى أن يتعلم الكتابة، وكنت أخشى هذا التعليم وأتهيبه ، فما أكثر ما كان الأولاد الذين يكبروننى سنا يذكرون الحكايات المخيفة عن صعوبة فن الكتابة وقسوة المعلمين فى شد شعر رءوس التلاميذ الذين تنكسر ألواحهم الطينية أو أقلامهم التى لا يحسنون ضبطها بين أصابعهم.

وقد بدا على أبى أنه لا يوافقنى فى هذه الرغبة، ولكنه كان يدرك مقدار تأثرى بأفكارى وإصرارى عليها، فلم يشأ التعليق على رأيى ، وإن كنت أحسست بشىء من خيبة الأمل.

لقد كان أبى ذا تجربة أفاد منها الحنكة والحكمة ، ولعله لم يكن رجلا موهوبا، وإلا فقد كان من الممكن أن يكون فى خير من مركز طبيب الفقراء. غير أنه رغم ذلك كان رجلا ممتازا بتجاربه وحسن قيامه بواجبه ، فهو، وقد سكت دون أن يعقب على جواب سؤاله ، يبدو كأنه لا يوافق على رأيى ، وهذا ما لا يطمئن له خاطرى .

على أنه تناول وعاء فملأه نبيذا رخيصا يحتفظ به في غرفة عيادته، وطلب مني أن أتبعه، فذهبنا معا إلى شاطئ النهر ووقف بي عند المرفأ ، فرأينا الحمالين يفرغون حمولة سفينة كبيرة على الرصيف.

كانت الشمس وقتها تنحدر إلى مغيبها خلف التلال الغربية حيث مدينة الموتى، ولكن هؤلاء الحمالين كانوا مع ذلك يتفصدون عرقا للإجهاد المضني الذي يكابدونه في عملهم تحت السياط التي تنهال فوق ظهورهم من المشرف عليهم، في حين كان الكاتب جالسا على مقعده يرصد في الورق بيان البضائع التي يفرغونها.

وهنا التفت أبي إلى وسألني قائلا : هل تحب أن تصبح واحدا من هؤلاء ؟

فحدقت النظر في وجهه دون أن أقول شيئا . وخيل إلى أنه سؤال بالغ السخف ، فمن ذلك الأبله الذي يقبل راضيا أن يكون كهؤلاء الحمالين المعذبين ؟

ولكن أبي استطرد قائلا : لقد اخشوشنت جلودهم حتى صارت كجلد التمساح، وتضخمت قبضات أيديهم حتى صارت كذلك كأقدام التمساح، وهم يعنون أنفسهم بالعمل حتى تدركهم الظلمة المتكاثفة فينقلبون إلى أكواخهم الحقيرة زاحفين ، ليتبلغ كل منهم بكسرة من الخبز الجاف وقطعة من البصل الحار ويبل فمه بشراب خفيف من الجعة كالعلقم مذاقا. هذه هي حياة الحمالين ، وشبيهة بها تماما حياة الفلاحين وغيرهم ممن يكسبون قوتهم بأيديهم الكادحة، فهل تراها حياة يحسدون عليها ؟!..

فهززت رأسي مستغربا، وظللت أنظر إليه في دهشة ! .. فما هذا الذي يقول ؟ ! ..

لقد اخترت أن أكون جنديا ... ولم أختر أن أكون حمالا أو زارعا أو راعيا ....

وفي طريقنا عائدين من المرفأ قلت له : يا أبت ، إن الجنود أسعد حالا . إنهم يعيشون في ثكنات نظيفة، ويطعمون طعاما جيدا طيبا، وإذا جن الليل انطلقوا إلى بيوت اللهو والتسلية يشربون بها النبيذ ، وتضاحكهم الغانيات، ويتقلد رؤساؤهم

القلائد الذهبية، وهم لا يعرفون الكتابة ولم يتعلموها، فإن كانت الحرب عادوا ومعهم الأسلاب والغنائم والأرقاء يستخدمونهم فى التجارة ويضاعفون بهم ثرواتهم، فلماذا إذن لا أحاول أن أكون جنديا محاربا ؟ !

ومرة أخرى لم يجب أبى، ولم يعقب على سؤالى . ثم استحث الخطى إلى أن بلغنا مكانا تلقى فيه القمامة وتتفشاه أسراب الذباب، فوقف أبى وانحنى ليدخل من باب كوخ حقير زرى ونادى قائلا : « عنتيب » يا صديقى : هل أنت هنا ؟ فبرز إلينا رجل هرم يدب على عصا وذراعه اليمنى مقطوعة من أسفل الكوع وملابسه تشيع فيها الأوساخ، ووجهه ضاو ضامر، وقد تداعت أسنانه وتعرى منها فمه ! .

هالتنى ، بل أرعبتنى ، هذه المفاجأة وقلت لنفسى : أهذا .. أهذا هو « عنتيب » بطل معركة سوريا تحت قيادة « تحوتمس الثالث » أعظم فراعين مصر ؟ ! أهذا هو « عنتيب » الذى ترن فى الآذان قصص بسالته وبطولته والهدايا التى أغدقها عليه فرعون ؟ ! ...

ورفع الرجل العجوز يده اليسرى فى حركة عسكرية محييا، وقدم له أبى زجاجة النبيذ ، ثم افترشنا الأرض خارج الكوخ، فليس عنده مقاعد نجلس عليها، وأخذ « عنتيب » يضع زجاجة النبيذ على فمه بيده المختلجة، ولكن فى حذر شديد حتى لا تسقط نقطة واحدة منها فى غير جوفه الظامئ .

وقال له أبى مبتسما : إن ولدى يود أن يكون محاربا، وقد جئت به إليك « يا عنتيب » لأنك آخر من بقى على قيد الحياة من أبطال الحروب الكبرى، فأنت خير من يحدثه عن عظمة الجندية ونباهة قدرها وفخار البسالة فيها .

فأخذنى الرجل بنظرة صارمة نافذة وقال : بحق « ست » و « بعل » وكل الشياطين الأخرى .. إن هذا الولد لمجنون.

واشتد فزعى من الرجل بشفتيه المنفرجتين عن فمه الخرب وعينيه المعتمتين وذراعه المهيضة ووجهه العبوس الصارم ، فتراجعت متعلقا بذراع أبى لأحتمى به .

ولكن الرجل استطرد يقول : يا بنى .. إننى إذا أخذت قطرة من النبيذ عن كل لعنة صببتها على القدر الغاشم ؛ لأنه جعل منى محاربا، ثم صببت هذه القطرات فى بحيرة فرعون التى أنشأها لزوجته العجوز، لكانت كافية لاستحالتها إلى بحيرة من نبيذ خالص غير مخلوط بماء ! .. حقا أننى لم أشهد هذه البحيرة؛ لأنى لا أملك أجر عبور النهر إلى الشاطئ الآخر، ولكنى على يقين من أن قطرات النبيذ بعدد اللعنات ستملؤها، ويبقى منها بعد ذلك ما يسكر جيشا بأكمله .

قلت وشفتاى ترتجفان فرقا : ولكن الجندية أشرف الوظائف العامة وأمجدها ..

فقال « عنتيب » بطل جيوش « تحوتمس » : قد تكون كما تقول ، بل لعلها خليقة أن تكون كما تقول، ولكننى فيما أعانى منها الآن ، أراها على النقيض من ذلك ، فاسمعها منى يا بنى كلمة حقة صريحة : إن الجندية فى زماننا هذا أتعس وظيفة ، والجندى أشقى من فى الوجود وأشدهم عناء فى حياته .. ولقد طالما خدعت الأغبياء من الناس وصورت لهم الجندى إنسانا سعيدا، موفور الشرف والكرامة؛ لأنهم كانوا يستطيبون هذا الحديث الملفق ويؤجروننى عليه النبيذ .. ولكن أباك ليس عندى من هؤلاء ، فهو رجل طيب مستقيم وفيه فطنة فلا أستطيع أن أخدعه وأموه الحقيقة عليه.

وأخذت الخمر تشيع فى رأسه وبدنه فتراخت تجاعيد وجهه وشع البريق فى عينيه المعتمتين، ثم انتفض واقفا وأمسك رقبته بيده وقال : انظر يا بنى إلى هذه الرقبة النحيلة الضامرة، لكم حملت من القلائد الذهبية ، لقد وضع فرعون بنفسه خمسا منها، إن أحدا لا يستطيع أن يحصى عدد القتلى الذين أطحت برءوسهم وألقيت بها أكواما مكدسة أمام خيمة فرعون .. ومن ذا الذى كان يا بنى أول من تسلق أسوار « قادش » ؟ ومن ذا الذى كان ينصب انصبابا على جحافل الأعداء فى المعارك فيفتك بهم فتك الأسد الهصور بفرائسه؟ إنه لم يكن أحدا غيرى، إنه أنا .. أنا « عنتيب » البطل .. فأى جزاء ألقاه الآن ؟! لا شىء إلا أننى بعت قلائدى الذهبية لأعيش من ثمنها. وماذا أجدت على ذكرياتها المجيدة؟ إن الذكريات لا تصلح طعاما لجائع ولا كساء لعار ولا شرابا لظامئ ! . وقد ذهب عنى أتباعى الذين عدت بهم من معامع

الحروب ، ذهبوا عنى فرارا من حياة البؤس التى صرت أحياها، بل لقد مات بعضهم جوعا، وأين .. يا بنى .. ذراعى اليمنى ؟! . لقد تركتها هناك فى أرض « ميتانى » . وهل ترانى بعدها إلا إنسانا مشوها، وكدت يابنى أن أكون - لفرط عجزى وفاقتى - متسولا يستجدى الناس فى الطرقات لولا أن فى الناس من يحسبوننى لطول ما كابدت فى الحروب ، قاصا وراوية ومؤرخ حوادث، فهم يقدمون لى السمك والنبيذ لأقص عليهم وعلى أطفالهم روايات الحروب المثيرة.

إننى أنا « عنتيب » البطل العظيم فانظر إلى جيدا ... يا بنى : لقد فقدت شبابى فى الصحراء ، سرقه منى الجوع والعوز والعناء الطويل، وهناك - فى الصحراء، ذاب لحم أطرافى ، وخشن جلدى، وتحجر قلبى . وأسوأ ما أورثتنيه حروب الصحراء جفاف فى الحلق واللسان وظمأ لا ينطفئ . وما كان شأنى فى ذلك غير شأن أى جندى يعود إلى بلاده حيا من حروب أجنبية .

لقد كانت الحياة عندى ، حينما فقدت ذراعى ، كوادى الموتى ، ولا أحتاج أن أصف ما كابدت من هول وألم عندما وضع جراحو الجيش بقية ذراعى فى الزيت المغلى ليوقفوا النزيف بعد بترها . فذلك شيء يعرفه أبوك جيدا. ألا فليباركك الله يا « سنوحى » وكن ... كما أتوقع لك ... عاقلا فطنا .

وهنا كان « عنتيب » قد أفرغ آخر قطرة من وعاء النبيذ فى جوفه، فران الصمت على الرجل العجوز، وأخذ يلهث كمن أصيب بسعار، وهو يقلب الوعاء فارغا بين يديه ويرمقه بحسرة وأسى ، وعيناه تلتمعان كأنما تمجان شررا، ثم أقعى متهالكا مكتئبا وحسبت الفرصة قد واتتنى لأتكلم، فقلت له فى استحياء : ولكن المحارب يمكن أن يكون إنسانا لا يعرف القراءة والكتابة ؟!

فهمهم همهمة من أصيب بخرس، وألقى على أبى نظرة جانبية كأنه يريد شيئا . وأدرك أبى إشارته، فأخرج من جيبه على الفور قطعة نقود نحاسية وناوله إياها فهتف بفتى صغير قذر أقبل عليه مهرولا فأعطاه الوعاء، وقطعة النقود وطلب إليه أن يشترى

بها نبيذا رخيصا ليمتلئ به الوعاء. ثم بدت عليه علامات التفكير وهو يتجه إليّ ليقول : حقا إن الجندى يمكن أن يكون إنسانا لا يعرف القراءة والكتابة، لأنه يحارب فحسب، ولكنه إذا استطاع أن يكون قارئا أو كاتبا فستعقد له الزعامة على أقوى جنوده الذين يدفعهم إلى مقدمة المعارك ليتلقوا أهوال الحروب . أما الذى لا يعرف القراءة والكتابة، فلن يزيد على أن يكون تحت إمرته مئة جندى . وأى مفخرة للجندى فى تحلية صدره بالقلائد الذهبية وشارات الشرف إذا كان زميله الذى يحمل القلم ويسطر به على أوراق البردى هو الذى يصدر إليه التعليمات والأوامر ؟! فإذا شئت يابنى أن تكون جنديا نابها معقودا لك لواء الزعامة، آمرا مطاعا نافذ الرأى والإرادة ، ينحنى أمامك حاملو القلائد الذهبية، ويذهب بك الأرقاء محمولا فوق كرسيك على أكتافهم إلى ميدان القتال، فينبغى أولا أن تتعلم القراءة والكتابة .

وعاد الفتى القذر يحمل إناء النبيذ مسرعا، فلاح البشر على وجه الرجل وتناوله متلهفا، ومضى قائلا : إن أباك « سنموت » رجل طيب ، وهو يعرف القراءة والكتابة، وإن كان لا يستطيع أن يستعمل قوسا أو يطلق سهما، فقد استطاع أن يكون طبيبا نافعا محترما .. لك شكرى الجزيل يا « سنموت » .

وفى عصبية وانفعال نظرت إلى وعاء الخمر الذى انصرف إليه « عنتيب » مهتما به وحده فيعب منه عبا متداركا . لقد أشفقت على بطل الحروب أن يلقى مصرعه هكذا بإسرافه فى هذا الشراب الرخيص القاتل ... وكذلك كان شعور أبى .

وبينما كنا نيمم وجهينا إلى منزلنا كان الرجل يقف مختلجا متحاملا على نفسه منشدا بصوته المتهدج أغنية سورية ، فى حين يقف قريبا منه ذلك الفتى العارى القذر الذى لفحت حرارة الشمس جسمه، وهو مستغرق فى السخرية منه والضحك عليه.

وعندئذ دفنت فى صدرى آمالى العذبة فى الجندية ، ولم أبد أية معارضة عندما أخذنى أبى فى اليوم التالى إلى المدرسة .

- ٥ -

لم يكن أبى ثريا ليلحقنى بإحدى مدارس المعبد الكبير التى يتعلم فيها أبناء الأغنياء والنبلاء والكهان المشاهير - وفى بعض الأحيان بناتهم - فألحقنى بمدرسة الكاهن العجوز « أونح » الذى يقع منزله غير بعيد عن دارنا . وفى شرفة هذا المنزل المتداعية ، كان يجتمع تلاميذه ويتعهدهم بالدراسة . وكانوا من أبناء الصناع والتجار ورؤساء العمال وضباط الصف الذين كان كل مبتغاهم أن يفتحوا أبواب المستقبل لأبنائهم عن طريق هذا التعليم .

وكان « أونح » يعمل فى شبابه رئيسا للخدم فى معبد الإلهة « موت » ، فكان بهذا مؤهلا لتدريس الكتابة الأولية للأطفال الذين يراد أن يصبحوا كتابا يسجلون حساب البضائع ومكاييل الحبوب وموازين السلع وإحصاء أعداد رءوس المواشى ومؤن الجيش .

وكانت مدينة « طيبة » تزخر بالمئات من أمثال هذه المدرسة، وكانت نفقات التعليم فيها يسيرة على طلابها ، إذ كان يكفى فيها أن يقدم التلاميذ لمعلمهم شيئا مما يقع فى حرفة أبائهم، فابن تاجر الفحم يزود موقده بالفحم فى فصل الشتاء ، وابن النساج يقدم قطعة النسيج لملبسه، وابن الزارع يقدم الدقيق ، وهكذا تتوافر لهذا المعلم حاجات معيشته دون مشقة على تلاميذه. أما أبى فكان يتولى علاج أمراضه وتخفيف آلامه بالنبيذ يقدمه إليه مخلوطا بالمسكنات .

و « أونح » بهذا راض عن تلاميذه، مغض عن زلاتهم ، ما عرفوا السبيل إلى تقديم الهدايا إليه. فالذى ينام أثناء الدرس ينجو من العقاب، إذا أقبل فى صباح اليوم التالى وفى يده الهدية التى ترتاح إليها نفسه، وتكون نفسه أكثر ارتياحا إذا ارتكب ابن تاجر الحبوب خطيئة ليقدم عليه فى الغد ومعه إناء من الجعة ... لقد كان أستاذنا « أونح » ممن يحبون هذا الشراب ويؤثرونه .

وفي تلك المدرسة كنا نصطنع الانتباه والإصغاء إلى ما يقصه علينا أستاذنا « أونح » من قصص الدنيا الثانية، والإلهة « موت » والخالق العظيم « بتاح » ورفاقه من الآلهة، ونحسب بيننا وبين أنفسنا أننا بالانتباه والإصغاء اللذين نصطنعهما اصطناعا نغريه بالإفاضة والاسترسال في هذا القصص لعلنا نشغله بذلك عن واجباتنا القاسية المتعبة في تعلم الكتابة. ولكنني أخيرا أدركت أن أستاذنا إنما أراد ذلك عن قصد مرسوم ، وعن حكمة لم نكن يومذاك ندريها ، فقد عرفنا من قصصه ورواياته تقاليد مصر القديمة، كما عرفنا أن الأعمال الشريرة لا يمكن أن تمضي بغير عقاب ينال مقترفيها ، فقلب كل إنسان يوزن أمام عرش « أوزوريس » في ميزان الإله الذي له رأس كرأس الذئب ، فمن ترجح كفة سيئاته كفة حسناته ، يقذف به إلى الإله الذي له هيئة التمساح والوحش معا، لينال هنالك عقابه جزاء وفاقا .

وكذلك كان « أونح » يحدثنا عن الإله ذي العينين الخلفيتين المثبتتين في مؤخرة رأسه، وكيف أن هذا الإله يعبر السماء بمركبه حاملا الصالحين والأطهار إلى الأرض المقدسة، وهو في تسياره بهم يجدف إلى الخلف لا إلى الأمام كما يفعل البحارة في النيل .

وتوسلا إلى بلوغ مكاننا عند هذا الإله، كان « أونح » يستحثنا على حفظ واستذكار أدعية نتقرب بها إليه، ويطالبنا بأن نكتبها من الذاكرة ويصحح ما يقع من أخطائنا في كتابتها، مؤكداً أن تكرار الأخطاء على تفاهتها خليق أن يفقدنا الأمل في حياة رغدة بالدنيا الثانية، ويجعلنا نعيش في دنيانا الأولى كالأشباح الضالة على ضفاف النيل القاتمة.

وقضيت بمدرسة « أونح » بضع سنوات وكان من بين رفاقي ومن أعز أصدقائي بها « تحوتمس » ، وهو يكبرني بعام أو عامين. وكان أبوه رئيسا لكوكبة من عجلات الحرب، ومن شارات مركزه النابه أنه يحمل في يده سوطا مزينا بالنحاس، وكان يطمع في أن يصبح ابنه « تحوتمس » ، في يوم ما ، ضابطا برتبة عالية. ولهذا الغرض كان يعلمه الكتابة، ولكن الرياح أحيانا تأتي على غير ما تشتهي السفن ، فقد

أخذت حياته بالمدرسة ترهص بأنه يسلك لمستقبله سبيلا غير هذا السبيل ، إذ كف بالمدرسة عما كان يتميز به قبلها من حب المصارعة وركوب الخيل، وبدا عليه نشاط غير عادى فى تعلم الكتابة حتى بذَّلنا فيها إجادة وسرعة، وعلى ألواحها كان يرسم صورا متقنة للعربات والخيول الجامحة والجنود المتصارعين ، كما كان يحمل معه إلى المدرسة عجينة من الصلصال ليصنع منها صورة سافرة لإله الجحيم وهو فاغر فاه ليلتهم رجلا بدينا أصلع الرأس محدودب الظهر يشبه أستاذنا « أونح » شبها قريبا من الحقيقة. ولم نلحظ على أستاذنا أنه استاء أو امتعض من ذلك، فإن « تحوتمس» كان سمحا رقيقا يحبه رفاقه وأستاذه على السواء . وفى وجهه العريض وقامته القصيرة وساقيه الأملدين وعينيه المشعتين بالبريق، فى هذا كله جاذبية مغناطيسية جمعت القلوب على حبه واستمالتها إليه. وكانت إلى ذلك ترفه عنا وتثير إعجابنا ، صور الطيور والحيوانات التى يرسمها بيديه الماهرتين . وقد سعيت إلى صداقته منذ شممت فيه الميل إلى الفروسية ، وتوثقت بيننا أواصر هذه الصداقة بالرغم من انصرافه عن هذا الميل بعد ذلك.

وخلال أيامى المدرسية حدثت مفاجأة ظننتها إلهاما أو معجزة. ففى يوم ندى من أيام الربيع الجميلة، حيث الطيور تملأ جو المدينة تغريدا ، ومياه النهر تجرى فى لين واسترخاء، والحقول والحدائق محلاة بالنمو والازدهار، خرجت من شرفة منزل « أونح » المتداعية ، مدفوعا بإغراء شديد إلى هذه الطبيعة الحانية الوديعة فى أفقها الرحيب، ومن ثم مضيت بين مجاليها المونقة، منتشيا بعبيرها الفواح، إلى أن بلغت، من حيث لا أقصد ، صخورا تعلوها رموز منقوشة، فرحت أتأملها فإذا بهذه الرموز حروف مكتوبة وإلى جانبها علامات توضحها ، وهنا تواردت على ذاكرتى تعاليم « أونح » . وبحافز من داخل نفسى أخذت أقرأ، وأنفخ الحياة فى هذه الحروف، فانحسرت الصور عن كلمات ، ومن الكلمات تكونت المقاطع ، وأخيرا صارت المقاطع رسالة طويلة، وكلما ضممت صورة إلى أخرى خرجت بمعنى مختلف عن الرموز ، وقد بان لى أن صورة واحدة قد يتاح لمن يجهل الكتابة أن يفهمها، أما ضم الصور

بعضها إلى بعض، واستخلاص المعانى منها، فليس بالأمر المستطاع إلا للمتعلمين ، ولعل الذين درسوا الكتابة وتعلموا القراءة يفهمون هذا .

كانت تجربة القراءة هذه بالنسبة لى مثيرة للغاية، وكانت عندى أيسر تناولا كما لو مددت يدى إلى سلة الفاكهة لآخذ منها ثمرة ، وكانت فى شعورى أحلى مذاقا من التمر، وأشهى من الماء عند الظامئ الصادى . فلم أعد بعد ذلك محتاجا إلى من يستحثني للمثابرة على التعلم وأصبحت أتشرب إرشادات « أونج » وتعاليمه ، كما تتشرب الأرض الجافة مياه فيضان النيل، وسرعان ما حذقت فن الكتابة، وبعد فترة قصيرة كنت أقرأ ما يكتبه غيرى، وفى السنة الثالثة غدوت قادرا على أن أملى على الآخرين حكايات مطولة ليكتبوها .

ومنذ ذلك الحين بدأت أتكشف في نفسى أشياء لا يشبهني فيها رفاقي التلاميذ. فوجهى كان أكثر ضيقا، ولون بشرتي أكثر وسامة وتفتحا، وأطرافي دقيقة غير مترهلة ولا متضخمة، ولولا غثاثة الملبس لحسبني من يراني واحدا من أبناء النبلاء الذين يروحون ويغدون على كراسيهم المحمولة على أعناق الأرقاء ، أو أولئك الذين يمشون على الأرض مرحا متبوعين بخدمهم ، ولهذا كنت مرموقا من الجميع.

وجاءني مرة أحد التلاميذ، وهو ابن تاجر حبوب ، فطوق عنقى بذراعه، وجعل يخاطبنى كما يخاطب فتاة، فوكزته بقلمى ودفعته بعيدا عنى ، متبرما به وبرائحته الكريهة.

لم يكن من رفاقى التلاميذ من هو عندى بمنزلة « تحوتمس » . لقد كان وحده الصديق الذى تطامنت إليه نفسى وعواطفي لإخلاصه ولطف معشره. وقد أقبل علىّ يوما ليقول لى فى استحياء : إنه يستطيع أن يصنع لى تمثالا ، فاصطحبته إلى منزلنا وأخذت مكاني قبالته تحت شجرة الجميز، فلم يمض غير قليل حتى استوى فى يده تمثال من الصلصال يصورنى تصويرا دقيقا، وبقلمه المعدنى نقش اسمى على قاعدة

التمثال . فلما جاءت أمي « كيفا » تحمل إلينا الكعك الذى صنعته ، ووقع نظرها عليه أصابتها رجفة واستعاذت بالآلهة من شر ذلك السحر الذى جعل من الطين إنسانا .

غير أن أبى حينما شاهد التمثال أعجب به وأثنى على « تحوتمس » ، وقال : إن هذا ليبشر بمستقبله الباهر ، ولو أنه التحق بمدرسة المعبد فإنه يصبح يوما ما فنان الحاشية الملكية. وهنا ابتسمت لصديقى « تحوتمس » وتخيلت هذه البشرى قد تحققت ، فانحنيت فى حركة تمثيلية أمامه، مادا ذراعى إلى قريب من الأرض محييا فنان الحاشية الملكية العظيم، وبادلنى « تحوتمس» الابتسام قائلا : أحسب هذا مستحيلا، فوالدى قد اختار لى الجندية وحياة الثكنات، وسيلحقنى بمدرسة سلاح العجلات. وهأنذا قطعت المرحلة الأولى التى يمهد بها إلى ذلك. فأنا الآن أجيد القراءة والكتابة كأحسن ضابط.

وتركنا أبى لنأخذ أنا و «تحوتمس» فى التهام الكعك فى رضا وسعادة.

- ٦ -

وجاء اليوم الذى رآنى فيه أبى أهلا لإلحاقى بمعبد « آمون » العظيم، فارتدى أفضل مالديه من ثياب، وأحاط رقبته بطوق أحسنت « كيفا » توشيته وتطريزه، ويمم وجهه شطر المعبد.

وأبى « سنموت » فيما بينه وبين نفسه لا يضمر حبا للكهان، ولكن الواقع الذى لا بد من التسليم به أن الأمور جميعا فى « طيبة »، بل فى مصر كلها كانت لذاك العهد إلى هؤلاء الذين لا يحبهم ولا يؤمن بهم. فأحكام القضاء التى يصدرها قضاة فرعون تستأنف أمام الكهان وكان من حقهم أن ينقضوها، وكذلك كان لهم الإشراف الفعال على الوظائف الإدارية العليا. وهم الذين يتنبئون بدرجات فيضان النيل المقبل ، ويقدرون محاصيل الزراعة، ويفرضون على أساس هذا التقدير الضرائب لتجبى فى سائر أنحاء مصر.

وكان يخيل لى أنه ليس من السهل على أبى أن يسعى إلى هؤلاء الكهان فضلا عن خضوعه لهم. فقد كان طبيب الفقراء فى حى فقير بالمدينة، وليست بينه وبين المعبد و .. « دار الحياة » القائمة به ، أسباب متصلة أو حاجات دافعة، ولكنه كواحد من الآباء الفقراء كان عليه أن ينحنى مثلهم بحكم التقاليد والطقوس واجبة الرعاية والتقديس .

وإنى لأتمثل الآن فى ذهنى هؤلاء الآباء الفقراء وقد وقفوا فى أحسن أزيائهم صفوفا متراصة أمام الهيئة الإدارية بالمعبد منتظرين أن يأذن بعض أولئك الكهنة القديسين فى استقبالهم .

لقد امتلأ بهؤلاء الآباء المنتظرين فضاء المعبد الفسيح، وأفكارهم ساعتئذ تومض بالأمل فى مستقبل سعيد لأبنائهم .. إنهم أقبلوا من كل فج، وكثير منهم جاءوا من أقاصى البلاد فى قوارب النيل مزودين بالطعام وببعض النقود لإرشاء حراس الأبواب أو الكتاب حتى يمكنوا لهم من شرف الحظوة بلقاء كاهن مضمخ بالعطور متشح بالذهب، ليلقى عليهم فى استعلاء وأنفة كلمات تتخللها القسوة والصرامة .. وهم يتقبلون هذا العناء ، بل يسعون إليه جاهدين، فى سبيل أن يقبل أبناؤهم خدما وأتباعا لآمون، إذ كانوا يعدون هذا القبول منحة وشرفا جديرين بالتزاحم واستساغة المذلة أيضا .. ذلك على الرغم من أن حقيقة الحال كانت لا تحتمل هذا كله، فآمون من قوة السلطان واستفاضة الثراء وسعة الأعمال بحيث كان محتاجا إلى مزيد لا ينقطع من الأتباع والخدم والكتاب والنساخين وغيرهم. ولكن لهفة الآباء الفقرء على مصير أولادهم كانت تدفعهم دفعا مضنيا إلى التماس هذا المصير عند الكهنة، فإذا فازوا به اعتصروا أنفسهم ليقدموا لهم الهدايا الغالية.

وكان أبى موفقا فى هذه الزيارة التى كنت أعتقد أنه ذهب إليها مكرها، فإن النهار لم يكد ينتصف حتى لمح غير بعيد رفيق صباه بالدراسة « بتاحور » الذى أصبح على مرور الزمن جراح الجمجمة فى حاشية فرعون، فهتف به، وكانت تلك جرأة

غير متوقعة، وكان ثم لقاء على غير ميعاد بين الرفيقين القديمين، وتحدث إليه أبى فى شأنى مهتما ، ولشد ما كانت غبطته حينما وعده بأن يزورنا فى منزلنا ليرانى.

واستعدادا لهذه الزيارة الكريمة اقتصد أبى ثمن أوزة وكمية من النبيذ الممتاز. ولما وافى الموعد شمرت « كيفا » عن ساعديها لتفتن فى الخبز والطهو. وقد فاحت فى الجو رائحة الطعام الشهى، فتجمع حول دارنا المتسولون وجعلوا يغنون ويرقصون ويلجون فى طلب نصيبهم من الوليمة ، فخرجت إليهم « كيفا » غضبى مزمجرة وألقت لكل منهم قطعة من الخبز عليها أدام من دهن الأوزة. وما زالت بهم حتى أقصتهم عن الدار.

وأخذت أنا ورفيقى « تحوتمس » فى كنس الطريق العام الذى يربط بين المدينة والمنزل، وقد رغب أبى إلى « تحوتمس » فى أن يكون حاضرا زيارة الضيف العظيم عسى أن يكون له نصيب من عنايته والتفاته، وشعرنا بالرهبة كأنما كنا فى المعبد حينما أشعل أبى حارقة البخور ليشيع فى جو المنزل، بداخله وخارجه، عبق العطور. وجئت أنا بقارورة الطيب لأنفح به المنسوج الكتانى الأبيض الذى كانت تدخره أمى ليكون كفنا لها عند موتها، فقد تقرر فى برنامج الزيارة أن نتخذ من هذا المنسوج العزيز على أمى « منشفة » يجفف بها « بتاحور » يديه بعد غسلهما .

طال انتظارنا ، ومالت الشمس إلى الغروب ثم غابت، وأخذت حرارة الجو تحور بردا، وأوشك عبق البخور أن يتلاشى، ووجه أمى « كيفا » يتحرك منفعلا بين انبساط وانقباض، فى حين تستعر عندى شهوة الطعام كلما نظرت إلى الأوزة وهى تتقلب فى شوائها المثير، وأبى صامت لا ينبس ببنت شفة، ولم يشأ أن يشعل المصباح لإنارة المنزل عندما رانت عليه الظلمة، واحتوانا جميعا صمت أبى فبقينا جلوسا على مقاعدنا كالتماثيل الخرساء وكأن على رءوسنا الطير، يتحاشى كل منا أن ينظر إلى وجه الآخر. ولأول مرة فى حياتى ذقت مرارة الأسى وخيبة الأمل التى يلقاها الفقراء من الأغنياء .

وأخيرا .. لاح ضوء المشعل بالطريق المؤدى إلى المنزل ، مؤذنا بقدوم الزائر الكبير، فانبعث أبى لفوره قفزا، ومضى مسرعا إلى المطبخ فجاء بقبس من النار وأشعل به المصباحين، وأمسكت أنا وعاء الماء بيدين مرتجفتين، في حين وقف « تحوتمس» بجانبي مهتما متلهفا .

وأهل علينا « بتاحور » جراح الجمجمة الملكى مقتعدا كرسيا يحمله رقيقان زنجيان، ويتقدمه حامل المشعل المكتنز الجسم الذى كان يبدو ثملا، وهبط « بتاحور » من فوق كرسيه وسط التهليل والترحيب، فحياه أبى منحنيا إلى مستوى ركبتيه ، ووضع الضيف العظيم يده على كتف أبي، ولعله أراد بذلك أن يشعره بأن هذه المراسم التى تعنى الاحترام والتبجيل ليست ضرورية بينهما، أو لعله أراد أن يتماسك ويحفظ توازنه. ثم التفت إلى حامل المشعل وأمره بإطفائه والانتظار تحت شجرة الجميز، أما الزنجيان فإنهما دون انتظار أوامر سيدهما قد وضعا الكرسى إلى جانب أشجار السنط وألقيا جسميهما في استرخاء على الأرض.

ودلف « بتاحور » إلى داخل المنزل وهو لايزال يعتمد كتف أبى فصببت الماء على يديه وهو يتأبى ويعترض، وعندما قدمت إليه (المنشفة) قال لى : لقد بللت يدى فعليك أنت أن تجففهما، ففعلت مغتبطا، وأعرب عن ارتياحه لذلك بقوله : إنك لولد ظريف .

ودعاه أبى إلى مقعد الشرف، وهو كرسى مؤزر بظهر، استعرناه من جارنا – تاجر التوابل – فاستوى عليه، وفى ضوء المصابيح راح يدير عينيه الفاحصتين فيما حوله، وبعد فترة صمت طلب شيئا من الشراب ، لأن طول الرحلة جفف حلقه، فأسرع أبى مبتهجا إلى إناء النبيذ فصب منه فى كأسه، وقبل أن يفرغه في جوفه أخذ يشمه ويتذوقه في شيء من التشكك، ثم استساغه وتجرعه مبديا ارتياحه.

كان « بتاحور » مقوس الساقين، حليق شعر الرأس، وتشف ملابسه الخفيفة عن ارتخاء صدره وبطنه، وحول عنقه وشاح مرصع بالأحجار الكريمة، ومن جسمه وملابسه معًا تفوح رائحة الطيب والنبيذ والعرق .

وفى احترام ، وضعت « كيفا » أمامه الكعك وقليلا من السمك المقلى فى الزيت والأوزة المشوية والفاكهة، ولكنه كان على ما يظهر قد أتخم بطعام دسم قبل أن يقدم علينا ، فلم يكن يتناول من طعامنا إلا النزر اليسير ليتذوقه، ومع ذلك أثنى عليه منوها بدقة طهوه ومهارة صنعه. وهنا ارتفع رأس « كيفا » زهوا وخيلاء .

وصدوعا بأمره حملت طعاما وشرابا إلى خدمه خارج المنزل، ولكنهم لم يحمدوا لى ذلك بل أخذوا يسبون ويلعنون ويقولون : ألم يحن الوقت بعد لخروج هذا العجوز؟!.

ومشى الوقت فى ألفاف من الغموض وأغشية من الإبهام. فقد أكب « بتاحور » على شراب النبيذ يتناول كئوسه مترعة متلاحقة ، وأبى يتناوله معه، مسرفا مثله فى الشراب على غير مألوف عادته، و « كيفا » ترى هذا فيزعجها ويحيرها ، وتجلس بالمطبخ قارعة كفا بكف. وفرغت جرة النبيذ التى أعدت لهذه المناسبة، فجاء أبى بما فى عيادته من النبيذ الطبى، فكرعاه وأتيا عليه كله، وما تزال شهوة « بتاحور» إلى الشراب مضطرمة، فأخذا يكرعان الجعة، وقال « بتاحور » إن أنواع الشراب تستوى عنده.

وفعل الشراب فعله بهما، فهما يتمايلان، ويضم أحدهما صاحبه ويتذاكران أيام دراستهما فى « دار الحياة » و « بتاحور » يروى الكثير عن تجاربه كجراح للجمجمة ويقول إن هذا الفرع من صناعة الطب ينبغى أن يكون آخر ما يفكر فيه طبيب متخصص ، فعملياته الجراحية بالغة الخطورة، وأولى بها أن تكون فى « دار الموتى » لافى « دار الحياة » ، وقد آثره بالاختيار بادئ الأمر لميله إلى الكسل، معتقدا أن العمل فيه قليل ويسير ، فرأس الإنسان - باستثناء الأسنان والأذن والأنف والحنجرة والعين التى لها متخصصوها - كانت ، فى تقديره، من أيسر الدراسات تناولا .

واستطرد « بتاحور » قائلا : ولو كان لى أن أختار الآن لاخترت أن أكون طبيبا عاديا شريفا، يتيح الحياة لمرضاه ، لا أن يتعامل مع الموت فى أشخاص المرضى الميئوس من شفائهم الذين لا يأتى بهم أهلوهم إلى الطبيب إلا ضجرا منهم ..

كم كنت أتمنى يا صديقي « سنموت » لو بقيت طبيبا مثلك أعيش مع الفقر عيشة شريفة هادئة .

وهنا أدار أبي وجهه إلينا ليقول : لا تصدقوا هذا يا أطفالي ، فكم أنا فخور أن يكون جليسي ورفيق صفوي في هذه اللحظات صديقي « بتاحور » جراح الجمجمة الملكي، إنه في الحق أمهر أطباء مصر في هذا الفرع من الطب، وقد عرف له الناس فضله ودقته وبراعته في العديد من العمليات الجراحية التي أنقذ بها حياة كثير من المرضى الأغنياء والفقراء على السواء. وكان بذلك، ولا يزال، موضع إعجاب العالم كله، حسبه فضلا على الإنسانية أنه يخلص المرضى من الأرواح الشريرة التي تنتهي بهم إلى الجنون، فما ينفك يلاحقها بمهارته ودقة مبضعه في خلايا الجماجم ولفائف الأدمغة، حتى يقتلع جذورها جميعا، وهو دائما يتلقى من المقدرين والمعجبين المكافآت الجزلة ذهبا وفضة وقلائد وكئوس شراب مذهبة.

وصاح « بتاحور » قائلا : ولك أن تضيف ياصديقي « سنموت » إلى ما ذكرت شيئا آخر، هو ابتهاج وثناء أقارب المرضى الذين يموتون تحت يدي، وما أكثر هؤلاء المرضى، إن واحدا من كل عشرة، بل من كل مئة ممن أدير مبضعي في رءوسهم هو الذي تكتب له الحياة وينجو من الموت، أما الباقون ، وأكثرهم من الأغنياء ، فإن حبل حياتهم ينقطع، وتكون النتيجة، دائما أو غالبا، أن يرث أقاربهم ثرواتهم، فهم الكاسبون الغانمون بموتهم، وإذن فأنت ترى أن يدي كما تخفف آلام المرضى، توزع ثروات الموتى من أرض وأنعام وذهب، على الأحياء من خلفائهم، بل لطالما لعبت يدي هذه أدوارا في إقامة فراعين جدد على عروشهم ، فالجميع لذلك يهابونني ولا يستطيعون نيلي بقالة سوء، فإنهم ليعلمون أنني أعرف الكثير من أسرار وخفايا . على أنه بقدر ما يعرف الإنسان من هذه الأسرار والخفايا يكون بؤسه وعذاب ضميره، فلست في الواقع سعيدا.

قال « بتاحور » ذلك ثم انفجر باكيا وجعل يمسح دموعه بالمنشفة التي أعدتها « كيفا » لتكون كفنا لها .. ثم التفت إلى أبي وقال : إنك فقير يا « سنموت »، ولكنك

شريف، ولهذا فإني أحبك، أما أنا فعلى ما تعلم من غناى وثرائى لست فى اعتبار نفسى جديرا بأن أكون إنسانا بالمعنى الصحيح.

وخلع « بتاحور » قلادته المرصعة بالجواهر وعلقها حول رقبة أبى، وأخذا يغنيان معا أغنيات لم أتفهمها، وإن كان « تحوتمس » قد أخبرنى بعد أنها مما ينشد فى الثكنات.

وقد اشتدت مخاوف أمى « كيفا » عندما بلغت حال الضيف والمضيف هذا الحد، ولم يغمض جفناها اللذان كانا يذرفان الدمع أسفا على تلك الحال التى لا عهد لها بها.

واقتحم علينا مجلسنا أحد الخدم وطوق « بتاحور » بذراعيه ليحمله ويضعه على كرسيه ويعود به، قائلا : إن موعد إيوائه إلى فراشه قد انقضى من وقت طويل، ولكن « بتاحور » تأبى عليه وقاومه واستغاثنا بمنعه منه قائلا : إن هذا الخادم يريد أن يقتلنى .. وكان أبى قد افتقد القدرة على نجدته، فاستعنت « بتحوتمس» وأعملنا العصى فى الخادم حتى فر هاربا وهو يسب ويلعن، ولم يلبث أن اصطحب رفاقه والكرسى على كتفه خاليا من صاحبه وذهبوا ..

أما « بتاحور » فقد أخذ يفرغ ما بقى من الجعة على ملابسه ، ويطلب زيتا عطريا يمسح به وجهه، ويعلن عن رغبته فى الاستحمام بحوض الماء الموجود بالحديقة. وإذ ذاك مال «تحوتمس» على أذنى ليقول فى همس : لا علاج لهذه الحال المتفاقمة إلا أن نحمل العجوزين المخمورين إلى الفراش، وقد كان ما أشار به، ورقد جراح الجمجمة الملكى جنبا إلى جنب مع والدى على سرير « كيفا » وكل منهما يضع ذراعيه حول رقبة صاحبه، ثم استسلما إلى نوم عميق طويل ..

و « كيفا » فى جزعها المسترسل تبكى وتعفر رأسها بتراب الموقد، فى حين كنت أنا فى غمر من عذاب التفكير فيما ستلوكه فى الغداة ألسنة جيراننا، فسوف لا نسلم من قالة السوء الساخرة عندما يتذكرون هذا الذى يحدث فى دارنا على غير العادة،

من جلبة صاخبة يتردد صداها وسط سكون الليل، ولكن « تحوتمس » ظل هادئا ، فقد اعتاد أن يرى أمثال هذه المشاهد فى أماكن أخرى، وفى بيت أبيه على وجه خاص، حينما كان يجتمع إليه سائقو العجلات الحربية ويتناقشون محتدين متنافسين فى ذكريات الأيام المواضى التى كانت ترسل فيها الحملات التأديبية إلى سوريا وبلاد الكوش، ولذلك فقد أخذ فى تهدئة « كيفا » وهدهدة روعها، حتى راضت نفسها على الأمر الواقع. وبعد أن تولى معى إزالة آثار هذه الوليمة وتنظيف المكان منها أوينا معا إلى فراشنا. وكان «تحوتمس» قد أصاب شيئا من النبيذ فراح يحدثنى عن الفتيات بعض الأحاديث، ولكنى لم أستطب هذا، لأنى كنت أصغر منه سنا واستغرقت فى نومى.

واستيقظت فى الصباح الباكر على حركة وصوت ينبعثان من الحجرة المجاورة فذهبت إليها ورأيت أبى لا يزال نائما، وحول عنقه قلادة « بتاحور » ، فى حين كان بتاحور جالسا ورأسه بين يديه وهو يسأل نفسه : أين أنا ؟ ! فحييته باحترام وقلت له إنه هنا فى حى الميناء بمنزل الطبيب « سنموت » ! فاطمأن قليلا، وطلب منى بحق « آمون » أن آتيه بمزيد من الجعة! فأنبأته أن ما كان باقيا منها قد أفرغه على ملابسه التى تشهد بذلك. وعندئذ هب من فراشه ليجر نفسه فى وقار إلى خارج الغرفة، وجئته بالماء وصببت منه على يديه، وحنى رأسه الأصلع فصببت الماء عليه كذلك. وكان « تحوتمس» قد استيقظ هو الآخر ، فأقبل على « بتاحور » مقدما إليه فى إناء نحاسى، اللبن الممخوض وسمكا مملحا، فطعم منهما، ثم غادرنا إلى شجرة الجميز وجعل يضرب بعصاه حامل المشعل الذى كان نائما تحتها. فهب هذا مذعورا وانتفض واقفا، وقد علقت بملابسه آثار تراب الأرض المنداة، ومضى « بتاحور » يلهبه بعصاه قائلا له : أبمثل هذه الهيئة الشوهاء – أيها القذر – تكون حامل المشعل أمام موكبى ؟! وأين الكرسى؟ إنى لا أكاد أراه !. وأين ردائى النظيف. وأين حبوبى الطبية ؟ أغرب عن نظرى أيها الحقير الأحمق ..

وراح الخادم مضطربا يبحث عن الكرسى الذى يحمل سيده عليه.

وجلس بتاحور تحت الشجرة مسنداً ظهره إلى جذعها، وجعل ينشد شعرا عن الصباح وزهر اللوتس وعن ملكة تستحم فى النهر، ويقص علينا قصصا مما يهوى الأطفال سماعه.

وترامى إلينا بالحديقة صوت « كيفا » وهى تتحدث إلى أبى بصوت جهير. لقد استيقظت وشرعت فى إيقاد النار واستيقظ هو كذلك، ثم وافانا بعد قليل بملابسه النظيفة وعلى وجهه مسحة من كآبة ... وبادره بتاحور بقوله : إن ابنك هذا ظريف يا «سنموت» ، إنه يبدو فى مظهره كأمير وكأن عينيه لرقتهما عينا غزال .

ولم أحسبه جادا فيما يقول، وإنما حسبته يصطنع هذا المديح لننسى أو نتناسى ما فعله على مشهد منا بالأمس. ولكنه استطرد قائلا : فهل عين روحه، ياترى، متفتحة كعينى رأسه؟!

عند ذلك أسرعت أنا و « تحوتمس» فحملنا إليه ألواحنا، وفى سهوم أخذ جراح الجمجمة الملكى يحدق بنظره فى فروع الشجرة الباسقة، ثم أملى علينا شعرا قصيرا ما زلت أذكره حتى الآن وهو :

استمتع أيها الفتى بشبابك.

فقناة العمر كثيرة السدود.

والأجسام المحنطة لا تبتسم.

فى ظلمة القبور الساكنة.

وقد بذلت أقصى الجهد فى كتابة هذه الأبيات من الشعر بالحروف العادية وبالصور كذلك، وتأملها « بتاحور» فأعجب بها؛ لأنها كانت سليمة غير منسوبة بأى خطأ .. وأحسست أن أبى كان فخورا بذلك .

ونظر « بتاحور » إلى « تحوتمس » الذى كان جالسا بمبعدة منا يدير قلمه على لوحه، وأشار إليه أن يعرض لوحه هو الآخر، ليرى ماذا فعل، فأقبل عليه وقدم له

اللوح مترددا، فى حين كانت ترتسم الغبطة على وجهه .. ولشد ما دهشنا حين رأيناه قد ملأ لوحه صورا، إحداها لبتاحور وهو يضع قلادته في عنق أبى ، وثانيتها له وهو يصب الجعة على ملابسه، وثالثتها تمثل الاثنين « بتاحور » و « أبى » وهما يغنيان وأذرعتهما متشابكة حول عنقيهما.

كانت صورا متقنة معبرة، تمثل « بتاحور» تمثيلا دقيقا فى قصره وصلع رأسه واسترخاء بطنه واعوجاج ساقيه .. إلخ.

وخشينا أن يغضب « بتاحور » لهذا الذى قد يراه سخرية به وزراية، أو يراه فى القليل أمرا قد خلا من اللياقة وواجب المجاملة.

ولكن « بتاحور » لاذ بالصمت فترة طويلة، كانت عيناه الحادتان خلالها تنتقلان في انفعال مستتر بين « تحوتمس » وبين صوره، وأحس « تحوتمس » من ذلك بكثير من الحرج. ثم خرج « بتاحور » من صمته قائلا لتحوتمس : كم تطلب ثمنا لهذه الصور أيها الفتى؟ إنى أريد أن اشتريها .

فاحمر وجه « تحوتمس » وقال : إنى لا أبيع صورى، ولكنى أهديها لصديق.

فافتر ثغر « بتاحور » وقال : حسنا إذن فلنكن صديقين، وهذه الصور لى.

وعاد يتأملها بإمعان مرة أخرى، ثم ألقى اللوح ضاحكا على حجر فتحطم وتناثر قطعا، فاعترانا الوجوم جميعا، وتقدم إليه « تحوتمس » معتذرا عما يكون قد وقع فيه من خطأ غير مقصود.

فقال « بتاحور » في فتور : وهل أحنق على الماء إذا انعكست صورتى على صفحته؟! إن عين هذا الرسام ويديه كانت كهذا الماء في الصدق ودقة التعبير، وقد عرفت من صوره كيف كانت حالى بالأمس، ولولا حرصى على ألا ينكشف هذا السر لغيركم لما حطمت اللوح، على أنى أعترف بأن هذا الفتى فنان ماهر.

فتهلل وجه « تحوتمس » بشرا لهذا الإطراء، والتفت « بتاحور » إلى أبى وأشار إلى قائلا بتعبير الأطباء : إننى سأضطلع بعلاج حالة ابنك .. أما هذا الفتى فسأصنع له المستطاع.

ووضع أبى يده فوق رأسى وسألنى عما إذا كنت أريد أن أصبح طبيبا مثله. فانحدرت الدموع من عينى، وامتنع على الكلام، فهززت رأسى علامة الموافقة، وتخيلت أنى سوف أغادر دارنا الحبيبة فأخذت أنظر فيما حولى وأدير عينى فى الحديقة وشجرة الجميز وحوض الماء، لقد كانت كلها عزيزة على ، أثيرة عندى.

واسترسل أبى يقول : وهل تحب يا ولدى أن تكون طبيبا خيرا منى لتكون لك سيطرة على الحياة والموت معا وتفوز بثقة الأغنياء والفقراء على السواء ؟!.

فقاطعه « بتاحور » قائلا : أحسب أنه سيكون خيرا منى ومنك ، فإنى أتوسم فيه الصدق والاستقامة، وهما أقوى عدة للإنسان فى الوجود، وأمام مثل هذا الطبيب الصادق المستقيم، يقف « فرعون » عاريا كما يقف الأغنياء والمتسولون.

وقلت أنا فى خجل كأنى أهمس لنفسى : إننى إنما أريد أن أكون طبيبا حرا .. قلتها فى سذاجة الطفولة غير متفطن لما تدخره السنون للرجال فى مستقبلهم من آمال وآلام.

ومال « بتاحور » على « تحوتمس » ليريه خاتما فى إصبعه وقال له : اقرأ العبارة المنقوشة على هذا الخاتم .. فقرأها بصوت مسموع : « كأس مترعة تبهج قلبى ».

وقد أضحكته هذه العبارة حين قرأها فقال « بتاحور » فى غضب : ليس فيها ما يضحك أيها الأبله، وليست هى مجرد الإغراء بشراب النبيذ على إطلاقه فى سائر الناس، وإنما هى تعنى منهم أصحاب المواهب الذين يفتقرون فى إجادة أعمالهم إلى النشوة، وسترى عندما يتاح لك أن تكون فنانا مبدعا أنه لا غناء لك عن طلب الكأس مترعة، لتزداد إبداعا . فالإله «بتاح» لا يظهر نفسه كخالق عظيم إلا للفنان المبدع

الذى يتقن فنه، ولا يبلغ الفنان شأوه البعيد من ذلك إذا كان كل شأنه رسم المرئيات والمشاهد، إنه هنا لا يعدو أن يكون ناقلا، تماما كصفحة الماء أو كصفحة المرآة، وهما بغير عقل الإنسان وشعوره، ولا يميزه منهما إلا إلهامات فكرية وشعرية تنثال على قلمه وريشته فيجليها صورا قوية التعبير صادقة الملامح والسمات. إن الفنان الموهوب هو الذى يشخص الأفكار والمشاعر، وليس هو الذى يعكس الشخوص، ولن يكون كذلك إلا إذا كان له قلب مبتهج، وبهجة القلب حليفة الكأس، الكأس المترعة!. أفهمت الآن سر هذه الحكمة المنقوشة على خاتمى ؟! إنى أنصح لك أن تكون فنانا كبيرا ذا شهرة ومجد، مرسلا فى الحياة على طبع الإنسان الشاعر الخالق لا أن تكون فنانا آليا مقلدا أو ناقلا. ولا تقنع فى هذا السبيل بما قد تلقى من رضا الناس وإعجابهم. فليس لقناعة الفنان المبدع حدود.

وتوقف « بتاحور» قليلا ليقول لأبى إنه سيحاول بكل مافى استطاعته مساعدة « تحوتمس» ليلتحق بمدرسة الفن بمعبد « بتاح » ، أما أنا فسأدعى قريبا للالتحاق (بدار الحياة).

ثم أضاف إلى ذلك قوله : أيها الفتيان .. أنصتا جيدا لما سأقول لكما، وانسياه بعد ذلك ، أو على الأقل انسيا أنكما سمعتماه من جراح الجمجمة الملكى : إن مستقبلكما سيكون فى أيدى الكهنة، فعندما تصبحان بينهم كونا معهم فى حرص ابن آوى ومكر الثعبان ، وليكن لكما مظهر البراءة كالحمام ، ولا عليكما فى أن تصطنعا هذا حذرا من الضلال واتقاء للشر، واحتيالا على تحقيق الأمل وبلوغ الهدف، ومن الخير للمرء فى سبيل ذلك أن يصانع وأن يبدو أحيانا على غير حقيقته.

وتشعب الحديث بيننا بعد ذلك، إلى أن عاد حامل المشعل يحمل كرسيا آخر غير الذى ذهب به الرقيقان بالأمس، وجاء به إلى سيده مع رداء نظيف، فلما تساءل « بتاحور» عن كرسيه المفقود، قيل له إن الرقيقين رهناه فى الماخور القريب، وشربا به خمرا حتى فقدا وعيهما فناما هناك، فأمر « بتاحور » خادمه أن يستخدم اسمه

وسلطانه لاسترداد الكرسي واستعادة الرقيقين. ثم ودعنا مؤكدا صداقته لأبى، وغادر دارنا بين مظاهر التكريم متجها إلى حى الطبقة الراقية بالمدينة.

وفى اليوم التالى بعث «بتاحور» إلى «كيفا» بهدية تتمثل فى جعران مقدس منحوت من حجر كريم لتضعه إلى جانب قلبها تحت الكفن فى قبرها، ولشد ما فرحت أمى بهذه الهدية ، وغفرت له ما تقدم من ذنبه. وكفت من محاضراتها المسهبة فى لعنة النبيذ.

دار الحياة

- ١ -

كهنة « أمون » لذاك العهد هم أصحاب السيطرة البعيدة المدى على التعليم العالي كله في « طيبة » فليس مستطاعا بغير إذنهم أو توصيتهم اللحاق بالدراسات التي تؤهل للمناصب الهامة، كما كانت لهم هذه السيطرة نفسها على « دار الحياة » و « دار الموت » ، وهما تقومان منذ عهود متطاولة داخل أسوار المعبد. وكذلك كان شأنهم بالنسبة لمدارس اللاهوت التي يتخرج فيها الكهنة ذوو الدرجات العليا، وكانت تتبع هذه المدارس معاهد العلوم الرياضية والفلك، على أنه كانت هناك مدارس أخرى لدراسة القانون وعلوم التجارة، وهي بطبيعتها ألصق بالشئون المدنية التي تقع في اختصاص فرعون وسلطة جباية الضرائب، ولكن حتى هذه، كان الكهنة لا يفلتونها من إشرافهم وسلطانهم. وقد أقلق ذلك بال المتنورين الذين أصابوا حظا من الثقافة والرشد، وأدركوا أن الكهنة إنما يريدون بسط نفوذهم على هذه المدارس التي ليست لها الصفة اللاهوتية للتدخل في الشئون العامة، غير أنهم أدركوا أيضا ألا مناص من هذا التدخل، فهناك حقيقة لا يستطيعون تجاهلها، هي أن « أمون » يملك خمس أراضي القطر المصري، وتبعا لهذا يقع في حوزته خمس تجارة البلاد، ومن هنا كان لابد لأولئك الذين يطلبون الدراسات القانونية والتجارة أن يبدءوا دراستهم في مدارس الكهنوت ليتأهلوا بدرجاتهم الكهنوتية الصغرى، وليكونوا بها في عداد الخدام المخلصين لأمون.

وكان مفروضا قبل أن أضع قدمي في « دار الحياة » أن أجتاز مرحلة الامتحان المقررة قبل لحاقي بمدرسة اللاهوت لأصبح كاهنا من الدرجة الصغرى. وفي هذه

المرحلة قضيت أكثر من عامين، فقد كنت في الوقت نفسه أرافق أبي في زياراته لمرضاه لأفيد من تجاربه وأتزود بها لمستقبل حياتي العملية كطبيب .

وكان المرشحون لدرجات الكهنوت الصغرى ينقسمون في دراساتهم إلى مجموعات وفق التخصص المهني الذي تتهيأ له كل مجموعة فيما بعد، وبطبيعة الحال كانت لنا نحن الذين سننتسب إلى « دار الحياة » مجموعة خاصة متميزة بهذا الطابع المهني. ولكني لم أتخذ من رفاقي صديقا مقربا، فقد آثرت العزلة عملا بنصائح « بتاحور » الحكيمة، واقتضاني تأثري بهذه النصائح أن أعيش بينهم وكأني لست معهم، متجاهلا تجاهلا تاما كل ما يصدر عنهم من معابثات ومشاكسات.

وكان من هؤلاء الرفاق أبناء الأطباء ذوي الشهرة، الذين تؤجر مشوراتهم وعلاجهم بالذهب، كما كان معنا من أبناء أطباء الأقاليم من كانوا يكبروننا سنا وأبدانا، وقد لفحت شمس الريف وجوههم، وهؤلاء كانوا يحاولون إخفاء خجلهم بانكبابهم على دراساتهم انكبابا كليا، وكان في فرقتنا أيضا أبناء الطبقات الدنيا الراغبون في الارتفاع عن مستوى آبائهم المهني والاجتماعي، وكان ملحوظا عليهم الميل الشديد للاستزادة من المعرفة، ولكنهم كانوا يلقون أقسى المعاملة من الكهنة الذين لم يكن يروقهم أن يوجد من هذه الطبقة الشعبية طامحون قد يغريهم طموحهم بالنشوز على الأوضاع القائمة.

وزادتني حياتي في هذا الجو اقتناعا بفائدة الحيطة والحذر، فقد بدأت أكتشف أن للكهنة علينا عيونا وأرصادا، فكلمة طائشة في حديث، أو عبارة تساق في مزاح ، كانت على الأثر تبلغ مسامع الكهنة وكثيرا ما يساء تأويلها، فيستدعون قائلها ويستجوبونه، ثم يعاقبونه، وأحيانا كان العقاب جلدا بالسوط، وأحيانا كان فصلا، إلى الأبد، من « دار الحياة » سواء أكانت في « طيبة » أم في أية مدينة أخرى بالقطر المصري.

وقد منحتنى قدرتى على القراءة والكتابة مكانا مرموقا بين أقرانى جميعا حتى الذين يكبروننى سنا وجسما، وأصبحت أعتقد أنى بلغت مبلغ الصلاحية والإعداد للحاق « بدار الحياة »، فلما تتابع الوقت دون أن يتقرر انتقالى إليه، لم أجد عندى الشجاعة لاستيضاح الأسباب، فقد كان ذلك يعد تمردا على « آمون ».

وكنت أنشد تسليتى ومشغلة وقتى بنسخ كتب الموتى التى كانت تباع فى ساحات المعبد الأمامية، ولكن كثيرا ما كانت تعرونى الكآبة ويؤلمنى الشعور بالظلم كلما رأيت غيرى ممن هم دونى موهبة واستعدادا قد سبقونى إلى « دار الحياة » . ولم يكن لى ثمة عزاء عن ذلك إلا ما كان أبى يؤكده من أن امتداد هذه المرحلة التعليمية والريث فيها خليق أن يجعلنى أكثر رسوخا فى العلم وتمكنا من لبابه، وأكثر إحاطة بدقائقه وأسراره من أولئك الذين تعجلوا وتقدمونى .

وأخيرا ، أنبئت بأن دورى قد حل لأبدأ الصلاة فى المعبد ، ومن ثم أدخلت إلى حجراته لأقيم بها أسبوعا كاملا لا أبرحها، آخذا نفسى فيها بالصوم للتطهير والتنقية، وسر أبى لهذا، فقص شعرى وأقام لجيراننا وليمة احتفالا ببلوغى مبلغ الرشد، ولم يكن هذا ليستحق الاحتفال. ولكنى كنت فيما قد بلغته بموضع السابق الممتاز على أبناء جيراننا الذين هم فى مثل سنى، ولهذا أقيمت الوليمة، وبذلت « كيفا » أقصى الجهد فى إعدادها، ولكنى لم أستسغ فى تلك الليلة شيئا مما طعمته كما لم تتفتح نفسى لشىء مما كان يدور بين الحضور من الملح والفكاهات، ولاحظ أبى « سنموت » وأمى « كيفا » ما يعرونى من كآبة وانقباض. وكأنما وقع فى ذهن أبى أن مبعث هذا عندى هو القلق من غموض علاقتى البنوية بهما، فرأى أن يضع حدا لذلك بمكاشفتى بالحقيقة، ولهذا طفق يحدثنى فى أناة وهدوء عما لا أعلم من سر أمرى وخفى قصتى، وكانت « كيفا » تتدخل فى الحديث لتضيف إليه ما لم يكن أبى يذكره عن سهو ونسيان ، وكنت أستمع إلى حديثهما مشدوها، وأتطلع خلال ذلك بقلب متفطر إلى قارب الغاب الذى يعلو فراشى بعمده المتداعية ولونه القاتم، وقد ذهبت بى أفكارى كل مذهب أشد قتاما من لون القارب. إذن – فالحقيقة أنى مخلوق مقذوف إلى

هذا العالم من شاطئ مجهول، وأن الأقدار الظالمة قد حرمتنى نسبا صريحا، فليس لى أب ولا أم معروفان. فأنا فى هذه المدينة الكبيرة وفى هذا المجتمع الزاخر، وتحت نجوم هذه السماء الرحيبة الأقطار أحيا وحيدا يتيما، مشكوكا فى نسبى وأصلى، فمن يدرى ؟ فلعلى أن أكون فى حقيقتى أجنبيا عن أرض « كيم » أو لعلى أن أكون قد جئت إلى الحياة عن طريق سر مخجل؟! يالها من حقيقة تظهر ليحتويها الغموض المتكاثف والشك المفجع!..

وقضيتها ليلة ليس كمثلها فى الليالى السود !

وفى الصباح أخذت طريقى مبكرا إلى المعبد، وقلبى طافح بالأسى، واضعا فوق ملابسى رداء المعبد الذى حاكته لى « كيفا » بنفسها.

- ٢ -

كنا خمسة وعشرين صبيا وشابا حينما تلاقينا فى ذلك اليوم، استعدادا لحياتنا الجديدة بالمعبد، وقد بدأنا مراسم الدخول إليه بالاستحمام فى بحيرته، وشعورنا مقصوصة، ثم ارتدينا ملابس خشنة وكان الكاهن المعين للإشراف علينا أكثر من غيره تدقيقا فى مراقبة أحوالنا وكان من حقه، وفقًا للتقاليد، أن يشتط ما يشاء فى معاملتنا، باسم إخضاع النفس وإذلالها. على أن هذه المعاملة القاسية لم تكن تمتد إلى بعض الطلاب من أصحاب المكانة الخاصة ولا إلى غيرهم ممن أتموا دراسة القانون واجتازوا امتحانها، وهم باستواء نموهم أقرب إلى الرجال منهم إلى الشباب، وما رغبوا فى الانتساب لخدمة « آمون » إلا ليكون مستقبلهم أكثر أمنا، فهؤلاء وأولئك كانوا يبذخون فى تقديم هداياهم إلى الكاهن طعاما ونبيذا، وبذلك كانت عيون المراقبة تغض عنهم وتطوع لهم فى كثير من الأمسيات أن يخرجوا من المعبد ليقضوها فى بيوت الملذات، وما كان ذلك بالأمر الغريب عليهم ، فقلوبهم خواء من العقيدة الكهنوتية.

وما كنت أنا من هذا في شيء ، فأفكاري المضطربة ومشاعري الجريحة كانت تضغط على نفسي ضغطا شديدا، فقنعت بكسرة الخبز وكوب الماء وهما غذاء الكهنوت، مرتقبا في أمل مشوب، ورجاء يخالطه التشاؤم، ذلك المستقبل الذي لا تتضح سماته ولا تبين معالمه.

لقد كنت في سني الصغيرة أشعر بالحنين إلى العقيدة، وقد قيل لنا إن « آمون » يظهر بنفسه في محيط الكهنوت، ويتحدث إلى كل طالب على انفراد كلما بلغ درجة معينة من الصفاء الروحي. وكنت ألتمس الراحة فيما أرجو أن يتاح لي من القدرة للتغلب على متاعبي النفسية والتحرر من ظروفي الاجتماعية. وقد أحسست في هذا الجو الكهنوتي بأشياء لم أكن أحسها قبل انتقالي إليه. ذلك أني لما كنت في رفقة أبي وبحكم اتصالي بمهنته عرفت المرض والموت، وبهذه المعرفة تميزت عمن كانوا في مثل سني، على أن هذه المعرفة كانت كذلك قد قررت في ذهني أن الطبيب إنسان تتهاوى أمامه القداسات، ففرعون على جلاله وخطره يقف أمام الطبيب عاريا كما ولدته أمه، وينحني له، ويخضع لأوامره ، ويستجديه العافية، بل الحياة نفسها، فالطبيب في عالم الأحياء أقوى سلطانا وأبعد نفوذا، ولا يطأطئ رأسه إلا أمام الموت وحده، وهو أمر يتساوى فيه الجميع من غير تفاوت ولا استثناء. ومن هنا كانت نظرتي إلى المقدسات داخل المعبد نظرة ينقصها اليقين أو أنها كانت نظرة الاستعلاء، إذ كنت في سبيلي إلى أن أكون طبيبا ، له كل هذه الخصائص والميزات. وباعد ذلك، شيئا فشيئا، بيني وبين ما كانت تلهمني إياه حداثتي الأولى من الحنين إلى العقيدة، وزادني ما رأيته عن كثب بالمعبد خلال السنوات الثلاث التي قضيتها به استغراقا في هذا الشعور الذي يمكن أن يسمى إلحادا ومروقا.

على أني مع هذا كنت أطمع في أن أستكشف « المجهول » المتواري خلف قدس الأقداس، عسى أن يظهر لي «آمون» ليمنح قلبي السلام ، ويفيض الراحة على روحي المعذبة.

كانت هذه الأفكار الشوارد هي شغلي الشاغل وأنا أتجول بين الأعمدة التي يتقارب حولها العلمانيون، وأدور بعيني على الصور المقدسة البديعة الرقوش والنقوش المعبرة في وضوح عن عظمة الهدايا التي كان يقدمها الفراعين إلى « أمون » باعتبارها نصيب الآلهة من غنائم الحروب.

هنالك وقع نظرى صدفة على سيدة كأنها تمثال من جمال، وهي تأخذنى بنظراتها المثيرة، في فضول سافر، وقد كانت كالغصن قواما وكالصباح وجها، ومع ذلك جعلت تزيد من فتنتها، فهي ترتدى ثوبا رقيقا من الكتان يشف عما وراءه من أجزاء جسمها البض، وجمالها الغض، وقد طلت شفتيها وخديها وزججت حاجبيها بألوان تزيدها فتنة وإغراء، وقبل أن يرتد طرفي عنها سمعتها تسألنى : ما اسمك أيها الفتى اللطيف ؟!

وكانت وهي تفاجئنى بهذا السؤال تحدق بنظرها في ردائى الرمادى الذى ينبئها بأنى طالب في سلك الكهنوت.

وأجبتها في شيء من الخجل: اسمى « سنوحى » . وكادت عيناى لاتقويان على مواجهة نظراتها الأخاذة الفاتنة؛ ولكننى في الوقت نفسه وددت أن تدعونى لأكون رائدها في مشاهدة المعبد، فقد كان ذلك من عمل الكهان.

وقالت، وهي تفكر وتردد اسمى وتنظر إلىّ من الرأس إلى القدم :

سنوحى ؟! إذن فأنت ممن يسهل إزعاجهم، ويكفى أن يفضى إليك إنسان بسر لتفر هاربا ..

وكانت هذه تورية إلى اسم « سنوحى » وما اشتهرت به أسطورته. فكأنما أضافت بذلك مضايقة جديدة إلى كثير من المضايقات التى أعانيها في مكايدات زملائى بالمدرسة. غير أنى استجمعت شجاعتى لأقول لها، وأنا أغالب سحر عينيها: وماذا يزعجنى أو يخيفنى يا سيدتى؟! إن الذى يهيئ نفسه ليكون طبيبا لا يمكن ، أو لا ينبغي له، أن يخاف الأسرار.

فتهلل وجهها وقالت : مرحى .. إن فيك لبشيرا بالنجابة . فخبرني إذن: هل تعرف بين زملائك شابا اسمه « متيوفر » ؟! إنه ابن رئيس البنائين من حاشية فرعون ..

« متيوفر » ؟ كيف لا أعرفه، إنه هو الذى غمر الكاهن عند قبوله بالمدرسة بالهدايا الطيبة، نبيذ وسوار ذهبى، ولكنى أحسست بشيء من الألم اللاذع حينما أجبتها بأنى أعرفه .. لقد طرأ على نفسى نحوها شعور غريب لم أتبينه تماما، وبخاصة عندما طلبت منى أن أدعوه إليها، فياله من فتى سعيد !.

وحاولت التجرد من هذا الشعور الذى بدأت أدرك أن مصدره الغيرة فتصورتها أخت «متيوفر» أو إحدى قريباته، وأنها جاءت لتلقى أخاها أو قريبها، وهذا أمر لا غرابة فيه.

وقلت لها : ما اسم سيدتى لأنبئه به ؟! فأجابت : إنه يعرف ... ودقت الأرض فى حركة عصبية، بحذائها المحلى بالجواهر، واستطردت تقول : إنه يعرف من أنا .. ولعلها استبانت فى وجهى أثر الشك فقالت : قد يكون مدينا لى فى شيء فجئت أتقاضاه، وقد أكون زوجة رجل مرتحل طال غيابه فأقبلت لأدعو صاحبى «متيوفر» ليسلينى عن وحدتى، أو ليس هذا معقولا؟!

وعاد الألم يحز فى أعصابى، ولكنى قلت على الفور: حسنا أيها الجميل المجهول! سأبحث عن «متيوفر» وأخبره أن سيدة فى مثل جمال آلهة القمر وفتنتها تدعوه إليها. وهو بالطبع سيعرف من أنت لأول وهلة فمن رآك لا يستطيع أن ينساك ..

وأدرت عنها وجهى ذاهبا للبحث عن صاحبها، ولكنها أمسكت بى قائلة : ولماذا تذهب هكذا سريعا؟! ابق هنا بعض الوقت، فإن لى معك حديثا غير هذا.

وأخذت تتأملنى من جديد فكأنما كانت تسدد من عينيها الفاتنتين سهاما إلى قلبى، حتى إنى كنت لديها وقتئذ كمن يذوب فى مصهر .

ولم تدعنى هذه الفاتنة فريسة الشعور المبهم، فدنت منى ومدت يدها المثقلة بالخواتم والأساور الذهبية، وأخذت تمر بها على رأسى قائلة فى حنو واسترخاء : إن هذا الرأس المقصوص حديثا ليبدو جميلا ! ..

وفي رقة ودلال تساءلت : أكنت تقول حقا حين وصفتني بجمال آلهة القمر وفتنتها؟! انظر إليّ من قريب.

ونظرت إليها فإذا هى تلوح لى فى ردائها الكتانى أكثر فتنة وجمالا، لقد كانت أجمل من رأيت من النساء، وهى من تلقاء نفسها تعرض جمالها عرضا صريحا لا تخفى منه شيئا ، فنسيت نفسي أو كدت أنساها، بل نسيت « آمون » و « دار الحياة » وانعقد لسانى فلم أحر جوابا».

وقالت فى حزن : إنك لا تجيب ... ولا أحتاج منك الآن إلى جواب لقد عرفت أن عينيك الحلوتين قد نظرتا إليّ كما لو كنت عجوزا شمطاء .. فاذهب إذن وادع إليّ « متيوفر» ، فلعل فى ذلك ما يريحك منى.

لم أتحرك ، ولم أنطق، ولكنى أدركت أنها تقول ذلك لإثارتى .. وكانت الظلمة تنشر أجنحتها حينذاك بين أعمدة المعبد، لايخالطها إلا شعاع من ضوء بعيد ينعكس على عيني هذه السيدة الجميلة ... كنا وحدنا، ولم يكن أحد يرانا ..

قالت وهى تبتسم : أحسبك لا تريد أن تدعو رفيقى « متيوفر » فإن كنت حقا لا تريد هذا، فإنى راضية أن تحل بموضعه منى وأن تجىء معى لتسلينى ، هلم !.

وقبل أن تستهوينى تماما هذه الدعوة العذبة، أومضت فى ذهنى ذكرى أحاديث أبى «سنموت» عن النساء اللواتى يغوين الشباب الموفورين بالفتوة والملاحة، فتراجعت خطوة إلى الوراء لأبتعد عنها .

ولكنها قالت وهى تزداد اقترابا منى : ألم أقل لك إن « سنوحى » إنسان مطبوع على الخوف؟ وحاولت أن تمد يدها لتضعها فوق رأسى ، ولكنى فى فزع نحيتها قائلا:

الآن، عرفت أى صنف من النساء تكونين ! إن زوجك غائب ، وقلبك أحبولة صيد، وجسمك يحرق أشد مما تحرق النار.

كان ذلك منى جرأة متكلفة، فالحقيقة أننى مع هذا التأبى الظاهر لم أستطع أن أترك المكان بعيدا عنها، وعرفت هى ذلك منى، فقاربتنى بعد مباعدة قليلة وقالت فى ابتسام ماكر : « أجاد أنت فيما تقول ؟!. أحسبك غير صادق فيه، ولا مؤمن به، فجسمى لا يحرق كالنار، وإنما يمكن أن يقال إن فيه إغراء .. ومع ذلك فما يمنعك أن تختبره بنفسك لتعلم ؟! ».

وفى حركة سريعة تناولت يدى ووضعتها على جسمها من فوق ملابسها الشفافة، فسرت بى رجفة، وعلت وجهى حمرة، فقالت متخابثة كما لو كانت تخشى خيبة الأمل: لا، هذا لايكفى ... إن ردائى يحجب عنك الحقيقة فيما يظهر.

وأخذت تدير يدى على صدرها عاريا فأحسست بملامسته نعومة وطراوة، وكأن نفسى تسربت فى جسمها. وهنا قالت : هلم يا « سنوحى » إلى منزلى لنشرب نبيذا ونقضى وقتا هانئا ...

قلت لها : لا أستطيع أن أبرح المعبد. قلتها فى خشية واستحياء ، فعلى فرط اشتهائى لها ورغبتى فيها كانت الشجاعة لا تواتينى لموافقتها فيما تدعونى إليه، بل لقد أخذت أخافها كخوفى من الموت. ولهذا استطردت قائلا : يجب أن أظل مصونا لا تلوثنى مأثمة حتى أنال هنا مرتبة الكاهن ، فأى انحراف عن هذه الجادة من شأنه أن يقصينى إلى الأبد من المعبد ومن « دار الحياة » ، وهذا ما لا يمكن أن يكون .

بهذه العبارات الصارمة كنت أدافع استسلامى لدعوتها إذا حاولت تكرارها، ولكنها كانت امرأة لعوبا، فلم تؤخذ بهذا الذى فهمت أنه تظاهر ملفق، إنها كانت ترى وراء هذا التظاهر ، عواطفى التى تضطرب ملتاعة مهمومة فى داخل نفسى، وكنا لانزال وحيدين، وإن كان الناس منا غير بعيدين يروحون ويجيئون، وعلى آذاننا يترامى

صوت الدليل الذى يقود الزائرين شارحا لهم غرائب المعبد أو طالبا منهم نقودا نحاسية ليريهم هذه الغرائب.

وفى هذه الوحدة التى مازالت تحتوينا راحت تواصل إغراءها قائلة : لشد ما أراك خجولا يا « سنوحى » ، إنك يا فتى لا تعلم أن الأغنياء والعظماء يخفون إلى سراعا بأموالهم وهداياهم إذا ما أومأت إليهم بمثل ما أدعوك إليه . وأنت .. أنت تريد أن تظل مستعصما !. يالها من حماقة !.

قلت فى تخاذل : ألا تريدين أن أدعو لك « متيوفر » ؟ إنه لن يتردد فى إجابة دعوتك، وفى وسعه أن يذهب إليك إذا ما جن الليل، ولن يمنعه عنك أن عليه نوبة المراقبة فى هذه الليلة . إنه لا يبالى ولا يخشى؛ لأنه ابن رئيس البنائين فى حاشية فرعون.

قالت : لم أعد فى حاجة إلى استدعاء « متيوفر » . حسبى أنى لقيتك ، وأوثر أن نفترق ، أنا وأنت ، صديقين وإنى لخبرتك من أنا، إننى « نفر نفر نفر » وهذا هو اسمى الذى يردده فى شغف المعجبون بجمالى، المتغنون به، وما أكثرهم ! .. والآن وقد أصبحنا صديقين ، أسألك ما هى هديتك التى ستهديها إلى قبل أن نفترق ؟ لقد جرى الأصدقاء على أن يتهادوا عندما يفترقون ليتذكر بعضهم بعضا بهذه الهدايا خلال فترة الغياب.

ووقعت كلماتها على قلبى موجعة، واستبدت بى الحيرة فى موقفى منها. إنها تفرض صداقتها على فرضا وتأخذنى بها أخذا مفاجئا وتتقاضانى ضريبتها الأولى فى صورة « هدية » وأنا الفقير الذى لا يملك شيئا ، ولو أنى كنت أملك خاتما نحاسيا لما طوعت لى نفسى أن أقدمه هكذا قربانا لامرأة تعرض لى فى الطريق لأول وهلة. نعم، إنى كنت قد أحسست بنشوة الميل إليها، ميل الغريزة المتحكمة فى عواطف شاب إلى امرأة جياشة الأنوثة ثائرة الفتنة، ولكنى كنت كملاح

غير مدرب، تلاطمت على قاربه الصغير بغتة أمواج عاتية، إن كل مايفكر فيه هو كيف ينجو بنفسه. ولهذا خفضت رأسي حيرة أو خجلا ، دون أن أنبس بكلمة .

ولكن المرأة الفاتنة عادت تقول : هيـة، أين الهـدية ؟ عجل ياصـديقى إن قلبى الظامئ يريد أن تنعشـه هديتك، وفي حركة سـريعـة أقـامت بيدهـا رأسـي المطرق ، وسلطت على وجهى أشعة عينيها المتأججتين، ثم قربت وجهها منى ففهمت ما أرادت ولمست شفتيها بشفتى.

فقالت وهي تتنهد : شكرا لك، إن عبير هذه القبلة عندى خير من أثمن هدية، وسأظل أتطيب به واستروحه ما حييت . غير أني أخالك غريبا عن هذه الديار ، فأنت لا تعرف كيف تقبل سيدة ، وكأنما عجزت فتيات « طيبة » عن أن يعلمنك هذا، وأنت .. أنت بشعرك المقصوص تستشرف الرجولة وتدنو منها .

قالت هذا ، ثم نزعت من إبهام يدها خاتما من خالص الذهب، يتوجه حجر كبير من غير نقـش. وفي رفق وحنان وضعته في إصبـعي قائلـة : هذا هو هديـتي لك يا « سنوحي » فلعلك ذاكرى بها، وإني لأرجـو حينما تجتاز طور الكهنوت وتنتقل إلى « دار الحياة » أن تنقش اسمـك على هذا الحجر كما يفعل الأثرياء وأصحاب المراكز الرفيعة. ولا تنس أن لونه أخضـر؛ لأنه اسمى « نفر نفر نفر » ولأن عينـي ، كما يقولون، خضـراوان كلون مياه النيل في حرارة الصيف.

وخـرجت من صـمـتي المطبق لأقول : ولكنى لا أستـطيع ، لا أسـتطيع أن آخـذ خـاتمـك يا « نفـر » . وكـررت « نفـر نفـر » ، فـأحـسـسـت في تكرار هـذا الاسم لذة وارتياحا.

قالت : فاحتـفظ به، أيها الفتى الأحـمق، إننى أريد ذلك، وقد تستطيع في قابل أيامك أن تهدى لى شيئا يعدله، واستطـردت وهي تهز إصبعهـا في وجهي قائلة : وتذكـر دائما أن تكون حذرا من النسـاء اللائي تحـرق أجسـامـهن أشد مما تحـرق النار !..

واستدارت مولية وجهها شطر الباب بعد أن أشارت بألا أتبعها، ولكنى تابعتها بنظرى مشدوها، فرأيتها من ثنايا باب المعبد ترقى كرسيا مزخرفا بالنقوش، كان خدمها ينتظرونها به هناك بالساحة الأمامية ، ثم حملوه وهى من فوقه، ومضوا بها وأمامهم واحد منهم يصيح فى الناس أن يفسحوا الطريق . فلما غابت عن نظرى شعرت بوحدة قاسية، وكأنما انحدر رأسى إلى هوة سحيقة مظلمة.

وعندما لقيت « متيوفر » بعد ذلك بأيام، استرعى نظره خاتم « نفر نفر نفر » فى إصبعى، فأمسك بيدى ليتأمله فى إمعان، وفى دهشة وشك، قال : بحق قرود « أوزوريس » الأربعين، إنى لا أكاد أشم ريحها فى هذا الخاتم، ولكن كيف يمكن أن أصدق ذلك ؟!

كان لا يقع فى تصوره أن مثلى فى رقة حاله يستطيع أن يبلغ من هذه المرأة موضع الآخرين الذين يتفردون عنى بالجاه والثراء، ولكنه برغم ذلك وتأثرا بظنون لم ترق إلى مرتبة اليقين، كان ينظر إلىّ منذ ذلك الحين، بما يشبه الاحترام ، حتى وهو يرانى مكبا على تنظيف أرض المعبد، قائما بالأعمال التافهة التى كان يوجبها الكاهن علىّ ويلزمنى بها إلزاما ، لا لشىء ، سوى أنى عاجز عن تقديم الهدايا إليه.

وقد تأثرت أنا بهذا الشعور، فتصورت احترام « متيوفر » لى لونا من النفاق الذى ينطوى على الحقد والكراهية، وعلى توالى الأيام، أخذ هذا التصور يقوى حتى صار فى قوة الحقيقة. ولقد كان يغلبنى الحنين إلى « نفر » ، فأهم حين ألاقيه بأن أسأله عنها، ولكنى كنت أرد نفسى عن ذلك معجلا، حفاظا بالسر، وتعللا بالحقائق المجهولة، فكثيرا ما تجد النفس عزاءها فى الخيال، وهناءتها فى الأحلام. وكم كانت الحقائق إذا نضت عنها القشرة المموهة مجلبة عذاب وآلام، ومدعاة تعاسة وشقاء .

رضيت إذن بالحياة على ذكرى « نفر » الملفقة الغامضة، وكنت بها سعيدا. وكان أكثر ما يسعدنى منها هذا الحجر الأخضر الذى أنظر إليه فيذكرنى بعينيها الخضراوين، تتألقان جمالا وتنفثان سحرا! ..

كانت هذه الذكريات جدولا رقراقا أنتهل منه آمالى وأحلامى، وبخاصة بعد أن ظهر لى « آمون » وتحررت أو كدت من مظاهر التزمت التى كان لامعدى لى منها قبل ذلك.

- ٣ -

قلت إن « آمون » قد ظهر لى، وهذه قصة يجمل بى الآن أن أرويها فإنه بعد أربع ليال من لحاقى بالمعبد، كنت أحد الذين نيطت بهم الرقابة والسهر على الأمن فى أرجائه، وكان رفاقى فى هذه المهمة ستة، هم « ماتا » و« موسى » و« بيك » و« سقوفر » و« نفرو » و« أحمس » . ولم أكن أعرف منهم إلا « موسى » « وبيك »، لأنهما كانا يتأهلان مثلى لدخول « دار الحياة » .

وكان علينا أن نمضى فى أثر الكاهن فى وقار، وهو يقودنا إلى الجانب المغلق من المعبد، فى حين كانت سفينة « آمون » (الشمس) فى ذاك الوقت، قد أبحرت خلف التلال الغربية، والحراس ينفخون فى أبواقهم الفضية إيذانا بإغلاق الأبواب.

وسار الكاهن أمامنا مكتنز الجسم بادى القوة لفرط ما يأكل من لحم القرابين والفاكهة والكعك الحلو، ووجهه يقطر عافية ولمعانا وحمرة، كأنه الوعاء البلورى الذى يشف عما أسرف فيه من الزيت المعطر والنبيذ المسكر ..

وكنا، وأنا بخاصة، على النقيض من ذلك تماما، لقد كان الضعف والهزال يسريان فى أوصالنا ويهدان من قوانا، لأن الصوم وتفاهة ما نتناوله من غذاء، قد فعلا فينا فعلهما . ذلك إلى ما كان يساورنى وحدى من قلق فى هذه الحياة الجديدة .

وتقدم الكاهن، وهو يضحك لنفسه، فرفع ستارا على فراغ منحوت فى الصخر لنرى قدس الأقداس، حيث يقف « آمون » وعلى رأسه غطاء منضد بالجواهر وحول عنقه قلادة مرصعة بالأحجار الكريمة ذات الألوان الخضراء والحمراء والزرقاء، وهى جميعا تبدو شديدة التألق فى ضوء المصابيح المقدسة.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها « آمون » . لقد رأيته قبل ذلك في عيد الربيع محمولا على قاربه الذهبي في ساحة المعبد الخارجية. وكان الناس جميعهم يخرون أمامه ساجدين. ثم رأيته كذلك عندما كان فيضان النيل يبلغ ذروته، يبحر بالبحيرة المقدسة فوق سفينته المصنوعة من خشب السدر. ولكني حينذاك كنت تلميذا تحت التمرين، وكنت من رؤيته غير قريب. ولهذا لم يكن لردائه الأحمر مثل هذا التأثير القوي على نفسي، وأنا أراه الآن في ضوء المصابيح وسط السكون الرهيب الذي يشع في المحراب الطاهر ..

إن الأثواب الحمراء كانت الأردية التي يتفرد بها الآلهة والفراعين وقد أخذتني الرهبة، وأحسست كان أحجارا ثقيلة وضعت فوق صدري عندما رأيت « آمون » في ثوبه الأحمر شامخا برأسه المتألق بالجواهر.

وانتبهت على صوت الكاهن وهو يقول - مستندا إلى قائمة الستار ليحفظ توازنه - انظروا وصلوا « لآمون » ، واسألوه أن يدفع الشر عنكم فقد يستجيب لكم، فمن عادته أن يكشف عن نفسه للطلاب، ويناديهم بأسمائهم، ويخاطبهم إذا كانوا يستحقون ذلك.

وبعد قليل رسم الكاهن علامات مقدسة متمتما باسم « آمون » المقدس، وأعاد الستار مسدولا كما كان، وانصرف تاركا إيانا في الظلمة الداجية بغرفة الانتظار الداخلية، وكانت أقدامنا العارية تكاد تتقلص من شدة الرطوبة في بلاط هذه الغرفة.

وما كاد الكاهن يغيب عن أنظارنا، حتى أخرج « موسى » مصباحا كان يخفيه تحت عباءته وقال : إن من الحماقة أن نظل هكذا في الظلام طول الوقت، وتسلل « أحمس » إلى المحراب، فجاء بلهب قدسي وأشعل المصباح، ثم حمل إلينا بعد ذلك خبزا ولحما تناولناهما في شيء من الطمأنينة. واستلقى « أحمس » على الأرض بعد فراغنا من الطعام وقد لف جسمه في عباءته لينام، وتبعه رفاقه فأخذوا أمكنتهم بجواره متلاصقين، وهم يتململون من صلابة الأرض ومن البرد القارس ، أما أنا فقد

بقيت مستيقظا غير مستسلم لدواعي النوم، ساهرا على الرقابة وإن كنت لا أخشى مفاجأة الكاهن بزيارته لنا ، فقد عرفت أنه تلقى من « متيوفر» إناء نبيذ، وسمح له ولاثنين أخرين من الطلاب بأن يتناولوا النبيذ معه فى غرفته.

كنت مخلصا لواجبى فى الرقابة، فلم أتخل عنها كما فعلوا، على الرغم من أن الطلبة كانوا يجعلون من أيام التلمذة طور لهو وعبث، يقضونه موزعا بين طعام وشراب، ولعب ونوم.

وخلال ليلى الطويل كان يساورنى الشوق إلى رؤية « أمون » منفردا، إذ كان رفاقى كلهم قد استغرقوا فى نومهم. وقد وجهت نفسى بجملتها إليه، مكررا أسماءه المقدسة، كبير الأمل فى أن يظهر لى ويناديني، فقلبى عامر بالإخلاص له، وروحى قد صفاها الصيام وصدق التعبد، ولكن السكوت والصمت العميق كانا يخيمان على المعبد ، ولم ألحظ شيئا سوى اختلاج ستار المحراب قليلا عند اقتراب الصباح، ولم تكن هذه الحركة إلا أثر الهواء الذى أحسست به متساقطًا على المكان فى ذاك الوقت.

وعلى ضوء النهار الذى أخذ ينساب فى القاعة أيقظت زملائى، وفى اللحظة نفسها كان الجنود ينفخون فى أبواقهم، وحراس الأسوار يتبادلون نوباتهم، والساحات الأمامية بدأت تزخر بالناس الذين يضطربون فى جنباتها .

وأقبل علينا الكاهن يرافقه « متيوفر » متأبطًا ذراعه، ورائحة النبيذ تفوح من أنفاسهما، وبإحدى يديه المحراب المقدس، وكان يتمتم بأدعية دينية خاصة. ثم سألنا نحن السبعة – بعد أن حيانا – عما إذا كنا قد أدينا واجب المراقبة والصلاة تقربا إلى الإله العظيم « أمون » وتوسلا إلى نيل رعايته ورضاه. فأجبنا جميعا، وفى صوت واحد : نعم، لقد فعلنا.

وكان هذا جوابًا خاليًا من الصدق بالنسبة لرفاقى الستة . وعاد الكاهن يسألنا وهو يحدق نظره فينا: وهل أظهر « أمون » نفسه لكم ، برا بوعده لمن يستحقون ذلك؟

فجعل كلا منا ينظر إلى الآخر بجانب عينه كأنما يستوحيه الجواب عن هذا السؤال. وكان « موسى » أسرعنا إلى الجواب فقال : نعم. لقد أظهر نفسه لنا . وتابعه الرفاق، واحدا بعد الآخر، فكرروا نفس مقالته . وكان « أحمس » أشد تحمسا في تأكيد ذلك !..

وكما أدهشتني إجابتهم الأولى، أدهشتني إجابتهم الثانية، فهم في الحالين كاذبون، ووقف قلبي استهوالا لهذا الكذب الجرىء المنافي لمبادئ الخلق القويم. وكان أعجب ما عجبت له ، تلك الفرية الضخمة التي قذف بها « متيوفر » في وجوهنا وفي وجه الكاهن على الأخص. فقد زعم أنه كذلك، قد راقب وصلى في مكان آخر، مدعيا أن ضرورة عمل هام قد اضطرته لأداء هذا الواجب بعيدا عنا، وأردف قائلا : ولقد ظهر لي « آمون » في شكل إناء ضخم من النبيذ وأسر إلى أسرارا مقدسة تتعلق ببعض شئون لا يليق ذكرها هنا، وقد أنعشني اتصاله بي مثلما أنعشني النبيذ الذي ظللت أروي به نفسي الظامئة حتى مطلع الفجر.

وكان « متيوفر » في أكذوبته الجريئة ينظر إلى الكاهن محملقا، ويستشهد به على صدقه، ولم تخف علينا معاني هذا الاستشهاد، فقد كنا نعلم أن « متيوفر » قضى ليلته مع الكاهن، يسمران على أقداح النبيذ، فلا رقابة ولا صلاة ولا تجليات « أمون » ولا شيء من أسراره المزعومة .

وأبى الرفاق أن يكون حظهم من ظهور « أمون » أقل من حظ هذا الرفيق « متيوفر » ، فراحوا يتزيدون في إجاباتهم ، فقال « موسى » : لقد ظهر لي « آمون » في صورة ابنه « حوراس » ووقف على كتفي كالصقر هاتفا : بورك فيك يا « موسى » وفي آلك ، وفي أفعالك، إنني جد راض عنك ، وبفضل رضائي هذا سيتحقق لك ثراء طويل عريض ويصبح لك منزل فخم، لأسواره بوابتان، وسيكون لك حاشية وخدم كثيرون.

وقال الآخرون مثل مقالة « موسى » بفارق يسير في الشكل واللون وصيغة الأداء. وكل منهم ينافس صاحبه في الزيادة والتهويل، بل في الاختراع والتزوير. فقد أسرفوا جميعا في هذا، وما كان يجول بخاطرى أن يأثموا بأكاذيبهم إلى هذا الحد، فانعقد لساني ولم أحر جوابا .

وكان الكاهن يستمع إليهم، وهو يهز رأسه مبتسما راضيا، فلما رآني جامدا معقود اللسان صرخ في وجهي قائلا في ضيق: وأنت يا « سنوحى » ! ألم تكن جديراً برؤية « آمون » ؟! قل . ألم تره في صورة ما ؟ تذكر .. لعله ظهر لك في صورة فأر صغير .. إنه يظهر نفسه في صور وأشكال متعددة.

واستجمعت قوتي المشردة لأقول : بلى .. لقد رأيت ستار المحراب المقدس عند الفجر يتحرك قليلا، ولكنى لم أر شيئا آخر، وبالتالى لم يتحدث إليّ « آمون » .

وهنا انفجر الجميع ضاحكين. وكان « متيوفر » أكثرهم استغراقا في الضحك، وقال للكاهن كما لو كان يعتذر عني : إنه فتى ساذج .. ثم مال على أذنه ليهمس بكلام لم أسمعه، فنظر إلى الكاهن بعد نظرة صارمة وقال محتدا : إذا لم تسمع صوت « آمون » فمن المستحيل أن تحصل على شهادة اللحاق « بدار الحياة » وأردف قائلا في لهجة الرثاء والعطف: وعلى أية حال ، ينبغى أن نجد لذلك علاجا فأنت على ما أعتقد شاب طيب، تنزع إلى الأغراض الشريفة.

ومضى عنا الكاهن بعد ذلك إلى قدس الأقداس. وأقبل « متيوفر » نحوى وعلى ثغره ابتسامة ليقول لى : لا تخف .. قالها بلهجة تقطر حنانا ليسرى عني الكآبة التى استفاضت على وجهى، والأسى الذى ملأ جوانح نفسى.

ولم نلبث إلا قليلا حتى فجأنا صوت خارق للطبيعة، لا يشبه صوت إنسان، ينبعث في القاعة، مترددا في كل جنباتها، كأنه صادر من كل الأنحاء في وقت واحد، من السقف، ومن الحوائط، ومن بين الأعمدة، وكان يقول : سنوحى !! سنوحى !! أيها

الفتى البليد .. أين أنت ؟! أقبل معجلا وانحن أمامي، فوقتي أغلى من أن أضيعه من أجلك.

ولكني لم أحرك ساكنا، فجذبني « متيوفر » بكل قوته وأدناني من ستار قدس الأقداس، وضغط على رأسي من خلف فأحناه، حتى كاد يبلغ موضع قدمي وكانت هذه هي التحية المفروضة للآلهة والفراعين، على أنه حين رفع يده عني عدت فرفعت رأسي على الفور، فرأيت الضوء قد غمر قدس الأقداس، وسمعت إذ ذاك الصوت كأنه يخرج من فم « أمون » فيقول « سنوحي !! سنوحي !! أيها القرد .. هل أثملك الشراب ؟! أو كنت نائما عندما ناديتك ؟! حقا، إنك لتستحق أن تلقى في عين حمئة ، وتزدرد من طينها طوال أيامك، ولكني من أجل شبابك سأعفو عنك برغم غبائك وقذارتك وتراخيك، وإني لعطوف على من يثقون بي، أما أولئك الذين لم يمس نور الإيمان قلوبهم فمصيرهم إلى هوة سحيقة في مملكة الموت.

واستطرد الصوت، أو على الأصح صاحب الصوت، يقول كلاما كثيرا تتخلله عبارات السباب واللعنات التي لم أعد أتذكرها كلها، ومن الخير ألا أتذكرها فقد ثقلت في ذلك الوقت على روحي وشعرت منها بالمرارة والمهانة، لم يسترح عقلي إلى صدورها عن إله مقدس، فشككت في مصدرها وأرهفت سمعي إلى جرس الصوت ونبراته، متفقدا ناقدا، فتبينت أنه صوت الكاهن، قد زاده التمثيل ورجع الصدى اتساعا وقوة رنين.

وتوقف الصوت، فلم أبرح مكاني حتى أقبل الكاهن فنحاني عنه، وتبادر رفاقي فحملوا البخور والزيوت والعطور والملابس الحمراء، وكان لزاما على كل منا أن يؤدي عملا، فمضيت إلى الساحة الأمامية وعدت منها بإناء الماء المقدس والمناشف المقدسة لغسل وجه الإله ويديه وقدميه ، واشمأزت نفسي حين رأيت الكاهن يبصق على وجه « أمون » ، ثم يمسح البصقة بكم قميصه القذر، وأخذ « موسى » و « نفرو » يدهنان بالطلاء شفتيه وخديه وحاجبيه. أما « متيوفر » فكان يدلك جسمه بالزيت، وعلى

عـادته من المرح والفكاهة كـان كـذلك يمسح بالزيت المقدس وجـه الكاهن ووجـهـه هو أيضًا ! ..

كان تمثال « آمون » عاريا كله ليغسل وينظف ويضفى عليه قميص جديد أحمر ومن فوقه مئزر باللون نفسه.

وقد جمع الكاهن الملابس التي رفعت عن التمثال بعد استبدال ملابس أخرى بها، واستولى معها على المياه التي غسل بها آمون ، وعلى المناشف التي مسح بها جسمه، لتباع الملابس في الساحة الخارجية للسياح الأغنياء، وتستعمل المياه دواء للأمراض الجلدية.

وبعد أن فرغنا من هذه الواجبات، انطلقنا أحرارا إلى ساحة المعبد، حيث الشمس الساطعة هناك، وقد أخذ إيماني بالآلهة يخبو نوره وشيكا في قلبي وفكرى.

وأخيرا، وبعد انقضاء أسبوع، وضع الزيت فوق رأسي، وأقسمت يمين الكهنوت، وأعطيت شهادتي، موسومة بخاتم معبد « آمون » ومكتوبا عليها اسمي لأنتقل بها إلى « دار الحياة ».

ومن ثم أصبحنا، أنا و« بيك » و« موسى » ، طلابا بهذا المعهد : ونقش اسمى في سجله كما نقش فيه من قبل اسم أبي « سنموت » واسم أبيه من قبله، وكان ذلك حقيقا أن يسعدني، ولكني حينما اجتزت أبواب « دار الحياة » كنت قد فقدت سعادتي.

« دار الحياة » .. جزء من معبد آمون العظيم، وكان الإشراف الدراسي الفني بها موكولا إلى أطباء ملكيين ، كل للفرع الذى تخصص فيه، وقليلا ما كنا نراهم، فقد شغلتهم في أكثر الوقت أعمالهم الطبية الخاصة خارج المعهد، وكانت أعمالا واسعة النطاق، يصيبون منها دخلا وفيرا وبخاصة ما كان يتوافى إليهم من هدايا مرضاهم الأغنياء . وكانوا يتخذون مساكنهم بمبعدة من المدينة ومن المعبد، على أنه إذا حدث أن وفد على « دار الحياة » مريض أنهكه المرض واستعصى علاجه على الأطباء

العاديين، فإن الطبيب الملكي المختص يستدعي فيجيء لفوره، ويأخذ في تطبيب هذا المريض على مشهد من الطلبة التابعين لفرعه، وقد يشهد عمله معهم الأطباء العاديون الذين عجزوا عن علاج المريض ليزدادوا علما. ومن هنا كان مفهوما دائما أن المرضى الفقراء لا يفقدون حظهم من عناية الطبيب الملكي. وقد ذهب هذا في الناس مأثرة من مآثر « آمون ».

وكانت مرحلة التعليم طويلة حتى بالنسبة للموهوبين الأذكياء، إذ كانت منهاجا ذا حدود وآماد لا مجال فيها للسبق والتجاوز. وكان علينا أن ندرس العقاقير والأدوية السائلة، ونتعلم أسماء وخصائص الأعشاب والنباتات، والفصول والساعات التي تحصد أو تجنى فيها، وكيفية تجفيفها واستنباط موادها. فالطبيب أو الطالب الذي سيكون طبيبا، ينبغي أن يعرف دقائق الدواء الذي يصفه لعلاج مرضاه، وأن يمرن على تركيب عناصره بنفسه، فقد يتطلب الأمر ذلك. وكنا نشعر بشيء من الضيق لهذا، فقد كان الرأي عندنا إذ ذاك أن عمل الطبيب مقصور على تحرير تذكرة الدواء، وفق ما تمليه عليه حال المريض الذي قام بالفحص عن مرضه، أما تحضير الدواء نفسه والمزاوجة بين أنواعه وما يقتضيه ذلك من تقطير وتصعيد وقياس ووزن، فهذا من عمل القسم الخاص بالصيدلة في « دار الحياة » . ولكن هذا الذي برمنا به وغابت عنا حكمته، كان له بالنسبة لي أحسن الأثر في مستقبل أيامي.

وكان علينا كذلك، أن نتعرف - تعرفا دقيقا - أعضاء الجسم المختلفة وأسماءها وطبائعها ووظائفها وعلاقة بعضها ببعض، وأن نتعلم كيف نكتشف أمراضها ونستشف ما خفي واستتر من عللها وكيف نستعمل المباضع والآلات والأجهزة لشتى الأمراض والأجسام، وأن نمرن أيدينا على كثير من عمليات الجراحة وفصل الأعضاء .. إلى غير ذلك .

كما كان علينا أن نتعلم كيف نستظهر حقائق الأمراض فيما نسمعه من أفواه المرضى ونميز بين النفسي منها والعضوي وبين الصحيح منها والزائف، وما هي الأسئلة التي نلقيها على المرضى لنستبين من الإجابة عليها نوع المرض وماهيته.

وقطعنا المرحلة المرسومة، وفرغنا من منهجها المقرر، وبلغنا من الدراسة الطبية مبلغ القادرين على التمرس بأعمال المهنة ومقتضياتها، وشهر ذلك في احتفال تقليدى يقام عادة فى ختام الدراسة. ومن ثم لبست ردائى الأبيض وأخذت فى مباشرة واجباتى الجديدة بقاعة استقبال المرضى. وقد تناول عملى كثيرا من صنوف العلاج لاقتلاع الأسنان المريضة، وتضميد الجروح وتقويم العظام واستعمال المبضع في فتح الدمامل والبثور. ولم يكن شيء من هذا جديداً في حياتي، فقد ألفت ذلك وخبرته خلال مراقبتى لأبى، وضاعفت الدراسة المنظمة علمى به وخبرتى فيه، فنلت بهذا تفوقا ملحوظا على زملائى، ومكن لى من حق الإشراف عليهم وإصدار التعليمات إليهم، وفى بعض الأحيان كنت أتلقى من هدايا المرضى مثلما يتلقاه الأطباء الأساتذة.

وكنت أكتب تذكرات الدواء للمرضى، فطاب لى أن أنقش اسمى على الحجر الأخضر للخاتم الذى أهدته لى « نفر نفر نفر » لأوقع به على هذه التذكرات .

وألقى على كاهلى كثير من الواجبات الهامة، ونيط بى الإشراف على المرضى الميئوس من شفائهم والذين يتولى علاجهم أشهر الأطباء، سواء أكان ذلك بتناول الدواء أم بإجراء عمليات الجراحة، وقلما كان يشفى واحد من كل عشرة منهم. وحينذاك أدركت أن الطبيب لا يخيفه إقبال الموت، كما أن من المرضى من لا يرهبه الشعور بأنه فى طريقه وشيكا إليه، بل إن منهم من يشغف بلقاء الموت مثل شغفه بلقاء صديق حميم. لقد كانوا، لطول ما عانوا من أوجاعهم، يلتمسون فى الموت راحتهم ، حتى إننى قد رأيت منهم مرضى أفلتوا من الموت واستعادوا صحتهم ، ولكنهم كان يلوح عليهم أنهم غير راضين عن أنفسهم بهذه النتيجة ! .. ذلك لأنهم عائدون إلى ما كانوا عليه من مكابدة الشقاء فى حياتهم.

وإلى ذلك الحين كنت أعيش فيما يشبه الغفلة في عماها وصممها، غير أنى في هذا الطور الجديد من حياتى بدأت أحس بحرارة اليقظة تنثال على ذهنى فجأة، كما كان قد حدث فى طفولتى وأنا فى مدرسة « أونح » عندما انبعثت الحياة انبعاث

المعجزات فى الصور والحروف والكلمات، فتفتح بها ما كان مغلقا من عقلى وتعلمت القراءة والكتابة، وكنت أحسبهما شيئا غير مستطاع !..

ولقد أصبحت فى يقظتى الجديدة لا أعرض الأمر إلا ساءلت نفسى : لماذا ؟!

لم أعد أرانى فى هذا المحيط أداة جامدة تتحرك فى موضعها تحركا أليا، فليس يجمل بى أن أبقى كذلك مادمت إنسانا ذاعقل وإرادة وبصر ..

وحدث بعد هذا أن جاءتنى امرأة لم تنجب أطفالا، وقد بلغت الأربعين من عمرها، فاستقر فى عقيدتها أنها عاقر واستنامت إلى الراحة فى اليأس، ولكن محيضها تخلف أخيرا عن موعده، وانتابتها لذلك آلام، فأقبلت على « دار الحياة » لعلها تجد فيها خلاصا من هذا العارض الذى تخشى أن يكون روحا شريرا تسلل إليها، لينفث السم فى جسمها ..

وعلى أساس ما تعلمناه موصوفا فى مثل هذه الحالة، ألقيت ببعض حبات القمح فى قطعة صغيرة من الأرض، وشطرت القطعة شطرين ، وسقيت أحدهما بماء النيل ، ودفعت إلى الآخر مقدارا من « بول » المرأة ، وطلبت منها أن تعود بعد يومين ، ففيهما ، وبفعل حرارة الشمس فى الأرض، يظهر نبات القمح، ويمكن عند ذاك إبداء الرأى .

وفى الموعد عادت المرأة، ونظرنا إلى الأرض فإذا بالجزء الذى سقاه ماء النيل يبدو بناته ضئيلا متهافتا، أما الآخر فبدا نباته مزدهرا مخضوضرا قوى الاندفاع، وهنا قلت للمرأة اليائسة القلقة: أبشرى ياسيدتى ، فقد منحك أمون المقدس بركته ونداه، وستلدين طفلا كمن أنعم عليهن أمون من النساء..

وتندت علينا المرأة بقطر من دموع الفرح فما كان يخطر ببالها أن تنال مثل هذه الحظوة من الإله المقدس فيحور يأسها الطويل أملا، وتتبدل حياتها من صحراء ممحلة إلى واحة مزهرة، هكذا فجأة. وكانت هذه بشرى حبيبة إلى نفسها رأت أن تجزينى عليها فى الحال، فانتزعت السوار الذى كان يزين أحد معصميها وقدمته لى فى بسمة عريضة شاكرة، وقالت وهى فى نشوة : لعلك مخبرى – أيها الصادق العليم – أيكون

ما بين أحشائي ولدا ؟! .. وكانت فيما بدا من لهفة سؤالها ترجو أن يكون الجواب بشرى ثانية بأنها ستلد ذكرا، فلم أشأ أن أقطع عليها سبيل الرجاء . فأجبتها غير متلبث : نعم سيكون ذلك .

وكنت حينما ارتجلت هذا الجواب أحس كأنى أتجاوب مع سر مولودها المغيب، ففي تلك الأيام كان حظى يسعى بين يدى متفتحا، كثيرا ما كنت أتنبأ بأمور غير منظورة، فتقع كما تنبأت بها، وهو شيء دين به إلى الحظ وحده. ووثوقا منى بمحالفة هذا الحظ، تنبأت لها مولودها الذكر ، وأنا مطمئن إلى الحظ لا إلى العلم اليقيني . أما السيدة نفسها فقد لاحت سعيدة أكبر السعادة بهذه البشرى الثانية ، ولفورها انتزعت سوارها الآخر من معصمها الثاني وقدمته لي متهللة ، لتضاعف لى هديتها. وكان كل من السوارين يزن ست أوقيات ونصف أوقية من الفضة.

وعدت إلى نفسى، بعد انصراف السيدة أسائلها : كيف أن حبة القمح تؤتى علما لم يؤته الطبيب ، فتنبئ بالحمل فى حين لا يجد الطبيب بعينه وعلمه أمارة من أماراته ولا ظاهرة من ظواهره؟!

واستخفى السر على عقلى ، فسألت أستاذى ، مجترئا ، السؤال نفسه ، ولكنه رمقنى بالنظر الشزر، وقال فى لهجة من يتهمنى بالغباء : هكذا قالت الكتب .

وطبعا لم يقنعنى جوابه. وفى « دار الأمومة » حركنى الشك، فكررت سؤالى على الطبيب الملكى المولد، فلعله أن يكون بطبيعة عمله وتجاربه أكثر علما ، ولكنه لم يزد سوى قوله : إن آمون إله الآلهة يعلم ما تحمل كل أنثى ... وهو بعلمه هذا يمنح حب القمح قوة النماء فى معرض الإشارة إلى ما تجرى به مشيئته فى خفاء عن علم الناس ، فما بالك لا تدرك هذا؟!

لكنى كذلك لم أقتنع .. ومن هذا وأمثال هذا ، أصبحت أعتقد أن أطباء« دار الحياة » لا يجاوزون فى علمهم حدود ما قرءوه نصوصا جامدة، وما تلقوه ميراثا من مصطلحات العرف والتقاليد ، بل إن العرف والتقاليد كانت أشد تحكما فى تصرفاتهم

من نصوص الدراسة. فلو أنني سألت : لماذا يعالجون الجروح التي تنزف قيحًا وصديدًا بالكي، ولا يعالجونها بالتنظيف والتضميد ، فإن الإجابة لا تعدو قولهم : على هذا وجدنا آباءنا !

إن العمليات الجراحية وعمليات البتر المئة والاثنين والثمانين المبسوطة في كتب الطب، كانت في أيدي الأطباء مجرد أدوات يختلفون فيها اختلافا آليا، كل منهم بقدر ما أصاب من التجربة والمران ، والدقة والإهمال، والسرعة والبطء ، وعلى ذلك لم يكونوا يزيدون عليها شيئا بالاجتهاد وطلاقة التفكير .

وأحيانًا كان الطبيب إذا رأى مريضا مصفر الوجه ناحل الجسم لا يتحرى العمق في الكشف عن العلة الكمينة المسببة لذلك، فيصف لعلاجه تناول الكبد النيئة من حيوانات القرابين، وهو علاج تمليه التقاليد ، ولا يمليه العلم المنظم القائم على الدراسة، ولكن المريض مع ذلك قد يشفى تماما بتناوله هذه الكبد التي يشتريها بالثمن الغالي، ولا يجوز أن يسأل إنسان مثلي : لماذا يكون هذا هو العلاج الشافي ؟!

وشبيه بهذا ما كان يعرض للأطباء من بعض أمراض المعدة الظاهرة، إنهم كانوا من غير تدقيق وبدون مبالاة يعالجونها بالمسهلات أو المسكنات، فمن المرضى من يبرأ ومنهم من ينتفخ بطنه، ثم يموت ، ولا يعرف أحدا لماذا برئ هذا أو لماذا مات ذاك، فما يفكر أحد في نشدان المعرفة أو الجد في طلبها.

وضقت بهذه الحال ذرعا، فالشكوك في نفسي تنمو وتلح، والذين حولي قد سئموا مني تكرار الأسئلة والاستفسار، وهم غير فاقهين دواعيها السليمة عندي ، وليس عندهم من الرشد وسعة الإحاطة العلمية مايهيؤهم لمسايرتي في التعرف إلى الحقائق واستكناه العلل والأسباب، وربط النتائج بالمقدمات، فأثاروها شكوكا على عقيدتي ، وأنكروا ذلك مني ، فتخلفت وسبقني المتأخرون، وعلا مكانهم على مكاني، فلم أستطع المقام بينهم، ومن ثم خلعت ردائي الأبيض، وخرجت من « دار الحياة » حاملا معي السوارين الفضيين اللذين يزنان ثلاث عشرة أوقية.

استرعى نظرى بعد خروجى من المعبد الذى أمضيت فيه بضع سنين، أن مدينة « طيبة » قد تبدلت خلال هذه السنين تبدلا واضح المعالم، وبخاصة على امتداد شارع « رامس » وفى الأسواق .. فهنا وهناك حركة جياشة، والناس فى ملابسهم وأزيائهم قد بدوا أكثر أناقة، ورقت الفوارق المميزة بين الرجال والنساء، فهم جميعا يستعملون الشعر المستعار الذى صار يجلل رءوسهم ، وكذلك النصف الأسفل من لباسهم متعدد الثنيات. وفى الحانات ودور المباذل كانت تترامى على الأسماع نغمات الموسيقى السورية مجلجلة، وفى الطرقات كان السوريون والزنوج والمصريون يغدون ويروحون جنبا إلى جنب وقد اختلطت فى أحاديثهم اللهجات المتباينة ...

رأيت هذا فلم أستغربه، فقد بلغ القطر المصرى أقصى درجات القوة والثروة؛ لأن قرونا مضت لم تطأ فيها أرضه قدم عدو ، ومنذ بعيد سكنت الحروب، التى كانت تفنى فيها أرواح وتضيع أموال، أكثر متوسطى الأعمار من المواطنين لم يدركوا حربا، ولكنى مع ذلك كنت ألمح على وجوههم بعض سمات القلق كأنهم يرتقبون فى شىء من الوجل حدثا من الأحداث، فهل تراهم حقا غير سعداء ؟

وبقلب مفعم بالهموم بلغت دارنا، فإذا أبى « سنموت » قد لاح عليه الكبر ، فظهره إلى انحناء، وضوء بصره فى خفوت وذبول، وكذلك كانت حال أمى « كيفا » فهى تلهث إذا تحركت قليلا، وحديثها لا يكاد ينقطع عن المقبرة التى ستثوى بها. وكان أبى قد أراح بالها من هذه الناحية، فقد اشترى ، بما استطاع أن يدخره ، مقبرة فى « مدينة الموتى » بالجانب الغربى للنهر وشهدت أنا بعد ذلك هذه المقبرة فألفيتها ذات رونق وجمال، قد بنيت بالأحجار ، وعلى حوائطها نقوش وصور مما جرت به العادة، وحولها من مثلها مئات وألوف باعها الكهنة للشرفاء والأثرياء بأثمان عالية، طمعا فى الخلود. وبدافع من حبى لأبى وأمى أعددت كتابا عن الموت يهتديان به فى المقبرة خلال رحلتهما الطويلة، وكان كتابا رائعا تأنقت فى كتابته خطى وإن لم يكن مزركشا أو ملون الصور. كتلك الكتب التى تباع بمكتبة معبد « آمون » .

وعندما كانت أمي تقدم لي الطعام، كان أبي يسألني عن دراساتي ، فيما عدا ذلك لم نجد حديثا نديره بيننا. كانت الدار كما كانت الشوارع، كما كان الناس الذين يضطربون فيها، كان كل أولئك في نظري صورا قريبة، كأن لم تصلني بها صلة من قبل .

إن أيامي الأخيرة في « دار الحياة » قد أنشأت عندي شعورا ساخطا ضجرا ولهذا لم ألق ما كنت أرجوه، بعيدا عنه، من تسرية وتحرر وانتعاش روح.

وفي هذا الضيق المتصل، ومضت بخاطري ذكرى صديقي « تحوتمس » الذي التحق بمعهد « بتاح » ليكون فنانا ، فتعلقت بهذه الذكرى ، ووجدت فيها متنفسا من همومي الجاثمة، ثم صح عزمي آخر الأمر على ملاقاة صديقي « تحوتمس » لأجدد معه عهد الطفولة وأنس بصحبته لعلي أنسى ماقاسيت من رفاق « دار الحياة » وأساتذتها وأطبائها ومسائلها المعقدة التي أعياني السؤال عنها دون أن أجد جوابا .

ومن ثم ودعت أبوي زاعما لهما أني عائد إلى « دار الحياة » ، ومضيت متجها إلى معبد (بتاح)، حاملا السوارين اللذين ما زلت محتفظا بهما، فبلغته قبل مغيب الشمس، وأرشدني الحارس إلى مقر مدرسة الفنون. وهناك وجدت الطلبة حول أستاذهم، ولم أجد من بينهم صاحبي « تحوتمس » ، فسألتهم عنه، فتجهموا وبصقوا على الأرض كأنما ذكرت لهم اسم نجس، وقالوا إنه قد فصل من وقت طويل .

وأزعجتني المفاجأة ، ولكن الطلبة حين خلا المكان من أستاذهم، أسروا إلى أني واجد صاحبي في حانة « الجرة السورية » .

فرحت أستهدي الناس إليها حتى بلغتها في مكان وسط بين الأحياء الفقيرة والأحياء الغنية، وقد علت واجهتها لافتة تعلن عن خصائص النبيذ المستخرج من كرمة « آمون » ونبيذ المرفأ ، وامتد بصري إلى داخلها مستطلعا ، فرأيت فيها أشخاصا أدركت لأول وهلة أنهم من الفنانين ، فقد كانوا ، وهم جلوس على الأرض، مكبين على لوحات يرسمون فيها، وقريبا منهم رأيت إنسانا يرنو في أسى إلى إناء بجانبه كان

فارغا من النبيذ، فما إن تلاقت نظراتنا حتى انبعث هاتفا باسمى، وأقبل نحوى رافعا يديه فى دهشة، وقد اكتشفت فيه، بعد جهد، صديقى « تحوتمس » وأنكرت حاله ، فقد صار هو الآخر شخصا غير الذى كنت أعرفه. إنه الآن إنسان حائل متهالك، تشيع فى وجهه تجعدات الشيخوخة ، ولم تكن ملابسه بأقل من ذلك تشوها ، فهى رثة مهلهلة قذرة. على أن هذا الإنسان الذى تراءى هكذا ناحلا متلاشيا ، كان لايزال فيه من « تحوتمس » نظراته النفاذة وروحه المرح، فما إن تلاقينا حتى طوقنى بذراعيه يضمنى إلى صدره ضم الحبيب المشوق، ويقبلنى قبلات حارة متدافعة .

وسرنى منه أنه مابرح وفيا لعهد الصداقة وذكريات الصبا ، ولم أحفل إذ ذاك بما يغمره من مظاهر الحياة الواهنة، فإنما كنت أبحث عن قلبه وروحه وشعوره، وقد وجدته من ذلك فى عافية ، فما يعنينى منه شىء غير هذا .

وبادرته قائلا : هيا ياصديقى « تحوتمس » نشرب نبيذا ، ونسبح به فى أجواء الخيال، فقد أمضتنى حقائق الناس، وأشقانى العقل معهم. إنهم يتسابقون سراعا إلى غير هدف معلوم. فإذا أثارنى العقل لأسأل أحدهم فيم هذا الأمر أو ذاك، لوى وجهه عنى ساخرا ، ومضى فى سبيله متسابقا مع الآخرين، وانتهى أمرى إلى حيث وجدت نفسى وحيدا متخلفا ، ولم أكن على باطل ولم يكونوا على حق، فسئمتهم كما سئمونى ، وبادلتهم جفوة بمثلها ، وتركتهم لشأنهم، وخرجت لشأنى باحثا عنك يا صديقى .. فإلى النبيذ إذن، فليس فى سواه لنا عزاء .

ولكن صديقى « تحوتمس » أومأ إلى إناء النبيذ الفارغ، وألقى يده فى جيبه ليخرجها كذلك فارغة، ونظر إلى نظرة باهتة تعبر عن أسفه، فليس عنده نقود لما أدعوه إليه، فعاجلته بقولى مبتسماً : لا عليك من ذلك، ثم أخرجت السوارين الفضيين من طيات ملابسى ولوحت بهما قائلا: أحسب فى هذين الكفاية؟

ولم يجب « تحوتمس » ، إلا أنه أشار إلى رأسى المقصوص الشعر، وفهمت المراد من إشارته ، فالناس يعدون صاحب الرأس المقصوص كاهنا ، » وكنت من قبل

أطمع في أن أظهر بينهم بمثل هذه المرتبة العالية »، ولكني الآن كرهت ذلك وضقت به، فهو مانعي من حق الجلوس في حانة، ومن تعاطي النبيذ على مشهد منهم، وغمرني شعور الأسف لأني جردت رأسي من الشعر ولم أدعه ناميا مرسلا كما كان، على أن نفسي الثائرة على التقاليد المنافقة، لم تأبه لذلك، وقلت لصاحبي : لست كاهنا ، ولكنني طبيب ، ويجوز لي أن أشرب النبيذ في الحانات. وقد قرأت على لافتة الحانة إعلانا عن نبيذ المرفأ، فادع لنا به إن كان جيدا.

فهتف « تحوتمس » بالساقي، وطلب منه نبيذا « مخلوطا » وقال إنه يستطيبه لقوة تأثيره، وجاء أحد الأرقاء فصب الماء على أيدينا ، ثم حمل إلينا طبقا به بعض التوابل المشهية، في حين أقبل صاحب الحانة نفسه حاملا قدحين مترعين بالنبيذ، فوضعهما على المائدة ، فرفع «تحوتمس» قدحه وأفرغ منه قطرة على الأرض ، داعيا بحق (إله الخزف المقدس) أن يحل الطاعون ويهلك أساتذة مدرسة الفنون، وراح يردد أسماءهم بترتيب كراهيته له، فأغراني هذا بمجازاته، فما كانت نفسي أقل منه غيظا وسخطا على من تركتهم هناك داخل أسوار المعبد فأملت قدحي مثله وصببت منه قطرة على الأرض قائلا : فلتثقب سفينه « أمون » ، ولتغرق إلى الأبد ولتنزل اللعنة على الكهنة، ولتبقر بطونهم، وليفتك الوباء بأساتذة « دار الحياة ».

قلت هذا في صوت خفيض متلفتا، حتى لاتتلقفه أذن شخص لانعرفه، غير أن « تحوتمس » قال لي : لا تخف، فآذان « أمون » بهذه الحانة قد أصابها الصمم لطول ما سمعته مكررا ومعادا من هذه اللعنات.

وأخذنا بأطراف الحديث بعد ذلك ، فقال وهو يقص على بعض شأنه : أتراني كنت أجد خبزا وجعة لو لم أكن وفقت إلى فكرة وضع كتب مصورة لأطفال الأغنياء ؟

واستطرد : وهاك شيئا مما يعجب به هؤلاء الأطفال ولا يرضى عنه الكثيرون من الرجال، ثم راح يضع تحت بصري مجموعة كان يدير فيها ريشته قبيل مقدمي، فما وسعني إلا أن أضحك حين رأيت رسم قلعة تقوم هرة على حمايتها، والهرة ترتجف

فرقا أمام فأر يحاول الإغارة عليها. وكذلك أضحكني رسم فرس البحر يشدو بالغناء على قمة شجرة في حين كانت حمامة تصعد إليه، متثاقلة على درجات سلم مستند إلى جذع الشجرة.

وإنما ضحكت لأن صاحبي في تصويره هذا يبرز الطبيعة المألوفة مقلوبة الأوضاع، فالهرة لايمكن أن تحمي قلعة ، وهي تخيف الفأر ولا تخاف منه، وفرس البحر لايعلو قمم الأشجار ، وإنما تعلوها الحمامة التي صورها صاعدة متثاقلة ، وهي الخفيفة ذات الجناحين، على درجات سلم ! ..

وفي ابتسامة ساخرة، طوى « تحوتمس » أوراق البردي التي تحمل هذه الصور لينشر أمامي لوحة أخرى رسم عليها كاهنا قصير القامة أصلع الرأس ، يقود فرعونا ضخما كأنه بهيمة القربان، وهما يسيران معا على حبل دقيق !. وثمة لوحة غيرها صور عليها فرعونا ضئيل الجسم وهو ينحني أمام تمثال ضخم لآمون.

وهنا لم أضحك، فقد كان في تصويره الأخير يهجم في غير تقية أو حذر على مقدسات وعقائد لايأمن المتطاول عليها خطر العقاب الصارم، وأدرك هو مايجيش بخاطري فقال: وما في هذا أيضا من غرابة ياصديقي؟ أليس هو الواقع الذي نحسه ملموسا ونراه شائعا! لماذا يدهشنا أن نرى فأرا يهاجم قطة، ولا يدهشنا أن نرى « فرعون » يقوده كاهن ؟ مع أن الأمر الأخير أشد مطابقة لواقع الحال.

وكأنه ذكر فجأة ماوراء هذه الصراحة الجريئة من خطر، فبدا عليه شيء من الانزعاج، وقال : غير بعيد، على أية حال، أن يلقاني الكهنة في الطريق العام فيضربوني بهراواتهم حتى أموت، ولا يجديني عندئذ أن جوفي قد ملئ خبزا وجعة.

فقلت مسريا عنه: دع هذه المخاوف ، ولا تكدر علينا صفو اللقاء ونشوة الشراب، ومضينا في شرابنا ومفاكهاتنا .

ولكن قلبي كان لم يزل بعد غير مبتهج، فإن تفكيري في « دار الحياة » وفي العوامل التي طوعت لي الخروج منها، كان يلاحقني ولا يفلتني ، فقلت لصديقي «

تحوتمس » : هل من الخطأ أن يسأل الإنسان : « لماذا؟ ». أجاب نعم. فهذا خطأ، ومن يجترئ عليه فجزاؤه الحرمان من الراحة والمأوى في أرض « كيم » . هذه هى الحقيقة هنا ياصديقى، وعلى من يؤثر السلامة والعافية، أن يرضى بما هو كائن، ويسير مع القافلة وإلا تحطم تحت سنابك خيلها المسرعة .. ولعلى مثلك قد قارفت الخطأ نفسه، فعندما التحقت بمدرسة الفنون كنت أكاد أطير فرحا واغتباطا، كنت كالظامئ، وجد عينا جارية، أو كالجائع وقع على خبز دسم، وقد تعلمت أشياء كثيرة دقيقة، منها كيف أحسن استعمال القلم والريشة ، وأجيد استعمال أزميل وصوغ نماذج الشمع لما ينحت فى الصخر ، ونحت الحجر وصقله، والنقش فى المرمر والرخام . تعلمت هذا كله لقانة ودرسا ومرانًا . فلما انتقلت من طور النظريات والتجارب، إلى طور التطبيق العملى، لم أجد أمامى إلا ألواحا من الطين، ولم يؤذن لى بالعمل فى غيرها خضوعًا لحكم التقاليد. وللفنون كما للكتابة تقاليدها، وهى المسيطرة المتحكمة. ومن يجاوز نطاقها أو يشذ عن أحكامها فإنه الآبق المرتد الملعون، ومن ثم يصبح غير صالح للبقاء فى المعبد، ويحال بينه وبين الأحجار والأزاميل والمراسم. وقد حيرنى هذا ولم أفهمه، فسألت مثل سؤالك : « لماذا » . وأظنك الآن قد فهمت السبب الذى ألقى بى من أجله إلى هذه الحانة . فلقد طردت، كما لا أحتاج أن أقول، من المعبد، بعد أن جعلوا وجهى ، بضرباتهم، شائهًا كما ترى .

استمعت إلى حديث « تحوتمس » وتمثلت مأساته فاستراح قلبى، فلم أعد وحيدا فى الحياة ولا فى الشقاء ، واستطرد هو قائلا : لقد ولدنا يا « سنوحى » فى أوقات عجيبة، وتلاقينا فى أوقات عجيبة مثلها ، والأقدار التى هى صنعت هذا لكلينا تريد أن توثق العلاقة بيننا ، وإرادتها هى الغالبة ، النمض على وحيها، وليكن ما يكون بعد ذلك ، وما أرى الأمور فى تبينها إلا التحرر والتحلل، فالأزياء والكلمات والموروث من العادات، وغير ذلك من طبائع الحياة وتقاليدها، كل هذا قد شمله التغيير ، وتفاعلت معه نزعات الفكر المستيقظ، وماهى إلا نزعات الخلاص من أسر طال أمده واحتلك ليله ، والناس قد وهنت عقائدهم فى الآلهة، ولكنهم يخافون الجهر بذلك، وهم لايخشونها

وإنما يخشون على أنفسهم ومصالحهم من أصحاب السلطان الحاكمين باسمها. على أني ألمح - غير بعيد - مشرق يوم جديد . من يدرى ياصديقي، فلعل أن تكون الأقدار قد هيأت لنا أن نشهد مغيب عالمنا الذى نعيش فيه. وألحق إنه لعالم شائخ يفتقد عناصر الحياة، هذه اثنا عشر قرنا قد مضت منذ شيدت الأهرام ومعاقل الآلهة وحصون الكهنة ، ألست معي فى أنه عمر طويل ، ممعن فى الطول ؟

وأردف « تحوتمس » إلى ذلك : ألا وإنى كلما تصورت حياتنا هذه التى تختلج اختلاج الاحتضار، وتهتز اهتزاز الفناء ، هاجت نفسى حسرة ، وصرخت باكيا صراخ الأطفال ..

قال « تحوتمس » ذلك ، ولكنه لم يبك .. فقد كنا نشرب النبيذ المخلوط فى أقداحه الملونة ذات الصفاء الخالب، وكان صاحب الحانة لايكف عن الإلمام بنا ليملأها من جديد ، ومن لحظة إلى أخرى يجيء خادم الحانة ليصب الماء على أيدينا، والجو يزداد فى شعورنا انتعاشا، فأحسست أن قلبى الذى كان مثقلا بهمومه، قد أخذ يتحرك منتشيا ، ويخف حتى لكأنه فى خفة العصفور فى مطلع الشتاء. وخيل إلى أنى أستطيع أن أنظم قصيدا وألقيه على الجماهير، فأستولى به على مشاعرهم، فإذا هم جميعا طوع إشارتى .. وكان « تحوتمس » يسبح معى بلا شك فى هذا البحر من الخيال والشاعرية، فقد كان موفور البهجة، ظاهر المرح، متلاحق الضحكات..

وقال « تحوتمس » : حسبنا من الحانة ذلك الوقت الذى قضيناه على هذه المائدة، فهيا بنا إلى مكان آخر، وليكن بيتا من بيوت اللهو، نستمع فيه إلى الموسيقى، ونستمتع برقص فتياته، ونقضى هناك لحظات أوفر سعادة ، وأكثر مرحا، ولنكف ياصديقى عن أن نسأل : « لماذا ! ».

وكانت الشمس قد توارت وراء الحجاب حين أخذنا سبيلنا إلى حى الملاهى. وهناك رأيت ليل « طيبة » قد استحال نهارا، ففى هذا الحى المائج كانت المشاعل تسطع أمام بيوت الملذات، والمصابيح المعلقة على الأعمدة فى زوايا الشوارع ترسل

ضوءها فياضا، والأرقاء في غدو ورواح يتصايحون وعلى أكتافهم ورءوسهم مقاعد سادتهم، وقد اختلطت بصيحاتهم موسيقى الملهى وصخب الثملين والسكارى، ولم أكن حتى هذه اللحظة قد غشيت بيتا من بيوت اللهو، ولكنى استسلمت إلى صديقى « تحوتمس » وهو يقودنى إلى بيت منها يسمى بيت « القطة والأعشاب »، وكان بيتا جميلا تزينه المصابيح المذهبة، والوسائد الوثيرة وفيه القينات الجميلات يغنين على نفخ المزامير، وضرب الأوتار، وتوقيع المزاهر . فجلسنا إلى رواد الملهى وأدلينا بدلونا فى دلائهم، وأرسلنا أنفسنا معهم، ولما فرغ القيان الجميلات من الغناء والعزف طفن حولنا، ثم اتخذن مكانهم إلى جانبنا ، وفى تيه ودل، وتمايل وإغراء ، يسألننا نبيذا يترطبن به، فقد جفت، كما يزعمن، حلوقهن. وبعد قليل نهضت فتاتان شبه عاريتين وانسابتا بيننا انسياب الأفاعى ، فرقصتا على ضروب من الخفة والمهارة ودقة التثنى رقصا استهوى منا الأفئدة، واستثار إعجابى بوجه خاص، فلم أر من قبل، على كثرة مارأيت وأنا طبيب، من أجسام النساء العارية مثلما رأيت الآن فى هاتين الراقصتين، من امتشاق قد، واتساق صدر، إلى فتنة مشتهاة فى افترار الثغر، وازدهار الوجه. على أنى لم أكد أسرح بخيالى فى هذا الجو الذى ينفث المتعة والجمال حتى هبت عاصفة الموسيقى فارتدت خواطرى من حيث لا أدرى إلى شىء من الشجن والأسى، كأنما كانت الموسيقى تنفض على أذنى لحنا جنائزيا. وفيما كنت كذلك اقتربت منى فتاة بادية الجمال والفتنة، وراحت تصانع عواطفى، ثم قالت لى وهى تطيل النظر فى عينى الخامدتين : إن فى عينيك بريق أعين الحكماء.

فنظرت إليها دون أن أجيب ، ذلك لأنى لم أتبين فى عينيها خضرة ماء النيل فى حرارة الصيف، كما لم أر على أجزاء جسمها غير العارية لباسا من الكتان الملكى، فلم أحفل بها. وعلى رغم إمعانها فى إغرائى لم أجد بى ميلا إلى مطاوعتها فى مجاذبة الحديث، أو إلى مناداتها بكلمة : « يا أختى »، كما يفعل الآخرون. وانصرفت عنها إلى النبيذ ، أتجرع كئوسه دراكا، وظللت هكذا حتى غبت عن

وعيى ، فما أدرى بعد ذلك إلا أننى أفقت فوجدت نفسى طريحا فى الطريق، وفى رأسى شجة عرفت بعد أنها نتيجة سقوطى على درج السلم مدفوعا من زنجى كان يركلنى ، فكان أول ما ذكرته وأنا فى تلك الحال، أن أبى « سنموت » قال لى يوما إن هذا بعض ما ينتهى إليه المسرفون فى شراب الخمر، وغاظنى أكثر من أى شيء آخر أنى وضعت يدى فى جيبى فلم أجد به شيئا متبقيا من المال. وبهذا بلغت المأساة أقسى حدتها .

وعندما أهل الصباح كان رأيى قد استقر على عودتى إلى « دار الحياة » ، فما فى غيرها خير، وليس عنها بعد مالقيت محيص. فأخذت وجهى إليها مقررا فى نفسى ألا أجرى على لسانى كلمة « لماذا ؟!». إنها كلمة ، على رءوس حروفها المتاعب، فمن الحماقة وخطل الرأى أن أظل متعلقا بها ، وأن أكون وحدى ناشزا بها على رأى الجماعة وأوضاعهم.

وكانت عيناى قد انتفختا، وملابسى قد رانت عليها إثارة من قذارة فأسرعت فور وصولى إلى ملابسى البيضاء ، فارتديتها بعد أن أصلحت نفسى بقدر ما تهيأ لى من ذلك، ولكن أستاذى لم يخف عليه أمرى ، فراح يفزعنى بكلمات لاذعة لا أنساها، مستعملا فيها السؤال الذى طالما أضجرتهم به، كقوله « لماذا » كنت تدور طول ليلك حول الملاهى ؟!.

« ولماذا » كان إسرافك فى شراب النبيذ ؟! « ولماذا » كان ارتيادك بيوت الملذات وتحطيمك أوانى الشراب على نحو لا يلائم المواطن الشريف ؟

وأردف أستاذى هذه الأسئلة بابتسامة عريضة تحمل معنى الرضا والتسامح واصطحبنى معه إلى حجرته ، وجرعنى دواء ملينا لتنظيف معدتى .

ومن هنا بدأت تسرى فى مشاعرى روح الانتعاش ، فقد أدركت أن « دار الحياة » تغضى عن مآثم الخمر وبيوت الملذات، على أن يكف مرتكبها عن سؤاله « لماذا ؟ ! ».

- ٦ -

وأغرانى ما لقيت فى « دار الحياة » من التسامح واغتفار الزلات ، بلهو « طيبة » ولياليها المرحة، فشغلت بها حتى أصبحت مشاعلها المتألقة أحب إلى نفسى من ضوء الشمس ، فما يقبل المساء إلا تعجلت الغدو عليها كأنها عندى بداية نهار. والواقع أن أذنى كانتا تحنان دائما إلى تهاليل الموسيقى السورية وإلى ذلك الجرس الرقيق من نغمات القيان الحسان ولطائف غزلهن، وكانت من قبل لاتسمعان إلا أنين المرضى وشكاتهم. وقد دفعنى الحرص على أن أظل فى أمن من اعتراض أساتذتى ووقوفهم فى طريقى ، إلى أن أكون أشد محافظة على واجباتى، وأمضى همة فى القيام بعملى ، وأكثر إقبالا على مرضاة الممتحنين بوجه خاص، وإلى حد بعيد تحقق لى ما أردت من ذلك ، وصار هؤلاء الذين كنت أخشاهم يرغبوننى وإن لم يكن ترغيبا صريحا، فى مطاوعة شهوات النفس، والاستجابة إلى نداء الشباب ، فذلك يحيى القلب ويبهجه. وقد يجد الطالب فى هذا قوة دافعة ، أو إثارة نافعة، أو ذلك هو المعنى الذى فهمته من إشارات الأساتذة .

وأرسلت نفسى على هواها فى غشيان ملاهى « طيبة » كلما أقبل الليل، ومع ذلك لم أتجاوز العلاقة الخفيفة مع النساء ، حتى بعد أن تبينت أن أجسامهن لا تحرق أشد مما تحرق النار.

وفى هذه الأيام كان القلق شائعا فى الناس، « ففرعون » العظيم كان مريضا، وقد رأيته بوجهه العجوز المتجمد محمولا إلى المعبد فى عيد الخريف، وكان، فى أبراده المزينة بالذهب والأحجار الكريمة، يبدو كأنه تمثال لا حركة فيه، حانى الرأس تحت التاج المزدوج لفرط وهنه وضعفه، وقد غلب اليأس فى علاجه، فما عاد يجدى فى شفائه طب الأطباء ، ومن هنا تردد بين الناس أن أيامه باتت معدودة، وأن رأس ولى عهده يقترب وشيكا من التاج، وكان شابا فى سن المراهقة مثلى .

وفرعون « أمنحوتب الثالث » كان يطمع من أبيه « آمون » في أن يشفيه ويرد العافية إليه، ويرى من حقه أن ينال ذلك منه، فهو قد أقام له أعظم معبد لم تشهد مصر مثله في سائر عهود تاريخها . ولكن هذا الرجل أخذ يضمحل مع اضمحلال بدنه، ويتزايل مع تزايل قوته. وقد بلغ من يأسه وضعف رجائه في المدد المنتظر من آلهة مصر، أن ولى وجهه شطر صهره ملك « ميتاني » في مدينة « نهاران » ليرسل إليه الآلهة « عشتروت » صاحبة الشهرة المدوية في صنع المعجزات، لتبرئه من علته، وتخلصه من براثن الموت. ولكن أمله في هذه المحاولة قد خاب، كما خاب رجاؤه في آلهته. وكان من حسن حظ الكهنة أن عجز الآلهة الأجانب عن شفائه .

ولم يبق من سبيل في محيطنا الطبي إلا أن يستعان في علاجه بالمحاولة الأخيرة، وهي إجراء عملية فتح الجمجمة، ولذلك استدعى إلى القصر جراح الرأس الملكي « بتاحور » . وكنت لم أره خلال عهدي الطويل في « دار الحياة » إذ كانت عمليات جراحة الرأس عندنا نادرة ، فضلا عن أنه لم يكن مسموحا لي في عهد الطب بأن أحضر مع الإخصائيين في علاجاتهم وعملياتهم. فهاهو ذا الآن قد أقبل علينا في « دار الحياة » ، وكان – على مارأيته لأول مرة في دارنا – أصلع نفاذ البصر، فياض الحيوية وإن كان وجهه قدتجهم بالشيخوخة وبما أشاعته فيه من تجعدات. ولقد عرفني في الحال وقال مبتسما : إنه أنت يا « سنوحي » ! هل تقدمت ياابن « سنموت » ؟! ثم ناولني صندوقا خشبيا أسود اللون محتويا على آلاته وأجهزة عمله، ودعاني إلى مرافقته، وكان ذلك شرفًا عظيمًا آثرني به دون الآخرين، وكنت به موضع الغبطة ، بل الحسد ، حتى من بعض الأطباء الملكيين.

وعرفت من « بتاحور » أنه يريد أن يتحقق ، قبل العملية التي سيقوم بها في جمجمة فرعون، من أن يده لم تزل تحتفظ بقوتها وثباتها ، ولهذا يرغب في تجربتها بفتح جمجمة أو اثنتين ، وكانت يده فعلا تختلج بعض الاختلاج، ولعل هذا هو الذي أخافه منها.

ودخلت معه غرفة المرضى المفلوجين والميئوس من شفائهم ، فاستعرضهم وسبر حالاتهم ثم اختار رجلين منهم، أحدهما عجوز استفحل مرضه حتى ليعد الموت راحة له، وثانيهما رقيق من الأرقاء وثيق البناء قوى العضل، ولكنه كان فاقد النطق ، وأطرافه معطلة منذ جيء به مصابا بضربة في رأسه ، فأعطاهما مخدرًا وأشار بحملهما إلى حجرة العمليات، وعملا بإشاراته قصصت شعر رأسيهما، ونظفتهما غسلا بالماء ودلكا بالمرهم، ثم شرع « بتاحور » ، بعد تعقيم أسلحته فى عمله مبتدئا برأس المريض العجوز فسلخ فروته وأدار به، بعد تعريته، مثقابا تداعت على أثره دائرة العظام فرفعها، وأجال بصره فيما تحتها فاحصا فى حين كان الرجل المريض يئن أنينا موجعًا، وقد كسا وجهه اللون الأزرق ، وقال « بتاحور » بعد قليل من التأمل : لا أرى شيئا هنا يمكن أن يكون سببا فى مرضه. ثم أعاد دائرة العظام إلى موضعها من الرأس ولفها بالضمادات ليحبس الدماء التى كانت تتدفق منها غزيرة، على أن الرجل المريض كان فى هذه اللحظة يسلم النفس الأخير من حياته .

وطلب « بتاحور » كأسا من النبيذ ليتماسك به، فقد أحس بشيء من الإعياء وارتعاش باليد، وكان يحيط به جمهرة من النظارة ، ومن بينهم أساتذة « دار الحياة » والطلبة الذين يعدون أنفسهم لجراحة الجمجمة. فلما استعاد نشاطه بالنبيذ تحول إلى المريض الثانى مقيدا، وكان ينظر إلينا نظرات مفزعة على الرغم من أنه كان تحت تأثير المخدر . وقد أشار « بتاحور » بأن يزاد وثاقه وأن نضع رأسه بين فكى منجلة مخافة أن يفلت .. وكما فعل بفروة رأس المريض الأول ، فعل بهذا المريض الثانى، ولكنه فى هذه المرة كان أكثر عناية بوقف نزف الدم، فأدار على شرايين الفروة سفودًا محميا ليكويها، ومسح عليها بالمرهم، ثم أخذ يزيح قطعة من الجمجمة فى مكان الإصابة، بقدر قبضة اليد، مستعملا مثقابا ومنشارا وملقاطا. وعندئذ أومأ إلينا لننظر الدم متجمدا، ومتجمعا فى ثنية هذا الموضع من المخ، وفى كثير من العناية والدقة أزال هذا الدم المتجمد ذرة فى أثر أخرى، ثم التقط كسرة من العظم كانت قد اندفعت فى مجرى المادة المخية.

واستغرقت هذه العملية بعض الوقت، فاستطاع الطلبة خلالها أن يعوا الكثير من دقائق جهاز الرأس . وكان « بتاحور » نفسه يعنى بأن يفيدوا من هذا الدرس العملى، ولهذا أشرك معه فى العملية بعض أطباء « دار الحياة » ، ولو أننى فهمت وقتها أنه إنما استعان بهم عن قصد آخر هو إراحة يديه للعملية الكبرى المقبلة فى رأس فرعون.

وبعد أن فرغ « بتاحور » من استخراج كسرة العظم من مخ المريض، وضع على فتحة الجمجمة صحيفة من الفضة كانت قد أعدت منذ قليل على الجزء المكشوف، وثبتها فى مكانها بمشابك دقيقة خاصة، وخاط الأطراف وأحاط الرأس بالضمادات، ثم أمر بإيقاظ المريض الذى ظل فاقد الوعى وقتا طويلا، فحلوا وثاقه وصبوا فى حلقه نبيذا ونشقوه بعض العقاقير المنبهة . وما إن فعلوا هذا حتى هب من مرقده ثائرا وهو يقذف من فمه الشتائم واللعنات.

ولم يحوجنى « بتاحور » إلى أن أسأل لماذا تكلم هذا الذى كان منذ وقت معقود اللسان ، أو لماذا تحرك هذا الذى كان بيننا مشلول الأطراف كل الحركة؟ فقد أخذ من تلقاء نفسه يشرح لنا فى إبانة وتفصيل كيف أن شظية العظام التى تسربت إلى المخ وجمدت الدم هى العلة والسبب.

وقال « بتاحور » : إن هذا المريض سيزول عنه الخطر تماما بعد ثلاثة أيام، وبعد أسبوعين يستطيع أن يعصف بالرجل الذى ألقى الحجر على رأسه فكسره.

ثم وجه شكره إلى مساعديه فى العملية وذكرنى باسمى بينهم ، وزاد بذلك من غبطتى ، وشعرت بأنه يولينى اهتماما أكثر منهم عندما دعانى إلى مساعدته فى عمليتين أخريين من عمليات الجراحة. وأخيرا قال الآن يمكن الاطمئنان إليك فى ممارسة العملية الكبرى بجمجمة فرعون هيئ نفسك لذلك .

فأسرعت مزهوا إلى رداء الطبيب المبتدئ فأفزعته على جسمى ، وأخذت مكانى إلى جانب «بتاحور » على محفته وبجوارى المساعد المختص بوقف نزف الدم ،

وسارت بنا المحفة متهادية، والخدم يتقدمونها ليوسعوا الطريق أمام حامليها، إلى أن بلغنا المرفأ، ومنه أبحرنا على سفينة فرعون ؟ كانت بانتظارنا وعلى ظهرها الرجال الأشداء الذين جعلوا يجدفون مسرعين بها إلى مرفأ فرعون، ومن هناك حملنا بنفس السرعة إلى قصره البهى.

ولم أستغرب هذه الحركات السريعة فى قدومنا إلى القصر، فإن المظاهر التى رأيناها ونحن نخترق شوارع « طيبة » كانت تنبئ بأن المدينة تهب لملاقاة حادث جلل. فالجنود متراصون على أهبة الاستعداد ، أبواب المدينة مغلقة والتجار يتسابقون إلى إيداع بضائعهم فى مخازنهم. وأبواب الدور قد أغلقت بالأرتاج والمزاليج ، كل هذا لأنهم عرفوا أن « فرعون »، يصطرع مع الموت فى جولته الأخيرة .

القلق فى "طيبة"

- ١ -

وفى مثل تدفع المياه من القمة العالية سرى بين الناس نبأ قدومنا إلى القصر الملكى، وكانوا يتجمعون حواليه ويرصدون بعيون متلهفة ما يجرى بداخله، وكذلك كانت صفحة الماء بين يدى مرفأ القصر تغشاها وتزحم أقطارها القوارب المصنوعة من الخشب والغاب، قد توافت بأصحابها من الأغنياء والفقراء على السواء ليشتركوا فى تسمع آخر الأنباء . ولم يكن اقتراب السفن والقوارب من المرفأ قبل ذلك مباحا لأحد، لوقوعه بمنطقة القصر ذات القداسة. ولكن الأمر فى ذلك اليوم كان خاضعا، كغيره، لسلطان العاطفة المضطربة، ولا يقيده نظام قائم أو تقليد متبع.

وكنا، ونحن ماضون إلى القصر، نرى فى وجوههم علامات مستفيضة من القلق والفزع ونستمع إليهم يلهجون بعبارات اليأس والقنوط . فقدوم جراح الجمجمة إيذان بخيبة الرجاء فى نجاة « فرعون » ، ذلك لأنهم يعلمون أنه مامن فرعون من فراعين مصر السابقين، أجريت له جراحة فتح الجمجمة، وهو فى مثل هذه الحال من إدمان العلة واستعصاء المرض ووهن القوة، إلا لقى حتفه، وتوارت عن هذا الوجود شمسه.

وبلغنا جناح الملك مجتازين إليه طريقا تظلله أشجار السوسن، وتلقانا الأمناء ورجال الحاشية في احترام كبير، وحفاوة بالغة ، وتبادل « بتاحور » وطبيب الملك الخاص بعض عبارات ، تجهم لها وجه « بتاحور » فقد أدرك كما أدركنا أن الحالة من السوء بحيث لا يومض فى ناحية منها أمل ، ولكنه راح يعد تدابير العملية غير مكترث لنتيجتها، وقد خصصت لها إحدى الحجرات، ومن ثم أضيئت الأنوار المقدسة، واتجهنا إلى مخدع الملك.

وكان فرعون مسجى على سريره الذهبى، الذى يقوم على أعمدة من تماثيل الأسود، منتفخ الجسم مجردا من شارات الملك ، ورأسه مائل إلى جنبه، فاقد الوعى والحركة إلا من زفرات خافتة، وهنا شهدنا فرعون العظيم الذى تحرسه الآلهة وتحميه، قد زالت عنه مظاهر العظمة المميزة أصبح على أبواب النهاية، كأى مريض آخر من الفقراء الراقدين هناك فى « دار الحياة » . إنه الآن تحت أعيننا لايستطيع أن يجد مسعفا من ملكه العريض، وسلطانه القوى، يتقى به القضاء النازل! فليس ثمة فرق بينه وبين أعجز فرد من عامة رعاياه ومقدسيه! وماذا يجديه اليوم أن غرفته تزين بلوحات تمثل قوته وشجاعته ومن بينها لوحة تمثله على عربة تجرها خيول مطهمة وتركض به ركضا سريعا وهو بريش السهام إلى الأسود ويرديها. لقد ذهب عنه كل شيء، حتى مجرد النظر إلى ماضيه منقوشا على لوحات الرسم .

وانحنينا أمام مرقده احتراما للموت الذى يطل عليه بكل علاماته، كان الرأى عندنا أنه لا جدوى من فتح رأس فرعون فى هذه اللحظة التى تلاشى فيها آخر قطرة من زيت المصباح . ولكن كان لامناص من إجراء عملية مهما يكن الرأى فيها، فمنذ أقدم العصور كانت هى المحاولة الأخيرة ، ولهذا قرر « بتاحور » البدء فيها، ومن ثم عكفت على تعقيم الأدوات على لهب النار، كما راح طبيب القصر الخاص يحلق شعر رأس الملك، فى حين أشار « بتاحور » إلى رفيقنا المختص بوقف نزف الدم ليعلو السرير ويمسك رأس الملك بين يديه.

وفى هذه الآونة أقبلت علينا الملكة « تايا » واتجهت فى عجل إلى السرير فنحت الرجل عن رأس الملك قائلة : لايجوز لمثل هذا أن يلمس ملكًا، فإن كان أن يمسك من أن يمسك إنسان برأس الملك، فإنى لفاعلة ذلك بنفسى .

وكانت الملكة تبدو فى أسى ظاهر، ومن خلفها يقف وريث العرش الصغير « أمنحوتب » وأخته « باكيت أمون » ، وقد عرفتهم ثلاثتهم بسيماهم بمجرد النظر إليهم ، فقد كانت تقوم لهم بالمعبد تماثيل تطابق صورهم أشد المطابقة. أما ولى العهد فكان فى مثل سنى وإن كان أطول منى قامة ، أما أخته الأميرة فكات ترتسم على

وجهها سمات الجمال والنبل، وأما أمها الملكة فكانت أميل إلى القصر، في شيء من البدانة الملحوظة، وفي بشرة وجهها سمرة واضحة، وبخديها سعة ونتوء عظام ، وقد ذكرت حين رأيتها ماكان يقال عن الأصل الذى انحدرت منه، لقد كان يقال إنها من طبقات الشعب ، وفي عروقها يجرى دم الزنوج. على أنه مهما يكن أمر مولدها ونسبها ، فإنها قد تراءت لنا مهية جليلة المظهر، يبرق الذكاء وتلتمع القوة في عينيها النفاذتين.

وكانت في تنحيتها الرجل عن رأس فرعون تعرب عن شعورها المستعلى بالنسبة لفرد من العامة فى مثل هوانه شأنا. والحق إنها، بهذه الحركة، فقد دلت على قوة ذكائها وفطنتها ، فالرجل أصلا من طبقة الرعاع وكان راعي ثيران لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يكن اختياره لعملية وقف النزف راجعا إلى مواهب خاصة يمتاز بها، وإنما كان اختيارا عاديا لا يتطلب شيئا من الامتياز. وقد انقطع لهذا العمل ومرن عليه لقاء أجر معين، وكان من الممكن أن يقع الاختيار على غيره من بيئته نفسها، فالأمر في ذلك يجيء اتفاقا لا أكثر. على أن حاله تغيرت بطبيعة لصوقه بصناعة الطب، من أحد أطرافها، فصار على شيء غير قليل من النظافة وصفاء المنظر بالقياس إلى ما كان عليه قبلا من الخشونة والغلظة. ولم يسترح « بتاحور » إلى تدخل الملكة على هذه الصورة، فالرجل الذى لا تأذن له بمباشرة عمله، لا تستطيع الملكة أن تقوم فى العملية مقامه وقد وجه نظرها إلى ذلك قائلا إن العملية جراحة ونزف دماء ولا تحتمل أعصابها أن تشترك فيها، فكيف وهي تحمل بين يديها رأسا عزيزا عليها هو رأس زوجها الملك ؟ ولكن الملكة لم تحفل بهذا الاعتراض وتقدمت في رباطة جأش وجلست على طرف السرير وحملت على كفيها، في عناية بالغة، رأس فرعون ، وكان لعابه يسيل من فمه فيبلل يديها وملابسها ونظرت إلينا قائلة : إنه زوجي ومليكي ، ولا يحق لأحد غيرى أن يقعد منه الآن هذا المقعد، ومن بين ذراعي هاتين ينبغي أن يدخل إلى مملكة الموتى.

ورأى «بتاحور» أن يصرف أفكار الملكة عن العملية الجراحية المثيرة للأعصاب فقال مسايرا اتجاه ذهنها إلى مملكة الموتى: إنه سيرحل على سفينة أبيه إله الشمس

، فمن الشمس جاء، وإليها يعود ، وسيبقى اسمه مذكورا بين الناس بالإكبار والتمجيد على وجه الزمان الخالد .

قال ذلك وهو يحرك أسلحته في الرأس الذى تحمله الملكة ، فتفجر الدم غزيرا على يديها ، وأصيبت من ذلك بذهول أشاع في وجهها ظلالا صفراء. وهنا انتبه الرجل المبعد عن عمله بأمر الملكة، وفطن إلى واجبه فاقترب من سرير الملك وتولى عملية وقف الدم المتدفق ، وقمت فى أثره بتنظيف الرأس من آثاره ، ومضى «بتاحور» في عمله وهو يكرر للملكة عبارات التهنئة كقوله: إن الملك فى طريقه إلى أبيه على السفينة الذهبية مرتحلا إلى عالم الشمس حيث النور والضياء، مزودا ببركات « أمون » على أنه لم يكد يذكر بركات « أمون » حتى قاطعه ولى العهد قائلا ووجهه يختلج انفعالا: لا .. بل نحن نلتمس له بركات « درع هيرختى » الذى يمثل فى « أتون » وليس في « آمون » .. فهمهم « بتاجور » وقال متكلفا : حقا .. لقد نسيت ، إنه « أتون » .. وليس « آمون » .. واستطرد . قائلاً : إني لأذكر أن الملك بوحي حكمته المقدسة أقام معبدا لأتون عقب مولد ولى لعهد، وأحسبك تعرفين ذلك جيدا ياسيدتى الملكة « تايا » .

وفى هذه الأثناء أحس « بتاحور » بالظمأ إلى النبيذ، فاستأذن الأمير فى قليل منه قائلا : إنه ينفث النشاط في يده ويجعلها كالسلاح المشحوذ، ثم أكب على رأس فرعون ماضيا فى جراحته، ففصل قطعة من سياجها العظمى، وراح يتأمل مادة المخ تحت الأضواء المسلطة عليها، وكانت أطراف فرعون قد تحركت قليلا، ثم سكنت ، واستغرق فى غيبوبة عميقة وعند ذلك هز « بتاحور » رأسه وقال : لقد أدينا واجبنا. أما ما وراء ذلك فمتروك إلى « أتون » فذلك أمر يرجع إلى مشيئة الآلهة، ولا حيلة فيه للبشر .. وأعاد الحجاب العظمى للجمجمة إلى مكانه وغطاها بفروة الرأس جامعا أطرافها، بعضها إلى بعض، ولفها بالضمادات . وأسندت الملكة رأس فرعون إلى تكأة وثيرة ونظرت إلى « بتاحور » مستطلعة ، فقال لها : إنه قد يبقى فى عداد

الأحياء إلى الفجر ، إلا أن يشاء إلهه غير ذلك، ثم رفع يديه علامة لليأس الغالب والجزع المغامر. وقد تابعته في هذه الحركة متأثرا بالحقيقة التي يمليها الموقف، ولكنه عندما أعاد الحركة نفسها للتعبير عن حزنه وأسفه : لم أشاركه في ذلك؛ لأني لم أر فيه إلا صورة من نفاق ، فما نحن والملك ، وماذا يضيرنا إذا خلت منه دنيانا ؟

وتشاغلت عنهم بتعقيم أدوات الجراحة في حين كانت الملكة تعد « بتاحور » بالمكافأة السخية على ما تجشم من عناء، ثم دعتنا إلى تناول الطعام في غرفة مجاورة فانتقلنا على الفور إليها، وفيها وجدنا مائدة حافلة بأطايب الأطعمة. وكان « بتاحور » أكثر ابتهاجا بما احتشد على جوانبها من قوارير النبيذ الفاخر.

فلما طاب مجلسنا على المائدة أخذ « بتاحور » يشرح لي شيئا مما أحس أني مستوضحه إياه عن « رع هيرختي » متمثلا في « أتون » ، الإله الذي قال ولي العهد إنه يستمد البركات منه.

قال : إن « رع هيرختي » يعتبر إلها قديما ، بل أقدم من « آمون » ، وكان هو إله « أمنحوتب الثالث » متخذا لنفسه شكل « أتون » . ومما يروى أن ولي العهد هو الابن المقدس لهذا الإله (أتون) ، ذلك أن الملكة « تايا ألقيت إليها بشرى مولده في رؤيا سنحت لها في نومها، وكانت خلال هذه الرؤيا كأنها في معبد « رع هيرختي » ، فلما جاءها المخاض وولدت ولي العهد، اعتبر منسوبا إلى هذا الإله بالبنوة، لأنه بشر به من قبل مولده فما كانت الرؤيا التي رأتها الملكة إلا وحيا منه، وإلا فما معنى أن تقع في معبده؟ وما معنى أن يجيء الميلاد مطابقا لها ؟! وكان في خدمة الملكة بعد مولد ولي العهد كاهن اسمه « آي » وكان طموحا فطنا بلغ بطموحه وفطنته مكانا أثيرا من نفسها فاختارت زوجته مرضعا لولي العهد ، وكانت هذه الزوجة ترضع في الوقت نفسه ابنتها واسمها « نفرتيتي » ، وقد شبت وترعرعت في القصر إلى جانب ولي العهد، وكانا يلهوان معا، باعتبارهما أخوين ، فتوثقت العلاقة بينهما من هذا الطريق، ويستطيع أي إنسان أن يتصور في غير مشقة ما عسى أن تؤدي إليه هذه العلاقة من نتائج !

ومضى « بتاحور » يعب من كئوس النبيذ حتى إذا بدا كأنه أراح أعصابه وأطفأ سماره، واصل حديثه قائلا : ليس ثم شيء أفضل من النبيذ بالنسبة لرجل عجوز مثلي يتحدث فيما لا يعنيه .. آه لو تعرف يا « سنوحى » أية أسرار تنطوى خلف هذه الجبهة المجمدة ؟ قد لاتعلم أن الناس طالما تساءلوا : لماذا لم يولد مولود ذكر وفيه حياة، في جناح الحريم بقصر هذا الملك الراقد هناك بالغرفة الأخرى مفتوح الجمجمة ؟! إنهم كانوا دائما يستغربون ذلك ويتساءلون عن سره ! .. وظلت هكذا الحال حتى ظهرت « تايا » في حياته ، هذه الملكة المقربة وأم ولى العهد ، قالوا إنه وجدها فى رحلة صيد ، وإنها ابنة صائد طيور كانت تعيش بين أعشاب النيل، رآها الملك وتحدث إليها فأعجب بذكائها ورجاحة عقلها، ومن ثم اتخذها زوجة وأضفى على أبويها تكريما سابغا بأن ملأ قبريهما بالهدايا الغالية، وازدادت على الأيام قربا من قلبه بدماثة خلقها وسعة حيلتها ولطف مدخلها ، حتى إنها لم تكن لتبدى اعتراضا على استرساله فى الملذات مع نساء القصر الأخريات، فما تبالى هذا ولا تخشاه؛ لأنها تعلم أنهن لا يلدن مولودا ذكرا ونظر إلى « بتاحور » نظرة ذات معنى ، وتلفت حواليه وقال فى عجلة كأنما يتقى أذنا تسمعنا من قريب : هذه أقاصيص نسجها خيال ذوى النية السيئة والقلوب المريضة ، فلا تصدق شيئا منها يا « سنوحى » . أما الحقيقة التى يؤمن بها سائر الناس فهى أن الملكة « تايا » تتحلى بأعلى ما فى النساء من فضائل الحكمة وعذوبة الأخلاق وحسن التقدير للرجال النافعين المخلصين، ولهذا فهم يلتفون حولها عن إعجاب بمواهبها، وإكبار لفضائلها .

وأمسك « بتاحو ر» عن الكلام وإن لم يكن قد أمسك عن شراب النبيذ، فأخذت بيده إلى الشرفة لنستروح فيها الهواء النقى الذى يسرى فى حناياها لطيفا منعشا ممتزجا بأرج الأزهار الفواحة التى تزدان بها حديقة القصر وكان الليل قد أقبل فاعتدانى بإقباله شعور القلق الذى يغمر « طيبة » ، ولكن أضواء المدينة أخذت تتلاقى مع تألق النجوم، فهدهد هذا المنظر أعصابى وأراحها وأشاع فيها نشوة جميلة فقلت، وكأنى أناجى نفسى : ما ألطف هذا الجو الشاعرى !! إنه ليحرك بى أحاسيس الحب ! .. وسمع « بتاحور » هذه العبارة ، فرفع رأسه وعلق عليها قائلا : ليس صحيحا أن

فى الدنيا شيئا اسمه الحب ، إن الرجل ليأسى عندما لايجد المرأة بجانبه ، فإن وجدها أصبح أشد أسى، إنه لشقى بها بعيدة عنه، وشقى بها قريبة منه ولايحتاج الإنسان الرشيد أن يسأل لماذا كان الأمر هكذا فى الحالين ؟! ذلك لأنها قضية أزلية لايتغير الحكم فيها بتغير الأزمان ، فكف أيها الأحمق عن حديث الحب، وإلا فأنت ، من حيث لاتدرى ، تضع جمجمتك بين يدى لأفتحها، وإنى لعلى استعداد أن أفعل ذلك بلا مقابل ، لأدفع عنك شر هذا المرض الخبيث الذى يتنزى منها!

وأثقل النبيذ رأس « بتاحور » وهو بعد مسترسل فيه. فخشيت عليه مغبة هذا الإسراف، وحملته بين ذراعى ووضعته على سريره بالغرفة التى أعدت لنومنا ، ودثرته بغطاء سميك إذ كان الجو مشبعا بالرطوبة ، وقد كان يترنح ترنح المخمورين ويطلب فى كلمات متقطعة مزيدا من النبيذ، ثم غلبه النوم فاستغرق فيه، وعدت إلى الشرفة لأسبح فى خيال الشباب وأملأ صدرى بأرج الأزهار، وكانت تهدر فى مسمعى أصوات أولئك الذين يقضون ليلهم ساهرين على مشارف القصر. إنهم قد ألوا على أنفسهم ألا يبرحوا أماكنهم وألا يناموا ، ارتقابا للنبأ الأخير عن « فرعون » الذى يحتضر، ولكنى لم ألق لهم بالا، فقد كنت وقتئذ فى شغل عنهم بهذا الصفاء العاطفى الذى أحيا فى ذهنى ذكريات عذبة كانت لى فى هذه الوحدة أنسا ومتاعا، وإنى لكذلك إذ لاح بالشرفة شبح لم أتبينه تماما لأول وهلة ، وقبل أن أسأل من هو، سمعته يقول بصوت فيه صرصرة الطفولة، وفيه كذلك رنين الاستعلاء : أهذا أنت أيها الوحيد؟

وهنا استجليت وجهه، وعرفت أنه الأمير ولى العهد بجسمه الضامر الناحل، فانحنيت لديه، دون أن أتكلم ، فوكزنى قائلا : انهض أيها الغبى، إن أحدا لايرانا الآن، فلا حاجة بنا إلى هذه المراسم التى يجب أن نحتفظ بها للإله الأعظم الواحد الأحد، الذى أعتبر نفسى ابنا له، فليس يوجد إله سواه وجميع الآلهة صور له، ماعدا « آمون » فإنه إله زائف.

وأخافنى منه هذا الحديث الصريح المفاجئ ، فأومأت إيماء المعترض المشفق، ولكنه استطرد قائلا : دعنا من هذا .. لقد رأيتك إلى جانب أبى

الملك وأنت وحدك، تقدم آلات الجراحة إلى ذلك الرجل المخبول العجوز « بتاحور » فأطلقت عليك اسم « الوحيد » ، كما أطلقت أمي على « بتاحور » اسم « القرد العجوز » فاذكر هذه التسمية جيدا، إلى أن يحين حينك، فمن يدرى ، فلعلك ملاق حتفك فى هذا القصر ولا يتاح لك أن تغادره حيا.

وفزعت أكثر من أى شيء آخر لإشارته إلى هذا المصير المفجع، فقد تذكرت لفورى قول « بتاحور » إنه إذا مات فرعون فإننا ميتون كذلك . وقد وقف وقتذاك شعر رأسى فرقا من هذا الموت الذى لا أريده ، ولكنى بعد هذا أقصيت الفكرة عن ذهنى إذ تصورتها لا تتصل بسبب من الحقيقة ، فلماذا يقضى علينا بالموت إذا مات فرعون ؟ ذلك مالا يستقيم مع المنطق ولا مع الفهم الصحيح، فنحن إنما جئنا لنحاول إنقاذه من الموت المحقق ، وهى محاولة أخيرة فى حال يتغشاها اليأس فى أدق معانيه وأجلى صوره ، ولسنا صانعى معجزات، فذلك شأن الآلهة كما قال بحق « بتاحور » ، وقد فعلنا أقصى مافى طوقنا كبشر، فلا علينا بعد هذا أن يموت فرعون .

ونظرت إلى الأمير فإذا به يلهث ، كالمجهد ويداه تختلجان كالمفلوج، وهو يتمتم : إنى لقلق، سأكون بعد قليل فى مكان آخر .. فلتبق معى أيها الوحيد ..

قال ذلك وجذبنى بقوة مشيرا بحركة آمرة أن أتبعه، فانعقد لسانى رهبة وخوفا ، ورجح فى رأيى أنه مجنون ولا حيلة لى معه، فتبعته كارها وهبطنا إلى بحيرة فرعون ، وركبنا أول قارب لقيناه ، وأخذنا نجدف به خلال مياه البحيرة، ولم نر أحدا يمنعنا من ذلك، مع أن القارب ليس قارب الأمير ، وكنا كمن سرق شيئا أمام أعين الجماهير على الشاطئ ، الساهرة طول ليلها بمقربة من القصر، ولكن أمور الناس فى تلك الليلة كان يسودها الاضطراب ، والقوارب رائحة غادية فى حركة غير عادية ، فلما بلغنا الشاطىء الآخر صعدنا فيه، وسار الأمير وأنا فى أثره، على طريق بدا أنه يعرفه معرفة تامة، فقد كان لاينحرف عنه يمينا أو شمالا، وكان موسع الخطى مشدود الجسم ، وضوء القمر يرسل أشعته عليه فيبدو منه وجه صافى البشرة، ولكنه صفاء مشوب بانفعالات غامضة. وقد لقيت فى مسايرته غير قليل من العناء ، فقد كان كأنما

تدفعه في تسياره السريع قوة خفية تجاوز كثيرا قدرة مخلوق مثله بادي الهزال على ساقين رخوتين .

ولم نكن وحدنا في الطريق ، فإن أخرين كانوا يسيرون عليه في ذلك الوقت، ولكن الأمير مضى في سبيله غير مكترث ولا مبال، وكان الجو باردا غير أني كنت أتفصد عرقا لفرط مانالني من تعب. وما زلنا نسرع في السير حتى جاوزنا الوادي إلى الصحراء وصارت « طيبة » خلفنا ، والتلال الثلاثة التي تقوم عادة بالجانب الشرقي تطل علينا بظلالها المتكاثفة كأنها موكلة بحراستنا .

وفجأة تهاوى الأمير على الرمال وهو يلهث ، وقال في ذعر: خذ بيدي يا « سنوحي » فإنهما ترجفان ، وقلبي مثلهما يرجف بين ضلوعي ، إنني اقترب وشيكا من لقاء الإله العظيم، إن لحظة اللقاء مني قاب قوسين ، إله من لقاء!

وأمسكت بيديه وكان جسمه ينتفض كالمقرور ، مبللا بالعرق كما لو كان يسبح في الماء، ولم أدر ماذا عسى أن أصنع ونحن في هذا الفقر النائي وليس في الصحراء من حولنا دليل إلا عواء ابن آوى يترامى على آذاننا منذرا بالشر ، وحتى هذا الوميض الذي كان يؤنسنا من إشعاع النجوم ، قد أخذ يتوارى، ويلفنا الليل في سواد حالك رهيب . على أن الأمير هب واقفا نازعا يديه من يدي ، وأدار وجهه إلى الشرق ، إلى التلال ، وهو يقول في شرود : إن الإله مقبل ، إن الإله آت .. ثم انفجر صوته عاليًا مدويا في أرجاء الصحراء، وهو يكرر هذه العبارة..

وشيئا فشيئا .. أخذت ظلمة الليل ترق وتتمزق وتنساب فيها إشعاعات ذهبية إيذانا بمقدم الشمس . فما إن أشرقت الشمس نفسها حتى انطلقت من الأمير صرخة أشد دويا وقع على أثرها مغشيا عليه، وقد اشتد وجيب قلبه وارتعاش معارف وجهه واختلاج فمه وأطرافه جميعا، ولم يكن هذا المنظر بالغريب علي ، فكثيرا ماشاهدت مثله في « دار الحياة » . وكان من مقتضيات الوقاية العاجلة في هذه الحالة أن نضع مرودا من الخشب بين فكي المصاب لتحول بين اللسان واصطكاك

الأسنان، ولكنى فى مكانى من الصحراء الآن لا أجد هذا المرود. وفتقت الحاجة ذهنى فاقتطعت فى الحال قطعة من قماش ثوبى ولففتها لفا محكما ودمستها بين فكيه ورحت أمسح بيدى على جسمه وأريحه بالتدليك. وفى هذه الأثناء سمعت صوتا يتساقط فوق أذاننا من عل، فرفعت إليه بصرى، فرأيت صقرا يتراءى كأنه خارج من قرص الشمس وهو يصيح محلقا فى شبه قوس، ثم أخذ يهبط على اتجاه جبهة الأمير، حتى أيقنت أنه سيحط عليها، ففى حركة غير إرادية اندفعت أؤدى بيدى مراسم التقديس « لآمون » ووقع فى وهمى أن الأمير قد تخيل « حوراس » فى ذاكرته وهو يحيى إلهه ، فأهل عليه فى صورة هذا الطائر.

وانحنيت على الأمير الذى كان يتوجع ويئن أنينا مثيرا، فلما رفعت رأسى لم أجد الطائر، ولكنى وجدت إنسانا غض الشباب ، متألقا فى أشعة الشمس ، يحمل حربة ، وعلى كتفيه عباءة خشنة مما يلبسه الفقراء ومع أنى لا أومن بالآلهة فى صورة البشر، انحنيت له ، طالبا للسلامة، انحناءة التقديس، فسألنى بلهجة أهل المملكة السفلى ماهذا ؟! أهذا الفتى مريض؟

فقلت له : نعم . إنه مريض ، وليس معنا شيء مما يطمع فيه سارق وإن الآلهة لتباركك إذا ساعدتنى فى أمر هذا الفتى المريض .

وهنا صرخ الشاب الغريب صرخة حادة لها رنة الصقر وجرسه، فما هى لمحة الطرف حتى رأيت الصقر الطائر يعود ويحط فوق كتفه.

ومن ثم أخذ الشاب الغريب يقول فى كبرياء : أنا « حور محب » ابن الصقر، وقد جئت الدنيا من أبوين يصنعان الجبن، ولكن نبوءة وقعت فى مولدى بأنى سأكون زعيما وسأتولى حكم الكثيرين، وقد قدمت إلى هنا تابعا للصقر الذى يقودنى لأغدو على « طيبة » مبكرا، وكل ما أرجوه أن أدخل فى خدمة فرعون ، فإنى لقوى متين. وقد قيل إن فرعون مريض ، وأكبر الظن أن سلطانه يحتاج الآن إلى السواعد الصلاب لتحميه وتؤازره.

وتأوه الأمير محركا ساقيه، ومارا بيديه على وجهه، فانتزعت من فمه قطعة القماش، وتمنيت لو أني أستطيع أن أجد ماء لأسقيه ، فقد بدا كأنه يتلظى بسعير الظمأ . وحدق فيه « حور محب » وعاد يسألني : أهو في حالة احتضار ؟ فأجبته : إنه لايحتضر، ولكنه يعاني من المرض المقدس.

وقال «حورمحب » وهو يمسك بحربته ويتأملها : إذا كنت تراني على صورة الفقراء الحفاة في هذه الأسمال التافهة ، فحذار أن تهون من شأني ، فإني أجيد القراءة وسأكون حاكما وصاحب سلطان .. ثم قل لي : أي إله يعبد هذا الفتى ؟! إن الناس يعتقدون أن الذين تتقمص الآلهة أجسامهم يستطيعون أن يجيبوا عن الأسئلة التي توجه إليه، فلنسأله فلعله يجيب .

قلت : إن له إلها خاصا ، وأغلب ظني أن بعقله لوثة !!..

قال : إنه يرتعش !، وخلع عباءته فألقاها على الأمير واستمر يقول : إن صباح « طيبة » مشحون بالبرودة، ولكن الدماء الحارة التي تجري في عروقي تدفئني وتمنعني من هذا البرد، ويلوح لي أن هذا الفتى ابن رجل من الأثرياء، فبشرته بيضاء في نعومة، ويداه تبدوان رخصتين كأنهما لا تتحركان في عمل .. والتفت إلى قائلا : ومن تكون أنت ؟! قلت : إنني طبيب وكاهن من المرتبة الأولى في معبد « أمون » بطيبة ..

ونهض ولي العهد لينظر فيما حوله بذهول ، ثم قال : لقد تراءى لي الإله في فيض نوره، ورأيته رأى العين المجردة ، وكانت اللحظة قصيرة ، ولكنها كانت كأنها جيل من الزمن ، وكنت مشرفا على الموت ، فرأيته يمد إلى ألف يد، مرت كلها فوق رأسي لتباركني ، وفي كل يد منها رمز لحياة دائمة ، أفلا ينبغي لي بعد ذلك أن أومن وأن أشكر ؟!

وعندما وقع نظره على « حورمحب » برقت عيناه بشعاع من الدهشة وقال : أهذا أنت ؟! أنت الذي بعثك الإله الأوحد « آتون » ؟!

وقال « حورمحب» : لا أدرى سوى أن الصقر طار أمامى فتبعته حتى صرت إليكما ..

وأربد وجه الأمير حين رأى الحربة فى يد «حورمحب» . وقال له متبرما: أتحمل حربة أيها الرجل ؟! فشرع « حورمحب » الحربة فى يده وقال : إن قبضتها من لباب أخشاه منتقاة ، ونصلها النحاسى متعطش إلى دماء خصوم « فرعون » ، إن اسمها « فاطمة الرقاب »

فصاح الأمير : لا تذكر الدماء ... إنها منكر ينهى عنه « آتون » . وليس فى الدنيا شيء أشد نكرا وإزعاجا من إسالة الدماء.

قال « حورمحب » بل إن الدماء تطهر الناس وتصهرهم فتزكو معادنهم ، وتنفث فيهم القوة فتكون لهم الغلبة والسطوة والشأو البعيد .. والحروب فى هذه الدنيا جزء من طبيعتها، فالحياة بين الناس وبين الأمم ، صراع لا ينتهى ، وتدافع لا يسكن . وما دامت هناك حروب، فلا معدى من دماء تهدر ، وأرواح تزهق ، وسيوف مرهفة ، وحراب مشرعة !

قال ولى العهد : كلا .. إن السلام هو أصل الحياة وجوهرها ، وهو الصلة بين الأرض والسماء، وقد خرج الناس باختلافهم وحروبهم على أسمى مبادئ الحياة ، وارتدوا بها إلى طبائع الغابات ؛ حيث لها أمن ولا اطمئنان ، وقد آن أن يتحرروا من هذه الوحشية ، فهذا هو الإله الفرد الرحيم، (قال هذا متطلعا إلى الشمس) ، يتجلى برحماته عليهم ليلهمهم الخير، ويجردهم من منازع الشر، ويجمعهم على صفاء من الإخوة الإنسانية. فالناس كافة أبناؤه ، وهم عنده سواسية، وسائر اللغات والألوان، على تباينها واختلافها ، كلها لديه عقد منظوم متساوى الحبات، فلا تفرقة ولا تفاضل، وإنى لصادع بأمره، منفذ مشيئته، عامل على نهجه، فمنه ولدت، وإليه أعود.

وأخذ ولى العهد يحيى الشمس مظهر الإله « آتون » رافعا إليها يديه فى ضراعة وابتهال، ووجهه عندئذ يطفح ابتهاجا ونورا وإيمانا .

وهمس « حور محب » في أذني قائلا : إن صاحبك لمريض بالجنون ، وأراه محتاجا إلى طبيب .

وأتم الأمير صلواته الحارة، فاتجهنا به عائدين إلى « طيبة » ، وقد نالت منه نيلا شديدا نوبة التشنج، فسار معنا متهالكا متزايل الأعصاب ، فمددنا إليه، أنا و «حورمحب» ، ذراعينا ليعتمد عليهما في مشيته المتهافتة ، وكان الصقر يتقدمنا محلقا، فحين بلغنا الوادى الأخضر والأرض السوداء ، رأينا محفة ملكية وأرقاء يجثمون على الأرض، وكاهنا يعلو المحفة ويطل منها برأسه المقصوص الشعر ووجهه المربد في رصانة، وقد لمحت فيه سمات الكاهن «أي» الذى حدثني عنه « بتاحور » وكان على ما وصفه لى بدينا عريض الضواحي، فتقدمت إليه منحنيا مرخيا ذراعى إلى الركبتين ، ولكنه لم يحفل بى، وتقدم إلى الأمير فحياه في احترام مسندا إليه لقب الملك، فأدركت أن « أمنحوتب الثالث » قد انتقل إلى عالم الموتى. ثم تبادر الأرقاء إلى خدمة فرعون الجديد، فغسلوا أطرافه ومسحوها بالزيت، وألبسوه الرداء الملكى ، ووضعوا التاج على رأسه .

وفيما هم كذلك، خاطبنى « أى » متسائلا : هل قابل إلهه يا سنوحى ؟

فأجبت : نعم. وقد حرصت في رفقتى له على لا يصاب بسوء في ذلك القفر المنقطع. واستطردت أقول : ولكن كيف عرفت اسمي ؟ فابتسم وقال : إنه لا تخفى على خافية مما يدور بين جدران القصر. وإني لأعرف اسمك، كما أعرف أنك طبيب، وأنك من كهنة « آمون » الذين أقسموا يمين الولاء له. ولهذا فإني على ثقة من أنك معنى بالملك.

قال ذلك بإشارة معبرة عما يقصد إليه من ذكر يمين الولاء « لآمون » والعناية بالملك . فمددت يدى ورسمت بهما مراسم الولاء الذى يعنيه .. فبدا عليه الاطمئنان . ونظر إلى «حورمحب » الذى كان يقلب حربته كما لو كان يجربها الصقر رابض على كتفه، وقال : ومن يكون حامل الحربة هذا؟! ألا ترى من الخير أن

يبعد بالموت عن أسرار فرعون التي يجب أن تظل بمنأى عن أمثاله ؟ قلت : لعله أن يكون حيا أنفع منه ميتا . وقد أعرب عن استعداده لتمزيق أعداء فرعون بحريته، وكان بادي العطف على فرعون حين كان يرتعد تحت وطأة البرد فنضا عباءته وألقاها عليه. وهنا انتزع الكاهن سوارا ذهبيا من ذراعه وألقاه إلى « حورمحب» قائلا له في غير اكتراث : تستطيع أيها الرجل أن تسعى إلى يوما لتلقاني بالقصر الذهبي.

ولكن « حورمحب » لم يمد يدا إلى السوار ، فسقط على الأرض عند قدميه، ونظر في ازدراء إلى الكاهن وقال له : إني لا أتلقى أمرا إلا من « فرعون » ، وإذا لم أكن مخطئا فإنه هو الذي يحمل الآن التاج على رأسه . واستعاد الكاهن سواره وهو يكتم غيظه، وخاطب «حورمحب» قائلا : إن الذهب شيء ثمين، وهو نافع دائما، وعلى أية حال فعليك أن تكون إلى آخر حياتك شديد المحافظة على الطاعة والولاء لفرعون، على أنه لا يجمل بك أن تظهر في حضرته حاملا مثل هذا السلاح.

والتفت إلينا « فرعون » في لباسه الملكي الجديد، وكانت تلتمع في وجهه أضواء قدسية شعرت بأنها تبعث الحرارة إلى قلبي، فدعانا إلى مرافقته بالمحفة قائلا: فلنبدأ السير في الطريق السوي، طريق الحقيقة والصدق. فتبعناه على حين كان «حورمحب» يتحسس حريته ويقول : إن الحقيقة والصدق ليكمنان ها هنا !.

وسارت بنا المحفة حتى بلغنا الشاطئ ، فهبطنا إلى قارب كان بانتظارنا عند المرسى، ومن طريقنا الأول نفسه مضى بنا القارب إلى مرفأ القصر، وكان الناس لا يزالون في تجمعهم واحتشادهم خارج أسواره، على أن أحدا منهم لم يعرنا التفاتا.

وبعد صعودنا في القصر، أذن لنا الأمير « فرعون الجديد » بالدخول عليه في غرفته الخاصة، وكانت ملأى بجرار مصنوعة في جزيرة « كريت » وقد نقشت عليها رسوم أسماك وحيوانات مختلفة . وإذ كنا نجيل فيها النظر معجبين ، أنبئنا بأن الملكة الوالدة في طريقها الآن لتقديم التهنئة والطاعة لفرعون الجديد،

فأذن لنا فى الانصراف ، بعد أن حيانا ، أنا و «حورمحب» ، قائلا : إنه سيذكرنا بالخير دائما ولن ينسانا..

وعندما صرنا خارج الغرفة قال «حورمحب» في قلق: إلى أين أذهب؟! إني طارئ على هذه المدينة ، ولا أعرف فيها أحدا ولامكانا ؟! فأشرت عليه بأن يبقى في القصر مستريح البال، ففرعون قال إنه سيذكره ولن ينساه، ومن الخير أن يكون بمقربة منه ليراه ، فذلك أكفل لتذكره إياه ..

ولكن «حورمحب» تساءل : وهل أبقى هنا لأكون كهؤلاء الخدم والندامى الذين يترامون محتشدين كأسراب الذباب على باب الملك؟! وما يكون مصيرى ، إذا كان سيدى ومليكى يخاف الدماء ويفزع منها ويعتقد أن سائر الناس والأمم واللغات والألوان سواسية فى المراتب والحقوق؟! لقد خلقت محاربا، وبشعور المحارب لا أرى لى مكانا فى هذا القصر..

قال هذا ومد إلى يده مودعا .. فقلت له، إنه يستطيع أن يلقانى فى « دار الحياة » كلما رأى نفسه بحاجة إلى صديق ، وعلى ذلك افترقنا.

وذهبت إلى « بتاحور » فى غرفته، وكان ينتظر مقدمى ، فما إن رآنى حتى سألنى أين كنت ؟! ثم أردف قائلا : فى غيبتك عن القصر، وفى أثناء نومى، لفظ « فرعون » أنفاسه الأخيرة فلم يكن كلانا هناك لنرى روحه تطير من أنفه صاعدة إلى الشمس .

فلما قصصت عليه ما حدث ، قلب كفيه دهشا وقال : فليحفظنا « آمون » فإن فرعون الجديد ليبدو مدخولا فى عقله.

ولكنى ، بعد الذى رأيت وأحسست ، لا أرانى أطاوعه على مثل هذا الرأى فى عقل «فرعون» . فقلت . غالب الظن أن ثمة اتصالا قويا بينه وبين إله جديد، وما أحسبه إلا وعاء صافيا لتموجات روحية مقدمة، وقد ترى أرض « كيم » فى عهده كثيرا من أعاجيب لم تألف وقوعها فيما سلف من عهود.

قال « بتاحور » : إنها أفكار ونزعات ينكرها « أمون » وينهى عنها، ولا خير فى أن نشغل أنفسنا بها .. ثم دعا بنبيذ ليشربه ، لأن حلقه - على ما يقول - قد صار جافا كتراب الطريق.

وبعد قليل قادنا الحراس إلى أحد الأبهاء الفساح فى « دار العدل » فتلا علينا حامل خاتم الملك نصوصا من القانون تقضى بقتلنا ، لأن فرعون لم ينج من المرض ومن الموت بعد أن قمنا بفتح جمجمته ، فأفزعنى هذا الذى كنت قد حسبته خيالا، ونظرت إلى « بتاحور » مأخوذا، فأدهشنى أنه كان يبتسم ، فى حين أنه كان يقترب منه حامل السيف شاهرا إياه ليطيح برأسه تنفيذا لهذا القانون العجيب ! . وأشار « بتاحور » إلى رفيقنا الفلاح الذى كان مختصا بعملية وقف نزف الدم. وقال لحامل السيف . فلنبدأ بهذا. فإنه لأكثر منا لهفة على الرحيل . إن أمه هناك فى مدينة الموتى ، قد أعدت له طعاما شهيا وهى ترجو ألا يبطئ قدومه عليها.

فشهق الفلاح جزعا، وخر على ركبتيه راكعا ليصلى « لأمون » صلاة الموت، وهز السياف سيفه ثم لمس به طرفا من عنق الرجل، وكان لمسا خفيفا ، رفيقا . ولكن الرجل مع ذلك سقط على الأرض مغمى عليه، ولم يخطر ببالنا إلا أنه سيفيق بعد قليل، فإن السيف لم ينل منه منالا ولم يحدث به خدشا.

وجاء دورى ، فركعت مادا عنقى للسيف وقد زايلنى الخوف ، وكان السياف وهو يلمس عنقى أكثر خفة ورفقا، حتى لا يصيبنى ما أصاب رفيقى الأول .. وبالطريقة نفسها نفذ الحكم فى « بتاحور ».

وهكذا تم تطبيق القانون ، وقيدت أسماؤنا فى سجل الموتى، وخلعت علينا أسماء جديدة محفورة فى أطواق مذهبة، فكان اسم . « بتاحور » الجديد هو : « القرد العجوز » . أما اسمى فكان كما أنبئت به على لسان ولى العهد « الوحيد » ثم سيقت إلينا أعطيات جزيلة وهدايا ذهبية ، وألبسنا ثيابا جديدة، ولأول مرة أضع على

جسمى ثوبا من الكتان الملكى متعددالثنايا، وأتزين بقلادة من الذهب مرصعة بالأحجار الكريمة.

وتفقدنا رفيقنا الفلاح فإذا به لا يزال ممدداً على الأرض.. وعندما حاول الخدم إيقاظه وجدوه بلا حراك، فلقد مات حقا، ولكنه مات بغير السيف، مات بالوهم والخوف!

وأصبح اسمى منذ ذلك الحين « سنوحى الوحيد » ، فلا أكتبه إلا كذلك ولا أنادى فى القصر إلا به .

عدت إلى « دار الحياة » رافلا فى ملابسى الجديدة، وذراعى تلتمع بالسوار الذهبى، فقوبلت من أساتذتى بالحفاوة، وأعظموا شأنى، أنا الذى ما زلت فى عهد الطلب، فقد كنت فى نظرهم جديرا بذلك لجلال المهمة التى ندبت لها فى قصر فرعون، ولمظاهر التقدير التى أضيفت على بسببها . وكان من واجبى أن أكتب تقريرا عن العملية الجراحية التى أجريت لفرعون ، وعن موته كذلك، فعكفت على كتابته وقتا طويلا ، وقد جاء فى النهاية تقريرا وافيا، تضمن وضعا دقيقا للعملية ، ووصفا شائقا لتسلل روح فرعون من أنفه ثم صعودها محلقة كالطائر إلى الشمس رأسا ، وكنت أشعر بلذة كبرى كلما سمعت هذا التقرير مقروءا على الناس طوال السبعين يوما التى كان يجرى فيها إعداد جسم فرعون للخلود فى الحياة الثانية.

وكانت « طيبة » فى تلكم الأيام السبعين تحيا حياة حزينة ، فبيوت اللهو مغلقة ومواخير النبيذ موصدة ، وليس من حق إنسان أن يلهو أو أن يشرب نبيذا ، ومن كان لا يستطيع صبرا على ذلك فهو يخالس الأعين الراصدة ويتسلل إلى هذا الملهى أو ذاك الماخور من الباب الخلفى، على غير قليل من الخشية والحذر !

وأنبئت بعد انقضاء السبعين يوما أننى أصبحت طبيبا مؤهلا، وفى وسعى أن أستعمل تجاربى الطبية حرا فى أى حى من أحياء المدينة، ولا يمنعنى هذا

– إذا شئت – من متابعة الدراسة للتخصص في أي فرع من فروع الطب الأربعة عشر التي كانت تدرس في « دار الحياة » ، كطب الأسنان أو الأذن أو الولادة أو الجراحة إلخ .. وكان تيسير هذه الدراسة مع إجازة العمل خارج « دار الحياة » يعد فضلا من « أمون » على المنتسبين إلى خدمته.

ولكنني لم أشعر بميل إلى مزيد من الدراسة في « دار الحياة »، فقد كانت الحياة في « طيبة » تستهويني وتصرفني عما عداها ، وكنت أكثر ميلا إلى عاجل الثراء والشهرة، وقد شاعت لي بين الناس في هذه الظروف شهرة طيبة ، فآثرت الإفادة منها ، قبل أن يعفي عليها الزمن .

ومن ثم خرجت إلى الحياة الطليقة مدفوعا إليها بنزعات الشباب الطامح، واشتريت ببعض ما توافر لدي من المال منزلا صغيرا في طرف الحي الراقي من المدينة وزودته بقدر ما في الطاقة من أثاث وأدوات ، واشتريت إنسانا من الرقيق لخدمتي اسمه « كابتاح » . وكان ناحل الجسم وله عين واحدة وقد خيل إليه أنني ربما تشاءمت من عينه العوراء، فقال لي إن عينه الواحدة ستكون فألا حسنا وعلامة خير لمستقبل عيادتي ، فسيزعم للمرضى المترددين عليها أنه كان أعمى محروما من البصر في عينيه معا، فاستطعت بمهارتي وسعة علمي أن أعيد له نصف بصره، وهذه لهم آية ومعجزة ..

وعنيت أكثر ما عنيت بتجميل الغرفة التي أعددتها لاستقبال المرضى ، فزينت جدرانها بلوحات زيتية، تصورني إحداها واقفا بجسمي الضئيل أمام « أمحوتب » الحكيم بجسمه الفاره الجيل ، لأتلقى منه التعاليم والتوجيهات ،على ما جرت به التقاليد ، وكان منقوشا على هذه اللوحة في جزئها الأدنى . هذه العبارة : أحكم وأمهر الحواريين « سنوحي بن سنموت الوحيد » ...

وتصورني لوحة أخرى متقدما إلى « آمون » بالقرابين ، أما اللوحة الثالثة فكانت تمثل فرعون العظيم وهو ينظر إلي ، راضيا ، من السموات العلى في شكل طائر، بينما يحف بي خدمه ، يقدم لي بعضهم ذهبا، ويلبسني بعضهم ثيابا جددا ..

كانت هذه اللوحات خليقة أن تكسبني ثقة المرضى واطمئنانهم ، ففيها تعبيرات عن معان محببة إليهم . فصلتي بالحكيم« أمحوتب » شهادة تقدير لعلمي ، وصلتي بالإله « آمون » تقدير لإيماني ، وصلتي بفرعون في حياة الخلود شهادة تقدير لإخلاصي. وهذه كلها صفات إذا اجتمعت لإنسان في مثل عملي ، كانت كافية للظفر بمرضاة الناس ، وبخاصة منهم المرضى !

ولابد لي هنا أن أذكر أن هذه اللوحات الجميلة البديعة الصنع كانت من عمل صديقي «تحوتمس» ، وهو حتى ذاك الوقت لم يحصل على إجازته العلمية من مدرسة الفنون ، كما أن اسمه لم يدرج في سجل معبد « بتاح » رب الفنون والصناعات .

وتهيأت بعد هذا الاستعداد لاستقبال المرضى، ولكن اليوم انتهى دون أن يلم بي واحد منهم .. وكانت لا تزال عندي بقية من الذهب والفضة ، فرأيت أن أقضي شطرا من مساء ذلك اليوم بإحدى حانات النبيذ لأسري عن نفسي بعض ما يثقلها من الضيق، فلقد ساءني أن يمضي النهار كله في انتظار ممل على غير جدوى ، ولكني ، بعد ، لم أبلغ مبلغ اليأس في المستقبل الحسن. وقد رافقني في شراب النبيذ تلك الليلة صديقي « تحوتمس » ، وما أسعدني به رفيقا. وكان أكثر حديثنا جدلاً ونقاشًا في الشئون العامة بالملكتين، فذلك كان أهم ما تدور عليه أحاديث الناس في سائر المجتمعات والأوساط.

والواقع أن الشئون العامة كانت في ذاك الحين مثيرة ، مغرية بالخوض فيها والتحدث عنها، فقد امتحنت بالتغيير والتقلقل والتشعب على غير المألوف بين الناس . وكنت كلما عرض الحديث فيها أذكر ماكان يقوله حامل خاتم الملك العجوز : « إن الدنيا تقبل لتدبر » .. فهكذا كانت الحال، بين إقبال وإدبار .

فإنه بعد أن تم تحصين جثة فرعون العظيم ضد الفناء ، ونقل إلى مقر راحته الأبدية بوادي الملوك ، وأوصدت أبواب القبر وختمت بخاتم الملك – بعد هذا ارتقت الملكة عرش « فرعون » حاملة في يديها السوط وعصا الراعي، واضعة على

طرف وجهها الأسفل لحية سيادة الدولة ، متمنطقة بذيل الأسد ، وكان هذا لأن ولى العهد « فرعون الجديد » لم يتوج بعد للجلوس على العرش . وقيل فى تعليل ذلك : إنه منصرف إلى تطهير نفسه، مشغول بالتعبد للآلهة، استعدادا لولاية السلطان وحمل أعباء الملك . وقد فصلت الملكة الوالدة حامل أختام الملك السابق ، وأحلت محله الكاهن المجهول (آى) وأدنت مكانه منها، فكان يقف عن يمينها علامة التشريف ورفعة القدر، فعز بذلك مكانه ، وعلت على كبار الدولة منزلته ، ولم يكن هذا أمرا يستراح له أو يقابل بالرضا، وكان معبد « آمون » مجال الانفعال لذلك. فالكهنة هناك يرون فى التصرفات الملكية نذير شر يتهدد سلطانهم . فراحوا يجاهدونها بوسائلهم. فإذا جاءهم الناس يستفسرونهم أحلاما رأوها فى منامهم أغربوا فى التفسير وأفزعوا به. وإذا هبت الرياح عاصفة قالوا : إنها ثورة الطبيعة فى أوان دعتها وهدوئها، وإذا هطلت الأمطار ، كما يقع أحيانا، فى غير موسمها ، أذاعوا أنها مظهر غضب الآلهة، ويهولون فى هذا حتى ليقال إن مياه البحيرات والبرك بأرباض « طيبة » قد تحولت إلى دماء ، واختلفت آراء الناس فى ذلك اختلافا شديدا، والقليل منهم من كان يعلم أن الكهنة ، لا الآلهة ، هم الغضاب الساخطون !.

أما الملكة فقد أخذت من ناحيتها تمكن لعرشها باستمالة الجيش ، فأغدقت عطاياها على الجنود وبخاصة منهم جنود الثكنات من مصريين وسوريين وغيرهم، فتوافر لها بذلك ما أرادت من توطد النظام والأمن ، ولم يكن يساورها شيء من القلق على حاميات الجيش المصرى فى الخارج ، فهى هناك ممسكة بالزمام وقابضة على ناصية الحال، كما أن أمراء « بابل » و « أزمير» و « صيدا » و « غزة » لا يتطرق الشك إلى إخلاصهم ، فقد أمضوا طفولتهم فى خدمة فرعون وشبوا فى بيته الذهبى ، وحين أنبئوا بوفاته بعثوا بكتبهم إلى الملكة يبايعونها على الولاء ويعربون عن بالغ حزنهم كما لو كانوا قد فقدوا آباءهم ، وبادر ملك أرض « ميتانى » فى « نهارانى » إلى توكيد علاقته بعرشها، فأرسل ابنته الأميرة « تادخوبيا » عروسا لفرعون الجديد ، كما فعل أبوه من قبل ، ووفاء بعهد كان قد عاهد

عليه فرعون المقدس قبل وفاته . وقد قدمت هذه الأميرة التى لم تتجاوز السادسة من عمرها، على « طيبة » فى قافلة كبيرة من الخدم والأرقاء ، والدواب تحمل الهدايا الكثيرة الفاخرة ، وقد ارتضاها الأمير زوجة له، تحقيقا لأهداف سياسية تتعلق بسلطان بلاده، واتساع رقعة نفوذه، فقد كانت مملكة « ميتانى » تقوم سدا بين ثورة « سوريا » والأراضى التى تقع فى شماليها ، كما كانت بحكم موقعها، بمثابة الحارس القوى لطرق القوافل على مدى بعيد من أرض بلاد ما بين النهرين إلى شاطئ البحر، وفى الوقت نفسه كان كهنة « سيخمت » الابنة المقدسة لأمون ، فقد أعلنوا الحداد لوفاة فرعون فأغلقوا أبواب معبدها إعرابا عن حزنها الشديد ..

فى هذا، كانت أحاديث الناس ومجادلاتهم، وقد أخذت أنا و « تحوتمس » بأطراف من هذه الشئون ، إلى أن خلى بيننا وبينها شراب النبيذ وألحان الموسيقى ورقص الغانيات !..

وأصبحت بعد هذا أحيا على نظام مرسوم فى منزلى وعيادتى، فإذا كان الصباح ، استيقظت على صوت خادمى الأعور، وهو يهفو باحترام إلى جانب فراشى، واضعا أمامى الخبز والسمك المملح وقدح الجعة، فأنال من ذلك حاجتى ، ثم استحم بالماء مجددا نشاطى، وأنتقل إلى غرفة المرضى لأنتظرهم أو أعالج ما بهم .

- ٣ -

أقبل النيل جياش الفيضان مصطخب الموج حتى بلغ فى فيضانه أسوار معبد «أمون» ثم عاد هادئا، يجرى سلسلا ليمنح الناس الخير، ويمنح حقولهم الخصب والنماء ، ويضفى على الزروع والورد والأشجار نضرة الشباب وازدهار الحياة.

ففى يوم من أيام ذلك الفصل الذى يثور فيه النيل ثم يهدأ، ويجزع فيه الناس ثم يأمنون. كنت بمنزلى خاليا إلى نفسى أستعرض فى ذهنى هذ ا الصراع الدائم بين

الأرض والسماء وبين الإنسان والإنسان ، وعلى حين فجأة رأيت «حورمحب» ماثلا أمامي، مرتديا الملابس الكتانية الملكية ومتقلدا قلادة ذهبية، وحاملا في يده سوطا، إشارة إلى أنه أصبح ضابطا في حاشية فرعون ، فحياني قائلا : هأنذا قد جئتك يا صديقي « سنوحي الوحيد » لتعالج أمرى !.. فقلت له مفاكها : ولكن فيم العلاج ؟! إني لأراك ريان العافية موفور الصحة، وما أحسبك محتاجا إلى طبيب ! ..

فاستوى على مقعد قريب وقال : إنما جئتك صديقا لا مريضا ! ..

فشعرت بارتياح للقائه، وهفت نفسي إلى حديثه وتوقعت منه الجديد والطريف من أنباء القصر وأسراره .. وجاء الخادم « كابتاح » فصب الماء على يديه، وقدمت له كعكا كانت أمي « كيفا » قد صنعته وبعثت به إلي ، وسقيته أقداحا من نبيذ المرفأ وقلت له : لقد رقيت إذن ، فأنت الآن ضابط في الحاشية الملكية ، ولا شك أنك بهجة عيون السيدات ومهوى قلوبهن !.. فهذا الشباب المشرق في هذه الحلة المونقة ، خليق أن يستأثر منهم بالعيون والقلوب وبما قد يكون أكثر من ذلك !.

قال في كآبة : إن هذا الذي تراه بعين خيالك عظيما فخما لا يساوي في دنيا الحقيقة شيئا، ولا ترجح به كفة ميزان. وأنا – كما ترى – ضابط في الحرس، وهذا مكاني الطبيعي، ولكن هنالك أيضا ضباط صغار أحداث لا يزيد سن الواحد منهم على عشر سنوات، قد أقحموا إقحاما، وفرضوا على هذه الوظيفة فرضا، لشفاعة من أحسابهم وأنسابهم، وهم من أقل الناس جدارة للجندية في معانيها الصحيحة، لحداثتهم وضعف سواعدهم، فلا يستطيع أحدهم أن يريش سهما أو يرمي به عن قوس. وقد بلغ من السخرية بوظائفهم أن كانت السيوف التي يتقلدونها لعبا من الفضة والذهب، قد تصلح في تقطيع اللحم عند تقديمه للطهي، ولكنها لا يمكن أن تستعمل في مصارعة أعداء، أو مدافعة غزاة، فالأمر لا يعدو أن يكونوا قد جيء بهم أدوات زينة لا جنود حرب، وشبيه بهم الهررة في صور الأسود! .. ويؤلمني أكثر من كل شيء أن الغرور يركبهم فيطاولونني بالحظوة التي ظفروا بها، ويعدونها سبقا وامتيازا، ويعيرونني بأن ليس لي مثل مكانتهم. وكانت هذه حال الجنود من مختلف

الرتب، فهم جميعا منصرفون إلى شراب الخمر والخلوة الآثمة بالفتيات الرقيقات فى الحاشية، لا يصدهم عن ذلك نظام ولا يمنعهم منه خلق . وليست الحال بالمدرسة الحربية أقل سوءا وفسادا. فهم فيها لا يتدارسون إلا فنونا قديمة من مخلفات بالية لا تلائم عصرنا ولا تساوق زماننا، وضباطها المقدمون لم يشهدوا حربا، فهم يأخذون علوم الجندية نقلا ولقانة ، ولا يعرفون منها إلا نصوصا ونظريات، أمثال هؤلاء لا يثبتون أمام عدو ولا يصبرون على ما تفرضه حقائق الحروب من عناء ونصب وجوع وظمأ، ومكابدة أهوال، فى ليل أو نهار ...

قال « حورمحب » ذلك، ونظر إلى قلادته فى ازدراء وسخط ، ثم استطرد قائلا : ما قيمة القلائد وعلامات الشرف إذا لم تكن تقديرا لحسن بلاء فى معركة قتال ؟! وأى شيء تكون هى إذا كانت لا تعطى إلا لمجرد الانحناء بها أمام فرعون ؟! لقد انقلبت المعانى إلى نقيضها، وسميت الأشياء بأضدادها. وهذا هو الهوان الذى لايقبله رجل شريف. وهذه الملكة قد بدأت بنفسها فى هذا الحياة القائمة على التمويه والابتداع، فاقتعدت مكان فرعون ولفقت صورتها بلحية مستعارة وتمنطقت بذيل أسد ، لتبدو فى صورة رجل، ولكن الناس جميعا يعلمون أنها امرأة، وأنها هى التى تحكم، فكيف يستطيع الرجل الشجاع المحارب أن يتلقى أمرا يصدر إليه من سيدة تتهرب من مظاهر أنوثتها، وكيف يمكن أن يوليها كل احترامه وهو يعلم أنها هى نفسها تشعر بالفرق الكبير بينها وبين الرجال ؟! .. فما كانت لتمسخ أنوثتها تحت أشكال الرجولة المستعارة إلا لأنها موقنة أن الرجال لا يرضون عن صاحب السلطان إلا إذا كان رجلا منهم .. لقد كان الجندى المحارب فى عهود الفراعنة العظام بموضع التمجيد والتكريم، فأصبح اليوم بموضع الرزاية والاحتقار. كان الناس يعجبون برجولته وقوة بأسه، ويرهبونه فيكبرونه، فأصبحوا لا يرون فيه شيئا من الرجولة وقوة البأس، فاستحالت رهبتهم منه زراية عليه ، وإكبارهم له استهانة به. ولهذا افتقدت الرغبة فى بقائى بينهم، فإنى لأشعر أن شبابى وقوتى يضيعان عبثا مع أولئك الضباط الأحداث الذين يلهون ولا يتعلمون، ويهزلون ولايجدون. وبحق الصقر ، طائرى المقدس إن

الجندي لا يكون جنديا حقا إلا في ميادين الحروب وبين قعقعة الأسلحة .. فهناك ، يتعلم وينصهر ويخشوشن، ويصبح مواطنا نافعا لبلاده ، مؤهلا للذود عن حياضها.

قال « حورمحب » ذلك، ثم ضرب المنضدة بسوطه منفعلا ، فأطاح بكأس النبيذ .. وكان خادمي قريبا منه فأصابه من هذه الحركة العصبية ذعر شديد ، ولاذ بالهرب خائفا ..

فقلت : يا صديقي « حور محب » إنك بلا شك مريض، ففي عينيك علامات حمى ، وهذا جسمك يتفصد عرقا ..

قال : لا . لست مريضا ، بل إني رجل موفور العافية. وفي استطاعة يدي هاتين أن تحمل كل منهما رقيقا مفرط البدانة والثقل وتصطفقان بهما فيتحطم رأساهما معا في وقت واحد .. وفي وسعي أن أحمل على كتفي أحمالا أشد ثقلا من ذلك وأعدو بها إلى أبعد المسافات دون أن يعتريني كلال أو تعب، فأنا جندي ذو بأس يقدم على الهول ولا يخشاه ، وفي أي ميدان أعرف واجبي وأؤديه كاملا لا يصدني عنه جوع ولا ظمأ، وحتى شمس الصحراء المحرقة لا تستطيع أن تفل همتي وعزمي ، ولكن ذلك كله غير مطلوب في الحاشية الملكية ولا مرغوب فيه من القادة ورؤساء الأجناد في هذا العهد، حتى إن سيدات البيت الذهبي قد استحال تقديرهن للرجولة إلى النقيض مما هو مألوف في طبيعة المرأة، فهن يترنحن حبا وإعجابا بأولئك الشبان الرقعاء متأودي الأعواد، المتزينين زينة النساء، صبغا للشفاة وحملا للمظلات وتعرية للصدور، المتناشدين الأغاني والألحان، إثارة لأخس العواطف وأحقر المشاعر ... وإن هذا لهو العجب العاجب، فكيف جاز للمرأة أن تؤثر بحبها وإعجابها فتى لا يفترق عنها طراوة ورخاوة، وهي التي كانت لا تحب في الرجل إلا قوته وصرامته وشدة بأسه، ولا ينال إعجابها منه إلا هذه الخصائص الجنسية الفوارة التي تنثال متضاربة المعاني، متضادة الطباع. فالحظوة والتشريف، والإعجاب والحب، إنما هي لمن ذكرت من أشباه النساء . أما أنا . أنا « حورمحب » فمنبوذ محتقر، لأني قوي البناء، مفتول الساعد بادي الشجاعة، صارم المظهر، أي لأني ... رجل !..

وسكت « حورمحب » سارحا ببصره في فضاء الحجرة، كأنما يستذكر في صمته شيئا آخر ... وفي هذه اللحظة قدمت له كأسا من نبيذ أفرغها عجلا في جوفه وعاد يقول : كلانا وحيد يا « سنوحي » وإني أنظر فأرى أحداثا وشيكة الوقوع ، وأرى أن المملكتين العليا والسفلى ستحتاجان في يوم غير بعيد إلى رجل في مثل شجاعتي، أنا الذي أشعر بأنني خلقت لأكون قائدا عظيما، ولكنني مع هذا لا أطيق البقاء على ما أنا فيه من هذه الوحدة القاتلة إلى أن تقع الأحداث وتغشى الغاشية، على أن أبرح « طيبة » ، هذه المدينة التي أفرخ فيها الفساد وتفاقم الظلم وذل فيها الكريم الحر.

وتمهل قليلا ليستأنف الحديث قائلا : ولكن قل لي يا « سنوحي » ، فإنك طبيب وعندك يلتمس المرضى الشفاء، فهل لي أن أجد لديك الدواء الذي يشفي قلبي من مرض الحب ؟!.

قلت باسما : ذلك شيء يسير، إن بضعة حبات أعطيكها فتذيبها وتشربها، تمنحك القوة التي تختلب بها إعجاب أي امرأة ، وتقذف بها قذفا إلى شبكة حبك ! ..

قال : لم تفطن إلى ما أريد ، فما تنقصني القوة حتى أطلبها في امرأة بل إن هذه القوة لتعذبني وتشقيني ، وإنما أردت دواء يطفئ القلب ويروي ظمأه المستعر.

قلت له : لا أعرف لمثل هذا علاجا إلا أن تأخذ بالمثل الذي يقول : ادفع الشر بالشر، فلعله يصلح لك ، وإن كنت لا أراه مما يدخل في وصفات الطب التي تعلمناها.

قال : وكيف يكون دفع الشر بالشر علاجا، مع أن معناه ، بكل دقة هو الخلاص من الشر للوقوع في مثله، وربما كان الشر الدافع أوقع أثرا من الشر المدفوع؟

قلت : قد يكون هذا صحيحا، وقد لا يكون. على أن ظاهر أمرك ينبئ بأن لا خوف من استعمال وسيلة من هذا النوع، فإن ذهب الشر فقد خف عناؤك وانفثأت وقدة النار التي تؤرقك، وإن حدث غير ذلك فما أحسبك قد خسرت شيئا ، والغريق لا يفزعه البلل..

قال : ماذا تعني ؟ أوضح ، فقد سئمت هذه العبارات المبهمة ..

قلت : أعني أنه من الممكن أن تحتفظ بقلبك حيا. فإن كانت امرأة قد ثغرت ثغرة فيه، فأنت واجد أخرى تبرئه وتشفيه، و « طيبة » مليئة بالنساء الجميلات النواضر، الرافلات في الحلل الهفهافة البواهر، فستجد منهن التي تؤنس وحدتك وتنفي وحشتك، بالبسمة العذبة والعشرة الطيبة وفي شبابك الفياض بالحيوية، وقلادتك البراقة الذهبية، يجذبها إليك ويلقي بها بين يديك. على أنى لا أدرى ما الذى يحول بينك وبين تلك التي تعلق بها فؤادك، وانصرف إليها هواك؟ .. إنه لا شيء يحول بين الرجل والمرأة التي يحبها حتى لو كانت زوجة لرجل سواه! .. فالحب يتسلق الجدران ويتخطى الحواجز والأسداد، وتتهاوى أمام قوته الحصون، وقد تبدو المرأة المحبوبة في عين الرجل المحب أسكن منه عاطفة وأهدأ بالا، فيساوره اليأس ويحسبها بعيدة المنال، ولكنه لو استطاع أن ينفذ إلى خفايا نفسها، لعلم أنها تبادله العاطفة نفسها والشعور نفسه، وكل ما بينهما من فرق أنها تأخذ الأمر بالتريث والحذر، بينما هو يندفع فيه اندفاع اللهب المحرق، ويطيب للمرأة في مثل هذه الحال أن تتخذ من سكونها وهدوئها سلاحا تؤجج به وقدة ناره، فهذه طبيعتها. ولكنها ما تلبث أن تلقى هذا السلاح استسلاما إذا ما طغت عليها عاطفة الحب، وهي لا محالة طاغية. ما من امرأة تشعر أن رجلا يحبها أو يفكر فيها تفكير المحبين، إلا جنحت إليه، وأقبلت بقلبها عليه. وقد قيل إن المرأة حين تحب، تروض نفسها أول الأمر على السكون، ولكنه السكون الذي يسبق العاصفة، فإن عصفت فهي متقلبة في اتجاهاتها متموجة في اندفاعاتها، والرجل يستطيع دائما أن يحرك في حياتها الرياح ويثير العواصف، ويقال في ذلك إنه كما تذيب الحرارة الشمع، فكذلك لا يتسلط رجل على امرأة بحرارة حبه إلا أذابها ذوبان الشمعة.

قال «حورمحب» : إن ثرثرتك هذه تبعد كثيرا عن نقطة البحث الرئيسية، فالمرأة التي ملكت لبي واستولت على قلبي ليست متزوجة وليست في شيء مما تذكره عن النساء. فهي لا تكاد تراني، مع أني تحت نظرها، ولا تكاد تلمس يدي مع أني أهيئ لها مقعدها وأساعدها في الجلوس عليه .. أرأيت كيف أن أمري معها جد مختلف عن تصورك وتقديرك ؟

قلت له : لا شك أنها من سيدات الطبقة العالية ؟!

قال : أرى الكلام عنها غير مجد، إنها في صورة القمر جمالا، وهي مثله علوا وارتفاعا، فليس إلى اللقاء بها من سبيل؛ ولهذا كان الرأى عندى أن آخذ نفسى بنسيانها، ولا يتحقق لى ذلك إلا بمبارحتى « طيبة » ، فلو بقيت قريبا منها، فإنى ملاق حتفى كمدا ويأسا.

قلت له فى خبث : على أية حال ، لا أظنك صريع جمال الملكة الوالدة، فهى أكثر بدانة وأكبر سنا من أن يعلق بها قلب شاب مثلك متين البناء مفتول العضل.

فقال بازدراء: ويمكنك أن تضيف إلى هذا التخمين البارع أن لديها كاهنها المفضل الذى تصله بها صلة الرجل بالمرأة فى أدق ما يكون بين زوج وزوجه. فرفعت يدى مقاطعا، وقلت له : حسبك يا هذا . تسترسل هكذا فى الحديث عنها. إنى ليغلب على ظنى أنك شربت من آبار كثيرة مسمومة منذ قدومك إلى « طيبة » .

فمضى يقول وكأنه لم يسمع : إن مالكة قلبى ليس كمثلها فى النساء نضارة وبهاء، واعتدال قوام، وسحر عيون، إنها عذراء لم يمسسها بشر . وإنها « باكيت أمون » ، ابنة فرعون ، فهل عرفت الآن لماذا صرت مجنونا أو كالمجنون ؟! لقد كشفت لك عن سرى الدفين الذى لم أبح به لأحد، وحذار أن يجرى على لسانك، وحاول دائما ألا تذكره بينك وبين نفسك ، فإن لم تفعل فلن أتردد فى إطاحة رأسك عن جسدك!

وهنا اعترانى الفزع، ولم أر فى « حورمحب » ، إلا أنه قد استحال مخلوقا مسلوب العقل حقا، فلا يمكن أن يخطر بالخيال والتصور أن رجلا فى مثل تفاهة شأنه ووضاعة أصله، يرتفع ببصره، بله غرامه، إلى ابنة فرعون، ثم يشغل نفسه بها كما لو كان يجوز أن يبلغ منها مبلغ الرجل العاشق من المرأة العاشقة، فتلك جرأة لا تصدر إلا عن إنسان مخبول.

وقلت له مستغربا : أنسيت أن ابنة فرعون لا يحق لمخلوق من أمة الناس أن يضع قلبه فى طريقها إلا إذا كان قد أراد أن تسحقه تحت قدميها ، إنها حينما تشاء

أن تتزوج من إنسان، فلن يكون ذلك الزوج إلا أخاها ولى العهد ، ليرفعها إلى مكان الملكة شريكته فى الملك! وسيقع هذا، فقد كانت ونحن إلى جانب فراش أبيها وهو يحتضر، تضع نظرها على أخيها فلا ترفعه عنه، ثم هى فتاة رهيبة، يجتمع الموت والفراغ فى نظراتها ، فأين أنت منها يا صديقى ؟! وأخيرا فإن تكن جادا فيما تقول ، فليس ثمة من وسيلة إلا أن تأخذ سبيلك هربا، راحلا عن « طيبة » التى لم تعد بلدا يطيب لك المقام فيه.

قال « حورمحب » : أعرف هذا كله ولا أجهله، وما كان أمرى، على ما تقول ، جرأة وتطاولا فيما لا تجوز فيه الجرأة والتطاول، إنما كان خفقة قلب لا سلطان للعقل عليه، قلب لا يؤمن بالفوارق الإنسانية لأنه لا يعرفها. إن للقلوب عيونا غير عيوننا، وهى تضطرب فى صدورنا اضطراب الضال فى الصحراء ، قد تعلقت عينه بالأنجم الساطعة فى جوف السماء ، وكثيرا مايدركها الردى وهى لاتدرى، فلا حيلة لى فيما كان ولا تدبير، وإنى لأوثر أن نعود إلى ما كنا بسبيله من حديث الشر الذى يدفع الشر، فما فى سواه يكون عزائى وسلوتى. إن امرأة أخرى، أية امرأة ، يمكن أن أخادع بها قلبى الحائر الضال، على أن تكون فى صورة فتاة القصر، مرتدية مثلها ثوبا من الكتان الملكى، وعلى شفتيها وخديها الطلاء الفاتن اللون، ويعلو رأسها الشعر المستعار مصففا لامعا.

فقلت له وعلى وجهى ابتسامة مشرقة : حسنا، إنك الآن تتكلم كما يتكلم العقلاء.

قال : أصغ إلى يا « سنوحى » ، إن من بين زملائى الضباط واحدا اسمه، « كيفتا » من أهل جزيرة « كريت » كنت قد اشتبكت معه فى شجار ، ثم تصافينا وأصبح يولينى الكثير من الاحترام ، وقد دعانى لأصاحبه اليوم إلى حفلة استقبال بمنزل قريب من معبد لأحد آلهة رءوس القطط، ولا أذكر الآن اسم ذلك الإله، لأنى لم أكن راغبا فى تلبية الدعوة.

فاستدركت قائلا : لعلك تقصد الإله « باست » ، وإني لأعرف معبده، وهو مكان لا يخلو أبدا من النساء الجميلات، فهن يتواردن عليه دائما ويقدمن القرابين لهذا الإله ويصلين له صلوات حارة ليسر لهن اقتناص المحبين والعشاق من السراة والأثرياء . وإنك لواجد فيه الدواء والشفاء.

قال : فلنذهب معا، فما أستطيع أن أذهب وحدي. إني أجهل سلوك أهل « طيبة » وبخاصة نساؤها ، وأنت الذي ولدت ونشأت هنا، أعلم مني بذلك وأوسع إحاطة، ولهذا أرجو أن تكون رفيقي.

وكان « حورمحب » في دعوته إياي، على أساس معرفتي بأحوال النساء ومجتمعاتهن، يجهل بلا شك أنني في ذلك لا أزيد على معرفته شيئا ، ولكني وقد أثملني النبيذ، خجلت ألا أجيب دعوته. فأمرت خادمي « كابتاح » أن يعد لنا محفة ويستأجر حامليها، فجاء بهم وحملونا عليها إلى معبد « باست » فلما دنونا منه تراءت أضواء المشاعل والمصابيح متوهجة ساطعة أمام المنزل الذي نقصد إليه. وعند ذاك أدرك حملة المحفة أنهم قادمون بنا إلى مكان يطمعون في أن ينالوا عنده أجرا مضاعفا، فهو المثابة التي يتوافد عليها الأغنياء وطلاب اللذات، فصاحوا مطالبين بذلك. ولكن « حورمحب » واجههم بسوطه مهددا ، فلزموا الصمت خائفين .

ودلفنا إلى داخل المنزل فتلقانا الخدم متهللين ، وصبوا الماء على أيدينا ، ورشقوا الزهور على صدورنا . وكان جو المكان ينتفح برائحة الطعوم الشهية ممتزجة برائحة الزهور العطرة. وفي خطوات متئدة رصينة انتهينا إلى البهو الكبير، وكان حاشدا بمن سبقنا إليه من رجال ونساء، يجالس بعضهم بعضا، ويتساقون النبيذ في لذة وإمتاع ، وعلى وجوههم جميعا فيض من الصفو والانشراح، وإني لأطوف بنظري في هذه الوجوه المنضرة قبل أن نجاوز مدخل البهو، إذا به يقع فجأة على وجه السيدة التي خفت لاستقبالنا ، فيقف على هذا الوجه الطافح بهاء وجمالا ولا يتحرك، إنها ترتدي ثوبا كتانيا ملكيا رقيقا يشف عن أعضاء جسمها اللطاف الفاتنة، فتلوح فيه كأنها

إلهة، وعلى رأسها شعر مستعار كثيف أزرق اللون، وقد افتنت فى زينتها، فحاجباها مزججان بالسواد، وطرفا عينيها مصطبغان باللون الأخضر، واللآلئ الباهرة المتكثرة بها كان أكثرها من اللون الأحمر، فكانت بهذه الزينة كأنها باقة من زهور الربيع الريانة، تبدت فى ألوانها الزاهية، ذلك إلى عينيها الخضراوين خضرة مياه النيل تحت حرارة شمس الصيف.

نظرت مبهورا إليها، وأدركت لفورى أننى أقف وجها لوجه من السيدة الرشيقة الجميلة التى كنت قد لقيتها فيما مضى بين أعمدة معبد « آمون » ! نعم ... إنها هى « نفر نفر نفر » بلا ريب . لقد عرفتها ، فإن صورتها لمطبوعة على صفحة ذهنى لم تمحها الأيام أو الأحداث، ولكنها بدت كأنها لا تعرفنى ، ولا تذكرنى فقد اختصت « حورمحب » بحفاواتها وابتساماتها، ولم تمنحنى شيئا منهما. وحياها هو برفع سوطه ثم شغل عنها بصديقه الضابط « كيفتا » الذى أسرع إليه ليضمه إلى صدره ويبالغ فى الترحيب به.

وأخذ كل منا مكانه فى هذا المنتدى الزاخر بفنون اللهو والطرب ، وقد لعب الشراب دوره فى رءوس كل من فيه، فأوانى النبيذ متناثرة على الموائد، والزهور مبعثرة على الأرض، والجميع يتصايحون ويتضاحكون ويخلطون فى أحاديثهم، وآلات الموسيقى مشدودة الأوتار تضرب عليها أيدى العازفين السوريين، فتجلجل أنغامها وتعلو على أصوات النشاوى والمخمورين .

وكدت أكون وحدى لولا أن هتف « حورمحب » باسمى، فأقبل على « كيفتا » فضمنى كذلك إلى صدره واحتفل بى كصديق، وهنا التفتت تلك السيدة التى لم أشك فى إنها « نفر نفر نفر » ، وقالت : « سنوحى » ؟! . لقد عرفت مرة، واحدا هذا اسمه .. كان يتعلم الطب ليصبح طبيبا . فقلت وأنا أنظر إليها وجسمى يختلج اختلاج المحموم : نعم. أنا هو « سنوحى ».

قالت متخابثة أو منكرة. لا : لست إياه ! .. إن « سنوحى » الذى عرفته يومذاك كان شابا صغيرا ذا عينين صافيتين كعينى الغزال .. أما أنت فرجل تشوب جبهتك بعض التجاعيد، وليس فى وجهك من وجه « سنوحى » هدوؤه وبساطته ..

فمددت يدى مشيرا إلى الخاتم ذى الحجر الأخضر الذى أزين به إصبعى ، معتقدا أن فيه الدليل الذى يقنعها ولا يجدى فيه الإنكار والمراء ، ولكنها هزت رأسها متظاهرة بالشك والتردد ، وقالت : يمكننى الآن أن أقول إننى أستقبل بمنزلى لصا، قتل « سنوحى » الذى عرفته ذات يوم، واستلب منه هذا الخاتم الذى كنت قد أهديته إليه علامة صداقة وتذكار محبة، ويمكننى كذلك أن أقول إنك سرقت مع خاتمه اسمه، وجئتنا الليلة بالاثنين معا ! ..

ثم أتبعت قولها بحركة معبرة عن أسفها على « سنوحى » الذى تحسبه قد فارق الحياة مقتولا بيدى ، أنا الذى سرق خاتمه واسمه ! ..

وشعرت بمرارة قاسية فى هذا الموقف الغريب، فلم يسعنى إلا أن أنزع الخاتم من إصبعى وأقدمه إليها قائلا : هذا هو خاتمك فخذيه . وسأذهب عنك لساعتى حتى لا أثير فى نفسك ألما أو أسبب لك ضيقا ! .

ولكنها عاجلتنى قائلة : كلا .. لا تذهب ..

وأدارت يدها بخفة على رأسى ، كما فعلت مرة منذ سنوات .. وعادت تقول فى حنان وتلطف : نعم . ابق هنا ..

ومن غير وعى، بقيت ، فلم أجد الشجاعة لأبرح المكان ، فقد كان قلبى ، الذى تسيطر عليه هذه المرأة ، هو المسيطر على إرادتى وحركاتى . وقد رضيت عن نفسى كثيرا بهذا البقاء ، ليمتد به قربى من المرأة التى أحببتها بكل جارحة من جوارحى ، وكنت أعرف مع ذلك أن جسمها قد يحرقنى أشد مما تحرق النار .

وأخذ الخدم يدورون علينا بالنبيذ ويصبونه فى كئوسنا، ولم يكن النبيذ ألذ وألطف مذاقا فى فمي منه فى تلك اللحظات، وكان رفاق الملهى قد أطالوا وأسرفوا فى تعاطيه، فأخذ القيء إحدى السيدات، أسرع أحد الخدم إليها بوعاء تتجشأ فيه، ولكنها كانت قد أفرغت مافي جوفها قبل أن يصل إليها، فسال على ردائها، وتضاحك الحاضرون عليها. لكنها عندما أفاقت من غشيتها غادرت المكان فأبدلت ثيابها وعادت تواصل شرب النبيذ، وتنتقل بيننا وهى تتثنى وتتمايل وتغنى وتتهلل ، حتى انتهت إلى « حورمحب » فناولته كأسا وجلست إلى جانبه، وأخذا يتبادلان الحديث فى نشوة وإيناس ، وقد خيل إلى أنها بلغت من نفسه مبلغًا أحاله إنسانا آخر أقرب إلى الرقة منه إلى الغلظة، وإلى الرجاء منه إلى اليأس، فاسترحت إلى ذلك، وتمنيت أن يكون قد وجد فى صاحبته الدواء المنشود.

وعدت إلى نفسى لأحلق بها فى آفاق السعادة التى وافتنى على غير ميعاد، فى وجه « نفر نفر نفر » ..

كنت سعيدا بهذا اللقاء المفاجئ الذى أيقظ بين جنبى قلبا عاشقا كان قد أغفى ..

ولكنها سعادة لم يطلع نجمها إلا ليأفل، ولم أتنسمها عبيرا منعشا إلا لأتلقاها بعد إعصارا مدمرا .. فليتها لم تكن !..

– ٤ –

نظرت إلى « نفر نفر نفر » وهى جالسة إلى جانبى، وأطلت فيها النظر . لقد كانت أكبر سنا مما رأيتها لأول مرة ، وكانت ابتسامتها تتلألأ على فمها، ولكن عينيها الخضراوين كانتا قليلتى الابتسام، بل لعلهما كانتا جامدتين، على غير ما كنت قد شمته فيهما من قبل. إن السنوات التى باعدت بيننا قد أحدثت فى حياتها شيئا، ولكنها على التحقيق قد زادتها فى عينى وفى قلبى بهاء وسحرا.

قلت لها متسائلا : أهذه دارك ؟!

أجابت : إنها داري ، وهؤلاء ضيوفي ، فإني لأستضيف الكثيرين كل مساء فرارا من الوحدة .

وشعرت كأن هاتفا من أعماق نفسي يستحثني لمساءلتها عن أمور أخرى قد يكون العلم بحقائقها مؤلما، ولكنني آثرت القصد في ذلك بقدر ما يسمح به الموقف ، وبدأت بسؤالها عن «متيوفر» فأجابت وهي عابسة الوجه : لقد مات ! .. مات « متيوفر » بعد أن أساء التصرف في أموال فرعون التي أعطاها أباه ليقيم بها معبدا .. أجل . لقد مات . ولم يعد أبوه رئيسا للبنائين في القصر الملكي .. كيف لم تعرف هذا يا سنوحي؟!

قلت مبتسما : إن كان ذلك صحيحا ، فقد انتقم « أمون » منه .. إن « متيوفر » كان يسخر من اسم « آمون » ولا يخشى لعنته وغضبه ! ..

ثم ذكرت لها بعض ما أذكره من تصرفاته ، كبصقه هو والكاهن على تمثال « آمون » عندما كانا يقومان بتنظيفه ، واستباحتهما عطوره المقدسة باستعمالها في تطييب جسميهما، إلى غير هذا مما يدل على ضعف الإيمان والاستخفاف بالمقدسات الإلهية !.

فافتر ثغرها عن ابتسامة باهتة . وراحت تحدجني بنظراتها الغامضة في صمت، وفجأة قالت : إذا كنت لم تزل تفكر في حقا، فلماذا لم تسع إلى زيارتي قبل الآن ؟! . ألا ترى أنك قد أخطأت إذ ترسل نفسك على هواها مع نساء أخريات، وفي إصبعك خاتمي الذي أهديته لك لتذكرني ، فنسيتني لتذكر غيري ؟ ..

قلت لها : كنت صبيا يوم لقائنا الأول، وقد شغفت بك حبا، ولكنني خشيتك وخفت منك، ولازمني هذا الشعور بعد ذلك، فكنت لا أذكرك إلا في رهبة ، ولا أفكر فيك إلا في وجل .. وقد لا تصدقينني إذا قلت لك إنك المرأة الوحيدة التي تعيش فيها، منذ ذلك الحين وإلى الأبد، أحلامي وأفكاري ومشاعري جميعا .. وكانت أمنيتي

العزيزة التى أمسى وأصبح عليها ، هى أن تتاح لى فرصة لقائك مرة ثانية ، وها قد تحققت أمنيتى ، وإننى بها لجد سعيد ..

فبدت كأنها فى ريب مما أقول ، وعقبت قائلة : أكبر ظنى أنك تبعد كثيرا عن الحقيقة ، فما أنا فى عينيك الآن إلا المرأة التى انفصلت عن شبابها وجمالها، واعتصرتها السنون فلم تبق منها إلا آثار ربيع زائل، وشباب حائل .. قل إنك تصانعنى لترضينى ، فذلك أدنى إلى الحق الذى يظاهره منطق سلوكك طوال هاتيك السنين ! . وإلا فكيف أبحت لنفسك أيها العاشق الواله أن تداول بين النساء ، ولا تحاول مرة أن تفتش عن المرأة التى تزعم أنك تعيش فى ذكراها ؟! المرأة التى يجمعك بها الليلة محض الصدفة والاتفاق ! .. أو أنك كنت قد تقصيت أنباءها فقالوا لك إنها ماتت، فرحت تنشد السلوى فى أحضان غيرها ؟ ما أسوأ شأن الرجال حين يكذبون ويلفقون !..

قالت ذلك ، وعيناها تلمعان ببريقهما الساحر الذى افتقدته فيهما منذ حين ، وتجلت فى نظرى أكثر جمالا وأشد إغراء، فقلت لها وقلبى يخفق خفقا متلاحقا : أقسم لك بالآلهة ومقدساتها جميعا، إننى قد صدقتك القول ، فلم أعرف من النساء إلا اللواتى يترددن على عيادتى . وهن يختلفن وجوها وأعمارا وعقولا ، ولكنهن جميعا مريضات جئن فى طلب الشفاء ، لا لشىء غيره . وكنت بطبيعة عملى وطبيعة واجبى أنظر إليهن نظرة واحدة بلا خلاف، نظرة الطبيب إلى المريض ... ولعل من بينهن من حاولت أن تحرك قلبى، ولكنه، وأقسم لك مرة أخرى ، كان كالأصم الذى لا يسمع ، وكالجماد الذى لا يتحرك.

قالت : ربما كنت فى صباك الراحل، نافرا من الناس ، فطاب لك المقام فى عزلة عنهم ، وأتيح لك بذلك أن تكتشف فضائل العيش وحيدا ! .. ثم ضحكت ... ولمستنى بيدها لمسا أجج اللهيب فى قلبى ، وقالت : هيا بنا نشرب النبيذ معا، فإنى لأشعر بأنك مؤنسى يا سنوحى!

فأخذنا نتبادل الكئوس والأحاديث، وليس على وجه الأرض من هو أسعد منى قلبا فى ذلك الوقت ..

وأذن الليل بالرحيل، فانصرف الضيوف تباعا على محفاتهم .. وكان « حورمحب » قد استغرق فى متعة جلوسه إلى السيدة التى اختارته رفيقا دون الآخرين، وبدا أنها استهوت فؤاده الشارد، وأروت نفسه الصادية .. فعندما نهضت لتنصرف، خلع قلادته ليقلدها بها ، ولكنها أبت عليه ذلك قائلة : إنها سيدة شريفة ، وليست من بنات الهوى، وخرجت ومضى فى أثرها، ولم أعرف ماذا كان من شأنهما بعد هذا ..

وخلت الدار من جميع الرفاق، وأومأت « نفر نفر نفر » إلى خدمها فجعلوا يطفئون بعض المصابيح، ويرتبون المقاعد وينظفون القاعة، ولم يبق إلا أن أنصرف بدورى ، فقد كانت هذه الحركة إعلانا بهذا ودعوة إليه، فوقفت لأقول لها : ينبغى أن أنصرف أنا أيضا ...

قلتها ، وقلبى يضطرب جزعا، فقد كنت أرجو ألا يكون لهذا الليل آخر ، ولا لهذا اللقاء نهاية ! ..

وسألتنى وهى تصطنع الدهشة : وإلى أين يكون منصرفك الآن ؟!

قلت لها : لن أبعد عن هذا المكان كثيراً، فسأقيم من نفسى حارس الطريق على باب دارك .. فإذا انبلج الصباح ذهبت إلى كل معبد فى « طيبة » لأقدم القرابين للآلهة شكرا لها على لقائنا بعد يأس، ثم أمضى إلى الحدائق فأقطف الزهور والورد، وأنثرها فوق الطريق الذى تسيرين عليه ، ثم أبتاع العطور لأعطر بها أعمدة هذه الدار الفيحاء ، الدار التى تضم معبودتى المقدسة ! ..

فهشت وقالت : أما الزهور والعطور فعندى منها الكثير ، ولا أرى إلا أن تبقى فأنت وحيد وقد أسرفت فى شراب النبيذ فإذا خرجت مخمورا فإن قدميك من حيث لا تدرى قد تدفعان بك إلى نساء أخريات، وهذا ما لا أرضاه لك ولا أسمح به ! ..

كانت كلماتها إشعاعات تنثال على نفسي الداجية فتلمؤها نورا. وفي بهجة غامرة هممت بضمها إلى صدري، ولكنها دفعتني عنها قائلة : إن عيون الخدم تتلصص علينا ! . وقادتني إلى حديقة الدار ، إلى الزهور يفوح عبيرها منعشا، وإلى القمر يكسو خمائلها حلة فضية رائعة البهاء ... ويالها من حديقة ، لم أر مثلها ازدهاراً وجمال تنسيق ! ..

كانت زهرات « اللوتس » تتدلى حانية على حفافي بركة الماء السلسل، كأنها قلوب العاشقين تنهل من نهر الحب، أو أرواح المؤمنين تصلى خاشعة أمام هيكل مقدس ... وكان الماء يترسل في حنايا البركة ترسل الأمل في هذه القلوب الولهى، أو ينعكس صافيا على جنباتها المزركشة بالأحجار الملونة، كأنها المرآة ينعكس عليها الشباب ريان الحيوية، عذب الأحلام ! ..

إلى هذا الفردوس الجميل، قادتني « نفر نفر نفر » ، لنأخذ منه مجلسنا بعيدا عن عيون الرقباء والمتلصصين؟ .. وبإشارة منها . أقبل الخدم فصبوا الماء على أيدينا وحملوا إلينا إوزة مشوية، وفواكه معسولة. ودعتني إلى مشاركتها هذا الطعام الشهي، فلبيت دعوتها مسرورا، ولكن حلقي في تلك اللحظة كان جافا فلم أزدرد من الطعام إلا قليلا، ولعلي كنت موفور السعادة ، فلم أجد في نفسي حاجة لشيء آخر ! .. ولكن « نفر » راحت تلتهم طعامها كما لو كان الجوع قد استبد بها أياما ، وكانت تنظر إليّ خلال ذلك نظرات تزيدني شغفا وهياما ، فأدنو منها لأحتضنها فتنحيني برفق قائلة : لماذا كانت « باست » إله الحب على صورة قطة ؟!.

قلت : ليس يعنيني الآن أمر القطط أو الآلهة ! .. وإنما الذي يعنيني هو أنت، أنت وحدك ... وبسطت يدي على كتفها، فنحتها كذلك وقالت : قد تستطيع عاجلا أن تلمسني ، وقد تضع يدك على صدري . فليهدئ ذلك من روعك ، ولكن يجب ، قبل كل شيء ، أن تستمع إليّ: أتعلم لماذا كانت القطة رمزا لحب المرأة ؟ ! .. لقد كان ذلك لأن كف القطة ناعمة لينة، ولكنها تخفي تحت نعومتها مخالب حادة ، تنشبها فتجرح وتدمي وتميت .. وإن المرأة لعلى هذا المثال، نعومة مظهر، وقسوة مخبر ، فكلتاهما تشعر باللذة في تعذيب

فراشها، والقضاء عليها !.. هذه هى الحقيقة أصارحك بها، لتأخذ حذرك، فما أريد لك إلا الخير والسلامة ! .. ثم أخذت إحدى يدى وحركتها على صدرها ووضعت الثانية على بطنها، فارتجفت وطفرت الدموع من عينى ! فدفعتنى عنها مرة ثانية، ومدت يدها لتصافحنى قائلة : ويمكنك الآن أن تذهب على ألا تعود، فإنك إن بقيت، أو عدت وأبيت إلا أن تندفع فى مجرى حياتى، غير مستفيد بنصيحتى ، فإنما تسلم نفسك إلى الأخطار ، وتلقى بها فى أتون النار، وعندئذ تندم حيث لا يجدى ندم ! ...

قالت هذا وتركتنى لأنصرف، ولكننى لم أفعل ، فقد تسمرت فى مكانى كأنى إحدى أشجار الحديقة قد امتد جذعها إلى غور بعيد من الأرض ، وكان حديثها عن القطة والمرأة خليقا أن يخيفنى منها، ولكننى لم أشعر بخوف وإنما شعرت بعكسه، شعرت بالطمأنينة والثقة والرغبة الملحة فى التعلق بها، وقلت لنفسى: إذا كانت صادقة فى تحذيرى منها ومن أن لها مخالب القطة القاتلة ، فهى إذن تحبنى، وإلا فلماذا تجنبنى ورود الهلكة، ولماذا لا تخدعنى كما تخدع أية امرأة ، أى رجل ؟! .. تقول : فما أريد لك إلا الخير والسلامة – وهى عبارة تحمل كل معانى الحب والإيثار ، وإذ كانت هذه هى منزلتى عندها، فكيف أستطيع أن أعيش بمبعدة عنها ! ومتى كان للخوف واتقاء الخطر مكان فى دنيا الحب الصادق ؟!.

تجاوبت هذه الخواطر متدافعة فى كل مسالك تفكيرى ، ومن ثم كان القرار الذى لم يكن منه مهرب، وهو أن أبقى متصلا بها أقوى ما يكون الاتصال ، وليكن بعد ذلك ما يكون ..

وأعربت لها عن هذا القرار الحاسم، وعينى مبللة بالدمع ، تأثرا بالموقف الرهيب !...

فقالت : إذن ، فليكن ما تريد ! .. ولكنى أرى الجو هنا شديد البرودة ، ثم صحبتنى إلى غرفتها ، حيث سريرها المصنوع من العاج والأبنوس ، وخلعت رداءها وفتحت لى ذراعيها وكنت كأن جسمى كله قد أصبح رمادا من حرارة جسمها ، وتثاءبت متراخية واستسلمت.

وعدنا إلى ما كنا فيه ، نتبادل أعذب الأحاديث، إلى أن بدأت تتراخى مجهدة، وتترنح ترنح المتعب، فأشفقت عليها، ونهضت مستأذننا فى الانصراف وقفلت عائدا إلى منزلى موفور السعادة والهناءة ...

- ٥ -

ولم تغمض لى عين حتى الصباح ! .. كنت أدفع النوم وأغالبه حتى لا يحول بينى وبين ذكرى هذه الأمسية التى كانت كأنها الحلم الممتع الذى أخشى أن يمضى فلا يعود ..

وأمرت خادمى « كابتاح » أن ينبئ المرضى بأنى لا أستطيع أن أباشر اليوم عملا ، وفى وسعهم - إذا شاءوا - أن يذهبوا إلى غيرى من الأطباء ..

فتلقى « كابتاح » هذا الأمر مشدوها مغيظا ، فما تعود أن يرانى متثاقلا فى لقاء المرضى ولا مصروفا عنهم ولا زاهدا فيهم على هذه الصورة من قبل، ذلك إلى أنه كان يحرص حرصا شديدا على أن يزداد عددهم، ليزداد اطمئناننا على دخل العيادة وعلى فائدته منها، ولكننى لم أحفل بهذا وطلبت منه أن يدعو فى الحال « حلاقا » فجاء وأصلح من شعرى، وانتقلت إلى « الحمام » فقضيت به بعض الوقت مغتسلا، ثم ارتديت فى عجل أجمل ملابسى، وأفرغت عليها أزكى العطور وأطيبها، واستدعيت محفة وطلبت من حامليها الإسراع بى إلى بيت « نفر نفر نفر » ..

لقد كانت هى كل شىء فى حياتى، فلأمض إليها مسرعا فى هذا الوقت الباكر، لتكون أول زهرة أتنسم عبيرها، ولأكون أول سعيد يحظى بلقياها ..

واستقبلنى خادمها، وسار أمامى إلى داخل الدار وأشار إلى حجرتها الخاصة، فاجتزت بابها ، وكانت وقتذاك تجلس إلى المرآة تنسق زينتها ، فما إن رأتنى حتى أخذتنى بنظرة بادية الصرامة والقسوة، وقالت : لماذا جئت الآن يا سنوحى ؟ .. إنك تضجرنى بهذا ..

قلت لها : لم أطق صبرا على البعد عنك يا سيدتى ..

وخطوت لأقترب منها، فقالت مغلظة : مكانك .. ليس وجودك اليوم بالأمر المرغوب فيه، فإن لى حياتى الخاصة التى لا ينبغى لك أن تقتحمها وتتدخل فيها على هذا النحو ! .. أما وقد جهلت هذا أو تجاهلته فمن حقى أن أنبهك إليه لتلزم حدك، وأزيد على ذلك فأخبرك بأن تاجرا من « صيدا » قدم إلى « طيبة » أخيرا، يحمل جوهرة ثمينة لإحدى الملكات عثر عليها فى أحد القبور ، وإنى لأتزين كما ترانى ، استعدادا للقائه فثمة موعد بيننا على ذلك فى هذا النهار، وسأفرغ له وحده لأنال هذه الدرة الغالية التى سيجيئنى بها والتى طالما تمنيت أن يكون لى مثلها .. أرأيت كيف أنه من الحماقة – إلى حد بعيد – أن أجعل لك مكانا عندى فى هذا اليوم ؟ ..

وتركت مكانها فى المرآة لتجلس متمددة على مقعد مستطيل، وجاءت خادمتها لتدلك أطرافها ، بينما وقفت أنا ، غير بعيد منها، مبهورا والوجد يقيم قلبى ويقعده .. فلما انصرفت الخادمة ، التفتت هى نحوى وقالت : فيم البقاء يا سنوحى ؟ لماذا لم تذهب ؟ إننى أريد أن أبدل ملابسى ..

إنها تدعونى إلى الخروج، بل تأمرنى به، ولكنى بقيت جامدا فى مكانى كأنى لم أسمع ، ولم أحتمل آخر الأمر قسوة الموقف، فقلت لها : لا أستطيع أن أخرج ، كما لا أستطيع أن أرى شخصا آخر يغلبنى عليك وينتزعك منى ، فلن يكون هذا ولو لقيت حتفى فى سبيله.

قالت : أتمنعنى من الاتصال بالناس، وتريدنى لك وحدك؟ هذا ما لا قدرة لك عليه، ولأفرض أنى أبحتك نفسى هذا اليوم كله، فقضيناه معا فى شراب ومتعة، فأى شىء أظفر به منك بعد ذلك؟

قلت لها ، وأنا مأخوذ بفتنتها الساحرة : حقا، لا أملك شيئا مما ينبغى أن أقدمه إليك، ولقد تمنيت لو أنى استطعت أن أشترى لك الجوهرة التى رفعت شأن

صاحبها عندك، وجعلته اليوم بالمحل الأثير لديك، لا . بل إنني لأتمنى لو استطعت أن أحمل إليك كل ما في كنوز الدنيا من جواهر ولآلئ وذهب. تمنيت أني أملك هذا كله لأضعه بين يديك قربانا إلى مرضاتك وحبك، ولكن وا أسفاه .. ما كل ما يتمنى المرء يدركه ..

واتجهت إلى الباب لأخرج، فاستوقفتني قائلة في شيء من الرقة: إني راثية لحالك، أسفة عليك، والواقع أنك أعطيتني أعز ما في الوجود على إنسان، وهو القلب والحب، وهما لا يوزنان بمال ولا يقدران بثمن، ولا ترجحهما جبال من ذهب .. على أنهما مع هذا لا يقضيان حوائج الناس، ولا يحققان مطامعهم في الحياة، وما أراك على أية حال فقيرا، فأنت طبيب تملك بيتا وعيادة ، ولك من عملك معين لا ينضب !..

قلت لها في غير تردد : فليكن لك كل هذا يا « نفر » إذا شئت، وإن كان بالنسبة إليك يعد شيئا تافها، إن بيتي ليحتوى على الكثير النافع مما يحتاج إليه الأطباء، ومن الممكن أن نجد في « دار الحياة » طالبا من أبناء الأثرياء، يدفع فيه ثمنا حسنا، فليس إلا أن تأمرى بأن أفعل ، فيتم الأمر على ما تشائين.

قالت في زهو : لا يسعنى إلا القبول ما دمت أنت راضيا عن هذا، وعليك إذن أن تمضى إلى مسجل العقود لينقل هذه الأشياء إلى اسمى، فإننى كما تعلم أعيش وحيدة وأخشى المستقبل المجهول، ويهمنى أن أتزود له، فمن يدرى فقد تتخلى عنى يوما يا سنوحى؟

ووقع هذا من نفسى موقع الاغتباط، كأنما قد أزجت إلى به ثراء عريضاً ، وغنى سابغا ، فانطلقت لفورى دون أن أتكلم، فقد جمد لسانى فى حلقى لفرط سرورى، وقصدت إلى المسجل القانونى الذى قام بحصر الأمتعة والأدوات، وأعد الوثيقة الناقلة لملكيتها « نفر نفر نفر » وأثبتها فى سجل المحفوظات الملكية، وحملتها فى خفة

الطير وسرعته عائدا بها إليها ... وكانت على مدخل الدار محفة تنتظرها، فدخلت عليها معجلا وقدمت إليها الوثيقة قائلا، إن كل شيء أملكه قد سجل لها فيها حتى الملابس التى أرتديها، وسألتها أن تجعل لى يومها هذا كله.

فتناولت « نفر » الوثيقة في غير اكتراث، وألقتها فى صندوق من الأبنوس وقالت إن أمرا طارئا يدعوها إلى مغادرة بيتها الآن، وإنها ستدعونى يوما عندما تكون مستعدة لاستقبالي.

فكأنما قد رمتنى فى كلماتها هذه بسهم مسموم، وأذهلتنى المفاجأة، فلم أنبس بكلمة، وخيل إلى أننى أواجه الموت حين سمعتها تقول فى انفعال : دعنى فإنى أتعجل الخروج ..

فلم يسعنى إلا أن أدعها كما أرادت، وخرجت وصدرى مثقل بالهم والأسى، وعدت إلى المنزل الذى لم أعد أملكه منذ لحظات، ورحت أرتب محتوياته وأعدها لمالكته الجديدة. وكان خادمي « كابتاح » يلاحقنى فى كل خطوة، ويهز رأسه استغرابا، فقلت له فى ضيق : لا تقتف أثرى هكذا، فلم أعد سيدك .. لقد أصبح سيدك شخصا غيرى. وعليك عندما يجيء ، أن تخلص فى خدمته وطاعته فلا تسرق منه كثيرا كما كنت تفعل، فربما كانت عصاه أكثر إيلاما وأشد إيجاعا ..

فهوى « كابتاح » على الأرض كالمغشى عليه وأمسك رأسه بيديه كأنما يحس بأنه سيطير، ثم قال وهو ينتحب كالأطفال: لا تتركنى يا سيدى، فقلبى العجوز يتمزق لا محالة إذا انفصلت عنك ؟ وأؤكد لك بأنى لم أسرق منك شيئا كما تتصور ، فما كنت آخذ إلا ما أعتقد أنه جزائى الحق عن جهود كنت أعتصر فيها نفسى، سيرا فى الطرقات تحت وهج الشمس المحرق، على ساقى هاتين الشائختين، هاتفا باسمك، ومشيدا بشهرتك، وقد أسخط هذا الأطباء وأحفظ قلوب خدمهم ، فكانوا كلما رأونى قذفونى بالحجارة، وضربونى بالعصى، فلا تتخل عنى يا سيدى، فإنى لك المخلص الأمين ...

وآلمني أشد الألم موقف « كابتاح » وتوسلاته، وما كنت بقادر على أن أحقق له رجاءه، فقد أفلت الزمام من يدى، فأخذت بيده متأثرا، وقلت له : انهض يا « كابتاح » فليس يجدى بكاؤك وحزنك، وثق بأنى ما تخليت عنك كارها لك، أو غاضبا منك، فإنى أقدر إخلاصك حق قدره، كما أقدر نشاطك وأمانتك فى خدمتى على الرغم مما كان يعتريك من الاضطراب العصبى فى بعض الأحيان، فتنفعل وتثور وتحطم الأطباق وغير الأطباق مما يلقيه سوء الحظ بين يديك أو قريبا منهما!. وقد اضطرتنى أسباب قاهرة إلى النزول عن دارى وكل ما فيها ومن فيها إلى شخص آخر، حتى ملابسى هذه التى أرتديها قد صارت ملكا له، فلا تبتئس وارض بالأمر الواقع، واحفظ عليك دموعك، فما هى بمجديتك شيئا بعد .

ولكن « كابتاح » استرسل فى أنينه ونشيجه وقال وهو يشد شعر رأسه: هذا يوم أسود مشئوم ! .. وسكت قليلا كمن يفكر ثم انتفض قائلا : أصغ إلى يا سيدى : إنك طبيب نابه عظيم، ولم تزل شابا، والمستقبل يفتح ذراعيه أمامك باسما ، فمن الخير أن نخرج بليل من هذه المدينة حاملين معنا بعض ما نحتاج إليه من محتويات هذا المنزل ذات القيمة، شادين رحالنا فى غفلة الأعين إلى الأراضى الحمراء حيث لا يعرفنا هناك أحد، أو نمضى إلى بعض جزر البحر حيث النبيذ موفور والحياة رغدة، أو نجعل هجرتنا إلى أرض « ميتانى » أو «بابل» حيث الأنهار تجرى متعاكسة الاتجاهات، وهم هناك يقدرون فن الأطباء المصريين ويثقون بعلمهم ومهارتهم، فلا يمضى طويل وقت حتى يقبل عليك الثراء، وتسترد ما فقدته هنا أضعافا مضاعفة، ولا أنفك أنا الخادم الأمين للسيد الكريم ... فخذ يا سيدى برأيى ومشورتى وعجل فليس فى الوقت متسع ...

فقلت له : ذلك مستحيل يا « كابتاح » ، فكما أنى لا أملك شيئا الآن فى دراى هذه، فإنى كذلك لا أملك من قلبى وجسمى وفكرى شيئا، فلست حرا كما تظن، وإنما أنا رهين قيود أشد صلابة من السلاسل النحاسية، ولا يدهشنك أنك لا تراها فهى ليست فى شىء من المواد المجسدة التى تراها الأبصار، وإنها لتشدنى شدا إلى « طيبة » فلا أستطيع منها فكاكا ولا هربا ! ..

فاقتعد « كابتاح » الأرض متوجعا، إذ كان لا يقوى على الوقوف طويلا، لمرض في قدميه كنت أعالجه في أوقات فراغي، وقال في يأس : يظهر أن « أمون » قد انصرف عنا برحمته، وإنك يا سيدي لمسئول عن ذلك، فأنت لا تذهب إلا في القليل النادر لتقدم إليه القرابين!.. أما أنا فإنه ليعلم أني كنت أبذل راضيا خمس ما أسرقه منك شكرا له على أن أتاح لي سيدا مثلك، طبيب القلب، على أنه مهما يكن من أمر فإن « أمون » قد تخلى عنا ! .. فعلينا أن نتجه إلى آلهة غيره، نتقرب إليها ، ونضحي في سبيل مرضاتها، فقد تدفع عنا هذا الشر الجانح، وتعيد إلينا الأمن واليسار ! ..

قلت له : هذا هراء كله .. وهل في أيدينا الآن شيء نقدمه قربانا لآلهة أخرى ؟! .. إن كل شيء ، أيها الأحمق، قد صار ملكا لغيرنا .. أفهمت ؟ ! ...

فقال مستسلما : والمالك الجديد ! .. أرجل هو أم امرأة ؟! ..

ولم أشأ أن أخفي عنه حقيقة سيعرفها عما قليل ، فقلت له : إنها امرأة .

وهنا ارتطمت في وجهه موجة من الأسى والتحسر، وقال فزعا: امرأة ؟!.. ليت أمي لم تلدني أو ليتني مت قبل هذا ! .. فما أقسى القدر الذي يضع رقيقا تحت إمرة امرأة لا قلب لها . نعم، لا قلب لها، فإن التي صنعت بك هذا يا سيدي لأشد قسوة وضراوة من وحش الغابة!.

قلت وأنا أشعر بالأسف لتعجلي في إفشاء السر له: لا تخف ، فهي ذات قلب كالنسيم رقة، وذات وجه كالقمر بهاء، وستكون في خدمتها سعيدا محسودا.

فصاح « كابتاح » : بل الحق أنها ستبيعني لحمال أو حجار، أو تعذبني حتى أموت ميتة حمار ! ..

وبيني وبين نفسي كنت أشعر بأنه صادق في مخاوفه، فإن « نفر نفر نفر » لا يجد مثله عندها إلا الذلة والهوان، فتساقطت دموعي أسفا وحزنا، واعتمدت رأسي بين يدي مسترسلا في البكاء .. فمد « كابتاح » يده العريضة ليربت بها على يدي

وهو يقول : إنني أنا الذى جلبت عليك هذا الشقاء، فقد كان من واجبى أن أشدد الرقابة عليك، ولكننى لم أكن أتصور أن قلبك ساذج يقع صيدا سهلا لأول صائد، ولقد كنت أراك تعود من الحانة فى المساء ثملا، فأعرف أنك لم تعد من أصحاب القلوب الشبيهة بالقماش الأبيض الذى يغسل لأول مرة، وأنك بهذا فى منعة من إغراء النساء الخادعات. ولقد كنت أدهش حين لا تطلب منى أن آتيك بامرأة تطفئ فى أحضانها حرارة الشباب، يعود متوقدا من حانة النبيذ، ولكنى كنت راضيا عن هذا، معتقدا، لقصور إدراكى، أن الآلهة قد صرفتك عن النساء حتى لا تتزوج وتجىء لى بسيدة تؤذينى وتعذبنى، ولم أكن أدرى أن الصاعقة ستنقض مرة واحدة على هذا العش الهانئ فتنثره وتذروه !..

وقال « كابتاح » غير هذا كلاما كثيرا، ولكنه كان يطن فى أذنى طنين الذباب، فلم أع منه شيئا. وأخيرا انتهى من محاضرته وراح فأعد طعاما، ولكننى لم أتناوله، فقد كان جسمى إذ ذاك يحترق أسى والتياعا.

نِفرنِفرنِفر

- ١ -

بت ليلتي مؤرق الجفن تراودني أفكار مزعجة إلى أن استقرت في ذهني فكرة معينة سيطرت ، دون سواها، على جميع حواسي.

فلما أهل الصباح أخذت طريقي إلى بيت « نفر نفر نفر » وكانت لا تزال نائمة، وكذلك كان خدمها نياما، وطرقت الباب فاستيقظوا، ولكنهم لم يفتحوه وترامت على سمعي شتائمهم، لاعنين هذا الطارق الذي يقتحم عليهم مبكرا سياج راحتهم، فلزمت الباب كما لو كنت متسولا حتى انبعثت من الداخل حركة استيقاظهم استيقاظا عاديا، وانفتح الباب فدلفت منه مسرعا إلى حجرة «نفر» فألفيتها ممددة على سريرها نصف صاحية، وكان وجهها يبدو ضئيلا وأكثر بياضا، وعيناها الخضراوان مشوبتان بسواد لكثرة ما شربت من نبيذ ..

وحين رأتني بادرتني قائلة في امتعاض: إنك لا تزال تضايقني . فماذا تريد مني؟

فأجبت في تثاقل : أريد أن أجلس إليك ، وأقاسمك الطعام والشراب. ألسنا قد تحالفنا على هذا ؟ ..

قالت : كان ذلك بالأمس، ونحن الآن في يوم جديد. ولكل يوم حكمه.

وأقبلت خادمتها فجعلت تدلك جسمها الغض الفاتن حتى إذا ما شعرت بالحيوية تسري في جميع أقطاره نهضت من فراشها ووضعت فوق رأسها طاقية الشعر المستعار وفتحت صندوق جواهرها، فتناولت منه الجوهرة الجديدة ووضعتها على

جبينها. ونظرت إلي قائلة: أليست هذه الجوهرة جميلة رائعة؟ ألا تراها تعدل الثمن الذى اشتريتها به؟.

فقلت لها : إذن فقد كنت بالأمس تكذبين على وتلفقين وعدا وعدتنيه ...

قالت وهى تبتسم فى سخرية : أشعر بأننى أخطأت بإخلافى هذا الوعد، وأرجو أن أكفر لك عن خطئى هذا، فلا تحزن ...

قلت : وهذه الجوهرة ! .. أهى التى حدثتنى عنها؟! أو مصدقة أنت أنها أحضرت من أحد القبور الملكية فى سوريا؟!

قالت : الذى أعلمه يقينا أنها وجدت تحت وسادة تاجر سورى، ولا يسخطك هذا، فقد كان رجلا بدينا أفطس كالخنزير ، ذا كرش منتفخ، ينفض جسمه ريحا كريها، وما يعنينى عن أمره إلا أننى أصبت منه ما أريد، ولن أراه مرة ثانية ...

وخلعت طاقية الشعر والجوهرة والجواهر الأخرى التى كانت قد تزينت بها وألقت بها جانبا، وجعلت ترق فى حديثها وتتلطف قائلة : إننى متعبة يا « سنوحى »، وأنت تعرف مواضع ضعفى فتنالنى منها غير مشفق، وإنك لتنظر إلى نظرات حادة كأنما تريش بها سهاما إلى صدرى !.. لا تحتقرنى هكذا يا صاحبى فإنى على وحدتى وضعفى لا أقبل أن أكون سيدة مطعونة فى كرامتها ..

فقلت لها : إنك لتعرفين جيدا أننى قد خرجت لك عن كل ما أملك، فلم يبق عندى شيء أعطيه .

فوضعت يدها فى حنان على رأسى ثم استردتها معجلة وهى تقول : ما أقدركم على الخداع وما أيسره لكم، أيها الرجال !.. حتى أنت يا « سنوحى » تخفى عنى الحقيقة مستغلا إيمانى بصدق غرامك. ولكن كلا .. فقد عرفت ماشئت أن تخفيه، وما أحب أن أتعامل مع الغشاشين المخادعين ! .. كيف لا تنبئنى بأن لأبيك « سنموت » منزلا فى حى الفقراء قريبا من الميناء ؟! قد لايكون للبناء فى ذاته قيمة تثير اهتمامى ،

ولكن الأرض التي يقوم عليها غالية الثمن بلا ريب، لقربها من المرفأ ، وكذلك الأثاث الذي يشتمل عليه، فإن أكبر الظن أننا واجدون بالسوق من يدفع فيه ثمنا طيبا . أرأيت كيف مكرت بي وخدعتني ؟!..

على أني أتجاوز لك عن هذا السلوك، وأجدد وعدي أن أكون لك وحدك إذا أضفت إلى ما أملك، هذا المنزل بمحتوياته مسجلا كما فعلت بالأمس . ولا تحسبني طامعة فيك أو مسرفة عليك، فإنما أريد أن أقف منك على أرض صلبة حتى لا تعصف بنا أعاصير الغد المحجب . إنه ضرب من الاستيثاق والحفاظ يفرضه منطق الحياة، ويوحي به الرأي الرشيد.

قلت لها محتدا : ولكنه ملك أبي، وليس من حقي التصرف فيه، فلا يجوز لك يا «نفر» أن تسأليني ما ليس لي ..

فأمالت رأسها وغمزت بعينيها الخضراوين وقالت : إن ما يملكه أبوك هو ملكك قانونا بحكم الميراث، هذا إلى أن أباك فاقد البصر، وقد عهد إليك بالإشراف على أملاكه، فلك حق التصرف فيها مطلقا من كل قيد كما لو كانت ملك الخاص ... لقد أخفيت عني هذا أيضا بالأمس، فهأنذا أواجهك به لتعلم أنني أقص أثرك وأتتبع خطواتك ! ..

وكان الذي قالته « نفر » هو الحقيقة التي كنت أعتقد أنها لا تعلمها، فإن أبي حينما فقد بصره أقامني على أملاكه لأشرف على شئونها وأديرها، وأعطاني خاتمه، لأنه قد استحال عليه أن يوقع بخطه على الأوراق، وكان أبي « سنموت » وأمي «كيفا» يقولان دائما إنهما يرغبان في بيع منزلهما ليشتريا ببعض ثمنه بيتا صغيرا خارج المدينة يقيمان به ويزودان مقبرتهما بما يعينهما في رحلتهما إلى حياة الخلود ...

وقد انعقد لساني حيال هذا المطلب الجديد الذي تفاجئني به « نفر » ، فلست بمستطيع أن أطيعها فيه. ولو أنني فعلت ما تريد لكنت خائنا مفرطا في أمانة أبوي عابثا بحقهما المقدس.

ولكن « نفر » عاجلتني قائلة وفي عينيها فتور مغر : خذ رأسي بين يديك يا «سنوحي» فإني متعبة. وجعلت تردد على مسمعي عبارات رتيبة مؤثرة عن ضعفها ووحدتها وخوفها من المستقبل وحاجتها إلى الاستعداد له، فأمنت خوفها من هذه الناحية ووعدتها بأن أصنع لها ما تشاء .

فقالت : حبذا لو عجلت يا « سنوحي » فكثيرا ما تعدون معشر الرجال ولا توفون، وترتجلون الرأى ولا تثبتون عليه.

فتركتها عائدا إلى مسجل العقود، وفي عجل حررنا وثيقة التنازل عن منزل أبى بما يحتوى، وختمناها بخاتمه، وسجلناها في سجل المحفوظات الملكية.

وقفلت بها مسرعا إلى بيت « نفر » ، فقال الخدم إنها نائمة ولا يستطيعون إيقاظها عملا بإشارتها، ومن الممكن أن أعود إليها في المساء المتأخر ، فبرمت بهذا ، ولكن لم يكن ثمة مناص من التسليم به فانصرفت لشأني، ورجعت إليها في المساء وقدمت إليها الوثيقة فتناولتها وأجالت نظرها فيها خطفا، ثم ألقت بها في صندوق بجانبها في غير اهتمام وأخذت تبدو كأن النوم يغالبها. وفي عبارة مقتضبة سامية قالت : أرجو أن تعفيني من مجالستك الليلة ، فإني - كما ترى - متعبة ، ولتعد إلى في يوم آخر.

فضاق صدرى بسلوكها هذا الذى لم أكن أتوقعه بعد أن نفذت رغبتها ، فقلت لها: إن تصرفاتك معي غير مفهومة، أو هي في القليل تدل على أنك عازفة بقلبك عني، غير راغبة في لقائي .

قالت : أنت واهم يا « سنوحي » . وينبغي أن تثق بأنني سيدة شريفة لا تنكث بعهدها ولا تخلفه .

ثم استلقت على فراشها ، وفتحت لي ذراعيها واستقبلتني بينهما ولم تلبث إلا قليلا حتى أدارت عني وجهها لتنظر إلى نفسها في المرآة وكانت تتثاءب من خلف يديها، وبهذا تحولت المتعة التي كنت أنشدها إلى رماد ....

وعندما تركت فراشها قالت : لقد أخذت منى ما طلبت يا « سنوحى » فاذهب إذن لأنك متعب ، ويمكن أن تعود إلى يوما آخر لتجد عندى ما تطلب ...

وانصرفت عنها مغلوبا على أمرى ، تاركا عندها قلبى وروحى، فكأننى قشرة البيض ألقيت فى الطريق. وقصدت إلى منزلى لأقضى الليل خاليا إلى نفسى فى غرفة مظلمة، أبكى فيها ما شاء حظى العاثر أن أبكى . ولكننى رأيت هناك رجلا غريبا يضع على رأسه قلنسوة من الشعر ويرتدى لباسا سوريا، مصفر الألوان، فحيانى باحترام وقال إنه جاء ليستشيرنى كطبيب . فقلت له : لم يعد من حقى أن أستقبل مرضى فى هذا المنزل ، فقد صار له صاحب غيرى. فقال : ولكن بقدمى أوراما توجعنى، وقد عرفت من خادمك « كابتاح » أنك خير من يعالجها ، فأرجو منك أن تريحنى من آلامى ... ولا شك أنك لن تجد فى هذا ما يثير شيئا من الأسف والندم. فأدخلته إلى غرفة المرضى، وناديت « كابتاح » ليحضر ماء ساخنا أغسل به يدى، ولكنه لم يجب ولم أسمع صوتا أو حركة. وعندئذ كشفت عن قدم المريض لأرى ما بها. فإذا بها قدم « كابتاح » نفسه. فإنى لأعرفها جيدا لطول ما كنت أطيب لها. وهنا هب واقفا وقد ألقى قلنسوة الشعر عن رأسه وانفجر ضاحكا. فلم أستطع كتمان غيظى لهذه الفعلة الطائشة فهويت عليه بالعصا حتى استحال ضحكه عواء. ولما توقفت عن ضربه أخذ يشرح لى الدافع لذلك قائلا : عندما عرفت أن لا مناص من أن أصبح عبدا لغيرك، قررت الهرب متنكرا. وبدا لى أن أجرب معك هذا التنكر فجئت مصطنعا المرض فى هذا الثوب السورى، ولو لم تكن تعرف قدمى لجازت عليك الحيلة فالتجربة إذن ناجحة والهرب مستطاع.

فحذرته عاقبة الهرب، مذكرا إياه بالعقوبات التى تأخذ برقاب الأرقاء الهاربين وما أحسبه يفلت منها ، فليس لديه ما يعينه على العيش بعيدا عن أعين الرقباء، وسيفتضح سره لا محالة، إن عاجلا أو آجلا ..

ولكنه لم يعر قولى شيئا من المبالاة واسترسل يقول : فى الليلة الماضية ملأت جوفى بالجعة لأطارد بها الهم الذى ركبنى بسبب تصرفك، وأخذتنى غفوة فرأيت فيما

يرى النائم أتونا متقدا بالنار، ورأيتك ممدا فيه تتلظى بسعيره، فأسرعت إليك وأمسكتك من عنقك وانتزعتك منه وصببت عليك الماء حتى زال عنك خطر الموت. فلما صحوت من غفوتي رحت أفتش عمن يفسر لى هذه الرؤيا المزعجة فقيل لى : إن سيدك فى خطر وإنه مقبل على رحلات طويلة شاقة، وإنك ستتعرض لعدة ضربات مؤلمة فى مغامرة جريئة . وها أنت ذا ترى يا سيدى أن رؤياى صادقة، فلا مراء فى أن الحال التى صرت إليها منبئة بالخطر المحدق بك وشاهدة عليه، وقد تلقيت أنا الضربات المؤلمة من يدك، وهذه خاتمة الرؤيا ..

فقلت له : لست فى ريب من ولائك وإخلاصك يا « كابتاح » ، وإن عواطفك هذه لتثير عواطفى حزنا وألما. وحقا أننى قادم على رحلة طويلة، ولكنها ليست إلى مكان مجهول ، فستكون إلى وادى الموتى، ونحن نعرفه وهو منا غير بعيد .. على أنى أظنك لا ترضى الرحلة معى إليه، ولا الثواء إلى جانبى فيه.

قال : ما من أحد يعلم ماذا سيكون فى الغد ، فإنه غيب محجب . ولكن الذى أعلمه ويجب أن تعلمه أنت كذلك، أنك لا تزال فى نضرة الشباب وغضارة الصبا، فلا تذهب نفسك هكذا حسرة ويأسا . على أنه إذا كان لا مفر الآن من رحيلك إلى وادى الموتى فإنى راحل معك، فمابى على احتمال فراقك قدرة ولا طاقة، لأن قلبى قد تعلق بك فهو يتبعك مقيما أو ظاعنا، سعيدا أو شقيا، حيا أو ميتا.

وأكبرت وفاء « كابتاح » . ولكن الأمر الواقع أنه لم يعد تابعا لى ، فلا خير فى متابعته على آرائه وعواطفه، فتركته فى اكتئاب وأسى ، ولذت بغرفة نومى فدسست جسمى فى الفراش، حتى كان الصباح فنهضت وليس فى خيالى إلا وجه « نفر » بعينيها الخضراوين، وغسلت وجهى وارتديت ملابسى وقررت الذهاب إليها على الفور.

كانت « نفر » حينما أقبلت عليها تجلس على بحيرة الحديقة، خالية إلى نفسها ونظراتها تسبح حالمة فيما حولها من أزهار اللوتس، وفيما يتناثر بالحديقة من ورود جميلة أخرى. وكانت تبدو أمرح نفسا وأبهج طلعة، ولكنها عندما رأتنى لم تعرنى التفاتا كبيرا ولم تزد على أن قالت. ها أنت ذا تعود يا « سنوحى » !.

وقبل أن أجيب، أخذت تخلع فى بطء ثوبها الرقيق وتنحدر عارية إلى ماء البحيرة وتغيب بالماء لحظة لتطفو عليه أخرى ، وهى فى الحالين تأخذ بمجامع القلب فتنة وسحرا . لقد كانت إذا ما أطلت برأسها من الماء تلوح أروع جمالا، وأبهى منظرا من أزهار اللوتس والأزهار الأخرى التى تحف بها كأنها أيدى المعجبين تمتد إليها محيية. وفى سبحاتها الساحرة اقتربت منى وطفت على سطح الماء مستلقية على ظهرها كأنما تضطجع على فراش نومها، ونظرت إلى ورأسها يرتفع قليلا فوق يديها المتشابكتين اللتين اتخذت منهما وسادة له وقالت : إنك لصامت اليوم يا «سنوحى» .. ومع ذلك فإن وجهك المتورد ووجنتيك المحمرتين بالدم، لأفصح تعبيرا عما فى نفسك، فإن كنت قد آلمتك وأثرتك فإنى لمستعدة أن أعوضك عن هذا .. ويمكن الآن أن تخلع ملابسك وتهبط هنا إلى الماء لتسبح معى بعض الوقت، وترطب جسدك الذى يفور حمية فى هذا اليوم القائظ. إن أحدا لا يستطيع أن يرانا، فهيا .. ولا تتردد.

وفى سرعة خفقان قلبى، وفى مثل لهفته، نضوت عنى ملابسى واندفعت إلى الماء ولامس جسدها جسدى، ولكنها عندما مددت يدى لأطوقها وأضمها إلى صدرى، دفعت بنفسها بعيدا عنى كأنها السمكة تهرب خيفة من الصائد، وأغرقت فى ضحكاتها اللطاف ذات الجرس المثير وهى تقذف بالماء فى وجهى مداعبة، ثم قالت : إننى أفهم تماما حاجتك يا « سنوحى » . وقد يخجلنى أن أنظر إليك بسببها، ولكنها تصبح أمرا مقضيا إذا عرفت أن تنالها بحقها .. فعليك أن تقدم لى هدية تشعرنى بأنى امرأة تستحق منك التضحية.

فصحت مغيظا: هل اختبل عقلك إلى حد أنك نسيت، بهذه السرعة، أننى تجردت لك من كل ما أملك ؟..

قالت فى تردد : إذن فأنت لا تريد شيئا .

قلت : عجيب أمرك أيتها المرأة. ألا تعلمين حتى الساعة أنه لاشيء فى هذه الدنيا أحب إلى نفسى من أن أقضى العمر كله إلى جانبك ؟!

قالت : ربما كان هذا صحيحًا. وأشعر من ناحيتى بأننى فى حاجة إلى رفيق مثلك، يحبنى حبا خالصا يختلف عن ذلك الحب الزائف الذى يخادعنى به أولئك الذين يطلبون فى المرأة متعة الجسد لا أكثر ، ولكننى فى وحدتى، التى أحتاج فيها إلى الصديق المحب المخلص، يشغلنى كذلك التفكير فى المستقبل. فعواطف المحبين الأوفياء لا تكفى فى حياة امرأة وحيدة تواجه مستقبلها، غير مزودة له بما يسد حاجتها ويؤمن مخافتها.

قلت لها : لقد فعلت فى سبيل اطمئنانك للمستقبل كل ما أستطيع أن أفعل، وبالأمس جاوزت فى هذا حد الاستطاعة، فأمضيت رغباتك فى ممتلكات أبى وهى لا تخصنى، ونقلتها إليك اختلاسا وأنا الأمين عليها. وقد ألقيت أبى بذلك فى هوة سحيقة من الفاقة والفقر، وهو الشيخ الفانى الذى فقد بصره وافتقد موارد عيشه، بعد أن كان طبيبا عالى الشأن رخى الحال، فلم يعد له من وسيلة إلا أن يتسول ليعيش، وستدور أمى المسكينة المهدودة القوى على دور الآخرين لتغسل ملابسهم وتقضى حوائجهم لقاء أجر تافه تستعين به هى الأخرى على العيش الذليل إلى جوار أبى.

قالت : مالنا والأمس، لقد مضى ولن يعود؟ .. مضى بما فيه من خير وشر، فلننظر إلى يومنا الحاضر، فالالتفات إلى الوراء مضيعة للوقت. وينبغى أن تفهم أننى لم أرغمك على ما فعلت، ولم أقسرك على إعطائى مما أعطيتنى شيئا. فالذى بيننا هو أنك راغب فى أن أكون لك وحدك وأن أقطع صلتى بغيرك، وتحقيق هذه الرغبة يقتضيك التضحية، وكثيرا ما تكون التضحية شيئا مما يعز وقوعه ويغلو ثمنه. على

أنى لا أدرى أنك قد أسرفت فى تضحيتك أو جاوزت بها المألوف بين المحبين !.. فالحياة أخذ وعطاء، وأنت ظافر منى بالصفقة الرابحة، فستأخذ منى أكثر مما أعطيت!.. ولعلك تكون أكثر إدراكا للموقف وأكثر فهما لهذا المنطق الطبيعى إذا أخبرتك لماذا كنت فى هذا الصباح بادية الابتهاج. فاعلم إذن أن رجلا من مشاهير المملكة السفلى قدم أخيرا إلى « طيبة » حاملا معه طاسة ذهبية تزن أكثر من ثلثمئة أوقية، محفورة عليها صور جميلة منوعة الرسوم والأشكال وهى تحفة نادرة، يسرنى أنها ستكون عما قليل زينة فى هذا البيت ؟ .. وليس بذى بال عندى أن صاحبها عجوز شائه الوجه دميم الصورة ؟ ..

واعترانى وجوم فلم أتكلم. أما هى، فقد تمددت على الماء ونهداها ينجمان من صدرها كأنهما زهرتان من زهرات اللوتس عائمتان على الماء ؟ . وعادت تسألنى لماذا لا أقول شيئا؟..

قلت لها : ماذا عساى أن أقول ؟! إنك تقدحين شرر غيرتى، وتلهبين مشاعرى، وأنا العاجز الذى لا حيلة له.

قالت : بل أردت أن تقاسمنى ابتهاجى، وأكبر ظنى أنك مهد إلى هدية أخرى فى هذه المناسبة !..

قلت مغضبا : أيبهجنى أن أراك متهيئة لأحضان عاشق غريب ؟! وماذا تظنين أن أكون ؟! .. وهل أبقيت منى على شىء أهديه إليك ؟! لقد خرجت لك عن قلبى، وخرجت لك معه عن كل ما أملك، وكل ما يملكه أبى. وما أشد ما أشعر به من خجل كلما تذكرت أننى، من أجلك، قد أثمت فى حق أبى إثما لم يأثمه ابن فى حق أبيه من قبل.

وفى فورة الغضب اعتادنى ما يعتاد العاشق المسلوب الإرادة، وهب قلبى مدافعا عنها، متشفعا لها، فتراجعت متخاذلا لأقول لها : ارحمينى يا « نفر » فحسبى ما أعانى من عذاب، ولا يزعجك منى اليوم أننى فقير لا أجد الهدية التى تردينها، فما

زلت طبيبا مسجلا فى « دار الحياة » ، وسوف أعمل وأفيد من عملى المال الذى أقدم إليك به الهدايا التى تطيب بها نفسك فى المستقبل ..

قالت : تحدثنى عن الماضى، ثم تحدثنى عن المستقبل، وبينهما الحاضر الذى يجب أن يكون الحديث الآن فيه لا في غيره .. وإنك لتهرب منه مخادعا، شأنك فى هذا شأن من عرفت من الرجال المخادعين. ولو كنت صادقا فى دعوى الحب فإنه لا يعجزك أن تجد ما تقدمه لى اليوم، وما أبتغى به إلا دليلا جديدا على إخلاصك أزداد به شعورا بأنك، حقا الصديق الذى يؤنس وحدتى، ولا يعرف بى حاجة إلا قضاها.

قلت : ولكننى أصبحت خاوى الوفاض لا أملك شيئا، وأنت تعلمين هذا جيدا..

قالت : ألم أقل لك إنك تخادعنى ؟!.. لقد أخفيت عنى، عامدا، أن لأبويك قبرا فخما فى مدينة الموتى، وأنهما دفعا للمعبد قدرا كبيرا من المال لتحنيط جثتيهما وتزويدهما بوفر من الزاد الذى يستعينان به فى رحلتهما إلى الأرض الحمراء ..

فقلت فزعا : لم يبق إلا هذه الفعلة النكراء ؟ .. سرقت أبوى فى حياتهما، ثم أسرقهما بعد موتهما، وأحرمهما الأبدية ورحلة الخلود، وأسلم جسديهما للبلى والفناء يتفتتان وتذروهما الريح، كأجساد المتسولين والأرقاء وأولئك الآثمة الذين يقذف بهم إلى النهر عقابا لهم على جرائمهم ! .. هذا مستحيل !..

قالت فى تراخ وهدوء : إن أعطيتنى قبر أبويك فسأكون لك أختا مدى الحياة ...

ومرة أخرى غلبنى قلبى على عقلى فأحالنى ضعيفا مهزوما، فبكيت وقلت : فليكن ما تشائين، إنك لساحرة ولا يسعنى إلا الإذعان.

قالت : دعنا من السحر والسحرة، فهذا يضايقنى، وما أحب أن تستجيب لرغبتى مسحورا، وإنما أحب أن ترسل نفسك فى ذلك عن صدق عاطفة، وإنى لموفدة أحد الخدم ليأتينا بمسجل العقود !.. ونظرت إلى فى استرخاء وقالت : إن الضعف ليعترينى يا « سنوحى » عندما أراك عاريا فى بحيرتى !..

وحسبتها تدعونى دعوة المرأة للرجل، فى أشد ما يكونان عليه من وقدة الجسم واهتياج الغريزة، فاندفعت إليها لأحتويها بين ذراعى وأعتصرها على صدرى، ولكنها عند ذاك أسرعت إلى الخروج من البحيرة، وأخذت، إلى جانب شجرة بالحديقة، تجفف الماء عن جسدها.

وخرجت فى أثرها فلاقتنى متلطفة مزدهرة المحيا، ودعت بالطعام فجيء به وأخذنا فى جلسة ممتعة نتناوله معا، وكان شهيا وفرا، من بينه خمسة ألوان من اللحوم واثنا عشر طبقا من الفطائر، ودعت بالنبيذ المخلوط، فشربنا منه ما وسعنا الشراب ! ....

وجاء المسجل فحرر الوثيقة التى تقرر النزول إلى « نفر نفر نفر » عن قبر أبوى بمدينة الموتى بكل محتوياته، وكذلك المال الذى رصد باسميهما ولحسابهما بالمعبد للتحنيط وزاد القبر، ووقعت على الوثيقة بخاتم أبى وذهب بها المسجل إلى دار المحفوظات الملكية ليسجلها هناك فى اليوم نفسه .

قلت لها : قد جرى الأمر على إرادتك يا « نفر » ولكن كيف لى أن أنجو من لعنة الآلهة ؟ !.. إن ضميرى ليعذبنى عذابا شديدا، فهل أنت مدركة ماذا فعلت من أجلك ؟ !..

قالت : دع هذا إلى اللذة التى نحن فيها، واشرب نبيذا، فإن فيه للقلب بهجة، وللضمير عزاء .

وبعد قليل نظرت إلى السماء وقالت: ها هى الشمس تنحدر مسرعة إلى المغيب، لقد ولى النهار وأقبل الليل ، وآن لك أن تنصرف .

ولكننى ظللت فى مكانى، لا أريم عنه، كأنى لم أسمع .. وهنا هتفت بخدمها فجاءوا خفافا وقالت لهم فى صرامة: اقذفوا هذا المتسول السمج إلى الخارج ولا

تدخلوه مرة أخرى إلى دارى، وإذا ألم بها بعدالآن فاطردوه، وإذا لج فى سماجته فاضربوه !..

وحملنى الخدم وألقوا بى فى الطريق، وكنت مخمورا ظاهر الاضطراب، فنهضت مترنحا وأخذت أقرع الباب محاولا أن أعود إليها، فخرج الخدم بعصيهم فضربونى، وصرخت متوجعا ومحتجا، فتجمع الناس لينقذونى من أيديهم، ولكنهم زعموا لهم أننى سكير متهور، وقد سببت سيدتهم فى دارها وهى سيدة كريمة لا يجوز لإنسان أن يتطاول على مقامها الكريم ! .. فما سمع الناس منهم هذا حتى انهالوا على ضربا بالأيدى وركلا بالأقدام، ولم يكتفوا بهذا، بل كانوا يتبارون على وجهى ليبصقوا فيه إظهارا لتقززهم واستيائهم، ولم ينصرفوا إلا بعد أن فقدت وعيى فتركونى بالطريق على تلك الحال الزرية !..

وانتبهت من غشيتى وكانت الظلمة قد رانت على الوجود، وخيل إلى أن البقاء فى هذا المكان إلى آخر الليل خير مما لو انصرفت عنه فلا أعلم إلى أين يكون منصرفى، ولا أى الناس ألقى. على ما أنا فيه من هوان، فبقيت حيث كنت مستخفيا عن الناس فى لفائف الظلام، وذكرت عندئذ أن ولى العهد كان قد لقبنى « بالوحيد » ، فهأنذا « وحيد » حقا فى محنتى . ولا أرى فى الناس من يصدق فيه وصف الوحدة سواى !.

وعندما أخذت تتسلل فى الليل إشعاعات الفجر، وبدأ الناس ينسلون إلى الشوارع ويترامى على سمعى من بعيد ضجيج العربات التى تجرها الثيران محملة ببضائع التجار، جمعت أوصالى المتزايلة ومضيت أسترق الخطى محاذرا، كأننى اللص الذى يتقى العيون الراصدة، حتى جاوزت نطاق المدينة ، ولم أجد غير الأعشاب موئلا آوى إليه، متواريا عن الناس لفرط شعورى بالخجل من ملاقاتهم ، وهناك قضيت ثلاث ليال وثلاثة أيام لم أصب خلالها طعاما أو شرابا ، إلى أن كدت أموت جوعا وظمأ.

- ٣ -

ولم يكن لى بعد هذا مناص من الفكاك من ذلك الأسر القاتل، فنظفت ملابسى وأزلت ما علق بها من دماء، وغسلت يدى وقدمى بالماء، وقفلت عائدا إلى المدينة، ومضيت رأسا إلى منزلى، ولكنى فوجئت هناك بما كان ينبغى أن أقدره وأحسب حسابه، ذلك أن المنزل لم يعد منزلى، وقد احتله فعلا ساكن جديد، هو أيضا طبيب، قرأت اسمه مكتوبا على لوحة ثبتت بواجهة الباب، وخطر لى أن أعود أدراجى ولكننى، بدافع الرغبة فى معرفة ما حدث، ناديت « كابتاح » فأقبل مسرعا، وما إن رآنى حتى تهلل وخر راكعا أمامى وهو يقول : سيدى ، وأقول سيدى .. لأن قلبى لا يعترف لغيرك بحق هذه السيادة، ولو كان شخص آخر يصدر أوامره إلى باعتباره سيدا ! .. فليست السيادة أمرا يتلقاه الخادم من هذا السيد أو ذاك، ولكنها اتصال روح بروح ، ووحى قلب إلى قلب، وقد تعارفنا على هذا وأحببتك حبا لا يتحول مع صروف الأيام، ولايختلف باختلاف الأمرين. وهذا المخلوق، الذى قضت الظروف القاسية أن يكون سيدى الجديد، لا يستطيع أن ينزل من نفسى منزلتك. فهو شاب مفتون يتوهم أنه طبيب عظيم، ولكن المرضى لا يعترفون له بذلك وهم لايخفون أسفهم لأنهم حرموا حلمك وخفة يدك فى تطبيبهم، ولأنهم لا يجدون فى هذا الذى حل محلك كفؤا لك، ولا عوضا عنك. وقد رأيت فى تصرفاته بدوات طيش، فهو إذا ما رأى ملابسك راح يقلبها ثم ينشرها ويطويها، ضاحكا مسرفا فى الضحك، دون أن أفهم لماذا يفعل ذلك، وليست أمه أقل منه حماقة ونزقا، فقد كان أول ما فعلته حينما دخلت المطبخ أن ألقت الماء ساخنا على قدمى دون أن أفهم لماذا فعلت ذلك، ثم إنها لا تكاد تفلتنى من لسانها السليط المقذع، فهى على الدوام تلقانى صاخبة، وتحدثنى لاعنة.

وكان « كابتاح » وهو يذكر هذا بادى الحزن والكآبة، وفى عينه الواحدة احمرار البكاء الطويل، فسألته أن يتماسك ويخبرنى عما حدث غير هذا فى غيبتى، فما يعنينى حديث الطبيب الجديد أو حديث أمه الحمقاء، قدر ما يعنينى الحديث عن « نفر » التى هى صاحبة البيت !.. ولكن « كابتاح » استرسل قائلا وهو فى غمرة من الفزع: لقد

كنت مستعدا أن أفقأ عينى الثانية بيدى وأن أصبح أعمى لو كان فى هذا فداؤك من الشر، ووقاؤك من الضر، ولكنى، وقد جاوز الأمر إرادتنا وجرى على غير هوانا، أرجو أن تتجمل بالصبر ولا يروعنك ما أنا مخبرك به الآن : لقد مات أبواك اليوم يا سيدى « سنوحى » . وكأنك أحسست بذلك، وأنت منهما بعيد، فجئت لتشهدهما مودعا قبل أن يغيبا فى رحلة الأبدية.

فرفعت يدى جزعا وصرخت: أبى « سنموت » .. وأمى « كيفا » ! .. وانعقد لسانى فلم أجد كلمة واحد أعبر بها عن هول هذه المصيبة الأخرى الداهية، فى حين مضى « كابتاح » يقول : ولم يكن أحد قد اكتشف موتهما، ولكن حدث أن الجهة القانونية تلقت طلبا بتنفيذ إجراءات نزع ملكية منزل أبيك، فأوفدت موظفيها المختصين إلى هناك لإخلائه، فوجدوه مغلقا، فدقوا الباب ليخاطبوا من فيه، ولكن أحدا لم يجب، فكسروه وفوجئوا بأبويك ممددين معا وقد فارقا الحياة، وتستطيع الآن يا سيدى أن تنقل جثتيهما إلى مدينة الموتى.

وسألت « كابتاح » وأنا أوارى وجهى خجلا : وهل عرف أبواى قبل أن يموتا أن المنزل قد بيع إلى مالك جديد ؟!..

قال : الذى أعلمه أن أباك « سنموت » جاءنى باحثا عنك ، وكانت أمك تقوده وقد رثيت لحالهما، إذ كانا يتعثران في مشيتهما، ولم يبق منهما العجز والشيخوخة إلا ومضة خافتة مترنحة فى مصباح الحياة، ولم أستطع أن أدلهما على مكانك لأنى لا أعرفه، وقد أخبرنى أبوك فى استسلام وتخاذل أن موظفى تطبيق القانون جاءوه فأنذروه بإخلاء المنزل وختموا جميع الخزائن والأمتعة، وحذروه من الاقتراب منها أو العبث بها، فلما سألهم عن سر هذا، سخروا منه وأنبئوه أن ابنه « سنوحى » باع المنزل بمحتوياته، وكذلك باع قبرهما بمحتوياته، إلى امرأة مريبة السلوك، وبذلك أصبح هو وزوجته لا يملكان إلا الخرق البالية التى يلبسانها. ثم طلب أبوك منى، فى تردد، قطعة من النقود النحاسية ليدفعها أجرا إلى أحد الكتبة ليكتب إليك خطابا

بإملائه، فهو – وقد فقد بصره – لا يستطيع أن يكتب إليك بنفسه. ولكنني قبل أن أجيبه إلى طلبته، اقتحم علينا السيد الجديد وصرخت أمه من داخل المنزل تدعوني إليها على عجل، فأسرعت إلى تلبية دعوتها مخافة شرها. بيد أني لم أنج مما خفت وقوعه، فقد تلقتني بعصاها وأوسعت قفاي ضربا بها. وجريرتي التي استحققت عليها هذا العقاب هي أنني – كما تزعم – أضيع وقتي عبثا في الوقوف مع المتسولين الحقراء ! ولم يكفها هذا فاحتجزتني بالحجرة إلى الصباح لتطمئن إلى أني لا أعود ثانية إلى الشارع، وبذلك استحال على أن أخرج لأبيك لأعطيه قطعة النقود التي طلبها. وقد شجاني هذا وأحزنني، فقد كنت أحسبني عائدا إليه قبل أن يبرح مكانه لأقضي حاجته وفاء ببعض حقك علي، غير مقدر أني سأقع في أسر هذه المرأة الصارمة. وأرجو أن تصدقني يا سيدي، فلا يزال عندي أثارة من فضل مالك ، وبقية من سابق رفدك ، ولست بالناكر للجميل.

وتنهد « كابتاح » وقال : وا أسفاه ياسيدي على أيامك الغر الحافلة بالخير. لقد مضت وأبدلني منها الحظ العاثر أياما نحسات كقطع الليل ظلاما، فذلك الطبيب المفتون ليس في شيء من نداك وسخائك وتسامحك وإغضائك، وهو يحاسبني على الفتيل والقطمير، ويشتد في الحساب حتى لأظنه يحاسبني على اللقيمات التي أسد بها رمقي !.

وسمعت مقالة « كابتاح » مذهولا شارد الفكر ممزق القلب، فما أرى لي، بعد، موضعا بين الأحياء أو بين الموتى، فكأنما أنا الخطيئة المجسمة تطاردها اللعنة في كل مكان ! ..

وبعد قليل استعدت بعض ما ذهب مني كإنسان، وقلت لكابتاح : أما وقد بلغت المأساة هذا الحد، فليس ثمة سبيل إلى الفرار من واجبي الأخير حيال أبوين كنت أنا مصدر شقائهما وسبب مصرعهما، فأعطني كل ما لديك من نقود فضية ونحاسية، أعطنيها سريعا ولا تتلبث، وهي لك دين في عنقي، وإن عجزت عن ردها إليك،

فستجزيك الآلهة عنها خير الجزاء. إن الواجب ليستصرخنى أن أعجل بنقل جثتى أبوى المسكينين إلى « دار الموت »، وأن أجتاز بهما عتبة الأبدية محنطين، وهذا يتطلب نقودا لا أملك منها الآن شيئا.

وكان « كابتاح » يتشنج بالبكاء تأثرا بالموقف الرهيب . ولم يسعه إلا أن ينسل إلى ركن بالحديقة ويلتفت يمنة ويسرة ليستوثق من أن أحدا لا يراه، ثم ينحنى فيرفع حجرا ويلتقط من تحته خرقة كان قد طواها على ما ادخر من نقود، وعاد بها فى حذر فأفرغها فى يدى، وكانت قطعا من الفضة والنحاس تزن نحو سبع أوقيات.

ومضيت بها مسرعا إلى بيت أبى، فراعنى منه أنه صار شبيها بالطلل البالى، فأبوابه محطمة ، وأمتعته مكومة، وعليها أختام الحكومة ، تحذيرا للأيدى من الامتداد إليها. وكان الجيران وقتذاك متجمعين بالحديقة، يجلل وجوههم الأسى، فما إن أبصرونى حتى رفعوا أيديهم استنكارا، وأشاحوا عنى سخطا واحتقارا، ولم تتحرك ألسنتهم بكلمة يقولونها لذلك الابن العاق الذى أشقى أبويه وقتلهما، لقد كان فى نظرهم أحقر من أن يتحدثوا إليه ...

وفى الحجرة الداخلية رأيت أبى « سنموت » وأمى « كيفا » مسجيين على سريرهما وفى وجهيهما الإشراقة الوردية التى طالما استقبلانى بها فى حياتهما الذاهبة . ورأيت فى وسط الحجرة الموقد الذى اختارا أن يموتا بدخانه ....

وتقدمت منهما مترددا فلففت جثتيهما فى ملاءة كانت، كأى قطعة من متاع الدار، مختومة بخاتم الحظر والحفظ، ثم جئت بمكارى فحملهما على حماره، وذهبت بهما معه إلى « دار الموت » ..

وهناك واجهت الحقيقة المؤلمة، وهى أننى لا أملك نقودا تكافئ نفقات أدنى مراتب التحنيط، فما عساى أن أصنع ؟! . لقد أزعجتنى هذه الحقيقة، ولكننى تشجعت وقلت لغاسل الجثث : إننى أنا «سنوحى» ابن « سنموت » واسمى مسجل فى «دار الحياة» ، وهاتان جثتا أبواى، ولا أملك أجر تحنيطهما، فقد جردتنى الأقدار من

كل شيء، وإني لستحلفك بآمون وجميع آلهة مصر أن تحنطهما. ولقاء هذا أرجو أن تقبلني خادما معك فى عملك إلى أن أوفيك بما كان يجب أن أدفعه إليك الساعة ..

وكان هذا أمرا غير مألوف عندهم، فانتهرني الرجل وازدراني رفاقه، وصدوني عنهم صدا عنيفا . ولكن كبيرهم، بعد لجاجة وطول مساومة، رضى أن يأخذ منى بقية ما أعطانيه « كابتاح » وأن أبقى عاملا معهم إلى أن أتم النفقة، ومن ثم ألقوا بالجثتين فى حوض ماء. وعرفت لأول مرة أن تحنيط جثث الفقراء يكون بوضع الملح على الماء ؛ ثم تبقى الجثث فى هذا الماء الملح ثلاثين يوما كاملة.

وعندما فرغت من الاتفاق معهم على ذلك، ذكرت الملاءة المختومة التى لففت بها الجثتين، فاستأذنت رئيسهم فى العودة بها إلى المنزل، فأنكر على هذا وظنني أفاقا أخاتلهم، وتوعدنى قائلا : إذا لم تعد إلينا فى الغد فسنخرج الجثتين من الحوض ونقذف بهما إلى الكلاب فى عرض الطريق.

وقفلت راجعا إلى منزل أبوى، وأحسست حين دلفت إليه أن كل ما فيه يتلقانى باللعنة، فوضعت الملاءة فى مكانها وأسرعت بالخروج كمن يفر من هول. وإنى لفى طريقى أوسع الخطو إلى « دار الموت » ، إذا بى أرى إنسانا يعترضنى قائلا : أأنت «سنوحى» «ابن سنموت» المستقيم البار ؟..

قلت : نعم . إننى هو « سنوحى » ..

قال : لك عندى رسالة من أبيك استكتبنيها بعد أن استحال عليه لقاؤك، ثم نشر الرسالة بين يديه وأخذ يقرأ بصوت جهير :

« نحن « سنموت » الذى سجل اسمه فى « دار الحياة » وزوجته « كيفا »، نبعث بتحيتنا إلى ولدنا « سنوحى » الذى سمى فى قصر فرعون « بالوحيد » ، ونوجه إليه هذا الخطاب فى اللحظات الأخيرة التى نزمع فيها الرحيل عن هذه الدنيا » .

« لقد أرسلتك إلينا الآلهة ياولدنا، على شوق الظمآن إلى الماء، فتيمنا بك واستبشرنا. وكنت خلال حياتك معنا مبعث غبطتنا وهناءتنا، وكنا بك فخورين، نحوطك بالحب ونتابعك بالدعاء، فلما تناهى إلينا آخر الأمر أن ريحك لم تجر رخاء، وأن طريقك قد حف بالمكاره والشدائد، وعركتك محن لم يكن لك على دفعها طاقة، أهمنا ذلك هما شديدا، وأحزننا حزنا فادحا، وكنا نتمنى لو أن لدينا وسيلة نعينك بها على الخلاص من الشر، ونمد لك بها أسباب النجاة من الضر، ولكننا صرنا إلى حال من العجز لا تسعفنا بشيء، وهذا هو الذى يسبب لنا أقسى الشجن، ويؤلمنا أشد الألم. ولسنا آسيين على ما فعلت، ولا ساخطين على ما صنعت، فإننا لعلى يقين من أنك فى أيما عمل تعمله وفى أيما أمر تقدم عليه، إنما تصدر عن فكرة الصواب. فإن كانت الأقدار قد دخلت عليك فأفسدت مقاصدك ومراميك، وقادتك من حيث لا تدرى إلى ما لم تكن تحب أن يكون، فلا شك عندنا فى أنك كنت لا تستطيع أن توقف عجلاتها أو تصد إعصارها، فقد كانت أقوى منك أيدا وأضرى بطشا. ونحن لهذا مشفقان عليك راثيان لحالك، ونرجو مخلصين ألا تبتئس من أجلنا، وأن تهون على نفسك أمرنا، فقد بلغنا من الحياة أقصى المدى وشربنا كئوسها حتى الثمالة، ومللنا البقاء فيها، وحسبنا منها أننا سعدنا بك طفلا ساقته الآلهة إلينا، وصبيا آنس وحدتنا، ونفى عنا وحشتنا، ونظر ما كان قد تصوح من آمالنا. فالآن وقد استحال الربيع المزهر خريفا ممحلا، وعصفت بشيخوختنا العواصف، ونزلت بساحتنا النوازل، وفقدنا الدار والمتاع، وتقطعت فى حياتنا أواصر العيش وأسبابه، وباعدت الأقدار بيننا وبينك، فإننا ثمة لانرى غير الرحيل سبيلا، ولا نجد فى غير الموت ملاذا، وقد قر الرأى عندنا على ذلك، وإننا بعد قليل لمقبلان على الميتة التى اخترناها راضيين، تعجلا للراحة بعد العناء، واستباقا للهدوء بعد الفزع، ولا يهولنك أننا لا نجد قبرا نأوى إليه ونثوى فيه، فمن الخير أن نتلاشى فى فضاء العدم غير المحدود، وألا نركب ظهر الأهوال غير المنظورة فى رحلتنا الشاقة إلى الأرض الغربية. وثق يا ولدنا أن ميتتنا معا تقع فى يسر وغبطة، وأننا قبل أن نفارق الحياة نباركك ونبتهل إلى آلهة مصر كلها أن تحوطك بعنايتها وتعصمك من كل المخاطر، وأن تهيئ لك عيشا رغدا وهناءة

متصلة ، وأن ترزقك أطفالا سعداء تقر بهم عينك، وتبتهج بهم نفسك، وتجد فيهم من السعادة أكثر مما وجدنا فيك، والسلام عليك من أبيك « سنموت » وأمك « كيفا ».

وكنت أستمع إلى الرجل وهو يتلو الرسالة وقلبي يخفق خفقا دراكا، ودموعي تنحدر من عيني غزيرة، ورأسي يتصدع حزنا والتياعا. فلما فرغ من تلاوتها ناولنيها قائلا : إنها لا تحمل خاتم أبيك، فخاتمه كان معك، ولكنها، وأقسم لك، كلماته التي أملاها بلسانه حرفيا، لم أزد عليها ولم أنقص منها، وقد تناثرت على بعض حروفها دموع أمك، على ما ترى من آثارها، فكأنما أرادت هي كذلك أن تشارك فيها، فكانت دموعها الصامتة أبين لسانا وأفصح مقالا!..

وتناولت الرسالة مضطربا، وقد رانت غشاوة الأسى على بصرى، فلم أستطع قراءتها بنفسي مرة أخرى، فطويتها ووضعتها في جيبي، على أن الرجل مضى يقول : كان أبوك « سنموت » طبيبا محمود الخصال كريم السجايا، وكذلك كانت أمك « كيفا » ولو أنها كانت على طبع النساء، في بعض الأحيان، خفة رأى وحدة لسان. وقد كتبت هذا الخطاب ناقلا كلمات أبيك ومسجلا مقالته، أمينا في النقل والتسجيل، وكابدت في هذا رهقا وعناء، ولم ينقدني أبوك أجرا على ذلك؛ لأنه كان لا يملك ما يعطينيه، وهأنذا قد أنفذت رغبته، وأديت أمانته، فلعلك منتفع بما في الخطاب، فاقه دلالته ومعانيه !..

وفطنت إلى إشارته وتلويحه، فقلت له : أشكر لك فضلك أيها الكاتب الماهر، والرسول الأمين. وإنه ليخجلني حقا أنني لا أملك الآن نقودا أكافئك بها، ولكني أرجو أن تتقبل معطفي هذا هدية متواضعة، وهو من نسيج جيد وإن لم يكن نظيفا كما ينبغي، ولتباركك الآلهة، ولتحفظ جسمك من الفناء إلى الأبد.

ووضع الرجل معطفي على كتفيه وذهب لطيته مسرور به، وأخذت أنا طريقي إلى « دار الموت » مرتديا جلبابى مجردا من المعطف الذى كان يستره ويخفيه، كأى رقيق أو سائق ثيران، لأعمل خادما مع غسلة الجثث ومحنطيها مدى ثلاثين يوما بلياليها ..

ظننت عملي في « دار الموت » شيئا مما ألفته في حياتي كطبيب، فما أكثر ما رأيت من الموتى، وما أكثر ما شممت الروائح الكريهة تنبعث من أجسادهم، وما أكثر ما انغمست يدي في قروح المرضى التي تنزف صديدا !. . فهذا الجو الذي صرت إليه ليس إذن جديدا علي، غير أني ما كدت أوغل فيه حتى أخذت أشعر بأنني أدخل منه في دنيا أخرى غير تلك الدنيا التي عرفتها وعشت فيها، فكل ما أرى فيه يبدو غريبا ومثيرا ولا صلة له بسابق علمي وخبرتي .. ومن ذلك أن جثث الموتى يختلف العمل فيها باختلاف درجات أصحابها. وباختلاف قيمة الأجور التي تدفع عنها .. وقد كانت جثث الفقراء منهم لاتتقاضانا إلا أيسر الجهد، فهي تلقى إلقاء في أحواض ملأى بماء الرماد والملح ذي الرائحة النفاذة، ثم يستعملون خطافا في تقليبها بهذا السائل، وكنت ممن يقومون بهذه العملية فلم ألبث إلا قليلا حتى حذقتها، أما جثث الطبقات الأعلى مركزا والأوفر مالا، فكان يعنى بها عناية متميزة ... فأمعاؤها توضع بدقة ومهارة في جرار خاصة، وتضفي عليها رعاية متصلة خلال مراحل التحنيط، وكان من علامات الخصوصية وآياتها في هذه الجثث أن يظهر عليها « أمون » أكثر من ظهوره على الأحياء !.. وللمحنطين في ذلك براعة لايعدلهم فيها أحد، وكانوا قبل البدء بالعمل يقضون وقتا طويلا في مساومة أهل الميت في أثمان الزيوت والمراهم والمواد التي يزعمون أنهم يستعملونها في حفظ الجثث من التعفن والبلى، وهي مواد يغالون في تقديرها ويهولون في خصائصها وأسرارها، وإن كانت كلها ترجع إلى مصدر واحد هو الزيت المستنبط من السمسم .. وبهذه الوسيلة كانوا يحصلون من القادرين على الأجور العالية ويختصون جثث موتاهم بالمهارة الفنية التي لا يبذلون منها شيئا لجثث الفقراء .. وقد كان من عنايتهم بالجثث المأجورة أنهم إذا ما أخرجوا أمعاءها، ملأوا فجوة البطن بقطعة نسيج نظيف يتخللها صمغ الصنوبر، أما جثث الفقراء فكانوا يملأون فجواتها بالزيت القارض الذي يذيبها ويبليها، فإذا انقضت عليها

ثلاثين يوما بأحواض ماء الرماد والملح، أخرجوها قليلا لتجف، ثم سلموها لأهل الموتى..

وكانت « دار الموت » تحت رقابة الكهان، ولكنها رقابة خيالية ليست بذات أثر ، فالمغسلون والمحنطون يعبثون بملابس الموتى ويستولون على ما فيها ، ويرونه حقا لهم، والواقع أنهم في هذا كانوا يجرون على طبيعتهم، فهم من المجرمين الذين تطاردهم لعنة الآلهة، ومن الآبقين الخارجين على سلطان القانون ! .. وكانوا يعرفون بسيماهم، وبما ينبعث من روائحهم الكريهة غادين ورائحين، ولهذا كان الناس يقذعونهم ويتحاملون لقاءهم، ولم يكن ليسمح لهم بغشيان الحانات أو بيوت الملاهي. ولقد ضقت بهم أيما ضيق، وبخاصة حينما كنت أراهم، إذا ما خلوا إلى الجثث، يمعنون في العبث بها ، حتى ما كان منها لأناس ممتازين، فيبترون بعض أعضائها ليبيعوها للسحرة والعرافين، حيث يتخذون منها مادة لشعوذتهم. ولو كانت هناك حقا حياة ثانية فى الأرض الغربية، فإن الكثيرين من الموتى عندما يستيقظون سيدهشهم أن يفتقدوا في أجسامهم أعضاء مبتورة، وسيدهشهم كذلك أن النفقات التي دفعت للمعبد لقاء حفظهم ودفنهم قد ضاعت عبثا !..

ولقد فكرت أكثر من مرة فى الهرب من هذا الجو الطافح بالرذيلة والفساد، ولكن كان يمسكني به ويكرهني على البقاء فيه أن الحياة فى خارجه كانت فى نظرى أضيق من سم الخياط، وأنني لقيت فيها أهوالا أشد وأقسى مما ألاقي به، ذلك إلى أن الذين يعملون في « دار الموت » لا يجدون من الناس إلا نفورا وتقززا. فهم لا يغادرونها إلا ليعودوا إليها ، فلن يطيب لهم مقام فى غيرها ..

على أنه كان من بين هؤلاء الملتاثين في عقولهم، عدد قليل ممن استقاموا على الجادة، يتوافرون على عملهم بالإخلاص والشرف، ويعدونه عملا إنسانيا بالغ الأهمية. ولعل ذلك لأنهم قد توارثوه عن آبائهم وأجدادهم، فهم ليسوا كالآخرين، دخلاء عليه، وكان لكل منهم فرع تخصص فيه، كما هي الحال في « دار الحياة » ، فهذا متخصص في الرأس ، وذاك في الأمعاء، وثالث متخصص في القلب، ورابع في

الرئتين، وهكذا سائر أعضاء الجسم موزعة بالتخصص عليهم ليحصنوها ضد الفناء !..

فهؤلاء القلة كانوا بيننا أشبه بالومضات التى تشع إشعاعا ضئيلا وسط الظلمة الحالكة، ولكنها على ضآلتها كانت تبعث فى مثل قلبى الواجف بريقا من الأمن والطمأنينة.

وكان « راموس » أكبر هؤلاء سنا يتمرس بفرع هام من فروع التحنيط، فقد كان عليه أن يفصل المخ ويستله من ثنايا الأنف بآلة دقيقة خاصة بذلك، ثم يغسل الجمجمة بالزيت النقي، وكنت لإعجابى به أرافقه فى عمله وأعينه عليه. واسترعى نظره حسن استعدادى للعمل وخفة يدى فيه، فأخذ يتعهدنى برعايته وثقته ويزودنى بما لا أعلم من دقائق عمله، ثم اتخذنى مساعدا له ولما أبلغ نصف المدة التى تقررت لخدمتى معهم، ورفع هذا من شأنى فى نظر الآخرين فلم يعودوا يغلظون القول لى أو يلقون بمخلفات الجثث فى وجهى، ذلك لأن « راموس » كان، لأهمية العمل الذى تخصص له، ذا نفوذ قوى عليهم ! ..

ولم يعجلنى هذا عن التفكير فى جثتى أبوى، وفى إعدادهما الأعداد الذى يكفل لهما الراحة بقدر المستطاع فى حياتهما الأبدية، وقد اضطرنى ذلك إلى مجاراة رفاقى فى سرقاتهم، لعلى أصيب منها بعض ما يعيننى على إتمام واجبى نحوهما ، وكنت أعلم أن هذه خطيئة، ولكنها لا تقاس بما اقترفت قبلها من خطايا، وكانت السرقات على أية حال خلقا شائعا فى هذا الوسط القذر، وهى ليسرها وسهولتها وانتفاء الزاجر عنها، كانت ذات إغراء دافع. وقد استطعت بمساعدة « راموس » تحنيط الجثتين العزيزتين على نفسى، تحنيطا حسنا، ثم أدرجتهما فى لفائف من الكتان، ولم يبق إلا أن أضعهما فى صندوق خشبى، وهو أمر يند عن قدرتى، وقد طال فى ذلك تفكيرى، إلى ماكان يشغل بالى من أمر قبرهما الذى أصبح لا وجود له بين القبور !..

وقد امتدت بسبب ذلك إقامتي في « دار الموت » حتى بلغت أربعين يوما، وأخيرا تهيأت للخروج منها، وحاول « راموس » أن يستبقيني معه لأظل مساعدا له في عمله، لما استبان من كفايتي ومهارتي، ولكني اعتذرت عن عدم الاستجابة لرغبته، ولا أدري لماذا كان اعتذاري !. فقد كانت ظروفي الخاصة خليقة أن تحملني على البقاء، فما جدوى أن أخرج لحياة تموج بالمتاعب وتزدحم بالآلام . وقد جرعتني الصاب والعلقم، وفقدت فيها الشرف والكرامة، كما فقدت الأهل والأصدقاء ؟ ! وليس من شك في أنني « بدار الموت » على ما فيها من فساد أخلاق وشيوع رذائل، أحسن حالا مني في خارجها !. على أني مع هذا آثرت مغادرتها إلى غير مآب ! ..

ومن ثم ارتديت ملابسي بعد أن غسلتها ونقيتها من أوضارها، وخرجت من « دار الموت » مشيعا من المغسلين بالشتائم والسخرية، على طريقتهم في التخاطب والتحيات دون قصد الإساءة وجرح الشعور !..

وعلى أني حرصت على أن أكون نظيفا بقدر الإمكان، فإن الناس الذين كنت أمر بهم كانوا مع هذا يخلون الطريق أمامي ممسكين بأنوفهم لاعنين، كأنما كانت تهب عليهم في تسياري بينهم رائحة الموت الذي يزعجهم ويخيفهم !..

ولما بلغت المرفأ ، أبى أصحاب القوارب أن ينقلوني عبر النهر إلى الجانب الآخر فبقيت حتى جلل الليل صفحة الأفق، وعندئذ غافلت الأعين الراصدة، ونقلت على قارب من الغاب جثتي أبوي، ومضيت بهما إلى مدينة الموتى ..

– ٥ –

ولم أجد في مدينة الموتى قبرا أواري فيه الجثتين، فقد كانت الحراسة القوية المؤزرة تحيط بها من جميع جوانبها وأقطارها، وعبثا حاولت مغافلة الحراس الأشداء الأيقاظ، وكان عليَّ مع ذلك أن أودعهما قبرا ليعيشا بين هذه الكثرة الكاثرة من الموتى، ناعمين بالهدايا والمنح التي يقدمها إليهم الأغنياء وذوو السعة والكفاية، وإنه

لأشقى مايشقينى أن يقضى عليهما أيضا بالحرمان مما لا أعرف أن أحدا قد حرم منه قبلهما فى هذه المدينة الخالدة، ولهذا حملتهما على كتفى ومضيت بهما فى الصحراء التى حولتها الشمس فى ذاك الوقت نارا تلظى، وقد أوقرنى الحمل وهد كيانى وكدت أهوى به مجهدا . ولكننى فى هذا الجو الصارم الشديد القسوة جمعت أطرافى وتماسكت تماسك الذى لا مفر له من ذلك، ورحت أتلمس الطرق الوعرة التى لا يسلكها عادة إلا اللصوص الفتاكون، مصعدا إلى التلال المهجورة، وانتهيت إلى « وادى الملوك » حيث يرقد الفراعين فى قبورهم المنيفة، وهو منطقة حرام يحظر السير فيها، وكان الليل قد ران بظلماته عليها فزادها رهبة. وغير بعيد منى كان عواء ابن آوى يتجاوب فى سكون الليل مخيفا مرعبا، كما كان فحيح حيات الصحراء السامة يتساقط على سمعى فى كل خطوة أخطوها، فكأنما كنت أسمع منه نداء الموت المترصد، وكان يخطف بصرى منظر الثعابين السارية من أوكارها زاحفة على الصخور التى لا تزال متقدة بالحرارة، ولكن هذا كله لم يفزعنى، ولم يثبط عزمى فقد كنت أريد، مصمما ، ألا تطلع الشمس من جديد حتى أكون قد أديت واجبى الأخير لأبوى اللذين لم يبق منهما إلا هذه الكومة من لحم وعظام، وإن الموت لأهون على نفسى، أنا الذى ما زلت فى عنفوان الشباب، من أصبح على الحياة وفى نفسى حرقة الخجل الممض، لسوء ماقدمت يداى الآثمتان، وقد كان هذا الموت يحف بى من كل جانب، ولكننى فيما يظهر لم أخطر له على بال ، فكنت أرى الحيات والثعابين تدنو منى ثم تتراجع وتتفرق !..

وكان الحمل الثقيل الذى أحمله فى هذه الرحلة المخيفة الشاقة خليقا أن يزهق روحى، ولكننى بقيت به حيا، وكان حراس الوادى العتيد يقفون على كل موضع منه كمردة الجان، ولكنهم كانوا كأنهم عمى لا يبصرون وصم لا يسمعون. ولو أنهم رأونى وسمعوا قعقعة الصخور تحت قدمى وأنا أنحدر إلى واديهم، لكان حتما أن يقتلونى ويلقوا بجثتى إلى الذئاب الجائعة.

لقد تخلى عنى الموت. وأنا منه جد قريب، وانداح لى صدر الوادى الرهيب كما لو كنت ضيفا ينزل بساحة مضياف كريم، وأخذتنى منه روعة العظمة المتجلية على قبور أولئك الملوك الثاوين فيه، بما لا تقاس به عظمة عروشهم التى كانوا يجلسون عليها أحياء.

وبين قبورهم العظيمة التى كنت أدور عليها متفحصا، وجدت قبرا تبدو عليه الجدة، فوقفت به واخترته مثوى لجثة أبوى، فصاحبه حديث عهد بالموت، وهداياه كثيرة، وما فيه من زاد وفير، وفى معبده تؤدى مراسم الموت بانتظام كأى قبر جديد لملك عظيم. وإذن فهو أصلح القبور وأوفاها بحاجة أبوى. ومن ثم أخذت أحفر حفرة فى الرمال بجانب بابه. وفيها دفنت جثتيهما، وكنت ، وأنا أهيل الرمال عليهما، أشعر براحة بال، ذلك لأنهما يرقدان ، إلى الأبد، إلى جوار فرعون العظيم صاحب القبر، وسينعمان بما يقدم إليه من زاد وهدايا، وسيرحلان معه من الأرض الغربية على قاربه المقدس، ويأكلان من خبزه ويشربان من نبيذه، وكان يخيل إلى أن « أنوبيس » يطل خلال الأفق عليهما، مرحبا بهما، متهيئا لمرافقتهما فى رحلة الأبد. وطاب لى هذا الخيال، وتمثلته حقيقة مبلورة ، ولم أنكر فى نفسى أن تكون نهايتهما هكذا، فقد كنت واثقا أن الصفاء والنقاء والخير والفضيلة بكل معانيها كانت من أجلى الصفات التى تحليا بها فى حياتهما، وستكون لهما بها الرجاحة فى ميزان « أوزوريس » ، وزادنى استبشارا وتفاؤلا أننى عندما كنت أهيل الرمال على جثتيهما، وقع فى يدى فجأة « جعران » من حجر أحمر اللون، له عينان دقيقتان ركبتا فيه من الجواهر ، وقد نقشت عليه كلمات قدسية، فكان هذا فى يقينى إشارة إلى أن أبوى يرقدان فى طمأنينة وسلام ورضا، فبكيت تأثرا، وتناثرت دموعى على الرمال فبللتها، ولم يغلبنى على تصور هذا المعنى أن الجعران لم يكن فى الواقع إلا حلية من الحلى التى أزجيت إلى قبر فرعون !..

وكان القمر قد أخذ يتوارى فانحنيت على مثوى أبوى رافعا يدى بالتحية لهما وانقلبت راجعا حتى بلغت شاطئ النيل مجهدا منهوك القوى ، دامى اليدين، ممزق

القدمين ، وفي عيني من رمال الصحراء غشاوة ، فانتهلت من ماء النيل راويا سعار ظمئي ، وارتميت على الأعشاب كالمغشي عليه من فرط التعب، واسترسلت في نوم عميق ...

- ٦ -

وعلى صوت البط الذي اتخذ أكنانه وسط الأعشاب، استيقظت مع الصباح في الوقت الذي كان « أمون » يبحر فيه على قاربه الذهبي عبر السماء. ومن الشاطئ البعيد ترامت إلى مسمعي ضجة المدينة المستيقظة، وتراءت قريبا من بصري سفن النهر جاريات على صفحة الماء تخفق على سواريها القلاع الحمراء، وتواردت جموع النساء مبكرات كعادتهن على حافة النهر يغسلن الملابس على الألواح الخشبية المعدة لذلك، أو يملأن جرارهن متضاحكات أو متبادلات الأحاديث التي لا يكتمن فيها سرا خبيئا.

وكانت هذه الصور والمناظر تلوح مع الصباح في مثل إشراقه لطفا وابتهاجا، ولكن قلبي كان موصدا دونها، جامدا لا يتأثر بها، فما أنا منها في قليل أو كثير، وأكبر ظني فيها أنها لا تطلع على الوجود إلا ليستمتع بها السعداء الخليون ، الذين لا ترنق صفاء حياتهم الهموم والأرزاء، ولست منهم ، ولعلها حين تطلع على الأشقياء المنكوبين، أمثالي ، تسخر منهم ليزدادوا شقاء وعذابا ؟..

كان الذي يشغل أفكاري ، وتنفعل له سائر مشاعري، أنني بذلت أقصى ما في طاقتي من جهد للتكفير عن خطيئتي التي لا تعدلها خطيئة في حياة الناس، ولا أراني بعد خليقا بالبقاء في هذا الوجود الإنساني، فقد فقدت كل مؤهلاته وخصائصه، وإذا كنت قد استطعت أن أصلح من شأني مع الآلهة بالتكفير، فإني أعجز ما أكون عن استرداد مكاني المفقود بين الناس فوق هذه الأرض، فهم لا شك قد عرفوا الآثام التي ترديت فيها، ولسوف ينبذونني نبذ النواة، احتقارا لشأني، واستنكارا لعاري، ثم كيف

يمكن أن أبرز لهم على ما أنا فيه من حال زرية ، تجفوها الأبصار، وتعافها النفوس، فهذه ملابسى صارت مزقا مهلهلة وخرقا بالية كأنها ملابس الأرقاء المستذلين مهدورى الآدمية ، وهذا ظهرى قد ألهبته حرارة الشمس، إلى ما وقره من حمل جثتى أبوى، فاحترق وانسلخ عنه الجلد، فأصبح شأنها وصرت به كالموبوء الذى يفر الناس من لقائه، ولا أملك مع هذا شيئا من النقود اشترى به قوتا يعصمنى من الجوع، وثمة أمر آخر يمسكنى فى مكانى ويقيدنى فى موضعى، ذلك أنى إذا ما خطوت متجها إلى المدينة فسيعترضنى الحراس المنبثون فى ثنايا الطريق، وسأقع فى قبضتهم لا محالة عندما يعرفون أننى أنا «سنوحى» الآثم الذى تطارده اللعنة !..

أخذت هذه الخواطر تتقاذفنى فى عنف وشدة، ولم أر فيها غير الموت سبيلا إلى الخلاص.

وإنى لأفكر فى هذا، إذا بى أحس بحركة تدنو منى، ثم ألمح خلالها إنسانا يلوح كأنه شبح يتراءى فى حلم مزعج، لقد كان – وهو يقترب منى – مخلوقا مسخا عجيبا، أنفه مثقوب وأذناه مقطوعتان، ويداه ضخمتان ناتئتا العظام، وجسمه، على ضموره وصلابته، تتناثر عليه أخاديد من بقايا جروح مندملة كأنها آثار حبال مشدودة كان يحمل بها الأثقال.

وتكلم هذا الإنسان الذى تصورته شبحا مرعبا، فقال : ما هذا الذى تطوى عليه يدك ؟!

ودون أن أحرك لسانى مجيبا، فتحت يدى وأريته الجعران المقدس الذى عثرت عليه فى الرمال بوادى الملوك، فقال : أعطنيه فقد يؤتينى حظا سعيدا يبدل ما ترانى عليه من قسوة البؤس ...

قلت له : وإننى لكذلك بائس فقير ، وليس معى شيء سواه، فسأحتفظ به لنفسى كتميمة قد تؤتينى ذلك الحظ السعيد المنشود .. وأنا به أولى ..

قال : خير لك وأنت على تلك الحال من الخواء أن تجد بديلا منه نقودا تقضى بها حاجتك العاجلة، وإنى وإن كنت فقيرا لمستطيع أن أعوضك عنه بعض النقود الفضية ..

وافتض حزاما كان يتمنطق به وأخرج منه قطعا من هذه النقود، ولكننى أبيت أن أعطيه الجعران، إذ أيقنت أخيرا أن فيه سرا جالبا للسعادة.

فقال مغضبا : كان بوسعى أن أفصل رأسك عن جسدك وأنت تغط فى نومك، فقد كانت عينى تلحظك من قريب منذ بلغت هذا المكان. وكان يغرينى بك هذا الذى كنت تقبض عليه فى يدك متشبثا به خلال نومك، ولكنى آثرت أن أدعك حتى تستيقظ لأسألك كما يفعل الرجل الشريف ، ولو عرفت أنك ستأباه على جاحدا فضلى لحقدت عليك، وانتزعته منك، على أنى مازلت مستطيعا أن أفعل ..

قلت له : لا أستغرب عليك هذا، فأنت على ما أرى من صورتك الشوهاء المريبة، مجرم هارب من المحاجر، ولو أنك قتلتنى لصنعت بى خيرا وحققت لى أمنية أتمناها، فأنا وحيد فى بؤسى وعذابى . وليس لى مأوى أسكن إليه، ولا أهل أتعلق بالحياة من أجلهم، على أنه وقد فاتك أن تفعل هذا فى نومى، وفى غفلة من العيون، وفى وحشة الليل وظلمته، فإنك الآن لا تأمن الإفلات من الحراس وهم منا غير بعيد، وإنى لناصحك أن تتركنى لشأنى ناجيا بروحك، ذلك لأنهم إن رأوك فلن يفلتوك، وسيلهبون جلدك بسياطهم، ويعلقونك على الجدران من قدميك. وإذا أخذتهم بك الرحمة فهم – على الأقل – معيدونك إلى المكان الذى اجتويته وكرهت أن تبقى فيه فهربت منه !

قال ساخرا : أغلب الظن أنك غريب عن هذه البلاد، لا تعرف شيئا من أخبارها وأحوالها، فقل لى يا هذا : من أى بلد جئت ؟! ألا فاعلم أننى لا أخشى الحراس الذين تروعنى بهم، فلقد أصبحت حرا كما أصبح الأرقاء أحرارا، ومن حقى أن أدخل

المدينة من أى أبوابها شئت ، ولا شيء يمنعنى من ذلك سوى وجهى الذى تراه، فإنى لأخشى أن أزعج به الأطفال !..

فقلت متعجبا : كيف يصبح المحكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة حرا طليقا ؟! هذا مالا أتصوره فضلا عن أن أصدقه !..

قال : ألم أقل لك إنك غريب عن هذه البلاد ؟! فلو كنت من أهلها لعرفت أن ولى العهد عندما اعتلى العرش ووضع على رأسه تاج المملكتين العليا والسفلى، أصدر مرسوما بفك كل القيود وتحطيمها، وعتق الأرقاء الذين يعملون مسخرين أو محكوما عليهم في المحاجر والمناجم، فأصبحوا بذلك أحرارا طلقاء، والذين بقوا منهم فى العمل هناك أصبحوا يؤجرون على عملهم !..

ثم ضحك واستطرد يقول : وكثير من الرفاق طاب لهم المقام وسط الأعشاب حيث يطعمون أشهى الأطعمة وأسخاها ، توافيهم متتابعة وهى فى سبيلها إلى الأثرياء بمدينة الموتى. وقد اتخذت مكانى بين هؤلاء الرفاق ولا أرضى عنه بديلا، وما يستطيع الحراس أن يعترضوا طريقنا ، فإنهم ليعلمون من شدة بأسنا ما يخيفهم فنحن لا نخاف أحدا، حتى الآلهة.

ولأول مرة عرفت، من حديث هذا المخلوق العجيب، أن ولى العهد ارتقى العرش تحت اسم « امنحوتب الرابع » وأنه حرر الأرقاء وأطلق سراح المسجونين ولا ريب فى أن المناجم الواقعة فى الصحراء الشرقية قد أصبحت خالية من عمالها، ولابد أن تكون الحال كذلك فى شبه جزيرة سيناء، فليس يوجد من يرضى بالعمل فى المناجم مختارا وبمحض إرادته !..

ثم قال هذا العامل إن الملكة المقربة الصغيرة هى أميرة « ميتانى » التى لا تزال تقضى وقتها لاهية بلعب الأطفال، وإن فرعون الجديد يتبع الآن، على الجهر، إلها جديدا، وهو ، كما يقول العامل، إله عجيب فى الآلهة، تظهر أفعاله الغريبة فى تصرفات « فرعون » الشاذة التى تبدو كأنها تصرفات مجانين. فاللصوص والقتلة

الذين أطلقهم وفك إسارهم ، يجوسون أحرارا خلال الديار بالملكتين العليا والسفلى وقد تعطلت حركة الإنتاج بالمناجم بسبب هجرة العمال منها بمجرد تقرير حريتهم .. وقال : والحرية فى ذاتها أمر محبب، ومبدأ إنسانى مقدس، ولكنها فى إطلاقها غير مأمونة الضرر، فهى لا تعطى إلا بحقها، ولا ترسل هكذا جزافا، ولقد أحسن «فرعون» حينما أباحها لمن حرموا منها ظلما، ولكنها تحسب عليه سيئة حينما يساوى بهم فيها المجرمين العابثين بالأمن والخارجين على القوانين، فهؤلاء الأشرار لا يمتنع أذاهم فى الناس إلا إذا قيدت حريتهم، وعزلوا عزل الموبوئين عن الأصحاء . وقد أعطيت بهذه الحرية حقى، إذ قد هدروا إنسانيتى عندما قذفوا بى إلى المناجم مسخرا مظلوما، يعتصرون فيها بدنى اعتصارا بلا أجر ومن غير جزاء وهذه محمدة لفرعون أقدرها له، ويقدرها له أمثالى المسخرون المظلومون، ولكن ما شأن المئات والألوف من أولئك المجرمين الأشرار الذين حطم قيودهم وأزال الحواجز القائمة بينهم وبين المجتمع ؟! إنهم بلا شك عائدون إلى إجرامهم ليفسدوا الحياة على الناس.

على أنه مهما يكن من أمر ، فهذه مشيئة « فرعون » ، وهو المسئول عنها، أليس كذلك ؟!

قال هذا وهو ينظر إلى نظرة المطمئن إلى أنى أطابقه على رأيه ، وقد استرعى نظره خلال ذلك ما يغمرنى من مظاهر الألم والإعياء ، فقال لى فى لهجة الراثى لحالى المشفق على شبابى : إن جلدك هذا المتسلخ فقد أذته الشمس بلفحها المتوقد، وإن معى لزيتا يمكننى أن أصلحه به! ولم ينتظر أن أجيبه إلى ذلك، فأخرج من ملابسه قارورة الزيت، وأخذ يدلك بها ساقى وذراعى وظهرى، وكان ، وهو يفعل ذلك ، يردد عبارات مختلفة سمعت منها قوله: لست أدرى - بحق « أمون » - لماذا أصنع هذا لك، أنا الذى لم أجد قط من يرحمنى عندما كان جسمى تندلع فيه السياط وتتهاوى عليه العصى الغلاظ، وتنفجر منه الدماء ، وتدمى به الجراح والقروح !. إن أحدا لم يكن عند ذاك يحفل بى أو تخفق به عاطفة الشفقة على، فأظل مهملا كأنى سائمة من السوائم، أو قطعة من حجر تافه، وما أكثر ما كنت ألعن الآلهة لأنها تخلت عنى، وأسلمتنى إلى وحوش مفترسة لها أشكال الآدميين ..

وأنست بالرجل لعطفه الذى يبدو غير متكلف ، وكنت أول الأمر قد اجتويته مستريبا في دعوى براءته، فالأرقاء والأثمة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة كثيرا ما يزيفون الحقائق وينحلون أنفسهم البراءة من الآثام التى قارفوها وعوقبوا عليها، مدفوعين إلى ذلك بدافع من مركب النقص بطبيعتهم، وبدافع الرغبة في تحويل رأى الناس فيهم وكسب مافقدوه من الثقة بهم، ولكنى شعرت أنه أقرب إلى الصدق منه إلى الكذب، وأدنى إلى البراءة منه إلى الإثم، فاطمأننت إليه ورأيت من الخير على أية حال أن أوافقه على دعواه ، وأبادله عطفا بعطف، فكلانا شقى معذب، ثم إنى لأرانى أثقل إجراما، وأفدح خطيئة وإثما من أولئك الذين حوكموا على خطاياهم وآثامهم، فهنالك إذن أصرة تجمعنى إليه، وتربطنى به، وهنالك ماهو أكثر من هذا، هو أنى وحيد في هذا المكان الذى لا أعرف كيف أريم عنه ولو أننى نافرت هذا الإنسان الطارئ وأبيت صحبته، فسيتركنى لوحدتى التى تنهشنى نهش الضوارى، ولهذا رأيت أن أصانعه وأتجمل له، فقلت متلطفا : لقد أثرت شعورى بحديثك أيها الرفيق الكريم، فنبئنى بتفصيل ما وقع عليك من ظلم لعلى أستطيع أن أشاركك في بلائك به ..

قال : إنها قصة طويلة، ولكن لاضير عليك في أن تعرفها كلها. فهى قصة الصراع المحتدم بين الحق والباطل، الثائر دائما بين العدل والظلم. كنت من قبل حرا أملك أرضا أفلحها وأعيش ناعما بثمارها، وأملك معها ماشية أتوفر بها في عملى ورزقى . وكان لى في هذه الأرض كوخ أسكن إليه أنا وزوجتى وأولادى، وترفرف علينا فيه أجنحة السعادة والرغد ، ولكن هذه الحياة الصافية الوادعة، قد شاءت الأقدار أن تغشيها بالأكدار والهموم، فرمتنا بجار سوء من نوى الثراء العريض والنفوذ المتفاقم يدعى « أنوكيس ».

كان هذا الجار يملك رقاعا من الأرض تندح وتتسع حتى لاتبلغ العين آخر مداها، وكانت الأنعام والسوائم التى يملكها بهذه الأرض في مثل رمال الصحراء ، كثرة عدد ، ولكنه مع ذلك كان شرها لايقنع، جائعا لا يشبع، وقد وضع عينه على أرضى ذات الرقعة الضيقة محاولا أن يضيفها إلى أرضه الواسعة الأقطار، المترامية

الأطراف، وكان كلما رآني متشبثا بها حريصا عليها، ازداد إمعانا في محاولاته، واستطاع أن يغلبني عليها عن طريق مساحي الأرض الذين يفدون علينا في أعقاب كل فيضان ليقيسوا الأرض ويوضحوا معالمها من جديد ! .. فهؤلاء الذين اشترى ذممهم بالرشوة والهدايا الكثيرة، كانوا يتقدمون بأحجار التحديد في أرضي توسيعا لحدود أرضه، على إشارته وهواه، فإذا احتججت واعترضت أولوني دبر آذانهم ، على مرور الزمن تلاشت أرضي في أرضه كما تتلاشى السمكة الصغيرة في جوف الحوت، فأصبحت وليس لي منها إلا الكوخ الذي صار كالأثر الحائل في عالم الذكريات، وكان من الممكن أن أعيش فيه بلا أرض أملكها كما يعيش الأرقاء والعمال الأجراء الذين يعملون في أرض ذلك الغني الكبير، بل كان من الممكن أن أكون عنده أحظى مكانا وأيسر رزقا، لو أنني طاوعت شهوته الصارخة التي كان يتعقب بها ابنتي الجميلة !.

لقد كنت وقتئذ أبا لخمسة من البنين وثلاث من البنات، وكانوا قبل أن تنزل بنا كارثة ذلك الجار الغني الطامع، عدتي في حياتي، وأعواني في عملي، ومبعث غبطتي ومناط أملي، وقد نقصوا واحدا، اختطفه صغيرا تاجر سوري، فأسيت عليه، ولكني تعزيت عنه بإخوته، وهكذا الفقراء يكثر نسلهم فلا يضيقون ذرعا بكثرة الأبناء ، إذ يجدون فيهم أعوانا على العمل، وأسبابا توثق صلتهم بالحياة ، فإذا فقدوا منهم وجها وجدوا في وجوه الباقين نضرة العزاء. وقد كانت ابنتي الصغرى ذات حظ وافر من الجمال، ولفرط إعجابي بها حجزتها عن الحقل وعن حرارة الشمس حتى تنمو زهرتها وتتفتح براعمها في الظل الوارف، وكانت فعلا تزداد على الأيام ازدهارا وجمالا، ولو أني اطلعت على الغيب لبدلت جمالها قبحا ودمامة ، حتى تزور عنها عين جارنا الغني الذي رآها فاستملحها واشتهاها ، وراح يلاحقها ملاحقة الذئب للشاة، وقد أنكرت عليه ذلك حين صارحني برغبته فيها، فعرض على أن يترك لي أرضي، ويوسع لي في رزقي، إن حققت له رغبته، فأبيت معتزا بكرامتي، ذلك لأني كنت أعد ابنتي لرجل من

طبقتنا، يتزوج منها زواج الشرف، لا زواج المتعة، واتخذ منه عضوا جديدا في أسرتي، يعاونني معاونة الابن لأبيه، لا معاونة السيد لخادمه !..

واستغل « أنوكيس » جارنا الغني المتجبر ، ضعفي وفقري والمصير التعس الذي صرت إليه بعد اغتصابه أرضي، ومورد رزقي ، فلج في مضايقتي وإعناتي لأستجيب له مكرها، فلما استعصيت عليه سلط على خدمه وأرقاءه ، فنابذوني وقاتلوني ، فواجهتهم دفاعا عن نفسي وضربت أحدهم ضربة قضت على حياته، فاهتاجهم هذا وتكاثروا على فجدعوا أنفي وقطعوا أذني على ما تراه ماثلا في وجهي ، ومن ثم، وبقوة نفوذ سيدهم، نفيت إلى المناجم، وبيعت زوجتي وأولادي رقيقا، واحتفظ هذا السيد الظالم « أنوكيس » بابنتي الصغرى التي هام بها، حتى إذا ما أطفأ بين أحضانها سعير شهوته ألقاها إلى أحد خدمه ..

وقد ظللت بمنفاي عشرة أعوام معذبا خلالها بالعمل الشاق، إلى مرارة الشعور بالظلم، فلما تحررت بأمر الملك أسرعت إلى موطني مشوقا غاية الشوق إلى أهلي، ولكنني لم أجد أحدا منهم كما لم أجد أثرًا للكوخ الذي كان يجمع شملهم، وأقبلت ابنتي الصغرى التي كانت سبب شقائي، فلاقتني في غير مبالاة وألقت على قدمي مياها ساخنة ، ثم عادت من حيث أتت. وهناك علمت أن « أنوكيس » قد مات ودفن بقبره بمدينة الموتى وأن قبره يمتاز عن القبور بكتابة مطولة نقشت على بابه، فشخصت إلى « طيبة » لأدلف منها إلى مدينة الموتى باحثا عن قبره لأرى ماذا كتب عليه، وقد عثرت على القبر ورأيت على بابه الكتابة المنقوشة التي أنبئت بها، ولكني لم أجد من يقرؤها، فإني لا أعرف القراءة !..

هذه قصتي ، أعني مأساتي، ولم يبق منها إلا أن أعرف ماذا رأى أن يسجله هذا الظالم على باب قبره ؟!..

قلت له : إذا شئت فإني لمرافقك إلى هناك لأقرأ لك ..

فاغتبط لهذا وشكرني عليه وقال : الحق إن أقصى ما أتمناه قبل أن أموت ، هو أن أستبين ما أودعه في ثنايا نقوش قبره ، ولعله وقد ذهب عن هذه الدنيا يقرر أمورا تتصل بضحايا جشعه وشهواته !..

وأخذنا سبيلنا إلى مدينة الموتى، فبلغناها دون أن يعترضنا أحد من حراس الطريق وبعد جولة صغيرة في أنحائها انتهينا إلى قبر كبير وجدنا على مدخله لحوما وألوانا مختلفات من الكعك والفاكهة والزهور، كما وجدنا إلى جانبها جرة مقفلة مملوءة بالنبيذ، فانكب الرجل على هذا الطعام والشراب يلتهم ويعب، ويقدم لى من هذا وذاك لأواكله وأشاربه، ثم أشار إلى واجهة القبر لأقرأ له، فتأملتها واستنطقت الكلمات المنقوشة عليها وقرأتها عليه هكذا :

أقرر أنا « أنوكيس » إننى عنيت فى حياتى بزرع الحبوب وأشجار الفاكهة ، وكانت عنايتى بذلك تنتج المحاصيل الوافرة التى قلما يؤتاها غيرى من الزراع، وذلك بفضل الآلهة وبركاتها التى كانت لا تتخلى عنى أبدا، فقد كنت أخشاها وأبذل فى سبيل مرضاتها خمس هذه المحاصيل ، وكان النيل يحبوني بالخير المستفيض المتصل كفاء ما كنت أسخو به على العاملين بأرضى، بارا بهم ، موفيا كل حاجاتهم، وكانت معاملتى لجيرانى مشربة بالكرم والمحبة والعطف، فكنت أعينهم على مد مياه الرى إلى أراضيهم ، وإذا نزل بهم القحط فى بعض السنين العجاف منحتهم الحبوب ليأكلوا حتى يشبعوا، وكم رفهت عن اليتامى وخففت من همومهم وكفكفت دموعهم، وكم ترفقت بالأرامل من النساء متجاوزا لهن عن ديون أزواجهن، فكانت ألسنتهم دائما تترطب بالثناء علي والدعاء بالخير لى ، وما أكثر ما كنت أعطي الذين نفقت ثيرانهم ثيرانا غيرها من حر مالى ، ولم أحاول مرة أن أستخدم نفوذى وقدرتى فى إدخال أى جزء من أرض جيرانى إلى أراضى، بل لقد كنت جد حريص على أن تبقى علامات الحدود ثابتة فى مواضعها بينى وبينهم ، فكذلك كنت ماضيا معهم على جادة الاستقامة ، متحريا العدل والرحمة والعفة والنزاهة فى سائر علاقاتى بالناس جميعا،

ولقد فعلت هذا كله أنا « أنوكيس » جاريا على طبيعتي المسماحة، داخلا به في رحمة الألهة ، لتنير طريق رحلتي إلى الأراضي الغربية . ».

وكان رفيقي، مجدوع الأنف، يستمع لهذه الكلمات في إصغاء يخالطه التأثر، فلما انتهيت من تلاوتها، قال وعينه تشرق بالدمع : الحق، أن « أنوكيس » كان التقي الصادق في حياته، وإنه لكذلك في مماته، وليس لمثلي إلا أن يؤمن بهذا ، وسيقرأ الناس هذه الصفحة من تاريخه، جيلا بعد جيل، وطبقة في أثر طبقة ، فيذكرونه في احترام، ويتخذون منه مثلا للإنسان الكريم الذي عاش ندى الكف، بارا بالفقراء عطوفا عليهم !.. وهكذا الأغنياء من أمثاله ، لا يتخلى عنهم المجد والتكريم أحياء وأمواتا !.. وما أنا بالقياس إليه إلا المخلوق البائس الشرير ، اضطرب بين الناس بالأنف المجدوع والأذن المقطوعة مجفوا منهم ، محتقرا في أعينهم، يجللني الخجل من ملاقاتهم، فإذا أدركني الموت ألقوا بي إلى النهر كما لو كنت حشرة قذرة ، ولا يكاد اسمي يذكر على لسان أحد، فقد عشت منسيا ، ثم نقلني الموت إلى واد من النسيان سحيق، فحياتي وموتي سواء في ذلك !.. ألا ترى يارفيقي أن كل ما في هذه الدنيا عبث وباطل ؟!

وتناول جرة النبيذ وراح يجرع منها. وهنا أقبل أحد الرقباء فضربه بعصاه ، فالتفت إليه وقال : كان « أنوكيس » كريما وطالما أسدى إلى الخير في حياته، ولهذا فإني أتناول الطعام والشراب على قبره تمجيدا لذكراه العزيزة في نفسي ، فارفع ، أيها الحارس ، يدك عني ، ولا تمس رفيقي هذا بأذى، فإنه رجل يمتاز بالعلم والثقافة ، فإن أنت لم تفعل ، فاعلم أن من خلفنا رفاقا أشداء يحملون الخناجر المسنونة المتعطشة للدماء ، ومن اليسير علينا أن نعود إليك جماعة في الليل، فنذبحك ذبح الشاة !..

وبدا على المراقب شيء من الوجل لهذه الكلمات، يتهدده بها ذلك المخلوق المخيف، فأجال بصره يمينا ويسارا ، ثم مضى لطيته دون أن يعقب .

وبقينا ، أنا ورفيقي ، نأكل الطعام ونشرب النبيذ تحت ظل السقيفة القائمة بين يدى قبر « أنوكيس »، وبعد قليل أخذ يتحدث قائلا : ألم يكن من حسن الرأي أن

أستجيب إلى رغبة « أنوكيس » فأعطيه ابنتى راضيا؟ إن ذلك، لو فعلته، كان خليقا أن يحمله على أن يدع لى كوخى ويظفرنى منه بالهدايا، فقد كانت عذراء دافقة الصبا والجمال، وكان الأرجح أن تهيئ لى عنده حظوة ومكانا دانيا، فماذا أجدى على تمنعى وإبائى ؟! لقد نالها منى قسرا ورمى بها، نكالا بى، إلى خدمه، فأصبحت امرأة لا قيمة لها؛ وأصبحت أنا العاجز الشرير المنفى من الأرض، الشائه الخلقة، المسلوب الحق فى الحياة، حتى بعد أن تقررت الحرية للجميع ! .. فها أنت ذا ترى، يا رفيقى، أن الحق فى دنيانا، لا مكان له إلا فى رحاب الأقوياء والأثرياء، وصوت الفقير بعد ، بعيد حتى عن سمع « فرعون » !..

ورفع جرة النبيذ إلى فمه قائلا : تحية لذكراك أيها العادل المقسط « أنوكيس » ! .. وليبق جسمك محفوظا إلى الأبد ... ولك أن تطمئن ، فما أريد أن أتبعك إلى الأرض الغربية، فمن حقك أن تحيا كأمثالك فى دعة ورغد، وفى صفاء غير مشوب ، ممتعا برضوان من الآلهة، ولقد أسلفت الخير للناس فى حياتك الأولى، على ما شئت أن تسجله على باب قبرك، وإنى لمصدقك، وما أراك إلا ماضيا على هذا المنهج الكريم فى حياتك الثانية، ولهذا فسيرضيك أن نقاسمك كئوسك الذهبية ومجوهراتك الثمينة التى ترقد فى القبر إلى جوارك، واقتناعا بكرمك وسخائك سآتيك زائرا فى هذا المساء ، عندما يتحجب وجه القمر بالسحاب !..

وفهمت ماذا يعنى، فقلت له، راسما علامة الصلاة لآمون : إنك لتقدم على أمر خطير، وليس شىء هو أبغض إلى الآلهة والناس وأدعى إلى غضبهم ونقمتهم من جريمة السطو على قبور الموتى..

قال، وقد بدت عليه رعدة المحموم لكثرة ما جرع من النبيذ . يمكنك أن تعالج أمورك الخاصة بطريقتك المثلى المهذبة التى يرضاها الآلهة والناس، ولكننى لا أستطيع إلا أن أجرى على الطريقة الأخرى التى أقامنى عليها هؤلاء أنفسهم، وما أحسبهم سيغضبون ، فهكذا شاءوا أن أكون !.. وإلا ففيم جعلوا هذا الظالم « أنوكيس » رجلا عظيما، وجعلوا منى، أنا المظلوم، شقيا تعسا، موسوما بالشر والجريمة ؟!..

لقد ذهب عن هذه الدنيا وفى عنقه دين لى، دين كبير، أفليس من حقى أن أقتضيه منه ؟ ! .. ولئن كنت ترى فى الوسيلة التى اخترتها لذلك عملا غير شريف، فهل أنت مخبرى عن شرف الوسيلة التى سلب بها حياتى ومالى وكرامتى؟!.. ألا فاعلم أننى مسترد دينى منه الليلة على أية حال، فإن حاولت مدافعتى عن ذلك حطمت رأسك ، وخير لى ولك، ونحن فى الشقاء صنوان، أن تعيننى على هذا، فأربع عيون ترى أكثر مما ترى عينان، وأربع أيد تفعل أكثر مما تفعل يدان، ومن الحماقة أن نترك ذخائر هذا القبر عندما يكون استيلاؤنا عليها ممكنا، فليس هناك من هو أولى بها منا ...

قلت له فى خوف : كلا ،لا أريد أن أصبح معلقا على الحائط، ورأسى مدلى إلى أسفل والسياط تلهب بدنى ... إن الموت لا يفزعنى قدر ما يفزعنى أن يرانى الناس مصلوبا بهذه الصورة على الحائط، فيشيرون إلىَّ بأصابعهم قائلين: إنه «سنوحى».. لقد صار لص مقابر !..

ولكن الظروف جرت فى تلك الليلة على هوى رفيقى مجدوع الأنف، فقد رأينا جمعا من الجنود يهبطون فى القوارب التى حملتهم من المدينة إلى وادى الموتى، ثم ينحدرون إلى المقابر فيدورون عليها ويشربون الأنبذة التى كانوا يجدونها موفورة بين الهدايا المقدمة للموتى، فما إن تهيجهم الخمر حتى ينهالوا على القبور يحطمون أبوابها وينتهبون ما فيها، واختلطنا بهم فلم ينكرونا، ولم نجد عندئذ من يعترضنا حينما فعلنا مثل فعلتهم بقبر « أنوكيس » ، حيث استولينا على: الكئوس الذهبية، وعلى ما لا يقل قيمة عنها من أشياء أخرى..

وكان هؤلاء بعض جنود « فرعون » ، لم ينالوا الأعطيات التى جرت العادة بها عقب كل تتويج، فأسخطهم هذا، واندفعوا غضبا ينهبون القبور التى كان من واجبهم أن يحافظوا عليها ...

وفى مطلع الفجر كان على شاطئ النهر عدد غير قليل من التجار السوريين يترصدون هذه الأسلاب ليشتروها وينقلوها على سفنهم ويبحروا بها. وقد

اشـتروا منا ما حملناه من قبر « أنوكيس » بمئتى دبن (أى سبـعمئة أوقـية) من الذهب والفضة، وكان هذا ثمنا بخسا، بالنسبـة لما تساويه الأشـياء المشـتراه، ولكننا رضـينا به واقتسمناه. وقد فرح مجدوع الأنف بنصيبه فرحا شديدا وقال : منذ الآن أعـتـبر نفسى فى عداد الأغنيـاء، والواقع أنه لعمل سـهل مـوفـور الربح والفـائدة، وسيريحنى من حمل الأثقال، أو من عناء العمل فى زراعة الأرض، فلن أكـون بعد اليوم حـمالا بالميناء، أو زارعا فى الحقل، أو ضحية جبار طاغية !..

وقلت مـسـتـدركا : ولكـن لا تنـس أن العرق ينـزع، وأن جـرة الماء تسـعى إلى البئر ...

وقد عنيت بهذا أن طبيعة الإنسان تتحكم في تصرفاته، مهما تختلف ظروفه..

ثم افترقنا على ذلك، وعبرت النهر إلى « طيبة » على أحد الزوارق ، فاشـتريت ملابسًا جـديدة، وذهبت عنى « رائحة الموت » التى كانت عالقة بملابسى القديمة الرثة، ومن ثم اختلطت بالناس، فلم يبق ما يريبهم منى، وعرجت على إحدى الحانات فتناولت طعاما وشربت نبيذا، بينما كنت ، وكان أهل المدينة ، نسمع جلبة القوات والعربات الحربية تمضى إلى مدينة الموتى، لاقتفاء أثر اللصوص الذين سطوا بليل على القبور فسرقوها . وقد رأينا فى المساء أجساما كثيرة معلقة على حائط التعذيب ، فتنفست الصعداء ، إذ قدر لى أن أنجو من هذا المصير التعس .

- ٧ -

قضيت ليلتى الأولى بأحد الفنادق. وفى الصباح قصدت إلى المنزل الذى كنت صاحبه يوما، فهتفت « بكابتاح » الذى أقبل مسرعا، وكان وجهه مريدا، فارتمى على قدمى وهو يبكى وقال : ما أعظم فرحى إذ أراك تعود وكنت أحسبك فى عداد الموتى، فلقد طالت غيبتك حتى قلت لنفسى، لو كان حيا لما تخلف عنى ليأخذ نقودا، فما أعرف

أنك بعد الذى كان، تجد إنسانا مخلصا سواى يمدك بما تحتاج إليه، وقد أعددت النقود وظللت أنتظر عودتك، وفى سبيل إعدادها أسرفت فى سرقة سيدى الجديد ، وكلفنى هذا كثيرا من العذاب، فلا ينقضى يوم دون أن أتلقى من هذا السيد ومن أمه، الضربات الموجعة. وقد أقسمت هذه الأم ، التى تشبه التمساح العجوز، لتبيعننى إلى من يسومنى سوء العذاب، وإنى من ذلك لفى فزع شديد، ولا أرى غير الهرب طريقا للخلاص، فهيا ياسيدى، نهرب معا، فرارا من هذا الشر الذى تفاقم فى حياتنا واستشرى !..

وهززت رأسى مترددا ، فقال : لا تخش شيئا، فلقد جمعت مبلغا كبيراً من المال، وهو يفى بحاجتنا وقتا طويلا ، فإذا نفد قبل أن نجد موردا فسأعمل من أجلك ولا أدع الحياة تشق عليك.

قلت له : ما جئت لهذا يا « كابتاح » وإنما جئت لأفى لك دينك، فعندى الآن من المال عشرات الأضعاف لما أعطيتنيه فى عسرتى الشديدة. وفى استطاعتى، إن شئت، أن اشترى حريتك من سيدك بأى ثمن ، لتذهب طليقا إلى أى وجه تشاء .

قال : ولكنك إذا حررتنى لتطلقنى للحياة بعيدا عنك، فقد لا أجد موضعا من الأرض يطيب مقامى فيه منفردا ، فما الخير فى أن تدفع المال لتهب لى حرية لا أنتفع بها ؟ ! ... إننى فى بعدى عنك ياسيدى أصبح كالهرة العمياء، أو الجمل الصغير الذى تركه القطيع منبوذا فى الصحراء .

ثم أغمض عينه الواحدة نصف إغماضة ، مستوحيا حيلته ومكره ، وقال : لا شىء غير أن نهرب معا، فذلك هو الحل الوحيد للمشكلة ، وقد علمت أن سفينة كبيرة تستعد الآن للرحيل إلى « أزمير » ، وفى وسعنا ، بقليل من المجازفة والجرأة ، أن نبحر عليها. ويمكننا أن نتسلف النجاة من الأخطار ، بتقديم القرابين إلى الآلهة، لندخل فى حمايتها.

وهنا تذكرت « الجعران » المقدس الذى أحمله، فأخرجته وقدمته إلى « كابتاح » قائلا له : هذا إله موفور القوة، على ضآلة حجمه، ومن خصائصه القدسية دفع الضرر عن حامله، واجتلاب الحظ السعيد له، فخذه واحفظه .. وإنى لموافقك على الرحيل، فالواقع أننى لم أعد أطيق النظر فى وجه أى مخلوق فى « طيبة » أو فى مكان غيرها بمصر، فلنرحل إذن ، ولتكن رحلتنا إلى غير مآب، ولا يشغلنك أمر المال ، فإن معى ذخيرة حسنة.

قال « كابتاح » : هذا حسن، ولكن لماذا تكون رحلة إلى غير مآب؟! إن أحدا لا يعلم ما سيأتى به الغد، ولست يائسا مثلك من العودة إلى هذا الوطن، بل إننا لا نستطيع أن نعيش إلى آخر العمر بعيدين عن النيل، فإن أى إنسان شرب مرة من مائه السلسبيل لا يمكنه أن يروى ظمأه بماء أى نهر آخر !.. وما هجرتنا الآن إلا وسيلة تقتضيها ظروف عارضة، وتفرضها علينا حاجتنا إلى الاختفاء عن الناس بعض الوقت. وإذا كنت قد ترديت فى آثام يخجلك تذكرها ويستحييك أن تظهر موسوما بها ، فأنت ماتزال شابا ، والزمن كفيل بنسيان كل شىء، وما عمل الإنسان إلا كحجر يلقى فى بحيرة واسعة يحدث بها أول الأمر تموجات صغيرة، لا تلبث أن تتلاشى فى غمر الماء، وتعود البحيرة كما كانت هادئة كأن شيئا لم يقع. وكذلك الناس ، ما أسرع ما ينسون !. ولهذا ثق أنك عندما تعود من هجرتك فلن يذكر الناس ما كان من سيئاتك ، وإنما سيقولون ، معجبين ، إنك المصرى الجرىء البارع الذى استطاع أن يرحل إلى أوطان أخرى ، ويعيش بين أقوام آخرين ، ثم يعود إلى وطنه موفور القوة واليسار ..

قلت له : حسبك ثرثرة ، لقد يبس ما بينى وبين الناس هنا ، وسواء ذكرونى بالشر أو بالخير ، فإن ثمة حقيقة سأذكرها دائما هى أننى قد لقيت منهم مايزهدنى إلى الأبد فيهم .. لقد صممت على الرحيل إلى غير عودة ..

وقبل أن يعقب « كابتاح » ، مثرثرا كعادته ، على قولى، نادته سيدته بصوتها الذى يشبه زئير اللبؤة، فهرول إليها ، وتواريت عن عينها منتظرا عودته . وبعد قليل

أقبل حاملا سلة وفى يده نقود نحاسية، وقال لى فى ابتهاج : إن أم التماسيح كلها أمرتنى بشراء أشياء من السوق وأعطتنى هذه النقود ، وهى قليلة، ولكنها على أى حال ستنفعنا فى رحلتنا إلى « أزمير » التى لا أعتقد أنها تقع بعيدا من هنا .

وكان « كابتاح » قد دس فى السلة ملابسه وطاقية شعره، فلما بلغنا الشاطئ انتحى جانبا بين الأعشاب فارتداها ، مستبدلا إياها بملابسه الأخرى، وحمل فى يده عصا أنيقة كالتى يحملها الخدم فى المنازل الكبرى، وكنت قد اشتريتها له خاصة إمعانا فى التنكر ، ومضينا بعد ذلك إلى الميناء حيث مرسى السفن السورية، فوجدنا هناك واحدة من ذوات الحمولة الكبيرة متعددة القلاع، ومن فوقها يمتد حبل غليظ يصل مقدمتها بمؤخرتها وتعطى به إشارة الرحيل من أعلى الصارى، وكان ربانها سوريا، وفى خلقه الطيبة والسماحة، فلم يغلظ لنا أو يشتط فى استكناه أمرنا، بل تلقانا مرحبا، على خلاف ما كان يقع فى وهمنا ، وقد سره أن يسمع إننى طبيب ، فكثيرون من بحارته مرضى ، وهو يثق بالطب المصرى ويقدره أحسن التقدير، ولهذا أجاز لنا الإبحار على سفينته دون أن يتقاضانا أجرا، وكان ذلك ، فى رأينا، علامة من علامات البركة التى أضفاها علينا « الجعران » المقدس ، وقد بالغ « كابتاح » فى تقديسه كإله ، فهو فى كل يوم يدهنه بالزيت ويجففه بقطعة من نسيج مطهر .

ومخرت السفينة بنا عباب النيل، وبحارتها يعملون مجاديفهم فى الماء ناشطين، فبلغت حدود المملكتين بعد ثمانية عشر يوما، وقطعت دلتا النيل فى ثمانية عشر يوما أخرى، ثم خلصت بعد يومين إلى حوض البحر الكبير، وهنالك انداحت أمام عيوننا صفحة الماء ، فلم يلح لنا فى أية ناحية منها أثر لشاطئ أخر..

وعندما اندفعت السفينة فى تيار هذا الخضم الهائل ، الذى لا ترى العين له برا ولا ساحلا، أخذت تضطرب اضطرابا شديدا فى مصطخب الأمواج ، وانعكاس اتجاهات الرياح، واختلافها فى أحوال المد والجزر شدة ورخاء. وقد أزعج هذا

« كابتاح » فاصفر لون وجهه واعتراه ما لا عهد له به ، فتعلق بالحبل الكبير ، وقال وهو يئن ويتلوى ، إن معدته فيما يحس قد طفرت من مكانها وارتفعت إلى أذنيه وأنه يواجه الموت المحقق. وكنت أول الأمر أنظر إليه ساخرا، ولكنني أخذت أشعر مثل شعوره، وأحس كأني قد أصبت بما قد أصابه، وكلما مددت بصرى إلى البحر ورأيت السفينة تتراقص وسط أمواجه المتراكمة كالجبال ، ووسط أعاصيره العتيدة التي لو تلاطمت على اليابسة مثل تلاطمها على البحر، لسقطت مدن، وتهاوت حصون وقلاع. كلما رأيت هذا، تفاقم الخوف في قلبي، واسود الأفق الأزرق في عيني، وزاد خوفي وقلقي حينما رأيت « كابتاح » يدفع، بغير إرادة ولا شعور ، ما في جوفه ، ثم يسقط على ظهر السفينة إعياء وضعفا. وكذلك كانت حال الكثير من راكبي السفينة ، فقد رأيتهم أيضا يقذفون ما في أجوافهم ، وتكسو وجوههم صفرة الموت، ويتساقطون في أماكنهم تساقط أوراق الشجر في الخريف. وعندئذ أسرعت إلى ربان السفنية لأقول له إن الآلهة صبت لعنتها على سفينته فنشرت الوباء على ظهرها، ولا أجدني ، وأنا الطبيب الماهر ، قادرا على مقاومة هذا الوباء ، فلم يبق إلا أن يرتد بالسفينة إلى الشاطئ إن كان ثمة سبيل إلى ذلك، وإلا فإنني – كطبيب – غير مسئول عن النتائج !..

غير أن الربان أجابني في هدوء واطمئنان بأنه لا شيء فيما أرى يدعو إلى الخوف، فتلك حال تعرض عادة في مستهل رحلات البحر، ثم لا تلبث أن تزول ، وأرسل بصره إلى الأفق واستطرد يقول إن الريح مواتية، والرحلة على طول طريقها ستكون هادئة مريحة، ولا ينبغي أن نذكر لعنة الآلهة في مقام الثناء عليها إذ هي ترعانا ولا تلعننا، وأمسك الرجل بذقنه مقسما بها أنه ما من راكب في سفينته إلا وهو بالغ نهاية الرحلة، وواطئ بقدمه الأرض التي يقصد إليها، في مثل خفة الغزال نشاطا ورشاقة وعافية !..

وفي تحفظ كبير استمعت إلى كلماته المطمئنة ، فقد كنت بالرغم من ذلك لا أستطيع أن أشعر بالطمأنينة كما يشعر بها ، وكان عذرى أن راكبي السفينة قد

ترامـوا تحت عينى صـرعى، وليس فيـهم من دلائل الحيـاة إلا ومضـات باهتـة تنذر بالخفوت ..

وخلال ذلك عجبت من أمرى ، فقد كنت على فزعى مما أرى، لا أشعر بأن حالة غير عادية قد انتابتنى ، فأنا لم أقذف ما فى جوفى، ولم أسـقط كما سقط الآخرون كالموتى، ولم يذهلنى ، فى القليل ، دوار البـحر كما أذهلهم . ولكنى أخيـرا عللت ذلك بأننى عندما ولدت وضـعونى فى قارب من الغاب ودفعونى به إلى النهر، وظللت فى تلك الرحلة البحرية الأولى إلى أن رسوت على الشاطئ الذى تلقتنى عنده أمى « كيفا » ، فلا شك أنى قد اكتسبت بذلك شيئا من طبيعة البحار.

ورحت أتعـهد رفاقى المصـابين وأحـاول علاجـهم، ولكنهم كانوا يدفعوننى عنهم لاعنين، حتى « كابتاح » أبى أن يتناول الطعام الذى قدمته له لتغذيته، وهو الذى كان لا شىء يمنعه من ذلك، فما عرفته إلا متهالكا على الطعام ، مستزيدا منه أبدا. وقد خشيت أن يكون امتناعه عن الطعام فى هذه المرة مظهرا من مظاهر خطورة العلة الطارئة وعلامة من علامات انتهائه من الحياة، فلو أن الموت اختطفه منى فإن مصابى فيه يكون أفدح مصاب، فليس لى عنه غناء فى حياتى.

ومضى هذا اليوم المفزع وتعاقبت بعده الأيام دون أن نفجع بموت أحد من الركاب، بل إنهم على توالى الأيام أخذوا يصحون وينقهون ويعودون إلى ما كانوا عليه من عافية ونشاط. وكان « كابتاح » حينما استعاد عافيته لا ينقطع عن الصلاة للجعران المقدس، معتقدا أنه لم ينج من الموت إلا ببركته.

وبعد سبعة أيام لاح لأعيننا شاطئ من بعيد، وقال ربان السفينة إننا قد جاوزنا مدينتى « يافا » و«وتاير » ، وإننا مقبلون على « أزمير » وبالغوها بعد قليل . وقد صح تقديره ، ولم أعرف كيف جاءه العلم بذلك ، فتراءت لنا « أزمير » فى اليوم التالى، ثم انتهينا إلى مينائها، بينما كان الربان يقدم القرابين إلى آلهة البحر، فى قمريته، ويصلى لهم.

- ١ -

أستطيع الآن أن أتكلم عن «سوريا» وعن غيرها من البلدان التى تنقلت بينها وطوفت فيها . وأول ما يتمثل فى ذهنى منها ذلك الاختلاف الواضح بينها وبين «مصر» ، فالأرض هناك تضفى عليها الرمال لونا أحمر ليس لها سواد أرض« مصر » ولا استواؤها وصلابتها . ولم أر فيها نهرا كالنيل ينساب بين حناياها فى خطوط مستقيمة ، إنما تهطل عليها الأمطار فى فصول خاصة ومواسم معينة، فتتشربها الأرض ولا يمسكها بالأودية المتناثرة تحت التلال إلا أغوار متقطعة متباعدة الآماد، وفى كل واد من هذه الأودية المتحاجزة بالتلال العالية يسكن قوم يختلفون عن غيرهم طباعا وسلوكًا ، يتولى الحكم فيهم أمير باسم« فرعون » ، وباسمه أيضًا يؤدى الجزية له، والأمر الذى لا يكاد يختلف فيه سكان الأودية بتلك البلاد هو أن لباسهم من الصوف دقيق الصنع وهم يفرغونه على أجسامهم من الرأس إلى القدم، كما لو كانوا يتخذون منه غطاء يخفى كل شىء فيهم . وقد رأيتهم شديدى التمسك بهذا الرداء الحاجب، حتى إن أحدا منهم إذا ما ألمت به حاجة إلى الكشف عن جزء من جسمه انتحى بعيداً عن الأخرين لكيلا تقع عليه عين ، ولا شىء من هذا فى عادات المصريين ولا فى مألوف حياتهم ، ومما يتميز به أهل « سوريا » أنهم يرسلون شعورهم على أبدانهم ويعفون لحاهم فتتدلى شعورها الطويلة على صدورهم، ولا يأكلون الطعام خارج بيوتهم، وفى كل مدينة من مدنهم إلهها الذى يتعبدون له، ويقدمون القرابين على مذبحة، وقرابينهم عادة من الآدميين.

وفى «سوريا» مصريون اختيروا للعمل بوظائفها العامة كالإشراف على جباية الضرائب أو رياسة الحاميات العسكرية، وكان مفهوما أن اختيارهم للعمل

بتلك البلاد ليس الأصل فيه التشريف والكفاية الممتازة، وإنما هو نوع من الإبعاد المنطوى على معنى العقوبة وهم جميعًا يحنون حنينا متصلا إلى شواطئ نهر النيل، ومنهم قليلون طال اغترابهم فينسوا من العودة لوطنهم، واستسلموا راغمين للحياة فى هذه الغربة وساروا على مناهجها، فارتدوا ملابس السوريين وتشكلوا بأشكالهم وداروا فى فلك عاداتهم، وقدموا مثلهم القرابين لآلهة غير آلهتهم . وكان يزيد فى متاعب هؤلاء الموظفين المصريين شيوع الفتن والدسائس بين السكان ، إلى شيوع النفاق والمداورة بين دافعى الضرائب ، إلى شيوع المنافرة والمشاحنة بين الأمراء .

وتختلف «سوريا» عن «مصر» كذلك فى أن الأطباء هم الذين يبحثون عن مرضاهم، ويذهبون إليهم فى دورهم، والأمر على نقيض هذا فى مصر، حيث يذهب المرضى إلى الأطباء . ومنشأ هذه العادة فى سوريا أن المرضى هناك يسلمون شفاء عللهم إلى الآلهة ، فالأطباء لذلك يفتشون عنهم ويترددون على مساكنهم من غير دعوة منهم، فيقع فى وهم المرضى أن الأطباء مبعوثون إليهم من الآلهة ، ويستغل الأطباء هذا الاعتقاد فيفرضون أجورهم ويتقاضونها معجلة، ولا يقبلون اقتضاءها نسيئة، ويدفع المرضى هذه الأجور فى غير تردد ، لاعتقادهم أنهم يدفعونها إلى مبعوثي الآلهة . وذلك ، ولا شك ، يوافق مصلحة الأطباء، فالمرضى قلما يذكرون أجور العلاج أو قلما يتحمسون لدفعها إذا ما تم شفاؤهم.

وقد قضيت فى « أزمير » سنتين تعلمت خلالهما اللغة البابلية ، قراءة وكتابة، ذلك لأننى عرفت أن هذه اللغة هى لغة التفاهم والتخاطب بين المثقفين فى سائر أنحاء العالم، وحروف كتابتها تنقش على ألواح من الطين بأقلام معدنية. وبهذه الوسيلة يتبادل الملوك مراسلاتهم ، وقد استغنوا بهذه الألواح عن الأوراق ، ويرجع ذلك إلى أنها أطول بقاء وأشد حفظا للاتفاقات والمعاهدات التى كثيرا ما ينساها أو يتناساها الحكام .

وقد اعتزمت أن أباشر عملي كطبيب على هذا النحو في « أزمير » ، ولكن «كابتاح» رأى أن أخالف القوم في طريقتهم ، فلا أذهب إلى أحد من تلقاء نفسي بل أظل في عيادتي لأستقبل الوافدين عليها من المرضى ، وفي سبيل تنبيههم إلى ذلك وإغرائهم به ، نطلق المنادين يعلنون في سائر الأماكن العامة عن شهرتي ومقدرتي الخارقة في إبراء المرضى من أدوائهم ، كما يعلنون أنني لا أزور مريضاً في داره، وأن عليه – إذا شاء – أن يشخص بنفسه إلى عيادتي . وقد حاولت أن أثني « كابتاح » عن هذا الرأي لاقتناعي إذ ذاك بأنه ضرب من الحماقة في بلد لا يعرفني فيه أحد من أهله ، فضلا عن مخالفته لعادة ألفوها واستراحوا إليها ، ولكن « كابتاح» كان ، على طبعه ، عنيدا فأصر على أن يكون ما أراد ، ولم أر فائدة من قيام الخلاف بيننا فرضخت لرأيه. وعندما صار الأمر موكولا إلى خطته وتدبيره، أخذ يوجهني فيه التوجيه الذي يطابق الهدف الذي رسمه وحدده . ومن ذلك أنه اشترط أن يدفع المريض، قبل الكشف عليه، قطعة ذهبية على الأقل ، كما اشترط أن أقابل المرضى في ملابس فاخرة تكبّر من شأني في أعينهم.

وكان مما أشار به، ولم يسعني إلا تنفيذه ، أن أزور الأطباء السوريين المشهورين، وأقول لهم: إنني أنا «سنوحي» الطبيب المصري، الذي اختصه «فرعون» الجديد باسم «الوحيد» ، وإن لي في بلادي مكانا لا يداني بين الأطباء ، ففي استطاعتي بتأييد آلهتي أن أعيد الحياة للموتى، وأن أرجع النور إلى عيون العميان الذين فقدوا نعمة البصر، وإن في حقيبة سفري إلها قادرا يظاهرني في مهنتي، ويؤازرني في عملي . على أني إذ كنت أعلم أن المعرفة تختلف في مكان عنها في مكان آخر ، وأن الأمراض كذلك تختلف باختلاف الأجواء والطبائع، فإني أشعر في مدينتكم بحاجتي إلى دراسة أمراضها لأعالجها على هدى هذه الدراسة، مستعينا بعلمكم وحكمتكم . وليس في نيتي على الإطلاق أن أتحدى تجاربكم أو أنافس نشاطكم ، وإنما أنا أضع يدي في أيديكم معترفا بفضلكم وسبقكم ، وكل ما أسألكم إياه ، هو أن تبعثوا إلى بالمرضى الذين يكون غضب آلهتكم عليهم سببا في

تعذر شفائهم ، وبخاصة منهم الذين يحتاج علاجهم إلى استعمال السلاح الذى لا تستعملونه ، فلعل إلهي يعينني على شفائهم ، فإذا قدر لأحدهم الشفاء فإني لمعطيكم نصف ما يعطيني إياه، فما جئت إلى هنا طامعا في مال ، وإنما جئت لأستزيد من المعرفة، وهي بغية العلماء الباحثين . أما إذا أخطأني التوفيق في شفاء المريض فلن آخذ منه شيئا ، وأعيده إليكم مزودا بهداياه.

وقلت هذا للأطباء ، فكانوا كلما لقيتهم بعد ذلك يقولون لي: إنك وإن كنت لا تزال شابا فإن إلهك يمدك بالحكمة ويمنحك النور ، فكلماتك تقع من آذاننا وقعا جميلا ، وما تقوله عن المال والهدايا ، وزهدك فيهما ، يدل على مكانتك في مجال العلم، وليس يخفى علينا ما تشير إليه ، متواضعا ، من قدرتك على استعمال الأسلحة الجراحية ، وهي قدرة لا تجد فينا من يدعيها؛ لأننا في الواقع لا نستعمل أي سلاح في علاج مرضانا، وهم أنفسهم لا يؤمنون بعلاج الأسلحة لخشيتهم من الموت بها . على أننا نرجو أن تحدث بها تحولا في الأفكار والعقائد ، وسنفسح لك الطريق ولا نطلب منك إلا شيئا واحدا هو ألا تستعمل السحر في علاجك ، فنحن في هذا السبيل أقوى منك؛ وأبعد شأوا ، وفي « أزمير » وفي المدن الأخرى على طول هذا الشاطئ تقوم منافسة شديدة في أفعال السحر وآثاره .

وقد كان حقا ما قالوه عن استفحال أمرهم في السحر ، فذلك أمر تبينت شواهده في سواد الناس ، وكان كثيرون من المرضى يتهافتون على العلاج به، وقلما يرضون به بديلا. ومن هنا كثر الدخلاء المشعوذون ، وانبثوا في كل مكان، زاعمين القدرة على شفاء العلل بالسحر والشعوذة، وكانوا يصيبون من هذه الحرفة مغانم كثيرة ويعيشون منها في رغد، ولا يهمهم في شيء أن يموت المرضى أو يشفوا ، فهم إذا مات مريض لم يعدموا سببا لذلك يردونه إلى إرادة الأرواح التي تتحكم في أعمالهم ، وإذا شفي المريض جعلوا من شفائه آية من آيات قدرتهم المعجزة .

وكثيرا ما كان يأتيني المرضى اليائسون من الشفاء فأعالجهم بطريقتي، وكنت قد أحضرت معي من معبد « آمون » نارا مقدسة ، لتعقيم أسلحتي، وبهذه

الأسلحة التى لا عهد لهم بها أجريت عمليات جراحية كثيرة ، وكتب لى فيها النجاح مما أثار إعجاب أطباء « أزمير » ، واستطعت بمساعدة الحظ أن أعيد البصر إلى أعمى باستعمال الإبرة، وبذلك ذاعت شهرتى كطبيب .

وكان التجار والأثرياء يسرفون فى تناول الأطعمة الدسمة، فأصيبوا بالبدانة والترهل وأمراض المعدة وضيق التنفس، فأخذت فى علاجهم بالعقاقير الطبية التى تزودت بها من « مصر » ، وكانوا بعد قليل يعودون أصحاء موفورى النشاط والعافية . ولما فرغت هذه العقاقير اعتمدت على معلوماتى وتجاربى ورحت أجمع الأعشاب بنفسى فى أوقات معينة على ضوء القمر والنجوم، وأعدها إعدادا كيماويا وأبيعها للمرضى بأسعار تختلف باختلاف مقدرتهم ، وكانوا جميعا جد راضين ، فلم يحدث أن أحدا منهم ضجر بمطلب من مطالبى .

وكما أرضيت مرضاى فقد أرضيت كذلك الأطباء إذ كنت أبعث إليهم بالمرضى الذين كان شفاؤهم على يدى غير ميسور ، وكان ذلك منى تنويها بكفايتهم ، وكنت إلى هذا أرسل الهدايا إليهم وإلى رجال السلطة المدنية، وكان لهذه الهدايا أثرها الحسن فى هؤلاء وهؤلاء، فأفدت من ذلك سمعة طيبة، فى حين كان «كابتاح» دائب الدعاية لى، ومن وسائله فى ذلك، الإنفاق السخى على الفقراء والمتسولين ، وعلى الرواة والقصاصين ، ليتحدثوا عن أعمالى البارعة فى الشوارع والأسواق العامة.

وتوافر بين يدى الذهب والفضة، واجتمعت لى منهما ثروة كبيرة، استثمرت شطرا كبيرا منها فى أعمال تجارية بمساهمة تجار « أزمير » الذين كانوا يرسلون سفنهم محملة بالبضائع إلى مصر وجزر البحر وأرض الحيثيين ، وقد بلغت سهومى فى كثير من السفن نسبا تتراوح بين واحد وخمسة بالمئة ، وكان بعض هذه السفن يتحطم فى الطريق أو يغرق أو يصاب بأية كارثة أخرى فلا يعود ، غير أن أكثرها كان حليف السلامة والتوفيق، فيروح ويغدو بالخير ووافر الربح، فتضاعف نصيبى من الفائدة تبعا لذلك، وكانت حصص المساهمين بالأرباح تضاف إلى قيمة سهومهم فيزداد رصيدها فى حساب هذه التجارة . وكانت الظاهرة التى لفتت نظرى فى هذا

المجال أن الكثير من دهماء الناس وفقرائهم يهتمون إلى درجة كبيرة بالمساهمة فى تجارة السفن ، فلا يكاد يجتمع عند أحدهم بعض نقود نحاسية حتى يسارع إلى دفعها لقاء نصيب ، مهما يكن ضئيلا، فى سفينة ، أو حمولة سفينة ، وينمو هذا النصيب بما يضاف إليه من نصيبه فى الربح على توالى الأيام، وكانت هذه وسيلة حسنة للادخار والاستثمار ، تختلف عن المتبع فى مصر.

وقد كان من الآثار الأولى لإيداع أموالى الفائضة فى هذا العمل التجارى ، أن بالى استراح واطمأن من جهة هذه الأموال ، فلم أعد أخشى اللصوص الذين يطمعهم المال فى السطو على البيوت والاعتداء على الأرواح ، كما أن تفكيرى قد انصرف كله إلى العمل. وكنت ، كلما احتجت مالا فى أسفارى إلى بلد آخر « كصيدا » أو «بابل» ، أعطانى التجار ألواحا طينية تخولنى حق استبدالها بنقود فى محال تجارية معينة بتلك البلاد .

وعلى هذا النحو كانت حياتى هناك، سلسلة من النجاح المتصل، فأصبحت ذا ثراء ، وأصاب «كابتاح» حظا ملحوظا من ذلك ، كان يتمثل فى ملابسه الفاخرة وفى الزيوت العطرية التى كان يتضمخ بها، وقد أخذه من هذا الترف شيء مثير من الغرور والصلف . ولكننى كنت دائما أحد من غروره وصلفه، وكان هذا يكلفنى معه بعض العناء.

- ٢ -

مع هذا لم أشعر بما كان ينبغى أن أشعر به من البهجة فى هذه الحياة الجديدة الموفقة، فكنت أكثر الأحيان ضيق الصدر، وقد سئمت شراب النبيذ؛ لأنه لم يخرجنى مرة واحدة من هذا الضيق، بل كان قصارى ما يبلغه منى أن يحيل لون وجهى إلى سواد قاتم ويسلمنى إلى تراخ واستخذاء ، فاعتزمت الانصراف عنه إلى الاستزادة من المعرفة والاشتغال بالدرس والتمحيص ، فرارا من هذه الحال النفسية الكريهة ، التى تشوب حياتى وتكدر صفوها .

وشغلت نفسي ، فيما شغلتها به، بالتقرب إلى آلهة «أزمير» ، لعلها تكشف لي بعض أسرار مستقبلي المغيب. وكانت هذه الآلهة ، ككل شيء آخر في أزمير، تختلف عن آلهة مصر. فكبيرها «بعل» كان لا يرضى بغير الدماء البشرية قربانا لتلبية الرغبات ، وقضاء الحاجات، وكان كهنته يختارون من الأخصياء.

ومن عادات الناس التعبدية هناك ، تقربهم كذلك بالضحايا والقرابين إلى البحر ، فكانوا يقذفون بالأرقاء المقعدين وبالفقراء الذين يرتكبون ذنبا مهما ضؤل ، حتى الذي يسرق سمكة لإطعام أولاده الجياع ، كان يلقى به إلى البحر . يريدون بذلك التخلص ممن لا خير فيهم ولا عمل لهم ، ويعتقدون أن الإله « بعل » يأمر بهذا ويرضى عنه .

وكان من بين آلهتهم المقدسة الإلهة «عشتروت» وهي تمتاز عن الآلهة الأخرى بأن لها عدة صدور لا صدرا واحدا . وكانوا في كل يوم يلبسونها حلة جديدة دقيقة النسيج، ويحلون صدرها بالجواهر وتقوم على خدمتها نسوة يطلق عليهن اسم «عذارى المعبد» ، وهي تسمية أقرب إلى المجاز منها إلى الحقيقة، فلسن من العذارى في شيء !.

ولم أستسغ تقدمي للإله «بعل» بقرابين من الآدميين ، فذلك أمر لم آلفه من قبل ، فكنت أقدم الذهب إلى معبده .

ووجدت في معبد «عشتروت» متنفسا لأعصابي المكدودة ، فكنت ألم به في بعض الأمسيات ، لأستمع إلى الموسيقى ، وأستمتع بشهود نسائه ، أو عذاراه كما يسمونهن، وهن يرقصن رقصاتهن المثيرة تمجيدا لإلهتهن .. وكان هذا المعبد هو المكان الذي لا يقع مقلي على سواء طلبا للمتعة والترفيه ، فأهل «أزمير» محافظون لا يرخصون لنسائهم في السفور ، ولا يأذنون لهن بمغادرة الدور، وهؤلاء النساء على أية حال لا يظهرن إلا في غلالات أشبه بالستائر المغلقة تخفيهن إخفاء تاما، وتبعا لذلك لم يكن في «أزمير» بيوت للمباذل واللهو الرخيص، وكان هذا سببا في رواج

سوق الرقيق من النساء يؤتى بهن محمولات على السفن من مختلف الأقطار والأجناس .

وقد رأى «كابتاح » أن يشترى امرأة من هؤلاء النساء لأعاشرها معاشرة متعة، إذ كان يرانى مقفل القلب، شارد الفكر ، ولم يتلبث، فاشتراها دون مراجعتى، وأصلح شأنها وألبسها ملابس حسنة، وطيبها بالعطور، ثم قدمها إلىّ مشيدا بمحاسنها التى كشفها ، ورأى أن يؤثرنى بها ، ولم أشأ أن أغضبه فتقبلتها .

وكانت فتاة مكتنزة الجسم بيضاء البشرة، مسواة الأسنان ذات عينين جميلتين موفورة الملاحة ، إذ كانت من بنات جزر البحر. ولكن قلبى لم يتفتح لها كثيرا ، على ما كانت تبديه من مظاهر احترامها لى وإقبالها على.

وبدأت حياتى مع هذه الفتاة مشربة بالعطف عليها حتى لا تشعر بمرارة العيش مع رجل مغلق القلب، غير أن هذا العطف من جانبى أغراها بالتدخل فى دقائق حياتى، وخاصة فيما يتصل بمرضاى خلال زيارتهم لى ، وكان هذا يضايقنى ، ولكنها لغبائها لم تفطن لحقيقة شعورى نحوها ، فاسترسلت فيما كان يثير نفورى منها دائما ، فهى لا تنفك تطلب المزيد من الحلى والجواهر والملابس الجديدة، ثم هى تفرط فى الطعام الدسم فزادت بدانتها ، وعندما كنت أعود من رحلاتى المستمرة فى المدن الداخلية أو فى مدن الشواطئ، كانت تتلقانى باكية منتحبة، إلى غير ذلك من تصرفات شاذة جعلت حياتى معها لا تحتمل ولا تطاق.

وهنا أسعفنى « الجعران » المقدس بالحظ الحسن ، على عادته معى كلما خربت الأمور ، فقد حدث فى ذلك الوقت أن جاءنى الملك « عزيرو» حاكم الإقليم الداخلى «لعمورية» لمعالجة أسنانه ، فعالجتها وصنعت له سنا من العاج بدلا من سن قال إنها كسرت فى إحدى مواقعه الحربية، وغطيت له أسنانا أخرى بقشرة من الذهب ، وقد سره هذا أيما سرور، فكان يزورنى يوميا طوال المدة التى قضاها بالمدينة فى أعمال

خاصة بإقليمه لدى السلطات الحاكمة، وفى كل زورة من زياراته كان يرى تلك الفتاة، التى أطلقت عليها اسم « كيفتيو » تخلصا من اسمها الإغريقى الذى كان عسير النطق، فيعجبه منها بدانتها ولباسها الذى كانت تحرص أن تبدو فيه على الطريقة الإغريقية ، وهو لباس كان يكشف عن صدرها خلافا لما تعود هذا الملك أن يراه على أجساد النساء المحجبات . وقد أسلمه هذا الإعجاب إلى الميل إليها والتعلق بها .
وكان هو رجلا قوى البناء متين العضل أبيض البشرة تشع عيناه بريقا قويا، فكانت « كيفتيو » تخالسه النظر معجبة ، وكنت ألمح هذا فأسكت عنه عامدا ، حتى تقوى العلاقة بينهما ، فلعل ذلك أن يريحنى منها ! .. وقد تحقق هذا حين خلا بى الملك «عزيرو» وقال لى مستجمعا شجاعته: الحق إنك ياصديقى «سنوحى» قد أسديت إلى فضلا بإصلاح أسنانى وتقويمها وإعطائها هذا البريق الذهبى الجميل الذى يكسبنى ، كلما انفرجت شفتاى ، مهابة وجلال شأن فى بلاد « عمورية » . وإنى لقاء هذا سأغدق عليك الهدايا التى أرجو أن تنال رضاك وإعجابك ، على أنه لم تزل لى عندك حاجة أطمع فى أن تقضيها ليتضاعف فضلك، فهذه الفتاه قد سحرنى جمالها ، وأصبحت بها مغرما كلفا وعبثا حاولت أن أطفئ فى قلبى لهيب الشوق إليها . وقد داويتنى بفنك أبرع ما يكون الفن ، ولكننى برئت من مرض لأقع فيما هو شر منه ، وعندك أيضا دواؤه، والدواء فى هذه المرة لايجيء من طريق فنك البارع ، ولكن يجيء من طريق مروءتك وكرمك، وإنى لأتصور هواك لهذه الفتاة وشغفك بها ، ومع ذلك فإنى أسألك إياها لأتخذ منها زوجة مع زوجاتى الأخريات وأحررها من الرق ، تكريما لها ، وهذا خليق أن يرضيك ، فإنك إن كنت تهواها فسيسرك ، بلا شك ، أن تصير حرة وزوجة ملك، وأنت واجد بين الرقيقات مثلها أو خيرا منها ، وسأدفع لك ما تشاء كفاء تنازلك عنها . وأحسب أننى غير محتاج إلى أن أقول لك إننى أستطيع، فيما لو أبيت أن تعطينيها راضيا ، أن أعود فأنالها قسرا وأحملها إلى مملكتى بالقوة ، فذلك أمر أعتقد أنك أسمح خلقا من أن تدفعنى إليه .

واستمعت إلى حديثه مبتهجا ورفعت يدى علامة الموافقة والقبول ، وكان «كابتاح» يلقى بأذنه متسمعا لهذا الحديث ، فلما رآنى قد وافقت على الخروج عن الفتاة، اقتحم مجلسنا وهو يشد شعر رأسه غضبا ويقول : هذا يوم أغبر ، فإن هذه الفتاة أغلى عند سيدى من كل ما في الدنيا بأسرها من ذهب وجواهر ، إنها المخلوقة الوحيدة التي تؤنس وحدته وتسعد حياته وتملأ روحه وقلبه، ولا يمكن تعويضه عن فقدها ولو أعطى وزنها ذهبا.

وكنت أعلم أن « كابتاح» يصطنع ذلك اصطناعا ، فهو لا يقل عنى رغبة في التخلص من هذه الفتاة ، ولكنه كان بهذا الموقف يجرى على عادة أهل هذه البلاد وعلى طريقتهم التجارية واستغلالهم الظروف ، وقد كان يهدف بذلك إلى أن يكون المال الذى يدفعه الملك مقابل الفتاة كثيرا .

ولم تكن «كيفتيو» ، عندما عرفت أننى نزلت عنها إلى الملك «عزيرو» بأقل من «كابتاح» تزييفا لشعورها ، فقد تظاهرت بالبكاء قائلة إنها لن تغفر لى ذلك ، بينما كانت خلال دموعها الكاذبة تنظر إلى الملك نظرات الرضا به والارتياح إليه !..

غير أنى أشرت إليهم جميعًا بالسكوت ، وقلت متكلفا الحزن : يا «عزيرو» ملك «عمورية»، وصديقى، حقا إن هذه الفتاة عزيزة على قلبى، أسيرة عندى وأدعوها أختى، ولكن صداقتك تعلو في نفسى على كل عزيز، ويرتخص فى سبيلها كل غال ، وكدليل على ذلك أعلن أنى قد نزلت لك راضيا عن « كيفتيو » الحبيبة من غير مقابل ..

وهنا صاح « عزيرو» قائلا فى غمرة من الغبطة والسعادة : مرحى، مرحى، أيها العزيز «سنوحى» المصرى الكريم، لقد أسلفتنى مكرمة لا تعدلها عندى مكارم الدنيا جميعا، والحق أنك لطيب القلب، صادق الود والوفاء، ومنذ الآن فأنت أخى الحبيب، وصديقى الأثير، وسيكون اسمك أبرك الأسماء في كل أرض «عمورية» إذا تفضلت بالقدوم إليها ، فعندئذ سيكون مكانك عن يمينى وكلمتك فيها هى العليا وسيكون الآخرون دونك منزلة ولو كانوا ملوكا.

وكان فوه يفتر عن أسنانه الذهبية مبتسما ، وهو ينظر بنهم وإعجاب إلى «كيفتيو» التى ما أسرع أن كفت عن بكائها المصطنع وراحت تحدق فيه مسرورة، فأخذ بيدها وحملها معه على محفته إلى النزل الذى كان يقيم به فى المدينة ، حيث خلا بها ثلاثة أيام بلياليها لا يخرج للناس ولا يراه أحد منهم .

وشعرت كما شعر «كابتاح» بأن عبئا ثقيلا قد انحط عن أكتافنا بالتخلص من هذه الفتاة، ولكنه كان غير راض عن تنازلى عنها بدون مقابل ، فتلك فى نظره كانت فرصة نادرة للحصول على ما نشاء من «عزيرو» العاشق المفتون ! فقلت له: إننى كسبت بذلك صداقة «عزيرو» ، وهى قد تعطينا فيما بعد خيرا مما نأخذه الآن ، فالمستقبل غيب وما ندرى ما سيأتى به الغد.

وقبل أن يعود «عزيرو» إلى مملكته جاء يودعنى ويقول: لقد أعطيتنى الكثير ولم أعطك شيئا، ولا أزعم أن باستطاعتى أن أعطيك ما يعدل كرمك ويكافئه ، فمملكتى صغيرة وليست بذات ثراء، فكل مواردها مقصورة على الضرائب التى تجبى من التجار الذين تمر قوافلهم بأرضها ، وقد نغنم بعض المغانم من الحرب التى أثيرها على جيراننا كلما أعوزنا المال، وإلى هذا فإنى أؤدى الجزية لمصر، فأنت ترى أن الحال غير مسعفة، ولكنى مع ذلك لن أتردد فى أن أقدم إليك كل ما فى مقدورى إلا أن يكون نساء أو خيلا، فلا غنى لنا فى المملكة عن النساء والخيل، ندبر بهما الحياة والحروب ، ثم إن إشارة منك تكفى لكى أرسل إليك على الفور من يقضى على أى إنسان يعتدى عليك دون أن يعرف أحد أن لك دخلا فى ذلك، فنحن الأشداء المغاوير، وللصداقة عندنا حقها، وفى سبيلها نبذل الأرواح والدماء .

وخلع قلادته الذهبية فوضعها فى عنقى وضمنى إلى صدره بطريقته السورية، فخلعت بدورى القلادة التى كان قد أعطانيها تاجر غنى من «أزمير» كفاء علاجى زوجته، فوضعتها فى عنق «عزيرو»، فسر بذلك سرورا عظيما، ثم افترقنا.

- ٣ -

وأحسست بعد أن خلا منزلنا من هذه المرأة كأن كابوسا ثقيلا كان يجثم على قلبى فانزاح عنه، فصرت كالطائر خفة ونشاط حركة ، وراق لى وجه الحياة كما لو كنت حبيسا عنه أمدا طويلا . وكنا وقتئذ فى الربيع، فبدا فى عينى جميلا، فهذه الأرض تتنضر بالخضرة الكاسية ، وهذه الأشجار تزدان بأغصانها الفوافة المورقة، وتلك أسراب الحمائم والعصافير تزقزق على حفافى الماء كأنها ترتل الأناشيد وتشدو بالأنغام ، فتبعث فى النفس الغبطة والطرب وأحلام الشباب.

وتواردت علينا مع الربيع أنباء العبريين الذين احتشدوا فى الصحراء ، وأغاروا على الحدود السورية من الجنوب إلى الشمال وأحرقوا القرى وحاصروا المدن.

وكان مثل هذا الغزو شيئا يتكرر كلما أقبل الربيع ، فهو أمر تعود أهل «أزمير» أن يسمعوا أنباءه دون أن يقلق خواطرهم، إذ كان «العبريون» فى غزواتهم لا يتجاوزون القرى القريبة من الصحراء ، أما المدن التى تقوم عليها الحاميات ، فكانوا يجتنبون دائما الإغارة عليها لمنعتها ، ولكنهم فى هذا الربيع أغاروا على مدينة «قطنة» المحمية بالقوات المصرية، فذبحوا ملكها ، فأزعج هذا أهل «أزمير» وتطيروا به. وقد عرفوا من الأنباء التى كانت تتساقط عليهم فيتلقفونها فى لهفة أن جنود «فرعون» أقبلوا على «العبريين» من مدينة «تانيس» عبر صحراء «سيناء» ، فردوهم إلى الصحراء وأسروا منهم القادة والرؤساء.

ولكن أمر المصريين والعبريين لم ينته عند هذا ، فالحرب بينهم لم تسكن ، وتطايرت أنباؤها هنا وهناك ، ولم أكن قد شاهدت حربا من قبل ، فراودتنى الرغبة الشديدة فى الالتحاق بقوات « فرعون » لأجرب حظى فيها ، ولأؤدى واجبى الإنسانى كطبيب فى معالجة المصابين وتضميد جراحهم، وقويت هذه الرغبة فى نفسى حينما علمت أن « حورمحب» على رأس القوات المصرية التى تقاتل هنالك، فقد كنت فى الحقيقة أشوق ما أكون إلى لقاء هذا الصديق القديم. وفعلا أنفذت رغبتى فأبحرت

على إحدى السفن وهبطت منها إلى اليابسة حيث كانت على مقربة منا إحدى الكتائب المصرية الذاهبة إلى المعركة ، فاندمجت فيها وسط المركبات التى تجرها الثيران والدواب المحملة بالحبوب وجرار الزيت والنبيذ ومغالق البصل ، وبلغنا بلدة صغيرة تقوم عليها أسوار من البناء اسمها « أوروشليم» ترابط بها حامية مصرية، وكانت الشائعات التي راجت في « أزمير» تصورها لنا حامية كبيرة ضخمة موفورة العدة والعدد، ولكننا رأيناها على خلاف ذلك ، لا تزيد على فرقة من العجلات الحربية وألفي جندي من حملة الرماح ورماة السهام، وكان مفهوما أن قبائل «العبريين» كرمال الصحراء عددا .

وكان «حورمحب» هو قائد هذه الفرقة المصرية فارتاحت نفسي إلى ذلك ، وذهبت إليه في الكوخ الذي كان جالسا به مع أركان حربه ، فلما رآني قال في تردد وهو يراجع ذاكرته : عرفت مرة شخصا يدعى «سنوحي» ، وكان وقتذاك طبيبا من خير أطباء طيبة وإنك لتشبهه!.

وكان غير غريب على « حورمحب» ألا يعرفني لأول وهلة ، فقد غيرت السنون من ملامح وجهي، ثم إني كنت أحمل على كتفي عباءة سورية ، وليست هي مما يلبسه المصريون ، على أنه أخذ يجيل في وجهي نظراته الفاحصة ، ثم قال ضاحكا وهو يرفع سوطه المضفر بالذهب : بحق «آمون» إنك أنت لسنوحي ! مرحبا بك أيها الصديق، لقد كنت أحسبك في عداد الموتى، فهأنتذا تبعث بغتة بين الأحياء!.

وفي عجل تحدث مع رجاله وصرفهم بأوراقهم وخرائطهم ، وعاد يقول : إنها لإحدى معجزات «آمون» أن نتلاقى مرة أخرى على الأرض الحمراء وفي هذه المدينة البائسة القذرة.

وطلب نبيذا وأخذنا نتساقاه معا في نشوة ، وقد شرح لقاؤه صدري ، وخفق بالمسرة قلبي الذي كنت أحسب أني قد فقدته ، ورحت أقص على « حورمحب» أطرافا من حياتي ومخاطراتي ، فقال لي: عليك الآن أن تتوج قصتك المثيرة بشرف المساهمة

معنا فى هذه الحرب التى أضع بين شقى رحاها أولئك « العبريين» الأنجاس، وسوف لا أفلتهم منها حتى تطحنهم طحنًا، ويتمنوا لو أنهم لم يولدوا .

واستطرد قائلا: إن أنس لا أنسى لقاءنا لأول مرة ، فمن ذلك اللقاء بدأت حياتى التى ترانى اليوم فيها قائد جيش ورئيس أجناد ، ولقد كنت أنا يومذاك شابا قليل الخبرة بالدنيا وبالناس ، وكنت أنت بالنسبة لى الرجل العارف المجرب ، فشددت أزرى بالرأى الرشيد ، والتوجيه السديد، وقد انتفعت بمشورتك ونصحك وتهديت بهما فيما صادفنى من أمور جسام، وها أنذا أحمل السوط المضفر بالذهب وهو شارة البطولة التى طالما تمنيتها ، ولكنى لم أبلغ هذه المكانة المرموقة إلا بحقها من العناء المضنى فى الخدمة بالحرس الملكى ، فقد كان علينا أن نحفظ الأمن والنظام وهبة الحكم حين شاء «فرعون» بجنونه، أن يطلق سراح اللصوص وقطاع الطريق وسافكى الدماء ، فجاسوا خلال الديار وأشاعوا فيها الفوضى والفساد، فلاحقناهم وتعقبنا آثارهم حتى قضينا عليهم، ولما ترامت إلينا أنباء القبائل العبرية الثائرة على الحكومة، والمغيرة على ما حولها من البلاد ، طلبت من «فرعون» أن يمدنى ببعض الفرق الحربية لقمع الثوار وتأديبهم ، فأمر بذلك وأقامنى قائدا عليها ، ولم أجد بين الضباط القدامى من يزاحمنى فى هذه القيادة ، فقد استغرقوا فى الحياة المترفة المتراخية، وزايلتهم الرغبة فى حياة المعارك ومعامع القتال ، وقالوا ما لنا والصحراء وقتال «العبريين» ذوى الحراب الحادة والضربات الموجعة، والصرخات المزعجة !. والواقع أنهم وهم يحيون فى ظلال وارفة من الثراء ومظاهر الترف لم يعودوا يرون أنفسهم بحاجة إلى مكابدة الحروب ومعاناة أهوالها ، فما الذى ينقصهم وادعين آمنين، لينالوه فى حرب قد لا يعودون منها أحياء ؟! ولكنى على عهدك بى، كنت ، ولم أزل، رجل حرب لا أرى فى غيرها شرفا ومجدا ، وكنت قد أفدت من النضال الداخلى كثيرا من التجارب والمعارف العسكرية ، فطاب لى أن أستخدمها فى تلك الحرب التى فتح «العبريون» ميدانها، ولم يكن شىء يهم «فرعون» وهو ينفذنى إليها إلا أن أقيم بأوروشليم معبدا لإلهه الجديد. واتباعا

لسياسته المسترخية ، أوصانى بألا أريق دما فى مقاتلة «العبريين» ، وهى وصية تثير السخرية والضحك... ولست أدرى كيف نقاتل هؤلاء ، وندفع أذاهم ، ثم يكون علينا أن نحفظ دماءهم ؟!.

وانفجر «حورمحب » ضاحكا ، ورفع كأس النبيذ فأفرغه في جوفه ثم قال : إن أمر «فرعون» لعجيب !. وما أكثر ما لقيت من أفكاره الغريبة بالغة الشذوذ !. إنه دائمًا يتحدث عن إلهه الجديد، فهو، يقول إنه يختلف عن جميع الآلهة ، فلا شكل له ولا صورة مجسدة ، وهو مع ذلك موجود فى كل مكان وفى كل زمان ، ويرى جميع الناس في وقت واحد ، ويطل عليهم ويتصل بجميع أحوالهم دون أن يروه، ويده غير المنظورة تبارك سائر المخلوقات ، ولا فرق عنده بين سيد وعبد ، وهكذا كان يتحدث لى عن إلهه هذا فأشعر كأن حشودا حاشدة من النمل قد تسللت إلى رأسى ، فلا يهدأ لي بال ولا تغمض لى عين إلا أن أشرب النبيذ فى جوار امرأة تخلص رأسى من هذه الأفكار السوداء المضنية، ومن هنا تغيرت حالى عما كانت يوم أن تلاقينا أول مرة ، فصرت مدمن خمر ورفيق نساء ، ولم أكن كذلك من قبل..

وتوقف «حورمحب» ليجرع كأسا أخرى من النبيذ ، ثم مضى يقول : ألست ترى يا «سنوحى» أن « فرعون» بهذا الإله الذى يفنى فيه كل هذا الفناء ويجد به كل هذا الوجد، أقرب إلى أن يكون إنسانًا مريضًا ، مأفون الرأى ؟!. أكبر ظنى أن كلبا مسعورًا قد نهشه بأسنانه الحادة وهو طفل صغير .. ومع أنى ما زلت على إيمانى بإلهى «حورس» فإنى لا أحس فى نفسى بغضا للإله « أمون » ، ولكن يبدو أن إله « فرعون » الجديد ، إن صح وجوده ، قد جاء معارضا لأمون ليقوى سلطان « فرعون » به ، بعد أن استفحل أمر « أمون » وعظم شأنه، واتسعت به سلطات الكهنة ومداخلاتهم ، أو هذا على الأقل هو مافهمته من أحاديث الملكة الوالدة والكاهن « آى » الذى يحمل عصا الراعى ويقف عن يمين « فرعون » فهم إذن يريدون أن يتخلصوا بالإله « أتون » من الإلة « أمون » أو فى القليل يحدون

من سلطانه، حتى لا يظل كهنته مسيطرين على شئون البلاد من فوق رأس «فرعون» ... وعلى هذا الوجه يبدو الأمر تدبيرا لمصلحة العرش وتوطيد سلطة الملك، وقد يكون ذلك معقولا ومستساغا ، ولا ضير على الناس والبلاد من أن يظهر إله جديد تتوازن به السلطات ، ولكن فرعون لا يقصر أمره على مجرد ما ينبغى لإلهه من إقامة المعابد واستخدام الكهنة لخدمته والدعاية له ، وإنما هو ، أى «فرعون» لا يفتأ مشغولا به متحدثا عنه، مصروفا بسببه عن كل شأن آخر من شئون الدولة. وما تعرض مناسبة إلا أدار الحديث عنها فى فلك هذا الإله ، فما من شيء يقع للناس فرادى أو جماعة إلا هو متصل بإرادته صادر عن أمره. ولا يزال «فرعون» يتحدث على هذا الغرار لكل جلساته والمحيطين به حتى يكونوا مثله تعلقا بإلهه وإيمانا به، يقول «فرعون» إنه يحيا بالصدق، ولكن الصدق كالمدية المسنونة فى يد طفل ، قد لا ينجو منها إذا عبث بها ، وهكذا الحاكم يجب أن يحذر الصدق ، بمقدار ما يجب أن يحذر الطفل خطر المدية المسنونة.

وقد أحس كهنة « آمون » بالخطر الذى يتهددهم بظهور هذا الإله الجديد الذى يضطلع « فرعون» بالدعاية له ، فراحوا يناهضون هذه الدعاية ويبذرون بذور الشك فى سبيلها ، واقتضاهم ذلك اختراع القصص المثير عن أصل « فرعون » تهوينا من شأنه ومن شأن إلهه ، وساعدتهم ، فى هذا ، الظروف التى تم فيها زواج الملك الجديد، وذلك أن أميرة « ميتانى » التى كان مقررا أن تكون زوجته قد لقيت حتفها بغتة ، فأحل مكانها « نفرتيتى » ابنة الكاهن « آى » ، وهى جميلة وأنيقة، ولكنها موصوفة بالعناد وصرامة الخلق، وفيها من أخلاق أبيها شيء كثير . وقد ساء الناس أن يحدث هذا ، فغضبوا ، واستغل كهنة « آمون » غضبهم فى الحملة التى يحملونها على « فرعون » وإلهه !.

وتناول « حورمحب » كأسا مترعة من النبيذ ، واستطرد قائلاً : وقد تركت «طيبة» وأنا أشد ما أكون ضجرا منها وضيقا بأهلها ، فإنها بمنازعاتها وشيوع الفرقة فيها قد أصبحت كوكر الثعابين، وقد حمدت لصقرى أن أتاح لى فرصة البعد عنها .

وكنت أفكر فيما ذكره «حورمحب» عن موت أميرة «ميتانى» ، فاستوقفته لأسأله المزيد من الإيضاح ، فإنى كنت قد رأيتها فى « طيبة» أوفر ما تكون صحة ونضارة ، وكانت وهى ذاهبة وقتذاك إلى المعبد خلال طريق «رامس» تبهر العيون ببهائها وروعة جمالها .

فقال «حورمحب» ضاحكا : قرر الأطباء أنها لم تحتمل جو البلاد ، وهو زعم لا يكاد يوجد إنسان فى مصر يصدقه كتعليل لموتها الفجائى ، ذلك لأن الناس يعلمون جيدا أن جو مصر من أفضل الأجواء وأعدلها مناخا، ولهذا فقد ارتابوا فى سبب موتها! .. على أن ثمة ظاهرة غريبة أنت تعرفها يا «سنوحى» فى حوادث الموت التى تقع بالقصر الملكى ، هى أن نسبة وفيات الأطفال بهذا القصر غير عادية، بل إنها لأكثر ارتفاعا منها فى الأحياء الفقيرة، وهو أمر يحار الناس فى تعليله، ولكنى شخصيا أرى أن للكاهن « آى » دخلا فى ذلك.

وكنا قد سلخنا من الليل أكثره فى الحديث والشراب ، فآوى كل منا إلى مرقده، واستيقظت فى الصباح على صوت النفير ، فرأيت الجنود يتتابعون ، جماعات جماعات، ورؤساؤهم برتبهم المختلفة يصدرون إليهم التعليمات . وبعد أن سويت صفوفهم خرج عليهم « حورمحب » وفى يده سوطه المضفر بالذهب، وخادمه يتبعه حاملا بإحدى يديه مظلة تحمى رأسه من وقدة الشمس، وبالأخرى مذبة يدفع بها الذباب عن وجهه ، وأخذ يخاطبهم قائلا:

يا جنود مصر : إنى أقودكم اليوم إلى معركة ينتظر الوطن منا أن نعود منها وعلى رءوسنا أكاليل النصر ، وليس شىء هو أشد خزيا وعارا على الجندى من أن يعود منهزما، فالموت فى ميدان القتال خير من الهزيمة، وقد علمت من تقارير رجالى المستطلعين أن «العبريين» يعسكرون خلف التلال ، ولم يذكروا فى هذه التقارير عددهم ، على أنهم لا شك كثيرو العدد، فقد فزع المستطلعون حين رأوهم فولوا الأدبار خوفا منهم ، فإن لم تثبتوا لهم وتردوهم على أعقابهم فأنتم غير خلقاء بأن تكونوا جنودا تحت إمرتى، وفى هذه الحال لن آسى عليكم إذا حصدوكم حصدا ، بل ربما سرنى

أن أتخلص بذلك من الجبناء الرعاديد أمثالكم لأعود إلى مصر فأنشئ جيشا من رجال أصلب عودا وأوفر شجاعة ، وأكثر استعدادا للتضحية في سبيل وطنهم ، وأشد رغبة في طلب النصر والفخار. واعلموا جميعا أنني سأكون في المقدمة ولن التفت إلى وراء لأرى من سيتبعني منكم ، فأنا ابن «حورس» ، والصقر يحلق بجناحيه طائرا أمامي ، وقد وطدت العزم على مقاتلة «العبريين» والقضاء عليهم ولو كنت في ذلك وحدى ، على أنه يجب أن تذكروا ولا تنسوا أبدا أن سوطى لايفلت مترددا ، وأنه قاس شديد العذاب ، وسأتولى به عقاب المتخلفين وتأديب الناكصين على أعقابهم ، وعهدى به أنه لا يعرف غير الموت وإراقة الدماء ... فقاتلوا « العبريين » بكل ما فيكم من قوة ، ولا تهنوا ولا تصعفوا ، فخير لكم أن تلاقوا الموت مقبلين ، من أن تلاقوه مدبرين ، وإن أعداءكم ليتخذون من أصواتكم المزعجة وسيلة إلى إشاعة الرعب والرهبة ، فصموا آذانكم عن سماع أصواتهم ولو اقتضاكم هذا أن تملئوها بالطين ، واحرصوا على أن تتراءوا لهم رجالا أبطالا غير عابئين بالموت ، فإنكم بهذا تلقون الرعب في قلوبهم، وتغلبونهم في قلتكم على كثرتهم، وعندئذ تنتهى إليكم أنعامهم وعتادهم وأقواتهم والغنائم الكثيرة التى غنموها فى إغاراتهم على المدن ، كما تنتهي إليكم نساؤهم اللواتى اشتهرن بحب الرجال الأشداء. وسيكون كل هذا لكم تتقاسمونه ، وتستمتعون به وحدكم.

وهنا صاح الجنود ، في صوت واحد ، صياح الترحيب بالقتال والانبعاث له ، ضاربين على دروعهم، بحرابهم، وملوحين في الهواء رأسهم .

فابتسم لهم « حور محب » وقال : إني لمغتبط بكم ، أيها الجنود ، أراكم هكذا تتحرقون شوقا إلى القتال، ولكن ثمة عملا يجب أن نعمله وهو أن نرسم هنا معبدا لإله « فرعون » الجديد «آتون» ، ونؤدى له مراسم التقديس والتمجيد ، وقد لا يقع هذا على رغبتكم وهواكم ولعلكم لا تؤمنون بهذا الإله الذى يكره الحروب وينهى عنها ، ولكنها مشيئة « فرعون » ، وعلينا أن ننفذها لنظفر بمرضاته ، ونمضى في حلتنا على طاعته ، وأرى ألا يعوقنا ذلك عن الواجب الأكبر وهو منازلة الأعداء ، ولهذا آمر بأن

تتجه القوات الرئيسية منذ الساعة إلى أهدافها الحربية ، وتبقى معنا هنا قوة الاحتياط لرسم المعبد وإتمام طقوسه الدينية .

وهتف الجنود مرة ثانية « لحور محب » واتخذوا وجهاتهم إلى الميدان ، فسار كل فريق منهم وراء علمه المرفوع على سارية خاصة به ، كانت شعائر الأعلام تختلف باختلاف الفرق ، فشعار إحداها « ذيل الأسد » ، والأخرى « الصقر» والثالثة « رأس التمساح»، إلى غير ذلك من الرموز التى كانت تتقدمهم بالطريق إلى ساحة المعركة، كما كانت العجلات الحربية تسير فى الطليعة لكشف الطريق وتأمينه .

على أن الضباط الذين كانت إليهم مقادة الجنود تخلفوا مع جنود الاحتياط ، وتبعوا «حور محب» إلى معبد « أتون » الذى أعد على عجل البرق ربوة فى خارج المدينة، وقد أقيم بناؤه الصغير من الخشب وملئ فراغه بالطين ، وكان صحنه مكشوفا ، ومذبحه كذلك ، على خلاف المعابد الأخرى . وقد حاول الجنود عبثا أن يروا الإله بأعينهم ، كما تعودوا أن يروا الألهة ، ولكن « حور محب » قال لهم إنه ليس كمثله فى الألهة شبيه ! هو محيط بهذا الوجود كله ، متصل بهذه الكائنات جميعها، وهو شبيه بقرص الشمس فى أعلى درجات قوتها النورانية ، فيمكنكم أن تنظروا إليه فى السماء ، إذا قويت عيونكم على احتمال الضوء ، وإن يديه لتبارككم من عليائها ، وفى رحلتكم اليوم إلى المعركة ستحسون بأصابعه فى ظهوركم كالإبر الحمراء المحماة .

وسرت فى الجنود زمجرة خافتة عندما علموا أن إله « فرعون » بعيد عن عيونهم كل هذا البعد الشاسع، فقد كانوا يودون أن يكون قريبا منهم ليخرجوا أمامه سجدا ويلمسوه بأيديهم إذا واتتهم الشجاعة على ذلك ، ولكنهم صمتوا حينما تقدم إليهم كاهن شاب غير حليق شعر الرأس ، وعلى كتفيه رداء أبيض وفى عينيه بريق أخاذ، ثم اتجه إلى المذبح فنثر عليه الزهور وصب الزيت والنبيذ ، وأخذ يرتل « لأتون» نشيدا قيل إنه من إنشاء « فرعون» ، وكان طويلا ومملا، وقد استمع إليه الجنود فاغرى الأفواة وهم لا يفهمون منه إلا قليلا : ومن هذا النشيد :

إنك أجمل مافى الأفق.

أيها الحى « آتون » مصـدر كل شىء حى .

عندما ترتفع فى السماء الشرقية .

يملأ بهاؤك وجلالك الأرضين.

فأنت عادل وقوى ومتألق فوق الدنيا .

وأضواؤك تشمل كل مافى الوجود الذى خلقته .

وكل مافى الوجود يربطه رباط حبك .

وأنت بعيد ، ولكن أشعتك تغمر الكائنات بحنان وعناية .

واسترسل الكاهن يرتل فى نشيده كلاما عن « الظلمة » و « الأسود » التى تخرج من أغراسها فى الليل خائفة ، وعن الثعابين والأفاعى والحشرات تنساب من أوكارها جزعة ، وعن غير ذلك من الكائنات والأحياء التى يخشاها الناس فيسلط «أتون» الخوف والجزع . وانتقل الكاهن من ذلك منشدا ، عن ضوء النهار والطيور التى تستقبل الصباح مرفرفة أجنحتها ، مزقزقة طروبة ، والزروع والأنعام والدواب كلها تمرح منتعشة فى أحضان من بركات ذلك الإله الخالق العظيم « أتون » .

وأنشد الكاهن كذلك أن هذا الإله الكبير يحفظ الأجنة فى الأرحام فكل ما بين الأرض والسماء منوط بإرادته ، موكول إلى أمره ، حتى الفرخ الصغير لا ينقر قشرة البيضة ليخرج منها إلا بأمر « آتون » ومعاونته. واختتم نشيده بهذه المقاطع :

أنت وحدك يا « آتون » تسكن قلبى .

ولا يعرف أحد ذلك إلا ابنك الملك .

فأنت تشاطره آراءك وأفكارك .

وأنت تمسح عليه بيد حبك وحنانك .

والدنيا كلها بين يديك لأنك خالقها .

وفي ضوئك تحيا جميع الكائنات .

ولو حجبت محياك عن الوجود لأدركه الفناء .

فأنت الحياة وكل من فيها يحيا فيك .

وكل الأبصار تتجه إلى مجدك .

وتظل كذلك إلى ساعة غروبك .

وكل الأعمال تتوقف تماماً .

عندما تسكن في الغرب .

ومنذ خلقت الدنيا كنت تعدها لابنك المرتقب .

من أجله كان الذى أبدعت خلقه .

وأنه هو الملك الذى يعيش بالصدق .

وهو سيد المملكتين «ابن رع» .

من أجل سيد التاجين خلقت الدنيا .

وكذلك من أجل زوجته المقربة الحبيبة .

ملكة المملكتين «نفرتيتى» .

التي ستعيش وتزدهر إلى الأبد كما كانت من الأزل .

وعندما انتهى الكاهن من تراتيله ، أعلن الجنود إيمانهم بالإله «آتون» ، وهتفوا تحية لفرعون العظيم ، فقد فهموا مما سمعوا أن المقصود تمجيد « فرعون » وتحيته باعتباره ابن ذلك الإله .

وأذن « حورمحب » للكاهن فى الانصراف ، فذهب مبتهجا بهتافات الجنود وتحياتهم ليكتب عن هذا الحفل تقريرا يبعث به إلى « فرعون » .

- ٤ -

سار الجنود تتبعهم المركبات تجرها الثيران وحمير النقل ، وفى طليعتهم «حور محب» مسرعا بعجلته الحربية ، وخلفه الضباط على محفاتهم، وهم من حرارة الشمس فى ضيق وتأفف ، وكنت أمتطى حماراً إلى جوار أحد رؤساء الجند ، وقد استصحبت معى صندوق العقاقير الطبية التى رأيت أنها ستكون ذات فائدة كبيرة فى المعركة ، وكانت الرحلة طويلة وشاقة لم تتوقف القافلة خلالها إلا فترة قصيرة ، تناول فيها الجنود قليلا من الطعام والشراب ليتماسكوا ومع ذلك كثير منهم يتساقطون إعياء ولا يقوون على النهوض برغم الركلات والسياط التى كان رؤساؤهم ينهالون بها عليهم ، فقد كانت أقدامهم لا تستطيع أن تحمل أجسادهم المنهوكة لفرط ما أصابها من القروح الدامية .

واقتربنا ، مع المساء من منطقة المعركة وكانت النبال عند ذلك قد أخذت تنصب علينا من أعالى الصخور المتاخمة للطريق ، وبين الفينة والأخرى كانت تنبعث من صفوفنا صيحات الذين أصابتهم هذه النبال ، ولم يكن « حور محب » ليتوقف لإنقاذهم بل يتركهم يتساقطون ، ويمضى وشيكا حتى لا تشيع الفوضى فى الصفوف ولا يتمهل سير القافلة ، وكنا على جانبى الطريق نرى جثثا « للعبريين » ملقاة فى ملابس رثه ، والذباب يتجمع عليها ، فيقف عندها بعض رجالنا بحثا عن شيء ، أى

شيء ، ولكنهم كانوا لا يجدون شيئًا .. وقال لي رفيقي وهو يلهث على حماره ، إنه يشعر بأن هذا اليوم آخر أيام حياته ، ولذلك فهو يحملني تحيته الأخيرة إلى زوجته وأطفاله .

وعلى تلك الحال من العناء والجهد والجوع والظمأ ، أشرفنا على السهل الفسيح الذي يعسكر به جنود « العبريين » ، فأمر « حور محب » على الفور بالنفخ في النفير، تجميعًا للصفوف ، وإيذانا بالهجوم ، ومن ثم انتظم الجند في الدوائر المعينة لفرقهم ، فكان حاملو الحراب في القلب ، وحاملو الأقواس في الجناحين ، واندفعت العجلات الحربية إلى مكان آخر لتؤدي دورها في المعركة متسابقة ، حتى أثارت فيما حولها غبارًا كثيفًا أخفاها عن العيون .

وخلال سحائب الدخان المتصاعد من القرى المحترقة بالأودية الواقعة تحت التلال ، كان «العبريون» مقبلين في عدد لا يحصى ، ودروعهم وحرابهم تلمع من بعيد، وصراخهم الذي يشبه قصف الرعود يكاد يوقر الأسماع .

وفي صوت مجلجل صاح «حور محب» قائلا : تشجعوا أيها الرفاق ولا يهولنكم هذا الحشد الذي تلمحونه من بعيد ، إنه ليس إلا قطعانا من الأنعام ، وأحمالا مما تتزود به «العبريون» الجبناء من أقوات وأمتعة ونساء وأطفال، وسيكون لكم هذا كله بعد قليل، فهلموا إليهم، لنأكل على رءوسهم طعاما شهيا ، فإني وحق الآلهة لأشد منكم جوعا، وإن بي إلى الطعام لنهما كنهم التمساح.

ولكن «العبريين» كانوا يقتربون منا في أعداد كأرجال الجراد كثرة وتجمعا ، وبدا واضحا أننا دونهم عددا وقوة، ولأول مرة شعرت كأني ألوم نفسي على الاشتراك في معركة كهذه ليس فيها إلا ما يخيف ويفزع ، بل ليس فيها إلا الموت ، فمن لم يمت بضربة حربة، مات بضربة شمس أو مات جائعا صاديا .

وكادت تضطرب صفوفنا ، فقد هال جنودنا أن يلاقوا ، وهم مجهدون، هذا الجيش الجرار ، وكان حملة الحراب منا أكثر اضطرابا وفزعا، على أن «الجاويشية»

(رؤساء الفرق) كانوا يحيطونهم بسياطهم ويلمون شعثهم ويردونهم إلى النظام. والواقع أن الجنود لم يجدوا من ورائهم فرجة للفرار من المعركة فاقبلوا عليها ، فما من ذلك مناص ، على حين كان «العبريون» يزدادون منهم دنوا واقترابا ، وقد ترامت علينا سهامهم وهى تئز فى الهواء كطنين النحل والذباب، وأصابنى منها ومن صيحاتهم وجل شديد، ولم يذهب عنى الروع إلا حين رأيتها تمر على رءوسنا ، فتقع منا بمبعدة أو يتلقاها الجنود بدروعهم فتتكسر عليها .

وعاد «حور محب» يصرخ فى الجند مستنهضا عزائمهم ، وهو يستبقهم إلى الأعداء، فأطلق سائقو العجلات الحربية العنان لجيادهم فى أثره، وأخذ القواسون يريشون سهامهم على قلب رجل واحد، وكذلك فعل حاملوا الحراب، والجميع يصرخون صراخا أشد إزعاجا من صراخ «العبريين» . وبهذه الشجاعة التى كان يثيرها فيهم خطر الموقف، انقضوا انقضاض الصاعقة على أعدائهم، وفى تلك اللحظة حمى وطيس المعركة واتقد أوارها، ووسط زحمتها الخانقة شرد حمارى وكاد يلقينى على الأرض ليذهب ناجيا بنفسه. وكان «العبريون» يقاتلون فى إصرار وحنق، حتى من كان يسقط منهم تحت سنابك الخيل لا ينفك يضرب بحربته ضربا دراكا حيثما وجد إلى الضرب سبيلا ، وقد قتل من المصريين كثيرون كانوا ينزلون عن صهوات جيادهم ليلتقطوا ضحاياهم من الأعداء ليكونوا فى أيديهم، دليل انتصارهم. ومن الجانبين كان تدفق الدماء يفوق تدفق عرق المحاربين !..

وفجأة صاح «العبريون» صياح الغضب واليأس، وتوقفوا عن القتال، وأخذوا يتراجعون ، إذ رأوا العجلات الحربية التى كانت قد قامت بحركة التفات حول السهل، قد اقتحمت معسكرهم ، واستولت على حريمهم ومواشيهم، فارتاعوا لذلك أيما ارتياع ، وهرعوا محاولين إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولكن العجلات الحربية المصرية عاجلتهم وأحاطت بهم وأعملت فيهم الحراب والسهام ، ولم تغب الشمس حتى كان السهل قد امتلأ بجثث القتلى منهم ، كما كان معسكرهم طعاما للنيران، ومن كل ناحية كان ينبعث خوار المواشى الهائجة الهائمة .

وأخذ رجالنا زهو الانتصار ، فأطالوا فى معركة لم يبق فيها من ينازلهم ، وأمعنوا فى جثث القتلى من أعدائهم ضربا بالحراب، بل كانوا يذبحون الجثث بعد أن فارقت الحياة ، دون أن يفرقوا فى ذلك بين رجل أو طفل ، وكانوا كذلك يسددون سهامهم إلى البهائم فى عصبية طاغية، وظلوا هكذا إلى أن استدرك أمرهم «حورمحب» فأمر بإطلاق النفير إعلانا لانتهاء المعركة، فساد الهدوء بين الجنود والضباط ، وعادوا يتجمعون حول قائدهم.

أما أنا فكنت لا أزال متشبثا بحمارى الذى لم ينفك طول المعركة يقفز ويلف ويدور. وكنت ، فى تشبثى به خلال ذلك، إنما أتشبث بالحياة التى كان هذا الحمار الأبق الجامح سيفقدنى إياها، لولا أن عاجلة أحد الجنود بضربة قوية، ثم أمسك به فنزلت عنه مستردا أنفاسى . وقد ضحك الجنود من منظرى هذا ، وطاب لهم أن يسمونى منذ ذلك الوقت «ابن الحمار الوحشى» .

وأحيط الأسرى من الأعداء بالحراسة الشديدة ، بعد أن جردوا من أسلحتهم التى أضيفت إلى الأسلحة الكثيرة الأخرى المختلفة من المعركة . وعلى ضوء المصابيح المعلقة بالخيام ووسط أكوام طعام الجنود وعلف المواشى جيء بالصندوق المقدس فوضع أمام «حورمحب» ففتحه بيده وأخرج منه «سيخمت» المعبودة ذات رأس الأسد ، وذات الصدر المنتفخ كبرياء ، واحتشد حولها الجنود وأخذوا يرشونها بقطرات من الدماء التى تسيل من جروحهم، ويضعون بين يديها أكواما من الأيدى والأعضاء المبتورة من أجسام القتلى ، علامة الانتصار، وبعد ذلك جعل « حور محب» يوزع على رجاله القلائد والأساور وشارات الشرف مكافأة لهم على حسن بلائهم ، كما أعلن ترقية البواسل منهم إلى درجات تكافئ بسالتهم، وكان هو لا يزال معفرا بتراب المعركة والدماء لا تزال تتساقط من سوطه، ولكنه كان يبدو منشرحا مفتر الثغر يواسى الجرحى من جنوده بالعبارات الحسنة المشجعة. ولم يجعلنى هذا الابتهاج الشامل الذى يغمرنا جميعا كمنتصرين كما لم يجعلنى ما عانيت من حمارى المتوحش، عن واجبى كطبيب . وقد وجدت أمامى عملا كثيرا، فإن حراب

«العبريين» وهراواتهم قد أحدثت في رجالنا جراحات شتى وإصابات خطيرة ، فعكفت عليهم أنظف جراحهم وأطهرها وأضمدها وأعيد الأمعاء إلى أجواف البطون وأرتقها . أما الميئوس من شفائهم فقد كنت أعطيهم حبوبا مخدرة وأسقيهم جعة ليقضوا اللحظات الباقية لهم من الحياة في راحة وهدوء.

ولم أغفل شأن الجرحى من أعدائنا «العبريين» الذين وقعوا أسرى في أيدينا، فعالجت جراحهم بالطريقة نفسها ، وكان اهتمامي بهم يرجع أكثر من أي اعتبار آخر ، إلى اعتقادي بأن « حورمحب» يستطيع أن يبيعهم رقيقا بثمن أغلى وهم أصحاء ولكن الكثيرين منهم لم يرحبوا بعلاجي لهم، بل لقد أثارهم وأسخطهم ، فكانوا يمزقون جروحهم بعد خياطتها وبخاصة عندما كانوا يسمعون أصوات وعويل الأسرى من الأطفال والنساء ، وكذلك كانوا يغطون وجوههم بملابسهم ويتركون جراحهم تنزف الدماء حتى يموتوا ! .. وقد أثر حالهم في نفسي وصيرني أقل شعوراً بلذة النصر، فهؤلاء البدائيون الفقراء جابوا الصحراء بحثا عن القوت والكلأ لهم ولأنعامهم ، كان يشتد بهم الجدب أحيانا فلا يجدون ثمة سبيلا غير مهاجمة البلاد السورية ، وهم مع فاقتهم القاسية وأجسامهم النحيلة ومعاناتهم الشديدة من بعض الأمراض الخطيرة وأشدها عليهم مرض العيون، فإنهم - مع ذلك ـ الأقوياء الصناديد ورجال الحرب المغاوير . وكثيرا ما أحرقوا القرى وأزهقوا الأرواح وأشاعوا الفزع في القلوب . وقد تجرعنا منهم في المعركة الأخيرة كأسا مرة المذاق . أقول إن هؤلاء، على الرغم من كل ذلك، قد أثاروا في نفسي شعور العطف عليهم حينما أبوا إلا أن يموتوا تخلصا من حياة الأسر الذليلة، وحينما أبوا إلا أن يغطوا وجوههم إخفاء لعار الهزيمة أو تواريا عن أنظار نسائهم وأطفالهم الذين كانوا يستصرخونهم فلا يستطيعون أن يفعلوا لهم شيئًا !.

وفي اليوم التالي قابلت «حورمحب» واقترحت عليه أن يقيم مصحا يبقى به الجرحى من الجنود حتى ينقهوا خشية أن يصابوا بنكسة قاتلة إذا رافقونا إلى «أوروشليم» ، فأخذ يشكرني على المساعدات التي قدمتها ويقول إنها مساعدات قيمة

ولا يستطيع أن يجزيني عليها الجزاء الحق، ثم نوه بما تحملته في هذا السبيل من عناء بالأمس ، وخاصة عندما كنت أركب حمارا مجنونا . وقال : ولقد سمعت الجنود ينادونك يابن الحمار الوحشي ، فأرى أن يكون مكانك دائما إلى جانبي فوق عجلتي الحربية حتى لا يرديك مثل هذا الحمار في معركة أخرى !.

قلت له : الواقع أنك أنت الذي ينعقد له وحدة لواء هذا النصر في هذه المعركة، فما أرى مثلك بطلا شجاعا ولا قائدا حكيما ، وقد دان لك الجنود جميعًا عن حب وتقدير، والتفوا بقلوبهم حولك، وانبعثوا بأمرك إلى القتال لا يبالون الموت ولا يحفلون بالحياة ، فكان النصر المؤزر الذي رفعتم به رأس مصر عاليا ، ولكن أتأذن لي يا صديقي القائد العظيم أن أسألك كيف نجوت من حراب الأعداء وهي تحيط بك بالميدان إحاطة السوار بالمعصم ؟! لقد رأيت بعيني هذه الحراب على مقاتلك جميعًا ، وكانت واحدة منها كافية أن تنالك بالمكروه الذي نخشاه ، ولكنك كنت لا تباليها وتمضي كأنك لا تراها، وترتد عنك كأنها تبحث عن غيرك، وهذا أمر لا يخلو من سر ، فهل تراك في حصانة من السحر ؟!.

قال : مثل هذا يجوز أن يقال عنك أيضًا يا «سنوحي» فكذلك كنت أنت في قلب المعركة، وبين الحراب المشرعة، وتحت النبال المتدافعة وعلى ظهر حمار جامح، ولم تكن تحمل حربة ولا قوسا ولا درعا، ومع ذلك فقد بقيت حيا !.. ولا أرى إلا أن هذا من حسن الحظ ، وربما جاز لي أن أقول عن نفسي إنني أعرف أن أعمالا عظيمة ندبتني الأقدار لها وإني لأؤديها مطمئنا إلى أني منها في رعاية قدرية متصلة، وقد لا أستطيع أن أقول كيف عرفت ذلك على وجه التحقيق ، ولكن الذي لا شك فيه عندي أن هناك مظاهر حسية يمكن أن نستبين منها حظوظنا ، وأحسب أني قد استبنت حظي عندما قادني الصقر إلى «فرعون» ، فهو لا يقودني إلا إلى خير ، ولو أنه فيما يخيل لي لا يستطيب المقام في القصر الملكي ، فإنه منذ قادني إليه لم يعد يلم بي ، وقد حالفني التوفيق بفضل مقادته في كثير من الأمور ، وعندما كنت أتقدم الجنود على عجلتي الحربية مع بعض الرفاق لكشف الطريق

وإخلائه من وحوش الصحراء التى كنا نتقيدها بسهامنا ، رأيت من بعيد نارا تلوح مشتعلة بأحد الأودية على شكل شجرة تحترق ، وقد صعد إلى أنفى من الأرض المحيطة بها رائحة غريبة لم تلبث أن دارت فى رأسى وسرت إلى أعضاء بدنى فأحالتنى إنسانا آخر لا يشعر بشىء من الجوع والظمأ ، ولا بشىء من العناء والوهن ، وإنما يشعر بالقوة والشجاعة فى أعلى درجاتها ، فأدركت أن تلك علامة الظفر والنصر ، وزادنى شعورا بذلك أن أحدا من رفاقى لم يشهد هذه النار فكأنما أراد القدر الذى يرعانى ويحالفنى أن يختصنى بها دون غيرى ، تثبيتا لقلبى وإنعاشا للأمل فى صدرى ، ومن ثم فقد خضت المعركة غير هياب ولا وجل متحصنا بالقوة الخفية التى تدرأ عنى الموت، وتحمينى من الأخطار ، وها أنتذا ترى أن الحرب والسهام والهراوات وما إليها من أسلحة المعركة لم تنل منى منالا ، ولم تقع منى على مقتل ، مع أنها كانت تطوقنى وتحدق بى من كل جانب ، فذلك هو الحصن السحرى الذى تسألنى عنه.

قال «حورمحب» هذا ، فلم يسعنى إلا أن أوافقه ، متأثرا ، فقد كنت لا أرى ثمة سببا يدعوه إلى اختراع قصة كهذه ، هى فى ظاهرها أقرب إلى الخيال منها إلى الحقائق.

ووزع « حور محب » فى اليوم الثالث فرق الجنود، فأرسل فرقة إلى «أوروشليم» ومعها الغنائم والأسلاب لبيع الرقيق والأمتعة والحبوب وعهد إلى فرقة أخرى برعى المواشى ، ومضى هو ببقية الجند على العجلات الحربية مقتفيا آثار الفارين من «العبريين» بعد أن عرف من بعض أسراهم أنهم قد حملوا معهم إلههم ، واصطحبنى معه على عجلته التى كانت تسير بسرعة جنونية ، ملأت قلبى خوفا على حياتى، فكنت أتعلق به متخيلا لفرط فزعى، أننى بذلك أتقى السقوط من فوق العجلة وهى تترنح بين أغوار الطريق، وأنجاده، وكانت هذه منى محاولة لا قيمة لها فى الحقيقة ، فإن إمساكى به فوق العجلة المجنونة لا يمكن أن يعصمنا من الخطر إذا ما انقلبت ، وهو كذلك لا يمنعها من الانقلاب إذا قدر لها أن تنقلب ، ولكن الأمر عندى فى ذلك

الوقت كان شبيها بالغريق الذى يحسب أن القشة التى يمسك بها ستقيه خطر الغرق ! ..

وقد رآنى « حورمحب » على تلك الحال من الفزع والخوف فقال لى ساخرا ، إنه يروضنى على مخاطر الحروب وأهوالها لأبلوها وأعتادها ، فينبغى أن أثبت لها لأكون خليقًا بلقب المحارب الشجاع.

وبهذه السرعة المخيفة التى كانت تسير بها العجلات أدركنا فلول «العبريين» الذين ظنوا أنهم نجوا من الموت ، فانصبت عليهم العجلات الحربية انصباب الصواعق وراحت تحصدهم حصد المناجل ، لا تفلت منهم طفلا ولا امرأة .

وشهدت من هول هذه المعركة مالا أنساه أبدا، واستطاع « حورمحب » أن يلقى بها على « العبريين » درسا قاسيا، فلا شك أنهم بعد ذلك لن يعودوا إلى شىء مما ألفوه من الإغارة على البلاد السورية ونهبها ، حتى لو ماتوا فى الصحراء جوعا.

وتعقب «حور محب» أولئك الذين كانوا قد حملوا إلههم وفروا به، فأوقع بهم وأشعل النار به أمام الإلهة «سيخمت» على مشهد من الجنود الذين انتفخت أوداجهم زهوا واستكبارا ، إذ يرون إله «العبريين» يذهب طعمه للنار . وكان اسم هذا الإله « ياهوى» ، وهو أعز شىء عند «العبريين» ، ومنه كانوا يستمدون القوة فى غاراتهم وحروبهم ، فخسارتهم فى المعركة ، إذن ، فادحة إلى أقصى حد .

– ٥ –

عاد بنا «حورمحب» إلى «أوروشليم»، وكانت يومئذ تموج باللاجئين إليها من البلدان المتاخمة ، وأشرف على بيع مالم يكن قد بيع من الغنائم ، وكان الأهالى الذين يشترون منها الأمتعة والحبوب يشعرون بمرارة قاسية؛ لأنها كانت قد نهبت منهم ،

وكانوا لذلك يطمعون فى أن تعاد إليهم بلا مقابل ، ولكنهم لم يجدوا سبيلا إلى استعادتها سوى شرائها بالثمن كأنهم ليسوا أصحابها ، وقد اضطروا أن يقترضوا أثمانها من معابدهم ومن التجار ومن جباة الضرائب الذين وفدوا على « أوروشليم » من كل أنحاء « سوريا » ، وبهذا استطاع « حور محب» أن يحول الغنائم إلى ذهب وفضة . وقد جعل لكل جندى من هذا المال نصيبا . وراح الجنود بما أصابوا من ذلك يسرفون فى الطعام والشراب والترفيه عن أنفسهم ، فازدادت «أوروشليم» ازدحاما وضجيجا وراجت الحركة التجارية رواجا كبيرا ، ورأى « حورمحب » هذا ، ففرض على التجار ضرائب مختلفة اجتمع له منها مال كثير.

وذهبت إلى « حورمحب» أستأذنه فى السفر إلى « أزمير» فقال : إن المعركة انتهت فى بدايتها وواتانا فيها النصر العاجل ، وما كان أمرها ليكون كذلك لولا أننا خضناها شجعانا أشداء على أعدائنا ، ولكن « فرعون » لم يرضه منا ذلك ، فقد بعث إلى بكتاب يلومنى فيه على أنى خالفت أمره فأرقت الدماء ، ويأمرنى بالعودة إلى مصر بجنودى لأسرحهم وأبعث بأعلامهم إلى دار الحفظ بالمعبد. وإنى لفى حيرة من هذا ، فهؤلاء الجنود الذين يأمر بتسريحهم ، هم الفرق المدربة فى «مصر» ولن نجد سواهم يملأ فراغهم فى قوة الجيش ، فكل من عداهم لا يصلحون لشىء فى هذه الناحية . والواقع أن «فرعون» قد استسلم استسلاما خطيرا لفكرة السلام التى لا أراها فى عالمنا إلا وهما وخيالا ، وأصبح ميسورا غاية اليسر ، أن تكتب الألواح فى بيته الذهبى عن شرف الآلهة ، وترتل الأغانى فى المحبة التى تسود البشر ، كما أصبح من العسير ، غاية العسر ، أن يجنح إنسان إلى فكرة الحرب، أو يتظاهر بالرغبة فيها ، فهو، فى نظر « فرعون » يعد خائنا لرسالة «فرعون» الإلهية ، رسالة السلام والحب وإمكان تآخى الامم من غير إراقة دماء. على أن « فرعون» لو رأى ما رأينا من وحشية « العبريين»، ولو استمع إلى أنين الرجال وعويل النساء فى القرى التى أحرقوها لما كان له فى الحرب مثل رأيه الآن ! ..

فقلت « لحور محب » : وماذا تخشى ؟! لقد قضيت على « العبريين» ولا يمكن أن يفكروا مجرد تفكير فى تجاوز العلامات التى أقمتها على الحدود ، ومصر الآن ذات ثروة ضخمة ورخاؤها عام ، وهى لا تحتاج إلى مزيد تسعى إليه محاربة أو تطلبه بمظاهر القوة والإرهاب ، فليس ثم ما يخفيك إذا تم تسريح الجنود على هوى «فرعون» وإرادته .

قال « حورمحب » . إنك يا «سنوحى» كالآخرين ، تأخذون الأمور بظواهرها وتحسبون السراب ماء ، ولا تلتفتون إلى ما وراء ظهوركم .. والحقيقة التى ينبغى أن تعرفها ويعرفها أمثالك ، أن مصر تخطئ إذ تؤثر الانطواء على نفسها فى ذلك العالم المتسع الفسيح، الذى تغلى فى كثير من أرجائه مراجل ثورات مخربة مدمرة ، ولعل أقرب مثل على ذلك أن ملك « عمورية » يعمل جادا فى جمع الخيول وصنع العجلات الحربية، فهل تحسبه يفعل ذلك لمجرد الزينة حتى يبدو أكثر اقتدارا على دفع الجزية لفرعون ؟! . ثم ماذا يمكن أن تعبر عنه أحاديث كبار رجاله حين يذكرون فى ولائمة واجتماعاته أن « عمورية » كانت فى وقت من الأوقات تحكم العالم؟! أليس فى هذا وذاك معنى الاستعداد والتهيؤ لأمر يخفونه الآن ليظهروا به غدا ؟؟ وهل يجوز لمصر لقاء ذلك أن تنام ملء جفونها إيثارا للسلام المزعوم ؟! .

وهنا ذكرت « عزيرو » ملك « عمورية » ، فقلت « لحورمحب » : إننى أعرفه ، بل هو صديقى ، فقد عالجت أسنانه وأصلحتها وموهتها بقشر الذهب ، وأكبر ظنى به أن فى عقله خبلا ، وأن إحدى زوجاته تتحكم فى تصرفاته !.

وصادف هذا القول ارتياحا عند «حورمحب» فقال : حسنا .. وإنك يا «سنوحى» لمأمول الخير فيما يجب أن تؤديه لبلادنا من خدمات ، فأنت أكثر من غيرك إحاطة بالأمور وأوسع علما بأحوال البلدان ، وفى وسعك وأنت الحر الطليق أن تنتقل من مدينة إلى أخرى ، وتكشف عن كثب خفايا شئونها . ولو كان لى مثل حريتك ونشاطك لما ونيت ولا كففت عن الرحيل إلى سائر الممالك والأقطار ، مستزيدا من المعرفة والاطلاع ، كنت أشخص إلى بلاد «ميتانى» و «بابل» وأتعرف الكثير من

العجلات الحربية التي يصنعها أو يستعملها «الحيثيون»، وأستشف الوسائل التي يدربون بها جنودهم ، كما كنت أقصد إلى الجزر في البحر لأرى السفن الكبيرة التي تتناثر علينا أنباؤها غير مفصلة .. كنت أفعل هذا وكل ما هو من هذا بسبيل ، ولكنني لا أستطيع للأسف ، لأن اسمي معروف في كل أنحاء سوريا، وحركاتي كاسمي تقترن بالشهرة والمعرفة، وهذا يقيدني ولا يهيئ لي فرصة التجول والارتحال ، ويحول بيني وبين الحقائق السافرة ، وليست هكذا حالك، فأنت تلبس ملابس السوريين وتحسن الحديث بلغتهم ولسانهم وتجيد إلى ذلك لغة أخرى يعرفها المتعلمون في سائر أقطار الدنيا ، ثم إنك فوق هذا طبيب ، وقلما يخطر بذهن أحد أنك تعني بشيء مما يدور حولك غير ما يقع في نطاق مهنتك ، وحديثك في عمومه يجري مع الناس هينا يستميلهم إليك ولا يريبهم فيك، وقلبك بعيد الغور يختزن الأسرار والملاحظات ولا يفشيها .

قلت له : قد يكون كل هذا صحيحا ، ولكن ماذا تعني ؟!

قال : أعني أن تذهب إلى تلك البلاد مزودا مني بمقدار من الذهب، فتباشر بها أعمالك كطبيب، وهنالك سيكون لك باقتدارك الفني مكان مرموق وشهرة بعيدة في علاج المرضى وشفائهم، فيقبلون عليك، ويطمئنون إليك، ويمهد لك هذا سبيل الاتصال بالأغنياء وأصحاب النفوذ والملوك، وهؤلاء في أغلب الأحوال أكثر طلبا للأطباء المهرة ، وعندئذ تستطيع أن تنال مودتهم وثقتهم فيتكشفون لك ، وتعرف من حيث لا يشعرون دخائلهم وأسرارهم، وإذا عدت إلى مصر أفضيت إلي بها ! .

قلت : ولكنني لا أنوي العودة إلى مصر، ثم إني لا أحب أن يكون مصيري أن أعلق من أعقابي على الجدران في بلد أجنبي .

قال «حورمحب» : أما إنك لا تنوي العودة إلى مصر ، فذلك أمر أشك فيه كثيرا، فأنت عائد حتما إليها مهما يكن رأيك فيها الآن، ذلك أن الذي شرب من مياه النيل ولو مرة واحدة لا يبترد ظمؤه في مكان آخر ، حتى الطيور والعصافير تمضي في

تحليقها بعيدا عن شواطئه، ثم تنقلب عائدة إليه، كأنما تجذبها إليه قوة خفية ساحرة ، وأما التعليق فوق الجدران فشيء بعيد الاحتمال ، بل هو متوقع على أى صورة لرجل فى مثل حصافتك واتزانك وسعة حيلتك، وأنا لم أدعك إلى مقارفة إثم هناك ، ولم أطلب إليك أن تخرق قوانين تلك البلاد، وما دام شيء من هذا لا يحدث فليس ثمة ما يدعو إلى الخشية والخوف ، على أنه إذا اقتضاك الأمر أن تطوف بنظرك ودراساتك فى مرافقهم ومنشآتهم ، فإن هذا لا يثير ارتيابهم بك، فكثيرا ما نرى فى كل البلاد ميلا إلى اجتذاب الغرباء والسائحين ليشهدوا معابدها وآثارها ومرافقها على العموم، وهى تفعل ذلك للمفاخرة وإشاعة الأحدوثة الحسنة عنها ، إلى جانب ماتفيده من أموال الوافدين عليها حيث ينفقونها فيها خلال إقامتهم ، وسيكون لك من هذه الناحية المكانة الحسنة بفضل ما بيدك من ذهب تنفقه بينهم سخيا !.

فأنت ترى أنه لا بأس عليك في بلاد يغمر الجهل أهلها ، ولا سابقة لهم بمثل أساليبك الطبية البارعة ، وفى وسعك أن تتصور ماذا سيكون لك من الشأن بين قوم لا يعرفون وسيلة لعلاج شيوخهم ومرضاهم، فيضربونهم بالفؤوس أو يقذفونهم إلى الصحراء ليموتوا، وفى اعتقادهم أن هذا خير ما ينبغى أن يفعلوا ليريحوهم ويستريحوا منهم !.. والمأثور عن ملوكهم أن فيهم كبرياء ، فهم لهذا يهتمون بعرض جنودهم المدربين على أعين الغرباء ، وستجد فى ذلك فرصتك المواتية لمعرفة ما أرجو أن تعرفه جيدا عن تسليح جنودهم وعدد عجلاتهم ، إلى ما يتصل بذلك من أنواعها وأحجامها، وهل هى كبيرة ثقيلة أو خفيفة صغيرة ، وهل تحمل كل عجلة منها رجلين أو ثلاثة ؟! ولن يفوتك أن تعرف ما إذا كان الجنود يتناولون غذاء كافيا ، ومبلغ ما يكونون عليه من قوة وضعف . وقد قيل إن « الحيثيين » اكتشفوا معدنا جديدا يصنعون منه أسلحتهم ! ويهمنى أن تعرف ما إذا كان ذلك صحيحا ، كما يهمنى أن تعرف – على وجه خاص – قلوب الحكام ومستشاريهم، وما يدور فى رءوسهم من أفكار واتجاهات .

وكان «حورمحب» يقول هذا وفى عينيه مثل بريق الجمر المتقد ، وتقع كلماته على أذنى كأنها نفث السحر فتسرى فى مشاعرى جميعًا . وخيل إلى لقوة أثرها فى نفسى أننى أتلقاها من رجل عظيم رهيب ، فانحنيت أمامه مستسلمًا ..

فقال مبتسما : لعلك قد آمنت الآن بأنى رجل ذو سلطان ؟!.

قلت له : هذا صحيح . ولا شك عندى فى أنك ، على ماقلت لى من قبل ، قد خلقت للزعامة والبطولة والسيطرة على الكثيرين ، وإنى لماض على أمرك ، وأرجو أن أكون ، كما تريد ، عينك الباصرة ، وأذنك الواعية . وعسى أن أوفق فى هذا ، وثق بأنى باذل أقصى ما فى طاقتى، لا لأنك معطينى ذهبا ، بل لأن صداقتك عندى أعز منزلة من الذهب .

قال : ولن تندم يوما على هذه الصداقة ، وإنى من جانبى لأقدرها قدرها ، ولكننى ، فيما قررت أن أزودك به من الذهب ، لا أقصد أن أوجرك به، وإنما قصدت أن أجعل منه أسبابا تصل بها إلى أهدافنا المشتركة ، وسترى أنك بحاجة إليه هناك ، فإنى لا أعرف من طبائع الناس مالا تعرف وقد اخترت هذه الوسيلة للتسلل إلى خفايا القوم وأسرار خططهم؛ لأن الفراعنة اعتادوا أن يبعثوا عن طريق الرسميات السافرة رجالا يمثلونهم فى بلاط البلاد الأجنبية، وكان مفروضا أن يكونوا فى وظائفهم هذه عيونا راصدة ترى كل شىء وتنقله، ولكنهم لا يكادون يعرفون واجباتهم على هذا النحو ، فليس يعنيهم إلا أن يظهروا فى تلك البلاد على صورة من الأناقة وحسن الهندام، وأن يحرصوا على مراسم التشريف دون سواها فهؤلاء يذهبون ويعودون من غير أن يؤدوا عملا ذا نفع لبلادهم ! .

واقترب «حورمحب» منى متأثرا ، فقبلنى وضمنى إلى صدره وقال: إن قلبى يخفق أسى لفراقك يا «سنوحى» ، وقد كنت أود أن تكون دائما إلى جانبى فكلانا فى هذه الحياة وحيد ، وقلبى كقلبك تهصره الوحدة وتثقله الهموم والأسرار ، ولكن واجب العمل لمصلحة بلادنا وخيرها يعلو على كل اعتبار خاص، ونحن نفترق الآن فى سبيل هذا الواجب ، لنلتقى فى القريب أسعد لقاء.

ثم أعطاني ذهبا كثيرا ، أكثر مما كنت أتصور ، وأرسـل معي حارسا رافقنى حـتى بلغت الشـاطئ آمنا من لصــوص الطريق. وهناك أودعت الذهب فى إحـدى الشركات التجارية، وأخذت بقيمته ألواحا على حسابها وركبت السفينة مبحرا إلى « أزمير ».

يوم الملك الزائف

- ١ -

استقبلني « كابتاح » في « أزمير» مهللا ، وألقى بنفسه عند قدمي وهو يبكي من فرط تأثره بالفرح ، وقال: لا أرى في أيامي على كثرتها يوما هو أسعد من يومي هذا ، ذلك لأنه اليوم الذي أراك فيه ، على يأس من عودتك ، فما كنت أحسب إلا أنك قد لقيت حتفك في المعركة ، وكثيرا ما تعذبت كلما تصورتك صريعًا هناك تحت سنابك الخيل أو مذبوحا بحراب المقاتلين الأشداء القساة . وحقا لقد كانت مخاطرة جنونية أن تذهب إلى ميدان حرب وأنت الذي لا سابقة لك بالقتال ولا تحذق فنا من فنون النضال ، وقد نصحتك وحذرتك فلم تحفل بنصحي وتحذيري، ولهذا كنت قلقا عليك أشد القلق، ولم يخفف عني أنني وريثك الوحيد وأن أموالك الكثيرة المودعة عند تجار « أزمير» ستصبح كلها ملكا لي ، لو أن الذي قدرته وقع فلم تعد ، فالآن يسرني سرورا عظيما أن يحفظك «جعراننا» المقدس ويحميك ، ويدفع عنك الشر، وينجيك من الموت ويردك في عيني سالما من المكروه ، والحق أنه إله قوي عظيم يرعانا ولا يتخلى عنا ، ولا نستطيع أن نفيه حقه من الحمد والشكر، ولست حزينا، وأقسم لك ، لأني حرمت من ثروتك الكبيرة باعتباري وارثك الوحيد ، فإن ما أجد من عطفك وحنانك لهو خير عندي من هذه الثروة ، ولم أفكر البته، طوال غيبتك ، في أن أمد يدي إلى شيء من أموالك ، بل لقد حفظتها وحرصت عليها كما لو كنت معي.

وعلى هذا الغرار ظل « كابتاح» يثرثر ويبدئ ويعيد ، وهو يغسل قدمي ويصب الماء على يدي ، ويغدو ويروح مفتنا في تحيتي وإعداد وسائل راحتي.

ولكني قطعت عليه سبيل هذه الثرثرة وهذا الفرح المسرف، قائلا له : دعنا من هذا ، وعليك الآن أن تأخذ في إعداد متاعي ، فإنني من الغد مرتحل إلى أرض

«ميتاني» و« بابل » وجزر البحر ، وهي رحلة طويلة قد تستغرق سنوات ذات عدد، وستكون محفوفة بالكثير من الصعاب والمتاعب .

فصرخ جزعا وقال : ما هذا ياسيدى ؟! .. أيطيب لك أن تشقيني وتعذبني بهذه التصرفات العجيبة ؟ ليتني لم أكن ولدت في هذه الدنيا . فإني لا أكاد أسعد فيها يوما حتى تلاحقني التعاسة والحسرة أياما ، ولقد كانت رحلتك لشهر أو شهرين تكرثني وتقض مضجعي وتسهد عيني، فكيف تكون حالي وهذه رحلة إلى سنوات ؟! فإذا أصررت عليها ولم تستجب إلى رجائي في أن نبقى هنا قانعين بحالنا ، فإني مرافقك فيها ، إذ لا أستطيع البقاء بدونك كل هذا الزمن الطويل.

ولم يكن لدينا منفسح من الوقت نضيعه في نقاش تغلب عليه بلاهة « كابتاح » الذي لا تزيده السنون إلا خبلا وعقم تفكير ، فأشرت عليه بالكف عن ثرثرته فاستسلم على مضض ، وراح يعد المتاع ويعد نفسه كذلك لمرافقتي في الرحلة .

وفي الغد التحقنا بقافلة متجهة إلى سوريا الشمالية، إذ إن «كابتاح» كان قد أقسم من قبل ألا يضع قدما على سفينة . وقد أتاح لي السفر بهذه القافلة أن أرى أشجار « الأرز » في لبنان . تلك الأشجار الباسقة التي يستخرجون منها الأخشاب القوية الأعراف ، الطيبة العنصر، ويستخدمونها في بناء القصور وتأثيثها ويصنعون منها قارب « آمون » المقدس .

ولم تكن الرحلة على طولها مضنية ، ولم تقع فيها حوادث مثيرة ، خلافا لما يحدث أحيانا في خطوط السير الطويلة عبر الصحراء والجبال كهجوم اللصوص وقطاع الطريق. وكنا نجد في الفنادق القائمة بالطريق الراحة والنظافة والطعام الشهي والشراب العذب. وفي بعض المحطات التي وقفنا بها كان هناك بعض المرضى فتوليت علاجهم . وقد استرعى هذا أنظار المسافرين فأحاطوني بغير قليل من التكريم ، وكنت بينهم أقتعد كرسيا موطأ على ظهور حمير . وكانت الرياح المتقدة بالحرارة تلفح وجهي ، ولكني كنت أدلكه بالزيت . وهكذا لم أشعر في الرحلة

بالعناء الذى كنت أتوقعه . وقد سرنى خلالها ، أكثر من كل شيء ، أشجار « الأرز » بضخامتها وشذاها العطر ، وعلى مقربة منها مسارب الماء الصافية وجداوله الرقراقة ، وعيونه الثرة. والحق أن « لبنان » ، هذا القطر الجميل ، يمتاز بهذه الظواهر الطبيعية التي يظن من يراها أن أهله من أسعد الناس بها على وجه الأرض ، وقد ظل هذا رأيي فيهم إلى أن رأيت الأرقاء الذين يقطعون الأشجار ويشقونها ليرسلونها إلى سفوح التلال فشاطئ البحر ، فقد كان هؤلاء على صورة من التعاسة تثير الأسى والإشفاق . فسواعدهم وسيقانهم لم تكن تتفصد عرقا فحسب ، بل كانت كذلك مرعى القروح التى تتنزى قيحًا وصديدا ، بسبب ماتصاب به جلودهم من تمزقات أثناء قطع الأشجار وتسويتها بالآلات الحادة دون أن يجدوا أية عناية بهم .

وأخيرا وصلنا إلى مدينة « قادش» وفيها حصن وحامية مصرية ، ولكننا لم نجد حول أسوار الحصن أى مظهر من مظاهر الحراسة ، فقد كان الضباط والجنود يقيمون بالمدينة مع أهليهم ولا يظهرون للعمل إلا حينما يحل موعد توزيع الحبوب والبصل والجعة من مخازن فرعون . وقد اضطررنا إلى البقاء بهذه المدينة أياما قضيتها فى علاج « كابتاح » من بعض قروح أصيب بها ، وفى هذه الأيام عالجت كذلك الكثيرين من المرضى .

وفى مدينة « قادش » بدت حاجتى إلى خاتم ينقش عليه اسمى لاستعماله فى التوقيع على الألواح ، فصنعت خاتما على حجر نادر يرمز إلى مكانتى ، فالأختام هناك تختلف عنها فى مصر ، وهى لا توضع فى الإصبع وإنما تعلق فى الرقبة على شكل أسطوانة ، ولا يستعملها الفقراء وغير المتعلمين ، فهؤلاء يبصمون بأصابعهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

ومضينا فى رحلتنا فاجتزنا الحدود إلى « نهارانى » من غير أن نجد عائقًا ، وبلغنا نهرا قيل لنا إنه فى أرض « ميتانى » ، وأدينا رسوما كان على المسافرين أن يؤدوها لجباة راصدين . وعندما عرف الناس في هذه البلاد أننا من المصريين أخذوا يرحبون بنا ويحيوننا باحترام ، ويقولون لنا : إنهم مسرورون إذ يروننا ، فقد مضى

عليهم زمن طويل لم يروا فيه وجوها مصرية ، وهم يشعرون بكثير من القلق لأن « فرعون » لم يبعث إليهم جنودا أو أسلحة أو ذهبا ، وإن ثمة شائعة قد سرت إليهم هي أن فرعون قد اتخذ إلها جديداً لا يعرفون عنه شيئا ولا حاجة بهم إليه . وهم في غنية عنه بإلهتهم « عشتروت » إلهة الحب والجمال ، إلى آلهة أخرى ترعاهم وتحميهم وتمنحهم الخير والبركة .

وقد دعاني هؤلاء لزيارتهم بمنازلهم واحتفوا بي وأقاموا لي الولائم كذلك فعلوا مع «كابتاح» الذي لم ينظروا إليه بوصفه خادما وإنما نظروا إليه بوصفه مصريا . وقد أعجبه هذا التكريم فقال لي : إن هذه البلاد طيبة كريمة وفي أهلها سذاجة ، وهي لنا مرتع خصيب وحقل مثمر ، الخير في أن نبقى بها ... ولكنني كنت في شغل عنه وعن آرائه بالمهنة التي ندبني إليها « حورمحب».

وكان الملك وحاشيته قد انتقلوا في هذا الوقت إلى أعالي الجبال إذ كان اليوم حاراً ، ولم أشأ أن أصعد إليهم مؤثرا أن أتعرف أحوال بلدهم في بيتهم فاتصلت بالناس على اختلاف مراكزهم الاجتماعية ، كبارهم وصغارهم على السواء ، وكانوا جميعا ، كالذين تحدثوا إلينا فور قدومنا ، يشعرون بالقلق ويشكون من انقطاع المدد المصري عنهم ، ويرون أن بلادهم أصبحت في مهب رياح عاصفة. والواقع أن «ميتاني» في ذلك الحين تقوم على موقع لا يوحي بالأمن والطمأنينة ، فعلى حدودها من الشرق مملكة « بابل »، ومن الشمال تربض قبائل متوحشة، ومن الغرب بلاد الحيثيين وأهلها صدر خوف ورعب .

وأهل «ميتاني» ذوو أجسام ضامرة ، ونساؤهم جميلات وأطفالهم ضئال مثلهم حتى إنهم ليشبهون الدمى ، والشيوخ والشباب معا يتفاخرون أنهم كانوا فيما مضى قوما أشداء دان لهم يوما الشمال والجنوب والشرق الغرب ، فهم يعيشون على ذكريات ماض يبالغون في تعظيمه ، شأنهم في ذلك شأن سائر الشعوب التي تشعر بالنقص في حاضرها فتطلب الكمال في ماضيها ! .

على أن الحقيقة المعروفة عن هذه المملكة هى أنها منذ صار أمرها إلى الفراعين العظام كان « فرعون » يتخذ من بنات ملوكها زوجات له يقمن فى بيته الذهبى ، وقد زادت علاقتها بمصر ، بهذه المصاهرات ، توثقا وتوطدا ..

والذى عرفته إجمالا أن عناية الفراعنة بهذه البلاد وتدعيمهم لعروش ملوكها وإغداقهم عليها الذهب والسلاح والبضائع، كان دافعهم إلى ذلك كله أنها تعتبر بحكم موقعها درعا تتقى به مصر وسوريا هجمات البابليين المتوحشين من أهل التخوم القريبة ، وقد ظلت تتلقى هجماتهم كلما ثاروا على سلطان مصر . وكانت بما يتوافر لها من المدد الفرعونى المتصل ، تصدهم دائما وتلزمهم حدودهم ، وهذا هو السبب فى مباهاتهم بقوتهم التى يحسون أنها قد وهنت .

ومع أن الشعب « الميتانى » يلوح منهوك القوى لطول ماعانى فى دفع المغيرين ، فإنه كان كذلك يلوح غير عابئ بذلك، فأكثر هم الناس هناك منصرف إلى الطعام الذى يطهونه بطرق مشهورة ، وهم دائمو الاحتفال بملابسهم الرشيقة وأحذيتهم المدببة وقلانسهم الطويلة، وفى أحاديثهم ومعاملاتهم رقة وظرف ، فالحياة عندهم فى عمومها وديعة هادئة ، حتى بيوت الملذات لا يقع فيها شغب أو شجار ، وكثيرا ما كنت أشعر بالسأم كلما ترددت عليها لأشرب فيها كئوسا من النبيذ .

وكان أطباؤهم فى مستوى عال من المعرفة ، ويعلمون من فنون الطب أكثر مما أعلم ، وقد أفدت منهم خبرة وتجارب ، وبخاصة فى علاج فقد البصر الذى كانوا يستعملون فيه الأبر ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون شيئا عن فتح الجماجم ، وكانوا يقولون إن أمراض الرأس لا يستطيع شفاءها غير الآلهة . ولعل هذه العقيدة هى التى صرفتهم عن دراسة عملية جراحة الجمجمة التى حذقناها فى مصر . وعلى وجه عام كانت « ميتانى » أوفر حظا من غيرها فى مجال الطب ، ولكن الناس مع ذلك ماكادوا يعرفون أننى طبيب حتى أخذوا يهرعون إلى زيارتى مصحوبين بمرضاهم ، ذلك لأنهم مشغوفون بالغرباء ، يجرون وراء كل جديد . وهذه الظاهرة واضحة كل الوضوح فى شئونهم المختلفة ، فأزياؤهم وطعامهم وحركات سيرهم يغلب عليها

التنافس في محاكاة الأجانب والأخذ عنهم ، حتى إنهم لا يشربون من النبيذ إلا المستورد من الخارج ، ولهذا أقبلوا عليّ لعلاج مرضاهم مع وفرة الأطباء المهرة عندهم . وكان النساء يتوافدون عليّ كذلك ويكاشفنني بالخفى من أمراضهن ، وبما يعانين من عجز أزواجهن ، فأعطيهن الدواء المناسب لكل حالة، وأصنع لأزواجهن «حبوبا » يتناولونها مع النبيذ . وقد رأيت في هؤلاء النسوة جنوحا إلى الحرية الفضفاضة ، ولعل هذه الحرية هي سبب قلة النسل عند بعضهن ، وانعدامه عند أكثرهن ، وكان واضحا أن ثمة خطرا يتهدد مستقبل تلك البلاد إذا ظل عدد سكانها في هذا التناقص الملحوظ .

والناس هنالك ضعاف امتحنوا بجيرانهم الحيثيين الذين لم يكن على ظهر الأرض - كما يروى عنهم - قوم أشد منهم قسوة وصلابة وغلظة ، ولهذا كانوا دائما ينالون جيرانهم «الميتانيين» بالأذى ويلاحقونهم بالمساءة والضرر، فيرفعون أحجار الحدود الفاصلة بينهم ويضعونها حيثما شاءوا من مواضع ، ويطلقون مواشيهم وعجلاتهم في حقول « الميتانيين » خلف الحدود ، فإذا حاجوهم في ذلك أو حاولوا منعهم ساموهم العذاب النكر ، وقطعوا أيديهم وأرجلهم أو نزعوا جلود رءوسهم وجعلوا منها أستارا متدلية على عيونهم حتى لا يروا أحجار الحدود عندما ينقلونها من أماكنها ، أو لا يروا مواشيهم وعجلاتهم وهي تمضي في مزارعهم فتلتهمها وتخربها . وقد قيل لي الكثير من اعتداءات « الحيثيين » وشناعة أعمالهم . وكان «الميتانيون» يرونهم شرا عليهم من الجراد الذى كان يفاجئهم بأسرابه وأرجاله فيأتي على زروعهم وثمارهم ومراعيهم ، ذلك لأن الأرض تعود بعده فتعوضهم عما فقدوه ، أما «الحيثيون» فكانوا لا يتركونها صالحة للإنبات ، فعجلاتهم الثقيلة ، حيث تمر ، تمحل الأرض وتفتت عناصر حيويتها .

وقد زهدتني تلك الحال في الإقامة الطويلة بينهم ، فأزمعت الرحيل عنهم ، مكتفيا بما عرفت من دخائل أمورهم ، ولكنني أحسست أن أطباء «ميتاني» يظهرون ارتيابهم في مقدرتي على جراحة الجماجم ، فتلبثت في فكرة الرحيل راجيًا أن

تواتيني فرصة قريبة للقضاء على شكوكهم . وقد تحقق هذا الرجاء عنما ساقت الظروف إليَّ رجلا نابه القدر ، جاءني يشكو مرضًا في أذنيه ، ويقول: إن فيهما ما يشبه هدير البحر المستمر ، وإن آلاما شدادا تتجمع في رأسه حتى ليكاد ينفجر ، وإنه يتعذب من ذلك عذابا إن لم يجد من يبرئه منه ، فهو يؤثر الموت العاجل ، ثم قال إن أطباء « ميتاني » قد عجزوا عن علاجه ، وهو يرجو أن يجد المعجزة التي لم يستطيعوها .

وقلت للرجل : قد تبرأ من علتك هذه إذا فتحت جمجمتك ، ولكنها عملية غير يسيرة فليس ينجو منها أكثر من واحد في المئة ! ..

فقال : ذلك أمر يهون على أية حال ، وخير لي أن أموت على يدك في طلب الحياة ، من أن أموت بيدي فرارا من هذا العذاب المتصل، فما جدوى الحياة عندي مع هذه الآلام القاسية ؟! . على أنه لو قدر لك أن تبرئني منها فإني لمعطيك – مغتبطا – نصف ما أملك ، وهو كثير .

وفي اهتمام كبير أخذت أفحص عن علة الرجل ، متحسسا بيدي كل جزء في رأسه. ولكن أجزاء رأسه جميعًا كانت سواء في درجة الحساسية ، ولم يبد عليه أي ألم في واحد منها . وقبل أن تعتريني الحيرة من هذه الظاهرة ، قال لي « كابتاح » : دق بالمطرقة على رأسه ، فلن تخسر شيئًا ..

وكان رأيا صوابا ، فلم أكد أدق بالمطرقة على موضع معين بالرأس حتى صرخ الرجل وسقط على الأرض مغشيا عليه . وهنا فطنت إلى مكان الداء ، فاغتبطت بذلك ، ودعوت على الفور الأطباء المتشككين في مقدرتي وقلت لهم : سأفتح جمجمة هذا الرجل، والعملية بالغة الخطورة، وقد تعلمون أو لا تعلمون أن نسبة النجاة من الموت فيها قليلة جداً ، ولكنها مع ذلك من أدق فنون العلم في سبيل الحياة ، وقد دعوتكم لتشهدوا فيها شيئا جديدا لم تعرفوه من قبل ..

وقـالوا في سخـرية لم يستطيعوا إخفاءها : الحق أنها عملية جديرة بأن نشهدها ! ..

وبدأت عـملي ، فطهـرت يدى ، كمـا طهـرت المـريض وأدوات الجـراحـة بالنار المقدسة التي تزودت بها من معبد « أمون » ، ثم سلخت جلدة الرأس وأوقفت نزف الدم ، الغزير بطريقة الكي بالنار . وقد أحدث هذا ألما شديدا للمريض ، ولكنه لم يزعجه ، فقد كان – كما أخبرني – يقاسي أشد منه قبل العملية. على أنى فى سبيل تخفيف ألامه سقيته نبيذا مخلوطا بالمخدر ، فسكن وهدأ واحتمل الألم . وفتحت بعد ذلك الشبكة العظيمة للجمجمة بالآلات الدقيقة المعدة لذلك ، وعندما نزعت قطعة العظام من موضع الداء بدا أنه شعر بارتياح، وكنت أكثر منه ارتياحا بطبيعة الحال ، فقد كان الوقوع على موضع الداء من الوهلة الأولى علامة توفيق وبشيرا بنجاح العملية الخطيرة ، فهذه القطعة العظمية التى أدرت عليها المشرط كانت هى الجزء الذى ينبغي أن أفتح منه الجمجمة، ومن هذا الجزء وضعت يدى على الداء الذى باض فيه وأفرخ ، ومن ثم اجتثثت الموضع الخبيث الذى كان بادى الالتهاب كما لو كان جمرة متقدة، وتناولت سفودا محمى بالنار فكويته ، وأعدت الجمجمة كما كانت وغطيتها بصفائح فضية وجمعت أطراف فروة الرأس، ثم خطتها بالخيوط الدقيقة الخاصة .

ونهض المريض بعد ذلك مستردا شعوره الكامل وأخذ يخطو بيننا خطوات مليئة بالنشاط والحيوية، وعلى وجهه سمات بهجة مترعة ، فقد زال من أذنيه الهدير المزعج ، كما لم يعد يحس بشيء من تلك الآلام الطاغية، وأقبل على يصافحنى ويشكرنى شكراً متصلا بقلبه ولسانه .

ولم يسع الأطباء الذين كانوا منذ قليل يسخرون إلا أن يظهروا إكبارهم لى لنجاح هذه العملية الدقيقة التى كانوا يحسبونها ضربا من الوهم والحماقة ..

وأكسبنى هذا النجاح شهرة واسعة فى أرض «ميتانى » وراحت تشيع وتستفيض حتى جاوزت الحدود إلى « بابل » .

وقد حدث بعد هذا أن مريضي الممتاز استخفه الفرح بالشفاء ، واستطارته العافية بعد اليأس ، فأسرف على نفسه بشرب النبيذ وكثرة الحركة بين الناس ، فسقط من فوق حائط عال كان قد تسلقه مزهوا بقوته فانكسر عنقه ، ولقى حتفه ، ولكن أحدا من الناس لم يرنى مسئولا عن هذا الحادث ، فقد كان الجميع يمتدحوننى ، ويشيدون بمقدرتى الفنية التى لم يشهدوا لها مثيلا من قبل .

وأخيرا استأجرت قاربا بمجاديفه ، وأبحرت به فى النهر مع « كابتاح » إلى « بابل » ، حيث سبقتنا إلى هناك شهرتى كطبيب بارع .

- ٢ -

تسمى الأراضى التى ينتظمها حكم « بابل » بأكثر من اسم واحد ، فهم يعرفونها حينا باسم «الكلدان » وحينا آخر باسم « الكاسيت » وهو اسم الأقوام الذين يستوطنونها . ولكن الاسم الذى أوثره – على اختلاف أسمائها هو اسم «بابل» لأنه الأوسع اشتهاراً فى التعريف بهذه المملكة الخصيبة ، التى تتخلل أراضيها شبكة وثيقة من قنوات الرى وجداول الأنهار ، يتسق واديها حتى لا يكاد النظر يقع على نهاية حدوده وأقطاره ويستفيض حقوله ومزارعه .

وفى « بابل » أنواع قليلة من الأشجار يعتبر قطعها ذنبا يرتكبه فاقد لرضا الآلهة والأهلين ، ويحل عليه عقاب القانون فوق غضب الآلهة ، وعلى نقيض هذا يعد حائزا لرضاء الآلهة كل من يغرس شجرة بجانب أخرى .

وأهل « بابل » تموج أجسامهم من البدانة والترهل . وهم ، كأمثالهم من أبناء الشعوب ذات البدانة والترهل ، يميلون إلى الضحك والفكاهة ، ويرجع هذا إلى وفرة ما لديهم من الأطعمة الدسمة وكثرة تناولها فى يسر وسهولة . وقد رأيت فيما هناك طائرا يسمونه «دجاجا» له جناحان، ولكنه لا يستطيع أن يطير كغيره من الطيور ذات الأجنحة . والدجاجة الواحدة من هذا الطير الذى يعيش مع الناس

على الأرض ، تضع كل يوم بيضة فى مثل حجم بيضة التمساح ، وقد استغربت هذا ، كما أعتقد أن غيرى من البعيدين عن هذه البلاد سيستغربونه . و « البابليون » يأكلون هذا البيض ويقولون عنه إنه طعام لذيذ شهى . وقد قدموه لى طعاما فلم أتناوله لأنى لم أطعمه قبل ذلك ، وخشيت أن تصيبنى منه مضرة إذا تناولته لأول مرة فى هذه البلاد النائية ، واكتفيت فى طعامى هناك بأنواع مما أعرفه أو أعرف عناصره .

وأهل « بابل » يتفاخرون بمدينتهم ويتطاولون بها على أبناء الشعوب الأخرى ، ويرون أنها أعظم وأقدم مدن العالم . ومع أنى لم أسلم لهم هذا الرأى على إطلاقه ، مقررا أن « طيبة» تسبق «بابل » فى عظمتها وقدمها ، فإنى أعترف بأن مدينة «بابل» أدهشتنى حقا بضخامتها وفيض ثرائها ، وارتفاع حوائطها التى تشبه التلال شهوقا ، ومساكنها المشيدة من طوابق ذوات عدد ، حتى إن الناس فى هذه المساكن التى تبلغ أحيانا الخمسة الطوابق كانوا أخلاطا وصنوفا منوعة يعلو بعضهم بعضًا، وهو أمر غير مألوف وقتذاك فى غير هذا المجتمع البابلى . وقد افتنوا فى البناء الذى أقاموه لآلهتهم ، فكان أكثر من سائر أبنيتهم ارتفاعا وسموقًا ودقة عمارة .

وكان إلههم المعبود هو «مردوخ» ، وفى الطريق إلى معبده أقيمت ، على مشرف الإلهة «عشتروت» ، بوابة أعلى من أبراج معبد « آمون» وعلى حوائطها مجموعة من القرميد المصقول منوع الألوان يضفى عليها صورة باهرة تأخذ بالأبصار. وبين البوابة ومعبد «مردوخ» طريق يمتد فى التواء حلزونى، ولكنه كان عريضا ممهدا يتسع لأعداد من العجلات تسير عليه جنبًا إلى جنب ، وفوق برج المعبد كان يقيم المنجمون الذين يرصدون الأجرام السماوية ويحسبون حركاتها وتسيارها ، ويتنبئون للناس بأيام نحوسهم وسعودهم ، وقيل إنهم كانوا يستطيعون أن ينبئوا أى شخص بما هو مقدور له من خير أو شر فى مستقبل أيامه إذا عرفوا اليوم والساعة التى ولد فيها ، ولم يتهيأ لى أن أجرب علمهم فى ذلك ؛ لأنى كنت أجهل تمامًا يوم مولدى وساعته...

ومن مصرف هذا المعبد استبدلت بما كان معى من ألواح ذهبا ، وأقمت قريبا من بوابة «عشتروت» فى فندق كبير مكون من عدة طوابق مرتفعة، وعلى سطحه حديقة رائعة حافلة بأشجار الفاكهة وشجيرات «الآس» ، والمياه تجرى فى قنوات مبنية، وفى مياه بحيرتها تسبح أنواع جميلة من السمك .

وكان هذا الفندق الفاخر مقصد الممتازين الذين يتواردون على المدينة من قراهم وضياعهم، وكذلك كان ملتقى أفراد البعثات الأجنبية ومقر إقامتهم ، وفيه يجد الجميع راحتهم موفورة ميسرة ، فغرفه مفروشة بالسجاجيد الثمينة ومزينة بلوحات الصور المرحة، وفروشها وحشياتها وثيرة صنعت من جلود الحيوان الناعمة .

وكان الاسم الذى يطلق عليه مشيرا إلى ما يجد النزلاء فيه من الجمام والترفيه ، فاسمه «بيت عشتروت للسرور »، وهو ، كأى شىء هام بالمدينة ، ينتمى إلى برج هذه الإلهة الأثيرة المحببة عند أهلها.

«وبابل» حينذاك أحفل بلاد العالم بأخلاط الناس من مختلف الصنوف والأجناس ومتباين اللغات واللهجات والأفكار ، وهناك تسمع منهم جميعا أن سائر الطرق تؤدى إلى « بابل » لوقوعها فى مركز وسط بين أقطار الدنيا ، ولأهلها شهرة لاتدانى فى التجارة ، فهم يحذقونها وقلما يعنون بشىء سواها ، حتى قيل إن آلهتهم يتجرون كذلك فيما بينهم . لفرط تأثرهم بهذا الطابع التجارى يؤثرون السلام ويحرصون عليه يكرهون الحروب ويتقونها ، ولهذا أقاموا الأسوار حول مدينتهم لتأمين أموالهم والمحافظة على متاجرهم ، ونشروا جنودهم المدربين على الأسوار والمعابد وسبل المواصلات حفاظا للأمن ، ودفعا للأخطار ، وكانوا معجبين بهؤلاء الجنود الذين يطالعونهم كل يوم ذاهبين إلى بوابة «عشتروت» قلانسهم وأسلحتهم المتألقة بأوسمة الذهب وشارات الفضة، تنويها بما تنطوى عليه حياتهم من الثراء والترف، ويبلغ بهم الاعتداد والزهو بتلك الحال أنهم كلما أقبل عليهم غريب وافد ، سألوه عما إذا كان قد رأى فى غير بلدهم جنودا أفضل من جنودهم عدة وزينة ؟!..

وكان ملكهم صبيا غض الإهاب ، ناعم الصبا. وقد اقتضاه وقار العرش أن يبدو في صورة رجل ، فوضع أو وضعوا له على مدار وجهه لحية مستعارة ، ولكنه مع ذلك كان بدافع من غريزة الطفولة ينزع إلى اللعب ويتلهى بالأقاصيص ذات الإغراب والإثارة ..

ذلك ماقد عرفته عن هذا الملك حين تلقيت الدعوة لأتشرف بمقابلته ، وأنا إذ ذاك مقيم بفندق « بيت عشتروت» . وكانت هذه الدعوة وليدة شهرتي التي سبقتني إلى «بابل» من بلاد «ميتاني» ، وثمرة تعرفي إلى كهنتها وأطبائها .

ولم يسترح «كابتاح» إلى تلبيتي الدعوة، فنصح لي بألا أذهب إلى لقاء الملك قائلا : إنه يتوجس الشر في الاتصال بالملوك ، ويرى أن الخير في أن يكون الإنسان بمنأى منهم ليسلم من أذاهم ! ..

ولكنني لم آخذ بنصيحته، وقلت له لأطمئنه : لا تخف فإن الجعران المقدس معنا ، وهو كما تعلم تعويذة تقينا شرور الناس ولو كانوا ملوكا.

فقال مصمما على رأيه : إن سر الجعران قد لا يحتمل كل شيء ، وهو حجر على أية حال ، ومن الحكمة ألا تسرف في الاعتماد عليه، فربما يكون الروح الذي انبث فيه قد انحسر عنه لطول الزمن واختلاف الأجواء واتصال الحركة، فلسنا ندري الحقيقة وهي غيب مستور . وإنما الذي أعلمه يقينا أن الوقاية خير من العلاج ، والسلامة في ألا نجازف بأنفسنا ونلقي بها في المأزق ، فإن أصررت مع ذلك على لقاء الملك فلست بمانعك ، ولكني لا أدعك تذهب وحدك ، فسأرافقك إليه لأحمل معك ما قد يتمخض عنه هذا اللقاء من سوء، ولو أنك وحدك المسئول عنه. على أني أرى أن نبدو في عين الملك بمنزلة من الاحترام تغريه بتكريمنا ، وسبيل ذلك أن نطلب مقعدا ملكيا يحملنا إليه، فهذا أجدر بمن يدعوهم الملك إلى مقابلته وهم من غير رعاياه، ثم ليكن ذهابنا إليه في غير يومنا هذا ، فهو اليوم الأخير من الأسبوع، ويعدونه في هذه المملكة يوم نحس ، ألا ترى المتاجر قد أغلقت أبوابها ، والناس قد لزموا بيوتهم ؟! ذلك

لأنهم يعتقدون أن النحس مصيبهم إذا عملوا فى هذا اليوم عملا ، فلماذا نغامر بحظنا فيه ؟!.

وقع رأى «كابتاح» منى موقع القبول ، فما ينبغى أن نشذ على عادة أهل «بابل» فى هذا اليوم ، فلابد أن لمخاوفهم منه حقيقة لا نعلمها ، ونحن فى «مصر» لا نفرق بين الأيام، ولكننا هناك نعرف أن ثمة أياما غير معينة تنبئ النجوم بأنها نحسات ، ولعل منها ذلك اليوم الأخير من الأسبوع فى هذه المملكة.

واستسلاما إلى هذه العادة رغبت إلى رسول الملك فى أن تؤجل المقابلة إلى الغد ، وأن يجيئنى بمقعد أذهب محمولا عليه إلى الملك، فلا يجمل أن أمثل بين يديه معفرا بتراب الطريق!..

وبدا الخادم دهشا من تقييد الدعوة الملكية بمثل هذا الشرط غير المألوف . فالملك عندما يدعو إنسانا ، ويحدد موعدا ، وجبت الطاعة على الفور ، ولهذا قال: أخشى ألا يقبل الملك مطلبك ، وأن يأمر فتذهب إليه فى الحال مرغما ومن ورائك حراب الجند !..

ثم تركنا عائدا إلى قصر الملك ، وقضينا الوقت إلى صباح اليوم التالى فى الفندق فى غمر من الظنون والتكهنات . مترقبين أحداثا تهب علينا من الملك الذى سمعنا من رسوله كلاما فيه وعيد وإنذار..

على أن أعصابنا المضطربة عادت إلى سكينتها وهدوئها حينما أهل على الفندق خدم القصر الملكى ومعهم الكرسى ليحملنى إلى الملك .

ولم يرض «كابتاح» عن هذا الكرسى، لأنه كان عاديا مما يرسله القصر عادة فى طلب التجار الذين يعرضون على الملك السلع والجواهر والقرود وريش النعام وغيرها ، فصرخ فى وجوه الخدم محتجا وقال لهم : وحق «ست» وسائر الشياطين إن لعنة إلهكم «مردوخ» ستنصب على رءوسكم التى تحمل هذا الكرسى الحقير... نحوه جانبا ، فإن سيدى أكبر شأنا من أن يجلس على مثله.

وفى غمرة هذه المفاجأة التى أثارت دهشة الخدم وحنقهم ، كما أثارت فضول النزلاء الذين أطلوا برءوسهم ليروا ذلك السيد ، الذى يرى خادمة أن الكرسى الملكى غير لائق به ، أسرع « كابتاح» فاستأجر من إدارة الفندق مقعدا ضخما يستخدمه سفراء الممالك فى تنقلاتهم.

وهبطت من حجرتى مرتديا حلة موشاة بالذهب والفضة، وفى عنقى القلائد الذهبية التى انعكس عليها ضوء الشمس ، فتوهجت وأضفت على شخصى غلالة من نور، وفى إثرى خدم الفندق يحملون عقاقيرى وآلاتى الجراحية فى صناديقها المصنوعة من خشب السدر والأبنوس المطعم بالعاج .

وقد رآنى الناس فى هذا المظهر الفخم فقال بعضهم لبعض إنه لسيد عظيم وفيه جلال آلهة الحكمة . وبحافز من الرغبة فى استطلاع جلية أمرى تجمعوا حولى وتبعونى إلى القصر الملكى ..

وهناك عند بوابة القصر وقف الحراس صفا وبأيديهم الحراب والدروع المذهبة ، وكانت كثيرة متلاصقة حتى لتبدو كأنها حائط منيع من الحلى ، وقد أخذ هؤلاء الحراس يدافعون الناس المحتشدين عند بوابة القصر ليفسحوا لى طريق المرور إلى ساحته الداخلية . فلما دلفت إليها رأيت على جانبيها صفوفا من تماثيل الأسود المجنحة، وتلقانى فيها رجل عجوز حليق الذقن كالعلماء ، فى أذنيه أقراط مدلاة من الذهب الخالص ، كانت تشيع فى وجهه وعينيه سحابة من الغيظ حينما ابتدرنى قائلا : عجيب أمرك أيها الرجل !.. تقدم على الملك فى مثل هذه الضجة ، وهو سيد أركان الدنيا الأربعة ، إنه ليسأل من أى صنف من الناس ، ذلك الذى يدعوه ويحدد لدعوته موعدا فيأبى إلا أن يجىء فى الموعد الذى يختاره هو ، وبالطريقة التى يرسمها هو ، ثم لا يقنع بهذا فيجىء فى قافلة من الجماهير ؟!

فقلت له في كبرياء : أيها الشيخ !.. ما أشبه كلامك هذا بطنين الذباب في أذني. وإني لسائلك بدوري من تكون أنت في هذا القصر ، وبأي حق تخاطب ، بهذه الغلظة ، رجلا جاء إلى هنا مدعوا من الملك ؟!..

قال : إنني رئيس الأطباء في حاشية سيد أركان الدنيا الأربعة ، وما أراك أنت إلا دجالا مشعوذا ، جئت لتختلس الذهب والفضة من الملك !.. ولن أفلتك من قبضتي إلا إذا أعطيتني نصف ما سوف تناله من ماله ..

قلت له ساخرا : ذلك شأنك مع خادمي ، فمن الأعمال التي تقع في اختصاصه أن يخلي الطريق أمامي من الطفيليين ومتوتري الأعصاب وقناصي المنافع ! .. على أني لشفق عليك لأنك عجوز متهالك ، وآية إشفاقي عليك هذه الأساور الذهبية التي أمنحك إياها الآن كرما مني ، لتعلم أن المال عندي ، كالتراب تحت قدمي ، كثير ولا قيمة له، فليس هو مطلبي ، ولا من أجله جئت إليكم ، وإنما أنا طبيب ، وفي سبيل الحكمة ، لا في سبيل غيرها ، أجوب البلاد ، وأسعى في الأرض... (وانتزعت بعض الأساور الذهبية التي يتزين بها ذراعي ودفعت بها إليه).

فبهت الرجل عندئذ وأرتج عليه ، ولكنه تناول الأساور ، وسار أمامي ، في احترام متكلف ، إلى قاعة الملك . وقد بلغ من تجمله لي أنه لم يمنع «كابتاح » من مرافقتي إلى لقاء سيده وسيد أركان الدنيا الأربعة ، كما يقول ! ..

وكان الملك « بورنا بورياش» يجلس فوق وسادة وثيرة مفوفة في حجرة ذات مسارب عدة للهواء ، وحوائطها مكسوة بألوان براقة من القرميد المصقول ، وقد بدا – وهو الصبي المدلل – عابس الوجه ، واضعا يده على خده ، وبمقربة منه يرقد أسد، صدرت عنه زمجرة خفيفة حين رآنا .

وخر الرجل العجوز – وهو يتقدمنا – على الأرض كأنه يسجد في محراب صلاة، وفعل مثله «كابتاح» ولكنه ارتاع فزعا عندما سمع زمجرة الأسد ، فدار على يديه

وتداخل فى نفسه حتى كأنه الضفدعة لفرط خوفة ، فانفجر الملك ضاحكا لمنظره ، ومال على وسائده مغرقا فى الضحك حتى بدرت الدموع من عينيه .

ولكن الملك اعتاده الألم فعاد إلى عبوسه معتمدا خده بيده، وأخذ يئن متوجعا ، وأدركت على الفور أنه يشكو علة فى هذا الموضع من وجهه ، فقد كان به ورم ظاهر امتد إلى عينه حتى بدت نصف مفتوحة . وأومأ إلى الرجل العجوز ، فنهض هذا قائلا فى زلفى وملق : هذا هو المصرى العنيد ياسيدى ... إن كلمة منك لكافية أن تطيح برأسه عقابا له على عناده ! ..

وقبل أن يسترسل فى هذا ، دفعه الملك برجله قائلا : ليس هذا وقت الهراء والكلام السخيف، إنما هو وقت العمل السريع الذى دعونا هذا الطبيب المصرى إليه. إن الألم الذى أشعر به فظيع لا يحتمل ، وهو يعصرنى عصرا ، وقد قضيت عدة ليال مسهدا كأنما أتقلب على الجمر . ولم أتناول خلال هذا الوقت الطويل . سوى الحساء حتى لأكاد أموت جوعا ! .. ولقد عجزت أيها الطبيب العجوز عن علاجى ، فليتوله إذن ذلك الطبيب المصرى.

وهنا أخذ الشيخ العجوز يخبط رأسه بالحائط منتحبا وهو يقول : لقد صنعنا – ياسيد أركان الدنيا الأربعة – كل مافى وسعنا لشفائك، وتقدمنا بالكثير من الأشداق والأسنان إلى المعبد مبتهلين إلى الآلهة أن تطرد الروح الشريرة المتسللة إلى شدقك وأسنانك ، ثم إنك ياسيدى لم تأذن لنا بلمس شخصك المقدس فاستحال علينا أن نجرب الطب بأيدينا فى موضع العلة ، وما أظن هذا المصرى سيأتى بما لم نستطعه ! ..

فقلت : إننى أنا « سنوحى » المصرى الذى يلقب بالوحيد وابن الحمار الوحشى، وفى استطاعتى أن أريحك من هذا الألم الذى يقض مضجعك ، ومصدره ، دون حاجة إلى فحص عنه، أنك لا تنظف أسنانك ، فعلقت الجراثيم بإحداها واتخذت منها بؤرة خبيثة، ومن ثم تنزت قيحا وصديدا ، فكان مرضا موجعا وألما ممضيا ، وهو أمر من بدهيات الطب ، ولا بد أن يكون أطباؤك قد عرفوه وعرفوا ما ينبغى له من علاج .

وعلى أية حال لا مناص من أن تشفى من هذا المرض ، فما يليق أن يستبد بك على هذا النحو ، وأنت سيد أركان الدنيا الأربعة ، الذى يرتعد أمامه الأسود خوفًا ! .

قال الملك وهو لا يزال ممسكا بخده يدفع الألم بيده : إنك تتحدث حديث الجرىء الواثق من نفسه ، فعجل إذن بعلاجي ، ولئن أبرأتنى لأعطينك أسخى العطاء، ولأكافئنك أجزل المكافأة . أما إذا أخفقت كما أخفق الأخرون، فجزاؤك الذبح العاجل الذى لا تقبل فيه شفاعة !..

قلت : فليكن ما تشاء ، ولن يكون إلا الخير الذى ترضى به ، فإن إلها صغيرا قويا يرافقنى ، وقد أوحى إلى ألا أحضر هنا بالأمس ، فنزلت على إشارته ، وبان لى الآن أنه كان حكيما فيما أشار به ، ذلك أن تلك البضعة المريضة فى أسنانك لم تكن قد صلحت حتى الأمس للعمل الجراحى الذى هو الوسيلة الطبية الحاسمة للعلاج ، ولكنها اليوم قد بلغت من ذلك ، الحد المراد ، وإنى الآن لعلى استعداد لمباشرة عملى ، وقد لا يخلو من ألم ولكنه ألم عاجل إلى راحة مستقرة ، وليس فى مقدور الآلهة نفسها أن تمنع عن أحد ، ولو كان ملكا، ألم العلاج .

وعلت وجه الملك انفعالات الحيرة والتردد ، وشعرت نحوه فى هذه اللحظة بشىء كثير من المحبة والاحترام ، فقد بدا شابا لطيفا ، فيه براءة الشباب وبساطته ، مجردا من غطرسة الملوك واستعلائهم . إنه الآن إنسان ضعيف يفكر فى الخلاص من الألم الذى لم يعصمه منه ملكه الواسع وسلطانه العريض ، وعلى شدة لجاجته فى طلب الشفاء فإنه يتهيب الوسيلة إليه ، ويفزع من يد الطبيب تمتد إلى موضع الداء.

وأخيرا يخرج الملك من حيرته وتردده ويقول فى حزم : عجل بما ترى أن تفعل ! ..

وهمهم الرجل العجوز ، وأخذ يضرب رأسه بيده، ولكنى لم أعره التفاتا ، وطلبت على الفور نبيذا ساخنا ثم خلطت به مادة مخدرة ، وسقيت منه الملك ، فهدأ

الألم بعد قليل، واستبشر بذلك فقال: هأنذا في سبيل الخلاص من الألم ، وأظنك في غير حاجة إلى استعمال مبضع أو منزع .

وكانت رغبتي في اجتثاث مصدر الألم بالجراحة أقوى من رغبة الملك في الاكتفاء بتسكينه ، فأخذت برأسه بين يدي بقوة وفتحت فمه وهو يتململ ، وفي سرعة أعملت مبضعي المعقم في الدمل ، فصرخ صرخة مدوية تحرك لها الأسد الرابض ، وأخذ يزأر كما لو كان ينذرني بالكف عن سيده .

وبعد بصقات بصقها الملك لعابا ودما وصديدا ، شعر بالراحة التي حرم منها أياما عدة ، فقال مبتهجا : يا « سنوحي المصري» .. إنك في الحق لطبيب ماهر ..

وضاق صدر الرجل العجوز بهذا فقال: كان باستطاعتي أن أصنع مثلما صنع ، بل خيرا مما صنع ، لو أن مولاي أجاز لي - كما أجاز له .. لمس الفك المقدس ، وما من شك في أن طبيب أسنان الملك كان أقدر منا كلينا على ذلك .

وعقبت على كلام العجوز المحنق قائلا : هذا صحيح ، فما صنعت شيئا يعجز عنه هو أو طبيب الأسنان أو غيرهما من أطباء هذا البلد ، ولكن أحدا منهم مع ذلك لم يستطع أن يخلصك من آلامك على هذا الوجه الذي استطعته أنا .. ذلك لأنهم ضعاف الإرادة ، وأنا قويها ، وكان واجب المهنة يفرض عليهم أن يهاجموا العلة في موضعها بوسائلهم الفنية، غير عابئين بسخطك أو رضاك ، فليس الأمر هنا أمر ملك، ولكنه أمر مريض ، ولكنهم أوجسوا منك خيفة ، وفزعوا منك مريضا متوجعا يستذله الألم كما يفزعون منك سيدا جبارا وملكا باطشا موفور القوة والسلطان . وهم بهذا قد خرجوا من صف الحكمة الوقور الشجاعة إلى مضطرب الدهماء والأرقاء ، والفرق بين الطائفتين كبير .

قال الملك : لم أسمع من قبل كلاما كهذا ، وهو فيما أرى معقول مستساغ ، فالواقع أنك أنقذتني من ألم شديد ، ولهذا فقد غفرت لك اجتراءك بقوة على رأسي، واجتراء خادمك هذا على الوقوف هكذا ليراني تحت مبضعك ويسمع صراخي بين

يديك ، وإنها لكبيرة منكما معا، ولكنى عفوت عنه كذلك ، فقد أضحكنى منظره وهو ينقبض وينكمش فرقا من زمجرة الأسد !.

وأمر الملك بالطعام ليأكل ، فقد كان جائعا ، فجيء به فى أطباق من فضة ووضعت على مائدته كئوس النبيذ الذهبية، ودعانى لتناول الطعام معه قائلا : إنى أسمح لك يا «سنوحى» بمواكلتى والجلوس معى على هذه المائدة الملكية ، وهو ما لا يتفق مع مكانتى ، ولكنى أخصك بهذا الشرف اعترافا بمهارتك وتقديرا لشجاعتك .

وحين فرغنا من الطعام والشراب قلت له : إنك قد استرحت الآن من الألم يا سيدى ، ولكن ثمة بقية بداخل فمك يجب أن تزول ، حتى لا يتجدد الألم فيما بعد ، فهنالك الضرس المعتل الذى هو فى الحقيقة مصدر الداء ، ولا مناص من اقتلاعه، ومن الميسور أن يفعل هذا طبيب أسنانك بعد زوال الورم والتئام الجرح .

وتبرم الملك ، إذ كان يظن أن الأمر قد انتهى ، فما بالى أشير إلى ألم سيتجدد وإلى عملية أخرى تضع رأسه من جديد بين يدى طبيب آخر ! . ولكنه بعد تفكير قليل عاد يقول: إنك تقول الحق ، فإن الألم يعتادنى فى كل ربيع وخريف، على أنه إن كان لا معدى من اقتلاع الضرس فإنك أنت الذى تفعل ذلك ، لا طبيب أسنانى هذا الذى لا أريد أن أرى وجهه ، فلست أعفيه من جريرة هذه العلة .

قلت له : إنه طبيب متخصص فى علاج الأسنان ، وهو فى فنه أمهر أطباء مملكتك، بل إنه لأمهر منى أنا فى هذه الناحية ، ولا يعوزه إلا أن تأذن له فى ممارسة عمله فى أسنانك ، وليس من حقى أن أزاحمه على موضعه منك. ولكن إذا شئت ، فإنى مستعد للوقوف بجانبك أثناء قيامه بعمله ، وسأستخدم فى سبيل تهوين الأمر عليك كل ما عندى من عقاقير طبية وكل ما حذقته من فنون الطب فى سائر البلاد والممالك التى تنقلت فيها . ومن الممكن أن يتم هذا بعد أسبوعين من اليوم . والأفضل أن تحدد هذا الموعد من الآن ، ففى خلال الفترة سيكون جرح خدك قد شفى تماما ، وسأعطيك دواء تنظف به أسنانك يوميًا ، وسيكون مذاقه غير سائغ ولكنه محتمل .

قال الملك مغضبا : فإذا لم أستعمل هذا الدواء ؟!.

قلت : من الخير أن تستعمله ، ففيه لك شفاء وعافية ، وشخص الملك يجب أن يصح من العلل ويوقى من الآلام ، ولو أنك وثقت بى وعملت بإشارتى فإنك واجد من فنونى عجبا عجابا ، فسأريك عندئذ كيف أحول الماء دما ، وأعلمك كيف تفعل ذلك بنفسك، فتنال به من نفوس رعاياك إكبارا فوق إكبار، إذ يرون فيه إعجازا يجاوز قدرة البشر، ولا أقتضيك على هذا السر شيئا سوى أن تكتمه حتى عن أقرب القرباء إليك، فهو من أسرار كهنة «آمون»، وأنا من أصحاب المرتبة الأولى بينهم، وما كنت لأعلمك سرا من أسرارهم لو لم تكن ملكا عظيما أحببته ملء قلبى.

وقبل أن أفرغ من كلامى سمعنا صرخات « كابتاح» تترامى على آذاننا من الخارج مستنجدا بنا لننحى الأسد من طريقه إلى الملك ، فهو يريد أن يراه بنفسه ليطمئن على صحته !..

وضحك الملك ، وأذن «لكابتاح» بالدخول عليه وباعد بينه وبين الأسد ، وقال لى: إن خادمك هذا شخصية مسلية طريفة لم أر مثلها فى حياتى، فهلا بعته لى بما شئت من مال يغنيك؟!. فلم أحر جوابا ، ذلك ما لم يكن إلى الموافقة عليه سبيل. وأدرك الملك هذا فلم يتشدد فى طلبه.

وبدأت عينا الملك تغفوان. فقد قضى ليالى طوالا لم يذق فيها طعم النوم. فاستأذنته فى الانصراف ، فأذن مؤكدا لى صداقته .

وتبعنا الرجل العجوز فقلت له : يجمل بنا أن نتشاور فيما يجب أن نفعل خلال الأسبوعين القادمين ، فإن اليوم الأخير منهما سيكون يوما عصيبا على الملك وأرى من واجبنا منذ الآن أن نتقدم من أجله بالقرابين لكل الآلهة.

ولاح عليه الارتياح إلى هذا الاقتراح ، فواعدنى على اللقاء بالمعبد ، لتقديم القرابين والتشاور مع الأطباء الآخرين.

ولم ينس الرجل العجوز، ونحن نعتلي مقعد الفندق بعد مغادرة القصر، أن يمنح عامليه طعاما وشرابا ، فسروا بهذا وشكروني مقدرين ، ومضوا بنا وهم يغنون على طول طريقنا للفندق وجموع الناس تواكبنا إلى هناك.

ومنذ ذلك الحين لمع اسمى فى «بابل».

- ٣ -

وفى برج الإله «مردوخ»، وقبيل الموعد المحدد للعملية الملكية ، اجتمعت بأطباء الملك حيث قدمنا هناك قربانا مشتركا، وكان شاة من النعاج، إذ هى من أطيب الضحايا إلى ذلك الإله كما يقولون ، وفى كبدها أسرار ، زعم الكهنة أنها تنبئهم بالغيب. وقد أخذوا يتأملون كبد ضحيتنا ويقلبون أنظارهم فيها، قالوا: إن الملك سيكون مغيظا محنقا ، ولكن أحدا منا لن يناله من ذلك مكروه يودى بحياته أو يصيبه بعاهة مستديمة ؛ وإن من الخير أن نحذر الحراب والمخالب !..

ورغبنا إلى أولئك المنجمين في أن يراجعوا كتاب السموات ليعرفوا ما إذا كان اليوم الذى اخترناه للعملية موافقا لحسن الطالع؟! . فصبوا زيتا على ماء وراحوا يطيلون النظر فيه ، وبعد لأى قالوا إنهم لم يتبينوا شيئا يثير الملاحظة ، وعلى الأقل فإنهم لم يحملوا علامة من علامات الشر..

وعندما تركنا المعبد رأينا نسرا يحلق في الجو قريبا من رءوسنا وبين مخالبه رأس إنسان التقطه من جدار غير بعيد، فأوجست من ذلك شرا، ولكن الكهنة قالوا إن هذا إشارة بالخير، ولم أستطع فى داخل نفسى - وقتها - أن أومن بهذا التفسير !..

ومرة أخرى تلاقينا بالقصر لمباشرة العملية في موعدها . وعملا بتحذيرات العرافين التمسنا إخلاء المكان من جنود الحرس حاملى الحراب، ومن الأسد ذى

المخلب والناب. وكنت أشد خيفة من هذا الأسد ، فقد أخبرني الأطباء أن الملك إذا غضب على أحد أطلق رفيقه الأسد، ففتك به.

وطلع علينا الملك «بورنا بورياش» فياض البشر موفور العافية، محصنا كبده بالنبيذ على حد تعبيرهم في « بابل» ، غير أنه ما كاد يرى كرسي طبيب الأسنان ، وكان قد نقل إلى القصر في ذلك اليوم لإجراء العملية ، حتى امتقع وجهه ، وقال إن لديه أعمالا هامة تتصل بمصلحة الدولة، وكان قد نسيها ، فهو عائد إليها لإنجازها . ثم أدار إلينا ظهره منصرفا عنا، وران على الأطباء سكوت مطلق ، وتدلت وجوههم إلى الأرض خشوعا ورهبة. ولكنني أدركت أن الملك يختلق هذا العذر هربا من العملية، فأسرعت إليه وأمسكت بيده، وقلت له متلطفا: يا سيدي إن كل شيء سيتم بسرعة وبغير عناء . فتوقف مستسلما ، وعندئذ أشرت إلى الأطباء ليظهروا أنفسهم ويستعدوا ، وعقمت على النار آلات الجراحة بنفسي، وأخذت أدلك لثة الملك بالدهان المخدر حتى شعر أن وجهه صار كأنه قطعة من خشب ، وأن لسانه قد توقف عن الحركة ، ومن ثم أجلسناه على الكرسي الطبي، وأحنينا رأسه إلى ظهر الكرسي، وجعلنا بينهما وثاقا محكما ، ووضعنا في فمه قواطع خشبية مصقولة لانفراج فكيه حتى لا يطبقهما . وجعلت أفاكهه وأسري عنه بالحديث العذب الذي يستهويه ، في حين كان الأطباء يتضرعون إلى آلهة «بابل» في صوت مسموع، أن يعينوا الملك ويحفظوه ، ووضع طبيب الأسنان آلته في فم الملك المفتوح، وقبض بها على الضرس المريض، ثم انتزعه بمهارة فاقت ما كنت وأتوقعه منه.

وصرخ الملك صراخا أهاج الأسد في الخارج،فسمعناه يزأر زئيرا مرعبا ويضرب الباب المغلق بمخالبه محاولا فتحه واقتحامه . وفي الحق كان الجو وقتذاك مشحونا بالفزع من كل جانب ، فالملك لم يسكن صراخه ولم ينقطع، بل لقد ازداد واشتد عندما حللنا رباط رأسه وأنزلناه من فوق الكرسي واستللنا القواطع الخشبية من فكيه، وجعل يبصق في الوعاء الذي وضعناه بين يديه دما ، فهنا كان صراخه فظيعا مختلطا بنشيج مثير من البكاء ، فما دار في أذهاننا إلا أن صراخ الملك وبكاءه بالغان

آذان حراسه، وأنهم فى طريقهم إلينا ليفتكوا بنا جميعا !.. بلغ الجزع من هذا المصير أقصى مضاعفاته عندما خرج الملك من صراخه يأمر فى غضب صارم بإدخال الأسد إلى الحجرة، ثم يركل برجله وعاء النار فينثرها ، ويمسك بعصاه وينهال ضربا على طبيب أسنانه .

على أنى غالبت أعصابى المتوفزة، فرحت أداهيه وأهدهد من ثورته. مبالغا فى التلطف ، وأناشده أن يغسل فمه بدواء قدمته إليه، ومازلت به حتى لان وأسلس وأخذ يغرغر بالدواء وفق إشارتى ، فى حين كان الأطباء سجودا عند قدميه في ارتعاش ظاهر. أما طبيب الأسنان فكان يتغشاه ذهول المقبل على الموت المحتوم !..

وبعد قليل هدأت العاصفة الهوجاء ، وانجاب الزلزال المخيف، فقد أخذ الملك يستشعر الراحة والطمأنينة ، وراح يشرب نبيذا، فاسترد الجميع أرواحهم التى كانت توشك أن تفارق أجسادهم.

وكره الملك أن نبقى فى حجرة العملية، فدعانا إلى مغادرتها ، ورافقناه إلى قاعة الولائم الكبرى ، وأقبل على متهلل الوجه كما لو كان يختص بالرضا والثناء، ثم سألنى أن أظهره على عجائب فنونى كما وعدته ، فدعوت بماء قراح، وصببته فى إناء ، وطلبت إلى الملك والأطباء أن يتذوقوه ليتحققوا من أنه ماء قراح لا شية فيه، ففعلوا ثم صببته ببطء فى إناء آخر، فما إن استقر فيه حتى استحال إلى دم قان ، فهالهم أن يحدث هذا ، وصرخوا مشدوهين فزعين ..

وأذن الملك للأطباء بعد ذلك فى الانصراف ، بعد أن أجزل مكافآتهم ، واستبقانى لديه دونهم، وراح يستوضحنى سر هذه المعجزة التى يتحول بها الماء دما، فكاشفته به وأعطيته المادة التى تفعل ذلك، وكانت طريقة استعمالها ميسرة لا تعقيد فيها ولا جهد. فأعجبه هذا كثيرا ، وفرح به فرحا عظيما ، ولجت به الرغبة فى أن يصنع المعجزة بنفسه، فدعا فى الغد عددا كبيرا من رجال مملكته الممتازين وأصحاب المناصب

الكبرى فى الدولة، فاجتمعوا له بحديقة القصر على حفافي بحيرته الجميلة ، وظهر الملك فيهم وقال لهم : ماذا ترون فى هذه البحيرة ؟!

قالوا : ما نرى غير الماء ! ..

قال : يمكنكم أن تتحققوا من ذلك قبل أن أمد يدى إليه .

فوضعوا أيديهم بالماء انصياعا لأمر الملك، وهم دهشون من مفاجأته لهم بهذا الامتحان العجيب ، فما الماء فى أعينهم بمختلف عن الماء فى أيديهم وفى أفواههم ، إنه حقيقة سافرة لا تحتاج إلى شيء من المساءلة والتحقيق .. وأخيرا قالوا للملك : قد تحققنا ياسيدى من أن ماء البحيرة لا يزال كالعهد به أصفى ماء وأعذبه ..

فابتسم لهم الملك ، ومد يده إلى البحيرة، ثم رفعها قائلا: انظروا !..

فلشد ما كانت دهشتهم حين رأوا ماء البحيرة قد استحال فجأة إلى دم مخيف، وتراموا جميعًا إلى الأرض ساجدين أمام الملك الذى صار إلها يصنع المعجزات !..

ورأيت الملك فى هذه اللحظة ووجهه يطفح بشرا وابتهاجا وخيلاء ، فما حسبت أن فى الدنيا إنسانا هو أسعد منه إذ ذاك ..

وانصرف المدعوون وفى أنفسهم ما فيها من هذا الحادث العجيب ، انصرفوا ليتذاكروا به وينشروا نبأه بين الناس بكل ما يتسع له من الإفاضة والمبالغة .

وقال لى الملك وقد ذهبت عنه آلامه وأوجاعه جميعا : يا « سنوحى » أيها المصرى العظيم، لقد أبرأتنى من علة مستعصية ، وأنقذتنى من آلام مضنية، وعلمتنى مالم أكن أعلم ، وما لا يعلمه غيرك من الناس، وشرحت صدرى بما هيأت لى من فنونك العجاب ، فمن حقك أن تطلب منى أقصى ما تنزع إليه نفسك من أمانى ، فما شئت من مال ومن هدايا سيكون بين يديك، وكائنا ما يكون فإنه بالنسبة لك قليل .

فأجبت قائلا : أيها الملك « بورنابورياش» ، ياسيد أركان الدنيا الأربعة ، حسبى منك رضاك ، فما أطمع فى غيره، وما بى من حاجة إلى سواه . على أنى وأنا الطبيب

الغريب الذى سينزح قريبا عن ديارك ، أخشى أن يلازمنى الشعور بالألم كلما ذكرت أن ملك « بابل » الذى تهابه الممالك وتخشاه وترهب سطوته وسلطانه، كان مريضا يتوجع ويئن ويصرخ ، وأن يدى كانت تمسك برأسه ، ومبضعى يدور فى فمه ، ولا آمن إن أنا تركت بلادك متأثرا بهذا الشعور أن ينفلت لسانى به ، فيتسامعه أهل بلادى ويبالغون فى روايته ، ويقال هناك إن ملك « بابل» كان كسائر الناس يمرض كما يمرضون ، ويألم كما يألمون ، ولا يبريه من علته إلا طبيب وافد، فذلك أمر أخافه من نفسى على هيبتك وعظمتك ، ولهذا أريد أن تمحو ذكراه من خيالى ، وتبدلنى من شعورى شعورا خيرا منه ، وسبيل ذلك فيما أرى ، أن تأمر فيتلاقى فى صعيد البلد جميع جند الدولة وقوادهم وأسلحتهم وأدوات حربهم ، وتقف أيها الملك العظيم تستعرض هذه القوات الرهيبة، فى حين أكون عن كثب أشاهدها خلفك ، تمتلئ خواطرى بمناظرها ، وتنفعل مشاعرى بهيبتها ، ومن ثم أركع ساجدا مقبلا تراب الأرض بين يديك . فتلك هى حاجتى التى أطمع أن تقضيها ، ورغبتى التى أرجو أن تحققها ، وما يدفعنى إليها إلا مرض الحب الذى أستشعره نحوك منذ رأيتك .

وابتهج الملك لحديثى وأثنى عليه وقال : إننى مجيب طلبك يا «سنوحى» وإن كان سيجشمنى عناء الجلوس يوما بأكمله على العرش الذهبى .

وأصدر أوامره فى الحال إلى سائر أنحاء المملكة لإرسال القوات الحربية من مختلف معسكراتها ، وتجميعها لعرضها عليه عند بوابة الإلهة «عشتروت» .

وفى الموعد المحدد استوى الملك على عرشه المذهب ، والأسد رابض عند قدميه ومن حوله أصحاب المقامات الرفيعة من رجال الدولة وحكامها حوامل أسلحتهم ، وقد بدا لفرط زينته كأنه يسبح فى بحر من الذهب والفضة ، وعليه حلة من اللون الأرجوانى رمز العظمة والسلطان .

ومن الشرفة العالية التى أعدت لمجلسه ، أخذ يستعرض قوات جيشه وهى تسير فى الطريق العريض صفوفا متتابعة من الجنود والقواد يحملون حرابهم وسهامهم ،

ومن خلفهم تلاقت العربات الحربية في صف واحد ، كانت لهذه القوات المنوعة قعقعة وإرعاد وزمجرة تلقى الرعب والهيبة في القلوب .

وهمست في أذن « كابتاح» قائلا : لا يكفى أن نقول في تقريرنا إن المحاربين في «بابل» كرمال الصحراء كثرة عدد، فينبغي أن نحصيهم عدداً .

فقال «كابتاح» معترضا في همس : هذا غير ممكن ياسيدى ، حسبك أن تقول : إنه ليس على وجه الأرض مثيل لهذا الجيش في وفرة عدده وعتاده ..

على أنني كنت راغبا في الإحصاء بأقصى ما في الاستطاعة ، فجعلت أستعرض في ذاكرتي الصفوف التي شهدتها ، فهؤلاء المشاة كانوا ستين رجلا ، وقد تتابعوا ستين مرة، وكانت العربات ستين هي الأخرى .

وعلمت من هذا أنهم يلتزمون في أعدادهم هذا الرقم ؛ لأنهم في «بابل» يعدونه رقما مقدسا .

واسترعى نظرى منظر دروع الحرس الملكي وأسلحته ، فقد كانت تلتمع بتوشيات أنيقة من الذهب والفضة، كما كانت وجوه جند الحرس تلتمع بالزيوت التي يجملون بها بشرتهم ، ولكنهم كانوا مفرطي البدانة ، ولذلك بدا عليهم خلال العرض الطويل أثر ملحوظ من الرهق والإعياء ، وخيل إلينا أنهم يفهقون ويلهثون وتتلاحق أنفاسهم ، وكان عددهم مع ذلك قليلا . أما الفرق الأخرى الوافدة من الأقاليم البعيدة فكانت وجوه جندها بادية السمرة والضمور ، لقد لوحتها الشمس ونالت منها ، وكانت ملابسهم، كأجسادهم. تعلوها القذارة ويرين عليها الإهمال حتى كانت تتسرب إلى أنوفنا منهم ريح كريهة ، والأكثرون منهم كانوا من غير حراب، ولم تكن عجلاتهم الحربية أحسن منهم حالا ، فقد كانت لقدمها تتخلخل في سيرها وتصدر عنها أصوات تنبئ باضطراب أجهزتها . فقلت لنفسي ، وقد رأيت هذا وتأملته ، إن هذه أيضا حال الجنود في الأقطار الأخرى ، فما أرى في جيش «بابل» ، على كثرته، سبقا على غيره !..

ودعانى الملك إلى حضرته ، وقد أرخى الليل سدوله، وقال لى فى زهو وخيلاء : أرأيت يا «سنوحى» عظمة ملك «بابل» ؟! ..

فركعت بين يديه وقبلت الأرض تعظيما له ، وقلت : حقا ياسيدى ، إنك لسيد أركان الدنيا الأربعة ، فليس على وجه الأرض قاطبة ملك مثلك عظمة وبذاخة سلطان وثراء ملك، وما شعرت فى حياتى بمثل ما شعرت به من الرهبة والجلال وأنا أستعرض جيشك اللجب الذى هو كرمال الصحراء عددا ، وكالجبال الشم قوة واعتدادا . ولا أخفى عنك ياسيدى أن عينى قد اعتراهما الجهد لطول ما تقلب عليهما من هذه الصنوف الرائعة لقوات الجيش طوال يوم كامل، فهو ما لم أر له شبيها فى مملكة أخرى !..

وطابت نفس الملك لهذه الكلمات المنمقة ، وقال: أما وقد حققت لك ما أردت فدعنا نسترح من عناء ذلك اليوم الطويل، ولنشرب الآن النبيذ ، ففيه راحة القلب وبهجة الفؤاد .

وخلال نشوة النبيذ الذى أخذنا ننهل كئوسه دراكا، كان يسألنى أسئلة سانجة . فأجبته عنها إجابات تسره وتضاعف مرحه. وقد أثار الشراب غرائز صباه ، فنهض من مجلسه ودعانى لمرافقته إلى جناح حريمه ، وكان ذلك أمرا غير مألوف ، ولكنه قال : إنك طبيبى ، ولا حرج عليك فى أن تكون رفيقى بين نسائى .

وقد رأيت عندما انتقلنا إلى جناحهن عددا كبيرا منهن يرفلن فى حلل موشاة بالجواهر الكريمة . وهن مختلفات الأجناس والألوان واللهجات والأعمار . ولكنهن جميعا نضرات جميلات يطفحن أنوثة ويتلهبن مشاعر ورغبات ، وقد أخذن يرقصن رقصا مثيرا أمام الملك ، ويتنافسن فى إرضائه وإبهاجه بكل الوسائل .

وعرض على أن أختار لنفسى إحدى جواريه الحسان ، فاعتذرت – فى أسف – معللا ذلك بأن بينى وبين إلهى موثقا ألا أقرب امرأة عندما أكون مقبلا على جراحة لمريض، وأن ثمة عملية من هذا النوع قد واعدت أحد رجال حاشيته بها فى الغد، ثم

استأذنت الملك في الانصراف ، فأذن ، وشيعني الجواري وأنا أغادر مقاصيرهن بنظرات تفيض أسى واستياء ، فأدركت أنهن جياع إلى رجل ، وظماء إلى المتعة الجنسية التي لا تواتيهن في بلاط الملك ، فقلما يتاح لهن الاتصال برجل مكتمل الرجولة ، فليس عندهن دائما إلا الخدم الخصيان والملك الصبي !..

وقال لي الملك وهو يصافحني مودعا : لقد فاضت الأنهار ، وسالت على الشطآن إرهاصا بحلول الربيع، وعلى مقتضى العادة اختار الكهنة اليوم الثالث عشر من يومنا هذا ، ليكون عيدا للربيع، واحتفالا بملك زائف . وقد أعددت لك في ذلك اليوم مفاجأة أعتقد أنك ستجد فيها تسلية ممتعة. وأكبر ظني أنني سأجد فيها أيضا هذه التسلية ، ولن أقول لك الآن ما هي ، فسأحتفظ بسرها لتصبح بها المفاجأة ولا أحرم من لذتها المتوقعة!.

وخرجت غير مطمئن كثيرا لهذه المفاجأة ، فلعلها أن تكون شرا من حيث يراها ذلك الملك الصغير مثار تسلية ومتاع ، وكان هذا إحساس «كابتاح» نفسه، حينما ذكرت له أمر هذه المفاجأة المستسرة ، فقد كان بطبعه أكثر ميلا إلى التشاؤم فيما لا يعرف كنهه ، ولا يستكنه خفاءه.

وفي الأيام التي تلت ذلك حرصت على مداومة الاتصال بالكهنة والمنجمين البابليين ، فأفدت منهم كثيرا مما أحتاج أن أعرفه من الأسرار في بلادهم وبخاصة التنبؤات التي حذقوا وسائل استقرائها ، فتعلمت منهم كيفية استنباء كبد الشاة ، وترجمة الرسوم التي تحدثها فقاقيع الزيت على سطح الماء.

ويجمل بي ، قبل أن أخذ في حديث عيد الربيع ويوم الملك الزائف ، أن أشير في معرض الكلام عن التنبؤات إلى حادث يتعلق بمولدي ، فقد قال لي الكهنة بعد أن استنبئوا كبد الشاة ورسوم الزيت على سطح الماء: إن هنالك سرا مرعبا يكتنف مولدك ، ولكننا لا نستطيع أن نستبين شيئا واضحا عنه ، وكل ما يمكن أن يقال إنك لست مصريا خالصا كما تقول ، أو كما تعتقد ، وإنما أنت غريب ، غير ظاهر النسبة إلى بلد معين في هذا العالم ! ..

وهنا قلت لهم فى غير تحفظ : الواقع أننى لم أولد ميلاداً متضح المعالم ، ومبلغ علمى به أن أمى وجدتنى بين أعشاب الشاطئ فى لفائف المهد على ظهر قارب من الغاب قذف به تيار النهر من جهة غير معلومة !..

فتبادل الكهنة النظرات ، وقالوا : ذلك ما أنبأناك به تضمينا ! .. واستطردوا يقولون : وكان هذا بعينه شأن ملكهم « سارجون » الذى خضعت أركان الدنيا الأربعة لحكمه ، وانداح سلطان ملكه من بحر الشمال إلى بحر الجنوب ، بكل ما بينهما من أقطار وجزر وشعوب . فهذا الملك وجد كذلك مولودا موسدا فى لفائف مهده، فوق ظهر قارب من الغاب متشابك العقد، تتقاذفه أمواج النهر ، ولم يعرف هو ، ولم يعرف أحد ، من هو ؟! ولا سر مولده ؟! . ولكن أعماله العظيمة بعد ذلك دلت على أنه مولود من الآلهة .

وخفق قلبى اضطرابا لهذه النبوءة، وحاولت أن أطرد أثرها من ذهنى، فقلت لهم: إنى على التحقيق لا أرى وجها لهذا القياس بالنسبة لى ، ومن أبعد مايكون عن الظن أن تحسبونى، أنا الطبيب ، مولودا من الآلهة ، فقد تكون هناك مماثلة فى الصورة التى وجد عليها كلانا ، أنا وذلك الملك ، فى الميلاد التائه ، ولكن لا سبيل إلى هذه المماثلة فى نشأة كل منا وظروف حياته .

فقال الكهنة : لا ندرى ! . ولكن الاحتمال الأرجح عندنا ، أنك وقد ظهرت للوجود من غير أب ولا أم معروفين ، فإنك إذن سليل آلهة ، ولهذا فنحن نحنى الرءوس أمامك إكبارا وتقديسا ...

وثقل هذا على نفسى ، ونكأ فى قلبى جراحا ظننتها اندملت ، فإنه لا شىء هو أشد تعذيبا لى من ذكرى مولدى ، وذكرى الأحداث المفجعة التى تتابعت بعده . وقد حاول الكهنة أن يبلغوا برأيهم فى أمرى درجة اليقين ليزيلوا من نفسى هذا الشك الصارخ ، فعادوا إلى ألواحهم يستطلعونها . ويتخذون من أوقات تقريبية لتاريخ مولدى أساسا لهذا الاستطلاع ، ثم قالوا : إن الطالع يقول : إنك إذا كنت قد ولدت

فى هذه الأوقات ، فإنك بلا شك منحدر من صلب ملك ومقدور لك أن تحكم شعبا عظيماً ..

ولكننى لم أصدق ولم أومن، واعتادتنى ذكرى الماضى أشد قسوة ، فقد تذكرت ، فيما تذكرت ، جرائمى فى « طيبة » ومقارفاتى الآثمة التى أشقيت بها أمى « كيفا» وأبى « سنموت»، وجردتهما من بيت الحياة ومن بيت الممات معا، فكان جزاء إحسانهما إلى ذلك الشر القاتل ، وهذا المصير الفاجع ، وقلت لنفسى : أى شىء من هذا الماضى الآثم يمت بصلة إلى أرواح الآلهة ؟! وأى شىء منه يؤهلنى لذلك المقام العظيم الذى ينبئون به ويعقدون به روابط الشبه والتماثل بينى وبين ملكهم السالف «سارجون» ؟! .

ولاح المستقبل فى عينى حالك السواد ، منذرا بالمخاوف ، ولم أر فى ثناياه إلا أننى خلقت شقيا ، وسأظل كذلك ...

- ٤ -

وجاء يوم « الملك الزائف» ، وإنه لمن أعجب الأعاجيب فى «بابل» . وهو يبدأ فيما جرت به عادة أهل تلك البلاد ، حين تنجم فى الحقول سنابل الحنطة ويأخذ برد الشتاء القارس فى إخلاء الطريق لدفء الربيع المنعش .

فى صباح ذلك اليوم ذهب الكهنة إلى خارج المدينة ليعودوا بإلههم من برزخة معلنين أنه قد نهض ثانية ، وعند ذلك انقلبت «بابل» إلى مسرح كبير تزاحمت عليه، فى شوارعها وأنحائها وميادينها ، جموع الناس فى أبهى أزيائهم يرقصون ويهزجون . وفى ضجيج وهرج شديدين أغار الدهماء على الحوانيت فانتهبوها ، وفى معبد الإلهة «عشتروت» تكاثرت السيدات والفتيات ليجمعن الفضة من أزواجهن ، أو من المؤهلين للزواج منهن .

وعلى كثرة ما عرفت من عادات «بابل» الغريبة فإني كنت أكثر دهشة واستغرابا، إذ رأيت رجال حرس الملك الخاص يقتحمون في مطالع فجر ذلك اليوم فندق «بيت عشروت للسرور» ويحطمون أبوابه ويهجمون على حجراته ويضربون كل من يلقونه هناك بمقابض حرابهم ، صائحين بأعلى أصواتهم قائلين : أين يختفي ملكنا ؟! .. إننا نريد أن يظهر من مخبئه على الفور .. فإن الشمس توشك أن تشرق، وينبغي أن يظهر قبل شروقها ليمنح رعاياه العدالة والبهجة ! ..

وجاوزت الضوضاء حد الاحتمال ، في حين كانت المصابيح لا تزال ترسل ضوءها في الفندق ، والخدم في ممراته ومداخله يغمرهم الفزع ويموج بعضهم في بعض كأنما قد اختلطت عقولهم ، فلا يدرى أحد منهم الوجهة التي يريدونها . وأصاب «كابتاح» من ذلك فوق ما أصابهم ، وظن أن زلزالا وقع فجأة بالمدينة ، أو أن كارثة تزحف على نزلاء الفندق ، فلم يجد لنفسه مخرجا منها ، أو هكذا خيل إليه ! إلا أن يختبئ تحت سريرى .

وأثارتني الضجة المفزعة من مرقدى فخرجت معجلا من حجرتي، وفوق جسمي العارى عباءة من صوف ، وقلت للجند الذين رأيتهم بالباب: علام هذه الضجة؟! وماذا تريدون في هذا الوقت غير الملائم ؟! إن من حقي أن أطالبكم هنا بحسن السلوك ، فإنني أنا «سنوحي» المصرى ، ولا شك في أنكم قد سمعتم بهذا الاسم..

وقبل أن أتم عبارتي صاحوا: إذا كنت أنت «سنوحي» حقا ، فأنت طلبتنا ومبتغانا ، ونحن منذ جئنا ، ننشدك ونفتش عنك !..

وفي حركة تنافسية مدوا أيديهم جميعا ليأخذ كل منهم بطرف من عباءتي ، ويتجاذبوها إلى أن ذهبت في أيديهم مزقا ، وبدوت عاريا أو شبه عار . وما إن رأوني كذلك حتى راحوا يتضاحكون ويسخرون ، ثم قالوا في لهفة: لا تضيع وقتنا ، وأسلم لنا في الحال خادمك ، فإنما جئنا لنذهب به على عجل إلى القصر بأمر الملك ، فهذا يوم « الملك الزائف » ، وقد شاء الملك أن يكون هذا يوم خادمك .. فهاته ، ولا تتردد .

وسمع «كابتاح» ذلك في مخفاه ، فأصابته من شدة الخوف رعدة اهتزت لها جوانب السرير ، فكشف بذلك لهم عن مكانه ، فمدوا إليه أيديهم وأخرجوه عنوة وهو يدافعهم مدافعة الخائف الوجل .. ولكن ما أشد ما اعترانا معا من الدهشة عندما انحنوا أمامه بعد ذلك في خضوع كبير، قائلا بعضهم لبعض : إننا في الحقيقة لذوو حظ سعيد إذ كنا أول من وجد ملكنا الموعود واهتدى إلى مكانه ، وإن أعيننا لقريرة بمرآه وبما لا بد أن نناله من أعطيته وهداياه ، كفاء كشفنا عنه ، وولائنا له . ولكن «كابتاح» كان كأنما سمرت عينه على وجوههم ، يطيل النظر فيهم مشدوها ، مضطرب الحواس ، لا يكاد يصدق أنه في يقظة ، وأن هذا الذى يسمعه يمت إلى الحقيقة بسبب قريب أو بعيد ، فكل غرائب الدنيا يجوز أن تجد لها مكانا من تصوره وخياله إلا أن يرسل الملك جنده في هذا الوقت ، وعلى هذه الصورة، ليحملوا إليه خادما مثله ، لا لينزل به عقابا على إثم ارتكبه ، أو ليأمن فراره من عقاب على جرم ، بل ليبوئه عرشه، ويقيمه ملكا على شعبه !. إن هؤلاء ، لا شك ، يقارفون معه حماقة لا تحتمل . وإنه لفي هذه الأفكار كالقطعة الصغيرة من بقايا سفينة محطمة في مضطرب الموج وعصف الأعاصير، إذا به يرى الجند يراودون ظنونه وشكوكه ويحاولون تأمينه من فزعه ومخاوفه، فيقولون بلهجة التأكيد : يقينا ، إنه ملك أركان الدنيا الأربعة .. هو ، هو ، ولا أحد سواه .

وعادوا إلى انحنائهم أمامه إعرابا عن طاعتهم وخضوعهم، ثم قادوه، وهو لا يستطيع فكاكا ولا هربا ، إلى الكرسي الذى أعد لنقله إلى القصر .

والتفت إليّ «كابتاح» وقال بصوت متهدج : لست أدرى إذا كنت الآن أقف على رأسي أو على قدمي !.. وربما كنت لا أزال أغط في نوم عميق ، مسترسلا في تيار حلم مزعج !. إن هذه المدينة التي ساقتنا إليها الحظ العاثر ، ليحتشد فيها كل ما في هذا العالم العريض من الهوس والجنون .. فما هذه الضجة التي تثار حولي، أنا الإنسان الذى يأبى إلهه «الجعران» أن يحميه؟! وعلى أية حال فليس لي أن أختار ، ولا مفر من أن أذهب مع هؤلاء الرجال الأقوياء، فلا قبل لي بهم. أما أنت يا سيدى

فإني أرجو أن تنجو بحياتك ، وكل ما أطمع فيه منك ، هو أن تحاول - بقدر ما تستطيع - إنزالي من فوق الجدران إذا علقوني عليها من الأعقاب ، وأن تمنعهم ، بكل ما ترى من وسائل ، من إلقاء جثتي إلى النهر، وأن تعني بتحنيطها حتى لا تحرم نعمة الخلود ..

وبدا على الجنود حينما سمعوه يتحدث هكذا ، أنهم كانوا يحسبونه معقود اللسان لا يستطيع الكلام ، فقالوا في شيء من البهجة والتفاؤل : بحق «مردوخ» إننا لم نر ملكا خيرا من هذا ! إنه يتكلم دون أن يتلعثم ، وذلك مالم نعهده في غيره ..

وكان نور الفجر قد أخذ يشيع في كل مكان عندما حملوا «كابتاح» إلى القصر لتبدأ من هناك مهزلة «الملك الزائف» ..

ولم أطق صبرا على هذا الحادث الغريب الذي انتزعوا فيه، بغتة ، رفيقي «كابتاح» ، ذاهبين به إلى المصير المجهول . فارتديت ملابسي مسرعا ، ومضيت في أثرهم إلى قصر الملك ، فراعني أن رأيت هناك تجمعات لا عهد لي بمثلها من أخلاط الشعب تملأ ساحات القصر ومداخله وحجراته الخارجية، وينبعث منها ضجيج صاخب كأنما قد استحال هذا المكان الرحيب إلى غابة تعج بالوحوش وتفهق بالعواء والزئير ، فما حسبت إلا أن الأمن قد اضطرب تماما وأن الزمام قد أفلت من أيدي حماته المسئولين ، وليس ما أرى إلا نذر مذبحة دامية وشيكة الوقوع ولا عاصم منها إلا إذا تواردت على عجل أمداد من قوات الأقاليم ، ولكن كيف ، ومتى تأتي ؟!.

واستطعت وسط هذا الموج الزاخر أن أشق طريقي إلى داخل القصر وألحق بالجنود الذين كانوا حينذاك يدفعون « كابتاح» إلى قاعة العرض الكبرى ، في حين كان بعضهم يخلي الطريق حواليه وأمامه، وقد رأيت الملك «بورنابورياش» جالسا ، كعادته ، على عرشه الذهبي، مرتديا حلته الملكية ، وصولجانه في يده، والأسد رابض تحت قدميه، وحوله يقف رؤساء الكهنة والمستشارون والمقدمون من رجال المملكة ، ولم يبد الجنود أي اكتراث به، عندما دخلوا عليه وأمامهم « كابتاح» . ورانت على الجميع

سحابة صمت بددها « كابتاح» فجأة بقوله للجند فى لهجة الأمر الصارم: أخرجوا هذا من هنا ، مشيرا إلى الملك، فلن أستطيع ولاية الحكم فيكم إلا إذا أخرجتموه ، وأخليتم مكانه، وإلا فإنى عائد من حيث جئت .

وقال جميع من فى القاعة بصوت رجل واحد : نعم .. فليخرج هذا الصبى من هنا ..لقد سئمنا حكم الصبيان الأغرار ، أما هذا الرجل (وأشاروا إلى «كابتاح») فإنه الحكيم العاقل الذى نرضى به ملكا وحاكما ! .

وأدهشنى أشد الدهشة ، أنهم ، فى مثل سرعة البرق الخاطف ، تكالبوا على «بورنابورياش» ليصبوا فى أذنيه كلمات غلاظا وعبارات بالغة الفظاظة وينزعوا الصولجان من يده ويجردوه من حلته وهم يسرفون فى الزراية به قائلين: يا لها من سخافة أن يحكمنا هذا الطفل ، وما نرى نساء القصر إلا أنهن أكثر منا ابتهاجا بخلعه وتنحيته ، فقد مللن عشرة طفل عاجز ، فهن سعيدات بلا شك إذ يجىء هذا الرجل المصرى القوى «كابتاح» ليملأ فراغا طالما شكون من وحشتهن فيه !

وتضاعفت دهشتى حين رأيت «بورنابورياش» يتلقى هذه الحملات القاسية اللاذعة ، ضاحكا غير معترض ولا متبرم ، وحين رأيت أسده المخيف مسوقا إلى خارج القاعة بقوة الجمع الحاشد ، وقد عراه الخوف والذلة ، فانطوى ذنبه بين ساقيه !.

وتحول هذا الجمع إلى «كابتاح» فألبسوه الحلة الملكية التى كانوا قد أعدوها على مقاس جسمه، ووضعوا الصولجان فى يده ، ثم رفعوه إلى العرش ، وخروا أمامه سجدا ، وكان « بورنابورياش» يفعل مثلهم وهو يقول : هذا هو ما يجب أن يكون ، وما يصلح هذا العرش إلا لهذا الرجل وما كان بالاستطاعة أن نختار خيرا منه.

وأدار «كابتاح» عينه الواحدة فيهم ، وهى تختلج اختلاجا متصلا لا تكاد تثبت على وجه واحد من هذه الوجوه المحتشدة له . وقد بدا كأن شعر رأسه لا يطيق

التاج الذى وضعوه عليه منحرفا ، وأخيرا استجمع - جاهدا - ما تشتت من قواه وقال لهم فى جرأة متكلفة : أما وقد صرت ملكا، فأين إذن شراب النبيذ؟ أيها الأرقاء : عجلوا به ، وإلا ألهبت ظهوركم بعصاى هذه ، ثم أمرت بتعليقكم من أرجلكم على الجدران ! . هلموا فأتونى به كثيرا وفرا ، لأروى به نفسى الظامئة وليشرب معى هؤلاء الأمجاد والأصدقاء ، فنحن فى يوم عيد سعيد .

فسرهم أن يسمعوا منه هذه الكلمات التى تنبئ بأنه قد اندمج فى الدور الذى فاجئوه به، وهذا هو الذى يريدونه منه إمعانا فى تزييف الحقيقة . ومن ثم تبادروا إليه فى موجة من الابتهاج فنقلوه مخترقين به الزحام المتكاثف إلى قاعة أخرى فسيحة أقيمت فيها موائد حافلة بكل شهى طيب من الطعام والشراب ، وتكوفوا على جوانبها يتناولون منها ماشاءوا ، وكان «بورنابورياش» يرتدى حينذاك لباس خادم المائدة ، فهو يدور عليهم بقوارير النبيذ وأطباق الحساء وينفلت من يده ما يحمله منها فيسقط على ملابسهم ، فيضحك لهذا كثيرا فى حين تتساقط عليه لعناتهم ، ولا يكتفى بعضهم بذلك فيقذفه بالعظام وفضلات الطعام !

وعندما كان هذا يجرى فى قاعة الطعام كانت الساحات الأمامية للقصر تموج موجا بجماهير الشعب ، وكان الطعام والشراب يوزعان عليهم كما كانت النعاج والثيران تذبح وتشطر أرباعا وتوزع عليهم لحوماً نيئة ليحملوها إلى بيوتهم ، إشباعا لسائر البطون فى اليوم الفريد .

وكلما ارتفع قرص الشمس فى الأفق ، ازدادت تجمعات الناس وشاع ضجيجهم وساد هرجهم .

وفى هذه الأثناء كان القلق يعترينى ويستبد بأفكارى ، وأخذت أسترق فرصة الاتصال من «كابتاح» حتى وجدتها فى تهالك الحاضرين على الشراب، فهمست فى أذنه قائلا : فلنهرب يا «كابتاح » .. هيا واتبعنى على الفور وفى حذر ، فمن وراء ما نحن فيه شر محتوم إذا لم نعجل بالفرار.

ولكن «كابتاح» كان قد أسرف في شراب النبيذ ، وأتخم جوفه بما أمامه من شهى الطعام . فنظر إلى منفعلا وقال: إن كلامك على أذنى كطنين الذباب وما أراك إلا مجنونا إذ تريد أن تخلى بينى وبين هذا النعيم ، وأن تنتزعنى من بين هؤلاء الكرام الفضلاء الذين أقامونى من تلقاء أنفسهم ملكا عليهم ، وانحنوا أمامى إجلالا واحتراما وخضوعا ! .. لا . لا . لست مجنونا مثلك .. ثم لوح فى وجهى بعظمة كان قد قضم لحمها بأسنانه، وصرخ قائلا : أخرجوا من هنا هذا المصرى الأحمق .

وقبل أن يهرعوا لتنفيذ أمره انفجر صوت نفير ، ووقف أحد الرجال على الأثر معلنا أن الوقت قد حان ليهبط الملك على أفراد شعبه ، حيث يوزع العدالة بينهم ، فانصرف الحاضرون عنى إلى «كابتاح» ليأخذوا بيده من فوق العرش ويقودوه إلى «دار العدل» .

فلما انتهوا به إلى منصة القضاء، قال إنه يدع الحكم فى قضايا أفراد الشعب إلى القضاة المختصين بها، فهو يثق فى قضائهم ويطمئن إلى عدالتهم ، ولكن أصوات الشعب انبعثت مجلجلة مرددة : لا نريد عن الملك بديلا ، إنما نريده هو بشخصه لنرى حكمته ونشهد عدله ، ولنستوثق من أننا لم نخطئ فى اختياره ملكا حصيفا عالما بقوانين البلاد .

وهنا لم يجد «كابتاح» مناصا من اعتلاء المنصة ومواجهة هذا الموقف الخطير . وقد وضعوا بين يديه السوط والأغلال وميزان العدالة ، وتتابع عليه أصحاب الشكايات ، واحدا فى أثر الآخر . فأصدر فى بعض أمورهم المعروضة أحكاما على قدر ما اتسع له ذهنه ، ثم توقف قائلا لمن حوله ، إنه يشعر بالكلال والتعب ، فقد شرب وأكل كثيرا ، ويرى ضمانا لعدل الأحكام أن يؤجل «جلسة القضاء» لوقت آخر . وأردف قائلا : وأريد أن أستجم وأستريح ، وليكن هذا فى جناح الحريم، إن زوجات الملك الأربعمئة هناك من حقهن أن يعرفن مليكهن الجديد!.. ذلك إلى أن من حقى أنا أن أتعرف إلى زوجاتى .

ونهض «كابتاح» ليدخل إلى القصر متجها إلى جناح هؤلاء الزوجات الأربعمئة .. وانهالت جموع الشعب خلفه لتملأ ساحة القصر .

هنا كف «بورنابورياش» عن الضحك الذى كان مسترسلا فيه وفاضت على وجهه سحابة قاتمة . وما إن رآنى حتى هتف بى منفعلا: يا سنوحى صديقى ، ولا أحد غيرك يستطيع إنقاذ « كابتاح » من الهاوية التى يوشك أن يتردى فيها ، فعليك أن تدركه على عجل ، وأنت كطبيب لك أن تغشى جناح الحريم ، لتمنعه من ارتكاب حماقة سيندم عليها ولا ينفعه ندم ، ولتقل له منذرا : إننى سأسلخ جلده حيا ثم أفصل رأسه من جسده وأعلقه على الجدران ليتخطفه الطير ، إذا امتدت يده إلى أية امرأة هنالك .

قلت له : أى «بورنابورياش» : أيها الملك ، إنى حقا لصديقك الذى يتمنى لك الخير والسعادة ، ولكنى اليوم لا أكاد أفهم شيئا من هذا الذى نحن فيه، وكيف أراك هكذا فى المنزلة الدنيا من هؤلاء الناس ؟! وأى فاجع أصار الملك العظيم خادما لا يؤبه له ؟ فهلا أخبرتنى أولا عن سر هذا كله ؟.

قال فى ضجر وامتعاض : هذا هو يوم الملك الزائف ، إن الناس هنا يعرفونه . فامض مسرعا إلى صاحبك قبل أن يقع الشر .

ولما رآنى مستأنيا لا أزايل مكانى ، أمسك بذراعى ليدفعنى إلى اللحاق «بكابتاح» فقلت له : إنى أجهل عادات مملكتك ، ولا علم لى بما تفعلونه، ولا أستطيع أن أخطو خطوة فى هذا الجو الغريب الغامض ، فأرجو أن توضح لى هذه الأحاجى والمعميات !

فأجاب وقد ازداد تململا وضجرا : إذن فاسمع ، ولا تكثر من الأسئلة حتى لا يضيع الوقت وتطم الكارثة. فى هذا اليوم من كل عام، يتمرد الناس هنا على الحقيقة الواقعة، فيزيفون لحياتهم يوما عجيبا ، ليس كمثله فى الزيف والشذوذ يوم . وقد رأوا أن ذلك لا يتحقق لهم على مسرة جامعة ، إلا فى أعلى وأرفع شخصية ، وهى شخصية «الملك» ، فهم فى يومهم هذا يختارون من الطبقة الدنيا أشد الناس غباء وأكثرهم خبلا جعلوا منه

ملكا عليهم من فجر اليوم إلى غروب شمسه ، ويمكنوا له خلال الفترة من كل أسباب الحكم والسلطان . وإمعانا في مظاهر الزيف والتلفيق يشترك معهم في ذلك ، الملك الحقيقي نفسه فينزل من الملك الجديد منزلة الخادم ، على الصورة التي تراني عليها الآن . وقد اخترت «كابتاح» لهذا الدور ، لما لمحت فيه من دلائل الغباء والخبل ، وهو لا يدرى ما سيحل به بعد قليل ، وهذا هو أغرب ما في ذلك اليوم الذى يسمى يوم الملك الزائف» !.

فقلت متسائلا في قلق : وما عسى أن يحل به ؟! .

قال : بمثل السرعة التي توج بها ملكا في الصباح ، سيذبح عندما يقبل المساء ! على أني أستطيع أن أجعل ميتته أهون من الذبح ، كما أستطيع أن أجعلها أفظع من ذلك . وقد كنت في مثل هذه المناسبة أترفق ببعض الملوك الزائفين ، فأدس لهم في النبيذ الذي يشربونه سما ، يلقى بهم في نشوة إلى نوم عميق ثم لا يستيقظون بعد ذلك ! .. ولك أن تختار أى المصيرين لصاحبك ..

قال هذا وهو يستحثني لإدراك «كابتاح » ، لكي لا يقترف في جناح الحريم مأثمة تثير غضبه فيفظع قتله .

وإني لأهم بالشخوص إلى «كابتاح» . إذ به يخرج علينا فجأة وهو يضطرب غضبا والدم ينحدر من أنفه ، ويده على عينه الواحدة ، كأنما يمسكها حتى لا تسقط ، فصحت به متسائلا : ماذا بك ؟ !

فقال ، وهو ينشج بالبكاء : جاءوني بفتاة حسبتها من حسان القصر ، فما كدت أقترب منها حتى انتفضت في وجهي كأنها حيوان مفترس ، ولطمتني على عيني لطمة قوية طار لها صوابي ، وتلاشت بها أحلامي ، ولم تقنع بهذا فضربتني بحذائها على أنفي .

وما سمع « بورنابورياش» هذا حتى ترنح ضاحكا... أما «كابتاح» فقد ظل يفهق بالبكاء كالأطفال ويقول : لن أجرؤ على الدخول مرة أخرى من هذا الباب . فتلك الفتاة ،

أعنى ذلك الحيوان الشرس ، ستقتلنى لو عدت إلى هناك ، إلا إذا جئت معى يا «سنوحى» لتفتح جمجمتها وتستل منها الروح الشريرة التى تسيطر عليها . وما أرى إلا أن تنال هذه المتوحشة عقابها الصارم ، فقد ارتكبت الخطيئة الكبرى حين فعلت هذا بى أنا سيدها ! .. ألا تنظر ياسيدى أن ضربة حذائها أسالت دمى وجعلت من أنفى عنق ثور مذبوح !

وهنا همس «بورنابورياش» فى أذنى قائلا : اذهب معه ... واستطلع الأمر بنفسك ، وعد لتخبرنى بما حدث . وفى ظنى أن الفتاة التى أحسنت استقبال سيدها «كابتاح» على هذه الصورة ، هى التى جىء بها إلى القصر بالأمس من جزر البحر، فإنى ألحظ عليها سرعة الانفعال والغضب ، ولعلها تكون بحاجة إلى جرعة من سائل «الخشخاش» لتهدأ أعصابها المستوفزة .

وقصدت ، بعد إلحاح منه ، إلى جناح الحريم ، فألفيت الجميع هناك فى هرج ومرج ، ولم أجد صعوبة فى الاختلاط بهم ، فقد كان الخصيان يعرفون أننى طبيب ، وأن هذه الصفة تخولنى الدخول إلى هذا المكان فى أى وقت . وقد استخف الفرح أكثر من لقيت من النساء ، وخاصة أولئك العجائز من الجوارى اللائى نيط بهن شرف خدمة الملك الزائف فى يومه هذا ، فقد ظهرن فى أبهى زينة، متأنقات فى أجمل حلل . وما إن رأيننى حتى أقبلن نحوى هاتفات : ماذا جرى له؟ إنه حبيبنا وزهرة قلوبنا ، نحن منذ الصباح فى انتظار قدومه السعيد .

ولكن الخصيان قالوا فى ضجر : لاتلق بالا لهؤلاء النسوة المتصابيات، لقد أسرفن فى شرب النبيذ تنافسا فى حظوة القبول لدى الملك الزائف ، وما بنا من حاجة إليهن الآن ، وإنما عندنا فتاة غريبة الأطوار وفدت علينا فى الأمس . ويخيل إلينا أن بها مسا من الجنون ، وقد اعترتها ثورة عصبية ، ولم نستطع كبح جماحها فهى فيما تبدو مخيفة ، ولم ينج أحد هنا من قدمها ركلا ، أو من يدها لطما ، وهى الساعة ، فى أقصى حالات انفعالها . وقد أمسكت بيدها سكينا ، فلسنا ندرى ما نصنع فى أمرها .

ومضوا بى إلى إحدى قاعات الجناح ، وهى كبيرة متسعة ، بوسطها بحيرة مستديرة ، تتخللها تماثيل الوحوش تقذف المياه من أفواهها ، ورأيت الفتاة التى تحدثوا عنها ، وقد اعتلت تمثالا من هذه التماثيل ، وكانت ملابسها مشوشة وممزقة ومبتلة ، وفي إحدى يديها سكين تلمع ، فى حين أمسكت بالأخرى التمثال الذى تستند إليه ، وشفتاها تختلجان وتتحركان ، كما لو كانت تتكلم ، ولكن خفق المياة بالبحيرة ، وصياح الخصيان .. قد جعلنى لا أسمع شيئا من كلامها .

كانت الفتاة جميلة باهرة الجمال على الرغم من شذوذ مظهرها ، وأحسست فى نفسى شيئا خفيا يجذبنى إليها ، فصرخت فى المحيطين بها أن اخرجوا ودعونى لأنفرد بها ، وأغلقوا صنابير المياه، فإنى أريد معها جوا ساكنا .. فانصرفوا ..

وفى هدأة المكان من الأصوات والحركة ، تبينت أن صراخها الذى تطيرنا به لم يكن إلا ألحانا ترتلها بلغة غريبة ، وكان رأسها إذ ذاك منحنيا إلى الوراء ، وعيناها ترسلان شعاعا قويا ، وهما فى مثل خضرة الهرة الوحشية ، وخداها فى مثل لون الورد توقدا واحمرارا .

ووجهت إليها الحديث قائلا فى عطف : دعى ما أنت فيه أيتها الهرة الصغيرة ، وألقى من يدك هاته السكين التى لا يجمل بفتاة أن تشهرها هكذا ، واقتربى من هنا ، فإنى طبيب ، وسأبرئك من علتك .

فأجابتنى بلغة «بابلية» مشربة باللحن : اقفز أنت إلى هذه البركة ، أيها القرد ، لأروى غيظى من دمك .

قلت لها : لكننى لا أريد بك شرا .

قالت : كل الناس يقولون هذا ، ولكنهم لايصدقون .. ولن أستطيع الاقتراب من رجل حتى لو كنت أريد ذلك .. فإنى موهوبة لإلهى لأرقص أمامه ، وليس لغيره مكان من نفسى أو جسدى. وهذه السكين فى يدى لأقطع بها يد أى رجل تمتد

إلى ، مهما يكن شأن هذا الرجل ، فكيف به إذا كان ذلك الشيطان ذا العين العوراء ، الذى انطلق نحوى منذ هنيهة كأنه وحش ضار أو حشية من نجاسة البشر ؟!.

قلت لها : لك ما تشائين ، ولكن دعى جانبا هذه السكين ، فقد تؤذين بها نفسك قبل أن تؤذى بها أحدا آخر ، ثم ما هذا الذى أراك تفعلينه وأنت الفتاة التى شروها بالأمس من سوق الرقيق بثمن غال لتكون حظية الملك ؟ .

قالت منفعلة : كلا . لست من الرقيق . ولو كان فى وجهك عينان تبصران لأدركت بهما أنى لست ممن يبعن رقيقا فى الأسواق ، وإنما أنا فتاة وقعت فى شباك الصائدين وقوع الطير الآمن .

ثم أردفت قائلة فيما يشبه الهمس : ألا يمكن أن نتحدث معا بلغة أخرى لا يعرفها هؤلاء الذين يضعون علينا من وراء الأعمدة آذانا متلصصة ؟

فأجبت بلغتى المصرية : إنى مصرى ، واسمى «سنوحى» ، وألقب بالوحيد ، وصناعتى طبيب ، وحسبك منى هذا لتطمئنى ولا تخافى .

عندئذ تغير موقفها فجأة، فانحدرت من فوق التمثال إلى الماء ، وسبحت فيه ثم خرجت منه والسكين فى يدها ، وألقت بنفسها أمامى وقالت : الآن أشعر بالطمأنينة والأمن ، فإنى أعرف فى المصريين الوداعة والرقة ، ومن خلائقهم ألا ينالوا المرأة قسرا ، ولهذا أضع فيك ثقتى ، وقد أسديت لى الآن فضلا ، إذ جعلتنى فى غير حاجة إلى هذه السكين التى كان من المحتمل فى هذا اليوم نفسه أن أقطع بها عروقى طلبا للموت حتى لا أقع فى أيدى أولئك الأنجاس ، فأتدنس ويلحق الدنس بإلهى عن طريقى ! وأرجو – إذا كنت تخشى الآلهة وتشعر نحوى حقا بالعطف – أن تعيننى على الخلاص مما أنا فيه ، وتأخذنى بعيدا عن هذه البلاد .

قلت لها : هذه مخاطرة غير مأمونة ، وأنا شخصيا لا أستطيع مساعدتك على الهرب ، فهذا يعد من جانبى شيئًا مجافيًا لصداقتى بالملك الذى دفع ذهبا كثيرا لتكونى إلى جواره فى هذا القصر العظيم ، الحافل بكل ما تصبو إليه فتاة طموح ،

وخير مما تفكرين الآن فيه أن تنزلى على حكم الأمر الواقع ولا يروعنك منه ما ترين فى هذا اليوم العجيب ، وهو اليوم الذى شاءت المصادفة أن يكون يومك الأول فى حياة القصر . وما أشك فى أنك ستغيرين رأيك تماما لو عرفت الحقيقة ! فذلك المخلوق الذى جيء به إليك منذ قليل، وأنكرت منه دمامته وقبح منظره، ليس هو الملك ، وإنما هو ملك زائف هو واحد من عامة الناس وأوزاعهم ، اصطلحوا فى عاداتهم الجارية على أن يجعلوا من مثله ، فى مثل هذا اليوم من كل عام ، ملكا زائفا ، يضحكون منه ويضحكون عليه ، ثم ينتهى أمره عند غروب الشمس . أما الملك الحقيقى الذى سترينه هنا فى الغداة ، فهو شاب غض الصبا، ريان الشباب ، صبوح المحيا ، لطيف العشرة. وأكبر ظنى أنك ستسرين به ملكا وصاحبا ، وستؤثرين معه تلك الحياة الجديدة الموفورة أسباب البهجة فأعدى نفسك له ، ولا أراك تخسرين شيئًا إذا استسلمت لما لا يستطاع اجتنابه ، ولا يشغلك عن ذلك ، التفكير فى سلطان إلهك ، إن سلطانه لا يصل إليك هنا .. ضعى أيتها الفتاة حدا لهذه الحماقة ، وتجملى كما ينبغى أن تتجمل فتاة فى عين مليكها ، وأصلحى هذا الشعر المبلل ، ووجهك هذا الجميل الذى تخضب كله بحمرة شفتيك !.

وكأنما أثارت عبارتى الأخيرة انتباهها إلى مالم تكن تدركه من أمر نفسها ، فراحت تتحسس بيدها .. شعرها وحاجبيها وشفتيها ، وتنفض عنها بقايا الماء ، ثم التفتت نحوى وقالت فى ابتسام : إن اسمى «مينيا» ولك أن تدعونى بهذا الاسم عندما نخرج معا ، هاربين من بلاد الشرور والشياطين هذه ، فلن أستطيع البقاء هنا ، على أية حال . وإنى أشعر أنك إنسان كريم ، وسوف لاتتخلى عن حمايتى ، أنا الفتاة الضعيفة مهيضة الجناح ، وإعرابا عن هذا الشعور ، أعطيك هذه السكين التى اعتددت بها حتى الآن فى حماية نفسى من غيلان البشر، فما عدت بحاجة إليها بعد أن أسلمت مقادتى إليك .

ولقاء إصرارها على هذا الموقف الغامض ، لم أر أن أطيل معها البقاء فى مكان تتناهبه العيون الراصدة ، فتركتها مهمومًا ، وشعرت – وأنا أنظر إلى سكينها فى

يدى – أنها غلبتني على أمري ، فإن هذه السكين لم تكن إلا الرباط الذى شاءت أن تصل به بين مستقبلها ومستقبلي ، وكان قبولي لها عهدا بذلك .

وتلقاني «بورنابورياش» خارج الجناح متلهفا على ما أحمل إليه من أنباء ، فقلت له : إن ما حدث كان نتيجة خطأ أولئك الذين لم يفهموا أن «مينيا» التى شروها له ليست إلا فتاة مخبولة العقل ، فلم يحولوا بينها وبين «كابتاح» وقد سبرت غورها فعرفت أنها تؤمن بإله يحظر عليها الاقتراب من الرجال ، وأرى لهذا أن ندعها على حالها إلى أن ينحسر عنها ذلك الشعور الغريب .

وعلى خلاف ما كنت أتوقع ، ضحك «بورنابورياش» ، وأشرق وجهه غبطة وهو يقول : هذا هو النوع الذى أحبه فأوثره من النساء ، إن العصا وحدها هى أفصح لسان يتحدث إليها ، وإنى لا أزال – كما ترى – شابا فتيا ، فهذا وجهى لم تنجم فيه شعرة واحدة ، ومن هنا يحلو لي أن أرى ألوانا جديدة من التسلية . ولقد أسأمني من نسائى ، التهالك والترامى فى طاعة واستسلام ، فسأجد إذن فى هذه الفتاة العصية المتمردة ، المخبولة العقل كما تقول ، كثيرا من اللذة حين أستمع إلى صراخها وهى تتلوى ألما من عصى الخدم وسياطهم ، وسيكون هذا عاجلا ، وفى هذه الليلة بالذات فليس من عادتى إرجاء الملذات .

قال ذلك وهو يفرك يديه فرحا ، فى حين كنت أنظر إليه مشدوها متحسرا ، فقد خاب فيه أملي . ومنذ هذه اللحظة شعرت بأنه لم يعد له فى نفسى أثر من محبة ، وافترقنا وسكين « مينيا » فى يدى ، وكأنها توحى إلىّ أن أفعل شيئا .

– ٥ –

وعافت نفسى هذه المظاهرة الحاشدة المتدفقة مرحًا وسرورًا ، فقد كان الناس يزدادون تجمعا فى أبهاء القصر وساحاته ، ويزدادون انكبابا على اللهو وشراب الجعة والنبيذ ، وهم من حول «كابتاح» يضجون ضجيجا متصلا بالتهليل والضحك.

وكان «كابتاح» قد نسي ما أصابه من لكمات موجعة وكدمات دامية بجناح الحريم في القصر ، فراح يضاحكهم ويفتن في المزاح معهم ، مأخوذا بنشوة الجو الذى صار فيه ، والشراب الذى استكثر منه . كانوا كلهم يهزجون ويطربون . ويتناهبون السعادة ، ويتنافسون فيها . وكنت أنا وحدى أقف من هذا كله قلقا ، مبلبل الفكر ، متشائما من العاقبة التى تطل علينا بوجهها الشاحب خلال الساعات القليلة الباقية من هذا النهار .

كانت الأفكار المتناقضة تعصف بعقلي عصفًا شديدًا ، فهذا «كابتاح» صاحبى ورفيق رحلتي سيصير بعد قليل فى عداد الموتى، هكذا سيكون ، وليس من هذا مفر ، إشباعا لشهوة الملك الشريرة ، ونزواته الجامحة ، واتباعا لعادة بغيضة جعلوا منها قانونا مقدسا وقدرا نافذا .. وهذه «مينيا» تلك الفتاة البريئة التى استودعتنى ثقتها وأملها فى الخلاص من الشقاء الذى تعانى منه أشد العناء . إن المسكينة لا تدرى الآن أى عذاب ستلاقيه فى المساء من هذا الملك الطائش المفتون ، فى حين أنها ترقب من ناحيتى اليد التى تفك قيودها وتطلقها من أسرها وذلها ! ..

كل من الاثنين «كابتاح» و «مينيا» ، فى موقف بالغ السوء والخطر ، وأشعر أن لكليهما فى عنقى واجبا ، هو واجب الإنقاذ من هوة أرى أنهما – من حيث لا يدركان – سيترديان فيها.

ولكن ماذا عساى أن أصنع لهما؟ إن حاجتى من «بابل» لم تنته بعد، فما زلت مفتقرا إلى كثير من العلم بأحوالها واستكناه أسرارها ، ولم أبلغ ما أريد من الإحاطة بخفايا علوم الكهنة التى يستنطقون بها الغيب فى كبد الشاة أو فى رسوم نقط الزيت الطافية على سطح الماء .

ثم هذا الملك «بورنابورياش» .. لقد توطدت الصداقة بينى وبينه ، وأصبحت منه بالموضع الأثير ، وفى ظل صداقته وثقته أطمع فى أن ينالنى منه خير كثير ، وسبيل ذلك ألا أعجل بالرحيل ، فلو أنا آثرت البقاء إلى جواره – طمعا فى نواله وتزيدا من

العلم والمعرفة في بلاده – فإني لقاء ذلك أقتل العاطفة التي تصرخ في أعماقي وتستحثني لدفع الضر عن رجل وفتاة تربطني بهما أوثق الأواصر ، وفي هذا تنكر للواجب ، وخيانة للأمانة ، ونكث للعهد ، وإن أنا طاوعت عاطفتي ، وأديت واجبي، فقد خسرت الملك وجزيل عطاياه، وقطعت سبيل علمي بما لا يزال مجهولا بهذا البلد ، ذلك إلى ما قد أتعرض له من أخطار ربما ذهبت بحياتي وحياة من أريد إنقاذهما !.

يالها من حيرة طاغية ! .. ولكن كان لابد لي من أن أختار .. فاخترت ، آخر الأمر ، أن أعمل على الفور لإنقاذ «كابتاح» و«مينيا» مهما كلفني ذلك ، وما ينبغي أن أتشبث بالبقاء في بلد لست من أهله أو أنشد فيه مغنما قد أجد منه بديلا في غيره . وفيم حرصي على صداقة ملك يستسيغ ، دون مراعاة لمشاعري ، أن يتخذ من خادمي أضحوكة يومه ليقتله في مغرب الشمس ؟! . إن هذا الملك ذا القلب الغليظ غير جدير بأن أرعى له عهدا ، أو آمن من شره .

وكانت الشمس حينذاك تشق عباب السماء آخذة سبيلها إلى مرفأ الغروب ، فهرولت لساعتي إلى شاطئ النهر ، ووقفت هناك على قارب ذي عشرة مجاديف ، وقلت لأصحابه: إن بي إلى قاربكم عاجلة ، ولكم ماشئتم على ذلك من أجر ، فإن لي عما ذا ثراء كبير قد أدركه الموت اليوم هنا . ولا مناص من أن أنقل جثته عبر النهر لترقد إلى جوار جثث آبائه وأجداده هناك في موطننا عند حدود بلاد «ميتاني» . وإني أعلم أن هذا هو يوم الملك الزائف وأنكم فيه لفي نشوة اللهو والشراب ، وقد يثقل عليكم أن تستجيبوا لرغبتي ، ولكن اليوم قد استشرف نهايته ، وأصبتم منه خير ما فيه ، ومع ذلك فإني مضاعف أجركم ، مجزل جزاءكم ، فالأمر يقتضيني البدار حرصا على نصيبي من ثروة عمي . ذلك لأن أبناءه وأخي هنا ، سوف يتنازعون عليها أو يتقاسمونها إذا أنا أبطأت في اللحاق بهم اليوم ومعي الجثة .

وكما كنت أتوقع، لم أجد منهم ترحيبا بهذه المهمة، ولا تفتحا لمغادرة الشاطئ ، استرسالا فيما هم فيه من لهو اليوم، فجئتهم بجرتين من الجعة ، وقلت لهم: إنكم

تستطيعون أن تستزيدوا من نشوتكم بهذا الشراب حتى تغيب الشمس ، فسأتحمل مضطرا إرجاء الرحلة إلى الليل من أجل متعتكم .

ولكنهم قالوا : مهما تكن أسبابك ودواعيك ، فإبحارنا خلال الظلام غير ممكن ، فهذه الليلة مليئة بالشرور- كبيرها وصغيرها- وسيحدث أن تفجأنا الأرواح الشريرة بصرخاتها المرعبة فتلقى بنا ويقاربنا إلى جوف النهر ، وربما ذبحتنا فلا يكون هناك أمل في نجاة ، فما لنا ولهذا أيها الرجل ؟!.

فقلت لهم : إن كان هذا هو ما يخيفكم ، فإني أؤكد لكم أن شيئا منه لن يقع، ذلك أنى أحفظ أسرارا تدفع الأرواح الشريرة ، وأنا رفيقكم وها أنتم أولاء تروننى مطمئنا غير خائف ، ثم إننى - مبالغة فى الاطمئنان والوثوق - سأتقدم إلى المعبد بالقرابين استدفاعا لأى مكروه محتمل فى هذه الرحلة، فلا عليكم من بأس أبدا. واذكروا ، ولا تنسوا ، أنى معطيكم من الفضة الكثيرة ما تخفت أمامه أصوات الشياطين .

وخفضت هذه العبارات من عنادهم وألانت صلابتهم ، وتبادلوا النظرات ، وهم يعبون من الشراب ، ثم قالوا : فليكن ما تريد .

وتركتهم آخذا طريقى إلى برج المعبد ، ولم يكن هناك إلا قلة من الناس ، فأكثرهم قد ذهبوا إلى ساحة القصر، فاشتريت شاة وذبحتها ، واستللت كبدها ، ورحت أسلط عليها نظرى مستقرئا ما فيها من سر ، ولكنى لم أتبين فيها شيئا يروى ظمئى ، ولم يسترع نظرى منها سوى أن لونها قاتم وأن رائحتها غير مستطابة، فأحسست بخيبة الأمل وجمعت ما سال من دم الشاة فى كيس من الجلد وعدت به عجلا إلى القصر .. وفى طريقى إليه رأيت طائرا يحلق من قريب فوق رأسى ، فتيمنت به واطمأن قلبى لمنظره ؛ لأنه كان من الطيور المعروفة عندنا فى «مصر» ، وتخيلت ساعتها أنه قادم من هناك ليلهمنى ، فى غمرات اليأس ، رباطة الجأش وانتعاش الروح..

وعندما بلغت جناح النسوة بالقصر أشرت إلى من هناك من خدم وحراس بأن ينصرفوا لأخلوا بالفتاة وأستخلص عقلها من الشيطان الذى صيرها مجنونة ! فأطاعوا وتركونى معها فى حجرة صغيرة ، وإذ ذاك كشفت لها الخطة التى رسمتها للهرب ، والدور الذى ستقوم به ، وأعطيتها السكين وكيس الجلد محتويا على دم الشاة ، فسرت بذلك ، وخرجت من حجرتها مغلقا بابها من ورائى ، وأخبرت الخدم والحراس بأننى جرعتها دواء لطرد الشيطان ، وعليهم ألا يفتحوا باب الحجرة حتى يتلقوا منى أمراً بذلك ، فهذا الشيطان عنيد وسيبطش بمن يفتحه قبل أن يلقى مصرعه فى الوقت الذى عينته ، وربما قضى على حياة الفتاة أيضا ، وهذا يثير سخط الملك ونقمته ، فأجابوا بالسمع والطاعة .

وعدت إلى حيث كان الناس لا يزالون يحتفلون «بكابتاح» ملكهم الزائف ، وهو مسترسل معهم فى اللهو الغامر ، والشراب المتصل والدعابات الماجنة ، و «بورنابورياش» قائم على خدمته ، مستغرق فى الضحك والثرثرة، فملت على أذنه وقلت له: إنك تعلم أن «كابتاح » خادمى ، ولهذا أرغب إليك فى أن تكون ميتته مريحة لا يشعر فيها بألم ، وبوسعى أن أحقق له هذه الراحة وهو يفارق الحياة، فذلك ، كما ترى ، حقه علىّ أو هو واجبى نحوه .

فقال : لك ما تريد ، فما يعنينى على أية صورة يلقى حتفه ، وإذن فينبغى أن تسرع إلى الرجل العجوز الذى يتولى إعداد وسيلة موته . لتشترك معه فى ذلك ، فلم يبق إلا قليل حتى يأتى الموعد الذى يلقى أجله فيه .

وكان الرجل العجوز الذى يعنيه هو «طبيب الملك» ، فمضيت إليه وقلت له: إن الملك بعثنى إليك للاشتراك معك فى إعداد كأس الموت ، فبدا عليه الارتياح لذلك وقال : جئتنى فى الوقت المناسب ، فما أحوجنى إليك فى الحقيقة ، إن يدى لا تكاد تثبت على شيء لفرط اختلاجها ، وكذلك تضطرب عيناى لكثرة ما شربت اليوم من نبيذ ، فهاك السم والنبيذ ، فامزجهما بنفسك .

ودون أن أثير انتباه الرجل استبدلت بالسم عصارة الخشخاش ، وألقيتها بكأس النبيذ بالقدر الذى يشيع الخدر فى «كابتاح» ويجعله فى مثل حال الموتى ، ولكنه لا يقضى عليه آخر الأمر .

وذهبت بالكأس إلى «كابتاح» وقلت له : أرى يا صحبى أننا قد لا نتلاقى مرة ثانية ، فقد أتيح لك من حيث لم تكن تقدر ، أن تبلغ أعلى قمم العظمة والسلطان ، ولم يعد مأمولا أن تعود إلى ما كنا فيه ، ففى هذه اللحظة السعيدة أرجو أن تتقبل من يدى هذه الكأس التى أقدمها لك تحية وتهنئة ، وسوف أقول مفاخرا عندما أعود إلى القطر المصرى ، إن سيد أركان الدنيا الأربعة كان ، فى أوج عظمته وأسعد أيامه ، صديقى ! ..

قال « كابتاح» : إن هذا المصرى يقول كلاما لا أكاد أتبينه ، حتى ليقع على أذنى كطنين الذباب ، على أنى مع ذلك أتقبل من يده كأس الشراب ، فما أكثر ما تناولت فى هذا اليوم من كئوس ، وإن رعاياى المخلصين ليشهدون أنى قد شاركتهم تماما فى سرورهم ومرحهم فلم أمتنع عن قبول كئوسهم المتلاحقة التى كانوا يتنافسون فى تقديمها إلىّ ، فهات كأسك أيها المصرى ، فسأشربها وإن كنت أشعر بما سيكون لهذا الشراب من قسوة على رأسى غدا .

وأفرغ «كابتاح» الكأس فى جوفه، وكانت الشمس قد توارت وراء مبتر الغروب ، فجاءوا بالمشاعل ومصابيح الإضاءة ، وران الصمت والسكون فجأة على القصر وسائر من فيه ، ونهض الحضور وقوفا فى خشوع ، وأحس «كابتاح» بوحشة المكان ، وكان الشراب قد استبد به ، فرفع التاج الملكى عن رأسه قائلا : لقد أتعبنى حمل هذا التاج الملعون وأشعر أن ساقى وأهداب عيونى تسيبت كأنها قدت من حديد .. وأريد الآن أن أذهب إلى فراشى لأنام .

ولكنه لم يستطع الوقوف على ساقيه ، فاستلقى على الأرض وسحب غطاء المائدة ليلتف به فى نومه ، فتهاوت بهذه الحركة جرار النبيذ وكئوس الشراب التى كانت على المائدة ، وسال كل مافيها عليه حتى صار كأنه فى بركة من نبيذ ، فأسرع الخدم

فنضوا عن جسده الملابس الملكية التي كان يرتديها . وجاءوا برداء « بورنابورياش» وألبسوه إياه ووضعوا التاج على رأسه وأجلسوه على العرش وفي يده صولجان الملك، وعندئذ قال «بورنابورياش» في لهجة ملكية آمرة : كان هذا اليوم مضنيا ، ولكنني مع هذا لم يغب عن فطنتي أن فيكم من لم يكن في غمرة المهرجان يوليني – متعمدا– الاحترام الواجب ، وربما توهموا أنني سأعجز عن استعادة عرشي، فهيا أيها الخدم، اطردوا هؤلاء الناس وأضربوهم بالسياط وأخلوا منهم ساحات القصر، وطهروها من دنسهم وقذراتهم ، وضعوا جثة هذا الأحمق في جرة الأبدية ، فقد سئمت النظر إلى وجهه القبيح .

وجاء الطبيب العجوز وتحسس بيده المرتعشة جسم «كابتاح» الممدد على ظهره ، وأعلن أنه قد مات فعلا ، فحملوه وألقوه في وعاء كبير من الطين يستعمله البابليون لمواراة جثث الموتى ، وأوصدوه بسدادة من طين ، وأمر الملك بأن يذهبوا به إلى قبو في أسفل القصر ويضعوه إلى جانب أسلافه من الملوك الزائفين!

وهنا تدخلت قائلا : إن هذا الرجل مصرى ، كان خادمي، ولنا في مثل هذه الحال عادات وتقاليد ، فأرجو ، وقد انتهى أمره من هذه الحياة ، أن تدعوه لي لأحفظ جثمانه وفقا لتقاليد بلادنا ، وأزوده بما تفرضه علينا هذه التقاليد من أشياء يحتاج إليها في رحلته الطويلة إلى الأرض الحمراء . وتدبير ذلك – فيما جرت به العادة – يستغرق زمنا يتردد بين ثلاثين وسبعين يوما ، فالأمر في هذا منوط بمكانة الشخص الميت في حياته ، وقد لا يزيد الوقت بالنسبة «لكابتاح» على ثلاثين يوما ، وسأعيده إليكم بعد انقضاء هذه المدة لتدرجوه إلى جانب أسلافه بالقبو المعد لذلك .

واستمع «بورنابورياش» إلى هذا الكلام مستغربا ، ثم قال : مادامت هذه هي العادة في بلادكم فاصنع به ماشئت ، فما أريد أن أخرق تقاليد الآخرين ، وقد يكون في مخالفتها ما يغضب الآلهة وأنا أصلي لهم ، ولست أحب أن أقع في ذنب يضطرني فيما بعد إلى الاعتذار إليهم .

ومن ثم أشرت إلى الخدم فحملوا وعاء الجثة إلى خارج القصر ، وقلت للملك وأنا أهم بالانصراف : سوف لا أستطيع التشرف بلقائك خلال ثلاثين يوما ، فعملية التحنيط تحتجزني عن الناس طول هذه الفترة ، ذلك لأنني لو ظهرت لهم فيها ، فإن الشياطين التي تتجمع حول الجثة تتسلل إليهم وتنفث فيهم الشر والأذى .

فوافق الملك على ذلك ، ولحقت بوعاء الجثة حيث استأجرت كرسيا لحمله . وبعد أن استقر فوقه ثغرت فيه ثغرة ينفذ منها الهواء إلى صدر «كابتاح» حتى لا يموت مختنقا . ثم خالست العيون وعدت متسللا إلى جناح النسوة بالقصر، وكان الخدم ينتظرون عودتي في لهفة وقلق ، فقد كان الملك على وشك أن يقدم عليهم وهم لا يعرفون ما يصنعون إذا ما طلب إليهم أن يحضروا إليه الفتاة «مينيا» . فنحيتهم عن باب حجرتها ودلفت إليها ثم انقلبت إليهم صارخا مصطنعا البكاء وأنا أقول : يا للداهية ، لقد وقع مالم يكن في الحسبان ! تعالوا فانظروا !.. إن الفتاة قد قتلت نفسها بالسكين ، ها هي مضرجة في دمائها والسكين إلى جانبها تقطر دماء .

وراعهم الأمر واعتراهم الذعر الشديد ، وأخذوا يولولون ، لا أسفا على الفتاة ، بل فزعا مما سيلقونه من الملك .

وقلت لهم : إنه الحظ السيئ ، ونحن فيه على درجة سواء ، وسبيل الخلاص من هذا المأزق أن تسرعوا بإحضار لفافة حصير نخفي الفتاة فيها ونقصيها عن هذا المكان ، وأن تسرعوا كذلك بإزالة الدماء السائلة على بلاط الحجرة حتى لا يلاحظ الملك شيئًا مما حدث ، ففعلوا ما أشرت به على الفور ، ثم أحاطوني بنظراتهم الواجلة كأنهم يقولون: وماذا بعد ذلك ؟ ! إن الملك قادم بعد قليل ، وهو إلى هذه الفتاة جد مشوق .

فقلت لهم : إني أعلم ما يجول بخاطركم ، فسيكون غضب الملك شديدا وعقابه صارما ، إذا عرف أن الفتاة قد قتلت نفسها ، وستحملون كما سأحمل معكم فعلتها ، وستحل بنا جميعا نقمته ، ولكنني أعلم أيضا أن الملك لم يجتمع بهذه الفتاة قبل ذلك ،

فهو لا يعرفها على وجه الدقة ، وليس أمامنا إلا أن نحتال لدرء الخطر عن أنفسنا ، وهذا ممكن بوسيلة واحدة ولا وسيلة غيرها ، وهى أن تجيئوا على عجل بفتاة أخرى تحسنون اختيارها من بين الفتيات الأجنبيات اللواتى لا يتحدثن بلغتكم ، وتجملوها باللباس والزينة حتى تروق للملك إذا ما قدمتموها إليه، وهو قد بلغه أن فى الفتاة «مينيا» شرسا وجموحا واختبال عقل ، فقرر أن يعذبها ضربا بالعصى والسياط ، لاعتقاده أنه بهذا يبرئها من أرواح الشياطين ، فافهموا هذا جيداً ، وسيجزل مكافأتكم إذا نفذتم أمره ، فقد صرح لى بذلك ..

فقالوا : هذا حسن ، وهو ممكن ، ولكن شراء فتاة أخرى يحتاج مالا .. فأعطيتهم نصف الثمن الذى قدروه ، وخرج بعضهم مهرولين ليعودوا بالفتاة التى يملئون بها فراغ «مينيا».

وأعاننى الآخرون فى نقل «مينيا» إلى خارج القصر ملفوفة بالحصير فوضعتها على حالتها هذه إلى جانب وعاء جثة «كابتاح» بالكرسى الذى استأجرته لذلك ، ثم رفعه الحمالون على كواهلهم ، فلما بلغنا شاطئ النهر أمرتهم بنقل الوعاء والحصير إلى القارب ففعلوا ، ونفحتهم قطعا من النقود الفضية وأوصيتهم بألا يذكروا شيئا مما رأوا لأحد إذا ما سئلوا ، فقالوا وهم فرحون بالنقود التى أخذوها : حقا ، إنك لسيد ممتاز كريم ، وثق أن فى آذاننا وقرا، وعلى عيوننا غشاوة ، فلم نر ! .. ثم انصرفوا ، وأنا غير واثق تماما من حرصهم على كتمان الأمر ، فهؤلاء من الأوزاع المستضعفين فى الأرض ، وسينفقون ما فى أيديهم من القطع الفضية فى الشراب بعد قليل وسيسلمهم الشراب إلى الثرثرة وإفشاء السر، ولكنى لم أكن أستطيع إلا أن أطلب منهم الكتمان تشبثا بالأمل الضعيف فيهم ، فقد كانوا ثمانية ولا قدرة لى على إلقائهم فى النهر لأتخلص منهم إمعانًا فى الاحتفاظ بالسر ..

وأيقظت مجدفى القارب بعد أن سويت على ظهره مكانا لكل من جثتى «كابتاح» و «مينيا»! وكانت رءوس المجدفين مثقلة بفعل الشراب الذى أسرفوا فيه ، فأخذوا ، وهم يتثاءبون ، يدفعون بالقارب إلى عرض النهر .

وعلى هذا تمت الخطوة الأولى لفرارنا من «بابل» ، ولم أكن حتى هذه اللحظة أستشف فيما فعلت سببا معقولا يبرره . لقد كنت مسوقا إلى ذلك بدافع خفي ، ولا شك في أنه كان قدراً مقررا في طيات الغيب المجهول ، وما أكثر ما أعاني من أقدار الغيب التي تقررت لحياتي قبل أن أولد .

"مينيا"

- ١ -

ومضى بنا القارب موغلاً فى النهر ، وشيئًا فشيئًا كانت «بابل» تتوارى عن عيوننا ، فازداد بذلك أمنًا ، ولم تعد تهجس فى نفسى خشية من احتمالات المطاردة فى بقية الطريق ، فالرقابة على النهر غير مفروضة ليلاً . وعندئذ حاولت أن أسلم جسمى المنهك إلى النوم طلبًا للراحة .. ولكن «مينيا» فى تلك اللحظة تجردت من وثاق الحصير وراحت تغرف بيديها من ماء النهر وتمسح به الدماء التى علقت بجسمها وتقول مؤنبة : أطعت أمرك فتدنست بهذا الدم الذى لا أعرف كيف أخلص نفسى من خطيئته ومن خبث رائحته ، فقد ألقيتنى بذلك فيما أكره وكأنه لم يكفك هذا! فلففتنى بهذا الحصير لفًا شديداً حتى صرت لا أستطيع الآن ترديد أنفاسى .

وضقت بكلماتها هذه أشد الضيق ، فقلت لها ضجراً : إليك عنى أيتها الفتاة الملعونة ، أتتذكرين الدم والحصير ولا تذكرين أن لهما عليك فضل الخلاص الذى كنت تنشدينه بجدع الأنف ؟!.. ثم لا تذكرين - أيتها العاقة الجاحدة - أننى بسببك وفى سبيل خلاصك قد فقدت الكثير مما ليس فيك من بعضه عوض ، واستهدفت وما زلت مستهدفًا لما لا أدرى من أخطار فادحة ؟!. ألا تعلمين - أيتها الغبية - أننى لولاك لبقيت فى «بابل» صديقًا للملك ودانيًا من عرشه ، وظافراً بما شئت من أعطيته وهداياه ؟!.. ولولاك لظل حبل اتصالى بكهنة البرج ممدوداً ، أستزيد من حكمتهم ، وأستبين المحجب من أسرار طبهم ، لأصبح بما أضيفه من علومهم إلى علمى أحكم طبيب فى العالم ؟! ولولاك لبقيت هناك طبيبًا موثوقًا به من الجميع موفور الربح بما أتقاضاه من غالى الأجور وسخى المكافأة ؟! كل هذا قد فقدته فجأة من أجلك واستجابة لرغبتك ؟! وأكثر من هذا فإننى للعجلة التى اقتضاها ضيق الوقت وفرضها

الخوف من كشف السر والوقوع في الخطر ، لم أتمكن ، بل لم أجترئ على استبدال النقود بالألواح الطينية من بيت الصراف بالمعبد ، وأنت بعد ذلك حانقة مغضبة ؟!.. وأشعر في الحقيقة أنني كنت أكثر منك حمقًا وغباء ، فما كان ينبغي أن أقذف بنفسي إلى هذه الهوة السحيقة ، مأخوذًا برغبة تافهة تصدر عن مثل عقلك الملتاث ، وما كان يجدر بي إلا أن أدعك للملك ليلهب ظهرك بالسياط ، فذلك هو الدواء الذي كان قد أعده لك في هذه الليلة ، ويبدو أنه هو الدواء الناجح لك !.. على أن باستطاعتك الآن أن تلقي بنفسك في النهر لتذهبي إلى بطون حيتانه مطهرة من الدم الذي تكرهينه ...

قالت وهي تحدق في ماء النهر الذي كان يسطع تحت ضوء القمر كأنه سبيكة من لجين : إذن فليكن ما تريد !..

ونهضت لتلقي بنفسها في الماء .. فأمسكت بها قائلاً : ألا تكفين عن ارتكاب الحماقات ؟!.. إنك إن تفعلي هذا فلن أفيد منه شيئًا بعد ما كان ، فتعقلي وقدري الموقف الذي نحن فيه ، وإلا فقد ضاعت عبثًا كل محاولاتنا وجهودنا ، وأستحلفك بجميع الآلهة أن تدعيني قليلاً لأنام في هدوء ...

فانحسر عنها الروع والجموح ، في حين تمددت أنا على أرض القارب ، وكان جو الليل باردًا ، فاتخذت من الحصير غطاء واقيًا ، واقتربت هي مني هامسة : إذا لم أستطع أن أفعل لك شيئًا أيها النائم المقرور ، فلا أقل من أن أدنو هكذا منك لأدفئك .

وكان التعب قد أخذ مني مأخذه ، فاستسلمت ، مستدفئًا بجوارها إلى نوم عميق . واستيقظت بعد طلوع الشمس لأرى المجدفين قد قطعوا مرحلة طويلة ، ولكنهم كانوا برمين بعملهم ، باديًا عليهم التعب ، ويقولون أليس لهذه الرحلة من آخر ؟ لقد أجهدتنا ، وثقل العمل علينا حتى كلت سواعدنا وظهورنا ، وكأنك تريد أن تقضي علينا ، ولا نعلم لماذا العجلة فهل في بيتك هناك حريق تستحث السير إليه لتطفئه ؟!..

ولمحت في وجوههم بوادر الشر والتمرد ، فكان على أن أستعمل معهم الحزم والصرامة حتى لا يفلت زمامهم من يدى ، فقلت لهم منذراً : إذا لم تنشطوا وتمضوا في عملكم جادين فإن عصاى التي ستوجع ظهوركم كفيلة أن تدفعكم إلى ذلك دفعًا ، ولن آذن لكم بالتوقف إلا عند الظهيرة ، وحينئذ تنالون راحتكم ، وتأكلون وتشربون ما شئتم ، وسأعطى كلا منكم من نبيذ البلح ما يجعلكم في خفة العصافير ونشاطها . واعلموا أن بوسعي ، إذا أبطأتم ، أن أسلط عليكم جميع الشياطين لتنهش أبدانكم وأرواحكم ، فإنني كاهن وساحر في وقت واحد .

ولكنهم كانوا من العناد والتبلد بحيث لم يؤثر فيهم وعيدى ، فأخذوا يتبادلون نظرات خبيثة ، فهمت منها أنهم يحسبونني غير صادق فيما أزعمه من القوة ، وإنهم على النقيض يستطيعون الفتك بي ، فهم عشرة أشداء ، وأنا واحد ، وقد هم أحدهم فعلاً ، وكان أقربهم مني ، أن يضربني بمجدافه . غير أنه أمسك فجأة لأن وعاء الطين الذي يندرج «كابتاح» في جوفه قد أخذ يترنح وتنبعث من جوانبه صرخات غير واضحة فارتاعوا وانزعجوا وشحبت وجوههم هلعًا ، وكأنهم تخيلوا الموت مقبلاً عليهم من هذا الوعاء الغريب ، فألقوا بأنفسهم في النهر فراراً منه ، وقد أبعدوا في سبحهم حتى غابوا عن نظرى .

وصار القارب ، بعد أن خلا منهم، يتأرجح ويضطرب بفعل التيار العاصف ، وأحسست أنه يوشك أن ينقلب بنا ، فأسرعت بإلقاء «المرساة» إلى قاع النهر لتمسكه .

وهنا ظهرت «مينيا» على سطح القارب ممشوقة القوام ، مسواة الشعر ، مشرقة الوجه ، وكانت الشمس قد ازدادت سطوعًا وبهاء ، والطيور بين الأعشاب والحقول القريبة ترسل إلينا شدواً مطرباً ، فزايلني في هذا الجو البديع ما كان قد اعتراني من خوف وارتباك ، وخطوت إلى جرة «كابتاح» فرفعت سدادتها وهتفت به ليخرج منها ، فأطل برأسه وكان منظره مثيراً حقًا وانطلق لاعنًا ساخطًا مردداً عبارات هاذية كقوله : أية حماقة هذه ؟ أين أنا ؟! وأين تاج ملكي وصولجان سلطاني ؟! وأين الملحفة التي

أدافع بها هذا البرد القارس ؟ وما هذه المطارق التى تدق فى رأسى .. ولماذا تصلبت أطرافى هكذا فلا أستطيع لها حراكًا كأنها استحالت حديدًا أو رصاصًا ؟ أيمكن أن أصير إلى تلك الحال وأنا الملك العظيم ؟ لا شك أنك يا «سنوحى» تعبث بى على عادتك جاهلاً أنى أصبحت ملكًا آمرًا ؟ ألا فاحذر عاقبة ما تفعل ، فمن أخطر الأمور معابثة الملوك أو محاولة المزاح معهم .

فقلت له : إنك تهذى هذيانًا سخيفًا يا «كابتاح» ، ولكنه النبيذ الذى تجاوزت فى شرابه حد الاعتدال فذهب بالبقية الباقية من عقلك ، فلعلك بعد لا تعود لمثل هذا ، وقد آن أن تصحو وأن تندم ، وعليك أن تذكر أننا أبحرنا معًا من «بابل» على أحسن حال ، فسولت لك نفسك أن تشرب النبيذ وأن تفرط فيه ، فما لبثت حالك أن تغيرت ورحت تحدث بالقارب هرجًا لا يطاق وحملت على النوتية حملات قاسية بالقول البذىء والشتائم النابية ، مما اضطرهم إلى أن يضعوك حيث أنت الآن فى جرة من طين ليأمنوا شرك . والعجيب أنك خلال هذيانك كنت تتحدث عن الملوك والقضاة كما لا زلت تتحدث الآن ، وهو شىء غير مألوف فى خواطر أمثالك حتى لو فقدوا وعيهم تمامًا .

وأغمض «كابتاح» عينيه سابحًا فى خضم من ذكريات الأمس التى تتحول فى حديثى معه إلى خرافة وهذيان . ولم يستطع وهو يراجع نفسه أن يربط بينها وبين الحقيقة ، فمن المستحيل أن يكون وهو ذلك الإنسان التافه قد صار ملكًا محتفلاً به من شعب بأكمله فى لحظة واحدة، بل فى يوم كامل . وإذن فالواقع ، كما قلت له ، أنه أسرف على نفسه فى شرب النبيذ، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، وهنا قال : أنت على حق يا سيدى ، فلعنة الآلهة على النبيذ وشاربه ، ولن أعود إليه . لقد غيبنى عن هذا الوجود ، واستبد بعقلى وطار به إلى آفاق حاشدة بالمخاطرات . وقد تخيلت أنى لم أكن فيها صريع الشراب الملعون ، وإنما كنت محمولاً على أجنحة «الجعران المقدس» ، ويا له من خيال ذلك الذى جعلنى ملكًا وأجلسنى على العرش وجمع الناس حولى لأوزع العدالة بينهم ، ثم يدخلنى على مقاصير النساء بالقصر الملكى لتلاقينى

هناك فتاة رائعة الجمال ، إلى أشياء أخرى كثيرة لا خير فى ذكرها الآن ، فقد كانت خيالاً كاذبًا .

وحانت منه التفاتة ، فرأى «مينيا» على الطرف الآخر من القارب ، فعاد يدس رأسه فى الجرة ويقول فى صوت خافت : يظهر يا سيدى أننى ما زلت مخمورًا أو حالمًا ، فكأنى أرى بهذا القارب فتاة القصر التى لقيتها بالأمس . إن ذكراها تزعجنى ، فكيف بى وأنا أراها ملء عينى ؟! ثم وضع يده على عينيه التى تبدو عليها آثار اللكمات ، وأمسك بأنفه المتورم ، وراح يئن ويتوجع .

ولم يطل استخفاؤه بالجرة ، فقد جاءت «مينيا» وأمسكت بشعر رأسه وراحت تشده بكلتا يديها وتقول له : ألست أنت الذى أزعجتنى بالأمس ؟! إنك هو بلا ريب وما أنا بتاركتك بعد .

فزاده هذا هلعًا وأرخى رأسه وهو يغمض عينه مخادعًا نفسه بأنه لم يزل نائمًا وأن هذه الفتاة ليست إلا سرابًا من رؤى النوم . وكان يقول فى رعدة الخائف : رفقًا بى يا آلهة مصر جميعًا .. لقد كرهتم منى أن عبدت آلهة أخرى وضحيت من أجلها ، فصببتم نقمتكم على رأسى ، فاغفروا لى هذا الذنب الكبير ، وامنحونى رحمتكم وعونكم فقد حل بى ما لا طاقة لى به من عذاب .

ونحيت عنه «مينيا» وأخرجته ، بعد ملاحاة ، من الجرة وسقيته سائلاً مرًا لغسل أمعائه وربطته بحبل ودفعت به إلى النهر ليذهب الماء بما بقى فى رأسه من أثر الخشخاش والنبيذ ، وتركته بعض الوقت يغوص ويطفو وهو يصرخ محتجًا تارة ومستنجدًا تارة أخرى ، ثم شددته بطرف الحبل الذى كنت أمسكه به حتى عاد إلينا فوق سطح القارب مجهدًا متلاحق الأنفاس .

وقلت له : لقد عصيتنى وأبقت من طاعتى ، وأنا سيدك ورفيق غربتك ، فحق عليك ما لقيت من عقاب . ولعل أن يكون لك فى هذا عبرة واعظة فلا تعد إلى مخالفتى . واعلم أنك لم تكن يا هذا فى خبال مخمور أو فى حلم نائم ، وإنما كنت حقيقة ملكًا

تقتعد عرشًا وتحمل تاجًا وصولجانًا وتجلس بين الشعب مجلس القضاء ، كل هذا قد حدث فى دنيا الواقع ، ولكنك كنت كذلك لساعات تنتهى فى مغرب الشمس ثم تنتهى بنهايتها حياتك وتلقى مقتولاً كالحشرة القذرة في هذا الوعاء إلى جانب من سبقوك من ملوك زائفين !.. على أنى فى اللحظة الأخيرة تدخلت محتالاً لإنقاذ حياتك .

ثم قصصت عليه القصة من بدايتها إلى نهايتها ، وكنت أعيدها وأكررها لترسب فى ذهنه القلق الشارد . وأخيراً قلت له : وعلى أية حال فلندع ما كان إلى ما هو كائن ، فنحن اليوم فى موقف بالغ الخطورة ، وحياتنا جميعًا أصبحت مستهدفة لأسوأ الاحتمالات ، فعليك أن تسترد صوابك كاملاً وتعيننى فى الإسراع لبلوغ أرض «ميتانى» قبل أن يكتشف الملك أمرنا ويلحق رجاله بنا ، وحينذاك لا يكون لنا من الموت مهرب .

ولكن «كابتاح» بعد إطراق وطول تفكير أخذ يفرك يديه ويعبث بشعر رأسه ويقول : إذا كان ما حدث صحيحًا كله كما تقول ، فإنى إذن قد تجنيت على النبيذ ولم أكن عادلاً فى الحكم عليه باللعنة ، ولهذا فإنى أعتذر إليه ، وسأشرب منه نهلاً وغللاً حتى يرضى ، وما دام يوم أمس قد مضى دون أن أفارق الحياة ، فإنى لسعيد بذكرى أحداثه اللطاف الممتعة . والحق أنه كان يومًا عظيمًا ليس كمثله فى العمر الطويل يوم !.

قال هذا وانفلت من بين يدى إلى قمرية القارب ففتح إناء النبيذ . وراح يعب منه وهو يرتل عبارات الثناء والدعاء لآلهة «مصر» و «بابل» ويذكرهم بأسمائهم ، وما زال هكذا حتى ارتمى على الأرض ليدخل فى نوم ثقيل ، مرسلاً من صدره شخيراً مزعجًا خلته رغاء الجواميس فى النهر !..

وأضجرنى منه هذا السلوك الطائش ، فهممت أن ألقيه بالماء ، ولكن «مينيا» دافعتنى عنه قائلة : لا أرى فى تصرفه ما يثير إلى هذا الحد ، لقد قضى وقضينا نحن كذلك يومًا حاشداً بالعناء والمضايقات ، فلا عليه أن يجتر نفسه منه بهذا

الأسلوب ، ولا علينا ، أنا وأنت ، إذا جرينا مجراه ، فنشرب ونطرب ، وحسبنا ما لقينا بالأمس ، وإننا الآن من هذا النهر في موقع غير مخيف ، فهذه الأعشاب التى تدانينا قمينة إن تخفينا عن العيون إن كان ثمة عيون تطاردنا ، ثم هذا الجو الرائق الجميل الذى يتنضر بأشعة الشمس منعكسة على صفحة الماء ، والطيور من حوالينا تزقزق وتغنى ، وحقول القمح على حفافى النهر مزهرة بخضرتها وازدهارها ، أليس فى هذا ما يغرينا بالمتعة ويستخفنا إليها ؟! فما بالنا لا نفتح قلوبنا للسعادة وهى ترفرف علينا بأجنحتها !.. أما أنا فشاعرة بالبهجة تغمر قلبى ؛ لأننى على الأقل قد تخلصت من أسر الرق والعبودية .

قلت لها مستسلمًا : أما وقد صرت مجنونة كما قد صار (كابتاح) مجنونًا ، فلا يسعنى إلا أن أكون مجنونًا مثلكما !.. وفى الحق إنه لا معنى لهذا الخوف الذى يركبنا من الموت ، فكل شيء مقدور علينا فى السماء قبل أن نولد ، وسواء عندى أوقع موتى اليوم أو غدًا أو بعد عشرة أعوام ، فهو واقع على أية حال ، وهذا هو ما ألهمنيه كهنة البرج فى « بابل » وهم على صواب .

وعلى هذا ، انطلقنا نلهو فنزلنا إلى النهر وسبحنا فيه وخرجنا منه ، فجففنا ملابسنا على حرارة الشمس ، وأخذنا نتناول الطعام ونتساقى النبيذ ، وذكرت «مينيا» إلهها ، فراحت تندمج بروحها فيه وترقص له ، وكانت رائعة فاتنة ، وأحسست بأنها قد اقتحمت قلبى بجمالها الساحر ، قلت لها : حدث مرة واحدة فى حياتى أن تسللت سيدة جميلة إلى قلبى فملأته ، وكنت أناديها «أختى» ! ، ولكنها سحقتنى ودمرت حياتى !.. وإن فيك لجمالاً فاتنًا ، وفتنة آسرة ، وأخشى أن أحترق مرة أخرى فى المصهر نفسه !.

فحدجتنى بنظرها وقالت دهشة : أكبر ظنى أن سيدات بلادكم غريبات الأطوار، فاسدات الطباع ، وهن بهذا يختلفن تمامًا عن سيدات بلادنا . على أنه مهما يكن

الأمر فإنك تستطيع أن تطمئن من ناحيتي فلا شيء هو أبعد عن أهدافي من مواصلة الرجال أو الاندماج فيهم ، وذلك لأن إلهي يحرم على ذلك ويمنعني منه ، ويقتلني إن فعلته .

ثم أخذت برأسي بين يديها ، وأمالته حانية على ركبتها وقالت : إن تصورك النساء على هذا النحو ينبئ بأن في خلايا هذا الرأس غباء وهو شيء مؤسف ، فكما أن الرجال ليسوا كلهم سواسية أو على خلاق واحد ، فإن النساء مثلهم كذلك تناقضاً واختلافًا ، وإن كان من بين النساء سيدات يسممن الآبار ، فإن من بينهن سيدات يشبهن عيون الماء الجارية وسط الصحراء القاحلة ، أو يشبهن الندى فوق الأعشاب الذاوية والحشائش الجافة . ولكنه الغباء الذي يستكن في رأسك هذا ، هو الذي أخفى عنك هذه الحقيقة ، على بساطتها ووضوحها ... ومع هذا فإني لألمح في عينيك شيئًا يثير الإغراء ، ولكنني أسفة وحزينة معًا لأنني غير قادرة على الاستجابة لنداء هذا الشعور الخفي !.. تلك إرادة إلهي ، وأنا أخشى إرادته وأقدسها .

وقد استهواني حديثها ، فأمسكت بيديها البضتين مداعبًا وقلت لها : «مينيا» !.. يا أختي لا تضلي طريقك كامرأة مسحورة بعقيدة خاطئة في الآلهة ، وكائنًا ما يكون إلهك ، فإنه لا يمكن أن يرتضي لك هذا الحرمان في دنيانا الزاخرة بالمتاع، وإنك لتصورينه ظالمًا وقاسيًا حين تعتقدين أنه فرض عليك ذلك ، فما عرفنا الآلهة إلا سماحًا رحماء ، وهم بالطبع أكثر تسامحًا ورحمة مع المؤمنين صادقي الإيمان من أتباعهم . على أنه لا يجب أن تسرف العقول المستنيرة في الفناء في الآلهة على نحو ما تفعلين . وصدقيني ، لقد بلوت الكثير من أمرهم ، وعرفت من حقائقهم ما لا تعرفين ، وما ظنك يا أختاه بآلهة يصنعهم الناس بأيديهم ثم يرفعونهم بالأيدي نفسها ليعبدوهم ويستشعروا الخوف منهم ؟! فليكن رأيك فيهم ما يكون ، أما رأيي فالأمر لا يعدو أن يكون وهما بولغ فيه حتى صار عقيدة ، ومع ذلك فأكثر الناس يتبعون الآلهة ويعبدونهم ويتقربون إليهم زلفى ، ولا يمنعهم ذلك من مباشرة وظائفهم البشرية التى لا تعمر الدنيا بغيرها ، فلو أن الرجال والنساء تحاجزوا وتقاطعوا واستدبر بعضهم

بعضاً لخلت الأرض منهم جميعًا، ولما بقى عليها من يعرف ربًا أو يعبد إلهًا . ولا شك أن الآلهة لا يريدون ذلك ، فأنت إذن تنحرفين عن إرادتهم ، وتذهبين فى الحياة مذهبًا يجافى مشيئتهم ، فدعى عنك هذا ، ولا تخشى إلهك كل هذه الخشية ، وتعالى إلىَّ لنمضى بعيداً إلى بلاد لا يمتد إليها سلطانه ، فنأكل معًا الأسماك والطيور ، ونتقلب على الحشائش وننام على الأعشاب ، هناك وسط قبائل بادية ، تحيا بالفطرة وتعيش عليها ، حيث الانطلاق من قيود المدن وأسر التقاليد ، ومخافة الآلهة وسطوة الملوك ، ونظل على هذا إلى آخر حياتنا ، سعيدين ناعمى البال .

ولكننى بهذا الحديث لم أبلغ منها حد الإقناع ، بل لقد تقبضت له وقالت : عبثًا تقول ، فإن إلهى قد صاغ قلبى ورسم عليه رقاع العالم ومعالمه كلها ، فهو رفيقى فى أى مكان أنزل به ، وقريبة كنت أو بعيدة فإنى فى متناول يده ، وإنك على عادة الرجال وطبعهم تحاول إغرائى لأوثرك عليه ، وهذا أمر بعيد المنال ، فهو يرصد تصرفاتى بعين لا تغفو ، وسيأمر فيتلقفنى الموت عاجلاً إذا أسلمت جسدى لرجل ، وأكاد أحسه الآن غاضبًا، إذ أنظر فى عينيك وأتحدث إليك ، فتخل عن أفكارك واكبح جماح رغبتك ، وسوف لا يضيرك هذا ، ففى الغداة سيتغير شعورك ، فتزهدنى بل تنسانى ، فتلك حالكم معشر الرجال !..

وشعرت حيال موقفها هذا كأنى كومة من عشب جاف أشعلتها شرارة من نار ، فقلت لها : بل تلك حال النساء وطبعهن فى معاملة الرجال ، وأنت على مثالهن تلتمسين اللذة والمتاع فى تعذيب قلبى وترويعه ، ولكننى أعلم هذا فقد جربته وعانيت منه ، ولم أعد ، بعد ، الصيد الذى يقع فى الشرك يا فتاتى الصغيرة !..

قالت : إنك لا شك تجهل من أكون ، فاعلم أنى لست من غمار النساء ، وإنما أنا فتاة تفردت دونهم بالحكمة والمعرفة ، أحطت علمًا بلغات ذات عدد ، منها لغة «بابل» ولغة «مصر» التى هى لغتك ، وأكتب اسمى على الألواح والأوراق بثلاثة أنواع من الحروف ، وقد طوفت فى بلاد وأقطار شتى، وهنا وهناك خلبت الألباب برقصتى الإلهية البارعة ، وما أكثر ما ترامت حولى سهام الشهوات ، ولكنها كانت تتكسر

دائمًا على حصون منيعة من عفتى وطهرى ، إلى أن حدث أخيرًا أن كنت مبحرة على إحدى السفن فى رحلتى الدينية ، فغرقت السفينة ووقعت فى أيدى تجار الرقيق ، وصرت بعد ذلك إلى جناح الملك فى «بابل» ، ولكن إلهى المقدس الذى لا ينفك يرعانى قد أنجانى من الغرق ، ثم أنجانى من رق الملك ، ولا عجب فقد صنعنى على عينه واصطفانى لنفسه فلا تستطيع قوة فى الوجود أن تفصلنى عنه ، وربما شق على عقلك أن يدرك الصلة بين إلهى ورقصى ، ولكنك قد تدرك ذلك إذا وقع لك يومًا أن ترقص بين ثيران متوحشة تتناهبك بقرونها الحادة ، فتتدافعها بكمامة فى يدك غير متوقف عن حركات الرقص بقدميك ، ثم تظهر عليها فى النهاية بحذقك وبراعتك وجرأة قلبك ، ولا يلحق بك أذى من هجماتها الشرسة ، فهل كنت تستطيع أن تثبت لهذا وتنجو منه إذا لم تكن من ورائك قوة إله عظيم ؟!.. فذلك هو الرقص الذى علمنيه إلهى وفطرنى عليه ، وقد اقتحمت به حلبات الثيران المتوحشة ، وحلبات الرجال المتوحشين أيضًا ، وحفظنى إلهى وصاننى فى كل المواقف ، لأننى أرقص بأمره ولمرضاته .

قلت لها : هذا شىء غريب حقًا ، وما سمعت من قبل أن فتاة تؤتى هذا الحظ العظيم من غضارة الشباب والمعرفة ، يقضى عليها أن تظل عذراء لتراقص الثيران المتوحشة وتفلت منها !.. ذلك ما لا أستطيع أن أفهمه ، على أنه يذكرنى بما كنت قد سمعته عما يصنعه الكهنة فى «سوريا» ، فقد قيل إنهم هناك يقدمون الفتيات قربانًا إلى الخراف !.

فثارت غضبًا لسخريتى بها ، وتطاير الشرر من عينيها الغاضبتين ، وصاحت فى وجهى قائلة : وما أرى فرقًا بين الخراف والرجال ، فهما سواء فى غريزة الحيوانية الدنسة ، فإليك عنى ، ولا تضايقنى بجدالك ومعاريض شهواتك ، فأنت لا تفقه من حقيقة أمرى أكثر مما يفقه الخنزير من أمر الفضة !..

وكانت بهذا قد بلغت أقصى المدى فى الإقذاع والإيلام ، فانصرفت عنها ، وتناولت صندوق أدواتى وعقاقيرى الطبية ، وجعلت أتشاغل بتنظيف الآلات ، ووزن

السوائل والمساحيق ، فى حين راحت هى تدلك جسمها بالزيت ثم ترقص رقصات عنيفة أحدثت اهتزازًا فى القارب ، وخالستها النظر خلال ذلك فأدهشنى منها أنها كانت تنحنى إلى الخلف حتى تلمس يداها الأرض ، وجسمها يستدير كأنه القوس ، وترفع ساقيها وترسلهما ممددين فى الهواء ، فلا يبقى منها على الأرض إلا يدان تحملان جسمًا مقلوبًا . أما رأسها فكان فى هذا الوضع يترنح غير مستند إلى شىء . وشعرها يتموج حوله تموجًا رائعًا ... لقد كانت ترقص رقصًا دقيقًا لم تر عينى مثله على كثرة ما رأيت من أوضاع الرقص وفنونه فى بيوت اللهو بسائر البلاد التى تنقلت بينها أو عشت فيها !..

وتأثرت بمنظرها هذا ، وانتفى من نفسى الندم على ما فقدته فى سبيل هجرتى معها ، وازددت تأثرًا حين رأيتها تخرج من رقصتها هذه مجهدة ، فتتشح رداء تغطى به جسمها المتفصد عرقًا ، ثم تنطوى على نفسها لتبكى بكاء حارًا ، فقاربتها فى حذر ولمست كتفها برفق متسائلاً عما إذا كانت تشكو مرضًا ؟! ولكنها دون أن تجيب دفعت يدى عنها وراحت مستغرقة فى بكائها . فجلست إلى جوارها آسيا على حالها ، وقد أحسست بأن ضميرى يؤنبنى على ما بدر منى نحوها فعولت على تغيير سلوكى معها ، فقلت لها بعد إطراق أختى «مينيا» !. لا تبكى ، إنى أتوسل إليك ألا تبكى ، فما عنيت بحديثى سوى الترفيه عن نفسك بعض الشىء، ولن أعرض لهذا بعد الآن ، بل سأتحرى فى كل تصرفاتى أن أدفع عنك كل ما قد يسبب لك الألم والأسى .

فرفعت رأسها وكفكفت دموعها وقالت : إننى لا أخشى الآلام والمآسى ولا أبكى منها ، وإنما بكائى لأن رجلاً ملحدًا فاسد العقيدة يلمزنى فى عقيدتى ، ويتعيب دينى ، فيعترينى الضعف أمامه ، وكنت القوية الغالبة ، ولا أفهم من هذا إلا أن إلهى الذى يمدنى بالقوة فى سائر المواقف قد تخلى عنى ونبذنى ، وذلك يهولنى ويزعجنى .

وتراخت تحت كلكل من الهم ، فأمسكت بيديها ، فأجالت نظرها فى وجهى غير متأففة وقالت فى هدوء : لعلى أن أكون فى تقديرك الآن ، جاحدة ، وكان ينبغى أن

أشكرك لأنك حققت رجائى فى الخلاص ، وضحيت ما ضحيت من أجلى ، ولكن لا ذنب لى فى ذلك ، وقد لا يكون ما ذكرته لك عن إلهى كافيًا لتعرف حقيقته كاملة ، وليس بمستطاعى أن أنبئك بكل شيء ، فثمة حدود قد رسمها للحديث عنه ولا يجوز لى أن أعدوها ، على أنه من الممكن فى نطاق هذه الحدود أن أخبرك بأنه «إله البحر» ، وأنه يأوى منه إلى مكان مظلم لا يدخل إليه فيه إنسان إلا بقى معه هناك إلى الأبد ، ويرى بعض الناس أنه يشبه الثور ، ولهذا فنحن الفتيات المختارات لخدمته نتعلم الرقص له أمام الثيران التى تشبهه ، ويروى آخرون أنه يشبه رجلاً يعلوه رأس ثور ، وهذه رواية أعتقد أنها غير صحيحة ، وإنما الذى لا شك فيه أن اثنتى عشرة فتاة يحتشدون فى كل عام لاختيار واحدة منهن لخدمته عندما يكون القمر فى تمامه ويجرى هذا الاختيار عن طريق الاقتراع بينهن ، فإذا خرجت القرعة بالفتاة المختارة كانت هى ذات الحظ السعيد دون الباقيات . وقد كنت أنا السعيدة التى اختارها الإله فى هذا العام ، ولكننى عندما كنت فى طريقى إليه غرقت السفينة ، فوقعت فى أيدى تجار الرقيق ، وكان بعد ذلك ما عرفت من أمرى . وبهذا حيل بينى وبين ما ظللت ، منذ فجر شبابى ، أحلم به ، وهو العيش بجوار إلهى ناعمة ، فى بيته هناك ، بالخلود السرمدى ، فتلك سعادة كانت منى جد قريبة ولكنها تلاشت فجأة ، وهذا هو الذى يحزننى ويقض مضجعى ، ويمكنك أن تتصور مدى هذه السعادة التى فقدتها وهى فى يدى ، إذا علمت أن الفتاة التى تختار لخدمة هذا الإله العظيم يؤذن لها بالعودة إلى هذا العالم إذا قضت فى بيته شهراً ، ولكن جميع الفتيات اللائى واتاهن حظ الاختيار له لم تعد منهن واحدة إلى عالمنا هذا ، ذلك لأنهن قد وجدن هناك من الخير والسعادة والمتاع ما لا وجود له هنا ، فآثرن البقاء وأبين الرجوع !..

كان حديث «مينيا» مؤنسًا ، وكانت الشمس حينذاك قد تجللتها غيمة عارضة ، فبدا الجو مظلمًا موحشًا ، وهكذا كان قلبى ، فقد أدركت أن «مينيا» ما برحت صريعة الخرافات الدينية التى يفشيها الكهنة فى عقول الناس فى كل قطر من أقطار الأرض . ومن ثم فليس لى من روحها أو قلبها موضع . ولم أشأ أن أحنقها وأستثير

ما سكن من غضبها . فقلت لها موادعًا ، ويداها ما زالتا في يدى : قد فهمت موقفك تمامًا ، فأنت تريدين المضى إلى إلهك لتسعدى بالخلود إلى جواره ، وسأنزل على إرادتك ، ويمكنك أن تعتمدى عليَّ في ذلك . ولقد عرفت من حديثك أن «كريت» هي المكان الذي جئت منه ، ولهذا فإني جاعل سبيلنا إليها عبر البحر ، ومنها تأخذين وجهتك إلى البيت المظلم الذي يأوى إليه إلهك . وإذا كان قد بدا لك من حديثي أنني غير مؤمن به حتى الآن ، فذلك لأن روايات شتى كان يتناقلها عنه التجار والبحارة في «أزمير» ولا يثبتون فيها على رأى يقيني يعتد به في تقرير العقيدة ، فكان يقال مثلا إن الكهنة يذبحون ، أو يحاولون أن يذبحوا كل من يخرج من بيت هذا الإله عائدًا إلى وطنه وأهله ، حتى لا يعرف الناس شيئًا عنه ، كما كان يقال إن الذين يذهبون إليه لا يعودون ، لا لأنهم استطاعوا المقام معه . وإنما لأنهم قد ماتوا في جوف البحر !... ومعنى هذا أنه لا وجود له ، وكيفما كان الأمر فإنك ستعرفين الحقيقة على وجهها الصحيح عندما يتحقق أملك في بلوغ مأواه ، أعنى بيته المظلم !..

وقالت «مينيا» في ضعف ملحوظ . نعم ، ينبغي أن أذهب إلى إلهى فما أرى في غير بيته مكانًا يرفرف عليه الأمن والسلام . على أن رغبتي في ذلك لا تمنعني من مصارحتك بأنني صرت أشعر بأن الوقت الذي أقضيه معك يمتلئ فيه صدرى بالبهجة والغبطة ، فلم أعد بالنسبة لك تلك الفتاة المتمردة العاقة، وليس هذا لأنك أنقذت حياتي وخلصتني من الأسر ، بل لأنك ، أكثر من هذا ، رجل لم أصادف مثله في الرجال كرم أخلاق ولطف معاملة . وقد نال هذا الشعور من شغفي إلى لقاء إلهى ، فلم يعد كما كان شغفًا مشبوبًا ، وربما سرنى هذا الآن ، ولكنه بلا ريب يورثني الأسى كلما اقتربت من بيت الإله !.. على أنه إذا كان مقدرًا لي أن أعود بعد انقضاء الأجل المحدود ، فستكون عودتي إليك أنت . والآن ، فلندع هذا ، فالوقت قصير ولا يعلم أحد ما سيجيء به الغد كما تقول ، وليكن شأننا معًا – منذ هذه اللحظة إلى أن نفترق بعد قليل – استمتاعًا بهذه الحياة في هذا الجو العاطفي البديع !..

وكان واضحًا أن موقف «مينيا» قد تبدل ، وأن بمستطاعي استغلال عواطفها

التى سلست بعد عناد ، فأستدرجها إلى الرضا بالبقاء معى والحياة بجانبى إلى آخر العمر . وكان هذا فى الواقع مبتغاى ، ولكننى خشيت منها الانتكاس ، فعقيدتها فى إلهها أعمق من عاطفتها الطارئة ، ولا آمن منها ثورة العقيدة يومًا ، فتنقلب ساخطة لاعنة ، وتهجرنى هاربة إلى إلهها ، فما أشد سيطرة الآلهة على مثل هذا الطراز من المؤمنين !.. ولهذا أمسكت عن التفكير فيما سوف يكون ، مستسلمًا إلى القدر المحجوب الذى أومن بأنه مقرر لحياتى قبل أن أولد ، فلا حيلة لى فيه .

واستجبت مسرورًا إلى رغبة «مينيا» المتفتحة ، فأكلنا وشربنا فى لذة وانشراح ، وتلاقى فمى بشفتيها فى نشوة الشراب .

- ٢ -

وأقبل المساء ونحن كذلك ، وهنا استيقظ «كابتاح» ونضا عنه غطاءه ، وأخذ يفرك عينيه ويتثاءب ويقول : وحق «الجعران المقدس» ، وحق «أمون» أيضًا - فلست أنساه - إن رأسى قد اكتملت عافيته وانزاح عنه الشيطان الجاثم ، وأشعر كأنى بعثت للحياة من جديد ، فلا ينقصنى الآن إلا الطعام ، أضع به حدا للمعركة المشبوبة بين عصافير جوفى التى تتقاتل هنالك لفرط جوعها !.. ولم ينتظر منا جوابًا ، فأقبل على طعامنا يلتهم منه التهامًا !..

وقلت له : أيها السكير المعربد .. كنت أستطلع رأيك فى كيف يكون الخروج من المأزق الذى أوقعتنا فيه ، فلم تحفل بهذا ورحت تتهالك على شراب النبيذ ، فيسلبك شعورك ويسلم رأسك إلى النوم الثقيل ، ثم تستيقظ آخر الأمر فيكون همك كله مصروفًا إلى الطعام وحده !.. أفلا علمت أيها الغبى ، أن جنود الملك تطاردنا وأن مصيرنا ، إذا وقعنا فى أيديهم ، هو الموت المحقق ؟!. قل لنا ، عاجلاً ، ماذا عسانا أن نصنع ؟!

قال وهو يعبث بشعره كالمفكر : الواقع أن هذا الزورق أكبر من أن يقوى ثلاثة

فى مثل حالنا على تسييره تجديفًا فى هذا النهر المتلاطم الأمواج المتعاكس التيارات . وأنا بخاصة ، وأقول الحق ، أبغض التجديف لأنه يصيب يدى بالفقاقيع الدامية . فلست أصلح لهذا ، والرأى عندى أن نغادر الزورق إلى الشاطئ . ومن الممكن أن نجد حمارين من تلك الحمير الأبدة ، أو نسرقهما ، فنضع أمتعتنا على ظهريهما ثم نأخذ سبيلنا هربًا . ولكيلا نلفت إلينا الأنظار ينبغى أن نبدل ملابسنا بأخرى رثة قذرة ، وأن ندخل الناس على أننا فقراء هائمون على وجوههم فى الآفاق ، ولنجعل من ثلاثتنا فرقة مجون وتهريج متنقلة بين القرى على طول الطريق ، وسيقبل القرويون علينا فرحين ، رغبة فى التسلية ، وفى استطاعتنا أن نطالعهم بما لم يألفوا من المظاهر الغريبة التى تدهشهم وتضحكهم ، فأنت تقرأ لهم حظوظهم فى نقط الزيت مخلوطًا بالماء ، وقد عرفت هذا فى «بابل» ، وأنا أطرفهم بالقصص والروايات المثيرة ، وهذه الفتاة تفتنهم برقصاتها الرائعة ، فهذه حرفة لا تشق علينا وستخفى حقيقتنا فى أستارها ، فلا نخاف أحدًا ، لأن المشعوذين الفقراء لا يطاردهم أحد ولا يرى فيهم اللصوص ما يغرى بالسرقة .

وأردف «كابتاح» قائلاً : فذلك الذى أراه هو خير ما ينبغى أن نفعل ، خروجًا من المأزق وتخلصًا من القلق . أما أن نظل فى الزورق نضرب به وحدنا فى هذا التيه من النهر ، فليس عملاً مأمون العاقبة . وما أحسب أصحابه المساكين بمبعدة منا ، فهم لا شك مختبئون بين هذه الأعشاب القريبة يرصدون حركاتنا ، فإذا جن الليل ودجت الظلمة وثبوا علينا ليقتلونا ويستردوا زورقهم ، فما يتركوه لنا لنسرقه على أعينهم !..

وكان «كابتاح» على صواب فيما يرى ويفترض ، فأصحاب الزورق – وهم عشرة من الرجال الأشداء – سيضربون ضربتهم المتوقعة حتمًا ، وما لنا بهم طاقة ، ولهذا أقررت رأيه على الفور ، ونهضنا فأفرغنا على أجسامنا زيتًا مما تركوه بالزورق وصبغنا وجوهنا بسواد الطين ، وتقاسمنا نقودنا الذهبية والفضية الباقية معنا ، وأخفيناها فى أحزمتنا وملابسنا ، ولم يكن صندوق عقاقيرى مما يمكن أن أتركه ،

فلففته في الحصير وربطه « كابتاح » إلى ظهره وهو يتأفف ، وأخذنا نجدف بالزورق خائضين به ما كان يعترضنا من الأعشاب حتى بلغنا الشاطئ ، فغادرناه تاركين عليه الطعام والنبيذ أخذاً بما أشار به « كابتاح » إذ قال لنا إن أصحاب الزورق - عندما يسترجعونه - سيعنون بشراب النبيذ أكثر مما يعنون باقتفاء أثرنا ، وإذا كانوا قد اعتزموا شكايتنا إلى القاضى فسيكونون مخمورين ، وعندئذ تضطرب مقالتهم له ، ويكون جزاؤهم الطرد والضرب بالعصى !..

ومن الشاطئ بدأت رحلتنا الغامضة على هذه الصورة التنكرية ، مدلجين فى سبل شعثاء غير واضحة المعالم إلى أن بان لنا طريق من طرق القوافل فاستهدينا به فى مسيرنا ، حتى انتهينا فى مشرق الصباح إلى قرية تلقانا أهلها مرحبين معجبين بجرأتنا على قطع الطريق سيراً على الأقدام خلال الظلام ، فى غير وجل من الشياطين ! وقدموا لنا خبزاً معجوناً باللبن ، وباعونا حمارين ، وقد فرحوا بالنقود التى دفعناها ثمناً لهذين الحمارين ، فهم قوم فقراء يعيشون على الكفاف فى أكواخ تافهة من الطين إلى جوار حيواناتهم ، ويندر أن تتداول بينهم عملات النقود ، حتى إنهم ليؤدون الضرائب المفروضة عليهم من حنطتهم ومواشيهم .

وتتابعت الأيام ونحن على تجوالنا هذا سالكين طرقاً شتى بين بلاد النهرين ، نقابل عليها صنوفاً متباينة من الناس . وكنا إذا لقينا الأغنياء المحمولين على كراسيهم ننحرف عن طريقهم أو ننحنى احتراماً لهم ، اجتناباً لما نتوجسه من شرورهم ، فما نعرف فى أمثالهم خيراً . وعلى النقيض من ذلك كنا أهدأ بالا وأكثر تطامناً إذا ما لقينا عامة الناس ، فهؤلاء كانوا كلما أقبلنا على جماعة منهم أنسوا بنا وتجمعوا حولنا ، فأثير دهشتهم وإعجابهم حينما أقرأ لهم حظوظهم فى نقط الزيت على صفحة الماء ، وكنت أتحرى فى ذلك ما يرضيهم ، فأنبئهم عن أوقاتهم السعيدة التى ينتظرونها ، وأبشرهم بوفرة المحاصيل ، والزيجات الهانئة ، إلى آخر ما يفرحهم ويثلج خواطرهم . وفى الحق إن الفقراء ليتعلقون فى حياتهم الساذجة المقفرة بمثل هذه الآمال ، ويرون فى التبشير بها ، على صورة من الصور ، عزاء لنفوسهم

المحرومة ، ذلك إلى أنى لم أر من الحكمة أن أفجعهم فى آمالهم فأسخطهم علينا ، ونحن أحوج إلى مودتهم وكسب رضاهم ... وقد كانوا فعلاً يهشون لنا ويحسنون ضيافتنا . وما كان ذلك ليكون ، لو أننى صارحتهم بالحقيقة التى ألمسها فى حياتهم ، أى لو أننى ذكرت لهم - مثلاً - غلظة جباة الضرائب وما سيلاقونه من قسوتهم ، وأنبأتهم بالفساد متغلغلاً فى نفوس قضاتهم وشيوع الرشوة فى أحكامهم وحدثتهم عن غشيان الحميات وقت الفيضان وانتشار الجراد والذباب والقحط وغيض المياه فى الصيف ، والموت الذى يتلقفهم جماعات وأفراداً بعد العناء والضنى . فلو أننى قلت لهم هذا كله لما عدوت به الحقيقة الواقعة فى حياتهم وكنت به فى نظرهم صادقًا ، ولكنهم - بلا ريب - كانوا يسأموننى ويكرهون لقائى ، ولست أريد هذا بطبيعة الحال .

فإذا فرغت من هذا الرجم بالغيب ، أخذ « كابتاح » يطرفهم بقصصه عن السحرة والأميرات والبلاد الغريبة التى يحمل أهلها رءوسهم تحت آباطهم ويتحولون يومًا ما فى كل عام إلى ذئاب كاسرة .

وكانت « مينيا » إذا ما جاء دورها ، تفتن فى الرقص أمامهم وتدير جسمها فيه على أوضاع بارعة ، لا ليسروا به ، بل لتواصل رياضة أعضائها عليه ، حتى تستوفى الغاية منه استعداداً لملاقاة إلهها فى اليوم المرتقب ، وكانوا يطيرون فرحًا بهذا الرقص العجيب الذى لم يشهدوا له مثيلاً من قبل .

إن هذه الرحلة - على ما اكتنفنا فيها من مشقة وجهد - قد أمدت عقلى بما كان يصبو إليه من الإحاطة الشاملة بأخلاق المجتمعات البشرية المتناثرة فى أرجاء الدنيا المتباعدة ، وأستطيع الآن أن أخلص منها إلى رأى حاسم هو أن جميع الناس فى جميع الأنحاء على غرار واحد ، لا يكادون يختلفون فى شىء باختلاف مواطنهم ، فالأغنياء والأقوياء هم فى هذا القطر أو ذاك متماثلون فى أساليب حياتهم وطرائق تفكيرهم ونوازع نفوسهم ، وكذلك حال الفقراء ، فهم فى كل مكان متشابهون فى هوان الشأن ومذلة العيش وبلاهة التفكير . وقد لا يتقاربون فى العادات والتقاليد

والعبادات ، وقد لا تتلاقى عقائدهم الدينية فى الآلهة ، ولكنهم فيما وراء ذلك على شاكلة واحدة كمجموعات إنسانية مغمورة مسترقة ، تحيا فى دياج حالكة من الجهالة والفقر والمرض .

وقد نظرت إلى هؤلاء البؤساء المحتشدين حولنا من زاوية هذه الحقيقة ، فرثيت لحالهم وأشفقت عليهم ونزع بى الشعور إلى مجاوزة ما كنا فيه معهم من الشعوذة والمماراة ، فأخذت أدعو مرضاهم واحداً بعد آخر ، وأعالج عيونهم المغشاة بالأقذار وجروحهم المتنزية بالدم والصديد ، دون أن أقتضيهم على ذلك أجراً . ولم أحفل بما قد يقع لنا بسبب هذا ، إذ كان من المحتمل أن يعرف ذلك عنا ، فتنكشف الحقيقة التى نخفيها ومن ثم نستهدف للخطر !.. ولست أدرى على وجه الدقة لماذا فعلت هذا ؟ وما هو حافزى إليه فى ظروف تفرض علينا التزام التنكر المطلق ؟! ولكن لعلى أن أكون قد فعلته متأثراً بمصاحبة « مينيا » تلك الفتاة ، التى رققت عواطفى وأرهفت مشاعرى وحلقت بروحى إلى سماوات السعادة ، ونحن - أنا وهى و « كابتاح » - نهيم على وجوهنا حينذاك مشردين فى حال زرية ونتخذ مراقدنا إذا ما جن الليل متلاصقين على الأرض الجرداء أو الأكوام السبخة أو أهراء القش العفن ، وإنها لحال تشغل البال وتبلبل الفكر وتمسك القلب عن أن يخفق بمثل ما أشعر به من السعادة . بيد أنى مع هذا شعرت فى جوارها بأن قلبى يتلقى إلهامه من قوة أخرى هى فوق ما نحن فيه ، وأعتقد أن « مينيا » نفسها هى مصدر هذه القوة الملهمة ، فقد عرفت فيها الإيثار فى أعمال الخير والانبعاث له تقرباً إلى ذلك الإله الذى ملك عليها كل حواسها ، فأنا أجرى فى مجراها وأدور فى فلكها من غير أن تكون لى إرادة مقررة فى ذلك ، فإن لم يكن هذا هو التعليل الصحيح لما فعلت ، فقد يكون ذلك - هو مجرد افتراض - لأن طبيعتى كطبيب قد غلبتنى حينما رأيت أولئك المساكين يعانون من شقاء المرض مع ما يعانون من شقاء الفقر ، وقد يدخل فى هذا الافتراض حرصى على أن أختبر مهارتى الطبية لأستوثق من أننى لم أفقد منها شيئاً !..

وعلى أية حال يمكن القول بأن أعمال الإنسان التي يندفع إليها اندفاعًا تلقائيًا ، تكون لأكثرها دوافع غير منظورة وقد يطول به العمر دون أن يعرف مصادرها أو أسبابها .

ولقد تعاقبت علينا في هذه الرحلة التي خضنا غمراتها ، خلال بلاد ما بين النهرين ، أزمات ومشقات ومواقف كثيرة معقدة ، ولكنني – على ما لقيت فيها من كبير عناء وشدة بلاء – لا أزال أشعر بالحنين إليها ، سعيدًا بذكرياتها ، كما لو كانت شيئًا جميلاً محببًا ، ذلك لأنها تمثل في تاريخ حياتي أنضر صفحات قوتي وشبابي . وكم أتمنى أن أنقلب فتيا عارم القوة كما كنت فيها لأكررها هانئًا بمشقاتها ، باذلاً في سبيل ذلك كل ما خلص لي في دنياي من معرفة ومال ، فحسبي أن تكون «مينيا» إلى جواري تلتمع عيناها بما هو في عيني أجمل من ضوء القمر على صفحة ماء النهر .

وفي كل خطوة كنا نخطوها في طرقات الرحلة ومسالكها الطويلة المتعددة ، كان الموت يمد على رءوسنا ظلالاً سوداء ، ولكنني لم أكن وقتئذ أبالي الموت أو أخشاه ، بل لقد كنت لا أكاد أفكر فيه كلما نظرت إلى وجه « مينيا » فياضًا بالجمال ، وإلى رقصها فياضًا بالروعة ، ففي صحبتها نسيت كل شيء سواها ، نسيت حتى جريمتي المخجلة التي اقترفتها في أيام شبابي ، وما كان نسيانها بالأمر اليسير !.

وأخيرًا انتهينا إلى حدود بلاد ما بين النهرين ، ولم يجد رعاة الأغنام الذين لقيناهم هناك ما يغريهم بنا ، فقد كانت مظاهرنا الزرية تنبئ بأننا فقراء لا مطمع فينا ، فانصرفوا عنا بعد أن أرشدونا إلى طريق أرض «ميتاني» ، فسلكناه ودخلنا المدينة دون أن ندفع مكوسا ، أو يعترضنا أحد من حراس المملكتين المتجاورتين .

وفي هذه المدينة الكبيرة المكتظة بالناس إلى درجة أن بعضهم لا يعرف بعضًا ، لم نر ما يدعو إلى التنكر ، فغشينا أسواقها واشترينا منها ملابس جديدة خرجنا بها أحسن مظهرًا واخترنا لمقامنا هناك أفخم الفنادق .

وخشيت أن ينفد ما أملك من مال محدود ، فلم أجعل معولنا عليه ، وأخذت فى مجاهرة الناس بأننى طبيب يعالج المرضى ، فتكاثروا علىَّ طلبًا للشفاء إذ كان أهل « ميتانى » أكثر نزوعًا إلى الغرباء وأوفر ثقة بهم ، وقد تهيأ لنا بإقبالهم مورد حسن للمال ، يتأدى فى صورة أجور علاج وثمن دواء .

وكانت « مينيا » موضع إعجابهم ، وملتقى أبصارهم ، فتنافسوا على جمالها ، وألحوا فى طلب شرائها ، ولكنى كنت أتخلص منهم برفق غير موئس .

واستراح « كابتاح » من عنائه ، واسترد ما كان قد تزايل من عافيته ، فألقى بنفسه فى مجتمعات الناس وأندية لهوهم ، يطرفهم بالغريب من قصصه وخاصة قصة اليوم الذى توج فيه ملكًا على «بابل» ، وكثيرًا ما كان يلقى النساء فيفتنهن بهذه الأقاصيص التى لم يسمعن مثلها من قبل ، وكان الجميع يستمتعون به محدثًا لطيفًا ، وراوية لبقًا ، فيثنون عليه ويجزلون له الهدايا .

وعلى تلك الحال تتابعت الأيام ، إلى أن رأيت « مينيا » ذات مساء تطيل التحديق فى وجهى وعلى عينيها سحابة رقيقة من قلق اليأس . ثم رأيتها بعد ذلك تنطوى على نفسها وتنشج بالبكاء فقلت لها : إنى أعلم أنه الحنين يقتادك إلى وطنك وإلهك ، وفى سبيل هذا قد أزمعت الرحيل عن هذه المدينة ، وسيكون علينا أن نقطع رحلة أخرى ليست أقل طولاً من الرحلة الأولى ، حيث ينبغى أن نلم ببلاد «الحيثيين» لأسباب قد لا يهمك ذكرها ، وأظن أنه من المستطاع الإبحار من هناك إلى جزيرة أقرطيش «كريت» . بيد أنه من الممكن ، إذا راق لك أن أمضى بك إلى الشاطئ السورى ، ومن هذا الشاطئ تبحر السفن مرة فى كل أسبوع . على أننى علمت أن قافلة ستبدأ رحلتها من هنا تحمل الهدايا التى اعتاد أن يرسلها سنويًا ملك « ميتانى » إلى ملك « الحيثيين » ، وفى وسعنا أن نرحل مع هذه القافلة ، وسنكون فيها أكثر أمنًا ، فوق ما نصيبه من معلومات كثيرة جديدة ... والرأى فى ذلك إليك على أية حال .

وكان حديثي عن توجيه الرحلة إلى طريق القوافل المؤدى إلى بلاد « الحيثيين » ينطوى على إغرائها بمرافقتنا في هذا الطريق الأطول ، فقد أردت بذلك إطالة الوقت في صحبتها قبل أن تمضى عني إلى إلهها .

وأجابتني قائلة : فليكن ما ترى ، فليس لى رأى فيما ترسم من خطط ، وإني لماضية معك حيث تمضى ، وما يضيرني أن تطول الرحلة أو تقصر ، ما دمت في النهاية صائرة إلى بلادى ، فذلك وعدك لى ، وأنا به واثقة .

وعلى هذا قررت الانضمام إلى القافلة الراحلة ، وأن أكون طبيبها ، واطمأنت نفسى إلى ذلك ؛ لأننا سنكون فيها تحت حماية ملك « ميتاني » . ولكن «كابتاح» لم يعجبه هذا فراح يعترض ويحتج ، ويهمهم لاعنًا ساخطًا ، ثم يقول : أهكذا لا ننجو من خطر إلا لتدفعنا يا سيدى إلى خطر جديد ؟!. إن الناس جميعًا ليعلمون أن «الحيثيين» قوم قساة غلاظ الأكباد ، فما شأننا بهم ؟!.

فلوحت في وجهه بالعصا ليكف عن ثرثرته وقلت له : سأبعث بك مع بعض التجار المسافرين رأسًا إلى « أزمير » ولن أندم على ما أدفعه أجرًا لرحلتك هذه ، فقد ضاق صدرى بحمقك وسخافاتك ، وعليك عندما تصل إلى « أزمير » أن تلزم منزلى هناك ، وترعاه إلى أن أعود ، فليس لك في غير خدمة المنازل مكان !.

وتراجع «كابتاح» وقال متخابثًا : قد تكون على صواب فيما ترى من أمرى . ولكنني – وأنت شاخص إلى أولئك الحيثيين القساة – لا تطاوعني النفس ، بل لا أسمح لها إن هي طاوعتني ، أن أدعك وحيدًا في مثل هذه الرحلة المخيفة ، فلا مناص من مرافقتك فيها ، وإلا فكيف يكون مصير الحمل الوديع وسط كلاب الصيد الشرسة بدون حارس يذود عنه ؟! وما ينقصني في ذلك سوى أن أعلم ما إذا كانت بلاد «الحيثيين» تتصل بالبحر ؟!.

قلت له : مبلغ علمى أنه لا يوجد بحر بين أرض «الحيثيين» وأرض «ميتاني» ، فقال متظاهرًا بالسرور : حمدًا لإلهنا « الجعران » المقدس، فالرحلة إذن

ستكون ميسرة ، فما أبغض شيئًا أكثر من اجتياز البحار ، وقد أقسمت بالآلهة ألا تطأ قدمى ظهر سفينة تمخر عباب بحر ...

قال هذا ، وراح يحزم أمتعتنا استعدادًا للرحيل .

- ٣ -

لم تقع لنا فى هذه الرحلة مع قافلة « ميتانى » حوادث تستحق الذكر ، فعلى طول الطريق كان « الحيثيون » بعجلاتهم يتولون حراستنا ، وفى كل محطة نقف عندها كانوا يعنون بتزويدنا بما نحتاج إليه من طعام وشراب .

« والحيثيون » كما رأيناهم ، أشداء صلاب الأعواد ، لا ينال منهم الجو ، باردًا كان أو حارًا ، ولا يهابون اقتحام الأخطار وقد اشتهروا فى الحروب بالقوة والعناد ، ويرجع ذلك إلى ما ألفوه من الحياة بين التلال القاحلة ، واعتادوه من شظف العيش وطول الاغتراب عن أهليهم وأطفالهم ، وهم لهذا يستطيلون على الشعوب الضعيفة ويعملون دائمًا على إخضاعها لسلطانهم . أما الشعوب القوية فإنهم يظهرون لها الاحترام ويسعون إلى كسب صداقتها ! وهم فى عمومهم ينقسمون إلى عديد من القبائل والقرى ، يقوم على كل منها أمير مطلق السلطان فيها ، وأمراؤها جميعًا يخضعون فى الوقت نفسه لملك عظيم بمدينة « هاتوشاش » التى تقع بين الجبال ، وهم يعدونه كاهنهم الأقدس وقائدهم الأكبر وقاضيهم الأعلى ، وبين يدى هذا الملك تجتمع السلطات المتعددة من روحية وزمنية ، وبها يحكم الناس ويسوس أمورهم . وكانت هذه السلطات من السعة والتعدد وقوة التأثير بحيث تفوق ما عرفت من السلطات المطلقة عند الملوك الآخرين ، فإن هؤلاء ، وخاصة فى مصر ، كان الكهنة والقضاة يحدون من سلطانهم ويسيطرون فى أغلب الأحوال ، على أعمالهم وتصرفاتهم !.

وكان الذين يتحدثون عن المدن الكبرى فى العالم لذاك العهد، يذكرون « طيبة » و « بابل » وربما ذكروا مدينة « نينيفا » التى لم أرها ، ولكنهم لا يذكرون « هاتوشاش » التى هى أكبر مدن « الحيثيين » ومقر ملكهم ، والتى قيل لى إنها مدينة كبيرة ذات مبانٍ منيفة منحوتة من الأحجار ، ولعل ذلك لأنها تقع بين الجبال كما يقع وكر النسر وسط حقول الصيد ، وقد أوصدها الملك فى وجوه الغرباء عنها ، فلا يؤذن لغير القوافل العابرة بالدخول إليها لتضع أحمالها بين يديه ، وهى فى العادة لا تحمل إلا الهدايا المزجاة إليه من الأمراء الخاضعين لسلطانه ، وكانت الرقابة الدقيقة تفرض على رجال هذه القوافل خلال إقامتهم بالمدينة أن يرحلوا عنها ، ومن هنا بقيت سرًا مجهولاً من العالم البعيد .

وقد بلغت القافلة المدينة ، وبانت لنا – على ما عرفت من أوصافها أثناء الطريق – مدينة زاخرة بالحياة ، متفاعلة الحركة فخمة المبانى ، تزدحم بالمصانع التى تنبعث من أجوافها العامرة قعقعة الآلات والمطارق ؛ حيث تصنع فيها الأسنة والحراب وطارات العجلات الحربية وهياكلها ، وكان ذلك تفسيرًا لما أنبئت من نزعة « الحيثيين » إلى الحروب وتبريزهم فيها ، واعتدادهم بوظائفهم فى الجيش أكثر من اعتدادهم بأنسابهم ، حتى لقد أغناهم ذلك عن استئجار جنود من عناصر وجنسيات غريبة ، كما كانت حال بعض الممالك الأخرى . وقد بلغ من شيوع روح الجندية فيهم وانطباعهم عليها أن كل شبانهم فى سن التجنيد يتواردون من تلقاء أنفسهم على ساحات التدريب العسكرى ليتلقوا الفنون الحربية على أيدى القواد .

ومع أن أهل المدينة كانوا يبدون فى حرص شديد ، وحذر ملحوظ ، عندما يتصلون بنا ، نحن الوافدين عليهم فى القافلة ، إلى حد أنهم كانوا يجنحون إلى الصمت المطلق ، فإذا سئلوا سؤالاً لم يخرجوا فى الجواب عليه إلا بعبارة « لا أفهم » أو « لا أعرف » ، ويبالغون فى هذا الحذر مخافة عين من عيون أصحاب السلطة تقع عليهم فيؤخذون بمظنة التحدث إلى أجنبى !.

مع هذا قد كشفت فيهم روح أخوة طيبة وميلاً إلى الرقة ، على خلاف ما وقر فى أذهاننا عن غلظتهم ، من ذلك أننى رأيتهم يعجبون بالأزياء الأجنبية الحسنة ، ويلاحقون مرتديها فى تجوالهم ، ويتلطفون معهم ، ولو لم يتكلموا ، ليستمتعوا بمنظرهم فى هذه الأزياء .

وفى الوقت الذى وصلنا فيه إلى المدينة كان قد مضى على حكم الملك « شوبلوليوما » ثمانية وعشرون عامًا ، وكان اسمه مخيفًا ، لا يسمعه الناس إلا رفعوا أيديهم مسبحين بحمده داعين له .

وهو فى قصره الشامخ وسط المدينة محوط بمظاهر الإكبار والإجلال من جميع أفراد شعبه ، ولا تفتأ ألسنتهم تردد الروايات المهولة عن مولده وشجاعته وأعماله الخارقة بما يرفعه درجات عالية عن مستواهم البشرى .

ولم أكن قد رأيته بعد ، وكذلك أعضاء بعثة « ميتانى » لم يروه . فقد كان عليهم أن يضعوا الهدايا على أرض قاعة الاستقبال ويعودوا أدراجهم ، وقلما يلقاهم الجنود بشىء من الاحترام ، بل لعلهم كانوا لا يسلمون من سخريتهم !..

وكان الرأى عندى قد اتجه إلى مزاولة عملى كطبيب فى المدينة ، ولكننى ووجهت بحقيقة عجيبة هى أن « الحيثيين » لا يتداوون من المرض ، بل يخجلون من الشكوى منه ، فإن أصيب أحدهم به أخفاه عن غيره . والقاعدة عندهم أن الطفل إذا ولد ناقص النمو أو مشوهًا قتلوه فور ولادته ، وكذلك كانوا يفعلون بأرقائهم حين تلوح عليهم علة ، وكان فى « الحيثيين » أطباء لا يعدو عملهم تضميد الجروح وعلاج الرضوض مما لا ينشأ عن أمراض وعلل ، ولهذا كانوا قليلى الخبرة بفنون الطب . ولم أر فيهم شيئًا يجاوز حدود الأمية والجهل سوى أنهم يعالجون بنجاح أمراض المناطق الجبلية ، فقد كانت لهم وسائلهم الخاصة فى خفض حرارة الجسم ، وكان ذلك ينقصنى فتعلمته منهم .

على أن يأسى من احتراف مهنة الطب بين هؤلاء الناس لم يطل ، فقد كانوا ، فى إخفائهم أمراضهم ، أسرى العادة المسيطرة ، ولكنهم بحكم الطبيعة البشرية كانوا يتمنون الشفاء منها . فلما علم مرضاهم أننى طبيب أخذوا يتسللون إلى غرفتى بالفندق تحت جنح الظلام يلتمسون عندى العلاج فى خفية ، وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا أننى غريب وافد لا يعرفهم بأسمائهم ولا يخشون منه إذاعة أسرارهم . وقد أحسنت علاجهم واستطعت أن أعيد العافية إليهم ، فسروا لذلك وأجزلوا مكافأتى ، فأصبحت أملك الكثير من الذهب والفضة بعد أن حسبت بادئ الأمر أننى سوف أخرج من مدينتهم متسولاً !..

ومن بين الأمراض التى عالجتها ، مرض كان أكثر شيوعًا فى الطبقة العالية ، وهو اضطراب الأعصاب وارتعاش الأيدى ، وعرفت أن سببه التزمت والتزام الظهور بالاستقامة وحسن السلوك ، فقد كانت هذه هى الصفة العامة التى لا يجوز الانحراف عن جادتها ، ولكن الحياة الموفورة التى كان يحياها أثرياؤهم كانت تسلمهم فى كثير من المناسبات والأحيان إلى شرب الخمر ، فإذا شربوها ثملوا ، ولكنهم كانوا يكبتون ثملهم ويخفونه حتى لا يقال عن سلوكهم قالة سوء تخدش كرامتهم وتقدح فى كبريائهم . وقد أبرأت هؤلاء من هذه العلة فطابت نفوسهم لذلك كثيراً .

ومن هذه الناحية نشأت بينى وبينهم أحسن الصلات ، وصرت منهم بالموضع الأثير ، وزادنى قربًا من قلوبهم أننى كنت أسمح « لمينيا » بأن ترقص لهم فى أنديتهم ومحافلهم ، وكانت تثير فيهم الإعجاب الشديد ، فيغدقون عليها الهدايا ، ولا يتجاوزون معها حد الإعجاب التزامًا لقاعدة « حسن السلوك » التى صارت أصلاً من أصول أخلاقهم .

وفى هذا الجو من الثقة والتطامن تفتحت أمامى مغالق نفوسهم ، فكنت أستوضحهم أشياء كثيرة فأظفر منهم بالكثير من معلومات كنت فى حاجة إلى الإحاطة بها . وقد عرفت منهم رئيس محفوظات الملك ، وهو ذو ثقافة ، ويجيد العديد من اللغات ، كتابة وتحدثا ، وكان بحكم مركزه على علاقة مباشرة بدخائل الملك

وأسرار بريده المتبادل بينه وبين البلاد الخارجية، فعنيت بتوثيق صلتي به مقرراً في ذهنه أنني هاجرت من مصر منفياً ، ولا مبتغي لي في هذه الأسفار الطويلة الشاقة سوى التزود من المعرفة والمال . وقد لمست فيه نزعة إلى التحرر من التقاليد القائمة ، وميلاً إلى مجالسة « مينيا » على مائدة شراب ، فوافقت هواه وساقيته النبيذ ذات مساء ، و« مينيا » إلى جوارنا تطفح فتنة وجمالاً .

وعندما أحسست بأنه قد انتشى ، سألته : لماذا تكون « هاتوشاش » مدينة مغلقة في وجه الأجانب ؟! ولماذا تلتزم قوافل التجارة في سيرها طرقًا معينة في حين أن مدينتكم هذه غنية وهي تنافس بعجائبها أكبر مدن العالم ؟! ألم يكن من الخير أن تجتلي الدنيا البعيدة والقريبة مجالي عظمتكم وتتعرف إلى مفاخر بلدكم ، ويشيد الناس في مختلف الأقطار بذكر محامدكم؟!.

فأفرغ كأس النبيذ في جوفه ، ثم غمز بعينه مسروراً « لمينيا » وقال : إن مليكنا «شوبلوليوما» قال عندما ارتقى العرش : أعطوني ثلاثين عاماً ، وأنا قمين بأن أجعل من بلاد « الحيثيين » أقوى مملكة في العالم !.. وها قد قارب الأجل نهايته ، وعما قليل سوف يسمع أهل الدنيا في جميع أقطارها ما لم يكن يخطر لهم على بال عن هذه البلاد التي قلما يعرفون عنها الآن شيئًا .

قلت له : لما كنت في « بابل » استرعى نظري أن الملك هناك يستعرض جنود جيشه في كثرة كاثرة ، فقد رأيت يومًا هذا العرض ، فإذا الجنود يتداركون تحت عيني صفوفًا متراصة وفرقًا مترسلة ، عددتها فكانت كل فرقة ستين رجلاً تمضي إحداها في إثر الأخرى إلى ستين فرقة ، فإذا أتمت دورتها ، بدأت دورة غيرها بفرق أخرى إلى ستين دورة ، وهكذا حتى كانت الأرض ترتج تحت أقدامهم ، وكان لصوت حركاتهم العسكرية المتلاحقة مثل هدير البحر في قوة جيشانه ، ولكني لا أذكر أني رأيت عندكم من قوة الجيش أكثر من مئة جندي دفعة واحدة ، ولهذا لا أكاد أدري ماذا تصنعون بهذه الأعداد الكبيرة من العجلات والأسلحة الحربية التي تخرجها

مصانعكم ؟! وما جدوى هذه الآلات إذا لم يقابلها جنود مدربون فى مثل كثرتها ؟! وماذا أنتم فاعلون بها فى مملكة جبلية ، وهى لا تصلح إلا للحروب فى الأودية والسهول ؟!.

فضحك ضحكة ماكرة وقال وهو يغمض عينيه عن قصد : أمن عادة الأطباء ، أيها الطبيب المصرى ، أن يكثروا هكذا من الأسئلة ؟! وهل أنت مقتنع إذا أجبتك بأننا قد لا نحصل على الخبز الذى نقيم به أودنا إلا عن طريق هذه الآلات ، نبيعها إلى الممالك ذات الحروب فى الأودية والسهول ؟!..

قلت له : هذا ما لا أقتنع به حقًا ، إلا إذا جاز أن أقتنع بأن الذئب يخلع نابه ليسلمه إلى الأرنب البرى راضيًا ليصيد له ويطعمه !..

فتعالت ضحكاته ، وأخذ يضرب على ركبتيه حتى انسكب النبيذ من كأسه ، وقال : إن كلامك ليثير الضحك ، وإنى لناقل نبأك إلى الملك . وإن شئت مزيداً من المعرفة ، فاعلم أن الحياة تجرى هنا على نسق يختلف عنها فى بلاد السهول . إنها عندنا القوة المصفاة من الضعف والوهن ، وقد يكون الأقوياء قليلى العدد ، ولكنهم بقوتهم يظهرون على الضعفاء مهما كانت كثرتهم . فمن صفات القوة ، الشجاعة . والشجاعة عدل وسلام ؛ لذلك يعيش «الحيثيون» إخوانًا متوادين مسالمين لتكافئهم قوة وشجاعة ، ولا يكونون حربًا إلا على الضعف حيثما كان ، وليست هكذا حال الشعوب الأخرى ، فإنها تستكثر من القوة والضعف ، ومن الغنى والفقر ، ليتحكم الأقوياء فى الضعفاء ، والأغنياء فى الفقراء ، وإنكم لكذلك فى مصر . وعلى هذا فسترى قبل أن يشتعل الرأس منك شيبًا يا « سنوحى » أن العالم يوشك أن يتلقى عنا درسًا جديداً لا عهد له به !..

قلت له وأنا أصطنع السذاجة : أما نحن فى مصر فإن فرعون الجديد قد اتخذ له إلهًا جديداً يأمر بالعدل والسلام ويدعو إلى المحبة والمساواة ، فليس لكم وحدكم فضل السبق فى ذلك .

قال : أعرف هذا ، فقد علمته من الرسائل التى ترد على الملك من الخارج ، وإن دعوة إله فرعون الجديد ، التى تعنى السلام بين الأفراد والأمم ، ولا ترى فى العالم مشكلة تستعصى على الحل بروح الأخوة والمودة ، دون حاجة إلى الملاحاة والقتال - لهى دعوة تلقى منا التأييد ، لأنها تطابق مبادئنا وطباعنا ، ولهذا أحببناه ولو أننا لا نحب أن يمتد سلطانه إلى أبعد من مصر وأراضى السهول . وقد أرسل فرعونكم هذا إلى مليكنا شارة رامزة إلى السلام ، فتقبلها قبولاً حسنًا ، وأعتقد أن فرعون يستطيع أن ينال من ناحيتنا السلام الذى ينشده لأمد بعيد على أن يتابع تزويدنا بالكثير من ذهبه الوفير ، ليتاح لنا الاستزادة من مواد النحاس والحديد والحبوب ، فيتسع بذلك نطاق مصانعنا ، ويزداد إنتاجها من العجلات الحربية الأكثر عددًا وثقلاً ، ولقد حشد لها ملكنا عددًا كبيرًا من مهرة الصناع فى الممالك المختلفة ، وهو يسخو فى مكافأتهم ، ويقتضى هذا مزيدًا من المال ، وهو عند فرعون مصر كالتلال !.. وقد تسأل : فيم كل هذا ونحن الراغبون فى السلام ؟!. فأجيبك بأن للأطباء ، فيما أرى ، عقولاً يشق عليها إدراك الغاية منه !..

قلت له : ذلك لأن عقول الأطباء ليست كعقول الغربان وأبناء آوى التى قد تجوز عليها هذه المتناقضات . وما أرى فى الناس - الأطباء منهم وغير الأطباء - من يستطيع أن يدرك الغاية التى يهدف إليها قوم مثلكم ، يستعدون كل هذا الاستعداد للحروب وهم فى الوقت نفسه يتخذون من السلام شرعة ومنهاجًا ويتداعون إليه ، فذلك أمر غير مفهوم . ثم إننى قد سمعت فى « ميتانى » أنكم على الحدود القائمة بينكم وبينهم تزعجونهم بأحداث جسام ، يصورونكم بها قساة متوحشين ، ولم أسمع من أحد هناك ، على كثرتهم ، وعلى قربكم منهم ، أنكم فى شىء من هذه الثقافة التى تضفيها على قومكم !..

قال : الثقافة ؟! نعم نحن مثقفون ، ونبلغ من الثقافة ما لا يبلغون . وإننا لنقرأ ونكتب ، ونجمع فى مكاتبنا ومحفوظاتنا ألواحًا طينية منسقة مسلسلة ، نستظهر فيها عناصر الحياة ومقوماتها ، ونستهديها فى تنمية ملكات الخير والسلام ، وهى

التى تحفزنا إلى ما يراه أهل «ميتانى» قسوة وتوحشًا ، ونراه من زاوية تفكيرنا تدبيرًا حازمًا فى معاملة الآخرين ، فهذه الثقافة تملى لنا فى السعة وبسط السلطان ، وتفرض علينا أن نرهب أعداءنا لينضووا آخر الأمر تحت لوائنا ، وعندئذ يصبحون مثلنا ، أهل مودة وموادعة ، دون أن تنشب بيننا وبينهم حروب تراق فيها الدماء ، وتزهق الأرواح ، وتفدح الخسائر . فهل فهمت إذن كيف أن ثقافتنا تدعونا إلى الاستعداد للحروب ، حتى لا تكون حروب ؟!.

قلت : أليس يكفى أن تعيشوا فيما تريدون من سلام فى حدود مملكتكم ، وأن تدعوا الآخرين لشأنهم ؟!

قال : هؤلاء صنفان ، أما أولهما فأصدقاء موالون يأخذون بأسباب الحياة مثلما نأخذ أو قريبًا مما نأخذ ، وهم يدفعون لنا الضرائب فيشتركون بها معنا فى إعداد وسائل القوة ، ولهم علينا حق الأمان ، فنحن تاركوهم أحرارًا فى تقاليدهم وعباداتهم .

وأما الصنف الآخر ، فأقوام لا يعرفون من الحياة إلا أن تكون بغيًا وسطوًا واستطالة على غيرهم وإغارة على بلاد غير بلادهم ، وأولئك وإن كانوا منا بمبعدة إلا أننا لا نأمن من جانبهم المنافرة والاعتداء ، ولهذا نستعد لهم ، ونسلط على أعصابهم قوتنا فى غير قتال ، لا لنتقى شرهم فحسب بل لنفتح لهم أبواب السلام أيضًا فيريحون ويستريحون ...

قلت : أو مرسلون أنتم فى هذا على رأى آلهتكم ؟! إن الآلهة فى الممالك الأخرى هى التى توحى وتشير ...

قال : أعتقد أن هذا المبدأ من السهولة واليسر بحيث لا نحتاج فيه إلى استيحاء الآلهة واستشارتهم . إنه حكمة صاحب السلطان فى تيسير الحياة على الناس ، وقد لا يكون هذا هو الشأن فى بلاد السهول ، فإن للآلهة هناك سلطانًا واسعًا مسيطرًا على كل شىء ، حتى فيما لا ينبغى أن يقحمها الناس فيه ، فهم يستنبئونها الصواب

والخطأ ، ولكنها فيما أعلم لا تجود بالصواب إلا على الأغنياء ، أما الفقراء فهم دائمًا المخطئون الذين لا يصيبون !..

ولم أشأ أن أثقل على صاحبى أكثر من هذا ، فأنهيت الحديث ومجلس الشراب وقلت «لمينيا» بعد أن خلونا : لقد فرغت حاجتى من بلاد « الحيثيين » ، وإنى لأرى أن نرحل عن هذه البلاد ، فما أطيق المقام فيها أكثر من ذلك ، فهذا الرجل الماكر قد ينقل الحديث إلى الملك ، وأخشى أن يستريب فى أمرى فينالنى منه سوء ، فعلينا أن نعجل بالرحيل دون أن يشعر أحد بذلك .

ولم أجد مشقة فى الحصول على رخصة السفر فى طريق معين ، فقد أعاننى على ذلك بعض الممتازين الذين توثقت علاقتى بهم ، وحينما فطن مرضاى إلى أنى مفارقهم أعربوا عن أسفهم ، وحاولوا أن يثنونى عن السفر مؤكدين لى أننى لو بقيت بينهم فسأصبح فى سنوات قليلة من كبار الأثرياء ، ولكنى ضاحكتهم وتفكهت معهم وتقبلت هداياهم التى قدموها لى سخية وافرة كتحية وداع .

وغادرنا « هاتوشاش » معجلين ، وكنا ونحن نمتطى ظهور الحمير نرى الأرقاء والعميان يديرون أحجار الطواحين على جانبى الطريق ، فنستحث المطى على السير واسعة الخطى .

وبعد عشرين يومًا قضيناها على هذا السير الحثيث ، بلغنا أول ميناء على البحر .

- ٤ -

وفى المدينة التى يقوم هذا الميناء على مشارفها ألقينا رحالنا ، ولبثنا هناك نرقب السفينة التى نبحر عليها . وكانت المدينة تزدحم بالفساق والمجرمين ، ولا يكاد ينقطع فيها الصخب والضجيج ، فليس فيها ما يغرينا بالبقاء ، ولكننا اضطررنا إلى التخلف

بهـا وقتًـا أطول مما كنا نقـدر ، ذلك أن السـفن الثـلاث التى تتـابعت على المرسى مبحرة ، قد أبت « مـينيا » أن تركب فى واحدة منها : فـقد كانت الأولى فى نظرها صغيرة ، وستكون - كما ترى هى - معرضة للغرق ، وهى تخشـى أن يقـع لهـا مثلما وقـع حينـما تحطـمـت السـفينـة التى كانت تركبهـا فى طريقها إلى إلهها ، أما الثانية فكانت أكبر من الأولى ، ولا خوف من غرقها ، ولكن «مـينيا » تراها سـفينة سـورية ، وهى لا تريد الإبحار فى السـفن السورية ، وأما الثالثة فقد أخافـها منها أن ربانها يلوح الشر فى عينيه ، وهى لا تأمن أن يبيعنا رقيقًا فى بلاد أجنبيـة !..

ومن هنا طال مكثنا بالميناء ، ولم أضق بذلك ، فـقـد وجـدت فى هـذا المجـتـمع الصاخب المتشاكس عملاً متصلاً ، من تضميد جروح إلى خياطتها إلى فتح وتجبـير جماجم مهشمة ، فمـا أكثر ما كان يقع من حوادث ، ومـا أكثر ما يكون بعدها من مصابين !..

وشا ع أمرى كطبيب بين جمـهور الميـنـاء ، فجاءنى رئيس الحركة البحرية ، وكان يعانى من مرض تناسلى مزمن ، وكنت قد عرفت الشىء الكثير عن هذا المرض وعن وسائل علاجه فى « أزمير » ، فعالجته حتى برئ منه ، فسره ذلك غاية السرور ، وأخذ يشكرنى ويثنى على مـهـارتى ، ويسـألنى عما أريد من أجر على مـا أسديت إليه من فضل كبير !..

فأظهرت له زهدى فى المال كأجر على علاج صديق مثله ، وقلت له إننى لا أسأله شيئًا سوى أن يهدى لى السكين التى كانت تتدلى من حزامه الجلدى ، فسـأعتز بها كذكرى لصداقته .

ولكنه قال معترضًا : إنها سكين عادية ليست بذات قيمة ، فمقبضـها ، كما ترى ، خال من توشية الذهب أو الفضة ، وما أراها جديرة بالإهداء إلى طبيب بارع مثلك .

ولم يغب عنى أنه إنما يهون من أمرها ؛ لأنهـا من الأسلحـة المصنوعة من الصلب فى مـصـانـع الحيثيـين ، وأنهم ممنوعون من التعامل بها مع الأجانب بيعًا أو إهـداء .

وفى « ميتانى » كان لا يحملها إلا الأشخاص الأكثر امتيازًا ، فأثمانها كبيرة حتى لتبلغ عشرة أضعاف وزنها ذهبًا ، ولم يكن بمستطاعى شراء واحدة منها لامتناع بيعها إلى الأجنبى ، ولهذا رغبت فى الحصول عليها هدية من رئيس حركة الميناء ، مستغلا عاطفته الشخصية نحوى بمناسبة إبرائه من مرض خطير ، ولكنى إزاء رفضه وتأبيه لم أشأ الإلحاح عليه حتى لا أثير الشكوك حولى .

غير أنه عاد يفكر ويراجع نفسه ، فقد كان عليه أن يعطينى شيئًا ، ويبدو أنه وازن بين أن يعطينى المال الذى يرضينى ، والسكين التى أطلبها، فرأى أن الأفضل عنده الاحتفاظ بالمال الذى هو أكثر فائدة له من السكين ، ومن ثم قال : هذه هى السكين ، فخذها هدية وتذكارًا .

وتناولتها منه فرحًا شاكرًا ، وتحسستها فألفيتها مرهفة حادة ، حتى ليستطيع أى إنسان أن يحلق بها ذقنه ، واعتزمت تحلية مقبضها بطبقة من الذهب كما رأيت كبار الرجال يفعلون فى « ميتانى » .

وفى هذه المدينة كانوا من وقت إلى آخر يقيمون معارض للثيران الوحشية على ساحات واسعة يتوافى إليها النظارة ليشهدوا الصراع بينها وبين شبانهم الذين مرنوا على هذا النوع من أنواع الرياضة إظهارًا لشجاعتهم ، وكان ذلك أمرًا مألوفًا فى كل المدن القائمة على موانئ البحر ، وقد أتيح لنا أن نشهد خلال إقامتنا عرضًا من معارض هذا الصراع ، فرأينا فتيانًا خفاف الحركة يواثبون هذه الثيران المخيفة ويقفزون على أكتافها وظهورها ويحاورونها محاورة بالغة الخطورة ، وقد أبهج هذا « مينيا » وأثارها فاندفعت إلى الساحة ، ولأول مرة رأيتها فى مهارة عجيبة ترقص أمام تلك الثيران التى هى أشد ضراوة وتوحشًا من الحيوانات الأخرى . فالفيل مثلاً ، وهو أكثر ضخامة وأكثف بدنًا فى دنيا الحيوانات يمكن أن يكون أليفًا مأمون الخطر إذا لم يثره أحد ، أما الثور المتوحش وبخاصة فى ساحة صراع ، فهو مستثار لا يهدأ ولا يستكين ولا يوادع ، بل هو يهاجم منازليه فى عصبية مرعبة ، مسددًا إليهم قرنيه الطويلين مدببى الأطراف كأنهما فى حدتهما مخراز حداد ، وكثيرًا ما رأى الناس أن

هذه القرون تنفذ إلى صدور المصارعين الأشداء ، فيهوون لفورهم قتلى تحت أقدام الثيران الهائجة .

وعلى ما عراني من خوف شديد على « مينيا » وهي تواجه هذه الثيران في حلبة الموت ، كنت مبهوراً بما رأيت من فنون رقصها الساحر .

كانت ترقص متشحة ثوباً من النسيج الرقيق ، والثيران في أشد حالاتها ثورة واندفاعاً ، فتنفلت منها في خفة العصفور ، ثم لا تكاد تختفي عن الأعين وسط جسومها المطبقة عليها حتى تعود فتظهر في قفز سريع على قرونها المشرعة ، وعندما تستوى على قرنى ثور منها تنهض على قدم واحدة وتلطم بالأخرى وجهه إمعاناً في إثارته ، ثم تثب في الهواء وثبات مدهشة تنطوى فيها وتنتشر وترتد منها لتقف متماسكة على ظهر الثور العنيد غير وجلة ولا هيابة !..

ولم يكن النظارة المحتشدون قد شهدوا مثل هذا من قبل ، فأعجبوا « بمينيا » إعجاباً عظيماً أعربوا عنه بالهتاف المتواصل والتصفيق الحاد ، وأقبلوا عليها بعد أن فرغت من رقصها العجيب الفاتن يضعون ضفائر الزهور فوق رأسها وحول عنقها ، وأهدى إليها فتيان المصارعة طستاً منقوشاً عليه صور الثيران باللونين الأحمر والأسود ، وكان من بين الحاضرين ربابنة السفن الذين يجوبون البحر دائماً ، فهؤلاء كانوا كذلك في دهشة كبيرة من هذا الرقص الرائع الذى قالوا إنهم طوال رحلاتهم إلى « كريت » وغيرها لم يشهدوا مثل هذه الفتاة في دقة فنها ومرونة أعضائها ، فضلاً على قوة جنانها وجرأة قلبها .

وألقت « مينيا » بنفسها على صدرى بعد ذلك مجهدة ، فقد كانت تتفصد عرقاً حتى ابتل رداؤها ، كما كانت تبدو مزهوة مغتبطة ، وتلقيتها محييا مثنيا عليها ، مصطنعاً السرور بما أبدت من فنونها الساحرة ؛ فالواقع أننى حينذاك كنت أشعر بأن الأشجان والهموم قد تحركت في قلبى ، فكأنما كنت أقرأ على لوحة الغيب

المجهول أن رقصها هذا الذى رأيته مدهشًا أمام الثيران المتوحشة ، إنما هو إيذان بالفراق بينى وبينها .

وجاءت فى أثر هذا سفينة من « كريت » ، ولم تكن صغيرة يخشى فيها الغرق ، كما لم تكن كبيرة من سفن سوريا التى لا تريد « مينيا » الإبحار عليها ، ولم تكن نظرات ربانها تنذر بالشر كذلك الربان الذى كانت قد وجلت من الركوب فى سفينتـــه ، وأبدت « مينيا » ارتياحها إلى السفر علـى هـذه السفينة العائدة إلى « كريت » ، وزادها ارتياحًا إلى ذلك أن ربانها كان يتكلم لغتها ، وقالت لى : سأكون على ظهر هذه السفينة فى رحلة أمنة إلى إلهى ، وفى وسعك أن تتركنى مطمئنًا ، وإنى لآسفة على فراقك ، كما أنى آسفة لما حدث لك بسببى من مضايقات ومحرجات وخسائر .

قلت لها : ولكنك لن تكونى وحـــدك يا « مينيا » فإنى ، لـذاهـــب معك إلى « كريت » .

قالت وهى تسدد إلى وجهى عينيها الصافيتين صفاء ماء البحر تحت ضوء القمر : لا أدرى لماذا تعنى نفسك هذا العناء بمرافقتى فى سفرة لا حاجة بك إليها ؟!

قلت لها : لو أنك سألت قلبك لأنبأك عن سر إصرارى على مرافقتك .

قالت وقد وضعت يدها فى يدى : لقد طال طوافنا معا يا « سنوحى » وعرفت ما لم أكن أعرف من بلاد وأقوام كثيرة ، حتى كاد يبعدنى هذا عن التفكير فى بلادى وقومى ، بل حتى صرت أشعر أن الحنين إلى إلهى قد أصبح أقل حرارة مما كان ، ولهذا كنت أنسى عودتى إليه وأرجئها متعللة بأسباب تافهة ، وتلك حال أوشكت أن تميل بى عن طريقى المرسوم ، وتسلمنى إلى مـصـيـر غـامض . على أنى بعد أن راقصت الثيران عرفت أن إلهى لا يزال يحتوى نفسى ويجذبنى إليه ، وأننى يجب أن أموت له وفى سبيله قبل أن تنتزعنى أنت منه ... وإنك لتعلم ماذا أعنى !..

قلت لها : أجل ، إني أعلم ما تعنين، وما هو بالأمر الذى ينقصه الوضوح ، ولكني لا أريد أن أغتصبك من إلهك ، لأني لا أريد سخطه ...

وتجهمت « مينيا » لسماعها هذه العبارة مني ، فقد كانت - فيما يبدو - تتوقع أن تسمع شيئًا آخر غير أن أقول إنني لا أريدها !.. وابتعدت عني نافرة نفور الغضب ، واستلقت على موضع نومها ثم تمددت تحت غطائها لتنام . فاقتربت منها بعد قليل وأحسست أن جسمها ينفث حرارة شديدة ، فقلت لها : إنك تعانين من حمى ، وهممت أن أعد لها علاجًا ، فتأبت أول الأمر ، ثم عادت فطلبت هي ذلك ، فاستعملت لها بعض العقاقير حتى هدأت ونامت !.

وكان اليوم التالي هو يوم الرحيل ، فطلبت من « كابتاح » أن يعد الحقائب لنبحر إلى جزيرة « كيفتيو » إذ كنت أرى أن الطريق إليها هو طريق « مينيا » نفسه إلى إلهها .

وقال « كابتاح » معترضًا : كيف ذلك ؟! ألم نتفق على ألا نضع قدمًا في سفينة ؟! أو لعلك نسيت ما أصابني من شقاء الرحلات البحرية ؟!

ولكنه لقاء ما رأى من عدم مبالاتي باعتراضه ، عاد يقول : إذا كان لا بد مما ليس منه بد فإني مضطر إلى مرافقتك ، حرصًا على سلامتك ببركة « الجعران » المقدس الذى أحمله ، ذلك لأني لا أستطيع أن أعطيكه وأبقى بدونه ، كما لا أستطيع السفر وحدى إلى « أزمير » برا من غير أن يكون معي ، فلا مناص إذن من أن نسافر - كما تشاء - بالبحر ، ليكون «الجعران» رفيقنا معًا .

وكان « كابتاح » - فيما علمت بعد - يعتمد في موافقته على السفر بالبحر ، خلافًا لرأيه الأول ، على شيء آخر غير هذا التعليل ، ذلك لأنه ، بدافع الخوف الذى ركبه من البحر ، كان قد أخذ يسائل البحارة ومعتادى الأسفار بالسفن عن وسائل الوقاية من أخطار البحار وأمراضها ، فزودوه بما يعرفونه من ذلك واشترى من بعضهم تميمة من السحر قالوا إن فيها أسرارًا واقية ، وقد رأيته يعلقها في عنقه قبل أن تقلع بنا السفينة ، وزاد على ذلك أنه شرب مزيجًا من أعشاب مخدرة ، وحينما

صرنا على ظهر السفينة بدا عليه أثر انفعال هذه الأعشاب فى رأسه ، فكانت عينه الواحدة كعين السمكة المسلوقة . وفى صوت أجش طلب قطعة من لحم الخنزير ؛ لأن البحارة أكدوا له بأن فى تناولها حصانة من مرض البحر . وقد آوى بعد ذلك إلى سريره بقمرة السفينة ، وفى إحدى يديه القطعة التى جىء بها إليه من لحم الخنزير ، وفى الأخرى « الجعران » المقدس .

وغادرت السفينة خليج الميناء ناشرة شراعها ، وراحت تمخر عباب الماء فى اتجاهها إلى « كريت » مبتعدة شيئًا فشيئًا عن الشاطئ .

البيت المظلم

- ١ -

وعلى مـا كان يروع من هذا البـحر الذى ينداح على مرمـى أبصـارنا ، وينبسط ويستفيض من غير أن تلوح له من هنا أو من هناك حواجز أو حدود ، كنت أشعر على ظهره بالكثير من الراحة والهدوء ، ذلك لأن « مينيا » كانت معى ، وهذا حسبى . وقد كان نظرى لا يريم عنها فرأيتها تقف عند مقدمة السفينة تتنفس هواء البحر وتطيل فى هذا التنفس كأنها تلتهمه التهامًا ، ووجهها يفيض بشرًا وعيناها تتألقان بمثل ضوء القمر ، وكانت تميل إلى البحر تارة وإلى السفينة أخرى كأنها تستحثهما السير ليسرعا بها إلى النهاية التى تنشدها .

وكان الجو منعشًا ، فالسمـاء صافية والشمس ساطعة والريح تجرى رخاء ، وربان السفينة راض بذلك كل الرضـا ، وأنا خلال هذا أكثر انشراحًا بمرافقة « مينيا » وبما يلوح عليها من ابتهاج وغبطة .

ولكنى فى اليوم التالى أحسست بشىء من التطير والضجر ، ذلك لأنى تفقدت الطيور البحرية ذات الأجنحة البيضـاء التى كانت بالأمس تحلق على السفينة . لقد اختفت تمامًا من الأفق ، وكنت متيمنًا بها ، وقد اقترن اختفاؤها بظهور أسراب من الحيوانات البحرية الشريرة الضخمة ، وكان ضوء الشمس ينعكس عليها وهى تسبح على سطح الماء فيزيدها ظهورًا ويزيدنى تشاؤمًا بمنظرها ، غير أن « مينيا » على خلاف ذلك ، كانت تلوح لها بيديها وتحييها فى صوت واضح بلغتها الأصلية ، ثم تلتفت إلينا قائلة فى غبطة : هذه رسل إلهى قد جاءت تحمل إلى تحياته !..

كنت وإياها فى ذلك اليوم على طرفى نقيض ، فهى تتعجل الوصول إلى إلهها ، وتحت تأثير لهفتها إلى لقائه ، تتخيل هذه الحيوانات الشريرة رسلاً من عنده ، وأنا

أوجس منها وأشعر لموقف « مينيا » حيالها بالمرارة ، لا لأن تلك الحيوانات شريرة فقط ، بل لأن إحساسات « مينيا » الصارخة تؤذن بقرب ساعة فراقنا أيضاً !..

وشغلنا قليلاً عندما رأينا سفينة « كريتية » من سفن الحرب تقترب منا على خط السير نفسه ، وتلتمع على جوانبها الدروع النحاسية ، ولكنها سرعان ما أعلنت إشارة الأمان بإنزال رايتها بعد أن استوثقت من أن سفينتنا من سفن السفر العادى ، وبعد ذلك عاد كل منا إلى شأنه الخاص الذى يعنيه .

واستيقظ « كابتاح » بعد نوم طويل ، وخالط البحارة وراح يتحدث إليهم ، فى مفاخرة وزهو ، عن رحلاته البحرية الكثيرة فى عدة من البلاد الأجنبية ، كرحلته من « مصر » إلى « أزمير » ، والرحلة التى انفصل فيها الشراع عن الصارى ، والرحلة التى كان رفاقه فيها يرقدون جميعًا على ظهر السفينة يجترون ما فى بطونهم ، وكان هو والربان وحدهما يأكلان ويمرحان فى نشاط وعافية ، كما تحدث إليهم عن الوحوش المرعبة فى دلتا النيل وكيف أنها كانت تثب على قوارب الصيد فتغرقها ومن فيها حين تقترب منها !..

وكان ، كعادته يضفى على أحاديثه وقصصه صوراً من التهويل والمبالغة ، ولم يكن هؤلاء البحارة بأقل منه انطباعًا على الخيال ، فأخذوا بدورهم يتحدثون إليه عما شاهدوه من الأعمدة الغريبة فى أطراف المحيط البعيدة التى تحمل السموات ، وعن العذارى المتشكلات فى صورة سمك ، واللائى يترقبن البحارة فيغوينهم بإلقاء السحر عليهم ، وعن وحوش البحر المفترسة التى تفاجىء ركاب البحر من حيث لا يشعرون فترديهم ، وقد كانوا يذكرون هذه الأقاصيص على نحو مثير ، ويصطنعون فيها الجد ، فيقف لها شعر رأس « كابتاح » خوفًا وفرقًا ، وجاءنى مرتعداً كالهارب من وحش يطارده .

وكنت لا أزال على حالى من اضطراب البال والمشاعر ، فكلما أوغلت السفينة فى البحر تراءت « مينيا » أكثر جمالاً وابتهاجًا ، وأشد فتنة وسحراً ، فيعتادنى الأسى

المضى ، وتبدو الدنيا فى عينى سوداء قاتمة ، حتى كأنها قد استحالت فى نظرى ركامًا من رماد ، فهى على وشك الوصول إلى إلهها ، حيث لا أمل فى لقاء بعد ذلك ، وقد صارت قطعة من قلبى ، وسيظل هذا القلب بدونها تعسًا شقيا ، ولا أدرى كيف يواتينى الصبر على فراقها حين أتفقدها إلى جوارى فلا أجد منها غير الذكرى ، وأية ذكرى ؟!.

إن ربان السفينة ورجاله يحتفون بها أعظم الحفاوة ، ويولونها احترامًا كبيرًا ؛ لأنهم علموا أنها الفتاة الجميلة المختارة للإله ، الذاهبة إليه ، فكأنهم حراسه وجنده ، تجمعوا حولها ليذودوا عنها كل ما يمكن أن يحول بينه وبينها !.. وإذن فلا حيلة ولا مناص ، ولا أمل ، وكم يضاعف هذا فى عذابى ؟!.

ولاحت لنا « كريت » من بعيد كأنها قطعة من سحاب أزرق ، فتهلل البحارة وابتهج الربان وأخذ يقدم الأضاحى إلى إله البحر ، شكرًا له على ما منحهم من جو طيب وريح مواتية ، ثم أخذت « كريت » تدنو منا بجبالها ومنحدراتها وشواطئها المخضوضرة بأشجار الزيتون ، وهنا تندت عينا « مينيا » بقطرات من دموع الفرح ، لأنها تشرف من قريب على معالم وطنها الحبيب .

وبلغنا الميناء ، ورست السفينة إلى جوار السفن الأخرى الرابضة هناك من كل البلاد ، وكانت تنيف على الألف سفينة بين تجارية وحربية ، وقد دهش « كابتاح » لكثرة عددها فقال إنه لم يكن يظن أن سفن العالم كلها تجتمع فى هذا الميناء !..

وكان مما استرعى نظرى أنه ليس للمدينة أسوار أو حصون أو أبراج ، فهى تقف فى وجه البحر سافرة كأنها البطل الشجاع الذى يواجه الأخطار فى غير خوف ، فدل هذا على سيادة « كريت » على البحار ، كما دل فى الوقت نفسه على قوة إلهها وسعة سلطانه .

- ٢ -

إن خواطرى لكثيرة عن هذه الرحلة بذاتها ، ولكنى أقصر حديثها على « كريت » ومشاهداتي فيها كمدينة . أما رأيى فى هذه المملكة وفى إلهها ، فإنى ممسكه فى نفسى ومغلق عليه قلبى .

لقد طوفت فى الأرجاء والأقطار الكثيرة من هذا العالم الكبير ، وزرت أشهر ما فيه من بلدان ومدن ، فلم أجد فيها ، على كثرتها ، مثلما وجدت فى « كريت » من الطرائف والغرائب .

لقد بدت أول ما رأينا فى مرسى السفن ، حالية بالإشراق كالعروس فى جلوتها ، والبحر بين يديها يهتز كما لو كان يرقص طربًا وينثر زبده تحت قدميها براقًا كأنه نثار اللجين ، ثم يموج كالذى تشتد به نشوة الطرب ، ويتراجع مسترخيًا وديعًا تاركًا تحت قدميها أيضًا ركامًا من أصدفائه مطويات على الدرر واللآلئ ، كأنما يحييها بخير ما عنده !..

فلما صعدنا إليها وعشنا بين أهليها ، رأينا ما لم نر من قبل ، من انطباعات السرعة التى تتميز بها حياتهم ، فالإنسان فيها سريع الانتقال من حال إلى حال ، لا يثبت على أمر إلا ليجاوزه إلى غيره ، فالأعمال والأفكار متجددة دائمًا ، متغيرة من ساعة إلى أخرى ، حتى ليشق هناك الاطمئنان إلى الوعود والاتفاقات ، على أن أهلها على العموم ظرفاء فى أحاديثهم، يبتهجون بالحياة فى سائر أحوالها ولا يعترفون بالموت ، ولا أذكر أنهم أداروا حديثه على ألسنتهم مرة واحدة ، فهو عندهم شيء مخيف مزعج ، وهم أهل مرح وبهجة فما يحبون أن يرنقوا صفوهم بذكره ، ولذلك فإنهم إذا ما مات أحدهم ، أسرع أهله إلى مواراته التراب فى خفاء حتى لا يزعجوا بذلك غيرهم ، وربما أحرقوا جثث الموتى حتى لا يبقى منها أثر يذكر بالموت ، وخلال مقامى « بكريت » لم يقع نظرى على جنازة واحدة لميت منهم . وليس هناك من المقابر سوى بعض بنايات شيدت من الأحجار فى عصور قديمة لملوكهم السابقين . وهذه

المقابر الملكية القليلة كانوا يحرصون على ألا تقع عليها عيونهم ، فهم يتخذون لهم طرقًا بعيدة عنها ، وهكذا يباعدون بينهم وبين فكرة الموت كما لو كانوا سيظلون أحياء لا يموتون !..

وفى « كريت » فنون ، ولكنها عجيبة . فالمصور لا يتقيد فى مرسمه بقاعدة ، وإنما يصور أى شيء يوحى به خياله ، ولا يبالى رأى غيره من الناس فى ذلك ، فحسبه أنه قد صنع ما يروقه هو . وقد شهدت لمصوريهم لوحات حاشدة بالصور الملونة للأوانى والأزهار والأحياء المائية والفراشات ، ولكنها فى مجموعها لا ترضى الفنان المتذوق ، فإنها قد رسمت على غير قواعد الرسم الفنية ، ومثلت خيال المصور وحده ، وكثيراً ما يكون خيالاً سقيمًا ، ولعل ذلك راجع إلى انطباعات السرعة الفاشية فى هؤلاء القوم .

ومبانى « الكريتيين » وإن لم تكن لها فى ظاهرها هيبة المعابد والقصور كما هو الشأن فى البلاد الأخرى ، إلا أنها تنم عن الدقة والعناية وتوخى الإفادة منها داخليًا أكثر من الاهتمام بمظاهرها الخارجية . وقد رأيتها موفورة أسباب الراحة والرفاهية ، فعلى نوافذها ستائر شبكية ينفذ منها الهواء صافيًا غير مشوب بالجراثيم ، وفى داخلها حمامات المياه الباردة والساخنة مزودة بالصنابير والأحواض المصنوعة من الفضة ، وتتصل بها أنابيب تمتد إلى بالوعات خاصة لتصريف المياه وامتصاصها ، ويستوى فى هذا جميع السكان ، وما رأيت لهذا الترف المهذب مثيلاً فى مدينة غير هذه المدينة ...

ونساء « كريت » مولعات بالنظافة والتجميل ، وحظهن من الحياة المترفة أكثر من حظ رجالهن بطبيعة الحال ، فهن يقضين أطول وقت فى الاستحمام وتدليك أجسادهن وترقيق بشرتها وطلاء وجوههن بالأدهنة والمساحيق ، ويرتدين من الملابس حللا منسوجة بخيوط الذهب والفضة يفرغنها على أجسامهن ما عدا الأذرع والصدور فإنها تبقى عارية ، إبرازًا لجمالها ومفاتنها . وكانت ملابسهن تختلف فى أزيائها ورسومها وأنواقها ، ولكنها جميعًا بالغة الأناقة ، فمنها الملابس المفردة ومنها ذات

الثنايا والأجزاء المتعددة ، وهذه أو تلك تزدان بتوشيات ورسوم من صنع الفنانين تمثل بعض الطيور والحيوانات وأغصان النخيل أو ما إلى ذلك مما يزيدها رونقًا وبهاء . وكن يضعن فوق رءوسهن قلانس من الشعر المتشابك ، ومن فوق هذه القلانس يضعن قبعات صغيرة خفيفة تتماسك عليها مشابك من ذهب ، ولا يظهرن إلا مبديات هذه الزينة الكاملة ، لتزيدهن جمالا وإشراقًا . وفى الواقع كانت عنايتهن بهذه الناحية تفوق عنايتهن بأى شىء آخر ، ولهذا كانت أجسامهن دائمًا رخصة ريانة ، ووجوههن ملتمعة مشرقة ، وخواصرهن رفيعة دقيقة ، ويحرصن على التظاهر بهذا الجمال المتأنق فى مختلف أدوار حياتهن . وفى سبيل ذلك يتجنبن بقدر الإمكان الحمل والولادة ، ولا يرين عيبًا فى ألا يحملن ولا يلدن ، وقد تحمل إحداهن فتلد فى عسر شديد .

والرجال يجرون فى هذا المجرى باقصى ما تسمح به طبيعتهم الجنسية ، فهم يلبسون أحذية مزخرفة طويلة إلى الركبتين ، ويشدون أوساطهم بأحزمة عريضة يختالون بها ، وأيديهم صغيرة بضة وسيقانهم دقيقة ، وهم كالسيدات ، يتعهدون أجسامهم بالنظافة ويجردونها من الشعر ، ويحتفلون بذلك احتفالاً ملحوظًا .

وهم على خلاف أهل الموانى البحرية لا يعرفون إلا لغتهم الأصلية ، والقليل جدا منهم هو الذى يتكلم بلغة أجنبية ، فإذا سئلوا فى ذلك قالوا إنهم يؤثرون لغتهم لسهولتها وعذوبتها .

وحياتهم هذه الوادعة جعلتهم لا يهتمون كثيرًا بأعمالهم ، فثرواتهم مثلا مستمدة من تجارة البحار ، ولكنهم مع ذلك قلما يذهبون إلى الميناء؛ لأنهم هناك مضطرون إلى مخالطة الغرباء والطبقة الدنيا من العمال ، وهؤلاء يعيشون فى ذلك الحى المعزول عيشة تافهة قد لا تؤمن فيها عدوى الأمراض . وكثير من أصحاب التجارة البحرية الواردة أو الصادرة ، يعتمدون فى أعمالها على وكلاء يعهدون إليهم بذلك . وقد ترتب على هذا أن الغرباء الوافدين على الميناء والمقيمين بمنطقته قد استطاعوا أن يصيبوا ثروات كبيرة دونها ثروات تجار المدينة أنفسهم .

وفنونهم الموسيقية عجيبة غاية العجب ، فعندهم آلات تعزف ألحانًا من غير عازف ، ويزعمون أن باستطاعتهم أن ينقلوا الموسيقى إلى حروف مكتوبة على لوحات ، فإذا قرأها إنسان استحالت إلى أصوات موسيقية رتيبة من غير أن يكون قد استمع إليها أو عرف شيئًا من ضوابطها الفنية . وكنت قد سمعت من الموسيقيين فى « بابل » أنهم يستطيعون أن يفعلوا مثل ذلك ، ولكنى لم ألق بالا لمزاعم البابليين والكريتيين على السواء ، فلست أعرف شيئًا كثيرًا عن الموسيقى ، وأنا أقل معرفة بها فى البلاد الأجنبية ، وأذنى لا تستسيغها على أية حال ، وأشعر أن الكريتيين ينقصهم الصدق فيما يقولون ، ففى أنحاء أخرى من العالم يجرى فى الناس مثل مشهور يقول : « أكذب من كريتى » .

وليس فى « كريت » معابد ، ومظاهر عنايتهم بآلهتهم تكاد تكون منعدمة إلا فيما رأينا من قيامهم على خدمة الثيران وحسن تعهدهم لها ، وهى التى شاع الاعتقاد بأنها ترقص للآلهة . على أنى موقن أنهم لا يبالغون هكذا فى رعايتها وترويضها عن عقيدة دينية دافعة ، وإنما هم يفعلون ذلك شغفًا بهذا الفن من الرياضة ، ونشدانا لمتعة الرقص أكثر من أى شىء آخر .

وللملوك فى الممالك الأخرى استعلاء وقداسة ، ولكن الملك فى « كريت » يعد بين أهلها شخصًا عاديًا ، لا يميزه فيهم سوى قصره الذى هو أكثر سعة من دورهم ، فلا يحفظون له فى أنفسهم أو يبدون له فى معاملتهم توقيرًا غير عادى وهم يذهبون إليه فى قصره متى شاءوا ، ويجالسونه ويتحدثون إليه كما لو كانوا وإياه على درجة سواء ، لا تقيدهم فى هذا مراسم معينة ولا طقوس مفروضة .

وهم يشربون النبيذ ، ولكنهم يشربونه فى قصد واعتدال لمجرد الرغبة فى أن يظلوا منشرحى الصدور ، ويرون الإفراط فيه إلى الحد المسكر ضربًا من الوحشية غير اللائقة بالإنسان ، ولهذا لم أر فيهم واحدًا استبد الشراب بوعيه أو غلبه على أمره فى المآدب والمجتمعات ، على غير ما نراه من أحوال السكارى فى « مصر » وغيرها من مختلف البلاد .

وفى حرية واسعة يتلاقى النساء والرجال هناك ، حتى ليبلغ الجنسان فى ذلك حد الإباحية . ومن المألوف فى حياتهم أن يرقص الفتيان والفتيات معًا أمام الثيران فى حلبات الرقص العامة .

تلك هى « كريت » ، وهؤلاء هم أهلها كما عرفنا من أمرهم فى هذه الرحلة .

ولأعد بعد هذا الاستطراد إلى ما كان من شأننا منذ غادرنا الميناء .

لقد كان الفندق الذى نزلنا فيه صغيراً، ولكنه على صغره كان أنيقًا جميلا ، يفوق فى أناقته وجماله ، فندق « بيت عشتروت للسرور » فى « بابل » ، كما كان يمتاز عنه بالخدمة والنظافة ؛ لأن الخدم فى « بيت عشتروت » كانوا لغبائهم لا يحسنون ذلك .

وبعد أن استقر مقامنا به أخذنا نعد أنفسنا للخروج إلى المدينة ، فاغتسلنا وأبدلنا ملابسنا ، وتجملت « مينيا » فوضعت على شعر رأسها قبعة صغيرة فى حجم المصباح ، وانتعلت حذاء ذا عقب مرتفع تضطرب به مشيتها ، وهو شىء مستغرب ، ولكنى لم أشأ إبداء ملاحظتى عليه حتى لا أضايقها ، بل لقد ساعدتها على استكمال زينتها فأعطيتها أقراطًا وقلادة من أحجار منوعة الألوان ، وكان الذى اشتريتها منه قد قال إنها أحدث ما ظهر للزينة فى تلك الأيام ، وكان ينبغى أن يقول أيضًا إنها لا تفقد بهاءها وروعتها حين تظهر أنواع سواها فى الأيام المقبلة ، فما إن تحلت بها « مينيا » حتى بدت من فتنة الجمال وسحره بحيث لا أعرف أنى رأيت مثلها فيما مضى من أيام حياتى .

وأحسسنا بالفرق الكبير بين حى الميناء والمدينة عندما انتهينا إليها ، ففى ذلك الحى الذى يقوم به الفندق ، زحام وضجيج وجماهير محتشدة للبيع والشراء وما يتخلل ذلك من مساومات ومماحكات ، وأكوام من عروض السلع ، ومنها سمك البحر ينفث روائحه غير المحتملة ، وليست هكذا حال المدينة ، فهى وادعة هادئة ، حالية بحدائقها الغناء ودورها المتعددة منافذ الهواء كأنها من حى الميناء عالم آخر !

ومضت بى « مينيا » ، وهى تعرف من شأن المدينة ما لا أعرف ، إلى رجل عجوز من الوجهاء قالت إن رباطًا من الصداقة القديمة يربطها به ، فقد كان لثقته بمهارتها فى فنون الرقص يراهن عليها فى حلبات الثيران ، ومن هنا نشأت الصداقة بينهما ، فكانت تتردد على بيته وتقيم أحيانًا فيه . وحينما دخلنا عليه رأيناه منكبًا على قائمة الثيران يتفحصها ويؤشر فيها على ما يعتزم الرهان عليه فى اليوم التالى . وقد فوجئ بزيارة « مينيا » وأثارت هذه المفاجأة فرحه وابتهاجه ، فأقبل عليها لهجًا ، وضمها إلى صدره فى غير تحفظ صائحًا : فى أى مكان كان اختفاؤك كل هذا الزمن الطويل ؟! لقد حسبتك ، هناك فى بيت الإله !.. على أنى الآن سعيد بلقائك مهما يكن الأمر . ولقد كان إحساسى بعودتك صادقًا ، فلم أسمح لأحد بالإقامة فى غرفتك ، ثم قال مستدركًا : وأرجو ألا يكون الخدم قد غفلوا عن أمرى فشغلوها بشىء ما ، أو ألا تكون زوجتى قد أحالتها إلى بحيرة ماء لتربى فيها السمك !.. حقا إن زوجتى لتستهويها إلى حد بعيد فكرة تربية السمك !.

وقالت « مينيا » فى دهشة : « هيليا » تربى السمك ؟! إن هذا لشىء غريب !..

واضطرب الرجل العجوز قبل أن يقول : لا . إنها ليست « هيليا » إنما هى زوجتى الجديدة ... إنك لا تعرفينها بعد ، وأظنها الآن مشغولة بعرض سمكها على فتى صغير ... فلندعها لما هى فيه ، فهى لا تحب أن يزعجها أحد عندما يكون فكرها مشغولاً بهذه الهواية .

وفى هذه اللحظة فطن الرجل إلى وجودى ، فاستقبلنى مرحبًا ، وقال لها : ألا تقدمين لى صديقك ؟! إنه سيكون صديقى كذلك ، وله أن يعد منزلى هذا منزله منذ الساعة .

فقالت « مينيا » إنه صديقى « سنوحى » المصرى الذى يلقب بالوحيد ، وصناعته طبيب .

وقال معقبًا في مزاح : وكم من الوقت سيبقى هنا وحيدًا ؟! ثم ماذا ؟! أمريضة أنت يا « مينيا » حتى يرافقك طبيب ؟! إن ذلك يحزنني ، فأشد ما أرجو أن تكوني موفورة العافية لترقصي غدًا أمام الثيران ، فيعود لي بذلك ، الحظ الذي أدبر .. لقد تخلى عني الحظ السعيد طوال غيبتك عن هذه الديار، على كثرة ما بذلت في سبيله ، وقد ساءت حالتي المالية ، أو هكذا يقول وكيلي بالميناء ، فما أعرف الحقيقة ، وربما كان غير صحيح أن « إيراداتي » أصبحت أقل من « مصروفاتي » كما يدعي ، فإنه ليلقي أمامي بقوائم حسابات معقدة لا أدري من أمرها شيئًا !.

قالت « مينيا » : لست مريضة ، ولكني لقيت في رحلتي أهوالاً جسامًا ، تعرضت فيها للموت أكثر من مرة ، فأنقذني منها هذا الصديق « سنوحي » ، وأبى أن يتخلى عني إلى أن عدت كما ترى ، فكان لي ، في هذه الرحلة الطويلة الحاشدة بالأخطار ، نعم الرفيق ، ونعم الصديق .

ثم روت له قصة الرحلة منذ تحطمت السفينة التي كانت قد أبحرت عليها إلى « سوريا » لترقص أمام الثيران المتوحشة .

فقال الرجل ، وهو لا يكاد يخفي قلقه ، أرجو أن تكون أخطار الرحلة قد زالت عنك تمامًا ، وألا تكون هذه الصداقة الجديدة قد أضاعت شيئًا مما تعتدين به في سباق الثيران ؟!

واستطرد يقول وهو يقلب عينيه فيها: إن صدرك يا « مينيا » يبدو ناميا ، وألمح في عينيك ومضات متندية على غير ما أعهد فيها من قوة التسديد ، وهذا يخيفني عليك في مجال الرهان !.

فقالت « مينيا » : كنت أعتقد أنك ، كصديق ، ستسر لعودتي بعد طول غياب ناجية من الأخطار ، ولكني أرى ألا شيء هو أشغل لبالك وفكرك من الثيران والرهان ، وأنت لهذا تفحصني بعينيك كما يفعل البابليون في أسواق الرقيق !..

قالت هذا مغضبة ، وتحدرت على وجنتيها قطرات من الدموع لفرط تأثرها ...

قال الرجل ، محاولا إصلاح موقفه منها : بل عنيت الاطمئنان على سلامتك يا « مينيا » ، وما ذكرت الثيران إلا تعبيراً عن ذلك . فإن غياباً طويلاً في سفر شاق ، من شأنه أن يقلقني عليك ، وأنا أعلم أنك تلتزمين في حياتك العادية أسلوباً خاصا كالاستحمام يوميا ، وهو أمر أشك في أنه كان ميسوراً لك في تلك البلاد الغريبة التي لا عهد لك بها من قبل . وما دمت ، كما تقولين ، قد عدت في وفر من العافية ، فذلك يسرني ويسعدني ، فقرى عينا ولا تحزني .

وأردف قائلا كمن تذكر شيئاً كان قد نسيه : كان عليّ أن أذهب إلى « مينوس » في موعد مضى من لحظات غير قصار ، فأنا سائر إليه الآن ، وأرجو أن تبقى حتى أعود فإذا جاءت زوجتي فأخبريها أنني هناك ، وأنني لم أشأ ، قبل ذهابي ، أن أقطع خيوط استمتاعها ، هي والصغير الذي معها ، بهوايتها المفضلة !.. وقد يطيب لك أن تعرفي يا « مينيا » أنني في طريقي إلى « مينوس » سأعرج على حظيرة الثيران لأشبع نظري من الثور الجديد المميز بنقطة جانبية ، فإنه حيوان عجيب ليس له في الثيران مثيل .

وإنه ليهم بالخروج ، إذا « بمينيا » تستوقفه قائلة : سنرافقك إلى « مينوس » فإني أريد أن أقدم « سنوحى » إلى أصدقائنا .

ولم يسع الرجل العجوز إلا أن يوافق على ذلك ، فأخذنا وجهتنا جميعاً إلى « مينوس » ، هذا الذي لا أعرف من يكون ؟! على أني بعد قليل عرفت أنه « الملك » . ولا ينفرد هو باسم «مينوس» وإنما هو اسم يطلقونه على ملوكهم واحداً بعد آخر ، تمييزاً لهم من أفراد الشعب .

وكما يتميز الملك فيهم بهذه التسمية ، كذلك قصره يتميز عن منازل المدينة بالسعة وفخامة المظهر . وقد رأيت فيه ، حين دخلناه ، حجرات كثيرة العدد ، مموهة بالطلاء الجميل . وقد كانت جدران قاعة الاستقبال تزدهي برسوم دقيقة الصنع لحشائش البحر وأمواهه المتموجة ، وسمكه السابح فيها . وهذه القاعة الرحيبة كانت

ساعتئذ تزخر بجمهرة كبيرة من الناس ، يتألقون جميعًا بأزيائهم الجميلة غالية الثمن ، حتى ليبدو أنهم يتنافسون فى ذلك . وهم فى جلوسهم وقيامهم وأحاديثهم ، أحرار طلقاء يتنقلون من مكان إلى آخر كما يشاءون ، أو يتحلقون جماعات كما يريدون ، ويضاحك بعضهم بعضًا فى جهارة وسفور ، ويتساقون فى لذة ونشوة كؤوس المرطبات من نبيذ أو عصير فواكه ، ولم يخل مجلسهم من السيدات اللواتى كن كذلك متزينات بأبهى زينة . وكان أكثر الحديث بينهن منصرفًا إلى الموازنة بين ما يرتدين من ملابس وحلل وما إلى هذا مما يحلو للنساء أبدًا أن يأخذن فيه !.

وقدمتنى « مينيا » إلى كثير من أصدقائها ، فرحبوا بى ترحيبًا تقليديا ، فى حين كانت عقولهم تسبح فيما هم فيه من سمر . ثم قدمتنى إلى الملك « مينوس » ، ذاكرة له فى إيجاز قصة الأخطار التى أحاقت بها وكيف أنجيتها منها ، فحيانى بلغتى فى كلمات مشوبة بالود ، وشكرنى على ما قدمت « لمينيا » من معاونة أتاحت لها العودة إلى وطنها سالمة ، وقال : وأرى أنه ينبغى أن تذهب « مينيا » فى أول فرصة تسنح ، لتدخل إلى بيت الإله ، فما يمنعها من ذلك أن دورها الذى اقترعت عليه بيدها قد فات أوانه ، فقد كانت لهذا أسباب خارجة عن إرادتها ، ولا حيلة لها فيها ، والإله يعرف ذلك ويقدره .

وبعد لقائنا بالملك راحت « مينيا » تجول بى فى أنحاء القصر ، وحجراته المختلفة ، وكأنها من ذلك فى منزلها الخاص ، وكانت خلال هذا تحيى الخدم ويحيونها كما لو لم تكن غريبة عنهم ، أو كما لو لم تكن قد غابت عنهم أمدًا طويلاً . وقد كان هذا طبعًا شائعًا فى « كريت » ، فهم هناك لا يشعرون بمن يغيب عن أبصارهم ولا يثير حضوره ، بعد غيابه شيئًا من اهتمامهم . وكثيرًا ما يذهب بعضهم إلى خارج المدينة ، فى زيارة مزارعه ، أو فى أيما عمل من الأعمال ، فلا ينبئ بذلك أحدًا ، ثم يغيب ما شاء أن يغيب ، ويعود فلا يسأله أحد أين كان أو لماذا غاب ؟!. ويلقاه أصدقاؤه لقاء من لم يغب عنهم سوى ساعة أو بعض ساعة ، وهو نفسه فى حديثه معهم لا يذكر شيئًا من سفره

أو رحلته أو عمله . ولعل هذه العادة التى انطبع عليها سلوكهم الاجتماعى قد خففت ، أو ساعدت على تخفيف أثر الموت فى نفوسهم .

وأخيراً ذهبت بى « مينيا » إلى حجرة تقوم على صخرة فوق مشارف البناء تطل نوافذها الواسعة عى الحقول المزدهرة والأراضى المهيأة للزراعة وعلى غابات أشجار الزيتون المتناثرة بالمدينة وعرفت من « مينيا » أن هذه هى حجرتها الخاصة التى كانت تحيا فيها قبل أن تغادر « كريت » ، وكان كل ما فيها من أمتعة وملابس وجواهر خاصا بها ، وقد رأيناها منسقة مرتبة على الحالة نفسها التى تركتها عليها ، لم تمتد إليها يد أخرى ، كما عرفت أيضًا أن « مينيا » تمت بصلة القرابة إلى « مينوس » وكنت قد فطنت إلى هذه القرابة من اسميهما ...

وازدحام حجرة « مينيا » بما رأيت من ذهب وفضة وأزياء منوعة هى فوق ما تطمح إليه فتاة مترفة ، ولا يعنى أنها واحدة من أولئك الفتيات المسرفات فى رفاهية الحياة ورغادتها وترفها ، كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، وإنما أمرها فى هذا كان لا يعدو رغبتها فى التجمل بشىء غير ما يتجمل به النساء الأخريات . ذلك أنها نشأت فى بيت الآلهة ، وتأثرت منذ طفولتها بالفكرة الدينية فى أوسع معانيها ، ومن ثم أصبح لا يشغلها من الحياة شاغل إلا أن تكون العروس المختارة للإله ، وما إن وضحت نزعتها هذه حتى أزجيت إليها هذه النفائس تحقيقًا لرغبتها فى الاستعداد لملاقاة إلهها على ما ينبغى له من الاحتفال .

وغادرنا الغرفة لتقودنى « مينيا » إلى بيت الثيران ، وهو أشبه ما يكون بمدينة قائمة بذاتها ، فهناك الاصطبلات ومسارح الصراع وأبنية المدارس وبيوت الكهنة . وهذه المجموعة من المؤسسات تخفق بالحركة وتنفعل بالحيوية ، كما لا بد أن يكون ، وقد سميت «بيت الثيران» لأن كل ما فيها أو أكثر ما فيها متصل بها ودائر فى فلكها .

وكانت « مينيا » غير غريبة عن هذا البيت الكبير ، فهى معروفة هناك حق المعرفة ، حتى إنها ، فى تجوالنا بين الثيران نفسها ، كانت تنادى كل ثور باسمه ، فيخور

ويهتز ويضرب الأرض بحوافره كأنه يحييها مسروراً !.. وكذلك كانت حال من لقينا من فتيان وفتيات . لقد أقبلوا عليها جميعًا متظاهرين بالفرح للقائها ، ولم يكن من العسير إدراك ما يعتلج في قلوبهم من الغيرة لعودتها إليهم ، فهم يصارعون الثيران ويراقصونها ، ولا ريب فى أنهم ينفسون على « مينيا » مهارتها وتفوقها عليهم فى هذا المجال ، ولذلك كان باديًا عليهم أنهم يلفقون فى لقائها مظاهر الترحيب والحفاوة . على أن الكهنة الذين يدربون الثيران والراقصين على السواء ، كانوا أصدق شعوراً حينما استقبلونا مبتهجين ، فقد كانت « مينيا » أثيرة عندهم محببة إليهم ، فما إن رأوها حتى تلقوها أحسن لقاء ، وأدرجوا اسمها على الفور فى برنامج السباق لليوم التالى .

وعندما علموا أننى طبيب ، أخذوا يسألوننى أسئلة متعددة عن الجهاز الهضمى للثيران وعن الغذاء الذى يصلح لها ، إلى غير ذلك مما يعرفون الإجابة عنه خيراً مما أعرف ، فلست - كما توهموا - طبيباً للحيوانات !...

وفى هذه الجولة قصدنا إلى البيت الذى يقيم فيه كبير كهنة إله « كريت » ، وهم يطلقون عليه للتمييز اسم « مينوتوروس » ، كتسميتهم الملك « مينوس » للسبب نفسه . وكان هذا الكاهن أكثر أهل « كريت » مهابة وجلالا . وقد بان فى عينى « مينيا » - ونحن ذاهبان إلى زيارته - أنها تهابه إلى حد الخشية ، وهى التى عرفتها لا تهاب أحداً ولا تخشاه ...

ولما أذن لنا فى الدخول عليه ، كان إذ ذاك فى غرفة مظلمة ، يجلل رأسه ووجهه باقنوم ذهبى يمثل رأس ثور ، فخيل إلى لأول نظرتى إليه أنه الإله الذى طالما سمعت عنه القصص والروايات ، ولكنه بعد أن انحنينا أمامه احتراماً ، رفع هذا الرأس المصنوع الذى كان يلبسه ، وبدا لنا على صورته الآدمية الأولى ، وابتسم لنا محيياً ، غير أنى ، على الرغم من ابتسامته اللطيفة ، لم أشعر نحوه بميل ، فقد كانت ملامح وجهه تنم عن الصرامة والقسوة والسيطرة .

ولم تكن « مينيا » بحاجة إلى أن تذكر له قصة حياتها ، فقد كان يعلم كل شيء عنها . وكانت أسئلته قصيرة لا تجاوز الضرورة التى تقتضيها فى أضيق الحدود .

والتفت نحوى ، فشكرنى على المعاونة التى أمددت بها « مينيا » فى رحلتها حتى استطاعت أن تعود إلى وطنها وإلهها ، وأخبرنى أن الهدايا الثمينة تنتظرنى بالفندق الذى أنزل به وتمنى أن ترضينى !..

وقلت لكبير الكهنة : لا حاجة بى إلى الهدايا يا سيدى ، فإنما أنا رجل علم ومعرفة ، وهما عندى خير من الذهب والفضة ، وفى سبيل العلم والمعرفة كان تطوافى بين أقطار الأرض ، وقد أحطت خبراً بما لم يكن لى به علم من قبل عن آلهة « بابل » و« الحيثيين » . وهأنذا فى « كريت » أنشد المزيد من العلم عن إلهها الذى سمعت أنه يؤثر بحبه العذارى والفتيان الأصحاء على خلاف ما علمت عن آلهة « سوريا » ، فإن بيوتها هنالك تعج باللهو والمسرات ويقوم على خدمتها كهنة من الخصيان .

فقال معقبًا : إن آلهتنا كثيرو العدد ، والعبادة هنا تجرى فى نطاق واسع من الحرية ، ويتمتع بهذه الحرية الأجانب الوافدون علينا أو المقيمون بيننا ، وفى ميناء مدينتنا تقوم معابد لآلهتهم ، يتعبدون بها على بعد الشقة ونأى المزار ، وفى استطاعتك أن تقدم هناك ما شئت من قرابين « لآمون » و« بعل » .

وصمت قليلا ثم عاد يقول : ومع هذا فإن عظمة « كريت » تعتمد ، أكثر ما تعتمد ، على ذلك الإله الذى يعبد سرا من عهود قديمة ، ممعنة فى القدم ، لا نعرف متى بدأت ولا كيف بدأت ، لأن أجدادنا القدماء لم يتركوا لنا شيئًا واضحًا عنه ، ولأن الذين يذهبون إليه ، ويلقونه وجهًا لوجه ، لا يعودون !..

قلت له : إن آلهة « الحيثيين » هى السموات والمطر حيث تتنزل عليهم غيوث الأمطار فتحيى موات الأرض وتنمى زروعها ، وتؤتيهم الأرزاق التى يعيشون عليها هم وأنعامهم ، وأظن أن إله « كريت » هو إله البحر ، إذ كانت ثروتها ومصادر قوتها

مستمدة من البحر ، ومرتبطة به ، ومتفرعة عنه . وهكذا الآلهة فى كل مكان من الأرض ، تتمثل للناس فيما يمس حياتهم وأسباب معايشهم ، فيكون تعظيمها والتعبد لها بقدر ما يكون لها من أثر فى هذه الناحية من وجودهم .

قال الكاهن الأكبر ، وثغره ينفرج عن ابتسامة غريبة : ما أراك قد جاوزت الحقيقة ، على أننا ، نحن الكريتيين ، نعبد إلهًا حيا على خلاف البلاد الأخرى التى تعبد الآلهة فى أشكال شتى من تماثيل مصنوعة من حجارة أو خشب . إنها آلهة لا حياة فيها ، ولهذا اتخذوا لها رموزًا من جماد . أما إلهنا فقد اتخذوا له رمزًا يتمثل فى الثيران ، وهى حيوانات موفورة الحيوية والقوة ، وقد أضفى على « كريت » بحياته وقوته السيادة على البحار ، وستبقى لنا هذه السيادة عليها ما دام حيا . ومع هذا فنحن من جانبنا لا نغفل العناية بمراكبنا وخاصة البحرية منها ، حتى لا تستطيع مملكة أخرى أن تنافسنا فى هذه السيادة البحرية .

قلت له : ولكنى سمعت أن إلهكم يأوى إلى بيت مظلم فى « بربى » ، وأن الذين يختارون لخدمته فى بيته هذا غير ممنوعين من العودة منه بعد انقضاء شهر على وجودهم فيه ، غير أنى لم أسمع أن أحدًا منهم قد عاد ، فلست أدرى لماذا لا يعودون ؟!..

قال : طوبى لهم أولئك الذين يؤثرهم الإله بالاختيار لخدمته ، فذاك منتهى الفخار والتكرمة لهم دون الناس جميعًا ، ولا بد أنك قد علمت أن جزر البحر ينافس بعضها بعضًا فى هذا السبيل ، فهى تبعث بخيرة فتيانها وزهرات شبابها لمراقصة الثيران والاقتراع عليها لنيل شرف الاختيار لبيت الإله !.. ولعلك لم تسمع شيئًا كثيرًا عن الحياة هنالك ، ولكن الذى لا ريب فيه أنها حياة طيبة سعيدة تختلف اختلافًا كبيرًا عما نبلوه من حياتنا نحن البعيدين عن ذلك البيت المقدس ، وهذا هو السر فى أن الذين يدخلون إليه يطيب لهم المقام فيه وتنتفى عندهم الرغبة فى مغادرته ، وما لهم يعودون إلى عالمنا هذا ، المشحون بالآلام والأكدار ؟!..

ثم التفت « مينوتوروس » إلى « مينيا » وقال : وهذه « مينيا » العذراء المختارة لهذا الشرف .. إنها عما قليل سترى هناك مصداق ما أقول ...

ولكن « مينيا » لم تخرج من صمتها للتعقيب على إشارة الكاهن الكبير ، وتدخلت أنا مستأنفًا الحديث فقلت : إن كل ما يقال عن بيت الإله لا يخرج عن كونه استنتاجًا وتصورًا لحقيقة غامضة ، لا نجد من يحدثنا عنها حديث الذى رآها رأى العين . ومع ذلك فليس يسعنى إلا أن أصدقك كما يصدقك الآخرون ، وإنى لأتمنى الخير « لمينيا » فيما هى مقبلة عليه ...

فقال « مينوتوروس » : عند تمام القمر ، وسيكون ذلك قريبًا ، سترى « مينيا » بيت الإله، وفى هذه الحظيرة المقدمة سينعقد لها الشرف المنشود .

قلت وأنا أكتم غيظى : وماذا يا سيدى لو أن « مينيا » لم تشأ الذهاب إلى هناك ؟

قال : سنوحى !.. أيها المصرى !.. أمسك بزمام عواطفك . إن « مينيا » لا تستطيع أن تتخلف عن نداء الإله ، وقد رقصت أمام الثيران معلنة بذلك إرادتها الحرة فى الذهاب إلى بيته المقدس ، ولم يحدث من قبل أن فتاة نزلت عن هذا الشرف بعد إعلانه .

قال هذا ، ثم وضع رأس الثور الذهبى على رأسه ووجهه فأخفاهما ، وكان ذلك إيذانًا لنا بالانصراف . وهنا أمسكت « مينيا » بيدى لتقودنى إلى الطريق الخارجى ، وعلى وجهها غيمة من الكآبة .

- ٣ -

عدت إلى الفندق فتلقانى « كابتاح » منتشيًا لفرط ما احتسى من نبيذ فى حانات الميناء ، وقال لى : إن للخدم فى هذه البلاد شأنًا ذا عجب ، فسادتهم لا يضربونهم

إذا ما أخطئوا ، ولا يزيد عقاب السيد لخادمه إن أثار غضبه على أن يأمره بمغادرة منزله ، ولكن الخادم لا يغادر المنزل، بل يخفى نفسه فيه عن عين سيده ، ثم يعود ليظهر فى اليوم التالى مستأنفًا عمله ، فلا يجد من سيده اعتراضًا على وجوده؛ لأنه يكون قد نسي كل ذنوبه ، وقد ينسى السادة كذلك ما يكونون قد تركوه فى أيدى خدمهم من أكياس نقود ومجوهرات .. أفلا ترى يا سيدى أن للخدم هنا منزلة ليست لهم فى البلاد الأخرى ؟!..

ثم قام « كابتاح » فأغلق باب الحجرة وأرهف سمعه ليطمئن إلى أن أحداً لا يصغى إلينا من قريب ، وتابع كلامه قائلاً : وثمة نبأ هام يتهامس به البحارة فى الحانات .. إنهم يقولون إن إله « كريت » قد مات ، وإن الكهنة من ذلك فى رعب ووجل لخشيتهم أن يذاع خبر موته قبل أن يقيموا مكانه إلهًا جديداً ، وهم لهذا مشغولون بالبحث عن ذلك الإله الجديد حتى لا يصبح الناس بغير إله يملأ فراغ عقيدتهم . وليس البحارة بأقل اضطراباً وجزعًا من الكهنة ، فهم متشائمون من هذه الفاجعة ، ويخيل إليهم أن سمك البحر سيطغى عليهم ويلتهمهم ، فقد ثبت فى يقينهم أن إلههم الذى مات كان يحميهم ، وطالما سمعوا من الكهنة أن عظمة « كريت » بناسها وبحرها ستنهار حين يموت .

وشرح هذا النبأ صدرى ، وسرى الأمل به إلى قلبى ، ولم أستغرب وقوعه ، فإن الحياة فيما جرت به سنن الوجود تنتهى دائمًا إلى موت ، وما داموا قد جعلوا من إلههم كائنًا حيا ، يسكن بيتًا ويحتاج إلى من يخدمونه فيه ، فما وجه الغرابة – إذن – فى أن يموت كما يموت الأحياء ؟!.. ثم إن أولئك البحارة لا يتحدثون هكذا عن موته ، ويركبهم شعور الخوف لزوال حمايته إلا إذا كان الخبر صحيحًا ، وبذلك يصبح ذهاب « مينيا » إليه واختفاؤها هناك فى بيته المظلم ، شيئًا غير متوقع ، فإن لم تؤمن بموته وذهبت إليه فإنها لا بد عائدة حين لا تجد إلهًا تخدمه وتعيش فى كنفه : وهذا هو أملى المنشود .

وكان علينا في اليوم التالي أن نشهد الرقص أمام الثيران في الحلبة المخصصة لذلك ، فذهبت إلى هناك مبكرًا لأحتجز لي مكانًا ، فوجدت ساحة تحيط بها مقاعد حجرية ، يرتفع بعضها عن بعض ، حتى يستطيع النظارة في صفوفهم المتراصة أن يشهدوا جميعًا تلك الألعاب في الساحة الدنيا . وقد أعجبني هذا الترتيب الهندسي في ملعب عام ، فذلك ما لم أره في غير هذه البلاد ، حتى في « مصر » ، فإنهم يتجمعون على مصطبة عالية ذات استواء واحد ، ليشهدوا متزاحمين ما يعرض عليهم من مشاهد الآلهة أو الكهنة أو الرقص .

وتتابعت الثيران على الحلقة ، واحدًا إثر واحد ، ليواثبها الراقصون كل في دوره المعين ، وكانت رقصات مجهدة معقدة مثيرة للأعصاب ، يتحرى فيها المصارعون الانتباه الدقيق والحركة السريعة البارعة ، ليفلتوا من خطر الموت وبخاصة عندما يقفزون بين قرون الثيران في أشد حالات ثورانها وجموحها ، أو عندما يثبون على ظهورها متماسكين عليها وهي تجري وتهتز وتهبط وتعلو ، ثم يمعنون في تجلية مهارتهم فيتقلبون في الهواء كخفاف الطير ليعودوا إلى ظهورها بأقدام ثابتة وجأش رابط . وكان الأثرياء والهواة من سكان « كريت » يراهنون على الثيران والمصارعين معًا . ولم أستطع أن أتبين سر شغفهم بهذه الألعاب ، ولا سر اختلافهم عند الرهان في تمييز ثور عن ثور أو راقص عن راقص ، فقد كانت الثيران ، كما كان اللاعبون عليها كذلك ، سواء في نظري بلا خلاف !..

وعلى كثرة ما رأيت من مهارة « مينيا » في هذا الرقص بذاته قبل ذلك فإني أحسست من الخوف على حياتها ، حينما اقتحمت الحلبة في دورها . ذلك أن الألعاب كانت قد بلغت ذروتها من الخطر ، وأبدى اللاعبون ضروبًا رائعة من المهارة والمقدرة لا تستطيع « مينيا » - فيما أظن - أن تأتي لمثلها تحت أعين هذه الجموع الزاخرة من الناس ، هذا إلى ما كنت ألمحه على وجهها أخيرًا من علامات التردد وشرود الفكر ، ولكنها سرعان ما أبدلت في نفسي مشاعر الخوف بمشاعر الإعجاب ، فقد أظهرت

من البراعة والخفة والرشاقة ما جعلها تفلت من الموت الذى كان يحيط بها من كل جانب بمهارة عجيبة .

ولم تكن « مينيا » الفتاة الوحيدة الراقصة في الحلبة ، فقد كانت هنالك فتيات أخريات يرقصن فى أدوارهن ، وقد تخففن من الملابس وظهرن شبه عاريات كما تخفف الفتية الراقصون من ملابسهم كذلك . فارتداء الملابس فى هذه الألعاب الخاطفة فيه خطر جسيم ، فقد يعطل الثوب الحركة ، أو قد يعلق بقرن ثور فتكون الكارثة .

وكانت «مينيا» ، وجسمها يلمع بالزيت الذى دلك به ، تبدو فى نظرى أجمل فتيات الرقص وأشدهن سحراً . ومع أننى أعترف أنه كان من بين زميلاتها في الرقص من اجتذبن إعجاب شهود الحلقة ونلن تصفيقهم الطويل الحاد ، فإننى كنت بعاطفتى منصرفًا إليها دونهن . على أنه لم يكن يهمنى رأى هؤلاء الناس فيها بقدر ما كان يهمنى أن تسلم من الخطر . ولهذا لم أحفل كثيراً بغضب صديقها العجوز الذى راهن عليها فخسر الرهان ، وما كان ذلك عن قصور منها وإنما كان – كما شهد بذلك خبراء اللعب – أثراً من آثار غيابها وانقطاعها فترة طويلة عن المران الذى لم تنقطع عنه الفتيات الأخريات .

وقابلت « مينيا » بعد ذلك فى حظيرة الثيران ، فقالت لى فى هدوء : لن يكون بيننا لقاء بعد الآن يا « سنوحى » ، فإنى لماضية إلى وليمة دعانى إليها بعض الأصدقاء ، وسأعكف على إعداد نفسى بعدها لرحلتى إلى إلهى ، فالقمر سيكتمل فى ليلة بعد غد . على أنه من الممكن – إذا شئت – أن تكون بين من سيرافقنى من الأصدقاء لتوديعى إلى هناك .

قلت لها : فليكن ما تريدين يا « مينيا » .. أما أنا فسأغتنم فرصة انشغالك عنى لأتزود بما أود الوقوف عليه من عادات أبناء « كريت » واختلاف أزياء سيداتها ، وكذلك فسأستجيب لدعوات صديقاتك لى ، التى وجهنها إلى خلال مشاهدة الرقص ، فقد أثار إعجابى جمال وجوههن وصدورهن ، وإن كان بعضهن أكثر بدانة منك !..

وهنا لمعت عيناها ، فأمسكت بذراعي ، وقالت وأنفاسها تتلاحق مسرعة : لا ، يا سنوحى، إنى أرجو ألا تتصل بهؤلاء الصديقات ما دمت أنا هنا . وفي وسعك أن تفعل ما تشاء بعد أن أذهب . وإذا كنت قد صرت في عينيك الآن أقل جمالا منهن ، فلا أقل من أن تصطنع الوفاء لصداقتنا بعض الوقت ، ولا يكلفك تحقيق رجائى شيئًا عسيراً !..

فقلت لها باسمًا : إنما أردت امتحان عواطفك ، وما لغيرك من نساء الدنيا مكان فى نفسى ، فاطمئنى ، وسأذهب من فورى إلى الفندق حيث ينتظرنى هناك كثير من المرضى ، لا من النساء !..

وودعتها عائدًا إلى الفندق ، فسرت وما تكاد تزايلنى رائحة الثيران التى تلازم من يلمـون بحظائرها فى « كـريت » . ومنذ ذلك الوقت كنت لا أرى قطيـعًـا من الحيوانات إلا ثارت عندى تلك الرائحة ، فأحس كأنى أصبت بمرض خبيث لا يطيب لى معه طعام أو شراب !..

وفى الفندق ، ظللت مشغولاً بعلاج المرضـى الكثيرين ، باذلاً أقصى طاقتى فى تخفيف آلامهم ، إلى أن أقبـل المسـاء واقتحمت الظلمة حجرتى بالفنـدق . وكـان « كابتاح » قد أعد لى فراش نومى ، ولكنى لم أنم كما لم أضئ المصباح، فقد كان نور القمر يطل علينا من النافذة ، فحرك فى نفسـى أشجانها ، وشعرت كأنى أكرهه فهو الذى سيفصلنى ، عند تمامه ، عن شقيقة روحى فى هذا العالم .. وزدت ضيقًا بحالى حين رأيت غير بعيد أضـواء المصابيح تشع من بيوت الملذات بالميناء ، ومنها تنبعث أنغام الموسيقى وضحكات اللاهين . لقد كان الناس جميعًا من حولنا يمرحون ويهزجون ، لا فرق فى ذلك بين سيد ومسود ، وكنت وحدى ، قابعًا فى غرفتى المظلمة ، فريسة الأسى والألم .

وإنى لفى وحدتى هذه الموحشة ، إذا بالباب ينفرج فى هدوء ، وتدلف منه « مينيا » فى حذر ، وقد نضت عنها الملابس الكريتية التى تركتها عليها ، واستبدلت بها الرداء

البسيط الذى كانت ترقص به أمام الناس فى البلاد الأخرى ، وكان شعر رأسها حينذاك مشدوداً بشريط ذهبى يزيدها بهاء .

فقلت مشدوهاً : «مينيا » !.. ماذا جاء بك ؟! أما قلت لى إنك تستعدين لإلهك وإننا لن نلتقى إلا مودعين فى ساعة الفراق ؟!..

قالت ، فيما يشبه الهمس : لا ترفع صوتك ، فلست أريد أن يسمع حديثنا أحد .

وجلست دانية منى حتى لتكاد تلتصق بى ، وراحت فى شرود وحسرة تقلب نظرها فى القمر ، ثم قالت : لقد كرهت مكان نومى فى بيت الثيران ، كما لم أعد أشعر بما كنت أشعر به من سعادة فى مخالطة أصدقائى القدامى هناك . وقد يبدو غريبًا ، بل لعله مما يثير الملاحظة والتساؤل أن أسعى فى هذا الوقت بالذات إلى هذا الفندق بحى الميناء ، وهو الحى الذى لا ينبغى أن تظهر فيه عذارى الإله !. إن أفكاراً ومشاعر جديدة قد طرأت على حياتى ، وغيرت مجرى سلوكى واتجاهاتى ، فلا أدرى لماذا صرت أوثر حياة الارتحال والتطواف بين البلدان والشعوب الأجنبية ، وكيف لم أعد أشعر بالحنين إلى وطنى نفسه ، كما لم أعد أستشعر لذة الراحة بين الثيران وهى التى كانت أعز الحيوانات إلى نفسى ، وكذلك لا أدرى كيف افتقدت فى قلبى لذة الزهو بإعجاب الناس وتصفيقهم ، وأكثر من هذا لم أعد أحس بشىء من الحماسة والبهجة لدخول بيت الإله كما كنت من قبل !.. لقد تغير كل شىء فى إحساسى ومشاعرى ، وأصبحت أرى كأنى بمعزل من الناس ، فأحاديثهم على سمعى كثرثرة الأطفال ، ومباهجهم كمثل زبد البحر متناثراً على الشاطئ ، فلست معهم فى شىء من هذا أو ذاك . وقد كان من الممكن تعليل هذا الحال إذا كان هناك ما يشغلنى فى خاصة أمرى وذات نفسى ، ولكننى أحس بقلبى فارغًا ، ورأسى خاليًا ، وتفكيرى معطلا ، ويعجزنى الآن أن أزعم ، مجرد زعم ، أن فكرة واحدة من شتيت الأفكار حولى ، تنبع من عقلى أو تصدر عنه ، ومن هنا يتمثل لى كل شىء غريبًا عنى ، وهو أمر يؤلمنى غاية الألم . ولكن إنسانًا واحداً أستشف فيه شعاعًا من العزاء عن ذلك كله ، هو أنت يا « سنوحى » .. فما أخشى فى هذه الحياة شرا ، حتى لو كان

الموت نفسه ، ما بقى لى مكان من قلبك ، وما دامت يدى ممسكة بيدك !.. أقول هذا عن صدق عاطفة ولا يمنعنى من التصريح به أنك ، فيما يبدو ، أكثر شغفًا بنساء هذه المدينة اللاتى تراهن أنضر وجوهًا وأملأ أجسامًا !..

فقلت لها مأخوذًا بسحر هذه المفاجأة الجميلة : « مينيا » .. يا أختى المحبوبة : لقد قلت لك صادقًا إنه ليس لغيرك من نساء الدنيا مكان من نفسى ، وإنى لأكرر هذا ولا أمل تكراره إلى آخر نَفَس يتردد فى صدرى ، وما أعرف أن فم الدهر قد انفرج لى عن مثل هذه الابتسامة الساحرة المسعدة ، تتمثل الآن فى عواطفنا المشتركة ومشاعرنا المتبادلة . إنك فتاة هواى الوحيدة فى هذا العالم ، وما كان يشقينى ، أقسى ما يكون الشقاء ، سوى أنك مفارقتى إلى بيت الإله الذى ليس منه مآب . لقد كانت طفولتى وصباى جدول ماء رقراق يجرى فى حياتى صافيًا ، فلما صرت رجلا استحال هذا الجدول نهرًا كبيرًا جياش الموج ، يفيض ويتدفق ويجاوز شاطئيه ليغمر ما حوله من بطاح يابسة ثم ينحسر عنها فتصير على جانبيه مستنقعات راكدة ، مكدورة الماء مرنقة الصفاء ، ترتفع فيها الأفاعى والهوام ، ثم تنساب إلى جوفه فتوبقه وتحيله مستنقعًا كبيرًا فتلك كانت حياتى كرجل ، فلما جمعت الأقدار بينى وبينك ، تبدل أمرى ، وعدت إلى عهد طفولتى وشبابى ، ولا أقول إن نهرى الكبير قد ارتد جدولاً صغيرًا ، وإنما أقول إنه صار بك بحرًا واسعًا عميقًا لا يصطخب ولا يثور ولا تتدافع مياهه على يبس الأرض لتكون مستنقعات خبيثة ، وبهذا هدأت حياتى بعد طول صخب ، وتطهرت بعد طول فساد ، وأنت سر هذا ومصدره ، ولك وحدك الفضل فيه . وقد لاحت لى الدنيا بعد ذلك على صورتها المزدهرة ، تلهم الأمل وتشرق بالسعادة ، وتحفز للخير ، ولهذا أقبلت عليها بعد إحجام ، ورضيت عنها بعد سخط . على أن ذلك كله سيتقلص ظله ، ويتصوح زهره، وتحول واحته الفيحاء إلى صحراء مقفرة ، وبلابله المغردة إلى غربان ناعقة ، إذا ما وقع ما يرتعد قلبى فزعًا منه ، وهو ذهابك إلى بيت الإله ، فإنى إذن لمنقلب إلى شقائى وتعاستى ، أبغض الحياة وأبغض الناس وأبغض الألهة ... وإنك لتستطيعين ألا يكون هذا .. وما أحسبك وقد

تساقينا كئوس الحب عذبًا طهورًا بتاركتي لأحترق بنار فراقك الأبدى، منساقة وراء عقيدة تائهة في واد سحيق من الغموض . ألا فاعلمى يا « مينيا » أن هذا العالم الذى يحتشد بالممالك المختلفة والشعوب المتباينة ، والمعالم التى لا عدد لها ولا حصر ، ليس فيه لمثيلينا من المحبين إلا نهر واحد ، يمنح السعادة والهناءة والخلود .. فتعالى ، تعالى معى إلى الأرض السوداء حيث النيل ، ذلك النهر الواحد السعيد ، فنحيا هنالك على شاطئيه المرعين بالخصب والجمال ، ونأنس بالبلابل والأطيار من كل جنس شادية وسط الأعشاب وفوق الأشجار ، والشمس فى مركبها الذهبى صاعدة عبر السماء ... تعالى يا « مينيا » نكسر الجرة بيننا ، إيذانًا بزواج لا تنفصم عراه ولا ينتهى مداه ، فإن متنا فسيحفظ جسدانا ، ومن ثم نتلاقى فى الأرض الغربية ، فنخلد معًا خلود الأبد ...

ولكن « مينيا » التى استمعت إلى كلماتى هذه بتأثر ظاهر ، شدت على يدى بإحدى يديها ، ومسحت بأطراف أصابع يدها الأخرى فمى وعنقى وأهداب عينى ، وقالت : إن ما تدعونى إليه يا « سنوحى » صعب المنال ، فلست بمستطيعة أن أتبعك إلى حيث تريد ، لسبب لا حيلة لى فيه ، ذلك أننا لن نجد السفينة التى تحملنا ، ولا الربان الذى يرضى أن يخفينا فوق ظهرها ، فإننى محوطة برقابة شديدة من أجل إلهى ، ولئن طاوعتك فيما تدعونى إليه فأكبر الظن أن يكون فى ذلك هلاكك ، وهو ما لا أرضاه أو أقدم عليه ، وإنه ليحزننى أن تفنى رغبتى الخاصة فيما تجلى من رغبة الإله القوية المسيطرة منذ رقصت له أمام ثيرانه ، وقد لا أستطيع أن أحملك على الإيمان بهذه الحقيقة ما دمت لا تشعر بها فى أعماق نفسك ، وعلى هذا فلا مناص من أن أمضى فى سبيلى إلى بيت الإله عندما يصل القمر إلى تمامه ، فذلك قضاء لا تستطيع قوة على هذه الأرض أن تدفعه ، ولعله لا يوجد إنسان يفقه سر هذا القضاء ، ويحيط بأسباب قوته النافذة غير « مينوتوروس » .

قلت لها ، وقلبى فى مثل وحشة القبور : لا أحد من الناس جميعًا يعرف ما قد يطلع به الغد ، كما أن أحدًا منهم لا يعتقد أنك عائدة من بيت الإله بعد إذ تبلغينه .

وإذا صدق ما يقوله ذلك الكاهن الأكبر فإنك ، هناك فى البيت الذهبى ، ستنعمين بالحياة الدائمة ، وستنسين بها كل شىء فى دنيانا ، حتى أنا ، ستنسينني . ومعنى هذا أنك ، كمن سبقك من العذارى ، لن تعودى إيثاراً للبقاء فى فيض هذه الحياة الهانئة وافرة النعيم . ولكننى فى غمرات شوقى إليك ولهفتى عليك لن أطيق الصبر على هذا الحرمان ، ولهذا ينبغى أن تعلمى أن أمراً قد تقرر فى نفسى ولا متحول لى عنه ولو لقيت الموت فى سبيله ، وهو أنك إن لم تعودى بعد انقضاء عدة الزمن المحدود فإنى ماض إلى بيت إلهك ، ومقتحم أسواره ، لو كانت له أسوار ، وسأخرجك منه أردت أو لم تريدى ...

قالت ، واجفة مذعورة وهى تدير نظرها فيما حولنا كأنما تخشى علينا أذناً متلصصة : صه !. لا تتكلم هكذا ، ولا تفكر ، مجرد تفكير ، فى شىء من هذا ، فإن بيت الإله معصوم قوى التحصين تقوم عليه أبواب نحاسية محكمة الأرتاج ، ثم إنه مغلف فى حلكة من ظلام ، وليس هناك غير الموت لمن يحاول أن يسلك طريقه من غير المختارين له . أقول لك هذا محذرة حتى لا ينالك وبال لا مهرب منه فيما لو سولت لك نفسك أن تجرب هذه المحاولة الأخيرة ، ولا شك عندى فى صدق عاطفتك نحوى ، وهى هى عاطفتى نحوك ، ومن أجلها سأعود إليك ، ولن يصرفنى الإله عنك ، فهو إله كريم ومن صفاته العدل والرحمة ، ويقينى أنه سيرضى عن عودتى لأن فيها سعادتى ، وما أراه فى عدله ورحمته وبالغ عطفه بمانعى من هذه السعادة ... ألا تراه من أجل سعادة الناس وخيرهم يحرس « كريت » ويضفى عليها العظمة والمجد ، وينفح أهلها نماء الزروع ووفرة الثمر وأمن البحار ، مرسلاً الرياح فيها رخاء ، والسحب إليها مدراراً ، دافعًا عنها الضلال والظلام وأخطار السفر ، فكيف به لا يريد لعذراء من عذاراه أن تستمتع بما يستمتع به سائر رعاياه !..

وكانت « مينيا » تقول هذا وأهداب عينيها مسترخية كأنها نائمة تردد حلماً ، أو كأنها تخاف التحديق فى وجهى استحياء من التعبير عن عاطفة حبها لى ، ولا أدرى كيف لم أستطع أن أفتح عينيها هاتين الساذجتين وأنا الذى - بطبى - طالما فتحت

عيونًا مفقودة وأعدت إليها النور الذاهب ؟!.. وإنما الذى أدريه أننى تأثرت بهذا الموقف ، وانفعالاً به ، احتويتها بين ذراعى وقبلتها قبلات حارة ، وأرسلت يدى حانية لتلامس من جسمها أطرافًا كانت كأوراق الورد نضارة ونعومة ، وكالبللور نصاعة وإشراقًا ، ولم أعرف من نفسى فى تلك اللحظة إلا أننى الظامئ الصادى فى صحراء مقفرة وقع على عين ماء ثرة صافية ، تحت ظلال شجرة وارفة .

ولم تدفعنى « مينيا » أو تحاول الإفلات من بين ذراعى ، وإنما استسلمت استسلامًا ، ملقية برأسها على صدرى وأعصابها تختلج كما لو كانت ترتجف خوفًا .

وأحسست بدموعها تتساقط على يدى غزيرة سخينة ، ثم تقول : « سنوحى » ، يا صديقى : سأعود إليك ، أعنى أننى سأبذل كل ما فى وسعى لأعود ، فإن لم أعد ، فافعل ما تريد فى سبيل أن نقضى الحياة جنبًا إلى جنب ، فإنى معك وبين ذراعيك لا أرهب الموت ولا أخشى الردى .

قلت لها : أفهم من هذا أننا على درجة واحدة من الشعور بالحب ، والرغبة الصادقة فى أن نعيش العمر كله معًا .. أليس هذا هو الذى تعنين ؟!..

قالت فى شيء من التردد : لست أدرى ماذا أعنى يقينًا ، وكل الذى أعرفه أننى إذا بعدت عنك ، فإنى أشعر بالقلق والاضطراب وأن على عينى غشاوة كالضباب ، فإذا لقيتك شعرت بالوهن يدب فى أوصالى ، وأنا التى لا تهاب أحداً من الناس !..

قلت لها : حسبى هذا دليلاً على ارتباط قلبينا واتحاد روحينا ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما وافيتنى هنا الآن متسللة على غير ميعاد بيننا ، وعلى رغم الرقابة المفروضة حولك ، وما أسألك الساعة شيئًا إلا أن تعطينى الشريط الذهبى الذى تمكسين به شعر رأسك ...

قالت ، وهى تسدد إلى وجهى نظرة طويلة ، كأنما تتفحص صدق عاطفتى وتستوثق من أنى لا أزخرف لها الحديث مخادعًا ، وقد وضعت يدها فى رشاقة على

خاصرتها : قد تكون نحافتى شيئًا يستحق أن تراجع فيه شعورك هذا ، فالبدانة فى النساء كثيراً ما تستميل إليها الرجال ، أو لعلها بالنسبة لك أدنى إلى ما تحب وتهوى !..

قلت مبتسمًا : مرة أخرى أؤكد لك يا « مينيا » أنك الفتاة الوحيدة فى حياتى ، وأنك لأجمل من رأيت ومن سوف أرى من نساء العالم ، وما كانت البدانة عندى يومًا سمة من سمات الجمال فى امرأة ، فهى بالأحرى شىء لا يصادف منى ميلا أو هوى . وإنى أخيراً لا أحاول ، أو قد لا أستطيع أن أحاول ، اعتراض طريقك إلى إلهك ، فاذهبى إليه كما تشائين . على أنى - بعد - أريد أمرًا أحب أن ننجزه الساعة تمكينًا للرابطة بيننا ، وتثبيتًا للطمأنينة فى نفسى حتى تعودى ، ذلك أن أجىء بجرة فنكسرها بيننا ، وبها نصبح زوجين لا يفترقان ، ولا يهم أن يتم ذلك الآن من غير كهنة يشهدون عليه ويكتبون اسمينا فى سجل المعبد ، فما شهادتهم وتسجيلهم إلا قشوراً لا قيمة لها بالنسبة للجوهر نفسه .

ووقع هذا من نفسها موقعًا جميلاً ، فاتسعت حدقتا عينيها ابتهاجًا ، وبدا وجهها فى ضوء القمر زاهيًا مشرقًا بالفرح ، فأسرعت بالخروج باحثًا عن « كابتاح » ليأتينا بالجرة ، فرأيته قابعًا لدى الباب وهو يمسح دموعه بظهر يده ، وما أن رآنى حتى أجهش بالبكاء بصوت مسموع ، فقلت له منتهراً : ما هذا البكاء ، وفيم أنت هنا ؟!..

وقال فى خبث : كيف لا أبكى يا سيدى ؟! ألا تعلم أن لى قلبًا رقيقًا ؟! فقد سمعت حديثكما ، أنت وهذه الفتاة ، فشجانى وأبكانى ، فما سمعت مثله كلامًا يحرك العواطف ويلهبها ...

فركلته بقدمى مغضبًا وقلت : تعنى أنك كنت تضع أذنك على الباب متسمعًا متجسسًا علينا !..

فأجابنى مصطنعًا السذاجة : أما أننى كنت أسمع من وراء الباب ، فهذا صحيح . وأما أننى كنت أتجسس ، فلا . وإنما كان هناك غيرى من الغرباء الجواسيس جئت فرأيتهم فى هذا المكان يرهفون آذانهم ليلتقطوا حديثكما ، وهم لا يقصدونك بالذات وإنما يقصدون « مينيا » ، لأنهم يتتبعون خطواتها ويتقصون حركاتها ، فزجرتهم وأقصيتهم عن الباب ، واتخذت مكانهم منه حتى لا يعودوا ، وما فعلت ذلك إلا لأحفظ عليكما أمن اللقاء وأمن الحديث، فهل ترانى فعلت سوءا ؟! وعلى أية حال فقد سمعت الحديث ، وهو بلا شك حديث لطيف مؤثر ، ولهذا كان بكائى ...

قلت ، وقد تبدل غضبى منه رضا عنه ، ما دمت قد وعيت الحديث ، فقد عرفت إذن ماذا عليك أن تفعل الآن . فاذهب أيها الغبى وعجل بالجرة ...

قال مراوغًا : الجرار أنواع يا سيدى ، فأيها تريد ؟! أمن طين أم حجر ؟! ومنقوشة أم من غير نقش ؟! وطويلة أم قصيرة ؟! وواسعة أم ضيقة ؟!..

فتناولت عصاى وهويت بها على ظهره فى غير شدة ، فقد كنت غير حانق بالقدر الذى يدعو إلى إيجاعه ، وقلت له : الوقت أضيق من أن يتسع لهذه المخابثة ، وإنك لتعرف من الأمر ما فيه الكفاية ، فآتنا بأول جرة تقع يدك عليها ، ومن أى نوع تكون ، فإنها مؤدية الغرض المنشود ...

قال « كابتاح » : سآتيك بها !.. ولكنى أحب أن تعيد النظر فى هذا الأمر الهام ، فليس ثمة شىء هو أكثر أهمية وخطرًا من كسر جرة بين رجل وامرأة ، ولهذا ينبغى ألا تقدم عليه من غير أناة وتقليب رأى .

وقبل أن يتلقى منى ضربة أخرى على رأسه خرج مسرعًا وعاد بعد قليل ومعه جرة زيت لا تزال بها بقية من رائحة السمك ، فكسرناها بيننا ، أنا و« مينيا » وتم بها ميثاق زواجنا ، وكان « كابتاح » هو شاهد هذا الزواج . وقد ارتمى على قدم « مينيا » ووضعها على عنقه قائلاً : منذ هذه اللحظة أنت سيدتى ، ولك مثل ما لسيدى من حق إصدار الأوامر لى ، أنا خادمكما المطيع ، على أن لى عندك رجاء ، هو ألا تصبى

الماء الساخن على قدمى عندما تكونين غاضبة ، وألا تنتعلى من الأحذية إلا الخفيف المنبسط ، فلشد ما أكره فى أقدام السيدات الأحذية ذوات الكعوب فإنها تحدث فى رأسى كدمات مؤلمة إذا ما بدا لك يومًا أن تجربى ذلك !.. وثقى أن قلبى أصبح ينطوى على الإخلاص فى خدمتك ، تمامًا كإخلاصى فى خدمة سيدى . والإخلاص يشفع فى الخطأ إن وقع ، ويغتفر الذنب إن حدث ، حتى لو كان فى صورة السرقة ، فذلك محتمل بين الخادم والمخدوم !.. ثم إنى – لسبب لا أتبينه – أشعر بأن قلبى قد تعلق بك على ما فيك من نحافة وضمور صدر ، فلا شك أن سيدى بالرغم من هذا قد وجد فيك محاسن كثيرة أخرى تعلو على النحافة والضمور ، حتى ليخر هكذا ساجداً فى محراب حبك !..

كان « كابتاح » يمزح بهذه العبارات ، ولكنه كان كذلك بادى البهجة ، وقد بلغ من تأثره بالموقف أنه كان يضحك ويبكى فى وقت واحد . فأقبلت عليه « مينيا » وأدارت يدها على رأسه وخديه لترفه عنه . وعندما هدأ ، أشارت إليه أن يرفع القطع المتناثرة من الجرة ، فجمعها ومضى بها إلى خارج الحجرة ، وخلوت إلى « مينيا » بعد ذلك حيث قضينا الليل معًا . وقد نامت إلى جوارى وذراعاى يحتويانها ، وأنفاسها مسترسلة فى نومها الهادئ كأنها الزهر المعطار ، وشعرها مسدل على وجهها كأنه الحارس الذى يذود عن جمالها الباهر . وفى الواقع لم أحاول ، وقد صرت زوجها ، أن يكون بينى وبينها فى تلك الليلة ما يكون بين الرجل وزوجته، فقد كنت أحس أن هذا يغضبها الآن ، فتركته إلى أوانه ، قانعًا بها إلى جانبى ، سعيداً بشعورى أنها أصبحت لى وحدى .

وعلى كثرة ما تردد فى نفسى من المشاعر فى هذه الليلة الجميلة التى لم يغمض لى فيها جفن ، فإن ثمة شعوراً كان أقوى من هذه المشاعر جميعًا وأشدها سيطرة على نفسى ، ذلك هو الشعور بالخير والرحمة فى أوسع معانيها ، فكل رجل ، بعد ذلك عندى ، أخى ، وكل امرأة ، أمى أو أختى .. ولا يختلف هذا الشعور باختلاف المكان أو الإقليم ، فالأرض السوداء والأرض الحمراء ، فيه سواء . « فمينيا » – إذن – قد أحالتنى إنسانًا ليس فى نفسه أو قلبه أثر من الشر .

- ٤ -

وفى اليوم التالى انعقدت مرة ثانية حلبة الرقص أمام الثيران . وكان على « مينيا » أن تلعب دورها هناك ، وقد تزايد خوفى عليها حينما رأيت الناس يتجمعون على هذه المعمعة ويتكاثر المتحمسون للرهان فيها أكثر من ذى قبل ، فقد حمى وطيس الرقص وافتن اللاعبون فى إظهار أقصى ما لديهم من مقدرة وبراعة ، وسقط شاب من رفاق « مينيا » ومن مهرة اللاعبين ، منزلقًا من فوق جبهة الثور الذى كان يراقصه ، فبقر الثور بطنه وخاض بحوافره فى أحشائه ، فهب النظارة جميعًا مذعورين لشناعة الحادث ، ولكن عندما أُخرج الثور من الملعب ، وحملت جثة الراقص الصريع إلى إحدى الحظائر ، لم يتبعه إلى هناك غير السيدات ، وكن فى غمر من الأسف والحزن عليه ، وقد لمسن أطرافه بأيديهن إعرابًا عن شعورهن الحزين المتفجع ، فى حين بقى الرجال فى أماكنهم بالملعب يتابعون الرقص والرهان عليه ، وقد نسوا الحادث فلم يعودوا يتحدثون إلا عن هذه المسابقة البارعة التى مضى وقت طويل عليهم لم يروا فيها مثلها . وكان طبيعيا أن يتمثل لى فى هذا الموقف ، اختلاف ما بين الرجال والنساء فى ميزان العواطف !..

وقد انتهى السباق دون أن تصاب « مينيا » بما كنت أخاف عليها منه ، فأراح هذا قلبى ، وعدت إلى الفندق وحدى ، لأنها لم تكن تستطيع أن ترافقنى كما لم تكن تستطيع أن توافينى بعد ذلك . وهكذا تفرق الجمع الحاشد ، فمضى الرجال إلى بيوتهم ليقضوا فيها ليلة ساهرة زاخرة باللهو وشراب النبيذ ، احتفالاً بما شهدوا من روائع الرقص وبما أصابوا من ربح الرهان ، ومضت زوجاتهم إلى بيوت أخرى غير بيوتهن ليقضين ليلهن فيها بعيدات عن أزواجهن الذين لا يتحرجون من ذلك ، فقد كان هذا تقليدًا متبعًا عندهم !..

وكنت أنا الوحيد الذى قضى هذه الليلة مسهدًا مشغولاً « بمينيا » التى ستفارقنى فراقًا غامضًا بعد قليل .

فلما تنفس الصباح ، خرجت فاستأجرت محفة من الميناء وذهبت بها إلى حيث يبدأ الاحتفال بتوديع « مينيا » فى رحلتها إلى إلهها ، فقد قررت أن أتبعها إلى آخر الطريق .

وهنالك رأيت « مينيا » محمولة على عربة مذهبة تجرها جياد مزينة بالريش ، ومن ورائها جمع كبير من أصدقائها ، بعضهم محمول على محفات ، وأخرون يسيرون على أقدامهم ، وجميعهم يشربون النبيذ ويمرحون ضاحكين مهللين وينثرون على عربتها الزهور والرياحين . وكان الطريق طويلاً ، ولكنهم لم يملوا السير فيه فقد تزودوا له ، واستعانوا عليه بالمرح والابتهاج ، وكلما لفحتهم الشمس بحرارتها المتقدة مالوا على الأشجار فانتزعوا فروعها المورقة ، وجعلوا منها ظللا فوق رءوسهم ، وكان موكبهم فى صخبه وضجته مثيراً لقطعان الأغنام التى كانوا يمرون بها ، فكانت تتفرق محفلة هاربة !..

وعندما استشرفوا مكانًا قفراً فى سفح جبل قريب من شاطئ البحر ، أخذت الأصوات الصاخبة فى الخفوت حتى كادت تكون همساً ، فقد كان بيت الإله فى هذا المكان ، وهو يشبه تلا منخفضًا تتكاثر عليه الحشائش والأزهار النامية ، ويتصل بالجبل اتصالاً مباشراً ، وعلى مدخله أبواب من نحاس مغلقة شاهقة الارتفاع وعلى مقربة منه معبد صغير تقام فيه مراسم التدشين ويقوم عليه حراس ورقباء .

وهنا ترك أصدقاء « مينيا » محفاتهم وافترشوا الأرض المكسوة بالحشائش وراحوا يأكلون ويشربون ويلاعب بعضهم بعضاً ، ألعابًا ذوات حيلة ومخادعة إسرافًا فى التسلية ، ناسين قداسة المكان الذى كان قد ظهر عليهم منذ لحظة أنهم أكبروه . وهكذا أهل « كريت » لا يستقرون على حال ، وهم أشد ميلا إلى المرح والسرور !.. فلما أقبل الليل أضاءوا المشاعل التى بدت شاحبة فى نور القمر ، واسترسلوا فيما هم فيه من لهو ومجانة ، وكانت حركاتهم وأصوات ضحكاتهم ترن رنينًا قويا بعيد المدى وسط سكون الليل .

ولكن « مينيا » كانت تجلس منفردة بالمعبد ، فما يستطيع أحد الاقتراب منها هناك ، وكانت في ردائها الذهبي كتمثال مقدس ، وكان نظري لا يتحول عنها ولا يطرف دونها ، كما كان ذهني كذلك لا ينصرف إلى شيء سواها ، وقد رأيتها تحاول أن تبتسم لي، ولكن ابتسامتها كانت تلوح على ثغرها مشوبة بالكآبة .

وما أن ارتفع القمر مستديراً ، حتى أحاطوا بها ونضوا عنها جواهرها وحليها الذهبية ، وألبسوها ثوبًا عاديًا بسيطًا ، ثم غطوا شعرها بشبكة فضية ، وشد الحراس ، متجمعين في قوة مشحوذة ، مصاريع الأبواب النحاسية الوثيقة فكان لانفتاحها قعقعة داوية ، وخلال السكون العميق الذي ران على المعبد ، ظهر « مينوتوروس » متمنطقًا بحزام ذهبي يتدلى منه سيف ، وقد تغطى رأسه ووجهه برأس الثور المذهب ، وبذلك تنكرت فيه صورة الإنسان ، ومن ثم تقدم إلى « مينيا » وكانوا قد وضعوا في يدها مشعلاً مضيئًا ، فقادها إلى داخل البيت المظلم ، وفيه اختفيا معًا عن الأنظار ، وحتى المشعل نفسه لم نعد نرى شعاعًا من ضوئه . وبعد هذا أغلقت الأبواب في صرير شديد ، وأحكم إرتاجها بالقضبان التي احتاجت ، لضخامتها وثقلها ، جهد عدة رجال أشداء ، وكان ذلك إعلانًا بأنه قد حيل بيني وبين « مينيا » ، فلن أراها أو أرى أثرًا لها ما دامت في هذا المكان السحيق المجهول المصير ، فأحسست كأن خنجراً قد اخترق قلبي وأدماه ، وأقعيت على ركبتي خافضًا رأسي على الأرض ، في أسى مرير ويأس طاغ . وبينما كان فتيات « كريت » وشبانها يمرون أمامي والمشاعل بأيديهم وهم يرقصون رقصات معقدة ويرتلون أغنيات غريبة على أذني ، ويتراكضون كأنما أصابهم مس ، كنت أعاني ، بمعزل منهم ، قسوة الشعور بأني فقدت « مينيا » إلى الأبد ، ومعنى ذلك أني قد فقدت معها حياتي ، فلا حياة لي بدونها . وكنت ، قبل أن أراها تتوارى خلف أبواب بيت الإله ، أتعلل بالأمل في أنها ستعود ثانية ، على ما شاءت أن تقرره في خاطري من رغبتها في ذلك وثقتها بأن إلهها مسماح عطوف وأنه سيأذن بعودتها إلى من تحب ،

ولكننى ، بعد ، قد زايلنى هذا الأمل ، فما أراها إلا قد انتقلت إلى عالم غير عالمنا ، حيث لا لقاء بيننا على هذه الأرض .

كان « كابتاح » إلى جانبى ينشج بالبكاء منفعلا بما يرانى عليه من سوء الحال ، وفجأة كف عن بكائه ليقول : لقد رأيت الآن شيئًا أعتقد أن عينى لا تكذبنى فيه ، فإنى لم أشرب اليوم نبيذًا بالقدر الذى يموه المرئيات فى نظرى . لقد رأيت رأس ثور يخرج إلى الجبل صاعدًا من بيت الإله ، ولا أدرى كيف كان ذلك ، فالأبواب ما زالت على حالها من الإيصاد المحكم ؟!..

ونظرت إلى حيث يشير « كابتاح » فرأيت « مينوتوروس » مشتركًا مع الآخرين فى رقصاتهم التى تقضى بها الطقوس الدينية فى هذه المناسبة ، وكان رأس الثور الذهبى الذى يضعه على رأسه ووجهه ينعكس عليه ضوء القمر فيزيده سطوعًا ، فقفزت إليه من مكانى فى حركة سريعة غير واعية ، وأمسكت بأكمامه وسألته فى لهفة وانفعال : أين « مينيا » ؟!..

فدفع يدى عنه ، ولكنى لم أترك موضعى منه ، متشبثًا بمساءلته عن « مينيا » التى دخل معها البيت المظلم وعاد بدونها !.. فرفع القناع التنكرى عن وجهه وقال مغضبًا : إنك يا هذا تفسد الطقوس الدينية وتمس قداستها ، وهو اجتراء محظور لا يؤذن به قط لإنسان ، ولكنك أجنبى عنا لا تفهم هذا ، وإنى لذلك أغفر لك هذه الزلة ، على ألا تعود لمثلها مرة أخرى ...

وكأنى لم أسمع منه شيئًا ، فأعدت عليه السؤال الأول نفسه : أين « مينيا » ؟!.

قال : وما سؤالك عنها وقد رأيتها منذ قليل تأوى إلى بيت الإله ؟! إنها هناك سعيدة هانئة ، وقد عدت أنا لأؤدى واجبى فى إقامة الطقوس الدينية المقدسة ، ولا غرابة فى أن تبقى هى إلى جوار إلهها ، كما لا غرابة فى أن أعود لمباشرة أعمالى !.. على أن الغريب حقا أن تقحم أنت نفسك على هذه الفتاة التى خلصت للإله ، وانتهت إلى حظيرته ، وامتنعت على من سواه ، وأنت الغريب الطارئ على حياتها !.. ألأنك

ساعدتها في العودة إلى وطنها ؟! هـذا بلا ريب كان عمـلا حسنًا منك ، وقد كوفئت بالشكر عليه ، وهذا حسبك !..

فـأثارني بهذه العبـارات اللامزة ، وفي انـدفـاع وغـضب قلت له : أو لست كـبيـر الكهنة لهذا الإله وأوثقـهم صـلة به ، فكيف جـاز لك أن تدخل إليـه مـع « مـينيـا » ، ثم تخرج وحدك بدونها ؟! لماذا تدعها هناك نهب الظلمة ووحشة الانفراد ؟!..

قلت هذا وأنا أمسك بتلابيبه ، وهو يدفعني بيديه ، وتدخل الراقصـون ليفرقوا بيننا ، وشدني « كابتـاح » من ذراعي وأخذ يجرني حتى أبعدني عنه ، وقال لي : إنك لا تدري مـاذا يمكن أن يحـدث لنا من سـوء بهذا الشـغب ، وخـاصـة حين يكون الأمـر متـعلقًا بفتـاة الإله وكبيـر كهنته ، وإنه لمن الخطأ أن تلفت لك الأنظار هكذا !.. وكان خيرًا من هـذا وأفضل أن تـخفي عـواطفك في ذات نفسك وأن تـصطنع الاندمـاج في الآخرين فترقص معهم وتغني مثلهم ، اجتنابًا للظنون وسوء العاقبة .. وأرجو أن تكون قد أفقت الآن من هـذه الغشيـة العارضـة ، لتعلم ما كـان خـافيًـا من سر خروج هذا الكاهن الكبيـر من بيت الإله دون أن ينتـبه إليه أحد !.. لقد عنيت أنـا باسـتجلاء هذا السـر فـتسللت من وراء ظهوركم إلى هناك ، وعرفت أنه خرج من باب صـغيـر ملحق بالأبواب النحاسية ، وقد رأيت الحارس يغلقه بعد خروجه ويخفي مفتاحه معه . ويبقى بعد هذا أن نـشرب يا سيدي نـبيذًا ، وتسـتـرد أعصـابك المتـلاشية ، فوجـهك شـديد التجهم وعيناك قلقتان كعيني البومة !..

وناولني « كابتاح » نبيذًا فشربت ، وفي ضوء القمر مترقرقًا في أضواء المشاعل أخذتني غفـوة على الحشـائش ، استغرقت منها في نوم عميق . وكان « كابتـاح » قد خالسني فخلط النبيذ بعصير الخشـخـاش ، لا ليثأر لنفسه مما كنت قد فعلته به ونحن في « بابل » ، حينما وضعته مخمورًا في جرة ، بل ليقـصيني عما رآني مسـتهدفًا له في ملاحـاة « مينوتوروس » . ولعله بذلك قد أنقـذ حياتي ، فما كـان مستغربًا مني في ثورة يـأسـي وغـضـبي أن أغـمـد سـلاحي في عنق ذلك الرجل وأذبحـه ، وعندئذ تكون الكارثة !..

وقام « كابتاح » على حراستى ، بعد أن سدل على جسمى غطاء ليذود عنى أقدام الراقصين ، فى حين ظل هو يجرع النبيذ من الجرة حتى أتى على كل ما فيها .

واستيقظت فى مطلع الصبح وما أزال متأثراً بفعل الشراب المخدر الذى كان قويا ، حتى إنى لم أتبين أول الأمر أين أنا !.. وشيئًا فشيئًا تذكرت ما حدث وحمدت « لكابتاح » ما صنع .

وكان كثير ممن اشتركوا بالأمس فى الموكب قد عادوا إلى المدينة ، والذين بقوا منهم ما زالوا نياماً تحت الأشجار ، وكانوا خليطًا من رجال ونساء ، وقد بدا عليهم أنهم شربوا كثيراً إذ كانت أجسامهم عارية ، وأوضاع نومهم غير رتيبة . فلما استيقظوا ارتدوا ملابس جديدة ونسق السيدات شعورهن المشعثة ، وكان من عادتهن الاستحمام صباحًا ، ولكنهن لا يستطعن ذلك لأن المياه فى مجراها القريب كانت من البرودة بحيث لا تطيقها أجسامهن التى ألفت الماء الساخن من أفواه الصنابير الفضية ، فاكتفين من هذا الماء البارد بالقليل يحملنه بالأيدى إلى أفواههن ينظفن به الحلوق والأسنان ، ثم رحن يزججن حواجبهن ويدلكن وجوههن وشفاههن بالأدهنة تجميلاً وزينة .

وأخذ هؤلاء وأولئك يتساءلون عمن سينقلب منهم إلى المدينة ومن سيبقى فى هذا المكان انتظاراً لعودة « مينيا » !. فأما الذين أجهدتهم الرحلة وحركة الرقص وعربدة الشراب ، فقد أخذوا وجوههم إلى المدينة ، وأما الفتيان والشابات فقد اختاروا البقاء بدعوى انتظار «مينيا»، ولكنهم فى الواقع كانوا يريدون الافتنان فى لهوهم وعبثهم ، والاستزادة من متعة اجتماعهم فى ذلك الموضع النائى البعيد عن الأعين ... وكان النسوة أشد اغتباطًا بذلك إذ يفرغن لهواهن بعيدات عن أهليهن !.. وهنا فطنت لماذا لا توجد بيوت مباذل خاصة فى مدينة « كريت » إلا فى حى « الميناء » ، وهو منها حى الأجانب !..

ورأيت « مينوتوروس » يتأهب لمغادرة المكان ، فدنوت منه وقلت له في تجمل ولطف عبارة : أيأذن لى سيدى فى أن أبقى هنا مع أصدقاء « مينيا » هؤلاء انتظاراً لعودتها ؟!..

قال ، وهو يكتم غيظه إنك تنتظر عبثًا ، فالذين وهبوا أنفسهم لهذا البيت المقدس لا يبرحونه ، ومن الخير لك أن تعود إلى وطنك « مصر » ، وإنى لأعلم أن سفينة ترسو الآن فى الميناء ، ففى وسعك الإبحار عليها !..

قلت له في سذاجة مصطنعة : الحقيقة ، يا سيدى ، أننى أحببت « مينيا » حبا ليس كمثله حب فى الوجود ، فإن كان قد قضى على أن أكون منها محرومًا إلى الأبد ، فلا أقل من أن ألتمس بعض العزاء فى وجودى قريبًا منها ، وماذا لو بقيت هنا كهؤلاء الآخرين الذين يتخذون من الأمل فى عودتها سببًا فى بقائهم ؟! ألا ترى ، يا سيدى ، أن وجودى بين هؤلاء الفتيات والسيدات الجميلات ، خليق أن تتبدد به عواطفى الملتظية بوقدة الحب والحرمان ؟!.. إنهن ، مجتمعات ، لا ينزلن من قلبى منزلة مينيا ولا ينسينني شيئًا من ذكراها ، ولكننى أطمع فى أن أتخيلها ماثلة فى عين من عيونهن ، أو فى حديث مع إحداهن ، بل لقد أتخيلها ، كما يتخيلنها ، عائدة من لدن إلهها ، مأذونًا لها بذلك منه ، رحمة بنا وإشفاقًا علينا ...

وكنت أقول له هذا ، متملقًا مشاعره ليرخص لى فى البقاء ، فإنى غريب ، وشأنى فى البقاء هنا جد مختلف عن الآخرين ، وهم من أبناء « كريت » ، فلا يجوز لى أن أبقى بغير إذنه ، وخاصة بعد الذى شجر بينى وبينه ، وقد رأيت أن أترضاه معتذرًا عما بدر منى بالأمس ، فقلت له : أرجو أن تغفر لى ، يا سيدى ، ما فعلته البارحة فى غير وعى ولا تدبر ، فقد كنت ثملاً أكثر مما تعودت ، ولم أدر شيئًا مما حدث إلا اليوم ، فأسفت لذلك أسفًا شديداً ...

فربت « مينوتوروس » على كتفى مبتسمًا ، وقال : إذا كان الأمر كذلك ، فإنى

أراك غير مسئول عن خطيئتك ، وحبذا لو اقتصدت في شراب النبيذ ، ولست بمانعك من البقاء هنا مستمتعًا بالأمل والخيال وبما شئت من مخالطة النساء ، فنحن في « كريت » لا نحرم إنسانًا متعته لأننا لسنا – كغيرنا – قصار نظر !..

فشكرته على هذا ، وتركني موليًا وجهه شطر المدينة ، ولكنني لم أثق في سلامة طويته ، وقد شعرت بأنه أوصى الحارس بالتشديد في مراقبتي ، كما أوصى بذلك « الكريتيين » الباقين معي ، فهؤلاء ما كاد « مينوتوروس » يغادرهم حتى أحاطوا بي جميعًا ووضعوا عقود الزهور حول عنقي وأطالوا النظر في وجهي ، وأقبلت السيدات فترامين على صدري وبين ذراعي ، وأظهرن من الخلاعة ضروبًا قوية الإثارة . وفي هذا الجو الطافح باللهو والحماقات ، استرسلت مع هذا الجمع ، وتقلبت وإياهم فيما شاءوا من طعام وشراب ، حتى ثملت ثملاً شديدًا كاد يعكر ما هم فيه من صفو وهناءة ، فأخذوا يضيقون بي ذرعًا ، ويصبون على اللعنات ، ويصفونني بأني إنسان بدائي متوحش ... وهنا تدخل « كابتاح » متظاهرًا بالضجر مني ، لإرضائهم ، وجرني من ذراعي ليبعدني عنهم ، ثم عرض عليهم أن يأخذ مكاني بينهم ليفاكههم ويسليهم ، ولكنهم لم يستطيبوا منظره ، وسخر شبانهم منه ، مشيرين إلى رأسه الأصلع ، وكرشه المتدلي ، وعينه العوراء ... غير أنه كان غريبًا عن بلادهم ، وهم – وخاصة نساؤهم – يستهويهم كل ما هو غريب ، فكيف به إذا كان إنسانًا مسخًا على مثال « كابتاح » ، فإنهم عندئذ يتلهون به في غير حرج ، فأجازوا له الانضمام إلى جماعتهم ، متضاحكين منه ، وقد جرى معهم في ذلك إلى أبعد الحدود ، فلقد كان كل شيء من تصرفاته وعباراته ، يعطيهم أكثر مما قدروا من المرح والفكاهة ...

وعلى هذا النحو من اللهو والمجون ، انقضى اليوم وجاء الليل بعده ، فلم يهدأوا إذ مضوا على هذه الحال نفسها إسرافًا في الشراب ، وإسرافًا في اللهو . وكانت النساء أكثر صخبًا ، فصياحهن لا ينقطع ، وهن يتنقلن هنا وهناك خفيفات ، مصطنعات الهرب من الشبان ، إغراء لهم وإثارة لمشاعرهم . على أنهم في صباح اليوم التالي لم يستطيعوا الاسترسال في ذلك ، فقد نال منهم الإجهاد والسهر

المتصل ، وأحسوا بالملالة وفقدان الشهية ، واشتدت بهم الرغبة فى الاستحمام الذى لم يكن ميسوراً لهم فى هذا المكان ، ولهذا عاد أكثرهم إلى المدينة فى ذلك اليوم . ولم يبق منهم إلا الفتية الأشداء الأكثر احتمالاً . ولكن هؤلاء الفتية استنفدوا طاقتهم ، وتجشأوا كل شهواتهم عند مطلع اليوم الثالث فولوا وجوههم شطر المدينة ، وكنت قد برمت بهم جميعًا ، فعرضت المحفة التى كانت تنتظرنى ، على المكدودين منهم الذين لا يقوون على السير ، مخافة أن يمنعهم ذلك من العودة ، لأبقى وحدى خاليًا إلى نفسى وإلى الغرض الذى جئت من أجله .

وبعد انصرافهم ، عنيت باستمالة الحراس الذين لم يبق سواهم ، فقدمت إليهم جرة من نبيذ ، فتقبلوها مغتبطين ، إذ كانوا يعانون من الوحدة فى هذا المكان الخالى من أية تسلية ، ولم ينكروا منى سوى أنى تخلفت هنا عن قافلة الراحلين ، مؤملاً أن تعود « مينيا » ، وهو أمل مستحيل التحقيق ، ولكنهم عللوا ذلك بأنى غريب أبله ، فأغضوا عن بقائى ، وأخذوا يتساقون النبيذ فى ابتهاج .

ولم يكن الكاهن المقيم هناك بأقل منهم ارتيابًا فى سلامة عقلى ، واستغرابًا لانتظارى الفتاة التى لن تعود . وهنا قلت « لكابتاح » : إنه لا سبيل لنا إلا الرحيل استسلامًا لقضاء الآلهة ، فليس ثمة من جدوى فى بقائنا ترقبًا لعودة « مينيا »، ولكننى مع ذلك لا أستطيع مغادرة هذا المكان مهما تكن العاقبة ، وأظن أنى سأظل هنا حتى الموت ، فسأحاول البحث عن « مينيا » فى أعماق هذا البيت المظلم وهى محاولة محفوفة بأشد الأخطار ، ولكنى سأبقى رهين الظروف ، ولا أرى إلا أن ترحل أنت عائدًا إلى سوريا ، فما ينبغى أن أربطك بالمصير الذى رسمته لنفسى ، وقد كتبت لك لوحًا طينيا وقَّعت عليه بخاتمى السورى لتسحب به نقودى من بيوت التجارة ، ولك – إن شئت – أن تبيع منزلى هناك ، وأنت حر بعد هذا فى غدوك ورواحك ، وإذا رأيت ألا تعود إلى « مصر » خوفًا من القبض عليك باعتبارك رقيقًا هاربًا ، ففى مستطاعك أن تقيم فى « أزمير » وأن تعيش بما يجتمع لك من نقودى . ولن أوصيك بشىء لتحنيط جسمى إذا مت ، فإننى إن لم أجد « مينيا » لا يعنينى أن يكون جسمى محفوظًا أو مهملاً ، فاذهب إذن ، ودعنى لشأنى ، ولعل بركة « الجعران المقدس » لا تتخلى عنك .

ولكن « كابتاح » لبث صامتًا مطرقًا لفترة طويلة ، وأخيرًا رفع وجهه ليقول : إنى كما تعلم ، خادمك المخلص ، ولم أشعر مرة بالحقد عليك حتى حينما كنت تضربنى ضربًا قاسيًا موجعًا ، فدائمًا كنت أعتقد أنك تفعل هذا عن سلامة نية ، وفى كثير من المشكلات كنت تستشيرنى وتستمع لمشورتى إيمانًا منك بإخلاصى . ومشكلة اليوم لا تخصك وحدك ، لأنها مشكلة « مينيا » وأنت تعلم أنى وضعت قدمها فوق رأسى تقريرًا لسيادتها على ، فأنا مسئول عنها كخادم لها ، وقد وضحت نيتك فى دخول هذا البيت المظلم بحثًا عن « مينيا » ، وهذه مخاطرة لن أدعك تنفرد بها . وعلى هذا فسأظل رفيقك حيث تمضى ، وقد تنفعنا بركة «الجعران المقدس» وإن كنت أنت لا تؤمن به كثيرًا ، وخاصة فى هذه المشكلة التى أراها كذلك فوق قوى الجعارين المقدسة !..

وكانت عبارات « كابتاح » تتسم بالحزن وهدوء التفكير على نحو لم أعهده فيه من قبل ، فلم يكن يتخللها كالعادة شىء من الصراخ وطيش الحركة . ولا شك فى أنه كان صادقًا فى عواطفه وفى تصميمه . ولكنى – من وجهة نظرى – كنت أرى من الحمق أن يبحث اثنان عن الموت ، فى حين يكفى أحدهما لذلك . ولهذا رغبت إليه مرة أخرى فى أن يدعنى وحدى ، ولكنه قال لى فى إصرار وعناد : إذا لم تأذن لى بمرافقتك ، فإنى سأتبعك مخالفًا رأيك ، فمن الأفضل أن توافقنى ، فرجلان أقوى من رجل واحد ، وأربعة أقدام خير من قدمين ... ولا يغيبن عنك أن هذا البيت المظلم مخيف مرعب وسنحتاج فى سبيل اقتحامه إلى ما يشد أعصابنا ويزيل مخاوفنا ، ولا يكلفك هذا أكثر من أن تسمح لى بحمل جرة من النبيذ ، فإن جرعات منها أثناء الطريق تكفى ، بالنسبة لى على الأقل ، لمواجهة الأخطار فى شجاعة وإقدام !..

فقلت له : منهيا هذه المناقشة : كفاك ثرثرة . وهات النبيذ كما تريد ، ولنبدأ العمل من الساعة ، والفرصة فيما أرى سانحة ، فالحراس مستغرقون الآن فى نوم عميق بتأثير المواد المخدرة التى خلطت بها النبيذ الذى شربوه .

وكان الحراس ، كما كان الكاهن ، نيامًا كالموتى فى تلك اللحظة . فتسللت إلى بيت الكاهن ، وفى عجل تناولت المفتاح من الموضع الذى دلنى عليه « كابتاح » ، ثم حملنا طبقًا عليه جذوة من نار ، كما حملنا مشعلا لم نر إذ ذاك حاجة إلى إشعاله لأن القمر كان ساطعًا، وكان من السهل علينا بعد ذلك أن ندير المفتاح بالباب الصغير فينفتح ، ومنه دلفنا إلى بيت الإله بعد أن أحكمنا إغلاقه . وفى خلال الظلام الحالك كنت أسمع صوت أسنان « كابتاح » وهى تصطك ارتجافًا على فوهة جرة النبيذ !..

- ٥ -

وقال لى « كابتاح » فى صوت خافت مرتعش : إن الظلمة هنا كظلمة القبور ، بل هى أشد منها تراكمًا وانطباقًا ، وما نستطيع أن نخطو فيها خطوة دون أن نضل أو نتعثر ، وما دمنا قد دخلنا فيها بمحض اختيارنا ، فلا بد لنا من أن نستهدى بهذا المشعل ، فلنضئه يا سيدى ، ولا خوف من ذلك فإن ضوءه لن يظهر لمن فى الخارج .

وكان رأيه هو الوسيلة الوحيدة لمتابعة السير فى هذه المتاهة المخيفة ، فنفخت فى جذوة النار وأضأت منها المشعل . وهنا رأيت أننا فى سرداب كبير أغلق مدخله بالأبواب النحاسية ، ومن قبو هذا السرداب تتفرع عشر طرق مختلفة الاتجاهات يفصل كلا منها عن الآخر حائط سميك من الطوب ، ولم أستغرب هذا ، فقد سمعت من قبل أن إله « كريت » يقيم فى «بربى» !.. وكان كهنة بلاد ما بين النهرين يقولون لى إن « البربى » تقام على شكل أحشاء حيوانات القرابين ، واستنادًا إلى هذه الفكرة بدا لى أنه من الممكن التعرف إلى طريقنا وسط هذا الأخطبوط المتشابك ، فإنى كثيرًا ما شاهدت أحشاء الثيران التى كانت تقدم قربانًا للآلهة ، ومن ثم اخترت ممرا يقع فى أحد الجوانب ، وقلت : فلنسر من هذا الطريق .. ولكن «كابتاح» قال : أظن أن التأنى والحيطة أجدى علينا من العجلة ، وقد لا نخسر شيئًا

إذا تجنبنا السير على غير هدى ، والرأى الصواب أن نفكر بحذر وانتباه في طريق عودتنا إذا كان مقدراً لنا أن نعود ... وأخرج من جيبه كرة ملفوفًا عليها خيط طويل ، وثبت طرفها فى قطعة من العظام كالمسمار ودسها فى فراغ بين طوبتين ، وكانت الفكرة على بساطتها بارعة في ذاك الوقت ، ولكنها لم تخطر لى ببال ، وقد استحسنتها دون أن أشعره بذلك حتى لا أنبه غروره !..

وفى الطريق الذى اخترناه أخذنا نسير في غمر من الحيرة والاضطراب ، فلسنا ندرى مصيرنا خلال ما يطبق علينا فيه من ظلمات قاتمة ، وكان يواجهنا أحيانًا حائط معترض ، فنميل عنه إلى طريق آخر من الطرق المفتوحة ...

وبعد أن قطعنا شوطًا على هذه الحال ، توقف « كابتاح » وهو يقول فى كثير من القلق : ما هذه الرائحة الكريهة ؟! ألا تشمها يا سيدى ؟! إن أنفي يكاد يثب من وجهى هربًا منها . إنها رائحة الثيران !.

وفى اللحظة نفسها كنت مثله أشم هذه الرائحة المتطايرة علينا من الجدران وهى كرائحة الثيران بل أشد منها نتنًا ، فكأنما المكان كله حظيرة لمجموعة من هذا الحيوان ، ولكننى لم أر فيها سببًا يدعو إلى التوقف ، فأمرت « كابتاح » بمتابعة السير ، فرشف رشفة من جرة النبيذ مستجمعًا بها نشاطه وأخذنا نستحث الخطى ، ولكن قدمى تعثرت بعد قليل فى شيء لم أتبينه ، فانحنيت لأراه ، فإذا به جمجمة لسيدة كان شعر الرأس لا يزال لاصقًا بها ، وهنا أصابنى فزع شديد ، فقد أدركت فيما يشبه اليقين أنى لن أرى « مينيا » حية بعد ... وكان هذا مثيراً لرغبتي الجنونية في الإسراع لاكتشاف ما وراء ذلك من شر مجهول ... فمضينا قدمًا وأنا ألطم « كابتاح » ليوسع خطاه ويمتنع عن الشكوى التى كان لا يفتأ يرددها متذمرًا .

ومرة أخرى توقف « كابتاح » وهو يشير إلى الأرض مذهولاً متجهم الوجه فنظرت إلى حيث يشير ، فرأيت روثًا جافا يعلو الأرض ويرتفع عنها كما لو كان تلا فى مثل طول الرجل الفاره ، وأنه – كما يبدو – روث ثور !.. ولكن كيف يكون هذا

الثور واحداً ؟!.. إنه إذن لثور تفوق ضخامته تصور أي إنسان !.. ولم يكن « كابتاح » بأقل دهشة واستغرابًا ، فقال : إنه من المستحيل أن يكون هذا روث ثور ، ذلك لأن الثور لا يمكن أن يسير في مثل هذا الممر ، وأغلب ظني أنها تجشؤ ثعبان فظيع تكاثر هكذا على مدى السنين الطوال ...

وتمثلت هذا صحيحًا ، فمن الجائز أن تكون هذه « البربى » قد صنعت لانسياب ذلك الثعبان الذى تخيله « كابتاح » ، وتحت تأثير هذا الخاطر نشأت عندى نية العودة ، ولكن رغبتي في البحث عن « مينيا » جاشت في نفسي هي الأخرى ، وكانت أقوى تأثيرًا وأشد دفعًا ، فتقدمت مدفوعًا بها إلى الأمام ، ممسكًا « بكابتاح » لأجره ورائي . وقد أخرجت سكيني وأشهرتها في يدى المبتلة بالعرق المتفصد ، استعداداً لملاقاة الخطر المتوقع ، وإن كان الموقف - على ما شعرت به حينئذ - أكبر من أن تجدى فيه مشافر السيوف والسكاكين ...

وكنا كلما تقدمنا في السير ازدادت الرائحة الكريهة انبعاثًا وشدة حتى كدنا نختنق لفرط خبثها وتعفنها ، ولكنى برغم هذا كنت أشعر أننا نقترب من الهدف ، فتابعنا السير في غير تلبث إلى أن لاح لنا من بعيد شعاع ضوء شاحب يتساقط على الممرات ، فرأينا إذ ذاك أننا صرنا في ثنايا الجبل ، فقد ظهرت لنا الحوائط من الحجر لا من الطوب ، وأخذنا بعد ذلك نتعثر في عظام أجسام بشرية وأكوام من الروث ، وانحدر بنا الطريق حتى استشرفنا مغارة كبيرة ، فوقفنا هنالك على صخرة ناتئة كانت جزءا من سلسلة صخور بارزة في مياه البحر .

وكان الضوء ينعكس من البحر على هذه المغارة ، وهو ضوء باهت غريب يتلون بالخضرة ، ولكنه كان يكفينا لنرى ما حولنا ، وقد رأينا على سطح هذا البحر الذى كنا نسمع تلاطم أمواجه ، شيئًا ذا ضخامة ملحوظة يترنح عائمًا في الماء ، وقد تخيلناه أول الأمر صفا متلاصقًا من الأكياس الجلدية ، ولكننا بعد إنعام النظر اكتشفنا أنه حيوان هائل ميت !.. وقد روعنا لضخامته التى قلما يقع مثلها فى خيالنا . ولم أشك فى أن الرائحة الكريهة التى ضقنا بشمها كانت تنبعث من هذه

الجثة المتعفنة ، وكان رأسها متوارياً فى الماء ، ولكننى تبينته كرأس ثور كبير الجرم ، أما الجسم نفسه فقد بان شبيهًا بجسم ثعبان ، خف ثقله بالتحلل فتلاعبت به أمواج البحر ..

وتزاحمت الأفكار فى ذهنى ، ثم تجمعت كلها فى فكرة واحدة ، هى أنى الآن بإزاء إله «كريت» ، وأنه هو ذلك الحيوان القذر الذى تعاف النفس رؤيته ورائحته ، وتعبث به مياه البحر كأى حشرة تافهة ، وكيف لا وقد تنوقل من شهور خبر موته ؟! فهو إذن قد مات حقا ، وها هو ذا ملء أعيننا وليس هنا سواه ... ولكن « مينيا » أين هى ؟! وكيف جيء بها إلى إله لا وجود له ؟!..

وعندما ذكرت « مينيا » فى هذا الوقت ذكرت معها كذلك كل من سيقوا قبلها إلى هذا البيت المظلم !.. ذكرت الفتيان الذين حرم عليهم الاقتراب من النساء ، والفتيات اللائى فرض عليهن أن يظللن عذارى ليدخلوا جميعًا – فيما زعموا – رحمة هذا الإله وبركته ... ذكرت المصير الذى تردوا فيه فلم يبق منهم إلا جماجمهم وعظامهم متناثرة فى ممرات هذا القبر الموحش المهجور الذى سموه بيت الإله !... وذكرت ذلك الوحش الضارى الذى قذف بهم هكذا إلى الموت الفظيع موصداً دونهم الأبواب إلى الأبد !...

لا شك فى أن هذه الأجسام الغضة الفياضة بالشباب والقوة ، كانت تساق إلى هذا الحيوان الضخم الصريع مرة فى كل شهر لتكون له طعامًا وغذاء . هذه هى الحقيقة المفزعة التى اتخذها حكام « كريت » شرعة مقدرة وسنة متبعة ، ليؤكدوا فى عقول الناس خرافة سيادتهم على البحار !...

أما هذا الحيوان نفسه ، فهو فيما يظهر ، حوت مفترس ، دفع به من أعماق البحر إعصار شديد ، فارتمى فى أحضان هذه المغارة من عهد بعيد ، وحينئذ شاءت سياسة الحكام والكهنة أن تبتدع له صفة الإله ، حارس سيادتهم البحرية ، ومن ثم

أقيم حاجز على منفذ المغارة حتى لا يعود إلى البحر ، وأقيمت « البربى » متصلة بهذه المغارة ، وقدمت إليه في مواعيد مقررة مترادفة ... هذه الضحايا الغالية ، لينهش لحومها ، ويفرى عظامها ...

ولكنه ، وقد قضى نحبه ، وصار رمــة كهذه الرمم ، فكيف ؟! ولن جيء إلى هنا « بمينيا » ؟!. فأين أنت « يا مينيا » ؟!..

وفى مثل ثورة المجنون رحت أردد بأعلى صوتى هذا النداء ، وجدران المغارة تردد صداه، ولا من يجيب ، إلى أن أشار « كابتاح » إلى الصخرة التى نقف عليها فرأيت ، ويا لهول ما رأيت !.. رأيت على الصخرة دمًا متجمدًا يمتد أثره إلى الماء !. وفى نظرة سريعة رأيت على هذا الماء جسم « مينيا » أو بالأحرى ما بقى من هذا الجسم ، وكانت مكبوبة على وجهها ، ولكن شبكة شعرها الفضية كانت إعلانًا صارخًا بأنها هى ، هى بعينها !..

وهنا كانت الجريمة الشنعاء تتحدث عن نفسها فى وضوح تام . فهذا الجرح الدامى النافذ فى صدر « مينيا » هو الطعنة القاتلة التى أودت بحياتها ، وما كان وراءها حين أدخلت هذا المكان سوى « مينوتوروس » فهو إذن الذى طعنها بسيفه من ظهرها وهى آمنة مسرورة بلقاء إلهها !.. وهو الذى دفعها بعد ذلك إلى الماء .. لقد فعلها هذا المجرم لا لشيء سوى أن يظل الناس على اعتقادهم أن الإله المزعوم لا يزال حيا لم يمت !.. فما أفظع ما فعل ، وما أشقانى بفعلته !.. وانفجرت فى صدرى صرخة المفجوع اليائس ، ثم اعترتنى غشية سقطت فى إثرها وكدت أهوى إلى البحر لولا أن أمسك بى « كابتاح » وحال بينى وبين ذلك ، وظللت فى غيبوبتى إلى أن أخبرنى « كابتاح » فيما بعد أنه حسبنى قد فارقت الحياة ، فتعاظمه الأمر وأبكاه كثيراً ، وكان مصابه مزدوجًا ، فإنه فى وقت واحد يفقد سيده وسيدته المحبوبين ، وقال إنه كان يؤثر أن يموت على أن يرى بعينه هذه الفاجعة ، ولكنه رأى أن عليه واجبًا هو أن يتحكم فى مشاعره وأعصابه لينقذ حياتى ، وإن لم يكن بمستطيع أن يفعل شيئًا لإنقاذ « مينيا » ، فقد قتلها ذلك الجزار « مينوتوروس » كما

قتل الكثيرين قبلها من الشبان والفتيات ، أولئك الضحايا الذين رأى بعينه بقايا أجسادهم فى الممر وفى قاع البحر الرملى ، ثم قال « كابتاح » متممًا القصة التى لم أشعر بها خلال إغماءتى ، إنه قرر أن يعود بى ، فلو بقينا - كلينا - ساعة فى هذا المكان لقضينا نحبنا اختناقًا بالرائحة النتنة ، ولكن هذا كان يقتضيه أن يحملنى ، وليس فى وسعه أن يفعل ذلك ، وهو فى الوقت نفسه يحمل جرة النبيذ والمشعل ، فلم يتردد فى أن يفرغ ما بقى من النبيذ فى جوفه جملة ، ويلقى الجرة فى الماء فارغة ، وقد منحه النبيذ قوة أعانته على حملى . وعندما كان ينوء بى كاهله كان يكتفى بحمل نصفى الأعلى ويمضى بى مجروراً من نصفى الأدنى ، مسترشداً بحبال الخيط التى لم ينس أن يجمعها ويطويها حتى لا تترك أثراً يدل على دخولنا . وأثناء عودته كشف - على ضوء المشاعل - بعض علامات سرية فوق الجدران أدرك منها أن « مينوتوروس » احتفرها ليتخذ منها معالم هادية فى طريق ذهابه وعودته ، ثم قال « كابتاح » أيضًا : إنه حين ألقى جرة النبيذ فى الماء تخففًا من حملها ، خطر له كذلك أن يجعل من وجودها هناك شيئًا يراه « مينوتوروس » فيبلبل فكره ويشغل خاطره عندما يذهب مرة أخرى بضحية جديدة .

وقد وصل بى « كابتاح » إلى الأبواب النحاسية عند مطلع الفجر ففتح الباب بمفتاحه ثم أغلقه بعد خروجنا ، ومضى فوضع المفتاح فى موضعه ببيت الكاهن ، وكان لا يزال ، هو ومن معه من الحراس ، يغطون فى نومهم بفعل المخدر الذى تناولوه مخلوطًا بالنبيذ . وحملنى «كابتاح» بعيداً إلى غابة على غدير ماء ، فغسل وجهى وصب الماء على رأسى وأخذ يدلك يدى حتى أفقت من غيبوبتى التى لم أشعر خلالها بشىء من كل هذا الذى أخبرنى به !..

وحين أفقت كنت شارد الفكر لا أكاد أعى شيئًا واضح المعالم ، فأعطانى « كابتاح » حبوبًا منبهة ، فنشطت قليلا ونهضت لأسير مستنداً إلى ذراعيه قاصدين إلى المدينة ، فلما اقتربنا منها كنت قد استعدت شعورى وأفكارى تمامًا ،

وتذكرت في صورة واضحة ، المصير المفجع الذى انتهت إليه « مينيا » العزيزة ، وكان هذا أمرًا لا تحتمله مشاعرى . ولكننى ذكرت أن هنالك أمورًا خطيرة ينبغى أن أفرغ لها وأغالب عواطفى من أجلها ، ولهذا رأيت من الحكمة ألا أرسل نفسى فى التفجع على « مينيا » التى صارت طيفًا بعيدًا وروحًا هائمًا فى عالم آخر ، ولم يكن يشغل فكرى بعد الذى عرفته من أسرار فى تلك المغامرة المخيفة سوى أن هؤلاء الناس من أهل « كريت » الذين استقبلونى فى غبطة وابتهاج لم يعد لهم إله ، أو أنهم على الأصح ليس لهم ذلك الإله الذى آمنوا به وقدموا له القرابين الغالية من زهرات شبابهم أمداً طويلاً ، وكنت فى الوقت نفسه أشعر بغير قليل من الارتياح لأنى وجدت فيهم شعبًا مخدوعًا تتحكم فيه أكذوبة شريرة ، فجزاؤه الحق على غفلته أن تتهاوى عظمته التى جعلت من إله لا وجود له ... مصدر وجوده ، ومصدر حمايته !.. وإنى لأنظر إلى مدينة «كريت» فأستشف فى ثنايا الغد القريب علامات نهايتها ، فهذه عماراتها الجميلة المتأنقة ستذهب طعامًا للنيران ، وهؤلاء النساء المترفات الرشيقات ستذوب أجسادهن فى هذا الأتون المتسعر الذى لن يبقى ولن يذر ، وهذا أيضًا قناع « مينوتوروس » الذهبى الذى اختفت فيه الحقائق والجرائم ، سيصبح صفائح مصهورة تشوى جلد صاحبها وهكذا ينتهى كل شيء من مدينة « كريت » وترتد هذه الجزيرة إلى البحر لتغرق فيه .

على أنى قطعت نفسى من هذا الخيال لأفكر فى « مينوتوروس » .. لقد قتل هذا الرجل « مينيا » ويكفى هذا لكى أبغضه بكل قلبى .. ولكن ماذا كان يمكن أن يفعله غير ذلك ؟! إن واجبه ثقيل وأسراره أشد ثقلا ، وقد كان يعلم أن الفتيان والفتيات لا يذهبون لخدمة الإله وإنما يقذف بهم شهرًا بعد شهر، وسنة إثر أخرى ، ليأكلهم حيوان البحر الحبيس فى المغارة، ولكنه كان يعلم كذلك أن عظمة « كريت » البحرية لا تقوم إلا على إسناد من هذا السر المجهول أو هذا الاعتقاد الزائف ، فهل كان يستطيع أن يميط اللثام عن الحقيقة فتدول دولته ، وينهار وطنه !..

كنت أفكر فى مسئولية ذلك الرجل على هذا النحو ، ولا أدرى كيف كنت أجنح فى تفكيرى إلى التهوين من مسئوليته ، وهو الذى يتمرغ فى أقذار من جرائم متصلة لم تكن جريمته نحو « مينيا » أولها ولا ختامها .

ولعلى أردت أن أخفف عن نفسى شعور الحقد عليه لأستريح ، فقد كنت إذ ذاك فى حالة أشبه ما تكون بكومة من هشيم ، تكفى شرارة صغيرة لإشعالها والإتيان عليها . وأنا أريد أن أعيش وأتلمس أية فكرة للهرب من خطر جديد يدمر حياتى .

واعترانى بعد ذلك شعور طائش ، فبدوت كالمجنون ، أغنى وأضحك وأنا سائر فى الطريق متكئًا على « كابتاح » ، وقد استغرب ذلك أولئك الذين يعرفوننى من أصدقاء « مينيا » ، ولكن « كابتاح » أفهمهم أنى شربت كثيرًا من النبيذ خلال انتظارى لعودة « مينيا » ، وأنى ما زلت ثملا !.

ورأى « كابتاح » أن يريح نفسه من عناء الاعتذار عن حالتى هذه التى تأباها عادات المدينة فى الطريق العام ، فاستأجر محفة حملتنا إلى الفندق ، وهناك استسلمت إلى نوم عميق .

فلما صحوت ، عدت إلى تذكر ما حدث بالأمس ، وعبثًا حاولت تنحية وجه «مينوتوروس» عن ذهنى . لقد كان هو الشخص الوحيد الذى حال بينى وبين « مينيا » إلى الأبد ، وهو الذى ساقها إلى المغارة ليقتلها ، وهو يعلم أن الحيوان الذى اتخذوه إلهًا قد مات ، ومعنى ذلك أنه كان يستطيع ، وقد عرف مقدار حبى لها ، أن يبقى على حياتها بوسيلة من الوسائل ، لتعود فى الأجل الذى حددوه دون أن تهتز لذلك عقيدة الناس ، ولكنه لم يفعل وأباح لنفسه أن يهدر دمها فى غير ما داع إلى ذلك ، وإذن فلأذهب إليه لأقتله ، فذلك جزاؤه وهو أقل ما ينبغى أن أفعل وفاء بحق « مينيا » ، ثم إن قتله ، ثأرًا لدمها المسفوك ، سيفتح من ناحية أخرى بابًا لتخليص أرواح كثيرة بريئة يتسابق أصحابها إلى الموت وهم لا يشعرون ، اعتقادًا بأنهم ظافرون بالمجد والفخار إذا وقع عليهم الاختيار لدخول بيت الإله ، شأنهم فى ذلك شأن «مينيا» ومن قبلها !.. ولكنى ذكرت وأنا أرتجل قرار قتله أن الحق فى مثل هذه

البلاد كالسيف في يد طفل ، يريد أن يطعن به فيرتد إلى صدره ... ومن ثم أبعدت هذه الفكرة عن ذهنى الذى كان قد أخذ يصفو . وفى هدوء رأيت أن أمر « مينيا » قد انتهى بموتها وأن أمر إله « كريت » لا يعنينى بعدها فى كثير أو قليل .

وملت على « كابتاح » أستشيره ، فقال : ليس هذا أوان التفكير ، وإنما هو أوان الراحة ، وما أرى إلا أن تعتكف بعض الوقت وليكن بعد ذلك ما يكون .

ثم قدم لى طعاماً ودعانى فى إصرار إلى تناوله ، ولكنى لم أكن أشعر برغبة فى طعام ، قدر ما أشعر بالظمأ إلى النبيذ ، فأخذت أشرب منه فى إفراط ، وكنت أحس فى شربه بالهدوء والنشوة ، فإن الحقائق كانت تختفى فى مفعوله أو تزدوج بمرئيات ذات ألوان شتى ، وفى هذه الفوضى الفكرية كان يضطرب العقل ويستغلق الفهم !.. ولكن أليس هذا ، فى مثل حالتى ، أسلم عاقبة مما لو ترك العقل طليقاً ، فلا يكون إلا التفكير فى « مينيا » والحقد على الناس والآلهة جميعاً ؟!..

وفى صباح اليوم التالى استيقظت فرأيت « كابتاح » جالساً فى ركن من الحجرة وهو يبكى فى صمت معتمداً رأسه بيديه ، فتناولت جرة النبيذ وعببت منها مقداراً كبيراً أسكرنى ، ثم سألته : علام تبكى أيها الأحمق ؟!..

قال : إنما أبكى يا سيدى لأن سفينة بالميناء تتهيأ للإبحار إلى « سوريا » وهى آخر السفن فى هذا الفصل ، ولن تأتى أخرى إلا فى الشتاء ، فإن لم نسافر عليها فسنبقى هنا كل هذا الوقت الطويل ، وهذا يخيفنى ، ومن أجله أبكى !..

قلت له مشتدا : اغرب عن وجهى ، وارحل بنفسك على السفينة التى يزعجك انتظار غيرها ، فمن الخير لى ألا أرى وجهك هذا الدائم الكآبة وألا أسمع صوتك هذا الدائم الشكوى والأنين !..

ولكنى عندما قلت هذا شعرت بالألم والخجل فألقيت بجرة النبيذ بعيداً ، لأن « كابتاح » فى الواقع كان عزائى الوحيد فى هذه الغربة الطويلة الموحشة ، وقد أخلص لى إخلاصاً يندر أن يوجد مثله فى الخدم والأرقاء ، بل يندر أن يوجد فى الرجال الأحرار من الأصدقاء .

وقال « كابتاح » بدوره : الحق معك يا سيدى ، ولكن يجب أن تضيف إلى هذا أننى كذلك سأستريح من ثملك الذى لا ينقطع ... لقد فقدت خير ما فيك وأنت لا تدرى !.. وكأنى بك قد قذفت من النافذة بكل ما توافر لك فى رحلاتك من ذهب وفضة ، وما أراك - بعد - قادراً على علاج مريض واحد بيديك هاتين المرتعشتين ، وغداً قد لا تستطيع أن تمسك بها جرة النبيذ ، فإن الخمر لا تفلت شاربيها من هذا المصير المحزن .. وقد كنت أحسب الشراب شيئًا يضفى الراحة على العقل والنفس ، فوافقتك عليه من غير تدبر فى العاقبة ، وسرت أنا نفسى فى هذا الطريق . وحينما كنت تسرف فى الشراب ، كنت أقول للناس - مفاخراً - إنك لا تحصى عدد جرات النبيذ التى تفتحها وتأتى عليها لكثرتها ، وأنك تشرب كما يشرب التمساح ، وتنفق الذهب والفضة بغير حساب فى شراء النبيذ . ولكن ... لكل شىء حدود ، وقد تجاوزتها ، ولم يعد هناك محل للمفاخرة بما قد تفاقم شره وبان خطره ، وفرق كبير بين الاعتدال والإفراط ، فذلك الرجل الذى يشرب النبيذ ثم يذهب إلى الشوارع فيشاغب ويضرب فتشج رأسه ، يهون أمره كثيراً عندما ينقلب إلى بيته فيتناول الجعة والسمك المملح وينهض مستأنفًا عمله على ما فرضته الآلهة وقضت به مطالب الحياة فى هدوء وكياسة ، ولكنك يا سيدى لست من هذا فى شىء ، فأنت تدمن الشراب فى كل يوم كما لو كان هو آخر يوم فى حياتك ، وقد يكون هذا حسنًا لو أنك تتعجل به آخرتك !.. على أن الأفضل ، إذا كنت تقصد إلى ذلك ، أن تغطس مرة واحدة فى حمام من النبيذ ، فهذا أسرع الوسائل إلى ما تريد دون أن تتعرض للعيون الراصدة والألسنة الناقدة !..

واستقرت كلمات « كابتاح » من نفسى فى مكانها من التقدير ، فلم يقل إلا الحق الذى لم أفطن إليه ، وتحسست يدى المرتعشين فإذا بى أفقد السيطرة عليهما ، وكانتا يدى ، طبيب ، ثابتتين ، قويتى الحركة ، فأصبحتا فى بدنى كجزء متهالك منفصل ، وأخذت أستعرض رحلاتى والمعرفة التى حصلتها فى بلاد كثيرة ، فأدركت

أني قد بلغت منها الكثير وأن الرغبة في الاستزادة منها لا تخلو من حماقة ، مثلها فى ذلك مثل الإفراط فى الطعام ، وفى المسرات، وفى الأحزان .

وعلى هذا قلت « لكابتاح » : إن الأمر فى الحق كما تقول ، ومنذ هذه اللحظة سأدع هذا الشراب المهلك ، ولن أفتح بعد جرة من نبيذ أو أتناول كأسًا من خمر ، فهذا هو ما يمليه العقل السليم وهو أصدق عندى من مشورتك ونصحك ، وأرى أخيرًا أن نشد رحالنا إلى « أزمير » فحسبنا ما عانينا فى هذه البلاد .

وفرح « كابتاح » لهذا القرار فرحًا شديدًا ، وراح يعدو هنا وهناك ليجمع أمتعتنا ويحزمها ، ولم تنقض ساعات حتى كنا على ظهر السفينة ، حيث أخذ ملاحوها يضربون بمجاديفهم فى البحر إلى أن جاوزوا بها منطقة الميناء ، ثم أمر الربان بنشر شراعها فانطلقت تمخر عباب الماء ، فى حين كان الربان يقدم ، فى قمرته ، القرابين لإله البحر والآلهة الأخرى .

وشيئًا فشيئًا ، أخذت « كريت » تغيب عن أبصارنا ، وعندئذ أحسست بالوحدة فى هذا الخضم الهائل .

ذنبُ التمساح

- ١ -

لم يكن إحساسي بالوحدة شيئًا جديدا في طبيعتي ، فقد جئت من حيث لا أعلم - إلى هذه الدنيا وحيدا محمولا على قارب الغاب إلى شاطئ« طيبة» ، ولازمتني الوحدة في اسمي نفسه منذ سميت بالوحيد. فعندما عاودني الإحساس بها على ظهر السفينة شعرت كأني قد عدت إلى حقيقتي التي عشت عليها أكثر عمري ، فلم أضق بها ، بل لعلي قد ارتحت إليها . على أنها وإن لم تمنعني من مخالطة رفاق السفر بالسفينة ومجاراتهم في تناول الطعام والشراب وفيما لا معدى عنه من المشاركة الاجتماعية ، إلا أنها كانت تجنح بي أكثر الأحيان إلى قلة الكلام والقصد في الحركة والتماس الهدوء بمبعدة منهم.

وفي هدأة الانفراد والوحدة، وفي نشوة الهواء اللطيف يملأ صدري ، تراءت « مينيا » في خيالي بعينيها الخضراوين كلون ضوء القمر منعكسا على ماء البحر ، وبضحكاتها المشعة ذات النغم الهادئ ، وبرقصها الرائع الأخاذ على أهراء الحقول في طرق «بابل» ، وبلباسها الرقيق الشفيف على قوامها الرشيق الفاتن ! .. هكذا ، وعلى هذه الصورة الجميلة ، تراءت «مينيا » في خيالي ، وهي أصدق ما تكون صورة في حقيقة حياتي ، ولكنها وقد توارت عني خلف أستار الأبدية ، لم يبق لي منها غير هذا الخيال، وهو خيال محزن حقا ، بيد أنه كان حزنا مشربا بالمتعة ، متعة الذي يستيقظ من حلم جميل ، فلا يجد منه في دنيا الواقع غير الذكرى.

وأخيرا عدت إلى « أزمير» بعد أن غبت عنها ثلاثة أعوام ، أحطت خلالها بالكثير من الخير والشر وتنقلت فيها بين ممالك وشعوب ذات عدد ، وكان شعوري الغالب حين بلغتها أني صرت أنضج رجولة وعقلا وأوفى ثقافة وحكمة ، فلم أعد بعد

شابا تنقصه المعرفة والتجربة ، ولهذا عددت نفسى رابحا من هذه الرحلة الطويلة الشاقة بالرغم مما لقيت فيها من عذاب وعناء.

ولكننا حين ذهبنا إلى بيتى فى «أزمير» لم نجد منه إلا قوائم أشبه ما تكون بآثار كاد يعفي عليها الزمن ، فأبوابه ونوافذه قد حطمها اللصوص الذين اقتحموه وجردوه من كل ذى قيمة فيه، واستباح جيراننا حرمته فاتخذوا من الفضاء المحيط به مستودعا لمخلفات بيوتهم ، فكان كالخرابة القذرة ومسرحا للجرذان ، ومثابة للأقذار ، ومهبا للروائح الكريهة التى تزكم الأنواف ، وبدا على جيراننا هؤلاء امتعاض شديد لعودتنا ، فكانوا يشيحون بوجوههم عنا ، ولا نسمع إلا أن يقول أحدهم للآخر : لقد عاد هذا المصرى، ومن «مصر» يفد علينا كل الشر ! ..

وكان مستحيلا علينا أن ننزل فى البيت وهو على تلك الحال من التخريب والقذارة، فأوينا إلى أحد الفنادق ، وأمرت «كابتاح» بأن يذهب إلى البيت ليشرف على ترميمه وتنظيمه حتى ننتقل إليه واستأنف حياتى فيه ، وألممت بعد ذلك ببيوت التجار الذين استودعتهم ثروتى ، فقد كنت محتاجا إلى المال إذ أنفقت فى السنوات الثلاث كل ما كنت قد تزودت به منه، حتى الهدايا التى تلقيتها من « حورمحب» قد اضطررت إلى إنفاقها هى الأخرى . وأكثر هذه الثروة أنفقته على الكهنة « ببابل » فى سبيل «مينيا» ومن أجلها .

وتلقانى شركائى المساهمين فى السفن بكثرة من الاستياء ، ذلك لأنهم كانوا قد اعتقدوا لطول غيابى أن مالى الذى ساهمت به فى سفنهم قد أصبح ملكا لهم . ولكنهم تسليما بالأمر الواقع اضطروا إلى تقديم الحساب صحيحا . وعرفت منه أننى صرت أغنى منى وقت رحيلى منذ ثلاث سنوات . فإنه وإن كانت سفن معينة قد غرقت واندرجت فى قائمة الخسارة، فإن بقية السفن أصابت ربحا طائلا . وهنا شاعت الطمأنينة فى نفسى. ولم يعد ثم شىء يقلقنى إذا ما فكرت فى البقاء «بأزمير».

ودعانى أصحاب السفن لزيارتهم فى محال أعمالهم. وهناك قدموا لى نبيذا وخبزا مأدوما بالعسل. وتحدثوا فقالوا: أيها الطبيب .. إنك صديقنا وشريكنا فى أعمالنا . ونحن نحب مصارحتك بأننا لا نكره التعامل تجاريا مع « مصر » . ولكننا مع ذلك نكره أن نرى المصريين بيننا أو أخذين طريقهم إلينا . وينبغى أن تعلم أن هذا هو الشعور العام فى هذه البلاد . فالجميع هنا متذمرون حانقون لكثرة ما يفرض عليهم من ضرائب لحساب « فرعون » وقد أصبحوا لا يضيقون بشيء مثلما يضيقون بهؤلاء المصريين الجباة يترصدونهم فى الشوارع ويلاحقونهم غادين ورائحين . وقد اشتدت كراهيتهم لمصر إلى حد أنهم يلقون بالخنازير الميتة فى المعابد المصرية ، وإلى حد أنهم يمتنعون عن الظهور مع أى مصرى فى المجتمعات العامة ، وهو أمر يقتضينا واجبنا أن نكاشفك به لتتصرف بحكمتك .

وأدهشنى حديثهم هذا . فقد كنت قبل رحيلى عن « أزمير » أرى أهلها يتنافسون فى مرضاة المصريين والتفتح لهم وكسب مودتهم حتى كانوا لا ينفكون يدعونهم إلى بيوتهم ويبالغون فى الحفاوة والترحيب بهم ولم يكن هذا بغريب ، فذلك هو ما يلقاه السوريون من المصريين فى « طيبة » .

وعدت إلى الفندق مهموما لهذا التبديل فى شعور أهل « أزمير » ، ووافانى بعد قليل «كابتاح» عائدا من جولة فى المدينة ، ولم يكد يرانى حتى قال : لا شك أن روحا خبيثا قد سرى فى أهل هذه المدينة ، فما لقيت منهم أحدا إلا تنكر لى وأشاح بوجهه عنى، وما تحدثت إلى إنسان إلا استغلق دونى متظاهرا بأنه يجهل لغتى المصرية، وقد دخلت حانة لأتناول شراب النبيذ ، فما أن عرف الذين فيها أنى مصرى حتى تجهموا وامتعضوا وراحوا يرموننا نحن المصريين بالسيئات والمناكر ، فتركت هذه الحانة إلى أخرى ، فكان من فيها أشد نكيرا على المصريين وأقسى ثلبا لهم . وقد سمعتهم يقولون ، فيما يقولون ، إن مدينتهم كانت فيما مضى مدينة حرة غير مستذلة لبلد آخر ، ولا تؤدى جزية لأحد، وكذلك كانت مدن «سوريا» كلها ، وهم الآن يثورون لحريتهم ويأبون أن يكونوا أتباعا للمصريين ، ويقولون إن هذا

واجب الأحرار الذين لا يقبلون الضيم وإلا فما قيمة حياتهم ، وما جدوى أن يتناسلوا لتكون ذريتهم عبيد أرض لفرعون ؟!..

بهذا اللغو كانوا يتحدثون ياسيدى... ولابد أن تكون قد أصابتهم جنة ، ففقدوا صوابهم ونسوا أن «مصر» فى حكمها لبلاد «سوريا» تحميها وتنظم حياتها ، وأن السوريين أكثر انتفاعا ، من «مصر» نفسها ، بهذا الحكم . ولو أن «مصر» تخلت عن حماية بلادهم لكانوا أشبه بالقطط المتوحشة تحتشد داخل كيس مغلق ، فيضرب بعضها بعضا ، ويأكل أقواها أضعفها . وهكذا لا تكون إلا الفوضى والفساد والعبث بالزراعة والتجارة . وأمعن من ذلك في اللغو أنهم يذكرون في زهو ومفاخرة أن المدن السورية جميعها قد تحالفت على تحطيم مايسمونه بأغلال الحكم المصرى؛ وهذا مالا أجد فى عقلى متسعا لتصديقه !..

ولقد آلمنى حديث القوم وهراؤهم ، فخرجت من حانتهم وهم لا يزالون معرضين عنى، حتى صاحب الحانة نفسه كان يولينى ظهره ، وكان هذا خيرا ، لأنى لم أجد أحدا أدفع له ثمن الشراب ! .

وهذا الذى رواه «كابتاح» ، مضافا إلى ما سمعته من التجار، قد ضاعف همى ، ورأيت إلى أن تتضح الحقيقة تماما- أن أقتصد فى التجول بالمدينة ، وفى التكشف بمصريتى للناس ، فكنت أرتدى الملابس السورية حينما كان لا معدى لى من الاضطراب بينهم، وكان الذين يعرفوننى كل المعرفة يديرون وجوههم عنى إذا ما رأونى . وفى هذا الوقت كان المصريون الآخرون بالمدينة لا يسيرون فيها إلا فى حراسة قوية، ومع ذلك قد كانوا لايسلمون من سخرية الناس وزرايتهم وسخطهم، فما أكثر ماكانوا يقذفونهم بالفواكة المعطوبة والسمك المتعفن .

وعلى أن الحالة كانت توحى وتنذر بالخطر على علاقة المدينة بمصر، فإننى كنت أشعر بأنها لا يمكن أن تستمر هكذا طويلا ، ذلك لأنها فيما أعتقد وليدة التذمر من الضرائب الجديدة ، وهذا أمر يستطاع علاجه ، هذا إلى أن «سوريا» فى مجموعها تفيد كثيرا بارتباطها بمصر ولا غنية لمدنها عن تلقى القمح المصرى .

وكان قد تم ترميم منزلى وتنظيمه ، فانتقلنا إليه ، واستقبلت فيه المرضى لعلاجهم كما كانت الحال من قبل ، ولم يكن يحجزهم عنى جنسيتى التى كانت وقتذاك تبدو بغيضة بالمدينة ، ذلك لأن المرضى فى آلامهم ونشدانهم البرء منها لاتعنيهم جنسية الطبيب وإنما يعنيهم منه مهارته فى فنه . بيد أن أمرهم معى لم يكن يخلو من الجدل فيما كان يتردد صداه خارج عيادتى ، ففى بعض الأحيان كان بعضهم يقول : ألا ترى أيها المصرى أن من الظلم أن تقتضينا «مصر» هذه الضرائب المرهقة وتمتص فيها أرزاقنا ، لنجوع وتشبع، كما يمتص دود العلق غذاءه من الدماء ؟! .. ثم أليس من الجور والعسف والتحكم فى الحرية أن يمنعنا الحكم المصرى من ترميم أسوارنا وحصوننا عندما نريد ذلك على نفقتنا الخاصة ؟! .. ولماذا تفرض علينا «مصر» حكاما ورجال قضاء ومن لا عدد لهم من الموظفين والعمال يتولون أمورنا ويتصرفون فى شتى شئوننا على هواهم أو على هوى سياسة بلادهم ، حتى أصابتنا الفاقة وشاع فينا الفقر، وفى بلدنا من أبنائه أكفاء قادرون لو أنهم أقيموا على حكمنا لكانوا أرعى لمصالحنا ، وأوفر همه فى نشر العدل والرخاء فينا ... وبحق «بعل» لو أن أمورنا كانت إليهم لكنا أيسر حالا ولما عانينا ما نعانى الآن من حكم «مصر» ومن قسوة رجالها ... وأخيرا ، أيها المصرى ، يقسرنا «فرعون مصر» على عبادة إله جديد، ليحول بيننا وبين إلهنا ! ..

كنت أسمع هذا من بعض المرضى، فأشفق على نفسى من مناقشتهم، ولكننى كنت أقول لهم فى غير انفعال مثير حينما كنت لا أستطيع صد نفسى عن الكلام ، وما حاجتكم إلى إقامة الأسوار والحصون إلا أن تكونوا قد قررتم مناجزة «مصر» العداء ؟! .. وذلك مالا تؤمن عاقبته ، ولا أحسبكم تكسبون منه شيئا ، وقد يكون من الخير والإنصاف للحق أن تذكروا أن مدينتكم وقت أن كانت حرة مستقلة ، كانت كذلك مسرح حروب عديدة متصلة مع جيرانكم الذين لا زلتم تكرهونهم ، وكنتم فى هذه الحروب تهدرون الدماء وتبذلون الكثير من أرواحكم وأموالكم حتى صرتم فى فاقة وقلة . وبينما كانت حالكم هكذا كان أمراؤكم وولاة أموركم يسومونكم سوء

العذاب ، ويفشون الظلم فى أغنيائكم وفقرائكم على السواء ، وليس الأمر كذلك الآن فإنكم محميون من أعدائكم بدروع «مصر» وحرابها ، والقوانين المصرية تحفظ الحقوق العامة وتكفل الأمن والمساواة للجميع ، وها أنتم أولاء فى عامة مظاهركم ذوو بدانة ظاهرة تنم عن بسطة الرزق ورخاء الحال ولا تنم عن العبودية والحرمان ، وما أكثر ما سمعتكم تفاخرون بثرواتكم التى كسبتموها فى ظل غباء المصريين ، فلو كنتم أحرارا بالمعنى الذى تقصدونه لتنافستم وطاول بعضكم بعضا وصارت سفنكم وأموالكم نهبا بينكم ، وعز عليكم فى تجوالكم داخل بلادكم أن تجدوا الأمن والسلام .

وكانوا ، حين يسمعون هذا منى ، يثورون وتحمر عيونهم غضبا ، ويقولون : إنك مصرى تدافع عن بلادك ، ولا نعرف فى المصريين إلا التلفيق والظلم . أما نحن فقد وقرت فى نفوسنا كراهية آلهتها ، وأصبحنا هنا على رأى جامع هو الخلاص منها ، وليكن الحكام من أهلنا طغاة مستبدين كما تقول ، وهذا ما لا نعتقده ، فإنهم على أية حال أحنى علينا منكم، لأنهم منا ونحن منهم ، والظلم فى بلد حر ، خير من العدل فى بلد مستعبد .

يقولون هذا فى عصبية جامحة ، ثم يلقون بأجر العلاج وينصرفون غضابا ..

ولم أعد ، وسط هذا الشعور الشعبى المتفجر فى كل ناحية ، أستطيب المقام فى «أزمير»، فأخذت فى تهيئة نفسى للرحيل وجمع أموالى المودعة بالمدينة. وقد رأيت من واجبى أن أعجل بالعودة إلى «مصر» وفاء بوعدى « لحورمحب» لأفضى إليه بنتائج المهمة التى عهد بها إلىَّ فى رحلتى ، ولكن الذكريات التعسة التى خلفتها ورائى فى « مصر» لم تكن تستحثنى لسرعة العودة، فأقعدتنى وقتا آخر بهذه المدينة الساخطة.

وذات مساء كنت عائدا من معبد « عشتروت» الذى كنت أتردد عليه من حين إلى حين تردد الصادى على أى ماء يلقاه ، فاعترض طريقى جماعة من الرجال وراحوا يتفحصون وجهى ويقول بعضهم لبعض : لا شك أنه مصرى ، فلا ينبغى أن نفلته من أيدينا .

ورأيتهم يهمون بالاعتداء على ، فقلت لهم : إننى طبيب أخدم الإنسانية التى تتساوى فيها الجنسيات والأوطان ، وأنتم باعتدائكم على رجل مثلى يعالج مرضاكم ترتكبون حماقة سوف تندمون عليها .

ولكنهم لم يأبهوا لقولى ، فوضعوا عباءاتهم على وجوههم وألقوا بأجسامهم جملة على جسمى ، فتهاويت على الأرض ، وانهالوا ضربا على رأسى ثم خلعوا ملابسى وأداروا أيديهم فيها بحثا عن النقود ليسرقوها ، وفى هذه الأثناء تأمل أحدهم وجهى ثم صاح قائلا : ألست أنت «سنوحى» المصرى طبيب الملك «عزيرو» وصديقه ؟!.

وبدا لى أنهم توقفوا خوفا من أن أكون ذلك الرجل الذى تبين حقيقته رفيقهم ، فأمن هذا من خوفى ، ونهضت مصطنعا الشجاعة لأصرخ فيهم متوعدا ومقسما بأنى لن أدعهم حتى أجهز عليهم وألقى بجثثهم للكلاب . وقد أدهشنى أنهم على الفور أعادوا ملابسى وفروا هاربين، وقد أخفوا وجوههم بأذيال عباءاتهم ، رغم أنهم بكثرتهم كانوا أقوى من أن يخيفهم فرد واحد بوعيد متكلف ، مهما تكن قوته ، فلست أدرى لماذا فعلوا ذلك ؟!.

– ٢ –

وأقبل على منزلى ، بعد أيام قليلة ، رجل يمتطى صهوة جواد . وكان ذلك منظرا نادرا، فلا المصريون ولا السوريون يركبون جيادا فى هذا البلد ، وقلما يرى الناس أحدا يركب مثل هذا الجواد إلا إذا كان حارسا من حراس الصحراء ، وقد هتف بى هذا الفارس دون أن يحيينى قائلا : عجل بإعداد محفتك ياسنوحى ، واتبعنى فإنى آت من أرض « عمورية » مبعوثا إليك من ملكها «عزيرو» لتوافيه هناك مسرعا ،

ذلك لأن ابنه مريض ، وقد استعصى علاجه . وقد تركت الملك هائجا كالأسد لشدة ما ينتابه من قلق ولهفة على ولده ، ولا يكاد يقترب منه إنسان حتى يكسر عظامه .

قال هذا ، مأخوذا بالقلق الذى تنفعل به نفسه كرسول أوفده الملك فى طلب طبيب ينقذ ابنه من الموت . وكان جواده يلهث ويقطر الدم من فمه، مما يدل على أنه قطع به مسافة طويلة في سرعة متصلة، كما كان الرجل نفسه مغبر الوجه والملابس ، وقد بلغ من لهفته على إنفاذ أمر مليكه وفرط تأثره بالمهمة التى جاء من أجلها أنه كان يطلب منى الإسراع فى لهجة الأمر ، فقد قال لى وهو يستحثنى مهددا : هيا فعجل ، وإلا فإنى قاطع رأسك من فوق كتفيك وملقيه فى الطريق !.

فقلت له : قد تستطيع أيها الهمجى القادم من التلال ومراعى الأغنام أن تقطع رأسى ، ولكن ماذا تكون قد فعلت لخدمة مليكك الذى يطلب طبيبا لإنقاذ ولده ؟! . فلو أنك حملت إليه رأسى مقطوعا بدلا من أن تلقيه فى الطريق ، فإنه قاتلك لامحالة ، لأنه إنما يريد طبيبا حيا ، لا رأس طبيب مقطوعا ؟ .. وعلى أية حال فإنى متجاوز عن تهورك وحماقتك ، وسأمضى معك، لا خوفا من وعيدك ، ولكن تلبية لرغبة الملك «عزيرو » لأنه صديقى ومن حقه علىَّ أن أسارع إلى نجدته .

وأمرت «كابتاح» فجاء بمحفة وخرجت بها مع هذا الرسول شاعرا بشىء من راحة القلب ، فقد كنت إذ ذاك أشد ما أكون ضيقا بالمقام بين هؤلاء القوم الذين يجاهروننى بالعداء كمصرى ، ورأيت فى مسيرى إلى الملك « عزيرو» متنفسا من هذا الضيق ، وتوقعت أن أجد عنده شيئا من العزاء والسلوى ، ولكننا عندما بلغنا أول الطريق بظاهر المدينة بدأت أواجه سلسلة من متاعب الرحلة ومشقاتها ، حيث اضطررنا إلى الانتقال من المحفة إلى عربة تجرها جياد ، وهذه راحت تخب وتضع خلال أحجار وصخور متشابكة متراكمة ، وكانت أعصابنا فوقها ترتج وتتداعى ، وينال منها النصب كل منال ، فى حين كان رسول الملك يتبعنا بجواده، وقد تمنيت وقتها لو أن جواده جمع به ودق عنقه لنعود من حيث جئنا هربا من عناء هذا السفر المجهد . وناءت بنا العربة بعد أن قطعنا بها مسافة طويلة من الطريق ، فانتقلنا إلى عربة أخرى بجياد جدد ، ولكننا لم نكن فيها أحسن حالا ، فإنها أيضا كانت تصعد حينا وتهبط حينا ، وتتلوى فى سائر الأحيان ذات اليمين وذات اليسار حتى

ما كنت أدرى وهى على تلك الحال ، ما إذا كنت جالسا فيها أو واقفا على رأسى ، وإنما الذى كنت أدريه تماما أننى شددت بيدى على طرف العربة متشبثا بها خشية السقوط . ومع أن صراخى لم يكن ينقطع لعنا فى السائق وسخطا عليه ، فإنه لم يكن يبدى أى اكتراث كأنه لا يسمع ، بل لعل هذا كان يزيده إمعانا فى السرعة فيلهب ظهور الجياد بضربات سوطه ، فتوغل فى الصخور والأحجار إيغالا عنيفا وتصطدم بها اصطداما متصلا . وظللنا على هذه الحال المضطربة المخيفة إلى أن بلغنا قبيل غروب الشمس مدينة تحيط بها أسوار شامخة شيدت حديثا . وكان على هذه الأسوار جنود يحملون التروس لحراستها ، ولكن أبوابها كانت مفتوحة لنا فدخلنا منها إلى المدينة ، ولقينا أول ما لقينا فيها نساء وأطفالا يتصايحون ، وحميرا تنهق بأصواتها المنكرة ، وسلالا من الفاكهة معلقة فى الهواء ، وجرارا لا حصر لها تضطرب فى الطريق ، فى حين كانت عربتنا تمضى فى سرعتها نفسها ، لا يبالى السائق المتهور أن يسحق بها كل ما يصادفه .

وانتهينا أخيرا إلى بيت الملك ، فتوقفت العربة ولم أستطع لفرط ما نالنى من إجهاد أن أهبط منها إلا محمولا على ذراعى السائق ، وجاء الأرقاء فحملوا صندوق عقاقيرى ، وساروا خلفى حيث اجتزنا الحائط الخارجى الذى كان معلقا عليه التروس والدروع والحراب ذات الأهداب فلما صرت فى حضرة الملك «عزيرو» تلقانى وهو يبكى ويئن أنين الفيل المجروح ، وقد مزق ملابسه وعفر شعره بالتراب وأدمى وجهه بأظافر يديه وضمنى بحرارة إلى صدره وقال لى فيما يشبه الضراعة : ولدى ! ولدى ! . أنقذه من الموت «ياسنوحى» ، ولك كل ما أملك .

قلت له : ينبغى أن أراه فى الحال لأعرف مبلغ ما أستطيع أن أفعل له .. فقادنى معجلا إلى حجرة فسيحة أشعلوا فيها موقداً ينفث حرارة ملتهبة لا داعى لها إذ كنا فى فصل الصيف، مما جعل جو الحجرة خانقًا ، ورأيت وسط الحجرة مهدا فى أرجوحة تمدد عليها طفل لما يبلغ العام من عمره ، ملفوفا فى ملابس من صوف ، وهو يصرخ فى مشقة وعسر، ووجه مربد تعلوه زرقة المخنوق ، العرق يتفصد من جبهته ،

وكان شعر رأسه كثا كشعر رأس أبيه ، ولم أتبين أول الأمر مصدر علته، ولكني أدركت من صراخه أنه لم يدخل حتى هذه اللحظة في دور الاحتضار خلافا لما يتصوره أبوه .

وإلى جانب مهد الطفل، وعلى أرض الحجرة ، كانت تربض «كيفتيو» المرأة التي كنت أعطيتها للملك « عزيرو » ، وقد بدت أكثر بدانة وبياض وجه عما كانت من قبل ، وكان جسمها المكتنز باللحم يترجرج وهي تضع جبهتها على الأرض معولة باكية، ومن أركان الحجرة الأربعة كانت تنبعث صيحات المراضع والرقيقات وهن مسترسلات كذلك في النحيب والبكاء، وقد تورمت وجوههن من أثر اللكمات التي كان يصبها « عزيرو» عليهن ، لأنهن عجزن عن شفاء ولده !.

والتفت إلى «عزيرو» وقلت له: لا تجزع، فابنك لا يحتضر كما تتوهم ، وشفاؤه مأمول ، فلا تيأس .. غير أن الأمر يتطلب ، قبل أن أعد نفسي لفحصه أن ترفعوا من الحجرة الموقد الملعون، فإننا نوشك أن نختنق جميعا . وهنا رفعت «كيفتيو» رأسها وقالت في فزع : ولكننا إذا رفعنا الموقد فقد يصاب الطفل بالبرد ؟! . وقبل أن تتم عبارتها فوجئت بوجودي أمامها وجها لوجه ، فابتسمت واستوت في جلستها وراحت تصلح من شعرها وملابسها ثم قالت : هذا أنت يا «سنوحي»؟!. بينما كان «عزيرو» يضرب كفا بكف ويقول : ولكن الطفل لايتناول طعاما إلا رده في الحال ، وحرارة جسمه شديدة مستمرة لا تنفثئ ولا تنخفض ، ومنذ ثلاثة أيام استحال عليه أن يتناول طعاما ولم يبق فيه من دلائل الحياة إلا هذا الصراخ الذي يفتت قلوبنا أسى عليه وحزنا .

فأشرت عليه بإخراج المراضع والرقيقات ، فأخرجهن على الفور ، وأقبلت على الطفل بعد أن نظفت يدي وأدواتي ، فرفعت عنه ملابسه الصوفية ، وفتحت نوافذ الحجرة المغلقة فشاع فيها نسيم المساء الرطب، وعندئذ انقطع صراخ الطفل وهدأ اضطرابه، وأخذ يدفع بساقيه في حركة عادية، وتحسست جسمه وبطنه فلم أجد بهما شيئا يمكن أن يعزى إليه المرض، فخطر لي أن أتحسس فمه أيضا فوضعت فيه إصبعي وكنت موفقا في هذا الخاطر، فقد وجدت على جسر اللثة سنا ناتئة هي

أولى أسنان الطفل ، أطلت من فكه كأنها لؤلؤة صغيرة ، وعرفت أنها سر ماهو فيه من مرض الطفل ، ولم أتمالك نفسي من أن أقول «لعزيرو» في غيظ : أمن أجل هذا العارض التافة تجرد خيلك ورجلك على أشهر أطباء « أزمير » ليساق إليك كالمقبوض عليه في رحلة شاقة مضنية ؟! . إن هذه القطعة الصغيرة من العظم في فم ولدك هي التي أنشأت في جسمه هذا الانفعال الذي أجمعتم على أنه مرض مخيف.. وهي مع ذلك شيء طبيعي في منطقة الفم لكل الأطفال ، وهم جميعًا يحسون الإحساس نفسه ويألمون الألم ذاته عندما تأخذ طريقها للظهور لأول مرة، وربما كانت مضاعفات هذا الإحساس عند ولدك شبيهة بمضاعفات الحمى، أو لعلها كانت الحمى نفسها ، ولكنها على أية حال في طريق الزوال الآن، أما الطعام الذي كان يخرجه فسببه فيما أرى أنكم تتخمون معدته بلبن دسم يجاوز طاقتها ويزيد على حاجتها فتلفظه بدافع الشعور الطبيعي الكامن ، ولا شيء في هذا ، وأرى أن الوقت قد حان لفطامه ، وعلى «كيفتيو» أن تنظم له غذاء خاصا خفيفا، وتمنعه عن ثديها. فإنه ، على ما يبدو، طفل عصبي سريع الغضب كأبيه ، ولا يبعد أن يدمي ثديها بقرضات أسنانه !.

وما كاد «عزيرو» يسمع هذا ويرى بعينه سن ولده حتى انفجر مبتهجا وأخذ يعدو في الحجرة ويثب هنا وهناك وهو يرقص ويغني ويصفق بيديه، وكذلك «كيفتيو» متهللة فرحة، وهي تنظر إلى فم الطفل وتقول إنها لم تر مثل جمال هذه اللؤلؤة في فم طفل آخر.. ثم حاولت أن تعيد الملابس الصوفية لتلف الطفل فيها فمنعتها من ذلك ، وطلبت نسجا من الكتان فلففته فيه .

ولم ينقطع «عزيرو» عن رقصة وغنائه ممعنا فيهما كما لو كان قد أصابه مس ، واجتمع أفراد حاشيته وضباطه ، وتوافد في أثرهم حراس الأسوار ، ليروا ماذا حدث لسيدهم حتى تبدل من حال إلى حال !.. وعندئذ دعاهم ، في فرح بالغ، إلى أن يروا بأعينهم اللؤلؤة التي نبتت في ثغر ولده ، فالتفوا حول مهد الطفل بدروعهم وحرابهم متنافسين على شهود هذه اللؤلؤة الجديدة، مظهرين سرورهم وإعجابهم ،

وقد حاولوا أن يضعوا أصابعهم على قذارتها فى فم الطفل ليلمسوها ، فوقفت فى وجوههم ومنعتهم من أن يفعلوا وأمرتهم أن يخرجوا فى الحال من الغرفة ، ونبهت «عزيرو» إلى ما ينبغى أن يكون عليه فى مثل هذا الموقف من الاحتفاظ باتزانه ووقاره، ولكنه قال فى سذاجة: قد أكون - حقا - نسيت نفسى وأحدثت هرجا فوق المألوف ، ولكن ما أكثر ما قضيت من ليال ساهرا متوجع القلب بجانب طفلى هذا ! .. يجب أن تعلم يا « سنوحى» أنه ولدى الأول وولى عهدى وجوهرة حياتى وقرة عينى ، وسيحمل فوق رأسه يوما ما تاج « عمورية » ويحكم أقواما كثيرين ، وإنى لأعمل جاهدا على أن تكون بلادى مملكة عظيمة، فماذا يكون أمرها إذا لم يكن لى ولد يلى حكمها ويخلفنى فى رئاستها ، ويمتد به ذكرى ومجدى فى مستقبل أيامها؟! . ولهذا فإنى أراك قد أسديت لى فضلا سأحفظه لك ما حييت ، إذ أحييت فى نفسى أملا عزيزا كان قد مات ... وإنك لترى أن ولدى هذا جدير بأن يكون خليفتى فى الملك .. انظر إليه جيداً ، فهل رأيت فى كل ماطفت من بلاد طفلا فى مثل ظرفه وجماله؟! وهل رأيت فيمن رأيت من أطفال العالم شعرا كثا كشعر رأسه وهو بعد لا يزال فى مهده ؟ ! إن كل شىء فيه ليدل على العظمة والسمو والجمال ووثاقة البدن ، حتى سنه الأولى لتبدو فى فمه نادرة المثال ليس كمثلها فى أفواه الأطفال سن !..

وضقت صدرا بهذه الثرثرة الحمقاء ، ورغبت إليه فى أن يكف عنها لأنى مجهد من الرحلة الشاقة .. فربت بيده على كتفى ، ودعانى إلى حجرة أخرى حيث قدم لنا طعام شهى، مختلف الألوان ، فى أطباق من فضة، وشربنا النبيذ فى أقداح من ذهب، حتى شعرت بالراحة والانتعاش ، ومن ثم تجاوزت عن حماقته، أو لعلى قد نسيتها ! ..

وبقيت فى ضيافته بعد ذلك أياما ، كنت فيها موضع تكريمه وحفاوته. وقد أهدى لى الكثير من النفائس الذهبية والفضية. ومما أثار ملاحظتى أن ثروته زادت زيادة كبيرة عما كانت عليه عند مقابلتنا السابقة . وعندما أردت استدراجه لمعرفة أسباب

هذه الزيادة التى تبدلت بها حال بلاده من فقر إلى غنى ، لم يزد سببا واحدا سوى الحظ ، الحظ السعيد الذى حالفه منذ أن تزوج من «كيفتيو» التى أهديتها إليه.. وكان يقول هذا وهو يتهلل ضحكا ويشرق سروراً ، تعبيرا عن عواطف المحبة التى يختص بها فى نفسه هذه الزوجة مصدر الخير والنعمة دون زوجاته الأخريات من بنات زعماء القبائل ، اللائى كان زواجه منهن قائما على ضرورة تحالفه مع آبائهن ! ..

وفى مبالغة ظاهرة ، كانت «كيفتيو» تبدى نحوى احتراما وودا ، وتقبل علىَّ دائما لتحيينى فى ابتسام وغبطة ، وتتحدث إلىَّ عما هى فيه من ثراء وعز ووافر سعادة ، مما لم يكن يخطر من قبل على بالها، داعية لى بالخير لأنى كنت السبب فى هذا ، وكنت مطمئنا إلى صدق شعورها ، وإن كنت فى شك من أنها قد نسيت عصاى التى طالما ألهبت ظهرها !.. ولكن لا بأس عليها من تذكر عصاى ، فهذا خليق أن يشعرها بلذة ما صارت إليه بعد ذلك من متاع ورغادة، وبضدها تتبين الأشياء ..

وكان «عزيرو» فيما عدا الحديث المفضل عنده عن ولده وزوجته «كيفتيو» لا يفتأ يحدثنى مفاخرا عن عظمته كملك على بلاد عظيمة !.. مشبعا بذلك غروره ومحاولا أن يرسم فى ذهنى – وقد علم أنى كثير الرحلات والأسفار – أنه خير من رأيت من ملوك، وأن بلاده خير ما رأيت من بلاد . وفى غمرة زهوه وغروره ذكر لى أشياء كثيرة مما كان ينبغى أن يحرص على كتمانها ، ولا ريب فى أنه قد ندم على ذلك فيما بعد » وقد عرفت منه أن الرجال الذين اعتدوا على فى « أزمير» وكادوا يقتلوننى إنما هم من رجاله الذين أرسلهم إلى هناك ، وأنه قد علم منهم أنى لم أبرح بعد «أزمير» ، فأرسل فى طلبى لإنقاذ ولده، وأخذ يعرب لى عن أسفه لما حدث ، معتذرا بأنى لم أكن مقصودا لشخصى ، ولهذا فإنهم نفضوا أيديهم منى عندما بان لهم أننى «سنوحى» صديقه .. واستطرد قائلا : فى الواقع إن رءوس الكثير من المصريين تهتز الآن لتهوى عما قريب مهشمة ، وإن الكثير من الجنود المصريين سيجدون فى البحر متسعا لأجسادهم المتراكمة حينما يلقى بهم جميعا إليه ، وسيحدث هذا قبل أن تفرغ « أزمير» و « بابل » و «صيدا » و « غزة » من

مشاوراتها ، لاعتقادها بأن المصريين ليسوا على ما يهول من البأس والشدة ، وأن أمرهم أهون من أن تخشاه هذه المدن مجتمعة ، ولا يتطلب الأمر إلا زعيما قويا يقود الثورة ، ويشعل الهمم ، ويؤجج المشاعر ، وينير الطريق أمام الناس . فالتجار السوريون أهل حرص وحذر ، يخافون على أموالهم ومتاجرهم ، وأمراؤهم مثلهم، بل هم أشد حرصا وخوفا على سلطانهم ، ومن وراء هؤلاء وهؤلاء عامة الناس، لهم مثل قوة الثيران ، ولكنهم كالثيران أيضا لا يتحركون إلا في مقادة ولا يخطون خطوة بغير زمام.. فلا مناص إذن من ذلك الزعيم المرتقب !..

قلت ، وقد عرفت مرماه : ولماذا يقع هذا يا « عزيرو » ؟! وكيف أصبح المصريون عندك بهذه المنزلة من البغض والكراهية ؟ ..

قال في ابتسامة ماكرة : ومن قال إني أكره المصريين يا «سنوحى» ؟! كلا ، إننى لا أكرههم ، وربما لا أستطيع أن أكرههم لأنى نشأت فى بيت « فرعون » الذهبى ، كما كان أبى ، وكما كان بقية الأمراء المصريين ، وهناك تعلمت أن الشعوب جميعا سواسية في طباع الشجاعة والجبن ، والقسوة والرحمة ، والفضائل والرذائل على وجه عام . وقد بدت هذه الطباع جلية أو صارخة، في مصر وسوريا على درجة سواء ، وكما يحدث في غيرهما من الأمم ، فهما مستهدفتان حتما للقطيعة بعد وصل، والعداوة بعد حب ، ولا يكون هذا بدعا فى الحياة ، فالأيام دواليك، يوم لك ويوم عليك.. وتسليما بهذه الحقيقة التى ينبغي أن نؤمن بها ، يصبح الوضع بالنسبة لى على غير ما تتصوره ، فأنا لا أكره المصريين، وإنما أستخدم شعور الكراهية سلاحا للوقيعة بين «مصر» و« سوريا» ، وأنه لسلاح أشد فعلا وفتكا من سائر الأسلحة الأخرى عندما يكون الأمر متصلا بتأليب الجماعات وتحويل قلوبها ودفعها إلى هدف معين ، وما غايتى التى تبررها هذه الوسيلة إلا تحرير « سوريا » من سيادة « مصر » ، وهى غاية كبيرة عظيمة ترخص فى سبيلها أية تضحية ، ولهذا فإنى عامل ، جهدى على اشعال الفتنة بين المملكتين ، ولن أكف عن ذلك حتى يتحقق الانفصال بينهما ، أما عنصر هذه الفتنة

ومساكها فهو تصوير المصريين في كل مدن سوريا ومجتمعاتها بأنهم جبناء قساة ، طامعون مفسدون فى الأرض ، وهكذا حتى يهيج فى الجميع شعور الكراهية للمصريين فيتمردوا عليهم ، ويثوروا ضدهم . والكراهية دافع قوى يزحزح الجبال !..

قلت له ، وأنا أخفى استنكارى وضيقي: ولكن هذا الذى تصف به المصريين ليس حقا ، وأنت أكثر من غيرك علما بذلك ! ..

ولكنه هز كتفيه استخفافا ، وزم شفتيه استياء ، وقال : أى حق يا « سنوحى» ؟! ومتى كان حقا لمصر أن تحكم «سوريا» ؟! ومتى كان حقا لها أن تمتص دماء السوريين !! إنه ليس من الضرورى أن يكون كل ما نصف المصريين به صحيحا ، فإنما هو ، كما قلت ، وسيلة إلى غاية تباح فى سبيلها كل الوسائل . والحق الذى لا يؤمن السوريون بحق سواه ، هو أنهم أحرار يحبون الحرية ، أكثر مما يخافون الموت والجوع ، وإنهم ليبذلون فى سبيلها أغلى ما يملكون من مال وأرواح .. إن فكرة الحق الجديدة التى أدعو إليها وأجمع الناس عليها ولن أدعهم حتى يؤمنوا بها جميعا، هى أن «مصر» احتلت « سوريا» بالحديد والنار والدماء ، وأن إجلاءها عنها لن يتحقق إلا بالوسيلة نفسها : الحديد والنار والدماء ؟! ..

قلت له : ولكن ما هى تلك الحرية التى ستدعوهم إليها وتستحثهم للفناء فيها ؟!.

فرشقنى بابتسامة لطيفة ، وقال : الحرية كلمة مؤثرة ذات سحر ، ولكنها تختلف فى الناس أثرا ومعنى ، كاختلاف النغمة الواحدة فى آذان مستمعيها وأذواقهم ، وهى فى سائر الأحوال أمنية عزيزة محببة ينشدها الجميع، ويسعون إليها ، ويتقاتلون من أجلها ، ولكنها حينما تخلص إليهم الجهد لا تستطيع أن تحيا فيهم على أقدار متساوية ، فمن الخير لها أن يحتفظ بها أقوامهم ، لتظل فى يده مصونة مكتملة عناصر القوة، وإنى لواثق من أن أرض « عمورية» هذه ستسمى فى يوم قريب مهد الحرية، فالعموريون بأسرهم يطلبونها ، ويتنافسون فى نيلها ، وهم وإن

كانوا ، كغيرهم من الأمم التى تؤمن بكل كلام يقال لها ، أشباه قطيع من الأغنام يملأ الطريق متكاثفا ، إلا أنهم عندما يلى أمرهم قائد قوى بصير يصبحون قافلة من الأسود ، وأرى أنى أنا ذلك القائد المختار ...

قلت له : يا صديقى « عزيرو» .. إنك لا تدرى أى كلام خطير يدور على لسانك !. فلو أن « فرعون » قد سمعه ، لأرسل على الفور جنده وحرابه وعجلاته الحربية لقتالكم وهدم أسواركم ، ثم تساق أنت وابنك إليه ليعلقكما ، ورأساكما إلى أسفل ، فى مقدمة سفينته الحربية وهو عائد إلى «طيبة» ..

قال « عزيرو» دون أن تفارق الابتسامة وجهه : أما من ناحية « فرعون » فإنى لا أرى خطراً يتهددنى ، فقد تلقيت من يديه رمز الحياة ، وأقمت معبدا لإلهة ، وهو يثق بى أكثر مما يثق بأى شخص آخر فى سوريا ، بل أكثر من سفرائه وضباط حاميته الذين يعبدون «آمون» ... ومع هذا فإنى أريد أن أريك شيئا قد تجد فيه تسلية وترفيها ! ..

وقادنى إلى الأسوار حيث رأيت جثة آدمى عارية ، تيبست وهى معلقة فى الهواء من أعقابها وقدل تهالك الذباب عليها ، وقال لى وهو يشير إلى الجثة مزهوا . انظر من قريب ... فسترى من ختان هذا الرجل أنه مصرى ! .. وقد كان جابيا من جباة « فرعون » سولت له نفسه أن يناقشنى فى أسباب تأخرى عاما أو عامين فى أداء « الجزية » ، وفاته - لفرط جهله وغروره - أن اللحوم ليست كلها صالحة للأكل !.. فكان جزاؤه كما ترى ، ولا يزال معلقا هكذا دليلا على أن المصريين لم يعد لهم هنا ذلك السلطان القديم ، وصار محققا أنهم لا يستطيعون القدوم إلى بلاد « عمورية» ، حتى لو جاءوا فى جماعات قوية، وقد شاع هذا الشعور فى الناس جميعًا ، فالتجار أصبحوا لا يدفعون شيئا من الضرائب لجباة «مصر» ، وإنما يدفعونها لى أنا عن يد وهم صاغرون . ولعلك مدرك واقع الأمر حينما تعلم أن مدينة «مجدو» قد صارت تحت سلطانى ، تدين لى بالطاعة والخضوع ولم يعد

لرجال الحامية المصرية فيها كلمة تطاع ، بل إنهم ليلوذون بحصونهم على خوف وترقب ، ولا يجترئون على الظهور فى شوارع المدينة .

فقلت له فى فزع واستنكار : إن دم هذا الرجل المسكين ليقع على رأسك .. ولئن استطعت أن تنكل به على هذه الصورة الوحشية لأنه وحيد بين جندك وقومك ، فما أحسبك مستطيعا أن تدفع غدا عن نفسك الجزاء الحق الذى يعدل فعلتك النكراء ، فإن « مصر » قد تتسامح فى أى شىء إلا أن يقع الاعتداء على جباة ضرائبها ! ..

وكان الرجل مغروراً ، فأردت أن أنبهه إلى أن مصر بثرائها وقوتها أعز وأمنع من أن يطاولها مثله ، فما يزيد شأنه على القربة التى يملؤها الهواء فتبدو شيئا ضخماً ، ولكن وخزة صغيرة فى أحد أطرافها تحيلها فى لحظة خاطفة إلى لا شىء !..

ولكنه اشتط فى غروره عندما قطع الحديث ضاحكا ملء شدقيه وقد انحسرت شفتاه عن أسنانه الذهبية التى كان لا ينى عن إظهارها والإدلال بها ، ثم أمر بمزيد من الشواء فجىء به على أطباق من الفضة ثقيلة الوزن .. وكأنما أراد أن يظهرنى بهذه الطريقة ، على مبلغ ثرائه وكفايته !..

وكانت الحجرة التى اتخذ منها ديوانا لإدارة أعماله محتشدة بالألواح الطينية ، ولم ألق لها بالا . ولكنه عامدا ، راح يذكر لى أنها ملأى بالمخابرات السرية عن جميع مدن « سوريا » ، ومن بينها رسائل من ملك الحيثيين ومن « بابل » فهو لا يجهل شيئًا من أسرار تلك البلاد ، وعيونه المنبثة هنا وهناك لا تخفى عليها خافية ، وقد بدت فى حديثه رغبة خاصة ليسمع منى كثيرا عن بلاد الحيثيين ، ولكننى لاحظت أنه يعرف عنها أكثر مما أعرف ، فقد كان سفراء الحيثيين يزورونه وبينهم وبين ضباطه ورؤساء قبائله وشائج وصلات ..

وكان الموقف واضحاً . فهذا الملك يسير على سياسة التحالف مع الآخرين لتكون ثمة جبهة قوية منهم للتحرر – فيما يزعمون – من سلطان المصريين .

قلت له تعقيبا على هذه السياسة التي لم يعد ينقصها الانكشاف والوضوح : من السهل أن يتحالف الأسد وابن أوى في سبيل اقتناص فريسة ، ولكن ليس من السهل بعد اقتناصها أن يقتسماها . وعلى افتراض أن الأسد سيرضى عندئذ بمقاسمة ابن آوى ، فهل تحسب أنه معطيه شيئًا أكثر مما يتفلت من بين شدقيه وهو يلتهم الفريسة ؟!

وعاد «عزيرو» إلى ضحكاته ، وراح يداورني ، مجريا الحديث معي في مجرى المخادعة ، فقال : إن غايتي العظمى مما ترى إنما هي البحث عن كل جديد ، وهي فيما أعلم الغاية نفسها التي تجرى أنت وراءها !.. إني أشعر دائما بأن لذة الحياة ليست إلا في الاستزادة من المعلومات والمعارف ، ولهذا كان بي ظمأ شديد إلى الاحاطة بكل ما يقع في العالم من أحداث وأمور ، على أنك أوفى مني في هذه الناحية حظًا ، فأنت حر طليق كالعصفور يتنقل خفيفًا من مكان إلى مكان ، ومن جو إلى جو ، متى أراد ووقتما شاء ، أما أنا فمثقل بأعباء الحكم ومسئولياته الكبيرة ، وهي تقيدني وتستغرق كل وقتي .

واستطرد يقول : وأنت « يا سنوحي» قد علمت بالطبع أن لدى الحيثيين أسلحة حديثة ، إلى ما توافر لهم من مهارة وقوة تجربة ، أفلا ترى أنه من الخير أن نستفيد هنا بضباطهم في تدريب زعماء قبائلنا على فنون الحرب ؟! ... وقال مستدركا : إننا حينئذ نستطيع أن نكون من القوة بحيث نؤدي لفرعون خدمات كثيرة إذا ما نشبت حرب ، وإنك لتعلم أن «سوريا» ، وهي بلاد قوية المراس ، تعد درع « مصر » ، ومع ذلك فمالنا ولهذا الآن ! .. فلندعه إلى وقته ! ..

وأثارتني عبارة : « إذا ما نشبت حرب » ، فذكرت لفوري « حورمحب » ووجوب عودتي لمصر ، فقلت : لقد استمتعت بضيافتك وقتا طويلا ، وسأذكر دائما أنه كان وقتا طيبا ، والآن أرجو أن تهيء لي محفة تحملني إلى « أزمير » ، فإني لم أعد أقوى على السفر فوق هذه العجلات المزعجة التي أوثر أن أضرب بالهراوة والسوط على أن أركبها . ومن يدري ، فقد لا نتلاقى قريبا ، أو ربما لا نتلاقى أبدا ، فإنني لن

أبقى فى « أزمير » ، فقد أصبحت بالنسبة لى فى وحشة القفر ، وحسبى « منها ذلك الزمن الذى قضيته فيها ، وحسبى من أهل «سوريا» ما أصبت من أموالهم ، فما أرانى محتاجا بعد إلى إطالة المكث بينهم ، ولهذا فإنى عندما أعود إلى «أزمير» سأبحر منها إلى «مصر» ، فقد استحر شوقى إلى مياه النيل الحلوة ...

قال « عزيرو » : إن القلق البادى فى عينيك ينبئ بأنك لا يمكن أن تستطيب المقام فى مكان واحد ، وكم أود لك الاستقرار ، فإنه أجدى عليك من هذه الحركة الشتيتة المضطربة ، التى تشبه حجر الرحى ، يدور ويدور ، ولا يعلق به شىء مما يطحن ! ..

وأمر أتباعه فجاءوا بالمحفة ، وزودنى بهدايا كثيرة ، وودعنى وداع الصديق للصديق ، ورافقنى حراسه لحمايتى مما يتعرض له أى مصرى فى ذاك الوقت ، فلم يدعونى حتى بلغت «أزمير» .

على أنى وأنا أخطو من باب « أزمير » أطلق فوق رأسى سهم لو أنه انحرف قليلا لأصاب منى مقتلا ، فاضطربت لهذا اضطرابا شديدا ، وأسرعت إلى منزلى وقلت « لكابتاح » أول ما وقع عليه نظرى : اجمع متاعنا ، وتصرف بالبيع فى هذا المنزل ، فإننا عائدان إلى « مصر » فى الحال ...

- ٣ -

وعلى ظهر السفينة التى تبحر بنا إلى « طيبة » ، أخذت أغدو وأروح بين أكوام من لفائف الأمتعة وأكياس البضائع ، لا يكاد يقر لى قرار ، فالحنين إلى « طيبة » - مهد طفولتى ومغنى صباى - كان يستبد بى حينذاك ، وشوقى إليها كان يعلو فى نفسى على كل ما سواه ، وكنت ما أزال أحس برائحة « أزمير » تختلط بأنفاسى كأنها تأبى إلا أن تلاحقنى وأنا مرتحل عنها ، ولكنها كانت فى الواقع تهيج عندى ذكرى وطنى وتستحثنى على العودة إليه ، فما أشد ما سئمت هذه الشواطئ

الصخرية الجرداء ، وما أكثر ما تمنيت أن تبدلنى بها الآلهة تلك الأرض الطيبة المرعة التى ليس كمثلها فى بقاع الأرض خصب وازدهار ونماء زروع ..

كان تفكيرى كله متجها إلى « مصر» ، وطنى الحبيب ، حتى إن السفينة حينما ألقت مراسيها على آخر ميناء فى الساحل السورى لم أجد فى نفسى أية رغبة فى التأمل والاستطلاع بغية الحصول على ما قد يكون هنالك من جديد أتزود به فى اللحظة الأخيرة من هاتيك البلاد ، ذلك على الرغم من أن مظاهر الحياة التى شهدناها فى وقفتنا بهذا الميناء كانت تغرى بإطالة النظر والذهاب بالفكر إلى أعماقها . فالربيع كان قد انعكس على وديان «سوريا» فبدت التلال المتناثرة على مبعدة من الشاطئ فى لونها الأحمر الذى يشبه لون النبيذ، وعلى مشارف الميناء كان زبد الماء يضطرب ويتدافع ثم ينحسر فى ألوان من الخضرة الشفافة ذات الجمال ، وخلال هدير الموج كانت تترامى على آذاننا أصوات الجموع المتكاثفة على الشاطئ من بائعى الأسماك وتجار السلع الأخرى ومستقبلى الهابطين من السفينة ومودعى الصاعدين إليها ، ومع أصواتهم أخلاط من أصوات الحيوانات ومنها الحمير المتجمعة هنالك استعدادا للركوب وحمل الأثقال . وفى هذا الزحام ، وفى هذه الضوضاء ، كنا نسمع كذلك أصوات كهنة « بعل » مجلجلة فى الأزقة الضيقة ، حيث يخدشون وجوههم بالسكاكين حتى تسيل منها الدماء والنسوة يتبعنهم بعيونهن وشعورهن المسدولة وهن يدفعن أمامهن عربات يد خشبية ..

ولكن أين أنا من كل هذا ؟ ! .. وما حاجتى إليه ؟ ! إنه لا جديد فيه ، وقد رأيته كثيرا حتى سئمته . وإنى لأشعر ، بأن شيئا مما عشت فيه من مختلف العادات والتقاليد والمعتقدات وبين مختلف الأقوام والأجناس والبلدان ، لم يعد يثير فى نفسى شيئا من الاهتمام . لقد كان هدفى من هذه الرحلة على طولها هو كشف الأسرار وجميع المعلومات والاستزادة من المعرفة، وربما اقتضانى هذا الهدف أن أندمج فى الحياة الغريبة التى عاشرت فيها أقواما غرباء، ولكنه كان اندماج الذى يمثل دورا فى قصة ، فإذا انتهى الدور عاد إلى حقيقته وأصالة عنصره ، وذلك هو شأنى وأنا أولى

وجهي شطر بلادي .... فأفكاري وعواطفي كلها متعلقة بالأرض السوداء التي طال بعدي عنها ، واشتد شوقي إليها ، وكانت تلك الأفكار والعواطف منصرفة إلى آفاق كثيرة حاشدة بالحقائق والأحلام والأماني ، كانت تحلق بي إلى « طيبة » وأزقتها ، فأستروح فيها روائح الأسماك عند إقبال المساء تنبعث من النيران التي توقدها النسوة أمام أكواخهن الطينية ، وتذكرني ، إلى هذا ، بالنكهة الحلوة المذاق من نبيذ « مصر » ، ومياه النيل ممزوجة بطميها المخصب ، كما تذكرني بالنسائم المعطارة تنفثها - خلال حفيف أوراق البردي - أزهار « اللوتس » المتفتحة على الشاطئ ، ثم شذا الطيب شائعا في الجو بين أعمدة المعابد المزينة بالصور الملونة ، ولهذا تجردت من كل فكرة وكل عاطفة أجنبية ، ونضوت عن جسمي ملابس الغربة حتى أعود مصريا على حقيقتي ..

كانت تلك هي حالي وجماع شعوري ، ناسيا أني عائد إلى وطن ليس لي فيه دار ، حيث عانيت الأهوال فيه ما عانيت ، حتى كنت أعيش فيه وكأني غريب عنه ، ولكن الزمن ، وأخطار الرحلة ومغامراتها فيما كنت أدعوه تحصيلا للمعرفة ، قد تراكمت ، كالرمال ، على ما يثقل قلبي من هموم قلبي الماضية ، فلم أعد أشعر من ذكراها بما هو خليق أن يثير في نفسي الأسى والخجل .

وتابعت السفينة سيرها ، تستحثها المجاديف كأنها تستجيب إلى لهفة قلبي وفرط حنينه ، أو كأنها تمضي هي الأخرى هاربة من بلاد أكثر ما فيها البغض والقلق . وما كادت تقترب بنا من شواطئ « سيناء » الحمراء ، حتى أحسسنا رياح الصحراء تهب علينا حارة على الرغم من جو الربيع الذي كان ينشر فيما عداها هواء لطيفا ونسيما عطرا ، ولكنها الصحراء القوية الجبارة مرسلة دائما على طبيعتها الثائرة ، غير مقيدة بنظام الفصول وأجوائها ! ..

وفي صباح يوم تال ، استيقظنا فرأينا مياه البحر قد اتشحت باللون الأصفر ، وعلى غير بعيد من الشاطئ بدا لنا شريط من الأرض مزركش بالخضرة ، والإيراق

وألقى البحارة في الماء جرة ثم استعادوها ملأى فشربوا وشربنا منها ماء حلوا .. لقد كان من مياه النيل ، ولهذا كان في فمي أحلى مذاقا من شراب النبيذ ! ..

واهتزت جوانحي غبطة واستبشارا لبلوغنا أرض الوطن العزيز .. غير أن « كابتاح » لم يكن يشاركني هذا الشعور ، فقد قال فيما يشبه السخف والبلاهة : وماذا في ماء النيل إلا أنه ماء ؟! والماء في كل مكان وفي كل معدة ، هو الماء .. فدعنا ياسيدى من هذا الخيال وتريث حتى نعرج إلى حانة يكون صاحبها رجلا شريفا ذا ضمير يقدم لنا الجعة صافية يتوجها الزبد اللطيف ، ولا تشوبها قشور الحب التي كثيرا ما كنا نريقها على الأرض ، تخلصا منها ، في بعض حانات التجار غير الشرفاء !.. فإذا لم نشرب هذه الجعة الصافية في حانة الرجل الشريف ، فلن نشعر بأننا ، حقيقة ، أصبحنا في أرض الوطن ..

قلت له ، متضايقا من سخفه وبلاهته : بل يجب أن تتريث أنت أيها الأحمق حتى أجد العصا لإقناعك ، فبغيرها لن تفهم أو تشعر ، ذلك لأن الرقيق هو الرقيق ، وإن ارتدى مثلما ترتدى أنت الآن من ملابس صوفية رقيقة .

فلم يزعجه منى هذا التهديد ، ولكن دموعا طفرت من عينه فبادر إلى تجفيفها وقال هو ينحني أمامي : في الواقع يا سيدى ، إنك أوتيت موهبة ممتازة تلهمك الكلام المناسب ، في الوقت المناسب ... فلقد كدت أنسى لذة وقع العصا الرفيعة على الساق أو الظهر ، وإني إليها لفي شوق شديد .. وقد لا تعرف مدى لذتها إلا إذا تهيأت لك تجربتها عمليا ، ولهذا أنصح لك بهذه التجربة .. فسترى أنها أكثر إمتاعا من الماء ومن الجعة ومن شذا الأزهار ، ومن منظر البط البرى وسط حشائش البحيرات ، وسترى أنه ما دام مطلوبا من كل إنسان منا أن يلزم مكانه ويقف عند حده ، فإن الضرب بالعصا - إذن - أصدق تعبير عن حياتنا الواقعية ، وإلا فشت الفوضى واختلت الصفوف واضطرب النظام ! .. ولقد جددت عندى ذكرى هذه العصا ، فشرحت صدرى وأبهجت خاطرى ، فلك ثنائي وشكرى ، ومرحى بعصاك التي تردني

إلى الماضي الحبيب ، إلى حيث أعود فأندمج في حياتي بمصر ، وطني ، ومهوى فؤادي ، بعد الذي قاسيت في غربتي الطويلة من غرائب ومزعجات ! ..

قال « كابتاح » هذا وهو يصطنع الجد والتأثر ، ولكنني كنت موقنا من أنه ، على عادته ، يداجيني في دهاء ، ويخلط السخرية بالسذاجة ، استدرارا للفكاهة والمرح ، فأشحت عنه غير معقب على حديثه ، بينما أخرج هو جعرانه لينظفه ويجلوه ، وقد لاحظت أنه لم يعد يستعمل في ذلك ، الزيت الجيد الذي كان يستعمله من قبل ، فلم يدهشني منه أنه أصبح لا يحتفل بالجعران المقدس ، فقد كان يقترب من أرض الوطن ، وهو إنما يحتاج إلى الجعران في الغربة البعيدة ، ولهذا كانت عنايته به تضؤل وتقل بمقدار دنوه من الساحل المصري ! ..

وعندما رست السفينة على شاطئ المملكة السفلى ، وشهدنا من قرب عمال الميناء وحماليه المصريين بملابسهم التيلية ووجوههم السمراء وذقونهم الحليقة وحركاتهم الخفيفة ، أحسست كأني قد تخلصت من عبء ثقيل ، فالواقع أني كنت قد ضقت صدراً بالملابس السورية ذات الألوان الزاهية وبوجوه السوريين المكسوة باللحى غزيرة الشعر ، وبأبدانهم المنبسطة المترهلة ! ..

وبعد أن أنجزت إجراءات الميناء ووقعت لموظفيه على كثير من الأوراق ، مضيت على عجل، فاشتريت ملابس جديدة من نسيج الكتان وارتديتها ، إذ كانت أكثر ملاءمة لجسمي من بقايا الملابس السورية المنسوجة من الصوف ، وأبى « كابتاح » إلا أن يظل مرتديا ملابسه السورية لاعتقاده أن اسمه لا يزال مقيدا في قائمة الأرقاء الهاربين ، وهو يخشى لو استبدل بملابسه ملابس مصرية أن تشي به وتدل عليه فيقع في الشر الذي يفزع منه . وعبثا حاولت أن أنبهه إلى أنه لا موضع للخوف من ذلك بعد أن ظفرت له بشهادة مسجلة على أحد الألواح الطينية من سلطات « أزمير» بأنه من أرقاء سوريا المولودين بها ، ذلك لأن الخوف كان يركبه إلى حد بعيد !..

وانتقلنا بأمتعتنا إلى قارب صغير استأنفنا الرحلة به في مياه النيل ، وقضينا أياما كنا نوغل خلالها في صميم الحياة المصرية ، فعلى جانبي النهر كانت الأرض

السوداء الطينية تتجمل بأشجار النخيل والجميز والتوت ممردة باسقة، تتدلى ثمارها وأوراق غصونها ، وتنشر ظلالها على الأكواخ فى القرى المتناثرة ، وهنا وهناك أنعام وثيران تجر المحاريث وتثير بها الأرض وتدور دورانا متصلا على موارد الماء لتدفع به فى القنوات والمسارب . والطيور ، محلقة فى الجو أو متعلقة بأغصان الشجر أو متجمعة على الأرض تلتقط غذاءها ، كانت إذ ذاك تغرد تغريدا تطرب له النفوس الحزينة ، وتنتشى له القلوب الآسية .

ومررنا فى رحلتنا النيلية هذه على كثير من البلاد ، وكنا نتلبث بها بعض الوقت ، ولكنها كانت خالية من الحانات التى كان يطمع « كابتاح » فى أن يجد بها كأس من الجعة المصرية التى اشتد ظمؤه إليها ، كما يطمع أن يجالس فيها ناس على مائدة شراب ليقص عليهم شيئا من قصصه الغريب ... وقد ساءه ألا يجد ، طوال أيام عدة ، حانات ولاجعة ولا رفاق شراب ! ..

ولاحت لنا أخيرا التلال الثلاثة التى تقوم مقام الحارس على مدينة «طيبة» من الناحية الشرقية ، ولاحت بعدها المساكن المتجاورة ، من القرى الفقيرة إلى الضواحى الغنية ، ثم بدت فى وضوح أسوار « طيبة » عالية شاهقة ، فرأيت سقف المعبد الكبير وأعمدته والمنازل المحيطة به التى لا تكاد تحصى عددا ، وكذلك البحيرة المقدسة ومدينة الموتى فى الناحية الغربية ممتدة بعيدا إلى التلال ، ووسط منحدرات الرمال الصفراء كان يبدو المعبد الذى يثوى فيه الفراعين ، ساطعا ببياض لونه . وخلال صفوف الأعمدة بمعبد الملكة العظيمة كانت تظهر الأشجار المزدهرة وارفة الظلال . وقريبا من التلال كنت ألمح الوادى المحظور وأتخيله بحياته وأفاعيه . وإلى جوار قبر فرعون العظيم كانت ترقد إلى الأبد جثتا أبى «سنموت » وأمى « كيفا » ، وقد تمثلا فى خاطرى حينذاك كأنهما يهتفان بجرمى ويلعنان ما خفى من إثمى .. وبعيدا إلى الجنوب على الشاطئ برز بيت فرعون الذهبى ، فخما وسط أسواره وحدائقه . وهنا سألت نفسى : أيكون صديقى « حورمحب» لا يزال مقيما فيه ؟ !..

وخرجنا من القارب عند مرسى حجرى معروف ، ولم أجد شيئًا قد تغير . وهذه هى الشوارع التى قضيت فيها طفولتى ما زالت على حالها . وقد جاشت حيالها ذكريات مؤلمة ، فما كان يخطر ببالى قط وأنا أمرح بين أفواف طفولتى أننى سأكون سببا فى القضاء على حياة أبى وأمى ، ومن هذه الناحية تحركت أشجانى القديمة التى حسبت أن الزمن قد محاها من صدرى ، فإذا هى تنتفض قوية ، وتثور متقدة ، كأنها وليدة الأمس ، وخيل إلى ساعتئذ أن الدنيا بكل من فيها وما فيها أياد تشير إلى استنكارا وسخطا ، فتمنيت لو أن لوجهى غطاء أتخفى به عن الناس ، وأستر به جريمتى وخجلى ! ..

وبدد هذا الشعور فى نفسى كل ما كنت أشعر به من غبطة لعودتى ، فلم يتفتح قلبى للمدينة الكبيرة ، التى كان ضجيجها يتردد فى أذنى ، كما لو كان دقات مطارق على الحديد المصهور .

ولم أكن قد رسمت خطا أسير عليه عند عودتى ، تاركا هذا إلى ما سوف يسفر عنه لقائى « لحورمحب» ومعرفة مركزه ومدى قوته فى القصر . غير أنى بعد وصولى إلى الميناء وبعد أن تزاحمت فى رأسى الذكريات والأفكار ، قررت أن يكون خط سيرى المرسوم متجها إلى خدمة المرضى الفقراء ، وأن تكون حياتى بينهم ألوانا من البساطة والسلامة واستخدام التجارب التى نضجت فى نفسى ، ولا يعنينى بعد هذا شىء مما كنت أفكر فيه من شهرة وثروة وهدايا سخية لقاء المعلومات الهامة التى ندبت لها واحتملت العناء فى سبيل جمعها .

وقلت «لكابتاح » ونحن لما نبرح الميناء بعد : دع متاعنا فى القارب ، وامض على عجل فاشتر لى منزلا قريبا من هذا الميناء ، وليكن بالذات فى حى الفقراء ، وعلى مقربة من دار أبى قبل هدمها .

وبدأ على « كابتاح » أنه لم يفهم ماذا أعنى بهذه المفاجأة ! .. فما معنى أن نحتجز الأمتعة بالقارب ، وأن أبقى أنا إلى جوارها ، بينما أرسله بمفرده ليشترى دارا فى مكان معين ؟! ..

فصرخت فى وجهه أستحثه على الذهاب قائلا : لن أبرح مكانى حتى تعود ، وليكن هذا سريعًا ، لننتقل من هنا رأسا إلى الدار الجديدة ، وفيها – من الغداة – أباشر عملى كطبيب .

ولم يرق هذا له ، لأنه كان يعتقد أننا لأول عودتنا إلى « طيبة » سنهبط على خير ما فيها من فنادق حيث يجد مقاما طيبا ، ومتاعا وافرا، وخدما من الأرقاء يأتمرون بأمره . ولكنه ، وقد رآنى أنحو نحوا آخر ، وأقرر ، فى إصرار ، قرار مضادا ، لم يستطع الاعتراض وذهب عنى وهو يكظم الغيظ وخيبة الأمل .

وعاد مع مغرب الشمس لينبئنى أنه اشترى منزلا كان يملكه تاجر نحاس ، فى حى الفقراء ، غير بعيد من الميناء . فانتقلنا إليه بأمتعتنا ورأيت عن كثب ، النيران الموقدة أمام أكواخ الفقراء ، وشممت رائحة السمك الذى ينضجونه على النيران تنتشر متكاثفة فى أجواء ذلك الحى البائس المريض . وبعد قليل أضيئت المصابيح فى واجهات دور المباذل وترامت على آذاننا نغمات الموسيقى السورية مختلطة بصراخ البحارة ، وتراءت السماء من فوق « طيبة» مشوية بالاحمرار ، أو هكذا يخيل إلى الناظر ، لكثرة ما ينعكس هنا وهناك من الأضواء الكثيرة فى أحياء المدينة .

وهكذا ، عدت إلى وطنى وقومى ، بعد طواف طويل مضن فى أنحاء شتى من العالم ، جمعت فيه ما استطعت من معرفة .

– ٤ –

وقلت «لكابتاح» فى صباح اليوم التالى : نحن الآن فى حاجة إلى لافتة ، نضعها على باب المنزل معلنة عنى كطبيب ، فاذهب لشرائها ولتكن لوحة بسيطة بلا نقوش أو زخارف ، وإذا سألك أحد عنى فلا تذكر شيئا مما تعودت أن تغلو فيه عن قدرتى وشهرتى ، ولا تزد على قولك إن « سنوحى الطبيب » يستقبل المرضى ، وإن الفقراء والأغنياء عنده سواء ، ولا يتقبل الهدايا من أى منهم إلا على قدر ما يطيق .

ومرة أخرى اعتاده الضيق والبرم ، فالتعامل مع الفقراء وإظهار الزهد في الهدايا ، أمر لا يرى فيه سوى خيبة أمل ، فقال : ياسيدى ما أراك إلا في عافية ، فلم تشرب من مياة المستنقعات ولم يلدغك ثعبان .. فما هذا الذى لا يقوله إلا مريض مسموم تعبث برأسه الحمى ؟!.

فقلت له في حزم : لا تجادلنى !.. بل اصنع ما تؤمر إذا كنت تريد البقاء معى . وإذا كان هذا المنزل المتواضع ، والتعامل مع الفقراء يغضان من قدرك ، ويحدان من كبريائك السورى فأنت من الآن حر طليق ، تستطيع أن تذهب عنى إلى ما تراه أجدى عليك وأوفق لمكانتك العظيمة ! .. وأظن أن في مقدورك الآن أن تشترى منزلا وأن تتزوج فما أكثر ما سرقت من مالى ! ..

فأجاب «كابتاح» متخاذلا : لا شك في أنك ياسيدى على حق فيما تقول وفيما تأمر ، وكان يجب أن أفهم أن الرأى الذى يصدر عن مثل عقلى لابد أن يكون رأيا واهنا بالنسبة للرأى عن مثل عقلك الكبير ، ولكنى مع هذا لا أستسيغ منك ياصاحب العقل الكبير أن ترانى أهلا للزواج ! ربما كان صوابا أو قريبا من الصواب أن أشترى دارا ، ولكن مالا صواب فيه ، بل ما لا يستطاع تحقيقه أن تكون لى زوجة ! فما أحسب في النساء امرأة تطيق معاشرة زوج مثلى يعيش يومه كله بالمدينة الصاخبة ، فإذا عاد إليها مع الليل متأخرا كما هى عادته ، فاحت عليها من فمه أنفاس هى أكره ما تكون إلى حاسة الشم عند المرأة ، وإذا أوى إلى فراشة أوى إليه مترنحا مسلوب الإرادة ، فلا يكاد يلمسه حتى يسترسل في نوم عميق ، فإذا كان الصباح استيقظ مصدوع الرأس متراخي الأعصاب متأوها كأنه مضروب بالسياط ! .. إن زوجته التى قضى عليها أن تكون عشيرته على تلك الحال لن تستقبله إلا بالعصا ، وبالمختار المنتقى من العبارات الفاحشة!.. فدع هذه الفكرة ياسيدى ، وخاصة بعد الذى لقيته من المشقات والأهوال في أسفارى معك ، ولكننى في الوقت نفسه أرى أن مستقبلى قد ارتبط بمستقبلك، وحياتى توثقت بحياتك ، فلست أستطيع البعد عنك ، ولهذا فسأبقى إلى جانبك ، مشتركا معك فيما تلقاه من حلو

الحياة ومرها ، وخيرها وشرها . ولئن كان البؤس والكآبة يحيطان بنا ، فليس معنى هذا أن نفنى فيهما ، فإن لكل شيء في هذا العالم مخرجا ، وسنجد بلا ريب متنفسا من حالتنا هذه ، في الحانات وبيوت الملذات القريبة . وهذه هي حانة « ذنب التمساح » منا غير بعيدة ، وأرجو أن تأذن لي في أن أقضي بها يومي هذا لعلي أستعيد فيها نفسي التي فقدت أكثرها وأحسن ما فيها ، فيما مر بنا من أحداث ، وفيما احتملنا من شقاء ، ثم لعلي أجد في هذه الحانة أيضًا عزاء يملأ قلبي من أسى وحزن لاختيارك حي الفقراء مركزًا لعيادتك !.. فمن هو ذلك الإنسان العاقل الحصيف الذي يخفي الجوهرة وسط أكوام من القاذورات كما تفعل أنت الآن بدفن مهارتك وفنك في هذا الحي التافه الحقير ؟! ..

فقلت له : ماتزال يا « كابتاح» بعيدا عن الحكمة ، محتاجا إلى من يفرك لك أذنك ليقول لك: إن كل الناس سواء في مصدر وجودهم ، وهم كذلك سواء في نهايتهم على هذه الأرض ، فهل رأيت إنسانا لم يخرج إلى الدنيا عاريا ، وهل ثمة إنسان يخرج من دنياه بشيء ؟! فلماذا تكون التفرقة إذن ؟! على أنه في المرض بنوع خاص لا فرق بين الغني والفقير ولا بين المصرى والسورى ... هذا هو القانون الإنساني الذي يجب أن يدين به الطبيب !..

قال « كابتاح » في شيء من الرزانة والأناة : الأمركما تقول ياسيدى ، ولكن ما علاقة هذه الحكمة العالية بالهدايا التي يحملها المرضى إلى الطبيب؟! إنهم يجيئون بها مختارين ، وهي تختلف طبعًا باختلاف مقدرتهم وإمكانياتهم ، غير أنهم حينما يرون في طبيبهم هذا الزهد والتواضع والاستعداد للعلاج بغير أجر ، فإنهم جميعا لن يفكروا في تقديم هدايا ، والقليلون الذين يخجلون من العلاج بالمجان لن تكون هداياهم ذات قيمة والواقع أن أفكارك تحمل طابعا إنسانيا كريما ، وقلما يستطيع الإنسان أن يعترض عليها ، ولكن الواقع أيضًا أن أحدا سواك من الأطباء لا يسير على هذا الطريق ، فلماذا تنفرد بهذه الأفكار الجديدة، وفي استطاعتنا أن نتأرجح على أشجار من ذهب ؟!..

قلت له : من العسير علينا فيما يظهر أن نتفق على الهدف الذى أرمي إليه بخطتي هذه ، ولن أفرغ من تعليقاتك وأسئلتك فيما يضيق عقلك عن إدراك كنهه من تصرفاتي ، فلست أدرى مثلا ماذا أنت قائل حينما أخبرك بأنني أشتهى أن أعثر على طفل ضال منبوذ ، فأحتضنه وأتبناه ؟! ..

ولم يتمالك «كابتاح» نفسه فصاح متسائلا في دهشة : ولماذا يكون هذا يا سيدى ؟! إن هناك في المعبد بيتا لأمثال هذا الطفل الضال المنبوذ .. هناك كما تعلم بيت اللقطاء، وفيه يجدون مالم يكونوا بالغى شيئا منه في بيوتهم التى نبذتهم ، ومنهم من يصيرون بالتنشئة الصالحة كهنة ، ومنهم من يخصى ليعيش عيش الرفاهية والترف في حريم فرعون أو النبلاء .. ومع ذلك، فما أيسر أن تجد الطفل الضال المنبوذ الذى تريده إن كنت جادا فيما تقول ... ولكنى لا أفهم ، واعذرنى إن كنت لا أفهم ، ما هو الخير في أن تشغل نفسك بهذا الطفل الذى يجد مكانه دائما في بيت اللقطاء بالمعبد ؟! فإن كنت قد ضقت بالوحدة ، فمن الممكن أن تشترى فتاة من الرقيقات ، وهى في رأيي أجدى علينا من طفل يملأ البيت تعبا ، فالأطفال متعبون على أية حال ، والسعادة المتخيلة من وجودهم مبالغ فيها كثيرا ، ذلك .. في حين أن فتاة تشتريها ، ستحمل فوق كتفيها الكثير من أعبائنا ، فهى ستضطلع بشئون خدمتك، وتطهو طعامك وترتب أثاث منزلك ، وإننا في الواقع لفى أشد حاجة إليها ، فقد أصبحت لفرط ما عانيت ، مجهد الساقين ، مختلج أعصاب اليدين ، وأشعر بأنى لم أعد أستطيع وحدى القيام بهذه الأعمال . فهذه الفتاة التى أرجو أن تشتريها من اليوم ، لن تخفف عنى عبء الخدمة فحسب ، بل إنها كذلك ستعطينى الفرصة لخدمتك في مجال آخر أكثر أهمية ، وهو مجال عملك وتثمير أموالك.

قلت له : أما شراء هذه الفتاة التى تريدها فأمر لم يخطر لى على بال ، ولن أفعله ، على أنى لا أبى عليك أن تستأجر خادما يرفع عن كتفيك أعباء خدمتى ، فذلك حقك على . وإذا شئت بعد هذا أن تبقى معى ، فأنت حر غير مقيد بتكليف معين ، تغدو وتروح كما يروق لك ، فأنت مخلص أمين ، وأعتقد أنك عندئذ ستوافينى

بمعلومات قيمة مما تسمعه من الناس فى اختلاطك بهم . وإذن فلا تجادلنى فيما ليس لك به علم ! .. وكل الذى يجب أن تفهمه هو أننى إذا أمرتك أمرا فعليك أن تنفذه مستسلما فإننى أصدر فيه عن دافع داخلى يند عليك إدراكه ، كما لا أستطيع أنا نفسى مقاومته .

وتركت « كابتاح » يضرب فى حدسه وتخمينه وفلسفته ، وخرجت لأبحث عن أصدقائى ورفاق صباى ، وألمت بحانة « الجرة السورية» لعلى ألقى فيها « تحوتمس» ، ولكن صاحب الحانة الجديد قال لى إنه لا يعرف شيئا عن صاحبى الرسام الفقير البائس الذى يعيش من رسم القطط فى كتب الأطفال الأغنياء !.. فمضيت إلى الثكنات الحربية باحثا عن «حور محب» ، ولكنى ألفيت المكان مقفرا، وليس فى الساحة الأمامية مصارعون ولا أحد من حملة الحراب ، كما لم أجد شيئا من القدور التى طالما رأيت البخار معقودا عليها خلال طهو الطعام تحت السقيفة المعدة لذلك .

ولاح لى ، غير بعيد ، جندى من الشردانيين ، فدنوت منه فلم يتحرك ولم يتكلم ، ولكنه كان يأخذنى بنظرات جامدة وهو يضغط على مقدمة حذائه فى الرمل ، وكان ضامر الوجه بادى العظام ، فسألته عن «حور محب» قائد قوات فرعون ، والذى كانت له مقادة الحرب المشبوبة من سنوات على العبريين فى «سوريا» ، فما أن سمع باسمه حتى انحنى أمامى وأجابنى فى لهجة مصرية مشوبة باللكنة : إنه لا يزال على مكانه من قيادة القوات الحربية ، غير أنه منذ شهور فى رحلة إلى بلاد « الكوش»، حيث يعمل هناك على تسريح الحاميات وإجلاء سرايا الفرسان من الخدمة ولا يعرف أحد متى يعود .

ورثيت لحال هذا الجندى الذى كان يخيم عليه البؤس ، فناولته قطعة من النقود الفضية ، فزال عنه عند ذاك كبرياء الشردانيين وومضت فى وجهه الباهت ابتسامة عريضة ، وأخذ يدعو لى بأسماء آلهة مجهولة ، واستوقفنى عندما هممت بالانصراف وأشار بيده المعروقة الواهنة إلى ساحة الثكنات وقال : إن « حورمحب» قائد عظيم يفهم الجندية ويقدرها وهو شجاع بنفسه ، ويحب الشجاعة فى جنوده ، وقد عرفناه أسد العرين ، فى حين لم نعرف فى فرعون إلا أنه « تيس » بلا قرون ! .. ومن هنا

استحالت الثكنات إلى ما ترى من الإقفار والخراب ، فلا جنود فيها ، لأنه لا أجر ولا طعام ، ورفاقى يجوبون البلاد الآن متسولين ، ولا أحد يدرى ما سيكون بعد ذلك ، وليباركك « آمون » ويجزيك عنى خير الجزاء ، فإنك حقا لرجل كريم ، وهذه النقود التى منحتنيها قد هدهدت نفسى المثقلة بالكآبة والهم ، فإنى من شهور كثيرة لم أذق طعم الخمر ولم أجد سبيلا إلى جرعة واحدة منها تطفئ لهيب ظمئى ... لقد تركت وطنى موعودا بالفضة والنساء والشراب ، فهكذا يعد المصريون أمثالنا ترغيبا فى الجندية ، فلما صرت جنديا ، صارت حالى إلى ما ترى ، فلا فضة ولا نساء ، ولا شراب ، ولا عمل !..

قال هذا وبصق على الأرض تعبيرا عن بأسه واشمئزازه ، وأدركت أنا من حديثه أن «فرعون» قد أبطل عمل الجنود ففصلهم من الخدمة ، وقرر تسريح جنود الحاميات المصرية التى كانت فى خارج البلاد لعهد أبيه .

واتجه فكرى فى هذه اللحظة إلى « بتاحور » العجوز ، ووددت لقاءه ، فاستجمعت شجاعتى وقصدت إلى « دار الحياة » فى معبد « آمون » لأعرف مكانه من سجلات المعبد ، ولكن كاتب السجلات هناك قال لى إن «بتاحور » لأكثر من عام مضى يرقد فى مدينة الموتى . وهنا شعرت بمرارة الوحدة فى «طيبة» ، فليس لى فيها الآن صديق ! .. وبدا لى وأنا فى المعبد أن أجول به متحسسا الحياة التى فارقته عليها من سنين بعيدة، فمضيت إلى بهو الأعمدة الذى تشع منه أضواء « آمون » المقدسة ويفوح شذى البخور حول أحجار أعمدته الملونة المتعددة النقوش ، والطيور المحومة ، تغدو وتروح بين فتحات النوافذ ، ولكن حال المعبد اليوم كانت غير حالة بالأمس ، فإنى رأيته يكاد يكون خاليا . وكذلك كانت ساحته الأمامية ، حتى الحوانيت والمصانع التى تقوم فى أنحائه والتى كانت من الكثرة بحيث لاتحصى عددا ، ولم تعد تنبض إلا نبضا ضعيفا خافتا ، هو نبض المساومات القليلة فى البيع والشراء ، وهؤلاء الكهنة ذوو الرءوس المقصوصة الشعر الملتمعة بالزيت بعباءاتهم البيضاء ، كانوا على غير العهد بهم ، تعلو عيونهم وحركاتهم مسحة الخجل والحياء ، والقليلون من الناس

الذين رأيتهم يضطربون فى الساحة الأمامية، كانوا يتكلمون فى همس ، ويتبادلون النظرات الزائغة الحذرة كأنهم يتقون أمرا مخيفا ، وعلى الجملة كان الصخب والضجيج والحركة الجهيرة ، التى ألفتها فى هذا المعبد لعهد الطلب والتى كانت كعصف الرياح خلال الغابات ، قد انقلبت الآن إلى ما يشبه سكون الموت .

وإنى وإن كنت لم أشعر فى دخيلة نفسى يوما بحب « أمون » ، إلا أنى مع ذلك أحسست بغير قليل من الأسى لهذا الذى يلوح من تبدل الحال فى معبده ، فلا شك أن أحداثا كبيرة قد أدالت من قوة سلطانه ، والإنسان بطبعه مجتذب إلى ذكريات شبابه ، خيرا كانت أوشرا !..

وفى طريقى إلى الخارج - سائرا خلال الأعمدة وتماثيل الفراعنة الفخمة - وقع نظرى على معبد جديد ، أقيم ملاصقا للمعبد القديم ، وهو عجيب فى ضخامته وفى رسم بنائه ، لا تقوم حوله أسوار ، والأعمدة التى تحيط بفنائه مكشوفة ، وقد رأيت على مذبحه مجموعة من هدايا الحبوب والأزهار والفاكهة ، وضعت تحت أقدام تمثال منحوت يمثل « أتون» وهو يرسل أشعته على « فرعون » الذى يقدم له القرابين ، وكل شعاع ينتهى بيد البركة التى تمسك رمز الحياة ، وكهنة هذا المعبد يرتدون أيضا الملابس البيضاء ، ولكن رءوسهم لم تكن حليقة ، وأكثرهم من الشباب تفيض وجوههم بالبشر الروحى وهم ينشدون الأناشيد المقدسة التى كنت قد سمعتها فى المعبد الذى أقيم «لآتون» فى «أوروشليم » وكان أكثر تأثيرا فى النفس والشعور ، من هؤلاء الكهنة والتماثيل والنقوش ، تلك الأعمدة الأربعون الضخمة التى صاغ النحت على كل منها صورة « فرعون » الجديد ، وقد بدا كأنه يحدق فى وجه الناظر إليه وذراعاه مضمومتان إلى صدره ، وإحدى يديه ممسكة بعصا الراعى والأخرى بصولجان الملك .

كان نحت صورة « فرعون » على هذه الأعمدة دقيقا محكما ينبئ بمهارة ذلك الناحت الفنان ، فإنه قد أبرز فرعون الجديد كما كنت قد رأيته بعينى رأسى ، بملامح

وجهه العاطفى وأردافه العراض وساقيه الضامرتين ، وذراعيه الرفيعتين ، بل لقد كانت هذه الأجزاء الظاهرة من جسم فرعون الجديد ، تلوح مجسمة على الأعمدة حتى ليحسب من يراها أنها عيوب صريحة فى تكوين الجسم المرسوم . ولا شك أن الفنان صانع هذه التماثيل قد أوتى الشىء الكثير من الحرية الجريئة فى إبراز هذه العيوب غير المتناسقة ، وهنا ذكرت صديقى « تحوتمس» ، فما أعرف فى صانعى التماثيل فنانا سواه له مثل هذه الجرأة فى تجهير الصور على حقائقها الأصلية ، حتى لو كانت لفرعون العظيم ... إنه لم يخف شيئا مما كان مفروضا أن يخفيه عن الأعين من صورة « فرعون » ، بل لعله قد غالى فى إظهار الفخذ المنتفخة على الساق الضامرة ، والقدم الضاوية كالمعلقة فى أسفل الساق ، والعنق ممتدا فى عصبية تحت وجه مستطيل ، والحاجبين على خط منحرف متعرج ، وعظام الخدين متكشفة ناتئة ، وعلى هذا الوجه العجيب أضفى ابتسامة غامضة تحلق على شفتيه الغليظتين تشبه ابتسامة الحالم المستغرق فى نومه ! .. إنها فى الحقيقة دقة فنية رائعة تتجلى فيها الحرية والجرأة ، وهى من صفات « تحوتمس » وحده فيما كنت أعلم ، فأين هو الآن يا ترى ؟! ..

ولقد كان اختلاف مظاهر المعبدين واضحا مستوقفا للنظر ، دافعا للتأمل ، ففى معبد «أمون» يرى الإنسان تماثيل الفراعنة على جانبى الأعمدة يحف بها الجلال الإلهى ، والعظمة الرهيبة . وفى معبد «آتون» يقوم تمثال فرعون الجديد مكررا على أربعين عامودا ! .. وناظرا خلالها إلى مذابح « آتون » مطيلا فى النظر إليها كأنه ينفذ بعينيه إلى أعماق بعيدة لا تصل إليها عيون غيره من الناس ، وهذه التماثيل فى مجموعها ، وفى أوضاعها ، تنم عن مشاعر دينية مغرقة فى التعصب !..

وأثرت فى نفسى تماثيل فرعون الجديد « أمنحوتب الرابع » ، فقد كانت هذه أول مرة أراها فيها ، ولم أستغرب أن تقام بالمعبد على هذا النحو ، فهو يؤثر الحقيقة المجردة ويعزف عما يعتقد أنه أكثر أو أقل منها وما أراه إلا راضيا عن هذه التماثيل حين ينظر إليها لأنها تمثله على حقيقته ، وتمثل إيمانه بالإله الجديد الذى يعبده ويدعو

إليه ، ذلك لأني لقيته وهو فتى صغير ، كان يومئذ مريضا منهكا ، ولكنه كان يرسل الحديث طويلا عن الإله الذى تكشف له ، فلم أنظر إليه حينذاك إلا نظرة الطبيب إلى مريض ، ولم ألق بالا إلى أشياء كثيرة كان يتحدث عنها ، فقد حسبته مخلوطا فى عقله يهذى هذيان المجنون .. فالذى أراه الآن من معبد جديد وتماثيل جديدة وطقوس دينية أخرى ، ليس إلا نتيجة لمقدمة شهدتها بنفسى من سنين طويلة .

على أن معبد «آتون» لم يكن يوجد فيه إلا قليل من الناس ، وبعضهم ، كما تدل ملابسهم الكتانية والجواهر التى يتزينون بها ، من النبلاء ورجال الحاشية الملكية ، أما سائرهم من عامة الناس فقد كانوا يسمعون أغانى الكهنة ولا يلوح عليهم أثر من فهم وإدراك ، فقد كانت عبارات الإنشاد غريبة على أسماعهم ، مختلفة اختلافا كبيرا عن التراتيل التى ألفوها وفقهوا معانيها ، والتى كانت ترتل بالمعابد طوال ألفى عام مضت ، أى منذ أن شيدت الأهرامات .

وحدث بعد أن انتهت هذه التراتيل غير المفهومة ، أن تقدم رجل عجوز من القرويين إلى الكهنة وسألهم فى احترام أن يبيعوه تميمة تقيه الشر ، وعينا تدفع عنه الحسد ، أو ورقة مكتوبا عليها بعض عبارات السحر تصرف عنه السوء !.. ولكنهم ردوه قائلين إن شيئا مما يطلبه لا يباع فى معبد « آتون » ، إذ إنه لا يستخدم السحر ولا يقبل الهدايا أو القرابين ، وإنما هو يمنح البركة بلا مقابل لأولئك الذين يؤمنون به . ورأيت الرجل العجوز ينقبض لمقالتهم وينصرف مهمهما بكلمات تعبر عن عدم تصديقه لهم ، ثم يتجه إلى باب معبد « أمون » فيدخل إليه ...

وتقدمت إلى الكهنة كذلك امرأة متقدمة فى السن من بائعات السمك ، وسألتهم قائلة : ألا يمكن لأحد أن يتقدم بالقرابين من خراف وثيران إلى « آتون » لتطعموا من لحومها أيها الفتيان الضعاف المهازيل ؟! وإذا كان إلهكم أشد من « أمون » بأسا وقوة – وإن كنت أنا لا أعتقد ذلك – أفلا كان يجدر بكهنته أن يكونوا ذوى قوة وبدانة لتكون حياتهم سعيدة مرفهة ؟! . أقول هذا وأنا المرأة الساذجة التى لا تعرف

مثلما تعرفون ، ولكنى أود من كل قلبى أن تتوافر لكم اللحوم والطعام الدسم لتكونوا أنضر عافية وأبسط أبدانا ! .

وتضاحك الكهنة من قولها ، وتهامسوا فيما بينهم ، ولكن كبيرهم اصطنع الوقار والاتزان وقال لها : إن « آتون » الرحيم يأبى أن يتقرب الناس إليه بالضحايا مسفوحة الدماء ، ولا يجوز لك أن تذكرى « آمون » فى هذا المعبد ، لأنه إله زائف ، وعرشه يتهاوى ، وعما قريب سيصبح معبده خرائب وأنقاضا !..

فتراجعت المرأة إلى الوراء مروعة فزعة ، وبصقت على الأرض مستنكرة ، ثم رسمت بيديها صلوات الاستعاذة والتقديس « لآمون » وصاحت قائلة : إن « آمون » ليعلم أنكم أنتم الذين تقولون هذا ، ولست أنا! .. فلتنزل عليكم لعنته .. وهرولت خارجة وتبعها آخرون كانوا يسمعون حوارها وهم ينظرون، من فوق أكتافهم فى خيبة أمل ، إلى هؤلاء الكهنة .

وفى صوت عال هتف الكهنة بهم قائلين فى سخرية : اذهبوا – إذن – ياضعاف الإيمان ، ولكن اعلموا أن «آمون» إله زائف ، وسيزول سلطانه مثلما تزول الحشائش تحت المنجل الحاصد ، ولتعلمن نبأه بعد حين !..

وعندئذ التقط أحد الذاهبين قطعة من حجر وقذف بها الكهنة ، فأصابت أحدهم فى وجهه وأسالت دمه فصرخ متأوها ، وبينما كان الكهنة الآخرون يهتفون بالحراس ليقبضوا على المعتدى ، كان هذا يركض فارا بنفسه ثم غاب مختلطا بالزحام المتكاثر حول أعمدة معبد « آمون » ..

وأثار فكرى كل الذى رأيت وسمعت ، فتقدمت إلى الكهنة وقلت لهم : إنى مصرى لحما ودما وروحا ، غير أنى كنت بعيدا عن « مصر » سنين طويلة عشتها فى « سوريا » ، وقد عدت أخيرا لأجد هنا هذا التحول فى العبادة ، من « آمون » إلى « آتون » ، فلست أعرف من قبل شيئا عن إلهكم الجديد ... ألا تتفضلون بإيضاح

مالا ينبغي أن أجهله من أمره ؟! فمن هو ؟! وما شريعته التي يريد أن يقيم الناس على جادتها ؟! وما هي طقوس عبادته ؟! .

ولعلهم حسبوني واحدا من أولئك الذين يسخرون منهم ، فترددوا في الجواب ولكنهم بعد أن تأملوا في وجهي طويلا ، أجابوا قائلين : إن « آتون » هو الإله الواحد الأحد ، خالق الأرض وكل ما فيها وكل من عليها من نهر وإنسان وحيوان ، وهو مبدع الكون كله ، والوجود بأجمعه ، أبدي لا يزول ولا يحول ، وكان قبلا يعبد في صورة « رع » ، ولكنه أخير تجلى على حقيقته وباسمه لابنه المختار « فرعون » الذي يحيا بالإيمان ويعيش بالحق والصدق ... إن «آتون » هو الإله الأوحد ، وليس غيره من الآلهة إلا خرافات وأوهاما !.. فهو لا يصد عنه قاصدا ولا يفرق بين إنسان وإنسان ، فالفقراء والأغنياء سواء عنده ، ونحن نحييه في كل صباح ، وهو يتجلى في قرص الشمس مرسلا أشعته المباركة على الأرض لتحيا بها وتزكو، وبها يمنح الحياة لكل فرد ، وهو حي لا يموت أبدا ، لايحد وجوده مكان ولا زمان ، فهو موجود في كل مكان وفي كل زمان ، ولا شيء يقع في هذا الوجود الواسع الفسيح بغير إرادته ، وبقوته وبركاته التي يمد بها « فرعون » يستطيع « فرعون » أن يرى ما في قلوب الناس ويستشف ما خفي من أفكارهم .

قلت لهم معترضا ، دون أن أشعر : إن « فرعون » بهذا لا يكون من البشر .. فما يقع في طوق إنسان أن يعرف ما في صدور الناس ويطلع على المستتر في قلوبهم ! ..

فتبادل الكهنة الرأي فيما بينهم ، وقال صاحب الحديث منهم : إن « فرعون » نفسه لا يريد أن يكون أكثر من إنسان، إلا أننا لا نشك في أنه قد صيغ من جوهرالألوهية ، فما أكثر الذين قد شهدوه في أحلامهم موجوداً ، في وقت واحد ، بأنحاء شتى من الأرض ، ولا يكون هذا إلا لمن يمتون للآلهة بأقوى الصلات ، ومن هنا صوره الفنانون على هذه الأعمدة في شكل رجل وامرأة معا ، رمزا إلى أن « آتون » هو صانع النطفة في أصلاب الرجال ، ليخلق بها الأجنة في أرحام النساء .

فما أن سمعت هذا حتى رفعت يدى ووضعتها على رأسى وقلت لهم فيما يشبه اليائس الساخر : الحق أننى رجل بسيط ، فى مثل بساطة تلك المرأة التى كانت هنا منذ قليل ، ولهذا لم أستطع أن أفهم جيدا معلوماتكم الجليلة . وقد لا أعدو الحقيقة إذا قلت إنكم أنتم كذلك لا تفهمونها جيداً ! . فإنكم لا تعطون جوابا عن سؤال إلا إذا تقابلت رءوسكم وتبادلتم الرأى والمشورة ! ..

فأجابوا بحرارة قائلين : مهما يكن من أمر ، فالحقيقة التى لا ينبغى الجدال فيها هى أن « آتون » مصدر الكمال ، وقد أوتى قرص الشمس هذا الكمال ، ولكن العقل البشرى مشوب بالنقص فهو كالضباب ، ومن أجل هذا فليس فى مقدورنا أن نوضح لك الحقيقة كاملة ، لأننا لانعرفها كاملة ، وإنما نحن نتلقى إرادة « آتون » يوما بيوم ، وإرادته لا تنكشف ولا تتضح إلا لفرعون ، ابنه ، الذى يعيش فى الإيمان به ..

واهتزت مشاعرى لهذه الكلمات ، فقد أحسست أن هؤلاء الكهنة يقررون بها الحقيقة التى تتقاصر دونها عقول البشر حتى لو كانوا كهنة ، وفى تقريرهم هذه الحقيقة تعبير عن إيمانهم وعجزهم أيضا ، فهم إذن لا يمتازون فى هذا السبيل عن أى من الناس إلا بملابسهم الكتانية وشعورهم المدهونة بالزيت وبهذه المظاهر التى تضفى عليهم قداسة فى أعين الرجال والنساء ، ولأول مرة أدركت أن عقل الإنسان ينقصه كمال الإحاطة والإبداع ، وأن من ورائه قوة لا تراها عين ، ولا تسمعها أذن ، ولا تمسها يد ، فهل ترى قد اكتشف « فرعون » وكهنته هذه القوة فسموها « آتون » ؟! ..

— ٥ —

وعدت إلى منزلى فى إقبال المساء ، وكانت تعلو بابه اللافتة البسيطة التى رغبت إلى «كابتاح» صباحا فى أن يشتريها . وفى فناء المنزل كان قليل من المرضى البؤساء يجلسون القرفصاء فى انتظار قدومى ، وكان « كابتاح » ينقل نظره فيهم ،

ضائق الصدر بهم وهو جالس تحت سقيفة الباب ، وفي يده غصن من النخيل يذود به عن وجهه الذباب المتكاثر الذي جاء مع المرضى متجمعا على ملابسهم القذرة ، ولكنه لم يكن قد نسي نفسه فقد كانت أمامه جرة مفتوحة من الجعة ! ..

وكان بين هؤلاء المرضى امرأة تحمل على ذراعيها طفلا هزيلا فأومأت إلى « كابتاح » أن يدخلها على قبل سواها ، ففعل . وكان خير دواء لها عندي هو تلك النقود النحاسية التي أعطيتها إياها لتشترى بها طعاما يمدها بالغذاء ، ويؤتيها القوة لتغذية طفلها هذا الرضيع الواهن وجاء بعدها أحد الأرقاء وكانت أصابعه قد تحطمت بين شقي رحى فاقمت ما نشز من عظامها ورددتها إلى مواضعها ، وأحكمت لفها باللفائف والضمادات ، وأعطيته شرابا مرطبا يرفه عنه وينسيه آلامه . وفي أثره دخل كاتب عجوز قد برز في عنقه تورم ضخم كأنه رأس طفل ، وكان الرجل لشدة ما يعانيه من ذلك جاحظ العينين ، خافض الرأس ، عسير التنفس ، فأعطيته مزيجا من عصارة أعشاب البحر ، وهو دواء عرفته في « أزمير » علاجا لمثل هذه الحال ، وإن كنت لم أتبين بالتجربة أنه الدواء الناجع لها ، وأخرج الرجل العجوز من خرقة كان يحملها قطعتي نقود نحاسية ، وقدمهما لي في خجل مستشفعا بفقره ، ولكني لم آخذهم وأشفقت على شعوره فزعمت له أني سأحتاج إليه في بعض الخدمات الكتابية ، فخرج فرحا بنقوده ! .. وأخيرا جاءت فتاة تعمل في بيت للملذات على مقربة من منزلي ، فسألتني علاجا لعينيها المصابتين بقروح تضايقها في عملها ، فنظفتهما ونفيت منهما القذى ، وأعددت لها سائلا عقاريا ، وأفهمتها طريقة استعماله غسيلا لعينيها إلى أن يزول آخر أثر من القروح . وهنا نهضت أمامي ناضية ثيابها عن جسدها كله ، فبدت عارية تماما ، ودنت مني لتعطيني من جسدها الشيء الوحيد الذي تملكه أجرا على علاجي . ولم أشأ أن أنكر عليها هذا العرض المبتذل ، حتى لا أزيد في آلامها ، فاعتذرت لها في رفق بأن علاجا هاما يحجزني الآن عن النساء !. وصدقتني وحمدت لي الحرص على مقتضيات العلاج .. ورأيت على جسدها العارى زوائد جلدية متقرحة في الخاصرة والبطن ، فدهنتها بالمرهم المخدر ، وبذلك لم تخل محاولتها من فائدة . ثم خرجت هي الأخرى مغتبطة سعيدة .

وانتهت عملية الكشف ووصف الدواء وتقديمه للمرضى دون أن أنال على ذلك شيئا يكفي لشراء ملح الطعام ، وكان « كابتاح » يهز رأسه ساخرا ، وهو يضع أمامي أوزة سمينة مجهزة على الطريقة « الطيبية » ، وهي تملأ طبقا قلما يكون له مثيل في أي بلد من بلاد العالم ، وقد اشتراها من أفخم حانة بين حانات النبيذ بالمدينة ، وكان قد وضعها في فرن المنزل ليحفظ حرارتها إلى وقت تقديمها للطعام ، فكانت لهذا ، شهية مغرية . وخلال تناولي الطعام كان « كابتاح » لا يغفل عن متابعة تقديم شراب النبيذ لي مصبوبا في دن زجاجية ملونة ، وكان شرابا ممتعا لأنه من نبيذ كروم « أمون » . ومن لحظة إلى أخرى كان « كابتاح » يذكرني متهكما بالربح العظيم الذي أصبناه في يومنا المدبر ! ..

ولكني لم أكن أفكر على طريقته من هذه الناحية ، فكم كنت في الواقع سعيدا بعلاج أولئك الفقراء المساكين ولو لم أنل منهم شيئًا ، بل لقد كنت بذلك أكثر سعادة مني لو كنت قد عالجت الأغنياء وكوفئت منهم بالقلائد الذهبية ... على أن اليوم لم يمض خاويا فارغا كما تراءى في عين «كابتاح» فإن ذلك الرقيق الذي جاءني مهشم الأصابع عاد إلينا بعد أيام ليبشرني بأنه قد برئ من العلة وعادت إليه حركة يده الطبيعية ، حاملا إلينا في الوقت نفسه جرة مليئة بالدقيق ! ..

وقال «كابتاح» مسترسلا في تهكمه : ما أشك ياسيدي في أن شهرتك تسير الآن مهرولة في كل مكان ، وتقرع أبواب كل بيت في هذا الحي . وما أن يطلع الفجر حتى يكون فناء هذا المنزل قد امتلأ بالمرضى ! . وكأنني أسمع في هذه اللحظة صياح المتسولين قائلا بعضهم لبعض : هلموا إلى بيت تاجر النحاس في زاوية الشارع ، فهناك طبيب يعالج المرضى بالمجان وبدون إيلام ، لعظيم مهارته ، ويعطيهم الدواء بلا ثمن ، لرقة قلبه ! .. وكذلك كأني بنساء هذا الحي يتنادين ليأتينك مسرعات ، قائلة إحداهن للأخرى : ما أوفر حظنا من السعادة بهذا الطبيب الكريم !. إنه يمنح النقود في سخاء للأمهات الفقيرات ... ويجري عمليات التجميل لفتيات دور الملذات ، ويصنع لهؤلاء وغيرهم الكثير من الخدمات ، ولا يتقاضى عن ذلك أجرا .. ولست أبعد عن

الحقيقة إذا تخيلت الجميع من رجال ونساء يتراكضون إليك ، ويتعجلون المثول بين يديك؛ لأنهم لا بد قد فطنوا إلى أنك ، أيها الطبيب الكريم المحسن ، لن تحبس أفضالك هذه على حى بعينه، ولا على أناس بذواتهم، ،إنما أنت متنقل بحسناتك وصدقاتك بين الأحياء والمجتمعات ، ليعم خيرك ويشيع فضلك بين الناس جميعًا ، فأهل هذا الحى إذن يأتونك زرافات ويقبلون عليك جموعا متكاثرة فى وقت واحد ، ليظفروا منك بحظوظهم من الخير قبل أن ترتحل عن حيهم ! .. ولكنهم جميعًا أغبياء حين يعتقدون أنك ستضيق بهم فى يوم قريب ، وسيحملك هذا الضيق على بيع المنزل وإخلاء العيادة والابتعاد عن حيهم إلى مكان آخر يعرفون السبيل إليه ، ذلك لأن الحقيقة التى لايدركونها - لغبائهم - هى أن بينك وبين الحظ السعيد عهدا يحمل إليك به الذهب الذى تريد ، وربما زاد على ما تريد ، فخزائنه ملأى دائما ، فما أنت بمحتاج إلى طلب المال فى أيدى المرضى ، وبالتالى فأنت لن تفكر فى الهجرة من حى أولئك الفقراء المناكيد ، فليتهم عرفوا هذه الحقيقة وأراحو أنفسهم من عناء التهافت عليك ، وأراحونا من هذا الزحام الذى قد يضجرنا منهم ، فتقل عنايتك بهم !.. ومع ذلك فليكثروا أو يقلوا ، فهذا غير مهم عندنا ما دام الحظ السعيد سيعطينا المال الكثير حيث أتولى أنا استثماره لك بخبرتى وواسع حيلتى، وسيكون فى استطاعتى أن أقدم لك فى كل يوم - إذا شئت - أوزة دسمة شهية ، ونبيذا معتقا نقيا من أفضل ما يتناوله العلية والأثرياء فى «طيبة» ، وما لنا لا نفعل ذلك والثراء لدينا مستفيض ، وينبوعه متدفق لا يغيض !! وليس بضائرنا بعد هذا أن يكون مقامنا فى هذه الدار المتواضعة ، وفى هذا الحى البئيس ، وبين هؤلاء القوم المتاعيس ، أليس ذلك هو الواقع ياسيدى ؟! ألسنا فى الحق نحيا الآن على هذا الحظ السخى الكريم الذى لا تراه أعيننا ، ولا تلمسه أيدينا ؟! فإن كان ذلك وهما وخيالا وسبحا فى جو الإحلام ، وهو ما أفزع منه وأخشاه ، فسيأتى اليوم الذى ترانى فيه أحثو التراب على رأسى ؛ لأنك اضطررت إلى بيع المنزل ، وإلى بيعى معه ، وقد لا يكون هذا اليوم منا بعيدا ! .. صدقنى ياسيدى ، إننى لشديد التطير من ذلك المصير الذى تتراقص نذره أمام عينى ، ومن أجل هذا أسألك أن تمنحنى الحرية التى وعدتنى بها ، امنحنيها مكتوبة على

الورق وليست كلمات يدور بها اللسان ، ولا تلمني على ذلك ، فإن كلمات اللسان ، يلحقها النسيان . أما الكلمات الموثقة بالأوراق ، والممهورة بخاتمك ، والمحفوظة بدار المحفوظات ، فهي الحجة التي أشعر في ظلها بأني حقا ، قد صرت حرا ، أغدو وأروح على ما أشاء وأشتهي . ثم إن ثمة سببا خاصا يبرر من ناحيتي هذا الطلب ، ولكني لا أريد أن أثقل عليك بذكره الآن ، فأنت مشغول ووقتك ضيق ... فلندع هذا الأمر إلى فرصة أخرى !..

وكنت أستمع إلى حديث «كابتاح» دون أن أقاطعه، مسترسلا في تناول طعامي من الأوزة الطيبة المذاق ، ومن شراب النبيذ ذي النشوة اللطيفة ، وكان جو هذا المساء ممتعا ؛ حيث كانت تهب علينا من الميناء نسائم رقيقة نستنشق فيها عبق أشجار السدر ، وإن كان لم يخل من روائح شواء السمك الذي ينضجونه ، على مقربة منا ، في النيران الموقدة هناك أمام أكواخ الفقراء .

وفي هدوء ، أومأت إلى «كابتاح» ليصب لنفسه نبيذا بكأسه الفخارية وقلت له : إنك حر يا «كابتاح» ، فما كنت معي خلال زمن طويل إلا رفيقا حرا ، وليس عبدا رقيقا . ولم أكن أدري أنك تجهل ذلك . ولو أنني كنت أنزلك مني منزلة العبيد ، لما صبرت على ثرثرتك التي لا تخلو في كثير الأحيان من جرأة وتجاوز للحد ، بين السيد ومولاه ... لقد عاملتك دائما معاملة الصديق ، وعاملتني أنت هذه المعاملة نفسها ، وقد أقرضتني يوما نقودك الفضية والنحاسية وأنت وقتئذ موقن بأنك لن تستردها ، ولا يكون هذا إلا بين صديقين ... على أني تحقيقا لرغبتك ، أؤكد لك منذ هذه اللحظة بأنك لم تعد رقيقا لي ، فكن طليقا يا «كابتاح» ، وكن كما شئت حرا سعيدا بحريتك . ومن الغد سأسجل لك هذا العتق في أوراق مختومة مني بخاتمين ، لا بخاتم واحد ، خاتمي المصري والسوري معا ... والآن فخبرني ، ما هي طريقتك التي ستسير عليها في استثمار أموالي والتي ستجعلني بها دائم الثراء، غير مستهدف للحاجة في يوم من الأيام ؟! ولقد كنت أمرتك بأن تودع الذهب بخزانة المعبد، فهل فعلت ذلك ؟! ..

فحدق فى وجهى بعينه الواحدة وقال : لا . لم أفعل . فقد رأيت من الحماقة أن أودع الذهب بخزانة المعبد، ، ولا غرابة فى ألا أطيعك فى هذا الأمر ، فإنك تعلم بأنى لم أطع لك من قبل أمرا يشوبه الخطل ، ففى سائر الأمور لا أفعل إلا ما يمليه شعورى الطيب نحوك . وأنا أقول هذا الآن مطمئنا إلى أنك لن تغضب لصراحتى بعد أن أعطيتنى الحرية المؤكدة ، ذلك إلى أنك لم تسرف فى شراب النبيذ ، فضلا عن أنى أخفيت عصاك اتقاء غضبك ، واجتنابا لما تدفعك إليه طبيعتك التى كثيرا ما تثور لأوهى الأسباب ، وهو للأسف عيب لم يبرئك منه الزمن . ويبقى بعد هذا أن تسألنى لماذا لم أنفذ أمرك الأخير ! .. فأقول لك وأنا أخشى عصاك التى لن يجديك البحث عنها : إن البلهاء هم الذين يودعون أموالهم فى خزانة المعبد ، ذلك لأن المعبد لا يدفع عنها فائدة كما هى الحال فى بيوت المال ولا يكتفى بذلك فيقتضى أصحابها الهدايا مقابل إخفائها وإقامة الحراس عليها ! .. ثم إن فى كلمة «إخفاء» هذه تجوزا ومخالفة للواقع، فإدارة الضرائب تحاط علما بالودائع التى تحفظ بالمعبد ، وعندما تتدخل إدارة الضرائب ، وهى تتدخل دائما ، تصاب الوديعة بالانكماش والتضاؤل على مرور الأيام ، إلى أن تستنزف آخر قطرة فيها !.. وهنا الخطأ الذى شاب أمرك ، ورأيت أنا ألا أشاركك فيه ... أما الرأى الصواب الذى ينبغى أن تؤمن كما أؤمن أنا به ، فهو إطلاق المال يتداول حرا فى الأعمال ، فيزداد ويربو ، لا أن يحبس هكذا حتى يتهلهل وتلقفه إدارة الضرائب . ولهذا فقد اتجهت هذه الوجهة ، وجهة تثمير أموالك فى الأعمال الحرة ، ورحت أتجول فى أنحاء المدينة، وأتصل بدوائر الأعمال ، وأتحسس الوسائل لتحقيق هذا الغرض ، وأخيرا اهتديت إلى أن خير وسيلة لذلك هى أن نشترى أرضا من أملاك «آمون» التى تقرر أن تباع لمن يشاء أن يبتاع ! ..

قلت له فى استغراب : ما أراك إلا مرسلا فرية أخرى من مفترياتك التى لا تريد أن تكف عنها ... فإن «آمون» لا يرضى أن تنقص أرضه شبرا ، بل هى تزداد بالشراء المتصل ، حتى أصبح يملك وحده ربع مساحة القطر المصرى كله ! .. وما يدخل منها فى حوزته لا يباح خروجه إلى أحد. فلست بمصدقك يا هذا ! ..

قال «كابتاح» وهو يملأ كأسه من قارورة النبيذ : كلا ياسيدى .. إن ما أقوله لك لهو الحق الذى لا ريب فيه ، وستعرف غدا أننى الصادق الأمين الذى لا يكذب ولا يفترى ، وقد يبدو غريبا عليك وعلى كثير مثلك أن أرضا من أملاك «أمون» تعرض للبيع كأى أرض مما يملكه عامة الناس . وأنا شخصيا قد ساورنى الشك حينما قيل لى ذلك ، ولكنى بوسائلى الخاصة المتميزة بالدقة والمهارة استطعت أن أكتشف أن هذا هو الواقع. ولك أن تثق تماما من أن «آمون» يبيع الآن من أراضيه ، يبيعها فى عجلة ، وبأثمان رخيصة . وكل مافى الأمر أنه يتحرى السرية التامة فى إجراءات البيع ، ويؤثر ألا يبيع إلا للموثوق بهم من أصحاب المال . ولقد باع فعلا مساحات كبيرة ، وجمع أثمانها التى تمثل أغلب الذهب الموجود فى مصر ثم كدسها فى قبوة . ولما كان معروفا أن «أمون» يملك من أراضى «مصر» أكثرها خصبا ، فقد رأيت من الحكمة ، والمال فى أيدينا ، أن نشترى جزءًا منها ، فالأرض الخصبة هى أفضل مجال لإنماء الثروة ، والمال فيها غير معرض لتقلبات الأسواق واضطرابات التجارة ، ولا يغيب عنك يا سيدى أن الرجل العاقل يستطيع حينما تكون له أرض زراعية أن يلحق بها كل عام ، وعقب كل فيضان ، أجزاء أخرى، ولا يكلفه ذلك سوى حسن التودد والتفاهم مع رجال المساحة ، ومعنى التودد والتفاهم هنا هو منحهم الهدايا ، وذلك أمر يسير !..

قلت له ساخرا : إنك تتحدث عن الأرض والزراعة كما لو كنت يوما تملك أرضا وتفلحها !..

فقال : لست غبيا حتى أزعم هذا ، فأنا لم أكن يوما صاحب أرض ، ولم أولد فى حقل ، وإنما ولدت ونشأت فى بيوت رفيعة العماد تطل على الشوارع المرصوفة . غير أن هذا لا يعنى أن كل من لم يكن له أرض زراعية أو يولد فى حقل ، لا يجوز له أن يشترى أرضا ليستغلها ، فما كل هؤلاء الذين يملكون الأراضى الزراعية بزراع أو فلاحين . فزراعة الأرض وفلاحتها ينهض بها الأجراء والأرقاء ومن هم فى حكمهم . وعلى هذا يمكنك أن تفكر فى الأمر باعتباره فرصة مواتية من الخير اغتنامها ، ولعلك

تريد أن تسـأل عن السبب الذى يدفع «أمون » إلى بيع أراضيه !.. ويمكننى أن أجيب عن سؤالك بأن السبب هو الفزع الذى يركب «آمون » من إله « فرعون» الجديد! ..

واستطرد «كابتاح» قائلا : ومع هذا ففكرة شرائنا أرضًا من أملاك «آمون» لم تزد عندى على مجرد خاطر من خواطر كثيرة تواردت على ذهنى خلال بحثى عن المشروعات التى نوظف فيها أموالك ، مطمئنين إلى أنها تؤدى ربحا مكفولا ومستمرا ، وقد يسرك أن تعرف الآن أننى، دون الرجوع إلى رأيك المتردد ، قد اشتريت لك عددا من أبنية الاستغلال فى المدينة ، وهى تتألف من حوانيت تجارة وبيوت سكن ، تدر إيرادا ثابتا مطردا . ولم يبق لإتمام هذه الصفقة الرابحة سوى توقيعك على وثيقة شرائها . وسترى أننى كنت بارعا فى الاتفاق على ثمنها ، فهو ثمن ضئيل بالنسبة لقيمة الأبنية ، ولم يكن سواى ليستطيع ذلك . وكنت فى المساومة فى الصفقة أمثل دور الوسيط ، ولهذا فإن أصحابها البائعين سيقدمون لى أجر الوساطة ، وهو حقى وحدى وليس لك أن تشاركنى فيه ، وأنا أقول لك هذا لتكون على بينة من الأمر فلا تتهمنى بأننى سرقت شيئا منك ! .. ولا مانع من أن تمنحنى أنت أيضا هدية تكافئ المجهود الكبير الذى بذلته فى هذا السبيل لمصلحتك ! .

فقلت له : أما أن أمنحك أنا أيضًا هدية ، فهذا شيء غير معقول ، لسبب بسيط ، هو أنك الذى تتولى تحصيل الإيراد ، وسيتاح لك أن تنال جانبا منه ، علمت أنا أو لم أعلم ، وسيكون فى وسعك أن تتفق مع المقاولين ، من وراء ظهرى، على نصيبك ، فى نفقات إصلاح المبانى التى ترى أو يرون أنها ضرورية فى كل عام !..

وأحنى «كابتاح» رأسه موافقا على هذا الاستنتاج فى غير خجل وقال : لقد أحسنت التعبير ياسيدى عن وجهة نظرى فى هذا الموضوع، ولا أدرى – على أية حال – أن ثمة فرقا بيننا فى الناحية المالية ، فثروتك هى فى الواقع ثروتى ، وأنا أتصرف على هذا الأساس، ولقد أغرانى ما سمعته عن معاملات «أمون» الزراعية بالتفكير فى تجارة الغلال فذهبت إلى سوقها وخالطت الكثيرين المتعاملين فيها ، وأصغيت إليهم وتعقبت تصرفاتهم حتى عرفت الكثير من أسرار هذه التجارة . ولهذا

أرجو أن تأذن لي في شراء صفقة من الغلال من حصاد الصيف المقبل، بجزء من الباقي من ذهبك ، وهذه طريقة مثلى ومجزية في تثمير المال ، والأسعار الآن معتدلة ، بل هي أدنى من مستواها العادي؛ لأنها تدفع نسيئة عن بضاعة غير حاضرة . وعندما تسلم إلينا الصفقة نقوم بخزنها فلا نعرضها للبيع إلا إذا ارتفعت الأسعار . والرأي عندي أنها سترتفع وتمضي صعدا مع الزمن ، ذلك لأن «آمون» يبيع أرضه ، وشيئًا فشيئا ستصير إلى من لا يحذقون فنون الزراعة ، ويؤدي هذا إلى قلة في الإنتاج ، وقد أعددت لهذا الأمر عدته فساومت على شراء مخازن لحفظ الغلال ، جافة ووثيقة البناء . وحينما تنتهي حاجتنا منها نؤجرها لتجار الغلال فنفيد منها إيرادا حسنا !.

وكان طبيعيا أن أقابل جهود «كابتاح» ومشروعاته هذه بالموافقة والارتياح، معربا عن تقديري لإخلاصه الذي يحفزه إلى معاناة المتاعب بحثا عما يحسبه محققا لمصلحتي ، ولو أنني موقن بأنه يشعر باللذة والمتاع في الاشتغال بهذه الخطط والمشروعات ، مهما تكن عواقبها .

وقد شجعه ارتياحي لذلك فمضى قائلا : وهناك مشروع آخر مثمر رأيت أن أتولاه نيابة عنك ، ذلك أن بيتا من أكبر بيوت تجارة الرقيق يعرض للبيع ، وأنا بحكم وضعي في الرق طول حياتي أعرف مالا تعرفه عن هذه المهنة . فلو أنك وافقتني على ابتياع هذا البيت ، وممارسة هذه التجارة ، فسأضمن لك من وراء ذلك مغنما كبيرا وموردا ثرا ، إذ سيكون بمستطاعي أن أخفي عيوب الأرقاء ، وأجملهم في عيون الناس، فنبيعهم بالأثمان الغالية ... إنه مشروع طيب للغاية ، ولكني أخشى أن يغلبك طبعك فتأباه !..

قلت له : نعم أنا لا أقر مثل هذا المشروع ، ولا أرضى به ، ولا يمكن أن أفكر مجرد تفكير في تجارة الرقيق ، لأنها عمل قذر، ولا أدري وهي كذلك من الانحطاط الإنساني ، كيف أن الناس لا يكفون عن شراء العبيد والأرقاء ، كما لو كانوا أدوات تافهة تشترى من الأسواق، وهم آدميون مثلهم ؟!

قال «كابتاح» : كنت أتوقع هذا ، ولذلك لم أشأ أن أبرم اتفاقا مع صاحب بيت الرقيق قبل مشاورتك ، وإني أوافقك على ما ترى فيه من شر لا يليق بك ، وأشعر من جانبي بأن هذا المشروع سيلقي على كتفي أعمالا شاقة تنوء بها صحتي وسني المتقدمة ، فمن الخير إذن ألا نفكر فيه . وأحب بهذه المناسبة أن أطمئنك إلى أن الدور التي اشتريتها لك ليس فيها بيت من بيوت الملذات التي تخدش الوقار .

وتوقف «كابتاح» عن الكلام هنيهة ثم قال في حياء مصطنع : شيء واحد أسألك إياه في هذا المساء ، وقد يكون مما لا يجمل بي أن أعرضه عليك ، ولكني أجترئ في عرضه راجيا ألا تغضب ، ذلك أن تصاحبني إلى حانة النبيذ التي كنت قد حدثتك عنها كثيرا ، وهي المعروفة في حي الميناء بحانة «ذنب التمساح» لنستمتع فيها بشرب النبيذ الجيد، فإن بي شوقا إليها ، وكانت ذكراها لا تفارقني وأنا في «سوريا» و «بابل»!

وكان الشراب الذي تناولته إلى تلك اللحظة قد أشاع في نفسي نشوة ومرحًا ، فضحكت لرغبة «كابتاح» ولم أنكرها ، ولكنها كانت في الوقت نفسه دعوة إلى حانة حقيرة، أرافق فيها خادمًا، وليس هناك إلا حثالة الرواد . وقد يكون نبيذ هذه الحانة كما يقال جيدا ، وقد يزيد شرابه في نشوتي ومرحي ، غير أنها بالنسبة لي مكان غير لائق، فكدت لهذا أن أرفض دعوة «كابتاح» ، ولكني عدت فذكرت أنها رغبة ذلك الخادم الأمين الذي رافقني يومًا ، بمحض إرادته ، إلى البيت إله «كريت» المظلم ، حيث الخطر والتهلكة ، ومن ثم ربت بيدي على كتف «كابتاح» وقلت له : هيا بنا إلى حانة «ذنب التمساح».

- ٦ -

وحانة «ذنب التمساح» هذه تقوم وسط حي الميناء بين مستودعات البضائع في زقاق مظلم ، وحوائطها مبنية باللبن في وثاقة تمنع تسرب الحرارة إلى الداخل فيكون

جوها في الصيف رطبًا ، وفي الشتاء دافئًا ، وعلى بابها علقت جرتان ، ترمز إحداهما للجعة، والثانية للنبيذ ، وبين الجرتين علق تمساح محنط بعينين من زجاج لامع ، وفي فكيه المنفرجين صفان من الأسنان . وأرض الحانة مكسوة بألواح الخشب، وكذلك حوائطها ، وعلى هذه الحوائط علقت الحراب ومحار جزر البحر وطاسات منقوشة من « كريت » . هكذا رأيتها حينما دلف بي إليها «كابتاح» وهو إذ ذاك متحمس مزهو ، وكان معروفا فيها لكثرة تردده عليها ، فقادني إلى ركن منها يمتاز بالمقاعد ذات الحشيات الوثيرة ، وهتف بصاحب الحانة وأسر في أذنه كلاما ، بينما كان الرواد الذين يملأون الحانة يأخذونني بنظراتهم المستغربة ، وقال لي «كابتاح» : لعلك تعجب إذ ترى هذه الحوائط مكسوة بالخشب كما هي الحال في بيوت الأغنياء ؟! ولكنك لن تعجب حين تعلم أن ألواحها من مخلفات السفن القديمة المحطمة. وعلى كراهيتي للبحار وأسفارها وسفنها أيضًا ، فإني أعرف أن تلك الألواح الصفراء قد شهدت في رحلتها أراضي «بنت » ، وهذه الحمراء الداكنة قد رحلت إلى موانئ جزر البحر ، وهكذا .

وأقبلت علينا فتاة حسناء تحمل إلينا الشراب المخلوط الذي عرفت أن «كابتاح» كان قد أسر لصاحب الحانة بأن يضعه خصيصا لنا . وكان الشراب مصبوبا في كأس جميلة على شكل أصداف البحار . ولكن هذه الكأس الجميلة لم تصرف نظري ولم تشغل بالي عن الفتاة الحسناء التي تقدمها . لقد كانت في مقتبل العمر، محتشمة في ملابسها على خلاف مثيلاتها اللاتي يختلطن برواد الحانات وهن نصف عاريات لإثارة الغرائز والشهوات ، وكان يتدلى بإحدى أذنيها قرط من الفضة، وعلى معصميها سواران من الفضة كذلك، وفي وجهها جمال يغالب حزنا دفينا . وحين نظرت إليها أحسست بقلبي يهفو نحوها مبتهجا . ومع أنها لم تقابل نظراتي باكتراث ، فقد رأيت نفسي مسوقا إلى محادثتها قائلا : ما اسمك أيتها الغادة المليحة !! فأجابت في صوت خفيض: اسمي «ميريبيت» ، وأرى أنه لا يجمل بك أن تناديني بالغادة المليحة ، فإنما يفعل هذا ، الشبان المفاليك الذين يغازلون الفتيات اللائي

يخدمنهم ، ومن الخير أن تتذكر ذلك إذا ما بدا لك أن تزور هذه الحانة مرة أخرى ، ياسيدى «سنوحى المصرى الوحيد» .

وفي دهشة وخيبة أمل ، قلت لها : ما أردت مغازلتك كما تتوهمين، وما بى من رغبة في هذا الغزل غير اللائق . ولكن من أين لك العلم باسمى ، وما أذكر أننا تلاقينا من قبل ؟! ..

وتنضر وجهها بالابتسام وقالت بلهجة مشوبة بالسخرية : هل كان ينبغى أن نتلاقى من قبل لأعرف اسمك ؟! ولم لا يكون ذلك عن طريق شهرتك التى سبقتك إلينا يا ابن الحمار الوحشى ؟!

ولم تغضبنى منها هذه العبارات الساخرة ، فقد كنت ألمح فى عينيها أسى عميقا، وظننتها تحاول بهذا الأسلوب اجتذاب قلبى إليها ، وقلت لها : إذا كانت شهرتى قد تقدمتنى إليك على لسان «كابتاح» ، ذلك الرقيق الذى أعتقته اليوم من الرق ، فاعلمى أنه لا يصدق في حديث أبدا ، فهو لا يعرف طول حياته ، الفرق بين الصدق والكذب ، وكثيرا ما يؤثر الكذب استرسالا مع طبعه الخبيث ، وقد حاولت إبراءه من هذه النقيصة الخلقية، ولكن الطب والعصا معا عجزا عن ذلك ! ..

قالت : ليس الكذب مكروها فى سائر الحالات ، فقد يكون أجمل من الصدق وقعا وأحلى منه مذاقا ، عند الإنسان الوحيد الذى جاوز ربيع حياته . وإنى لأستعذب منك أن تصفنى بالجمال والملاحة ، وقد لا تكون فى هذا صادقا ! .. فالمناسبات والظروف هى التى تسيطر على الأخلاق وتتحكم فى معانيها ، من غير ما تقيد بمصطلحات الألفاظ المعبرة .

وفى حركة لطيفة قالت : وما لنا ولهذا ياسيدى «سنوحى» ، فهلا ذقت هذا الشراب الذى جئتك به ؟! إنى لمشوقة أن أعرف رأيك فيه، وفى أى درجة يقع من نفسك، إذا قيس بما كنت تشربه هنالك فى البلاد الأجنبية التى طوفت فيها ؟! ..

فرفعت الكأس وأفرغته فى فمى ، وأنا أطيل النظر فيها معجبا ، ولكنى ما لبثت أن شعرت كأن صاعقة قد ثارت فى بدنى ، ونارا قد اشتعلت فى حلقى، ودار رأسى مشتعلا كأنما قد صعد إليه دم الجسم كله وتجمع فيه حارا ، وكدت أختنق ، غير أنى غالبت هذه الحال حتى عاد هدوئى وتنفست مستريحا ، فقلت لها : الآن أعترف بأنى لم أشهد شهادة حق حينما وصفت «كابتاح» بنقيصة الكذب ! .. فليس أدل على أنه الصادق الذى لا يكذب ، من هذا الشراب العجيب . فهو أقوى من أى شراب ذاقه لسانى . وإنه ليبعث فى البدن حرارة لا يستطيعها زيت بلاد ما بين النهرين، الذى تشتعل به المصابيح هنالك !.. ولست أشك فى أن شرابكم قادر على أن يصرع أقوى رجل كأنما تنهال عليه منه لطمات من ذنب تمساح !..

كان جسمى يهتز مضطرما ، وكنت أحس فى فمى بقية من مذاق طعم غريب من التوابل، وقلبى يكاد يثب من صدرى كأن له جناحى طائر ، فقلت مستطردا : بحق «ست » وكل الشياطين الأخرى ، إنى لا أعرف كيف ومم صنع هذا الشراب !؟ أهو الذى سحرنى، أم هما عيناك يا«ميرييت» ! .. لقد عاد قلبى شابا مرة أخرى ، ولا يدهشنك أن أطوق خاصرتك بذراعى ! .. إنى لمسحور ، وكأسك هو الملوم !..

وفى تؤدة ورشاقة وافترار ثغر ، قالت : لا يدهشنى ذلك، ولا ألومك عليه ، فهذه الحانة لطيفة حقا ، وأنا لست عجوزا ، وقد لا تصدق بأنى عذراء . وهذا الشراب كما رأيت ساحر عجيب ، وقد فعل فعله فى رأس عبدك «كابتاح» ، فكلما جاء إلينا ، وما أكثر ما يجىء ، لا يكف عن مداخلتى ومراودتى عن نفسى ، ولا يخطر فى حسبان هذا الأعور العجوز البدين، أن أية امرأة لا يمكن أن ترضى به رفيقا ... وقد دفعه تعلقه بهذه الحانة إلى محاولة شرائها ، وشراء سر تركيب هذا الشراب معها . ولكنه لن يستطيع ذلك إلا بوزنات كثيرة من الذهب !..

وكان «كابتاح» يستمع إلى حديثها قلقا مغيظا، وبكل خلجات وجهه كان يتوسل إليها ألا تسترسل فى إذاعة أسراره ، ولكنها لم تحفل به ، ولم تتوقف !..

وكنت قد تجرعت كأسا أخرى ، ودبت في أعصابي حرارتها ، فقلت لها : إني واثق من أن «كابتاح» يريد مخلصا أن يكسر الجرة بينك وبينه ، من أجل هذا الشراب . ولا يضيره عندما تصبحين زوجته ، أن تلقى المياه في أشد غليانها على قدميه !.. وإلى حد كبير أراه معذورا في افتتانه بك . فإني لمدرك شعوره جيدا كلما نظرت أنا في عينيك الفاتنتين ... ولكن تذكرى أيتها الحسناء الرقيقة أنني أتكلم الآن بوحي شراب «ذنب التمساح» . وقد لا يكون هذا رأيي غدا ! .. ودعيني أسألك : هل صحيح أن «كابتاح » يملك هذه الحانة ؟! ..

كان السؤال مفاجأة «لكابتاح» ، كما كان مفاجأة لي أنا نفسي، فقد وقع في خاطري فجأة احتمال أن يكون قد اشترى الحانة فعلا ، فلم يكن هناك ما يمنعه من ذلك ، إذ كان المال موفورا في يده . وهو – كما يؤكد لي مثرثرا – يجوب أنحاء المدينة بحثا عن الأعمال التي يتجربها . وإذا كان قد اتجه تفكيره إلى شراء بيت لتجارة الرقيق ، فغير بعيد أن يتجه تفكيره كذلك إلى شراء حانة « ذنب التمساح » التي يهوى شرابها وفتاتها ! ..

وارتاع « كابتاح » من السؤال وراح يقذف « ميرييت » بالشتائم قائلا لها : اغربي عنى أيتها الوقحة ... والتفت إلى قائلا في سرعة ، خوفا من أن تسبقه « ميرييت» : إن هذا الموضوع ياسيدي عرض لي كمشروع من المشاريع التي أتقصاها لاستثمار ما في أيدينا من مال ، وقد تحققت من أنه مفيد رابح فاشتريت الحانة من صاحبها ، واتصالي بهذه الفتاة ليس إلا محاولة غامضة لاكتشاف سر تركيب الشراب الذي تعرفه ، فهو في الواقع مصدر شهرة الحانة ، وبفضلة صارت مهوى قلوب الكثيرين من طلاب المتعة والمرح . ولقد كنت طوال رحلتنا دائم الحنين إليه ، فمن يطعمه لا ينساه ولا ينتهي شغفه به . وإذا كنت لم أكاشفك بهذه الصفقة فذاك لأني خشيت ألا توافق عليها لأول وهلة . على أني كنت سأخبرك بها حتما في الوقت المناسب . والآن – وقد عرفتها – فإني أرجو أن تقرها ، فهي أمنيتي المفضلة ، وأنا خادمك المخلص ، وقد أطلقتني ، فهل يسخطك أن يكون لي مثل هذا العمل الخاص

الذى أستمتع فيه بشعور الحرية التى منحتنيها متفضلا ؟! ولا بأس عليك ياسيدى من ذلك ، فإنما قد اشتريت الحانة من مدخر مالى الذى جمعته بفضل ما تسميه أنت سرقة ، وأسميه أنا مهارة ! وكثيرا ما كان يؤلمنى ألا أجد عملا أستخدم فيه هذا المال لحسابى الخاص . وأخيرا وجدت فى هذه الحانة بغيتى المنشودة ، إذ تكفل لى بجوها المنعش وشرابها الممتع ، راحة القلب وعافية البدن فى الأيام الأخيرة من حياتى . ولعلها العمل الذى قلما أحسن عملا سواه ، وطالما تمنيت أن أكون يوما صاحب فندق أو حانة ، وما رأيت مرة واحدا من أصحاب الفنادق والحانات إلا نفست عليه حظه السعيد فى الحياة ، ذلك لأنه يستطيع أن يشرب النبيذ كلما أراد وبأية كمية شاء ، دون أن يجد من يطالبه بدفع الثمن ! .. ثم هو إلى هذا يستقبل الكثيرين من مختلف البلدان والطبقات ويتعرف إليهم وتتوثق علاقته بهم ، وبواسطتهم يستطيع أن يقف على مجريات الأمور وتفصيلات الحوادث فى سائر أنحاء الدنيا . وقد يجد فيهم الأصدقاء النافعين فى أى وقت ، والمناصرين له فى أية مشكلة . وسأكون فى هذه الحانة ألطف مدخلا وأرق حاشية وأدنى إلى قلوب روادها من صاحبها القديم . بل من أى إنسان آخر يتولى إدارتها . فلسانى – كما تعلم – مدرب على الأحاديث المنمقة ، ورأسى مشحون بالمعلومات والحوادث المثيرة فسأقص عليهم أغرب القصص ، وأستهويهم بالطرائف من الروايات ، وسيطيب لهم بذلك أن يطيلوا الجلوس ، وأن يكثروا من الشراب ، محلقين فى آفاق فسيحة من الخيال الممتع . وليس يخفى عليك يا سيدى ما يكون لهذا من أثر كبير فى زيادة دخل الحانة ، فهى إذن عمل مربح ، وقد أحسنت الاختيار . والواقع أننى خلقت لأكون مدير فندق أو حانة ، ولم أكن عبدا رقيقا إلا لخطأ لا أدرى كنهه ولا مأتاه ، ولا كيف وقع ! .

وكان «كابتاح» وهو يقول هذا لا ينسى أن يعب من الشراب ، وقد بدت عليه النشوة، فواصل الحديث قائلا : فإدارة هذه الحانة – كما ترى – أجدى الأعمال وأسلمها عاقبة بالنسبة لى ، وهى لا تتأثر بالأحداث مهما تكن . فلو حدث مثلا أن

انهار سلطان فرعون ، وتهاوت الآلهة عن عرشها ، فستبقى حانات النبيذ كما هي لا يتطرق إليها وهن ولا يصيبها بوار ، ذلك لأن شراب النبيذ مطلب كل إنسان ، يقبل عليه إذا كان مسرورا ليستزيد من سروره ، ويهرع إليه إذا كان محزونا لينسى فيه أحزانه . ومن أجل هذا أقدمت على شراء الحانة مطمئنا متفائلا . وقد عهدت إلى صاحبها السابق ، بإدارتها في الوقت الحاضر ، تساعده في ذلك هذه الساحرة « ميرييت » على أن تكون أرباحها قسمة بيننا إلى أن يحين الوقت الذى أفرغ فيه من الشئون الأخرى فأمسك بزمامها وحدى ، حيث أقضى فيها شيخوختي . ولست أخشى الآن على إدارتها في يد هذا الرجل ، فقد عقدت بذلك اتفاقا معه وأقسمنا عليه بكل آلهة مصر ، ولا أحسبه ناقضا هذا الاتفاق ، أو - في القليل - لا أحسبة سيخون الأمانة أكثر من المعقول ! .. فإني لأراه رجلا تقيا يرتاد المعبد ويقدم القرابين ، وبينه وبين الكهنة صلات ود ، حتى إنهم ليترددون على حانته الفينة بعد الفينة .

وإلى هنا كان الشراب قد استبد بوعى «كابتاح» فاختلطت في رأسه مسالك الحديث ، وثقل لسانه فلم يعد يبين أو يفصح أو يقول كلاما مقبولا ، وشعر هو بهذا فقال : في أى شيء كنا نتكلم ؟! وماذا أريد أن أقول لك ؟ .. حقا لقد نسيت .. ولكنى على أية حال مسرور ، ومسرور إلى أقصى حد ... لأننى أصبحت صاحب حانة ، ولأنك لم تبد اعتراضا على أن يصبح خادمك رجل أعمال حرا ! ..

وخارت قوى «كابتاح» لشدة ثمله ، ومال بجسمه المترنح على صدرى وهو يبكى ، فنحيته عنى في رفق وأعدته إلى مقعده وقلت له : الحق يا «كابتاح» أنه ما من عمل هو أكثر ملاءمة لمواهبك من هذه الحانة ، وهى فضلا عن ذلك أفضل مأوى لشيخوختك . وقد صنعت - بلا شك - خيرا حين أقدمت على شرائها ، ولكن نقطة واحدة انبهمت على فكرى في صفقتك الرابحة ، وأريد أن أستوضحك إياها ، فهلا أخبرتنى لماذا وافق صاحب الحانة على أن يبيعها لك مادامت تربح الكثير ويملك فيها سر شراب « ذنب التمساح » الساحر العجيب ؟ ! أفلا يكون البدهى والمعقول أن يحتفظ بها لنفسه ؟! ..

وكأنما أعادت إليه هذه العبارة صحوة ومست شيئا هاما يحرص عليه ، فسدد إلى نظرة طويلة من عينه الواحدة ، وقال فى اهتمام : إن من عادتك يا سيدى أن تعكر صفوى بالملاحظات الدقيقة. على أنه ، إلى جانب ما يخطر ببالك بشأن صاحب الحانة وكيف رضى ببيعها وهى التى تدر عليه ربحا كثيرا ، يحسن بك أن تدخل على هذا الخاطر احتمالين آخرين هما أقرب إلى واقع الحال من خاطرك المزعج ! . أولهما أننى وصاحب الحانة صديقان ، ومن أيام شبابنا حتى الآن يحب كل منا صاحبه كما يحب الأخ أخاه تماما ، وهو يؤكد ذلك ويتحدث به. فهل يكون غريبا أن نتقاسم الخير ونتبادل المنفعة ؟ .. وقد يكون هذا فى تقديرك، وربما كان فى تقديرى أيضا ، احتمالا ضعيفا ، يكمن وراءه ابن آوى المخادع المحتال، فلننظر إذن فى الاحتمال الثانى : أنه لم يعد خافيا على أحد أن صراعا شديدا يقوم بين «أمون» وإله فرعون الجديد . هذا الصراع وإن كان الآن يتفاعل تفاعل النار خلال الرماد إلا أنه يوشك أن يصبح نارا تلظى ، تلتهم المغلوب وأتباعه وأنصاره والمؤمنين به . ومن هنا يركب الخوف سائر الذين يشعرون بأن الهزيمة ستلحق بهم ، وهم فى غالب الرأى أتباع «أمون » ، وصاحب الحانة منهم ، بل من أكثرهم ظهورا لكثرة تردداه على المعبد ووثيق صلته بكهنته ، فهو يخشى ذلك اليوم ، الذى قد يكون أقرب مما يظن ، يوم تدور الدائرة على إلهه فتتحطم حانته ويحرق كل ما فيها ويجلد هو بالسياط ثم يلقى به فى النهر ، فسبيل النجاة فى تفكيره هو أن يبيع الحانة ويتخفف من الأعباء استعدادا للفرار بنفسه قبل أن يدهمه الخطر المتوقع فى كل لحظة . ولماذا لا يبيع حانته وهو يرى «أمون » نفسه يبيع من أرضه ؟! أرأيت ياسيدى أن الصفقة تبررها ظروف واعتبارات تتفق مع العقل ، ومع الحكمة كذلك !.. ثم لا تنس ، فوق ذلك ، أن الجعران المقدس لا يزال معنا ، وهو فى قوة سلطانه يستطيع أن يحمى الحانة فى الوقت نفسه ، الذى يضفى رعايته وبركاته على المشروعات الأخرى التى تستثمر فيها أموالك ! ..

ولزمت الصمت قليلا ثم قلت له : مهما يكن من الأمر ، فإنه لا يسعنى إلا الاعتراف بأنك في يوم واحد قد صنعت أشياء كثيرة وهامة !

فتظاهر « كابتاح » بالخجل من هذا الذى يراه تنويها بمقدرته واعترافا بكفاءته ، ولكنه أراد أن يؤيد استحقاقه للإطراء ، فقال مضيفا : ولا يغربن عن بالك أيضا أننا لم نصل إلى «طيبة » إلا أمس - أمس فقط - وكانت رحلتنا الطويلة جدا شاقة ومضنية ، وكنا أحوج ما نكون بعدها إلى الراحة الكاملة أياما ، ولكنى آثرت العمل المتواصل لأظفر بهذه النتائج فى أقل وقت ممكن ! ..

وكان لابد لنا بعد ذلك من الانصراف ، فنهضت ونهض « كابتاح » متثاقلا ، وحيينا صاحب الحانة ، ورافقتنا « ميرييت » إلى الباب . وقبل أن نخطو إلى الخارج لاصقتها ووضعت يدى على خاصرتها ، ولكنها أزاحتها بهدوء قائلة : قد تكون ملامستك لى هكذا شيئا لذيذا ، ولكننى لا أشعر بلذته لأنك تفعله متأثرا بشراب « ذنب التمساح »!.. وأدركت ماذا تعنى ..

وأخذنا وجهتنا إلى المنزل من أقصر طريق ، وعلى فراشنا غير الرتيب استسلمنا إلى النوم العميق ..

- ٧ -

وفى هذا الحى الفقير «بطيبة» بدأت حياتى الجديدة كطبيب ، وصحت نبوءة «كابتاح» ، فكان عدد المرضى الوافدين علينا كثيرا ، وما يقدمونه من أجور وهدايا قليلا تافها ، فى حين كنت مضطرا إلى شراء عقاقير غالية الثمن . ومن هنا كان ما أنفقه على هؤلاء المرضى أكثر مما أناله منهم ، ذلك عدا أن أثر العلاج فيهم كان ضعيفًا ، لأنهم كانوا يعجزون عن شراء الطعام الذى يعين على رد العافية إلى أبدانهم ، ومع هذا كنت سعيدا بهم ، وأكثر ما كان يسرنى منهم أنهم أصبحوا يباركون اسمى ويدعون لى .

وجاءنى « كابتاح» بامرأة عجوز لتدير شئون منزلنا ، وقد استرحت إليها لأنها كانت تجيد طهى الطعام وتحسن القيام بالخدمة فى هدوء لا يخالطه صخب ولا فضول . وعلى خلاف ما تعودت من «كابتاح» لم أرها تقف على الباب لتسب المرضى وتلعنهم متقززة من رائحتهم الكريهة ، وإنما كانت تغدو وتروح بالمنزل كأنها شبح أو ظل ، مشغولة بعملها وحده دون أن تعترض طريقي كما لو كانت تتحاشي لقائي، ولهذا كنت لا أراها إلا نادرًا، وكان اسمها « ميوتى » ..

وعلى هذه الحال تعاقبت الشهور... وكان القلق فى « طيبة » يتزايد يوما بعد يوم . وكنت خلال ذلك أرهف أذني لأسمع شيئًا عن عودة « حورمحب » ، ولكن أحدا لم ينبئني بعدوته ، فكان ذلك يزيدنى لهفة على تسقط أخباره.

وكان الصيف قد أقبل ، وشاعت حرارة الشمس في الجو ، وأرهقت أشجار الحدائق حتى صوحت زهورها وأحالت ألوانها المخضوضرة إلى اصفرار كالح ، فكنت ، التماسا للترفيه وطلبا للمتعة والتسلية ، أمضى من حين إلى حين ، إلى حانة « ذنب التمساح » مستصحبا «كابتاح» . وفى كل مرة كنت أحدق فى وجه « ميرييت » وعينيها ، وأدعوها للجلوس معى ، ولكنها فى أكثر الأحيان كانت تنأى عنى ، وكان هذا يحزن قلبى .

وقد استرعى نظرى فى هذه الحانة أنها لم تكن مكانا مباحا لكل مرتاد ، فروادها لا يختلفون في كل ليلة ، وجوها أو مقاعد ، فكأنما هى ناد خاص بهم ، لا يؤذن لغيرهم فى دخوله ، ومع أن من بينهم اللصوص وتجار السوق السوداء ، فإنهم جميعا حينما يكونون بالحانة يحرصون على أن يبدو سلوكهم مهذبًا. وقد كنت أشعر بأننى غريب فيهم ، فلم يحدث أن تعرفت إلى أحد منهم ، كما لم يحاول أحد أن يتعرف إلى ، فكل ما يعرفونه عنى أننى صديق « كابتاح » ، وهذا حسبهم .

وبين رواد الحانة تدور أحاديث مسموعة في الأحوال الجارية ، ومنهم من كان يلعن « فرعون » ، ومنهم من كان يحمده . ولكنهم جميعا كانوا على اتفاق فى

السخرية بإلهه الجديد. وذات مساء وفد إلى الحانة رجل من التجار ، مهلهل الملابس ، أشعث شعر الرأس ، بادى الكآبة ، فطلب - وهو لهج ثائر الأعصاب - شرابا يخمد به ثورة نفسه ثم أخذ يقول : ألا فلتنصب لعنة الأبد على « فرعون » ، ذلك الكاذب الأحمق الذى يتصرف فى شئون الناس بوحى نزواته وأفكاره الخرقاء ، غير مبال بما ينالهم من ضر وسوء ، وتعطل منافع ونضوب موارد ، وإليكم مثلا على ذلك : إن عملي - كتاجر - يقتضينى استيراد بعض المواد من أرض « بنت » ، وأنا وأمثالى من المستوردين نعتمد على السفن تروح وتغدو عبر البحر الشرقى . ورحلات هذا البحر - كما هو معروف - ليست معرضة للأخطار ، ولذلك فإن السفن في رواحها وغدوها قلما تصاب بمكروه ، وبالتالى قلما تتخلف عن مواعيدها . على أنه يحدث فى القليل النادر أن يتأخر بعضها عن ميعاد العودة لسبب لا يعدو تقلبات الجو والأنواء ، ولا يكون في هذا التأخير ما يدعو إلى الخوف والقلق ، غير أن « فرعون » ذهب اليوم إلى الميناء على غير المألوف ، فرأى بعض النساء والأطفال يبكون ؛ لأن بعض السفن التى يعمل عليها أهلوهم قد تأخر وصوله عن الميناء ، فأصدر لفوره أمرًا بوقف أبحار السفن إلى أرض « بنت » ، ومعنى ذلك ، الإفلاس وخراب بيوت الذين تتوقف أعمالهم وأرباحهم على تجارة البحر ، وهم عدد كبير ، ومن بينهم هؤلاء الزوجات والأطفال الذين تظاهر « فرعون » بالشفقة عليهم ، فإنهم سيموتون جوعا حينما لا يجد أهلوهم عملا لتوقف السفن عن السفر بالبحر تنفيذًا لأمر « فرعون » الرحيم !

ولن يضار التجار والبحارة وحدهم بهذا الأمر الشاذ ، فهناك كذلك وكلاء الأعمال المصريون المقيمون فى أرض « بنت » فسيعضهم الفقر بنابه غدًا ، وتغلق فى وجوههم أبواب العمل والرزق ، ومن وراء هؤلاء وأولئك عدد لا يحصى من أبناء الشعب ، سيحرمون من البضائع والعقود الزجاجية والجرار وما إلى هذا من مختلف المواد التى ترد من تلك البلاد البعيدة ، وهكذا تجىء تصرفات « فرعون » مرتجلة طائشة خالية من البصر وتقدير العواقب ! ..

وظل هذا التاجر ثائرا متتابع الكلام فى عيب « فرعون » وتسفيه أعماله ، غير أنه بعد الكأس الثالثة من شراب « ذنب التمساح » أخذ يهدأ وتخبو ثورته ، وعندئذ أدرك أنه جاوز فى حديثه الحد الذى ينبغي الوقوف عنده كلما ذكر « فرعون » ، كما أدرك أنه قد أساء إلى من يعتقدون الخير فى « فرعون » ويحمدونه عليه ، فراح يعتذر من ذلك متعللا بأنه فى غضبه ويأسه كان ثائرًا لا يعى ، وأردف اعتذاره بقوله : إذا كان « فرعون » لحداثة سنة وقلة تجربته يتصرف على هذا النحو بحسن النية ، فإنى واثق أن الملكة « تايا » بحكمتها وسداد رأيها ستحسن مقادة ابنها وتوجيهه التوجيه الرشيد ، وأعتقد أنها ستجد فى هذا السبيل عونًا كبيرًا من الكاهن « آى » ، ذلك الرجل الحصيف المتزن ! ..

وتوقف الرجل قليلاً ثم عاد إلى الحديث قائلاً : ولكن كل الذين إلى جوار « فرعون » لا يفكرون الآن إلا فى كيف يقضون على « آمون » ، ومن هنا تركوا « فرعون » مطلق العنان ، وأفسحوا الطريق أمام خبله وجنونه ! ... مسكين أنت يا « آمون » ! . وهل فى القصر الملكى اليوم إلا العبث والاستهتار وفساد الأخلاق ؟ ! وهذه « نفرتيتى » الزوجه الملكية ، لا يعنيها من أمر الدولة إلا الزينة والتجميل وارتداء أجمل الملابس وأغلى الجواهر ، والبحث بعد ذلك عما يشبع هواها ، ويجرى معها ، فى هذا السباق الشائن ، سيدات القصر ، فهن يبدين زينتهن للرجال ويظهرن لهم أجسادهن مالا يجوز أن يظهر ! ..

وعقب « كابتاح » على مقالة هذا التاجر بقوله : هذا شيء غريب لم أجد مثله فى أى بلد من بلدان العالم التى طوفت بها وعشت فيها ، على الرغم من أنى رأيت هناك كثيرًا من العجائب والغرائب ! . والتفت إلى الرجل المتحدث وقال : وهل رأيت بعينيك سيدات القصر ، ومعهن الملكة، يكشفن للرجال عن أجسادهن على الصورة التى تذكرها ؟ ! .

وقال التاجر : إني رجل نو حياء ، وزوج ووالد أطفال ، ولا أسمح لنفسى أن أنظر إلى سيدة فى وضع من هذه الأوضاع السافرة التي لا حياء فيها ، ونصيحتى إليك ألا تفعل شيئًا غير لائق كهذا ! ..

وهنا تدخلت « ميريبيت » في الحديث مغضبة فقالت : إن كان ثمة شيء غير لائق ، فهو هذا الذى يتنزى على لسانك من العبارات الفجة والتعبيرات السمجة ، وليس هو تلك الأزياء التى ترتديها سيدات القصر ويذهب بها خيالك المريض كل مذهب ! .. إنها ملابس خفيفة أعدت للصيف تلطيفا للحرارة واحتفاظا بما لا غناء عنه للجسم من الرطوبة ، وقد أحكم تفصيلها في اعتدال بما يلائم أجسام السيدات ، ولو كنتم يا أصحاب الخيال قد دققتم النظر في ملابس سيدات القصر التي تتخيلونها مكشوفة لرأيتم تحت الثوب الخارجى المتفتح من بعض جوانبه ثوبا آخر من الداخل يستر سائر أجزاء الجسم ويخفيها إخفاء تامًا عن أحد العيون وأنفذها ، فما ذنبهن إذا كانت ليست لكم عيون ؟ ! .

وحاول التاجر أن يدفع هذا الهجوم بمثله ، ولكن الشراب كان أقوى من لسانه ، فعقده عن الكلام ، فتهالك فى مقعده واعتمد رأسه بيديه وراح ينشج بالبكاء ؛ لأن سيدات القصر العابثات يجدن فى مثل هذه الحالة لسانا كلسان « ميريبيت » السليط يدافع عنهن ، ولأن سوء الحظ قد حل بالمصريين الذين قضى أمر « فرعون » أن يبقوا فى بلاد « بنت » مشردين جياعًا ! ..

ولدى الباب عند انصرافنا ، قلت « لميريبيت » : عيناك تقولان لى إنك وحيدة ، وأنت تعلمين أنى كذلك وحيد ، فنحن من حياتنا على حال واحدة ، وكلانا فى حاجة إلى الآخر ، فهلا بادلتنى هذا الشعور ؟ ! قولى نعم ، ولو لم يكن صحيحًا ، فقد سمعت منك هذه الليلة أن الكذب في بعض الأحيان أحلى مذاقًا من الصدق . وإنه ليكون أشد حلاوة وأعذب مذاقًا بالنسبة لشخص وحيد انقضى ربيع شبابه .. وإن كان ثمة ما أتمناه الآن فهو أن تلبسى ثوبا جديداً من أزياء الصيف التى كنت

تتحدثين عنها منذ قليل بحماسة حارة ، فإنه أكثر ملاءمة لتكون جسمك الجميل ، وأعتقد أنك لن تخجلي وأنت تسيرين به إلى جانبي بطول طريق « رامس » ؟! ..

وفي هذه المرة لم تدفع يدي التي كانت تمسك بخاصرتها ، ولكنها ضغطت عليها في رقة ورفق، وقالت : ربما فعلت ما تريد .

وافترقنا ، وصورتها لا تبرح خيالي ، وقلبي يخفق حنينا إليها .

وعاد « حورمحب » في اليوم التالي إلى « طيبة » على رأس القوات المسلحة ، والحديث عنه وعن موضوعات أخرى قريبة إليه أو بعيدة عنه ، مفصل في القسم الثاني من هذا الكتاب . على أنني ، قبل أن أنتقل إليه ، أرى أن أسجل لنفسي في هذه الفترة أنني أجريت عمليتين دقيقتين لفتح الجمجمة ، وكانت إحداهما لرجل غني موفور ، وثانيتهما لامرأة فقيرة ، وقد نجحتا نجاحا باهرًا وكنت سعيدًا بذلك أوفى سعادة ، ولم يكن الرجل الغني أقل مني سعادة بعد شفائه ، ولكن المرأة لم يكن لها مثل حظنا من هذه السعادة ، ذلك لأنها كانت قبل شفائها تظن، لاختلاط عقلها ، أنها هي الملكة العظيمة « حاتشيبسوت » ، فلما عاد إليها عقلها عادت إلى الواقع وعاشت في الحقيقة ، فإذا هي كما كانت من قبل ، المرأة الفقيرة ، التي لا شأن لها ولا سلطان .


مدينة السموات

- ١ -

عاد « حورمحب» من بلاد «الكوش» في فترة من الصيف تفور بالحرارة في أعلى درجاتها ، وقد طغى هذا الجو القانظ على الكائنات والأحياء ، حتى العصافير في خفتها لم تقو على احتماله فغابت عن الأنظار هربا منه، وران على مياه المستنقعات ركود مخيف، وانسابت عبر الصحراء أرجال الجراد لتحط على الزروع والمحاصيل فتعبث بها في نهم . ذلك كان شأن الحياة وقتئذ بالنسبة لسواد الفقراء ، وقد شق عليهم فيها أن يجدوا ماء سائغا ، أو طعاما غير ملوث بالأتربة التي تتساقط عليهم خلال أشجار السنط والجميز. ولم تكن هكذا حال الأغنياء ، فحدائقهم في «طيبة» كانت في ازدهارها ونضارتها على جانبي طريق « رامس » تنفح الطيب والعطر وتحيل الجو لأصحابها رقيقا لطيفا ! .. وجنوبا في أقصى الشاطئ كان يشمخ «بيت فرعون الذهبي» بأسواره وحدائقه ، وكان مفروضا أن يقضي فرعون هذه الفترة القاسية الحرارة بقصوره الصيفية في المملكة السفلى ، ولكنه خلاف للعادة، ظل مقيما بهذا البيت في « طيبة » . ومن هنا بدا أن في الأمر سرا ، وأن ثمة شيئًا غير عادي سيقع ، وكانت قلوب الناس في ذلك الحين مثقلة بالمخاوف ، فراحوا يحدسون ويتكهنون ! ..

ومع « حورمحب » ، عاد المحاربون وعلى صدور الفرق السوداء منهم دروع يعلوها التراب ، وبأيديهم الحراب النحاسية البراقة والأقواس المزودة بأوتارها ، فاحتلوا الثكنات التي كانت خالية ، وتجمعت ، على طول رصيف الميناء ، السفن التي عادوا عليها ، واحتشدت العجلات الحربية وجياد الضباط التي كان يعلو الريش رءوسها . وكان مما يلفت النظر أن هؤلاء المحاربين - على كثرتهم - لم يكن بينهم

جندى من المصريين ، فقد كانوا جميعًا من النوبيين الجنوبيين والشردانيين من الصحراء الشمالية الغربية .

وركب الخوف أهل المدينة من هؤلاء المحاربين غير المصريين ، وخاصة بعد أن رأوهم يزحمون ، في تجوالهم ، شوارع المدينة وطرقها . وكان من أثر هذا الخوف أن توقف العمل بالمصانع والطواحين والمكاتب ومستودعات البضائع ، وحبس التجار بضائعهم داخل حوانيتهم وأغلقوا عليها الأبواب . أما الحانات وبيوت الملذات فقد استعان أصحابها بالرجال الأشداء ، يستأجرونهم لحماية أموالهم وأرواحهم . ومضى عامة الناس متدفقين كالسيل إلى معبد «أمون» مرتدين ملابسهم البيضاء حتى ضاقت بهم ساحاته على سعتها ، واضطر كثير منهم إلى اعتلاء أسواره ، ليأمنوا هنالك على أنفسهم ، مما استطار بينهم من خوف ورعب ! .. ولكنهم ما كادوا يستردون أنفاسهم اللاهثة حتى فوجئوا بما زادهم اضطرابا على اضطراب ، فقد ذاع بينهم خبر ينذر بحدوث شر قريب ، هو أن جثة متعفنة لكلب ميت قد ألقيت بالليل على مذبح معبد « آتون » لتدنيسه ، وأن حارس هذا المعبد قد وجد مذبوحا ! .. ومع أن هذا الحادث خليق أن يثير ابتهاجهم لفرط إيمانهم بإلههم « آمون » ، إلا أنهم توجسوا منه شرا ، وخافوا سوء عاقبته .

وحتى مساء ذلك اليوم لم يقع حادث مثير سوى أن بعض النوبيين نهبوا بعض الحوانيت وخربوها واغتصبوا امرأتين ، فقبض عليهم حراس المدينة وجلدوهم على مرأى من الناس ، وكانت نهاية الحادث على هذه الصورة دليلا على أن جنود الحراسة قادرون على كبح جماح المحاربين المتهورين ، فبعث ذلك شيئا من الطمأنينة في القلوب . على أن «كابتاح» كان يرى من وراء ذلك قرون الشر ناجمة في رءوس الجانبين ، وأن ما حدث ليس إلا بداية اشتباكات دامية ، فقال لى وهو يفرك يديه ارتياحا: ما أرى إلا أن عملا كثيرا ينتظرك يا سيدى ، فجهز آلاتك واشحذها ، فما أكثر الجماجم المهشمة التى سيؤتى بها إليك لفتحها ثم تعيدها سوية !..

ولكنى كنت فى شغل عن ذلك بالتفكير فى «حورمحب» ، إذ كنت جد مشوق إلى لقائه ، وقد علمت أخيرا أنه لا يزال على ظهر سفينة القيادة ، فذهبت إلى هناك مهرولا ، وطلبت من حارس السفينة أن ينبئ سيده برغبتى فى مقابلته ، فتلقانى الحارس فى فتور ، ولكنه ذهب وعاد ليدعونى إلى الانتظار بقمرة الربان ، فارتقيت السفينة وكانت هذه أول مرة أركب فيها سفينة حربية ، وهى كما رأيت لم تكن تختلف عن السفن التجارية إلا بما فيها من الأسلحة وعتاد الحرب وكثرة عدد البحارة . وبعد قليل أقبل «حورمحب» ولاح لى أطول قامة وأكثر هيبة وأعرض كتفين ، ولكن وجهه مع ذلك كانت تغيم عليه بعض الخطوط الباهتة ، كما كانت عيناه تبدوان مجهدتين داميتين ، فانحنيت أمامه انحناءة كبيرة ومددت ذراعى إلى الأرض ! .. ولكنه قابل حركتى هذه بضحكة عالية وقال : أنت «سنوحى» ابن الحمار الوحشى !.. حقا إنها لساعة سعيدة ، هذه التى ألقاك فيها ..

ونهضت مستأنسا بهذه العبارة اللطيفة ، وحسبته يفتح ذراعيه ليضمنى إلى صدره ، ولكنه لم يفعل كما لو كان ذلك شيئًا غير لائق بمكانته كقائد عظيم ! .. وسرعان ما التفت إلى ضابط بدين منتفخ العينين كان يقف خلفه ، وناوله سوط قيادته الذهبى قائلا : خذ هذا وتول به القيادة ، ولعل يديك القذرتين لا تعجزان عن إراقة الدماء ! .. ثم خلع طوقه الموشى بالذهب ووضعه على مشجب ، ووجه الحديث إلى قائلا : هأنذا ، أيها الصديق « سنوحى » ، قد صرت حرا وباستطاعتى الآن أن أذهب معك إلى حيث تشاء ... وأرجو أن أجد بدارك حشية من فراش أستلقى عليها لأريح عظامى المكدودة ، فإنى ، بحق « ست » وكل الشياطين ، لأعانى من الجهد والتعب فوق ما أطيق لطول معاشرتى للمجانين ومجادلتهم ! ..

والتفت «حورمحب» مرة أخرى إلى الضابط الصغير الأقصر قامة ، الذى أعطاه سوط القيادة ، وقال لى : تأمل هذا الرجل جيدا يا «سنوحى» ، حتى تظل صورته مطبوعة فى ذاكرتك ، فهو الرجل الذى ألقت إليه الأقدار منذ اليوم حظ « طيبة » بأمر فرعون ، فقد شاء أن يبوئه مكانى فى قيادة الجيش ؛ لأنى كنت قد ذكرت له أنه

مجنون !.. فلعلك حين تتأمله جيدا ، تشعر بأن « فرعون » سوف يضطر إلى العدول عن رأيه فيه ، ويحتاج إلى مرة ثانية ... وأغرب «حورمحب» في ضحكه ضاربا بيديه على ركبتيه ، ولكنه في ضحكه هذا كان بادي التكلف ، فأحسست أن في نفسه هما يداريه ، فلم أسترح لذلك ... وكان الضابط الصغير يقف منا في وداعة ، والعرق لشدة الحرارة يتصبب من وجهه وعنقه وصدره ، فقال في تأثر وبصوت واضح: أرجو ألا تغضب مني يا «حور محب» فإنك لتعلم أنني لم أنفس عليك قيادتك ، ولم أشعر يوما بأثر من الحقد عليك لمكانتك ، وكم كنت أتمنى أن أفرغ لقططي وحديقتي فإني أوثر السلام على ضوضاء الحرب !.. ولكنها أوامر «فرعون » ولا قبل لمن كان في هوان شأني بمعارضتها !.. ثم قال إن الحرب لن تكون ، لوثوقه أن الإله الزائف سينهار سلطانه من غير دماء تراق ..

فقال له « حورمحب» معقبا : لم يعلن «فرعون» إلا مايتمناه ، وهو في هذا التمني يصدر عن قلبه الذي انفصل عن عقله انفصال العصفور من بيضته ! .. وأيما قرار لا يشترك العقل في تدبيره لا يقام له وزن وبخاصة إذا كان متصلا بسياسة الأمور العامة ، فاستمع لما أقول لك ولا تنسه ، وأعلم أنه لا معدى من إراقة الدماء ، حتى لو كانت دماء مصرية ، فما أكثر ما تدعو الضرورة إلى ذلك ، ولا ضير في أن تتوخى ، في هذا ، القصد والاعتدال ! .. وبحق صقري لأجلدنك بيدي إذا رأيتك تتخلى عن عقلك إلى ملاعبة قططك ! .. واذكر أنك كنت في عهد « فرعون » السابق محاربا متألقا ذائع الشهرة ، وما كان « فرعون » الجديد ليعهد إليك بمنصبك الحالي إلا لأنك كذلك ، وإنك لمقبل على أحداث ذات خطورة ستلقي على كاهلك عبئًا ثقيلا !..

قال هذا ، ثم وكز القائد الجديد في ظهره بينما كان هذا القائد يلهث ويغص بريقه وتتجمد الكلمات على لسانه ..

وفي خطو متئد، سار «حورمحب» على ظهر السفينة ، وأنا برفقته والجنود على الجانبين يفسحون الطريق أمامه معتدلي القامات ، رافعي الحراب ، تحية له ، وكان يهز لهم يديه قائلا : وداعا أيها الجنود .. وعليكم أن تطيعوا أوامر هذا الضابط الذي

يتولى قيادتكم الآن .. أطيعوه كما لو كان طفلا ! .. وأمنوه على نفسه فلا تدعوه يسقط من فوق العجلات ، فقد يصاب بجراح ومن سكينه نفسها ، وهو لا يدرى !..

وأثار هذا ضحك الجنود فهتفوا له ، وأشادوا بمدحه ، فاستدار لهم غاضبا ، وقال وهو يهز في وجوههم قبضة يده : كلا .. إنني لا أودعكم إلى غير لقاء ... فعما قريب سنتلاقى ، وما أردت إلا أن أنصحكم بالمحافظة على سلوككم الطيب ، فإن رأيت منكم انحرافا ، فلن أتردد ، عندما أعود إليكم ، فى تأديبكم ونزع أشرطتكم ! ..

وقبل أن نغادر السفينة سألنى «حورمحب» عن عنوان منزلى ، وأنبأ به الضابط المنوب ، وأمره أن يبعث بأمتعة إلى هناك ، لاعتقاده أنها بمنزلى تكون أكثر أمنا منها بالسفينة الحربية .

ووضع ذراعه فوق عنقي ، على ما جرت به التقاليد حينذاك ، وقال : إنه ليس أحد يا «سنوحى» أشد منى فى هذه الليلة حاجة إلى المنامة والشراب ! .. فدعوته لفورى إلى شراب «ذنب التمساح» بحانة «كابتاح» منوها بقوته وسحره ، فرحب بهذه الدعوة مسرورا ! .. واهتبلت الفرصة ،فرغبت إليه فى أن يأذن بإقامة جندى خاص على الحانة لحراستها ، فأصدر أمره بذلك فى الحال إلى الضابط الموكل بالمراقبة ، وهذا وعد بندب بعض الجنود الأشداء لتولى هذه المهمة ، وبذلك استطعت أن أؤدى فى هذه الظروف المتفاقمة الأحداث ، خدمة طيبة « لكابتاح» دون أن تكلفنى شيئا .

وكنت أعلم أن فى حانة « ذنب التمساح » عددا كبيرا من الحجرات الخاصة ، يتجمع فيها اللصوص الخطرون ومن يتعاملون معهم فى الأشياء المهربة أو المسروقة ، وفى بعض هذه الحجرات كان نساء ذوات شهرة يتلاقين ، على ميعاد ، مع حمالى الميناء ذوى السواعد المفتولة والعضلات القوية ، فاخترت لجلستنا بالحانة إحدى هذه الغرف ، وأقبلت علينا «ميرييت» حاملة شراب الحانة الممتاز ، فاستوعبه «حورمحب» فى جرعة واحدة ، واستطابه فطلب كأسا أخرى، وهو يصعد أنفاسه متأوها ، فمضت «ميرييت» لتجىء له بها ، وكان يتابع الفتاة بنظره معجبا بجمالها ، وسألنى عما إذا كانت لى بها علاقة خاصة ، فنفيت له فى صيغة تأكيد ، وقد سرنى أنها لم تكن فى

هذه الليلة قد ارتدت ثوبها المفتوح الصدر ، فلو أنها كانت ترتديه ، لكانت أشد إغراء وإثارة لهذا القائد الظامئ ! .. على أنه لم يجاوز في معاملتها حد التحفظ ، مكتفيا بالإعراب لها عن شكره ...

وأمسك «حورمحب» كأسه الثانية ، وقال لي متنهداً ظاهر الجهد : غدا ، يا «سنوحي» ، ستهدر الدماء بغزارة في شوارع « طيبة » ولن يكون بمستطاعي حقنها ، فإن «فرعون» صديقي ، وإني لأحبه بالرغم من جنونه ، ولعلك لم تنس إني دثرته بعباءتي وقت أن ربط «صقرى المقدس» مصيره بمصيرى ، ولكني أشفق على مستقبلي من التورط في نضال كهذا سيعرضني لكراهية الناس ، وما أريد أن يكرهوني .. آه .. ياصديقي « سنوحي» ، إن مياها غزيرة لا يمكن قياسها قد جرت في النيل منذ التقينا ، أنا وأنت ، لآخر مرة في «سوريا » ! .. وها أنذا قد عدت أخيرا من أراضي «الكوش» مأمورا من «فرعون » بتسريح حامياتها ومعي الجنود السود ، ومعنى هذا أن جنوب القطر المصرى قد أصبح مكشوفا بغير حماية ، فإذا ظلت الحال هكذا فلن ينقضي طويل وقت حتى تهب ريح الفتنة ويندلع لهيبها في «سوريا » ... وقد تعيد هذه الفتنة عقل «فرعون» إلى رأسه ، ولكن البلاد خلال ذلك يكون الفقر قد أنهكها وأنشب فيها أظفاره ، فهي أعجز من أن ترد إذ ذاك عادية أو تقر نظاما ، وإنك لترى أنه منذ اعتلى العرش متوجا ، لم يعد يعمل بالمناجم والمحاجرإلا عدد ضئيل من العمال وهؤلاء على قلتهم لا يعملون إلا في كسل واسترخاء ، فقد حظر استعمال العصي في إلهاب عزائمهم ، وقل بذلك إنتاجهم ، وضاقت رحاب الرزق تبعا لهذا على الناس ، وتلك حال يتصدع لها فؤادى لا من أجل « فرعون » فحسب ، بل من أجل « مصر» أيضا ، ولن يكون مستقبل إلهه أسعد حالا من ذلك ، ولا يعنيني أمر هذا الإله الذي صرت محاربا لحسابه ، فإني لا أومن بالآلهة ، ولكن الذي يعنيني من أمره أن الكثرة الكاثرة من الناس سيلاقون حتفهم في سبيله ! .. فما أشدها من حماقة ، وما أفدحه من جنون ! .. وعجيب أن يقع هذا باسم الإله الذي زعم «فرعون » أنه إله الأمن والسلام !..

واستطرد «حورمحب» قائلا ، بعد أن توقف قليلا : سيخلع «أمون» في الغد ، ولن أندم على ذلك كفرد من الناس ، فقد طغى سلطانه على سلطان «فرعون» ، ومن الخير لهذه الأمة أن يدال سلطانه ويتحطم نفوذه ، وتصادر أملاكه الواسعة ، وحين يفعل « فرعون » هذا يكون قد أعاد إلى الشعب حقوقا مغتصبة وأرزاقا حبيسة ، بقدر ما يكون قد مكن لنفسه في مباشرة سلطاته حرا غير متعثر في قيود « آمون» . ولكن هناك إلى جانب هذا كهنة الآلهة الأخرى ، فإن هؤلاء حاقدون بلا ريب على « أمون » ؛ لأنه يحد من قوتهم ويوهن مكانتهم ، فهم يتمنون زواله ، ولكنهم في الوقت نفسه ليسوا أقل حقدا على « أتون» ! .. وللكهنة في هذا الجانب أو ذاك سيطرتهم المؤثرة في قلوب الناس ، ولهذا ستكون المعركة في أكثر من ميدان ، وباصطراع هذه القوى المتعددة ، ستقع الكوارث فادحة ! ..

قلت له : ولكن ثمة حقيقة ينبغي ألا تغرب عن البال ، هي أن «أمون» إله مكروه، وأن كهنته يلقون بعقول الناس في متاهات مظلمة ، ويحجرون على آرائهم حجرا شديدا ، فما يقدر إنسان أن يرى رأيا أو يدير لسانه بكلمة إلا إذا أذنوا له في ذلك باسم «أمون» ، وليست هكذا حال « آمون » ، فهو على النقيض من ذلك يمنح النور والحرية والحياة الآمنة التي لا يشوبها خوف ولا وجل ، وهذا شيء عظيم ، عظيم جداً ، ياصديقي «حورمحب» ! ..

قال : لا أفهم ماذا تعني بالخوف ! .. فهل يمكن أن تساس أمور الناس بغير خوف ؟! إن الخوف هو مساك حياتهم ومقومها ، وبغيره تصبح الحياة فوضى . والخلاف هنا هو ، على أي منهما يكون باعث هذا الخوف في نفوس الناس ، أهو « فرعون » ؟ أو «آمون» ؟! . فإذا كان الأمر إلى «أمون» فهو يحكم الناس مرهوبا بألوهيته ، وحينئذ لا يحتاج عرش «فرعون» إلى حراب تدافع عنه ، فإن انتقل الأمر إلى «فرعون» كانت هذه هي النتيجة نفسها ، ولكنها تكون، إلى جانبه هو ، رهبة بسلطانه . ولو أن «أمون» قنع بأن يكون خادما لفرعون ، لاستقامت الحال، ولاستحق أن يبقى في مكانه آمنا ، فلا بد ، مهما يكن الأمر، من أن يحكم الشعب بالخوف

مؤزرا بتفاهم السلطتين. وهاهو ذا «أتون» ، على وداعته ودعوته للمحبة ، يبدو، فى مركز ألوهيته، معبودا خطيرا مرهوب الجانب!..

قلت له فى هدوء: وأنا غير مدرك لماذا قلت له ذلك : إنه إله أعظم مما تتصور ! .. ربما كان يتقمصك وأنت لا تدرى ، وقد يكون كذلك معى!.. ولو أن الناس فهموه حق الفهم، لوجدوا فيه منقذهم من الخوف ومن الظلام . ومع هذا فمن المحتمل أن يموت كثيرون فى سبيله ، كما تقول ؛ لأن الآراء الأبدية لا يمكن تثبيت عقائد الناس فيها إلا عن طريق فرضها بالقوة ..

ونظر إلى «حورمحب» متململاً كما لو كان يستمع إلى ثرثرة طفل ، ولكنه استمد من شراب «ذنب التمساح» روحا لطيفة أضفت عليه اعتدالاً فى المزاج، فقال : إننا فى القليل، متفقان ، على أن «آمون» يجب أن يزاح، وخير الوسائل إلى ذلك أن يقع القضاء عليه فجأة ، وفى سرية مطلقة ، وفى كل أنحاء البلاد وفى وقت واحد ، وأن يقتل ، على الفور ، الكهنة أصحاب المراتب العالية، ويبعث بمن دونهم من الكهنة إلى المناجم والمحاجر ... فالمفاجأة الخفية الباطشة هى وحدها وسيلة الخلاص ووسيلة اتقاء الفتنة ، ولكن «فرعون» فى خبال عقله يرى أن يتم هذا الانقلاب الخطير على مرأى من الناس جميعا وفى وضح نور إلهه الذى هو قرص الشمس، وهى عقيدة ليست بجديدة ! .. وهذا اتجاه جنونى من غير شك، ومعناه، كما أتوقع ، اشتداد الصراع ، وإراقة الدماء فى أوسع نطاق . ولن أحاول الاشتراك فى تنفيذ هذه الخطة الجنونية التى لم أخطر بها مقدمًا ولم يؤخذ فيها رأيى من قبل . ويحق «ست» وسائر الشياطين ، لو أننى دعيت إلى إبداء الرأى ، فى الوقت المناسب ، لأخذت على عاتقى مهمة الإجهاز على «آمون» بالوسيلة نفسها المحكمة التى ذكرتها ، وسيلة المفاجأة الخاطفة ! .. ولكن ذلك شىء قد فات أوانه، واستغلق سبيله ، فقد أصبح كل الناس فى شوارع «طيبة» حتى أطفالهم ، يعرفون الخطة الموضوعة ويتحدثون بها جهارا ، وراح الكهنة يفرغون كل جهودهم لإفسادها ، بإثارة الناس الذين يتحاشدون فى ساحات المعبد ، وصار أمرا عاديا أن ترى الرجال ينتزعون أشجار الحدائق

ويحملونها بأيديهم ويتخذون منها أسلحة للمعركة المنتظرة ، وقلما تذهب الآن امرأة إلى المعبد إلا وتحت ملابسها هراوة مخبأة ! .. فيا إلهى إن الأمر لفظيع ، وإن «فرعون» بجنونه ليدفع بالشعب إلى الهاوية !..

قال «حورمحب» هذا منفعلا ، ثم ألقى برأسه بين يديه ليخفى دموعه التى تحدرت على وجهه لفرط تأثره .

وجاءت «ميرييت» حاملة الكأس الثالثة إلى «حورمحب» ، ووقفت حياله تنظر فى إعجاب إلى كتفيه العريضتين وعضلاته القوية، فأمرتها محتداً أن تدعنا وحدنا ، فانصرفت ، وأخذت أنا فى تحويل مجرى الحديث معه إلى ماكان من رحلتى فى «بابل» وفى أرض «الحيثيين» وفى «كريت ، ولكنه كان قد استسلم للنعاس العميق، كأنما تسلل تمساح الحانة حيا إلى بدنه وضرب بذنبه فى رأسه ! .. وبت أرعاه فى نومه ، لا أقطعه عليه، متشاغلا بمفاكهات الجنود وطرائف أحاديثهم ، وكان «كابتاح» وصاحب الحانة القديم يبالغان فى العناية بهم ، طمعا فى أن يكونوا حماة الحانة إذا ما ثار الاضطراب ووقعت الواقعة !.. وخلال هذه الليلة ، التى شعرت كأنى وحيد فيها ، كان يقلقنى التفكير فى الأحداث الوشيكة الوقوع. فهذا الذى يقوله «حورمحب» صحيح كله ، فما يخلو بيت من بيوت «طيبة» من السكاكين المشحوذة ، والعصى المدببة، والأوتاد الخشبية الطويلة قد ركبت الأسنة النحاسية بأطرافها . ولا ريب فى أن القليلين جدا من الناس هم الذين نامت عيونهم فى تلك الليلة الرهيبة !.. على أنه من المحقق أن «فرعون» لم يكن فى عداد النائمين ، بينما كان «حورمحب»، القائد الذى ولد محاربا ، ينام بين يدى نوما عميقًا !..

- ٢ -

وفى تلك الليلة ذاتها تجمع الناس أمام المعبد، وقضوها كلها ساهرين ، مترقبين، وافترش فقراؤهم حشائش الحدائق الرطبة بينما كان الكهنة فى حركة دائبة يواصلون

تقديم القرابين إلى « آمون » في سخاء ، ويوزعون لحومها مع الخبز والنبيذ على هذه الجماهير المتكاثرة الساهرة، وهم يبتهلون إلى «آمون» بأصوات جهيرة، ويبشرون بحياة الخلود لمن يؤمنون به ويضحون بأرواحهم فى سبيله ! ..

وكان واضحًا أن هؤلاء الكهنة يستطيعون ، أكثر من غيرهم ، درء الفتنة وحقن الدماء ، لو أنهم راضوا أنفسهم على التسليم بمشيئة «فرعون» ، فإنه حينئذ سيتركهم فى سلام آمنين ، لا ينالهم بشر ولا يفكر فى إراقة دمائهم ، فإلهه الذى يدعو إليه ويأبى أن يعبد الناس إلهًا غيره ، يحرم سفك الدماء ، كما يحرم السخيمة والبغضاء . ولكن الكهنة يريدونها حربًا مشتعلة الأوار ، تشبثا بما تمكن لهم من الثروة والجاه وقوة السلطان ، فما يطيقون أن يضحوا بمطامعهم من أجل الأمن والسلام ، وهم لا يجهلون أن موقفهم ، هذا العنيد ، مغامرة وخيمة العاقبة، فلا هذه الجموع التى ينفثون فيها روح التضحية ، ولا حراس «آمون» القلائل، بمستطيعين الوقوف طويلا فى وجه قوات مسلحة مدربة طالما خاضت غمار الحروب والمعارك، وإنها، لأول اشتباك بهم ستكتسحهم كما تكتسح المياه المتحدرة من عل كل ما فى طريقها من أكوام القش الجاف ... إن الكهنة ، مع وضوح هذه الحقيقة لهم ، يمعنون فى العناد والمغامرة، لتكون الدماء المسفوكة، بين يدى «آمون» و «آتون» ، وسيلة لتأكيد دعواهم أن «فرعون» قاتل سفاح ، سلط النوبيين على المصريين ليهدروا دماءهم ويمثلوا بهم ، ومن السهل عليهم أن يصوروا للمصريين أن دماءهم وأرواحهم قد بذلت قربانا من أجل «آمون» الذى يجب أن يظل اسمه خالدًا إلى الأبد، حتى لو حطم تمثاله، وتهدم معبده!..

وأخيرا انجابت ظلمة الليل ، وظهر فى الأفق قرص الشمس «آتون»،مرسلا أشعته من فوق التلال الشرقية الثلاثة، وبدأت الحرارة اللافحة تدب فى أوصال الحياة، واستفتح الناس يومهم على نفخ النفير وأصوات المنادين ، وهم يقرءون بلاغًا من «فرعون» يعلن فيه أن «آمون» إله زائف ، وأنه – لذلك – قد وجب خلعه وتشييعه باللعنة إلى الأبد ، مع محو اسمه من النقوش والآثار والمقابر ، ومصادرة كل معابده، فى المملكتين العليا والسفلى وكل أراضيه ومواشيه وخدمه ومبانيه وذهبه وفضته

ونحاسه لحساب «فرعون» وإلهه... ويعد «فرعون» فى بلاغه بتحويل معابد «آمون» وحدائقه وبحيراته المقدسة إلى مرافق عامة ، ينتفع بها جميع أفراد الشعب أحرارا ، كما وعد بتوزيع أراضى هذا الإله الزائف على الذين لا يملكون أرضا ليزرعوها باسم «أتون» ..

واستمع الناس إلى هذا البلاغ فى صمت على عادتهم، ولكنه صمت أعقبه ، فى كل مكان ، فى الطرقات والميادين وأمام المعابد، صوت قاصف كالرعد يردد: «آمون» ... «آمون»!... وكان مجلجلا عريضا صاعقا، حتى لكأن الأحجار والجدران ترددة هى الأخرى. وهنا ساد الاضطراب فرق الجنود النوبيين، وتجهمت وجوههم وزاغت أبصارهم، وتلفتوا يمينا ويسارا ليروا أنهم، على كثرة عددهم، صاروا قلة وسط المدينة العظيمة الصاخبة التى يرونها لأول مرة فى حياتهم ... وفى موج هذا الضجيج المتفاعل الشامل لم يسمع الكثيرون أن «فرعون» قد قرر فصل اسمه عن اسم «آمون» وأطلق على نفسه اسما جديدا هو «إخناتون» نسبة إلى «آتون»...

وعلى هذه الجلبة العارمة، تحرك «حورمحب» ، وكان إلى تلك اللحظة لا يزال مسترسلاً فى نومه، فتمطى وهمهم مبتسما ، وسمعته يقول وعيناه مغمضتان : إنه أنت يا «باكيت» محبوبة «آمون» وأميرتى؟! هل تنادينني؟!..

فهززته لأوقظه ففتح عينيه وغابت الابتسامة من وجهه، وقال وهو يتحسس رأسه: بحق «ست» وسائر الشياطين، إن شرابك هذا يا «سنوحى» لقوى شديد، وأحسبني كنت منه فى حلم!..

قلت له: ألا تسمع ؟! إن الناس فى الخارج يهتفون باسم «آمون» !.. وتذكر «حورمحب» كل شىء ، ونهض منتفضًا وسار متجها إلى الباب لفوره، وكنا فى هرولتنا نتعثر بما فى طريقنا بالحانة من سيقان الفتيات والجنود العارية. وانتزع «حورمحب» فى طريقه رغيفا من فوق الرف، فالتهمه وأفرغ فى جوفه ملء قارورة من الجعة، فلما صرنا خارج الحانة حثثنا الخطى إلى المعبد مجتازين الشوارع التى كانت

خالية كما لم تكن من قبل، وعند أول نافورة صادفتنا توقف «حورمحب» ودس رأسه في مائها ليغتسل ويفيق، فقد كان «ذنب التمساح» لايزال يتفاعل برأسه وأعصابه...

وكان الضابط الصغير، أو ذلك القط السمين، الذى يسمى «بيبيت آمون» عاكفا فى ذلك الوقت على ترتيب فرق الجيش والعجلات الحربية وحشدها أمام المعبد، وحينما ظن أن كل شيء قد تم على ما أراد، وأن كل جندى قد فهم التعليمات التى صدرت إليه، اعتلى محفته المذهبة وأخذ يصيح فى صوت حاد قائلا: ياجنود مصر! يارجال «كوش» الأبطال!.. أيها الشردانيون الأشداء .. اذهبوا جميعًا الآن، وحطموا تمثال «آمون» الملعون، صدوعا بأمر «فرعون»، واعلموا أنكم ستنالون على ذلك أجزل المكافأة وأسخى الجزاء!..

واعتقد بعد هذا أنه قد فعل كل ما هو مطلوب منه فاستوى جالسًا بالمحفة مسترخيًا فى وسائدها الوثيرة، بينما كان الأرقاء يظللونه بمراوحهم ويحركونها حواليه تلطيفا لحرارة الجو التى كانت بالغة الشدة..

وإذ ذاك كانت جموع من الناس لا حصر لها من رجال ونساء وشيوخ وأطفال ، يقفون فى ملابسهم البيضاء أمام معبد «آمون»، فلما رأوا القوات العسكرية والعجلات الحربية الزاحفة عليهم لم يهنوا ولم يتراجعوا، وفى زئير مدو، ألقوا بأنفسهم على الأرض لتمر على أجسادهم الخيل والعجلات ، وهنا رأى قادة القوات العسكرية أنهم لن يستطيعوا التقدم من غير إراقة دماء، وهم غير مأمورين بذلك ، فأمروا جنودهم بالتقهقر إلى أن يتلقوا أوامر أخرى، فكان هذا التقهقر المفاجئ، إلى ماتناثر على أحجار الميدان من دماء الذين سارت الخيل والعجلات على أجسادهم، مثيرا لحماسة الناس وهياجهم، وقد اعتقدوا أنهم انتصروا على الجنود..

وعاد الضباط إلى قائدهم «بيبيت آمون» ، وهم مضطربون يتفصدون عرقا، لمشاورته فى الموقف، ولكنه كان مشغولا عنهم فى هذه اللحظة بشيء آخر، هو أن «فرعون» قد أعلن تغيير اسمه إلى «إخناتون»، وأن اسمه هو لا يزال مقترنا باسم

«أمون» ، فلماذا لا يغير بدوره هذا الاسم؟!. وإذن فليكن اسمه «بيبيت آتون» من الآن .
غير أن الضباط لم يكونوا قد عرفوا شيئا عن هذا التغيير، فكانوا، وهم يعرضون الموقف عليه، ينادونه باسمه المعروف «بيبيت آمون» فلم يبد اهتماما بهم ، وتظاهر بأنه لا يسمعهم !.. وبعد لأى فتح عينيه الواسعتين وقال لهم فى تثاقل: ليس هنا أحد بهذا الاسم، إن اسمى، إن كنتم تريدوننى هو: «بيبيت آتون» !..

واشتد غضب هؤلاء الضباط الذين كان كل منهم يحمل سوطا ذهبى المقبض ويقود ألفا من الجنود ، فتقدم أحدهم وهو رئيس سلاح العجلات الحربية وقال مخاطبا هذا القائد: فليذهب «آتون» إلى الهاوية !.. ما هذه الحماقة ؟! إنما نريد أوامرك!..

فقال لهم ساخرا : لست أدرى ، أمحاربون أنتم أم نساء ؟! عودوا كما كنتم ، فشتتوا شمل هذه الجماهير ، فما أرى ذلك أمرا يعجز الرجال المحاربين !.. ولكن حذار أن تسفكوا قطرة من دم، فهكذا أمر «فرعون» !..

فنظر الضباط بعضهم إلى بعض مدهوشين ، وبصقوا على الأرض إعرابا عن امتعاضهم لهذا التصرف العجيب، فكيف يعالجون الموقف الذى بلغ أقصى درجات الحرج من غير دم يراق ؟! .. ذلك شيء غير مستطاع ، ولكنهم عادوا إلى جنودهم حيارى إذ كان لا يسعهم إلا أن يطيعوا أمر القائد الكبير !..

وفى هذه الأثناء ، كانت جموع الناس تزداد تجمهرًا وتتدافع فى قوة على الجنود المتراجعين ، وتنهال عليهم ضربا بالعصى والهراوات ، وقذفا بالطوب والحجارة . وكان الجنود النوبيون يتلقون ضربات الثائرين المتلاحقة ، ويخرجون أمامهم مضرجين بدمائهم . وهاجت جياد العجلات الحربية ، وعجز قادتها عن كبح جماحها . فلما عاد رئيس سلاح العجلات هاله الأمر ، وأزعجه أن وجد هذه الجياد المفضلة عنده، العزيزة عليه، قد فقد بعضها عينه، وأصيب بعضها فى ساقة، بسبب ما كان ينصب عليها ، انصباب المطر، من قذائف الحجارة والطوب، فصرخ غاضبا

مهتاجا وهو يقسم ليثأرن لها، فهى أحب إليه من الناس والآلهة جميعًا !.. ومن ثم تقدم على رأس عجلاته مقتحما بها الجموع المحتشدة ، وكان عليه أن ينتقم ، متحاشيا إراقة الدماء ، طوعا لإرادة «فرعون»!.. فكانت وسيلته إلى ذلك أن يخطف سائقو العجلات أكثر الثائرين تحمسا ، وأن يضعوهم فوق عجلاتهم ثم يجهزوا عليهم خنقا بسيور أعنة الخيل ، وقد قضوا بذلك عليهم دون أن يريقوا الدم المحظور !.. وكذلك فعل الجنود النوبيون ، فقد كانوا يرشقون سهامهم في صدور الناس ثم يخنقون من يسقط منهم بأوتار أقواسهم ، وهم يتحامون ، قذائف الحجارة ، وعصى الثائرين ، بدروعهم . وعلى شدة ما أصاب الناس من الرعب والفزع لكثرة مارأوا من ضحاياهم الذين قتلوا خنقا ، أو الذين خروا صرعى من العجائز والأطفال تحت سنابك الخيل ، فإنهم فى هياج جنونى كانوا يتصيدون الجنود الذين ينفصلون عن صفوفهم فيمزقونهم شر ممزق ، وقد استطاعوا أن ينتزعوا سائق إحدى العجلات من مقعده فيها ، ويهشموا رأسه فوق الأحجار التى رصف بها الطريق .

وبينما كانت المعركة على أشدها ، كان القائد العام «بيبيت آتون» قلقا ، لأن انتظاره قد طال ، والساعة المائية التى بجانبه (تخرخر) مؤذنة بأن الوقت قد تقدم أكثر مما كان يتوقع ، ولا تزال صيحات الثائرين وضجتهم الصاخبة تقرع أذنيه وتترامى حوله كأنها السيل الجارف ، فأخذ ينادى ضباطه ويعنفهم على إبطائهم قائلا : إن قطتى السوداء «ميمو» تعانى اليوم من آلام الوضع ، وإنى لمشفق عليها ، وكان ينبغى أن أكون بجانبها لأعينها ! .. فبحق «آتون» إلا ما عجلتم بتحطيم تمثال «آمون» الملعون ، حتى نعود إلى دورنا .. وإلا فإنى ، بحق «ست» وجميع الشياطين ، منتزع قلائدكم من رقابكم، ومقطع سياطكم ... وها أنذا قد أقسمت منذراً، ولا تلومون إلا أنفسكم !..

فما أن سمع الضباط نداء قائدهم حتى أدركوا أنهم مسئولون عن النتائج مهما تكن ، ورأوا أن عليهم أن ينقذوا شرفهم كجنود ورجال حرب... فأعادوا تنظيم قواتهم وانقلبوا بها على الناس مهاجمين ، وأعمل الجنود النوبيون حرابهم فى رقاب

المتجمهرين ، فسالت الدماء أنهاراً على أرض الميدان الفسيح ، وباسم «آتون» سقط في ذلك اليوم عشرات الألوف قتلى بين رجال ونساء وأطفال ...

ورأى الكهنة أن الزمام أفلت من أيديهم ، فلاذوا بالمعبد وأغلقوا عليهم أبوابه ، في حين تفرق الذين نجوا من الموت ، مسلمين سيقانهم إلى الهرب كأنهم قطعان من الأغنام الخائفة ، ومن خلفهم الجنود ، الذين أسكرهم منظر الدماء ، ينكلون بكل من تصل إليه أيديهم ، وطافت العجلات الحربية في الطرقات ملقية الرعب في القلوب ..

ولكن الفارين الفزعين ما لبثوا أن اتخذوا طريقهم متجمعين إلى معبد «آتون» فحطموا مذابحه، وأجهزوا على كل من لقيهم من كهنته فلحقت بهم هناك العجلات الحربية ، وانقضت عليهم انقضاض الصواعق واصطبغت ساحة معبد «آتون» بالدماء المسفوحة، وتراكمت على أرضها جثث القتلى ، وتكررت فيها المأساة نفسها! ..

ووقف الجنود النوبيون على أبواب معبد «آمون» التي أغلقها الكهنة في وجوههم ، وشق عليهم أن يخترقوا هذا الحصن عنوة، وعبثا حاولوا فتح أبوابه النحاسية الضخمة بآلاتهم الحربية المعدة لهدم الأسوار ، ومن وراء أسواره كان الكهنة يرددون ، في أصوات عالية، لعنات «آمون» على منتهكي حرمته، وفي الوقت نفسه كان حراس المعبد يسددون سهامهم إلى أجسام الجنود ويرشقونهم بالحراب ،حتى سقط منهم كثيرون بين قتيل وجريح .

وأبطأت نتيجة المعركة على «بيبيت آتون» فأقبل على عجلته المذهبة إلى الميدان ، فارتاع لمنظر القتلى والدماء ، وشق ملابسه حنقا وحزنا ، وأمر أرقاءه بأن يحرقوا البخور حوله لتنفي عنه رائحة الجثث التي احتشدت عليها أسراب الذباب ، فإنه لا يطيقها ، ولكنه كان لا يزال مع ذلك مشغولا بقطته السوداء «ميمو» قلقا عليها . ولهذا أراد أن يتعجل عودته ، فقال لضباطه : سيكون غضب «فرعون» عظيما ، وهذا ما أخشاه ؛ لأنكم لم تستطيعوا تحطيم تمثال «آمون» تنفيذا لمشيئته، ولأنكم ، بالرغم من هذا ، وخلافا لأمره ، قد سفكتم الدماء حتى سالت هكذا أنهاراً ، فلا مناص من أن

أعود مسرعا إليه لأنبئه بما حدث مستشفعا لكم عنده . وسأعرج بعد ذلك على منزلى لأطمئن على حال قطتى ، ولأبدل ملابسى . ولا أرى أننا قادرون اليوم على هدم أسوار المعبد ، فلنرجئه إلى أن يقرر «فرعون» نفسه ماذا يمكن أن نعمل ؟..

وعلى تلك الحال انتهى اليوم، وقد سحب الضباط قواتهم من حول الأسوار ومن بين أكوام جثث القتلى وطلبوا أطعمة للجنود، فسيقت إليهم محمولة على العربات .

على أن المدينة كانت خلال الليالى الثلاث التالية، مسرحا للاضطرابات والفوضى وعبث العابثين ، فاشتعلت النيران هنا وهناك ، وسطا الغوغاء واللصوص وسارقو المقابر وقطاع الطرق ، على المنازل وانتهبوها، وكان هؤلاء ، وهم الذين لا يؤمنون بالآلهة ولا يخافونها ، يصطنعون التقى ويتظاهرون بالإيمان «بآتون» ويرددون اسمه تبركا به ، ويدخلون إلى معبده، وكان قد أعيد تطهيره وتنسيقه ، ليتلقوا رموز الحياة من كهنته ويعلقوها فى أعناقهم كالتعاويذ والتمائم ، ومن وراء هذا الستار الزائف كانوا يعيثون فى المدينة فسادا ويرتكبون شر المآثم . أما الجنود النوبيون فكانوا فى لهو متصل ، يشربون النبيذ فى كئوس مذهبه ، وينامون على الأسرة الوثيرة ، وتراخت حياتهم وسط هذه الفوضى على نحو لم يسبق له مثيل .

وكان طبيعيا أن تستنزف تلك الأحداث الرهيبة قوة «طيبة» وثروتها ، فانسابت حيويتها انسياب الدم من الجراح العميقة فى الجسم الزاخر بالدماء ...

ولم يكن أحد يعتقد أن «طيبة» ، وهى فى تلك الحال من الدمار والانهيار ، عائدة إلى ما كانت عليه قبل انقضاء سنين ذات عدد .

– ٣ –

وكان «حورمحب» بمنزلى حائرًا شارد الفكر لا يغمض له جفن حتى ذبلت عيناه وفقد الشهية للطعام ، وكانت «ميوتى» تأسى له وتشفق عليه فتكثر من الجلوس بين يديه وتفتن فى الترفيه عنه ، وهى فى ذلك تبدو مشغوفة به، تعطيه

من الاحترام والعناية أكثر مما تعطيني منهما ، وسر هذا أنها ، مثل الكثيرات من النساء ، كانت تستهويها منه عضلاته القوية البارزة.

وقال لي «حورمحب» مكتئبًا : ليس يعنيني شيء من أمر « آمون» أو «آتون» ، وإنما يعنيني ويؤرقني أن رجالي صاروا وحوشا بسببهما ، ومن الصعب العسير أن أستعيدهم إلى حالتهم كجنود طائعين منظمين . من غير أن تجلد ظهور الكثيرين منهم وتقطع رقاب بعضهم .. وهذا أمر يؤسف له، كنت أود ألا يكون بالنسبة لمثل هؤلاء الذين كانوا محاربين أبطالاً ! ..

تلك كانت حال «حورمحب» : حسرةً ، وقلقا ، وعمق تفكير ..

وعلى النقيض من هذا ، كان «كابتاح» موفور العافية تزداد ثروته يومًا بعد يوم ، ويمتلئ جسمه شحما ويلمع وجهه نضارة ، ولا يكاد يفارق حانته لحظة من ليل ، لكثرة روادها من الضباط ورؤساء الجنود من الشردانيين ، وهؤلاء كانوا يدفعون ثمن الشراب ذهبا ، وينفقون في شرابهم عن سعة ، وقد زخرت الحجرات الخلفية للحانة بأكداس من الجواهر والخزائن والرياش الثمين ، وهي ما كان يقدمه الرواد ثمنًا للشراب بدلاً من النقود!.. وكانت الحانة بهذه الأكداس الغالية ، مما يغري اللصوص بالسطو عليها ، ولكنها كانت إذ ذاك في حراسة رجال «حورمحب»، فكانت لذلك بمأمن من اللصوص الذين كانوا يغدون ويروحون على مقربة منها !..

وأصابني في اليوم الثالث هم شديد ، فقد نفد كل ما عندي من الأدوية والعقاقير ، ولا سبيل إلى شراء غيرها بأي ثمن حتى لو كان ذهبا ولم يبق لي من وسيلة عملية لمواجهة الأمراض التي تفشت بالأحياء الفقيرة من المدينة ، بسبب جثث القتلى والمياه الآسنة ، فضاق صدري لهذا وأحسست كأن بقلبي جرحا . وبرمت بالفقر والأمراض و «آتون» . ومن ثم لم يكن بوسعي إلا أن أذهب إلى حانة «ذنب التمساح» ألتمس فيها شيئًا من الراحة ، وهناك شربت نبيذها المخلوط إلى أن دار رأسي . فغفوت ...

وأيقظتنى «ميرييت» فى الصباح لأجد نفسى راقداً إلى جوارها ، وعلى فراشها نفسه بالحانة ، فأخجلنى هذا ولكنى قلت لها فى غبطة ملحوظة : إن كانت الحياة فى عمومها أشبه ما تكون بالليلة الباردة ، فإن أجمل ما فيها حقا أن يتلاصق اثنان وحيدان ، فيسرى بينهما الدفء المؤنس للوحشة ، والمنعش للأمل ، ولا عليهما بعد هذا أن يغلب الحياء عيونهما وأيديهما ، فلا تبين ولا تتحرك ، تأثرا بعامل الصداقة !..

فتثاءبت وقالت مسترخية، كأن النوم لا يزال ينازعها : تريد أن تقول إننا نخفى فى اليقظة ما نبديه فى النوم ؟! قد يكون هذا حقًّا وقد لا يكون ، ولكن الذى لا شك فيه أننى أجد بجوارك الهدوء والأمن ، والتحرر من المضايقات التى لا تنتهى بالحانة ، فما أشد ما ألاقى فيها من مشاكسات الرواد ، والجنود منهم على الخصوص ، وما أكثر ما أضطر إلى ضربهم على أصابعهم ودفع ذقونهم عنى !.. إنهم يتهافتون علىَّ تهافت الذئاب على الفريسة ، حتى لأعانى من الإفلات منهم ما أعانى ، ولكنى . على بغضى الشديد لتصرفاتهم هذه ، لا أشعر بالاستياء من ذلك لأنى واثقة من أن دافعهم إليه هو الجمال الذى أعرف أننى أتمتع بقسط كبير منه ، ولا أحد يرانى إلا شهد بأن جمالى فوق مستوى الشوائب ، غير أنك أنت وحدك الذى تأبى أن ترضى شعورى ، ولو تجملا ، بمثل هذه الشهادة !..

ولم أعرف كيف أجيبها ، وأحسست أن رأسى يخالطه الصداع . فتناولت كأسا من الجعة ..

وابتسمت «ميرييت» وهى تحدق بعينيها فى وجهى ، ولمحت فى أعماق نظراتها الباسمة آثارا من الأسى تشبه المياه القاتمة فى قاع البئر الصافية ! .. ثم قالت لى : كم أتمنى يا «سنوحى» لو أننى أوتيت القدرة على مساعدتك ... على إنى أعرف بهذه المدينة امرأة مدينة لك بدين كبير، ومن الخير أن تسعى للمطالبة بديونك ، ففى هذه الأيام انقلبت الأوضاع وانعكست الأمور حتى أصبحت أرضيات الدور هى سقوفها وأبوابها تفتح إلى الخارج ، وكان وضعها الطبيعى أن تفتح إلى الداخل ، وكذلك أصبح اقتضاء الديون القديمة عملا لا يجد له صاحبه مكانا سوى الطرقات !..

قلت لها : أظن ذلك غير ميسور يا «ميريبيت»، وتركتها خارجا من الحانة وفي آذاني من كلماتها نغم ، فما أنا إلا إنسان على أية حال ، غير أن قلبي ما لبث أن انتابته اللوعة لمنظر المذبحة وأشلائها المتناثرة ، واستشرى الفزع في نفسي حتى ظننت أن في كل خطوة أخطوها شرا كامنا .. وهنا تذكرت معبد أحد آلهة رءوس القطط والمنزل القريب منه، وكان الزمن قد محا ذكراهما من خاطري ، ففي لحظات الفزع يتذكر المرء أعزاءه الذين افتقدهم بالموت ، ولهذا تذكرت أبي «سنموت» في عطفه وحنوه ، وتذكرت معه أمي «كيفا» في طيبتها ورحمتها ، وأحسست كأني ألعق الدم في ذكراهما ..

وفي ذلك الوقت لم يكن أحد في «طيبة» على شيء من الثراء والشهرة يخشى معهما الخطر على نفسه إلا أبعد في سيره عن الحي الذي يعيش فيه، فلم أر أن بي من حاجة إلى استئجار بضعة جنود يعينونني على تحقيق غرض شعرت أنه يهيم في خيالي، ولكنه كان غرضا غامضا لا أعرف ما هو !..

وتفاقمت الأمور في اليوم الخامس من أيام هذه المحنة، فأفلت الزمام من أيدي الضباط الذين يعملون تحت قيادة «بيبيت أتون» لخروج الجنود على طاعتهم ، ورفضهم الاستماع إلى الأوامر التي تصدر إليهم بواسطة النفير العام، ومجاهرتهم بالتمرد على رؤسائهم، حتى إنهم كانوا يلعنون هؤلاء الرؤساء علنا ويتخطفون سياطهم منهم ويضربونهم بها، وهكذا بلغت الحال من الفوضى والفساد حدا لا يطاق السكوت عليه، فذهب الضباط إلى قائدهم «بيبيت أتون» وكان قد سئم حياة الجندية وانصرف عنها إلى رعاية قططه ! فكاشفوه بالخطر المحدق بهم وبالمدينة ، وأرغموه على أن يقابل «فرعون» دون إبطاء ليطلعه على حقيقة الحال...

وتمخضت الأحداث في ذلك اليوم عن النتيجة التي كان يتوقعها «حورمحب» ، فقد جاءت رسل «فرعون» إلى منزلي ليبلغوه أن «فرعون» يدعوه إليه، فنهض عندئذ نهوض الأسد حين يتأهب للخروج من عرينه ، فغسل وجهه وارتدى ثيابه، ومضى مع الرسل إلى «فرعون» الذي كان سلطانه يتهاوى !..

فلما مثل بين يديه، قال له في جد صارم: «إخناتون» .. لقد تأزمت الأمور ، ولم يعد في الوقت متسع لتذكيرك بما كنت قد أشرت عليك به ونصحتك باتباعه، ولا سبيل إلى معالجة الموقف وحسم الفتنة إلا بأن تتخلى لي عن سلطتك ثلاثة أيام فحسب، ولك أن تطمئن ، فسأعيدها إليك في نهاية اليوم الثالث!.. هذا هو رأيي ، ولا شيء عندي سواه...

فقال « فرعون» متسائلا : وبهذا يتم تحطيم «أمون» وتعفى آثاره؟!..

وأجاب «حورمحب»: ما أرى إلا أن بك مسا!.. فماذا يكون إذن ، وبعد هذه الحوادث الدامية ، إلا أن يزول « أمون » ؟!.. نعم ياسيدي، لن يبقى «أمون» وسأحطمه كما تريد ، ولكن لا تسألني كيف يتم ذلك !..

قال «فرعون» : يبقى أن أسألك أمرا واحدا ، هو ألا تصيب كهنة « أمون» بأذى ، فهم لا يفقهون شيئا مما صنعوا ! ..

فقال «حورمحب» منفعلا : يلوح لي أن جمجمتك في حاجة إلى من يفتحها ، فلا شيء غير ذلك يداويها !.. ومع ذلك فسأطيع أمرك ، فإن لك في عنقي عهدا لا أنكثه منذ تلك اللحظة التي لقيتك فيها عبر الصحراء ضعيفا متهالكا ، فدثرتك بعباءتي ..

فبكى «فرعون» متأثرا ، واستسلم إلى رأي «حورمحب» وأعطاه السوط وعصا الراعي، ليلي الأمر مكانة مدى الأيام الثلاثة التي طلبها..

وهبط «حورمحب» على المدينة بعد ذلك في عربة « فرعون » المذهبة ، مخترقا بها الشوارع والطرقات، مستصحبا معه أشد الجنود ولاء ، وأمر فنفخ في النفير ، فلم يمض وقت قليل حتى تجمع الجنود تحت أعلامهم المميزة بصور الصقور وذيول الأسود ، وبعث إلى كل مكان بالعسس والرقباء ليقبضوا على الجنود الأبقين الذين لم يطيعوا الأمر المذاع بالنفير ، ثم أمر بجلدهم عقابا لهم، ومن وجد بأيديهم أو ملابسهم دماء ، أمر بقطع رقابهم على مرأى من رفاقهم ... وما أن طلع الفجر حتى كان أوغاد «طيبة»

قد استخفوا كما لو كانوا جرذانا توارت من الخوف فى جحورها ، فقد كان جزاء من يقع منهم فى أيدى الشرطة القتل العاجل!..

واستدعى «حورمحب» جميع البنائين والنجارين بالمدينة ، فأمرهم بتقويض منازل الأغنياء وتفكيك أخشاب السفن وانتزاعها ، كما أمر العمال والفعلة باستخدام هذه الأنقاض فى إقامة الطوابى والحصون وأبراج الحصار، وأخذ الجميع فى تنفيذ هذه الأوامر على الفور ، فجلجلت خلال سكون الليل أصوات الآلات التى تعمل فى الهدم والبناء ، ولكن أصواتا أخرى كانت أشد منها دويا، هى أصوات الجنود النوبيين والشردانيين المتمردين الذين كانوا فى ذلك الوقت يجلدون فيتأوهون ويشتد صراخهم ألما ، وقد كان المدنيون من أهل «طيبة» يسمعون صراخهم فتطيب نفوسهم به!..

ولم يشأ «حورمحب» أن يضيع الوقت عبثا فى مفاوضات مع الكهنة، وإنما رأى أن يلافيهم فى قوة ظاهرة مخيفة، ومن ثم بدأ عمله عند شروق الشمس بإصدار أوامره لضباطه، فأحيطت أسوار المعبد بأبراج الحصار فى خمسة مواقع، وأخذت البطاريات تصب قذائفها على أبواب المعبد، ورتبت مواقف الجنود تحت سقائف أقيمت لحمايتهم ، فأخطأتهم - لذلك - رمايات حراس المعبد . ورأى الكهنة وحراسهم أنه لا قبل لهم بهذا الهجوم العنيف المركز ، فتشتتت قواتهم المتجمعة وتواروا مذعورين خلف أسوار المعبد، بينما كانت ساحاته تتفجر بأصوات الذين التجأوا إليها من عامة الناس هلعا وخوفا ..

ولما أن رأى رئيس الكهنة أن الأبواب قد تحطمت ، وأن الطريق قد فتح إلى داخل المعبد، وأن الجنود النوبيين قد سيطروا سيطرة تامة على الأسوار ، أعلن فى النفير طلبه للهدنة حفظا للأرواح ، وحقنا للدماء ، فأذن «حورمحب» للمتجمعين داخل المعبد بالخروج، فخرجوا يتدافعون فرارا ، قانعين من الغنيمة بالإياب إلى منازلهم، بعد أن جفت حناجرهم من فرط الصياح وطول وقوفهم تحت الشمس المحرقة !..

ومنذ هذه اللحظة دخلت فى حوزة «حورمحب» وفى سيطرته، الساحات والمخازن والإسطبلات والمصانع بالمعبد ، دون أن يتكبد رجاله خسائر ذات بال ، وتبعا لذلك وقعت تحت إشرافه «دار الحياة » و «دار الموت» ، فبعث من أطباء «دار الحياة» من يعالجون المرضى والجرحى بالمدينة، وترك «دار الموت» على حالها، فقد كان الذين يقيمون بها بمنأى عن كل مايجرى فى هذه الدنيا !..

ومع أن الكهنة كانوا يرون، عندما اشتدت وطأة الهجوم، الاكتفاء بالتضحيات التى بذلت فى سبيل «آمون» ، وأن الحكمة تقضى بأن تبقى حياة البقية الباقية من المؤمنين به للاستفادة بهم فى المستقبل ، فإنهم قد شق عليهم التسليم طواعية فى المعبد الكبير ، ولهذا وقفوا منه موقف الحماة، وقد ألقوا على حراسه سحرا وسقوهم مخدرا ، ليقاتلوا حتى الموت ، دون أن يشعروا بالم ، فى سبيل الدفاع عن قدس الأقداس ..

وظل القتال على أشده داخل المعبد الكبير إلى أن أقبل المساء ، وظفر رجال «حورمحب» بالحراس المسحورين وبالكهنة الذين استعملوا السلاح ، وأجهزوا عليهم جميعا، فلم يبق إلا الكهنة من المرتبة العليا الذين تجمعوا حول إلههم فى المحراب . وهنا أمر «حورمحب» فتوقف القتال ، وأرسل فى الحال رجالا يجمعون جثث القتلى ويلقونها فى النهر ... ثم اقترب من كهنة «آمون» وقال لهم : إننى لا أشن حربا على «آمون» ، فلست من خصومه كما أنى لست من أولياء الإله الآخر ، فإلهى الذى أقدسه وأفنى فى خدمته هو صقرى «حوراس» ، على إنى قائد جند «فرعون»، ومن واجبى أن أطيع أمره ، وقد أمرنى بخلع «آمون»، فأرى أن ينتهى الأمر بينى وبينكم على غير خلاف تسوء عواقبه حتما . ومن الخير لكم ولإلهكم أن يرفع تمثاله فى قدس الأقداس دون أن تمسه أيدى الجنود ، فإنهم محطموه وممثلون به فى غير تحفظ أو تكريم!.. ولا يرضينى ، كما لا يرضيكم ، انتهاك حرمة الآلهة والمعابد ، فتدبروا ما أعرضه عليكم ، واعلموا أن الترفق بكم هو الذى يدعونى إلى هذا الإجراء المسالم ، وإلا فإنى كقائد جند «فرعون» لن تستطيع قوة أن تثنينى عن تنفيذ أمره ، وقد

أعطيتكم وقتا بقدر ساعة مائية، لتتخذوا قراركم خلاله، وعندئذ يمكنكم أن تغادروا هذا المعبد فى أمن وعافية، فلن ينالكم أحد بضر ما دمت قد حفظت أرواحكم !..

ولقيت هذه العبارات من نفوس الكهنة ارتياحًا ، وتركهم «حورمحب» يتشاورون، فظلوا بالمحراب إلى أن انتهى الوقت المحدد، فجاء «حورمحب» ومزق بيده ستار المحراب ، ودعاهم إلى الانصراف ، فانصرفوا .. ولكنه لم ير أثرا لتمثال «آمون» بالمحراب ... لقد حطمه الكهنة أنفسهم وتقاسموه فيما بينهم قطعا ، وخرجوا وكل منهم يخفى فى عباءته القطعة التى أصابها ، وإنما فعلوا هذا ليسووا فيما بعد أجزاءه، وليعلنوه فى الناس حيا فى صورة معجزة!..

وأمر «حورمحب» فوضعت الأختام على المخازن ، بينما ختم هو بيده أبواب الحجرات التى أخفى فيها الذهب والفضة. وفى تلك الليلة ، وتحت أضواء المشاعل ، جعل النحاتون يمحون اسم «آمون» من التماثيل والنقوش التى على الآثار ، وفى الليلة نفسها أمر «حورمحب» فأخلى الميدان من الجثث والأشلاء ، وأرسل من يطفئ النيران المشتعلة فى بعض أنحاء المدينة .

وأعقب ذلك هدوء شمل «طيبة» ، وارتد إليها ما كان قد زايلها من السلام والنظام ، وحين استوثق الأغنياء وأبناء الطبقة الراقية أن «آمون» قد انتهى وقوضت دعائم سلطانه، فتحوا منازلهم وأضاءوا المصابيح أمامها ، وخرجوا إلى الشوارع فى ملابسهم الفاخرة مظهرين ابتهاجهم بانتصار «آتون» ومعربين عن تمجيدهم له، ومن قصر «فرعون» الذهبى خرج رجال الحاشية الذين كانوا يحتمون به فعبروا النهر، آمنين فرحين، إلى المدينة. وفاضت . سماء «طيبة» بوهج من أضواء المشاعل والمصابيح التى تنافس الناس فى إنارتها إظهارا لسرورهم بانتصار الإله الجديد!.. ولم يكتفوا بذلك فراحوا ينثرون الأزهار فى الطرقات مهللين ويعانق بعضهم بعضا فى ابتهاج عظيم !..

وفى موج هذا الانتصار ، وفى مفيض هذه الأفراح العامة، انطلق الجنود والشردانيون والنوبيون يعبون من اللهو المتدفق فى إسراف غير محدود، والناس

لخوفهم منهم يتبارون فى تقديم النبيذ إليهم كرشوة اتقاء لشرهم ، ولم يستطع « حورمحب» أن يمنع هذا ، فأمعن هؤلاء الجنود فى ملذاتهم وكانوا يطوفون بالمدينة وعلى أسنة رماحهم رءوس الكهنة الذين ذبحوهم ، وتهافت عليهم النساء النبيلات فقضوا بين أحضانهن لحظات ممتعة !..

وباسم «أتون» سادت الإباحية ، وتحررت الشهوات ، وتلاشت الفوارق ، فلا فرق بين مصرى ونوبى، ولا حائل بين رذيلة وفضيلة ، فكانت زوجات رجال حاشية «فرعون» يستقبلن فى بيوتهن الجنود النوبيين الأشداء ، ويتجملن لهم بالزينة والعطور والملابس الصيفية، ويروين معهم ظمأ الغريزة الملتهبة ... وكان النساء على العموم أشد افتتانا بهؤلاء الجنود ذوى القوة والبأس حتى لقد حدث أن رجلا من حراس المعبد شوهد من بعيد يدب على الأرض وهو يئن من جراح أصيب بها ، وكان لا يزال يردد اسم «أمون» ، فهجم عليه جنود نوبيون وهشموا رأسه على أحجار الطريق، وهنا تجمع النسوة حول جثته وأخذن يرقصن باديات السرور!..

رأيت كل هذا بعينى رأسى .. ولم أر فيه إلا جنونا فاشيا ، وانحلالا يتحكم فى الناس باسم الآلهة ، وقر فى ذهنى أن أيما إله لا يستطيع أن يبرىء إنسانا من جنونه! .. ولكننى لم أشأ أن أطيل التفكير فى ذلك ، فذهبت إلى حانة «ذنب التمساح» ، وكانت لا تزال ترن فى أذنى كلمات «ميرييت» عن المرأة التى قالت إنها مدينة لى بدين كبير !.. فاعتزمت فى نفسى أمرا ، وناديت الجنود الذين كانوا يحرسون الحانة حينذاك ، وكانوا يعرفون أننى صديق قائدهم «حورمحب» إذ رأونى فى صحبته ، ودعوتهم إلى مرافقتى ، فأطاعوا ، ومضيت بهم خلال الشوارع التى كانت تعج بحلقات الراقصين المبتهجين حتى انتهينا إلى منزل «نفر نفر نفر» وكانت الأضواء تغمره من الخارج ، وتنبعث من داخله أصوات عالية مشبعة بالمرح والمجون. وأحسست وأنا أقف ببابه أن قواى تخور .. ولكننى تماسكت وهتفت بالجنود قائلا : بأمر «حورمحب» ، صديقى والقائد العام لقوات «فرعون» ، أطلب إليكم أن تقتحموا هذا المنزل ، وستجدون فيه امرأة تشمخ برأسها ، ولون عينيها يشبه الحجارة

الخضراء ، فائتونى بها .. فإن تأبت عليكم فاضربوها على رأسها بقبضة حربة، لتستسلم، ولا تحدثوا بها أذى أكثر من هذا !..

فأسرع الجنود متهللين إلى داخل المنزل ، ولم تمض لحظة حتى تدافع إلى الشارع من كانوا فيه من الرواد اللاهين، وهم يتسابقون فرارا ، وعاد الجنود وفى أيديهم فاكهة وخبز معجون بالعسل ، وجرار من نبيذ ، وكانوا يحملون على أكتافهم «نفر نفر نفر» والدم يسيل من رأسها الناعم وقد سقطت قلنسوة شعرها ، إذ قاومتهم فضربوها تنفيذا لأمرى ، ثم ألقوها بين يدى، فدسست يدى إلى صدرها . وكان جلدها ، كعهدى به، ناعما كالزجاج . ولكننى فى تلك اللحظة كنت كأنى أضع يدى منه على جلد ثعبان ... وأحسست بدقات قلبها ، فأدركت أنها لم تصب بالأذى المميت ، ولففتها فى قماش غامق ووضعتها على محفة أعددتها لذلك، ولم يبد حارس دارها اعتراضًا ، لخوفه من الجنود ..

وأشرت إليهم ، فحملوا المحفة واتجهت بها معهم إلى باب «دار الموت» ، وهناك كافأتهم بنقود ذهبية وأذنت لهم فى الانصراف ، وأنزلت «نفر نفر نفر» ، وكانت لا تزال فاقدة الشعور ، ودفعت لصاحب المحفة أجره ، فانصرف هوالآخر . وحملت الجثة إلى داخل الدار ، وقلت لمن فيها من غاسلى الجثث : هذه جثة امرأة عثرت عليها بالطريق ، ولا حاجة بى إلى القول بأننى لا أعرف اسمها كما لا أعرف شيئا عن أسرتها ، ولكنى أعرف أن الجواهر التى تتحلى بها تكفيكم جزاء على الجهد الذى ستبذلونه فى تحصين جسمها ضد الفناء ! .. فأخذوا يتصايحون ويلعنون قائلين : أو تظن أيها الأحمق أننا فارغون لجثتك هذه ! .. إننا فى هذه الأيام نتعامل مع الكثرة الكاثرة من جثث الموتى .. وقد أضنانا العمل، وما نريد مزيدا من العناء .. ولا نجد من يقدر ذلك ويوفى جزاءنا عليه !..

وكدت أظن أنهم ملقون بالجثة إلى الخارج ، ولكنهم كانوا قد كشفوا الغطاء عنها وفطنوا إلى أن الحياة لم تفارقها ، وبدت لهم جميلة فاتنة ، فخلعوا ملابسها ونزعوا

جواهرها ، ووضعوا أيديهم على صدرها ليتحققوا من نبضات قلبها . وعندئذ ألقوا الغطاء على جسمها ، وتغامزوا فيما بينهم ، وتحول ضيقهم ارتياحا ، وقالوا لى: فى وسعك أن تذهب الآن مشكورا فقد فعلت خيرا ، وسنعمل نحن كل ما فى وسعنا لتحصين جسمها إلى الأبد، ولو كان الأمر إلينا لضاعفنا تحصينها سبعين مرة فى كل يوم إلى سبعين يوما ، ليبقى جسمها مصونا من البلى فوق ما تصان به الجسوم الاخرى ! ..

وتنفست الصعداء ، لاعتقادى أننى اقتضيت دينى من «نفر نفر نفر»، وثأرت منها لقاء ما صنعت بى وبوالدى ، وارتحت كثيرا إذ ألقيت بها حية فى «دار الموت» ، هذه الدار التى عرفتها من قبل عن طريق المتاعب التى كانت هى سببا مباشرا فيها ...

ولم أعلم - إلا فيما بعد - أن ثأرى منها على هذه الصورة كان ساذجا ! ..

وعجلت بعودتى إلى حانة « ذنب التمساح » وعندما رأيت «ميرييت» أخبرتها بما فعلت . وكانت صورة «نفر نفر نفر» تتراءى فى خيالى كأنها استيقظت من غشيتها ، فرأت نفسها مجردة من الثروة والحلى ، وهى فى قبضة المغسلين والمحنطين كحبة القمح بين شقى الرحى وهنا وددت لو أنها كانت قد فارقت الحياة حقا ، فلا أدرى ما عسى أن تكون نهايتها فى « دار الموت » وهى لما تزل حية ؟! ... وشعرت ، رغم جو الليل الدافئ ، بالبرد يسرى فى أطرافى ، فطلبت نبيذا ، ولكنه كان فى فمى غير سائغ كما لو كان ترابا ! ..

واسترسلت فى تفكيرى ... راجعا إلى الوراء سنين عديدة ، وتقززت من ذكريات هذه المرأة اللعوب، وهانت نفسى أمام التصرفات الشائنة التى أكرهتنى بفتنتها على ارتكابها ، فلعنت هذه الذكرى وقلت . فليهلك جسمى إذا ما عدت مرة ثانية إلى التعلق بامرأة ! .. إنها مخلوق مخيف .. جسمها مقفر كالصحراء ، وقلبها أحبولة لاصطياد الرجال !..

وربتت «ميرييت» على يدى ،لتستردنى من بين براثن هذه الأفكار المزعجة ، وقالت لى وعيناها تتألقان بابتسامة حلوة : ليس كل النساء سواء يا «سنوحى» ، وأنت فيما يبدو لم توفق إلى المرأة التى تريد لك الخير ..

قلت لها فى لهجة ساخرة : المرأة التى تريد لى الخير ؟! فلتنقذنى آلهة مصر منها !.. فيا لسوء حظ الخير من مدعية ! .. فهذا «فرعون» أيضا يريد الخير ، ومع ذلك ، وفى سبيل الخير الذى يريده ، قد امتلأ النهر بجثث القتلى ! ..

وأهاجت الذكريات وشراب النبيذ ، عواطفى ، فبكيت ، وكانت «ميرييت» بموضعها منى ، فقلت أناجيها : «ميرييت» !.. إن خديك ناعمان كالزجاج ، وهما يتوقدان كأنهما المصباح المضئ داخل هذا الزجاج ، وفى يديك دفء كأنهما قد صيغتا من أشعة الشمس ، فهلا أذنت لشفتى فى لمس خديك ؟! وهلا أخذت بيدى الباردتين بين يديك ؟! إننى كالظامئ والمقرور فى آن واحد .. وعندك لى الرى والحرارة . وفى وسعك أن تسلمينى إلى نوم هادئ ، لا تعكره الأحلام المزعجة .. فافعلى .. ولك منى ما تشائين ! ..

فابتسمت «ميرييت» ابتسامة تعلوها مسحة خفيفة من كآبة وقالت : إن «ذنب التمساح» هو الذى يدير لسانك بهذا الكلام!.. وقد ألفت سماعه فلا اعتراض لى عليه ، ولكنى أحب أن تعلم يا «سنوحى» أننى لا أبتغى منك شيئا ، ولم يحدث أن طلبت شيئًا فى حياتى من رجل مهما يكن، كما لم يحدث أننى تقبلت هدية ذات قيمة من أى إنسان ، وكل الذى أعطيه للناس ، إنما أعطيه من قلبى... وإنى الآن لمعطيتك من نفسى ما تريد ، فأنا مثلك وحيده !..

قالت هذا، ورفعت كأس النبيذ من يدى التى كانت ترتجف ، ثم نهضت فسوت فراشها ، وعليه رقدنا معا جنبا إلى جنب ، وخلال عبق العطر الفائح من جسدها ، نعمت بما شئت من دفء اليدين والشفتين جميعًا!.. ودخلت بعد ذلك فى نوم لطيف مريح غير مختلط بشىء مما كان يعتادنى من الأحلام السيئة .

وفى تلك الليلة السعيدة، تمثلت «ميريت» كأنها «مينيا» قد بعثت إلى الحياة فى صورتها !.. «مينيا» التى فقدتها إلى الأبد ، .. لقد كانت «ميرييت»، فى عطفها وصفاء حنوها نحوى ، كأنها أبى وأمى ... وقد أيقظتنى فى الصباح هامسة فى أذنى همسا رقيقا كما لو كانت تتحاشى إقلاقى!..

وهكذا صارت «ميرييت» فى حياتى أكثر من صديقة ، كانت هى الحياة نفسها ، وكلما كنت بين ذراعيها أحسست بأنى أكبر شأنا مما كنت أتصور ، وأننى إنسان جدير بأن يحيا ويعيش!..

فلما كان صباح اليوم التالى قلت لها: لقد كسرت الجرة يا «ميرييت» بينى وبين امرأة ماتت، ولم يبق من آثارها عندى سوى الشريط الذهبى الذى كانت تربط به شعرها الطويل. والآن ، فإنى أكون أسعد الناس حقا لو سمحت بأن أكسر الجرة بينى وبينك أنت، أيتها الفتاة التى جعلت صحراء حياتى واحة خضراء!..

قالت وهى تتثاءب وتضع يدها على فمها : يحسن بك أن تكف الآن عن «ذنب التمساح» فهو الذى يطلق لسانك بما لا ينبغى أن يقال ، واذكر يا «سنوحى»، أننى هنا عاملة حانة، ولا تخلو حياتى من ريبة، وخليق بزوجتك أن تكون من طبقة أخرى يجمعها إليك التكافؤ الاجتماعى!..

قلت لها ، وأنا أضمها إلى صدرى وفمى يلمس خدها: كلما نظرت فى عينيك يا «ميرييت» كشفت فيك شيئا كان ينقصنى الإيمان به فى النساء ، وهو الطيبة والصدق.. ومن أجل هذا أطمع فى أن تكونى لى !.

وفى ابتسامة عذبة قالت: وأنا الأخرى قد كشفت فيك شيئًا يستهوينى، لا أدرى ماذا أسميه، وربما كان حبا!.. وهو الذى أغرانى بمنعك من شرب مخلوط «ذنب التمساح»، وأنا أعلم أنك تستطيبه وترغب فيه ، وما أردت إلا أن أسبر غور عواطفك نحوى . فالمرأة، حينما تحب رجلا، تستعين بوسيلة ما على معرفة مكانها من نفسه. وقد تكون هذه الوسيلة فى صورة منعه من شىء يهواه ، فإن استجاب لها ، وثقت به

وأقبلت عليه.. ومع ذلك فإني أوثر أن ندفع الحديث عن كسر الجرة بيننا يا «سنوحي» ! ..
فخير لي ولك أن تظل علاقتنا حرة غير مشدودة بقيود، وما دمت على ما أرى فيك من الوحدة والأسى، ففراشي مباح لك ، ولا عليك من بأس أو لوم، إذا راق لك أن تختار فتاة غيري، فإني كذلك لن أتردد في اختيار الرفيق الآخر، ما طاب لي أن أفعل ذلك، كلانا حر ، وينبغي أن يظل حرا، وهذه الحرية ، التي أريدها لك، هي دليل حبي...

وبيديها البضتين ، قدمت لي كأسا من مخلوط «ذنب التمساح» قائلة : والآن فخذ هذا الذي منعتك منه !..

فتناولت الكأس منها مبتهجا ، وأحسست بروحي تنطلق ، كما لو كانت عصفورا خفيفا يحلق في رحاب الأفق، ويتنقل حرا على الأفنان، وغلبتني نشوة الشعور بالحرية على النبيذ، فلم أستزد من شربه في ذلك اليوم ، وقلت لنفسي: حقا، عقل الإنسان لا يعرف من حقائق الحياة إلا القليل !..

- ٤ -

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي سعيت إلى الحانة ، فدعوت «ميريبيت» إلى مرافقتي لنشهد معا موكب «فرعون»،فذلك يوم مهرجانه الملكي. وكانت «ميريبيت» ، على رغم طبيعة حياتها بالحانة ، تبدو في جمال متألق، وقد ارتدت ثوبها الصيفي المصنوع على النسق الحديث للأزياء ، فزادها إشراقا ، ولم أشعر بشيء من الخجل في ظهورها إلى جانبي بالأماكن المعدة لذوي الحظوة المرموقة من رجال «فرعون» ، إذ كنت قد تلقيت طاسة ملكية مذهبة وأمرا بتعييني جراحا للجمجمة في الحاشية الملكية.

وكان شارع «رامس» يزدان بالإعلام ويزخر بالجموع التي توافدت لشهود «فرعون» في موكبه وكثير من الناس ضاقت بهم فسحة الطريق فتسلقوا أشجار الحدائق على جانبيه ، وبأمر «بيبيت آتون» وضع عدد لا يحصى من سلال الأزهار على طول الطريق لينثرها الناس أمام «فرعون» وفقا للتقاليد.

وخلال هذا المظهر الشعبى الجامع ، وبعد الذى جثم على الصدور بالأمس من ويلات الأحداث الدامية ، شعرت بالكثير من الراحة وأمن النفس، وانتعاش الأمل ، فقد كان كل ما حولنا يوحي بأن «مصر» مقبلة على عهد يزدهر بالحرية والنور ، أو هكذا كان خيالى ، انفعالا بالموقف وتأثرا بالمظهر ! ..

وساد السكون حتى لم نكن نسمع إلا نعيق الغربان محومة أو جاثمة على أسقف المعبد، وكان احتشاد الغربان والنسور فى سماء «طيبة» أمرا غير مثير للغرابة فى ذلك الحين، فقد بشمت وأتخمت بطونها بما أصابت من جثث القتلى، فأثقلها ذلك عن الطيران إلى التلال :

وفى اللحظة التى كنت سعيدا فيها بهذا السكون ، فوق سعادتى برفيقتى الجميلة«ميرييت»، أهل الموكب الملكى، وكان أول ما استرعى نظرى منه هؤلاء الجنود النوبيون السائرون خلف محفته ، فقد أحسست أن ظهورهم معه يشبه الإيقاع النشاز فى اللحن الرتيب. ولا شك فى أن هذا خطأ كان من الخير تفاديه فى مثل هذا اليوم ، وفى مثل هذه المناسبة بخاصة ، ذلك أن منظرهم خليق أن يثير استياء الناس ، ويهيج فى نفوسهم ذكرى الكوارث القريبة التى أهدرت فيها دماء أهليهم ، وذهبت فيها بيوتهم طعاما للنار ، والكثرة الكاثرة من النساء والرجال لم تكن دموعهم ، بعد ، قد رقأت، كما لم تكن جراحهم قد التأمت ، ولكن هكذا كان ، فظهر «فرعون إخناتون» وفى موكبه هؤلاء الجنود الذين ملأوا «طيبة» فى الأيام السابقة فزعا وهولا ، وكان على محفته محمولا على رءوس الأرقاء ، ظاهرا ملء الأعين جميعا ، وعلى رأسه التاج المزدوج للمملكتين ، مؤلفا من زهرتي السوسن والبردى، وذراعاه معقوفتان على صدره ، وفى يده السوط وعصا الراعى . وكما كانت حال الفراعين منذ أقدم العهود ، كان يجلس على المحفة بدون حركة كأنه تمثال . وقد استقبله حراس الطريق هاتفين بحياته وهم رافعون حرابهم، وكذلك أخذ بعض الكبراء من مستقبلية يحيونه ويهتفون له وينثرون الزهور أمام محفته، وفيما عدا هؤلاء وأولئك كان الصمت مطبقا على الجميع ، وقد تلاشت فيه تلك الهتافات القليلة الواهنة، فأمسك عنها الهاتفون ، وهم

يتبادلون نظرات الاستغراب . وهنا ، وخلافا للعادات والتقاليد ، اهتز «فرعون» ورفع السوط وعصا الراعي، ملوحا بهما ، تحية للجماهير التي لا تحييه!.. ولكنه ما كاد يفعل حتى اصطخبت هذه الجماهير المحتشدة اصطخاب الموج في البحر الثائر ، وانفجرت أصواتها كأنها الرعد القاصف، صائحة : «آمون» .. « آمون» .. أعد إلينا « آمون » رب الأرباب ، وملك الآلهة جميعا ! ..

وأثار هذا الانفجار المدوي، الغربان والنسور، فطارت عن سطح المعبد لتحلق فوق «فرعون» على محفته، في حين استرسل الناس في صياحهم المجلجل قائلين : إليك عنا أيها الفرعون الزائف ! ..

وأزعج هذا حاملي محفة «فرعون» فتوقفوا عن المسير، ثم أخذوا يواصلون السير عندما دفعهم الضباط في ظهورهم ليستحثوهم ، ولكن الناس تدافعوا كأنهم جلاميد صخر حطها السيل من عل ، فسدوا الطريق وأزاحوا الجنود وأوقفوا سير الموكب..

وأعقب هذا ارتطام هذه الكتل بعضها ببعض وكان لا معدى للجنود ، وقد بلغ اختلال نظام الموكب حدا مخيفا، من أن يأخذوا الناس بكل ما في استطاعتهم من شدة ، فأعملوا فيهم العصي الغلاظ ، لإجلائهم عن طريق الموكب. فلما لم يجدهم هذا، ورأوا الخطر متفاقما عليهم ، استعملوا الحراب والخناجر دفاعا عن أنفسهم، واشتدت بذلك المعركة بين الفريقين ، فلم يكن يسمع خلالها إلا صلصلة الأسلحة وأزيز الأحجار والعصي ، وتأوهات الجرحى والمحتضرين، وصرخات اللعنة على فرعون وإلهة !..

على أن «فرعون» نفسه، وهو جد قريب من مسرح المعركة التي اصطبغت الأرض بدماء ضحاياها ، لم يصب بسوء ولم يجرؤ أحد على أن يقذفه بحجر من تلك الأحجار المتراكمة ، فهو لا يزال ، برغم سخط الساخطين ولعنات اللاعنين، شخصا مقدسا لا يجوز مسه بأذى ، وكيفما كان رأيهم فيما فاجأهم به من انقلاب في الدين والعقيدة ، فإنه مع ذلك ابن الشمس كغيره من الفراعين الذين سلفوا، وما كان يمكن أن يخطر ببال أحد ، حتى من الكهنة أنفسهم ، أن يمد يده بضر إلى شخصه المقدس ، فذلك عمل مخيف مرعب!..

وكان «فرعون» ينظر فى هذا الذى يجرى حواليه، وكأن شيئًا منه لا يضايقه، وإذ رأى بعينه الجنود يهوون بأسلحتهم على الناس ويذبحونهم ذبح الشياه ، نهض واقفا ، ونادى فى الجنود أن يكفوا عن ذلك، ولكن أحدا منهم لم ينفذ أمره أو ربما لم يسمعه ، فقد كان الضجيج غامرا، والصراخ عاليا ، وهتاف الجماهير يتتابع مزلزلا : «أمون» ... «أمون» .. أعد إلينا «أمون» .. إليك عن « طيبة» أيها الفرعون الزائف ، فإنها لا تريدك !..

وأمر «حورمحب» ، فنفخ في النفير، فأقبلت العربات الحربية مسرعة، وكانت تربض بالساحات والشوارع الجانبية بعيدة عن أنظار الناس، ومن ثم اقتحمت ساحة المعركة، وتحت عجلاتها وحوافر جيادها، سقط كثير من الناس . على أن «حورمحب» أمر بنزع المناجل المركبة بجوانب العربات حتى لا تراق بها الدماء تحقيقا لرغبة «فرعون» ، وكانت مهمة هذه العربات ، طبقا لخطة مرسومة ، إحاطة محفة «فرعون» وحمايته هو وأفراد الأسرة الملكية ومن فى حكمهم من رجال الحاشية وأصحاب الحظوة والسلطان ، وقد استطاع «حورمحب» أن يخرجهم جميعا سالمين بهذه الحراسة القوية المحكمة .

ولم تتفرق الجموع الثائرة الصاخبة حتى رأوا « فرعون » عائدا عبر النهر هو ومن معه إلى القصر. وهنا هتفوا مهللين فرحين، وانطلقوا يهزجون مبتهجين، واندفع غوغاؤهم إلى بيوت الأغنياء فحاصروها ، وكادوا ينهبونها ويفتكون بمن فيها لولا أن عاجلهم الجنود ففرقوهم، وما زالو يتعقبون الثوار والمتظاهرين حتى انصرف الجميع إلى منازلهم ، وهدأت الحال وعاد النظام ..

وعندما أقبل المساء كان شارع «رامس» مرتعا للغربان والنسور التى هبطت على ما احتشد فيه من جثث القتلى تمزقها وتنهش لحومها !.. وهكذا رأى « فرعون » بعينه ، هياج الشعب وسخطه، والدم المهراق في يوم مهرجانه ، وكان هذا لأن الشعب لا يريد أن يؤمن بإلهه «آتون» ولا يرضى به بديلا من «آمون» ، فشق ذلك على نفس « فرعون»

وبدأت أفاعي الغيظ تنفث سمومها في مشاعر حبه للشعب ، ومن ثم أصدر أمرا بأن أي إنسان يردد اسم «أمون» أو يخفيه منقوشا على تمثال أو أثر ، فعقابه النفي على الفور إلى المحاجر !..

وفي مساء اليوم نفسه، دعيت على عجل إلى البيت الذهبي ؛ لأن «فرعون» قد عاودته علته ، وخشي أطباؤه الخطر على حياته ، فما أن سمعوه يذكر اسمي حتى بادروا إلى دعوتي لأحمل معهم المسئولية فيما لو وقع له مكروه . وقد ألفيته ممددا على فراشه كالميت تماما ، فأطرافه باردة ، ونبضه خافت لا يكاد يبين ، وكل شيء فيه حينذاك ينبئ بأنه قد فارق الحياه !.. ولكني كنت أعلم أنه إنما يجتاز أزمة عصبية تعتاده منذ سنين ، وقد توترت أعصابه في هذه اللحظة كنتيجة طبيعية لما لم يكن يتوقعه أو يحسب حسابه من أحداث اليوم المدبر ، ووقفت إلى جواره مترقبا انفراج هذه الأزمة ، فلم أكن يائسا من انفراجها . وفجأة ، وفي حركة عصبية عنيفة ضغط بأسنانه على لسانه فجرحه وأوجعه وسال الدم على شفتيه. وهنا عاد إلى وعيه واسترد شعوره ، وأخذ يصرخ في وجوه الأطباء طالبا إخراجهم لأنه ، كما يقول ، لا يطيق رؤيتهم ... فخرجوا ، وبقيت أنا بأمره ...

ومال «إخناتون» نحوي قائلا : إنني لا أستطيع أن أبقى بعد في هذه المدينة التي يغمرها الظلام من جميع أقطارها .. إن سلوك أهل «طيبة» كان عدائيا ومجردا من كل لياقة، وشيء من هذا لم يقع من قبل ، حتى الأجانب ، على مافيهم من بغضاء ، لم تحدث منهم سابقة كهذه ! .. فما بقائي في قوم يجاهرونني بالعداء ، ولا يؤمنون بالإله الحق الواحد «آتون» ؟!.. وإذن فقد اعتزمت ركوب البحر في رحلة أجد بها الأفق الفسيح لخيالي وروحي ، بعيدا عن هذا المجتمع الفاسد ، الذي استبد به الإفك والضلال ، وسأمضي في هذه الرحلة البحرية إلى أن أرسو على أرض لا يعمرها إنسان ولا يعبد فيها إله ، فأمنحها « آتون» وأشيد عليها مدينة جديدة باسمه ، ولن أعود بعد ذلك إلى «طيبة» ... واستطرد يقول : فادع أصدقائي لمرافقتي في هذه الرحلة، ومر البحارة لينشروا القلاع الحمراء على سفينتي ...

وكان الغيظ قد أخذ من «إخناتون» كل مأخذ ، فأمر بأن ينقل على الفور إلى السفينة ، ولم تكن حالته الصحية تسمح بذلك ، فنصحت له -كطبيب- بالانتظار بعض الوقت ، فأصر على رأيه ..

وبدا على «حورمحب» أنه راض عن فكرة الرحلة الملكية ؛ لأنها - كما قال لى موضحا - حل للمشكلة المعقدة التى أشاعت الفتنة فى أهل «طيبة» ، فسيبقون فى غيبة « فرعون» أحرارا فى عقائدهم ومناهج عبادتهم ، كما سيكون هو حرا فى عقيدته ونهج عبادته ، لهم دينهم ، وله دينه، وكل من الفريقين بعيد عن الآخر ، فلا احتكاك ولا اشتجار ، ولا عداوة ولا قتال ، ومن هنا يسود الأمن فى البلاد ، ويرفرف السلام على جميع أهليها !..

ورافقت «فرعون» فى رحلته إلى النهر ، وكان ظاهر العجلة فيها، فأبحر دون أن ينتظر وصول أفراد الأسرة الملكية لمصاحبته ، وقد أمر «حورمحب» ، فأبحر فى أثره بعض السفن البحرية لمرافقة سفينته وحراستها.

وشيئا فشيئا، أخذت سفينة «فرعون»، بقلاعها الحمراء ، تبعد عن «طيبة» التى أخذت هى الأخرى تغيب عن أنظارنا فلم نعد نرى من وراء الأفق شيئا من أسوراها وسقوف معابدها ورءوس مسلاتها المذهبة، كما خفيت عن أعيننا تماما قمم التلال الثلاثة التى تقوم إلى الأبد على حراسة «طيبة».. ولكن هذه المدينة وإن تلاشت فى عيوننا معالمها ، فإن ذكراها لم تفارق أذهاننا ، بل لقد كانت تتبعنا طوال أيام ذات عدد ، فقد كان النهر يفهق بجثث معركة الأمس يدفعها التيار حوالينا أو قريبا منا ، فتتواثب عليها التماسيح ضارية بذيولها على سطح الماء ، فكأننا بهذا المنظر المتكرر لم نزل فى قلب المعركة التى نفر منها «إخناتون»!.. ولكنه كان بمعبدة من النظر إلى شىء من ذلك ، مسترخيا فى قمرته الخاصة على فراشه الوثير، وحوله الخدم يدهنونه بالزيوت المعطرة، ويوقدون المباخر بالطيب لتنفحه ريحا ذكية ، تقصى عن أنفه ما لعله قد يتسرب إليه من ريح الجثث المتعفنة من بقايا المذبحة التى وقعت باسم إلهه وبسببه !..

وبعد عشرة أيام صفت مياه النهر من كدرتها، وخلت من خبثها وشوائبها ، وظهر «فرعون» على مقدم السفينة سارحا بنظرة إلى الشاطئ حيث كانت الأرض تبدو فى صفرة الصيف، والفلاحون مكبون على حصادهم، والمواشى تتوارد على النهر لتنهل منه، فما أن رأى الفلاحون سفينة «فرعون» بقلاعها الحمراء، حتى تركوا ما بأيديهم وأسرعوا إلى ارتداء ملابسهم البيضاء، وأخذوا يتسابقون على الشاطئ وفى أيديهم أغصان النخيل يلوحون بها فرحين مهللين هاتفين بحياة «فرعون» ، فسره هذا أيما سرور، وابتهج ، به أعظم ابتهاج، وكان له فى منظر هؤلاء الراضين المخلصين أكبر عزاء عما كان يملأ صدره من الحنق على أهل «طيبة» ، بل لقد كان له من ذلك الدواء الشافى الذى عجزت عنه عقاقير الأطباء، ولهذا كان فى الفينة بعد الفينة يصدر أوامره لربان السفينة ليرسو بها فى بعض الأماكن، فيهبط إلى الشاطئ ويخرج إلى الناس ، ويتحدث إليهم ملاطفا ويصافحهم ويبارك نساءهم وأطفالهم ، معبرا عن حبه لهم وسروره بلقائهم، وكان يحدث أن تدنو منه قطعان من الأغنام فى زحمة هذه الاستقبالات ، فتشم أطراف ردائه، فيتهلل لهذه الظاهرة ويزدادبها ارتياحا وابتهاجها.

وذات مساء كان يقف على مقدم السفينة متطلعا إلى النجوم اللامعة، وكنت إلى جواره فقال لى: سأوزع جميع أراضى «أمون» ، ذلك الإله الزائف، على أولئك الذين قنعوا بالقليل، وعاشوا حياتهم كادحين مجهدين ، فهم أولياء «آتون» وهو راعيهم، ومن حقهم فى عهده أن يسعدوا ليمجدوا اسمه، ولا سبيل إلى إسعادهم إلا بتمليكهم الأرض التى يزرعونها بالجهد والعرق ولا يصيبون منها إلا ما دون الكفاف، وإذن فسأوزعها عليهم لأراهم، على ما أحب، وعلى ما يحب «آتون»، موفورى الرزق والعافية، ناعمين بالمحبة والأمن وعدالة الحكم ...

ومضى «إخناتون» يقول: الحق أن قلوب الناس تختلف صفاء وكدرة، وقد كنت لا أفهم هذه الحقيقة إلى أن رأيتها مجسدة فى «طيبة» ... فهؤلاء الذين تركتهم هناك قد

رانت الظلمة على قلوبهم ، وكنت أحسبهم في مثل ما أعيش فيه من صفاء القلب ، ولم أكن أتخيلهم على تلك الحال التي رأيتهم فيها ، لأن القلب حين يشرق بالضياء ينسى أن قلوبا أخرى قد احتواها الظلام حتى ليرى أصحابها النور بعيونهم فينكرونه ، ويظنونه شرا يؤذي عيونهم ! .. وهم من أجل هذا لم يؤمنوا «بآتون» إله الضياء والنور، وقد دعوتهم إليه فلم يستجيبوا، وما كان يسعني، وأنا داعية المحبة والسلام، إلا أن أدعهم حيث أرادوا لأنفسهم أن يكونوا ، مؤثرا الابتعاد عنهم حتى لا أزعجهم، فما يطيب لي مقام بينهم ، وحسبي الآن أولئك الأطهار الأعزاء الذين لم تشب قلوبهم شائبة من ضلال، أولئك البراء فطرة وروحا، الذين يتجمعون حولي ويتهافتون على نور إلههم العظيم «آتون» ... فسأعيش لهم ومعهم، ولن أتركهم.

وتوقف «إخناتون» محدقا بنظره في النجوم ، ثم تابع حديثه قائلا : كم هي جميلة هذه النجوم !؟؟.. ولكني مع ذلك لا أحبها لأنها من علامات الليل، وأنا أكرهه لأن فيه ظلاما، وقد كان حريا بي، وقد صيغت روحي بنور «آتون» أن آنس خلال ظلمة الليل بما يتساقط عليها من إشعاعات نجوم السماء، لولا أنها أيضا تؤنس الذئاب فتخرج آمنة من جحورها ، وتغري الأسود بالانطلاق من عرائنها ، وهذه وتلك لا عمل لها إذ ذاك إلا البحث عن الفرائس من ناس وحيوان، وترويع الآمنين بما ترسله هنا وهناك من عواء وزئير !.. إنها شر لا يبدو على ظهر الأرض إلا في ظلمات الليل وعلى أضواء نجوم الليل، وما «طيبة» بالنسبة لي إلا ليل داج طويل، ولهذا فإني أحتقرها، ولا أؤمل خيرا في أهلها الذين عاشوا في ظلامها وورثوا الشر من ماضيها، وإنما أؤمل هذا الخير في الأطفال والأحداث الذين ما زالوا غصونا مخضوضرة وبراعم مزدهرة ، وحقلا خصبا لتعاليم «آتون» . فهؤلاء هم الذين أثق فيهم وأعتقد أنهم سينشأون أطهارا ، وبذلك تصبح الدنيا كلها خيرا وطهارة وتواصلا على الحب، وتجمعا على الفضيلة، تقبس من نور «آتون» وتحيا سعيدة به. وإني في سبيل هذا سأنشئ المدارس على مناهج جديدة وأقصي عنها المعلمين القدامى ، وأجعل منها موردا عاما سائغا يرتوي منه جميع الناس ليعيشوا سواء في نور العلم، وسأخلص التعليم بها من

تعقيدات الكتابة حتى تكون أمرا ميسرا سهل التناول مرغوبا فيه، وحتى لا تكون- كما هي الحال الآن - وقفا على طبقة دون طبقة، ولا يستأثر بها الأغنياء دون الفقراء ، ولا تحرم منها القرى كبراها وصغراها ، فالعلم حق شائع للجميع كحقهم في الماء والهواء ، وإنما أريد أن يتعلم الناس كافة ليستطيعوا أن يقرءوا بأنفسهم ، من غير وساطة، ما أكتبه لهم ، وأن يفقهوا في غير عسر ما أوجههم إليه، فإن أشياء كثيرة سأكتبها لهم، وأشياء كثيرة سأحدثهم عنها ، وينبغي أن يفهموا بأنفسهم كل شيء !.

ولم أرتح لحديث «فرعون» عن سياسته هذه في تبسيط الكتابة وتعميم التعليم على هذا الأساس ، فإني أعلم أن ذلك معناه تجريد الكتابة مما تمتاز به من قداسة وجمال، وتجريد التعليم من العمق والتخصص وروعة الابتكار ، فقلت له: إن تفكيرك هذا يا سيدي دليل على بالغ عطفك على رعاياك، ولكن عواقبه العملية قد لا تكون في مصلحتهم ، فتعميم التعليم مبسطا هكذا سيفضي إلى انحدار مستوى الكتابة وفقدان زينتها ، هذا إلى أن الناس سيسودهم الشعور بأنهم جميعا أهل ثقافة وعلم، وعندئذ لا يقبلون على العمل بأيديهم في فلاحة الأرض، ترفعا، وهي مجال إنتاجهم ومورد رزقهم ، فماذا تكون حالهم عندما تبور أو عندما يضعف إنتاجها ؟! وماذا يجديهم التعليم إذا أصبحوا جياعا ؟!..

فما أن قلت هذا حتى هب صارخا في وجهي ، وقال مغضبا : إن الظلمة التي أتحاشاها تقف الآن بجانبي ممثلة في شخصك يا «سنوحي»!. فما هذه الشكوك والعوائق التي تقذفها في طريقي؟! إن أفكارك هذه لهي بقايا القديم البالي ، ورواسب الظلام الذي بعثت لأبدده ، ولكنني لا أحفل بها وسأمضي إلى غايتي مزودا بالإيمان الذي يتأجج في نفسي، وإن عيني اللتين تخترقان الحواجز بقوة صفائهما ، لتستشفان العالم الجديد الأفضل الذي سيجيء في الغد ، فلن تكون فيه بغضاء ، ولن يكون فيه خوف، وإنما سيكون فيه يومئذ حب تعاون وأمن ومساواة،فلا فرق بين غني وفقير، ولا تنابذ هناك بالألقاب والمراتب . وحينما يمس نور العلم عقول الناس فلن يقول واحد منهم للآخر : أيها السوري التعس ، أو أيها النوبي المنكود !.. فالجميع

إخوان متحابون، ومن هنا تزول الخصومات وتنمحي الحروب بين الأفراد والأمم !..
وإني لأنظر إلى هذا العالم الجديد الذي يولد على يدى فأشعر بالغبطة تملأ قلبي ، وبالقوة تفيض في بدني..

وبلغ به الانفعال ، وهو يقول هذا، حد الحمى ، فاضطرب وتداعى، فهبطت به إلى فراشه وسقيته عقارا مسكنا، ولكن كلماته كانت ، وهو صامت مسجى ، ترن في أذني وتلذع قلبي وأحس لها تجاوبا في روحي ... وقلت أحدث نفسي: إن عقل «فرعون» يضطرب بأفكار يمليها الخيال وتوتر الأعصاب ، ولكنها مع ذلك أفكار مشوقة تتميز بالخير وتغرى به ، وإني لأتمنى أن تصبح حقائق ثابتة وشريعة متبعة ، ولكن هل إلى ذلك من سبيل ؟! . وهل يكفي لتحقيقه ذلك الإيمان القوى الذي يخالط دم «فرعون» ويفور مضطرما في صدره ؟! الواقع أن عالما فاضلا كهذا العالم الذي يتخيله لا وجود له في حياتنا التي نحياها ، وأن كان ثمة وجود له، فهو هناك في الأرض الغربية حيث مدينة الموتى ! .. ولو إن « فرعون» قد أخذ نفسه بهذا الخيال إلى غايته كما يقول ، فأكبر ظني أن البلاد لن تنجو من الدماء والتخريب على ما رأينا من بوادر سياسته بالأمس ، وتبعا لهذا فإن مملكته العظمى ستصبح بناء متهاويا من حيث أراد أن تكون عالما كبيرا قويا !..

وخلال الظلام كانت النجوم ترسل على الكون أشعتها اللطاف الهادئة ، فتأملتها بنظرى طويلا ، وطافت برأسي ، وأنا أحدق فيها، ذكريات بعيدة ، فتذكرت أنني – أنا «سنوحي» – لست إلا غريبا في هذه الدنيا، لا أعرف من جاء بي إليها ، ولا مطمع لي فيها ، فإني بمحض إرادتي الحرة اخترت أن أكون طبيب الفقراء في «طيبة» ، وليس من وراء هذا غير الجهد والفاقة ، فالذهب قد بات شيئا لا يعنيني في كثير أو قليل ، وما دمت لا أملك في هذه الدنيا إلا حياتي، فلماذا لا أظاهر « فرعون» وأشد أزره وأكون إلى جانبه ناصرا ومعينا؟! فإنه ملك البلاد ، والسلطان في يده، وإمكانيات « مصر» في الثروة والخصب لا مثيل لها في بلد من بلاد العالم. فمن الممكن إذن توقع النجاح لرسالة جديدة تؤازرها هذه العوامل . وأمل «فرعون» غير بعيد من التحقيق

فلا ينبغي أن نقف في سبيله متوجسين مستريبين ، ولا يليق بمثلي على الأقل أن ينحرف عن دعوة كهذه يراد بها السلام والإخاء والمساواة بين الناس.

بهذا كنت أتحدث إلى نفسي، وأنا على سطح السفينة التي تتراقص على الماء ، والريح تحمل إلى أنفي شذا الحنطة الناضجة وهي مجموعة في الأهراء. وكأني كنت مسترسلا في حلم، فما أن داخلتني نسائم الريح حتى انقطع الحلم ، بل تبدد، وعدت إلى نفسي متحسرا وأقول : لو كان «كابتاح» هنا ، لأفدت من رأيه ، فربما وقعت منه على صواب كما قد يجد الإنسان الدر في التراب !.. ولكن ما عسى أن يكون رأي «كابتاح» ، وهو واحد من ملايين كثيرة قد استعبد الأمر الواقع عقولهم ؟! .. إنه سوف يقول: إن الناس جميعا لا يمكن أن يكونوا على درجة سواء ، ولو حدث – وذلك أمر مشكوك فيه – أنهم تكافأوا في الموارد والأرزاق ، فلم يعد هناك غني وفقير ، فإنهم لن يكونوا متكافئين فيما عدا ذلك، فلابد في هذه الدنيا من عالم وجاهل، وماكر وساذج، ومن هنا تكون التفرقة، وتكون القوة والضعف ، ويكون الصراع المتفاعل بين الطبقات ، وبين النوازع والاتجاهات. وهذه هي طبيعة الحياة ، والإنسان فيها مخلوق معقد، والفضيلة فيه– إن وجدت – لا تبلغ مرتبة الكمال!..

وظللت في هذه البلبلة الفكرية إلى أن بلغنا في اليوم الخامس عشر أرضا كانت تلالها تتراءى خلف الشاطئ مختلفة الألوان بين صفراء كلون الذهب وزرقاء كلون السماء ، وعلى مدى البصر لم نر فيها أثرا من زرع ، ولولا ما كان يتناثر فيها من أعشاب أقيمت من القش، وبعض رعاة يدبون حولها لحراسة بعض الأغنام ، لبدت قفرا موحشا خاليا من الحياة . وهنا أمر «فرعون» بأن ترسو السفينة، ثم تركها صاعدا إلى الشاطئ ، حتى إذا صار على هذه الأرض وأدار عينيه في جنباتها ، تنفس الصعداء وقال وهو منشرح الصدر: إنها الأرض التي أريدها ، فليس فيها إله يعبد ، ولا يملكها إنسان مزعج ، فلتكن إذن مدينة «أتون» ومشرق نوره!.. وليكن اسمها «أخيت أتون» مدينة السموات...

وكان هذا قرارا ملكيا نافذا ، فتتابعت السفن على شاطئ هذه الأرض الجديدة، واحدة إثر واحدة ، وتجمع بأمر «فرعون» رؤساء البنائين ورجال التعمير حيث أوضح

لهم رأيا مفصلا في تخطيط الشوارع الرئيسية ، والمكان الذى يقام عليه قصره الذهبى ، والمكان الذى يشاد فيه معبد «آتون»، والأماكن التى تبنى عليها منازل أتباعه .

وأخذ البناءون والعمال في التنفيذ ، فأقصوا الرعاة وأغنامهم ، وأزالوا أكواخهم وبدأوا أعمالهم بإنشاء رصيف على طول الشاطئ ليكون ميناء المدينة ، ثم بإنشاء بيوت من اللبن خاصة بهم في قسم معين من تخطيط المدينة، وراحوا بعد ذلك يعملون في تقسيم الشوارع وفقا لهذا التخطيط ، فكان خمسة من الشمال إلى الجنوب وخمسة أخرى من الشرق إلى الغرب، وعلى جنباتها أقيمت المساكن ، وكان كل مسكن منها مؤلفا من غرفتين متماثلتين، ملحقا بهما المواقع المعدة للمنافع الخاصة كالأفران والمواقد ودورات المياه، وجهزت مساكن العمال بما يحتاجون إليه من الأثاث والأوعية ، تحقيقا لما كان فرعون يكنه لهم من النوايا الطيبة التى تكفل لهم الراحة والسعادة.

ولبث «فرعون» على ظهر السفينة متخذا منها مقر حكمه ، ومشرفا بنفسه على حركة البناء والتعمير الدائبة، وكلما أخذ البناء يظهر وتتضح به معالم المدينة الجديدة، كان يشتد سروره وتزداد غبطته . وقد أقبل الشتاء وانتهى وجاء من بعده موسم الفيضان، وهو على تلك الحال ، بعيدا عن «طيبة» لا يفكر فيها إلا متبرما ولا يذكرها إلا ساخطا، وكل ما كان يملأ خواطره وأمانيه هو ألا يبرح مكانه حتى يرى المدينة الجديدة قد استكملت عناصر وجودها ، ليغنى بها عن «طيبة» ، تلك المدينة التى كان تفكيره فيها يشعره دائما بأنها كالسم الذى يسرى فى بدنه! .. ولهذا أنفق على إنشاء مدينته الجديدة عن سعة، واستنفذ في ذلك كل المال الذى غنمه من «آمون» بعد أن وزع أراضيه على المعدمين من الشعب ...

وفى حين كان «فرعون» نفسه سعيدا موفور العافية منتعش الروح وهو يرى مدينته تظهر وتبرز على أعمدتها الملونة، وتبدو كالزهور فى تفتحها ، فإنى كنت على النقيض أعانى من الضيق وكثرة العمل، فقد تفشى المرض بين العمال بسبب تلوث مياه الأرض قبل أن تتم تصفيتها ، ثم إن الإصابات قد تفشت بينهم كذلك للمشقة والرهق بسبب السرعة المفروضة عليهم .

وعندما انخفضت مياه النهر ، وفد على المدينة الجديدة «حورمحب» ومعه أعضاء الحاشية، ولم يكن فى نيته إطالة مقامه بها أكثر من الوقت الذى يستطيع فيه إقناع «فرعون» للعدول عن رأية فى تسريح الجيش . ولكن « فرعون» لم يقتنع وأصر على أمره ، فأخذ «حورمحب» يحتال لثنيه عن ذلك قائلا : إن فى «سوريا» قلقا شديدا ، والجالية المصرية هناك أضعف من أن تثبت له، والملك «عزيرو» يثير شعور الكراهية ضد «مصر» ، وهو يترصد الفرصة المواتية ليعلنها ثورة سافرة! ..

وفرعون يشيح عنه ثم يعود فيكرر عليه الأمر بتسريح النوبيين والشردانيين وإعادتهم إلى بلادهم ، فيعود «حورمحب» كذلك إلى الموضوع نفسه مكررا المخاوف التى تنذر بها الحالة فى «سوريا» ، وموقف «عزيرو» من «مصر» . فيقول «فرعون» مفندا رأى «حورمحب»: إن الثورة فى بلاد سوريا لا تعدو أن تكون مجرد أوهام ، فلا موضع للخشية منها، ذلك لأنى قد أرسلت إلى أمرائها جميعا «صليب الحياة»، وهذا الصليب نفسه قد سلمته بيدى إلى «عزيرو» ، وبينى وبينه، بخاصة ، صداقة ومحبة ، وقد أقام معبدا «لآتون» فى أرض «عمورية» ، ومعنى هذا أنه من أوليائنا الخلصاء فى هذا العهد ، عهد الإخاء والسلام. وقد تلقيت منه كثيرا من الألواح الطينية يسألنا فيها المزيد من العلم عن «آتون» ، ويؤكد إخلاصه لمصر وإلهها الجديد . وتستطيع ، إن شئت ، الاطلاع على هذه الألواح بعد أن يتم تنظيم دار محفوظاتنا .

فقال «حورمحب» : أرجو أن يثق سيدى أن هذه الألواح لاتعبر عن حقيقة هذا الملك «عزيرو» .إنه يخدع ويموه ويخفى ما فى نفسه ، ومع ذلك فإذا كنت مصمما على تسريح الجيش، فدعنى - على الأقل - أستزد من قوات الحدود لتحصينها فى وجه أى إغارة أو اعتداء، وهذا أمر متوقع حدوثه فى أى وقت ولأى سبب، وهذه هى قبائل الجنوب تترك قطعان أغنامها لترعى داخل حدودنا فى بلاد «الكوش» ، وكذلك الحال فى «سوريا» ، ولا يكتفى أصحاب هذه الأغنام بذلك ، وإنما هم أيضا يعبثون بالقرى المحالفة لنا ويحرقونها ، وهذا يسير عليهم لأنها مقامة من القش..

فقال فرعون «إخناتون»: إن هؤلاء لا يبغون علينا ولا يفعلون ما فعلوا عن سوء نية، وإنما هو الفقر الذى يضطرهم لذلك . وينبغى على حلفائنا أن يفسحوا صدورهم لجيرانهم ويقتسموا المرعى مع القبائل الجنوبية، وسأبعث إليهم بصليب الحياة ليشرح صدورهم ويهدئ نفوسهم.. أما حرق القرى ، إن صح ، فلا يعنى العدوان المبيت، وقد ذكرت أنها من القش، ففى إمكان أى فرد غير مسئول أن يشعلها جميعا فى وقت واحد ، وليس من السهل اتهام كل القبائل بمثل هذا العمل التافه الذى يستطيعه فرد واحد !..

واستطرد «إخناتون» قائلا : ولكنى بالرغم من اطمئنانى وثقتى ، أرخص لك فى تقوية حرس الحدود فى أراضى «الكوش» وفى «سوريا» ، بوصفك مسئولا عن سلامة المملكة، على أن يكونوا مجرد حراس وليسوا جيشا ذا عدة وعدد!..

وكان فرعون يقول هذا دون أن تفارقه أفكاره الهاذية المختلطة التى كان يقطع بها الحديث بغتة ليقول له متسائلا : هل رأيت كيف فعل الفنانون بالأرض التى تحيط بقصرى هنا ؟! إنهم ، كما وجهتهم، يحيلونها الآن بحيرات تتخللها الأعشاب ، وفى مائها يسبح البط كما يسبح فى «كريت»! .. وأحسبك لم تنس أن تستمع بمنظر بهو معبد «آتون» الذى أقيمت أعمدته صفوفا بجانب القصر! .. إنها لا شك أعمدة تستهوى النفس ، وقد شيدت من الطوب فحسب ، توفيرا للوقت، فضلا على إنى آثرت أن تكون كذلك حتى لا نستخدم الأرقاء فى قطع الأحجار من المحاجر ثم نسخرهم فى حملها لنقيم بها أعمدة !.. إن فكرة تجشيمهم هذا العناء شىء تعافه نفسى... إلى غير ذلك من الهذيان الذى لا علاقة له بموضوع المناقشة ..

ونفد صبر «حورمحب» فقال : «إخناتون» !.. ياصديقى المدخول ! .. ينبغى أن تأخذ الأمور مأخذ الجد ، ولا أرى مناصا من أن تدعنى أعيد تشكيل قوات الجيش والحاميات وتنظيمها فى كل أنحاء القطر، فإنك لا تدرى أى خطر سيحيق بالبلاد من الداخل لو أننا طوعا لأمرك سرحنا الجنود ! .. إنهم عندئذ لن يكون لهم عمل سوى ترويع الفلاحين وسرقة مواشيهم وأموالهم، وإيذائهم فى أنفسهم ضربا بالعصى !..

ولكن فرعون يجيب على ذلك فى أناة كأنه ينطق بالحكمة فيقول : أرأيت أنه لا خير أنك لا تصغى لما أقول إصغاء الواعى المتدبر ؟! إن هؤلاء الجنود الذين تخشى جرائمهم لن يقدموا على شيء من ذلك لو أنك تحدثت إليهم طويلا عن «آتون» !.. فإنهم ، إذا عرفوه وآمنوا به، يصبحون أخياراً صالحين لا يرتكبون اثما ولا يقارفون جريمة !.. ولكنهم الآن تائهون فى الظلمة وقلوبهم غلف لم يمسسها نور، وسوطك يلهب ظهورهم كأنه شواظ من نار، فهم لا يعرفون ماذا يصنعون !..

وارتد فرعون بغتة إلى هذيانه فقال: قبل أن أنسى، أن ابنتى أصبحتا تستطيعان السير دون مساعدة من أحد !.. ألم تر ذلك يا «حورمحب» ؟! إن «ميريت آتون» تحنو كثيرا على أختها الصغرى وهما معا تلاعبان غزالهما الجميل الصغير وتتلهيان به ! .. والآن فلنعد إلى ما كنا فيه !.. إن هؤلاء الجنود المسرحين يمكنك أن تدبر أمرهم بطريقة أخرى.. نعم، فى وسعك أن تستعملهم حراسا هنا وهناك وفى كل مكان من البلاد ، على أن يظلوا حراسا لاعلاقة لهم بالجيش الذى له صفة الدوام ومظهر الحرب!.. والرأى الأفضل الذى أشير به عليك هو أن تحطم جميع ما لدينا من العجلات الحربية، فذلك خليق أن ينفى الشك فى نفوس جيراننا ، ويؤكد لهم أننا لا ننوى بهم شرا ، وأن مصر – مهما يحدث- لا تفكر فى اللجوء إلى حرب!.. وحين يزول الشك، يزول معه الخوف ، ويزول معهما الخطر!..

قال «حورمحب» متهكما : أيسر من هذا وأجدى ، أن نبيع عجلاتنا هذه للملك «عزيرو» أو للحيثيين ، فهم فى سبيل العجلات والجياد يدفعون الثمن أسخياء ، أيها الصديق البعيد النظر !.. لقد فهمت بوضوح تام ماذا تريد ... إن الخير كل الخير هو أن تلقى بثروة «مصر» فى إقامة هذه المستنقعات وإنشاء صناعة الطوب !.. فما حاجتنا إلى الاحتفاظ بجيش نظامى ؟!.. أو ليس فى المستنقعات والطوب غناء عنه ؟!.

وطال الجدل بين «إخناتون» و «حورمحب» فى هذا الأمر أياما ، وحيال استمساك « حورمحب» بوجهة نظره، انتهى الجدل بينهما إلى الاتفاق على أن يلى

«حورمحب» مركز القائد الأكبر لقوات الحدود وجميع الحاميات ، وله أن يحدد عددها، أما أسلحتها فإن فرعون هو الذى يقررها ، وقد قرر وقتئذ أن تكون حرابا من الخشب !..

وأرسل «حورمحب» على الفور إلى جميع قواد الأقاليم يدعوهم إلى الاجتماع به فى «ممفيس» لوقوعها وسط البلاد وعلى الحدود بين المملكتين . وفيما هو يهم بالإبحار إليها إذ أقبل بالنهر رسول ، حاملا أكداسا من الرسائل والألواح الآتية من «سوريا»، وكانت تروى أخباراً مزعجة !.. ولكنه ارتاح إليها وتجددت بها آماله ، إذ جاءت دليلا على صواب رأى وصدقه تقديره ، فقد كانت تنبئ فى جلاء بأن الملك « عزيرو» رأى فى القلاقل الشاجرة فى «طيبة» فرصته المواتية لضم مدن معينة داخل حدود بلاده، وأن «مجدو» ، وهى مفتاح «سوريا»، قد انبعثت ثائرة ، وأن قوات «عزيرو» تحاصر الحصون وتضغط عليها حتى إن الحاميات المصرية اضطرت إلى الارتداد عنها وأرسلت إلى «فرعون» تطلب النجدة !..

غير أن فرعون «إخناتون» تلقى هذه الأنباء فى غير مبالاة ، وعلق عليها قائلا : إنى أعتقد أن تصرفات الملك «عزيرو» لا تخلو من سبب معقول ، فهو رجل حاد الطبع، وربما تكون قد بدرت من سفرائى إساءة إليه، ولا أستطيع أن أحكم على سلوكه وأعماله إلا بعد أن تتاح له فرصة الدفاع عن نفسه ، ولكن الشيء الوحيد الذى أستطيعه، ولا أدرى كيف فاتنى التفكير فيه من قبل ، هو أننى وقد أقمت مدينة «لآتون» فى الأرض السوداء، فمن الحق على أن أقيم أخرى مثلها فى الأرض الحمراء ، فى «سوريا» وفى بلاد «الكوش»!.. ومدينة «مجدو»، فيما أرى، أفضل موقع لذلك . على أنه مادامت الأمور مضطربة فيها الآن ، فإن فكرة إنشاء مدينة «آتون» فيها تبدو غير ميسورة فى الوقت الحاضر !..

والتفت إلى «حور محب» قائلا: كنت قد حدثتنى عن «أوروشليم» وأنبأتنى بأنك أقمت هناك معبدا «لآتون» خلال معارك ضد العبريين ، هذه المعارك التى أنوء بعبء

إثمها !.. إن «أوروشليم» ليست مركزا وسطا كمدينة «مجدو» ، إذ إنها أكثر بعدا إلى الجنوب، ولكنها ، بحكم الظروف ، المكان الملائم لإنشاء مدينة «آتون» ، وأرى اتخاذ الخطوات العاجلة لإقامة هذه المدينة هناك، وإذا كانت «أوروشليم» اليوم قرية متهدمة ، فإنها ستكون في المستقبل مركزا يتوسط بلاد «سوريا».

وضاق صدر «حورمحب» بهذه السخافات في الموقف البالغ الخطورة ، فألقى سوطه تحت قدمي «فرعون»، انقلب مسرعا إلى السفينة وأبحر بها إلى «ممفيس» ليعيد تنظيم قواته وحامياته في كل أنحاء البلاد.

وهكذا غادر «حورمحب» مدينة» أخيت آتون» غاضبا، وكنت قد خلوت به أثناء إقامته فيها. وفي فترات متعددة واسعة، أطلعته على كل ما رأيت وسمعت في «بابل» و «ميتاني» وبلاد «الحيثيين» و «كريت». وكان يستمع لهذه المعلومات في إصغاء وصمت ، ولكنه كان بين الحين والحين يهز رأسه، مشيرا بذلك إلى أنه ليس فيما أرويه له جديد يجهله ، وقد لمس بأصبعه السكين التي أهداها لي رئيس الميناء لينبهني إلى أنه قد أدرك دلالتها ، وهي أن القوم هناك يستعدون للحرب ويحذقون صنع أسلحتها ... ثم طلب مني أخيرا أن أسجل له كتابة كل ما رويت له من أسماء وطرق وقناطر وأنهار ، فاستمهلته حتى أرجع في ذلك إلى «كابتاح»، لأن ذاكرته كذاكرة «حورمحب» لاتزال في قوة شبابها ، وتعي الدقيق والجليل من الحوادث والأشياء !..

وحين تركنا «حورمحب» مبحرا إلى «ممفيس» لاح الاغتباط على «فرعون»، لأنه كان قد برم به وبمحاوراته إلى حد أنه كان كلما رآه شعر برأسه يدور ويتصدع!..

وبعد ذهابه قال لي «فرعون» وهو شارد الفكر: قد تكون إرادة «آتون» أن نتخلى عن «سوريا»، فإن تكن هذه إرادته فهي نافذة حتما ، ولا أحد يستطيع معارضتها. ومن أنا ، ومن يكون غيري، أمام إرادة «آتون» ؟! وهو عندما يريد ذلك إنما يريده لخير «مصر» ، ورحمة بها !.. وقد يكون تفسير هذا أن «سوريا» تجمع ثراءها استنزافا من قلب «مصر» ، وأن الشرور الفاشية في بلادنا وافدة عليها من

هناك ، فلو انقطع ما بيننا وبينها من صلة ، فستعود «مصر» إلى تقاليد حياتها البسيطة ، إلى الحياة الفاضلة المبرأة من الفساد، وذلك هو الذى ننشده ونطمح إليه، وإذا أصبحت بلادنا هكذا فإنها ستكون مثالا يحتذى بين الشعوب!..

قلت له، وقد بلغ الضيق من نفسى أشده: لما كنت فى «أزمير» دعيت إلى معالجة ابن قائد الحامية المصرية من مرض الجدرى، لقد كان ولدا ظريفا ذا عينين واسعتين تترقرقان بالجمال، واسمه «رمسيس» وهو - حتى فى مرضه - كان لا ينفك يلعب بالأحجار الدقيقة الملونة ، فعالجته فى رعاية وعطف كما لو كان ابنى. وكذلك حدث مرة أن جاءتنى سيدة مصرية كانت تقيم فى «مجدو» ، وقد سمعت بأنى طبيب مصرى ماهر، فسعت إلى فى «أزمير» وكانت تشكو من علة باطنية. فأجريت لها عملية جراحية وأبرأتها من علتها، وهى سيدة ذات ظرف وملاحة ، ككل المصريات...

وقاطعنى «إخناتون» قائلا : لم أفهم شيئا ، ولا أدرى لماذا تضايقنى بمثل هذه المعميات ؟!. وانصرف عنى متشاغلا برسم خطوط لمعبد يتمثله فى خياله، وكان بهذه التخطيطات الخيالية يثير غيظ رجال العمل ورئيس البنائين ، لأنه يحاول دائما أن يفرضها عليهم أو يوضحها لهم، وهم يعلمون من أمرها ومن دقائقها فوق ما يعلم!..

فقلت له مستأنفا حديثى : إنما قصدت أن أقول إنه من السهل أن نتصور الصبى «رمسيس» ابن قائد الحامية المصرية فى «أزمير» وقد صمت أذناه ، وقطعت شفتاه، وشوه جماله... ثم نتمثل كذلك المعبد المصرى هناك وقد لطخت جدره وأبوابه بالدماء، وأهدرت حرمته وقداسته على أعين الناس جميعا ، ونتخيل ، إلى هذا وذاك، تلك السيدة المصرية الظريفة التى تقيم فى «مجدو»، وقد ألقيت عارية أمام الحصن ملطخة بالدم، ورجال «عمورية» يتعاورونها وينتهكون عرضها !.. من السهل أن نتصور كل هذا ونتخيله شيئا واقعا على المصريين هناك ، ولست أراه شيئًا لا يجوز وقوعه ، إذا لم تكن توجد وراءهم قوة تمنعهم وتحميهم!..

ومع ذلك فإنى أعترف ، بأن أفكارى لا تقاس بأفكارك ولا ترقى إلى نورتها العالية ! .. وليس مطلوبا من الحاكم أن يزحم رأسه بالتفكير فى مثل هذه الشئون التافهة !..

فتقبضت عضلات وجه «إخناتون» ، وغامت عيناه ، وقال وهو يصرخ: أعلم أنه لو كان من الضرورى أن أوثر الموت لأحد ، فإننى لن أتردد فى اختيار الموت لمئة مصرى ليعيش ألف سورى!.. فذلك أفضل من أن نثير حربا على «سوريا» لنحرر المصريين فيها ونحميهم . إن حربا كهذه ستلتهم الكثيرين من السوريين والمصريين، ومقابلة الشر بالشر لا تنتج إلا شرا ، ويكون الأمر مختلفا إذا قوبل الشر بالخير ، فالشر حينذاك يقع ضئيلا ، محدود الأثر. ومهما يكن من أمر ، فإنى لن أوثر الموت على الحياة ، ولهذا فإن فى أذنى وقرا عن حديثك ، فلا تحدثنى بعد عن «سوريا» ، إذا كنت تحبنى حقا.. إننى عندما أفكر فى الموت – تفكيرا عابرا– أشعر بآلام الذين يموتون ، تنهش صدرى وتحرق قلبى ، والإنسان بطبعه لا يستطيع أن يتحمل آلام الكثيرين !..إننى أريد السلام يا «سنوحى» من أجل « آتون» ، وأعمل له عن إيمان وصدق.

قال ذلك ، ثم نكس رأسه وكانت عيناه مكسوتان بالكآبة ، وشفتاه تختلجان تأثرا ، فتركته للسلام الذى يسبح خياله فى أفقه البعيد . وكانت أذنى تغمرها حينذاك أصوات المعاول التى تضرب فى أسوار مدينة «مجدو» ، وصرخات النساء المولولات فى الخيام الصوفية «بعمورية» ، ولكننى أقفلت أذنى كما أقفل «فرعون» أذنه دون حديثى، وأبعدت بذلك ما بينى وبين هذه الأصوات المنكرة ؛ لأننى كنت قد أحببت «فرعون» ، وربما كان أكثر حبى له نابعا من جنونه... فقد كان جنونه عندى أجمل من حكمة غيره من الرجال»..

- ٥ -

كان إنشاء المدينة الجديدة سببا في تقسيم الأسرة الملكية ، فقد أبت الملكة الوالدة أن تلحق بابنها إلى الصحراء ، وفضلت البقاء في «طيبة» مع الأميرة «باكيت آمون» ، وكان بيت «فرعون» الذهبي الذي يتوهج بلونه الأزرق المائل المتموج بين السمرة والحمرة، ويقوم وسط أسواره وحدائقه المطلة على النهر ، حيث عني فرعون «أمنحوتب الثالث» بتشييده لزوجته الحبيبة إلى نفسه «تايا» الملكة الوالدة . كان هذا البيت قد دخل بمن فيه في حياة جديدة أشبه ما تكون بحياة ابنة صائد طيور فقير وسط الأعشاب بمستنقعات المملكة السفلى ..

واستطاع الكاهن «آي»، حامل عصا الراعي على يمين الملك ، أن يحكم وأن يقعد مقعد القضاء على عرش الملك ، ولديه القرطاس الجلدي الملفوف ..

وأخذت الحياة في «طيبة» تعود إلى ما كانت عليه من قبل ، فما من شيء غير عادي فيها سوى أن «فرعون» بعيد عنها، وهو في نظر أهلها ملك زائف ، وليس فيهم من يشعر بالأسف لغيابه !..

وعادت الملكة «نفرتيتي» إلى «طيبة» لتضع حملها، فإنها لم تكن تطيق البقاء في فراش الوضع بالمدينة الجديدة بعيدة عن مساعدة أطباء «طيبة» وسحرتها. وقد ولدت فيها ابنتها الثالثة التي سميت «أنخسن آتون» ، وهي التي قدر لها فيما بعد أن تكون ملكة .. وقد أخذ السحرة خلال المخاض في تيسير الوضع بما يحذقون من وسائل ، كما فعلوا عند ولادة الأميرتين السابقتين .

وشاعت بعد مولدها مظاهرة الأناقة بين سيدات البلاط . فكن يبالغن في التزين والتجمل ويضعن في مؤخرة رءوسهن لفائف مستعارة تجعل الرأس تبدو في استدارة كاملة ، وعلى النقيض من هذا كانت الأميرات يتركن رءوسهن حليقة مجردة من أية إضافة دخيلة ويظهرن بها كذلك إبرازا لجمالها الطبيعي ، غير

أن الكثيرين كانت تفتنهم زينة سيدات البلاط دون أن يفطنوا إلى أنها من صنع السحرة !..

وبعد أن استقرت «نفرتيتى» فى «طيبة» بعض الوقت، عادت بطفلتها إلى «أخيت آتون» وأقامت هناك بالقصر الذى تم إعداده لسكناها، ولم تصحبها فى عودتها واحدة من السيدات اللاتى تركتهن فى «طيبة»، لأنها كانت تشعر بالكثير من الأسى لولادتها بنتا إلى ابنتين سابقتين . وقد خشيت أن يكون إخفاقها فى ولادة ذكر مما يحفز «إخناتون» إلى تجربة رجولته فى فراش امرأة منهن !.. ولكن «إخناتون» كان فى حقيقة الأمر سعيدا بعودتها وحدها، لأنه كان مشغوفا بهواها، ولا يخفق قلبه لامرأة سواها ، وقد سره أن جمالها الرائع لم تنتقص الولادة منه شيئا، بل إنها تبدو بعدها أكثر جمالا وأصغر سنا.

وكانت مدينة «أخيت آتون» قد اكتمل رواؤها فى هذه الرقعة الموحشة خلال عام واحد، وقد بسقت أشجار النخيل وبرزت متمايلة على حفافى شوارعها الفسيحة، ونضجت ، ثمار الرمان الحمراء فى الحدائق ، وبين أزهار اللوتس فى البحيرات كان يسبح السمك . وعلى الجملة أصبحت المدينة كلها كالروض الفينان اليانع. وزادها بهجة أن كثيرا من منازلها قد تحلى بالخشب والغاب وأعمدة النخيل ذات الألوان الزاهية مما يخيل إلى من يدخل منزلا منها أنه يدخل فى جزء متصل بحدائق المدينة.

والحق أن هذه المدينة لم يكن ينقصها شيء مما يبهج قلوب الناس، فهى فضلا عن أن الفنانين قد صنعوا فى تزيين منازلها الأعاجيب ، وافتنوا فى رسم الأشجار والزهور ومناظر البحيرات والسمك والطيور على جدرانها وأرضها ، كانت- فضلا عن ذلك- تفور بالحركة ، تموج بالحيوية. وتزدحم بآيات الجمال . فالغزلان الأليفة تتجول فى الحدائق ، والعربات الخفيفة تجرها الجياد الفتية يعلو رءوسها ريش النعام، والمطاعم هنا وهناك تنفح الروائح الطيبة للتوابل المستوردة من كل بقاع الأرض .

وعندما أقبل الخريف وفاضت مياه النيل، وظهرت أسراب الطيور بعد اختفائها مغردة شادية، أعلن فرعون«إخناتون» أنه قد تم إنشاء مدينة السموات ، وأنه قد اختص بها الإله «آتون» وأضافها إلى اسمه ، ثم وضع أحجار الحدود بالشمال والجنوب والشرق والغرب، وعلى كل حجر منها تمثال «لآتون» تنبعث منه أشعته المباركة على «فرعون» وأهله، وعلى جوانبها جميعا عهد «فرعون» وميثاقه ألا يجاوز بالمدينة هذه الحدود!..

واحتفالا بهذه المناسبة طاف «فرعون» بأحياء المدينة الأربعة مصحوبا بأسرته ورجال حاشيته ، على عرباتهم وكراسيهم. وحيثما ذهبوا كانت الزهور تنثر أمامهم ، فى حين كانت المزامير والآلات الوترية تعزف عزفا متصلا لتحية الإله «آتون» .

واعتزم «فرعون» ألا يبرح هذه المدينة حتى بعد الموت . ولهذا فإنه ما كاد يفرغ من إقامتها حتى أرسل العمال إلى التلال الشرقية بالمدينة ليحفروا هنالك المقابر التى ستكون إليها النقلة الأخيرة، وقد اتصلت بذلك أعمالهم فطالت غيبتهم عن مواطنهم الأصلية. وفي ظل رعاية «فرعون» وسخائه انتفت فيهم رغبة العودة إليها ، فبقوا فى مدينة «آتون» إلى آخر حياتهم ناعمين بما يتوافر لديهم من الغلال والزيت ، وقد أنجبوا فيها أبناء أصحاء ! ..

وجعل فرعون من هذه المقابر خارج المدينة دارا للموت ، تحفظ فيها أجساد جميع الموتى بالمدينة، واستدعى من «طيبة» لهذا الغرض المحنطين والمغسلين الذين علم أنهم أكثر براعة فى مهنتهم ، فأقبلوا على ظهر سفينة سوداء ، وقد سبقتهم روائحهم التى حملتها الريح إلى أنوف الناس فجزعوا لها ولانوا بمنازلهم فرارا منها ، وراحوا يصلون «لآتون» حانين الرءوس ، ومنهم من نبهت فيهم هذه الروائح ذكرى «آمون» ، فتحولت أفكارهم عن «آتون» وراحوا يصلون إلى آلهتهم القدماء متجهين إليهم بمعتقداتهم القديمة.

وهبط المحنطون والمغسلون من السفينة وصعدوا إلى الشاطئ ، مزودين بأدواتهم ، وعيونهم ترتعش من مواجهة الضوء لطول ما ألفت من الظلام ، ودلفوا

مسرعين إلى «دار الموت» الجديدة، وفيها اختفت روائحهم ، واتخذوا منها مقرا ومقاما .

وكان من بينهم « راموس» ، ذلك الخبير الذى برع فى القبض على الأجساد بالكتائف ، كما برع فى عمله الأصلى وهو استخراج المخ، وقد لقيته فى «دار الموت» التى وضعها فرعون تحت إشرافى ؛ لأن كهنة «آتون» كرهوا الاتصال بها ، رهبة منها!.. وتأملنى الرجل مليا حتى إذاعرفنى أبدى دهشته ، فرحت أتودد إليه لأستميله وأنال ثقته ، فقد كنت شديد اللهفة على أن أعرف ما حل « بنفر نفر نفر» التى كنت قد دفعتها إليهم هناك فى شكل جثة انفصلت عن الحياة .

وتحدثت إليه قائلا : نبئنى يا صديقى « راموس» !.. هل وقعت بين يديك سيدة جميلة جىء بها إلى «دار الموت» فى «طيبة» أثناء الاضطرابات التى حدثت هناك، وذكرت له اسمها لأعينه على التذكر .

فأجاب قائلا: لعل هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها رجلا ينادى مغسل الجثث بكلمة «صديق» ! فلاشك أنك يا «سنوحى» رجل ممتاز وقد مسست قلبى بلطفك ، ولكنى أخشى أن تكون المعلومات التى تطلبها عن هذه السيدة بالغة الأهمية عندك إلى الحد الذى يجعلك تصطنع اللطف فى مخاطبتى من أجلها !.. وعلى أية حال فإنى أرجو ألا تكون أنت الذى جئت بها إلى «دار الموت» ملفوفة فى رداء الموت الأسود !.. ذلك لأنك لو كنت أنت الذى فعل هذا فلن تكون صديقا لأى واحد من مغسلى الجثث ولو عرفوك لما ترددوا لحظة فى الإجهاز عليك طعنا بخناجرهم المسمومة !

وانفعلت نفسى بعباراته ، فقلت له : كائنا من يكون الذى جاء بها إليكم ، فإنها امرأة آثمة وتستحق الموت !.. واستدركت قائلا : على أن فى كلماتك ماقد يحمل على الظن بأنها لم تكن ميتة! .. فما هى الحقيقة إذن ؟ .

قال «راموس»: الحقيقة هى التى تذكرها أنت فى معرض الظن ، فإن هذه المرأة المخيفة عادت إلى الحياة ، أو هى لم تكن قد فارقتها الحياة!.. ولا أريد أن أسألك

كيف ومن أين عرفت ذلك ؟!. وإنما أقول لك إنها لم تمت ، وأمثالها لا يموتون كما يموت غيرهم من الناس ، أو إذا ماتوا وفأجسادهم يجب أن تحرق حتى لا يعودوا للحياة مرة أخرى .. ولقد أطلقنا عليها ، حين عرفناها ، اسم «ست نفر» أى جمال الشيطان !

وكان هذا الكلام الغامض يضاعف لهفتى لمعرفة المصير الذى انتهت إليه تلك المرأة ، وكنت أرهف أذنى إرهافا شديدا لأسمع منه أنها لقيت بين أيديهم صنوف العذاب والتنكيل ، فإن هذا هو الذى أردته ، وهذا ـ لا غيره- هو الذى تشتفى به نفسى!.. فقلت له: أتعنى أنها أفلتت من الموت ، وانطلقت إلى الحياة ؟! وكيف سمح المغسلون لها بذلك بعد أن أقسموا ليبقنها عندهم سبعين يوما مكررة لسبعين ضعفا .

وعندئذ اعترت «راموس» خلجة عصبية ، وراح فى ثورة مكبوتة يقلب بين يديه سكاكينه وكتائفه، حتى خفت أن ينالنى بسوء ، فرأيت أن أتقيه بالشراب، فجئت له بجرة من النبيذ الفاخر المحفوظ بمخازن فرعون .. فتناولها لفوره وأخذ يتحسس سدادتها بإصبعه، وقال لى وهو بادى الانشراح : إننا لم نكن نحمل لك فى نفوسنا يا «سنوحى» شيئا من الكراهية ، وشعورى نحوك هو شعور الوالد نحو ابنه ، وكنت أتمنى لو بقيت معى طول حياتك فى « دار الموت» لأدربك على حرفتى تدريبا كاملا ، ولعلك لا تنسى أننا تعهدنا جثتى أبيك وأمك بما لا مزيد بعده من الرعاية ، فحنطناهما كما لو كانا من عظماء الناس ، وأضفينا عليهما أجود أنواع الزيوت والدهان ، فلماذا إذن رميتنا بالشر بتقديمك إلينا هذه المرأة الشريرة ؟! أتريد أن تعرف أى شر فادح رميتنا به ؟! إذن فاسمع :

كنا قبل أن تقذفنا بهذه المرأة ، نحيا حياة رخية هانئة ، نتساقى الجعة فتنعش قوانا وتشرح صدورنا ، وتيسر علينا أعمالنا الشاقة المرهقة ، ونتوافر بالثروة مما كنا نناله اختلاسا من مجوهرات الموتى وحليهم دون تفرقة ولا تمييز بين طبقاتهم ومرتباتهم ، وكنا نزداد ثراء بما نبيعه للسحرة من أعضاء الجثث التى يحتاجون إليها فى صناعتهم ! وعلى هذا كنا نعيش إخوانا متحابين سعداء .. ولكننا بعد أن حلت

بيننا تلك المرأة استحال هدوؤنا اضطرابا ، وسعادتنا شقاء ، وثراؤنا فقرا ، وصارت «دار الموت» كأنها الهوة التى غارت بنا فى العالم السفلى!.. فمن أجلها اقتتل الرجال وتنافس الشبان وأصبحوا جميعا كالكلاب المسعورة، وفي غشاوة افتتانهم بها. وتكالبهم عليها استطاعت أن تسرق كل ماجمعناه مكدسا فى «دار الموت» على طول السنين، من ذهب وفضة ونحاس ! لقد سلبتنا كل شيء حتى ملابسنا ! .. كانت تؤلب بعضنا على بعض .. وتغرى الشبان الهول ، فإذا حاول واحد أن يقف في وجهها ليمنع شرها ، اعترضه الآخر وبسط عليها حمايته، ومكن لها فى نيل ما لم تنل ، وحسبه منها ابتسامة أو لمسة ، وفي هدوء خرجت من «دار الموت» حاملة معها ثروتنا وفيها من الذهب وحده ما لايقل عن ألف أوقية ، إلى ما تجمع لها من الملابس والضمادات التيلية والدهانات وغيرها وغيرها وكأنما كنا نجمع كل هذا ، خلال السنين الطويلة، لحسابها الخاص !.. وهى لم تخرج بذلك كله وحده ، وإنما خرجت كذلك بما كان يظلنا من أمن وسلام .. فإن رجالنا الذين وعدت كلا منهم بأنها عائدة إليه بعد عام لترى أيهم كان أكثر من سواه جمعا للمال واستكثارا من الثروة ، لم يبق لهم من شيء يعنون به سوى أن يسرق هذا من ذاك ، ويغافل الواحد رفيقه فى العمل لينتزع من أجساد الموتى أكثر ما تصل إليه يده ، ليتزود بما يرجو أن يقدمه إلى المرأة اللعينة ليكون آثر عندها من غيره حين تعود بعد عام! وهكذا أثارت فى «دار الموت» فتنة مغرقة، ومن هنا كان الاسم الذى رأيناه أشد انطباقا عليها هو «ست نفر» .. فهل عرفت الآن أية داهية رميتنا بها أيها الرجل ؟!

وكان الذى أسمعه من «راموس » كأنه الصاعقة التى تهوى على رأسي فتحطمه ! .. لقد كنت أحسب أننى قد ثأرث لنفسي من «نفر نفر نفر » وأن السهم الذى سددته إليها قد قضى عليها ، فإذا أنا أفاجأ الآن بهذا السهم يرتد إلى صدرى مسموما !.. وهاهى ذى قد نجت من الأحبولة التى نصبتها لها ، وفارقت «دار الموت» عائدة إلى الحياة أو فى ما تكون عافية ومالا، فيالها من شيطانة عجيبة .

ومن هذه الواقعة التى أورثت قلبى حسرة والتياعا ، أدركت أن الإنسان لا يستطيع أن يدبر بيده الانتقام الذى تهواه نفسه، فربما انقلب عليه نارا تحرقه ولا تحرق سواه.

ميريت

- ١ -

ما أشبه الحياة البشرية بالساعة المائية.. إن حياة الناس تدور دوران هذه الساعة، تحركها الأحداث مثلما تحرك الساعة دفقات الماء، وكلاهما لا يفقه كيف ولماذا ومن أين وإلى أين تبدأ الحركة وتنتهي!.. وهكذا كانت حياة الناس منذ أقدم العصور، تسير سيرا مطردا، لهجا إلى غير غاية، وهي لا تقاس بالأيام لا تعد بالسنين، وإنها تقاس بأحداثها وتعد بوقائعها. ويوم ذو حادثة يقع أثره في حياة إنسان، أشد وأبعد مدى من أثر عام ينقضي انقضاء رتيبا مملا، لا يتأثر به القلب ولا تنفعل منه المشاعر!.

وقد فقهت هذه الحقيقة في مدينة "أخيت آتون" حيث قضيت فيها من حياتي عشرة أعوام في رحاب فرعون "إخناتون" بقصره الذهبي، فكانت - على طولها وعلى ما نعمت فيها من هدوء بال ورغادة عيش - أقصر من أي عام من أعوام شبابي، أعوام الرحلات والمغامرات والأحداث الجسام. ولم أستطع في هذه المدينة الجديدة، خلال هذه المدة الطويلة، أن أضيف شيئا إلى حكمتي ومعارفي، بل لقد تناقص ما جمعته منهما في الكثير من البلدان والممالك، كما تتناقص أقراص العسل الذي جمعته النحلة في الصيف حين تجعل منه غذاءها في الشتاء!.. ويخيل إلي أن الزمن قد أثر في قلبي كما تؤثر المياه المندفعة في الحجر، فلم أعد أحس أني "وحيد" كما كنت من قبل، ربما أصبحت أهدأ طباعا وأقل اغترارا بمواهبي، وأغلب ظني أن هذا لم يكن ليحدث لو أن "كابتاح" لم يكن بعيدا عني في "طيبة" مشغولا هناك بإدارة أملاكي إلى جانب إشرافه على حانة "ذنب التمساح".

ولقد عاشت المدينة الجديدة كلها فى عزلة عن العالم، لا تهتم بما يدور فى خارجها من أحداث هذا العالم وشئونه، وكان كل شيء يجرى بعيدا منها يعد خيالا بعيدا عن الحقيقة، كالقمر الذى يتراءى ملتمعا على صفحة الماء، ومكانه هناك ، هناك، في علياء السماء!.. والحقيقة الواحدة، غير المشوبة بشائبة أو المدخولة بخيال، هى التى تقع فى مدينة "أخيت أتون" ليس غير!.. مع أن العكس هو الصحيح!.. فهذه المدينة هى التى كانت مسرح الأوهام والخيالات، أما الحقيقة الصارخة فكانت، خارج حدودها، تتمثل فى الجوع والعناء والموت، ولكن "إخناتون" لم يكن يجد من يجترىء على مكاشفته بواقع الحال، لأن الجميع كانوا يعلمون أن مكاشفته به تثير سخطه وتضايقه أشد الضيق وترده إلى نوبات مرضه المخيف، فهم لهذا يتلطفون معه ويعرضون فى رفق وتزويق كل ما كانت الضرورة تقضى بعرضه عليه.

وكان الكاهن "آى" فى هذه الأثناء يحكم "طيبة" بوصفه حامل عصا الراعى الذى يقف عن يمين الملك، فقد وضع "فرعون" خلف ظهره كل الواجبات الإدارية التى لم يكن يجد فيها شيئا من المتعة، واضعا ثقته الكاملة فى "آى" ذلك الكاهن الطامح الذى تجمعه بفرعون أصرة المصاهرة وقد اتسع نفوذه حتى أصبح هو الحاكم الفعلى للمملكتين، ممسكا فى يديه بكل شئون الناس من قرويين ومدنيين، وبعد أن زال سلطان "آمون" لم تعد ثمة من قوة تنازع أو تعترض طريق "فرعون" الذى هو فى الحقيقة الكاهن "آى".. وكان أكثر ما يشغل "آى" ويعنيه هو مدينة "أخيت أتون" تلك التى اتخذها فرعون "إخناتون" مقرا له ومقاما، وطاب له أن يلتزمها فلا يبرحها. لقد كان "آى" لا ينى عن جمع الأموال وإنفاقها فى سعة وترخص لتوفية بناء هذه المدينة وتجميلها على النحو الذى يشبع هواية "إخناتون" ويغريه بطول الإقامة بها، ثم هو إلى ذلك لا ينفك يبعث بالهدايا الطيبة التى يعلم أنها تقع من هوى "فرعون" ورضاه، ليزداد بها رغبة فى البقاء حيث هو، بعيدا عن "طيبة"!..

إن "آى" كان ينظر إلى فرعون "إخناتون" كما لو كان هو حجر عثرة فى طريقه!.. ولكنه كان غير قلق من هذه الناحية، لأن "فرعون" كان منصرفا كل الانصراف إلى الشئون الدينية، لا يتدخل فى شيء من عامة شئون الشعب!..

وكان "حورمحب" في "ممفيس" مضطلعا فيها بنصيبه من حكومة "آي" فهو المسئول عن الأمن والنظام في جميع أنحاء البلاد، وهو صاحب العليا على جباة الضرائب، وهو وراء المطارق التي تمحو اسم "آمون" من التماثيل والنقوش وجدران المقابر الداخلية. وقد كان فرعون "إخناتون" يبدى اهتماما خاصا بذلك، حتى إنه أمر بفتح قبر أبيه ليمحو منه اسم "آمون"...

وهدأت الحال في "مصر"، بعد فترة. من أيام الفزع في "طيبة". هدوء مياه البحيرة في فصل الصيف. وقد عهد "آي" إلى كبار ضباطه بجباية الضرائب المفروضة على الشعب، وكان يرى في تكليف الضباط هذه المهمة توفيرا للوقت والجهد، ولكنهم لم يتمرسوا بها بأنفسهم ، بل عهدوا بها إلى جباة القرى والمدن لقاء مبالغ كبيرة يدفعونها إليهم، فأصابوا من هذا الطريق ثراء كبيرا، في حين اشتط الجباة في اقتضاء الضرائب الفادحة من الفقراء الذين كانت تذهب توسلاتهم وصرخاتهم بددا في الهواء، وهكذا الحال في كل عصر!..

وفي مدينة "أخيت أتون" ولدت الملكة "نفرتيتي" بنتا رابعة، فكان مولدها أشد وقعا من سقوط "أزمير"، واعتبر دليلا على سوء الحظ، وتناهبت الأوهام عقل الملكة فاعتقدت أنها فريسة سحر، فقصدت إلى "طيبة" ليطب لها سحرة أمها السود!..

وعلى تتابع الأيام انحدرت الأنباء من "سوريا" منذرة بالشر. وكنت كلما رست سفينة البريد على ميناء "أخيت آتون" أذهب إلى محفوظات الملك لأطلع على آخر استغاثات الأمراء هناك في طلب المعونة. وعندما كنت أقرأ رسائلهم أشعر كأني أسمع أزيز السهام المراشة وأشم رائحة البيوت المحترقة، وتقرع أذني أنات الصرعى المحتضرين من الرجال، وأرى الأطفال الأبرياء وقد شاهت وجوههم وتقرحت بالجراح أجسامهم!..

لقد كان "العموريون" قوما أشداء، غلاظ القلوب والأكباد ، حذقوا فنون الحرب على أيدى ضباط من "الحيثيين"، ولم يكن باستطاعة أية حامية في "سوريا" أن تثبت أمامهم. وقد كانت رسائل ملك "بابل" وأمير "أوروشليم" وغيرهما، تفيض توسلا

لإسعافهم بالنجدة، منوهين بإخلاصهم ووثيق علاقتهم بفرعون الراحل، وخالص ولائهم "لإخناتون"، وارتباط عواطفهم "بأخيت آتون"، إلى غير ذلك من ألوان الشفاعة والتوسل. ولكن "إخناتون" كان يسئمه هذا الإلحاح، فكان يبعث بتلك الرسائل إلى المحفوظات دون أن يقرأها!..

وجاء النبأ الأخير معلنا سقوط "أوروشليم" وتدميرها واستسلام المدن التى كانت أكثر أفصل ولاء لمصر، ومن بينها "مجدو" التى اقترن استسلامها بعقد محالفة الملك "عزيرو". وهنا لم يجد "حورمحب" مناصا من العمل السريع لمواجهة الموقف الخطير، فغادر "ممفيس" على عجل قاصدا "أخيت آتون" ليعرض الأمر على "فرعون" ويستأذنه فى تجهيز جيش ينظم به المقاومة هناك، وكان إلى ذلك الوقت يصطنع الحرب الباردة عن طريق الرسائل السرية وبذل الأموال، حتى لا تفلت "سوريا" كلها أو بعضها من يديه!..

وقال "حورمحب" "لإخناتون" بعد أن أطلعه على تفاصيل الحوادث: لم يبق بعد هذا وبعد تتابع سقوط المدن وتلاشى قوات "مصر" فى "سوريا"، إلا أن تأذن لى فى استخدام عشرة آلاف رجل من حاملى الحراب ورماة السهام، ومئة عجلة حربية معهم، وإنى لقمين بهذه القوة أن أسترد لك "سوريا" وأعيدها إلى حظيرة بلادك...

ولكن "إخناتون" لم يحزنه من هذه الأنباء إلا تدمير مدينة "أوروشليم" لا لشىء سوى أنه كان قد اعتزم أن يجعل منها مدينة "آتون"، كوسيلة لتهدئة الحال فى "سوريا"، وقال "لحورمحب": مسكين ذلك الرجل العجوز فى "أوروشليم"!.. إنى لا أذكر الآن اسمه، ولكنى أذكر أنه كان صديقا لأبى!.. كنت فى صباى أراه بالبيت الذهبى فى "طيبة".. لقد كانت له لحية طويلة مرسلة على صدره... وأرى على سبيل المكافاة أن أمنحه معاشا من مال "مصر"، وأظن أن هذا مستطاع بالرغم من أن موارد البلاد سيعتريها النقص كنتيجة لتوقف التجارة والتعامل مع "سوريا"!..

فقال "حورمحب" معترضا فى جفاء: كلا!.. إنه لا يستحق شيئا من ذلك!.. فقد علمت من رجالى الذين بثثتهم للتجسس هناك، وأنا واثق من صدق روايتهم، أنه

بإشارة "عزيرو" أهدى "طستا" فاخرا منقوشا بالذهب فى مثل حجم رأسه إلى الملك "شوبلوليوبما" فى "هاتوشاش"!..

وامتقع وجه "إخناتون" واحمرت عيناه، ولكنه ضغط على أعصابه وقال فى هدوء: لا أكاد أصدق ما تقوله عن الملك "عزيرو"... إنه صديقى، وقد تناول من يدى راضيا صليب الحياة!.. على أنى قد أكون مخطئا فى ثقتى به، وربما ران السواد على قلبه فلم يعد جديرا بحسن الرأى فيه!..

واستطرد قائلا: أما الحراب والعجلات الحربية التى تطلبها، فشىء أراه مستحيلا ؛ لأن الناس قد أذتهم الضرائب الفادحة، وحصادهم جاء أقل كثيرا مما كان متوقعا!..

قال "حورمحب"، محاولا التأثير فيه: من أجل إلهك "آتون"، وفى سبيل التمكين له، أرجو أن تمنحنى السلطة لإعداد مئة محارب وعشر عجلات... إنها قليلة العدد والنفقة، ولكننى أستطيع أن أنقذ بها ما يمكن إنقاذه، من "سوريا"!..

قال "إخناتون": لا أستطيع أن أخاطر بالحرب من أجل "آتون"، فذلك يغضبه ولا يرضيه، إنه يكره الحرب ويمنع إراقة الدماء، وإنى لأوثر أن أترك "سوريا" على أن أقيم فيها حربا... ولماذا لا ندعها وشأنها تؤلف حكومتها الاتحادية حرة؟! ثم نتبادل وإياها التجارة كما كانت الحال فيما مضى!.. إن علاقتها بنا لا يمكن أن تنقطع، لأنها لا يمكن أن تعيش مستغنية عن غلال "مصر"!..

قال "حورمحب" منفعلا :أتظن يا "أخناتون" أن مطامعهم ستقف عند هذا؟ كلا.. إنهم سيذبحون المصريين هناك، وسيدمرون الأسوار، ويتجاوزون الحدود، وكلما وقعت مدينة فى أيديهم أغراهم ذلك بغيرها. ولا شك فى أنهم بعد "سوريا" سيضعون أيديهم على مناجم النحاس فى "سيناء"، وهى التى إن فقدناها فسنعجز تماما عن صنع الحراب ورءوس السهام!..

فأجاب "فرعون" مغضبا: لقد قلت أكثر من مرة إن الحراب الخشبية تكفى للحراسة!.. ففيم إذن حديثك الذى لا ينقطع عن الحراب والسهام؟!. إن حديثك هذا يوجعنى ويبلبل رأسى، ويكاد يصرفنى عن إنشاء التراتيل "لأتون"!..

فقال "حورمحب" مستطردا وكأنه لم يسمع: وبعد "سيناء" سيجىء دور المملكة السفلى، وقد قلت أنت نفسك إن "سوريا" لا يمكن أن تعيش بغير غلال "مصر"، وهذا خليق أن يضاعف شهوتهم فى امتداد سلطانهم عليها!.. على أنك إن لم تكن تخشى "سوريا" التى تستورد الآن حاجتها من الغلال من "بابل"، فإنه ينبغى أن تخشى "الحيثيين" الذين تضطرم فيهم مطامع السلطة والسلطان!..

فقهقه "إخناتون" قهقهة تثير الإشفاق وقال: لم يحدث - على قدر ما تعى ذاكرتنا - أن عدوا واحدا وطئت قدماه أرض بلادنا... والرأى عندى أن أحدا لن يجرؤ على ذلك!.. "فمصر" أغنى وأقوى ممالك الأرض طرا، ذلك إلى أنى قد أرسلت أيضا صليب الحياة إلى الملك "شوبلوليوما" مصنوعا من الذهب، استجابة لطلبه، حتى يستطيع أن يقيم لى تمثالا بالحجم الطبيعى يضعه فى معبده.. فهو لن يزعج سلام "مصر" وأمنها ما دام يحصل منى على ما يريد من الذهب!..

وانتفضت العروق فى جبهة "حورمحب"، ورأيته - وكنت بمقربة منهما - يغالب فى نفسه عاصفة شديدة من الانفعال والغضب، فتدخلت لأضع حدا لهذا لجدال الذى قد تسوء عواقبه، وقلت له: إننى - كطبيب - أمنعك من مضايقة "فرعون"!.. وأشرت إليه إشارة خاصة ليتبعنى إلى الخارج!..

وعندما بلغنا منزلى، ضرب "حورمحب" بسوطه على فخذيه فى عنف، وقال: بحق "ست" وكل الشياطين، إن قطعة من الروث ملقاة فى الطريق لأكثر نفعا من صليب الحياة الذى يتغنى بمنحه للملوك؟.. وإن أشد ما يحيرنى من "فرعون" أنه - على اختلافنا الصارخ فى الرأى - يضع يديه على كتفى، كلما رآنى، ويناديني بالصديق!.. وأشعر فى داخل نفسى، شعورا قويا، بأنه صادق فى هذا!.. وإن كنت أعرف تماما،

وفي الوقت نفسه، أنه - فيما يشتجر بيننا من اختلاف رأي - يرتكب حماقة الخطأ والإصرار عليه غير متفتح لما أبديه له من نصح وسلامة توجيه!.. حقا إن في هذا الملك لقوة غريبة تتجلى في هذه المدينة التي زخرفها وأحكم زينتها حتى لتبدو كالعروس المجلوة!.. ولو أن كل إنسان في هذا العالم مثل بين يديه واستمع إلى حديثه، ومسته أصابعه اللطاف، إذن لاستطاع بما يبعثه من القوة السحرية في نفس محدثه أن يغير العالم، ويصهره في بوتقة مبادئه الجديدة، ولكن ذلك أمر مستحيل،فلن يتاح لجميع الناس، في سائر الدنيا، أن يجتمعوا له ويتأثروا به!.. وأنا شخصيا أخشى على نفسي التحول والتغيير إذا بقيت طويلا هنا!.. فما آمن أن تصبح ثورتي خمودا، وحماستي ركودا، وأقدامي نكولا!..

- ٢ -

وفارقنا "حورمحب" شاخصا إلى "ممفيس"، ولا تزال كلماته تشيع في نفسي، وتشاغل فكري، فقد أحسست أني في موقفي منه ومن "فرعون" لم أحسن الوفاء بحقه صديقا، وبحق "فرعون" ناصحا، وإنما آثرت العافية، ولفقت في سبيلها عواطفي، استدامة للحياة الهادئة الهانئة التي أحياها!..

ولكنني، بعد، أخذت أضيق بكثرة العمل، فقد أصيبت "ميكيت آتون" ابنة "فرعون" الثانية بعلة متلفة، فتضرم وجهها بالحمى، ورق جلد عنقها حتى بدت من تحته العظام!.. وكان على أن أتولى أمرها علاجا، فسقيتها محلول الذهب، وتعهدتها بغير ذلك من وسائل التلطيف والتقوية، واقتضاني هذا عملا متواصلا، وجهدا مضنيا. وقد كان من سوء حظي بلا ريب، أن العلة التي كانت تلازم "فرعون"، وحسبته قد برىء منها بفضل علاجي، قد انتقلت إلى ابنته في هجوم عنيف!.. وكان مما زاد في متاعبي أن "فرعون" قد ارتد إلى القلق والاضطراب، متأثرا بمرض ابنته، فقد كان يحب بناته حبا عظيما. وكما هي طبيعة البشر، كان أشد حبا لابنته المريضة، ولهذا كان يقدم إليها كرات من العاج والفضة لتلهو بها، وجاء لها بكلب صغير يلازمها ويرقد عند

سريرها. وخلال الليل كان ينهض مرات ذات عدد، مرهفا أذنه ليستمع إلى أنفاسها المترددة، وكان ينتابه الارتياع كلما ندت عن صدرها خفقة موجعة!.. وقد بدا عليه الهزال والضعف لفرط ما يعاني من الأرق واللهفة.

وبهذا الشعور الأبوى نفسه. كنت أرعى هذه الفتاة الصغيرة... فلم أكن أقل من أبيها حبا وعطفا عليها. لقد صارت أحب إلى نفسى من أملاكى فى "طيبة" ومن "كابتاح"، وأعجلنى التفكير فيها عن أى شىء آخر، فلم أعد أفكر فى المجاعة الفاشية حينذاك، وما عاد يعنينى أولئك الذين يموتون فى "مصر" جوعا، أو الذين يموتون فى "سوريا" فى سبيل "آتون"!.. لقد شغلت بهذه الفتاة وحدها، وبذلت لها أقصى ما أستطيع من عناية ومهارة، منصرفا بذلك عن مرضاى الممتازين الذين كانت تركبهم علل البطنة والبدانة والصداع الذى كان هو علة "فرعون" الدائمة، وكنت فى علاجى لهم أتلقى منهم ذهبا كثيرا، ولكننى كنت، إلى انشغالى عنهم بابنة "فرعون"، قد سئمت الذهب مثلما سئمت الزلفى!.. وكان هذا السأم يدفعنى أحيانا إلى شىء من الغلظة فى معاملة المرضى عامة، حتى إنهم كثيرا ما كانوا يقولون عنى: لقد غره أنه طبيب الحاشية الملكية، فهو كلما رأى "فرعون" مقبلا عليه ومصغيا إليه، تجاهل واجبه نحونا!..

وكثيرا ما كنت أشعر بالأسى كلما سرح فكرى فى "طيبة" و"كابتاح" و"ذنب التمساح"، وكان قلبى لشدة ما ينتابه من ذلك كأنه الحيوان الذى يتضور جوعا!.. وأحيانا كان يثقل التفكير على ذهنى فأخال رأسى عاريا برغم أن قلنسوة الشعر المستعار كانت تكسوه!.. وعندما كنت أفرغ من عملى وواجباتى، كانت تلم بى فى يقظتى أحلام عجيبة، فأرى كأننى أولج فى طرق بلاد ما بين النهرين، وأشتم خلالها رائحة الخبز الطازج وهو ينضج فى أفران القرى هناك..

وأسلمنى هذا إلى استرخاء وترهل، فزاد وزنى وأصبح نومى أطول أمدا وأكثر عمقا، ولم أعد أتنقل إلا راكبا محفة، إذ كان سيرى راجلا، ولو لمسافة قصيرة، يرهقنى وتكاد أنفاسى تتقطع منه، على خلاف حالى من قبل، فقد كنت فيما مضى

أقطع أطول المسافات سيرا على قدمى فى كثير من الخفة والنشاط، ودون أن أحس شيئا من التعب..

وحل الخريف مرة ثانية فارتفعت مياه النهر، وظهرت معها الطيور التى كانت متوارية فى أكنانها، وتدافعت فى الهواء محلقة مفردة، وهنا راح قلبى يتبعها مستيقظا من غفوته. وكانت ابنة "فرعون" قد أخذت تلوح عليها علامات العافية، فشاع فى وجهها الابتسام والتهلل، ولم تعد تشكو ألما فى صدرها..

وفى هذا الجو من الراحة النفسية، أذن لى "فرعون" فى السفر إلى "طيبة" فركبت سفينته، وقد أنابنى عنه فى إبلاغ تحياته لكل رعاياه على جانبى النهر فى طول الطريق، وخاصة منهم أولئك الذين وزع عليهم أراضى "آمون" الإله الزائف، كما أنابنى عنه فى زيارة وتحية المدارس التى أقامها، وتمنى وهو يودعنى أن أنقل إليه عند عودتى أنباء سارة!..

وكانت رحلة لطيفة حقا، لقيت فيها من الراحة والمتاع أكثر مما كنت أطمع، فقد كان مكانى من السفينة مزودا بالفراش الوثير، وكان يرافقنى طاه خاص بى، ولكنه لم يصنع لى شيئًا، ذلك لأن الأطعمة الطيبة كانت تتوراد علينا وفيرة من كل القرى التى كانت تمر بها أو ترسو عليها سفينة "فرعون" ذات الراية العالية التى تخفق على ساريتها المنيفة!..

وكان الأهلون يتوافدون علينا بالسفينة فأحييهم باسم "فرعون" وأتحدث إليهم مستطلعا أحوالهم. ولشد ما راعنى أنهم كانوا على حال من الهزال والسقم، حتى لقد حسبتهم هياكل من عظام نخرة. ولم تكن نساؤهم أحسن حالا، بل لقد كان الخوف باديا عليهن إلى حد أنهن كن يتلفتن فزعات كأنما يلاحقهن خطر غير منظور. وكذلك كان أطفالهم مرضى مهازيل، لا تكاد تحملهم سيقانهم المقوسة!.. وخلص لى من أحاديثهم أن صوامع غلالهم نصف خالية، وأن القمح الذى أصابوه من زراعتهم كان خليطا من مواد ذات بقع حمراء كأنها مصبوغة بالدم!.. وقالوا لى: لقد كنا

نحسب أول الأمر أن هذا نتيجة جهلنا بأساليب الزراعة، إذ لم يتهيأ لنا التمرس بفلاحة الأرض قبل ذلك، ولكننا، بعد، قد عرفنا أن الأرض التي وزعها علينا "فرعون" لم تخذلنا لجهلنا، وإنما خذلتنا بسبب اللعنة التي صبت عليها. ولا شك عندنا في أن هذه اللعنة لاحقه كذلك بمن يزرعها. ومن هنا تتراءى لنا في الليل أشباح تنقض على زروعنا فتنقص من ثمارها، ومن وراء الحجب تمتد الأيدي الخفية إلى أشجار الفاكهة التي نزرعها فتقتلها أو تهصرها ، وبلا سبب واضح نفقت مواشينا، وجفت مجاري مياه الري!.. وما أكثر ما رأينا في آبارنا جثثا بالية وأقذارا نتنة، ففسد الماء وأصابنا الظمأ، ولهذا ترك الكثيرون أراضيهم وعادوا إلى المدن أفقر حالا مما كانوا من قبل، وهم يسخطون على "فرعون" وإلهه، ويلعنونهما!.. غير أننا، نحن، قد بقينا حيث أمرنا أن نبقى، وحيث لا تزال فينا بقية من الإيمان بفرعون وإلهه، إلى الثقة في رسائله التي بعث بها إلينا، وقد علقناها على قوائم خلال الحقول للوقاية من الجراد!.. ولكن يبدو أن سحر "آمون" أشد وأقوى من سحر "فرعون"؟!.. ونشعر أن إيماننا تنحل عراه شيئا فشيئا، وأصبحنا أكثر جنوحا إلى ترك هذه الأرض الوبيئة قبل أن تطم علينا البلايا ، فنموت جميعا كما قد مات بالفعل كثيرون من زوجاتنا وأطفالنا!..

ونزلت إلى مدارسهم فزرتها، وما أن أبصر المعلمون صليب "آتون" على ملابسي حتى أخفوا عصيهم ورسموا صلاة "آتون". أما الأطفال فكانوا يجلسون على الأرض بسيقانهم المتشابكة، فلما رأوني راحوا يحدجونني بنظرات طويلة تائهة، حتى لقد نسوا أن يمسحوا أنوفهم!.. وقال لي المعلمون: إننا نعلم أنه من خطل الرأي تعليم القراءة والكتابة لكل طفل، ولكن ماذا كان في وسعنا أن نفعل؟! وهذه هي إرادة "فرعون" الذي نحبه ونعده لنا أبا وأما، ونقدسه لأنه ابن إلهه؟!.. على أنه ليس من اللائق بنا، ولا مما يتفق مع كرامتنا، أن نفترش الأرض هكذا، لنعلم أطفالا تطفح القذارة على أجسادهم وملابسهم حتى لنضطر أن نمسح أنوفهم!.. وأن نرسم الحروف أمامهم على الرمال لأننا لم نزود بما ينبغي لذلك من ألواح وأقلام!.. هذا إلى أن تلك الحروف الجديدة شائهة وبغيضة إلينا ولا نستطيع أن نظهر بها الحكمة

والمعرفة التى أوتيناها بمشقة ونفقات طائلة، ثم إن أجورنا لا تؤدى إلينا فى آجالها المحددة، وأولياء أمور هؤلاء الأطفال لا يكافئون جهودنا إلا بالنزر التافه، فالجعة التى يبعثون بها إلينا مرة المذاق، والزيت فى جرارنا مختلط غير سائغ ، ومن أجل هذا نطلب عليك فى إصرار أن تقول "لفرعون" إنه فى حكم الاستحالة تعليم كل الأطفال القراءة والكتابة، وإن الجدير منهم بالتعليم هم الأكثر نباهة والأصفى ذهنا فحسب...

وبعد أن استمعت إلى حديثهم هذا، أخذت فى اختبار مقدرتهم فلم أجدهم على حظ يستحق الرضا. وقد ضايقنى منهم على وجه خاص أن وجوههم كانت منتفخة ونظراتهم شاردة غير مستقرة، فلم يكن يلوح عليهم سمت أهل المعرفة والعلم، ولم أستغرب ذلك، فقد كانوا من أولئك الكتاب الفاشلين ذوى المعارف الضحلة المحدودة، الذين لم يكن أحد يعهد إليهم عملا، وكل مؤهلهم فيما ندبوا له من التدريس بمدارس "فرعون"، أنهم حملوا صليب الحياة "لآتون"!..

وكان الذين اتصلت بهم من الأهلين وشيوخ القرى وعجائز نسائها أشد تبرما بهذه المدارس من معلميها، فقد قالوا لى - فى شبه إجماع - وأقسموا "بآتون" على صدق مقالتهم، وهم يطلبون رفع إصر هذه المدارس عن كواهلهم: إن أولادنا يعودون إلينا مشوهى الأجسام لفرط ما ينالهم من أذى معلميهم، إنهم يضربونهم فى وحشية ويقطعون شعور رءوسهم، ثم إن هؤلاء المعلمين، فوق ذلك، فى مثل جشع التماسيح، لا يشبعون أبدا!.. فهم يلتهمون كل ما لدينا فى البيت أو خارجه، ويبتزون كل ما نملك من نقود نحاسية، ولا يقنعون بذلك فيقسروننا قسرا على بيع مواشينا لنشترى لهم بأثمانها نبيذا!.. وعندما نكون فى عملنا بالحقول، يتسللون إلى بيوتنا، ويقضون شهواتهم مع نسائنا، فإذا سئلوا لماذا يفعلون ذلك؟!. قالوا: هذه هى إرادة "آتون" الذى سوى بين الناس، فلا فرق بين رجل ورجل، ولا تختلف امرأة عن امرأة... وهذا ما لا تحتمله طبائعنا، ولسنا الآن بالراضين عن هذا التبدل فى أساليب حياتنا، والحق أننا كنا - على فقرنا بالمدن - أكثر شعورا بالسعادة، فما نرى هنا إلا طين الأرض ولا نسمع إلا خوار الماشية!..

واستطردوا قائلين: ليتنا استمعنا إلى نصح الناصحين الذين كانوا على حق حينما توقعوا لنا هذا المصير، إذ كان من رأيهم أن التغيير فى حياة الفقراء يزيد حالهم سوءا، ومن نتائجه، كما هو الشأن الآن، قلة فى الغلال إلى نضوب في جرار الزيت!..

ولم أشأ أن أجادلهم فى مقالتهم فقد كنت واثقا من أنهم لم يقولوا إلا حقا، ومضيت فى رحلتى حزينا منقبض الصدر، لما تنذر به تلك الحال من سوء عاقبة لسياسة "فرعون" واتجاهاته، وإلا فما معنى هذه الظواهر المتواترة؟! إنه ما من شيء قد تفرع عن التغييرات التى قررها إلا أصابه العطب، ولحق به الفشل، وغشى الناس سحاب من الهم والكآبة، فالمكافح المثابر منهم أصبح مستخذيا متوكلا، قانعا بما يناله فى غير عناء، من أعطيات "فرعون" ومنحه، ولا يتجمع حول "آتون" إلا أولئك المتهافتون على منافعهم الخاصة، مثلما يتهافت الذباب على الرمم!..

وكلما استرسلت فى التأمل والتفكير، زاد قلقى وتضاعف ارتيابى، فإن "فرعون" ومن حوله من النبلاء الكسالى، ولا أستثنى نفسى منهم لم يكونوا خلال السنوات القليلة الماضية، إلا مجموعة من الرجال يخوضون فى تيه من الأهداف، ويسبحون فى آفاق غير محدودة من الخيالات. وما أراهم، وقد بلوتهم من قريب، إلا أشباه الهوام الصغيرة التى تبدو فى جلود الكلاب!.. وما أيسر أن تظن تلك الهوام أن الكلاب لم تخلق إلا لخدمتها!.. وهكذا "فرعون" وإلهه يبسطان نفوذهما على الشعب وهما، بعد، فى مثل قوة هذه الهوام!.. إنه الغرور والخبال، ولا شيء سوى ذلك!..

إن قلبى الغافى يستيقظ، فتضؤل فى عينى مدينة "أخيت آتون" ولا ألمح فيما أرى من أحوال الناس بشيرا بخير، ولعلى كنت متأثرا بقوة "آمون" هذه القوة السحرية التى ما زالت مسيطرة على "مصر" كلها بطرق سرية شتى... "فآمون" هو الذى يحكم البلاد فعلا، ولا ينفى هذه الحقيقة أن "مدينة السموات" لا تدخل فى إطار حكمه...، وقد حيرتنى هذه الخواطر وهى تزحم رأسى كلما قطعت السفينة شوطا فوق النهر، ولكنى لم أبعد كثيرا عن الواقع الذى تصورته بالعين الفاحصة والتجربة القريبة.

واقتربت السفينة من شاطئ "طيبة"، ولاحت لنا التلال الثلاثة التي كانت، وستظل، قائمة على حراسة هذه المدينة العظيمة، وبدا لعيني من بعيد سقف المعبد وأسواره، ورأيت رءوس المسلات كما لو كانت تطل علينا لتحيينا، ولكنها لم تكن كالعادة تلمع في ضوء الشمس، ذلك لأن الأغطية الذهبية التي تغطيها قد أهمل تلميعها، فصدقت، على أن منظرها ذاك قد أنعش قلبي!..

وعلى عادة البحارة عند عودتهم من رحلة طويلة ، حببت نبيذا في مياه النيل ، ولكن بحارة سفينتنا كانوا يسكبون الجعة، ليحتفظوا لأنفسهم بالنبيذ، أن كان ثمة شيء قد بقي معهم منه...

ومرة أخرى، عدت إلى ميناء "طيبة"، ورأيت أحجار رصيفه ، وشممت رائحة المدينة تنبعث كريهة من القمح المتعفن، والمياه الكدراء، والتوابل الفاسدة، والأعشاب والقار!..

ووصلت إلى الحي الفقير الذي اشتريت به منزلي من تاجر النحاس، وكدت أنكر هذا المنزل لأول وهلة، فقد بدا في نظري أصغر وأضيق مما كان. وعافت نفسي منظر الزقاق الذي يقع فيه لفرط قذارته وامتلائه بالذباب والروائح النتنة، وحتى شجرة الجميز، التي كنت قد زرعتها بيدي في فناء المنزل. لم ترق في نظري مع أنها قد نمت كثيرا أثناء غيبتي، وأحزنني ألا أجد في نفسي من البهجة ما يجده منها العائد إلى داره بعد طول اغتراب، ولكن العلة في ذلك ليست في الدار ولا في الزقاق ولا في الحي كله، وإنما هي - بلا شك - فيما كنت أعيشه بمدينة "أخيت أتون" من المتاع والثراء ورغادة العيش!.. لقد أتلفتني هذه المعيشة الناعمة، وغيرت في عيني ألوان الحياة ومناظرها!..

وكان "كابتاح" غائبا عن المنزل، ولم يكن به سوى طاهيتي "ميوتي"، التي دهشت لرؤيتي فجأة، وقالت وهي في اضطراب المفاجأة: إنه ليوم سعيد، ذلك الذي أراك تعود فيه إلى بيتك يا سيدي ولكن.. قليلا من الصبر يا سيدي!.. إن الحجرات لم تنظف بعد، والمفارش الكتانية قد وضعت في أوعية الغسيل.. لا تعجب يا سيدي إذا قلت لك

إن قدومك هكذا قد أحدث فى نفسى اضطرابا ومضايقة!.. إننى كنت أقدر دائما أن الحياة لن تمنحنى شيئا من السعادة، ولم يخطئ تقديرى فى عودتك المفاجئة. إن هذه المفاجآت، التى تسبب لمثلى ما أنا فيه الآن من اضطراب ومضايقة، لهى أسلوب الرجال الذين قلما يرجى منهم خيرا!..

فأخذت أهدئ من اضطرابها، وأخبرتها أننى عائد إلى السفينة لأقضى الليلة فيها مضطرا، وتركتها لتمضى فى عملها هادئة. وقصدت – راكبا محفة – إلى حانة "ذنب التمساح"، ورأيت لدى بابها "ميرييت" فلم تعرفنى أول الأمر، للملابس الفاخرة التى كنت أرتديها والمحفة التى كنت مقبلا عليها!..

وبدأتنى قائلة: إذا لم تكن قد حجزت لك مكانا هنا لقضاء الليل، فإنى لن أسمح لك بالدخول!..

وقبل أن أجيب، كنت أجيل نظرى فيها مدققا، لقد ظهرت عليها البدانة بعض الشيء، وفى اكتناز وجهها المضيء توارت، أو كادت، عظام خديها. أما عيناها فإن شيئا منهما لم يتغير، إنهما على حالهما من الصفاء والجمال، ماعدا بعض خطوط دقيقة تناثرت حواليهما، وشعرت بقلبى دافئا حين وضعت يدى على خاصرتها قائلا، لايدهشنى أن أراك قد نسيتيننى ففى هذه الدنيا كثيرون تمضهم الوحدة وتحزنهم، وأنت، ذات القلب الحانى على أمثالهم، لا بد أن تكونى قد جعلت لهم من فراشك مضاجع يأنسون فيها ويسعدون بها!.. ومهما يكن من أمر، فإنى أطمع فى أن أجد بهذه الحانة مقعدا وكأسا من نبيذ مرطب، وليس بذى بال ألا أجد موضعا فى فراش!..

فقالت مشدوهة وكأنها تصرخ: "سنوحى"!.. إنه أنت!.. ما أسعده من يوم تعود فيه إلى موطنك ياسيدى!..

وأمسكت كتفى بيديها القويتين البضتين، ومضت تقول، وهى تتفرس فى وجهى من قرب: "سنوحى"!.. قل لى!.. ماذا كنت تفعل؟!..

وفي دعابة ودلال، أردفت تقول: إذا كانت وحدتك فيما مضى وحدة الأسد، فإنها اليوم وحدة الكلب الصغير، وها أنت ذا قد عدت لأضع المقود في رقبتك!..

ورفعت قلنسوة شعرى، وراحت تتحسس بيدها رأسى الحليق، واستمرت قائلة: أجلس - إذن - يا سنوحى، فسآتيك بالنبيذ المرطب، فإن عرقك يتصبب، وأنفاسك لاهثة لطول ما عانيت من رحلتك المضنية!..

فقلت لها مستدركا: لا.. لا أريد هذا المخلوط من "ذنب التمساح" فإن معدتى لم تعد تطيقه، وكذلك رأسى!...

فلكزتنى فى ركبتى. وقالت ساخرة: أهكذا صرت فى نظرك بدينة قبيحة، إلى حد أنك، لأول مرة تلقانى بعد غيبة سنين، لا تفكر إلا فى معدتك؟! أنت، أنت الذى لم تكن تخشى من قبل صداعا فى جوارى؟! وأين - إذن - لهفتك الشديدة، وشوفك المتقد إلى "ذنب التمساح"؟!.. لقد كنت أنا التى أكبح جماحك لتقلع عن إسرافك فى تناوله!..

وكانت تقول الحق، فأحسست بشىء من الخجل، ولكنى لم أتردد فى أن أقول لها، محاولا تبرير الموقف: لا عجب يا صديقتى "ميرييت" فقد أصبحت عجوزا، وأشعر بأننى قد انتهيت!..

فقالت: تلك دعواك، وهذا تصورك!.. ولكن عينيك، وهما تحدقان بى، تقولان غير هذا. وهو حسبى!..

فقلت لها مستسلما: "ميرييت"!.. لك ما تشاءين، وفى سبيل صداقتنا، عجلى بمخلوط "ذنب التمساح"، سأغضب منك إن أبطأت! هيا فعجلى، ولا يغيبن عنك أن جراح الجمجمة بالحاشية الملكية يجلس الآن هنا فى حانة بحى الميناء!..

وعادت "ميرييت" حاملة كأس الشراب، فرحت أترشف منه، ولم يكن رطبا، فأحسست منه بمثل اللهب فى حلقى، ولكننى لم ألبث أن استعذبت مذاقه، وأنا أضع يدى على جسمها وأقول لها: سمعتك مرة تقولين - يا "ميرييت" - إن فى الكذب

ما هو أحلي من الصدق لمن يكون وحيدا انقضى ربيع شبابه، ولكنى أقول لك الآن صادقا إن قلبى لا يزال مزدهرا، وهو - عندما ألقاك - أكثر إحساسا بفتوة الشباب!.. لقد فرقت بيننا الظروف لسنوات ذات عدد، ولكن يوما واحدا منها لم يكن يمضى دون أن أهمس باسمك للنسيم الدائم السريان، وللطيور دائمة الارتحال على اتجاه تيار النيل، كنت أحملها جميعا أعطر تحياتى إليك، وكان اسمك دائما التسبيحة المقدسة التى تتردد على لسانى كلما استيقظت فى كل صباح!..

وكانت "ميرييت" تصغى إلى حديثى، وفى عينيها إشراق يخالطه من بعيد مسحة من أسى كالذى يتراءى فى أعماق البئر تحت مياهها الصافية، وداعبت خدى بيدها وقالت: كلامك، يا سنوحى، جميل تطرب له نفسى ويأنس به قلبى، ولا شىء يمنعنى الآن من أن أعترف بأن حبى لك لم يفتر لحظة من نهار أو ليل... قد كنت، كلما أويت إلى فراشى وحيدة، أذكرك وأتخيلك إلى جانبى، فأمد يدى لأضمك إلى صدرى، وكم كنت أقاسى من مرارة الخيبة حينما كنت أجد مكانك خاليا!.. وما أكثر ما كان يؤلمنى أن أسمع أصوات المترددين على هذه الحانة ولا أسمع صوتك. كانت وحدتى هنا موحشة محزنة، بينما أنت، هناك، فى بيت "فرعون" الذهبى، حيث النساء الجميلات، تملأ بهن فراغ وقتك، وتطفئ فى القرب منهن ضرام قلبك!..

قلت لها: لا أخفى عنك أن سيدات القصر جميلات فاتنات، وقد استمتعت ببعضهن، ولا غرابة فى ذلك فليالى الشتاء تحتاج إلى الدفء، ولا يتحقق الدفء فيها إلا إذا كان هناك اثنان فى فراش واحد!.. ولكنى أؤكد لك بالصراحة نفسها أن هذا كان نادرا، وكان على ندرته ينقضى لساعته دون أن يترك فى نفسى أثرا ، ولهذا لم أعن بتدوينه فى مذكراتى والحقيقة التى أستيقنها وأحب أن تثقى بها هى أننى لم أنم وحيدا فى ليلة واحدة، ذلك لأنك كنت دائما بجانبى هناك!..

وسرى مخلوط "ذنب التمساح" فى أعصابى، وفعل فعله بداخل بدنى، وأحسست بنشاط الشباب ولطف النشوة، وأنا أقول لها: إذا كان رجال قد قاسموك فراشك خلال غيبتى، فمن الخير أن تنصحى لهم بالابتعاد عنى مادمت "بطبية"، فإننى عنيف

صارم إذا أثارني أحد أو إذا غضبت لأمر، وكان جنود "حورمحب" يلقبونني "بابن الحمار الوحشي" عندما كنت أحارب معهم ضد العبريين!!..

فرفعت "ميرييت" يديها، وقالت وهي تتكلف الخوف: ذلك ما كنت أخشاه، لقد أنبأني "كابتاح" عن كثير من المناوشات والمشاجرات التي كانت تدفعك إليها حدة طبعك، ولولا أن "كابتاح" كان يتدخل في الأمر مدفوعا بإخلاصه لك، لما نجوت من هذه الحماقات..

وهنا فطنت إلى أن "كابتاح" قد لفق لها عني أحاديث ووقائع، وقص عليها من حياتي في بلاد الغربة أكذب القصص، فذلك طبعه، ولكن أين هو؟!.. إنه أحد أرقائي السابقين، وخادمي الأمين، وأنا مشوق إلى لقائه لأضمه إلى صدري؟!..

ورحت أهتف باسمه كما لو كنت أناديه!.. ولكن "ميرييت" حاولت أن تسكتني، فقالت: يظهر أنك لم تعد تحتمل مخلوط "ذنب لتمساح"!.. إنك تحدث ضجة تلفت الأنظار إلينا، وهذا هو أبي ينظر في اتجاهنا بادي الغضب، وأكبر ظني أنه يأمرنا بالكف عن هذا الضجيج المثير!.. وعلى أية حال، أنت لا تستطيع أن ترى "كابتاح" قبل حلول المساء، فإن أعماله الهامة في بيع صفقات الغلال وشراء غيرها، وفي الإشراف – عدا ذلك – على الحانة، تستغرق معظم وقته. وسترى، عندما تلقاه، أنه قد تبدل كثيرا، فهو يأبى أن يذكر لنفسه، أو أن يذكره أحد بأنه كان يوما رقيقًا، يحمل حذاءك على كتفه معلقا بعصا!.. دعك من أمره الآن، وأقترح عليك أن نمضي معا إلى خارج الحانة، فنستروح النسيم العليل، وترى من "طيبة" ما لم تره فيها من قبل، فقد تغيرت في كثير من مظاهرها منذ تركتها، وبهذه الوسيلة نقضي منفردين وقتا طيبا، بعيدين عن هذه الأنظار المتلصصة!..

وذهبت "ميرييت" فأبدلت ملابسها، وجملت وجهها بالطلاء، وتزينت بالذهب والفضة، وعادت مشرقة الجمال، والحق أنها لم تكن أقل روعة من فتيات الطبقة الراقية، بل إن الكثيرات منهن ليس لهن مثل صفاء عينيها وبهاء ثغرها!..

وجاء الأرقاء، فحملونا على المحفة التى جلسنا عليها متلاصقين، وكان يفوح من "ميريت" شذا العطور التى تضمخت بها، وهى من أريج "طيبة"، وكانت أرق عبيرا وألطف رائحة من عطور "أخيت أتون". وفى طريقنا إلى شارع "رامس"، كنت أمسك بيدها، سعيدا لا تشوب قلبى شائبة من خواطر السوء، ولماذا لا أكون كذلك، وها أنذا قد عدت إلى موطنى، وإلى فتاتى، بعد طول شوق إليهما؟!..

واقتربنا من المعبد، فرأينا الغربان السود تحوم وتنعب فى ساحته التى صارت خرابا مفزعا، وقد طاب المقام فيه لهذه الغربان، وفلم تعد إلى تلالها، وكان كل شىء فى هذه المنطقة يشير إلى أنها أصبحت مثابة لعنة، لا يرتادها الناس خوفا منها!..

وعندما هبطنا من فوق المحفة، وأخذنا نتنقل فى تلك الساحات المهجورة، ولم نر هناك من آثار الحياة وبقايا العمران إلا "دار الحياة" و"دار الموت"، فقد كانتا من الضخامة بحيث استعصى نقلهما من مكانيهما. وقد أخبرتنى "ميريت" أن الناس لم يعودوا يترددون على "دار الحياة" لأن أطباءها قد هجروها، وآثروا أن يباشروا عملهم فى المدينة!..

وتجولنا فى حديقة المعبد، فإذا الحشائش قد فشت فيها وتكاثفت على طرقاتها، وما بقى من أشجارها كان جذوعا تحطمت أغصانها، ومعالم فى الأرض تدل على ما سرق منها. ولم نر بهذه الحديقة الفسيحة التى أمر "فرعون" بتحويلها إلى ملاعب ومنتزه عام، إلا رجلين تبدو عليهما سمات التبطل والمرض، وقد طفقا يختلسان النظر إلينا طوال الوقت الذى قضيناه هناك!..

وقالت "ميريت": إن صدرى ليضيق بهذا المكان المخيف!.. وإنى لأتوجس منه شرا، فلنخرج منه، ثم استوقف نظرها "صليب الحياة" الذى أضعه على صدرى، فاستطردت قائلة: وكذلك يضيق صدرى بهذا الصليب!.. إنه شارة العهد الجديد، وفيه بلا شك حماية لمن يحمله، ولكنى مع ذلك أراه خطرا عليك فى "طيبة"، فإن كراهية "الطيبيين" للعهد "الآتونى" تعدل تماما إيمانهم "بآمون" وتعلق قلوبهم به، وأخشى لهذا

أن يحطموا رأسك بالحجارة إذا ما ظل هذا الصليب على صدرك، فانزعه - إذن - من موضعه وأخفه عن عيونهم!..

وقد صدق حدس "ميرييت"، فإننا لم نكد نعود إلى الميدان المواجه للمعبد، حتى رأيت الناس، الذين يمرون بنا، يحملقون فى شارة الصليب على صدرى، فتتجهم أسارير وجوههم، ويبصقون على الأرض علامة الاشمئزاز والبغض!..

وكان مما أثار عجبى، أكثر من ذلك، أنى رأيت واحدا من كهنة "آمون" يمشى فى جرأة ملحوظة بين الناس، مرتديا ملابسه الكهنوتية البيضاء الفاخرة، عارى الرأس، كما لو كان لا يزال يؤدى مراسمه الدينية لحساب "آمون"، وكانت هذه مخالفة صارخة لأوامر "فرعون"!.. ومع ذلك فإن الناس كانوا يلقونه باحترام ويفسحون له الطريق. وهنا لم أتردد فى الأخذ بنصيحة "ميرييت"، فأخفيت صليب الحياة "لآتون"، اجتنابا للشر الذى توافرت نذره وعلاماته!..

وقريبا من سور المعبد، رأينا قاصا يجلس على الأرض مفترشا حصيرا من قش، وأمامه طاس فارغة، وحوله - فى شكل دائرة - جمهرة من الناس، وأكثرهم من الدهماء وعامة الفقراء، قد تجمعوا فى رغبة ظاهرة ليستمعوا إلى ما يقصه عليهم من الوقائع والأساطير، وكان وقتذاك يروى لهم قصة غريبة، ملخصها أنه كانت هناك امرأة سوداء من عامة الناس، وكانت تشتغل بالسحر، فاستعانت بإرادة "ست" حتى استمالت إليها قلب "فرعون" العظيم، وظفرت بحبه، وولدت له "فرعون" الزائف. وكان هذا الفرعون الزائف سببا فى خراب "مصر" وإشقاء أهلها، حتى أوشك أن يجعل منهم أرقاء فى بلاد النوبة والأقطار المتوحشة، وأعلن كفره بالإله "رع"، فحطم تماثيله، فحلت لعنة "رع" على الأرض فأصبحت قفرا، وطغت الفيضانات العالية على الناس فأغرقتهم، وزحفت أرجال الجراد على المحصولات الناضجة فالتهمتها وتحولت مياه البحيرات والمستنقعات إلى دماء كريهة الرائحة، وكان، ثم صراع غير منظور بين "رع" و"ست" فى عهد ذلك الفرعون الزائف، ورجحت كفة "رع" لأنه كان أقوى سلطانا،

فمات "فرعون" الزائف ميتة شنيعة، وكذلك ماتت أمه الساحرة، وأنزل "رع" نكاله الشديد بمن أنكروه، وبأمره ومشيئته وزعت بيوتهم وأموالهم وأراضيهم على الذين ظلوا أوفياء له، مؤمنين بعودته!..

وكانت القصة، كما يقصها هذا القاص، طويلة ومثيرة، وكان الجمهور المتجمع لسماعها متأثرا أبلغ التأثر بحوادثها. فلما بلغ القاص نهايتها، وقال إن "فرعون" الزائف قد لقي جزاءه بإلقائه في حفرة غير ذات قرار، ولعن اسمه في كل مكان، وأجزل "رع" مكافأته لمن أخلصوا له.. عند ذلك الحد من القصة، صفق المستمعون تصفيقا شديدا وأخذوا يتصايحون صيحات البهجة الرضا، وألقوا إلى القاص بنقودهم النحاسية في الطاسة الفارغة حتى امتلأت!..

وقلت "لميربيت" دهشا: لم أسمع بمثل هذه القصة من قبل على كثرة ما كنت أسمع في طفولتي من أقاصيص، فقد كانت أمي "كيفا" لذاك العهد مولعة بالاستماع إلى القصاصين ورواة الأساطير، وتكرم وفادتهم وتقدم لهم أفضل ما عندنا من طعام، حتى إن أبي "سنموت" كان يضيق بهم أحيانا فيطردهم من دارنا، ضاربا بعصاه في أقفيتهم وخاصة حين كان يراهم يلتهمون طعامنا في المطبخ!.. فقصة هذا الرجل اليوم جديدة غير مسبوقة، وهي لغرابتها تبدو كأنها من نسج خياله، ولكني ألمح فيها ارتباطا بأحداثنا الجارية، وكأني بهذا القاص يعني بها "فرعون إخناتون" والهه الذي يعتبرونه في أنفسهم "زائفا" ولا يجترئون على ذكر ذلك جهرة!.. إن هذه القصة، لهذا الاعتبار، يجب أن تصادر!..

فقالت "ميربيت" مبتسمة: ومن ذا الذي يستطيع أن يصادرها؟! إنها هكذا تروى في كل مكان من المملكتين، ويستمع إليها الناس في شغف لدى الأبواب وفي ظل الأسوار والأشجار، ولو تعرض الحراس للقصاصين ليمنعوهم، فإنهم يؤكدون لهم أن القصة قديمة لا تعني شيئا، وفي استطاعتهم أن يقولوا أيضا إنهم نقلوها عن الكهنة الذين وجدوها عندهم مكتوبة في أوراق قديمة منذ قرون بعيدة، وأحسب أن الكهنة

لا يمتنعون عن تأييدهم في ذلك، فهل يملك الحراس إزاء هذا أن يمنعوا روايتها للناس؟! وقد تقول لي إن "حورمحب" قد أفظع في معاملة بعض القصاصين لارتيابه بهم، فعلقهم من أرجلهم على الأسوار، وألقى بأجسادهم إلى التماسيح، ومن الممكن أن يؤخذ مثل هذا القصاص بمثل هذه القسوة، ولكن يبقى بعد هذا أن القصة لا تنتهي بانتهاء رواتها هؤلاء وإنما هي تدور بين الناس، ويتروونها في شيء كثير من الإغراب والتهويل في داخل دورهم ومن وراء أعين الجند وآذان الجواسيس!.. إن استخدام القوة والإرهاب في منع قصة يزيد الناس شوقا إليها، وإغراء بها، ولهذا أقول عن يقين إنه لا أحد يستطيع أن يمنعها!..

واستطردت "ميرييت" تقول: وهذه القصة بذاتها ليست هي كل ما يثير القلق والتطير، فثمت نبوءات كثيرة شائعة الآن في "طيبة"، والناس يتلقفونها ويزيدون فيها، ويتبادلونها باهتمام مصبحين وممسين وهي تنطوي على نذر وعلامات سيئة، ومنها ما ينقصك العلم به، كقلة المحصولات، وفساد الزرع، وتعفن الغلال بالصوامع، وجوع الفقراء، وارتفاع الضرائب وتعددها حتى فدحت كاهل الأغنياء والفقراء على السواء ولا أخفي عنك أني لأرتعد خوفا كلما فكرت فيما سيلم بنا من الشرور التي تشير إليها هذه النبوءات!..

وأهمني هذا الذي سمعته من "ميرييت" هما شديدا، وكان مخلوط "ذنب التمساح" قد انتهى أثره من رأسي، فشعرت بصداع وانهيار، وزايلتني البهجة التي كنت أستمتع بها في رفقة "ميرييت"، فعدنا إلى الحانة، وفي نفسي ما فيها من الكآبة، وقد ذكرت حينئذ ما كان فرعون "إخناتون" يردده، وهو أن "آتون" سيفرق بين الطفل ووالديه، والرجل وزوجه، إلى أن يتم تشييد مملكته على الأرض!..

وعلى ما كنت أشعر به من أسى واكتئاب، فإني لم أشأ أن أنفصل عن "ميرييت"، فقد كان رغبتي فيها أقوى من حزني على "آتون"، ولهذا بقيت معها حتى وافانا "كابتاح" في المساء.

- ٣ -

وعندما أقبل علينا "كابتاح"، أحسست بأن كآبتى تنكمش وتتقلص وتأخذ طريقها عجلى إلى خارج كيانى... لقد كان منظره مثيرا للضحك والتسلية إلى حد بعيد، فجسمه قد انتفخ وتضخم حتى إنه لم يستطع اجتياز باب الحانة إلا بحركة جانبية ضاغطة، وكان وجهه كذلك مستديرا مكتنزا، وقد جلل رأسه بقلنسوة من الشعر الأزرق الجميل، أما عينه العوراء فقد أخفاها تحت قرص ذهبى متوهج، وأما ملابسه، فقد كان يرتدى منها حلة فاخرة من صنع "طيبة"، وأدركت بذلك أنه كف عن ارتداء الملابس السورية التى كان قد تعودها. وكان أشد ما استرعى انتباهى لظهوره علينا فى هذه الصورة المترفة، أنه كان أيضا يضع الدمالج والأساور الذهبية فى معصميه ورسغ قدميه، فيسمع رنينها لأقل حركة تصدر عنه، وما أكثر ما كان يتحرك!.. ذلك إلى ما كان يعبق حوله من عبير العطور الغالية الثمن التى يتدهن بها!..

لقد كان تحولا عجيبا عن الحال التى تركته عليها، وكان المنظر لطيفا ومسريا، فانتعشت به، وما كاد هو يرانى حتى راح يصيح ويرفع يديه فى فرح ودهشة معا، ثم انحنى أمامى، مادا ذراعيه إلى أسفل، ولكن ضخامته وانتفاخ بطنه واكتناز لحمه، قد جشمه عسرا شديدا فى أداء هذه التحية، بل إنه لم يستطع أن يؤديها، مع هذه المشقة، بالدقة المألوفة!.. وقد أضحكنى ذلك منه!..

وكان "كابتاح" يبك لفرط تأثره، وهو يخر على ركبتيه ويحتضن ساقى، فتأثرت بدورى لصدق إحساسه، ورأيت فيه، مرة أخرى، خادمى القديم المخلص، على الرغم من أثوابه الكتانية الفاخرة، وذهبه الكثير، وعطوره الغالية، وقلنسوة شعره الزرقاء!.. وقد مددت إليه ذراعى وأقمته عليهما وضممته إلى صدرى، فكأنما كنت أضم به ثوراً سميناً!..

وفى عبارات متلهجة، كان يصيح محييا لى ومرحبا بى، وهو يبارك ذلك اليوم الذى يلقانى فيه بعد غياب وطول اشتياق، ثم يتحسس كتفى فى أدب واحترام،

وأخيرا جفف دموعه وقال ضاحكا: إن هذا اليوم أسعد أيام حياتي، واحتفالا به سأمنح كل واحد من رواد الحانة كأسا بغير ثمن من مخلوط "ذنب التمساح"، وعلى كل منهم، إن أراد كأسا ثانية، أن يدفع ثمنها، فإن كأسا واحدة من غير ثمن ليست بالشيء القليل!..

ثم سار بي، فرحا، إلى القسم الداخلي من الحانة، وجاءني بمقعد وثير، وطلب إلى "ميرييت" أن تجلس إلى جانبي، وأمر الخدم والأرقاء، فقدموا لنا خير ما في الحانة من نبيذ وطعام.. وكان نبيذا معتقا لا يقارن به نبيذ "فرعون"، وكان الطعام أوزة مشوية من إوز "طيبة"، وهي مما لا مثيل له في كل أنحاء "مصر"، ذلك لأنها تغذى بالسمك الذي يجعل لحمها طيبا شهيا، وطعمها لذيذا ممتعا!..

وبعد أن فرغنا من الطعام والشراب، قال: لا بد أنك يا سيدي "سنوحي" قد راجعت بعناية ورضا، كل البيانات التي أعددتها من حساباتك هنا بوساطة الكتاب الحسابين المهرة، وأرسلتها إليك على عنوانك في "أخيت آتون" خلال السنوات الماضية، وحسنا تفعل يا سيدي، إذا وافقت على أن نضيف إلى حساب المصروفات، تكاليف الطعام والشراب في هذا اليوم، وكذلك ثمن مخلوط "ذنب التمساح" الذي قدم إلى رواد الحانة فرحا بقدومك، وما أحملك هذا عن بخل مني، ولكن عن رغبة في مصلحتك، فإنك لا تدري كم أعاني في محاسبة إدارة ضرائب "فرعون" نيابة عنك، فما أشد ما ألاقي في مخادعتهم وفي أرضائهم؟!.. وأنت أذكى من أن أقول لك إن في كثرة المصروفات، إقلالا من ضرائب الأرباح!..

قلت له: صدقني، إنني لا أفهم كلمة واحدة من هذا الذي تقوله! وفي وسعك أن تفعل ما ترى أنه الأفضل، فإني أضع فيك ثقتي كاملة، ولقد أطلعت على تقاريرك وقوائم حساباتك، ولا أزعم أني أحطت علما بكل ما فيها، فقد كنت لا أستطيع أن أتي على آخرها لكثرة ما تشتمل عليه من أرقام ومعادلات لا حصر لها ولا نهاية!..

فاهتزت بطن "كابتاح" وهو يضحك مبتهجا. وضحكت كذلك "ميرييت" ملء رئتيها، وكانت قد شاركتني في شراب النبيذ. فاستلقت على ظهرها منتشية، وإسندت

رأسها فوق يديها المتشابكين، واصطنعت في استلقائها وضعا يبدو به جمال صدرها تحت ردائها!..

وقال "كابتاح" على طريقته الماجنة: إني لمسرور يا سيدى "سنوحى" إذ أراك لا تزال محتفظا بمزاحك الصبياني، فها أنتذا لا تعرف شيئا من مجريات الأمور اليومية، إلا بقدر ما يفهم الخنزير فى قيمة الجواهر!.. وحاشاى أن أكون قد قصدت إلى تشبيهك بالخنزير، وإنما هو مثل، يا سيدى، مع الفارق الكبير بطبيعة الحال!.. وإنى لأحمد جميع آلهة "مصر" وأشكرها بالنيابة عنك؛ لأنها وهبت لك خادما لا يسرق إلا قليلا، ولهذا تبدلت حالك من فقر إلى غنى!..

فقلت له: إنك لست بحاجة إلى أن تشكر الآلهة على ذلك، ولكنك محتاج إلى أن تعلم بأن الفضل كله فى هذا يرجع إلى حسن اختيارى، فقد رأيتك معروضا فى سوق الرقيق ولا أحد يومها يحفل بك ؛ لأنك بعين واحدة، ولأنك كنت قد فقدت الثانية فى مشاجرة بحانة، فاشتريتك بثمن زهيد، متوسما فيك صفات طيبة غير تلك التى كانت بادية عليك، ولعلك لا تنسى أنك فى ذلك اليوم كنت مربوطا بمقود إلى قائم الرقيق كما لو كنت حيوانا شرسا يخشون فراره!.. وأن صراخك كان لا ينقطع بلا خجل، مستعطفا السيدات المارات بجانبك، أو طالبا من الرجال شيئا من الجعة!.. ألا تذكر هذا يا "كابتاح"؟!..

فاربد وجه "كابتاح" واختلج جسمه وقال: ما هذا الذى تذكرنى به؟! إنه لا يعنينى شيء من تلك المواقف المخزية التى لا تليق بكرامتى فى الوقت الحاضر!.. فإنما المرء بحاضره يا سيدى، لا بماضيه، ولا بحسبه ونسبه. والرجوع إلى الماضى قلما يسر أحدا!.. ولا شك فى أنك كنت حكيما عندما وثقت بى، وكنت أكثر حكمة عندما زودتنى بالجعران المقدس ليشرف معى على شئونك. وإنى لأعترف له بالفضل فيما أصبناه من نجاح متصل أتاح لك أن تكون غنيا، بل أغنى مما كان يخطر ببالك. وقد حرصت بذكائى وكفايتى على أن أصون لك هذه الثروة العظيمة، متحملا مالا يطاق من جباة الضرائب الذين يتجمعون حولى كالذباب، وقد اضطررت، فى سبيل

التخلص منهم، إلى استخدام كتاب حسابات مهرة من السوريين، فنظموا القيد ورتبوا السجلات، ونسقوا الأعمال على أوضاع دقيقة لا تنفذ إليها مطامع الجباة. وهؤلاء السوريون هم وحدهم الذين يحذقون هذا الضرب من أعمال التجارة وضبط الأموال، ولا يستطيع أحد حتى "ست" نفسه أن يبرزهم في هذا المجال!.. وعلى ذكر "ست"، أذكر صديقنا "حورمحب" الذى اقترض من رصيدك نقودا ما تزال دينا قائما فى ذمته حتى الآن، وأظنك تعلم هذا؟!.. وأدع ذلك الآن، فأفضل منه أن نقصر الحديث عن هذه الثروة الطائلة التي تملكها هنا، ولا تعرف عنها سوى النزر اليسير، فاعلم - إذن يا سيدى - أنك بجهدى وكفايتي وأمانتى وإخلاصى، أصبحت أغنى من كثيرين من نبلاء المصريين، وثروتك لم تعد، كما قد تظن، محصورة في الذهب والفضة وعملات النقود على أنواعها فحسب، وإنما هى أيضا تمتد إلى ماصار فى حوزتك ولحسابك، من المنازل والعمائر والمخازن والسفن والموانى والمواشى والأراضى والبساتين والأرقاء!.. إنها - كما ترى - ثروة ضخمة وافرة، وقد كان يسيرا على موظفى الضرائب أن يلتهموا الكثير منها، فإن ضرائب "فرعون" أثقل عبئا على الأغنياء منها على الفقراء، ولكنى أخذت للأمر ما ينبغى له من الحيطة والحيلة فوزعت أرصدة الحسابات تحت أسماء بعض الخدم والكتبة ممن أثق بهم. ولهذا تفاديت زيادة الضرائب، ولك أن تقدر ما كان يمكن أن يضيع من ثروتك موحدة تحت اسمك، لحساب هذه الضرائب، إذا عرفت أن نسبة الضريبة على الفقير لا تجاوز خمس إيراده، أما نسبتها على الغنى فلا تقل عن الثلث وترتفع صعدا حتى تبلغ النصف!.. وهذا ظلم لا شك فيه وأراه مثلما يراه الناس جميعا، أفدح المظالم التى اقترفها "فرعون".. وقد كان لذلك أسوء الأثر في حياة "مصر"، فهذه الضرائب الصارمة مضافة إلى انفصال "سوريا" وافتقاد مواردها، قد أنشأت ضيقا اقتصاديا مستحكم الحلقات، وأفشت الفقر بين الأفراد والجماعات. والغريب أن هذا يغاير المعروف عن اتجاهات "فرعون" الإنسانية، ويخالف ما يقال عن رغبته فى إسعاد الفقراء، فلا أدرى كيف يتحقق ذلك والحال كما ذكرت؟! إن العكس هو الذى سيكون بلا مراء، فانخفاض

مستوى الثروة القومية، تناقصها، من شأنه أن يزيد الفقير فقرا، في حين أن الغني، بالقياس والنسبة، سيزداد غنى!.. فذلك هو المصير المؤلم لسياسة "فرعون" القائمة!..

وانتقل "كابتاح" من هذه المقدمات والنقدات، إلى تفاصيل مطولة عن أعماله وتصرفاته التجارية، وكان قد أكثر من الشراب فراح يتحدث مفاخرا عن تجارته في الغلال، قائلا: مهما يكن من أمر مهارتي فإني لا أغمط فضل جعراننا المقدس!.. وقد كنت قررت، منذ اليوم الأول الذي عدت فيه من أسفارنا البعيدة، أن أنحو نحو التجارة، فذهبت إلى حانة نبيذ كنت أعلم أن تجار الحبوب يتواردون عليها، وهناك بدأت أشترى منهم قمحا لحسابك، وكانت صفقات رابحة، فالقمح سلعة معروفة متداولة، ويمكن أن تباع وتشترى قبل أن تزرع وتحصد، وأسعارها مطردة الزيادة، ولذلك فالاتجار بها مكفول الربح، ولهذا السبب نفسه أختزن كميات من القمح ولا أنوى بيعها، بل سأتابع الشراء والخزن إلى أن أبيع بالأسعار العالية التي لا مفر منها ما دامت الأحوال جارية في هذا القطر على ما نرى من فقر وقلة إنتاج!..

وتوقف "كابتاح" قليلا ريثما تفحص ملامح وجهي ليستشف منها أثر كلامه، ثم صب نبيذا في الكئوس لثلاثتنا، واستمر يقول: من الحكمة ألا يغامر إنسان بكل ما يملك في سلعة واحدة، ولذلك فقد استثمرت أموالك يا سيدي في عدة وجوه، وحالفني النجاح فيها جميعا، وأؤكد لك أني مع هذا لم أسرق منك أكثر من ذي قبل، ولم أبلغ من هذا نصف الأرباح التي دبرتها لك بمهارتي وذكائي!..

وكانت "ميرييت" لا تزال مستلقية ممددة، وهي أحيانا تبتسم ابتسامة وادعة وأحيانا أخرى تهدر بضحكاتها، تبعا لما كان يقع في نفسها من حديث "كابتاح"، وكنت أنا مسترسلا في الإصغاء إليه، لأقف على كل ما لديه من معلومات، ولأفسح له مجال الثرثرة التي هي جزء من طبعه. وقد تابع حديثه قائلا: من الخير أن تعلم، يا سيدي، أنني حينما أتكلم عن الأرباح، فإنما أعنيها صافية مستخلصة بعد سداد الضرائب وحذف ثمن الهدايا التي قدمت لموظفيها مع أثمان النبيذ الذي رشوتهم به ليغضوا أبصارهم عند مناقشة الأرقام التي أعرضها عليهم مسجلة في الدفاتر!..

وهذا وحده جزء هام لا يمكن إغفاله، فموظفو الضرائب أشداء المراس وذوو فطنة، وليس من السهل إرضاؤهم بغير مقابل ضخم!.. ومن هنا كان ما هو ملحوظ من إثرائهم إثراء كبيرا! ولم أنس، إلى جم أعمالي ومشاغلي، أن علينا واجبا نحو الفقراء، فكنت من وقت إلى آخر، أوزع عليهم مكاييل مختلفة من القمح، ليباركوا اسمي وهذا تصرف أعتقد أنك تقره بلا أدنى معارضة، لانطوائه على الحكمة فوق ما ينطوي عليه من معاني البر، ذلك لأن الأمور عندما تكون قلقة وغير مستقرة، فالواجب أن يتوخى الأغنياء إرضاء الفقراء ليعيشوا معهم في وئام!.. يضاف إلى هذا غرض آخر يدخل في نطاق الحكمة والبراعة، وقليل هم الذين يفطنون إليه، ذلك أن "فرعون" – في جنونه – يسمح بتخفيض الضرائب عما يوزع من المحصولات بهذه الطريقة على الفقراء، ولهذا فإنني، عندما أعطي مكيالا من القمح إلى أحد الفقراء، لا أنسى في الوقت نفسه أن آخذ منه اعترافا بتسلمه خمسة مكاييل، ولم أجد في ذلك شيئا من المشقة، فالفقراء لا يعرفون القراءة، ولا يمتنعون عن تقديم أصابعهم ليبصموا بها، حتى الذين يعرفون القراءة منهم، يوقعون بلا مناقشة ولا إطلاع على أية وثيقة تقدم إليهم، تأثرا بالمعروف الذي يسدى لهم!..

ولما فرغ "كابتاح" من هذا الحديث الطويل، ضم إحدى ذراعيه بالأخرى، ورفع صدره في مباهاة، متوقعا أن يسمع مني المديح والإطراء ، ولكني كنت قد استغرقني التفكير في المعاني التي أستخلصها من حديثه وخرجت من تفكيري لأوجه إليه هذا السؤال: هل نملك – إذن – كميات كبيرة من القمح؟!.

فأومأ "كابتاح" برأسه، علامة الإيجاب، وظل صامتا في انتظار المدائح التي يراها من حقه!.. ولكني استطردت قائلا: إذا كان الأمر كذلك، فعليك أن تعجل بالذهاب إلى أولئك الزراع التعساء الذين يزرعون هناك في الأرض الملعونة ، وتوزع عليهم من القمح ما يحتاجون إليه في زراعة أرضهم، فليس لديهم منه شيء، وكل ما كان لديهم منه، عندما مررت بهم لا يصلح نباتا لزرع، ولا غذاء في طعام، فقد كان

خليطا مشوها فى لون الدم، وقد انخفضت الآن مياه النهر، وهذا أوان الحرث والزرع، فعجل لتنفيذ ما أمرتك به، فالوقت أضيق من أن يتسع للتمهل والإبطاء!..

فاتسعت عين "كابتاح"، وهو ينظر إلى وجهى محملقا، وحرك رأسه مشفقا ومستغربا، وقال: هذه شئون صغرى لا ينبغى أن تشغل بها رأسك الكبير يا سيدى دعها لى لأفكر فيها بالنيابة عنك. والرأى عندى أن الذى تشير به ليس من عملنا نحن، فإننا - نحن التجار - نتعامل مع الزراعين بإقراضهم القمح لفقرهم، على أساس أن يردوه إلينا مضاعفا، وهم بحكم حاجتهم لا يأبون ذلك بل يرحبون به، فإذا عجزوا ألزمناهم ذبح مواشيهم لنأخذ جلودها وفاء لديوننا، وهنا مصدر الربح والانتفاع. ولا يكون أمرنا هكذا معهم إذا ما زاد محصول زراعتهم، فإنهم عندئذ يصبحون فى غنى عن معاملتنا، ومن مصلحتنا - كتجار - أن تترك الأرض بغير زرع على قدر الإمكان، فينشأ من هذا ارتفاع كبير فى سعر القمح. ونفيد من ذلك فائدة لها قيمتها فى حساب التجارة، فلا ينبغى أن نكون من البلاهة إلى حد أن نعطى هؤلاء الزراع قمحا حسنا ليستخدموه فى زراعة أراضيهم ويحصلوا من طريقه على غلة وافرة، فذلك معناه أننا، بمحض إرادتنا، نلقى بما فى أيدينا من أرباح مضمونة إلى البحر أو نقذف بها فى مجرى الهواء!..

فقلت له منفعلا: ولكنى لا أتحول، بالرغم من هذا، عن موقفى فافعل، يا "كابتاح" ما أمرتك به، ولا تجادلنى فإن القمح يخصنى، ولا أحد سواى يملك التصرف فيه، وليس يعنينى الآن التفكير فى الأرباح التى تحرص على ذكرها، وإنما الذى يتجه إليه كل تفكيرى هو أمر أولئك الرجال المساكين الذين استبد بهم الضعف والهزال وبرزت ضلوعهم من ثنايا جلودهم كما لو كانوا يعملون فى المناجم تحت سياط الجند القساة وهؤلاء النسوة الضارعات اللائى تتدلى أثداؤهن على صدورهن ضامرة كأنها الأشنان الجلدية لسقيا الماء بعد فراغها منه!.. ومن وراء أؤلئك وهؤلاء، أطفالهم المرضى يسهرون عى شاطئ النهر مقوسى السيقان، واهنى العظام، مهلهلى الثياب، وعلى وجوههم وحول عيونهم يحتشد الذباب والقذى والتراب!.. فلست بإزائهم تاجرا

يطلب الربح على طريقتك بالحق وبالباطل، وإنما أنا مواطن وإنسان، وأشعر بأن لهم في مالي حقا، وعلى ذلك يجب أن تبادر إلى تنفيذ إرادتي، بتوزيع القمح بينهم ليزرعوه، ويجب كذلك أن تساعدهم بكل ما في الطاقة من وسائل الزرع، لينبتوه بأرضهم نباتا حسنا، فإنهم أحوج ما يكونون إلى هذه المساعدة لقلة خبرتهم بأساليب الزراعة، ولست أدعوك إلى أن تعطيهم القمح منحة بغير مقابل، فذلك من شأنه أن يفسد حالهم ويضاعف ما هم فيه من استخذاء وتواكل، وقد عرفت أن الهدايا والمنح السهلة التناول تنفث الغباء والكسل في هؤلاء وأمثالهم، ولقد أعطوا أرضا وماشية بلا مقابل، ففشلوا. ولهذا يجب أن تلاحقهم وتتعب أعمالهم وتلهب هممهم بعصاك إذا اقتضى الأمر ذلك، فهذه هي الوسيلة التي يحسن استعمالها لنبلغ بها الغاية المرجوة، استصلاحا للأرض وإجادة للزرع ووفرة في الإنتاج!.. وسيكون سهلا عليك بعد هذا أن تسترد منهم القمح الذي أعطيتهم إياه، على أني لن آذن لك في أن تأخذ أكثر مما أعطيت..

ولكن "كابتاح" كان يسمع لي في حزن بالغ. ولشدة انفعاله، كان يمزق ملابسه ويبكي، ثم يقول معقبا: لا آخذ أكثر مما أعطيت؟!. تعني مكيالا بمكيال؟!.. فأي جنون هذا يا سيدي؟!.. وماذا أفيد أنا من ذلك؟! وإذا لم يكن ثمت ما أصيبه من أرباحك، فمن أي شيء إذن يكون جزائي وأجر عملي؟!.. إن في هذا الذي تأمر به ظلما صارخا، وكان عليك أن تفكر في سوء عاقبته. ولست أدري كيف غاب عنك أنني بذلك سأتعرض إلى عداء مزدوج، عداء تجار الغلال المنافسين لي، وعداء كهنة "آمون"، فإن عملنا – على الصورة التي ترسمها – يعد حرب سافرة عليهم، وما لنا بعداوتهم طاقة. وإني لأقول لك هنا، في صراحة كاملة حيث لا يسمعنا أحد: إن "آمون" لا يزال حيا، وقوته اليوم أشد مما كانت في أي وقت مضى!.. وهو يصب لعنته على بيوتنا وسفننا ومخازننا وحوانيت تجارتنا، وحتى هذه الحانة لا تنجو من لعنته. ومن أجل هذا أرى من الحكمة أن أنقلها إلى اسم "ميرييت"، ولعلها لا ترفض ذلك، حفظا للمكان الذي نحبه جميعا!.. وقد عرفت الآن أنني كنت بصيرا بالعواقب، مقدرا لأسوأ الاحتمالات

عندما أدخلت ثروتك تحت أسماء أخرى، فإنها بهذا التوزيع والتعدد ستبقى بعيدة عن أفكار كهنة "آمون"، وبالتالي بعيدة عن لعناتهم!..

ومضى "كابتاح" يثرثر هكذا، محاولا أن يثنيني عن موقفي، فلما رآني مصمما لا أتزحزح عنه، أخذ يسب ويلعن ويهذي كمن أصابته جنة، ويقول: أسفي عليك يا سيدي، فأغلب ظني أنك مصاب بعضة كلب مسعور، أو بلدغة ثعبان هائج، فما يقول قولك هذا إنسان عاقل! وكنت أحسبك بادئ الأمر مازحا، فالآن وأنت تركب رأسك عنادا وإصرارا على الخطأ، لا أستطيع مجاراتك في هذا السبيل ؛ لأن ذلك يفضي بنا إلى الفقر المحقق، ولن يمدنا الجعران المقدس بمساعدته ؛ لأنه يضن بها على الذين يلقون بأيديهم إلى التهلكة!.. هذا إلى أنني لا أطيق رؤية الفقراء، وحينما ألقاهم في الطريق أشيح بوجهي عنهم فرارا من النحس الذي يلازمهم، وأنت حرى أن تكون كذلك بغضا لهم، فما نحن بموكلين بهم. وكل امرئ مسئول عن نفسه وحدها!.. ولقد فكرت أنا في مساعدتهم، قبل أن يخطر ذلك على بالك، ولكني تصرفت في ذلك تصرف العقلاء، فوزعت عليهم كميات من القمح من غير ثمن، لأظفر بأضعاف قيمتها في حساب الضرائب، فما من شيء في هذه الحياة يبدأ وينتهي من غير نتيجة ولا أثر ولا جزاء!.. فكيف، بعد هذا، وبعد الذي عرفت من كراهيتي لرؤية الفقراء، تدعوني إلى الانتقال إليهم في مزارعهم البعيدة وقراهم النائية؟!.. إنني لن أستطيع ذلك بحال، فإنما أنا رجل عجوز مجهد، إذا مشيت في طريق تعثرت، ولهثت تعبا، فلا قبل لي - إذن - بالسفر الطويل، والخوض في الأوحال، والسقوط في حفر مياه الري. ولو أني أطعتك، فمعنى هذا أنني قد رضيت لنفسي موتا لا نجاة منه ولا مهرب!.. ولكني أرفض الدعوة إلى الموت، لأنني مازلت مستمتعا بسلامة عقلي!.. أذكر يا سيدي - عافتك الآلهة - أن أنسب مكان لي، في مثل ظروفي وسني، هو هذه المدينة، والموضع الوحيد الذي آوي إليه كل مساء، هو فراشي الوثير في حجرة نومي الهادئة، والطعام الذي تسيغه معدتي الهرمة ويمتلئ به جوفي الواسع، هو ما تطهوه "ميوتي" بيدها الصناع!.. فبحق الآلهة، لا ترهقني من أمري عسرا يا سيدي!..

ولكن مقالة "كابتاح" لم تحرك عندى ما كان يترقبه من رثاء لحاله وإشفاق عليه، فقلت له: لقد صرت الآن يا هذا أكثر افتراء وكذبا منك فيما مضى!.. فإنك، على خلاف ما تزعم، تبدو الآن أشد فتوة وأوفر عافية، وقد انجابت عن يديك الرعشة التى كنت أراها من قبل. وهذه عينك أحد وأصفى مما كانت ولا تتعلل بما يشوبها فى هذه اللحظة من الاحمرار، فإنها لم تكن كذلك قبل أن تكثر من شراب النبيذ!.. وإنى - كطبيب وبدافع من الحب الذى أكنه لك فى قلبى - أدعوك إلى هذه الرحلة، علاجا لما أصابك من هذه البدانة المفرطة؛ لأنك لو بقيت عليها هنا، فستضغط ضغطا قاتلا على قلبك ومجارى التنفس فى صدرك، وتحيا، أن قدر لك أن تحيا، شقيا معذبا بآلامها القاسية!.. فرحلتك هى علاجك الناجح، وستعود منها خفيفا نشطا، وثيق الأعصاب مشدود العضل، تاركا هناك هذه البدانة المرهقة التى تذهب بهيبتك، والتى لا شك فى أننى أشعر بالخجل كلما رآك الناس عليها فليس مما يرضينى أن يشيروا إليك قائلين فى سخرية: هذا "كابتاح" خادم "سنوحى"، لقد تحول من إنسان إلى ثور!.. ومع ذلك فما أنت بالغريب على هذه الرحلة!.. أفلا تذكر كيف كنا نستمتع بعناء السير فى طرق "بابل" المتربة؟!.. وهل نسيت ما كنت تعانى من المشقة وأنت تعلو ظهور الحمير، مستلقا بها المسالك الضيقة فى جبال لبنان؟! وماذا كانت حالك فى "قادش"؟! كل هذا قد كابدته، ومرنت عليه، وألفت الحياة فيه، وأهون منه وأيسر، أن تقضى بعض الوقت بين الزراع، وهم مواطنونا، وفى بلادنا، وقراهم منا غير بعيدة، وأقسم، إنه لولا ما أضطلع به هنا من أعمال هامة، نائبا عن "فرعون"، لما تخلفت عن مرافقتك فى هذه الرحلة التى ستكسبك المجد والفخار، ويذكر الناس اسمك فيها مقرونا بالإعجاب والثناء!..

وعند هذا انتهى جدالنا، فقد استنفد "كابتاح" كل ما استطاع من حجج لإقناعى بالعدول عن رأيى، فاستسلم مرغما، وعدنا إلى ما كنا فيه من سمر وشراب، وكانت "ميرييت" تشاركنا كأسا بكأس، وهى يقظى فى رقدتها المثيرة، وكنت لا أنفك، بين لحظة وأخرى، أنحنى عليها لأقبل صدرها الجميل، بينما راح "كابتاح" يستعيد إلى

ذاكرته طرق "بابل" وبيادر (أجران) بلاد ما بين النهرين، وقد ردني منظره هذا، إلى ذلك الماضي الحافل بالأحداث والذكريات، فذكرت "مينيا" وما قاسيت في سبيل حبها، ولم ينسني ذكراها أنني إلى جانب "ميرييت" الفتاة التي أحببتها كذلك. إن ميرييت الآن عزائي وسلواي، وعلى فراشها أحسست بالدفء يملأ جسمي، ولم أعد أشعر بأني وحيد، وهي تبادلني عاطفة بعاطفة وشعورا بشعور، وقد تمنيت أن تكون شريكة حياتي إلى الأبد، ولكنها أبت أن أكسر الجرة بيني وبينها، قائلة إنها فتاة حانة، وإنني – لشهرتي ومكانتي – أكبر من أن أكون زوجا لها، على أنها كانت تعطيني من نفسها أقصى ما تعطي امرأة رجلا، راضية مني بالصديق مكان الزوج، وأكبر ظني أنها آثرت بذلك أن تظل حرة، غير مقيدة بقيود الزوجية، وقد قنعت أنا بذلك، ورضيت به!..

-٤-

كان من واجبي في اليوم التالي أن أمضي إلى بيت "فرعون" الذهبي. لأقابل الملكة الوالدة التي أطلق عليها أهل "طيبة" جميعا اسم الساحرة السوداء!.. ولم يمنع من ذيوع هذه الشهرة لها أنها كانت تتصف بصفات أخرى طيبة، فقد كان كل ما يعرف عنها، لدى الشعب، أنها امرأة قاسية، وعجوز ماكرة متآمرة!..

وما أن ذهبت إلى السفينة، لاستبدال الرداء التيلي الفاخر بملابسي، وتقلد الشارات ذات الدلالة على رفعة مكانتي، حتى وافتني إلى هناك، الطاهية "ميوتي"، وقالت لي في انفعال: لقد سرني يا مولاي أن تعود إلى موطنك، ولكن ما لا يسرني أنك تقضي ليلك كله في بيوت الملذات، ثم لا تلم بمنزلك في الصباح لتناول الطعام، مع أنني عكفت على إعداده وبذلت جهدا كبيرا لينال رضاءك!.. نعم لقد ظللت طول الليل ساهرة أنضج الخبز، وأشوي اللحم، وأستحث الأرقاء الكسالى لينظفوا المنزل، حتى أصابني من ذلك الكلال والتعب!.. فهل يليق بك أن تتركني هكذا عانية مجهدة من أجلك، منصرفا إلى ملذاتك، ناسيا أن لك دارا مشوقة إليك، وطاهية يسعدها

تطعمك؟!. ولكن، لا عجب، فأنت هكذا معشر الرجال، وكنت قد فقدت ثقتى بكم، ولا أستطيع، بعد تصرفك هذا، أن أغير رأيى فيكم!..

وأردفت قائلة: فهيا بنا إلى المنزل، فقد أعددت لك الطعام، ويجب أن تتناوله. فإن كنت لا تقوى على مفارقة تلك المرأة التى فتنتك وأخذت بلبك، فأت بها معك، فإنى لا أضيق بوجودها إلى جانبك على مائدة الطعام!..

كانت هذه هى عباراتها، وكان وقعها على قلبى لطيفا، فقد تعودت منها هذه الطريقة فى التعبير، وكنت أعلم أنها معجبة "بميريبيت" ولا تبغضها، ولهذا قررت أن أعود إلى المنزل نزولا على رغبتها المخلصة، وأرسلت على الفور رسالة إلى "ميريبيت" أدعوها فيها إلى موافاتى هناك، وعدت مع "ميوتى" راضيا مغتبطا. وإلى جانب المحفة التى كانت تحملنى سارت تجر رجليها وهى لا تنقطع عن الثرثرة، فتقول: كنت أظن أنك أصبحت أكثر تعقلا واتزانا وحسن سلوك، من ذى قبل، لأنك قضيت سنين عدة فى جو الأسرة الملكية، ولكننى تبينت أخيرا أن هذه البيئة لم تغير منك شيئا، بل لعلك قد عدت أسوأ طباعا وأخلاقا مما كنت!.. على أنه تلوح عليك آثار واضحة من النعمة والراحة، ومنذ الآن ألفت نظرك إلى أننى لن أكون مسئولة عما قد تفقده هنا من هذه الآثار الطيبة!.. وإنما ستكون وحدك المسئول عن ذلك، لسبب بسيط، هو سلوكك المشين الذى يودى بالصحة والمال، وكما أعتقد دائما، فإن الرجال جميعا متشابهون فى سوء السلوك، وكل ما فى العالم من شر إنما ينبعث من تلك الضعة الخفية فيهم!..

وخلال هذه الثرثرة المتصلة، تذكرت أمى "كيفا"، فأسيت عليها وكادت الدموع تطفر من عينى، فصحت فى وجهها قائلا: كفى!.. اقفلى فمك أيتها المرأة، فحديثك هذا السليط يقطع أفكارى ويقع على أذنى كأنه طنين الذباب!..

فصمتت فى الحال، ولكنها كانت بادية السرور؛ لأنها أستطاعت أن تخرجنى من سكوتى العميق لأصيح فى وجهها، فقد شعرت عندئذ أن سيدها كان مصغيا، يتابع حديثها، وهذا حسبها!..

وأبهج خاطرى منظر الدار حين بلغناها، فقد كانت أعمدتها موشاة بباقات الزهور والورد، كما كانت حديقتها مزدهرة منسقة، ورحبة الشارع التى تمتد إلى مسافة بعيدة قد نظفت تنظيفا دقيقا، فلا أتربة ولا أقذارا.. كل هذا قد فعلته "ميوتى" من أجلى، ولم تقنع بذلك فاستأجرت أطفالا تجمعوا لاستقبالى على الطريق هاتفين: مرحبا، مرحبا باليوم الذى عاد فيه مولانا إلى داره!..

وكانت "ميوتى" تعنى بذلك شيئا غير تجمعهم هتافهم، كات تريد أن تعبر بهم عن حسرتها لإنى لم أنجب أطفالا!.. إنها تود، بجدع الأنف، أن يكون لى أولاد حتى لو لم تكن لى زوجة!..

ونفحت الأطفال نقودا نحاسية، ووزعت عليهم "ميوتى" فطائر محلاة بالعسل، فانصرفوا سعداء فرحين!..

وبعد قليل جاءت "ميرييت"، وكانت تضع على شعر رأسها الذى يتنفح بالزيت ذى الرائحة المعطرة، وردا زاهى الألوان، مما زادها فتنة وسحرا.

وجلست إلى جوارى على مائدة الطعام الذى صنعته "ميوتى"، فتناولناه لذيذا شهيا. والحق أنه ليس كطعام "طيبة" طعام. وكثيرا ما كنت أحن شوقا إليه وأنا فى "أخيت أتون".

وشكرت "ميوتى" وامتدحت مهارتها، فسرها ذلك منى، ونظرت في عبوس إلى "ميرييت" لأنها لم تقل شيئا، وما زالت عابسة إلى أن تنبهت "ميرييت" فأغدقت عليها المديح والثناء!..

ولست أدرى ما قيمة أن أذكر هنا طعاما طعمناه فى منزلى، فذلك أمر يبدو غير جدير بالذكر والتنويه؟! ولكن الذى أدريه أننى كنت خلال هذه الفترة الخاصة أحس بالسعادة تملأ قلبى، وأود لو تمهل الوقت. وتوقف جريان ماء الساعة حتى لا تنتهى هذه السعادة مسرعة عجلى!..

وتوافد على منزلى أثناء وجودى به، بعض سكان الحى الفقير، وكانوا يرتدون أحسن ملابسهم. أقبلوا ليقدموا تحيتهم لى، وليعربوا عن رجائهم فى أن أبقى لأخلصهم من آلامهم وأوجاع أمراضهم، وكانوا يقولون: لقد غبت عنا طويلا يا "سنوحى"، ولم نكن نعرف أنك تارك فينا فراغا موحشا لا يملؤه غيرك، ولا يؤنسه سواك، ولكننا عرفنا هذا بعد أن فارقتنا وطال بعدك عنا!.. إننا لنستروح فى عودتك إلينا ريح العافية والسلامة، فقد ظللنا طوال غيبتك نهب العلل والأمراض، لا نجد من يحفل بنا معالجا أو مواسيا، فكم نحن سعداء بك الآن أيها السيد الكريم!..

هكذا كان هؤلاء الفقراء يستقبلوننى، ويقدمون لى فى الوقت نفسه، فرحين، هدايا متواضعة ليست بذات بال من ناحية الكم والنوع، ولكنها كانت عندى كبيرة القيمة، لدلالتها على صدق عواطفهم إذ كانت أقصى ما يستطيعون تقديمه لإنسان يحبونه ملء قلوبهم فى ذلك الوقت.. فقد أصبحوا أشد تعاسة وفقرا مما كانوا عليه من قبل، ولم يكن ذلك غريبا، فما أكثر ما أرى من علامات التعاسة والفقر فى هذا العهد، عهد "إخناتون" وإلهه الجديد!..

إنهم كانوا ينبعثون فى ابتهاجهم بقدومى واحتفالهم بتحيتى، عن شعور وفاء لا شبهة فيه ولا تكلف، فإنهم جميعا، أو أكثرهم، كانوا قد عولجوا من أمراضهم على يدى وبرئوا منها، وانتهت حاجتهم إلى طبى، فليس فى أمرهم اليوم إلا التقدير والوفاء والاعتراف بالفضل، وتلك خلة من خلال الخير، قلما توجد إلا فى مثل هذا المجتمع من الفقراء!..

لقد رأيت من بينهم ذلك الكاتب الهرم الذى كان قد أوشك أن يموت معذبا بالدمامل التى أصيب بها فى عنقه وشفتيه، واستحالت بؤرة صديد تنفث فى بدنه سما قاتلا، فأبرأته منها!.. وقد طابت نفسى كثيرا؛ لإنى لقيته أخيرا فى قيد الحياة موفور الصحة، رافعا رأسه الذى كان قد أحناه ذلك الداء الخبيث، وهو يشير إليه - مسرورا - إشارة الثناء والشكر!..

ورأيت من بينهم، كذلك، صاحب الأصابع المهشمة التى كنت عالجتها وقومت ما أعوج منها، وكان يحركها ويطويها وينشرها. وينظر فيها نظرات البهجة قائلا: هذه بعض فضلك علينا!..

وكانت فيهم امرأة تدافعهم لتلقانى محيية ومعها ابنها الذى كان قد أنهكه المرض وأضناه السقم، وغشيت عينيه كدمات سوداء، وأدمت رجليه قروح سامة، إنها تعرضه الآن تحت نظرى صحيح الجسم قوى البنية حاد النظر، داعية لى بالخير والسعادة لإني كنت سببا فى إنقاذه من الموت، وقال لى ولدها مزهوا إنه يستطيع اليوم أن يصرع أى طفل فى مثل سنه من أبناء الجيران!..

وكذلك كانت فيهم تلك الفتاة التى كنت قد داويت عينيها بعد أن كادت تفقدهما، فلم تر من وسائل التقدير لمهارتى إلا أن ترسل لى فتيات أخريات من بيوت الدعارة لأزيل من أجسادهن آثار الحمل والولادة وبعض الزوائد الجلدية، وهى تشويهات جسدية يردن التخلص منها حتى لا تقذعهن العيون فى حرفتهن القذرة!.. وقد كرهت منها ومنهن هذا العرض المرذول، ورأيت فيه يومذاك إساءة إلى سمعتى... ولكنها مع ذلك جاءت لترحب بى مسرورة. وقد علمت أنها لم تعد تلك الفتاة الفقيرة، فقد أصبحت تملك حماما كبيرا بجانب السوق، وتتجر تجارة رابحة فى العطور، وتقود التجار الوافدين وطالبى المتعة الجنسية إلى الفتيات الجميلات!..

وقلن جميعا: نتوسل إليك أن تتقبل هدايانا هذه الصغيرة ولا تزدريها، فإنك إن تكن طبيب "فرعون"، وتقيم فى بيته الذهبى، وصاحب المقام المرموق فى حاشيته الملكية، فإننا قبل هذا جيرانك وأقرب الناس إليك، وأهل مودتك، ولا يضيرك منا أننا مازلنا فقراء!.. فأنت كما عهدناك، صاحب القلب الرحيم، ولا بد أن قلبك هذا لم يفارقك، وما دام لا يزال فى مكانه فهو منا غير بعيد!.. ولنا عندك بعد ذلك رجاء، هو ألا تذكر لنا شيئا عن الإله "آتون"، فإن مجرد ذكره يكدر صفو سعادتنا بلقائك!..

وكما أردن، تقبلت هداياهن مظهرا ارتياحي إليها، ولم أتحدث إليهن في شيء يتصل "بآتون"، وإنما أقبلت عليهن، هاشا راضيا، وأخذت أعرضهن واحدة بعد الأخرى، مستمعا إلى شكاياتهن ومتفحصا أبدانهن ومعالجا ما أجد من أمراضهن، بالعناية نفسها التي ألفوها مني. وقد شاركتني "ميرييت" في ذلك، فنضت عنها ملابسها الأنيقة، وأخذت تغسل الجروح وتعقم المباضع في النار، وتخلط العقاقير التي أستعملها في تخدير اللائي اقتضت حالتهن أن أنزع أسنانهن الملتهبة، وكانت "ميرييت"، وهي تؤدي عملها بجواري، مندمجة فيه، ناشطة له، تلوح في عيني أكثر جمالا وأشد فتنة. وقد أعظمت فيها هذا الروح الإنساني الكبير!..

كنت سعيدا بها، مثلما كنت سعيدا بهن. ولم يؤسفني أن النهار قد أنقضى، بل لقد وددت ألا ينقضي لتطول سعادتي "بميرييت" المحبوبة إلى جانبي، وبهؤلاء المرضى الأصدقاء أطب لهن، وأخفف من آلامهن!..

وقد أنساني ذلك موعدي مع الملكة الوالدة، فلم أذكره إلا عند انصراف آخر مريض. وهنا أخذت "ميرييت" تصب الماء على يدي وتساعدني في ارتداء ملابسي، وكذلك فعلت لنفسها. وقد تلألأ وجهها بالبشر والانشراح، فملت عليها متحسسا خديها بيدي ومحاولا أن أقطف بشفتي زهرة من فمها الجميل، ولكنها ذادتني عنها برفق قائلة: أنسيت ساحرتك السوداء؟! عجل بزيارتها يا "سنوحي" لتعود قبل حلول الظلام، وستجد فراشي بانتظارك، وإنه لمشوق إليك، وإن كنت لا أدري لماذا هذا الشوق، فإن أطرافك قد تراخت، وجسدك اعتراه الترهل. وابترد فيك ذلك اللهيب الذي كنت أستشعره كلما ضمنا مضجع واحد؟!. ومع هذا، فأنت في عيني تمتاز عن سائر الرجال!..

وكانت، وهي تقول هذا، تضع حول عنقي شارات الشرف، وتثبت فوق رأسي قلنسوة الشعر المستعار، وتداعب خدي بلمسات لطيفة، قوية الإغراء!..

وفي عجل، قصدت إلى الملكة، مستحثا حاملي المحفة، ومن بعدهم مجدفي القارب، فبلغت ميناء القصر مع مغيب الشمس خلف التلال الغربية، حيث بدأ يظهر أول نجم في السماء!..

وقبل أن أعرض هنا حديثي مع الملكة الوالدة، أذكر أنها خلال السنوات الأخيرة لم تزر ابنها في مدينة "أخيت آتون" إلا مرتين، وفي كل مرة منهما كانت تعيره بجنونه. وكان هو يضيق بذلك أيما ضيق، ولكنه لم يكن يفعل شيئا يغضبها؛ لأنه أحبها حبا أخفى سيرتها عن عينيه، وغالبا ما يكون الأبناء مقفلي العيون عن مثالب أمهاتهم، إلى أن يتزوجوا، فيرون عن طريق زوجاتهم ما لم يكونوا قد رأوا!.. ولكن "نفرتيتي" لم تشأ أن تفتح عيني فرعون "إخناتون" رعاية لحق أبيها، الذي هو في الوقت عينه عشيق أم زوجها!..

وكانت علاقة الملكة "تايا" بالكاهن "آي" قد صارت حديث كل إنسان، ولم يعد شيء من اتصالاتهما المخزية خافيا على أحد فهما - في ذلك الوقت - يعيشان في حرية واسعة غير محتشمة، لا يتحرجان منها، ولا يحاولان إخفاءها، حتى قال الناس: إن البيت الملكي لم يشهد فيما مضى عارا مفضوحا كهذا العار!.. وكان ذلك خليقا أن يثير الشك في دم فرعون "إخناتون"، فليس بعيدا أن تكون أمه، وهذا سلوكها، قد ولدته من دم غير فرعوني!.. ولعل ذلك أن يكون سر تصرفاته الغريبة المجافية لمنهج أبيه وعقيدته!.. ومن هنا تلقف الكهنة دعواهم بأنه فرعون زائف!..

ذلك ما كان يقال، وتلهج به الألسنة خفية وجهرا. ولكني كنت بيني وبين نفسي، لا أصدقه، مؤثرا أن أظل على ثقتي بأصل "فرعون" وصحة نسبة، فهذا عندي خير من فجيعة الشك، وخير من مسايرة الكهنة فيما تدفعهم إليه أحقادهم على "فرعون" وعداواتهم له!..

واستقبلتني الملكة الوالدة في حجرة خاصة، حيث الطيور الصغيرة مقصوصة الأجنحة تغرد في أقفاصها، فقد كانت الهواية المحببة عند الملكة، أن تصيد الطيور،

في حديقة القصر، وتشذب فروع الأشجار، وتصنع منها أقفاصها أو شباكا، جارية بذلك على عادتها في شبابها!.. وثمة هواية أخرى، كانت لا تنفك تمارسها، هي جدل أعواد الغاب والسمار الرفيعة الملونة، لتجعل منها مفارش كالسجاجيد، وقد رأيتها، حينما دخلت حجرتها، منكبة على صنع حصير من هذه الأعواد.

وفي لهجة حادة، عابت على تأخرى عن مقابلتها، وسألتني، باللهجة نفسها، قائلة: أو لم يشف "إخناتون" بعد من جنونه؟!.. وإذا لم يكن قد شفي منه، فمتى إذن تفتح جمجمته؟!.. إنه لا يزال يحدث ضجة كبيرة حول إلهه "آتون"، ويثير بذلك مشاعر السخط عند الشعب، وهذا شيء لا تبرره حكمة ولا تدعو إليه الآن حاجة، بل العكس هو الذي ينبغي أن يكون، فقد أنهار "آمون" ولم يبق من ينازع "فرعون" في سلطانه، ففيم هذا التهور المثير؟!..

فأخبرتها، متلطفا، عن حال ابنها "فرعون"، وعن الأميرات الصغيرات، وكيف يقضين أوقاتهن مرحات في ملاعبة الغزلان والكلاب، والتجديف بالبحيرة المقدسة في "أخيت آتون".

فهدأت الملكة الوالدة، وانقشعت عنها سحابة الانفعال والحدة، وأذنت لي في الجلوس عند قدميها، وقدمت لي شراب الجعة، وهو الشراب الذي تؤثره على النبيذ، وقد أخذت تتناوله معي.

وفي نشوة الشراب، راحت تخرج من إطار الحذر والتزمت، وتنطلق متحدثة في صراحة تامة، وأحسسست إذ ذاك إني بموضع ثقتها الكاملة. وأكبر ظني أن ذلك كان بسبب إني طبيب، فالأطباء مستودع الأسرار، وللنساء بخاصة ثقة كبيرة فيهم، وهن لذلك يطلعنهم على خفايا أمورهن مطمئنات، ولا تختلف الملكة "تايا" في هذا عن غيرها من النساء!..

قالت: "سنوحي"! أيها الرجل الذي أطلق عليه ابني في نزوة طيش اسم "الوحيد"، فما أرى فيك أثرا من تلك الوحدة المدعاة، فإنك لرجل وديع حقا، وعليك سمات

واضحة من طيبة القلب، ولكن قل لى: ماذا يمكن أن يفيده الرجل من طيبة قلبه؟!، إن الأغبياء العاجزين هم وحدهم طيبو القلوب؛ لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا آخر!.. أقول هذا عن تجربة ودقة ملاحظة، وليكن رأيك ما يكون فى ذلك، فالمهم عندى أننى أشعر أن لقاءك قد خفف عن نفسى كثيرا مما يثقل عليها!.. إن "آتون" هذا الذى صنعته بدهائى ومقدرتى، وسمحت له، فى حماقة وسوء تقدير، أن يلى الأمر كله، ويقبض على مقادير السلطة بأجمعها، قد أصبح مصدر عنائى ومشغلة بالى، وكان ينبغى ألا يكون أمره هكذا معى، فإنما كان هدفى حين ابتدعته إلها ودينا وصاحب سلطان، أن أحطم به "آمون"، وأستخلص به القوة لى ولولدى، ومن وراء هذه القوة لكلينا، السعادة والأمن والراحة الضافية، ولكن أين أنا الآن من هذا كله؟!.. على أنه من الحق أن أقول إننى لم أكن وحدى فى صنع هذا الإله الجديد... لقد كان "آى" أول من فكر فى ذلك، ثم مضى معى فى الخلق والتكوين، وتخطيط الوسائل والأهداف. وما يضيرنى أن تعلم أنه زوجى، وإن لم تكن الجرة قد كسرت بيننا، فذلك شىء لم يكن مستطاعًا!.. وإذن، فهذا التعس "آى" الذى ليس فيه من علامات الرجولة إلاهدابه تشبه خلف البقر، هو الذى انشق عقله عن "آتون" وجاء به من "هليوبوليس"، وأدخله فى رأس الفتى، وما زال به حتى استبد بكل تفكيره وكل حواسه وأعصابه، ولست أستطيع – من جهتى – أن أحدد معالم العقيدة المستقرة فى قلب ولدى لإلهه "آتون"، ولا أن أحدد كذلك مدى ما لهذه العقيدة من أثر فى تصرفاته، ذلك لأنه منذ طفولته كان مضطرب الأعصاب، وكثيرا ما كانت تنتابه أحلام اليقظة، وتشرد بأفكاره وأخيلته شرودا بعيدا، فليس غريبا – إذن – أن يكون لطفولته المضطربة علاقة بعقليته فى شبابه فى أحكامه. ومما يثير الحيرة فى نفسى أن زوجته الجميلة، ابنة "آى" لا تلد له إلا إناثا، الواحدة فى أثر الأخرى، مع أن السحرة المخلصين قد بذلوا أقصى ما فى وسعهم لمساعدتها فى إنجاب ولد ذكر!.. فأية نكسة هذه التى ينتكسها ولدى؟!.. وعلى ذكر السحرة، لا أدرى لماذا ينقم الناس منى أن جماعة منهم تحيا معى وتلتف حولى؟!! إن هؤلاء لدى بمثابة كنز غال، ولا يفرط أحد فيما يؤتاه من كنوز غالية.. وإنى لذلك، حريصة على رفقتهم، وما لى عنهم غناء، فإن أحدا لا يعرف معرفتهم فى تدليك أقدامى، وهم وحدهم القادرون على تزويدى بالعقاقير التى تهيئ لى المتعة

واللذة، بل إني لأصرح لك أكثر من ذلك بأنهم هم وحدهم الذين يشبعون غريزتي كامرأة!.. وليس صحيحا ما يبدو لك. وما قد يبدو لغيرك أيضا، من أن علاقتي "بآي" قمينة أن تغنيني عن مثل هؤلاء، سود الوجوه، ذوي الشفاة الغليظة، الذين يضعون حلقات العاج في أنوفهم، فإن "آي" أعجز من أن يبلغ مبلغهم في هذا المجال، وكان يجمل بي أن أدعه يهوى ويموت، ولكن لماذا أفعل، وحياته لا تضايقني؟!..

واستطردت تقول في مثل ثرثرة عجائز النسوة، وهن يغسلن الملابس على حافة النهر. ثم إن هؤلاء الزنوج الذين أحدثك عنهم يا "سنوحي"، أطباء من الدرجة الأولى، وقد جهلهم الناس فسموهم سحرة، حتى أنت الطبيب ذو العلم والمعرفة!.. على أنك لو لقيتهم، فسوف تصيب منهم مزيدا من العلم والمعرفة وتدرك أن تسميتهم بالسحرة ليست من الحق في شيء، وبوصفك طبيبا، لا تفشي سرا، أصارحك أنني من حين إلى حين، أظفر عندهم بالمتعة التي يعتدل بها مزاجي وتنمو صحتي، بالقدر الذي يرونه، بعلمهم، محققا لذلك!.. ولا بد من مثل هذه السلوى لامرأة مثلي توشك أن تحطم الشيخوخة كيانها.. وأنا لا أطلب هذا على طريقة سيدات البلاط الملكي، حبا في التغيير، وتنويعا في المتعة، ولا أوثر الزنوج بذاتهم؛ أخذا بما يقوله هؤلاء السيدات أنفسهن، وهو أنه ليس هناك ما هو أفضل من مضاجعة الزنوج!.. بل إنني أفعل ذلك، بباعث من إرادة قوية، هي الاقتراب من الحياة الدافئة، التي هي أمشاج من الشمس والأرض والحيوان!..

وأمسكت الملكة الوالدة عن الكلام، كما أمسكت عن شراب الجعة، وبدا كأنها أخذت تفيق من تأثير الشراب، وعادت إلى تضفير أعواد السمار الملونة، وقد أكبت على هذه العملية، فلم أعد أرى منها إلا أناملها القاتمة وهي تتحرك في خفة، ولكنها، بعد أن ران الصمت علينا، استأنفت حديثها قائلة: فلنعد إلى طيبة القلب، وأنها ليست طريق النجاح، وإنما ينجع في الحياة القوي الفاتك، والمقدام المغامر. والقوة شيء عظيم، وقد لا يقدرها حق قدرها، أولئك الذين ولدوا في أحضانها، ولكن المحرومين منها هم الذين يعرفونها ويتمنونها. وهل يعرف قدر الصحة إلا المرضى؟! وقد

استقبلت حياتى محرومة من القوة، ولذلك جعلتها مطلبى وهدفى، وبذلت فى سبيلها ما هو فوق التصور لأنفثها مسلسلة فى ابنى، وفى أبنائه من بعده، ليظل الذين يجلسون على عرش "فرعون" عن طريق دمي، أقوياء مرهوبين. وقد أكون قارفت فى هذا السبيل شرورا وخطايا، مما لا يرضى عنه الإلهة، ولكنى فى الحقيقة لا أبالى الإلهة ولا أعنى كثيرا بهم، اقتناعا منى بأن الفراعنة أعلى منهم مكانا، وأعز مقاما وسلطانا. ورأيى أنه ليس هناك خير وشر، وإنما هناك عمل ناجح يسمى خيرا، وآخر فاشل يسمى شرا. على أننى، أحيانا، أشعر بقلبى يختلج تقززا من أفعال ارتكبتها لتحقيق مآربى، فما أنا إلا امرأة، من طبع النساء الطيرة والتشاؤم، والريبة التى تثير الندم. ولكننى أجد فى الزنوج على الدوام راحة النفس وهدوءها، ولا شيء هو أكثر تعذيبا لقلبى من أن أرى "نفرتيتى" لا تلد إلا إناثا، فكأنى أقذف بالحجر خلفى، فيرتد أمامى، ليعوق طريقى ويعطل مسيرى!..

ثم استغرقت فى همهمة من الدعاء والاستعاذة، وأخذت تحرك قدميها فى الأرض بانفعال ظاهر، ولكنها، طول الوقت، لم ترفع يديها عن أعواد السمار تجدلها جدلا دقيقا. وقد استوقف نظرى فى الحصير الذى تصنعه، أنها كانت تجعل فيه عقدا كالتى يصنعها صائدو الطيور، فذكرتنى بما كنت قد رأيته بالقارب الصغير الذى كانت أمى "كيفا" تعلقه فوق فراشى، ذلك القارب الذى حملنى إليها طفلا بالمهد عبر النهر، والذى شهد سر مولدى المجهول ولم ينطق به!.. إن هذه العقد لتى تصنعها، تحت عينى، الملكة "تايا" هى هى نفسها. أو شبيهة بها جد الشبه، تلك العقد التى ألفت النظر إليها سنين طوالا، بالدار التى قذفت الأقدار بى إليها!.. وهنا روعتنى الذكرى، وشعرت بقلبى يرتعد، وبأطرافى تتصلب، وبأفكارى تترنح فى قسوة مرهقة!.. وفى أعماق الماضى البعيد تراءت لى صور باهتة مفزعة، من ذلك الوليد، الذى هو أنا، قد وضعته بذلك القارب الصغير يد مجهولة، ودفعت به إلى مياه النهر بغية الخلاص منه، كما لو كان لعنة من اللعنات، لعل الموج يبتلعه ويطويه، أو أن تمساحا يلتهمه ويخفيه، أو لعله ينجو، فيحيا حياة اللقطاء المنبوذين، معيرا بين الناس بهمجية الدم والنسب!..

فمن يكون هذا الولد؟! ومن أى طريق جاء؟! وأية جريمة تلك التى قذفت به إلى الموت، أو إلى الحياة الذليلة التى هى شر من الموت؟!

في هذا، كنت أفكر محزونا، في حين كانت أنامل الملكة "تايا" تلعب بالأعواد الرفيعة، صانعة منها عقدا جديدة كتلك التى هاجت في نفسي ذكرى القارب المحطم والميلاد المجهول!..

وكدت، لفرط ما اعتراني من هذه الذكرى، أحس أن ثمة إرتباطا بين تلك العقد التى تصنعها يد الملكة "تايا"، وعقد ذلك القارب الذى حملني على ظهر ماء الفيضان، وأن سر مولدى يتحرك مضطربا في يدها الصناع!..

ولكنى قلت لنفسي، مقصيا عنها هذا الخاطر، إنه من المستطاع، لأى إنسان، أن يضفر عقدا لا تختلف عن القوارب وشباك الصيد، إذا كانت الملكة الوالدة تحذق صنعها فإن صيادى الطيور في المملكة السفلى ليسوا أقل حذقا!.. وإذن - فحادث القارب والميلاد المجهول ألا يزال سرا مطويا في ضمير الغيب، مختفيا وراء مالا عداد له من القوارب والشباك وضفائر الغاب والحصير، ولا يبقى منه في قلبى إلا تلك الجراح الغائرة، وهو أننى جئت إلى الحياة من عالم مظلم، ملفوظا كالنواة القذرة، لا أعرف لى فى هذا الوجود الفيسح، أبا ولا أما!..

كانت هذه الخواطر والأفكار، تتفاعل في نفسي تفاعلا شديدا، ولكن الملكة الوالدة لم تلحظ شيئا من آثارها في وجهى؛ لأنها كانت في شغل عنى بما في يدها ولم يلفتها منى أننى قد لزمت الصمت تائها في بيداء الذكرى المؤلمة، فقد كانت هى التى تمسك بزمام الحديث، وقد عادت إليه مسترسلة في سرد آرائها وذكرياتها قائلة: ربما بدوت لك يا "سنوحى" في صورة امرأة شريرة!.. ولكن تصورك لى هكذا لا يخلو من قسوة ظالمة، فما أردت بمصارحتك بأعمالى واتجاهاتى إلا أن تفهم دقة الظروف والعوامل التى دعت إليها، وهى في ذاتها تنهض عذرا يبررها، فليس من السهل على ابنة صياد فقير أن تصبح فى عداد سيدات "فرعون"!.. فمن تكون؟! وإنى لها أن تبلغ مبلغهن عنده، وهى السوداء ذات اللون القاتم والقدمين المفرطحتين؟! إن سبيلها إلى

ذلك ينبغي أن يكون هو السبيل نفسه الذي سلكته، تجميلا للجسد، وتنضيرا للشباب، وإثارة للغريزة، وإشباعا للشهوة، واحتيالا على العواطف. وقد فعلت ذلك، ولم أدقق في اختيار الوسائل التي تؤدي إليه، واستطعت أن أفتح قلب "فرعون"، وأظفر بحبه، حتى لم يعد يهنأ إلا في جواري، ولا يجد المتعة إلا في فراشي، وكان سوادي بما يقترن به من الفنون الجنسية الغريبة، خيرا عند "فرعون" من الكثير الذي سئمه في غيري من سيدات القصر الشقراوات!.. فآثرني عليهن جميعا، ومكن لي في أن أكون صاحبة النفوذ في حكم مصر تحت اسمه!.. وقد عرفت كيف أسدد سهامي إلى أهدافها، فلم أخطىء الضربة قط، وبهذا قضيت على كل ما كان يحاك لي من مؤامرات في القصر الذهبي، وأفلت في مهارة من جميع الفخاخ التي كانت توضع خفية في طريقي، واغتنمت كل فرصة سنحت لي - وما أكثرها - للانتقام من أعدائي، فشاع فيهم الخوف من بطشي، وانعقدت ألسنتهم فرقا ورعبا، وأصبح كل من في القصر الذهبي رهن اشارتي، لا يتحركون لأمر إلا بارادتي. وقد أردت ألا تلد زوجة أخرى لفرعون ولدا ذكرا، وأن أكون أنا الزوجة الوحيدة التي تلده له، فكان ما أردت، ولم تلد زوجاته الأخريات إلا إناثا، زوجتهن إلى كبار رجال الدولة. وكان ولدي منه هو الوحيد الذي ورث العرش، وحمل التاج، وحكم البلاد!.. وهكذا تحقق ما لم يكن ثم سبيل إلى تحقيقه بغير ما تذرعت به من وسائل السيطرة على "فرعون"، والفوز بقلبه وشهواته!.. على إني، بعد، لا أرى الأمر قد تحقق كاملا على الوجه الذي أردته، فإن ولدي الذي صار "فرعون" مصر، لم يهيئ لي أن أسعد به، فقد جاء مخبولا، ولم يبق لي من أمل إلا في ولده الذي لم يولد بعد، ويضايقني أشد الضيق، أن علامات مولده قد أبطأت أكثر مما يحتمل صبري!.. أما ابنتي "باكيت آمون" التي لم تتزوج إلى الآن، فإني أدخرها في جعبتي سهما لاصطياد أمنية كبيرة، ولن أخطئ الرمية، فذلك شأني دائما!..

واستطردت تقول في زهو: أرأيت يا "سنوحي"، وأنت الطبيب المدرك، كيف أن سحري كان عجيبا؟! وكيف كان أثره في أرحام زوجات "فرعون"، فلم يلدن إلا إناثا ذهبت كل واحدة منهن إلى أحضان رجل، وخلص لي دونهن الولد والتاج؟!..

ولكننى سددت نظراتى إلى عينيها، وقلت لها وأنا أغالب الشعور بالخوف منها: إن سحرك يا سيدتى من البساطة والوضوح بحث لا يخفى على أحد!.. إنه باد تحت عينى الآن ممثلا فى هذه الضفائر التى تصنعها يداك من فروع الغاب!.. وأية عين أخرى، غير عينى، لا يشق عليها أن تراه!.. لا نعرف السحر إلا غموضا وأسرارا وأشياء أخرى تدق على الأفهام، ولا تدركها الأبصار!..

فانتفضت فى جلستها وكأنما قد لدغها ثعبان، وسقطت من يدها جديلة الحصير، وحملقت فى وجهى بعينين محمرتين، وصاحت: أساحر أنت كذلك يا "سنوحى"؟!. أم هو كما تقول شئ يدركه كل من لم يؤت قوة السحر؟! إنى أشك فى هذا!..

قلت لها: لقد عرف الناس كل شىء من هذا الذى تعتقدينه سحرا خافيا!.. وقد لا يكون أحد منهم رأى شيئا رؤية عين، ولكنهم مع ذلك يحسونه ويتذاكرون به كما لو كانوا قد رأوه، ومن يدرى، فلعل الليل الذى أضواك وأنت تفعلينه، قد وشى بسرك إلى الهواء فتساقط على أذنهم!.. وقد يكون فى وسعك أن تخرسى ألسنة الناس، ولكن ليس فى وسعك أن تمسكى بألسنة الهواء ونسائم الليل الواشية!.. ومع ذلك، يا سيدى، فهذا الحصير السحرى الذى تصنعينه الآن يبدو جميلا بديع الصنع، وإنى لأكون سعيدا وشاكرا، إذا تفضلت بمنحى إياه، هدية منك كريمة. وثقى أننى سأعتز به أكثر من أى شخص آخر تفكرين فى إهدائه إليه!..

وكنت أتكلم، وهى تصطنع الهدوء، وتتشاغل بالتضفير بأصابعها التى لم يخف عنى أنها كانت حينذاك تختلج. ومن لحظة إلى أخرى، كانت تحتسى شراب الجعة، فما أن بلغت هذا الحد من الحديث، حتى رفعت رأسها وقالت لى فى خبث مكتوم: من الممكن أن أهدى إليك هذا الحصير يا "سنوحى" عندما أتمه، وهو حقا جميل وثمين؛ لأنه من صنع يدى هاتين، وهو إلى ذلك حصير ملكى يرمز إلى الشرف الذى يتمناه كل إنسان.. ولكن لا هدية من غير أخرى تقابلها!.. فماذا أنت مهد إلى لقاء هديتى هذه ؟!.

قلت لها ضاحكا، وفي غير اكتراث: سأهدى إليك لساني سيكون لك أيتها الملكة الوالدة!..

فقالت، وهي تحدجني بنظرة جانبية: وما لسانك هذا؟!. إنه ملكي فعلا، والذي يملكه الإنسان لا يعطاه!.. إن أحدا لا يستطيع أن يمنعني من قطع لسانك إذا شئت ذلك، وفي مقدوري أكثر من هذا أن أقطع يديك، فلا يكون لك لسان ينطق ولا يد تكتب!.. بل إني لأستطيع أن أقذف بك جملة إلى زنوجي في مخابئهم، ليقطعوا صلتك بالحياة إلى الأبد، فهم يقدمون القرابين إلى آلهتهم من الأجساد البشرية!..

قلت لها متلطفا: إن هذه الجعة التي تؤثرين شربها،من النوع القوى التأثير، ويلوح لي أن الإكثار منها يسلم العقل إلى أحلام قد لا تكون ممتعة أحيانا، ولهذا أرجو ألا تزيدي منها حتى لا تلقاك في أحلامها أفراس البحر!.. أما لساني، فهو لك على أية حال، ولا أنكر حقك فيه، ولا قدرتك عليه، وأما هذا الحصير الأنيق البديع، فإني ما أزال طامعا في إهدائه لي بعد أن يتم صنعه!..

ونهضت من مكاني، متأهبا للإنصراف، في حين كانت هي تبتسم ابتسام النسوة المخمورات، وتقول: إنك تسليني كثيرا يا "سنوحي"، إنك تسليني كثيرا!..

وعدت إلى المدينة، واستقبلتني "ميرييت" فرحة، وقاسمتني فراشها، ولكنني لم أكن سعيدا، فقد عاودني التفكير في قارب الغاب الذي كان معلقا في السقف فوق مهد طفولتي، وخطرت بذهني صورة هذا القارب يضطرب في ماء النهر، ويرفق به الجو التيار والموج، حتى يبلغ مأمنه من الشاطئ الآخر، ثم تختلط هذه الصورة في ذهني بصورة أخرى، هي أصابع الملكة "تايا" السمراء، وهي تتحرك خفيفة في تضفير أعواد الغاب الرفيعة، وتعقد لها عقدا كتلك التي تشابكت في هيكل القارب!.. ويذهب بي التفكير إلى ذلك الشاطئ الذي أبحر منه القارب ليواجه مصيره غير المنظور، فلا يرد على خاطري من هذا الشاطئ إلا أسوار القصر الملكي!.. فما هذه الخواطر كلها؟! ولماذا تلح هذا الإلحاح على مشاعري وأعصابي؟! وأية علاقة بين هذه الأحداث، تتجمع متقاربة في ذهني الآن، مع تباعدها في الزمن والأشخاص؟! لست أدري!..

-٥-

كان من واجبى فى اليوم التالى أن أزور "دار الحياة". فذلك هو السبب الأول الذى استأذنت "فرعون" من أجله فى عودتى إلى "طيبة". وكنت قد غبت عن "دار الحياة" سنوات عدة، ولو لم تكن هذه الزيارة مأذونا بها من "فرعون" لكان من حق هذه الدار على - كطبيب الجمجمة فى الحاشية الملكية - أن أزورها، ذلك إلى إنى كنت أخشى، لطول بعدى عنها، أن أكون فقدت شيئا من مهارتى. فلم يحدث، خلال إقامتى فى "أخيت آتون"، أن قمت بفتح جمجمة واحدة، فمن الخير إذن أن أعود إلى "دار الحياة"، واصلا بها - لبعض الوقت - ما انقطع بينى وبينها من روابط الحكمة والمعرفة... وقد ذهبت إليها، وكنت أحسب إنى ملاق هناك طلابا أذكياء، تحررت عقولهم من آثار الدراسة الكهنوتية التى قضوا فيها الفترة السابقة على انتقالهم إلى "دار الحياة"، فقد كان مفروضا، وقد زالت السلطة الكهنوتية ومناهجها التربوية، أن تزول معها تلك التعاليم والتقاليد البالية التى كثيرا ما كانت تستعبد العقول، وتعطل المواهب، ولكن هذا الذى قدرته كان ضربا من الوهم والخيال لقد وجدتهم على ذلك الخمول القديم، يتقبلون الدروس قضايا مسلمة من أساتذتهم من غير مساءلة ولا مناقشة ولا استيضاح، وكل همهم أن يجتازوا مرحلة الدراسة، على أى وجه، لتقيد أسماؤهم فى سجل "دار الحياة" ويخرجوا منها لممارسة مهنة الطب، كوسيلة إلى كسب العيش دون إبطاء!..

وخلافا لما كانت عليه الحال من قبل، لم يكن هناك مرضى كثيرون، فقد انقضت عدة أسابيع قبل أن أتمكن من إجراء ثلاث عمليات جراحية لفتح الجمجمة، كنت قد وعدت الطلاب بإجرائها أمامهم ليفيدوا من مقدرتى، وقد أجريتها بنجاح أكسبنى شهرة كبيرة بين الطلبة والمدرسين الذين راحوا يعربون عن إعجابهم، ويمتدحون ما رأوا من مهارتى ودقة يدى!.. ولكنى، أنا نفسى، كنت أشعر فى هذه العمليات، أن يدى لم تكن على عهدى بها فيما مضى من المهارة والنشاط، كما لم تكن قوة الإبصار فى عينى كما كانت من قبل، وكان عسيرا، لهذا، أن أكشف عن المرض بالثقة التى

كنت أعتمد عليها فيما سلف، حتى لقد اضطررت إلى ما لم أكن أضطر إليه فى الماضى، من توجيه الأسئلة الكثيرة وإجراء البحث الطويل، لأصل إلى القرار الحاسم غير المشوب بالشك. وقد أخذت، من أجل هذا، فى استقبال المرضى يوميا بمنزلى، ومعالجتهم بالمجان، لأستعيد ما زايلنى من المقدرة القديمة.

وكانت إحدى العمليات الثلاث التى أجريتها فى "دار الحياة" لرجل يعانى من آلام شداد فقد فيها الأمل فى الشفاء، من هنا كنت أكثر عطفا عليه، وقد سرنى إنى أنقذته من آلامه، فوق ما سرنى من نجاح العملية نفسها، على دقتها وخطورتها. أما العملية الثانية، فكانت لرجل سقط على رأسه منذ عام، من موضع مرتفع بمنزل كان يرتكب فيه الإثم مع زوجة رجل آخر، ضبطهما متلبسين، وقد استعاد رشده قليلا، ولكنه بعد ذلك وقع فريسة المرض المقدس، واعتورته الأزمات النفسية المتواصلة، فراح يهرب منها إلى الخمر، يحتسيها فى إدمان وإسراف، حتى فقد بصره وصار يهذى ويصيح بصوت أجش ويعض لسانه فأجريت له عملية الجمجمة، وكشفت عن مخه الذى كانت الدماء السوداء تتجمد فى مواقع كثيرة منه، واستغرقت عملية التنظيف وحدها وقتا ليس بالقصير، ولم يكن بالمستطاع إتمامها دون إصابة المخ ببعض الجراح. وقد استراح الرجل أخيرا من أزماته وآلامه، إذ قضى نحبه بعد ثلاثة أيام، ولم يحل هذا دون اعتبار العملية، من الوجهة الفنية. ناجحة نجاحا تاما.

أما الحالة الثالثة فكانت أيسر من سابقتها، فالمريض كان شابا صغيرا، عثر عليه الحراس بأحد الشوارع، فاقد الوعى، بعد أن هاجمه اللصوص وسرقوا كل ما كان معه، وكان رأسه مشجوجا، وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. وقد جئ به إلى "دار الحياة"، وكنت بها إذ ذاك، ورأيت الأطباء يغفلون العناية به ليأسهم من شفائه فتقدمت إليه، وبالسرعة التى يقتضيها الموقف، فتحت جمجمته، وانتزعت من مخه قطع العظام التى نفذت إليه، ثم غطيت رأسه بصفيحة من الفضة المطهرة، وأفاق بعد ذلك. وقد غادرت "طيبة" بعد أسبوعين من هذه العملية، وهو على قيد الحياة، وأحسبه قد عوفى تماما بمرور الوقت.

ومع إني كنت موضع الاحترام في "دار الحياة" لمركزي كطبيب "فرعون"، فإن الأطباء متقدمي السن كانوا يجاهدون أنفسهم في الاتصال بي، ولا يولونني كامل ثقتهم؛ لإني مقبل عليهم من "أخيت آتون"، أؤدي عملي في خدمة الإله الزائف الذي يخافونه!.. وقد حرصت من ناحيتي، وبعد أن عرفت هذا، على أن أمتنع عن ذكر "آتون" أمامهم في أية مناسبة، وجعلت أدير الحديث معهم دائما في الشئون الطبية وحدها!..

وكان هؤلاء في حيرة من أمري، ويحاولون بمختلف الأساليب أن يتبينوا اتجاهاتي وأفكاري، ويتعسسون حولي كالكلاب التي تشم طريقها، استراقا لما يدور في خاطري، وظلت حالهم على ذلك إلى أن فرغت من عملية الجراحة الثالثة، فجاءني طبيب يتسم بالكفاية ويمتاز بالحكمة، وقال لي: يا "سنوحي"، أيها الطبيب الملكي، هانتذا قد رأيت "دار الحياة" على غير ما تعودت أن تراها!.. إن المرضى المترددين عليها صاروا أقل عددا مما كانوا، لا لأن المرض قد تخلى عنهم، فهم في "طيبة" اليوم أكثر من ذي قبل، بل لأنهم فقدوا ثقتهم بنا فلم يعودوا يحفلون بمعارفنا الطبية!. وأنت قد طوفت في بلاد أجنبية كثيرة! وعرفت فيها فنونا مختلفة للعلاج، غير إني على يقين من أنك، مع ذلك، لم يتح لك أن ترى تلك الطريقة العجيبة الفذة التي تستعمل الآن سرا في "طيبة" لإبراء المرضى، مهما تكن أمراضهم، بغير مبضع، ولا نار، ولا عقاقير، ولا ضمادات، ولا شيء مما أوتيت العلم به هنا وفي الخارج من فنون الطب وشتى وسائله!.. إنها من الغرابة بحيث لا أشك في أنك تود أن تراها بعينك، فليس يكفي أن تسمع عنها حديثا عابرا!.. وللرابطة التي تجمعنا بك، بوصفنا أطباء، قد عهد إلي أن أدعوك لمشاهدة بعض التجارب لهذه الطريقة الغريبة، وهذا يقتضي أن تعدني بألا تذكر شيئا مما ترى، احتفاظا بسريته!.. فإن استجبت لهذه الدعوة، فستمضي معصوب العينين! إلى المكان المقدس للعلاج!..

وأثار حديثه اهتمامي، وبدافع الفضول نزعت نفسي إلى استجابة الدعوة بشروطها، ولكني خشيت غضب "فرعون" إذا ما انتهى هذا إلى علمه بوسيلة من

الوسائل، فقلت لصاحبى مترددا: إن أمورا كثيرة تجرى الآن فى "طيبة" ولا تخلو من الإغراب والشذوذ، وقد رأيت الرجال والنساء يعيشون فى غمر من القصص والأساطير والرؤيا الغريبة، ويشغفون بذلك شغفا كبيرا، غير أننى - فى الواقع - لم أسمع ما هو أشد إمعانا فى الغرابة من هذا الذى تذكره عن العلاج بدون أدوات وعقاقير، فهذا ما لا يستسيغه عقلى كطبيب، ولا أرى فيه إلا خدعة من تلك الخدع الفاشية اليوم فى هذه المدينة، ومن أجل ذلك أوثر ألا أذهب معك، حتى لا يزج باسمى فى الاستشهاد على صحة أشياء أعتقد أن لا وجود لها، لاستحالة حدوثها!..

قال الطبيب العالم معترضا: نحن نعتقد يا "سنوحى" أنك رجل فوق مستوى الأحقاد، ونعلم أنك حصلت، فى طوافك الطويل بأقطار شتى، على الكثير من المعارف والعلوم مما لا يزال خافيا علينا فى "مصر"، فلا يغيبن عنك أنه من الممكن وقف نزف الدم من غير استعمال آلات أو حديد محمى، فكيف لا تتصور أنه يمكن شفاء المرضى من غير مباضع أو عقاقير؟! ثم إن اسمك لن تكون له علاقة بهذا الأمر الجديد، وأؤكد لك ذلك، راجيا أن تثق بى. والأمر بيننا وبينك لا يعدو أننا نرغب فى أن ترى بنفسك هذه التجارب لتتحقق من أنها لا تنطوى على خدعة كما يتبادر الآن إلى ذهنك، وتضيف بذلك جديدا إلى حكمتك!..

فزادنى قوله فضولا رغبة، ذلك إلى أن من عادتى التقصى والبحث فى كل ما يعرض لى فى مهنتى من أمور جديدة، فلم يسعنى إلا أن ألبى دعوة هذا الزميل!. وفى المساء، وافانى بمنزلى، وركبت معه المحفة التى جاء بها. ووفق الخطة المتفق عليها، وضع على عينى عصابة من نسيج فلم أتبين الطريق الذى سلكناه إلى المكان المقصود، فلما بلغناه، قادنى، معصوب العينين أيضا، إلى ممرات داخلية، وأخذنا نصعد درجات ونهبط أخرى حتى نال منى التعب والكلال، وضقت صدرا بذلك، فقلت له متبرما حقا إنها لسخافة!..

ولكنه أخذ يهدىء من روعى، ثم رفع العصابة عن عينى، ودلف بى إلى قاعة كبيرة منحوتة فى الصخر، تضيئها عدة مصابيح زيتية، وكان بها إذ ذاك ثلاثة من

المرضى ممددين على محفات، وظهر فى استقبالى كاهن حليق الشعر، تلتمع رأسه بدهان الزيت، فرحب بى، هاتفا باسمى، ودعانى إلى الكشف على المرضى والفحص عن أمراضهم، للاستيثاق منها والتأكد من أن الأمر جد لاخداع فيه!.. وكان فى صوته أناة وهدوء، كما كان فى مظهره سمات الحكمة والعلم، فتقدمت إلى هؤلاء المرضى، وإلى جانبى رفيقى جراح "دار الحياة" الذى جاء بى إلى هذا المكان، وبان لى أنهم مرضى حقيقة، وقد استبدت بكل منهم علته حتى لا يستطيع منها حراكا، وكانت أولاهم امرأة ما زالت فى شبابها، قد أصيبت أطرافها بالشلل، فانقبضت وضؤلت وكادت تنمحى مظاهر الحياة فيها إلا من عينيها السوداوين اللتين كانتا تلمعان فى رجفة الخائف الحزين. أما ثانيهم، فكان صبيا قد اكتسى جسمه كله بطبقة شائهة من البثور الدامية التى تطفح قيحا وصديدا، حتى ليبدو كأنه جثة ميت قد مشى فيها البلى والفناء!.. وكان ثالثهم شيخا هرما، شلت ساقاه وتجمدت شرايينه، إلى حد أنه لم يكن يحس بوخز الإبرة التى دسستها فى مواضع شلله لأختبرها!..

وقلت للكاهن: أستطيع أن أقرر، بعد الفحص الدقيق، أنهم مرضى. ولو كان لى رأى فى علاجهم لأرسلتهم، من فورى هذا، إلى "دار الحياة"، بالرغم مما يساورنى من الشك فى إمكان شفائهم هناك، على أن علة الصبى، مع ما يبدو من سوئها، أيسر حالا وأقرب إلى الشفاء، إذا اغتسل يوميا لمدة طويلة فى حمام مياه كبريتية!..

فارتسمت على وجه الكاهن ابتسامة هادئة، وأشار علينا بالجلوس على المقاعد فى مكان خافت الضوء بطرف القاعة، واستمهلنا قليلا، ثم استدعى عبيدا حملوا المرضى من أماكنهم ووضعوهم على المذبح القائم هناك، وأطلق بخورا ذا رائحة قوية تدير الرءوس. ومن بعيد، ترامى إلى أسماعنا صوت غناء، ودخل جماعة من الكهنة يرتلون أناشيد "آمون"، وأحاطوا بالمرضى، وداروا حواليهم وهم يهزجون ويصلون ويبتهلون ويقفزون، وظلوا على ذلك حتى تفصدت أجسامهم عرقا، فسال على جباههم، ثم حسروا الملابس عن صدورهم وأخذوا يضربون عليها بحجارة ذات أطراف مدببة، وكانت الأجراس بأيديهم الأخرى تهتز وتتحرك، فتدق دقات متواصلة الرنين!..

وإلى هذا الحد لم أكن رأيت فى ذلك شيئا ذا جدة أو غرابة، فهذه طقوس كنت قد رأيت مثلها من قبل فى "سوريا"، ولكن الكهنة استمروا فى صياحهم وتراتيلهم وقفزاتهم، وأخذوا يدقون بقبضات أيديهم، دقا عنيفا متداركا، على الحائط... وفجأة انفرج هذا الحائط عن تمثال "آمون" المقدس، مشرفا عليهم فى ضوء المصابيح، وفجأة كذلك اختفت أصوات الكهنة، واغتمرهم الصمت المطبق، فكانت لحظة رهيبة!..

وتحت وجه "آمون" الذى كان يشرق بضوء مقدس، تقدم رئيس الكهنة، فنادى المرضى بأسمائهم وصاح فيهم قائلا: انهضوا، وسيروا!.. فقد بارككم "آمون" العظيم لإيمانكم به!..

وكان منظرا بالغ الإثارة والغرابة معا!.. لقد رأيت بعينى، هؤلاء المرضى، يتحركون ويبرحون أماكنهم، وعيونهم محدقة فى تمثال "آمون"، وهم يتحسسون أبدانهم فى دهشة كبيرة كأنهم لا يصدقون أنهم برئوا من أمراضهم المستعصية، ثم انفجروا يبكون ويصلون فى حرارة "لآمون"!..

وأقفلت بعد ذلك فتحة الحائط، وانصرف الكهنة، وحمل الأرقاء البخور بعيدا، وأضاءوا المصابيح لنعيد النظر، على ضوئها، فى المرضى!..

لقد استطاعت المرأة الشابة أن تقف على قدميها المشلولتين، وتسير بهما بقليل من المساعدة، واستطاع الرجل العجوز أن ينهض ويسير نشطا بنفسه، واختفت البثور والقروح جملة من جلد الصبى، وعاد ناعم الملمس، نظيفا كما لو لم يكن قد أصيب بشىء!..

حدث هذا فى سرعة، وخلال ساعات بحساب ساعة الوقت المائية، ولم أكن لأصدقه لولا أننى رأيته بعينى!..

وقال لى الكاهن الذى كان قد استقبلنى، وعلى شفتيه ابتسامة المنتصر: ما رأيك الآن يا "سنوحى" يا طبيب الملك؟!.

قلت له في غير تردد أو وجل: رأيي أن الرجل العجوز والمرأة الشابة، كانا فريسة سحر استلبهما الإرادة، وفرض عليهما العجز عن الحركة والسير، وقد عولجا من هذا السحر بسحر مثله، وذلك ممكن ما دام الساحر أقوى إرادة من المسحورين!.. فليس فيما رأيت من حالهما شيء معجز... ولكن مالا مناص من الاعتراف بغربته حقا، هو حال ذلك الصبي الذي لم يكن بالمستطاع شفاؤه إلا بالعلاج المستمر لبضعة شهور، فما حدث له الآن شيء لم أره ولم أر شبيها له، على كثرة ما مر بي من تجارب ومعضلات!..

قال لي، وعيناه تبرقان: لا تزال إذن يا "سنوحي" جاحدا فضل "آمون"، غير معترف بأنه هو ملك الإلهة!..

فقلت له: أرجو ألا تذكر اسم الإله الزائف هكذا بصوت مرتفع، فإن "فرعون" قد نهى عن ذلك وأنا خادم "فرعون" المخلص!..

فغاظه مني هذا التحذير، ولكنه كان كاهنا من المرتبة العليا، فسيطر على أعصابه وتغلبت حكمته على عواطفه، وقال هو يبتسم: إن اسمي "حريحور"، وتستطيع أن تكشف أمري لحراس "فرعون" فإني لا أرهبهم، ولا أخاف سياطهم، كما لا أرهب "فرعون" الزائف نفسه ولا أكترث له. وإني هنا أعمل باسم "آمون" وببركته أبرئ المرضى من عللهم، ولن يستطيع أحد أن يمنعني من ذلك!.. ولكن مالنا ولهذا الجدل؟! إنه لا يليق بالرجال الذين أوتوا مثلنا حظا كبيرا من العلم والبصر، فتعال، يا صديقي، نتناقش مناقشة أهل العلم البصراء، الباحثين عن الحق والمعرفة، أحرارا من القيود!..

واستطرد قائلا: واسمح لي أن أدعوك إلى حجرتي لتتناول فيها بعض النبيذ، فإنك - فيما أرى - مجهد مرهق الأعصاب لجلوسك ساعات على هذا المقعد غير المريح!..

واجتاز بى الكاهن إلى حجرته ممرات صخرية متعددة، واستنتجت من ضغط الهواء، أننا في طبقة سفلى من الأرض ، وقد لا يكون بعيدا عن الحقيقة أننا الآن فى أقبية "آمون" التي تردد ذكرها على ألسنة كثيرين من الناس، ثم أشار إلى طبيب "دار الحياة" الذى كان يرافقنى، فانصرف، وبقيت معه، منفردين، فى الحجرة التى كانت مسكنا لا ينقصه شىء مما يسعد القلب!.. لقد كان فراشه دمثا وثيرا، وخزائن ملابسه مصنوعة من العاج الأبيض والأبنوس الثمين، والسجاجيد سميكة لينة، والحجرة كلها معطرة برائحة طيبة نادرة، وفي أدب وتلطف، تقدم منى فصب الماء المعطر على يدى، وقدم لى كعكا، وفاكهة، ونبيذا، معتقا مستخلصا من أعناب "فرعون" ومخلوطا بالمسك، فطعمنا وشربنا معا، وأخذ يحدثنى فقال: إننا لنعلم كل شيء عنك يا "سنوحى"، ونتقصى خطواتك، ولا نجهل أنك تحب "فرعون" الزائف حبا عظيما، وأن إله الزائف غير بعيد من قلبك، وهذا ما لم نكن نحب أن تكونه. وعلى أية حال، فمن الحق عليك أن تعلم أن إله "فرعون" الزائف ليس فيه ثم جديد لا تلقاه فى الإله "آمون". "فآمون" جامع الفضائل والمثل الكريمة، وقد صار لفرط حقد "فرعون" عليه واضطهاده له، أقوى قوة، وأصفى صفاء، وأعلى فى نفوس المؤمنين به مكانا. على أننا ندع هذه الناحية الإلهية التي يرجع الأمر فيها إلى الأرواح والقلوب، قوة وضعفا، ونورا وظلمة، فأحق منها بالحديث الآن، هذه اللعنة التى يصبها فرعون "إخناتون" على الفقراء، وهذه الكوارث التى تتلاحق على "مصر" كلها بسببه. وإنى لأستحلفك بحنانك على الفقراء، ووطنيتك التى توجب عليك الوفاء للأرض السوداء أكثر مما تولى منه للأرض الحمراء، أن تدبر الأمر قبل أن يطم شره، ويستفحل خطره، وتسوء عواقبه.

وأردف يقول: والشر لا يزول إلا باجتثاث أصله، ولا يتقى إلا بانمحاء سببه، فالعلاج الذى لا علاج غيره هو أن ينحى "فرعون" عن العرش، وإلا زادت الطامة شيوعا والبلية استشراء!..

ولكنى قلت له، وأنا أتجرع النبيذ المعتق: ليس للآلهة فى نفسى اليوم مكانها المرهوب، لقد زهدت فيها ووهنت ثقتى بها. ولكن رأيى أن إله "إخناتون" غير هذه الإلهة جميعا، فشأنه جد مختلف عنها، وأولى ظواهر هذا الاختلاف أنه ليس له تمثال خاص به، وأن الناس لديه سواسية، لا فرق بين فقير وغني، ولا بين مواطن وأجنبي، ونحن من ذلك ندخل فى عهد جديد، ينتظم العالم كله فى إطار إنسانى واسع الأفق، وذلك أمر لم تسنح من قبل فرصة لتحقيقه، ولئن تحقق ليصبحن أبناء العالم، فى مختلف الأقطار، إخوانا متحابين!..

ورفع "حريحور" يده معترضا، وقال والإبتسامة لا تفارق فمه: حقا إنك يا "سنوحى"، على ما نعرف من ذكائك وسعة إدراكك، قد صرت صريع أحلام اليقظة!.. وما كانت هذه الأحلام يوما سبيلا إلى عمل نافع، أو قاعدة يعتمد عليها فى سياسة عامة. ولست أجرى معك فى هذا الطموح البعيد المدى، الشائك الطريق، وإنما أنا أقنع بالرغبة المتواضعة فى أن ترجع الأمور إلى ما كانت عليه، فتحترم القوانين، وينال الفقراء حقوقهم عن طريقها، ويترك الناس أحرارا فى اختيار ما يريده كل منهم من عمل أو حرفة، ويصلون للإله الذى يؤمنون به عن عقيدة، على أن يمسكهم فى كل ذلك حكم النظام العام، حتى لا تضطرب الأحوال، ولا يختل ميزان الحياة، فلا بد من الفوارق التى تميز السيد من المسود، والحاكم من المحكوم، والرئيس من المرءوس، ليعمل كل فى نطاقه، وداخل حدوده، سعيدا بالطمأنينة، بعيدا عن القلق فى حياته، ولا يسعد المرء بشيء مثل سعادته بحياته الخاصة، واضحة المعالم والحدود ولا مثل سعادته بالعيش فى البيئة التى نشأ بين أحضانها... هذه هى الغاية التى أهدف إليها، وأرى فيها الخير والرفعة لمصر وبنيها جميعا، والوسيلة إليها – كما قلت – تنحية "فرعون" عن العرش الذى توالت الدلائل على أنه غير أهل له!..

وفى لهجة الرجاء والاستعطاف، استمر يقول: وإنك يا "سنوحى" لرجل سلام، تؤثر الخير، ولا تحب الشر لأحد. وما أنت فى حاجة إلى العلم بأننا فى عصر ينبغى لكل إنسان فيه أن يلزم جانبا من الجوانب لا يعدوه. فالعالم متفرق، والناس متباينون،

وكل أمة ترى نفسها خير من الأخرى، والعقيدة الراسخة عند كل فريق هي: أن من ليس منا، فهو عدونا!.. ومن هنا، كان من الغباء أن تظن أن حكم "إخناتون" سيستمر طويلا، لأنه من سائر نواحيه يمثل الشذوذ على سنة الطبيعة التي لا تبديل لها في الحياة، منذ كانت، وإلى أن تنتهي! ولا يعنيني الإله الذي يكون قد ملك عليك مشاعرك، "فآمون" في غير حاجة إلى إيمانك به، ولكن يعنيني أن تذكر واجبك كمصري، وأنت الآن بالمكان الذي يهيئ لك أن تعمل لرفع اللعنة عن "مصر"، وإنقاذها مما تتردى فيه، لتعود إلى مجدها وعزها ووحدتها!..

وشعرت بأن حديثه كاد يسلمني إلى القلق، فأخذت أدافعه عن نفسي بشراب النبيذ، وقلت له: أنت واهم يا سيدي، فليست لي كل هذه القوة التي تتخيلها، وقد رأيتني لا أستطيع أن أبلغ مبلغك في شفاء المرضى. فكيف بما تدعوني إليه من أمر خطير، هو خلع "فرعون" عن عرشه؟!..

فنهض الكاهن "حريحور"، ودعاني إلى مرافقته قائلا: سأريك شيئا..

وتقدمني إلى ممر خارج الحجرة، فسرنا قليلا، ثم فتح بابا مغلقا بعدة مزاليج، ورفع المصباح الذي كان قد حمله في يده، فأنار حجرة صغيرة، تلألأ فيها بريق أكداس من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وقال لي: لا تخف!.. فلن أحاول أن أرشوك بالذهب، وقد لا يعنيك العلم بأن "آمون" لا يزال أوفر ثراء وغنى من "فرعون"!.. ولكني سأريك شيئا آخر!..

وفتح بابا آخر من نحاس ضخم، ورفع المصباح أيضا، مسلطا ضوءه على خزانة صغيرة قام على أحد رفوفها تمثال "لإخناتون" من الشمع، يعلو رأسه تاج مصر المزدوج، ورشقت في صدره ووجهه إبر حادة من العظم، فرفعت يدي بحركة لا شعورية، وأخذت في تلاوة تراتيل واقية من السحر، كنت تعلمتها بمدرسة الكهنوت عندما كنت أتلقى دراستي الأولى فيها. وكان "حريحور" يخالسني النظر مبتسما، ثم قال: حسنا، لعلك الآن قد اقتنعت يا "سنوحي" أن أيام "فرعون" أصبحت معدودة؟!..

وها أنتذا ترى أننا قد جعلنا لفرعون تمثالا مسحورا، ورشقناه بالإبر المقدسة، وقد يبطؤ فعل السحر بعض الوقت، ولكن ما لا شك فيه أن شرورا كثيرة ستحدث خلال ذلك!..

وأوصد "حريحور" البابين بإحكام، وعاد بى إلى حجرته، وعدنا فيها إلى شراب النبيذ، واضطربت الكأس في يدى، وتساقطت قطرات منها على ذقنى، عندما تصورت مفعول ذلك السحر الذى أشهدنيه الكاهن، فقد أحسست أنه سحر قوى لا يستطيع أى إنسان أن يبطله أو يقاومه!..

وقال لى "حريحور": إن سحر "آمون" - كما قد رأيت - يمتد حتى ليصل إلى "أخيت آتون"، ويأتينا منها بخصلات من شعر رأس "فرعون"، وقصاصات من أظافره، لندخلها فى هذا التمثال المصنوع من الشمع . ولا تسألنى كيف كان ذلك ؟! فهذا سرنا الذى لن تعرفه، غير إنى أؤكد لك أننا لم ندفع فى هذه الخصلات من شعر "فرعون" وقصاصات أظافره، ثمنا أو جرا، من ذهب أو فضة، وإنما قدمت إلينا باسم "آمون"، وبباعث من الإيمان به، وتقربا إلى مرضاته!..

وتابع قوله، وهو يرقب حركاتى بحرص: إن الحقيقة التى لم تعد تحتمل ريبا ولا جدالا، هى أن سطوة "آمون" تزداد قوة على الأيام، وأن حكم "فرعون" سيظل هدف لعنته، وأن المصريين هم الذين يضارون بهذه اللعنة، فتحل بهم بؤسا وفقرا وأوبئة!.. فماذا لو شاركتنا فى تخليص البلاد من هذا الشقاء الشامل؟!.. إن كل ما حدث الآن هو مخاض الصداع الذى لا يفارق رأس "فرعون"!.. وإن عندى من العقاقير ما لو تناول منها قليلا برئ من صداعه، وسكنت إلى الأبد آلامه... وإنى لمعطيك منها - إن شئت - القدر الذى كفى فى علاجه!.

قلت له مستدركا: إن الآلام لا تسكن فى إنسان إلى الأبد إلا إذا صار فى عداد الموتى!..

قال، وهو يسلط على عينى بريقا من عينيه الساحرتين، حتى إنى لفرط تأثرى شعرت كإنى سمرت فى مقعدى: قد فهمت ما تعنيه!.. ولا بأس عليك من ذلك، فإن الدواء الذى سأعطيكه لا يترك أثرا يدل عليه، ولن يستطيع المحنطون أنفسهم أن يجدوا شيئا منه. فى أمعائه، وكل ما تفعله أنت هو أن تقدمه إليه، عندما يشكو صداعا فى رأسه، فما يكاد يتناوله حتى يمضى فى نوم عميق، لا يعود يشعر بعده بألم أو كآبة!.. إنك سوف تبدله من ذلك راحة أبدية، ولن تجد أحدا يلومك على هذا!..

واستطرد يقول، وهو يشير لى بألا أتكلم: لا أفكر مطلقا، وأنا أطالبك بهذا، فى أن أرشوك بالكثير أو القليل مما رأيته مكدسا من ذهب "آمون"، فأنت عندى أرفع مكانا ونفسا من أن تؤدى هذه الخدمة الجليلة لوطنك ومواطنيك عن رشوة، وإنما الذى ينبغى أن تعتقده بعقلك وقلبك وعواطفك، هو أنك إذ تفعل ذلك، فإن اسمك سيظل على جسدك مصونا إلى الأبد، وستحفظك الأيدى الخفية طوال حياتك!.. وسيتحقق لك كل ما تطمح إلى تحقيقه من الأمانى الإنسانية الطيبة... هذا هو الذى ينبغى أن تعتقده وتثق به!..

ثم رفع يده، وبصرى لا يزال مأخوذا بالبريق المسلط من عينيه، ولم يكن بمقدورى إذ ذاك أن أفلت من هذه النظرات النفاذة القوية، بل لم يكن بمقدورى أن أنهض من مكانى أو أن أحرك يدى، وقال: أنت الآن رهن إرادتى، لا تستطيع فكاكا من أمر آمرك به، ولكنى مع ذلك لا آمرك بالركوع أمام "آمون" على غير إرادتك، ولا بأن تفعل فعلا لا يرضى عنه ضميرك، فقد وكلت ذلك إليك، وأرجو منك يا "سنوحى"، من أجل "مصر" وأهلها، أن تقدم هذا الدواء إلى "فرعون لتشفيه من آلامه إلى الأبد!. وخفض يده، فاستطعت عندئذ أن أتفرج من ضيقى وأتحرك من جمودى، فتناولت كأسا من النبيذ، وتخلصت به من الرعدة التى كانت تسيطر على قلبى، وقلت له: لا أعدك بشىء يا "حريحور".. ولكن أعطنى هذا الدواء.. فإنه لدواء فيه رحمة على أيه

حال!.. ولعله أن يكون خيرا من عصير الخشخاش، وربما حان الوقت الذى يرغب عنده "فرعون" فى أن يرقد رقدته الأبدية!..

وأعطانى الكاهن، من فوره، سائلا فى أنبوبة من الزجاج الملون، وأخذ يردد قوله أن مستقبل "مصر" فى يدى، وأن هذا المستقبل يشفع لى فيما هو مطلوب منى أن أفعل، فوضعت الأنبوبة فى حزامى وقلت فى تهكم: منذ يوم ميلادى ومصير "مصر" فى أصابع يد قذرة تجدل الغاب!.. أن هناك أشياء لم تؤت علمها يا "حريحور"، وأن كنت تظن أنك بكل شىء عليم!.. وها قد صار الدواء معى!.. ولكن لا تنس أننى لم أعدك بشىء!..

فابتسم الكاهن، ورفع يده بالتحية وقال: ستكافئك الإلهة يا "سنوحى"، وصحبنى بعد ذلك خلال الممرات، ولم يخف عنى شيئا، إذ كان قد وثق بأنى لا أفشى سرا... بذلك أنباته عيناه اللتان تنفذان إلى أعماق النفس، فتكشف خفاياها، ولقد عرفت أن أقبية "آمون" تقع تحت المعبد الكبير، ولكنى احتفظت بهذا السر، إذ لم يكن من حقى البوح به!..

-٦-

بعد أيام من هذا الحادث دعيت إلى الذهاب من فورى إلى القصر الذهبى لانقاذ الملكة "تايا" التى اصيبت بلدغة ثعبان سام، وهى تعد شباك الصيد فى حديقة القصر، فذهبت إلى هناك مهرولا، ولكننى لم أستطع أن أفعل شيئا، فقد فات أوان إنقاذها، ولفظت آخر أنفاسها، ولم يسعنى إلا أن أعلن بأنها قد فارقت الحياة. وكان واضحا أن هذا ليس تقصيرا منى أو عجزا فى مقدرتى، فالملكة قد أصيبت فى غيبة طبيبها، وكان ينبغى تشريط مكان اللدغ وتطهيره قبل أن يدق قلبها مئة دقة، وقد دعيت إليها بعد ذلك، أى بعد أن جاوز الأمر قدرة الطبيب مهما يكن علمه!..

ووفقا للتقاليد، بقيت بالقصر إلى أن يأتى رجال "دار الموت" ليحملوا جثتها، وفى هذه الأثناء قابلت الكاهن "آى" بجانب فراش موتها، فقال لى وهو يلمس خديها المنتفختين: كان من الخير أن تموت!.. فلم يكن أحد يريد لها أن تعيش!.. كان الجميع يبغضونها، حتى أنا!.. لقد كانت تأتمر بى، وتكيد لى من وراء ظهرى!.. أن شرورها وآثامها قد عجلت بمصيرها، ولنا أن نرجو أن تنتهى بموتها هذه القلاقل الثائرة بين طوائف الشعب!..

وخيل لى، وأنا أسمع حديثه أن له يدا فى أغتيال الملكة الوالدة، ولكنى استبعدت ذلك من خاطرى، لأنه لا يوقى على ارتكاب مثل هذه الجريمة!..

وشاع نبأ موتها فى "طيبة"، فتلقاه الناس فرحين مهللين، واحتشدوا فى الميادين العامة، مرتدين أبهى ملابسهم كما لو كانوا في يوم عيد!.. ورأى الكاهن "آى" أن يستميل إليه عطف الجاهير، فأمر فى الحال بطرد الزنوج السحرة الذين كانت تؤويهم "تايا" بأقبية القصر الذهبى، فأخرجوا منها والسياط تلهب ظهورهم، وكانوا أربعة من الرجال، وخامستهم امرأة دميمة الوجه، بدينة شائهة كفرس البحر تماما... وقذف بهم الحراس إلى خارج القصر، فانقضت عليهم الجماهير، ومزقوهم شر ممزق، ولم يعصمهم سحرهم من ذلك المصير الفاجع!..

وجمع الكاهن "آى" ما كان لدى هؤلاء الزنوج من أدوات السحر، من عقاقير وجذوع أشجار مقدسة، فأشعل فيها النار، وكنت أود ألا يفعل ذلك، حتى نعرضها للبحث، استطلاعا لما تنطوى عليه من أسرار!.

ولم يثر هذا الحادث حزن أحد ممن في القصر سوى الأميرة "باكيت آمون"، التى كانت تجلس إلى جوار أمها، وتضع ديها الجميلتين على جسدها المسجى وتناجيها قائلة: لقد أخطأ زوجك - يا أماه - إذ سمح للرعاع أن يفتكوا بسحرتك على هذه الصورة البشعة!.. ورفعت رأسها لتقول لى: أن أحدا من هؤلاء السحرة لم يكن من

سوء الطوية إلى الحد الذى يبرر هذا المصير، وما كانوا بالراضين عن إقامتهم بأقبية البيت الذهبى، فما أكثر ما كانوا يتمنون الرجوع إلى الغابات وأكواخ القش، وإنما عى إرادة أمى التى حالت بينهم وبين ذلك، فظلوا بالأقبية هنا كالمعتقلين، على كره منهم، وكان ينبغى ألا يأخذهم الناس بجريرة أمى! لقد ظلموهم!..

وحدقت الأميرة فى وجهى، وقالت وهى ترفع رأسها بخيلاء: ما حال "حورمحب" الآن؟! إنه، على وضاعة أصله وجفاء طبعه، يتمتع بقوة بدينة، يمكن - إذا تزوج - أن ينسل بها نسلا قويا!.. أتراه لم يتزوج بعد؟! ولماذا كان ذلك؟!.

قلت لها: إنه السؤال نفسه الذى يسألنى به كثيرات من النساء.. فلست فيه الأولى يا أميرتى!.. ولكنك الأولى التى ستظفر بما لم أجرؤ على الإفضاء به إلى غيرك من حقيقة أمره!.. فأنت الوحيدة التى يجوز لى أن أتحدث إليها فى ذلك، تفسيرا للسبب الذى منع "حورمحب"، إلى اليوم، من الزواج!.. فاعملى يا سيدتى، أنه حينما جاء فى صغره، ولأول مرة، إلى هذا القصر، وقعت عيناه فيه على القمر، فبهره، وملأ قلبه. وسلب لبه، ولم تستطع الأحداث، ولا طول الزمن، أن تحد من افتتانه به، وتدلهه فيه، وكان هذا هو الذى صرفه عن النظر إلى أية امرأة أخرى، وهكذا - حتى الآن - لم تظهر فى حياته المرأة التى يراها خليقة بأن تكون زوجته، فذلك سره، ويبقى منه أنك أنت يا "باكيت أمون" قد نموت نموا جعل القمر فى عينى "حورمحب" أشد جمالا وأبهى ضياء!. وقد لا أحتاج فى موقفى الساعة إلى شىء هو أكثر أهمية من معرفة رأيك وإستيضاح شعورك!.. ولا شك فى أنك توافقيننى على أنه من غير الطبيعى أن تبلغ الشجرة غاية ازهارها ثم لا تثمر .. وأحسبك قد فهمت ما أعنى؟! والحق أنه ليسعدنى - كطبيب - أن أرى بطنك يستدير بالجنين الذى ينبغى أن يكون ثمرة الشجرة التى بلغت غايتها من الازدهار!..

ولكنها دفعت رأسها إلى الخلف استكبارا وقالت: إن ثمت أمرا كان يجب أن تذكره جيدا قبل أن توجه إلى هذا الحديث المراوغ، ذلك أن دمى لأنقى وأقدس من أن يختلط بأنقى دم فى "مصر"!.. وأن مكانى - كزوجة - لا ينبغى أن يكون أدنى من

مكان زوجة "فرعون"، وكان خليقا بأخى أن يتخذنى الأولى، ولو أن هذا كان قد حدث، لولدت له – بلا شك – مولودا ذكرا منذ أمد بعيد!.. أما "حورمحب" هذا، فإنى لم أكن لاتردد – لو كان الأمر بيدى – فى أن آمر بانتزاع عينيه من وجهه جزاء اجترائه على رفعهما إلى القمر فى مكانه الأسنى!.. على إنى، فى الواقع، أشعر بالاشمئزاز والتقزز لمجرد التفكير فى الرجال، وفى تلك العلاقات البغيضة بينهم وبين النساء!.. إن ما فيهم من خشونة ملمس، وصلابة عضل، يهبط بهم إلى مرتبة الحيوانات المفترسة، ولا تطيق المرأة الرقيقة ؟ أن تحيا فى أحضان رجل له من هذه الحيوانات شبه قليل أو كثير!.. هذا إلى إنى أعتقد أن المتعة التى ينالها النساء من الرجال مبالغ فيها كثيرا، ولا تساوى ذلك الثمن الغالى الذى تدفعه المرأة من حريتها ونضارتها!..

وبنظرتى الفاحصة، فطنت إلى أن "باكيت آمون" تتكلف رأيها هذا تكلفا، وتخفى فيه رغبتها كامرأة، فقد كانت عيناها تبرقان بريق الغريزة المكتومة، وكانت القوة تخونها فى مغالبة زفراتها، فقلت لها: لقد رأيت صديقى "حورمحب" يشد عضلاته فتتحطم على الفور الحلقة النحاسية القوية الملتفة حول ذراعه، وهو يمتاز بين الرجال بدقة البدن ورشاقته، واتساق ضواحيه ووثاقة تركيبه، حتى إنه إذا ما دق بقبضة يده على صدره، فى ساعة غضب، سمع له رنين الطبل المشدود ولهذا فنساء البلاط يلاحقنه ملاحقة القطط للطعام الدسم، وهو يستطيع أن يظفر منهن بكل ما يريد، إذا استجاب إلى ندائهن الأنثوى الصارخ!.

فاختلجت شفتا "باكيت آمون"، وحال لون طلائهما، وصاحت فى حنق: سنوحى!.. إن كلماتك غير محببة إلى نفسى، ولا أدرى لماذا تضايقنى بهذا الحديث عن "حورمحب" ذلك الوضيع الأصل، التافه المنبت، الذى يثير اسمه غضبى وسخطى؟! وفيم اختيارك لهذا الحديث فى لحظة الموت الرهيب؟!..

ولم أشأ إن أقول لها إنها هى التى بدأت الحديث عن "حورمحب"، ولكنى قلت لها متظاهرا بالندم: معذرة يا "باكيت آمون"، ولتبقى – كما تشائين – شجرة يانعة، من غير ثمر، فإن جسدك أقوى من أن تنال السنون من نضارته، بل إنى لأتسلف له على

كرور الأيام مزيدا من الفتنة والجمال!.. ولكن خبريني: أليست لأمك وصيفة كانت منها بموضع الثقة، تأتى الآن لتنوح بجانب فراش موتها؟! لا بد من نائحة تبكى عليها إلى أن يصل الرجال الذين يحملونها إلى "دار الموت"، حتى لقد فكرت أنا فى أن أبكى لأملأ هذا الفراغ، ولكن ذلك ليس ممكنا؛ لأننى طبيب، وقد جفت عيناى لتعودهما منظر الموت!.. والحق إنها لعادة تفرضها العواطف لساعتها، ولكنها تتلاشى عندما يطل العقل عليها بتأملاته البعيدة، فما الحياة إلا اليوم القائظ الشديد الحرارة، وما الموت إلا المساء اللطيف النسمات... نعم يا أميرتى، إن الحياة هى الشاطىء الضحل، أما الموت فإنه البحر الزاخر بالماء والصفاء!..

قالت: دع حديث الموت يا "سنوحى"، فالحياة محببة إلى نفسى، وحقا إنه لمعيب ألا يوجد أحد يبكى أمى وينوح عليها بجانب فراشها، ولست بمستطيعة أن أبكى، فهذا لا يوائم مركزى، وإنى لمرسلة إليك امرأة من نساء البلاط، تشاركك القيام بها الواجب!..

قلت لها، متفكها: لقد أثارنى جمالك يا "باكيت آمون"، وترك حديثك فى نفسى أثرا جميلا فأرجو أن تبعثى إلى بامرأة عجوز هرمة، لا تشتهيها النفس ولا ينصرف إليها الهوى، لأظل سعيدا بمتعة هذا الجمال الرائع!..

قالت لى مؤنبة: يا سنوحى!.. يا سنوحى!.. ألا تخجل من هذا الذى تقوله؟! فإذا كنت لا تخشى الإلهة كما يقال عنك، فلا أقل من أن تصانع الموت بشىء من الرهبة والوقار!..

ولكنها، كسائر النساء، انصرفت غير غاضبة!..

وجاءت بعد قليل المرأة النائحة... وكانت - كما رجوت - عجوزا شمطاء، اسمها "ميهونفر"، وما أردتها كذلك إلا عن قصد أهدف إليه، فإن أسرار القصر، لزمن بعيد، لا يعيها وعيا دقيقا إلا عجائز حريمه، وكنت أعلم أن زوجات "فرعون" السابق ما زلن

أحياء، وهن يعشن بالبيت الذهبى كما يعيش به زوجات فرعون "إخناتون" ووصيفات الأميرات الصغيرات!..

وأخذت المرأة العجوز تؤدى دورها بالبكاء والنحيب وشد الشعر وتمزيق الملابس. وقد أدركت من نظرتى الفاحصة لوجهها أنها من اللواتى لا تنطفىء عندهن شهوة الخمر والرجال!.. فأسرعت إلى احضار النبيذ، وعرضت عليها شيئا منه، فلم ترفضه، وراحت تحتسيه في غير احتشام بعد أن قضت بعض الوقت فى البكاء المصطنع، وبعد أن أكدت لها، بوصفى طبيبا، أن النبيذ يعينها على تأدية دورها بمهارة تكسبها الشهرة والثناء!..

وفى مداهنة محكمة، رحت أتحدث عما يتجلى من آثار جمالها، زاعما لها أن بقايا هذا الجمال تفوق اليوم جمال الكثيرات فى شرخ شبابهن، وتدرجت من ذلك إلى الكلام عن الأطفال وبنات فرعون "إخناتون"، وبلهجة ساذجة سألتها: أصحيح أن الملكة "تايا" كانت الوحيدة من زوجات فرعون "أمنحوتب الثالث" التى ولدت له ولدا ذكرا؟!..

فهزت "ميهو نفر" رأسها، مشيرة إلى أن أمسك عن الكلام، وقد تعلق نظرها - فى خوف - بجسد الملكة "تايا" المسجى فى فراش الموت!..

فتركت هذا الحديث، وعدت إلى مداهنتها، متحدثا مرة أخرى عن جمالها، وشعرها الناعم اللطيف، وملابسها الأنيقة الفاخرة، ومجوهراتها الثمينة الغالية، معبرا بكلمات شعرية مؤثرة عن إعجابى بشفتيها وعينيها! وقد استطعت آخر الأمر أن أبلغ منها ما أردت بهذه العواطف الزائفة، فلانت ونسيت بكاءها، وانصرفت بكل حواسها إلى سماع كلماتى، كأنها تسمع لحنا مشجيا، وكذلك شأن النساء، يفرهن دائما الثناء!.. وأشدهن شوقا إليه، وتفتحا له، وأكثرهن تصديقا بما فيه من أكاذيب، هؤلاء المتقدمات فى السن، العاريات من الجمال!.. وكانت "ميهو نفر" واحدة منهن، فصدقتنى وانعقدت بيننا، سريعا، أواصر الصداقة العزيزة .

وجاء الحمالون من "دار الموت"، فحملوا جثة الملكة الوالدة وذهبوا بها إلى هناك.

ولم تشأ "ميهو نفر" إن نفترق، فدعتنى إلى حجرتها، وأخذنا نصب فيها من شراب النبيذ، وشيئا فشيئا إنحلت عقدة لسانها، فمالت على متحسسة وجهى بيدها، وراحت تصفنى بالصبى الجميل، وتسرد على مسمى وقائع شائنة وتصرفات فاجرة، قالت إنها حدثت بالبيت الملكى... وكانت، وهى ترويها، تندمج فيها وتدور معها كأنها جزء منها، وتضفى عليها من حركاتها المبتذلة ألوانا من الإغراء تثير بها عواطفى نحوها. وكان يشتد عندها وخز الشهوة، فتأخذ فى ملاصقتى ومعابثتى!.. ولكنى فى غمار شعورها الملتهب، قلت لها: لقد كانت الملكة "تايا" تجيد جدل أعواد الغاب، وتحذق تضفيرها كأحسن ما يصنع صائدو الطيور... فهلا علمت، وأنت رفيقتها الأثيرة، أنها صنعت بيديها قوارب صغيرة من الغاب وألقت بها إلى النهر، ليذهب بها تيار المياه بعيدا عن الشاطىء؟!

وأثار هذا دهشتها، وقالت: هذا صحيح، ولكن كيف جاءك العلم به، وهو الخفى الذى قلما يعلمه أقرب الناس إليها؟!..

وكان النبيذ قد لعب برأسها، فراحت تصور نفسها لى صورة السيدة ذات المكانة العالية فى القصر، قائلة: وما أراك تعرف أكثر من هذا!.. ولكنى أنا أعلم الكثير، الذى لا يعلمه سواى... إن الملكة "تايا" قد صنعت القوارب الصغيرة من الغاب، وألقت بها فى النهر، ولكنها لم تكن تفعل ذلك لاهية، كما لم تكن تدفع بها فى النهر ، فارغة!. إن ثلاثة من أبناء "فرعون" الذكور قد وضعوا على هذه القوارب، فور ميلادهم، فاندفعت بهم فى مضطرب الأمواج والأعاصير، إلى حيث لا يعلم مصيرهم أحد!.. هكذا شاءت الملكة "تايا" أن تفعل بهم؛ لأنهم جاءوا من زوجات "فرعون" الأخريات، وهى تأبى إلا أن تكون وحدها أم ولده وولى عهده!.. وكان من اليسير عليها أن تقضى عليهم بطريقة أخرى، فلا تدعهم أحياء، ولكنها وقتئذ كانت تخشى الآلهة، ولا تأمن لعنتها إن هى سفكت دما أو أزهقت روحا، فكانت تقنع بإخفائهم على هذه الصورة، مطمئنة إلى أنهم لو قدر لهم أن يعيشوا، فلن يستطيع أحد أن يعرف نسبتهم إلى "فرعون"، ولن يكونوا فى الحياة أكثر من لقطاء منبوذين، وأبناء فقراء مجهولين!.. غير أن "آى"، بعد

أن استوثق مكانه بالقصر، واتصلت أسبابه بالملكة، علمها كيف تستعمل السم فى تحقيق أغراضها، وأزاح عنها ما كان يركبها من الخوف فى هذا السبيل، وكان من نتائج ذلك أن ماتت الأميرة "تادو كيبا" أميرة "ميتانى"، وهى لما تزل فى غمرات الأسى والحزن والبكاء على ابنها الذى فقدته، ولا تعرف مكانه، وكانت تحاول الهرب من القصر لتبحث بنفسها عنه!..

فقلت لها - فى مكر - وأنا أتحسس خديها مداعبا: أكبر ظنى أنك تتخذين من جهلى بما فى هذا القصر. وبما تلحظين من قلة تجاربى، ملهاة وتسلية، فتملئين رأسى بهذه الأقاصيص الغريبة التى تروعين بها أفكارى؟! وإلا فما هذا الذى تقولينه عن أميرة "ميتانى"؟! إنها على ما أعلم ويعلم الناس قاطبة، لم تلد ابنا لفرعون؟! فإن كان حقا ما تقولينه. فاخبرينى متى حدث هذا؟!..

قالت: لست، كما تدعى، جاهلا ولا قليل تجربة، يا سنوحى!.. وما يغيب عنى وأنت تجالسنى مجالسة الخبير بطبيعة النساء، أنك الفطن الواسع الحيلة!.. وقد أكثرت من إطرائى ومدحى، وتحسبنى مصدقتك فى هذا!.. على إنى مع ذلك لا أضيق بأكاذيبك، وأشعر فيها بلذة، ولا أرى ثم مانعا يمنعنى من الاستجابة إلى رغبتك فى الإحاطة بسر أميرة "ميتانى"، فاعلم - إذن - يا سنوحى، أن هذه الأميرة كانت طفلة صغيرة عندما دخلت فى عداد نساء فرعون "أمنحوتب الثالث"، وكانت طوال طفولتها تتلهى بلعب الأطفال، إلى أن نمت وترعرعت، تماما كما كانت حال تلك الأميرة الأخرى التى تزوجت "إخناتون"، ثم عانت كذلك!.. ولم يكن فرعون "أمنحوتب الثالث" يعاشر هذه الطفلة كما يعاشر الرجل المرأة، بل كان يحنو عليها حنوه على الأطفال، ويحبها حبه لهم، ويلاعبها ملاعبة الوالد لابنته، ويهدى إليها لعبا من الذهب... ولكنها كبرت ونضجت نضوج الثمرة الشهية. فما أن بلغت الرابعة عشرة من عمرها حتى استدارت أطرافها، واكتملت أنوثتها، وتنضر وجهها بالجمال المشرق الذى عرفت به نساء "ميتانى" إلى ما كان فى عينها من سحر حالم!.. وعندئذ عاشرها "فرعون" معاشرة الأزواج، واختصها بأكثر مما كان يوليه نساء القصر، فلم يكن يغادر فراشها إلا

نادرا ، على الرغم مما كانت تحكيه الملكة "تايا" من مؤامرات لإقصائه عنها؟!.. وفى وقت واحد بدأت تظهر على الاثنتين، أميرة "ميتانى" والملكة "تايا"، علامات الحمل، وقد فرحت الملكة "تايا" بحملها فرحا شديدا. لأنها إلى ذلك الحين لم تكن ولدت لفرعون سوى ابنتها "باكيت أمون"، هذه الفتاة المتغطرسة!..

وهنا تناولت "ميهو نفر" كأسا من النبيذ، وتوقفت قليلا، كما لو كانت تراجع ذكرياتها البعيدة، ثم استرسلت قائلة: غير أن "تايا" كانت خلال ذلك تعانى أشد الآلام وتسيطر عليها أقصى مشاعر الحقد والكراهية لهذه الزوجة الأخرى التى تحمل مثل حملها، وقد حاولت جاهدة أن تجهض "تادو كيبا" كما فعلت بكثيرات غيرها من سيدات القصر، مستعينة فى محاولتها هذه بزنوجها السحرة، بيد أنها فشلت، وكان ذلك يضنيها ويشقيها، فما تعودت أن تفشل، ولكنها لم تيأس، فقد حدث، قبل ذلك ببضع سنين، أن ولدت امرأتان من نساء "فرعون" طفلين، فاستطاعت أن تخفيهما، وتدفع بهما إلى النهر على قاربين من الغاب، ومن الممكن أن تفعل مثل ذلك إذا ما ولدت أميرة "ميتانى" ولدا!.. ولكن الملكة "تايا" كانت تخشى ألا يتحقق لها هذا، فقد كانت المرأتان، والدتا الطفلين اللذين تخلصت منهما، أسهل منالا من أميرة "ميتانى"، إذ كانت كل واحدة منهما لا تبدى شيئا من السخط والاعتراض إذا وجدت فى فراش المولود بنتا مكان الابن!.. ودائما كانت الملكة "تايا" تشغلهما عن ذلك بالهدايا التى تزجيها إليهما فى سخاء، وليست هكذا حال أميرة "ميتانى"!.. إنها تعتز بنفسها اعتزازا كبيرا، وتبدو عنيدة شديدة البأس، فالدم الملكى يجرى فى عروقها، على خلاف الأخريات، ثم إن لها مكانها الأعز من نفس "فرعون"، عدا أن لها أصدقاء كثيرين ذوى نفوذ كبير، وكانت هى بدورها ترجو أن تلد طفلها ذكرا لتزداد قربا من قلب "فرعون"، ولتصبح لزوجته الأولى مكانا من عرشه، ومعنى هذا أنها تنافس "تايا" على مكانها منه، وذلك هو الذى يتفاعل فى نفس "تايا" ويقض مضجعها ويزعجها أيما إزعاج. وكلما كبر الجنين فى بطن أميرة "ميتانى"، ساء طبع "تايا" وشرست أخلاقها، وأصبح جميع من فى القصر يرهبونها ويخشون شرها، خاصة بعد أن رأوا إلى جانبها

الكاهن "آي" الذى استقدمته من مدينة "هليوبوليس"، فقد كان يشد من أزرها، ويمكن لها من النفوذ والسيطرة... فلما حان موعد الولادة، أخذ هذا الكاهن فى التمهيد لتحقيق أغراضها، فاقصى أصدقاء أميرة "ميتانى" بعيدا عنها، واستبدل بهم فى أماكنهم الزنوج السحرة، وقد أحاط هؤلاء بالأميرة، وزعموا لها أنهم فى خدمتها ليخففوا عنها آلام الولادة!.. ولكنها بعد أن أفاقت من غيبوبة المخاض رغبت فى أن ترى ولدها، فقدموا إليها بنتا لا حراك بها، فقد كانت فارقت الحياة قبل ذلك، فهالها هذا الأمر وروعها ترويعا قاسيا، وصرخت في وجوههم، منكرة إنها ولدت هذه البنت الميتة، وعبثا حاولوا إقناعها أنها ابنتها!.. لقد أصرت على أنهم كاذبون، وكانت على حق، فإنى أنا "ميهو نفر" أعلم عن يقين، أن أميرة "ميتانى" ولدت ابنا ذكرا، مكتمل عناصر الحياة، ولكنه انتزع فى غفلة المخاض، ووضع حيا، فى الليلة نفسها، بقارب من الغاب، على صفحة مياه النيل!..

قلت لها، وأنا أفتعل ضحكة عالية: العجيب فى هذا أنك تروينه كما لو كان سرا لا يعلمه أحد سواك، فكيف كان انفرادك به دون الآخرين؟!..

فانتفضت وهى تشرب النبيذ، وقالت: بحق الإلهة، إننى لصادقة... فقد كنت أنا التى جمعت فروع الغاب بأمر الملكة "تايا"، ومن هذه الفروع صنعت الملكة القارب الذى ألقى الطفل فيه!..

فوثبت من مكانى منفعلا، وأفرغت قدح النبيذ على الأرض، وحطمت القدح نفسه بقدمى فى اشمئزاز واحتقار!..

وأمسكت "ميهو نفر" بيدى واجتذبتنى إليها، وقالت: إنه سر كان لا ينبغى أن أفشيه لك، ولكنك استدرجتنى إلى إفشائه بما فيك من قوة خفية سلبتنى إرادتى وما يعنينى، بعد، رأيك فى موقفى من هذا الحادث، فإنما هى الحقيقة، أذكرها كما حدثت، وليكن ما يكون... نعم يا سنوحى، إننى أنا التى جمعت أعواد الغاب بنفسى، وإن "تايا" هى التى صنعت منها قاربا بيديها، فلم يكن تركن إلى أحد من الخدم فى ذلك

لانتفاء ثقتها بهم، وكنت واقعة تحت تأثيرها، ولا أستطيع مخالفتها، ثم إنها كانت شريكتي في هذا الجرم، وهي الملكة ذات القوة والسلطان، ولم ألحظ عليها، وهي تقدم على ذلك وتدبر له، أنها تشعر بشيء من وخز الضمير، بل إنها كانت تبدو مبتهجة لقدرتها على الفوز فيما كانت تحسبه معركة قائمة بينها وبين أميرة "ميتاني"، وكان عزائي الوحيد أن طفلا حيا طافيا على وجه الماء قد يجد من يتلقفه ويحفظه ويرعاه، ولكنه كان عزاء مشوبا بالاحتمالات السيئة، فقد تشتد حرارة الشمس على الطفل فيموت، وقد تتخطفه جوارح الطير في الجو، أو تلتهمه التماسيح في الماء!.. ذلك ما كان من أمر مشاركتي للملكة "تايا" في جريمة كنت فيها مسوقة، على كره مني!.. أما ما كان من أمر أميرة "ميتاني"، فإنها كما قلت - لم تصدق دعواهم في أنها ولدت البنت الميتة التي قدموها إليها، ذلك لأنها - فوق شعورها الداخلي كأم - لا ترى في هذه البنت شبها بها، ولا علامة تدل على نسبتها إليها، فثمة اختلاف كبير صارخ بينها وبين ما تتميز به نساء "ميتاني" فإن بشرة أبدانهن في مثل بشرة الفاكهة نعومة، وازدهار لون. وكذلك رءوسهن تمتاز بالاستدارة الجميلة والدقة اللطيفة، ولا شيء من هذا، ولا قريبا من هذا، في الوليدة المزعومة!.. ولهذا أخذت الأميرة تبكي بكاء مرا، وتشد شعر رأسها مهتاجة، وتستنزل اللعنة على "تايا" وسحرتها الزنوج. ولكن "تايا" لم تفقد هدوءها، فأمرت بإعطائها مخدرا قويا، ثم أذاعت أن أميرة "ميتاني" فقدت عقلها بسبب ولادتها طفلة ميتة!.. صدق الناس ذلك، حتى "فرعون" نفسه، إذ كان هياج الأميرة المستمر، وأفكارها المبلبلة، وشروعها أكثر من مرة في مغادرة القصر للبحث عن ابنها الذي تتخيله مفقودا، كان ذلك مما يبرر تصديق "تايا" في ادعائها أن الأميرة قد جنت، ولذلك لم يصغ "فرعون" إلى ما توجهه الأميرة علنا من الشكوك والاتهامات إلى الملكة "تايا". وكان لهذا أسوأ الأثر في نفس الأميرة فذوت نضارتها، وخارت قواها، واعترتها العلل، ولم تلبث إلا قليلا حتى انتقلت إلى الحياة الأخرى!..

وفي نشوة "ميهو نفر"، وخلال غبطتها بالرفيق الذي ساقته الظروف إليها ليجدد شبابها المنصرم، راحت تنظر في يدي متأملة، ثم تقلب يديها متأملة فيهما كذلك!..

وهنا اعتكر مزاجها، لأنها كانت تلحظ فرقا كبيرا بين يدى الناعمتى الملمس، وديها المعروقتين اللتين تشبهان مخالب الحيوان العجوز!.. وخيل إليها أن هذا قد يصرفنى عنها ويزهدنى فيها، فأضطربت، ولكنى نحيت عنها هذا الخيال بالعبارات الخادعة المغرية، لتواصل الإفضاء بالقصة كاملة، وقلت لها: "ميهو نفر" يا ذات الجمال الساحر!.. أو لا تذكرين متى حدث ذلك؟!.

فأبهجها هذا. وفي شغف، أخذت تتحسس مؤخرة عنقي بيديها المتفصدتين عرقا، وقالت: أيها الصبى الجميل، لماذا يضيع الوقت بيننا فى الحديث عن أشياء طواها الماضى البعيد، ولا قيمة لها فى حاضرنا السعيد؟!.. ألا ترى أنه خير من هذا أن نجعل من ذلك الوقت، وهو يكاد يفلت من أيدينا، سبيلا إلى المتعة الحبيبة إلى الرجل والمرأة عندما يلتقيان فى مثل هذه الخلوة؟!. ومع ذلك فإنى وقد صرت طوع أمرك، لا يسعنى إلا تحقيق رغبتك فى الوقوف على ما تشاء من المعلومات عن هذه الأحداث القديمة، وإنى لأذكر أنها حدثت بعد اثنين وعشرين عاما من حكم فرعون العظيم "أمنحوتب الثالث"، وكان ذلك فى الخريف حيث كانت مياه النيل في ذروة أرتفاعها. ولا يدهشك أن أذكر هذا التاريخ محددا فإن مولد فرعون "إخناتون" كان فى الربيع التالى من السنة نفسها، وهذا تاريخ لا ينسى!..

وغشيتنى من هذا الحديث غاشية، كدت أفقد فيها وعيى تماما حتى إنى لم أشعر "بميهو نفر" وهى تترامى على فى ثورة الشهوة الجائمة، وتنهال على وجهى تقبيلا بشفتيها المبللتين بالنبيذ، وتضمنى إلى صدرها ضما وثيقا، وتناجينى مناجاة العاشق الولهان!..

لقد كان ما أفضت به هذه المرأة شيئا بالغ الخطورة، ومعناه، إذا كان صحيحا، أننى ذلك الوليد المقذوف به إلى النهر على قارب الغاب، وأن دم "فرعون" العظيم يجرى فى عروقى، وكنت بذلك أخا غير شقيق لفرعون "إخناتون"، وكان مفروضا أن أكون أنا مكانه، صاحب العرش والتاج، لإنى كنت قد ولدت قبله، وكانت أمى الأميرة

أثر عند "فرعون" من أمه، ولكنها الملكة "تايا" الطامعة الحاقدة، قد حالت دون ذلك، ولم تعف في هذا السبيل عن ارتكاب أشنع جريمة!..

وأدركت من هذا سر شعوري بالوحدة الدائمة بين الناس، فإن للدم حكمه الطبيعي في مثل هذه الحال.

واستغرقتني هذه الأفكار القاسية إلى أن أفقت على الحركات المريبة التي كانت "ميهو نفر" مسترسلة فيها معي، وكانت إذ ذاك تحتويني جملة بين ذراعيها، فانتابني منها ما يشبه الغثيان، ودافعتها في عسر شديد، ورحت أغريها بالنبيذ ولكنها كانت قد بشمت فلم تعد تحتمل منه مزيدا، ورأيت أن أضع لذلك حدا، فمزجت كأسها بقطرات من عصير الخشخاش، وما كاد الشراب يستقر في جوفها حتى أسلمها إلى نوم عميق!.

وغادرت من فوري جناح نساء القصر. وكان حرس القصر وخدمه يشيعونني بضحكاتهم وغمزاتهم، فقد كنت أخطر بينهم متمايلا لفرط ما أصابني من اضطراب الأعصاب وشراب النبيذ، وكانت ملابسي كذلك قد تشعثت على صورة تلفت الأنظار!..

وكان الليل قد أرخى سدوله عندما عدت إلى منزلي، وهناك كانت "ميرييت" ترقب عودتي في قلق لطول غيابي، ذلك إلى أنها كانت متلهفة على معرفة الأنباء المفصلة لوفاة الملكة "تايا"، ولكنها ما أن رأتني حتى امتقع لونها ورفعت يدها إلى فمها في دهشة عريضة. وكذلك كانت حال "ميوتي"، وقد أخذت كل منهما تنظر إلى الأخرى في استنكار؟! وقالت « ميوتي » مخاطبة « ميريت » في مرارة : ألم أقل لك ألف مرة ، إن كل الرجال سواء في فساد الطباع وسوء السلوك ؟!

وكنت أريد أن أخلو إلى نفسي وأفكاري، فقلت لهما غاضبا: لقد قضيت يوما حافلا بالمتاعب، ويعتريني الآن إجهاد شديد، فلا أطيق أن أسمع ثرثرة أو أرى مثل هذه الحركات السخيفة!..

فضاقت عينا "ميرييت"، وعلت وجهها الكآبة، وجاءت بمرآة فضية فوضعتها أمام وجهي وقالت: ماذا ترى من نفسك يا سنوحي؟!، انظر جيدا، فما أحسب عينك تخدعك أو تكذب عليك!.. وإنك لحر في الاستمتاع بمن يحلو لك الاستمتاع بهن من النساء، فما أنا بمانعتك عن ذلك، ولكني لم أكن أتصور أن تبعد عني ساعات من نهار لتعود هكذا حاملا على وجهك آثارا ناطقة من العبث كأنها السهام المسمومة المصوبة إلى كرامتي؟!.. هذا كثير لا يحتمل!..

وروعني منظر وجهي بالمرآة!.. لقد كان منظرا مثيرا حقا.. فهذه المرأة "ميهو نفر" قد أشاعت فيه أخلاطا من اللون الأحمر الذي كانت تموه به شفتيها!.. إنها كانت تسرف في ضمي وتقبيلي، وذلك هو الدليل الذي يفضح سرها، ويشي بما كان ينبغي أن يظل خافيا من أمري معها!..

وأسرعت، في خجل، إلى مسح وجهي وغسله بالزيت المعطر، وقلت في خجل كذلك: لا شيء مما تبادر إلى ذهنك يا عزيزتي "ميرييت"!. إن الموقف ينطوي على حقيقة أخرى غامضة لا تحتمل سوء الظن!.. فدعيني أشرح لك!..

قالت "ميرييت" ببرود: لا حاجة لي إلى شرح يا سنوحي!.. لا أحب أن تلوث مخك بتلفيق الأكاذيب من أجلي، إن وجهك قد أغنانا، كلينا، عن هذا العناء!..

ومضى وقت طويل دون أن أستطيع إقناع "ميرييت" بأنه ليس في الأمر ما يريب. وكانت "ميوتي" في هذه الأثناء تبكي أشد البكاء، راثية لحال "ميرييت" التي كان يجب أن تكون مثلها حذرة من الرجال سيئة الظن بهم، ثم تركتنا ذاهبة إلى المطبخ وهي تصب لعنتها على جميع الرجال!..

وتابعت حديثي إلى "ميرييت"، محاولا تهدئة أعصابها الثائرة، قلت لها: إنها لقسوة منك ألا تصدقيني!.. لقد كنت أومن بأنه لا أحد سواك يعرفني مثلما أعرف نفسي، وكان ينبغي أن تثقي بي، فلا يأخذنك العناد فيما ليس من الحق في شيء، ولست في حل من أن أذكر لك ما لقيت هناك بالبيت الذهبي!.. إنه سر لا أملك الكشف عنه، ومن الخير لك أن تجهليه!..

قالت لى فى حدة لسان، كأنها وخزات الزنابير: نعم. أعرفك كما لم يعرفك أحد غيرى!.. وكنت أشعر أن فى أخلاقك عيوبا، وهذا الذى حدث اليوم رشح منها!.. وما أطالبك بكشف سر السيدة التى قضيت معها الساعات الهانئة، بالقصر الذهبى، فما أنا بالتي تدس أنفها فيما لا يعنيها!.. وليس الذى بيني وبينك بأكثر من علاقات عجلى يفرضها الفراغ!.. وشكرا للآلهة إذ ألهمتنى الحكمة حين أبيت أن أكسر الجدة بينى وبينك!.. فكلانا حر يفعل لنفسه ما يشاء!.. حقا ما كان أكثر غبائى عندما كنت أستمع - مصدقة - لتلك الكلمات الكواذب التى كنت ترددها على أذنى ترديد الأغنيات، مصورا بها حبك إلى وهيامك بى!.. كان هذا شأنك معى، ولم تكن صادقا!.. وأغلب ظنى أن هذا كان شأنك نفسه مع تلك الغادة الجميلة التى خدعتها أيضا بأغنيات الحب المزعوم!..

وفى حسرة وأسى، أردفت قائلة: ليتنى مت قبل أن أراك!..

ودنوت منها لأربت بيدى على صدرها، مخففا من حدتها وثورة نفسها، ولكنها تراجعت صائحة: إليك عني!.. فما حاجتك إلي؟!. ألست متعبا؟! إن وسائد القصر الوثيرة أجدر أن تكون فراش المتعبين؟!.. ولا شيء منها عندى، وأنت غير غريب عليها، فقد كنت منذ قليل تتقلب عليها!.. وهناك كثيرات أوفر مني شبابا وجمالا!..

بهذا الأسلوب اللاذع كانت تؤنبنى وتهيج آلامى، ثم خرجت ثائرة دون أن تسمح لى بمرافقتها إلى حانة "ذنب التمساح". وقد ضاعف هذا فى ألمى، ولكننى كنت قد بلغت من اضطرب الأفكار وثوران الأعصاب، حدا لا يطاق احتماله، وشعرت بالحاجة الملحة إلى الخلوة، وتنفس فيها من هذا الضيق الجاثم!..

ودخلت في وحدتي مؤرق الجفن.. كانت أطرافي، بعد أن زال أثر النبيذ، ترتعش من البرد، فتذكرت "ميرييت"، وأسيت على فراشها الذى كنت أجد فيه دفئي، وران السكون على كل شيء حولى إلا من صوت نقط الماء تتساقط رفيقة، رتيبة، فى ساعة الزمن المائية!.. وبها وحدها، عرفت أن الوقت يمر متتابع الخطو غير حافل بالقلوب الواجفة والعيون المسهدة!..

وفى هذه الخلوة الغامرة، حدثت نفسى قائلا: إنى أنا سنوحى، ذلك الإنسان الذى صنع نفسه بيده!.. إن أعمال الإنسان وحدها هى التى تخلق وجوده، وتنشى حياته، وليس هناك شيء آخر يزون معها!.. وأنا، كذلك، سنوحى الذى قارف الإثم، ومن أجل امرأة مستهترة، عق أبويه وكرثهما بما لا قبل لهما به من أحداث الزمان، فماتا فى ذل الفاقة وعار الحرمان!.. وأنا "سنوحى" الذى جاب الأقطار، وخفق قلبه بالحب الطاهر للفتاة التى زفت إلى الموت الشنيع، وهى تعتقد أنها قد زفت إلى الإله المقدس!.. إنها "مينيا"، تلك التى لا أنساها أبد الدهر، والتى لا أزال محتفظا بالشريط الفضى الذى كانت تزين به شعرها!.. أنا "سنوحى"... قد بلوت الحياة صنوفا من حلو ومر، فهل كان الدم الملكى، الذى يجرى فى عروقى، يستطيع أن يوجهنى وجهة أخرى؟! أو أن يحول بينى وبين شيء مما وقع؟! إنه، كأى دم فى الوجود، لا ينطوى على قدرة خاصة، ولا ينفرد بقوة مميزة، وإلى أرى ثمة حقيقة تلتقى فيها جميع العقول والأفكار كحقيقة القدر، تنبئ به النجوم وحدها!.. وقد شاء القدر أن أبعث إلى هذا العالم، وأن أكون فيه غريبا، والغربة معناها الشقاء!.. ولقد عشت، خلال إقامتى فى "أخيت أتون"، مأخوذا بفكرة السلام التى تملأ رأس "فرعون"، ولكن ما أسرع أن تبددت هذه الفكرة من خاطرى، فأصبحت أعتقد أن الناس هناك إنما يعيشون من هذا السلام فى حلم لا وجود له فى دنيا الحقيقة!.. وكان الذى سمعته أخيرا من "ميهو نفر" كافيا لأن يهز قلبى هزا عنيفا، ويردنى إلى ما شاء القدر أن أحيا فيه... إلى الوحدة، أعنى الشقاء!.

على تلك الحال، من شرود الفكر وهواجسه، قضيت ليلى وحيدا!..

وما زالت هذه الأفكار والخواطر تستغرقنى إلى أن تنفس الصبح، وبزغت الشمس، فأحسست فى ضوء النهار بهدوء الخارج من معركة مجهدة!.. وكان لا مناص لى من التماس هذا الهدوء، والسكون إليه، وإلا قتلنى القلق المضنى الذى ظل آخذا بخناقى طوال يوم وليلة!.. ورحت أسترجع نفسى بكل ما يمكن أن يرد على الفكر، فى هذه الحال من تعلات!.. فلماذا أذهب بعيدا مع هذا القارب الذى تحدثت

عنه عجوز القصر "ميهو نفر"؟! إن قوارب كثيرة على مثاله تجرى فى النهر حاملة - بليل - أطفالا كثارا يراد التخلص منهم، وليس من بينهم ابن ملك أو ابن أميرة!. فلم لا أكون واحدا منهم؟. وهل يكفى بياض لون بشرتى ليكون دليلا على إنى ذلك الطفل الذى قذفت به الملكة "تايا" إلى الماء؟! إلى طبيب، وكأى طبيب آخر، قضيت كل أوقات حياتي في ظلال الحجرات وتحت أسقفها بمنأى من لفح الشمس، فبياض لونى ظاهرة لا ينفرد بها أبناء الفراعين وسلائل الملوك!..

وبهذه تخففت من عذاب التفكير، ونهضت هادئا فاغتسلت وارتديت ملابسى وتناولت الطعام الذى أعدته "ميوتى"، وكانت عيناها محمرتين كما لو كانتا مخضبتين بالدم لفرط ما عانت من البكاء!.. وكانت لا تبرح تنظر نحوى نظرات تنم عن ازدياد احتقارها للرجال لسوء سلوكهم!..

واستأجرت محفة ذهبت عليها إلى "دار الحياة". وهناك تفحصت عددا من المرضى، وطببت لهم وأخذت بعد ذلك أطوف بالمعبد المهجور الذى كانت تهوم فيه مجموعة من الغربان!.. وسنح، على مقربة منى، طير من الطيور المائية متجها نحو معبد "آتون"، فمضيت فى أثره حتى انتهيت إلى داخل المعبد، ورأيت به كثيرين من الناس يستمعون إلى التراتيل رافعين أيديهم بالدعاء، منصتين إلى الكهنة وهم يشرحون لهم دين "فرعون"، ويبشرون له عندهم بالمقالة المؤثرة والعبارة الخالبة!.. ولكن كثرة الناس وما يلوح عليهم من الانصالات العميق، لم يكن فى نظرى وقتئذ آية من آيات الإيمان بدين "فرعون"، إنما كان مظهرا من مظاهر الفضول الذى يحفز الناس دائما إلى استطلاع كل جديد!.. وهؤلاء المتجمعون، على ما يبدو من كثرتهم بالمعبد، ليسوا إلا قلة قليلة بالقياس إلى "طيبة"، تلك المدينة الكبيرة الحاشدة بالناس، والحاشدة كذلك بمن لا يؤمنون بإله "إخناتون" ودينه!.. وللمرة الثانية رأيت النقوش على جدران المعبد، ورأيت فرعون "إخناتون"، مطلا علينا بوجهه ونظراته على رأس الأربعين عامودا التى أقيم له على كل منها تمثال!.. وكانت سمات الإيمان الصادق تبدو مشرقة على وجهه. وغير بعيد منه، رأيت تمثال "أمنحوتب" جالسا فوق عرشه

على هيئة العجوز المتداعي الذى ينوء بثقل التاج المزدوج على رأسه، وإلى جوار "أمنحوتب" رأيت تمثال الملكة "تايا" وتمثال الأميرة "تادوكيبا" أميرة "ميتانى"، وهى تقدم القرابيين للإله "آتون"، وقد وقفت أمام صورتها بعض الوقت متأملا، وقد لفت نظرى أن كلمة "آتون" مستحدثة فى التمثال، فهذا الإله لم يكن يعبد فى حياتها، ولكنهم فى معبده الجديد قد محوا ما عداه من أسماء الإلهة وأثبتوا اسمه مكانها. وقد تجلت الأميرة فى تمثالها سيدة جميلة، أقرب إلى أن تكون فتاة، منها امرأة فياضة الأنوثة. وكان رأسها الصغير، تحت غطاء الرأس الملكى، يبدو أكثر جمالا، وكذلك كانت أجزاء جسمها، رقة واستدارة، ورشاقة تكوين، وهنا ذكرت مصير هذه الفتاة الوحيدة فى بلاد غريبة!.. وكدت أبكى حزنا عليها. وبدافع من داخل النفس حدقت فيها طويلاً وتقابلت فى خاطرى صورتى وصورتها وألحت على ذهنى من جديد فكرة انتسابى بالبنوة إليها، ولكنى عدت أجاهد هذه الفكرة وأدافعها، لوضوح الفارق الكبير بيننا، فكيف تكون هذه الأميرة الصغيرة الوافرة الجمال، أما لى، أنا الذى ثقلت أطرافه، واسترخت وثاقته، وصلع رأسه، ومشى التجعيد فى وجهه؟!.. هذا بعيد، أو ينبغى أن يكون بعيدا.. فما جدوى التعلق بأفكار يعتريها الشك فى أكثر نواحيها؟! ولكنى مع ذلك كنت أشعر بالكثير من الحنين إليها، ولعله كان حنين ذكرى "ميتانى" وما رأيت فيها، خلال رحلتى من دور فخمة وحياة رغدة مما يلذ لى تذكره، ورجعة الفكر إليه!.. فإنما يرجعنى الفكر، به، إلى الشباب الخصب الذى ولى، وإلى الحيوية النابضة التى زالت عنى فى "أخيت آتون"!.

وانقضى يومى فى مثل هذه الخواطر، تلم وتمضى، وتغدو وتروح، حتى أقبل المساء، فذهبت إلى حانة "ذنب التمساح" لأصالح "ميرييت"، وأهدهد نفسها الغضبى، وأستعيد قلبها النافر!.. ولكنها استقبلتنى متراخية، ولم تعطنى من وجهها أكثر مما تعطى أى رائد غريب!. ولم أشأ التعجل فى اقتحام عواطفها، فطلبت منها طعاما، فجاءتنى به ورحت أتناوله فى صمت، وهى ترقبنى شزرا، حتى إذا فرغت من تناوله، دنت منى وقالت بلهجة المغيظ: كنت هناك.. فى أحضان خليلتك، ومع ذلك تجيئنا جائعا، لتأكل!..

قل لها في شيء من الضيق: تخطئين كثيرا، يا "ميرييت"، إذ تحسبينني أضيع وقتي في تعقب النساء، أو السعي إلى أحضانهن!.. هذا هراء، يجب أن تكفي عنه، كما يجب أن تفهمي جيدا أنني رجل مسئول أؤدي أعمالا هامة!...

ثم أخذت أذكر لها زيارتي لمعبد "آتون" وأعدد لها، في حساب دقيق، تحركاتي وخطواتي، من أول النهار إلى آخره. وكنت أتخيل إني قد أزحت عن صدرها كابوس الشك من ناحيتي، ولكنها علقت على ذلك بقولها ساخرة: إني مصدقتك!.. فلم يكن باستطاعتك أن تكرر الفعل نفسه في هذا اليوم!.. لقد كان الأمس يوما متعبا، أجهدك واستنفد الصبابة الباقية في بدنك المتزايل، ولكني إنما ذكرت خليلتك، لأنها جاءت إلى هنا، باحثة عنك، فأرشدتها إلى مكانك في "دار الحياة"!..

فانتفضت من مكاني، وقفزت منه فزعا، فانقلب المقعد، وصحت قائلا: أيتها المجنونة!. ماذا تقولين؟!.

وقالت في ابتسام وخبث مرة أخرى، أقول لك: لقد جاءت إلى هنا، باحثة عنك!.. كانت في أبهى زينة وأجمل ثياب وأثمن حلي، وكان عبير العطر الذي أغدقته على نفسها يفوح قويا وينفذ إلى بعيد، إلى أبعد من النهر!.. ولكن وجهها، والحق يقال، لم يكن أكثر من وجه القرد جمالا!.. ولا أدري لماذا كان ذلك، في حين أن اليد الصناع قد ملأته طلاء؟! إنها حملتني إليك هذا الخطاب، فخذه!... وهو، كما تسلمته منها، مختوم، فلا علم لي بما فيه!.. ولكن لهفتها عليك وحرصها على لقائك، وانفعالات وجهها المعبرة، كانت كتابا مفتوحا، أكثر من ذلك الكتاب المغلق إبانة ووضوحا!.. وليس يعنيني هذا في كثير، ولكن الذي يعنيني هو ألا تعود هذه المرأة على الحانة مرة أخرى.. إن الحانة ذات سمعة حسنة، وامرأتك هذه، كما يبدو عليها، سيئة الخلق!..

وفتحت الخطاب بيد مرتعشة، وشعرت في تلاوته بالدم يصعد إلى رأسي ملتهبا، وبقلبي يدق بين ضلوعي دقا عنيفا!.. إنها تقول:

"التحيات الطيبة إلى "سنوحى" جراح الرأس الملكى، من "ميهو نفر" حبيبة قلبه "والمشرفة على حياكة الملابس فى قصر "فرعون" الذهبى... يا ثورى الصغير، ويا غزالى الجميل: لقد استيقظت هذا الصباح، فألفيت نفسى وحيدة على وسائدى، والصداع يركب رأسى، والآلام تنهش قلبى، ذلك لإنى وجدت مكانك" خاليا بجانبى، ولم يبق لى منك إلا رائحتك المعطرة، يعبق شذاها فى يدى، فأين؟ أين أنت يا حبيب القلب؟! وكيف طاب لك أن تتركنى هكذا وحيدة عانية؟! لكم أتمنى أن أكون الرداء الذى ترتديه، أو الحلية التى تتزين بها، أو النبيذ الذى يترشفه فمك!.. ها أنذا أجوب الطرقات مفتشة عنك، متقصية أثرك، متنقلة من مكان إلى مكان، ومن دار إلى دار، وسأظل كذلك حتى ألقاك، ففى لقائك هنائى، وبين ذراعيك سعادتى، ولا حياة لى إلا فيك، فإذا قرأت خطابى هذا، فوافنى مسرعا على جناح طائر، فإن أبطأ قدومك، فإنى ساعية إليك فى سرعة أخف الطيور، ولك تحيات القلب من حبيبتك المخلصة "ميهو نفر".

قرأت هذا الخطاب أكثر من مرة، ولعلى كنت فى تكرار قراءته أخفى وجهى بين سطوره خجلا من "ميرييت"، فقد كان خطابا مزعجا، وكانت عباراته مستهترة، فيها أقوى الدليل على صدق ظنونها!..فماذا أقول لها دفاعا عن موقفى من هذه المرأة الغريبة الأطوار؟! إن منافذ الكلام قد أغلقت كلها أمامى، وهى غير مصدقتى على أية حال!..

وبينما كنت أخبط بفكرى خبط عشواء، مدت "مرييت" يدها، فخطفت الخطاب ومزقته، وحطمت بانفعال قطعة الخشب التى كان مطويا عليها، وقالت لى ثائرة: لقد انكشفت الآن الحقيقة التى كنت حريصا على إخفائها عنى... ولكن ماذا دهاك أيها الرجل؟! وكيف أجدب ذوقك، وأظلمت عواطفك، إلى هذا الحد المرذول؟! إن هذه المرأة من القبح والدمامة بحيث تقذعها العين الرمداء، ويزهد فيها القلب المحروم، وقد حاولت أن تدارى قبحها ودماماتها وراء قشرة غليظة من الطلاء الذى أغرقت وجهها فيه، ولكنها كانت بذلك أشد مسخا وتشويها، ولم يجدها شيئا، هذا الإسراف فى

التصنع، فكل شيء فيها كان يصرخ قائلا: هذه العجوز الشمطاء القبيحة لا تصلح لشيء سوى أن تكون وقودا للنار، أو طعاما للكلاب!.. إني لمشفقة عليك يا سنوحي، فستجعلك هذه المرأة في مدينة "طيبة" أضحوكة الناس وسخرية الساخرين!..

وهاجني قولها، وغلبني الهم، فضاق صدري ضيقا شديداً، فأخذت أمزق ملابسي في ثورة عصبية جامحة وجعلت أصيح في "ميرييت" قائلا: لم أعد أحتمل يا "ميرييت"!. إن الموقف بالغ القسوة والصرامة، وهو يقتضيني عملا سريعا، ولست أبرىء نفسي من هذا الخطأ الذي يبدو فظيعا، ولكنه خطأ يهون كثيرا إذا عرفت دواعيه، ولم أكن أعلم أنه سيلقي على رأسي بهذه الكارثة!.. والآن فلنلتمس سبيل الخلاص، وهلمي فابحثي - في عجل - عن بحارتي، واطلبي منهم أن ينشروا القلاع، فسأبحر من فوري هذا، فرارا من هذه المرأة القذرة، قبل أن تدركني، فلا أستطيع الإفلات منها!.. إنها تلاحقني في كل مكان من هذه المدينة، فلنعجل!..

وهنا، بدأت "ميرييت" تفطن إلى حقيقة الموقف، وارتاحت لذلك، فقالت في شيء من المرح: كان ينقصك هذا لتكون حذرا من النساء، ولعلك أن تفيد من هذه التجربة في المستقبل!.. فإن فينا - معشر النساء - قوة سحر، ولا يستعصي علينا الرجال، حتى من كان منهم على مثالك!.. ولست معنفة في لومك لوقوعك بالسير والسهولة في مخالب هذه المرأة، فلا شك في أنك قد وجدت فيها من المتعة ما لم تجده عندي، ولا غرابة في هذا، فهي تكبرني بمقدار سني، ولها في فنون الحب خبرة لا أستطيع منافستها فيها، ومن يدري؟! فقد تعود ضيفا أمام إغرائها، فتنصرف إليها وتنساني!..

وضايقني، فوق ضيق، هذا اللجاج من "ميرييت"، ورأيت أن الوقت يمضي ركضا فيما لا غناء فيه، فابتدرت الباب، ورغبت إلى "ميريت" في مرافقتي إلى المنزل، فخرجنا معا من الحانة ، وهناك بمنزلي، قصصت عليها كل شيء مما لم تعلمه من سر ميلادي، وما يتصل به من أسرار البيت الذهبي التي استدرجت "ميهو نفر" للإفضاء بها، ولم يكن ثم من سبيل لوقوفي عليها سوى اصطناعي موقف العشيق

منها!.. وذكرت "لميريبيت" كذلك، أنني رغم أن في هذه الأسرار ما يطوع لي الاعتقاد بأنني ابن "فرعون" الذي تخلصت منه الملكة "تايا" بإلقائه في اليم على قارب من الغاب، قد آثرت أن أباعد بيني وبين هذا الاعتقاد، لأن هناك أطفالا كثيرين قد ألقوا بالطريقة نفسها باليم، ومن المحتمل كثيرا أن أكون واحدا منهم!.. ولا خير لي في أن أجعل حياتي مسرحا لعذاب التفكير في أمر خطير كهذا، لمجرد أن امرأة مخمورة قد أفضت على مسمعي بسر حادث يشبه من طريق الظن سر مولدي!..

واستمعت "ميريبيت" إلى حديثي هذا في إصغاء تام، ثم سرحت بطرفها في الفضاء، وأخير ألقت بيدها على كتفي وقالت: في وسعي الآن أن أقول إنني صرت أكثر قربا من الحقيقة التي كانت تبدو لي كأنها لغز!.. نعم، لقد فهمت لماذا كانت نفسك شاردة دائما في بيداء من الوحدة التي تنجذب إليها القلوب متعاطفة لتؤنسها، وما كنت فيما مر بي في حياتي ، على حال كهذه مع أحد من الناس على كثرتهم!..

واستطردت قائلة: وما أراك وحدك في غمرات الأسرار، فإنني أنا الأخرى أحيا وحدي في سر، كثيرا ما نزعت نفسي إلى مكاشفتك به، ولكني أشكر الإلهة إذ شاءت ألا أفعل، فكتمان الأسرار، على ما فيه من عسر وشدة، يكون في الأرجح خيرا وأسلم عاقبة، من البوح بها!.. وأنا سعيدة؛ لأنك قصصت علي ما كان خافيا من أمرك، وأرى ألا ترسل نفسك وراء أمر مجهول، من الجائز ألا يكون قد حدث أصلا، وحسنا تفعل في محاولة نسيان هذا الأمر!.. انسه كما ينسى الناس رؤاهم وأحلامهم، وكذلك أنا، سأحاول النسيان!..

وأثارني الفضول، فرحت أداخلها لأتعرف هذا السر الذي تؤثر إخفاءه، ولكنها استعصت وأبت أن تذكر منه شيئا، وأخذت تشاغلني عنه، فقبلتني وطوقت بذراعيها عنقي، وكانت عيناها خلال ذلك مغرورقتين بالدموع، ثم قالت: حقا، قد لا تنتهي متاعبك في "طيبة" إذا بقيت بها!.. إن هذه المرأة "ميهو نفر" لن تنفك عن مطاردتك في كل وقت، وكل مكان!.. ستجعل حياتك جحيما لا يطاق، فمن الأفضل أن تبرح "طيبة"

إلى "أخيت أتون"، وقد كنت حكيما إذ بدا لك هذا الرأى لأول وهلة، ولكنى لا آمن أن تسعى وراءك مدفوعة بعواطفها المتأججة، وهى تعتقد أنك مفتون بها وراغب فيها، فقد صببت فى أذنيها، من غير حساب، عبارات الهوى والحب، وأثرت كامن غريزتها العجوز بما لفقته لها من تراتيل الغزل، فصدقتك، وما زالت تصدقك، ولن تكف عنك إلا إذا أصلحت خطأك، وكتبت إليها عن حقيقة الموقف، وإلا فهى فى أثرك، تمضى حيث مضيت!.. وقد لا ترى لك مفرا منها إلا بتحقيق شهوتها، فتكسر الجرة بينكما، وهذا هو المصير التعس الذى لا أرضاه لك!..

واستصويت رأى "ميرييت"، فطلبت من "ميوتى" أن تجمع حوائجى، وأنفذت خادما إلى البحارة ليبحث عنهم فى الحانات وبيوت الملذات، ثم شرعت فى كتابة خطاب إلى "ميهو نفر" عملا بإشارة "ميرييت"، وقد حاولت أن أتلطف فى عباراته حتى لا تغضب وتثور، فكتبت إليها أقول:

"سنوحى، جراح الرأس الملكى، يهدى أعطر تحياته إلى "ميهو نفر" السيدة المشرفة على حياكة الملابس فى قصر "فرعون" الذهبى - إننى لأشعر بالندم يا صديقتى لما قد بدر منى مما جعلك تظنين، فى غير حق، إن قلبى خال!.. وإنه ليؤسفنى أشد الأسف أن أصارحك بأننى لا أستطيع أن ألقاك مرة أخرى، فليس من حقى أن أسلك طريقا قد يسول لنفسى ارتكاب خطيئة، ولا حيلة لى فى مخالفة قلبى، ذلك الذى أصيب بهوى امرأة أخرى، ويأبى، متمردا على إرادتى، إلا أن يبقى مشغولا بها. وقد اعتزمت لهذا أن أرحل بعيدا عن "طيبة"، اجتنابا لما قد يسببه لك بقائى فيها من متاعب!.. وآمل أن تذكرينى كصديق يريد لك الخير ويتمنى لك الهدوء والسلام، وإنى لمرسل إليك مع خطابى هذا، بإناء من شراب مخلوط اسمه "ذنب التمساح" فهو شراب ممتع حقا، وسيعينك كثيرا على النسيان، وأود أن أؤكد لك، قبل أن أختم خطابى، أننى رجل لا يؤسف على فراقه، فأنا عجوز أنهكنى التعب، ولن أستطيع أن أهيئ المتعة لسيدة مثلك، وإنه ليسرنى أن الإلهة قد حفظتنا، خلال اجتماعنا، من الوقوع فى الخطيئة!.. وتقبلى يا سيدتى أطيب التحية".

وقرأت "ميرييت" هذا الخطاب قبل أن أطويه، وقالت: إنك تداجيها بهذه العبارات الرقيقة، وقد يغريها هذا بالأمل في امتداد علاقتها بك. والرأى الصواب أن تقول لها في صراحة كاملة إنها عجوز شمطاء، تعافها النفس، وإنك هارب منها، فبذلك يعتريها اليأس، وفى اليأس راحة كما تعلم!..

ولكنى لم آخذ برأى "ميرييت" فى صيغة الخطاب، وأقنعتها آخر الأمر بأن عباراته المكتوبة تؤدى إلى النتيجة نفسها، ومن ثم لففت الخطاب وختمته وأوفدت به خادما إلى البيت الذهبى ومعه إناء النبيذ، ليسلمه إلى "ميهو نفر"!..

وحينما كان الخادم فى طريقه إلى "ميهو نفر"، كانت "ميوتى" عاكفة على إعداد حوائجي، وخلوت فى هذه اللحظة إلى "ميرييت" فشاع الأسى فى نفسى لحرمانى من لقائها، وافتراقنا هكذا سريعا، بسبب تلك المرأة الشاذة الطباع والأطوار، التى أوقعتنى الأقدار فى حبالها من حيث لا أدرى، فلولاها ما حرمت من الاستمتاع "بميرييت" فى "طيبة" أياما عديدة أخرى!.. وقد أكون مخطئا فيما حدث، وقد لا أكون!.. ولكن ما لا جدال فيه أنه انتهى إلى هذا الفراق العاجل، ومن هنا أحس بوخز الضمير، لأننى قد شاركت فيه من غير تبصر فى العواقب!..

كانت هذه الخواطر تتزاحم فى رأسى، بينما كانت "ميرييت" تبدو فى خواطر مثلها، وفجأة قالت لى باهتمام: أتحب الأطفال يا "سنوحى"؟!..

أدهشنى سؤالها، ولكنها استدركت قائلة: لا تخف.. إنى لن ألد لك طفلا، ولكن لإحدى صديقاتى طفلا، فى الرابعة من عمره، وكثيرا ما أعربت لى عن أمنيتها فى أن يرتاض ابنها فى رحلة بحرية على صفحة ماء النيل حيث يرى الوديان الخضراء، والزروع النامية، وما فيها من أبقار وخراف، فإنها تكره أن تظل أفكاره عالقة بما لا يتبدل حوله من القطط والكلاب فى "طيبة"!..

قلت لها فى غير ارتياح: إن طفلا كهذا فى سفينتى خليق أن يزعجنى ويحرمنى الهدوء، فليس بعيدا أن يقفز من السفينة أو يمد يده لاهيا، فتلتهمه التماسيح!..

قالت "ميريت" فى ابتسام يشوبه الاكتئاب: لا أقصد أن أسبب لك شيئا من هذه المضايقات، فكل ما فى الأمر أننى ظننت أن رحلة كهذه قد تحقق للطفل أمنية أمه، خاصة أننى - لوثيق علاقتى بها - صرت أحنو عليه مثل حنوها، وقد وعدتها بأنى متولية ختانه، فلست منه بمبعدة!. ولقد قررت أن وجوده بالسفينة منفردا ليس مأمون العاقبة، ولهذا كان فى نيتى أن أرافقه فى رحلته، لأرعاه وأمنعه من السقوط بالنهر. وكان يسعدنى أن تتقبل هذا لتتاح لى فرصة مصاحبتك أيضا، لكنك فيما أرى تضيق بالأمـــر، ولا أحب أن أرغب فى شىء يضـــايقك، ولذلك يحـــسن بنا أن ندع هذا الموضوع!..

قالت هذا، فسررت به، وقلت لها: إنها، حقا، لرحلة سعيدة، تلك التى تصاحبيننى فيها!.. لم أكن أدرى أنك تنوين هذه النية الطيبة،... إن السفينة بكل ما فيها، ومن فيها لتستقبلك مزهوة سعيدة، والنهر نفسه يتلقاك مبتهجا طروبا، و"أخيت آتون" لن تكون أقل من السفينة والنهر سعادة وابتهاجا، فهلمى ولا تخافى، فلن ترقى إليك ريبة فى رحلة تصحبين فيها طفلا هو ابن صديقتك!..

فقالت، وعلى ثغرها ابتسامة المرأة حين تبحث مع الرجل فى أمر لا يفهمه: أصحيح يا "سنوحى" أن ريبة لن تعلق بسمعتى فى هذه الرحلة ؛ لإنى استصحب فيها طفلا!.. آه، يا لغباء الرجال!..

وانتهى الأمر بيننا على اتفاق فى السفر مها. وعند الفجر أبحرنا، وقد جاءت "ميريت" بالطفل ملفوفا فى أربطة وكان لا يزال نائما، وأنبأتنى "ميريت" بأن اسمه "تحوتح"، وأعجبت بشجاعة أمه التى سمته بهذا الاسم، وتمنيت لو رأيتها لأحييها، ولكنها لم تحضر، وإنما أعجبت بشجاعتها فى هذه التسمية لإنى أعلم أن كثيرين من الآباء لا يملكون هذه الشجاعة فى إطلاق أسماء الإلهة على أبنائهم، وقد اختارت هذه المرأة لابنها اسم "تحوتح" وهو إله الكتابة والعلم البشرى والإلهى، وهذا مما يرفع شأن شجاعتها فى تقديرى. وقد ظل الطفل مستغرقا فى نومه، إلى أن سطعت الشمس بلونها الذهبى فوق مياه النيل، فاستيقظ وزاد ابتهاجى به. فقد كان هادئا

لطيفا، منضر الوجه، أسود الشعر ناعمه، وشعرت بأن بيننا تجاوبا فى العاطفة، فقد كان ينزع دائما نحوى، وتبدو رغبته قوية فى أن أضمه بين ذراعى، وما أكثر ما كنت أراه محدقا فى وجهى بعينيه الداكنتين، كأنه يبحث عن أمر خفى، أو يحاول حل لغز معقد!.. وبلغ من شغفى به، ومحبتى له، أن صنعت له قوارب صغيرة من الغاب، ولم أحل بينه وبين اللعب بأدواتى الطبية، كما لم أمنع يده من الامتداد إلى العقاقير التى كان يدس أنفه فيها متشمما رائحتها الطبية!..

لقد كان هذا الطفل فى رحلتنا قرة عين لنا، فأنسنا به أنسا عظيما، وكان على حبه للهو لا يتحرك حركة تثير خوفا أو تدعو إلى استياء، فلم يحدث مرة أن استشرف حافة السفينة ليطل على الماء، كما لم يحدث أن حطم قلما من أقلام الغاب. ومما زاد الرحلة بهجة وأضفى عليها الكثير من السعادة أن "ميرييت" كانت إلى جانبى، وكان يضمنا فى كل ليلة فراش واحد، وعلى مقربة منا كان ينام الطفل الذى تلاقى قلبانا على حبه!..

وقلت "لميرييت"، وقلبى يطفح بالسعادة: "ميرييت" يا معبودتى!. هيا فلنكسر الجرة بيننا، لنحيا معا إلى الأبد!.. إن أهنأ ما يهنأ به قلبى أن تصبحى زوجتى، وأن تلدى لى طفلا جميلا مثل "تحوتح". لقد كنت لا أشتهى الأطفال قبل اليوم، ولكنك بقوتك السحرية استطعت أن تحولى مجرى تفكيرى، فأصبحت أشد ما أكون رغبة فى أن أصير أبا، وأنت.. أنت القادرة على أن تلدى الولد الذى أنشده، فالتى تغرس الشجرة، هى التى تحسن إنتاج ثمرها!.. فكونى أم ولدى يا أحب من عرفت من النساء إلى قلبى!..

ولكنها وضعت يدها على فمى وقالت فى لطف: لا تتكلم يا "سنوحى" هكذا!.. فإنك لتعلم إنى نشأت وعشت فى أحضان حانة، ومن كانت مثلى لا يرجى أن تلد أطفالا، ومن الخير لك أنت على وجه خاص. أن تمضى فى حياتك متخففا من أعباء الزوج والولد، فإن مصيرك مطوى فى قلبك، ولم تفرغ بعد من واجبات كثيرة، أرى أنها ستفرض نفسها عليك، إن قريبا وإن بعيدا، فابق لها وحيدا، فارغا، فذلك أعون

لك عليـها!.. وإننا، كلينا، نعيش فى حب لا تنفصم عراه، وليس الذى بيننا بأقل قربا وامتزاجا، مما بين الزوج وزوجته!.. فحسبنا هذا يا "سنوحى" وإننى لأحب هذا الطفل الصغير حب الأم لولدها بلا فارق، وأراك كذلك قد أحببته حب الأب لابنه وأنزلته من نفسك هذا الموضع الأثير، فليكن منا هكذا، ابنا بين أمه وأبيه. وعما قليل سنطرب منه بالكلمة العذبة اللطيفة، يتحرك بها لسانه اللدن حين يناديك بقوله: يا أبى، ويناديني بقوله: يا أمى!.. ومن هنا تجتمع لنا مقومات وعناصر الأسرة فى الحياة الزوجية وارفة الظل، دون أن تعوق سيرك فى الطريق الذى رسمته لك الأقدار!.. وعلى ظهر هذه السفينة فلنعش أياما، بعيدين عن التفكير فيما كان وفيما سوف يكون، خاليين إلى هذه الطبيعة الجميلة الحانية، وناهلين فى أحضانها كؤوسا من السعادة صافية!..

وكان "لميريت" ما شاءت، فخلوت إليها فى أحضان الطبيعة المزدهرة المفترة الثغر، مقصيا عن ذهنى ما كان يزحمه من التفكير فى الأحداث المثيرة التى صادفتنى فى "طيبة"، وفى هؤلاء الناس الذين نلقاهم وهم يتضورون جوعا فى كل قرية تمر بها السفينة على شاطىء النيل!.. وكانت "ميرييت" حريصة أشد الحرص على أن تملأ وقتنا كله بالملذات والمباهج، فقضيت معها أياما من السعادة، لم أر مثلها من قبل، كما لم أر مثلها من بعد، وما أكاد أذكر لحظة من لحظاتها، حتى تخنقنى العبرات، أسفا عليها، فقد كانت حلما هانئا، ممتعا، سنح فى حياتى وقتا قصيرا، برحها عجلان إلى غير مآب، فما أعجب أمر السعادة!.. تخايل للناس بالكثير من الأمل، ثم لا تعطيهم إلا أقل القليل!..

-٧-

وبلغنا "أخيت أتون"، فبدت لعينى فى حال غير التى تركتها عليها!.. لم تكن قد تغيرت فى شىء، ولكنى أنا الذى تغيرت أفكارى خلال الزمن الذى قضيته بعيدا عنها!.. إن منازلها الدقيقة السابحة فى ضوء الشمس قد استحالت فى نظرى صورا باهتة لا

تختلف كثيرا عن صورة السراب الذى يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجد شيئا!.. هذه المدينة المنسقة الحالمة لا تمثل قط حياة المصريين فى ذاك الوقت، إن حياتهم كانت مزيجا من القلق والاضطراب. والفقر والبؤس، ولذلك لم ترق هذه المدينة فى عينى!..

وعادت "ميرييت" و"تحوتح" إلى "طيبة" ومعهما قلبى وسعادتى، والحلم الممتع الذى عشناه أياما!..

وبدأت بعدهما فيما لم يكن منه محيص، وهو الخوض فى الحياة التى كان فرعون "إخناتون" يحياها ويفرضها على البلاد.

وكانت هذه الحياة قد صارت شيئا مخيفا، فأقبلت عليها متشائما كارها.

وبعد أيام قليلة ووجه "فرعون" فى بيته الذهبى بما لم يكن يحفل به من الأحداث الخطيرة، فقد هبط فجأة على "أخيت آتون" جماعة من المهاجرين السوريين، بعث بهم "حورمحب" من "ممفيس" ودفع لهم نفقات سفرهم، ليصفوا لفرعون بألسنتهم، الكارثة الكبرى التى حلت بهم، وكانوا فى حال من البؤس لا يطاق النظر إليها، ولهذا تقزز الناس منهم وتحاموا الاتصال بهم!.. ولما ذهبوا إلى القصر ليقابلوا "فرعون"، فزع منهم النبلاء والحراس فأغلقوا دونهم الأبواب، ولكنهم راحوا يصرخون بأصوات عالية ويقذفون أسوار القصر بالأحجار، وسمع "فرعون" صراخهم، فأمر بفتح الأبواب وإدخالهم إلى ساحة القصر الداخلية..

ومثلوا بين يديه، فقالوا: من أفواهنا المكدودة، اسمع صرخة شعبك: إن سلطان "فرعون" فى أرض "كيم" أصبح خيالا، وأثرا عافيا، ودماء الذين أخلصوا ولاءهم لك، وعقدوا كبار آمالهم عليك!.، صبحت تسيل أنهارا خلال الحصون المتهاوية، وألسنة النيران المستعرة.

ورفعوا أذرعتهم التى بترت منها الأيدى وقالوا: انظر أيها الملك العظيم!.. أين ذهبت أيدينا؟! ثم دفعوا أمامهم رجالاً منهم قد فقئت عيونهم وهم يتعثرون فى

مشيتهم، وآخرين من الشيوخ المسنين قد قطعت ألسنتهم، يفتحون أفواههم الفارغة ليتكلموا ولكنهم لا يستطيعون.

واستطردوا قائلين: أرأيت؟ لقد فعل بنا كل هذا رجال الملك "عزيرو" والحيثيون، لا لذنب جنيناه، ولكن لأننا استمسكنا بالولاء لك يا فرعون "إخناتون"، ولا تسل عما فعلوا بزوجاتنا وبناتنا، فإنه شيء فظيع تتفطر لذكره الأكباد.

ولكن "فرعون" راح يحدثهم، بعد استماع مقالتهم، عن الإله "آتون" وبركاته ورسالته والمثل العليا التي يدعو إليها! فسخروا منه، وقالوا له: لقد أرسلت صليب الحياة المقدس إلى أعدائنا، وهو شعار "آتون" وآية دعوته للسلام وحقن الدماء، فهل تدري ماذا صنعوا به؟! لقد علقوه في أعناق خيولهم، وانطلقوا بها فينا يقتلوننا ويخربون ديارنا ويهتكون أعراضنا، ثم يثبون بكهنتك في "أوروشليم" فيقطعون أرجلهم ويقسرونهم بعد ذلك على أن يقفزوا من غير أرجل، إمعانا في السخرية بإلهك "آتون".

وهنا اعتاد فرعون المرض المقدس، فصرخ صرخة مدوية، وهوى فاقد الوعي على أرض الشرفة التي كان يقف عليها، وأخذ الحراس في تنحية أولئك المهاجرين البؤساء عن القصر، ولكنهم امتنعوا به، وصمموا على البقاء حيث هم إلى أن يصدر فرعون في أمرهم قرارا، فأغلظ الحراس لهم، فقاوموهم في يأس وتخضبت أرض الساحة الداخلية بدمائهم، ثم ألقيت جثثهم بعد هذا في مياه النيل.

وكانت الملكة "نفرتيتي" والأميرة "ميريت آتون" والأميرة المريضة "ميكيت آتون" والأميرة الصغيرة "عنخسن آتون"، كن يشاهدن كل هذا من شرفة القصر، ولأول مرة رأين بأعينهن منظرا من مناظر الألم والموت في مجموعة من الناس، ولأول مرة كذلك رأين بأعينهن صورة صارخة من صور الحروب.

وبادرت إلى "فرعون" فوضعت حول جسمه لفافات مبتلة، وسقيته عندما أفاق شرابا مسكنا، ليسترسل في نومه، إذ كانت أزمته العصبية حادة، ولا تؤمن السلامة منها بغير هذا التسكين، فراح في سبات عميق ثم استيقظ بعد ذلك فكان وجهه

شاحبا وعيناه محمرتين لشدة ما عاني من صداع رأسه، وأخذني بنظرة طويلة وقال: سنوحي! يا صديقي، يجب أن نضع حدا لهذا، وقد أخبرني "حورمحب" أنك تعرف الملك "عزيرو" وتربطك به المودة، فاذهب إليه، وصالحه.. اشتر لنا منه هذا الصلح بأي ثمن، ففي سبيل السلام لمصر، يهون كل شيء، ويرخص الثمن مهما كان غاليا. ولو أننا دفعنا في ذلك كل ما نملك من ذهب، لما كان هذا شيئا كثيرا، وخير لمصر أن تحيا فقيرة في ظلال الأمن والسلام، من أن تحيا غنية موفورة المال في أتون مستعر من الحروب وما يلازمها دائما من دماء مراقة وأعراض منتهكة، وأرزاق منهوبة وأوبئة فتاكة.

قلت له معترضا: يا فرعون "إخناتون"، إن ذهبك هو الذي يخدم قضية السلام حقا، وبه لا بغيره، تنتهي هذه الحرب الملعونة، ولكنه لا يكون كذلك إلا بالطريقة الحكيمة الوحيدة، وهي أن ندفع به إلى "حورمحب" ليشتري به أدوات الحرب وأسلحة القتال فليس سواها من سبيل إلى استعادة مجد "مصر" ومحو عارها.

قال "فرعون" وهو ممسك رأسه بيده: بحق آتون يا "سنوحي" إلا ما نزعت من نفسك هذه الإثارة من الغيظ والحنق.. إن الحقيقة الكبرى التي يجمل بك ألا تفكر في غيرها، هي أن الحقد لا يثمر إلا حقدا والانتقام يغري بالانتقام ويدفع إليه، وسفك الدم يفضي إلى مثله، فتصير قطراته بحارا، نوشك أن نغرق فيها جميعا.. إننا إذا حاربنا لنرفع الظلم عن المظلومين، فسنوقع الظلم نفسه على الآخرين!.. والحرب كما تعلم هوجاء عمياء، لا تفرق بن ظالم ومظلوم، ولهذا فلا متحول لي عن موقفي، وعليك أن تذهب كما أمرتك إلى الملك "عزيرو" لتعقد معه صلحا، مهما يكن الثمن، تحقيقا للسلام الذي نؤمن به.

قلت له منزعجا: يا فرعون "إخناتون"!.. إن أمرك مطاع، ولا أستطيع الجدال فيه، ولا قيمة لحياتي إلا إذا انقضت في طاعتك، ولكنني أعلم أنك لا ترغب في اختبار ولائي، ولا في القضاء على حياتي، وإنما ترغب في تحقيق فكرة السلام، ووقف رحى القتال، وهذه رغبة جليلة تتلاقى فيها قلوبنا جميعا، وليتني كنت قادرا على المشاركة

فى تحقيقها بالطريقة التى رسمها مولاى!.. ولكن يحزننى أن ذلك غير مستطاع، فدونه أهوال وأهوال، وسيحدث حتما ، وفى الخطوات الأولى من الطريق إلى "عزيرو" أنهم سيقابلوننى بعداوتهم المضطرمة، ويبتدروننى بالتعذيب الذى رأيت دلائله على أولئك المهاجرين السوريين المساكين.. إنهم سيفقئون عينى، ويقطعون لسانى، ويبترون يدى.. فهذا دأبهم مع الأعداء ولن يصدهم عن ذلك أننى ذاهب إلى مفاوضة ملكهم "عزيرو"! على أنى لو قدر لى أن ألقاه لأنكرنى، فقد افترقنا من زمن بعيد، وما أظنه إلا قد نسينى، فلا جدوى من السعى إليه فى هذا الطريق الحاشد بالأخطار والمخاوف، ذلك إلى أنى لم أعد أحتمل الاتصال بميادين القتال أو الاقتراب من معامع العراك، فقد علت سنى، وتراخت أعصابى، وثقلت حركاتى، ثم إنى لا أجيد التحدث فى المواقف التى تقتضى الحيلة والمداورة كأولئك الذين قضوا حياتهم فى الأكاذيب فحذقوها، وهم سفراؤك عند الملوك الأجانب.. فأنفذ إلى "عزيرو" رسولا غيرى، من طراز هؤلاء الرجال البارعين.

ولكن "إخناتون" أصر على رأيه وقال: اذهب كما أمرتك!.. لقد أصدر فرعون أمره، ولا تبديل له!.

وانقلبت إلى منزلى محزونا، وأفكارى تائهة فى أمر "فرعون"، وفى منظر أولئك السوريين المهاجرين، مبتورى الأيدى والألسنة، مفقوئى العيون!.. إن هذا المنظر الشائه المزعج يأبى أن يفارقنى لحظة، وهو يملأ نفسى وجلا وخوفا، فسيكون هو مصيرى إذا قدر لى أن أعيش!.. ولذلك قررت أن أرقد بالفراش متظاهرا بالمرض، إلى أن يعدل "فرعون" عن قراره.

ولقينى خادمى لدى الباب، فابتدرنى قائلا: حسنا، عدت الآن يا سيدى.. فإن سيدة اسمها "ميهو نفر" جاءتنا منذ قليل، وهى تنتظرك فى شغف بداخل المنزل، وقد قالت لنا إنها قادمة إليك من "طيبة" على ظهر سفينة، وإنها يا سيدى لترتدى أجمل الملابس، وتتزين بأبهى اللآلئ وتتعطر بأزكى العطور، فكأنها العروس فى ليلة زفافها.

ومن غير تردد، أدرت ظهرى للخادم والمنزل، ورحت أعدو بخطوات واسعة عائدا إلى بيت فرعون الذهبى، وقابلته من فورى، وقلت له: طوعا لأمرك يا مولاى، سأرحل إلى سوريا، وأرى من الخير التعجيل بالرحيل فمر بإعداد الألواح المثبتة لشخصيتى ومركزى، لأتزود بها، فبغيرها يستحيل الوصول إلى "عزيرو"!

وبينما كان الكتاب المختصون مشغولين فى إعداد هذه الألواح، أسرعت إلى مصنع "تحوتمس" الذى عرفت، بمحض الصدفة، إنه يعمل نحاتا فى "أخيت آتون"... إنه صديقى القديم الذى يهفو إليه قلبى، ولا تغيب ذكراه عن بالى، وقد عرفت فيه الوفاء وصدق المودة، كان مسعفى دائما فى وقت الحاجة!.. فلأزره الآن قبل هذه الرحلة، الغامضة التى أساق إليها مرغما.. وتلقانى فرحا، وكان قد أكمل تمثالا لـ"حورمحب" البطل المحارب الذى أعجب به، ليقام فى "حيت نيتست"، مسقط رأس البطل. وكان التمثال مصنوعا من الحجر الأصفر على الطريقة الحديثة فى النحت، وهو من دقة الصنع وبراعة التصوير، بحيث يمثل "حورمحب" على حقيقته تمثيلا تاما. ولا شيء فيه، عند النقد الدقيق، إلا أن "تحوتمس" قد بالغ فى إبراز عضلات "حورمحب" وسعة صدره، حتى بدا مصارعا أكثر منه قائدا لقوات "فرعون".. وهذه المبالغة فى صنع التماثيل كانت أمرا مألوفا فى المحيط الفنى الحديث، لتبدو الصورة مجسمة كاشفة!

وراح "تحوتمس" يحدثنى عن هذا التمثال معجبا به، وهو يجلوه بخرقة مبللة، ولما عرف أنى على وشك الرحيل، قال لى: سأسافر معك مستصحبا هذا التمثال لأمضى به إلى "حيت نيتست" وأشرف بنفسى على وضعه بالمعبد فى المكان اللائق بمركز "حورمحب" بطل الحرب، وبمركزى أنا، بطل الفن! نعم، سأسافر معك يا "سنوحى"، وإنى لشديد الشوق إلى نسائم النيل، لتنعش رأسى الذى احترق بنبيذ "أخيت آتون" لقد انهكنى المبرد والمطرقة حتى أصبحت لا أستطيع مقاومة الرعشة وهى تدب فى يدى.

ورحبت بصديقى "تحوتمس" فى هذه الرحلة التى أحتاج فيها إلى مثله رفيقا.. وجاءنى كتبة فرعون بالألواح مزودة ببركاته!.. وذهبت بها على الأثر إلى الشاطئ، ووافانى "تحوتمس" مع تمثال "حورمحب"، وقلت لخدمى، وأنا أضع قدمى بالسفينة: أبلغوا "ميهو نفر" أننى ذهبت إلى ميدان القتال فى سوريا، وأننى لقيت حتفى هناك!.. وساعتئذ، كنت أعتقد أننى غير بعيد من الحقيقة، فقد كان أملى فى النجاة من الموت بهذه الرحلة، ضعيفا غاية الضعف، ثم أمرت خدمى بأن يحملوا "ميهو نفر" إلى سفينة مبحرة إلى "طيبة" مشيعة بوافر الاحترام، فإن جاهدتهم فى ذلك متأبية، فليحملوها إلى السفينة قسرا، وأنذرتهم بالضرب وقطع الآذان وجدع الأنوف وإرسالهم إلى المناجم ليعملوا فيها معذبين إلى آخر حياتهم، إذا أنا عدت من الرحلة فوجدت "ميهو نفر" بمنزلى.

وأبحرت السفينة بنا، وتحت تأثير المخاوف التى تركب رأسى فى هذه الرحلة، عكفت على تناول النبيذ ووافقنى على ذلك "تحوتمس"، إذ كان رأيه أن القادمين على الحرب لا ينبغى لهم أن يكفوا عن شراب النبيذ وهو رأى لا تنقصه الحكمة؛ لأن صاحبه قد ولد فى الثكنات.

الساعة المائية تقيس الوقت

- ١ -

استقبلنى "حورمحب" فى "ممفيس" الاستقبال اللائق بمركزى كمبعوث لفرعون، وعندما خلونا فى ذلك المكان قال لى وهو يضرب فخذيه بمقبض سوطه، قلقا نافد الصبر: أية ريح سيئة سيرتك إلينا يا رسول "فرعون"؟! إنها فى غالب الظن فكرة جنونية جديدة نجمت فى رأسه أخيرا؟!.

قلت له: إنها رحلة إلى "سوريا" لشراء السلام من "عزيرو" بأى ثمن!.. قال لى فى مرارة: ألم أقل لك إنها فكرة جنونية جديدة؟! إن هذا المدخول فى عقله سيفسد كل الخطط التى وضعتها فى دقة وإحكام، وبفضلها أصبح مركز "عزيرو" سيئا، ولا شك فى أنه سيرحب بالسلام الذى يعرضه "فرعون" عليه، ولكنه فى هذا سيكون مخادعا ريثما يصلح من أمره، ويعزز قواته، وبعدها ينقلب علينا مستأنفا الحرب التى توشك أن تدور دائرتها عليه الآن!.. إن الموقف الراهن يتلخص فى أن "غزة" لا تزال فى أيدينا، ولمصر بذلك مركز أمامى فى "سوريا" مجهز بالاستعدادات الحربية الكافية، وقد تمكنت بوسائلى الخاصة من إقناع أسطول "كريت" ليتولى حراسة خطوط اتصالنا البحرى "بغزة"، وكان ملحوظا فى هذا أن استقلال "سوريا" – لو تحقق – سيهدد سيادة "كريت" البحرية، يضاف إلى هذا أن الملك "عزيرو" بات يعانى أشد المعاناة من الاحتفاظ بسيطرته على حلفائه. فمنذ أن طرد المصريون من "سوريا"، أخذت المدن السورية يحارب بعضها بعضا، وانضم السوريون الذين فقدوا ممتلكاتهم ومنازلهم إلى فرق الفدائيين، وهم الآن السوريون الذين فقدوا ممتلكاتهم ومنازلهم إلى فرق الفدائيين، وهم الآن مشتبكون مع قوات "عزيرو"، ويسيطرون على الصحراء من "غزة" إلى "تانيس"، وقد أمددت هذه الفرق بأسلحة مصرية، وزودتها بمصريين

شجعان من جنود سابقين ولصوص وأرقاء هاربين من المناجم... وليس بأقل من ذلك أهمية أن "الحيثيين" قد وجهوا كامل قوتهم إلى غزو "ميتاني"، فأبادوا سكانها ولجوا فيها تخريبا حتى لم يعد لهذه المملكة وجود، فانشغل "الحيثيون" بهذا النصر وعاقهم عن تقديم المساعدة الكافية إلى الملك "عزيرو"، واضطرت "بابل" أن تعالج حالة القلق الشائعة فيها بتسليح قواتها، استعدادا لصد العدوان على حدودها، فالموقف على ما ترى ليس في مصلحة "عزيرو"، وهو يشعر بذلك تماما، وسيجد في السلام الذي أنت مرسل به من "فرعون" وسيلة إلى اصطناع المهادنة وكسب الوقت وتجميع القوى، ليثب بها بعد ذلك تحقيقا لمطامعه، ومن أجل هذا سيرحب به - كما قلت - مخادعا. والرأى الذى لا أحيد عنه قيد أنملة، هو أن السلام المشرف لمصر مستطاع بغير هذا العرض الذليل، وأنا قمين بتحقيقه في أقل من نصف عام، بالوسيلة الوحيدة التي لا أومن بوسيلة سواها، وهي الأسلحة والعجلات الحربية!... إنها هي التي نجدع بها أنف "عزيرو" ونقضي على غروره ومطامعه، ونرده خائفا وجلا من "مصر" وآلهتها!..

قلت "لحورمحب": ولكنك لا تستطيع أن تفعل هذا ؟ لأنك لا تملك حق إعلان الحرب، فذلك حق "فرعون"، وهو يبغض الحروب ولا يأذن بها، ولن يمدك بالمال الذى لا بد منه في إعداد الأسلحة والعجلات الحربية!..

قال "حورمحب": أعلم ذلك، وإني لأحتقر ذهب "فرعون" احتقارى لعقله المأفون، وقد عولت على نفسي وحدها في تجهيز جيش أقوده إلى "تانيس"... وفي هذا السبيل جمعت المال اقتراضا باليمين والشمال كما لو كنت متسولا!.. ولا ريب عندى في أنك، وقد عرفت الموقف على حقيقته، لن تقوم بأى عمل من شأنه إفساد خططنا، والقضاء على أهدافنا!..

قلت له: إن "فرعون" قد أصدر لي أوامره، وزودني بكل الألواح التي أصل بها إلى السلام الذى ينشده، وبالطريقة التي يراها، ولا محيص من طاعة الأمر، وستكون مهمتي هذه أيسر مما كنت أتصور، ما دامت ظروف "عزيرو" كما ذكرتها، فهو بحكم هذه الظروف لن يكون معي ذلك المشتط المغالي في شروط السلام!..

واهتز "حورمحب" في مقعده، منفعلا غاضبا، وصاح قائلا: بحق صقري!.. لئن ذهبت إلى "عزيرو" ساعيا إلى هذا السلام المعيب، لأقتلنك إذا قدر لك أن تعود من رحلتك هذه حيا، ثم لأقذفن بك إلى الماء لتأكلك التماسيح، ولن تردني عن هذا صداقتنا، فالأمر أكبر خطرا من الصداقة!.. في وسعك أن تذهب، إذا شئت، ولكن هذا هو المصير الذى ليس لك منه مهرب إذا جرى الأمر مضادا لخططي وأهدافي!..

واستطرد يقول ساخرا: نعم، في وسعك أن تذهب إلى "عزيرو"، وتتحدث إليه طويلا عن "آتون" الإله العظيم!.. وعن "فرعون" المسماح الكريم الطيب القلب، ثم تخبره في سذاجة أن "فرعون" قد غفر له، وأفسح له من صدره مكان الصديق!.. ولكن ينبغي أن تعلم منذ الآن، أن "عزيرو" من الدهاء بحيث لا تجوز عليه هذه التعبيرات المموهة بالطلاء البراق، فهو لن يصدقك في دخيلة نفسه، على أنه سيظهر لك غير ما يبطن، ويبادلك – في ارتياح – عواطف الود والسلام، وهو، في الوقت عينه، سيدبر أمره معك تدبيرا محكما، فيعطيك عن قوته صورا خادعة، ويوهمك، بأباطيله بأنه خير حالا وأعز نفرا وأملك لزمام الموقف، وأقرب قربا إلى النصر!.. فاتحا بذلك بابا واسعا للمساومة والظفر بأقصى ما يرجو من "فرعون" ثمنا للسلام!.. وكيفما كان الأمر فإني أعتقد أنك لست من البلاهة بحيث تقع في حبائله، وتنخدع بمفترياته. وأكبر ظني أنك لن تعده، مجرد وعد، بتسليمه "غزة" أو بالتحكم في رجال العصابات، فلا سلطان لفرعون عليهم؛ لأنهم متطوعون أحرار، لا جنود منظمون، وأحسب أنه لن يفوتك أن تقول له ماكراً: إنهم على ما يرتكبون من جرائم النهب والسلب، رجال لينوا العريكة، وليست الجريمة في طباعهم، وإنما هم جماعة نزلت بهم كوارث الحرب، فاندفعوا يضربون ضرباتهم على حواشيها، وسيستبدلون بأسلحتهم عصى الرعاة، من تلقاء أنفسهم، عندما توقع وثيقة السلام!.. قل له هذا وما هو من هذا بسبيل، ولكن حذار أن تقع في خطيئة تسليم "غزة" فدون هذا رأسك الذى لن أتردد في فصله عن بدنك لوفعلت هذه الفعلة النكراء!.. فإني في سبيل أن أستبقي أبواب "غزة" مفتوحة في وجه "مصر" تحملت الكثير من العذاب، ونثرت الكثير من الذهب في الرمال، وضحيت بالكثيرين من عيوني وأرصادي هناك!..

وفى "ممفيس" قضيت أياما، ناقشت خلالها شروط السلام مع "حورمحب"، وقابلت مبعوثين من "كريت" و"بابل"، ومهاجرين ممتازين من "ميتانى"... ومن أحاديثهم الشتى، استطعت أن أتبين حقائق الأحوال الجارية التى كان ينقصنى العلم بها، وأدركت جسامة المهمة التى أنا مقبل عليها، وتمنيت لو أنى وفقت فيها، فعلى نتائجها يتوقف مصير البلاد والرجال!..

وقد أيقنت أن "حورمحب" كان على حق فى حذره وتدبيره، فالسلام فى الظروف القائمة يحقق مصلحة "عزيرو" أكثر مما يحقق مصلحة "مصر"، إذ هو لا يعدو أن يكون نوعا من المهادنة ريثما تستقر الأمور المضطربة فى "سوريا"، ثم يتحرك بعدها "عزيرو" مستجمعا قواه، ليولى وجهه شطر "مصر" مرة ثانية، وربما لاح المستقبل غامضا من هذه الناحية أمام النظرة العجلى، ولكن الأحداث المحيطة تشير إلى نتائج من شأنها أن تحدد معالم هذا المستقبل... فهؤلاء الحيثيون!.. ماذا يكون أمرهم حينما يتوطد ملكهم فى "ميتانى"؟!.. أيتحولون بقوتهم إلى "بابل" أو إلى "مصر" عبر "سوريا"؟!.. إنهم بطبيعة الحال سيختارون وجهتهم إلى أضعف نقاط الغزو، و"بابل" يومئذ ممتنعة عليهم بما يتوافر لها من القوى المسلحة تسليحًا كاملا، وليست هكذا حال "مصر"، فإنها على النقيض من "بابل" مفتوحة الحدود، مجردة من قوات الدفاع، و"الحيثيون" قوم لا يفون بعهود، ولا يحترمون مواثيق، ولا يستريح معهم حليف أو صديق ، ولا يرجى منهم خير لإنسان حتى لو كان "عزيرو" نفسه؟!.. فإذا حدث أن ارتبط "عزيرو" بموثق مع "مصر" لتكوين جبهة واحدة ضدهم فإنه يصبح معرضا لأخطار محققة، فمصر فى حكم فرعون "إخناتون" لا تسعف حليفا طامحا "كعزيرو"، وعليه عندئذ أن يروض ظهره لحمل الرمال!.. ولا شك فى أنه متفطن لذلك، متحرز منه...

وعلمت من "حورمحب" أنه ملاق "عزيرو" فى مكان ما بين "تانيس" و"غزة"، حيث تشتبك عجلات "عزيرو" الحربية برجال العصابات... وقد شرح لى الحالة فى "أزمير"، وأعطانى إحصاء بالبيوت التى حرقت أثناء الحصار، وبيانا بأسماء الشخصيات

المعروفة التى نبحت هناك، وكذلك أعطانى بيانا عن جواسيسه الذين اندسوا فى مدن "سوريا" وتتبعوا قوات "عزيرو"، وهى أخلاط من المشعوذين والعرافين وتجار الزيوت والرقيق، وقد أدهشنى علمه بكل هذا!..

وكلما دنت ساعة رحيلى شعرت بارتجاف الخائف الوجل لكثرة ما سمعت من ضباط "حورمحب" ومن المهاجرين، عن الأحداث المروعة التى كانوا يروونها عن رجال "عمورية" وقوات "مصر" الحرة!.. ولكن لم يكن ثم مناص من الرحيل!..

وقال لى "حورمحب": لك أن تختار بين السفر فى البر أو فى البحر!...

وأجبته متردداً: لعل الطريق فى البر أكثر أمنا منه فى البحر!...

فهز رأسه وقال: إذن فسوف يرافقك فى رحلتك من "تانيس" إلى ما بعدها حراس من بعض حملة الحراب على عجلاتهم الحربية، ولكننى مع ذلك أخشى أنهم إذا تلاقوا بقوات "عزيرو" لا يثبتون لها، فيولون الأدبار فرارا منها ويتركونك وحدك بالصحراء... وعندئذ تقع فى أيدى رجال "عزيرو"، ومن المحتمل عندما يرونك مصريا مرموقا أن يستبقوك حيا كرهينة عندهم، ومن ثم يضعونك داخل سياج ذى أوتاد مسنونة، على طريقة الحيثيين، ويعبثون بالألواح التى تحملها وليس بعيدا أن يبولوا عليها!.. فإن لم يقع لك هذا، فأنت مستهدف لما ليس خيرا منه، فمن المحتمل، إن لم يكن من المرجح أن يلقاك رجال العصابات، وعلى رغم الحراسة التى تحيط بك، فإنهم لن يفلتوك! سيجردونك حتما من كل شىء معك، وسيوثقونك فى مدار الطواحين لتدير أحجارها كما لو كنت ثورا!.. وتظل على ذلك إلى أن يحين الوقت الذى نستطيع أن نفتديك فيه بالذهب!.. ولكن أغلب الظن أنك لن تبقى حيا إلى أن يحين حين الفداء!.. فسياطهم مصنوعة من جلود التماسيح، ومن يدرى!. فقد يطيب لهم أن يستريحوا منك فور وقوعك فى أيديهم، فيذبحونك ويلقون بجثتك إلى الغربان لتنهشها، وهذه على أية حال خاتمة غير مؤسفة كثيرا، فالموت هكذا سريعا خير من العذاب الطويل الذى ينتهى، غالبا، إلى النتيجة نفسها!..

وأكثر من أى وقت مضى، أحسست بقلبى يضطرب فزعًا من هذا الكلام الفظيع!..

وقلت له، وأعصابى ترتعد، الآن أشعر بالندم المرير إذ تركت جعرانى المقدس مع "كابتاح"، فلا شك فى أنه يكون لى، وأنا أخوض غمار هذه الأهوال، أكثر عونا من "آتون" إله فرعون الذى يبدو أن أثره لا يمتد إلى تلك البقاع التى لا تؤمن بالآلهة!.. ومع ذلك فإنى لأناشدك بحق صداقتنا يا "حورمحب" أن تضع عيونك فى أثرى، وأن تعجل بإنقاذى إذا ما وقعت فى أيدى هؤلاء الوحوش، ولا تبخل بالذهب بأى قدر يكون فى هذا السبيل، فإننى موفور الغنى، بل أغنى مما قد يخطر ببالك، إلى حد أننى أنا نفسى لا أستطيع أن أحصى ثروتى لكثرتها!..

فقال: إنى أعرف ما فيه الكفاية، عن ثروتك، وقد اقترضت منها قدرا كبيرا عن طريق "كابتاح"، كمافعلت مع غيرك من الأثرياء، وما أردت باقتراضى منك إلا إن أكون عميلا يحقق لك فائدة المال، فلست أنوى المطل فى الوفاء، غير أنى أرجو، بحق الصداقة التى تستحلفنى بها، أن تنسنى أجل هذا الدين وألا تعجلنى وفاءه ملحا، فإنك إن تعجل أو تلح موهن صداقتنا، مضيع لها من حيث لا تدرى!.. والآن، فاذهب يا صديقى "سنوحى"... اذهب إلى "تانيس"، واختر هناك من تشاء من الرجال الذين يرافقونك حراسا خلال الصحراء، ولعل صقرى يستطيع حمايتك، فأنا نفسى لا أستطيع أن أصنع لك شيئا، ذلك لأن سلطانى لا يصل إلى تلك الأصقاع، ولئن وقعت أسيرا فسأبادر إلى شراء حريتك، فإن كانت الأخرى ولقيت حتفك قبل بلوغ الفداء، فلك على عهد أن أثأر لك، وأحسبك بعد هذا غير محتاج إلى مزيد من الطمأنينة؟!..

فقلت له فى أسى ويأس: وما جدوى إن تخضب وجه الأرض بدمائهم جميعا بعد أن يصبح بدنى نثارا بين مناقير الغربان وطعاما فى أجواف الذئاب؟! إن خيرا من هذا عندى أن تذهب إلى الأميرة "باكيت آتون" فتبلغها عنى أطيب تحية، فإنها يا صديقى "حورمحب" ذات جمال رائع وأنوثة طاغية، وعلى الرغم من أنها متكبرة

متسامية، كانت تسائلنى عنك وهى إلى جانب فراش موت أمها!.. فلعمرى إنها لأميرة لطيفة فى كبرياء، رقيقة القلب فى استعلاء!..

وتركت "حورمحب" شاعرا ببعض الراحة إذ سددت بهذه الكلمات سهما إلى قلبه!.. ثم استدعيت الكتاب الرسميين ليسجلوا وصيتى فى أنى قد نزلت عن كل ممتلكاتى وأموالى إلى كل من "كابتاح" و"ميرييت" و"حورمحب"، وأودعت هذه الوصية بعد توثيقها فى محفوظات "ممفيس"...

وأبحرت على إحدى السفن إلى "تانيس"، وهناك فى الجانب الآخر على أطراف الصحراء اتصلت بنقطة حراسة الحدود التابعة "لحورمحب"، وكان رجالها وقتئذ يعبون من شراب الجعة، ساخطين على الحياة التى يحيونها، فقد كانت حياة مملة غاية الإملال، موحشة غاية الإيحاش، حياة الصحراء المقفرة، حيث لا يكاد يكون لهم فيها من عمل سوى اصطياد بقر الوحوش، ومطاردة الذئاب، ومساكنهم هناك أكواخ من الطين تطفح بالأقذار والريح الكريه والنسوة اللائى يخدمنهم من أحط الطبقات، فكانوا لذلك ضيقى الصدور بهذه الحياة الفارغة التى تشبه الأفران وسط براغيث الصحراء، وهم يتطلعون فى شغف إلى اليوم الذى يقودهم فيه "حورمحب" إلى خوض المعركة فى "سوريا"، وليكن بعد ذلك مايكون!.. ليكن الموت نفسه، فإنه أحب إليهم مما هم فيه!.. لقد كانوا على أية حال يتقدون حماسة للقتال، وكانت أمنيتهم المفضلة أن يكونوا فى مقدمة القوات المصرية الحربية الذاهبة إلى "أوروشليم" أو إلى مدينة "مجدو"، ليكتسحوا أمامهم السوريين، كما تكتسح مياه فيضان النيل الأعشاب الجافة فى طريقها!.. هكذا كانوا يقولون فى حماسة متأججة!..

ومن هؤلاء الرجال اخترت قوة الحراسة التى سترافقنى فى رحلتى، وشرعت هذه القوة فى إعداد نفسها، فتزودت بالقراب المملوءة ماء، وتجهزت بالجياد التى جئ بها من المراعى، فشد منها حصانا إلى كل عجلة من العجلات الحربية العشر التى أمر بها "حورمحب" بعد أن أصلحها الحدادون وأوفوها حاجتها كاملة، وأردف بها بقية الجياد

المناوبة والاحتياط، وأقيم على كل عجلة منها رجلان إلى جانب السائق، أحدهما من الجنود المشاة، والآخر من الجنود الرماة...

وجاءني قائد هذه الفصيلة مقدما نفسه لي، فأجلت فيه نظري طويلا، متفرسا كما لو كان واحدا من أولئك المرضى الذين كانت أمراضهم تستخفي فأحاول استظارها بالتمحيص الدقيق!.. ولا عجب فقد كانت حياتي في هذه الرحلة المخيفة وديعة بين يديه!.. وكان في مظهره لا يختلف عن بقية رجاله، فملابسه كملابسهم مهلهلة قذرة، وقد لوحت الشمس وجهه وصبغته بالسواد القاتم، غير أنه كان يتميز فيهم بسوطه المضفر بأسلاك الفضة، وبمظلته التي كان يحملها تابع خاص. وأخيرا شعرت بالطمأنينة إليه والثقة فيه، فما حاجتي إلى من يلبسون الملابس الفاخرة، ويتزينون بالحلل الزاهية، في سفر شاق محفوف بالمكاره!..

ولما حان موعد التحرك للسفر سألته عن المحفة التي أعدت لي، فضحك ملء شدقيه وقال لي إن مكاني سيكون إلى جواره على عربته الحربية، فليس ثمة محفات خاصة في هذه الرحلة، ذلك لأن السلامة فيها مرتهنة بالسرعة مع التجرد من وسائل الراحة التي لا مكان لها إلا في الحياة المنزلية الوادعة!.. ثم أردف قائلا إنه من الممكن أن أجد معه، بالعربة الحربية، مقعدا وثيرا، ولكنه مع ذلك يرى من الخير أن أظل واقفا بجواره، فذلك من شأنه أن يحفظ لأعصابي توازنها خلال تحركات العجلة، وأن يجنبني الهزات العنيفة التي قد تقطع أنفاسي أو تحطم عظامي، إلى آخر ما يؤدي إليه الاصطدام بجوانب العجلة!..

قلت له، وأنا أتأهب للصعود إلى جانبه فوق عجلته الحربية: إنها ليست المرة الأولى التي أركب فيها عجلة على هذا النحو، فقد ركبتها مرة من "أزمير" إلى "عمورية"، وقطعت المسافة بينهما - على ظهرها - في أقصر وقت، ولقد أدهشت هذه السرعة أولئك الذين كانوا يرافقونني فيها من رجال "عزيرو"، وكنت إذ ذاك أصغر سنا مني الآن!..

وأكبرنى هذا فى نظر قائد الفصيلة، واسمه "جوجو"، فأخذ يدعو جميع آلهة مصر لتحمى حياتى، وفى احترام أردفنى خلفه على العربة ورفع علمه صائحا فى الجياد، فانطلقت بنا فى طريق معلم للقوافل وسط الصحراء، ولكنها ما كادت توغل فى الطريق حتى تخلخلت ساقاى واضطربت أعصابى فاستندت لهجا على حشية العليق، وأمسكت جانبى العربة بكلتا يدى، وتلاشت صرخاتى فى ضوضاء العجلات المنطلقة فى سباق عنيف، حيث كان سائقوها يهللون فرحا لخروجهم إلى الصحراء الرحيبة من أكواخهم التى كانت حياتهم فيها جحيما لا يطاق!..

وعلى تلك الحال قضينا يومنا الأول. وفى المساء اضطجعت على حشية العليق منهك القوى، أقرب إلى الموت منى إلى الحياة، لاعنا اليوم الذى ولدت فيه!..

وفى اليوم التالى تحايلت على اجتناب الرهق الذى عانيت منه بالأمس، فوقفت على العربة وأمسكت بوسط "جوجو" فى حرص شديد، ولكن لم تكد تمضى لحظات على تحرك العربة حتى اصطدمت إطاراتها بحجر فى الطريق فانقلبت فى شبه قوس، وهويت أنا من فوقها مقلوبا، فساقاى فى الهواء، ورأسى فى الرمال حيث تلقتنى النباتات الصحراوية كثيرة الأشواك، فأدمت وجهى ومزقت جلدى. ومع أنى استجمعت قوتى لأبدو قليل الاكتراث بما أصابنى، فإن "جوجو" كان ظاهر القلق على حالتى، وقد أخذ يصب على رأسى من الماء الذى كان يضن به رجاله إلا فى أشد حالات الظمأ، ويواسينى قائلا إنها عثرة مألوفة فى أسفار الصحراء، وهى دليل على السرعة التى تفرضها علينا أهمية الغرض من الرحلة، وقد قطعنا بها شوطا بعيداً، وسوف نبلغ طلائع قوات "عزيرو" فى اليوم الرابع إذا لم تفجأنا القوات الحرة خلال ذلك!.. وبعد أن أقيمت العربة وأصلحت، استؤنف السير كما كان، انطلاقا وسباقا، حتى أقبل الليل!..

وقبيل الفجر استيقظت على حركة غير عادية، فإذا بى أرى "جوجو" يدفعنى بقوة من فوق العربة فأسقط لفورى على الرمال، وإذا به كذلك يقذف ورائى بألواحى وحقيبتى.. ثم يلوى عنان جياده ويلهب ظهورها بسوطه وينطلق بها وفى أثره بقية

العربات، وكانت لسرعتها المتزايدة تثير فى الأفق شررا مولدا من احتكاك إطاراتها بأحجار الطريق!..

كانت مفاجأة مذهلة، ما كدت أنتبه منها وآخذ فى نفض الرمال التى علقت بوجهى وغشيت بصرى، حتى رأيت جمعا من العجلات الحربية تقبل نحوى منحدرة من التلال على شكل مروحة كما هى الحال فى نظام المعارك، فأيقنت أنى مأخوذ بغارة حربية معادية، انفلت منها "جوجو" ورجاله هربا، فنهضت وجلا والتقطت من قريب غصن نخلة ورحت ألوح بها من علٍ علامة السلام. ولكن العجلات مضت فى ركضها لتلاحق "جوجو" دون أن يعيرنى قائدوها التفاتا، وإن كان أحدهم قد أبى إلا أن يريش من كنانته سهما نحوى، كان له حول أذنى حفيف مخيف، ولكنه أخطأنى فغاص فى الرمال إلى جانبى!..

وكان "جوجو" قد أحكم طريقة هربه فلم تستطع هذه العجلات الرابضة فى أثره أن تلحق به، فعادت أدراجها حتى إذا بلغت مكانى توقفت وهبط منها قادتها، وعرفت عندئذ أنها من قوات "عزيرو"، فكشفت لهم عن شخصيتى وعرفتهم بمكانتى ومهمتى، وأطلعتهم على ألواح "فرعون"، وحسبت أن هذا عاصمى من شرهم، ولكنهم لم يأبهوا بذلك واستغلظوا معى فى وحشية مريرة، فنهبوا متاعى وافتضوا حقيبتى واستولوا على ما فيها من ذهبى، وجردونى من ملابسى، ووضعوا فى معصمى وثاقا ربطوه بمؤخرة إحدى عجلاتهم، وعادوا إلى أماكنهم بالعربات منطلقين بها وأنا مشدود الوثاق أجرى وراءهم مبهور الأنفاس حتى كدت أموت اختناقا فى غمار الرمال التى كان غبارها يثور متكاثفا!.. على أن معسكر "عزيرو" كان يقع خلف سلسلة التلال القريبة، فبلغناه فى اللحظة التى كنت قد يئست فيها من الحياة. وخلال الغشاوة التى رانت على عينى لفرط ما تراكم عليهما من غبار الصحراء، استطعت أن أرى خيام هذا المعسكر محاطة بسياج من عجلات الحرب والعربات التى تجرها الثيران وعلى مقربة منها جياد تنساب فى الكلأ والمرعى، ثم غلبنى الإعياء فسقطت فاقدا وعيى إلى أن أفقت بعد وقت لا أدرى أطويلا كان أم قصيرا فرأيت الإرقاء حولى

يرشون وجهي بالماء، ويدلكون أطرافي بالزيت. وعندما اطلع أحد الضباط الذين يعرفون القراءة - على ألواحي - تبدلت نظراتهم نحوي وأعدوا ملابسي فارتديتها، وراحوا يعاملونني باحترام بدا في نظري عظيما بالقياس إلى ما كنت فيه، منذ قليل، من هوان وإذلال!..

وبعد أن استعدت بعض ما تبدد من قواي، وقويت ساقاي على المسير، ذهبوا بي إلى خيمة "عزيرو"، وكانت تنبعث منها رائحة الشحم والوبر والبخور. فلما انتهينا إليها تلقاني "عزيرو" مرحبا وهو يزأر كالأسد، والقلائد الذهبية تحيط بعنقه وتلتمع على صدره، ولحيته ذات الشعر الكث المعقد تلف بها شبكة من الفضة، وقال لي وهو يضمني إلى صدره: لقد آلمني أن رجالي أساءوا إليك، وكان ينبغي أن تنبئهم بأنك "سنوحي" صديقي ومبعوث "فرعون" في الوقت نفسه، وأن تلوح لهم من فوق رأسك بفرع من النخيل علامة السلام كما جرت بذلك العادة في التعبير عن النية الحسنة، ولكنك لم تفعل هذا، بل قالوا لي إنك فعلت نقيضه تماما، إذ هاجمتهم شاهرا سكينك، فاضطروا إلى القبض عليك دفاعا عن أنفسهم!...

فقلت له في مرارة وأنا أشير إلى ساقي ومعصمي: انظر!.. فلعل فيما ترى بي من آثار وحشيتهم دليل صدقهم وبراءتهم!.. إن رجالك لأجرأ من عرفت من الناس على الكذب والافتراء!.. ولو كانت بهم شجاعة أهل الحرب لقالوا لك الحقيقة، وهي أنهم حطموا غصن النخيل الذي لوحت به لهم، ثم داسوا على ألواح "فرعون" التي ذكرت لهم أني أحملها إليك، ونهبوا متاعي ومالي وجردوني من ملابسي وأوثقوني عاريا بمؤخرة عجلاتهم!.. لقد ارتكبوا بذلك إثما فظيعا ويجب أن تعاقبهم بالجلد ليعرفوا كيف يحترمون مبعوث "فرعون"!..

ولكن "عزيرو" فتح رداءه ورفع يديه في سخرية وقال: ما أظنك إلا قد عانيت من رؤيا سيئة يا "سنوحي"؟!. ومع ذلك فماذا كنت أستطيع أن أفعل لأمنع هذا الذي أصابك في ساقيك وبدنك من كلال ومن آلام، خلال رحلة طويلة مضنية؟! أما هؤلاء

الذين تطالبني بجلدهم فهم الخيرة من رجالي، ولن أنالهم بأذى لمجرد إرضاء مصرى تعس!.. إن كلامك، يا مبعوث "فرعون"، ليقع على أذنى كأنه طنين الذباب!..

قلت له مداهيا: "عزيرو"!.. يا ملكا على ملوك كثيرين.. إن رجلا واحدا منهم - على الأقل - ينبغى أن تأمر بجلده وهو ذلك الذى أهدر آدميتى وعاملنى كما لو كنت ثورا أو حمارا، فربطنى بلا خجل فى مؤخرة العجلة، وجرنى بها مشدود الوثاق كالأرقاء الأذلاء!.. اجلده وحده، وهذا حسبى، وأعلم أنى جئتك بالسلام هدية لك ولسوريا!..

فضحك "عزيرو" ضحكة عالية وقال لى فى شموخ: لا يهمنى كثيرا أن يتمرغ "فرعون" البائس أمامى مستجديا السلام، لا مهديا له!.. على أنى، من أجلك أنت، كصديقى وصديق زوجى وولدى، سآمر بجلد هذا الرجل الذى شدك إلى العجلة وجرك خلفها، فذلك الذى فعله مخالف للتقاليد المرعية، ثم إننى - كما تعلم - أحارب بالأسلحة الشريفة فى سبيل أهداف سامية!..

وجئ بالرجل الذى أمر "عزيرو" بجلده، تأديبا له على ماسامنى من إذلال وتعذيب، وشاعت الغبطة فى نفسى عندما رأيت السياط تلهب جسده على مشهد من الجموع الحاشدة أمام خيمة "عزيرو"، وكان رفاقه من أشد الناس ضحكا عليه وازدراء له كلما انفجر صارخا متأوها، ولم يبد على أحد منهم أى أثر من العطف عليه، ولم يكن ذلك منهم استنكارا لفعلة كانوا منذ قليل شركاءه فيها، وإنما كان ذلك لأنهم محاربون غلاظ القلوب رأوا مشهدا مثيرا، فتلهوا به، إذ كانت حياتهم الملأى بالجفوة والملالة قد أظمأتهم إلى مثل هذا المشهد الجديد، فهم فرحون به حتى لو كان ضربا بالسياط، أو كان المجلود المتألم المستغيث واحدا منهم!.. ولكننى مع شناعة ما أصابنى منه، ومع ما كان ظاهرا من ارتياح رفاقه إلى جلده، ومع ما كان ظاهرا كذلك من رغبة "عزيرو" فى أن يستمر جلد هذا الشقى حتى يموت، مع ذلك أخذنى الإشفاق عليه حينما رأيت دمه يسيل ولحمه يتمزق تحت السياط، فرفعت يدى طالبا أن يكفوا عنه ويبقوا على حياته، وعندئذ توقفوا وحملوه إلى خيمة رافقنى إليها

"عزيرو" وسط دهشة الضباط والجنود الذين لم يكن يخطر ببالهم أنى سأصفح عنه على هذه الصورة. وفى الخيمة أخذت في تضميد جراحه وتدليك ظهره بالمرهم الذى كنت قد استعملته فى تدليك مفاصلى التى أوهنها وأدماها هذا الرجل نفسه، ثم أمرت له بالجعة يشربها ويملأ بها جوفه لتمده بالقوة التي فقدها، وقد استغرب منى هذه المعاملة الرقيقة، وأنا الذى لقيت ما لقيت من عدوانه وقسوته، وخالنى لهذا مجنونا، ولاح فى نظراته نحوى أننى لا أستحق شيئا من احترامه!..

وفى المساء دعانى "عزيرو" إلى طعام من اللحم المشوى والأرز المطبوخ فى الدهن، فتناولته معه في خيمته وشاركنا فيه رؤساء جنده وبعض القادة من الحيثيين الذين ألحقوا بمعسكره وكانت تميز هؤلاء الحيثيين أرديتهم الخاصة ودروع صدورهم المحلاة برسوم تمثل رءوس الثيران والشموس المجنحة.. وطاف علينا السقاة بالنبيذ فشربنا منه جميعا، وشعرت بأنهم يعاملوننى فى كثير من الرقة والإسماح ولطف الخطاب، وكانوا لا يصطنعون ذلك مجاملة، فقد علموا أنى مقبل إليهم بدعوة السلام، وكانوا - لفرط ما يعانون من متاعب الحرب وكوراثها - قد برموا بها واشتد حنينهم إلى السلام الذى جئت داعيا إليه، ولهذا طابت نفوسهم بمجلسي. وخلال نشوة الشراب أخذوا يتحدثون في انطلاق وصراحة عن الحب والسلام وحرية "سوريا" ونير الطغاة الذين حطموه وتخلصوا منه، إلى غير ذلك من أحاديث الماضى والحاضر والمستقبل، ولكنهم - بعد أن أسرفوا فى شراب النبيذ - لم يعودوا جميعا على رأى واحد، فاختلف بعضهم مع بعض فى الرأى ووجهة النظر، وأسلمهم هذا الاختلاف إلى الغضب والملاحاة والتشاجر وتحدث رجل من "عمورية" وأخر من "يافا"، فاستل الأخير سكينه وطعنه بها فى عنقه، وهنا نهضت لإسعاف "العمورى" بالعلاج، ولم يقتض هذا جهدا كبيرا فإن الطعنة لم تنفذ إلى الشرايين، ولكني مع هذا تلقيت منه - على سبيل الاعتراف بالجميل - مجموعة من الهدايا الثمينة!..

-٢-

وأشار "عزيرو" إلى رجاله بالانصراف إلى خيامهم ليواصلوا فيها شجارهم إذا شاءوا، وجاءني بعد انصرافهم بولده الذى لم يكن قد جاوز بعد العام السابع من عمره، وراقنى منظره، فقد كان على حداثته يبدو صبيا جميلا، منضر الخدين كأنهما تفاحتان ناعمتان، وفى عينيه بريق لامع، وعلى وجهه انعكاسات من جمال وجه أمه، وكانت فيه، إلى ذلك، مشابه من قوة أبيه ووثاقة بدنه. وقال لى "عزيرو" وهو يمسح على رأس ولده ذى الشعر المجعد: ما أظنك رأيت من هو أجمل وأظرف منه فى الصبيان؟!.. إنه رفيقى فى كل قتال، فلا أطيق أن أمضى بدونه إلى أمر بعيد أو قريب حتى ولو كان ذلك فى سبيل القضاء على الفتن الصغرى فى القرى الدانية، ذلك لأنى، فوق خشيتى على حياته الغضة العزيزة، أعده ليكون رجلا ذا بأس، وأروضه فى سنه الباكرة على حمل التبعات العظمى فيما أهيئ له من ملك كبير، فمن أجله ظفرت بتيجان كثيرة، وسيصبح يوما حاكما عظيما على مملكته التى ستمتد إلى آفاق بعيدة، وقد أثمر غرسه كما لم يحدث لمن كان فى مثل سنه الصغير، فهو الآن يحسن القراءة والكتابة، وظهرت فيه دلائل القوة والشجاعة حتى لقد استطاع أن يبقر بسيفه بطن أحد الأرقاء حينما اجترأ عليه بكلمة نابية، وعلى هول ما يشهد معى من الوقائع الحربية، لم يضطرب مرة اضطراب الخائف الفزع!..

بمثل هذا الزهو كان "عزيرو" يتحدث عن ولده. وقد عرفت منه أن زوجه "كيفتيو" تظل فى "عمورية" طول الوقت الذى يقضيه بعيدا عنها فى الحروب والأسفار، وقال لى إنه يحن إليها فى غربته حنينا شديدا؟ لأنه يكابد الكثير من العناء فى مضاجعة غيرها من النساء الأسارى وعذارى المعبد اللائى يرافقن الجيش، فواحدة من هؤلاء جميعا لا تغنى عنده غناء "كيفتيو" التى يحبها أعمق الحب ولا ينساها أبدا.. واستطرد يقول لى، مؤكدا هذا المعنى، إن السنين التى تتابعت عليها، منذ آخر عهدى بها، قد زادتها فتنة وجمالا حتى إننى لا أكاد أعرفها الآن إذا رأيتها!..

وفيما كنا نتحدث، قرعت أسماعنا أصوات عويل، فقال لى "عزيرو" وهو يغالب غضبه: هاهم الضباط الحيثيون قد عادوا إلى تعذيب نسائهم!.. وهذا أمر يثير سخطى ولا أستطيع أن أمنعه، لحاجتى إلى بسالتهم فى القتال. ولكنى، لتكراره، قد ضقت بهم ذرعا، فلست راضيا عن هذه العادة السيئة التى أخشى أن تسرى عدواها إلى رجالى...

وتلقفت هذه الفرصة فقلت له: لقد عرفت الحيثيين وبلوت أخلاقهم وطباعهم والرأى عندى أنهم قوم لا أمان لهم ولا يرتجى خير فيهم، ونصيحتى لك يا "عزيرو" يا ملك الملوك، أن تقطع علاقتك بهم، فهم غير أهل لثقتك وما أسرع أن يثبوا عليك، لأول بادرة، ليطيحوا بالتيجان من فوق رأسك، وليحطموا رأسك فى الوقت نفسه!.. إن الغدر والخيانة طبيعة فيهم، وخير لك وأجدى أن تعقد السلام مع "فرعون"، وتدعهم مشتبكين فى المعارك مع "ميتانى". و"بابل" الآن مسلحة ضدهم - كما تعلم - ولن ترسل لهم القمح مادمت على صداقة مع أهلها. وإنى إذ أنصحك بمسالمة "فرعون" ومصالحته، إنما أنظر فى الأمر نظرة الصديق، لا أخدعك ولا أداجيك، وينبغى يا صديقى "عزيرو" أن تفطن إلى ما سوف يكون عندما يحل الشتاء ولا يكون ثمة صلح قد انعقد بينك وبين "فرعون"!.. إن "فرعون".. عندئذ لن يرسل إليكم القمح الذى كانت "مصر" ترسله وافرا من قبل، ونتيجة هذا أن تلم بكم حتما مجاعة فاتكة، إلى ما يحيط بكم من غدر الحيثيين وخيانتهم!..

فأجاب "عزيرو" قائلا: كأنى، حينما تتكلم هكذا، أسمع هذيان مخبول!.. فهؤلاء الحيثيون ليسوا على هذه الصورة القاتمة التى يوحيها إليك الخيال الماكر... إنى أعرفهم تماما ولا أحتاج إلى رأيك فيهم!.. إنهم لأصدقائهم مخلصون أحباء، ولكنهم على أعدائهم قساة أشداء... ومع أنه لم تنعقد بينى وبينهم معاهدة حتى الآن، فإنهم يزجون إلى الكثير من الهدايا الغالية والدروع المصقولة اللامعة، ودون أن يكون لهم دخل فى موقفى وتصرفاتى، أستطيع أن أقول إننى أوثر السلام على الحرب، وما أفكر فى القتال إلا لأنال به سلما شريفا، ولهذا وفى حرية مطلقة، أرحب بالصلح مع

"فرعون" منفردا، على أن يسلمنى "غزة" التى اقتطعها منى عن طريق الخدعة، وأن يعوضنى بالقمح والزيت والذهب عن كل ما وقع لى من خسائر فى مدن "سوريا" أثناء الحرب، فمصر هى وحدها المسئولة عن هذه الحرب، كما لا أظنك تجهل!..

قال ذلك، وهو يحدجنى بنظرات وقحة، وعلى فمه ابتسامة ساخرة، فأجبته فى عصبية واحتداد قائلا: ماذا تقول يا "عزيرو" أيها السفاح، قاطع الطرق وسارق الماشية؟! ألا تعلم أن مصانع "مصر"، فى كل أنحاء المملكة السفلى، لا تنفك تعمل، ليلا ونهارا، لتصنع الدروع والأسلحة، وما تدرى وما لا تدرى من أدوات القتال!.. إن لدى "حورمحب" من العجلات الحربية ما يزيد على عدد البراغيث التى تحتشد فى فراشك!.. وإنها لتوشك أن تنقض عليك انقضاض الصواعق فى موسم الحصاد!.. ولقد أعماك الغرور عن إدراك هذه الحقيقة، وأغرتك بفرعون دعوته إلى السلام، وهو لا يدعو إليه عن ضعف وإنما يدعو إليه كوسيلة لحقن دماء الأبرياء إرضاء لإلهه فحسب، ويجب أن تعلم أن "حور محب" ذلك المحارب الذى طبقت شهرته الآفاق، غير راض عن هذا السلام، وقد بصق على قدمى حينما حدثته عنه، فليس لك قبل بقوته، وعليك أن تنظر فى الأمر بما ينبغى له من أناة وحكمة، وإلا فستندم حين لا ينفع الندم!.. أما "غزة" فلن تفرط "مصر" فى قيد أنملة من أرضها، وستحتفظ بها رضيت أنت أم لم ترض!.. أما قطاع الطرق فى الصحراء، فعلى رأسك يقع وزرهم، إنهم من هؤلاء السوريين الذين اجتاحهم ظلمك وقسوتك فانطلقوا إلى الصحراء فرارا منك ليتخذوا منها مجالا واسعا لمناهضتك وإقلاق بالك، فأنت المسئول عنهم، وأنت سبب ما تعانى من أعمالهم، وعليك أنت، لا على "مصر"، أن تدفع أذاهم وتتقى شرهم، وإنى لأطلب إليك الآن باسم "مصر" أن تفك إسار المصريين وتؤدى تعويضا عما لحق التجار منهم من خسائر فى المدن السورية وتعيد إليهم ممتلكاتهم فيها!..

وما إن سمع "عزيرو" هذا حتى راح يمزق ملابسه ويشد لحيته ويصرخ فى غيظ قائلا: ألم أقل إنك تهذى؟! لا شك فى أن كلبا مسعورا قد قضم لحمك بأسنانه يا "سنوحى"؟.. إن "غزة" يا هذا، بلد لا يستطاع فصله عن "سوريا"!.. وهؤلاء التجار

المصريون الذين تتحدث عنهم هم وحدهم المسئولون عن خسائرهم، أما الأسرى، فلا مناص من بيعهم فى أسواق الرقيق كما تقضى بذلك التقاليد!.. على أن "فرعون" يستطيع أن يشترى حريتهم إذا كان لديه من الذهب ما يكفي لذلك!..

وعدت أقول له في هدوء: دع عنك هذا التحدى يا "عزيرو"، وليكن حديثنا حديث صديقين، مجردا من المداورة والخداع.. وصدقنى إن سلاما ينعقد بينك وبين "فرعون". خليق أن تجنى منه ثمرات طيبة، منها أنك تستطيع أن تبنى قلاعا حصينة فى مدنك تأمن بها سطو الحيثيين أو غزوهم، ففى هذا السبيل ستمدك "مصر" بعون كبير، وكذلك ستتواصل المعاملات التجارية بين بلادك و"مصر"، وتزدهر بهذا تجارتك وتنمو ثورات الكثيرين من تجاركم دون أن تقتضيهم "مصر" على ذلك شيئا من الجزية أو الضرائب، ولا خوف فى هذه الناحية من الحيثيين، فليست لديهم مراكب حربية يستطيعون بها وقف أو تعطيل التبادل التجارى بيننا وبينكم!.. فهذه وكثير مثلها، منافع ستفوزون بها فى ظل السلام المنشود، وكفتك فيها يا "عزيرو" هى الراجحة بلا ريب، ولا يمكن أن توصف شروط "فرعون" من أجل تحقيقها إلا بأنها غاية الاعتدال، وليس من حقى، على أية حال أن أغير فيها شيئا!..

ولم نصل من الجدال فى هذا المساء إلى نتيجة، وقد استأنفناه معًا بعد ذلك فى أيام عدة وكثيراً ما كان يثور فيمزق ملابسه ويحسو الرماد على رأسه ويسمينى لصا أو يتهمنى بأنى أخدعه للوقوع فى حبائل "مصر"، ويبلغ به شعور الخوف من "مصر" إلى حد أن يتخيل أنها تحتفر لابنه حفرة يموت فيها، فيفزع من هذا الخيال، وفى عبارات حزينة يروح يندب سوء حظ ابنه ويتفجع عليه!..

وكانت الأيام والأحداث التى تلت ذلك عونا لى عليه، فأخذ يلين ويسلس شيئا فشيئا، ذلك أن المشاجرات بين جنوده المختلفين طباعا وأخلاقا كانت تتزايد وتتفاقم داخل معسكره يوما بعد يوم، وكان الكثيرون منهم بين أونة وأخرى، يتركون المعسكر عائدين إلى بلادهم ولا يستطيع هو أن يمسكهم لأن سلطانه عليهم، إلى ذلك الحين، لم يكن قد استقر استقراراً يمكنه منهم!.. وحدث، ذات مساء أن اقتحم خيمته رجلان

وحاولا اغتياله طعنا بالخناجر، ولكن طعناتهما لم تكن قاتلة، فنجا واستطاع أن يقبض على أحدهما ويذبحه، واستيقظ ابنه وقتئذ، فأدرك الثانى ورماه بسيفه الصغير فى ظهره فأصاب منه مقتلا.

وفي اليوم التالى لهذا الحادث، استدعانى "عزيرو" إلى خيمته، وبعبارات حارة مزعجة أخذ يتهمنى بمحاولة اغتياله. وعلى ما عرانى من خوف لهذه المفاجأة، فإنى استجمعت قواى لمواجهة الموقف بالأسلوب الذى تعودت مجادلته به، وانتهى الأمر بيننا أخيرا إلى تسوية نهائية، ساعدت عليها الظروف الملابسة، وتأكيدا لها وضعت باسم "فرعون" أسس السلام مع "عزيرو" ومع المدن السورية كلها، على أن تبقى "غزة" تابعة لمصر، ويتولى "عزيرو" إخضاع القوات الحرة، ويكون لفرعون حق افتداء الأسرى المصريين وشراء الأرقاء..

وعلى هذه الأسس، وبهذه الشروط عقدنا معاهدة صداقة دائمة بين "مصر" و"سوريا" وسجلت على الألواح الطينية، وتأيدت بأسماء آلهة "سوريا" وآلهة "مصر" واسم "آتون". وكان "عزيرو" وهو يوقع بخاتمه على الألواح يصطنع الاستياء والسخط، فيلعن ويسب... وصنعت أنا مثله، وأنا أوقع بخاتمى المصرى، فمزقت ملابسى وبكيت!.. كنا كلانا نتظاهر بذلك زيفا ورياء، أما الحقيقة فقد كان كل منا مغتبطا داخل نفسه بهذه النتيجة!..

وتأهبت بعد ذلك للعودة، فودعنى "عزيرو" وداع صديق وزودنى بهداياه، وقد وعدته بهدايا مثلها له ولزوجته وولده، أبعث بها إليهم على أول سفينة تبحر من "مصر" بعد عودتى، وكان ولده حاضرا فى لحظة الوداع، فرفعته فوق ذراعى حانيا عليه وقبلته فى وجنتيه الموردتين، وامتدحت شجاعته متفائلا له بمستقبل سعيد، فهز ذلك أعطاف "عزيرو"، فضمنى إلى صدره شاكرا، وعلى هذه الصورة الدالة على الوفاق المتبادل، افترقنا!..

ولكنه لم يغب عن فكرى - كما لا شك فى أنه لم يغب عن فكر "عزيرو" - أن معاهدة السلام التى وقعناها منذ قليل، ليست إلا مجرد خطوط رسم على الطين،

اقتضاها من جانب "عزيرو" إدراكه للظروف القاسية التى تحيط به، واقتضتها من جانبى إرادة "فرعون" وحده، غير أنها - فى الواقع - أضعف من أن تحقق السلام الذى تهدف إليه، فدون هذا السلام العواصف العاتية والأنواء الشديدة، وسيبقى - إلى حد بعيد - مرتهنًا باتجاهات الحيثيين بعد عودتهم من "ميتانى"، ومتوقفا على مبلغ صمود "بابل"، ومدى قوة سفن "كريت" الحربية فى حماية التجارة البحرية!.. وهذه كلها عوامل مؤثرة فى الموقف العام، وخارجة فى الوقت ذاته عن نطاق المعاهدة!..

ومهما يكن من الأمر فى الغد، فإن "عزيرو" قد أخذ فى تسريح قواته فور التوقيع على المعاهدة، وأصدر أمرا إلى رجاله فى "غزة" لرفع الحصار عنها، وجهزنى فى عودتى إليها بحرس من جنده. على أنى كدت أقع فريسة الموت قبل أن أدخلها، ذلك أننا عندما اقتربنا من أبوابها رفع الجندى، الذى كان يقف إلى جانبى من قوة الحرس، غصن النخيل ملوحا به وهو يصيح معلنا أن السلام قد تم، ولكن المصريين المدافعين لم يأبهوا لهذا الصياح، وأخذوا يريشون سهامهم فى اتجاهنا، ويشهرون حرابهم إيذانا بالشر، ورأيت نفسى ساعتئذ فى أحضان الموت. وقد حاول رفيقى الجندى أن يحمينى من هذا الخطر الداهم، فوضع درعه فوقى، وهنا أصابه السهم المريش فسقط مضرجا فى دمه، ولاذ رفاقه بالفرار!.. وفى فزع واضطراب تقبض بعضى فى بعض، وجثمت على الأرض تحت الدرع كالسلحفاة. ولما رأى المصريون - وهم منى بمعبدة فى مواضع دفاعهم - أن سهامهم تخطئنى وأنا على تلك الحال، أسالوا من وعاء ضخم قطرانا يغلى على الأرض مصوبا نحوى. وكان هذا كافيا للقضاء على حياتى، ولكن - لحسن الحظ - كانت هناك أحجار كبيرة وقفت سيره وحالت بينى وبينه، فلم يسمنى منه إلا قطرات أحدثت بيدى وساقى بعض حروق خفيفة!..

وكان المحاصرون من رجال "عزيرو" يشهدون هذا فضحكوا منه ضحكا شديدًا!... وأخيرا أمر رئيسهم فنفخ فى النفير إعلانا للسلام الذى وافاهم نبأه فى

رسالة "عزيرو" - وإذ ذاك سمح المصريون لى بدخول المدينة؟ ولكنهم أبوا أن يفتحوا أمامى أبوابها، وكانت الوسيلة التى اختاروها لدخولى، هى أنهم ألقوا من فوق الأسوار سلة كبيرة ذات حبل موثق فدخلت فيها قابعا بألواحى ومتاعى، واسترجعوها إليهم مشدودة بالحبل، وبذلك صرت بينهم!..

وفى انفعال وغضب، وجهت إلى قائد الحامية عبارات تأنيب قاسية، ولكنه كان رجلا خشنا صارما، فأخبرنى أنه كثيرا مالقى من السوريين محاولات خبيثة من هذا النوع الخادع ولهذا قرر ألا يفتح أبواب المدينة إلا بأوامر صريحة من "حورمحب"، وهو - إلى الساعة التى جئته فيها - لا يعلم أن صلحا قد تقرر، فأطلعته على ألواح المعاهدة وتحدثت إليه فيها باسم "فرعون"، فلم يقتنع وظل على اعتقاده بأن الحرب ما زالت قائمة، وأن موقفه لن يتغير بمثل هذه الطريقة!.. لقد كان على سذاجته عنيدا ولم أضق بعناده، بل لعلى أكبرته، فلولاه ما بقيت "غزة" فى قبضة "مصر" حتى اليوم، ولهذا لم أر من حقى أن أطيل فى تأنيبه أو جداله!.

وركبت البحر من "غزة" قاصدا إلى "مصر".. وقلت للبحارة أن عليهم، إذا ما رأوا فى عرض البحر سفينة معادية، أن ينشروا فى الحال، فوق سارية سفينتنا، راية "فرعون" المستطيلة مجهزة بكل إشارات السلام، ولكنهم استغربوا هذا وخيل إليهم أنى أتحدث عن خرافة فحامت عيونهم حولى فى سخرية وإشفاق!.. ذلك لأنهم لم يكونوا يتوقعون شيئا من هذا السلام المزعوم!..

وعلى شاطئ النهر - حين بلغناه - تجمع الناس فى كثرة كاثرة وفى أيديهم أغصان النخيل يلوحون بها استبشارا بالسلام الذى عدت به، فقد علموا أننى مبعوث "فرعون" فى سبيله، وقد أصبت النجح فى مهمتى، فهم لهذا يحتفلون بمقدمى فرحين. وعند هذا أكبر البحارة شأنى وشاركوا الأخرين فى تحيتى وتكريمى، ونسوا ما كانوا قد عرفوه من أمر دخولى "غزة" محمولا فى سلة، ومشدودا بحبل من فوق الأسوار!..

وفى "ممفيس" مرة أخرى، لقيت "حورمحب" وأقرأته ألواح المعاهدة فأثنى على مهارتى كمفاوض، وأدهشنى منه ذلك، فما أعرف أنه أولانى قبل هذا شيئا من الرضا عن عمل قمت به!.. ولم أتبين سر خروجه عن هذه القاعدة إلا بعد أن علمت أن الأوامر كانت قد صدرت إلى السفن الحربية التابعة "لكريت" لتلزم مراسيها. وكانت "غزة" من أجل ذلك على وشك السقوط فى يد "عزيرو"، فمن غير طريق البحر كان الاحتفاظ بهذه المدينة أمرا غير مستطاع... ومن هنا كان ما رأيت من تقدير "حورمحب" وثنائه، فقد كان السلام الذى جئت به إنقاذا، لا شك فيه، من هذا الموقف البالغ السوء، وقد أمر "حورمحب" من فوره، بإرسال السفن إلى "غزة" محملة بالقوات والأسلحة والذخيرة!.

وكانت سفينة "فرعون" تنتظر قدومى للإقلاع عليها، فيممت شطرها مودعا من "حورمحب"، وعندما علوت ظهرها التقيت فيها بمبعوث "بورنابورياش" ملك "بابل"، وكان شيخا وقورا واسع المعرفة تتدلى على صدره لحية بيضاء ناعمة، فتحفيت به وأحسنت لقياه، وعلمت أن ملك "بابل" بعث به إلى "ممفيس" خلال إقامتى بمعسكر "عزيرو"، وزوده بماشية وهدايا كثيرة، وشاءت المصادفات أن نلتقى معا فى هذه الرحلة النهرية، وكانت بحق رحلة ممتعة، أنسر فيها كل منا بالآخر، وتحدثنا عن النجوم وكبد الشاة، وحديثها يفتح أمامنا آفاقا واسعة لموضوعات شتى، وتناولنا فيما تناولنا من الأحاديث، الشئون العامة وأحوال الحكم، فلقيته متطيرا من ازدياد قوة الحيثيين، وقال لى فى سياق الحديث عنهم: إن كهنة الإله "مردوخ" تكهنوا بأن قوة الحيثيين ستتناقص وتضؤل على مدى زمن يقل عن مئة عام، وإن جنسا أبيض متوحشا يهب عليهم من الغرب فيبيدهم!. ولم أشعر بأن فى هذا الحديث شيئًا هامًا، ولكنى مع ذلك عجبت كيف يصدق هذاالنبأ فى إبادة الحيثيين من الغرب، وليس فى الغرب سوى جزر البحر!..

وقدم لى هذا الشيخ المحدث الحكيم نبيذا من أجود أنبذة الجبال، فتساقينا منه معا، وازددنا به انتعاشا ونشوة، وقال متابعا كلامه عن الظواهر الدالة على ما بعدها: أن ثمة علامات ودلائل تتواتر مرهصة بنهاية عهد قائم، وإننا من هذا العالم

فى فترة تؤذن بغروب شمسه، وعما قريب تبيد أقوام كثيرة، كما باد بالفعل قوم "ميتانى"، وكثير من الآلهة القدامى ستنقرض قبل أن تولد آلهة أخرى، إلى آخر ما يستشفه خلال ظواهر الأحوال الجارية. وقد كان فى طريقة عرضه وتقديراته ثبتا عميقا مؤثرا حتى إننى تجاوبت معه ووافقته على جملة آرائه فى اقتناع وتصديق!..
وقد سألنى فى اهتمام عن "آتون"، فحدثته عنه وأطلت الحديث، فى حين كان يهز رأسه ويمشط لحيته، وعقب على حديثى بقوله: إن هذا الإله لا يماثله إله آخر من الآلهة التى ظهرت على الأرض، فتعاليمه شىء جديد لا عهد للبشر به وظهوره بها قمين أن يكون إحدى العلامات الدالة على بداية النهاية!..

وانتهينا بهذه الرحلة الممتعة إلى "أخيت آتون"، وعندما برحت السفينة كنت أشعر بأنى صرت أكثر علما وحكمة!..

-٣-

كان "فرعون" حينما عدت يعانى من الصداع الذى أخذ يعترى رأسه خلال غيبتى، وكانت حالته النفسية شديدة الاضطراب لتصورات غامضة أوحت إليه أنه ما من شىء تلمسه يده إلا أصيب بمكروه، وطغى الشعور على أفكاره فكان كأنما يتلظى من ذلك فى نار مستعرة وتأثر جسمه بهذا فذوى واضمحل. ورأى الكاهن "آى" أن يصنع شيئا ما يبهج نفسه العانية ويشحذ قواه الوانية، فقرر أن يقيم مهرجانا فى هذا الخريف بعد الحصاد وقبل ارتفاع مياه النيل، للاحتفال بالعيد الثلاثينى لحكم "فرعون"!.. وليس مهما ألا يكون فرعون "إخناتون" قد قضى فى حكمه ثلاثين عاما... وإنما المهم هو أن يقام المهرجان كوسيلة لإسعاده، وقد جرت تقاليد الفراعين على أن يقام مثل هذا المهرجان - وبالتسمية نفسها - فى أى وقت يشاءون دون نظر إلى ما قد ينتفى فيه التوافق بين وقت إقامته وعدد أعوام الحكم!..

وتوافدت على مدينة "أخيت آتون" جموع كثيرة من الناس ليشهدوا الاحتفال بهذا العيد ويشاركوا فيه. وفى هذه الأثناء وقع حادث مزعج، فبينما كان "إخناتون" يرتاض

سيرا على قدميه بجانب البحيرة المقدسة، هجم عليه رجلان فجأة وحاولا قتله بمديتين مشهرتين في أيديهما، ولكنهما عوجلا بقدوم الحراس ولم يستطيعا الإفلات فوقعا في قبضتهم بعد أن إصيب "فرعون" منهما بجرح خفيف في كفته، وتفقد الحراس سلاح الجانبين فلم يعثروا عليه، ولحوا من قريب شابا كان يجلس على الشاطئ ليرسم البط، فارتابوا فيه وفتشوه ووجدوا هذا السلاح عنده، إذ تلقفه وأخفاه بين أقلام الرسم ومحابره، وسدد إليه أحدهم طعنة فأرداه، وجاءوا به إلى "فرعون" ملطخا بدمه. وكان هذا الشاب واحدا من تلاميذ "تحوتمس" الذين علمهم أن يكون الرسم على الطبيعة، لا نقلا من النماذج، ولكن شاء حظه المنكود أن يلقى به في طريق هذين المجرمين، فكانت هذه هي نهايته التعسة!..

ودعيت على عجل لتضميد جرح "إخناتون"، فجئت من فوري ورأيت الجانبين بمقربة منه في أيدي الحراس، وهما يجاهدان في حركة عنيفة للتخلص من القيود التي كبلا بها، ويصيحان صياحا عاليا متداركا. مرددين في صياحهما اسم "آمون" مقرونا باللعنة على فرعون "إخناتون"، وكان أحدهما حليق الرأس يلتمع وجهه بالزيت المقدس، وكان الثاني مقطوع الأذنين، علامة ارتكابه من قبل جريمة أخلاقية شائنة، ولم ينقطع صياحهما على الرغم من الضربات التي كانت تنهال عليهما من الحراس حتى سالت دماؤهما!..

وكان الحادث غريبا فذا، غير مسبوق بمثله في حياة الفراعنة، فلم يحدث في تاريخهم الطويل أن أحدا اجترأ على أيهم حتى بمجرد رفع اليد في وجهه!.. وقد يكون من بينهم من قضى نحبه اغتيالا، ولكن ذلك لم يكن أبدا ليقع بمثل هذه المحاولة السافرة، وإنما كان يقع في كتمان وحذر، دون أن يترك وراءه أثرا يفشي سره، وكانت وسيلة اغتيالهم لا تعدو دس السم في طعامهم أو شرابهم، أو خنق أنفاسهم تحت ضغط الوسائد. وعلى هذا ظلت هيبتهم مسيطرة، تثير الرعب دائما في قلوب أعدائهم، وفي قلوب أقرب الأقربين إليهم على السواء، ومن هنا كان الاعتداء على حياة "إخناتون"، بأيدي رجلين من عامة الشعب وبهذه الجهارة الفاجرة، أمرا خطيرا ومفزعا!..

وأستجوب الجانيان فى حضور "فرعون" فأبيا الجواب على أى سؤال، فى حين كانا لا ينفكان عن ترديد اسم "آمون" فى إكبار وإجلال، كما لا ينفكان عن ترديد اسم "فرعون" فى زراية وسخط. وقد أهاج هذا غضب "فرعون"، فأمر حراسه بالمضى فى تعذيبهما، فما زالوا بهما تعذيبا وتنكيلا حتى لم يبق فى وجهيهما مكان غير مشوه، ولكنهما ثبتا لهذا العذاب ثباتا عجيبا، وكانا يصرخان فى وجه "فرعون" قائلين: دعهم يعذبوننا إلى آخر مافى أيديهم من قوة - أيها الفرعون الزائف - وليهشموا رأسينا، ويفروا لحومنا، ويلقوا بنا فى أتون النار، فإننا فى كل هذا لن نشعر بأى ألم!.. وكان واضحا أنهما فى هذا الموقف البالغ القسوة، واقعان تحت تأثير سحر الكهنة!..

ولما رأى "فرعون" فيهما هذه الصلابة وهذا التحدى، على ما يلقيان من عذاب شديد، انتحى جانبا وفكر قليلا حتى إذا استعاد هدوءه، بدا كأنه قد ندم على أن أباح تعذيبهما على مشهد منه، ومن ثم صاح فى الحراس قائلا: حلوا وثاقهما!.. فإنهما لا يعرفان ماذا صنعا!..

وصدع الحراس بأمر "فرعون" فرفعوا عنهما القيود، ولكنهما مع ذلك طفقا يلعنانه فى ثورة وهياج ويقولان، والزبد يطفح على شفاههما: بل اقتلنا - أيها الفرعون اللعين الزائف - وباسم "آمون" فلنمت الآن، لندخل سراعا فى الحياة الأبدية السعيدة!.. وحينما رأيا "فرعون" جادا فى إخلاء سبيلهما، من غير قصاص، انفلتا من أيدى الحراس وأخذا يضربان رأسيهما فى حائط السور حتى تناثرا، وماتا على الفور!..

ولم ينته أثر الحادث بانتهاء حياة هذين الشقيين، وإنما بقى منه الشعور السائد فى البيت الذهبى بأن حياة "فرعون" أصبحت فى خطر!. ولذلك ضوعفت الحراسة عليه، وأخذ المقربون منه يتابعون خطواته ويرصدون حركاته، ويسلطون عليه عيونهم فى غدوه ورواحه. وكان من شأن هذا الحادث أن ارتفعت درجات الإيمان "بآتون" فى نفوس المؤمنين به حقا، فازداد حبهم له وتعلقهم به. أمام الذين كانوا يتظاهرون

بالإيمان به طمعا في الثروة والمنصب، فإنهم بدافع من الخوف على ثرائهم ومناصبهم راحوا يغالون في التقرب منه إثباتا لإخلاصهم في خدمته!..

وكذلك كان من نتائج الحادث المباشرة أن ظهرت، في جلاء، أعراض حمى التعصب الديني في كل من المملكتين العليا والسفلى، فأصبح الناس هنا وهناك فريقين، هؤلاء يؤمنون "بآتون"، وأولئك يؤمنون "بآمون" في غير خفاء وبلا خشية!..

ولندع هذا لنعود إلى المهرجان الذي قرر "آي" إقامته احتفالا بالعيد الثلاثيني!.. إنه ينبغي أن يقام أيضا في "طيبة"، فرتبت هناك مواكبه وحفلاته، ونسقت المظاهر المعبرة عن ولاء الشعب وتمجيده "لفرعون"، ونقل منها إلى "أخيت آتون" على سفن النهر مجموعات من السلال والأقفاص ملأى برماد الذهب، وريش النعام، والنمور والزراف والقرود الصغيرة والببغاوات ذات الريش الملون الجميل، ليرى فيها أهل مدينة "أخيت آتون" دليل إيمانهم "بفرعون"!..

ولكن الواقع، وراء هذه المظاهر، أن الناس في "طيبة" قد شهدوا مواكب الاحتفال في صمت وتوجس، وكثير منهم في الشوارع انفجر شعورهم واستحال شجارا حادا، وقد انتزع أتباع "آمون" صليب "آتون" من صدور حامليه، وكان اثنان من كهنة "آتون" يختلطان بالناس. وسط الزحام، دون حراسة، فضربا ضربا موجعا إلى أن ماتا!..

وكان أسوأ ما يسوء في هذه الظروف أن السفراء الأجانب قد شهدوا بأعينهم الأحداث الواقعة وعرفوا منها حادث الاعتداء على حياة "فرعون"، وأتيح لسفير الملك "عزيرو" أن يظفر من أنبائها بالكثير الذي يحمله إلى سيده!.. وعلى أني كنت آسفا لذلك، لم أنس - وهو يتجهز للعودة إلى سوريا - أن أضيف إلى الهدايا الثمينة التي زوده بها "فرعون" إلى "عزيرو"، كثيرا من هداياي الخاصة إلى كل من "عزيرو" وزوجته وولده. وكانت هديتي لولده لوحة منقوشة تمثل جيشا صغيرا، وتتضح فيها بالألوان صور دقيقة لحاملي الحراب ورانشي السهام، والجياد وعجلات الحراب!.. وقد حرصت أن يكون الجيش في هذه اللوحة عسكرين يتحاربان، أحدهما عسكر

"من الحيثيين"، وثانيهما عسكر من السوريين، ولكل منهما سماته الدالة عليه، وابتغيت بذلك أن أنشئ في نفس هذا الصبي، خلال لهوه بهذه اللوحة، شعور الكراهية للحيثيين، وكانت في الحق لعبة لطيفة صنعت بمهارة فائقة، إذ قام بصنعها أبرع النقاشين على الأخشاب من أتباع "آمون" وكانوا قد أصبحوا لا يجدون عملا يملأ فراغ وقتهم بعد إغلاق المعبد وتعطيل مصانعه، وفي هذه اللعبة وحدها دفعت من المال أكثر مما دفعته ثمنا لمجموعة هداياي إلى "عزيرو" وزوجته!..

وفي ذلك الوقت كان الارتباك يزداد في عقل "إخناتون" وينهش قلبه، وأخذ الشك يتسلل إلى إيمانه حتى كاد يتزعزع. فحادث الاعتداء عليه لا يفارق ذهنه، ومبادئ المحبة والسلام التي أرادها للناس قد استحالت فتنة وفوضى وعداوة فاشية، وذهبت عبثا جهوده الشاقة التي بذلها في هذا السبيل!.. فلقد أخذ نفسه بالحرمان والتقشف، وآثر من طعامه الخبز المر، ومن شرابه الماء الملح، فما أجدى ذلك شيئا على الشعب، ولا يزال الكثيرون منه يقاسون الجوع والظمأ، وأباح - من أجل المحبة والسلام - التنكيل بكهنة "آمون"، وساق إلى المناجم، للعذاب والألم، كثيرين من الهاتفين باسم "آمون". ولكن كل هذا انتهى إلى النتيجة المحزنة، وهي أن الذين قتلوا وعذبوا لم يكونوا إلا الفقراء وعامة الناس الذين أراد إسعادهم، وأن كهنة "آمون" لم يفقدوا سلطانهم، واستطاعوا بتنظيماتهم السرية أن يحتفظوا بقوة تأثيرهم على جمهرة كبيرة من الشعب، إلى حد أن يندفع بعض المسحورين بهذه القوة الخفية، مخاطرين بحياتهم ليغتالوا حياته في قصره!.. أفلا يدل ذلك على أن "آتون" قد تخلى عنه؟!.

بهذه الهواجس والشكوك كان "إخناتون" يتعذب عذابا شديدا، ويقترب بها - بين إحجام وإقدام - من التفكير في وسائل أخرى أكثر حزما وحكمة لمعالجة أمور الدولة المضطربة!..

وكان من الخواطر القاسية التي تكدر صفو حياته أنه لم يرزق ولدا حتى الآن، فبدا له - ليحتفظ بعرشه - أن يزوج ابنتيه الكبيرتين "ميريت آتون" و"عا نخسن آتون"، من اثنين من أبناء رجال حاشيته الذين يثق بإيمانهم وإخلاصهم!.. وقد اختار

منهم للأولى صبيا اسمه "سيكينر"، ومنحه لقب حامل كأس فرعون، وأعده ليكون على العرش بعده، إذ صار يائسا من إنجاب الولد الذى يخلفه عليه، وأذن له، من أجل ذلك، فى أن يرتدى لباس الرأس الملكى الذى يريده. وكان هذا الصبى فى الخامسة عشرة من عمره، ومن خلائقه الظاهرة سرعة الاندفاع والانفعال العصبى.. وكذلك اختار لابنته الثانية صبيا فى العاشرة من عمره، اسمه "توت"، ومنحه لقب سيد الجواد، وأقامه مشرفا على أعمال المبانى الملكية والمحاجر، وكان ضامرا فى اعتلال، ينزع للهو باللعب، ويهوى الفواكه المسكرة. وعلى ما يلوح عليه من الوداعة، فإن بعض تصرفاته كانت توحى بأن قلبه ينقصه النقاء والطيبة.

وقد آثر "فرعون" هذين الصبيين على غيرهما فى مصاهرته، لأن الدم الذى يجرى فى عروقهما متصل بأعرق وأنبل الأسر المصرية، ولأن هذه المصاهرة ستنتج رباطا وثيقا بينه وبين عشيرتيهما الممتازتين فى الدولة، ثم لأنهما - إلى ذلك - من فاقدى الإرادة الخاصة، وليس لهما اتجاه معين يتعصبان له، وهذا يرضيه، فهو فى هوسه الدينى لا يحتمل الجدل والخلاف فى الرأى، ويضيق أيما ضيق بمستشاريه إذا ناقشوا إرادته، وقد كان من عادته حين يعرض أمرا، أن يطلب ممن حوله الرأى فيه، ولكنه أخيرا لا يأخذ إلا برأيه الذى بدأ به!..

وأصبحت الحياة، فى "أخيت آتون" بالرغم من ظواهر هدوئها، عسيرة على الناس، فقلما كان فيهم من يشعر بالطمأنينة وهناءة النفس، وكانوا يخفضون أصواتهم إذا تحدث بعضهم إلى بعض، كأنهم يتوقعون شرا يوشك أن يسقط عليهم من سماء المدينة. وكان هذا الإحساس قد بدأ يشيع فيهم منذ وقوع حادث الاعتداء على حياة "فرعون"، فقد كان فى نظرهم علامة سوء ونذير شرا!..

وكثيرا ما كنت أرهف سمعى وأنا أعمل بجانب الساعة المائية، فلا أسمع إلا وقع خرير مائها، فالسكون المطلق يخيم على المدينة من سائر أقطارها، وكانت فى نظرى حينذاك أشبه ما تكون بقشرة الفاكهة التى أكل السوس لبابها، فبدت زاوية ذابلة، وقد سئم الكثيرون مقامهم فيها، فغادروها منتحلين لأنفسهم فى ذلك أعذارا شتى كزيارة

ضياعهم وتعهد شئونها، أو تزويج أقربائهم أو ما هو من هذا بسبيل، ومنهم من كان يؤثر البقاء بعيدا عنها. وتراخت، في عامة الأحوال، عناية الناس بأمر "فرعون"، وتحركت قلوب أكثرهم نازعة إلى "آمون"، فاعتمدوا على قوته الخفية أكثر من اعتمادهم على غيره. وأخذني، خلال هذا الجو المشحون بالتشاؤم والشك والخوف، حنين شديد إلى "طيبة"، فدبرت الحيلة لذلك، وجاءتني من "كابتاح" أسباب ملفقة – وفقا لخطة رسمتها له – تذرعت بها عند "فرعون"، ليأذن لي في العودة العاجلة إلى "طيبة"، فكان لي ما أردت.

-٤-

وأحسست، وأنا أرتقي سطح السفينة مبحرة بي من "أخيت آتون"، كأني قد انطلقت من أسر أو تحررت من سحر. وكان الربيع قد أهل وانخفضت مياه النهر، وحومت الطيور فوقها شادية، وأطلت ثمار الفاكهة من بين أغصان الشجر، وتخضبت الحقول بالطمي المخصب، فأبهجت نفسي هذه المشاهد الجميلة، وشاقتني إلى "طيبة" فوق شوق، واستلت من قلبي أثقاله، فخف حتى لكأنه عصفور من هذه العصافير التي تزقزق من حولي.

أجل، كان ذلك هو شعوري، لابتعادي عن "أخيت آتون" وأنا الطبيب الذي لم يكن "فرعون" عنده أكثر من رجل صديق، إذ كنت منه بالموضع القريب، آمنا وادعا، فكيف بأولئك الذين كان مفروضا عليهم أن ينزلوه من أنفسهم منزلة الإله المقدس، كما كان مفروضا عليهم – تبعا لذلك – أن يفنوا في إرادته وتتلاشى حياتهم في حياته!..

إنهم، بلا شك، أشد رغبة في الخلاص والهجرة، وأشد اغتباطا حين يتاح لهم أن يعودوا إلى الحرية التي اعتقدوا أنهم فقدوها في القرب من "فرعون"!..

ولم يكن رأيي أن "فرعون" رجل سوء إلى حد أن يفر الناس منه هكذا، ولكن القلق الجاثم على قلوبهم كان يصوره لهم إنسانا مخبولا معتل الرأي والإرادة، يخبط

خبط عشواء فى تصريف أمور الدولة وشئون الشعب، ويدعو إلى المحبة والسلام وهو يأخذ الناس مع ذلك بالشبهات ويهدر دماء من لا يؤمنون بدينه، أو من يحسبهم كذلك، فآمنوا به خوفا وطمعا، ولا تزال بهم بقية من الإيمان "بآمون" لا يستطيعون، التخلص منها!..

إننى، كلما دنت السفينة من "طيبة"؛ أذكر فرعون "إخناتون" وإلهه، وأذكر فى ذكراهما الخير وأراهما، من قريب أو من بعيد، جديرين بالإجلال والإكبار، على رغم الظروف السيئة التى اقترنت بظهورهما، والأشواك التى تجمعت فى طريقهما!..

وقد يكون مصدر هذا عندى أننى كنت دائما إنسانا طيب القلب، خصيب العاطفة، لا تنطوى نفسى على الحقد والكراهية، فلم أضغن على أحد ولم أسىء إلى إنسان، أوثر الشرف والاستقامة ومحبة الناس. وفى أيام شبابى كنت أعالج المرضى من غير أن أسألهم أجرا، بدافع العطف عليهم والرغبة فى تخفيف آلامهم، وهذه صفات إنسانية سامية تلتقى بمبادئ "فرعون" و"آتون"، وتجذبنى نحوهما جذبا قويا!..

واستوقفت نظرى، فى هذه الرحلة النهرية، مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية لم يكن قد هيئ منها للزراعة إلا ما دون نصفها، أما الباقى فقد ترك بورا، تتجسم فيه دلائل الأعمال، ولا تقع العين منه إلا على حشائش متناثرة وأعواد من الشوك متفرقة لا ينتفع منها بشىء، وكانت قنوات المياه وخلجانها طافحة بالطين وطمى النيل، كأنها سدود أقيمت لحبس الماء لا لجريانه!.. ودل هذا أيضا على أن الذين أهملوا الأرض قد أهملوا كذلك مجارى ريها، ففيم يتعبون أيديهم فى رفع الطين، وهم تاركو الأرض نفسها من غير زراعة!

وأحزننى أن أرى ذلك فى الأوان الطبيعى المألوف لزرع الأرض ونشاط الزراع، فلم تكن هذه حالهم وهم يعملون فى أرض "آمون" مسخرين، فما بالهم قد اجتووا الأرض وكرهوا أن يؤدوا لها حقها الأزلى من الحرث والإنبات والرعاية!...

وتحدثت إلى من رأيتهم من هؤلاء على مقربة من مرسى السفينة فى إحدى القرى، فقلت لهم: أيها المجانين!.. ما الذى أمسككم عن حرث الأرض وزرعها؟! ألا تعلمون أنكم بهذا تلقون بأنفسكم إلى الجوع والموت إذا ما حل الشتاء؟!..

ولكنهم كانوا يقلبون أبصارهم فى ملابسى الفاخرة، ويقولون لى فى حقد ومرارة: ولماذا نحرث ونزرع ونكد ونتعب فى أرض قد صبت عليها اللعنة، فما نخرج من نبات أو ثمر إلا انقلب شرا على زارعيه وآكليه!.. لقد مات أطفالنا؟ لأنهم أكلوا من حب القمح الذى زرعناه بأيدينا، ذلك لأن اللعنة كانت تلاحقه، فتلونه تلوينا غير مألوف وتحيله فى بطونهم سما زعافا!..

وذلك شىء لم أكن قد علمته، وإنى لأراه غريبا، فكيف يموت الأطفال إذا أكلوا من قمح شاءت الأجواء والعوامل الزراعية المؤثرة أن تخرجه ملونا!.. ومع ذلك فثمة حقيقة تنطوى على سر يعلو على إدراك هؤلاء السذج، هى أن ظاهرة القمح الملون تقترن فعلا بظاهرة مرض خبيث ينتشر كالوباء فى أطفالهم فتنتفخ بطونهم ويئنون أنينا موجعا ثم يموتون وهم على تلك الحال دون أن تجدى فى علاجهم وسائل الأطباء وتدابير السحرة!.. وقد كان اقتران الظاهرتين فى وقت واحد، مؤكدا لما كان دعاة "آمون" يشيعونه بين أهل الأقاليم الزراعية من أن "آمون" قد أنزل لعنته على الحقول، إعلانا لسخطه وغضبه، ولهذا كره الفلاحون الأرض والزراعة، ولم يبق منهم فيها إلا من لم تسعفه القوة على الهرب منها إلى المدن!..

ولا شك أنهم كانوا فى هذا فريسة الوهم والجهل، فما كان مرض الأطفال المنتشر ناشئا، كما توهموا، من لعنة "آمون"، ومن القمح الملون، ولكنه ناشئ - كما يفسره المنطق الطبى السليم - من مياه فيضان النيل التى شربوها ملوثة بما تحمله من جراثيم أمراض الشتاء المعدية، ولكن أنى لهم أن يفطنوا لهذا وسط الدعايات الساحرة، وفى غشاوة الجهالة الفاشية!..

فما أبعد ما بين مدينة "أخيت آتون" ودنيا هؤلاء الناس؟!..

وكأنما كنت أنشد الفرار بنفسى من هذه المناظر المثيرة عندما رحت أستحث بحارة السفينة ليسرعوا بها إلى « طيبة »، إذ خيل لى أنهم أبطئوا ، ولكنهم نظروا إلى فى استغراب مشيرين إلى أيديهم التى تورمت ، وإلى وجوههم التى تتفصد عرقا ، كدليل على أنهم يبذلون فى التجديف وسرعة السير بالسفينة أقصى مافى طاقتهم ، فتلطفت لهم ووعدتهم بالفضة مكافأة على جهودهم ، وقدمت لهم شراب الجعة إغراء بالمزيد من الجهد !

ولم يرقهم تصرفى هذا ، فتقاربت رءوسهم وأخذوا يتهامسون وسمعت بعضهم يقول لبعض : لماذا نحمل عناء التجديف لهذا الخنزير السمين ؟ ! .. ألسنا جميعا سواسية أمام إلهه ؟ ! .. ولم لا يدع مكانه ويأتى إلى هنا ويعمل مثلما نعمل؟ : فليأت ، وليجرب هو بنفسه ، وليرنا بعد ذلك كيف يداوى يديه بالفضة التى يعدنا بها ! ..

وكدت أثور عليهم وأحرك عصاى لتأديبهم ، ولكن قلبى المشرب حنانا إلى « طيبة » ردنى عنهم وجعلنى أفكر فى أمرهم بروح العطف ، وأوحى إلى بأنهم لم يقولوا إلا حقا ! .. ألست إنسانا مثلهم ؟ ! وعندئذ دنوت منهم وأخذت موضعى إلى جوارهم وتناولت مجدافا ، ورحت أجدف به معهم ، فلم يمض غير وقت قصير حتى امتلأت قبضة يدى بالفقاقيع ، ثم تحولت الفقاقيع إلى قروح ، وأصيب ظهرى بالتصلب وأحسست كأن سلسلته توشك أن تتكسر ، وفى ألم وجهد ، كنت أصعد أنفاسى واستحييت أن أتخلى عن عملى معهم على هذه الصورة من الإعياء والعجز، وهم الذين يصلونه بلا انقطاع ليلا ونهارا ، ولا يكفهم عنه الجهد والعرق وتقرح الأيدى ! .. وتوقعت أن يسخروا منى ، فمضيت فيه مكرها ، وقلت لنفسى : فلأتحمل هذا العناد المرهق لأعرف – عن تجربة – كيف تكون حياة البحار ! .. وظللت أضرب بالمجداف كاتما متاعبى التى تزايدت إلى أن غمرنى منها الكلال وأصابنى الإغماء ، فحملنى البحارة – دون أن أشعر – إلى فراشى ! ..

وأردت فى اليوم التالى أن أعود إلى ما كنت فيه معهم فتناولت المجداف وأخذت موضعى منهم ، ولكنهم ، فى ضحكات بريئة ، غير ساخرة ، قالو : دع عنك هذا أيها

السيد ، فإنه عملنا نحن ، ومن حقك - وأنت مولانا وسيدنا - أن تقتضينا العمل لراحتك وسلامتك مهما يكن الجهد الذى نبذله فيه ، وحسبك من التجديف ما عانيت منه بالأمس فى غير حاجة تدعو إلى ذلك ، وليس من عملك على أية حال أن تكون مجدفا فى سفينة ، ولكل إنسان فى الحياة موضعه الذى قدرته له الآلهة ! ..

ولكنى برغم هذا أصررت على مشاركتهم فى عملهم ، فكنت طول الطريق إلى « طيبة » واحدا منهم ، وكانت حركة العمل المتواصلة قد أكسبت أعصابى مرونة على مرور الأيام ، فألفتها وأرضانى منها أنها ذهبت بما كنت أنكره فى جسمى من الترهل والاسترخاء ، ومنحتنى إحساسا جديدا بلذة الحياة وبهجتها ! .. وامتدت مشاركتى لهؤلاء البحارة إلى الطعام والشراب ، فأكلت معهم الخبز والثريد الذى قلما يأكلون سواه وشربت معهم الجعة المرة المذاق التى هى شراب الأرقاء ، وهم يستغربون هذا من رجل مثلى له مقامه الكبير ، وحياته المترفة ، ويقول بعضهم لبعض فى همس : لابد أن سيدنا قد لدغه ثعبان سام ، أو أنه أصيب بلوثة الجنون التى فشت جراثيمها فى « أخيت آتون » ولكنه على أى الحالين لا يستطيع أن يؤذينا ، ففى طيات ملابسنا نفر « آمون » ، ونحن منه فى أمن وعافية ! ..

وكنا قد اقتربنا من « طيبة » ، فأمسكت عن التجديف من تلقاء نفسى ، ودعوت خدمى ليدهنوا يدى بالمرهم ، ثم اغتسلت وارتديت أبهى ملابسى ، وكان شحم بطنى قد ذاب بالتجديف ، فصار ردائى الكتانى فضفاضا ، فشددته حول جسمى الضامر ، وأرسلت من ينبئ « ميوتى » بقدومى ، لأتقى منها مرارة العتاب، وصرامة الحساب ! ..

وقبل أن أغادر السفينة ، وزعت نقودا من الفضة والذهب على البحارة المجدفين، وقلت لهم : باسم « آتون » اذهبوا واملائوا بطونكم ، واشرحوا بشراب الجعة صدوركم ، وتمتعوا ما شئتم بفتيات « طيبة » الجميلات ، « فآتون » يمنح الفقراء البهجة والسعادة ، ويحب لهم أن يسروا ويمرحوا ، لأنه يحبهم !.. ولكنهم أمسكوا بالذهب والفضة بأطراف أصابعهم ، وقالوا : نود ألا يضيق صدرك إذا سألناك ما إذا

كانت هذه النقود لم تلحقها اللعنة ، فإنك تخاطبنا باسم « آتون » ونحن نعلم أن اسمه لا يتصل بشيء إلا أصابته اللعنة ، ولهذا يخيفنا من نقودك أن تصير في أيدينا شواظا من نار محرقة !..

فقلت لهم : لولا أنني شاركتكم عملكم ، غير مستعل عليكم ، لما اجترأتم في مخاطبتي إلى هذا الحد ، ومع ذلك فإني أؤكد لكم أن نقودي ليست في شيء مما يصوره لكم الخيال المريض ، وكما أنها نقية المعدن ، فهي كذلك من المسكوكات القديمة ، ولا أثر فيها من نحاس « أخيت آتون » وفي وسعكم أن تستبدلوا بها الجعة والطعام ، فما أحسبكم تدخرون منها شئ تخافونه ، على أنكم لأغبياء حقا ، إذ لم تؤمنوا بعد « بآتون » ، بل ترتابون فيه وتتطيرون منه ، وهو الذي يوليكم عطفه ورعايته ، وينشر عليكم أجنحة الحب والسلام ، وينتشل إنسانيتكم من حضيض الذل والهوان ! .. لا تخافوا أيها الجهلاء ، وثقوا بأنه إله رحيم كريم ! ..

قالو : لسنا بالخائفين ، « فآتون » لا يخيف أحدا لأنه إله ضعيف ! ولكننا نخاف من هو أكثر منه قوة وسلطانا ، وأنت - أيها السيد - تعرفه جيدا ! ..

ورأيت من الخير ألا أمضي معهم في هذا الجدل العقيم ، ففارقتهم وأخذت السبيل من فوري إلى حانة « ذنب التمساح » ، من غير محفة تحملني إليها ، وفيها لقيت « ميرييت » صديقتي وحبيبة قلبي ، وكانت في نظري - بعد طول غياب - أروع جمالا مما كانت من قبل . وقد استقبلتني فرحة ، في انحناء طويل ، ثم رفعت يديها وأخذت تلمس بهما كتفي وخدي ، وقالت متهللة : سنوحي ! .. سنوحي ! .. ما هذا الذي جعل عينيك صافيتين ، وبطنك ضامرا ؟ ! ..

قلت لها : « ميرييت » ! .. ياأحب إنسانة في الحياة إلى قلبي ! ..إن ما ترين في عيني لهو شعاع شوقي إليك ، وما ضمور بطني إلا أثر من حرارة لهفتي عليك! .. لقد كنت من هذه اللهفة في سعير متقد ، صهرني وأذاب شحمي ، ولو طال فراقنا أكثر من هذا لأذاب لحمي أيضا ؟

فضحكت ، ثم عادت - فى تأثر بالغ لتقول لى : عندما يكون الإنسان وحيدا، يكون أكثر استعذابا للكلمة المؤنسة وهو يعلم أنها مموهة بالكذب ! .. وإنه ليزداد شعورا بحلاوتها إذا كان فى وحدته قد جاوز ربيع حياته ! .. وها أنتذا تعود فيعود معك الربيع مزدهرا يانعا والحياة منضرة بالسعادة والأمل !..

وكان لقاء ممتعا مؤثرا ، تمنيت لو سالمتنا فيه الأقدار التى لا تراها عيوننا، فلا تكون له نهاية ! .وأقبل « كابتاح » فى هذه الأثناء ، وقد اتسقت بدانته ، وتضخمت ضواحيه ، وزادت القلائد فى عنقه ، والأساور فى معصميه ، وازدانت عينه العوراء بغطائها المرصع بالجواهر الغالية ، فغلبه الفرح للقائى حتى دمعت عينه الواحدة ، وصاح قائلا : بورك هذا اليوم الذى عدت فيه إلينا يا سيدى ! .. ثم دعانى فى كثير من التحفى إلى غرفة خاصة ، وقدم لى مقعدا وثيرا جلست عليه ، وأخذت « ميريت » تروح وتغدو حاملة إلينا المخلوط الفاخر من نبيد « ذنب التمساح » فتساقيناه معا فى ابتهاج ونشوة ..

وعرض « كابتاح » فى زهو ، بيانا عن ثروتى ، وقال : لقد كنت ياسيدى « سنوحى » حكيما إلى الحد الذى لا يدانيك فيه أحد من أولئك التجار الماكرين ... ذلك أنك أمرتنى بأن أوزع جميع غلاتك بين الزراع ليبذروها فى أراضيهم ، على أن أستردها منهم مكيالا بمكيال ، وكنت قد حسبتك يومئذ بمنأى عن صواب الرأى، فلم يكن هذا التصرف فى ظاهره إلا انتقاضا على منطق التجارة وقواعدها المرسومة ، وكدت أستريب لذلك فى سلامة عقلك ، على أنى أدركت فيما بعد أنك كنت بهذا أشد من التجار العاديين مكرا ودهاء ، فقد حدث عندما علموا أن القمح قد وزع على الزراع أن توقعوا - على خلاف ما كانوا يقدرون - أن إنتاجه سيجيء فى موسمه وافرا ، وهنا تسابقوا فى عرض المخزون منه لديهم ، وزادهم تسابقا فى ذلك ما أذيع من أنباء السلام ، فانخفضت الأسعار انخفاضا متتابعا ، وأصيبوا من هذا بخسائر فادحة ، ولم أدع هذه الفرصة تفلت من يدى - ولا تنقصنى كما تعلم فطنة التاجر العريق - فاشتريت بالثمن المخفض كميات كبيرة من القمح قبل نضجه فى الحقول !

وفى الخريف جمعت القمح الذى كنت أقرضته للزراع مكيالا بمكيال ،إلى ما اشتريته منه بالثمن الضئيل ، فتوافر عندى حتى امتلأت به مخازننا، وكان من النوع الجيد ، غير مشوب بعيب . وفى اعتقادى أن البقع ذات الرائحة البغيضة ليست - كما يقال - أثرا من لعنة صبت على القمح مزروعا أو محصودا بأيدى الزراع ، وإنما هى من عمل الأيدى التى استخدمها الكهنة سرا ، فنفضت عليه الدماء فى بيادره . وعلى أية حال ، قد صح تقديرى عندما حل الشتاء ، فارتفع ثمن القمح . وساعد على ارتفاعه أكثر من ذى قبل أن « آى » قد شحن منه باسم « فرعون » عدة سفن إلى أسواق « سوريا » . وفى وسعك أن تدرك ببصرك الحصيف ، أن أرباحنا من وراء ذلك قد بلغت غايتها من الكثرة والتضخم ، وستعلو فى زيادتها وتضخمها كلما زدنا فى الاختزان وأمسكنا عن العرض ، ففى الخريف المقبل ستزحف المجاعة على البلاد ، لسببين بالغى الأهمية، أولهما أن الزراع من الأرقاء فى أرض « فرعون » قد فروا منها وتركوها بلا حرث ولا زرع ، وثانيهما أن الفلاحين القارين فى أرضهم قد أخفوا حبوبهم مخافة أن تؤخذ منهم لترسل إلى « سوريا » ، وهذا وذاك من شأنهما ، ألا يوجد فى الأسواق من القمح ما يحمى من مجاعة أرى قرونها تطل على البلاد فى الوقت الذى نملك منه الكثير ! .. وكل هذا ثمرة رأيك الأول الذى كنت أظنه ضربا من الخبال والحماقة ، فإذا هو ، آخر الأمر ، الصواب والحكمة وحسن البصر بالعواقب البعيدة ! .. فيالها من ظروف سعيدة تلك التى تسخرها القوة المحجبة لخدمة الإنسان الوافر الثراء لتزيده غنى وثراء ، دون أن يحاول ذلك أو يريده ! .. وقد كانت هذه الظروف السعيدة حليفتى وخادمتى ، فى كثير من الصفقات الأخرى، ومن ذلك أننى رأيت جميع الناس يشترون الجرار الفارغة ، فبدا لى أن أستغل حاجتهم إليها ، ومن ثم استأجرت مئة من الرقيق ونشرتهم فى البلاد والقرى ، فاشتروا منها أقصى ما استطاعوا بثمن بخس ، بل إن كثيرا من الناس كانوا يعطونهم منها ، بلا ثمن ، كل ما يرونه قديما . زائدا على حاجتهم لمجرد التخلص من خزنه .. واجتمع لى منها بهذه الوسيلة كمية كبيرة للغاية واستطعت بعد ذلك أن أبيعها ، فى الشتاء ، بالثمن

المضاعف ، ولا أبالغ إذا قلت لك إنني خلال أيام قليلة بعت منها ألف جرة في كل مرة من ألف مرة ! ..

وقلت « لكابتاح » : وما هذه الحماقة التي تسول لك أن تشترى جرارا فارغة وهي صناعة محلية شائعة ، وفي أيدى الناس منها ما يزيد على حاجتهم ، حتى إنهم ليقدمونها إلى مأجوريك من غير ثمن ، تخلصا منها ؟ ! ..

فقال « كابتاح » وهو يغمز بعينه الواحدة غمز الماكر: كان يمكن أن يكون تصرفي هذا حماقة كما تقول ، لو أن الجرار التي عنيت بشرائها وجمعها كانت للاستهلاك العادى وحده ، فما غاب عن ذهني أنها تصنع في بلادنا ، وإنتاجها مطرد ، ولكنى نظرت للأمر من ناحية أخرى لم يسبقنى أحد في النظر إليها ، هي أن طريقة جديدة اكتشفت في المملكتين العليا والسفلى لحفظ السمك في الماء والملح داخل الجرار ، فاشتد الطلب عليها مرة واحدة ، وفي الوقت نفسه كانت السفن تحمل منها شحنات كبيرة لتفرغها في « تانيس » وفي «غزة » ، ومنها تنقل إلى « سوريا » بطرق القوافل ! .. وهكذا كانت الفرصة مواتية . والتاجر الماهر ، ياسيدى هو الذى ينتهز الفرص ! ..

وكان حديث « كابتاح » عن الجرار شيئا طريفا يستحق الإصغاء والموافقة ، ولكنى لم أشأ أن أمضى فيه وأشغل فكرى به ، فقطعته قائلا له : مع هذا ، أرى أن تعجل ببيع كل ما بقي لديك من هذه الجرار الفارغة ، وأن تشترى بثمنها قمحا ، إلى أقصى حد مستطاع ، وبأى ثمن يكون ، على أن تكون بضاعة حاضرة مسلمة، فلست أجيزك فيما تفعل من الشراء نسيئة لغلات لم تحصد بعد . ولو استطعت أن تشترى ما هو في طريقه منها إلى « سوريا » ، لكان ذلك عملا حسنا على الرغم من المعاهدة التي تفرض على « فرعون » تصدير القمح إليها ، ذلك لأن « سوريا » تستطيع أن تستورد حاجتها من « بابل » ، في حين تلوح هنا طلائع المجاعة الزاحفة على أرض « كيم » في الخريف . فعلى كل إنسان في « مصر » أن يساهم بما في طاقته لدرء خطرها عن نفسه وعن مواطنيه ، وستنزل اللعنة على من لا يفعل ذلك ! ..

واستسلم « كابتاح » لرأيي وقال : لا شك في أن توجيهك هذا هو عين الرشد والصواب ، وسينتهي إلى نتائج باهرة تصبح بها أغنى أغنياء « مصر » ! .. ومن الممكن شراء القمح بأوفر قدر حتى لو اقتضانا ذلك أن ندفع فيه أسعار المرابين . أما اللعنة التي تستنزلها على من يفرط في قمح « مصر » في هذه الظروف ، فإنها ستسقط أول ما تسقط ، على رأس الكاهن « آي » لأنه هو الذي باع القمح لسوريا في مبدأ السلام عندما كانت الأسعار منخفضة، ولم يخل تصرفه من الغباء إذ كانت الكميات التي باعها كبيرة تكفي الحاجة لسنين عدة ، وقد أغراه بهذا أن « سوريا » دفعت الثمن ذهبا في الحال ، وكان إذ ذاك في حاجة إلى ذهب كثير لإقامة مهرجان « فرعون » ! .. وما أرى السوريين إلا أنهم مختزنون هذا القمح عندهم ، ليبيعوه لمصر بمقدار وزنه ذهبا حينما ينفد ما لدينا منه ، فهم – كما عرفتهم – من أمهر التجار وأبعدهم نظرا ، وبذلك يمتصون ذهب « مصر » ويكدسونه في خزائنهم ! ..

وانتزعت نفسي من أحاديث القمح والمجاعة والمستقبل الذي انطوى في غمر من الظلمات منذ أرسلت الشمس الغاربة أشعتها الدموية الحمراء على « أخيت آتون » ، وعدت أنظر مغتبطا إلى عيني « ميرييت » ! .. وأسبح معها في أجواء الحب والجمال ، فكانت لي الشراب المنعش ، والدم الحار، والنغم الشجي .

وتركنا « كابتاح » في خلوتنا هذه ننهل وحدنا من جدولها الصافي إلى أن حانت ساعة الرقاد ، فهيأت « ميرييت » فراشها ودعتني إليه ، فاحتوانا معا . في صراحة كنت أدعوها أختي ، وبين أحضانها كاشفتها بكل أسرار قلبي ، ولكن قلبها – فيما أحسست – كان مغلقا على سره الذي لم أدر ما هو !..

وفي الحانة رأيت الطفل « تحوتح » مرة ثانية ، وقد هرول إلى لقائي ، ولف عنقي بذراعيه في فرح شديد وهو يناديني : يا أبي ، فأعجبت بذاكرته اللدنة التي لم تنسه إياي ، وقد أبهج لقاؤه قلبي فحنوت عليه حنو الوالد على ولده ، وأخبرتني « ميرييت » أنه يقيم معها لترعاه وتقوم بخدمته ، لأن أمه ماتت ، وأصبح هو – لطول مكثه معها بالحانة – يحس بأنه في داره ، يلهو ويمرح فيها على هواه ، وكان المترددون على

الحانة يضاحكونه ويكثرون من إهداء اللعب إليه ، إرضاء « لميرييت » وتقربا إليها ! ..
وفي الحق لقد كان طفلا لطيفا ، بادى الذكاء ، تعلق به قلبى ، فكنت خلال إقامتى فى « طيبة » أصحبه معى إلى منزلى ، وتفتحت له عواطف « ميوتى » ، فكانت فرحة به ، تقدم له الكعك المعسول وتقص عليه الحكايات الطريفة ، وأسعدها أن ترانى قد أنزلته منى منزلة الابن وكفلته كفالة الوالد ، وشغلت نفسى بتربيته ، إذ كان لم يزل دون السن التى تؤهله للحاق بالمدرسة ، فقد كان من نتائج هذا – فى تفكير « ميوتى » – أن المنزل الذى كانت تعانى فيه وحشة الوحدة قد عمر بالرجل والولد ، ووجدت المرأة فيه عملا يؤنسها ويرفعها إلى وظيفة « ربة البيت » من غير أن تكون هناك زوجة تضايقها وتلقى بالمياه الساخنة على قدميها ! ..

وتمنيت لو بقيت سعيدا بهذه العزلة الهادئة ترفرف عليها أجنحة الحب المتبادل بينى وبين « ميرييت » و « تحوتمح » الطفل ... ولكنها كانت أمنية عسيرة التحقيق لرجل مثلى فى « طيبة » ، تلك المدينة التى اشتدت المنافرات فيها بين أهلها حتى إنهم ليصبحون ويمسون على اشتباكات لا تنقطع ، وكثيرا ما تؤدى إلى إراقة الدماء ، وتحطيم الرءوس ، مما ألقى أعباء ثقيلة من الأعمال المتواصلة على حراس « فرعون » وقضاته . ففى كل يوم ، يساق الرجال والنساء والأطفال موثقين بالحبال إلى الميناء ليرسلوا منها إلى مزارع « فرعون » للعمل فيها مسخرين ، ومنهم من يقذف به إلى المناجم ، وجريرتهم التى يعاقبون عليها هى أنهم أتباع « أمون » الخارجون من أجله على طاعة « فرعون » وإلهه « أتون » ، وقد أثاروها فتنة بين الناس ، وعداوة فاشية بين الآباء وأبنائهم والزوجات وأزواجهم ، وأسرفوا فى عنادهم إلى حد أنهم كانوا يضعون على ظاهر ملابسهم رمز الإيمان « بأمون » ، وهو « القرن » ، تحديا لأتباع « أتون » الذين كانوا يعلقون صليب الحياة فى رقابهم أو يضعونه على ملابسهم ! وقد كان هؤلاء الذين ينفون إلى المزارع البعيدة أو إلى المناجم ، فى صورة المجرمين ، يودعون من جموع كثيرة من الناس وداع الأبطال ، فيرشقونهم بالأزهار ، فيلهب هذا حماستهم ويرفعون أيديهم المكبلة بالقيود قائلين لهم : لا تجزعوا فإننا عائدون عما قريب لنحطم « أتون » ونجهز عليه !

وكان واضحا أن استشراء الفتنة واستفحال العداوات فى « طيبة » ، يصدر عن انفعال قوى بين المؤمنين « بآمون » والمؤمنين « بآتون » ، ولم أكن أتوقع أن أرى « لآتون » كل هذه القوة فى المدينة التى تقع تحت التأثير الروحى الشديد لكهنة « آمون » ، ولكنها كانت كذلك لعوامل هامة طرأت على المدينة خلال العام الماضى ، ومن بينها أن كثيرين ممن كانوا قد أقطعوا الأراضى ليزرعوها قد هجروها وعادوا ، هاربين منها ، إلى « طيبة » ، يملأ قلوبهم الحقد على كهنة « آمون » لأنهم سمموا غلات الأرض وعطلوا قنوات ريها ، وحالوا بينهم وبين الاستقرار فيها والإفادة منها ، فاضطروا - كارهين - أن يتركوها ليبحثوا ، فى معاناة ، عن موارد رزق أخرى ، وأسلمهم شعور الحقد على كهنة « آمون » إلى فريق المؤمنين « بآتون » ، وكذلك من بين العوامل التى طرأت على المدينة ، أن المجتمع الطيبى قد ظهر فيه جمهرة كبيرة ممن تعلموا الكتابة الجديدة بمدارس « آتون » وتثقفوا بثقافتها وتأثروا بتعاليمها ، واقتفى أثرهم كثير من الشباب الذين ينزعون بطبعهم إلى كل جديد ، هذا إلى أن الحمالين والأرقاء ومن إليهم من العامة، كان قد سادهم الشعور بأن « آتون » قد ترفق بهم فى جباية الضرائب ومكن لهم من حقهم كاملا فى الأقوات ، وسوى بين السادة والعبيد ، ولم تكن هكذا حالهم فى عهد « آمون » ! .. ثم عامل آخر من عوامل ازدياد قوة « آتون » فى المدينة ، هو أن عددا غير قليل من الناس قد اتبعوه وتظاهروا بالإيمان به عن غير عقيدة ، لأنهم لصوص يسترون أنفسهم خوفا من العقوبة أو لأنهم ممن كانت تحوم حولهم الشكوك فى الدين الجديد ، فاتقوا الوشاية بهم ، بالانحياز إلى صفه لأنه صاحب السلطان الباطش !..

وبين هؤلاء وأولئك ، أشراف المدينة والراغبون فى السلام من أهلها ، قد أسأمتهم هذه الحال وأضرت بهم ، فوقفوا موقف الحيرة ،يتلمسون الفرصة من هذا الضيق الجاثم . وقد تزعزعت عقيدتهم فى الإلهين على السواء ، ويقول بعضهم فى حسرة : فليكن أيهما هو الإله ، فما يعنينا من أمرهما إلا أن نعيش فى سلام ، وأن تعود هذه الأوصال التى تمزقت فى سبيلهما إلى التماسك ، لتمضى الحياة هينة لينة ، وليعود كل منا إلى عمله هادئا مستقرا ! ..

تلك كانت حال « طيبة » وقتذاك ، اختلافا في الاتجاهات والأهداف والنوازع، وقلقا مسيطرا على الجميع ، ومجاهرة بالدعوة إلى هذا الإله أو ذاك ، واقتتالا مستمرا بين الدعاة ! .. فمن العسير - أشد العسر - أن أشعر وسط هذه العواصف الهوج ، بالدعة والأمن وهدوء البال ! ..

وكانت كذلك حانة « ذنب التمساح » مسرحا تمثل فيه هذه الحياة المنافقة ، فقد اتخذ « كابتاح » لها شعارا هو الدين الجديد ، وأنا أعلم أنه فعل ذلك عن غير عقيدة ، فإنه ما كان ليهتم لشيء في دنياه سوى احتياز المال ، من أي طريق وبأية وسيلة ، ولو أنه كان حرا في اختيار موقفه لما اختار غير الحياد ، ضمانا لمرضاة الجميع على اختلاف معتقداتهم ، وسبيلا إلى اجتذابهم لحانته ، ليحتلب أموالهم ، وهذا حسبه ! .. ولكن الظروف فرضت عليه أن يكون في الجانب الأكثر أمنا ، واستطاع بهذا أن يتفادى احتمالات الشر ، ففي ظل صليب الحياة الذي كان يعنى بإبرازه على حوائط الحانة ، جعل من الحانة مثابة لهو فاجر ، ومرتاد المرابين من عملاء الميناء ومن يجري مجراهم في الكسب غير المشروع ، واتقى في الوقت نفسه شر تجار الحبوب الذين يكرهونه وما كانوا ليترددوا في الإيقاع به ؟ لأنه نافسهم في مجال تجارتهم حتى خسروا كل ثرواتهم ، ثم هو - في ظل صليب الحياة أيضا - قد أمن مضايقات جباة الضرائب ، وما أكثر ما كان يفاخرني بذلك ! ..

وعلى أني كنت طبيب البيت المالك ، وصلتي بفرعون « إخناتون » ظاهرة ، فإن أحدا من شيعة « آمون » لم يحاول أن يمسني بسوء أو يضايقني في أمر ، ذلك أن أهل حي الميناء الذي كنت أقيم به كانوا يعرفونني بأعمالي ، رجل خير ، أوليتهم وما أوليهم عطفا حسنا ومشاركات طيبة ، وكنت من جهة أخرى ، أوثر أن تكون تصرفاتي بمنأى من إثارة الحفائظ والأحقاد ، فلم تظهر على جدران منزلي صلبان الحياة أو صور تشير إلى علاقتي « بآتون » ، ومن هنا كان أتباع « آمون » وبخاصة السكارى منهم يتجولون ليلا في الشوارع والأحياء هاتفين باسم « آمون » ويكثرون من الاعتداء على مخالفيهم في العقيدة ، ويزعجون الآمنين في كل مكان ، ويتغلبون

على الحراس في كل اشتباك ، ولكنهم كانوا يمرون بسلام على منزلي ، ولا تستوقفهم عنده لافتة أو ريبة ! ..

ولم يحدث لي في إقامتي « بطيبة » هذه المرة ،، سوى حادث صغير كان من شأنه أن يتطور إلى شر كبير ، ولكنه انحسم لساعته وزال أثره في الحال ، إذ عاد « تحوتح » إلى المنزل في يوم قائظ ، مصابا بجروح والدم يرعف من أنفه ، وقد سقطت إحدى ثناياه ، وهو ينشج بالبكاء ، ففرعت « ميوتي » لمرآه ، وبكت في غضب لفرط تأثرها ، وأسرعت فغسلت وجهه ، ونظفت جراحه الصغيرة . وما ان عرفت منه أن أبناء النساج ، وهو رجل من أهل الحي ، وداره من دارنا جد قريبة، هم الذين أصابوه ،حتى تناولت بيدها المعروفة إحدى العصي ، وانطلقت وهي تصرخ قائلة : « آمون » أو « آتون » ! .. بحق هذا أو ذاك ، لأقتصن له من هؤلاء الأوغاد ومن أبيهم ومن أمهم كذلك ! .. ولم أستطع لسرعة اندفاعها إلى خارج الدار أن ألحق بها لأمنعها ، وما لبثت أن سمعت صرخات تنفجر في الشارع ، وعويل أطفال يتعالى مختلطا بصوت رجل يحتج لاعنا ! .وفي دهشة هذه المفاجأة، خرجت أنا و « تحوتح » إلى الشارع نستجلي الأمر في خوف وترقب، فرأيت « ميوتي » تضرب بعصاها – ضربا متداركا – في أولاد النساج ، وفيه وفي زوجته أيضا ، ثم تنفلت عائدة إلينا لاهثة مغضبة ، فرحت أهدئ من اضطرابها وأهدهد أعصابها الهائجة ، وأقول لها في رفق : إن معابثات الأطفال لاينبغي أن تعالج بمثل ما فعلت، وإن الكبار إذا تباغضوا بسببها أشعلوها نارا بينهم ، وقد لا تؤمن عواقبها في الجانبين ! .. غير أنها أبت أن تستمع لي ، وكادت – لشدة انفعالها – أن تهوي بعصاها على رأسي ! .. فأمسكت عن الحديث معها إلى أن هدأت ثورتها، ومن ثم استشعرت الندم وأنبها ضميرها ، فجاءت بإحدى السلال ودست فيها كعكا معسولا وإناء مليئا بالجعة ، وحملتها إلى بيت النساج ، واعتذرت إليه واسترضته هو وأولاده وزوجته ، ومن وقتها توطدت الصداقة بينهم وبينها، وأصبح الأولاد على صفاء ومحبة مع «تحوتح»، يدخلون دارنا كما لو كانت دارهم ، ويتهافتون على مطبخنا ليظفروا منه بالكعك المعسول الذي كان لعابهم يسيل عليه دائما ! ..

بقى إن أقول إن الذى أثار هذا الحادث فى مبدء الأمر ، هو أن الأطفال كانوا فى عبثهم الساذج يتنابذون على الطريقة نفسها التى يتنابذ بها الكبار فى ذلك الوقت ، تعصبا لأحد الإلهين ، « أمون » و « أتون » دون وعى أو إدراك ، وكان أولاد النساج يمثلون أتباع « أمون » كما كان « تحوتح » يمثل أتباع « أتون » ، ولهذا قلت إنه حادث صغير كان من شأنه - لو لم تتداركه « ميوتى » بالمصالحة والاعتذار - أن يتطور إلى شر كبير ، وكان هو الحادث الوحيد الذى مسنى من قريب ! ..

-٥-

وتلقيت من « إخناتون » أمرا يعجل العودة إليه ؟ لأن صداعه قد استبد به وأمضه ، فأعددت نفسى للرحيل أسفا على فراق « ميرييت » التى لم يطل مقامى معها . وقد ساءنى أنى غير مستطيع التلبث لأستصحبها معى هى وذلك الطفل المحبوب « تحوتح » ... فقلت لها وأنا أودعها : أرجو أن تتبعانى لنقيم معا فى منزلى « بأخيت أتون » ، فسوف نكون على القرب أكثر سعادة وأوفر هناءة ! ..

فقالت : لو أنك أخذت زهرة من موضعها بالصحراء ، فغرستها فى أرض مخصبة وظللت عليها ترعاها وتغذيها بالماء ، فما ظنك أن تكون بعد قليل ! .. إنها ستذوى بعد ازدهار ، وتجف بعد إيراق ، فذلك هو حكم الطبيعة وليس عنه محيد ! .. ولست أحسبنى إلا منتهية إلى هذا المصير نفسه لو أنى طاوعتك فيما تدعونى إليه فى « أخيت أتون » ! ..فليس فيها مكانى المنشود ، وإنما فيها أشياء كثيرة تعرض سعادتنا وتكدر صفوها ، هناك نساء القصر المتأنقات ذوات الإغراء، وهن أقدر على اجتذابك بالوسائل التى لا أعرفها ، ولا أبلغ مبلغهن فيها ، وهناك مركزك النابه المرموق وهو يفرض عليك أن تكون فوق مستوى الشبهات ، ولن تكون كذلك إذا عرف الناس ، ولا بد أن يعرفوا ، أنك تعاشر فى منزلك امرأة نشأت وترعرعت فى حانة نبيذ ! ..قلت لها : « ميريت » ! .. إذا لم تتبعينى كما رجوت ، تشبثا بالبقاء هنا ، فإنى عائد إليك مسرعا ، فلن تطول غيبتى هذه المرة ؟ لأنى

لا أطيق البعد ، أيتها الحبيبة التى ملأت قلبى ولن يكون لغيرها من نساء الدنيا مكان فيه ! .. سأهجر من أجلك « أخيت آتون » إلى غير عودة إليها ! .. هكذا فعل كثيرون ممن كانوا يقيمون فيها ، فماذا يمنعنى من أن أكون مثلهم! ..

ولكنها أجابت قائلة : إنك تحدثنى الآن بلغة قلبك وتلهج بلهجته ، ولكنه يملى عليك أكثر مما فى قدرتك أن تفعل ! .. وإنى لأعرف عن يقين أنك، أردت أو لم ترد لا تستطيع أن تفارق « فرعون » مهاجرا بالسهولة التى يهاجر بها سواك ، إنك طبيبة ومداوى علة التى لا تكف عنه يوما فلا سبيل اذن إلى مفارقتك إياه ، على نحو ما يفعل الآخرون !..

وأقلق كلامها بالى ، وأحسست كأن شوكا قد ملأ قلبى ، فليس ما تذكر بمعبدة من الحقيقة والواقع ، وأشفقت على نفسى من هذه الظروف السيئة التى تباعد بينى وبينها ، وأنا الذى أصبحت لا أحتمل العيش بدونها فقلت لها : « ميرييت » !.. إن مصر ليست البلد الوحيد فى العالم !.. وقد عشت بعيدا عنها سنين ذات عدد ، وكنت أسعد حالا منى اليوم فيها ، فما أشد ما أعانى من هذه المعارك الدينية ، فوق ماأعانى من جنون « فرعون » !.. لقد ضقت صدرا بالحياة فى « مصر » ، ويزيدنى ضيقا بها أننى أعيش فى ظلها محروما من لقائك ، فدعينا نفر منها إلى بلد آخر بعيد ، نعيش فيه معا جنبا إلى جنب ، أنا وأنت والصغير « تحوتح » ، سعداء بشملنا المجتمع ، فى غير خشية من الغد !..

وتبسمت « ميرييت » ولكنها عادت تقول ، وعلى وجهها وفى عينيها غلالة من اكتئاب : وهذا أيضا لا يغير من رأيى ، وهو عندى ضرب من العبث ، وأكاد أعتقد أنك مرسل فيه على عواطفك الخافقة لساعة أو بعض ساعة ، ثم لا شىء منه بعد ذلك !.. على أنه برغم هذا يبعث فى نفسى كثيرا من الرضا والبهجة، لانه يعبر عن حبك لى ، وما من امرأة ترى فى رجل مثلما أرى فيك من دلالات الحب إلا أرضاها هذا وأبهجها ، ولكن الحب يا « سنوحى » شىء جد مختلف مما تدعونى إليه ، فالسعادة التى تتخلها مقبلة علينا فى هجرة بعيدة عن « مصر » ، ليست إلا أمنية عاشق ، وكثيرا ما تطغى

الحقائق على أمانى العشاق !.. وثمة حقيقة لا تقوى على مغالبتها ، هى أنك لا يمكن أن تكون سعيدا فى مكان بعيد عن هذه البلاد التى ولدت فيها وارتويت من مائها وترعرعت فى أحضانها !.. وأنا ، نفسى ، لن أشعر بالسعادة الحقة إلا فى « طيبة » !.. وحقيقة أخرى قد لا تدركها اليوم ، ولكنك مدركها حتما فى المستقبل القريب أو البعيد ،هى أن ما يروقك من نضارتى ويستهويك من شبابى ، سيعدو عليه الزمن رويدا ، فيحول إلى نقيضه !.. وعندئذ لا يبدو لعينيك منى غير الدمامة فى موضع الجمال ، والبدانة فى موضع الرشاقة ، بل عندئذ يجفونى قلبك وينصرف عنى هواك !.. وتلك نهاية ، أوثر معها أن يتقطع الحبل بيننا منذ الآن ، على أن أصير إليها بملء رضاى !..

قلت لها : « ميرييت » !.. لاتسرفى هكذا فى الشك والتوجس صدقينى ، وثقى بى !.. أنت خبزى الذى لا يشبعنى طعام سواه ، ونبيذى الذى لا يسكرنى شراب عداه ، وأنت وطنى الذى لا أستعذب غير هواه ، وأنت المخلوق الوحيد الذى لاأنس فى وحدتى بغير جواره ، فحبى لك خالد لا ينقضى ولا يخبو مهما طال الزمن وتعاقبت السنون !.. فهذه هى الحقيقة التى تعلو على كل الحقائق ، وأنت تعرفينها !..

قالت الحقيقة التى أعرفها ولا أرتاب فيها أننى الوسادة الوثيرة التى تمتص آلام وحدتك ، والفراش اللين الذى يدفئ جسدك المقرور ، وهذا حسبى وحسبك ، وأنا به راضية ، لا أبتغى منه بديلا ولا أرجو عليه مزيدا ، وإن من وراء ذلك لسرا ينهش قلبى ، وقد يكون من حقك أن تعرفه ، ولكنى سأظل محتفظة به لنفسى، فمن الخير ألا أكاشفك به ، وليكن ظنك بى ما يكون ، فسواء عندى ، أعلمت أم لم تعلم ، أنى أحتمل آلامه وحدى من أجلك وحدك ، أعنى من أجل راحتك وهناءة قلبك !..

كانت « ميرييت » تبهم فى هذا ولا تبين ، ولم يكن خافيا على انها فى صراع شديد مع سر دفين ، كان يمنعها من افشائه أمر لا شك خطير ، ولكننى لم أشأ أن أهجم عليه فى قلبها ، لأنى كنت أكثر تفكيرا فى نفسى !..

ومرة أخرى، تركت « طيبة » عائدا إلى « أخيت آتون ».

مملكة آتون على الأرض

- ١ -

عندما بلغت "أخيت أتون" ذهبت من فورى إلى "فرعون" ، فرأيته على أسوأ حال ، يشارف حينه من شدة الألم وقسوة العلة، فوجهه قد تقبض، وعظام خديه صارت أكثر مما كانت بروزًا، وبدا عنقه حدبًا طويلاً لفرط هزاله، وبينما قد فشا فى فخذيه، فإن ساقيه قد علاهما ضمور جعلها أقرب شبهًا بعصوين رفيعتين، وقد تأثرت عيناه بالصداع المستمر فكانتا تائهتين فى غمر من الانتفاخ والتقرح، تحيط بهما ظلة فاقعة الاصفرار ، لا تنظران نظرات مسدودة مستقيمة، بل تهيمان هيمانا مشردًا، كأنهما تتصلان بعوالم أخرى غير منظور، ولهذا كان قلما يعرف من يتحدثون إليه!..

تلك كانت حالة حين رأيته، فرثيت له وتحرك قلبى اشفاقًا عليه، وتمنيت أن أوتى على تخفيف آلامه التى ضاعفت من حبى له .

وكان الصداع ، الذى يفرخ فى رأسه ، هو أدوى أدوائه. وقد تفاقم واستشرى بسبب العادة التى جرى عليها فى كل يوم، وهى عادة الوقوف طويلاً تحت أشعة الشمس عارى الرأس ليتلقى منها ، دون حجاب، أشعة البركة وأنوار الرحمة، ولكنها هبطت عليه صداعًا يعذبه، وآلامًا تورقه، ومرضًا لم يبق منه إلا هيكل إنسان حائل، فكأنما "أتون" إلهه الذى يفنى فيه هذا الفناء ، قد شاء ألا يكون المظهر الدال على حقيقته وعلى حبه لأتباعه شيًا سوى المحن والكوارث، ولهذا كان "فرعون" – وهو مصطفاه – لا يمس بيده شيئًا، ولا يتصل حبه بأحد إلا أصيب بمحنة وحلت به كارثة!..

وعكفت على علاج "فرعون" ، فكنت أضع على رأسه خرقًا مبللة ، وأعطيه ، فى الفينة بعد الفينة، حبوبًا تخدر آلامه، حتى تماسكت نفسه المتزايلة، وعاد إليه وعيه

الهائم، وأخذ يحدثني ، فقال : أتراني يا "سنوحي" أعيش في أوهام؟!.. وهل صحيح أن أمالي ليست سوى هذيان عقل مريض؟! . إن كان ذلك هو الحقيقة، فما الحياة - إذن - إلا مسرح الرعب والخوف من قوة غير منظورة، وما لغير الشر سلطان في هذه الدنيا ، وذلك ما لا أستطيع أن أصدقه، لأنه لا يمكن أن يكون صحيحًا ، وإنما الصحيح الذي أومن به ، وينبغي أن يؤمن به كل الناس، إن الإله العظيم في علياء سمائه لا يمنح الأرض ومن عليها غير الرحمة والسلام والخير. أقول هذا في ثقة من سلامة العقل، وأصر عليه أصرار المؤمن حق الإيمان، ولا يضعف من ثقتي وإيماني أن الشمس الإله لم تعد تمد قلبي بالضوء الذي يملؤه نورا، وإن أصدقائي المقربين أصبحوا يتنكرون لرسالتي ويزيدرون أهداف دعوتي، ويطوع لهم ظنهم إني صرت أعمى.. فيبصقون على فراشي !.. كلا يا "سنوحي" !.. فلست أعمى .. أن نظري يخترق الحجب وينفذ إلى قلوب الناس... حتى أنت ، فإني كذلك لأعرف الآن ما يترنح في قلبك الضعيف ، وأرى أنك مثل الآخرين تعتقد أنني مجنون!.. ولكني أغفر لك هذا، لأن الضوء الذي شع في قلبك يومًا، يشفع لك عندي!..

ويعاود الألم "أخناتون" فيقول متأوهًا صارخًا : إن الناس لتأخذهم الشفقة بالحيوان المريض فيضعون حدًا لآلامه بالاجهاز عليه بعصيهم ، وكم أراحوا الأسود التي تئن من جراحها بضرابات حرابهم، ولكنهم إذا ما ابتلي الانسان منهم بألم المرض وعذابه، ضنوا عليه بمثل هذه الشفقة والرحمة!.. بيد إني ، على ما أكابد من ألم المرض، وعلى ما يفدحني فوقها من ألام الرسالة العليا التي تحسبونها وهما وخيالاً أشعر بالعزاء والرضا والأمل ، لأن ضوء الشمس يشع في قلبي وينير نفسي، ويمنحني قوة أكبر من قوة البشر!.. وإن جسمي هذا ليفنى كما تفنى سائر الأجسام، فما من الموت فوت، ولكن روحي لن تفنى ولن تموت، وإنما ستظل حية حياة الأبدية والخلود، فمن الشمس ولدت يا "سنوحي" وإلى الشمس أعود. وفي كل يوم يزداد حنيني إلى هذا المعاد، فما أشد ما أعاني من الوحدة في هذه الحياة!...

وفي اقبال الخريف أقبلت العافية على "فرعون" ، وأثمر الجهد الذى بذلته في علاجه. ولولا أنني طبيب، ومن واجب الطبيب إلا يدع المريض الذى صار في ذمته ، فريسة الموت، لنفضت يدى منه وأخليت الطريق أمامه إلى الأبدية التى يحن إليها!.. فقد كان ذلك خيرًا له فيما أرى..

على أنه ، في ظل العافية التي عادت إليه بعد يأس، كان دائم الاستغراق في أفكاره وخيالاته ووحدته، لا يتحدث إلى أحد ، ولا يدير عينيه في شيء مما يقع حوله..

وكان أكثر ما سمعته منه في فترات صحوه لا يعدو التصورات التي يرسمها له محض الوهم، ولكنه كان قد ذكر الحقيقة فيما قاله عن تنكر أصدقائه المقربين وازرائهم عليه ويصقهم على فراشه. وكانت زوجته "نفرتيتي" قد ضاقت به هي الأخرى ذرعًا ، فلا تنفك تعمل على ايلامه، ويطيب لها أن تراه هكذا ، فقد سئمته عشيرًا وزوجًا ، ووقر في ذهنها، بعد أن ولدت منه خمس بنات دون أن تلد ولد ذكرًا، وأن ضعف رجولته هو علة ذلك، فأباحت نفسها لغيره ممن كانت تشتم فيهم وثاقة القوة ، وكان من بينهم صديقي "تحوتمس". ومن هذا الطريق الذى لم تقو على كبح نفسها عنه، تحرك في بطنها الجنين السادس وقد وجدت في ذلك المتعة التي أوهنت علاقتها "بفرعون"، وطوعت لها أن تأتمر به!..

وكان جمال :نفرتيتي" المزدهر، قد أخذ يتصوح ويذوى، ولكن بقيت لها منه مسحة وسمات ساحرة لا يقوى الرجال على مقاومتها. وكانت تعتد بجمالها وذكائها في إظهار قوتها وبلوغ ما تشاء من شهواتها، فوق اعتدادها بسلطانها كملكة ذات حظوة عالية. ولقد كانت – لسنوات عديدة – قانعة بالجمال والجواهر والنبيذ والتغني بالاشعار، وبما تلقاه وافرا من متاع القصر الأولي وما يحف بها من مظاهر الحكم والسلطان. وكانت خلال هذه السنوات العديدة بمنأة من قالة السوء فلا يذكر أحد أنها ارتكبت إثمًا أو تدنست بعار، أو شاركت في خيانة ، بل لقد كان المعروف عنها دائمًا أنها تبالغ في وفائها وحبها "لفرعون"وتدفع عنه، بقوة، تهمة الجنون، وتؤمن بدعوته

وأماله إلى أبعد الحدود، فلما انحرفت فى سلوكها الخلقى عن هذه الجادة ، ذهل الناس لهذا التحول الغريب الشاذ، وزاد فى ذهولهم أنها لم تكن تستخفى فى مآثمها وحماقاتها وراحت الشائعات والأقوايل تقتحمها اقتحامًا وتنهشها نهشًا، حتى كلن مما يروى عنها إذ ذاك أنها تجد اللذة أكبر اللذة بين أحضان الخدم الشرادانيين ونحاتى القبور!.. ولا يخلو هذا من التزيد والمبالغة، ولكنه مع ذلك غير مستغرب عندما يكون قصة تروى على السنة العامة والدهماء!..

وكنت أستمع إلى أخبارها هذه، فتخطر فى ذهنى ذكرى أمها والكاهن "آى" والمح على ضوء هذه الذكرى دم هذا الكاهن يجرى فى عروقها ، ذلك الدم الأسود القذر، الذى تتحرك فيه جراثيم الظلم والخيانة والجشع!..

وآثر "فرعون" أن يخلو إلى أفكاره، بعيداً عن هذا المضطرب، فاعتكف عن الناس ولزم وحدته حاملاً نفسه على مشقتها ، وقصر غذاءه على الخبز وثريد الفقراء وشراب ماء النيل، لا يزيد يعلى ذلك ولا يخلط فيه، مستعيداً بهذه الوسيلة الصفاء الروحى الذى استشعر حاجته إليه، فقد كان يعتقد أن اللحوم والنبيذ يرسلان على الروح ضبابًا وعلى العيون غشاوة، وقد فعلاً فعلهما فيه حتى اظلمت عيناه!..

وبينما كان هذا يحدث فى المدينة ، وفى القصر الملكى على الخصوص ، كانت الأحداث الخارجية تجرى مضطربة قلقة، "فعزيرو" قد أرسل ألواحًا من "سوريا" يقول فيها أن رجاله ، حبًا فى السلام ووفاء للمعاهدة ، يرغبون أشد الرغبة فى العودة إلى بلادهم ليستأنفوا فيها حياتهم الوادعة بين رعى المواشى والأغنام وفلاحة الأرض والأنس بزوجاتهم وأهليهم ولكن ضباط مصريين ، لا تنقطع غارتها على "سوريا" من صحراء "سيناء" ولا يزال خطرها متفاقمًا مهدداً بلاده ، ولهذا فإنه لم يأذن لرجاله فى العودة إلى بلادهم إلى بلادهم مضطراً، للاحتفاظ بهم كجنود يقفون فى وجه هذا الخطر، ذلك إلى أن حاكم "غزة" يسير فى تصرفاته سيرة مناقضة لمعاهدة السلام نصًا وروحًا، فقد أغلق أبواب المدينة دون التجار المسالمين، ولا يسمح بدخولها إلا لمن يشاء من غير هؤلاء، وراح "عزيرو" يضيف إلى ذلك الكثير مما لا يستطيع أحد أن

يصبر عليه سواء – على حد قوله – وهو يحتج على وقوع هذه الحوادث والتصرفات ، ويطالب بوضع حد لها عاجلاً، وإلا فإنه لن يكون مسئولاً عن النتائج..

وكانت "بابل" تنظر في غير ارتياح إلى منافسة "مصر" لها في سوق الحبوب "بسوريا" ، ولم يتقبل ملكها "بورنابورياش" هدايا "فرعون" راضيًا، وعقب عليها من المطالب والتحفظات!..

أما سفير بلاد ما بين النهرين في "أخيت أتون فقد كان يشد لحيته ويهز كتفيه ويبسط يديه ويقول : أن مليكي يشبه الأسد الذى ينهض متثاقلاً في عرينه، ويتشمم في الهواء ريح الأحداث المقبلة ، وأنه ليلتقي مع "مصر" في آمالها ويعد عدته لمناصرتها، ولكنى لا أدرى ما سوف تكون عليه إذا لم تبعث إليه "مصر" بالذهب الذى يمكن له في استئجار الرجال الأقوياء وشراء الأسلحة وتشييد العجلات الحربية!. ومليكي يبرهن دائمًا على أنه خير صديق لمصر، ولكن صداقة الممالك لا تنهض إلا على دعائم قوية من الغنى والثراء ، وهو – في اعتزازه بصداقة "مصر" لغناها وقوتها – لا يرحب أبدًا بصداقة مملكة فقيرة ضعيفة، لأنها تكون جميلة عليه، وعبئًا على كتفيه!..

وفي ذلك الوقت وفد على "أخيت أتون" مندوبو الحيثيين ، ومنهم الرؤساء الممتازون ، ليؤكدوا الصداقة القديمة المتوازنة بين "مصر" وبلادهم، وليقبسوا من "مصر" تقاليدها الطيبة التي سمعوا الكثير في تمجيدها، وليروا بأعينهم نظام الجيش المصرى وعدته وعدده، ليستهدوا بذلك في إصلاح جيشهم!.. هكذا كانوا يقولون ويعلنون! وقد كانوا يحملون معهم هدايا ثمينة لضباط الحاشية الملكية ، ومن بينها هدية قدموها إلى الصغير "توت" ابن "فرعون" بالمصاهرة ، وكانت سكينًا من المعدن الأزرق، تمتاز بالحدة والصلابة، وكنت أنا الشخص الوحيد في "أخيت آتون" الذى يملك مثل هذا السلاح، وهو الذى أعطانيه رئيس الميناء الحيثي!.. وقد فرح "توت" بهديته هذه ، ولم تكن تفارقه أبدًا حتى أنه كان يقول : إنى سآخذها معى إلى قبرى!.

إذا كان على رقته وتفتح براعم الحياة فيه يغلبه التفكير فى الموت، على خلاف المألوف فى الأطفال والفتيان صغار السن!..

وقوبل هؤلاء الرؤساء الحيثيون بالحفاوة البالغة، فلم تكد تمضى عليهم ساعة من نهار أو ليل إلا كانوا فيها ضيوفًا أعزاء على كبار المدينة وعظمائها فى قصورهم!.. فقد كانوا محط الأنظار وموضع الأكبار ومثار الإعجاب من الجميع ، ولما يتسمون به من وقار العلم والمعرفة وحدة الذكاء ولم يكن النساء - وبخاصة سيدات الحاشية الملكية - بأقل من الرجال إعجابًا بهم ، فقد كان يروقهن جمال التكوين وحسن السمت وعلامات الرجولة المتمثلة فى أنوفهم الطويلة وذقونهم المحدودبة وعيونهم النفاذة التى كانت تشبه عيون الحيوانات البرية !.. وهم يداخلون الناس فى كثير من اللطف والرقة، ويتحدثون إليهم فى هشاشة وتبسم فيقولون لهم : نحن نعرف أن كثيراً من الأشياء المرعبة تروى عن بلادنا وليست من الحقيقة فى قليل أو كثير، وإنما اخترعها ولفقها جيراننا الحاقدون علينا لتسىء إلى سمعتنا وسلكونا فى الخارج... ولهذا فإننا مغتبطون إذ أتيح لنا أن نلقاكم بأشخاصنا لتروا فينا دليل افترائهم ، ولنؤكد لكم بأنفسنا أننا شعب متحضر موفور الثقافة ، والقلة القليلة فينا هى التى لا تجيد القراءة والكتابة والاطلاع ، وأكثر ما نعنى به فى حياتنا هو البحث عن المعرفة حيث تكون، لنزداد بها علمًا فوق علم ، ونستنبط منها خير ما فيها لتعليم أقوامنا وتهذيبهم.. فلا تصدقوا الخرافات التى يذيعها عنا المهاجرون من "ميتانى" فهم يحسدوننا لتقدمنا عليهم ، وينفسون علينا امتيازنا دونهم ، وقوتنا على ضعفهم ... فلو لم يكونوا ضعافًا لما تركوا بلادهم خائفين، ولما خرجوا عن كل ما يملكون فيها وكان خليقًا بهم ، لو كانوا واثقين بأنفسهم، مطمئنين إلى قوتهم، أن يستقروا فى بلادهم ويبذلوا فى خدمتها كل جهودهم ، فما كان ليصيبهم فيها مكروه أو ينالهم منا سوء ، فنحن قوم مسالمون ، لا نسعى إلى حروب ، ولا نحاول الاعتداء على أحد. ولم نكن فى دخولنا إلى بلادهم نقصد شيئًا من هذا ، وإنما دخلناها لنحررهم من المظالم التى كانوا يضجون منها ، وكانوا هم أنفسهم يدعوننا مستغيثين لنخلصهم من أصرها

ومآثمها!.. وفي أرض "ميتاني" متسع لنا ولهم، وكان ينبغي أن نتلمس في سعتها متنفسًا لنا ، فأرضنا قد ضاقت بكثرتنا المتزايدة، وألحت علينا الحاجة إلى أرض أخرى، تمدنا بالأقوات وتمد مواشينا بالكلأ !... وما كنا لنفعل هذا أو نفكر فيه لولا أن ملكنا العظيم "شوبلوليوما" يحب الأطفال ويدعو إلى الاستكثار منهم، فازداد النسل بذلك وتكاثر الناس على مرور الزمن ، فهذه هي حقيقة أمرنا مع هؤلاء يطيب لهم أن يشككوا في نوايانا، ويخترعوا علينا الأباطيل!

كانوا يقولون هذا ، دفعا لما يعرفون أنه يشوب الأفكار من ناحيتهم ، ثم يأخذون في امتداح "مصر" والإشادة بعظمتها والتنويه بالحب المتبادل بينها وبين بلادهم ، ويعربون عن رضاهم في أن تتوطد علاقتها بهم مشيرين إلى ما عندهم من العلوم والمعارف والعادات والتقاليد الحسنة التي يستطيع المصريون أن يتعلموها ويفيدون منها في ظل العلاقة الوطيدة!..

ولكني – على أسهابهم في تعظيم "مصر" و" أخيت آتون"، وعلى براعتهم في اقناع من تحدثوا إليهم من المصريين بأن الحيثيين قوم شرفاء أفاضل ، لم أشعر بارتياح نحوهم، فقد كنت أعلم من أمر بلادهم مالا يعرفه غيري ، ولم أنس منهامنظر الموضوعين فوق الخوازيق وكيف كان الغادون والرائحون يبصقون عليهم امعانًا في التنكل بهم، إلى غير هذا من ضرورة القسوة والفظاعة التي تخلو من كل ما يصطنعونه الآن من مظاهر الرحمة والسلام!... وخيل إلي أني أشم في أثوابهم رائحة الدم المراق والجثث المتعفنة، ولهذا أحسست كأن عبئًا ثقيلاً قد انزاح عن قلبي، عندما غادروا "أخيت آتون"!...

وفي ذلك الوقت فشت في "أخيت آتون" ظواهر حياة غريبة لم يقع مثلها من قبل ، فأهلها في سباق جنوني ، يسرفون في طعامهم وشرابهم ويفرطون افراطًا شديداً في لهوهم ومجانتهم، ويتكثرون بأسباب البهجة والمرح، وما كان هذا دليلاً على شيء من دلالته على يأسهم من المستقبل ، فهم ينتهزون لذتهم في يوم غير مأمول الغد، وأحيانًا كانت تستيقظ عقولهم ، فيمسكون عن هذه الحياة اللاهية أشد اللهو، ويطبق على

المدينة عندئذ سكون مخيف، فإذا ضحكهم يجول أسى، وبهجتهم تنقلب اكتئاباً ، وإذا بألسنتهم تجمد في حلوقهم فلا يتحدثون وإنما ينظر بعضهم إلى بعض في خشية !.. ولكنهم سرعان ما يعودون إلى ما كانوا فيه ، هاربين من عقولهم، تحت وطأة الحمى الجنونية المسيطرة !.. وكان الفنانون أكثر أهل المدينة تأثرًا بهذه الحمى وانفعالاً بها، فهم منكبون على الرسم والنحت والتلوين، مبدعين فيها جميعًا ، أبداعًا قلما بلغوا مثله وكانت في انتاجهم، على كثرته، أشكال ولوحات بالغة الغرابة ، عبرت عن الأفكار العابثة التي كانت تتحرك بها أقلامهم الراسمة. وكان يسيرًا عليهم حينذاك أن يمثلوا التقاطيع الكاملة والحركات الدقيقة بأقل ما يمكن من الخطوط والألوان!..

وقد قلت لصديقي :تحوتمس" : أن فرعون "أخناتون" قد رفعك من الحضيض واتخذك صديقًا له، فهل أخبرتني لماذا تمثله بريشتك، على ما رأيت، كأنك تمثل به؟! وهل يفعل به هذا إلا أعدى أعدائه؟! ثم ما هذا الذي يلقاه منك من نكران الجميل وجحود الفضل ، إلى حد أنك تبصق على فراشه وتزرى عليه، وتمالئ الكائدين له؟!..

فقال "تحوتمس" :تلك أمور أرى ألا تقحم نفسك عليها ، لأنك لا تفقهها!.. ولعلي أن أكون قد كرهت "فرعون" ، فما ذاك بالشئ الغريب بعد أن كرهت نفسي، وهي مني بالمكان الأول !... دع هذا يا سنوحي ، وخير منه أن تعلم أن الإبداع الفني يضطرم في داخل نفسي اضطرامًا قويًا، ولم تكن يداي يومًا مثلما هما عليه الآن، من الخفة والمهارة، وربما كان ذلك لأن الإجادة والإبداع لا يواتيان الفنان ولا يحالفانه، إلا إذا تجرد من أنانيته وكره نفسه ، واستشعر الأسى في حياته، ولقد شأوت في هذا السبيل وبلغت منه أقصى المدى، حتى لقد خلقت من الحجر خلقًا كثيرًا ، كما يفنى الناس ، وإنما يبقى إلى الأبد!.. وأستطيع، بهذا الخلق العتيد الذي يطاول الزمان، ولا يعتريه مرض ولا موت ولا نسيان، أن أضع نفسي في مرتبة أعلى من "آتون" لأن خلقه إلى زوال وانحلال!.. فأنا - كما ترى - إله أكثر مني انسانًا ! وقد تفردت في فني ، فليس هناك في الآخرين من يرقى رقيي أو يعدلني في مكانتي. ومن آياته هذا التفرد أني التزم قواعد محددة لايباح الشذوذ عليها، وإنما أطلق يدي لأني فوق القواعد والحدود!..

لم يكن "تحوتمس"، وهو يقول لي هذا ، متماسكًا في تعبيره أو في حركاته ، وعرفت أنه كان قد أثقل على نفسه بالشراب حتى ثمل ولذا تجاوزت عن حديثه هذا الذي لا يزنه ولا يعيه، وبخاصة إذ كانت تتراءى في وجهه وعينيه دلائل تعاسة عميقة يعاني منها في داخل نفسه!..

وخلال ذلك الوقت كان قد انتهى الحصاد ، وارتفعت مياه النهر ولم انخفضت.. وجاء الشتاء مصحوبًا بالمجاعة التي اجتاحت بلاد "مصر" جميعًا، ورانت على الناس منها مخاوف وظلمات ، وبات كل منهم لا يدري إنه كارثة هو ملاقيها في الغد ، هذا إلى أن الأنباء تواترت بأن "عزيرو" قد فتح أكثر مدن "سوريا" أمام "الحيثيين" ، وأن عجلاتهم الحربية الخفيفة قد استشرفت في تقديمها ، صحراء "سيناء" ، مهاجمة تانيسي" واستطاعت أن تخرب ما حولها.

- ٢ -

وتأيدت هذه الأنباء بقدوم "آي" من "طيبة"، وحورمحب" من "ممفيس"، ليتشاوروا مع فرعون "إخناتون" في الموقف الخطير وتدبير الوسائل لانقاذ ما يمكن انقاذه. وقد شهدت اجتماعًا بفرعون كطبيب، لاتقاء ما كان متوقعًا من الخطر على صحته وحياته حينما يكاشفانه من الأمر بما لا بد أن يسوءه العلم به ... ولكن "فرعون" استمع إليهما في هدوء وظل مسيطرًا على أعصابه طوال الوقت!..

وكان مما قاله له الكاهن "آي" : أن مخازن "فرعون" خاوية وأراضي "الكوش" لم تؤدالجزية هذا العام، وكنت أعلق كل آمالي على أدائها!.. والجوع قد استشرى في البلاد، والناس في مجاعتهم القاسية يقتلعون الزرع من الأرض ليقتاتوا بجذوره، بل لقد اضطروا إلى التقاط الجراد والحشرات والضفادع ليأكلوها، وقد مات الكثيرون منهم ، والآخرون في طريقهم إلى المصير نفسه. وبالغة ما لغت الدقة المقسطة في توزيع غلات "فرعون" فإنها غير مجدية لعدم وفائها بالحاجة، وما لدى التجار منها قد

ارتفع ثمنه إلى الحد الذى يتجاوز قدرة الناس على الشراء ، وقد ملأ الفزع والرعب سائر القلوب ، وأصيبت العقول بالخبل والاضطراب، فأهل القرى يفرون إلى المدن ، وأهل المدن يفرون إلى القرى ، وقد أصبحوا جميعًا يعتقدون أن لعنة "آمون" تلاحقهم، وأن إله فرعون هو الذى كرثهم بهذه اللعنة!.. والراى عندى يا فرعون "آخناتون"، أن تصلح ما بينك وبين الكهنة، وأن تعيد "لآمون" قوته وسلطانه ليعبده الناس فى إيمان وأمن كما كانوا ، وأن تعيد كذلك أرضه ليعود الناس إلى زراعتها منه ورهبة!.. وهم لا يقبلون على أرضك ويأبون المقام بها لاعتقادهم أن لعنة "آمون" قد صبت عليها ولهذا فقد خلت من الناس والزرع معًا ، وأفضى ذلك إلى المجاعة التى تلف البلاد فى أبراد الموت! وإنى لأدعوك إلى أرضاء "آمون" ومصالحة كهانه، إذ لا أرى غير هذا سبيلا إلى دفع الخطر الداهم والخروج من الغواشى الداجية!.. وهذه نصيحتى خالصة لك ، فإن لم تأخذ بها فحسبى أنى أديت واجبى ، ونفضت من العواقب الوخيمة يدى!..

وتقدم "حور محب" من فرعون وقال : إن الملك "بورناجورياش قد حالف "الحيثيين" و"عزيرو" بعد أن اشترى السلام منهما تحت تأثير الضغط والإكراه!.. وجنود هؤلاء فى "سوريا" فى مثل عدد رمال الصحراء، كما أن عرباتهم الحربية هى الأخرى فى مثل عدد نجوم السماء، وهم يرصدون "مصر" ويبيتون الشر لها، وقد أعدوا عدتهم لغزوها ، حتى أنهم اختزلوا لديهم كميات وافرة من الماء ، ملء ما لا يحصى من الجرار ، ليستعينوا بها فى خوض الصحراء التى لا تؤمن الحياة فيها بغير ماء يبل الأوام ويطفئ الظمأ !... وما كان تزودهم بالماء منقولا إلى الصحراء فى جرار إلا مخاض الدهاء الذى اشتهر به الحيثيون، ودليل تصميمهم على بلوغ أقصى الغاية من هذا الزحف المسلح!.. ومن عجيب أمرهم أنهم استطاعوا أن يشتروا جرار الماء التى لا تحصى من "مصر" نفسها، دون أن يدرى التجار المصريون الذين باعوهم إياها، أنهم بذلك يحتفرون لأنفسهم ولمواطنيهم قبوراًبعدد جرارهم!.. وقد شوهدت العجلات الحربية التابعة "لعزيرو" وللحيثيين، وهى تقوم بغزوات استطلاعية فى

"تانيس" وفي بلاد أخرى تابعة للتاج المصرى وبهذا خرقوا معاهدة السلام، وكانت الخسائر التى أحدثوها أول الأمر، طفيفة، ولكنها مما لا يمكن أن تحتمل !.. فالأنباء تتواتر عما يرتكبه الحيثيون من تدمير رهيب وقسوة مرعبة. وقد وقع هذا في الناس أسوأ وقع، وأثار فيهم العزم المصمم على القتال. وأرى ألا ندع الزمام يفلت من أيدينا ، والوقت لا يزال ملائمًا يا فرعون "أخناتون". فأمر بنفخ النفير ورفع الاعلام أعلانا للحرب التى لم يعد منها مفر ، ولنجمع من فورنا جميع القادرين على حمل السلاح فى ميادين التدريب العسكرى ولنجمع كذلك كل ما يوجد من نحاس فى جميع أنحاء المملكة لصنع الحراب ورءس السهام، فليس مستطاعا بغير هذا أن تنجو مملكتك وتصان بلادك، وانى لقمين أن أشعلها على "الحيثيين حربًا لا قبل لهم بها ، وأرميهم بشر هزيمة عرفوها أو سمعوا بها ، ومن ثم أعيدفتح "سوريا" باسمك وأردهم إلى حيث أتو أذلاء صاغرين !..سوف أفعل كل هذا ، ولا مناص، وهو أمر ينبغي أن ترصد له موارد "مصر" كلها ، وأن توضع بجملتها تحت تصرف الجيش ، ففيه اليوم تلتقي آمال الميلاد، وعليه وحده ينعقد الرجاء في الخلاص . وقوته ولا شيء سواها هي التي تحفظ لمصر عزتها وكرامتها. وأن الناس الآن ليقتلهم الجوع ويستبد بهم الفراغ والقلق، فتعبئتهم للقتال ، وقد أصبحوا جد مشوقين إليه بعاطفة الدفاع عن أنفسهم وبلادهم ، ستحيل ضعفهم قوة، وجبنهم شجاعة!... أتباع "آمون" منهم ، سينسونه عندما يكونون في حومة الوغد . وفي هذه الحومة نفسها لن يكون لهذا القلق السائد موضع من نفوس المقاتلين فهم جميعًا، وعلى قلب رجل واحد يواجهون العدو الذى لا حياة لهم إلا بقهره والظفر به!... إن الحرب يا "فرعون" وهي وحدها التي توطد ملكك وتدعم سلطانك، وتظهرك على أعداء بلادك بالقوة التي ترهبهم وتلقي الرعب في قلوبهم ، وإني لأعدك بالنصر المؤزر فيها ، فأنا "حور محب" ابن الصقر ، وقد ولدت لأعمال جليلة ، وهذه هي الساعة التي كنت في انتظارها طوال حياتي!...

ولكن "آي" لم يطق سماع هذا ، فقال معترضا : لا تصدق "حور محب" يا فرعون "أخناتون"، يا ولدى العزيز! ..فليس ما يجرى به لسانه الآن إلا الكذب الملفق ، يمهد به لبلوغ مطامعه في سلطانك!.. ولئن كان حقًا أن الحرب لا معدى منها ، فإنى لا أرى ضيرا في إعلانها ، ولكنها بعد الذى اشير به من مصالحة كهنة "آمون" ، وعلى إلا تكل قيادتها إلي "حورمحب" ، وليكن قائدها رجل من رجالك المجربين، أوتى العلم بفنونها ودرسها الدراسة الوثيقة فى المخطوطات القديمة على ما كانت فى عهود الفراعين العظماء وأنك ، لواجد من هذا الطراز ، الرجل الذى تضع فيه ثقتك الكاملة!..

فقال "حور محب" مغضبًا: إن وقوفنا الآن في حضرة "فرعون" هو الذى يغل يدى عن جدع أنفك القذر أيها الكاهن "آي" !.. وأنك لتصفنى بما هوفي طبعك، وتقيسنى بمقياس الخيانة التى تتفجر من كل جارحة فيك، وقد سولت لك هذه الخيانة أن تتفاوض سرًا مع كهنة "آمون" وتعقد بينك وبينهم عهداً من وراء ظهر فرعون ولكننى لن أتخلى عن الصبى الذى القيت عليه يومًا معطفى لأقيه بالقرب من تلال "طيبة" ، ولست أستهدف غرضًا سوى عظمة "مصر" وعزتها ، ولا يستطيع غيرى انقاذها من المحن التى تلم بها مرعدة مروعة!.. وقطع "فرعون" هذا الجدال قائلاً: هل انتهيتما من الحديث؟!..

فأجابا بصوت واحد : نعم:...

قال : قبل أن اتخذ قرار فيما عرضتماه ، يجب أخذ نفسى بالتأمل والصلاة، وفي الغداة سأدعو جميع الناس ، أولئك الذين يحبوننى، كبارا وصغارا سادة وخدما ، وسأستدعى كذلك الحجارين والبنائين من مدينتهم وسأتحدث إلى شعبى فى أشخاصهم وأكاشفهم بقرارى!...

وقضى "فرعون" ليلته مسهدًا، مستغرقًا فى التأمل والصلاة رائحًا غاديًا فى حجرته ، وقد أمسك عن الكلام وعن الطعام، وكنت فى ملازمتى له - كطبيبة الخاص - أراه هكذا فأرثى لحاله واشفق عليه اشفاقًا شديدًا!..

وفى الغد ، تجمع الناس ، وكان "آى" و"حور محب" على أحر من الجمر انتظارا لقرار "فروعون" وكل منهما يطمع فى أن يجئ مطابقًا للرأى الذى أبداه.

وحمل "فرعون" إلى هذا الجمع الحاشد ، واستوى على عرشه متألق الوجه ، وتكلم فقال : بسبب ضعفى تجتاح المجاعة الآن بلاد "مصر" وبسبب ضعفى يهدد العدو حدودنا، والحيثيون قد أعدوا عدتهم للوثوب على "مصر" وغزوها عن طريق "سوريا" ، وتوشك أقدامهم أن تطأ الأرض السوداء !.. ذلك أنى لضعفى لم أستمع إلى صوت إلهى ، ولم أنفذ إرادته!.. ولكنه أخيرًا تجلى أمام عينى أقوى ما يكون التجلى ، وسطع نوره فى قلبى فملأنى قوة ، ولم أعد ضعيفًا ولا مترددًا!.. لقد حطمت الإله الزائف "أمون" ولكنى فى ضعفى سمحت للآلهة الأخرى أن تحكم بجانب "آتون" وتنشر ظلالها على أرض "مصر" حتى صيرتها ظلاما!... فمنذ اليوم يجب أن تسقط جميع الآلهة القدامى وتختفى ظلالها، لتبقى أضواء "أتون" وحدها تنير الوجود والآفاق فى أرض "كيم"... أجل !.. منذ اليوم تنتهى - نهاية أبدية - هذه الآلهة الأخرى، ولا يبقى على الأرض إلا الإله الواحد "أتون" ، معبودا فى مملكته الكبرى!..

وسرت بين الناس عند سماعهم هذا الكلام همسات تختلف بين الذعر والإيمان ، وخر كثيرون منهم على وجوههم ساجدين أمام "فرعون" ولكنه رفع صوته واستطرد يقول فى رباطة جأش: فيا أيها الذين تحبوننى ، اذهبوا الآن فحطموا الآلهة القدامى ، وامحوا آثارها من أرض "كيم"... لا تبقوا على شىء من مذابحها وهياكلها وتماثيلها!.. وأريقوا على الأرض مياهها التى وسموها بالقداسة ، واطمسوا أسماءها ونقوشها فى كل مكان ، ولا تدعوا شيئًا منها فى القبور كذلك ، فهذا هو السبيل إلى انقاذ "مصر" ، وبهذا حمايتها من كل شىء !.. وأنتم أيها النحاتون: استبدلوا بأقلامكم ومناقيشكم فئوسًا .. ويا أيها العمال : أحملوا مطارقكم .. وامضوا جميعًا إلى كل إقليم ، وإلى كل مدينة وكل قرية فاقلبوا - رأسًا على عقب - معابد الآلهة القدامى ، وأزيلوا معالمها وآثارها فى كل موضع وناحية !.. واعلموا أنه لن يكون هناك بعد اليوم سيد ومسود، أو مخدوم وخادم، وإنما سيكون الناس جميعًا سواء

أمام "آتون"!.. لكل منهم أن يختار بمحض أرادته العمل الذى يريده، وأن يغدو ويروح على ما يشاء ملء حريته، ولن يستطيع إنسان أن يسحر إنسانًا فى فلاحة أرضه أو فى طحن غلاته،... هذه إراداة "آتون" وبها تكلم "فرعون"!..

وران السكون على الجميع ، وقد بدا لهم "فرعون" أكثر تألقًا ووضاءة وجه، فأخذتهم روعة منظره ، وقال بعضهم لبعض : إن شيئًا من هذا لم نره من قبل ، وأكبر الظن أن إلهه هو الذى كان يتكلم بلسانه ومن ثم فقد وجبت علينا طاعته!..

وفى انصرافهم اعتراهم الهياج واشتدت بهم الحماسة، وكان بينهم من لا تزال نفوسهم مطوية على الشك ، فتنازعوا فى الشوارع وتطور النزاع إلى تضارب وقتال ، وأهوى المتحمسون لفرعون بخناجرهم على رقاب بعض مخالفيهم ، فذبحوهم!..

وخلا "آى" بفرعون، فقال له : يا "أخناتون" !.. ضع عنك تاجك ، وحطم عصا الراعى ، فما أرى لك ، بعد الذى جهرت به فى الناس تاجًا ولا عرشًا!..

وأجاب فرعون "أخناتون" قائلاً : بل هذا الذى جهرت به فى الناس ، هو العظمة والخلود ، وسيعلو به اسمى فوق الأسماء ، ويجعل لى فى قلوب الناس المكان الأعز إلى الأبد !..

وفى انفعال ومرارة ، فرك "آى" يديه وبصق على الأرض أمام "فرعون" ومسح البصقة بقدمه وقال: ما دام الأمر كذلك فإنى أنفض يدى منه ، وأدعك إلى رأيك غير مسئول عنه ، فما أنا بالمسئول فى أعمالى عن تصرفات رجل مجنون!..

وهم "آى" بالانصراف ، ولكن "حورمحب" وقف فى وجهه وأمسك بذراعه وعنقه، ولم يستطع الافلات من يديه على موفور قوته، وخاطبه "حورمحب" قائلاً : أنه مليكك، وله عليك حق الطاعة والولاء ، فإن لم تنفذ ما يأمرك به ، فأنت إذن خائن غادر ، وإنى لقاتلك أن أرتكبت هذه الجريمة المنكرة ، فليس عليها غير القتل عقاب ، وفى وسعى أن أفعل حتى لو اقتضانى الأمر أن أجرد فى سبيله فرقة عسكرية كاملة!.. ولئن كان جنون "فرعون" يلوح عميقًا مخيفًا ، فإنى مع هذا أحبه ولن أتخلى عن موضعى منه ،

أو أنكص عن واجبي نحوه، فقد أقسمت له يمين الولاء !... ذلك إلى أني لا آراه في خلطه وتخريفه مرسلا إلى غير قصد معقول ، وقد يكون أمره بالقضاء على الآلهة القدامى، ودعوته إلى تحطيمها والاجهاز عليها ومحو آثارها في البلاد ، تصرفًا خطيرًا يؤدي إلى حرب داخلية ، ولكنه في الوقت نفسه، يؤدي إلى تحرير الارقاء من الذل والاستعباد وتخليص الضعفاء من ظلم الأقوياء وعسفهم ، وهؤلاء المحررون من الذل والظلم كثرة كاثرة، وسيكونون في صفه بلا ريب ، وبهم يقوى ويعتضد !.. فارادة "فرعون" تذهب في الشعب على وجهين ، لا يخلو أيهما من خير ، وإن كانت البلاد خلالهما كمثل حبات القمح بين شقي الرحى، يطحنها الاضطراب والفوضى ، فذلك ما ليس منه بد في اعتراك عهدين ، واصطراع عقلين ، وهو إلى نهاية حتمًا !.. على أن هذا لا يعنيني اليوم، فأخطر منه شأنا عندي ، هو أن يقول فرعون "أخناتون" ماذا نحن صانعون في موقفنا من الحيثيين؟! إني لأوجه إليه سؤالي هذا ؟!..

ولكن "أخناتون" ظل في مجلسه، لائذا بصمته، لا يتحرك ولا يجيب !.. فاستطرد "حور محب" قائلاً: أعطني ذهبًا وغلات، وأسلحة وجيادا وعجلات حربية، وسلطة كاملة أجند بها المحاربين وأستأجر المقاتلين، واستدعي الحراس للأرض السفلى، فإني بهذا لمستطيع أن أصد هجوم الحيثيين ، وأردهم على أعقابهم مخذولين!..

وعندئذ تحرك "فرعون" وصوب إليه عينيه المحمرتين وقد غاض في وجهه البريق المتألق ، وقال: إني أمنعك من إعلان الحرب يا "حورمحب" ، وإذا أراد الناس ، من تلقاء أنفسهم ، أن يدافعوا عن الأرض السوداء ، فذاك شأنهم ولا يسعني أن أمنعهم. أما الذهب والغلات – ولا أقول شيئًا عن الأسلحة – فليس لدى منها ما أعطيكه، ولو أنها كانت عندي فإنك لن تأخذ منها قليلا أو كثيرًا ، فما أريد مقابلة الشر بالشر . وفي مكنتك ان ترتب الأمر مقصورًا على الدفاع عن "تانيس"... على ألا تسفك قطرة من دم !.. حسبكم أن تدافعوا عن أنفسكم إذا هوجمتم!..

فأجاب "حورمحب" مغيظًا : فليكن ما تشاء!... وليذهب الجنون كل مذهب في البلاد!.. على أنه يجب أن تعلم أنني ، بأمرك يا "فرعون" سأمضي إلى الموت المحقق

فى "تانيس"!.. فما تستطيع أعظم الجيوش قوة وبسالة أن تثبت لأعدائها من غير أقوات ومال !... ولكنى ذاهب لمواجهة الأعداء على أية حال ، وسأتصرف وفق ما يمليه على عقلى، ووداعًا!...

وانصرف "حورمحب" وخرج فى أثره "آى" وبقيت أنا و "فرعون" وحدنا، فأجال فى عينيه اللتين اعتراهما خمود ظاهر ، وقال : لقد خرجت الفضيلة منى فى كلماتى ، على ما ترى يا "سنوحى" ولكنى أرانى - حتى فى ضعفى - سعيداً ، فماذا عسى أنت فاعل؟!..

فنظرت إليه فى دهشة ، ولكنه ، وقد علت وجهه ابتسامة خفيفة ، أردف يسألنى : أتحبنى يا "سنوحى" ؟! .. فإذا كنت تحبنى حقًا ، فإنك لتعرف إذن ماذا عليك أن تفعل!..

ولم أفطن أول الأمر إلى ما يعنيه بهذا السؤال ، ولكنى أحسست أنه يدعونى أنا الآخر كما قد دعا سائر الناس إلى استئصال الآلهة القدامى، فقلت له ممتعضًا: حسبت أن عملى لا يعدو أن أكون طبيبك الخاص ، فإن لم تكن تراه كذلك ، فسوف أمضى إلى ما تريد ، ولو أن هذا مما لا طاقة لى به، فذراعاى من الضعف والكلالة بحيث لا تقويان على حمل الفأس أو المطرقة، وسيكون يسيراً على الآخرين من أتباع الآلهة التى تستنفرنا عليها أن ينالوا منى أسوأ منال ، ولن أستطيع أن أدفع عن رأسى الأحجار التى يرشقونه بها ، أو أن أهرب من أيديهم وهم يسلخون جلدى حيًا أو ميتًا ويعلقوننى من أعقابى على الأسوار!.. على أن هذا المصير المحزن لا يعنيك فيما أرى!.. فإذا كان لا معدى لى عن أن أخوض معركة الآلهة، فإنى آخذ وجهى إلى "طيبة" ففيها المعابد الكثيرة التى يمكن أن أؤدى فيها عملا كبيراً دون أن أتعرض لخطر كبير، فالناس هناك يعرفوننى، وقد لا ألقى منهم شيئًا مما أخشاه على حياتى!...

ولم يحر "فرعون" جوابا، فذهبت عنه غاضبًا!..

وأبحر "حورمحب" على سفينته فى اليوم التالى قاصداً إلى "ممفيس" ليتابع رحلته منها إلى "تانيس" وكنت قد أجتمعت به قبل رحيله، وانعقد الاتفاق بيننا على أن أقرضه كل ما تملكه يدى فى "طيبة" من ذهب ، إلى نصف ما فى حوزتى هناك من غلات ، محتفظًا بنصفها الآخر لحاجاتى ومعاملاتى الخاصة ، ولعل هذا هو الخطأ الذى شاب حياتى وسيطر عليها، فنصفا قدمته – انجازا لعهدى – إلى "حورمحب" ، ونصفا قدمته – تمجيداً "لأخناتون" – إلى الجياع من شعبه!..

– ٣ –

وصحبنى "تحوتمس" فى عودتى إلى "طيبة" وقد رأينا ، وكنا لا نزال منها بمبعدة، جثثا طافية على الماء يدفعها التيار نحونا، وكانت منتفخة بادية عليها آثار التنكيل!... وبانت لنا فى كثير منها رءوس الكهنة الصلعاء ، إلى رءوس أخرى عرفنا من مميزاتها أنها لرجال من الطبقات العليا والدنيا، من بينهم حراس وخدم.. وقد أغنت ، بكثرتها التماسيح عن السعى فى طلب الفرائس؟.. وكان ظاهراً أن الكثيرين من أهل المدن والقرى على امتداد النهر ، قد لقوا حتوفهم، وألقيت جثثهم هكذا فى النيل!..

وقبل أن ينجاب عنا شعور الأسى لهذا المنظر المثير، وصلنا إلى "طيبة" لنستقبل فيها مناظر أشد أثارة وإيلامًا !.. فأحياء عديدة منها كانت تشتعل إذ ذاك بالنيران، وكانت ألسنة اللهب تتصاعد كذلك من مدينة الموتى، فالناس قد جنواجنونًا مرعبًا، فلم يفرقوا فى جنولهم بين أحياء وموتى!... لقد كانوا يقتحمون القبور فيسرقونها ويحرقون جثث الكهنة المحنطة، ويقذفون "القرون" إلى الماء "بالصلبان" ولا يزالون بها ضربًا بالعصى حتى تختفى فى القاع. ولم نكن فى حاجة ، ونحن نرى كل هذا ملء عيوننا إلى من ينبئنا أن الأمور فى "طيبة" قد جرت محمومة على إرادة "فرعون" ومشيئته، فى الاجهاز على الآلهة القدامى وتعفية آثارها!...

وأخذنا طريقتنا مسرعين إلى حانة "ذنب التمساح" ، فلقينا فيها "كابتاح" وهو قائم بنفسه على خدمة الأرقاء مهلهلى الملابس وحمالى الميناء المسلحين ، وقد نضا عن جسمه الملابس الفاخرة ، وموه شعره بأمشاج من الوحل ، وارتدى ملابس الفقراء ، وخلع من عينه العوراء الصفيحة الذهبية التى كان يغطيها بها . وكان يقول لهم فى تلطف وملق : ابتهجوا ما وسعكم الابتهاج، واطربوا أيها الأخوان ما شئتم ، فهذا هو اليوم السعيد الذى لم يبق فيه فرق بين سادة وعبيد!.. لقد أصبح الجميع سواسية أحراراً، يفعلون ما يريدون مطلقى الإرادة والهوى. واحتفالا بهذا اليوم لا أرى يومًا أسعد منه في حياتنا سأقدم لكم شراب النبيذ بنفسى وعلى حسابى، ورجائى أن تذكروا بالخير هذه الحانة حين يحالفكم الحظ الموفق، فتملأوا ، أيديكم وجراركم وكل ما تستطيعون ملأه، بالفضة والذهب من معابد الآلهة الزائفة، أو من بيوت السادة الأشرار!.. وأعلموا أيها الإخوة أنى رقيق مثلكم ، وقد ولدت وعشت على هذا الرق البغيض، وهذه عينى المحرومة من النور ، وأنظروا إليها فسترون فيها الدليل على صدقى!.. فلقد فقأها سيد غليظ القلب ، لا لذنب سوى أنى شربت صبابة من جعة كانت فى إحدى قواريره، وخيل لى حينذاك أنى لو تركتها فارغة فسيسومنى سوء العذاب ، ودفعنى الخوف منه إلى أن أبول فيها بقدر الجعة التى كانت بها لأوهمه بأنها لم تمس ، ولكنه فطن لذلك ، وكان أن عاقبنى بقسوة على ما ترون!.. إن هذه الشناعات فى تعذيب الأرقاء لن تعود! فقد أدبر عهد الظلم والظالمين إلى غير رجعة، وبدأ منذ اليوم عهدالانطلاق والمرح والملذات التى لا تنقضى!..

ولم ينته "كابتاح" إلى وجودى أنا و"تحوتمس" إلا بعد أن فرغ من حديثه هذا إلى جمهور حانته، فألقى علينا نظرة المتجاهل. وبإشارة خاطفة دعانا إلى حجرة خاصة ، وقال لنا فيها : إنه ، ولا شك ، الحظ التعس الذى جاء بكما إلى "طيبة" فى هذا الوقت!.. فليس لمثليكما من أصحاب المراتب المرموقة مكان من التبجيل بين عامة الناس فى المدينة اليوم!.. بل لقد أصبح كل ذى مقام فيها هدفًا للأذى والسخرية !.. ومن الحكمة أن تعجلا بإبدال ملابسكما الأنيقة هذه بأخرى مما يرتدى أفقر الفقراء، وأن تنشروا على أيديكما ووجهيكما آثارات من الطين والغبار ، اشعاراً بأنكما من

أولئك الأرقاء والحمالين الذين يجولون فى الشوارع ويرتادون الحانات هاتفين باسم "آتون" وضاربين، باسمه أيضًا ، كل إنسان يلمحون فيه ظاهرة الثراء وبارقة الترف ، حتى أصحاب الأجسام البدينة ، ولو كانوا من غير هؤلاء لا يفلتون من أيديهم فالبدانة فى نظرهم ، سمة الأثرياء والمترفين!. ولقد كدت أذهب ضحية كرشى المتهدل بالشحم لولا أننى كنت معروفًا بين أكثرهم بأنى من الأرقاء مثلهم، ذلك إلى أنى خرجت لهم عن الكثير من الغلات فوزعته ، وأبحت لهم ، هنا الشراب بلا مقابل !..

فقلنا ونحن نكشف له عن فنوسنا ومطارقنا : إنما جئنا بهذه لنساهم مع هؤلاء فى تحطيم تماثيل الآلهة الزائفة، ونمحو أسماءها من كل النقوش!..

فهز "كابتاح" رأسه وقال بلهجة الفطن البصير: قد يكون هذا حسنا فى الظروف الراهنة، وفيه لكما السلامة ما أقمتما فى غمار هذه الفوضى ، ولكن الأمر قد يحور ويتبدل وينقلب إلى النقيض . وإنى لأشتم من بعيد رائحة الانقلاب المضاد، وقد شغل الناس كلهم بمعركة الآلهة ، وكفت الأيدى عن كل عمل سواها ، والأقوات فى طريقها إلى النفاد، ويوشك هؤلاء الأرقام المتهوسون أن يصبحوا يومًا فلا يجدون طعامًا ، وعندما يعضهم الجوع بنابه ، سيوجهون ثورتهم وجهة أخرى وأغلب الظن أنهم سيوجهونها إلى "أخناتون" وإلهه ، إذا يعدونه المسئول عن هذه النتيجة السيئة!... وتنفتح الأبواب فى هذه الحالة أمام كهنة "آمون" وأتباعه، فيخرجون للشعب ويستردون سلطانهم عليه ، ويثأر حملة "القرن" رمز "آمون " من خصومهم الذين أمعنوا فى النيل منهم، وهنا لا أدرى ماذا سيكون مصيركما!..

فقلت له : أما وقد ذكرت الأقوات واحتمال نفادها قريبًا ، فاعلم أننى عقدت اتفاقًا مع "حورمحب" على أن أرسل إليه نصف ما فى مخازنى من غلات ، ليستعين بها فى محاربة "الحيثيين" فعليك أن تقوم منذ الآن بشحن هذا القدر بالسفن إلى "تانيس"، أماالنصف الباقى فقد نزلت عنه للفقراء الذين يشق عليهم أن يجدوا الطعام فى هذه الأيام ، وعليك أن تنفذ إرادتى هذه فى الحال ، فتطحن الحبوب وتصنع من دقيقها خبزًا، وتوزعه على الجياع فى كل المدن والقرى التى يوجد لنا فيها قمح

مخزون ، واختر الأمناء من الرجال للقيام بعملية توزيع هذا الخبز، حتى يتقاضوا مقابلا، وعليهم أن يقدموه إلى المعدمين قائلين لهم: هذا خبز "آتون" ، فاطعموه طيبًا باسمه، ومجدوا "فرعون" وإلهه!..

وأخذ الفزع من "كابتاح" كل مأخذ ، فشق ملابسه التى لم تكن إلا ملابس الأرقاء!.. وصرخ قائلاً فى غيظ : إنك بهذا ، يا سيدى تتعجل الفقر والتعاسة، لنفسك ولى فى آن واحد!.. وما أرى إلا أنك قد أصبت بعدوى جنون "فرعون" وكأنى بك تضع رأسك فى موضع قدميك وتسير به إلى الوراء!... إننا لو فعلنا فسنصبح أسوأ حالا من هؤلاء الذين نفرغ مخازننا فى بطونهم دون أن نظفر منهم بكلمة شكر واحدة!... ولن ينفعنا بعد هذا أحد، حتى الجعران نفسه!.. وأكثر من هذا حماقة وخطل رأى ، اعطاؤك "حورمحب" نصف ما نملك من الحبوب ، وهو الذى أقرضناه الذهب من قبل ولم يؤد لنا منه حتى اليوم قليلاً أو كثير ، وكلما وجهت إليه فى ذلك رسالة أجابنى متوقحًا كأننى أستجديه، متجاهلاً ما كان قد وعد به من وفاء هذا الدين زائدًا فوائده، فهو ماكر مخادع، يلين عند الحاجة ويشتد بعد قضائها... وإنه عندى لأسوء أخلاقًا من اللصوص!...

ورآنى "كابتاح" لا أحفل بكلامه، فاستطرد قائلاً : مادمت تصر على رأيك هذا فإنى سأنفذه ، كارهًا ، فليس من حقى أن أخالفه، ولكن يجب ألا تنسى أننى قلت ، وسأظل أقول ، أنه تصرف غير حكيم سيصير بنا إلى فقر محتوم!.. وتركنا عائدًا إلى الأرقاء والحمالين الذين أحتشدت بهم الحانة ، وأخذ يتملقهم ويساومهم فى شراء الأدعية المقدسة والأمتعة الثمينة التى سرقوها من المعابد!..

وخرجنا، أنا و"تحوتمس" لنجول فى المدينة ، ونتلمس مكانًا نؤدى فيه العمل الذى جئنا له ، فالقينا الشوارع خالية ، ودور الأشراف قد أغلقت عليهم حيث لاذوا بها وأقاموا فيها ، وأحكموا أرتاجها من الداخل، خوفًا على حياتهم وأحوالهم !... وكانت المعابد التى اتخذها الكهنة ملجأ لهم وقد اندلعت فيها النيران، وانتهب الناهبون كل ما وصلت إليه أيديهم منها ، فدخلنا إلى ما لم تكن النيران قد أتت عليه من أبنيتها ولقينا

هناك بعض المؤمنين بفرعون وإلهه، وكانوا يقومون بالعمل نفسه الذى أمرنا به ، فرحنا معهم نهوى بفئوسنا ومطارقنا على كل ما نلقاه من تماثيل وأحجار تحمل اسم "آمون"!...

وظللنا على هذا أيامًا ، وكنا فى كل يوم نزداد نشاطًا وتحمسًا فى عملنا عن اليوم الذى قبله، وما كنا كذلك إلا لأن هذا هو العمل الوحيد الذى يستغرق وقتنا ويصرف أنظارنا عن المآسى الفادحة التى كانت تطم وتستشرى حولنا!.

كانت المدينة تعج بالجوع والفقر ، كما كانت مسرحًا كبيرًا للنهب والسلب ، فهؤلاء الأرقاء الذين تحرروا من عبوديتهم، قد جمعوا فلولهم ورسموا خطط الإغارة على بيوت الأغنياء ، وانطلقوا وفق هذه الخطط المرسومة ، ليستولوا على ما يقعون عليه من أقوات وزيوت وثروات، ثم يقتسمونها بينهم !.. وكان "كابتاح" قد أستأجر رجالاً ، فطحنوا القمح وصنعوا الخبز، ولكن الناس كانوا يتخطفون الخبز قبل توزيعه وهم يقولون : هذا خبز الفقراء الذى سرق منهم وحرموه، فمن العدل أن يعود إليهم!.. ولم يذكر واحد منهم اسمى مادحًا ، لأنه لا يعرف مصدر الخبز ولا الغرض الذى وجهته إليه، وهكذا ضاعت الحقيقة فى غمار الفوضى ، ولم أبلغ منها التى استهدفتها ، وأصبحت فقيرًا ولما ينقض شهر واحد!!..

ومضت على هذه الحال أربعون يومًا ، كانت كأحلك لياليها ظلامًا ، تفاقم خلالها الاضطراب وفسدت الأمور، واختلت الموازين، وفقد اللذين كانوا يدخرون الذهب والفضة ، ويتكاثرون بالغنى والثراء ، كل ما كانوا يملكونه، واضطرت زوجاتهم إلى بيع ما بقى لهن من جواهر الأرقاء بالثمن البخس يشترين به خبزا ، وأصبحوا بعد هذا يتسولون هائمين فى الشوارع بحثًا عن طعام يقيم أودهم ويدفع غائلة الجوع عن أطفالهم!..

وفى اليوم الأخير جاء "كابتاح" إلى منزلى مستخفيًا بالظلام ، وقال لى : لقد حان الوقت – يا سيدى – لترحل هاربًا بنفسك من الشر المخيف الذى سيقع لا

محالة !... إن مملكة "آتون" على وشك الانهيار وبعد قليل ستذهب بفوضاها وكوارثها، ويجيئ في أعقابها النظام مؤيداً بقوة القانون ، وعلى رأسه كهنة "آمون" ولكنهم في سبيل العودة بالبلاد إلى ما كانت عليه من قبل ، وبدعوى تحريرها من الدماء والأرواح الشريرة التي طغت عليها ، سينكلون ، أشد تنكيل ، برءوس العهد القائم وأذنابه عل السواء ، وستزداد بذلك بطون التماسيح امتلاء وشبعًا!..

فقلت له : من أين لك علم هذا ؟!..

فأجابني في سذاجة : علمته ، وأنا عل ثقة منه ، ذلك أني بقيت مخلصًا "لآمون" فلم يضعف إيماني به ، وكنت أمارس عبادتي له سرًا!.. ولم تنقطع صلتي بالكهنة ، وكثيراً ما كنت أقرضهم المال ، وكانوا لا يمطلونني في الوفاء به، ويزيدون عليه أرباحاً كثيرة. ومن طريق هذه المعاملات التي وثقت صلتي بهم، علمت أن موثقا قد انعقدت بينهم وبين الكاهن "آي" ، ليدير الأمر على الوجه الذي يحقق مبتغاهم، وقد أخذ عليهم عهداً أن يحفظوا حياته ، وهم من جانبهم يتولون الآن حراسته بطريقتهم الخاصة !.. وقد جرى في هذا المجرى نفسه كبار المصريين ، فواثقوا الكهنة وعاهدوهم. واستعداداً لليوم الرهيب استقدم الكهنة رجالا كثيرين أشداء من أراضي "الكوش" كما استقدموا الشردانيين الذين كانوا يعبثون في الأقاليم وينهبونها ، وأجروا عليهم جميعًا أرزاقًا وأجورا . وهؤلاء وأولئك في انتظار اشارة بالعمل في الساعة التي يحددها الكهنة لهم؟.. فذلك هو الواقع يا سيدي ، ومرة ثانية ستدور الطواحين ، ولكن دقيقها في هذه المرة الثانية سيتحول خبزًا باسم "آمون" !.. فلن يكون هناك يومئذ شيء يحمل اسم "آتون" . وإني، وأصدقك القول ، غير أسف على انقضاء عهده وزوال سلطانه ، فقد سئمت هذه الحياة المضربة الملوثة بالدماء على الرغم من أنني أصبت خلالها ثراء كبيراً.

وفي قلق ، قلت له: أن فرعون "أخناتون" لن يوافق على ذلك!..

ودعك "كابتاح" عينه المفقوءة بسبابته وقال: ذلك إذا كانوا سيرجعون إلى رأيه في تدبيرهم ، ولن يكون هذا ! .. فليس الأمر إلا انتقاضاً عليه. ومدينة "أخيت آتون"

مشرفة من اليوم على الهلاك الذى لافكاك منه ، فعندما يقبض الثائرون بأيديهم على مقاليد الحكم سيوصدون الطرق المؤدية إليها، ويضربون على كل من فيها حصاراً محكمًا ، إلى أن يموتوا جوعًا وسيطلبون إلى "فرعون" أن يعود إلى "طيبة" ليركع ساجدًا أمام "آمون"!..

وتمثل لى وجه "فرعون" ، فى هذه اللحظة ، فخفق قلبى عطفًا عليه ، وقلت "لكابتاح" : تلك المظالم يجب ألا تعود مرة أخرى فى هذه البلاد !.. وعلينا أن ندفعها بكل ما فى قدرتنا أن نفعل ، وإلا فإننا نكون كمن يسترعى الذئاب وهو يعلم أنها واثبة عليه ، فاتكة به لا محالة ! والآن فاستمع لى يا "كابتاح" : لقد لزم كل منا صاحبه طوال حياته، وعشنا معًا فى السراء والضراء ، وكنت وإياك دائمًا على طريق واحد فلنمض معًا على سواء فى هذا الطريق إلى نهايته وأن كنت أنا – عن خطأ أو صواب – قد أصبحت فقيراً ، فإنك لا تزال على الغنى ووفرة المال ، وفى وسعنا أن ندرع باقى قمع فتنة مدمرة يثيرها الطامعون ليرتد الشعب دليلاً تحت أقدامهم!.. فاذهب واشتر ما استطعت من أسلحة وحراب وسهام وعصى، وأنك لتستطيع أن تجمع منها الكثير، واستأجر بذهبك حراسًا يكونون طوع أمرك ، وضع الأسلحة فى أيدى الأرقاء ، وحمالى الميناء، ليذودوا بها عن العهد الذى حررهم ورفع عنهم اصر الهوان . وقد لا أعرف ماذا تكون نتيجة هذا على وجه الدقة ، ولكنى أعرف ، فى يقين أن هذه فرصتنا التى لن تسنح مرة أخرى لنؤدى بها عملاً ، لا مندوحةعن أدائه، دفاعًا عن حياتنا التى هى بضعة من كيان العهد القائم!.. ولا تأخذنك الطيرة والتشاؤم مما أدعوك إليه، بل ينبغى أن تثق بأن الفتنة الحمراء التى يدبرها الطامعون فى الظلام ستمنى بالفشل، وسينكب فيها أصحابها على وجوههم ، فتأكلهم النار التى أشعلوها بأيديهم، جزاء وفاقًا !... ولا يخيفنك ما ترى اليوم من اصطراع الناس واعتراك الطبقات، فتلك حال تقترن دائمًا بالانقلابات الاجتماعية التى تكون بطبيعتها نضالا بين حق وباطل ، وعدل وظلم ، وستنحسر دواجيها ، وبعد قليل يسفر الصبح وينبلج النور ويلتقى الناس على صفاء ، فتستقر الأمور وتمضى الحياة فى مجراها الطبيعى الهادىء. ولا تحسبن الشعب – والكثرة الكاثرة فيه من الفقراء – سيرضى لنفسه

النكول عن طريق الحرية بعد أن عاش فيها واستمرأ مذاقها!.. وعبثًا تظن أن هؤلاء مرتدين إلى ما كانوا فيه من شظف العيش وذل الفاقة بعد أن وزعت عليهم أراضى الأغنياء ومكن لهم في أموالهم وبيوتهم ذات الحدائق الوارقة، وتقلبوا هم وأولادهم فى مطارف هذه الحياة الهانئة!..

واعترت "كابتاح" رعشة ، وجاهد نفسه ليقول : لقد دخلت من عمرى فى شيخوخة لا تطيق عملا من هذه الأعمال الشاقة التى لا مهرب منها حينما يستقر الأمر لهؤلاء الذين أصبحوا أحرارًا !.. وأنك لتراهم ، ملء عينيك ، يعلقون الرجال النابهين فى الطواحين ، ويستخدمون زوجاتهم وبناتهم فى بيوت الملذات !.. وما فى هذا من خير أبدًا!.. ولا قوة لى على مسايرتك فى الطريق الذى تشير به ، فدعنى يا سيدى ، وكفانى ما لقيت فى مصاحبتك من أهوال . وأن قلبى ليخفق مضطربًا كلما تذكرت ذلك البيت المظلم الذى كان واحدًا من أحداث كثيرة ، عانيت منها معك أشد معاناة خلال تلك الرحلة . وإنما أذكر الآن هذا الحادث بذاته، لأنه ينطوى على مغامرة سيئة تشبه تمامًا هذه المغامرة التى تحاول أن تقذف بنفسك فيها إلى التهلكة خلال هذه العواصف الهوجاء!..واقتحامك ، فيما مضى ، ذلك البيت المظلم المجهول ، غير متفطن لما يربض فيه من موت شنيع كان يتلقف العذارى والفتيان باسم إله "كريت"، لا يختلف في نظرى عن اقتحامك غمار الفتنة الشائعة اليوم ، انحياز إلى جانب إله فرعون "أخناتون" وغير متفطن - مرة أخرى - لما وراء ذلك من خطر محقق على حياتك!.. لقد كان إله "كريت" أسطورة كاذبة "كذلك إله "فرعون"!.. والعاقل من وعظته التجارب يا سيدى!.

وأخيرًا فلن أتبعك إلى مثل المخاض المتلف ، لأنى لا أحب أن أرى وجه "مينوتوروس" فى دور جديد!..

وكان "كابتاح" يصطنع الهدوء فى كلامه هذا ، محاولاً ارجاعى عن خطتى، ثم بدا له أن يأخذنى فى ذلك عن طريق العاطفة ، فاستطرد قائلاً على أنك إذًا لم تكن تفكر فى مصيرك ومصيرى، فمن الحق عليك أن تفكر فى مصير "ميرييت" والصغير

"تحوتح" الذى يجبك أكثر مما يحب طفل أباه!.. فكر فيهما قبل أن تفكر فى أى شئ آخر ، وابحث لهما عن المكان الخفى الذى يحفظ عليهما الحياة ، فلن تكون حياة إنسان بمأمن حينما تدور طواحين "آمون" مرة ثانية!...

قلت له مشتداً : هراء ما تقول !.. إن "ميربيت" و "تحوتح" ليقيمان بمنزلى إقامة أمن وسلام .. ولست أخاف عليهما من أحد ، فإن "آتون" منتصر، ظاهر على أعدائه، وينبغى أن ينتصر وأن يظهر!.. وإلا فلا قيمة للحياة متلاشية فى طوفان الظلم والاستبداد!.. وقد أيقن الناس وآمنوا بعقولهم التى لم تفارقهم بعد ، أن "فرعون" يريد الخير لهم ويعمل له ، وما هم بمرتدين إلى الظلام والخوف بعد أن عاشوا فى النور والأمن !.. وهذا البيت المظلم الذى تذكرنى به، لهو هنا بيت "وآمون" لا بيت "آتون" !.. ولن يستطيع قلة من الأغنياء الحاقدين والمأجورين من الأفاقين أن ينالوه بسوء ، فالشعب دونهم وراءه، يؤازره ويذود عنه ، فى قوة وصدق عقيدة!..

وقال "كابتاح" معقبًا : لم أقل إلا ما رأيت من الوفاء لك أن أقوله، وهو سر كان يجب ألا أبوح به، لأنه مما لا أملكه ، ولكنى لم أستطع كتمانه عنك، لتستبين سبيل الرشد والسلامة فيما أنت مقبل عليه من أحداث جسام ، غير أنك فى بلبلة أفكارك تحتوى نصحى وتأباه، فلك من الأمر – إذن – ما تشاء ، ولا تعذلنى يا سيدى إذا ترديت بعد ذلك فى مهاوى رأيك الفائل ، وأصارك الفشل إلى اليأس القاتل . أما أنا فسواء عندى الحياة والموت ، فقد كنت من الأرقاء ، وعشت فى الرق طويلا ، فليس يضيرنى أن أعود إليه ، وما من أحد يأسى على حيا أو ميتًا ، فلا زوجة لى ولا ولد ، وعلى هذا فإنى سأتبعك فى طريقك الذى تريد أن تمضى فيه ، وإن كنت لا أنفك معتقدًا أنه طريق الشوك والقتاد ، وسبيل الروع والخطر !.. وما أرجو إلا أن تأذن لى فى جرة النبيذ تكون ثالثتنا فى هذا الطريق الموحش.

وفى هذا اليوم ، لم ينقطع "كابتاح" عن شراب النبيذ، يعب منه عبًا متداركًا ، كأنما يختزنه فى جوفه ، وعلى فرط ما أصاب منه ، لم يتلبث فى تنفيذ أمرى ، فاشترى الأسلحة ووزعها على الحمالين فى الميناء ، ودعا رؤساء الحراس سرًا إلى

الحـانة وأجـزل لهـم الرشـوة ليـأخـذوا مكانهم إلى جـانب العـامـة والفـقـراء ، ضـد "الأمونيين" والأغنياء!..

وبلغت الفوضى بعد ذلك أقصى المدى فى "طيبة"، فالجوع يفشو ويشيع، والشغب يغم ويزداد، والرعب يتفاقم ويستفحل ، والناس يضطربون فى متاهة حالكة السواد. ولم يعد ثم فرق - فى هذه الحمى الطاغية - بين حاملى صليب الحيـاة رمز "آتون" وحاملى القرن رمز "آمون" فالأمر فى المدينة إذ ذاك ليس أمر المنافحة عن عقيدة ، أو الملاحاة فى دين ، وإنما هو أمر السلاح القاتل ، والقبضة الضاربة والصوت المدوى . وإذا رأى إنسـان رغيفًا فى يد غيره ، اختطفه منه قـائلاً : أعطنيه يا اخى!.. ألسنا سواء فى شرعة "آتون" ؟! وكذلك إذا ارتدى إنسان لباسًا فاخرًا من الكتان ، اعترضه آخر فانتزعه منه بهذه الطريقة وبهذه العبارة..! وأصبح من المناظر المألوفة أن يساق الرجل الذى يحمل فى عنقه رمز "آمون" إلى الطاحون ليدير أحجاره ، أو إلى البيوت المحترقة ليرفع أنقاضها، أو يجهز عليه ضربًا بالحراب أو بالعصى ثم تلقى جثته إلى التماسيح المتلمظة فى جوف الماء!..

هكذا تطورت الحال واشتدت مضـاعفاتها خلال ستين يومًا ، واستنفد سلطان "آتون" ، آخـر الأمـر ، طاقـتـه ، حـيث أقـبلت فـصـائل السـود من بلاد "الكوش" و"الشردانيين" الذين استأجرهم "آى" فأحاطوا بالمدينة أحاطة السور بالمعصم وأغلقوا منافذها على سائر من فيـهـا وتجـمـعت فى ذلك الحين عصـابات "آمون" فى جـمـيع أنحائها ، مزودة من الكهنة بالأسلحة التى أخرجوها من الأقبية، وتجهز الآخرون من أتباعهم بالعصى التى شحذوا أطرافها صهرًا فى النار ، وانضم إلى هؤلاء كثير ممن كانوا قد آثروا العزلة وسالموا الجانبين ، قائلين : نحن مع "آمون" لأننا نريد النظام والطمأنينة ، وقد بلينا من "آتون" أشد البلاء ، وصبرنا على كوارث أتباعه حتى لم يبق فى قوس صبرنا منزع!..

ولكنى أنا "سنوحى" ، أخذت أدعو الناس إلى الثبات والصمود ، قائلاً لهم: لا تهنوا ولا تضعفوا!.. قد يكون هناك خطأ غلب الصواب وأخفاه فى هذه الأيام ، وقد يكون كثيرون وقعوا فى هذا الخطأ وراحوا ضحيته ، ولكن هذا لا ينفى الحق الذى يجب أن تؤمنوا به، وهو : أن "آمون" فى سائر الأحوال إله الظلام والرعب ، وأنه يستبعد الناس فى جهالتهم !.. ولا هكذا "آتون" !.. إنه وحده إله الخير والرحمة ، وليس سوه من إله يعبد ، وهو قائم فى أنفسنا وفيما حولنا وفى كل كائن من الكائنات ، فقاتلوا من أجله، واصبروا وصابروا ، أيها الفقراء والأرقاء والحمالون والخدم ، ولا تخشوا شيئًا ، فما عندكم من شيء تخشون ضياعه!.. فإن لم تفعلوا فقد انتصر "آمون" وانقلبتم بنصره عبيداً أذلاء، يسومكم العذاب والهوان والموت!.. انصروا فرعون أخناتون، ومكنوا له فى أرضكم وفى قلوبكم لتحيوا وتسعدوا، فإن نورا لم ينبلج فى هذه المملكة مثل نوره ، وإنه لكلمة الإله فى هذه الحياة الدنيا ، فباسمه يدعو، وبلسانه ينطبق ، وبإرداته يعمل ، وهذه هى فرصتكم الوحيدة لخلاص أنفسكم وخلاص العالم معكم ، ولن تجدو مرة أخرى إذا أفلتت اليوم من أيديكم!..

ولكن الفقراء والأرقاء والحمالين والخدم كانوا يستمعون لخطابى وهم يقهقهون فى صخب ويقولون لى : ماذا اعتراك يا "سنوحى" حتى تتحدث إلينا هكذا عن "آتون" ، حاملا عصاك كما لو كنت رجل قتال وقائد ثورة ؟! ألق العصا جانبافإنها ليست من عمل الطبيب الذى طالما ضمد جروحنا وداوى أمراضنا من غير أن يتقاضانا أجراً !.. ولو رآها أتباع "آمون" فى يدك ، فإنهم بلا ريب سينقضون عليك ويذبحونك، ومالك من قدرة تنجيك منهم!.. إننا مشفقون عليك لما سلف لك من فضل علينا !.. وسواء عندنا كل الآلهة وكل الفراعين ، ولا يعنينا أن يكون الأمر لهذا أو لذاك وإنما يعنينا أن نظل على ما صرنا إليه من حرية وانطلاق ، وقد قضينا هذه الأيام الاستماع بما لم يكن يخطر لنا على بال ، فوضعنا رءوسنا على الوسائد الوثيرة ،

وتناولنا أشهى الطعام والشراب فى صحاف وكئوس ذهنية ، فهل تظننا تاركى هذا لنرتد إلى العبودية الأولى ؟! لا . لن يكون هذا وفينا بقية من حياة .. سندافع عن حقنا ، إذن لا عن حق "فرعون" أو إله "فرعون" وقد حملنا السلاح وتخضبت أيدينا بالدماء وسنمضى فى هذا إلى النهاية!..

واستحييت من قولهم ، فالقيت هراوتى ، وعدت إلى منزلى لأعد صندوق العقاقير ، فقد كان على أن أؤدى واجبى كطبيب فى هذه المعركة الدامية التى دارت رحاها عنيفة بين أهل المدينة ثلاثة أيام بلياليها، وقد اتسع نطاقها فشملت كل مكان، واستسلم الكثيرون لفريق "آمون"، وفر غيرهم إلى البيوت وصوامع الحبوب والحجرات الخلفية بالحانات فأخفوا أنفسهم فيها!.. ولم يبق على أرض المعركة غير الأرقاء وحمالى الميناء يقاتلون فى شجاعة وبسالة ، فإذا جن الليل حملوا المشاعل وواصلوا القتال على ضوئها ، وكثيراً ما كانوا يستعملونها فى اشعال النار بالمنازل ، وكذلك كان يفعل رجال "الكوتش" والشرادنيون، وقد اختلط الأمر عليهم فكانوا يقتلون كل من يلقونه سواء كان من شيعتهم أو من عدوهم ، وهم خلال ذلك يمنعون فى السرقة والنهب ، ، وكان قائدهم هو نفسه "بيبيت آتون" الذى كان قد قاد الجند فى الإغارة على معبد "آمون" تحت امرلأة " حورمحب" ، وأمر يومها بذبح "الأمونيين" فى شارع "رامس" وقد تبدل اسمه الآن فصار "بيبيت آمون" ، حيث أقامه "آى" على المعركة الحالية المضادة ، وقد استطاع أن يحوله من اليمين إلى اليسار ، ويسخره فى تحقيق مطامعه وأهوائه ، لقاء رتبة القيادة على جيش "آمون"!..

ووجدت لنفسى فى المعركة عملاً كصيراً ، فقد كان الجرحى والمهشمة رءوسهم من الأرقاء كثيرين، فعكفت عليهم أضمد جروحهم وأعلج رءوسهم واتخذت من حانة "ذنب التمساح" مكاناً لعملى. وقد شاركتنى "ميرييت" فى ذلك فكانت ، بعد أن نفدت الضمادات ، تمزق ملابسى وملابس "كابتاح" وملابسها هى نفسها وتصنع لفائف لتضميد الجراح وربط الرءوس . وكان الصغير "تحوتح" يعاوننا أيضاً ، فيحمل النبيذ إلى الذين كانوا فى حاجة إلى تهدئة أعصابهم!.. وقد كان رؤساء الأرقاء وقادتهم

يتوافدون على الحانة أثناء المعركة ليرحوا فيها عن أنفسهم بشراب النبيذ وقد أخذتهم نشوة المعركة ودماؤها المهراقة ، فما أن تقع عيونهم على حتى يربتوا بأيديهم الخشنة على كتفي ويقولون لي : لقد أعددنا لك في الميناء مكانا سريًا تستطيع أن تختفي فيه يا "سنوحي" ، فما نراك راغبًا في الموت مشنوقًا ومعلقًا من أعقابك على الأسوار في هذا المساء!..فهيا يا "سنوحي إلى مخبئك، فالوقت يمر مسرعًا ، ولا خير في أن تبقى هنا لتضمد جرحًا سيفتح من جديد!.. فقلت لهم : لا أحد يستطيع أن يرفع يدا في وجهي ، فإني طبيب الحاشية الملكية ، لست مجهولاً !..

وكان هذا في تقديرهم ضربًا من فالبلاهة والحماقة ، فضحكوا ساخرين بأفكاري، واسترسلوا في شرابهم حتى امتلأوا ثم خرجوا عائدين إلى القتال.

ومال "كابتاح" على أذني ليقول : أ، بيتك يحترق يا "سنوحي" وقد وقفت "ميوتي" في وجوه مشعلي النار فيه من أنصار "آمون" فطعنوها، وأرى أن الوقت قد حان لتدع موقف العناد والتحدي فيما لا طائل من ورائه ، وحياتك أغلى من أن تبذلها في علاج الأرقاء واللصوص. فاتبعني يا سيدي إلى حجرة داخلية لترتدي فيها ملابسك الفاخرة وتتزين بشارات الشرف جميعًا ، استعداداً لمقابلة الكهنة والضباط ، فما من ذلك بد ، ايثار للحياة على الموت!..

ولكنني كنت في غمرة من الذهول والاضطراب ، فقد اضناني التعب ، واشتد بي الحزن، وروعتني المعركة ومناظر صرعاها، فلم أعد اتبين الناحية التي ينعطف إليها قلبي . وتدخلت "ميريت "في ذعر ، وطوقت عنقي بذراعها ، وقالت : خذ برأي "كابتاح" وانج بنفسك يا "سنوحي" ، إن لم يكن من أجل حياتك أنت ، فليكن - على الأقل - من أجلي، أنا ومن أجل هذا الصغير "تحوتج"!.. فقلت لها ، ولا قيمة لدمي ، وهذه الدماء أمام عيني تجري انهاروا ، انها دماء أخوتي أمام "آتون" ، فكيف أتخلى عنهم في محنة ، أنا شريكهم فيها؟! كلا!.. ولئن تهاوت مملكة "آتون" فإن الحياة بعدها لا تطاق ولا تحتمل !..

قلت هذا ، ولا أدرى كيف قلته، فقد كان قلبى ساعتها يترنح وكأنه يحتج على ذلك وينكره ؟! وقبل أن أراجع نفسى مستجيبًا لنداء قلبى الخفي، ورجاء "ميرييت" الحبيبة ، كان "الشرادانيون" والسود يحطمون باب الحانة ثم يقتحمونها بالقوة ، يتقدمهم كاهن حليق الرأس يلتمع وجهه بالزيت المقدس . وفي سرعة مذهلة جعلوا يذبحون الجرحى ويطأون الجثث بأقدامهم، في حين أخذ الكاهن فى إخراج عيون القتلى بالقرن المقدس الذى كان يحمله ويستثير رجاله صارخًا فيهم: أشعلوا النار فى هذه الحانة لتطهيرها ، فليست إلا كهفًا من كهوف "آتون" ومثابة رجس لأتباعه!..

وروعنى أشد ترويع أننى رأيتهم ، بعينى رأسى يحطمون رأس الصغير "تحوتح" ويذبحون "ميرييت" عندما حاولت أن تنتزعه من أيديهم !.. وقد اندفعت كالمجنون لأحول بينها وبينهم، ولكن الكاهن عاجلنى بضربة على رأسي بالقرن المقدس ، فأختنق صراخى فى حلقي، ووقعت مغشيًا على ، فلم أر شيئًا مما جرى!..

وأفقت من غشيتى لأجد نفسى ملقى فى منعطف خارج الحانة ، ولأجد من قريب لهب النار متصاعداً منها ، فقد نفذوا أمر الكاهن وأحرقوها حتى صارت كومة من فحم متسعر، ولم يكن ذلك ليستغرق سوى لحظات قصيرة إذ كانت مشيدة من أخشاب ، فالتهمتها النار التهامًا سريعًا . وكأن الجند ، بعد انصراف الكاهن ، قد انكبوا على ما فى الحانة من نبيذ ، فأفرغوه فى بطونهم عن آخره ، ثم أشعلوا فيها النار قبل أن يخرجوا منها ليتابعوا القتال!..

وحاولت أن أنهض على ساقى ، فلم أقو على ذلك ، فرحت أزحف على يدى وركبتى فى اتجاه الباب الذى كان لا يزال يتأرجح بالنار، ودسست نفسى وسط الركام والأنقاض الملتظية ، باحثًا عن "ميرييت" وتحوتح" ، غير مبال بشظايا النار التى تتساقطت على شعرى وعلقت بملابسى . ورآنى "كابتاح" الذى كان لا يزال يقف غير بعيد ليشهد أماله تتهاوى وتحترق!.. فأسرع إلى ، وهو يصرخ وينشج بالبكاء، وجرنى بعيداً وقلبنى فى التراب حتى انطفأت النار المشتعلة بشعر رأسي وملابسى!..

وشهدني على تلك الحال جنود في تجوالهم، فأخذوا يتضاحكون في ازدراء وسخرية ، وقال لهم "كابتاح": إنه لمجنون صغير، وقد ضربه الكاهن على رأسه بالقرن المقدس، وهذا لا شك خطأ سيلقى عليه الجزاء الحق في الوقت المناسب، فإن صاحبي هذا الذي ترونه ، طبيب فرعون، وكاهن من المرتبة الأولى ، وقد اضطر في ثورة الغوغاء أن يلبس مثل ملابسهم القذرة، مخفيًا شارات مركزة الكبيرة ، اتقاء لشرهم !.. فليس من اللائق أن يرفع إنسان يده في وجهه ، فكيف بالاعتداء عليه ضربًا بالقرون أو حرقًا بالنيران؟!..

واستمعوا إلى كلمات "كابتاح" ثم مضوا في سبلهم مسترسلين في ضحكهم ، في حين كنت في مكاني على التراب ، أعتمد رأسي بيدي المحترقين وأذرف الدمع حارًا ، وأهتف باسم ""ميريت" باكيًا متفجعًا!..

وفي غضب ، قال "كابتاح" : صه!.. أيها الأحمق ، فكفانا ما جلبت علينا من النحس والتعاسة بطيشك وخرق رأيك!..

وعندما هدأت أعصابي الثائرة بعض الهدوء، اقترب مني "كابتاح" وواصل حديثه قائلاً : لعل الذي حدث ، على شناعته، يعيد إليك الصواب يا سيدي، فقد انكشفت به الأمور على حقيقتها ، ورأيت منها ما لم تكن تصدقني في توقع حدوثه . وإني لمخبرك الآن بسر يؤسفني أنك تعلمه متأخرًا ذلك أن الصغير "تحوتح" لم يكن سوى ابنك من "ميريت" ، إذ كان ثمرة اتصالك بها ، ولم تشأ هي أن تنبئك بهذا بدافع من كبريائها!.. وكانت لا تجد من سلوكك معها مشجعًا على ذلك ، فقد تركتها وحيدة وأثرت عليها فرعون "أخناتون"!.. ولعلها لم تكن تريد أن تشغلك، بنفسها وبابنك منها، عما أثقلت به نفسك من أعمال "فرعون" وأعباء خدمته، مرجئة هذا إلى الوقت الذي تفرغ فيه إلى حياة الأسرة الهادئة، ولو كنت فطنًا صفي القلب لأدركت هذه الحقيقة من تلقاء نفسك، فقد كانت سمات الطفل من سماتك، وعيناه كعينيك، ودمه من دمك، وكنت أنا كلفا به ، شغفًا بحبه. ولهذا تمنيت أن أجود بحياتي فداء له ، وليت ذلك كان

مستطاعًا ، فهل عرفت الآن كيف كانت نهاية حماقتك وجنونك؟! لقد ذهب ولدك الطفل العزيز و"ميرييت" الوفية المخلصة، ضحية بريئة ، وكنت أنت السبب؟!

فصرخت كالمصعوق : يا لهول ما أسمع !... ماذا تقول يا "كابتاح"؟! ماذا تقول؟!..

وقبل أن يجيب، أقعيت على التراب، متزايل الأعصاب ، ذاهلاً لا أكاد أسمع أو أرى!..

وكما يرى النائم المتعب أشد التعب ، تعذبت أفكارى فى رؤى قاسية شائهة ، فهذه "حانة "ذنب التمساح" التى كانت مراح سعادتى ومرتع هناءتى، تلتهمها النار التهامًا تحت عينى، وتلتهم بداخلها ولدى فلذة كبدى، و"ميرييت" حبيبتى وأم ولدى!.. وهاأنذا بمقربة منهما ، أشهد ميتتها الفظيعة وأرى جثتيهما العزيزتين بين جثث الأرقاء، ولا أستطيع أن أصنع شيئًا!.. لا استطيع أن أواريهما كحصنين للحياة الأبدية !.. فيالها من كارثة تهون إلى جانبها كل كوارث الدنيا!..

وحملنى "كابتاح" إلى "آى" و"بيبيت آمون" ، إذا كان القتال قد انتهى على ما يريدان ، ولم يبق منه إلا نيران لا تزال تضطرم ويشيع لهيبها فى حى الفقراء . وقد كانا وقتئذ يجلسان مجلس القضاء برصيف الميناء على أرائك ذهنية، والجنود يقدمون عليهما بالأسرى لمحاكمتهم ، فيحكمان على كل من قبض عليه حاملاً سلاحًا بتعليقه من عقبيه على الأسوار ، وعلى كل متهم بسرقة ، بالقائه فى النهر طعامًا للتماسيح، وعلى كل من يحمل صليب الحياة "رمز آتون" بالجلد والأشغال الشاقة المؤبدة . إما النساء ، فكن متاعًا مباحًا للجنود!.. وسيق الأطفال إلى معابد "آمون" لتنشتهم فيها!.

بهذا كان يجرى حكم "آى" وقائد الجند ، صارمًا قاسيًا ، بلا رحمة ولا شفقة!..

وكان "آى" فى صرامته وقسوته، وهو يقضى بالموت والعذاب ، ويقول على مسمع من الجميع : إنها دماء فاسدة ينبغى أن نطهر منها أرض "مصر" !... وهو بهذا يطمع فى إرضاء الكهنة وكسب مودتهم!..

وكذلك كان القائدًا "ببيت أمون" عنيفًا ثائرًا لأن الأرقاء اقتحموا بيته وحطموا أقفاص قططه وانتهبوا غذائها من اللبن، فجاعت وانقلبت وداعتها توحشًا !..

وفى الوقت الذى كانت تصدر فيه الأحكام، ويعلق فيه الناس على الأسوار ، أو يلقى بهم فى النهر ، أو يساقون إلى المنافى والسجون، كان الكهنة ، بين التهليل والهتاف ومظاهر الابتهاج، يقدمون أعظم القرابين إلى تمثال "آمون" الذى أعادوه إلى حيث كان فى معبده!..

وصدر القرار الأخير، قاضيًا بتعيين "ببيت أمون" حاكمًا على "طيبة" وتكليف "آى" بالذهاب من فوره إلى "أخيت آتون" لإرغام "فرعون" على التنازل عن العرش...

وقال لى "آى" : لقد اخترتك رفيقًا لى يا "سنوحى" !.. فوجودك معى فى هذه الرحلة يبدو ضروريًا لتيسر ما قد يستعصى من أمر "فرعون" ، فإنك طبيبه ، وستقنعه ، إذا ما احتاج إلى اقناع ، بأن سلامته رهن إرادتى ...

فقلت له : سأرافقك يا "آى" إلى هناك ، ومن المحقق إننى ساكون سعيداً بذلك!..

ولم يفهم ماذا أعنى!..

– ٥ –

وفيما كنا ، أنا و"آى" نأخذ طريقنا مبحرين إلى "أخيت أتون" كانت أنباء هذه الأحداث قد ترامت إلى "حورمحب" فى "تانيس"، فراح على عجل يجهز سفينته الحربية ، ويستقبلها مبحراً هو الآخر إلى مدينة "فرعون" ، ليدرك فيها "آى" ويفسد عليه خطته . ولم يجد فى طول طريقه عائقًا يعوق سيره السريع، إذ كانت المدن

والقرى على جانبي النهر هادئة خالية من القلاقل والاضطرابات ، وكان قد مكن لنفسه بين جنوده ، بالعفو عن الأرقاء الذين ألقوا سلاحهم، وتجاوزه عن عقاب من استبدلوا بمحض رغبتهم "صليب أتون" بقرن"آمون" . وقد وقع هذا من نفوسهم جميعًا أحسن وقع ، فأحبوه وأثنوا عليه واجتمعوا على طاعته ، وما كان في الواقع يفعل ذلك إلا عن مجرد الرغبة في الاحتفاظ بهم جنودًا محاربين صالحين للقتال !.. وبهذا كان قادمًا على "أخيت آتون" قائدًا قويًا معتزًا بجنوده!..

وكانت "أخيت آتون" ، على بعدها من طيبة مطمح أنظار كهنة "آمون" ومسرح تفكيرهم، والمرصد الذي يرقبون فيه اتجاهات الرياح . ولهذا أعلنوا بين الناس أنها مدينة ملعونة، وأقاموا حراسة شديدة على جميع الطرق الموصلة إليها . وكل من يفد مهاجرًا منها إلى "طيبة" كان يخير بين أمرين : إما أن يذبح ذبح الشاة ، وإما أن يتطهر من اللعنة بتقديم القرابين إلى "آمون" !.. وإحكاما لخطة العزل الذي فرضوه على "أخيت أتون" ، أغلقوا النهر بالسلاسل النحاسية ، حتى لا يتخذ أحد منه طريقًا إلى الفرار!..

ووصلنا إلى "أخيت أتون" فراعني منها أن سيكون الموت يخيم على أفاقها وشوارعها ، وأن أزهار حدائقها التي كانت تتألق نضارة قد أدركها الذبول، وقد حال لون الحشائش الخضراء ، التي اصفرار موحش، فلم تعد هناك تلك الطيور التي كانت تتراقص على أغصان الأشجار مغردة. وكانت ترتسم على وجوه الناس علامات اليأس كما لو كانوا يرون الموت مقبلاً عليهم!..

وعرفت ، بعد، أن مبعث هذه الكآبة الشاملة، وهذا الخمود المطبق، هو ما انتهى إلى أهلها من أنباء ظهور "آمون" ، وإعلان اللعنة على المدينة، فأيأسهم ذلك من حياتهم ، وكفوا أيديهم عن العمل ، وراحوا لا يفكرون في شيء أكثر مما يفكرون في الخلاص من اللعنة ، وكثير من الأغنياء هجروا دورهم وتركوها بكل ما فيها هاربين من المدينة . وكان من أثر هذا أن أمحلت الزهور والأشجار والمزارع، ونفقت الكلاب والجياد جوعًا وانتشرت على المدينة الجميلة سحب سوداء وظلمات داجية!..

وكان فرعون "إخناتون" وأفراد أسرته وخدمه الأكثر ولاء له قد لزموا جميعًا البيت الذهبى وأقام معهم فيه كبار السن من رجال حاشية "فرعون" الذين لم يكن بمستطاعهم العيش بعيداً عنه!.. وكانوا إلى وقت وصولنا لا يعرفون شيئًا على حقيقته مما جرى فى "طيبة" فقد انقطع البريد عن "أخيت أتون" منذ شهر مضى ، وفرض عليهم - خلال إقامتهم بالبيت الذهبى - أن يجروا على إرادة "فرعون" فى طعامهم ، فلا يأكلون منه إلا ثريد الفقراء والخبز جافًا بغير أدام. وكان المترفون منهم لا يطيقون هذا فيتسللون إلى حيث يصطادون سمكًا من النهر ويأكلون سراً!..

ورغب إلى "آى" فى أن أذهب ، قبله، إلى "فرعون" ، لأخبره بما حدث ، فإنى صديق "فرعون" وموضع ثقته، وهو يتفتح لى أكثر مما يتفتح لغيرى، فذهبت إليه ، متجمد الحواس ، مغلق القلب، مبهم الشعور ، فلست بالفرح، ولست بالحزين!.. فما إن رآنى حتى رفع وجهه الناحل الشاحب اللون ونظر إلى بعينيه الخابيتين كأنهما عينا ميت ، وقال : هل أنت الرجل الوحيد الذى يعود يا "سنوحى"؟!.. وأين ، إذن ، الآخرون المخلصون لى ، وأولئك الذين أحببتهم وأحبونى؟!.

فقلت له : لقد وقعت الأمور على غير ما تريد يا فرعون ، وعاد الآلهة السالفون إلى حكم "مصر" ثانية. وفى "طيبة" يقدم الكهنة القرابين "لآمون" وسط مظاهر أفراح يتسابق الناس إلى المشاركة فيها، وهناك يلعنونك ويلعنون مدينتك، ويمحون اسمك من جميع النقوش!..

وحرك "فرعون" يده معترضًا فى قلق وقال : ما سألتك عن "طيبة" وأحداثها"!.. إنما سألتك عن أحبائى والمخلصين لى ، فأين هم؟!.. فقلت متهكمًا : إنهم هنا فى قرب قريب منك، فزوجتك الجميلة "نفرتيتى" لا تزال بموضعها سيدة قصرك، وحولك بناتكما الزهرات اليانعة!.. وهذا "سيكينير" وكذلك "توت" ، ليس أحد منهما بمبعدة عنكم. فأولهما يتلهى بصيد السمك من النهر، وثانيهما يتسلى بلعبه كالعادة، وهؤلاء هم أحباؤك المخلصون، فما عنايتك بغيرهم؟!..

قال ، وكأنه لم يسمع شيئًا مما قلت : أين صديقي "تحوتمس"؟! إنه أيضًا صديقك يا "سنوحي"!.. وقد أحببناه كلانا، أين هو ذلك الفنان البارع الذى انبعثت الحياة، من يديه، في الأحجار؟!

فأجبته قائلاً : لقد مات يا فرعون "إخناتون"!.. نعم ، مات "تحوتمس" الصديق الفنان من أجلك وفي سبيلك!.. فقد رشقه السود بحرابهم وألقوا بجثته فى النهر ليأكلها السمك والتماسيح، وجريرته التي عوقب عليها هذا العقاب هى أنه كان يحمل شارة "آتون" ويهتف باسمك!.. لقد كان حقًا من المخلصين لك ، وإن كان يومًا قد بصق على وسادة فراشك!.. ولا خير فى أن تفكر في ذلك الآن ، فقد انتهى من هذه الدنيا وأصبح مصنعه خاويا إلا من عواء ابن آوى!..

ومرة أخرى ، حرك "فرعون" يده ومر بها على وجهه كأنما يمسح عنه نسيج عنكبوت ، واستطرد ينطق بأسماء أحبائه واحداً بعد آخر ، وكان الموت قد تلقف أكثرهم في معركة "طيبة" فكنت أذكر له مصير كل منهم ، وأقول له... وقد تهاوت آخر الأمر قلاع "آتون" وحصونه، وانهارت مملكته فى هذه الأرض، وقامت من جديد مملكة "آمون" ، وهو الذى يحكم الآن!..

ومد "إخناتون" بصره إلى أمام ، وقد اختلجت أطرافه وامتقع لونه، ثم قال : نعم ، نعم، إنى أعرف ذلك!.. لقد أنبئت به فى أحلامى، وليس للمملكة الدائمة حدود أرضية على أية حال ، وسيرتد كل شيء إلى ما كان عليه من قبل ، وسيتردى العالم فى هوة المخاوف والأحقاد والخطايا، وذلك أمر فظيع، أراد "آتون" ألا يكون ، وجاهدت بكل ما أمدنى من قوة لإنقاذ إرادته!.. فليتنى مت قبل هذا ، بل ليتنى لم أولد لأرى الحق منتكسًا ، والباطل ظافراً ، والشرور فاشية في الأرض!..

وأثارنى خلطه وغباؤه، فقلت له مغضبًا: وماذا رأيت من هذه الشرور أيها الفرعون "إخناتون"؟! إنك لم تر منها، وأنت فى انطوائك هذا ، إلا أقل القليل، بل لعلك لم تر ولم تسمع إلا ما تتصوره بخيالك المريض اختلافًا على عقيدة دينية بين الدعاة

القلائل من الجانبين، فكيف لو أنك رأيتها حربًا مسلحة يقتتل فيها الناس جميعًا ، نازعًا كل منهم إلى هواه الخاص ، يقتل بعضهم بعضًا فى وحشية لا أثر فيها لرحمة أو شفقة أو دين!.. إنك لم تر شيئًا من هذه الدماء المسفوحة ، ولا من هؤلاء القتلى المجندلين ، ولم تشهد دم ابنك مراقًا بين يديك، ولم يتصدع قلبك أسى لصرخات أنصارك وأحبائك وهم يخرون صرعى الموت فى كل مكان !.. فما تقوله أيها الفرعون ليس إلا تخليطًا وهذيانًا!..

فقال ، وقد أضناه التعب: إليك عنى ، إذن ، يا سنوحى"، ما دمت – كما ترانى – شرا!.. إليك عنى ، حتى لا تضار ولا تألم بسببى!.. وما بى من حاجة إليك ، فقد سئمت وجهك ، وكرهت أن أرى وجوه الناس جميعًا، فما أرى فيهم إلا وجوه وحوش مفترسة ، وحيوانات ضارية!..

ولكنى قلت له، وأنا أجلس القرفصاء بين يديه : لا يا "فرعون"!.. فالأمر لم يبلغ نهايته بعد، ولن يضيرنى القرب منك ، ولا تطاوعنى نفسى على الابتعاد عنك . وقد فاضت كأسى ، فماذا لو زاد مفاضها؟! وإنى لمخبرك الآن ، أن "آى" قادم إليك، وهناك على الحدود الشمالية لمدينتك، يتردد صوت نفير "حورمحب" إيذانًا بقدومه هو الآخر!..

فشاعت فى وجهه ابتسامه خفيفة وقال مادا يديه : "آى" و "حورمحب"، رجلا الجريمة والعنف، هما اليوم الوحيدان اللذان قضى على ألا أرى غير وجهيهما بعد أن فقدت كل أحبائى!..

وران علينا بعد ذلك صمت عميق ، لم نكن نسمع خلاله سوى الحركة الرتيبة الوحيدة تصدر عن الساعة المائية!..

وبعد قليل ، وفى وقت واحد ، اجتمع لدى "فرعون" كل من "آى" و"حورمحب"، فتجادلا واشتدا فى الجدال ، ووجهاهما يتقبضان ويتلونان بين سواد واصفرار، لفرط الانفعال ، وكل منهما يقذف الآخر بقالة السوء، ويقذعه مفحشًا فى غير تهيب ولا توقير فى مجلس "فرعون"!..

وقد قال "آى" : أيها الفرعون "إخناتون" !.. لم يبق إلا أن تنزل عن العرش، فليس غير هذا من سبيل إلى حفظ حياتك !.. وأرى أن يخلفك عليه "سيكينير"، وهو زوج ابنتك ، فدعه له ، وإنه منك لجد قريب، وليذهب من فوره إلى "طيبة" ليقدم القرابين إلى "آمون"، وسيرحب به الكهنة، ويدهنونه بالزيت المقدس، ويضعون بأيديهم التاج الأبيض والأحمر فوق رأسه!..

وقال "حور محب" مخاطبًا "فرعون": بل سيبقى تاجك يا "فرعون" مصنوعًا ، لا ينزل عن رأسك ، فإن حربتى لذائدة عنه، حافظة له وفيها القدرة على ذلك. ولو أنك نفسك عدت إلى "طيبة" وقدمت القرابين "لآمون" ، فإنى مع ذلك لا أنفك عن موقفى دفاعًا عن هذا التاج لك وحدك ، وليغضب الكهنة ما شاءوا أن يغضبوا ، فإن سوطى قمين أن يتولى حسابهم ، ولن يكون عندنا غير حرب واحدة مقدسة نعلنها شعواء فى سبيل استرداد "سوريا" إلى مصر"!..

وقال "فرعون" وعلى فمه ابتسامة ذابلة ذبول الموت: سأظل حتى الموت حيث أنا الآن على عرشى ، ولن أرضى – مهما يكن الأمر – الخضوع للإله الزائف، كما لن أعلن حربًا لأحفظ سلطانى بالعنف والدماء!.. هذه هى كلمتى الأخيرة ، قلتها ، أنا فرعون!..

وانصرف عنا وهو يوارى وجهه بطرف ردائه، وبقينا ، ثلاثتنا، بالقاعة الفسيحة، وكل منا يشم فى أنف صاحبه رائحة الموت!..

ورفع "آى" ذراعيه فى يأس، مسددًا نظره إلى "حورمحب" الذى كان كذلك يأخذ "آى" بنظرات تنم عما يختلج بصدره من مشاعر الغيظ والحقد!..

وبغتة راح "آى" يداهى "حورمحب" ويقول له مبتسمًا : إن كنت أنت بحربتك الباطشة تستطيع أن تحفظ التاج، فما يمنعك أن تناله لنفسك وتضعه على رأسك؟! أرى أن تفعل هذا!..

ولكن "حورمحب" تلقى كلماته ساخراً وقال له : لست غبيًا إلى الحد الذي تخاله يا "آي" وإني بدوري لأدعوك إلى الاحتفاظ لنفسك، إذا استطعت ، بالتيجان القذرة التي تعرف كيف تحملها!.. وحقًا ، إني لقادر على أن أظفر بالتاج لنفسي اليوم، ولكني إن فعلت لأكونن أسفه الحمقى، فمصر الآن مهددة بالحرب والمجاعة، وسيساء الناس منهما بخطوب لا قبل لهم بها ، فلو كنت أنا – وقتذاك – الجالس على العرش، وحامل التاج ، فسيرونني مصدر هذه الخطوب وباعثها عليهم ، وسيكون يسيراً عليك، أكبر اليسر، أن تداخلهم بخبثك ودهائك، فتملؤهم حفيظة وسخطًا على صاحب العرش والتاج، ولا تزال تدفعهم بهذا دفعًا إلى الثورة عليه ، حتى لا يبقى مفر من نزوله عنهما مكرهًا ، ويخلص أمرهما إليك !.. ألا يكون الأمر هكذا أيها الرجل ؟!..

قال "آي" إذا لم يكن بك من طمع في العرش الآن ، فليكن عليه – إذن – "سيكينير" أو "توت" ، وهما يمتان إلى الدم الملكي بالمصاهرة، وليكن الأمر في عهد أيهما ما يكون ، وليحمل على رأسه سخط الناس بالغًا ما بلغ، إلى أن يحين الوقت الذي تستقر فيه الأحوال ، ويستقر باستقرارها التاج على رأس القادر على حمله!..
فقال "حورمحب" مسترسلاً في سخريته: وفي ظل هذا أو ذاك، تكون شئون الحكم وتدابيراته بين يديك، تمضي فيها على ما تهوى حراً من غير معقب!..

قال "آي" : وكيف يكون هذا ؟! . إن الجيش تحت إمرتك يا "حورمحب" وستقابل الحيثيين غداً ، فلئن ظهرت عليهم وعدت منتصراً ، فلن يكون على أرض "كيم" من هو أقوى منك قوة، وأرهب جانبًا !.. وإن قدر لهم أن يظهروا عليك ويطئوا أرض "مصر" فسيصير أمرنا أسوأ مصيراً، ولن يكون لنا ، إن أبقوا على حياتنا، جاه ولا سلطان!..

وفي جدالهما الطويل ، أخذت شقة الخلاف بينهما تضيق شيئًا فشيئًا ، وأدرك كل منهما أن لا سبيل إلى حل المشكلات القائمة إلا باشتراكهما معًا متفقين.

وقال "آي" أخيراً: أعترف لك بصراحة يا "حورمحب" ، أنني بذلت كل ما في وسعي لإقصائك معزولا من قيادة الجيش ، ولكنك – على الرغم من هذا – علوت علواً

كبيراً . والآن وقد تطورت الأمور ، وتقاربنا على صفاء وتفاهم!.. أقول لك، بالصراحة نفسها، إنني لا أستطيع أن أفقدك صديقًا وحليفًا، وأرجوا أعظم الرجاء، أن ينعقد لك لواء النصر على الحيثيين، لتنجو مصر، وننجو نحن بخاصة من شرورهم! وقد كنت وكلت إلى "بيبيت أمون" قيادة الحرب عليهم، ولكنى أراه غير جدير بهذا ، فليكن الأمر إليك يا ابن الصقر، وليكن يومنا هذا يوم قلبينا متحالفين!.. وفي ظل هذا الوفاق بيننا فلنمض إلى أهدافنا المشتركة منذ الساعة، وفي مقدورنا متعاونين أن نبلغ معًا ما نشاء من حكم هذه البلاد ، ولا يكون ذلك إذا اختلفنا وسيلة غاية... وسيكون أكثر ما أعنى به أن يظل جيشك قوياً ، فهو لنا سياج ووقاء، وهو للبلاد منعة وسلامة، ولنقسم بكل آلهة "مصر" أن تسير جنبًا إلى جنب، ويدا في يد ، على هذا النهج السوى، ولست أخفى عليك يا "حورمحب"، أننى أصبحت شيخًا كبيراً ويشوقنى فى شيخوختى أن أكون صاحب سلطان ، ولا عليك من هذا ، فلا تزال شاباً فتى القوة ، ومجال الحياة فسيح أمامك!..

فقال "حورمحب" : إنى لا أطمح إلى التاج ولا أبتغى سلطانه، وأوثر عليه الحرب والقتال ، والقضاء على الأوغاد والأنذال!.. وإنما أريد منك الآن عهداً وثيقًا لا تخلفه، هو أن تعاوننى مخلصاً فيما تنزع إليه نفسى ، وتتجه إليه آمالى، من غير ما مناقشة ولا اعتراض!..

قال "آى": وأى عهد وثيق هو أكفل لتحقيق آمالك من الجيش تحت إمرتك؟!.. واتجه "حورمحب" إلى الأسوار، فأطال النظر فيها، وقد علت وجهه سحابة قاتمة، ثم التفت إلى "آى" وقال له : بمثل الصراحة التى تحدثت بها إلى عن مطمعك فى الحكم والسلطان، أقول لك إنى أرغب أشد الرغبة فى أن تكون الأميرة "باكيت آتون" زوجة لى!..

نعم .. أريد أن أكسر الجرة بينى وبينها ، ولا متحول لى عن هذا ، ولو انطبقت السماء على الأرض لما تحولت عنه ، ولا تستطيع أنت يا "آى" أن تمنعنى من ذلك !..

ولهذا أريد ألا تقف في طريقي ، متأثراً بطبعك القديم وحقدك الدفين، فإن هذا – آخر الأمر – لن يجدى!..

فصاح "آى" قائلاً!.. آه لقد عرفت الآن إلى أى هدف تريش سهامك!.. حقًّا إنك لأمهر مما كنت أظن !.. فلك احترامى أيها الصديق الماهر!.. ولعلك تكون أكثر اطمئناناً على أميرتك هذه، إذا علمت أنها قد أبدلت اسمها فأصبح الآن "باكيت أمون" وبينها وبين كهنة "آمون" ود وولاء !.. ومن هنا يبدو الطريق إلى مستقبلها ممهداً لا عثار فيه!. لا شك أنه لم يغب عنك أن فى عروقها يجرى دم الفراعنة المقدس!.وسيقرر لك الزواج منها حقًّا، غير منازع، فى التاج، فلن يكون هذا الحق لزوجى ابنتى "إخناتون" الآخرين، لانتمائهما الصريح إلى "فرعون" الزائف!.. ألم أقل لك أنك أمهر مما كنت أظن؟! على أنى أرى أن نرجئ هذا الأمر إلى وقت آخر ، فلست بمستطيع أن أعطيك عهداً بموافقتى عليه في ظروفنا الملابسة!.. ذلك لأنه ليس ثم ما يدعونى الآن إلى أن أضع الأمر كله ، جيشاً وتاجاً، فى قبضة يدك، وأصبح أنا ولا شيء في يدى!.

قال "حور محب" منفعلاً : لا تكاد عيناك ترى شيئًا سوى التاج!.. ولا أدرى كيف أقنعك وأنت جد مفتون بتيجانك القذرة ، أنى لا أريد سوى "باكيت" وهى عندى أعظم شأنًا من التيجان والعروش جميعًا ، فلقد أحببتها منذ رأيتها لأول مرة فى البيت الذهبى، أحببتها ملء قلبى ومشاعرى، حب الرجل مأخوذ بجمال المرأة ، لا حب الطامع منها فى جاه وسلطان!.. وما أرى من ضير عليك فى أن يتصل دمى بدم الفراعين العظماء ، عن طريق هذا الزواج!.. فستكون أنت، كما تشاء ، ووفقًا للعهد الذى بيننا ، صاحب العرش، حينما يصير الأمر إلينا، وليطل عمرك ، ما يطول، فلست بطامع فى الحكم ولا متطلع إليه ما دمت أنت على قيد الحياة ! ذلك عهدى ، ولا أنقضه، فالمستقبل أمامى، كما تقول، فسيح فما حاجتى إلى العجلة؟!..

ووضع "آى" يده على فمه، وبدا كأنه شارد الفكر ، ولكنى كنت ألمح فى وجهه سمات الرضا، فقد كان الموقف أكثر ما يكون اتجاها إلى تحقيق مآربه!..

وقد عجبت ، وأنا أستمع إلى حديثهما السجال، من أمر الرجلين يتنافسان على تاج فرعون "إخناتون" وهو لا يزال حيًا ، أدنى ما يكون منهما قربًا ، بالحجرة المجاورة!..

وخرج "آى" من تفكيره ليتابع حديثه مع "حورمحب" ، فقال: أوافقك على ما تريد يا "حورمحب" وأعاهدك عليه، ولكنى أستمهلك فيه ريثما تفرغ من الحرب التى ينبغى ألا تفكر فى شىء سواها لتكسب النصر الذى تتحقق به آمالنا، ولقد صبرت طويلاً ، فلا عليك أن تصبر فترة أخرى قد لا تطول ، وأنت بعد فى غير حاجة إلى أن أقول لك إن الأمر مع الأميرة لا يمكن أن يتم على رغبتك بلا مداخلة وتمهيد وإقناع ، فلا ريب فى أنها ستبدى لأول وهلة اعتراضها على الزواج من رجل تجهل أصله ونسبه!.. ولكنى ، مستعينًا بالوقت وبوسائلى الخاصة ، سأستميلها إليك ، وأحملها على الرضا بك . وأقسم لك يا "حورمحب" بكل آلهة "مصر" بأنه فى اليوم الذى أضع على رأسى التاج الأحمر والأبيض ، سأكسر بيدى جرة الزواج بينك وبين الأميرة، وحينذاك سأكون طوع أمرك!..

وعلى ما كان يتخلج فى نفس "حورمحب" من الرغبة فى المساومة إلى أبعد مداها ، فإنه قد رأى أن يقف بها عند هذا الحد ، فما كان الموقف مع "آى" يحتمل أكثر من ذلك، فاختتم الحديث قائلاً: فليكن ما ترى! وسأدعك واثقًا من أنك لا تخدعنى ولا تمكر بى!.. فما من شىء يدعوك إلى هذا ، بعد أن تركت لك التيجان التى تهواها ، والتى أراها أنا ، أقرب شبهًا بلعب الأطفال!..

ولم يكن "حورمحب" لاستغراقه فى مجادلة "آى" يفطن إلى وجودى معهما بالحجرة نفسها. فلما وقع نظره على ، صاح قائلاً : "سنوحى" ! .. ألا تزال هنا؟!.. لقد سمعت – إذن – مالا يجوز لك أن تفشيه أو تنقله إلى ذلك الذى يجب ألا يعلم من

أنبائنا قليلا أو كثيراً ! ولعلى لا أكون مضطراً إلى قتلك يومًا ؛ لأنك فعلت شيئًا من هذا فأنت صديقى!..

ووقعت مقالته في أذني وقع الدعابة التافهة، فقد هان أمره وأمر صاحبه في نفسي، يسترسلان فى الجدال وتدبير المؤامرات، ليقتسما التاج الذى لا يمتان إليه بصلة قريبة أو بعيدة ، في حين أنني أنا الجالس دبر آذانهما ، ولا يشعران به ، أحق إنسان بهذا التاج ، فإني - على ما أنبئت به عن طريق المصادفة - كنت الوارث الوحيد لتاج "فرعون" العظيم الذى يجرى دمه المقدس في عروقي!.. ولهذا سخرت منهما ولم أحفل "بحور محب" وهو يلقي كلامه متوعداً!..

وكنت في سخريتي بادي الضحك، على الرغم من محاولتي كتمانه، واستراب "آي" الماكر في شعورى، فقال : لا تضحك يا "سنوحى" هكذا !.. فليس الأمر هزلاً يثير الضحك ، وإنما هو الجد كل الجد ، ولك أن تطمئن فلن نذبحك، وإنها لبادرة خير أنك ، من حيث لا تشعر سمعت حديثنا كله ، فأنت شاهدنا عليه ، وشريكنا فيه، ونحن نعتمد عليك في جزء هام من العمل الذى رسمناه، وهو أن تعجل بنهاية "فرعون" ، لتنتهى الفتن والثورات القائمة بسببه، وهذا يسير عليك لأنك طبيبه، وفي استطاعتك أن تفتح جمجمته اليوم وتوغل فيها بسكينك إلى الأعماق فيموت الميتة التقليدية المريحة!..

وقال "حورمحب" معقبًا: لا أقحم نفسى فى هذا التدبير ، فيداى قد تدنستا بما لا مزيد عليه من دنس ، بلمسهما يدى "آي" !.. على أنه لم يقل إلا صوابًا .. فمن الحق أن يموت فرعون "إخناتون" ، ففى موته حياة "مصر"، وليس هناك طريق آخر!..

وضحكت مرة ثانية، ولكنها كانت ضحكة تنبعث من شعور مبهم كان لا يخلو من ازدراء للمؤامرة الحقيرة، ومع هذا فقد نزع بى إلى المشاركة التى يدعوانى إليها، ذلك أنى ، بغتة، ذكرت في حسرة والتياع مجزرة "طيبة" ومشاهدها المروعة، والفتنة الرعناء التى التهمت الأبرياء وفرقت بين الأحياء ، وذكرت ، في ذكراها ، فرعون

"إخناتون"، هذا الذى أشعل نارها بجنونه وخباله!.. فثارت نفسى حقداً عليه، وكراهية له، وخيل إلى أنى أسمع صوت "ميريبيت" يهتف بى من وراء الغيب، أن أثأر لدمها ولدم ولدنا "تحوتح"!.. واستجمعت قواى وقلت للرجلين : إن دستور مهنتى - كطبيب - يصدنى عن فعلة كهذه لا تجتمع لها مبررات مشروعة ، فإنما تفتح الجمجمة فى سبيل الحياة لا فى سبيل الموت ، ومن أجل العلاج لا من أجل القتل!.. ثم إن "فرعون" الآن ليس فى حال من المرض توجب أن أقرر على عجل إجراء هذه العملية الخطيرة، فماذا يكون الأمر لو أنى أجريتها هكذا من غير مقدمات ولا مظاهر سابقة عليها!.. إنها ستكون تصرفًا مريبًا لا محالة!.. وقد فكرت فى هذا كله، ورضيت أخيراً أن أكون ثالثكما فى خطة الخلاص منه، ولكن بوسيلة أخرى أنفى للشك، هى أن أعد له مخلوطًا من العقاقير، ما أن يتعاطاه حتى يأخذه النوم إلى غير يقظة!.. وها أنذا فاعل ذلك لساعتى، لتعلما أنى قد ربطت نفسى بكما، ولا تخشيا منى خيانة أو غدراً..

وجئت بالإناء الزجاجى الذى كان الكاهن "حريحور" قد أعطانيه، ومزجت العناصر الموضوعة فيه بنبيذ، وأفرغت السائل فى كأس ذهبية ففاحت منها رائحة طيبة، وحملت الكأس فى يدى ، ودخلنا ثلاثتنا على "فرعون" فى حجرته، وكان قد وضع - جانبًا تيجانه، واتكأ على مخدعه، باهت الوجه محمر العينين، وإلى جانبه السوط وعصا الراعى!..

وتقدم "آى" ، فتناول التيجان والسوط ، وأخذ يقلبها فى يديه كأنه يزنها بميزان ، وقال : أيها الفرعون "إخناتون"!.. إن صديقك "سنوحى" قد أعد لك دواء حسنًا يهدهد من أعصابك ويريح رأسك، فخذه ولا تشغل نفسك بما كنا فيه اليوم، ففى غد نعاود الحديث حيث تكون أوفى عافية وأهدأ بالاً!..

فاستوى "فرعون" فى فراشه، وأمسك الكأس بيديه، وأجال نظره فينا، وقد أصابتنى رعشة حينما التقى نظرى بنظرته الباهتة، وقال فى تخاذل : إن الناس فى عطفهم على الحيوان المريض يجهزون عليه بالعصا ليخلصوه من الحياة المعذبة .. فهلا فعلت ذلك بى يا "سنوحى" لتريحنى؟!.. لئن فعلته لتكونن قد أسديت لى

فضلا ومنة فقد أصبحت من خيبة الأمل ومرارة الفشل، وغلبة اليأس، لا أشتهى شيئًا مثلما أشتهى الموت، فهو عندى أطيب رائحة من المسك، وأحلى مذاقًا من العسل!..

فقلت له : من حقك أن تستريح يا "فرعون"، وفى هذه الكأس راحتك، فاشربها فى سبيل "آتون"!..

وقال "حورمحب" : نعم ، اشربها يا صديقى "إخناتون" لينزاح عنك هذا الوقر الثقيل من متاعبك!.. ولنستطيع، في ظلال راحتك إنقاذ "مصر" !.. وسأقيك فى ضعفك بمعطفى كما وقيتك به يومًا فى المهمه القفر خارج "طيبة"!..

ووضع "فرعون" الكأس على فمه ، وأخذ يرتشف منها ، واختلجت يده فتساقطت قطرات من الشراب على مؤخرة وجهه، فتماسك وتناول الكأس بكلتا يديه وأفرغ كل ما فيها بجوفه، وتمدد بعد ذلك على فراشه وراح فى غمرات السبات الطويل. وعندما انتفض انتفاضه المقرور، تقدم "حورمحب" فألقى بمعطفه عليه، بينما كان "آى" يضع التاج على رأسه كمن يختبر قدرته على حمله!. وعلى هذا كانت نهاية فرعون "إخناتون" وخاتمة حياته!..

وخفق قلبى خفقة الألم، إذ كانت يدى هى التى جرعته الموت!.. وكدت أنسى السبب الذى طوع لى ذلك ، وخشيت على نفسى من الندم ووخز الضمير ، فرحت أتشبث بذكريات عهده المحزنة، واستحضرت فى ذهنى صور الضحايا التى لا عداد لها، والشرور التى أناخت بالناس والبلاد جميعًا ، و"ميريتت" و"تحوتح" وفجيعتى فيهما بلا إثم ومن غير جريرة!..

فى هذه الذكريات والصور، وجدت العزاء والراحة، وقلت إنه العدل الذى قضت به النجوم!.. وما كان "فرعون" إلا واحدًا ، أزهقت فى سبيله أرواح كثيرة!..

وغادرنا البيت الذهبى، بعد أن أوصينا الخدم بأن يدعوه هادئًا فى نومه!..

وفي صباح اليوم التالى ، ضجت أصواتهم بالبكاء والعويل ، فأعلن بذلك موت فرعون "إخناتون" . وقياماً بواجبى ذهبت إلى القصر لأشرف على جثته إلى "دار الموت" ، وهناك عهدت بها إلى المغسلين والمحنطين ليحصنوها للحياة الأبدية!.ورأيت الملكة "نفرتيتى" تقف بجانب سريره وتقلب يديها الجميلتين فى أنامله وخديه ، صامتة لا تتكلم ولا تبكى ، ولم أستطع، وأنا أنظر إلى وجهها، أن أستشف حقيقة شعورها فى تلك اللحظة الرهيبة!..

وعلى مقتضى القانون والتقاليد، أصبح الشاب "سيكينير" ملكًا على عرش "مصر". وكان إذ ذاك مستغرقًا فى حزنه ، منقبضًا عمن حواليه، فإذا تحدث إليهم تحرك لسانه بكلمات وأفكار يشوبها التخليط جاريًا على طريقة فرعون "إخناتون"، ولم يكن هذا بالشىء الغريب عليه ، فقد نشأ فى جوه وانطبع على مثاله ، وتأثر بأوهامه!.. وكان بعد ، لم يزل وثيق الصلة بالطفولة، ساذجًا فى أحلام اليقظة ، وقد صرخ فى وجه كل من "حور محب" و"آى" حينما طلبا إليه التعجيل بالذهاب إلى "طيبة" ليقدم القرابين إلى "آمون" تثبيتًا للتاج على رأسه ، وقال لهما . كلا! .. فسأمضى فى نشر ضياء "آتون" بين كل الناس ، وسأقيم معبداً لأبى ""إخناتون" ، لأعبده فيه كإله، فلم يكن أبى من البشر !.. وفى يأس منه ، تركاه وانصرفا!..

وفوجئ الناس فى اليوم التالى بنبأ موته غريقًا فى النهر ، إذ كان يصطاد السمك على عادته فوق قارب من الغاب ، فانقلب به. وكانت نهاية سريعة أثارت الشك فى نفسى ، وقد اتجه هذا الشك إلى "آى" أكثر من اتجاهه إلى "حورمحب" فقد كان "آى" ظاهر اللهفة على العودة إلى "طيبة" للقبض على أزمة الحكم!..

وذهب "آى" وحورمحب" بعد ذلك إلى الصغير "توت" وهو ساعتئذ على أرض حجرته ، يلهو بالدمى فى أشكال مختلفة، ويعابث بها زوجته "عنسخنت آتون".

وقال له "حورمحب" : هلم يا "توت" فدع ما أنت فيه من اللهو بالدمى!.. فقد صرت من اليوم "فرعون" الملك!..

فنهض فرحًا ، كما لو كان قد وقع على لعبة أكبر، ومضى إلى الفراش فجلس عليه ، وقال في خفة : لا يدهشني أن أكون أنا "فرعون" !.. لقد كنت دائمًا أحس أنني أعلى موضعًا من الناس !.. وقد أوتيت العرش بحق وجدارة ، ومن الآن سيكون هذا السوط في يدى سوط عذاب للأشرار ، وأما عصا الراعى، فسأجعل منها تقية وحفاظًا للأتقياء الصالحين!..

وقاطعه "آى" قائلاً" إليك عن هذا الهذيان يا "توت" !.. فلن تفعل شيئًا إلا ما أشير به عليك بلا مناقشة أو جدال !.. ولنأخذ فى مراسم تتوجيك التى نبدأ بها قبل كل شيء آخر ، ولا يكون هذا إلا فى "طيبة" حيث تقام حفلات الابتهاج ، وحيث تمثل بين يدى "آمون" فى معبده ساجدًا ومقدمًا إليه القرابين !.. ومن ثم يدهنك الكهنة بالزيت المقدس ، ويضعون التاج الأحمر والأبيض فوق رأسك !.. فهل فهمت؟!..

وأطرق "توت" قليلاً ثم قال : أئذا ذهبت إلى "طيبة" يقيمون لى قبرًا فخمًا كقبور الفراعنة الآخرين ؟! وهل سيملؤه الكهنة باللعب والكراسى المذهبة والأسرة الجميلة؟! إن القبور هنا فى "أخيت أتون" ليس فيها غير الضيق والظلمة والفراغ الممل ، وأنا أكره ألا يكون قبرى حاشدًا بكل ما أهواه من اللعب على حقيقتها الملموسة، حتى السكين الجميلة الزرقاء التى تلقيتها هدية من "الحيثيين" يجب أن تكون إلى جانبى كذلك فيه!..

فقال "آى" فى ابتسام ماكر: لا شك فى أن الكهنة سيقيمون لك هذا القبر الجميل!.. وإنى لأراك فتى عاقلاً ، إذ تفكر أول ما تفكر فى القبر ، غير مفتون بما هو مقبل عليك من ملك "فرعون"، على أنه لابد أن تعلم أن اسم "توت عنخ آتون" لا مكان له عند كهنة "آمون"، فمن اليوم سيكون اسمك "توت عنخ أمون"!..

ولم يبد "توت" اعتراضًا على ذلك . وإذ كان لا يعرف الحروف التى ترسم بها كلمة "آمون" فقد رغب فى أن يتعلم كتابتها، فكان له ما أراد ولأول مرة جرى اسم "آمون" مكتوبًا فى مدينة "أخيت آتون"!..

وفوجئت "نفرتيتي" بنبأ اختيار "توت عنخ أمون" للعرش دونها، فأسرعت إلى ارتداء أجمل ملابسها وتدهنت بالعطور الزكية النادرة ، وذهبت في الحال إلى "حورمحب" على ظهر سفينته، وقالت له: إن من الحماقة وخطل الرأي أن تختار لعرش "فرعون" حدثًا لا يزال في دور الطفولة العابثة!.. وإني لأعرف لماذا اختاره "آي"، فإنه إنما يريد أن يحكم "مصر" من وراء اسمه، حكمًا مطلقًا لا معقب عليه. وفي سبيل تحقيق مأربه هذا تخطاني، ذلك الأب الجاحد، فاقد الضمير، أنا زوجة "فرعون" ووالدة بناته!.. أعرف هذا ، ولكني لا أعرف ماذا دهاك أنت، لتقع في حبالته وتشد أزره لبلوغ غايته؟! إنه - إن كنت لا تعلم - رجل غير مأمون العاقبة، مفرط في جشعه، على غباء وقلة فطنة!.. وستصاب البلاد بكوارث أشد هولاً إذا ترك الأمر لأهوائه ومطامعه فهلا فكرت في هذا يا "حور محب" ؟! إنني صاحبة الحق الأول في العرش ، إلى أنني أثيرة محبوبة عند الشعب ، فكل الناس يرونني أجمل نساء مصر، ولعلك تراني كذلك إذا نظرت إلي الآن ، على ما أنا فيه من أسى واكتئاب!.. وأحسب أن الفرصة لم تضع من أيدينا ، أنا وأنت فمن الممكن أن نتفق كلانا في تدبير الوسائل التي تحقق لمصر الخير الكثير عن غير طريق ذلك الطامع الشرير!.. ولا تنقصنا القدرة والقوة، فأنت المحارب الشجاع صاحب الحربة النافذة، وأنا الملكة المحبوبة ذات الجمال الآسر!..

قالت هذا، وهي لا تعلم سر الاتفاق الذي انعقد بين "آي" و"حورمحب" وراحت تحاول بالإغراء أن تستميله إليها ، فتركت رداءها - بحركة متعمدة - ينفرج عن مفاتن جسمها تحت بصره، وأجالت نظرها في قمرته وقالت له في تهالك مثير: إنها مكان دافئ لطيف، يطيب فيه لقاء القلوب المتحابة!.. وما أرى خيرًا منه مكانًا لرجل وامرأة!..

وكانت تطمع في أن يستجيب من فوره لهذه الدعوة الجنسية السافرة!.. وبخاصة إذ كانت تعرف أنه يهيم في حب "باكيت أمون" ويتلظى بغرامها ويعاني من استعلائها

عليه واستغلاقها دونه، فهو واجد في الملكة الفاتنة متنفساً لعواطفه المكتومة وحبه المكظوم!..

ولكنه لم يؤخذ بفتنتها الخادعة، وقال لها في برود : لقد أوغلت في أقذار هذه المدينة الملعونة بما جاوز طاقتي!.. فما أستطيع أن ألوث نفسي أكثر مما نالها من ذلك ، وإن لدى من الأعمال الحربية العاجلة ذات الجسامة والخطر ، ما يشغل فكري وبالي، فليس في وقتي متسع لك أيتها الجميلة "نفرتيتي"!..

كان هذا موقف "حورمحب" من "نفرتيتي" على ما رواه لي بعد ذلك . ومع أن الرواية كانت لا تخلو من مبالغة في الشكل والتصور، فإنها كانت في جوهرها صحيحة، فقد أصبحت "نفرتيتي" من ذلك الحين شديدة الكراهية "لحورمحب" تلاحقه بالأذى والشر، وتدبر له المكائد في الخفاء والعلن. وقد عنيت، أكثر ما عنيت ، في "طيبة" بتوثيق علاقتها "بباكيت أمون"، واتخذت منها سبيلا إلى مضايقته وإثارة متاعبه، على ماسيجيء ذكره.

وقد كان أقرب للسلامة والحكمة ، أن يكون موقفه من "نفرتيتي" لأول لقائه بها أكثر لينا وألطف مداخلة، ليحتفظ بها صديقه موالية تعينه على بلوغ أهدافه في غير مشقة أو عسر ، وليشق بها الطريق آمنا وسط هذه العواصف الهوج ، ولكنه أبى أن يفعل ، ولم يشأ أن يخون "فرعون" الذي مات ، في زوجته التي لم تعف عن خيانته حياً وميتًا!.. وقد يبدو مستغرباً بعد هذا أن "حورمحب" ، على مشاركته في الانتفاض على "إخناتون" وتحطيم تمثاله ومحو اسمه من كل النقوش ، وهدم معبده في "طيبة" ، كان لا يزال وفياً له ، مطوى القلب على حبه، حتى إنه أمر أتباعه بأن ينقلوا جثمانه سراً من قبره في "أخيت آتون" إلى قبر أمه في "طيبة" عندما علم أن الكهنة قد بيتوا النية على حرقه وذر رماده في الهواء!..

وندع هذا إلى حينه. لنصل ما انقطع من الحديث عن بداية عهد "توت عنخ آمون"..

- ٦ -

أبحر جميع أفراد الأسرة الملكية وحاشيتها على السفن الكثيرة التى أعدها "آى" فى بدار وسرعة. وفى أثرهم غادر "أخيت أتون" كل من فيها من الناس فارين منها فرار من يتعقبه الموت ، لا يلوون على شىء ، فلم يبق فيها غير الذين كان مفروضًا عليهم أن يبقوا لتحنيط جثة "إخناتون" وتحصينها للأبدية!.. ورانت على هذه المدينة الجميلة غشاوة مخيفة كما لو كانت قد أصيبت بالدمار والخراب بغتة!..

وكذلك كانت حال البيت الذهبى الذى عصفت به رياح الصحراء فسفت رمالها على حجراته التى انفرجت نوافذها تحت ضغط الرياح العاصفة، وأقفرت حدائق "أخيت أتون" وغاضت مياه بحيرات السمك وتصوحت الزهور وأشجار الفاكهة، واستوحش البط واستطاره الخوف والجوع، فانطلق هاربًا ليحط على ما يلقاه من مراتع الخضرة بعيدًا عن المدينة ، وهام السمك سابحًا فى المياه التى أسنت واستحال عذبها ملحًا ، واسترسلت العواصف مزمجرة، تذرى الرمال والتراب على كل شىء فى المدينة ، وتهز البيوت هزا عنيفًا، حتى تهاوت قوائمها وتساقطت سقفها، وانقلبت المدينة - فى عمومها - أطلالا ورسومًا حائلة ، فانثالت عليها الذئاب والوحوش والغربان، تعوى فى جنباتها ، وتنعق على خرائبها ، وتتخذ لها من الوسائد الناعمة فراشًا، ومن المخادع الوثيرة أكنانًا!..

وهكذا قضى على "أخيت آتون" أن يلحقها الدمار والزوال ، بمثل السرعة التى أقامها بها فرعون "إخناتون"!..

وبينما كانت هذه حالها، كانت "طيبة" فى الوقت نفسه تنبض بالحياة، وتموج بالأفراح. فالناس فيها مبتهجون بعودة "آمون" وتولية "فرعون" الجديد، وقد احتشدوا صفوفًا فى شارع "رامس"، ليستقبلوه هاتفين بحياته، وينثروا الزهور فى طريقه. وقد كانوا بالأمس فى غمرات اليأس، يترددون فى مهاوى الفتن التى كانت فيهم كقطيع الليل ظلامًا وفزعًا، فأصبحوا على بارقة من مطلع عهد مكان آخر يتفتحون للحياة

ويتلاقون على الأمل فيما سيأتيهم به الغد من أمن وخير وكذلك الناس فى سائر أحوالهم ، يستدبرون أمسهم بمآسيه لأول إشارة تنبثق من فجر يوم جديد، طمعًا فى حياة أفضل ، ناسين أن الحياة ذات حقيقة واحدة، تختلف أيامًا وليالى ، ولكنها دائمًا أمشاج من خير وشر ، وحلو ومر!..

وهذه الحقيقة نفسها كانت قائمة خلال مباهج "طيبة" فى ذلك اليوم. فهناك فى أكثر من مكان ، وبخاصة فى حي الميناء وحي الفقراء كان دخان الحرائق لا يزال متكاثفًا فى الأفق منبعثًا من بقايا بيوت أكلتها النار وصيرتها أكوامًا من تراب وفى قلبها وعلى جنباتها جثث مبعثرة من ضحايا المذبحة، تتوارد عليها النسور وجوارح الطيور ، فلا تزال تنهش منها حتى تشبع ، وعلى خرائب الدور وأطلالها يجتمع النسوة والأطفال مروعين باكين ، ويدورون فيها باحثين عما تكون النار قد أفلتته من مدخرات طعامهم ومتاعهم!..

ووجدت نفسي، برصيف الميناء ، أطوف منفردًا لأشهد ملء عينى القرحتين بالأسى ، الدماء التى لم تكن قد جفت بعد ، فتهيج فى قلبى ذكرى "ميربيت" التى أفظعوا قتلتها ، و"تحوتح" الصغير الذى فتكوا به، وكانا وحدهما روض حياتى الفينان، ونور وجودى المشرق، فليس لى بعدهما غير الوحدة المقفرة ، والأشجان القاتلة، والذكريات المؤرقة!.. ويزيدنى حسرة وحزنًا أننى أنا ، الذى أوردتهما مورد الحتوف إذ كان لهما بدونى – سبيل إلى النجاة ومنفذ إلى الحياة!.. نعم ، لقد كنت أنا بموقفى الأحمق فى صفوف "آتون" سبب النكبة المروعة التى أهدرت دماءهما . وأودت بحياتهما ، فيالهول جريمتي!..

لقد مات فرعون "إخناتون" بيدى ، ميتة واحدة على أيسر ما يكون الموت ، وكان يجب أن يموت موتًا طويلاً معذبًا، طافحًا بالآلام، تشتفى به تلك القلوب الكثيرة التى ملأها ، بجنونه وأوهامه، عذابًا وآلامًا !..

وفي غمار الأفكار السوداء التي كانت تثيرها في نفسي هذه الذكريات المحزنة، كانت تقرع أذني أصوات الجماهير وهي تحيي فرعون "توت عنخ أمون"، ذلك الصبي الغر الذي يتمثلونه قادراً على اقتلاع جذور الظلم وإعادة السلام والرخاء لأرض "كيم" وهو الذي لا يفكر في شيء إلا أن يقام له قبر مزدان بالدمى والتماثيل !.. فكم هم أغبياء..!

ورحت أسير على غير هدى ، يلهبني الحقد على فرعون "إخناتون" ويساورني اليأس من الحياة ، حتى بلغت منزلي الذي كنت اشتريته من تاجر النحاس ، فرأيت حوائطه المنقضة مجللة بالسواد الفاحم من أثر الحريق الذي أصابه ، وكانت كذلك شجرة الجميز يعلوها السواد نفسه بعد أن ذهبت النار بفروعها وأوراقها !.. وتحت كومة من الأنقاض كانت تربض "ميوتي"، فما أن أحست بمقدمي حتى خرجت من هذا المخفى ، وشعر رأسها معفر بالتراب ، وأقبلت نحوي متهافتة إذ كانت الجروح قد نالت من ساقيها وقدميها!.. واستقبلتني قائلة في سخرية : بورك هذا اليوم الذي تعود فيه يا مولاي إلى دارك !.. ثم اختنق صوتها وارتمت على الأرض متهالكة وهي تخفي وجهها بيديها !..

لقد كان إعياؤها شديداً لكثرة ما أصابها من ضربات قرون "آمون" ولكني ابتدرتها متسائلاً : أين "كابتاح"؟!..

فأجابت في صوت مختلج: لقد مات!.. اغتاله الأرقاء، هكذا يقولون؛ لأنهم اكتشفوا أنه يخونهم ويقدم النبيذ لرجال "بيبيت أمون"!..

ولم أصدق أن "كابتاح" قد مات !.. فإني أعرف أنه ، مهما يكن الأمر ، يستطيع أن يفلت من الموت !.. وفي فترة تشككي في موته ، صرخت "ميوتي" قائلة : من الممكن الآن أن تضحك يا "سنوحي" سروراً بالنصر العظيم الذي أوتيه إلهك "آتون"!.. إنكم أيها الرجال جميعاً مصدر الشرور في الدنيا ، وإنكم لسواء في الغباء، لا تتعلمون ولا تفقهون!.. نعم ، كل الرجال أطفال يترامون بالأحجار ويضرب بعضهم بعضاً دون تفكير في العواقب!.. وأشد ما يبهجهم أن يروا الذين يحبونهم حزانى بسبب معابثهم

البلهاء.. وهاأنذا يا "سنوحي" .. لقد أحببت لك الخير دائمًا ، فكان جزائي أن صرت ذات ساق عرجاء وجسم دامي الجراح، وليس عندي إلا صبابة من قمح متعفن لا تقيم لي أودًا ولا تدفع عني جوعًا!.. جناية جنيتها يا «سنوحي»، ولا يعنيني منها أمر نفسي ، وإنما يعنيني منها ويبكيني ذلك المصير المفجع الذي صارت إليه "ميرييت" وطفلها اللطيف المحبوب!.. لقد كانت تحبك، كما لم تحب امرأة رجلاً!.. فراحت ضحية أفكارك المخرفة، ولقيت منك شر جزاء!.. وذلك الصغير "تحوتح"!.. ما جريرته؟! إنه كان عندي بمنزلة الابن العزيز، وكنت أسعد ما أكون حين أقدم له الكعك المعسول مصنوعًا بيدي فيأكله فرحًا!.. ولكن ماذا يهمك من هذا كله؟! ألست رجلا من الرجال ؟! كل الذي تبتغيه وتعنى به، أن تجيء إلى هذه الدار متأنقًا رافلا في مظاهر الثراء، لتبحث تحت هذا السقف الذي تفصدت عرقًا من إقامته والإبقاء عليه. مراحًا ومضطجعًا ومجلس طعام وشراب !.. وإني لعلى ثقة من إنك مع هذا ستفتتح صباح الغد بضربي وتأنيبي؛ لأنك لا تراني على ما كنت عليه من خفة ونشاط في خدمتك!.. فهذه دائمًا حال الرجال، يرهقون خدامهم بالأعمال ، ويأبون أن يشاركوا فيها؛ لأنهم يستطيبون الكسل ويغتصبون راحتهم من أيدي الآخرين!..

هكذا كانت تتكلم ، بينما كان فكري شاردًا ، كما كان قلبي طافحًا بالأسى ، واعتادتني ذكرى أمي "كيفا"وحبيبتي "ميرييت"، فاشتدت لذكراهما لوعتي ، فبكيت..

واضطربت "ميوتي" لبكائي ، فاستدركت تقول: إنك لا شك تعرف يا "سنوحي"أنني لم أرد إيلامك، وإنما أردت نصحك وتوجيهك إلى طريق السلامة ، ولا يزال عندي ملء قبضة اليد من الحنطة. وإني لصانعة لك منها خبزًا طيبًا ، وسأمهد لك فراشًا مريحًا من السمار الجاف فلا تزعجنك الحاجة وخواء اليد، فلن يمضي طويل حتى تعاود عملك في مهنتك فيصبح العسر يسرًا وتعود إلى ما كنت فيه من رخاء!.. وفي وسعي ، إلى أن يتم هذا ، أن أدبر الأمر بنفسي ، فإني واجدة في بيوت الأغنياء عملاً ذا أجر حسن، هو غسل الملابس الكثيرة الملطخة بالدماء!.. وسيكون من اليسير أن أقترض جرة جعة من بيوت الملذات التي استحوذ عليها الجنود ، لتجد فيها شرابًا يشرح صدرك!..

وأخجلنى كلامها، فتمالكت نفسى وجففت دموعى ، وقت لها : لم آت إلى هنا يا "ميوتى" لأكون عبئًا عليك!.. وإنما جئت لأرى المنزل الذى كان موطن سعادتى فى بعض ما مضى من أيامى ، وألمس بيدى لحاء الشجرة التى شهدت هذه السعادة ، وأتحسس الأرض الطيبة التى خطرت عليها يومًا "ميرييت" الحبيبة و"تحوتح" العزيز!.. وإنى لتاركك الآن وقد لا أعود لوقت طويل ، وسأبعث إليك ، ولو بالقليل من النقود الفضية لتستعينى به على تدبير حياتك فى غيبتى، فإنك من نفسى بمنزلة أمى ، وأنا شاكر لك عواطفك التى تدل على طيبة قلبك، ولا يؤلمنى من لسانك أنه فى بعض الأحيان يكون أشد وخزًا من الإبر!..

وبكت "ميوتى" فى تأثر ، ومسحت أنفها بظهر يدها العجفاء، وأبت أن أذهب قبل أن أطعم من الطعام التافه الذى قدمته لى ، واضطررت أن أتناوله إرضاء لها وكانت تستحثنى عليه قائلة: إنه طعام غير لائق ولكنه جدير بأن تستطيبه لأنه من يدى ، ولأنك فى حاجة إليه على أية حال، فما أحسب إلا أنك مندفع برأسك المختبل فى الطريق الشائك الذى لا تجد فيه كسرة من قديد!.. فخذ من طعامى هذا ما يسد رمقك ويشد قواك!.. ولا تبطئ فى عودتك إلى فإنى هنا دائمًا بانتظارك على شوق وإخلاص!.. ولا يشغلنك أمرى ، فإنى بالرغم مما يبدو لك من ضعفى أشعر بالقوة والنشاط ، وسأظفر بما يكفينى مادامت توجد فى "طيبة" ملابس وحنطة تحتاج إلى من يغسلها ومن يخبزها!..

وقضيت يومى وسط الخرائب التى بقيت من منزلى ، مسترسلاً مع الأفكار المتلاحقة التى أطبقت على رأسى من هنا ومن هناك، وكانت كثيرة بعدد ما ألم بحياتى من أحداث ليس فيها إلا ما يروع ويفزع ، ولم أفطن إلى انقضاء اليوم إلا حينما أوقدت "ميوتى" نارًا لتضيئ ظلام الليل الذى أقبل . وقد نزعت نفسى عندئذ إلى البقاء حيث أنا مؤثرًا العزلة عن الناس، فما نالنى باختلاطى بهم غير الشقاء وفقد الأحباء، وقد جئت إلى الحياة وحيدًا، مقذوفًا بى على ظهر الماء، فلم لا أعيش وأموت، كما ولدت وحيداً؟!

ولكنى خرجت من هذا الذى نازعتنى إليه نفسى ، وعندما سمعت أصوات الحراس وهم يدقون على دروعهم ، تحذيراً للناس من البقاء بين الخرائب، فنهضت وودعت "ميوتى" وأخذت طريقى مرة أخرى إلى بيت "فرعون" الذهبى.. وخلال الشوارع التى مررت بها كانت تومض أنوار الاحتفال الذى شمل "طيبة" ابتهاجًا بتتويج "توت عنخ آمون" ومن قريب كنت أسمع نغمات الموسيقى وهتافات الأفراح!..

- ٧ -

وفى الليلة نفسها ، كان الكهنة يعملون فى حماس شديد بمعبد "سيخمت" لإزالة الحشائش التى تشعبت بين أحجاره ، وعششت فوق بلاطه، وإعادة تمثال رأس الأسد إلى الموضع الذى كان قائمًا به، وتزيين ردائه الكتانى الأحمر بشارات الحرب الدامية!..

وخلا "آى" إلى "حورمحب" بعد أن انتهى من مراسم تتويج "توت عنخ أمون" بتاجى المملكتين الأحمر والأبيض ، وقال له : هاقد أظلنا وقت العمل، وبدأ دورك يا ابن الصقر!.. فهيا إلى النفير فانفخ فيه إعلانًا للحرب ، ولتتدفق الدماء ، تطهيراً لأرض "كيم" وإقراراً لكل شىء فى مكانه، وتعفية لذكرى "فرعون" الزائف فى نفوس الناس!..

وعندما كان صوت نفير الحرب يدوى بأمر "حور محب" فى اليوم التالى ، كان "توت عنخ أمون" مستغرقًا فى ملهاته المحببة إلى نفسه، يلاعب زوجته بما بين يديه من الدمى المختلفة الصور والألوان، كما كان كهنة "آمون" مستغرقين كذلك فى مرحهم نشاوى بخمر السلطان الذى استعادوه ، حارقين البخور فى أنحاء المعبد الكبير وهم يرددون اللعنة الأبدية على "إخناتون"..

وأقبل "حورمحب" على رأس قواته المجهزة للقتال ، ماراً بطريق "رامس" ، متجهًا إلى معبد "سيخمت" ليقدم القرابين إلى الآلهة!.. وكان وهو يسير بين الناس فى موكبه

اللجب يصطنع البساطة ، ليؤثر في حكمهم على أخلاقه وتقديرهم لسلوكه ، ولهذا كان يركب عجلة نقل ثقيلة تجرها جياد عارية من ريش الزينة، ومجردة من الطلاء الذهبي، على غير ما ألف الناس في مظاهر قادة الحروب ورؤساء الجيوش!.والحق لقد أضفى عليه هذا جلالا وروعة!..

وكنت أرافقه في موكبه هذا إلى المعبد طوعًا لأمره، فلما بلغنا أبواب المعبد النحاسية التي فتحت على مصاريعها أمامه، ترجل من فوق عجلته ودخل متبوعًا بضباطه ورجاله ، فاستقبلهم الكهنة، وأيديهم وأثوابهم ملطخة بدماء القرابين، وتقدموه إلى تمثال الإلهة حيث كان الرداء الأحمر المسدل عليه يمثل هو الآخر لون الدماء القانية، وقد لاح رأس التمثال في ضوء المعبد الخافت كأنه يتحرك ، وكانت الجوهرتان المركبتان في عينيه تشعان إشعاع الحياة النابضة ، وخيل إلى "حورمحب" أنهما مصوبتان إليه وحده، كأنهما تذكرانه بالقلوب الدافئة التي تجمعت بين يديه من القرابين البشرية .. فتقدم وأخذ يصلي للنصر الذي ينشده، ويمضي في طلابه!.. بينما كان الكهنة يلتفون حوله مهللين والسكاكين في أيديهم يطعنون بها أجسامهم، ويقولون له في صوت واحد: عد منتصرًا يا "حورمحب" يا بن الصقر! عد منتصرًا ، وستتلقاك الإلهة متنزلة من عليائها ، فياضة الحياة لتضمك إلى أحضانها!.

ولكن "حورمحب" لم يعرهم في حركاتهم ودعائهم التفافا، فأدى واجباته التعبدية في هدوء ووقار ، وخرج من المعبد رافعًا يديه الملطختين بالدماء ليجد جموع الناس قد احتشدت في ساحته الأمامية ، فوقف بينهم وتحدث إليهم بصوته الجهير قائلاً:-

يا أهل أرض "كيم"!.. استمعوا إلي وافتحوا آذانكم وقلوبكم لما أقول !.. إني أنا "حور محب" ابن الصقر، أحمل بين يدي النصر الذي يخلد به الفخار والمجد لكل الذين يتبعونني إلى الحرب المقدسة!..الحرب التي لا معدى منها لحرية هذا الوطن وعلو شأنه بين الأوطان!..

ففي هذه اللحظة تنثال على صحراء "سيناء" عجلات الحيثيين الحربية، وقد أخذت طلائع جيشهم توغل في المملكة السفلى وتنشر عليها ظلالا قاتمة من التخريب !..

ولم يحدث أن كانت أرض "كيم" مهددة بمثل هذا الخطر في أي وقت مضى!.. إنهم في طريقهم إليكم، وقواتهم لا تحصى عدداً ، وفيهم غلظة وقسوة ، فلئن ظفروا فلن تأخذهم فيكم رحمة، سيهدمون بيوتكم ، ويفقئون عيونكم ، ويهدرون دماءكم، ويستحيون نساءكم ، ويستبيحون أعراضكم، ويتخطفون أبناءكم، ويتخذونهم عبيداً وأرقاء!.. إنها - إذن - حرب مقدسة أيها الرجال!.. حرب في سبيل حياتكم وآلهتكم وكرامتكم!.. فلا مناص من أن نحشد لها كل القوى لندفع هؤلاء المغيرين ، ونردهم على أعقابهم خاسرين، ونعيد "سوريا" إلى حظيرتنا، ونسترد ما انتقص من أرضنا وضاع من سلطاننا . وعندئذ يعود الرخاء ويرغد العيش، وتظفرون من أعدائكم بالغنائم والأسلاب، من حنطة ومال، فوق ما تظفرون به من لذة النصر عليهم والنكال بهم!.. فاليوم يوم الجد، يوم الحياة أو الموت، وقد سخر الأعداء منا، وظنوا الضعف فينا، حين تركنا لهم الأبواب مفتحة، والطريق خالياً ، وحين لم يكن يباح لنا أن نلقاهم بقوة السلاح والرجال ! فالآن ، وقد انقضى عهد الاستخذاء والأوهام، لم يبق ثم عذر لمعتذر ، ولا حجة لقاعد متخلف، فعلينا جميعاً أن نكون جنود المعركة الكبرى، وأن نقف دون العدو الزاحف في وحدة كاملة، لنحفظ لمصر عظمتها الحربية التي لا تطاولها فيها أمة من الأمم. وإني لأناشد نساء "مصر" أن يضفرن من شعورهن أوتاراً للأقواس ، ويدفعن بأزواجهن وأولادهن إلى هذه الحرب المقدسة، وكذلك أناشد رجال "مصر" أن يستجيبوا إلى نداء وطنهم وأن يصنعوا من أدوات زينتهم نصالا للسهام، وينبعثوا خفافاً ورائي إلى ساحة القتال كما ينبغي أن يفعل الرجال !.. ولكم عليَّ جميعاً عهد لا أتردد فيه ولا أنكص عنه ، هو أن آتيكم بالنصر المؤزر الذي لم ير له العالم مثيلا في تاريخه القديم!.. سنذهب أيها المصريون من ساعتنا هذه إلى الحرب، ترفرف علينا أرواح الفراعين العظام وآلهة "مصر" كلها وفي مقدمتها "آمون" العظيم!.. أيها الناس: استمعوا إليَّ، وافتحوا آذانكم وقلوبكم لما أقول!.. واشهدي أيتها الآلهة ، فقد قلت كل مالا بد من أن يقال ، أنا "حورمحب" ابن الصقر!..

وما أن انتهى "حورمحب" من خطابه هذا المتدفق حماسة حتى قوبل من الجموع الزاخرة، بعاصفة مدوية من صيحات التأييد وهتافات الدعاء ، ثم نفخ في النفير ،

فضرب الجنود بالحراب على دروعهم ودقوا الأرض بأقدامهم ، وسار هو إلى عجلته فارتقاها، ومضى بها فى طليعة موكبه ميمما شطر الميناء ، ومن هناك استقل سفينته ليبحر بها إلى "ممفيس" معجلاً، فقد طال ابتعاده عن مسرح المعركة ، وكان آخر نبأ تلقاه عن "الحيثيين" أن جيادهم لا تزال توغل في مراعى "تانيس"، فكان عليه أن يعجل بالرحلة إليهم، وصعدت إليه فى السفينة ، دون أن يعترضنى أحد ، وقلت له : لقد مات فرعون "إخناتون" يا "حورمحب" ، وتحللت بموته من القيد الذى كان يربطنى به – كطبيب الملك – وأصبحت لذلك حرا أغدوا وأروح على ما أريد . وقد رأيت أن أرافقك إلى المعركة ، غير وجل منها . فالحياة عندى لا قيمة لها، وفى أى مكان لا أشعر بالسعادة ، وإنى لمشوق إلى شهود هذه الحرب المقدسة التى أجهدت نفسك فى الحديث عن بركاتها حتى يتاح لى أن أرى عن كثب، وعلى بينة ويقين، ما إذا كان عهدك الذى تبشر به ، خيراً وأكثر جدوى ، من حكم "إخناتون" ، أم أن هذه الأرض قد قضى عليها أن تحكمها أرواح الجحيم!..

فتبسم "حورمحب" ضاحكاً من قولي، وقال: لعل من علامات الخير أن تكون أنت يا "سنوحى" أول متطوع فى هذه الحرب. على أنى أخشى ألا تثبت على ذلك ، فقد صرت أميل إلى الدعة وأخلد إلى الراحة، تؤثر المقعد الوثير على المركب الخشن، وقد تستطيرك الحرب بمفازعها، فتندم حيث لا يجديك الندم، وكنت أوثر أن تبقى هنا لترعى مصالحى فى البيت الذهبى ، ولكن قد يكون من الخير لى أن تكون بمبعدة من هذا البيت ، فى هذه الظروف، ذلك لأنك لست بالرجل الماكر الذى يفلت من مكر الآخرين، وفى وسع أى إنسان أن يستهويك ويجرك من أنفك!.. فلتكن – إذن – إلى جانبى ، رفيق حرب وصديق غربة، وأنت إلى ذلك طبيب ماهر، وكثيراً ما تدعو الحاجة إليك، وسوف يغتبط رجالى بك ، فلا يزالون على اعتقادهم بأنك ذو قوة وبأس ، منذ رأوك فى حرب العبريين، تعلو ظهر الحمار الوحشى فينطلق بك بين أنجاد وأغوار ، وخلال مهالك وأخطار ، فلا تصاب مع ذلك بأذى، ويرون أن هذا ما كان يستطاع لولا أن لك قلبًا أقوى من قلب ذلك الحيوان المتوحش!..

وتحركت السفينة وأخذ البحارة يضربون بالمجاديف فى الماء، والجماهير إذ ذاك محتشدة على رصيف الميناء، تلوح بأيديها مودعة ، فى صياح يشق أجواز الفضاء..

وشاعت فى وجه "حور محب" نضرة الارتياح لما يرى من إقبال الناس عليه، ومظاهر ثقتهم به ، وقال لى : ألا ترانى قد نجحت فى التأثير فيهم واستمالة مشاعرهم؟!

ورافقته إلى مركز قيادته بالسفينة ، فغسل يديه وشمهما وقال ببرود: بحق "ست" وكل الشياطين، إنى ما كنت أظن أن كهنة "سيخمت" لا يزالون على عادتهم فى تقديم القرابين إليها من البشر!..

ولا شك أن أولئك الكهنة القدامى كانوا فى عملهم هذا ، مأخوذين بالذهول ، ولعل هذا؛ لأن أبواب المعبد لم تفتح لأكثر من أربعين سنة مضت!.. والعجيب من أمرهم أنهم يحرصون على أن يشهد شعائرهم هذه ، الأسرى من السوريين والحيثيين!.. ولو كنت قد عرفت ذلك قبل مقدمى عليهم لما سمحت لهم به، فكم كنت منزعجًا عندما ألقوا بين يدى بالقلوب الدافئة لضحاياهم البشرية ، ولكن لماذا أعنى النفس بهذا الآن؟! فليكن لهم ما شاءوا من طقوسهم وعاداتهم، فذاك أمر لا يضيرنى على أية حال!..

وشممت فى كلماته رائحة الشك فقلت له: ألست تؤمن يا "حورمحب" بأن هناك أشياء مقدسة؟!

فسكت قليلا ثم قال:فى شبابى كنت أومن بالصداقة وبراءة القلب ، وبهذا الإيمان أحببت أقوى ما يكون الحب ، ولكن المرأة التى أحببتها احتوتنى فى احتقار، فصار حبى لها جنونًا!.. أما الآن، فإيمانى ينحصر فى حقيقة واحدة ، هى أن المخلوقات البشرية ليست سوى وسائل إلى أهداف ، وأن نفسى قد ارتقت إلى أعلى مراتبها حتى لأعدها المحور الذى تصدر عنه وترد إليه كل الشئون ، ومن هنا أصبحت "مصر" بكل من فيها وما فيها، تتمثل فى شخصى ، وتنبثق منه . وما كفاحى فى سبيل

عظمتها وقوتها ، إلا الكفاح فى سبيل عظمتى وقوتى!.. تلك هى الحقيقة التى أومن بها وأقدسها ، دون غيرها يا "سنوحى" !..

ولم يكن لكلامه هذا كبير أثر فى نفسى ، فقد عرفته قبل ذلك مفتونًا بنفسه، مأخوذًا بالغرور إلى حد بعيد ، على الرغم من أن أبويه كانا من الرعاة صانعى الجبن! وكان واضحًا أنه يحملنى بذلك على أن أنظر إليه نظرة التقديس ، ولكنى أخفيت شعورى وواريت أفكارى ، ورحت أتحدث إليه عن الأميرة «باكيت آمون» وكيف أنها لم تعط مكانا ملحوظا فى موكب "توت عنخ آمون"!.. فوقع هذا من نفسه الموقع الذى هدفت إليه، فأخذ يصغى إلىَّ فى انتباه ويستزيدنى من الحديث عن الأميرة، ويغرينى فيه بشراب النبيذ!..

وعلى هذا قضينا الوقت فى سفرنا ، مبحرين إلى "ممفيس"، بينما كانت عجلات الحيثيين الحربية تواصل عملها، تخريبًا فى المملكة السفلى!..

الحرب المقدسة

- ١ -

ووصلنا إلى "ممفيس"، وفيها تجمعت القوات ومعدات الحرب وذخائرها ، فاستدعى إليها "حورمحب" الأغنياء وأصحاب الثراء في البلاد، ووقف فيهم خطيبًا فقال : إننا مقبلون على حرب نخوض فيها عباب الموت دفاعًا عن بلادنا التي يحيط بها اليوم عدو قوى ، مخيف في وحشيته، كما لا بد أنكم تعلمون .. وأمر هذه الحرب يعنيكم أنتم أكثر مما يعنى سواكم ، فأنتم وجوه البلاد وأثرياؤها وأوفر الناس حظوظًا من خيراتها ، فالمعركة في الحقيقة معركتكم ، والأرواح تبذل فيها رخيصة من أجلكم ، وما كنت إلا راعيًا نشأ والطين عالق بأصابع قدميه، ولست على قيادة الحرب إلا بإرادة "آمون" الذى زودنى ببركاته فيها، فانبعثت لها مؤيدًا بثقة "فرعون". على أنه في سبيل إحراز النصر، ينبغى أن يكون لنا – نحن الذاهبين إلى الموت – عضد منكم ، أنتم الذين ستجنون غدا ثمار هذا النصر ، دون أن تنقصوا قطرة من دمائكم!.. وقد اقتضانا التجهيز للحرب أن نخفض من أقوات أرقائكم وعمالكم، فارتفعت من جراء هذا أثمان البضائع والسلع في سائر أنحاء "مصر" وسيضيق بارتفاعها هؤلاء الفقراء ، ولكنهم سيتحملون ضيقهم في سبيل معركة مقدسة، يجب على كل فرد أن يساهم فيها بكل ما في قدرته من تضحية ، وأراكم، بعد قد أدركتم ماذا عليكم أن تفعلوا في أداء هذا الواجب العام!.. ولست أشق عليكم ، فما أريد إلا أن يقرضني كل واحد منكم، في الحال ، نصف ما يملك من ذهب أو فضة أو حنطة أو ماشية أو جياد أو عجلات، فكل ذلك لا معدى منه لنا في حرب نريد أن نعود منها وعلى رءوسنا أكاليل النصر!..

وأخذهم الفزع من هذا ، فتصايحوا معترضين ، وقالوا وهم يمزقون ملابسهم : إن "فرعون" الزائف قد أنزل بنا الفقر والفاقة، فلم يبق لدينا مال نعطيه أو نشب نقدمه!..

ثم عادوا، كأنما أدركوا أن هذا لن يعفيهم ، فقالوا : ولكن ما ضمان الوفاء بهذا القرض ، وما فائدتنا منه؟!

وأجاب "حورمحب": ضمانه النصر الذى سأحرزه لكم، أيها الأصدقاء! وسيأتكم بالسرعة نفسها التى تقدمون بها قروضكم!.. بيد أنكم قد نسيتم شيئًا كان عليكم ألا تنسوه قبل أن تذكروا ضمان الوفاء بالقروض.. ذلك أن الحيثيين" إذا ظهروا علينا ، فسيجيئون إليكم ويجردونكم من كل شىء!.. وقد تعجلتم ، فتساءلتم عن فوائد قروضكم، وكان ينبغى أن تصبروا حتى تسمعوا منى بقية الحديث، فإنى لم أفرغ منه بعد !.. فهذه الفوائد، أيها السادة ، لم تغب عن خاطرى ، وقد دبرت أمرها فيما سأعقده من اتفاق مع كل منكم بمفرده ... وإليكم موجزًا من هذا الاتفاق الذى لا شك فى أنه سيكون مقبولا! سأخذ منكم ، لساعتى هذه ، نصف ممتلكاتكم قرضًا .. وبعد أربعة أشهر ، سأخذ نصفها الآخر . فإن امتدت الحرب إلى عام ، فسآخذ نصف ما تكونون قد جمعتم، وحسبكم ما يبقى لكم بعد ذلك ، فإنكم لتحذقون تدبير المال وجمعه، ولا شك عندى فى أنه سيكون بين أيديكم منه ما يزيد على حاجات معيشتكم إلى آخر حياتكم !.. هذا هو اتفاق القرض وفوائده ، ولعلكم قد اقتنعتم الآن بأنى لا آخذ أموالكم نهبًا!..

فارتعدت فرائصهم، وترامـوا على الأرض بين يدى "حورمحب" وراحو يمرغون وجوههم فى التراب ، ويضربون جباههم فى الأحجار حتى تفجرت منها الدماء، وهم يجهشون بالنحيب والبكاء!..

وقال لهم "حورمحب" بلهجة لا تخلو من التهكم : ما هذا يا أصدقائى؟! .. لقد دعوتكم لبالغ ثقتى بوطنيتكم ، فأنتم – ولا ريب – تحبون "مصر"، وتسترخصون كل

غال في سبيلها!.. وما أطالبكم من أجلها بالكثير الذى يند عن قدرتكم؛ لأنكم أغنياؤها وذوو المال الوفر فيها ، وقد جمعتم ثرواتكم بذكائكم وجهودكم، فلن يضيركم أن تنزلوا عنها كلها أو بعضها ، فسيكون في وسعكم أن تستردوها وتستكثروا منها في وقت قصير!.. والمجال دائمًا فسيح أمام الأذكياء من أمثالكم، والمال يغرى بالمال ، والغنى يزداد غنى ، فلا عليكم من بأس في أن تشاركونا بما في أيديكم اليوم ، وفاء بحق وطنكم، فليس من هذا مناص، وهو على أية حال لا يكلفكم حياتكم، فستبقون هنا ناعمين بها ، بينما يساق هذا الجيش، كما ترون، ليبذل الألوف من رجاله هناك أرواحهم وحياتهم!.. فأنتم ، في هذه القسمة ، الرابحون لا محالة!.. وإن مثلكم منى لهو مثل الحديقة المثمرة من البستاني الماهر، فإن قطفت الثمار الآن فإني مبق على الأشجار ، لتعطى ثمرًا جديدًا!.. فلا تخافوا ولا تحزنوا، فسأدير، لخيركم وخير وطنكم ، حربًا عظيمة، أعظم مما تتصورون!.. وسأنتصر نصرًا يرفع رءوسكم ويمكن لكم في الحياة السعيدة الراغدة!.. والآن أيها الرجال، عودوا إلى بيوتكم مزودين ببركاتي، وكونوا على سابق العهد بكم ، جدًا ومثابرة ، واستكثارًا من الثراء ، ويمكنكم أن تنصرفوا عنى آمنين، منتفخي الأوداج كما يحلو لكم أن تفعلوا، فليس هناك شيء يمنعكم من ذلك!..

وتركهم "حورمحب"، وهم لا يزالون على حالهم، انتحابًا وأنينًا وتمزيقًا للملابس ، ولكنهم كفوا عن ذلك بعد خروجهم ، إذ أخذوا – في استسلام للأمر الواقع– يقدرون باهتمام حساب خسائرهم ويرسمون الخطط لتعويضها!..

وقال لي "حورمحب" : إن هؤلاء المتظاهرين بالتفجع سيجدون في الحرب فرصتهم الكبيرة ليسرقوا الناس خلال نقعها ونارها، فهي لهم غنم كيفما كان مصيرها، وسوف يداخلون الناس الذين يسرقونهم ، زاعمين أن هذه الحرب قد رمتهم بالكوارث، ويلعنون " الحيثيين" الذين أثاروها عليهم عدما وفقرًا!.. كما سيكون في وسع "فرعون" نفسه أن يقول مقالتهم ويزعم زعمهم كلما عضت المجاعة بنابها في الشعب!..

فهذا الشعب هو لعبتهم جميعًا ، يغررون به ويعتصرونه ، ومن أجل ذلك فلن أنفك أطالبهم بالمزيد من القروض حتى لا يذهب مال الشعب كله لقمة سائغة في بطونهم!.. وتلك وسيلة حسنة تغنيني عن فرض ضريبة حرب، فلو أنني فرضت هذه الضريبة فستعم الشعب وتفدح كاهله ، فيلعن اسمي ويضطغن علي ، وإذن - فليفعل الأغنياء ما شاءوا بالعامة والفقراء عن غير طريقي، فإنهم - عندئذ - سيلعنونهم، في حين يعظم قدري بينهم ، ويزداد حبي في قلوبهم، فيرددون اسمي مقرونًا بالعدل والإنصاف!..

وكانت عصابات "الحيثيين" في ذلك الوقت قد أحالت أراضي الدلتا بلاقع وخرائب، وراحت توقد النار في القرى ، وتطلق جيادها راعية في منابت القمح، وتنشر هنالك الرعب والفزع ، حتى ترادفت على "ممفيس" حشود الفارين واللاجئين، وكان ما يذكرونه عن فظائع "الحيثيين" ووحشيتهم يثير القلق والخوف. وأحسست بقلبي يضطرب جزعًا من ذلك ، فطلبت إلى "حورمحب" في ضراعة أن يعجل بملاقاتهم! ولكنه ابتسم وقال دون اكتراث : من الخير أن يظلوا هكذا بعض الوقت، ليعلم المصريون ما يجهلون من خطر "الحيثيين" وقسوتهم، ويستيقنوا من أنهم إذا وقعوا في قبضات أيديهم فسيجعلونهم عبيداً أذلاء!.. ذلك إلى أن من خطل الرأي المبادرة بالهجوم عليهم بهذه القوات التي تنقصها العجلات الحربية!.. ولا أرى مع ذلك ما يوجب القلق يا "سنوحي"، فإن "غزة" لا تزال لنا ، وهي حجر الزاوية الذي أستند إليه في هذه الحرب، ولو حدث أن سقطت في أيدي "الحيثيين"، فإنهم قلما يجترئون على إرسال قواتهم الرئيسية إلى الصحراء، ورقابتنا البحرية عليهم ناشطة في يقظة ودأب ، وقد بثثت في الصحراء رجالاً ذوي بصر، يجوسون خلالها ويثيرون من فيها من قطاع الطرق ورجال العصابات المحاربين ويتعجلونهم العمل لمناجزة "الحيثيين" من وراء ظهورهم!.. فعسى أن تكون قد فطنت الآن إلى أن الزمام في يد الرجل القوي واسع الإدراك، وتستطيع أن تكون أكثر اطمئناناً ، إذا علمت أنه ليس ثم من خطر مخيف على "مصر" إلى أن يتمكن "الحيثيين" من دفع مشاتهم خلال الصحراء إلى الأرض السوداء!..

وتواردت على "ممفيس" بعد ذلك جموع كثيرة من الرجال ، قادمين إليها من كل أنحاء "مصر" لينضموا إلى صفوف القتال ، وهم إما جياع لم يجدوا في غير الحرب وسيلة إلى القوت، وإما يائسون أوبقهم عهد "آتون" ففقدوا بيوتهم وأعزاءهم وأصبحت الحياة لا قيمة لها عندهم ، وإما مخاطرون يندفعون إلى الحرب طمعًا في غنائمها !..

ودون مبالاة بإرادة الكهنة ورغباتهم، أصدر "حور محب" عفوًا عمن ساهموا في بناء مملكة "آتون"، وأطلق سراح المسجونين بالمحاجر ، لينظمهم في سلك الخدمة الحربية، فتكاثر بهم عدد الجنود، وباتت "ممفيس" معسكرًا كبيرًا، تفور فيها فورانا شديدًا ، فاكتظت الحانات وبيوت الملذات بالرواد والسكارى الذين لم يكن يهدأ صخبهم أو ينقطع شجارهم ، بينما كانت الحركة على أشدها في المصانع ، تنبعث منها انبعاثًا متواصلا دقات المطارق وأزيز المراجل!..

ووضع "حورمحب" أرصاده على الموانئ المصرية، واستولى على كل السفن المقبلة من جزر البحر المختلفة ، بكل من فيها من ربابنة وملاحين ، وألحقهم بخدمته، ولم تفلت من أسره السفن الحربية الواردة من "كريت"، وكانت هذه السفن كثيرة الانتشار في البحر، غادية رائحة بين الموانى دون أن تستقر في بلادها. وقد روى الذين كانوا فيها أن الثورة اندلعت بين الأرقاء في "كريت" وأن مدينة النبلاء القائمة فوق التل بتلك الجزيرة قد اشتعلت فيها النيران إلى أن أتت عليها منذ أسابيع مضت، حتى إنها لتبدو في البحر كأنها شعلة مضيئة!.. على أنه لم تكن هناك مصادر موثوق بها لمعرفة الأحداث الجارية في "كريت" على حقيقتها ، وقد عرف عن البحارة من أهلها أنهم قلما يصدقون في رواية ينقلونها، فمن عادتهم أن يكذبوا ويهولوا. ومما يجري في هذا المجرى أن بعضهم زعم أن "الحيثيين" قد غزوا جزيرتهم!.. وعارفو الحقائق لا يتصورون حدوث شيء من هذا، فالحيثيون ليسوا قومًا بحريين. كذلك زعم هؤلاء الكريتيين أن أناسًا غير معروفي الجنس، غزيري الشعر، قد أبحروا من الشمال إلى "كريت" لتخريبها ونهبها!..

وعلى اختلاف روايات الكريتيين وتنوع صورها عن أحداث جزيرتهم، فإنهم كانوا على اتفاق فى أن المصائب قد حلت بهم بعد موت إلههم!.. وأنهم قد برموا بالحياة هناك، فراحوا ينشدونها فى أى مكان، ولهذا فإنهم يشعرون بالغبطة والسرور إذ يعملون فى خدمة المصريين، وأضافوا إلى ذلك أن رفاقًا لهم من أبناء جزيرتهم قد اتجهوا إلى "سوريا" وتحالفوا مع الملك "عزيرو" والحيثيين.

وكانت هذه المعلومات ذات فائدة كبرى "لحور محب" واتته من حيث لم يكن يتوقع، وقد بدأت الحال تتكشف له فى البحر مؤيدة هذا، فالسفن تتنافس على اتجاهاتها، والعيون الراصدة فى الموانئ تجتذبها وتستهويها. وكانت عيون "حورمحب" أكثر رصدًا وأقوى نفاذًا، فرجحت ثقته فى مضطرب هذا التنافس البحرى ، ذلك إلى أن عصيانًا ثار ضد "عزيرو" فى مدينة "تاير"، ففر العصاة ووصلوا أحياء إلى "مصر"، فتلقفهم "حورمحب" وضمهم إلى البحرية، وبذلك استوى له أسطول بحرى مجهز بالبحارة المدربين ، يعتضد به فى خوض المعركة برا وبحرا!..

وعندما حل موسم الحصاد، وبدا النيل فى الفيضان ، كان "حورمحب" قد استوفى حاجته من الاستعداد، وكانت "غزة" لا تزال صامدة فى وجه الحصار الآخذ بخناقها، فأرسل إليها – على سفينة بحرية – أمدادا كثيرة من غرائر القمح طوى فى كل منها رسالة تدعو إلى الثبات والدفاع عن المدينة بأية تضحية!.. وأرسل مع شحنة البحر، رجالا أشداء مزودين بالسلاح ، وآخرين مثلهم عن طريق البر ، راسمًا لهم جميعًا خطة الاندساس فى صفوف المحاربين المحيطين بالمدينة!.. وفى الوقت نفسه أخذ يتحرك من ممفيس" بقواته وفصائله، متجهًا بها إلى "تانيس"!..

وقد استطاع رجاله المبعوثين إلى "غزة" أن يتسللوا وفق الخطة المرسومة إلى صفوف "الحيثيين" ويندسوا بينهم دون أن يستريبوا بهم، فقد كانوا يفعلون فعلهم، ضربًا بالسهام وقذفًا بالغرائر والجرات!.ولكن ضربات "الحيثيين" وقذائفهم كانت سهامًا قاتلة أو مشتعلة أو جرات مختومة محشوة بالثعابين السامة، تتساقط على المدينة من فوق أسوارها للقتل والتدمير. أما سهام وقذائف رجال "حورمحب"، فكانت

تساقط عليها رسائل مكتوبة، تبشر أهلها بالنصر القريب وتدعوهم إلى الصمود فى موقف الدفاع ، وتنثال عليهم معها غرائر القمح التى تسد حاجتهم وتشد قواهم!..

والحق ، لقد كان تماسك "غزة" وثباتها أمام هذا الهجوم العنيف الذى يشترك فيه - جنبًا إلى جنب - رجال "عزيرو" وجنود "الحيثيين" مما يدعو إلى العجب والإعجاب، والدهشة والإكبار ، فإنها ولا شك بطولة نادرة، وشجاعة فوق مستوى الشجاعات!.. ولكنى لم أستغرب هذا من قائد حاميتها القادر شديد المراس، ذلك الذى لم يسمح لى ، مرة، أن أدخل المدينة ، وأنا يومئذ مبعوث "حورمحب" ورسول "فرعون"، إلا من فوق الأسوار ، موضوعًا فى سلة ومجرورًا بالحبال!. إن هذا الرجل جدير حقًا بالثناء والمجد والشهرة، لاحتفاظه "بغزة" تابعة لمصر، رغم هذا الموقف العسير غاية العسر!..

وفى طريق "حورمحب" تراءت له من قريب ، فرقة من عجلات "الحيثيين" تقف على أحد خلجان النهر، فأمر رجاله ، فاحتفروا تحت ستار الظلام، قنوات الرى الجافة، فتدافعت إليها مياه النهر من عل، واستفاضت فيما حولها من جنبات واسعة ، وأصبح "الحيثيين"، فإذا هذا الغمر من المياه يحيط بهم، ويرون أنفسهم قد وقعوا من هذه البحيرة الكبيرة فى مأزق شديد، فشرعوا يذبحون جيادهم ويخربون عجلاتهم، ويحاولون الهرب بحياتهم. ولكن "حورمحب" نفخ فى النفير واندفع فى سرعة خاطفة ومن ورائه رجاله ، فأدركوا أولئك "الحيثيين" قبل أن يفلتوا منهم، وأوقعوا بهم ومزقوهم شر ممزق، وغنموا جيادهم وعجلاتهم قبل أن يجهزوا عليها، وقد بلغت أكثر من مئة عجلة ومئتى جواد، وقد سر المصريون بهذا النصر العاجل، أكثر من سرورهم بالغنائم، إذ أيقنوا أن عدوهم ليس من المنعة والقوة، بحيث لا يغلب ولا يقهر، خلافًا لما كانوا يظنون!..

وواصلت قوات "حورمحب" سيرها إلى "تانيس"، وكان يقول لى والشرر يتطاير من عينيه: إذا قاتلت، فلتكن لك المبادأة، وليكن ضربك متلاحقًا، وفى قوة وشدة!..

ومن "تانيس" تابع "حورمحب" تقدمه عبر الصحراء، متعقبًا قوات "الحيثيين" المتناثرة على موارد الماء، وكانوا قد ملئوا منها مئات الألوف من الجرار على مسافات متباعدة أو متقاربة، ليستقى منها الظمأى من مشاتهم، فما كان لهم من وسيلة غير هذه ، فهم لا يملكون سفنًا بحرية، ولهذا لم يحاولوا غزو "مصر" من البحر ، فاستولى "حورمحب" على هذه الموارد، وعلى جرار الماء، متغلبًا على القوات التى أقيمت على حراستها!..

وفى قوة مستحثة، وضغط مرهق، انطلق "حورمحب" بقواته، لا يتوقف ولا يلوى ، ولا يأبه بما يقع من الجياد نافقًا فى الطريق لفرط إجهاده. وكانت العجلات المتداركة تثير نقعًا من الرمال والغبار يتكاثف ويمتد عاليًا فى الأفق ، حتى لكان هذا الزحف زوبعة عاتية هبت على الصحراء، فملأتها عثيرًا وسحابًا متراكمًا. وفى الليل كانت المشاعل توضع على قمم التلال، بأمر "حورمحب"، ليخرج على أضوائها رجال القوات الحرة من مخابئهم، فينصبوا على حراس "الحيثيين" ويفتكوا بهم حيث ثقفوهم. ومن هنا نشأت الأسطورة التى تقول : إن "حورمحب" مرق خلال صحراء "سيناء" كسارية من السحاب بالنهار، وعامود من النار بالليل!..

وكان "الحيثيون" لا يحسبون حساب هذه المفاجآت المروعة، إذ كان اجتماع آرائهم على أن "مصر" من الضعف بحيث لا تقوى على أن تأتيهم مهاجمة فى قلب الصحراء، واطمئنانا منهم إلى ذلك، اكتفوا بتجريد بعض القوات على المملكة السفلى واحتفظوا بقواتهم الرئيسية بين مدن وقرى "سوريا" ووقفوا بها هنالك انتظارًا لاستسلام "غزة" التى كانوا يعتقدون أنها مستنفدة حتمًا قوة المقاومة، أمام حصارهم الوثيق وتجمعاتهم الكبيرة. وفى هذه الأثناء كانوا يأخذون الأهبة لغزو "مصر" فى ريث وتؤدة ، واثقين أنهم بالغون منها ما أرادوا ، طال الوقت أو قصر، ولكنهم أخيرًا يفجئون "بحورمحب" فى تيه الصحراء قادمًا إليهم على رأس جيش عتيد تظاهره عجلات حرب موفورة العدة والعدد، وقد هالهم، بخاصة، أمر هذه العجلات ، فقد كان أكثر ما يغريهم بمصر أنها أصبحت لا تملك منها شيئًا يعول عليه فى معركة ضخمة كهذه!..

والجانب الذى كان واضحًا من خطة "حور محب" أنه يؤثر تركيز هجومه على مراكز "الحيثيين" فى الصحراء ومواقع المياه فيها، ليدمر ما اختزنوه منها ، دون أن يلتحم بهم التحام جيش بجيش، فى موقعة فاصلة، ذلك لأنه كان يشعر بحاجته إلى الوقت لتجميع قواته وتدريبها،غير أن النصر، الذى أحرزه فى هذا الهجوم العابر، ازدهاه وأطمعه فى ضعف الأعداء ، فمال بسرعة الريح إلى "غزة"، وانقض على محاصريها من خلفهم، ففرق جمعهم وخرب آلات حربهم، وأشعل النار فى معسكرهم، ولكنهم، قبل أن يتمكن من دخول المدينة، جمعوا فلولهم واستزادوا من قوة عدوهم وسلاحهم وانقلبوا فى هجوم مضاد، وأدرك عندئذ أنهم يفوقونه قوة، فعجل بالانسحاب مرتدًا إلى الصحراء ليتابع تدمير كل ما يقع عليه - فى طريقه بها - من موارد الماء!..

وكنت أنا فى مؤخرة الجيش، مكلفًا باقتفاء أثر المشاة فى سيرهم السريع خلال الغبار المتكاثف وتحت لفح الشمس من وهجها المتقد، فباعد ذلك بينى وبين المعركة، وقد أنبأنى "حورمحب"، بعد ارتداده، بما حدث ، فتنفست الصعداء وهان على ما أكابده من عناء، فأغلب الظن أننى لو كنت معهم فى المقدمة للقيت حتفى، واستحال على بعد هذا أن أحيا لأكتب هذه المذكرات!..

و"حورمحب" مع ذلك كان قوى الثقة بنفسه، معتدًا بخططه، مطمئنًا إلى النجاح فى مطاولة أعدائه، وزاده ثقة وأملاً أن صقره كان يلازمه، وقد تذكر وهو يدلج فى صحراء "سيناء" ، تلك الشجرة المشتعلة التى كان رآها مرة بين تلالها، فأوحت له ذكراها أن يقيم على مثالها مشاعل فوق مرتفعات الطريق، يهتدى بها حملة الرماح ورماة السهام من رجاله الذين أوعز إليهم بالإيغال فى لهوات الصحراء لتعقب "الحيثيين"، وتقصى آثارهم، وتحطيم ما كانوا قد أعدوه من جرار الماء ذات الكثرة الكاثرة!.. وبذلك عاد "حورمحب" إلى خطته الأولى وهى تركيز نشاطه الحربى - إلى حين - بالصحراء، وإلى حد كبير ، كان هذا أمرًا شاقًا على العجلات الحربية، فهى فى الميدان أكثر صلاحية للعمل منها فى كثبان الرمال، وكذلك كان الرجال أشد

معاناة فيها مما لو كانوا يحاربون على أرض سواء. ولكن "حورمحب" لم يكن لديه منتدح من هذه الخطة فى هذه المهمه القفر، حتى يلاقى الأعداء أوفى استعداداً، مكتفياً بتقليم أظافرهم المنبثة فى الصحراء !..

وبعد أسبوعين قضيناهما فى جهد ومقاساة وضيق بالحياة ، فى هذا التيه الموحش ، رأينا - نحن رجال المؤخرة بالجيش - عموداً من النار يرتفع على تل قريب من الصحراء، خلال الظلمة الداجية، فعرفنا أن "حورمحب" يرابط هناك بعجلاته الحربية، وأنه بهذه الإشارة يدعونا إلى موافاته. كنا إذ ذاك مؤرقين، لأن الظلمة أضفت على الرمال موجة من البرد القارس، بعد يوم قائظ شديد الحرارة، فأقضت مضاجعنا، ذلك إلى أن كثيرين من رجالنا كانوا قد قضوا أياماً طوالا وهم يدلجون فى الصحراء ، ويمشون على رمالها الملتهبة ونباتاتها الشائكة حفاة الأقدام ، فكانوا كذلك يتوجعون فى رقادهم ويئنون ولا يذوقون طعم النوم، فنهضنا جميعاً على نفيخ النفير وأخذنا وجهتنا إلى حيث يدعونا مشعل "حورمحب"، وكنا أخلاطا من جنود نظاميين وقطاع طرق ورجال عصابات، مهلهلى الملابس، سود الوجوه، مشعشعى شعر الرءوس!..

وكان هؤلاء الذين نال منهم اللغوب وأضناهم الجهد، يتوقعون وهم يهرعون إلى "حورمحب" أحد أمرين: إما يوطئ لهم فى معسكره مراحاً يستجمون فيه بعض الوقت من عنائهم ، وإما أن يزيدهم عناء بدفعهم إلى السير فى وجهات أخرى حتى تبلى جلود أقدامهم. ولكن "حورمحب" لم يمسكهم لراحة أو يسيرهم لوجهة ، وإنما تلقاهم وهو يزمجر غضباً وعيناه محمرتان من طول السهد والإجهاد، وقال لهم ملوحاً فى وجوههم بسوطه الذهبى الذى كان ملطخاً بالدم والرمال: أيتها الحيوانات ، ويا ذرية شياطين الصحراء !.. فى أية أوكار وجحور كنتم تختبئون؟! أفى مثل ما نحن فيه تتخلفون عن ركب المعركة وترتمون بين أحضان الحياة الدون فى المغاور والكهوف!.. حقًا إنه ليسرنى أن أفتقدكم إلى الأبد وأن أرى جماجمكم فى مطلع الصبح مدفونة بالرمال!.. فكم هو مخجل أن أراكم تقبلون على كالسلاحف الزاحفة فى ونائها،

والعرق يتفصد من أجسامكم هذه التى تطفح بالقذارة والنتن، وتمج ريحًا كريها أمسك أنفى تقززًا منه، فى حين أن صفوة رجالى مصابون بالجراح الدامية ، وخيرة جيادى قد لفظت أنفاسها الأخيرة!.. فإلى العمل، هيا أيها الجبناء!.. إلى العمل الذى يوائم طبيعتكم، أنتم الذين عشتم طوال حياتكم تعفرون فى التراب ، وتحفرون فى الطين!..

وكان العمل الذى أمرهم به هو حفر خنادق ، فى مواضع معينة، وقد تلقوا كلماته فى غير برم أو ضيق، بل اغتبطوا لها ، إذ وجدوا فيها مخرجًا من الموت الذى كانت تنذر به غضبة "حورمحب". وعلى الرغم من تقرح أقدامهم وتسلخ جلودهم وجفاف حلوقهم، فقد تكبكبوا على أعمال الحفر التى أمروا بها ، فى رضا وارتياح ، فهم غير مدربين على أى عمل آخر!..

وبإرشاد "حور محب" أخذوا يحفرون الخنادق العميقة، ويدقون الأوتاد ويمدون بينها الحبال الوثيقة، وينقلون الأحجار الضخمة، ويضعونها حيث أشار.

وعدة رجال "حورمحب" المحاربين فى معسكره يومذاك نحو ألفين وخمسمئة ، ولكن الصالحين للقتال لا يجاوزون الخمسمئة رجل ، فقد كان الباقون بين جريح ومجهد، وهؤلاء الجرحى والمجهدون كانوا يخرجون إلينا من خيامهم ومخابئهم ليفاخرونا ببسالتهم وحسن بلائهم!.. على أن شمس هذا اليوم لم تغرب حتى كان قد وصل إلى مضارب "حورمحب" فى سيل متدافع، الجزء الأكبر من جيشه، وكان يدفع بهم فور وصولهم إلى حفر الخنادق وإقامة المتاريس، لمنع، "الحيثيين" من اختراق الصحراء ، وقد بعث رسالة عاجلة إلى بقية رجاله، الذين لم يصلوا بعد – لفرط إجهادهم – ويستحثهم على القدوم السريع ليبلغوا الموقع المحصن عند طلوع النهار، وإلا فإنهم ميتون أشنع ميتة إذا أدركتهم عجلات العدو الحربية!..

وقد انتعشت قوى المصريين فى هذا القفر الموحش، عندما رأوا عددهم يكثر ويزداد، واتجهوا بكل مشاعرهم، وفى ثقة لا حدود لها ، إلى "حورمحب" معتقدين أنه

ببطولته ومهارته سينقذهم من الحيثيين" ويردهم على أعقابهم!.. ولكنهم وهم فى غمر انتعاشهم وثقتهم، وبينما كانوا يعملون ناشطين فى إقامة المتاريس ومد الحبال ودحرجة الصخور وإرسائها، بصروا بالحيثيين يقتربون منهم فى سحابة من غبار ، فأدركهم الخوف والقلق، وعاودهم الانزعاج مما يوشك أن يدهمهم من عجلات العدو ذات المناجل الحاصدة!..

ولكن طلائع الليل كانت قد أقبلت ، ورأى "الحيثيون" ألا يسترسلوا فى الهجوم وسط الظلام قبل اختبار نقاط القتال وتعرف مسالكها وتقدير قوة المصريين فيها، فتوقفوا حيث أضواهم الليل، وضربوا خيامهم، وأوقدوا نيرانهم، فتلهبت حواشى الصحراء بالمشاعل المضيئة ، إلى آماد بعيدة، وكان كشافتهم فى طول الليل يتسللون إلى مواقع المتاريس والتحصينات المصرية على عجلاتهم الخفيفة، فيذبحون الحراس ويقعون فى مناوشات على مشارف الجبهة مع رجالنا، ولكن فى جناحى الميدان، حيث لا توجد متاريس ولا تحصينات ، كان الأشداء من رجال قواتنا الحرة ، يفاجئون "الحيثيين" ويستولون على عجلاتهم وجيادهم!..

ومن هذه المباغتات تحت جنح الظلام انفجرت فى الجو أصوات اشتجار المقاتلين مختلطة بدوى قعقعة العجلات ولعلعة السهام وصليل الأسلحة، وأنين الصرعى، ورانت غشاوة الرعب على غير المدربين من رجالنا فاضطربوا فى مراقدهم مذعورين، ولكن "حورمحب" راح يهدئ من روعهم ويقول لهم : يا أرانب البطاح!.. ناموا واستريحوا، وادهنوا أقدامكم بالزيت، ولا تنزعجوا، فإنى ساهر عليكم ، قابض على زمام حراستكم!..

ولست أدرى إذا كانوا قد ناموا أو تناوموا!.. وإنما الذى أدريه أننى لم أنم، لأنى لم أجد إلى النوم سبيلا، ولعله الخوف من الخطر الداهم، أو لعله الإشفاق على أولئك الذين يتهاوون قتلى أو جرحى من جنودنا!.. وعلى أية حال فقد وجدت نفسى منبعثًا للتجوال حول المعسكر ، أضمد جراح سائقى عجلات "حورمحب"، وقد راقه ذلك منى،

فقال مشجعًا : حسنًا تفعل يا سنوحي!.. فهؤلاء جديرون بأن تطب لهم بكل ما في وسعك من مقدرة ومهارة!.. إنهم محاربون بواسل قلما يوجد لبسالتهم في العالم شبيه، والواحد منهم يعدل مئة ، بل ألفا ، من حفارى الطين!.. فعالجهم - إذن - يا "سنوحي" ، بما أعرف من عنايتك ودقتك، فإني أحبهم حبًا جمًا ، وحاجتي إليهم شديدة، فليس عندي من الرجال المدربين من يملأ فراغهم!..

وهاجت كلماته حنقي وغيظي، فقد كنت ساعتئذ أمسك في نفسي ألمًا ممضًا، من هذه الرحلة المبهمة في تيه الصحراء ، تلك التي أضنتني وأورثتني من العناء مالا طاقة لي به على الرغم من أني كنت فيها مقتعداً محفة، ولا أعرف منها إلا أن "حورمحب" يركبه العناد، فيعتسف بنا قفاراً تدنينا من الموت وتوقعنا بين أنيابه!..

فقلت له منفعلا: لست محتاجًا فيما أصنع إلى وصية توصيني بها !.. إنه واجبي أؤديه بمحض إرادتي . وقد أدركت ، دون تنبيه منك، أن هؤلاء وليس سواهم هم الأكفاء من مقاتلينا، فكان على أن أبذل ما أستطيع لإنقاذهم، أما أولئك الطغام من خفافيش الصحراء الذين جئت في دهمائهم ، فهم العبء الثقيل على كاهلنا، وما أراهم يثبتون في قتال، وسوف يولون الأدبار إذا ما بصروا - من قريب أو بعيد - عيون الأعداء!.. وإذا كان لي أن أشير عليك بأمر، فهو أن تتخير أسرع جيادك وتعجل بالعودة معي إلى المملكة السفلى لتجهز تحت إمرتك هنالك جيشًا أوفر دربة وأقوى شكيمة وأكثر صلاحية!..

فحك "حورمحب" أنفه وقال : إنها مشورة من حكيم!.. ولكن ليس لنا الآن أن نختار، فقد تلاحمنا مع "الحيثيين" هنا في الصحراء ، وفيها يجب أن نظهر عليهم وأن نهزمهم، ولا سبيل لنا غير هذا ، وقد آن لي أن آخذ ، منذ الساعة راحتي. فدعني لها بعض الوقت، وسأتناول من الشراب ما يحيلني قويًا شرسًا ، وبعدئذ ستراها على يدي حربًا تتناثر في حومتها رقاب الأعداء!..

وتركني "حورمحب" ليعب من النبيذ مع بعض رجاله المصطفين!.. وانحسر ظلام تلك الليلة الليلاء، وأقبل الصبح على جثث الجياد والقتلى من المحاربين، متراكمة حول المتاريس والعرابات المقلوبة، والنسور تحط عليها خماصاً وتغدو بطاناً!..

- ٢ -

وأمر "حورمحب" فنفخ في النفير ، وعند سفح التل استعرض رجاله، وأخذ يخاطبهم وهو يقضم قطعة من خبز غير مأدوم، إلى قطعة بصل جاف ، فقال: انظروا أمامكم!.. فسترونها معجزة كبرى!..

أجل ، لقد أظلنا "آمون" بظله، وساق إلينا "الحيثيين" في هذه الصحراء ليقعوا بين أيدينا من حيث لا يشعرون. وعلينا أن نقوم بالأعمال العظيمة التي اختارنا لها!.. واعلموا أن مشاة "الحيثيين" مرابطون الآن على مشارف الصحراء، ولكن عجلاتهم تحاول أن تنقض علينا ، ليتمكنوا بذلك من وضع أيديهم على ما وراءنا من مخازن الماء وعلف الدواب، فقد ظمئت جيادهم وجاعت، ولم يبق لهم إلا هذه المخازن التي يطلبونها من خلف ظهورنا بعد أن أحرقت مخازنهم وحطمت جرارهم في طول الطريق من هنا إلى سوريا" وسيكونون بين احتمالات ثلاثة: إما أن يهجموا علينا ، وإما أن يرتدوا عنا، وإما أن يضربوا - حيث هم - خياما يتلبثون فيها حتى توافيهم إمدادات، تعينهم على الاشتباك معنا في معركة. على أني أرجح الاحتمال الأول؛ لأنهم يطمحون إلى سبقنا في الاستيلاء على مخازن المئونة وجرار الماء - التي أنفقوا عليها كل ما ظفروا به من ذهب "سوريا" وفضتها ، ولأنهم يعرفون أهميتها وخطرها وما يكون لها حتماً من قوة أثر في أي من الجانبين، فهم لهذا غير تاركيها لنا غنيمة بدون قتال!.. وتلك هي المعجزة التي حبانا بها "آمون" فإنهم إذ يهجمون علينا، ستتعثر خيولهم، ويقع فرسانهم في حبائل متاريسنا، ولن يستطيعوا أن يسلطوا علينا قواتهم بأجمعها، فهذه الخنادق التي حفرتموها والصخور التي أقمتموها والحبال التي شعثتموها ،

ستتولى عنكم، في أوضاعها المحكمة وترتيبها الوثيق، صد هجومهم وكسر حدتهم واصطياد مقاتليهم!..

وهنا ضرب الجنود بأقدامهم على الأرض وتصايحوا كالأطفال الذين شاقهم الاستماع إلى قصة طريفة!..

واستطرد "حورمحب" قائلاً : ولكن الذى أخشاه منكم ، أنكم فى تعلة من الجهد والعناء، قد تتركون "الحيثيين" يفلتون من أيديكم، وهذا ما لا أريد أن يكون ، فما أنتم هنا إلا رجال حرب، ولا عذر فيها لمعتذر. وفى أيديكم ، إن كنتم لا تعلمون ، قضبان شحذت أطرافها لتشق بطون "الحيثيين"، ولن يعييكم أن تسددوها إلى أهدافها، فإنكم لم تحملوها لغير هذا !.. وإلى حملة الأقواس منكم أقول : إنكم ، لما أعرف من مهارتكم فى الرماية، تستطيعون أن ترشقوا سهامكم فى عيونهم دون أن تخطئوا ولكنى أوثر أن توجهوا ضرباتكم إلى خيولهم؛ لأنها أهداف أكثر وضوحًا من راكبيها، ولا تكونوا فى ذلك بمبعدة منها، فكلما تقاصرت المسافة بينكم وبينها كانت الإصابة أسد وأنفذ، فدعوهم يقتربون منكم، وتربصوا بخيولهم عندها، ثم اضربوا بحرابكم فى بطونها، وامرقوا خفافًا قبل أن تسقط عليكم، فعند ذلك يتوقف سيرهم وتتعطل محركات عرباتهم، ولا يبقى بعد ما يخيفكم منها!.. فهل سمعتم ما أقول لكم يا أرانب النيل؟!..

ثم رفع "حورمحب" إلى فمه وعاء ماء، فاحتسى منه طويلاً ومضى يقول : لعلى أن أكون قد أتعبت نفسى فى الحديث إليكم على غير جدوى! .. فقد تكونون من كلالة الفهم وبلادة الحس بحيث لا تحرك كلماتى فيكم الجرأة والإقدام ، فتهولكم صرخات "الحيثيين" وتروعكم عجلاتهم الحربية وتنخلع قلوبكم منهم رعبًا ، وعندئذ تولون كالنساء، وتخفون رءوسكم فى الرمال ، أو تديرون لهم ظهوركم هربًا!.. قد يكون هذا حالكم لشعوركم بأنكم أضعف منهم قوة، وأن ليس فى أيديكم دروع تتحامون بها ضرباتهم!.. ذلك ما يخيفنى منكم أيها الرعاديد الجبناء!.. ولكن يجب أن تفهموا الموقف جيداً ... إنكم إذا لم تفعلوا ما أمركم به ، فلا نجاة لكم من الموت الذى تفرقون

منه، وليس وراء استخذائكم أمام "الحيثيين" إلا حقيقة واحدة، هى أنهم واصلون إلى جرار الماء من خلفنا وضاربون علينا حصاراً لا سبيل إلى إفلاتنا منه، فلا يمضى اليوم حتى يطبقوا علينا، ومن ثم تقع الكارثة التى تودى بحياتكم جميعاً!..

هذا هو الموقف، وقد دبرت له هذه التحصينات والمتاريس، ولا أستطيع التخلى عنها ، فهى لنا وقاء ونجاء، وهى للأعداء مصائد وقبور!.. فإن كنتم تطلبون السلامة، فهى فيما أستحثكم له ، ونحن كلنا فى قارب واحد، ومصيرنا لا يتجزأ، وسأكون مقاتلاً معكم، وفى يدى هذا السوط ألهب به ظهوركم إذا تقاعستم، فكونوا - كما أريد- شجعانا، وأقبلوا على الموت لتظفروا بالحياة، يا أبناء النيل!..

وكانت عجلات "الحيثيين" تقترب منا ، فألقى "حورمحب" نظرة ناحيتها ثم التفت إلى الجنود المأخوذين ، وقال لهم رافعًا يديه: ها هم أولاء أصدقاؤنا "الحيثيون" فى طريقهم إلينا. وإنى أحمد آلهة "مصر" على ذلك، فاذهبوا - إذن - يا أرانب الوادى، وليأخذ كل منكم المكان المرسوم له، فلا يبرح إلا بأمر يصدر إليه ولا يأخذنكم روع ولا فزع، فإنما تحاربون فى سبيل آلهة "مصر"، وفى سبيل الأرض السوداء، وفى سبيل زوجاتكم وأطفالكم!.. هيا، عجلوا، قبل أن تصل عجلاتهم إلى المتاريس !.. فبذلك ستنتهى الحرب قبل أن تبدأ!..

وتراكض الجنود على الأثر إلى المتاريس وهم يتصايحون صيحات الحماسة، و"حورمحب" يتبعهم فى اتئاد، وبقيت أنا جالسًا على منحرف من التل ، لأرصد المعركة من مكان أكثر أمنًا، فإن حياتى أغلى من أن تعرض على الموت عرضًا سافراً!.. وحيث يوجد الطبيب فى ميدان القتال ، يجب أن تحاط حياته بالأمن والحفاظ!..

وغير بعيد ، شوهدت عجلات العدو تخب وتضع خلال الأرض المنبسطة، متجهة إلى سفوح التلال فى نظام حربى دقيق ترفرف عليها أعلام متعددة الألوان ، وأشعة الشمس تنعكس عليها فتزيدها وضوحًا ، وكانت تترادف فى مجموعات تبلغ الواحدة

منها عشرا. وقد أحصيتها على قدر ما وصل إليه نظرى ، فكانت نحو ستين مجموعة ، من بينها، وفي مركز الوسط عجلات ثقيلة تجر الواحدة منها ثلاثة خيول يقودها ثلاثة رجال، وهى فى تسيارها، على ما رأينا من تجمع وترابط وترسل، كانت تمثل قوة هجوم عتيدة، مما جعلنى أشك فى قدرة "حورمحب" على مواجهتها!..

وعندما لم يبق بيننا إلا مسافة قريبة، رأينا جياداً تنفلت فى صفوفها فرادى، وتنبعث مسرعة إلى المقدمة. وقد خيل إلى أنها وحدها، من غير فرسان يمتطونها ، إذ كانت سروجها تبدو خالية. فأدهشنى أنهم يتركونها هكذا كما لو كانت تزيد على حاجتهم، أو كما لو كانوا يريدون التخلص منها!.. ولكنها كانت تنطلق فى إحكام إلى وجهة واحدة فى غير تشعث ولا اضطراب ، فدققت النظر فيها ، فرأيت فرسانها قد انطووا فى سرجها والتصقوا بها، وهم يستحثونها غمزاً بالمهامز، وفى سرعة البرق الخاطف اندفعوا بها على حبالنا التى تشد أوتاد المتاريس، ليقطعوها . بالسرعة نفسها، كانت هذه الجياد تقفز من فوق الخنادق، ويقذف راكبوها حرابهم على الأرض قذفًا قويا مرتبًا يركزها فيها تركيزًا رأسيًا. وفى طرف كل منها علم من أعلامهم ، ثم قفلوا مرتدين من فورهم إلى مواضعهم الأولى خلف العجلات، تاركين وراءهم عددا من الرجال لم تخطئهم سهامنا، وعددا من الخيول أردتها حرابنا!.. ودلف "حورمحب" معجلاً إلى المتاريس بمفرده، وانتزع إحدى الحراب المركوزة فى الأرض وألقى بها بعيداً وحذا حذوه الجنود، فانتزعوا بقيتها. ولقد كنت أول الأمر لا أفطن إلا الغرض الذى أراده "الحيثيون" بهذه الحركة الخاطفة، ولكن "حورمحب" فطن له من الوهلة الأولى ، فهم إنما أرادوا برشق الحراب بالأرض وعليها أعلامها، أن تكون علامات هادية تدلهم على مواقع الخطر من جانبنا ليتقوها. ولو تحقق ما أرادوا لتمت لهم الغلبة علينا على الأرجح، فقد كنا دون عجلاتهم قوة، ولكن "حورمحب" أطاش بذكائه تدبيرهم، وراح يشرف بنفسه على ترتيب رجاله وتنسيق قواته، استعداداً للإيقاع بالأعداء الذين أخذت عجلاتهم تتدافع على متاريسنا فى تبادر وإسراع.

وانصبت قواتهم على مواقع التحصين، فترامت عليهم سهام رجالنا، وفقًا للخطة التي رسمها "حورمحب"، وكان الغبار المثار في جو المعركة كثيفًا بحيث لم أستطع في مكان الرصد الجانبي الذي أقف به ، أن أتتبع مجرى القتال، ولكني مع ذلك رأيت جيادًا من خيول "الحيثيين" تتهاوى أمام المتاريس، وعجلات من عجلاتهم الخفيفة تتعثر في الأحجار ثم تنقلب على جوانبها، كما رأيت بعض سائقيها يفلتون منها بمهارة قبل انقلابها، واتضح أخيرًا أنها تمكنت في نقطة أو نقطتين من الوصول إلى صفوفنا برغم جسامة الخسارة التي منيت بها، على أنها اضطرت أن تتوقف وتتجمع ويهبط منها رجالها الاحتياطيون، وقد أخذ هؤلاء في تنحية الأحجار وإخلاء الطريق منها أمام العجلات الثقيلة التي كانت ترابط من قريب انتظارًا لإشارة التحرك!..

وكان خليقًا بهذا الهجوم الذي يتميز بقوة الأعداء وبسالتهم أن يثير في جنودنا الشعور بالهزيمة ، وبخاصة في غير المدربين منهم، وكانوا هم الكثرة التي يرصدها "حورمحب" لهذه المعركة ، ولكن هؤلاء الذين لم يجد "حورمحب" وصفًا يليق سوى تسميتهم بأرانب، كانوا أثبت جنانا وأقوى شكيمة، إذ رأوا عجلات الأعداء تنقلب وتتوقف، وخيولهم تتساقط في الخنادق والحفر، ورجالهم يتهاوون صرعى، وخسائرهم تفدح وتزداد ، فشعر رجالنا هؤلاء أنهم الأقوى جانبًا، وأغراهم ذلك بأعدائهم، فانصبوا، في هياج وبكل ما فيهم من قوة، على العجلات الحربية التي كانت تتأهب لمتابعة الهجوم، وراحوا يطعنون سائقيها بالرماح، وينتزعونهم من مقاعدهم فيها ويلقونهم جرحى على الأرض، وينهالون على خيولهم فيقطعون أوصالها، ويرمي رماتهم السهام في صدور الجنود الذين كانوا يعملون في إزاحة الأحجار. وقد تركهم "حور محب" يفعلون هذا راضيًا دون أن يخشى مغبة هذه الملحمة الجامحة، فقد كانوا أكثر عددًا، وكانت ضرباتهم مسددة، واستطاعوا في النهاية أن يظهروا على أعدائهم، ويأسروا عددًا كبيرًا من عجلاتهم!..

وعجل "الحيثيون ، الذين نجوا، بالانسحاب على عجلاتهم الخفيفة، بعد أن ظنوا أنهم قد فرغوا، بالرغم من وابل السهام والحراب، من تمهيد الطريق للقوات الثقيلة،

فتهلل رجال "حورمحب" وتصايحوا فرحين ، لاعتقادهم أنهم قد ألحقوا بالحيثيين الهزيمة التى لا قيام لهم بعدها ولم يشأ "حورمحب" أن يصارحهم بأن لهذه المعركة ما وراءها، وأن ثمة معركة أخرى أشد هولاً عندما يهجم الأعداء بعجلاتهم الثقيلة. فقد آثر أن يدعهم إلى ما هم فيه من الزهو والمفاخرة بما يحسبونه نصرًا حاسمًا!..

على أن "حورمحب" كان في الوقت نفسه مطمئنًا إلى أن النصر الحاسم لن يتخلى عنه في هذا الميدان من الصحراء ، فهناك في مواضع أخرى ، عند مؤخرة قواته، خنادق أكبر مساحة وأكثر عمقًا، احتفرها رجاله وأخفيت تحت أغصان الأشجار وفروعها الكثيفة، لم يهتد إليها "الحيثيون" ولم تقترب منها عجلاتهم ، وقد عادوا وهم يعتقدون أن ليس يوجد من التحصينات سوى هذه التى اكتشفوها ومهدوا الطريق إليها..

ومرة أخرى ، أمر "حورمحب" رجاله بإعادة وضع الأحجار فى مواضعها، والتجهيز بالرماح والاستعداد لمقابلة "الحيثيين"، ثم عين لهم مواقف جديدة يثبتون فيها على جانبى الطريق، حتى لا تدهمهم، جملة ، مناجل العجلات الثقيلة التى يعتقد أنهم عائدون بها إليهم!..

وما أن انجابت سحب الغبار بعد قليل، حتى تراءت هذه العجلات الثقيلة مقبلة فى زحف سريع ، وكان لها ، في اقترابها منا ، جلجلة ودوى كقصف الرعد، وكانت مشدودة إلى خيول ضخمة وثيقة الأجسام عالية الصهوات، غطيت رءوسها بصفائح من المعدن، وأسدلت على جوانبها جلال من الصوف السميك، وركبت فى أقنعتها مدى صغيرة متقنة الشحذ ، مما لم يره المصريون من قبل!..

كانت هذه العجلات لقوتها وضخامتها تسحق فى طريقها الأحجار والصخور وتجتاز، فى غير ارتجاف أو انحراف، كل ما يصادفها من أنجاد الطريق وأغواره وعقباته مهما تكن، حتى لتبدو فى هجومها على هذه الصورة كأنها الوحوش الضارية ، واحتشدت على الطريق متكالبة على فرائسها فى نهم ثائر!..

ورأى "حورمحب" أنه لا قبل لرجاله بملاقاتها، فإن مناجلها لا شك ستحصدهم كما تحصد المناجل أعواد القمح!.. فأصدر أمره إليهم بالانسحاب من الأرض المنبسطة والارتداد إلى منحدرات التلال التي كانت تستشرف صعيد المعركة من الجانبين، وهنا أطلق "الحيثيون" صيحة الحرب مدوية، وانقضوا إلى الأمام انقضاض الصواعق، مثيرين خلفهم وحواليهم سحبًا كثيفة من الغبار. وعندئذ غشيتني غاشية من الرعب الشديد، فدفنت وجهي بين يدي حتى لا أرى هذا الهول الفظيع، وغلبني الروع فبكيت بكاء حارًا، بكيت على "مصر" التي سوف تلاقي على أيدي "الحيثيين" عذاب الهون، وبكيت على مصير المملكة السفلى التي كانت خالية من التحصين وأجهزة الدفاع، وبكيت على جميع هؤلاء الذين سيتخطفهم الموت ويحيق بهم الهلاك، لا لشيء سوى جنون "حورمحب" وعناده!.. ولكني لم أكد أسترسل في جزعي وبكائي حتى ترامت على سمعي من ناحية الأعداء صيحات الرعب والذعر، فرفعت وجهي لأرى الأمر قد تبدل فجأة : فها هي عجلات "الحيثيين" قد مادت الأرض من تحتها ، وها هي حفرة ضخمة واسعة ممتدة بعرض الوادي كله من تل إلى تل ، تتلقفها وتبتلع عشرات منها وها هم "الحيثيون" تأخذهم المفاجأة فيصرخون وتتفرق قواتهم!.. حقًا إنه لشيء هائل عظيم ، لم يكن يخطر بالبال، ببالي أنا على الأقل!..

ولقد كان من الممكن ، وقد رأى "الحيثيون" عجلاتهم تتساقط دراكًا في المقبرة التي أعدها "حورمحب" وغطاها بفروع الأشجار ، كان من الممكن أن يقوموا بحركة عكسية ، فيتراجعوا خلال التحصينات التي اخترقوها في بادئ الأمر، ويجردوا نصف قواتهم على صفوف "المصريين" فقد كان ذلك كافيًا ليشغلوهم إلى أن يستديروا لهم ويحيطون بهم ولكنهم – استكبارًا على الهزيمة التي لم يتعودوها – أمسكوا عن التراجع، وأوقفوا عجلاتهم الباقية عند المنحدر، وراحوا يتفحصون الميدان ويتلمسون الوسيلة إلى مجاوزة الحفرة الكبيرة ، ويحاولون إنقاذ المتردين فيها من زملائهم ، فأعطوا بذلك فرصة "لحورمحب" ليعاجلهم قبل أن يفيقوا تمامًا من غشية المفاجأة ، فأمر بالنفخ في الأبواق معلنًا لرجاله أن خطته البارعة أوقعت "بالحيثيين" وأوقفت

هجوم عجلاتهم التى أصبحت عاجزة تماماً فلم يبق إلا الإجهاز عليهم، ثم أنفذ بعض الرماة إلى أعلى المنحدر لاصطيادهم رمياً بالسهام، وعهد إلى آخرين بأن يثيروا غبار الأرض بالعصى وفروع الشجر ، ليحقق بذلك غرضين معًا : الأول أن يعمى على "الحيثيين" فلا يرون شيئًا مما يجرى، والثانى: أن يخفى عن رجاله منظر عجلات العدو التى تفادت الوقوع فى الحفرة، وما تزال على حالها صالحة للحرب. وكذلك أمر بإلقاء الأحجار من فوق المنحدر لسد الثغرات التى وقعت فى بعض التحصينات ، وكان من نتائج هذه الحركة السريعة أن حصرت العجلات الناجية بين الحفرة الكبيرة والتحصينات الصخرية المكينة ، وأصبحت جميعها فى قبضة يد "حورمحب"!..

كان هذا يجرى فى الوقت الذى كانت فرق العدو الخفيفة تقف بمبعدة ، وهى آمنة ، فالجنود منصرفون إلى إصلاح إطارات العجلات، والخيول مسرحة للارتواء من الماء، وكلما انعقد الغبار فى الجو بين التلال الصغيرة ، وتعالى الصياح والصراخ ورنين الأسلحة، ظنوا أن قواتهم الثقيلة الأمامية تفتك "بالمصريين" وتطاردهم مطاردة الفيران الهاربة!..

وتحت ستار الغبار ، فى غمار هذا الظن ، كان "المصريون" يتابعون قطع الأحجار وإلقاءها من عل على العجلات وقادتها ، وكانوا - أى المصريون - يحذقون هذه العملية لطول مرانهم وخبرتهم فيها بالمحاجر المصرية!..

وضاقت صدور "الحيثيين" لهذا الغبار الذى لم تنقشع سحبه، وأقلقهم الوقت الذى طال دون أن يتبينوا المعركة على حقيقتها، وزادهم قلقًا أن سهام الرماة "المصريين" ، أصابت كثيرين منهم وهم وقوف فى أماكنهم ، فتوجسوا من وراء هذا شراً ، وصاح ضباطهم آمرين بالنفخ فى الأبواق ، ليتجمعوا ويرتدوا إلى السهول، ليعيدوا فيها تنظيم قواتهم، ولكنهم عند ارتدادهم منسحبين من الطريق نفسه الذى كانوا قد أقبلوا منه فى أول الهجوم ، كان الغبار المتكاثف قد ألقى ضباباً لم يتبينوا خلاله الفخاخ التى أقامها رجال "حورمحب"، فتعثرت عجلاتهم وانقلبت بين الصخور ،

وفرض الموقف عليهم أن يترجلوا منها ليقاتلوا وقوفًا على أقدامهم وهو ما لم يكونوا مدربين عليه، فقد اعتادوا القتال من فوق العجلات ، ولهذا لم يثبتوا طويلاً أمام رجال "حورمحب" على شدة ما أبلوا في قتالهم!..

وانكشفت المعركة في إقبال الليل، عن استسلام من بقي حيًا من "الحيثيين" ، وقد أمر "حورمحب" ، فكبلوا في الأغلال ، وتهافت عليهم الجنود "المصريون" غير المدربين أو فئران مستنقعات النيل كما يسميهم "حورمحب"، فأخذوا يطيلون النظر فيهم ويضعون أصابعهم على جراحهم كما لو كان يساورهم الشك في أنهم قد أصيبوا!.. ثم ينزعون من خوذاتهم وملابسهم صور المناجل ذات الرأسين والشموس ذات الأجنحة، وهي رموز آلهة "الحيثيين"!..

ونظر الجنود المصريون في مسرح المعركة، بعد انقشاع السحب فارتاعوا وكادوا لا يصدقون أعينهم، فقد كان قتلاهم أكثر عدداً من قتلى الأعداء، وكانت خسارتهم فوق ما كانوا يقدرون، ولكنهم عادوا راضين عن النتيجة، لأنهم نجوا من الموت، وقال بعضهم لبعض: لقد كان يومًا عصيبًا حقًا ، ولكن من حسن حظنا أننا لم نر شيئًا أثناء المعركة، لو أننا كنا قد رأينا بعض هذا الذي نراه الآن ، لطارت قلوبنا فزعًا من بين جوانحنا، ولما أتيح لنا أن نكون ، في هذه المعركة غير المتكافئة، أسوداً بواسل!..

وأمر "حورمحب" فوزعت الجعة والنبيذ على رجاله ، وأذن لهم في أن يجردوا القتلى ، الحيثيين والمصريين على السواء ، من كل ما يجدونه معهم من مال أو متاع، وأباحه لهم غنيمة حرب، وأضاف إلى قواته - مغتبطًا - الغنيمة الكبرى، وهي العجلات الحربية الثقيلة التي وقعت في أسره بخيولها ومحركاتها القوية ، دون أن تصاب بأي عطب!.. وأنفذ في الليلة نفسها أمرًا إلى جنود الفرق الحرة الرابضين على الجناحين، لينتظم الشجعان منهم في فرق العجلات ، إذ كان رجال الصحراء أوفر مقدرة وخبرة من المصريين في قيادتها، فأقبلوا سراعًا فرحين بهذه العجلات الضخمة ذات الخيول الرائعة!..

وانصرفت أنا بكل جهدى إلى العناية بجرحى المعركة ، أضمد جراحهم، وأجبر كسور عظامهم وأنظف رءوسهم التى هشمتها هراوات "الحيثيين"، وقد عاوننى كثيرون فى عملى هذا الذى ظل ثلاثة أيام بلياليها، وعلى الرغم من ذلك قضى عدد غير قليل منهم نحبه لشدة إصاباتهم!..

وفى اليومين الثانى والثالث ، قام "الحيثيون" بهجوم آخر بعجلاتهم الخفية محاولين استرداد عجلاتهم المأسورة غير مبالين بما سيلقونه فى سبيل اختراق التحصينات التى كانت سبب هزيمتهم، فقد كان ذلك عليهم أهون من عودتهم إلى قائدهم الأعلى فى "سوريا"، وليس معهم إلا أنباء الهزيمة وخسارة العجلات الكبرى التى هى أقوى دعائم قتالهم!..

على أن "حورمحب" لم يقنع بملاقاة هجومهم ملاقاة دفاع ، أو أن يرقبهم من كثب حتى يصطدموا بالتحصينات ثم يفجؤهم برجاله تحت ستار الغبار كما حدث فى المرة الأولى، بل إنه آثر أن يلاقيهم فى هذه المرة مهاجمًا فأمر بإزاحة التحصينات لإخلاء الطريق أمام رجاله وأعطى إشارة الهجوم بالعجلات الثقيلة التى اقتنصها من "الحيثيين"، ومن ثم وقع الاشتباك بين الفريقين، وكانت ملحمة قاسية تكبدنا فيها خسارة كبيرة ، إذ كان المقاتلون من الأعداء أسرع حركة وأكثر مرانًا على حرب العجلات!..

وقال لى "حورمحب" وأنا ألهث لفرط ما نالنى من الجهد فى أعمال الإسعاف وتضميد الجراح: يبدو أنه لم يكن من رأيك أن نخوض معهم المعركة على هذا النحو الذى فدحك منه ازدياد عدد المصابين!.. ولكن هذا كان أمرًا لا بد منه فى تقديراتى الحربية، ذلك أن هذه العجلات الثقيلة التى غنمناها كانت تحتاج من رجالنا مرانا على استخدامها، فمن الخير أن يقع هذا المران فى معركة يقبل العدو عليها متأثرًا بشعور الهزيمة، وخسارتنا اليوم ليست شيئًا ذا بال إذا قورنت بما كنا ملاقينه من خسائر لو أننا اشتبكنا مع هؤلاء الأعداء المهرة وهم على استعداد وقوة، ورباطة جأش!.. ولقد أدركت أخيرًا أنه من العسير أن يتحقق غزو "سوريا" بغير العجلات الحربية مزودة

برجالها الأشداء وخيولها المدربة. وقد نكون فى قتالنا وراء الخنادق قد استطعنا الوقوف بعض الوقت فى زوجه غزو "الحيثيين" لمصر، ولكن هذا لا يمكن أن يعطينا النصر عليهم آخر الأمر ، ومن هنا ينبغى أن ندبر أمر المعركة الحاسمة على أساليب أشد ملاءمة لواقع الحال!..

وكان "حورمحب" على حق فى نظره الأخير إلى مقتضيات حرب ينازل فيها أعداء ، ظهر بجلاء أنهم مجهزون بالعدد الوفير من العجلات القوية والمحاربين المهرة، وبخاصة أنه كان يقدر أنهم سيبعثون بالمشاة من جنودهم لملاقاته فى الصحراء، فيقعون فيما أعده لهم من خنادق وحصون فضلاً عن انعدام المياه التى كانوا قد اختزنوها، فوقعت بين يديه . ولكنهم ، على خلاف تقديره، احتفظوا بقواتهم فى "سوريا" فلم يرسلوا منها إلى الصحراء إلا نزرا من الطلائع، وظلوا مرابطين هناك انتظارا لقدوم قواته حيث ينقضون عليها انقضاض الكثرة المستعدة ، الكاملة الجهاز والعدة!..

ومهما يكن من أمر، فقد حدث أن أنباء هزيمة "الحيثيين" فى الصحراء قد بلغت "سوريا" وأحدثت فيها ضجة كبيرة ، وأثارت شعور الانتقاض على الغزاة، فهبت مدن كثيرة للثورة على "عزيرو" موصدة أبوابها فى وجهه، لكثرة ما عانى أهلها من شرور "الحيثيين"، وقد استشفوا فى أنباء هزيمتهم فى الصحراء علامات النصر للمصريين ، فطوع لهم ذلك أن يخرجوا من إطار الخوف والذعر الذى وضعهم فيه "الحيثيون"، طمعاً فى الخلاص، واستمالة لعطف "مصر" ورضائها!.. ورأى جواسيس "حورمحب" المنبعثون بينهم حقلاً خصباً فى هذه الأثناء، لترويج الشائعات ، والمبالغة فى هزيمة "الحيثيين" بالصحراء!..

وكان حور محب" لا يزال مشغول البال من ناحية "غزة" وموقفها من الحصار الذى إطال ، فهو لهذا يتابع رسائله إليها عن طريق جواسيسه، مستحثًا أهلها على الثبات فى الدفاع عنها، إذ كان أخوف ما يخيفه أن تنهار قوتها فتسقط فى أيدى "الحيثيين" وتسقط ، بسقوطها ، القاعدة الهامة التى يعلق عليها أكبر آماله، لوقوعها

على الساحل ولأنها المركز الطبيعى الفريد الذى سيتخذ منه مركزًا لعملياته الحربية فى سبيل استعادة "سوريا"!..

وفى الفترة التى أعقبت هزيمة "الحيثيين" وانسحابهم، أذن "حورمحب" لرجاله فى أن يستريحوا ويستجموا، وكانوا قد أجهدوا فى المعركة إجهادًا شديدًا ، وران عليهم شعور من اليأس والتخاذل بعد الذى شهدوه من شدة بأس "الحيثيين" وكثرة من ذهبوا ضحية الاشتباك معهم، فراح "حورمحب" يأخذهم بضروب من الإثارة والإغراء ، ناشرًا بينهم الكثير من الروايات عن الثراء الذى تطفح به مدن "سوريا"، وعن كاهنات "عشتروت" اللائى يقدمن أنفسهن متاعًا للشجعان من الجنود، إلى غير ذلك من القصص الشيق المثير!..

وذات مساء أقبل على المعسكر رجل غريب يرتدى لباسًا سوريًا ، وهو يلهث إعياء، وألقى بنفسه بين يدى الحراس ثم طلب منهم أن يذهبوا به فى الحال إلى "حورمحب"، فسخروا منه، ولكنهم دهشوا حين رأوا "حور محب" يستقبله ويخلو به فى خيمته!.. وقد حيا الرجل "حورمحب" منحنيًا انحناءة كبيرة ومادًا يديه إلى الأرض، وهى تحية ليست فى مألوف عادات السوريين الذين يرتدى هو لباسهم!.. ولما نهض مستقيمًا بين يديه، وضع يده على إحدى عينيه متظاهرًا بأنها تؤلمه، فسأله "حورمحب" عما إذا كانت حشرة طائرة قد أغارت على عينه؟!.. فأجاب : نعم، فهناك فى "سوريا" مئات ومئات من الحشرات الطائرة وكلها سامة وقاتلة!..

وكنت موجودًا فى ذاك الوقت بخيمة "حور محب" أرى هذا اللقاء وأستمع إلى هذه المقدمة البادية السخف، وخشى "حور محب" أن يحترس منى الرجل ويمسكه التحفظ عن الاسترسال فى الحديث بالوضوح والصراحة ، فقال له وهو يشير إلى : إنه طبيب محدود الذكاء، لا يفطن لشىء مما نحن فيه، فلا تخشه وقل ما شئت حرًا..

قال الرجل : يا مولاى "حور محب"، إن التبن جاهز!..

ولم يزد الرجل على ذلك كلمة أخرى!.. وهنا أدركت أنه أحد جواسيس "حورمحب".

وغادر "حورمحب" خيمته من فوره، وأمر بإشعال النار فى أعلى قمم التلال، على سلسلة ممتدة من موقع المعسكر إلى مصر السفلى ، فالتهبت هذه السلسلة فى لحظات قصيرة بالمشاعل النارية التى كانت فى الوقت نفسه أمراً صادراً إلى "تانيس" ليتحرك الأسطول المصرى مبحراً إلى "غزة" ليعمل هناك متعاوناً مع الأسطول السورى!..

وفى صباح اليوم التالى، نفخ فى الأبواق إعلاناً لأمر "حورمحب" بمسير الجيش إلى "سوريا"، فانطلقت قواته متلاحقة وعلى رأسها العجلات الحربية كقوة حرس أمامية، وكان عليها أن تبيد الأعداء الذين قد يلمون بالطريق، وأن تختار المكان الذى يحط به الجيش للراحة كلما احتاج إلى ذلك!..

وكان الجنود يتدافعون فى هذه الرحلة فرحين ، تحدوهم الرغبة الشديدة فيما كانوا يمنون أنفسهم به من ثراء "سوريا"، وكاهنات "عشتروت" الجميلات!..

وأخذت أنا مكانى على المحفة فى أثر الجيش . وتركنا خلفنا، تلك التلال تفيض فيها ذكريات انتصارنا، وتثوى فى جنباتها عظام القتلى من المصريين" و"الحيثيين" على السواء!.. لقد رقدوا فى ثرى ذلك الوادى الهادئ، جنباً إلى جنب، حيث الطمأنينة الأبدية والسلام الخالد!..

- ٣ -

هأنذا قد بلغت من مذكراتى باب الحديث عن حرب "سوريا" على أرضها، ولعلى لا أجد فيما أحاول أن أكتبه عن هذه الحرب جديداً يزيد على معلوماتى العامة فى غيرها من حروب، وهى معلومات محدودة بقدر ما يتسع له إدراكى، أنا ذلك الرجل غير المحارب. فكل المعارك فى نظرى متشابهة النتائج، تنشب على صور مختلفة

ولكنها دائمًا تنتهى إلى نتيجة قلما تختلف، فالمدن المحترقة والمنازل المنهوبة والنساء النادبات والأجساد الممزقة ومناظر الموت والخراب فى كل مكان، هى فى سائر الأحوال النتيجة التى لا يشهد الإنسان سواها فى أى ساحة من سوح القتال، وهكذا كانت الحرب فى "سوريا"!..

لقد كانت حربًا زاخرة بالأحداث المروعة ومن حقها التسجيل لارتباطها بحياتى ارتباطًا وثيقًا، ولكنى لو رحت أتحدث عن معاركها، معركة بعد معركة، فالحديث عنها يطول ولا يخلو من الإملال. ومع ذلك ، لا بد من تعقبها وذكر أحداثها ، فلأحاول ذلك فى حدود قدرتى على القصد والإيجاز!..

إنها كانت على الإجمال حربًا مدمرة، حالكة السواد، قست فيها القلوب حتى لكأنها الحجارة أو أشد قسوة، وقد ظلت مستعرة الأوار ثلاث سنين تباعًا، فتك الموت خلالها بالكثيرين، وشاع الخراب والدمار فى القرى والمدن ، والمزارع والحدائق، حتى أمست قاعًا صفصفًا لا تنبض فيها حياة!..

و"حورمحب"، هذا القائد الحاذق الداهية، كان يمسك بزمامها جرىء القلب مقدامًا، ويخوض عبابها غير هياب ولا وجل ، وقد استطاع بهذا أن يجتاز الصعاب والمآزق ويحقق النصر العتيد الذى كان يبدو بعيد المنال !.. وعندما استشرق فى زحفه حدود "سوريا" أمر رجاله فأزاحوا الأحجار التى أقامها هناك "عزيرو" سمح لهم أن ينهبوا القرى ويغشوا نساءها، حتى إذا قضوا أوطارهم واستشعروا بذلك لذة النصر، مضى بهم مصعدين إلى "غزة" ورأى الحيثيون" الخطر مقبلاً عليهم فأسرعوا إلى تعبئة قواتهم بالسهول القريبة من المدينة ، ليقطعوا الطريق على قوات "حورمحب" وفى ظنهم أنهم ظافرون بها، إذ كانت السهول هى مسرح القتال الملائم لعجلاتهم القوية، ولكن الشتاء كان قد حل وقتئذ، وامتنع عليهم تسريح خيولهم فى المراعى ، فاشتروا كميات كبيرة من التبن الذى يبيعه لهم التجار السوريون وقدموه لها علفا، وقد حدث أنها – بعد ما تناولته – أصيبت بالاسترخاء، وراثت ما فى بطونها لينا أخضر اللون، واختل ميزان سيرها فكانت تميل وتتعثر، وكثير منها نفق قبل أن تبدأ المعركة، وبذلك فقد

"الحيثيون" ميزة تفوقهم فى العجلات التى كانوا يعولون عليها تعويلاً كبيراً ، وقابلهم "حورمحب" أوفر قوة واستعداداً ، وتمت له الغلبة على عجلاتهم ومشاتهم معًا ، فولوا الأدبار تاركين في الميدان عدداً كبيراً من القتلى والخيول النافقة. ولكثرة ضحايا هذه المعركة من الفريقين سمي هذا الميدان بعد ذلك باسم "ميدان العظام"!..

وكان أول ما فعله "حورمحب" حينما اقتحم معسكر الا عداء ، أن أمر بإحراق كل ما فى مخازن مؤنة الخيل من التبن، حتى لا تتناول خيوله شيئًا منه، إذ كان مخلوطًا بأعشاب سامة ، وكانت هى سبب ما حاق بخيول "الحيثيين" ولم أدر وقتها كيف عرف "حور محب" هذه الحقيقة الخافية"..

وبهذا الانتصار الذى أعان عليه ذلك السر الخفى ، هاجم "حورمحب" قوات الحيثيين" على أسوار "غزة" فبطش بها وفرق جمعها وألحق بها خسائر فادحة، وفتحت أمامه أبواب المدينة التى ظلت محصورة زمنًا طويلا، وكان ذلك يومًا عظيمًا فى تاريخ "مصر" وقد مجده المصريون" بعد ذلك، إذ صاروا يحتفلون بذكراه عندما يحين موعده فى كل عام ولوقوعه فى فصل الشتاء كان يدعى يوم "سيخمت". ومن مظاهر الاحتفال به أن الأطفال كانوا يقومون بتمثيل حصار "غزة" ويستعملون فى معركتها المتخيلة، هراوات من الخشب ورماحًا من أعواد الغاب!..

والواقع أنه لم يحدث من قبل أن دوفع عن مدينة من المدن بمثل هذه البطولة التى استحق عليها قائد المدينة كل التقدير والإعجاب. وإنى لأذكر اليوم اسم ذلك القائد فى إكبار ، على الرغم من سوء استقباله لى حينما وفدت عليه قبل ذلك، حيث لم يأذن فى دخولى إلى المدينة إلا محمولاً من الأرض إلى أعلى الأسوار فى سلة!.. إن اسمه "روجو"، وكان رجاله ينادونه باسم "عنق الثور" ، وهو اسم ينطبق عليه تمامًا ، فلقد كان به من طبيعة الثيران الجامحة، قسوة العناد وشدة الارتياب!..

وقد بلغ من إفراطه فى العناد والريبة أنه ، بعد أن فك الحصار عن المدينة ودوى صوت النفير معلنًا ذلك، لم يسمح بدخولها إلا "لحورمحب" وحده، ليتحقق من أنه هو بشخصه، وليس سوريًا متنكرًا!.. وكان له عذره فى هذا الحذر الشديد ، فقد لقى

الكثير من مناورات "الحيثيين" وخدعهم، فوق ما كانت تلقاه المدينة دراكًا من قذائفهم الملتهبة التى كانت تصب الموت على جنود الحامية!..

ولقد دخلنا المدينة بعد هذا ، فوجدنا القليلين من أهلها هم الذين لا يزالون على قيد الحياة، وكان أكثر هؤلاء الأحياء من النسوة العجائز والرجال المنهوكى القوى، لشدة ما نالهم من الجهد والجوع، وكانوا يزحفون تحت المنازل المهدمة كالأشباح السارية فى الظلام. وقد اختلط الأمر على هؤلاء حين وقعت عيونهم على الجنود المصريين وهم يدخلون المدينة من أبوابها، فتجهموا لهم ولوح النسوة بقبضات الأيدى فى وجوههم، استنكاراً ، وبدا كأن الجميع يلعنوننا!..

وأمر "حور محب" بتوزيع الحبوب والجعة على هؤلاء ، فتهافتوا عليها تهافت الجياع على القصاع، وأصابوا منها أكثر مما تتحمل بطونهم فمات منهم كثيرون متخمين، فقد كانوا منذ شهور يعانون من الجوع الشديد!..

وليس فى مقدورى وصف الحال التى شهدت المدينة عليها يومئذ، فهناك رأينا جلوداً معلقة على الحيطان، هى بقايا جثث آدمية انصهرت فى حرارة الشمس، ولم يبق من جماجمها إلا كرات سوداء انتخلتها مناقير الطيور الجارحة، وهنا وهناك رأينا الخرائب قد أصارتها النيران تراباً فى لون الفحم الأسود، والحيوانات النافقة تملأ الأزقة وتسد مسالك الطرقات وحولها أكوام من الأقذار تنبعث من عفنها ريح تزكم الأنوف، هى ريح الأوبئة والموت!..

ذلك بعض حال المدينة يوم دخلناها، وكان بودى لو استطعت أن أصورها تصويراً معبراً عن الحقيقة الكاملة التى أسيت لها أشد الأسى فى لحظات انتصارنا ، على أنى أعتقد أن هذا القليل الذى ذكرته منها يكفى ، فى بشاعته، للدلالة على ضخامة القوة التى كنا ننازلها، وعلى فداحة المعركة التى خضنا غمارها، وهذا من شأنه أن يضفى على الانتصار الذى كسبه جيش "مصر" قوة ومجداً!..

وعلى سبيل المكافأة والتقدير، أعطى "حورمحب" لكل من بقى حيًا من جنود "غزة" سلسلة ذهبية ، ولم يكلفه ذلك كثيراً، فلم يكن باقيًا على قيد الحياة من هؤلاء أكثر من مئتى رجل!.. وكان عجيبًا أن هذه الحامية على قلة عددها استطاعت الصمود فى وجه الكثرة الكاثرة من أعداء أقوياء موفورى العدة!..

أما "روجو" ، أو "عنق الثور" كما يسمونه، فقد أعطاه "حورمحب" عقداً من الأحجار الكريمة الخضراء، مثبتة فى الذهب والعاج، وسوطًا مضفراً بالذهب...

وقد كان لهذه الأعطيات أجمل الأثر فى الجنود ، فراحوا يهتفون فى حماسة وإعجاب بحياة "حورمحب" الرجل الذى أنقذ "غزة"!..

وكان "روجو" لا يزال خلال ذلك يقلب العقد بين يديه ، حتى إذ هدأت أصوات الهتاف ، نظر إلى "حورمحب" وقال له بلهجة المستريب الحذر : أتراني يا "حورمحب" حصانًا حتى تزين عنقى بهذا اللجام الذهبى؟! وما هذه التوشية على هذا السوط المضفر؟! أهى حقًا من الذهب الخالص، أم تراها تمويهات من الذهب السورى الزائف؟!

وقبل أن يجيب "حورمحب" ، استطرد "روجو" قائلاً : وما أرى إلا أن تخرج برجالك من المدينة ، فإن كثرتهم هنا تشتت أفكارى، وتقض مضجعى، وفى وجودهم لا يغمض لى جفن ، مع أنى كنت أستوفى حاجتى من النوم حينما كانت الكباش الخشبية تدق أبواب المدينة وأزيز المفرقعات النارية يغمر جوها !.. أخرج برجالك أيها الرجل منذ الساعة، فإننى هنا فى "غزة" كفرعون فى "مصر" فإن لم تفعل فإنى آمر رجالى أن يطبقوا على رجالك ويذبحوهم لأتخلص من ضجيجهم، ليعود النوم الشارد إلى عينى المسهدتين!..

أطلق "روجو" هذه الكلمات فى عصبية وانفعال ، وكان ظاهراً أنه لم يكن يعى ما يقول لطول ما عانى من الحصار المضنى الذى اعتصر قواه،وقد طفحت عليه آثار هذا العناء الطويل منذ الوقت الذى انتهى فيه الحصار فاستيقظت حواسه وانفعلت

مشاعره وفارقه النوم على شدة حاجته إليه ، ولم تفلح المخدرات والنبيذ فى هدهدته وتهدئة أعصابه المستوفزة، وكان كلما استلقى على فراشه احتشدت فى رأسه ذكريات الحصار ، وسيطرت عليه مآسيه، وظل هكذا مؤرقًا حتى ساءت حاله واضطربت أفكاره!..

وفى لحظة من لحظات صحوه وهدوئه ، اقترب من "حورمحب" وقال له فى تواضع : إنك سيدى وصاحب الأمر المطاع ، ومن حقك أن تعاقبنى على ما ضاع من أشياء عهد بها إلى "فرعون"، وأرانى مسئولاً عنها أمامه!.. ولكن ماذا عسى كنت أفعل ؟!. إن جميع أوراقى ذهبت طعامًا للنار التى كان "الحيثيون" يقذفوننا بها فى جرارهم الملأى بالقار المشتعل !.. ومع أن ذاكرتى قد ضعفت لحرمانى من الراحة والنوم وقتًا طويلاً ، فإنى أتذكر كل الأشياء وأعرف سبب المفقود منها، ولكن شيئًا واحداً أفتقده دون أن أعرف السبب، وهذا هو الذى يحيرنى ويقلقنى، ذلك أن أربعمئة من براذع الحمير قد اختفت، وبحثت عنها فى كل مكان على غير جدوى ، وأمناء المخازن كذلك قد عجزوا عن معرفة سبب اختفائها، وقد ألهبت ظهورهم وأرجلهم بالسياط حتى أصبحوا لا يستطيعون الجلوس أو السير على أقدامهم !.. فنبئنى - بحق الآلهة - يا "حورمحب" أين توجد تلك البرادع ؟! إننا لم نستعملها لأننا أكلنا الحمير منذ أمد بعيد.أليس اختفاؤها ، دون أن نعرف السبب، شيئًا فظيعًا يستحق العقاب؟! بحق "ست" وكل الشياطين، إلا ما أمرت بجلدى أمام الناس جميعًا فإنى لمسئول عنها أمام "فرعون" ، ولا أدرى كيف أستطيع مواجهة غضبه عندما أمثل بين يديه ، أنا القائد الذى أحال حمير المدينة طعامًا للجنود وأضاع برادعها؟!..

وعادت إليه عند ذلك ثورته العصبية، فتلطف له "حورمحب" وقال : ليس فى هذا ما تخشاه، وإنى لمعطيك بديلا من هذا القدر المفقود من البرادع!..

ولكنه زاد احتدادا وهياجًا وقال : لن أقبل هذا فإنك لتمكر بى وتقودنى إلى شر لا يفوتنى إدراكه !.. ذلك أنه سيكون واضحًا أن البرادع التى تعطينيها هى غير

البرادع المفقودة ، وستفشى أنت سرها عامداً عند "فرعون" لتنتقص من قدرى لديه، فأنت تحسدنى وتنفس على بطولتى ، بل تطمع فى مركزى كقائد لحامية "غزة"!.. كلا .. لن أقبل عرضك هذا الخادع!.. وسأعود إلى مواصلة البحث عن هذه البرادع المفقودة، وسأعثر عليها حتماً ، ولو اقتضانى ذلك هدم المدينة حجراً حجراً!..

ومن غير أيه مشاورة أمر "روجو" بإعدام أمين المخزن الذى يعتقد أنه المسئول عن هذه البرادع ، كما أمر رجاله بحفر أرض البرج بالفئوس بحثًا عنها!..

ورأى "حورمحب" أن خيال هذا الرجل قد استفحل، فأمر باعتقاله فى حجرته وعهد إلى بأن أتولى أمره ، فذهبت إليه، وبمساعدة رجال أشداء ربطته فى مخدعه، وسقيته شراباً مسكنًا ، ولكنه لم ينم ولم يهدأ وكانت عيناه تلمعان كعينى الحيوان المفترس ، واشتد به الهياج وهو يتقلب فى فراشه موثقًا ، وقال لى والزبد يخفق على شدقيه: ألست أنا حاكم "غزة" يا ثعلب "حورمحب"؟! إذن فاستمع إلى واصدع بما أمرك به!.. لقد تذكرت الآن أن هناك فى سجن القلعة جاسوساً سورياً ، كنت قد أسرته قبل أن يأتى سيدك "حورمحب" وقد أعجلتنى واجباتى وأعمالى الكثيرة عن شنقه!.. إنه رجل مخادع خبيث، ولست أشك فى أنه هو اللص الذى سرق برادع حميرنا الأربعمئة، فأحضره من فورك، لأقسره على الاعتراف بما يكتمه من أمر هذه السرقة ، أسرع به إلى أيها الثعلب، حتى أستطيع أن أذوق النوم أمنًا!..

وطال هذيانه عن هذا الجاسوس السورى إلى أن ضقت به ذرعاً ، فحملت مشعلا ونزلت إلى سجن القلعة حيث رأيت الجرذان تنهش فى أجساد أناس موتى ، وكان على السجن حارس عجوز أعمى، فسألته عن ذلك الجاسوس المزعوم الذى جيء به إلى السجن قبيل انتهاء الحصار، فأقسم أن السجناء جميعاً قد ماتوا، منذ زمن طويل ، بعد أن عذبوا عذاباً مريراً ، فى سبيل الإدلاء بما عندهم من معلومات !..

ولكنى لمعرفتى بطبائع البشر، ولما قد بدا من لهجة هذا الحارس ومسارعته إلى توكيد مقالته بالقسم ، داخلنى الشك فى صدقه، فضيقت الخناق عليه وتوعدته بالشر

إذا لم يصارحني بالحقيقة ، فلم يسعه إلا أن يجثو على الأرض في استخذاء ويقول : أبق على حياتي يا سيدي ، فلقد أفنيت عمري في خدمة "مصر" بإخلاص، وباسم "مصر" وفي سبيلها ، عذبت المساجين وسرقت غذاءهم، ولا أخفي عنك أن هذا الجاسوس الذي تريده موجود هنا حيث لا يزال حيًا ، وهو ليس شخصًا عاديًا . إنه يختلف عن كل الذين سيقوا إلى هذا السجن ، فكلامه غريب ، وله صفير عذب كالعندليب. وقد وعدني بالثراء إذا منحته الطعام وحفظت حياته إلى حين يقدم "حورمحب" على المدينة، فقد كان على يقين من قدومه. وأكثر ما شاقني منه واستمالني إليه أنه وعدني كذلك بإعادة بصري، إذ كان هو نفسه أعمى وأبرأه من العمى طبيب عظيم حيث أعاد إليه الأبصار قويًا في عين واحدة، وأكد لي أنه سيقدمني إلى هذا الطبيب العظيم ليردني بصيراً ، فيجتمع لي منه في آن واحد نعمتا البصر والثراء، وأعيش بذلك سعيداً طوال حياتي!.. وقد كان لكلامه في نفسي قوة السحر ، فصدقته وادخرته حيًا إلى أن يحين الوقت الذي يتحقق لي فيه الأمل الموعود. وقد بالغت في راحته وإكرامه، فقدمت له ما شاء من شهي الطعام وأصبح مدينًا لي حتى اليوم بمليونين من القطع الذهبية ثمنًا لهذا الطعام الشهي، ولم أشأ أن أنبهه إلى هذه الساعة بقدوم "حورمحب" طمعًا في زيادة دينه، فكلما طال مكثه هنا تضاعف حسابه ، وكان لي من ذلك ، القدر الذي يجعلني بحق من الأثرياء!.. وهو كلما لقيته يسألني متلهفًا عما إذا كان "حورمحب" قد اجتاز الأسوار ودخل المدينة، مؤكدًا أنه سيحرره من سجنه فور وصوله ، وأنه أكثر من هذا سيمنحه سلاسل ذهبية!.. على أني - كما قلت - أخفيت عنه نبأ وصول "حورمحب"، مرجئًا ذلك إلى أن يبلغ دينه ثلاثة ملايين من القطع الذهبية ، فإن هذا هو الرقم الذي لا يتحقق الثراء بما هو دونه!..

واعترتني رعدة عندما سمعت كلام هذا الحارس الأعمى ، فقد خيل إلى أنني أعرف ذلك الشخص الذي يتحدث عنه!.. ولكني تماسكت وقلت له: أيها الرجل العجوز!.. ليس في "مصر" كلها ولا في "سوريا" كذلك ، ذهب بالقدر الذي تذكره ، وما أرى إلا أن هذا الأسير خادع قد فتنك وأغراك ، ولقد أحسنت صنعًا على أية حال

بإبقائك على حياته، فإن ثمة أسراراً هامة سنعرف الآن كيف ننتزعها من صدره، فأحضره من فورك أمامي ، واحمد الآلهة إذ جعلتك غبياً، لتصدقه وتعنى بالحفاظ عليه حتى اليوم!..

فأخذ الرجل يبكي بمرارة ويدعو "آمون" أن يراعاه ويعينه، ثم قادني إلى حجرة صغيرة مستخفية خلف الحجرات الأخرى حيث الممر المؤدى إليها مغلق، إمعاناً فى إخفائها عن عيون رجال "روجو". وعندما أدنيت مشعلى من نافذتها الضيقة، رأيت بداخلها رجلاً سورياً في ملابس ممزقة، مربوطاً إلى الحائط بسلاسل من حديد، وقد اختلجت إحدى عينيه على ضوء المشعل ، أما الأخرى فكانت جامدة لا تتحرك لأنها عمياء!. وصاح الرجل حين لمح وجهي: أهذا أنت يا مولاى "سنوحى"؟! بورك هذا اليوم الذى يجمع بيننا بعد طول فراق!.. لا تقف يا سيدى هكذا مشدوهاً ، وهيا فادع الحدادين ليكسروا قيودى ويحررونى من أسرى!.. وآتنى ، دون إمهال ، جرة من النبيذ لعلها أن تنسينى الآلام الشداد التى عشت فيها معذباً!.. ومر العبيد ليأتونى بالمداهن المعطرة، ولن تجد منى أيه معارضة إذا أعددت لى فراشاً وثيراً ، فإنك لتعلم أننى قد تعودت الراحة والرفاهية، وحبذا لو جئتنى ببعض عذارى "عشتروت"، فإنى إلى الاستمتاع بهن لشديد الظمأ!.. ولا تخف، فسوف أكون كفؤاً لهن. فهذا قد ضمر وتخفف من الشحم والورم! ولا تحسبن هذا نتيجة الجوع. كلا، فقد استهلكت من الخبز في أيام معدودات ما قيمته مليونان من القطع الذهبية!.. وإن لم تصدقنى فسل الحارس الأمين الذى لا يكذب ولا يمين!..

وكانت مفاجأة لم تخطر لى على بال أن أرى "كابتاح" حياً ، وفى مثل هذا المكان النائى، وهو الذى كنت أحسبه في عداد الموتى!.. فاندفعت إليه ووضعت ذراعى على كتفيه اللذين أدماهما قرض الجرذان وقلت له فى دهشة بالغة: "كابتاح"!.. "كابتاح"!.. لقد أنبئت فى "طيبة" أنك لقد لقيت حتفك، ومع أن هذا لم يكن غريباً فى وقت كان الموت فيه كالمنجل الحاصد، لا يبقى ولا يذر ، فإنى شككت فى صحة النبأ

ذلك لأني أعتقد أنك عصي على الموت ، وفى وسعك دائمًا أن تجد الوسيلة للهرب منه، ولم أكن مخطئًا فى شكوكى، فهأنذا ألقاك اليوم حيًا إلى جوار الموت نفسه، موفور العافية بين الجثث المعفنة!.. وأعجب العجب أن يغفل عنك الموت هنا ومن حولك هؤلاء الذين قضى عليهم جميعًا بمرأى منك ومسمع ، على حين أنهم أرجح منك كفة فى ميزان الفضيلة وأقرب منك مكانًا إلى الآلهة!..

فقال "كابتاح": إنك يا سيدى "سنوحى" لا تزال ذلك الثرثار القديم.. فأنت تتحدث عن الآلهة كما لو كانت آثرتنى برعايتها دون الآخرين بغير حق ، وليس هذا صحيحاً، فما أكثر ما استنجدت بها خلال شقائى وتعاستى فلم أجد منها عونًا ولا استجابة . لقد تضرعت إلى سائر الآلهة، حتى آلهة "بابل" و"الحيثيين"، ولكنها كانت كلها سواء فى التخلى عنى!.. هذه هى الحقيقة، فإن كنت قد وافيتنى فى لحظة اليأس من الحياة لتنقذنى، فالفضل فى هذا إلى الجعران المقدس الذى احتفظت به لحسن حظى، مدسوسًا فى موضع دقيق من جسمى ، وهو موضع كنت أراه غير لائق بقداسته، ولكنه – فيما يبدو – قد استطاب المقام فيه، وآية ذلك أنه هداك إلى مكانى من حيث لم تكن تدرى، فهو وحده، ولا غيره، صاحب الفضل أولاً وأخيراً!.. وآه يا سيدى لو عرفت كم قاسيت من أهوال فى هذا السجن الموبوء!.. إن ذلك الحارس الجشع قد استنفد كل نقودى فيما كان يقدمه لى من طعام، ولم يكفه هذا فراح يثقلنى بما يزعمه من دين بلغ فى حسابه الملايين من القطع الذهبية، وأنا لا أنفك أداجيه وأطمعه فى المزيد ليصبح من الأثرياء!.. وكل هذا رضيت به لقاء أن أبقى بمبعدة من موت كان منى جد قريب، وتحملت صابراً فى سبيل ذلك ، العيش الدون والأسر الذليل ومعاشرة الحشرات، والجرذان وجثث الموتى!.. ولقد حاولت جاهداً أول الأمر أن أقنع قائد الحصن بأنى لست من عدوه، ولكنه كان رجلاً مجنونًا لم يفهم ما أقول ، فأمر رجاله بأن ينهبوا متاعى ويشتدوا فى تعذيبى ثم ألقانى فى هذا السجن لأموت به مثلما يموت غيرى من المعذبين!..

ودعوت الحدادين ، ففكوا قيوده ومضيت به إلى حجرتي بالقلعة وكان يخطو خطوا وئيداً متعثراً لفرط ضعفه، واضطراب عينه التي عشيت لطول مكثها بالظلام، وجئت له بالعبيد الذين غسلوه ودهنوا جسمه بالزيت المعطر، وألبسوه الملابس الكتانية الفاخرة، وقلدته ببعض السلاسل الذهبية وأعطيته كذلك بعض الحلي ليصبح متزيناً بها بين الناس، ويظهر فيهم كما لو كان صاحب مرتبة مرموقة، وقد بعث فيه هذا نشاطاً وحيوية فنهض ليحلق بنفسه ذقنه التي كساها الشعر ويمشط شعره الأشعث ويصلح من عامة شأنه، ثم أقبل على ما أعددت له من اللحوم والنبيذ يتناول منها في شراهة ونهم، حتى إذا شبع وانتشى راح يمرح في سرور وابتهاج!..

وبينما كان مسترسلاً في مرحه، كان حارس السجن على الباب يبكي ويلطم خديه ويصيح قائلاً: إن كابتاح" مدين لي بمليونين وثلاثمئة وخمسة وستين ألفاً من القطع الذهبية ثمن طعامه وحفظ حياته، فليؤدها لي الآن كاملة، وما أنا بتارك منها قطعة واحدة!.. فليست هي بالشيء الكثير لقاء ما تعرضت في سبيله من خطر ، وما سرقت له من أقوات الآخرين!.. إنه عاهدني على ذلك ، وها قد آن وقت الوفاء!..

وأضجرني صياح هذا الرجل وإلحافة في الطلب، فقلت "لكابتاح" لقد انتهت حاجتنا إلى هذا العجوز السخيف الذي يريد أن يقتضيك ديناً لا أصل له ، ولا حق له فيه، ولا هو بالمستطاع على أية حال.. فقد صار الأمر إلينا في المدينة بعد أن دخلها "حورمحب" بقواته منذ أسبوع، ولهذا فإني سآمر الجند ليجلدوه ، فإن لم يسكته الجلد، أمرتهم بقتله، فإنه مخادع أشر وقد قتل الكثيرين!..

وأبدى "كابتاح" دهشته لكلامي وقال: لا، يا سيدي ، فإنني رجل شريف، وقد وعدته بالمال الذي يطلبه، ومن مقتضيات الشرف أن أفي له بهذا الوعد. ولا تنس أني تاجر وينبغي أن أحتفظ لنفسي بحسن السمعة، ولقد كنت أول الأمر أساومه مخادعاً لمجرد السلامة من الموت، ولكن الجوع الذي أخذ ينهش أحشائي بأسنانه الحادة كان يوشك أن يتولى مهمة القضاء على حياتي، فساومته على الطعام صادق النية في وفاء الثمن الذي يقدره من غير مراجعة ولا جدال . وقد قام الرجل بالجزء الخاص به من

الاتفاق ، فى ظروف شديدة السوء ، غير مبال بما كان مرجحًا أن يلقاه من العقاب الصارم، فمن حقه أن يقتضينى الثمن ، وليس من حقه الامتناع عن الوفاء!..

وفى ارتياب ودهش قلت "لكابتاح". ماذا أسمع ؟! إنى لا أكاد أصدق أن مثل هذا يصدر عنك أنت يا "كابتاح" الذى أعرفه!.. وأغلب ظنى أن لعنة ما تكمن بين أحجار هذه القلعة لتصيب كل من فيها بالجنون، فهذا الذى تقوله ليس إلا عرضًا من أعراض الجنون!.. وإلا فقل لى ، إن لم تكن مجنونًا ، من أين تفى لهذا الرجل بملايينه المدعاة؟! لقد أصبحنا ، كلانا، لا نملك شيئًا منذ دال عهد الإله "آتون" أليس هذا هو الواقع أيها الأحمق؟!..

ولكن "كابتاح" كان قد لعب النبيذ برأسه، فقال: إنى رجل متدين، وأمجد الآلهة، وأحترم عهودى، فلست أعفى نفسى من سداد هذا الدين إلى آخر قطعة ذهبية!.. وإن لم يكن هذا بالأمر الممكن الآن ، فلتكن إذن نظرة إلى ميسرة، ولن يضير الرجل أن ينسئنى إلى أجل غير بعيد، فإذا أصر على الوفاء المعجل، وهذا حقه، فليس يعجزنى أن أزن له مثقالين من الذهب، فيرضى بل لعله يطير فرحًا، إن أصابعه لم تلمس الذهب طوال حياته. على أن هذا لا يحلنى من الوعد الذى وعدته، وإنى لحريص على الوفاء به كيفما كان الأمر ، وسوف ترى أن هذا مستطاع على الرغم من أننى قد فقدت كل شىء فى ثورات "طيبة" ، ذلك أننى أدين "حورمحب" بأكثر من مليون قطعة ذهبية، ويجب أن تعلم القصة من أولها.

واستطرد "كابتاح" يروى قصته فقال: حينما بلغت الثورة أشدها فى "طيبة" وبدت طلائع النهاية فى جانب "آمون" ، ارتاب الأرقاء فى موقفى، وظنونى قد خنتهم، فانقضوا على يريدون قتلى . ولكننى استطعت أن أهرب بنفسى إلى "ممفيس" وقد تبعنى الأرقاء إليها، فأفلت منهم وفى غمار الأخطار الجسام هربت إلى "غزة" عن طريق البحر فى قارب صغير، وكنت قد قمت فى "ممفيس" بعمل كان "حور محب" فى حاجة إليه، فلما انتهيت إلى "سوريا" زاولت أعمال التجارة متنكرًا وداخلت الحيثيين بوصفى تاجرًا ، فبعت إليهم حبوبًا وتبنًا، وكان هذا عملاً يهدد حياتى بالخطر الأكبر،

فإن خيول الحيثيين" ، التى هى عماد حربهم، كانت إذا تناولت علفًا من التبن الذى بعثه لهم تصاب بالمرض وتنفق، ولا شك فى أنك قد علمت هذا. وقد فطنوا أخيراً إلى مصدر هذا الخطر ، فحنقوا على وكان لا مناص من فتكهم بى إذا وقعت فى أيديهم. ولكنى - بوسائلى الخاصة- نجوت منهم وتسللت إلى "غزة" إبان حصارها، فيها وقعت بين يدى حاكمها المجنون الذى اعتبرنى جاسوسًا سوريًا، فزج بى فى السجن الرهيب، وأسرف فى تعذيبى وقرر تعليقى على الأسوار من أعقابى، وكان موتى على هذه الصورة الفظيعة أمرًا محتومًا، لولا هذا الحارس العجوز الذى أخفانى ، وأقسم للحاكم المجنون أنى مت فعلاً فى عداد من ماتوا من السجناء ، فأنقذ بذلك حياتى، ولست بالناسى صنيعه ولا بالمتنكر له فى حسابه!..

وكشفت لى قصة "كابتاح" عن جانب هام من الجاسوسية المقنعة التى عرف "حورمحب" كيف يتسلح بها فى محاربة أعدائه المتفوقين عليه فى العدة ، وعرفت عندئذ أن "كابتاح" كان ممن استعملهم فى هذه الجاسوسية ، بل لعله كان أبرعهم حيلة وأنشطهم عملاً . وعادت بى الذاكرة إلى ذلك الرجل الذى كان قد وفد على خيمة "حورمحب" ليلا فى معسكرنا بالصحراء مرتديًا ملابس السوريين الرثة ومخفيًا إحدى عينيه. لقد أدركت الآن أنه كان أحد رجال "كابتاح" أرسله "حورمحب" على هيئة الرجل الأعور ، إشارة إلى أنه مبعوث من عنده! فهذا الرسول قد ذكر "لحور محب" ليلتئذ أن "التبن جاهز"!.. ولم يزد على هذه الكلمة شيئًا . وكان "حورمحب" يفهم المراد بها ، فأمر فى الحال بمسير الجيش إلى "سوريا" وفهمت ساعتها أن الجاسوس قد أشار إلى شىء ذى خطر!.. وإذن فقد كان "كابتاح" هو الذى يقود المعركة من وراء ستار، فهو الذى استطاع أن يخدع الحيثيين ويقدم إليهم التبن مخلوطًا بالسموم القاتلة ليقضى على خيول عجلاتهم، وبهذه الوسيلة وقعت هزيمتهم..

وقلت "لكابتاح" أخيرًا : حقًا إن "حورمحب" مدين لك بالكثير، ولكن ما جدوى أن يكون هذا الدين آلافًا أو ملايين ما دمت تعلم أنه لا يؤدى ديونه؟! ألم تكن دائم الشكوى من مطلبه فيما سلف لك عليه من دين؟!

فقال: بلى ، إنى أعلم ذلك، فهو رجل قاس يجحد حق غيره ويلين عند الحاجة ثم يشتد إذا ما استغنى ، ومثله تماماً فى هذه الخصال الرديئة ، حاكم "غزة" ، ذلك الفظ غليظ القلب الذى ألقيت إليه – من فوق الأسوار – جرار لا عداد لها مشحونة بالحبوب والأقوات ، موهماً الحيثيين منها ببعض جرار معينة وفتحت سداداتها أمام أعينهم، فخرجت منها ثعابين رقطاء تسعى، وقد لدغت ثلاثة رجال منهم فماتوا من فورهم، فنفى هذا شكوكهم ولم يفكروا بعد فى فتح الجرار الأخرى!..فعلت هذا ، متعرضاً فيه للموت، لخدمة "روجو" هذا الحاكم المجنون، فكان جزائى منه ما قد عرفت من السجن المهين وقرار الموت الذى وقانى منه الحارس الأعمى !.. على أن "حورمحب" بالغًا ما بلغ من فساد الطبع لا يستطيع أن يتحيفنى حقى، وهو الذى يعلم أى جهد عظيم بذلت فى سبيل نصره، وقد يغلبه طبعه أو قد لا تسعفه الظروف الحاضرة، فلا يدفع لى الذهب الذى يكافئ خدماتى الجليلة وجهودى المضنية، ولكن لا أريد أن أشق عليه فى ذلك ، فمن الممكن – إذا ضن بالمال أو عجز عن تدبيره – أن يقيمنى على جباية رسوم الموانئ وضرائب المدن المحتلة ، ويمكن لى من تجارة الملح فى "سوريا" ، فهذا لا يكلفه الدفع المعجل ، بينما أنا قانع به أجراً على خدماتى وجهودى!..

قلت له: قد يكون فى هذا حل معقول لمشكلتك مع "حورمحب" ولكن تبقى بعد ذلك مشكلة الدين الذى تصر على تأديته لهذا الحارس المخبول!.. إنه دين باهظ جداً يوقر كاهلك، وأرى ألا طاقة لك على أدائه حتى أو ظللت ما بقى من حياتك تشقى بالعمل وتكدح فى جمع المال!..

وقال "كابتاح" بعد أن تناول كأساً مترعة من النبيذ : إن فى شراب النبيذ وفى الاسترخاء على الفراش الوثير لمتعة لا يعرف المرء قدرها إلا بعد مقامه عدة أسابيع فى مكان مظلم ذى أحجار حادة كذلك الذى كنت فيه!.. وإنك لترى أمرى مع هذا الحارس معقداً لا سبيل إلى حله ، ولكن لا أراه على هذا الوجه، وسأوفى للرجل حقه ، ولا أنكث عهدى له، دون أن أجد فى ذلك مشقة أو عسراً ، ويجب أن تعرف أولا أن

هذا الحق ينطوى على أمرين : أحدهما إعادة البصر إلى عينى الرجل ، وثانيهما دفع الذهب الذى يقدره بالملايين!..

أما إعادة البصر، فأنت يا سيدى الطبيب كفيل بها، وعليك أن تعد نفسك لها. وأما الذهب، فإنى الكفيل بأدائه له عن طريق المقامرة!..

لقد كان الرجل قبل أن يفقد بصره مقامراً كبيراً ، فأعد إليه بصره، لأعود أنا به إلى القمار، أعنى إلى دائه القديم الذى لا ينفع فيه طب الأطباء!.. وسوف ألاعبه على مبالغ ضخمة تستغرق ملايينه المزعومة فى أقصر وقت، وإنى فى هذا المجال - إن كنت لا تدرى - الفارس المجلى!..

وأعجبتنى من "كابتاح" هذه الفكرة الشيطانية، ففيها وحدها الخلاص من الدين الفادح دون إخلال بالوعد الذى ألزم به، ولم يخالجنى شك فى نجاحها ، لأنى أعلم أن "كابتاح" لاعب ماهر، وبخاصة إذا اختار هو نوعاً بذاته من قطع النرد التى يلاعب بها منافسه ، ولذلك وعدته بأن أستخدم كل مهارتى الفنية فى إعادة البصر إلى الحارس، أو على الأقل إعادة ما يكفى لتمييز أرقام النرد.

وسر "كابتاح" بما رأى من حسن استعدادى لتنفيذ الشطر الأول من الاتفاق، ووعدنى بدوره بأنه لقاء ذلك سيرسل أموالا كافية إلى "ميوتى" لتعيد بناء منزلى المنقض فى "طيبة"، ولتحيا حياة طيبة فى غيبتى عنها!..

ودعوت الحارس العجوز الذى كان لا يزال يضج بالصياح والبكاء خارج الأبواب، فدخل إلى حجرتنا متعثراً واستقبله "كابتاح" مرحباً وأكد له أنه مؤد له دينه كاملاً ، واستمهله في الأداء بعض الوقت إلى أن يعاد إليه بصره، وقال له: إنك الآن بين يدى الطبيب البارع الذى وعدتك به.

وفحصت عينى الرجل وتبين لى أن إصابته بالعمى ليست ، كما كان يظن ، نتيجة المكث الطويل فى الظلام، وإنما هى نتيجة مرض قديم أهمل علاجه. وفى اليوم التالى أخذت فى علاجه على الطريقة التى تعلمتها فى بلاد "ميتانى".

ومضيت "بكابتاح" إلى "حورمحب"، فسر كثيراً بلقائه، وأثنى على شجاعته وقال له : إن "مصر" كلها لن تنسى أعماله العظيمة وخدماته الجليلة.

ولكن "كابتاح" بدا متجهًا وراح ينشج بالبكاء ويقول : هلا نظرت يا سيدى إلى أذنى وكيف فعلت بهما جرذان "غزة" فى الأوكار التى يسمونها سجنا؟! وإلى بطنى هذه التى تقلصت وانكمشت كما لو كانت حقيبة جلد خاوية لشدة ما نالها من الخماص والجوع!.. إن ثناءك على شجاعتى ، وتقدير مصر كلها لأعمالى وخدماتى، شىء جميل ، لا شك فى هذا. ولكنى لا أكاد أشعر بجماله وأنا على ما ترى من سوء حال ، وخير من ذلك عندى أن تنجز ما وعدتنى من حقائب الذهب، فلست فى حاجة الآن إلى الثناء والتمجيد ، وإنما أنا فى حاجة إلى الذهب الذى هو حقى عليك ، فأعطنية كما ينبغى أن يفعل الرجل الشريف، فإن ثمة ديونًا كثيرة قد أغرقتنى من قدمى إلى رأسى، وعلى أن أؤديها معجلة للغرماء الذين لا يعرفون لغة التسويف والإرجاء، ولا يسيغون كلمات الحمد والثناء!..

فتقبض وجه "حورمحب" وقال وهو يضرب بسوطه على فخذيه: إنك تتكلم يا "كابتاح" كمن به جنة وخبال، وكان عليك أن تعلم أنه ليست هناك أسلاب أقتسمها معك، وإننى أنا نفسى فقير لا أملك شيئًا، وإن بينى وبين الحيثيين حربًا لا تزال شاجرة ، وكل الذهب الذى يمكن أن تصل إليه يدى يجب أن أستخدمه فى حاجات هذه الحرب ومطالبها، على أنه إن كان هناك دائنون يزعجونك بالطلب، فمن أيسر اليسر أن أريحك منهم ومن ديونهم، فليس يكلفنى أمرهم أكثر من القبض عليهم وإلقائهم فى السجن ، متهمًا إياهم بالخيانة مثلاً ، ثم أصدر الأمر بعد ذلك بإعدامهم!..

ولكن "كابتاح" لم يوافق على هذا الرأى الذى يحقق له الخلاص من مأزق الدين!..

فضحك "حورمحب" ضحكة الساخر، وقال له فى صرامة لا أفهم لماذا عذبت فى السجن على هذا النحو؟ ! إن "روجو" رجل مجنون حقًا، ولكنه مع ذلك رجل محارب قديم، وقد أدار معركة الحصار بمهارة القائد البصير الذى لا تخفى عليه خافية، وليس من المعقول أن يعتبرك جاسوسًا سوريًا، ويقضى بما قضى من تعذيبك، دون أن تكون لديه أسباب تبرر ذلك وتوجبه؟!.

وكان واضحًا فى عبارات "حورمحب" هذه أنه يرتب على تصرف "روجو" اتهامًا إلى "كابتاح" يتوعده به، فانزعج لهذا انزعاجًا شديدًا، وراح يمزق ملابسه الفاخرة تعبيرًا عن براءته ويقول وهو يدق على صدره: "حورمحب"!.. أأنت حقًا الذى تقول هذا؟!أنت الذى كنت منذ قليل تستقبلنى بالثناء وتصف أعمالى بالمجادة والتكريم؟! ألست أنا الذى دس السم بنفسه لخيول الحيثيين فى علفها؟! ألم أكن أنا الذى قمت بعملية تهريب الأقوات إلى "غزة" واستأجرت الرجال الأشداء ليخوضوا أهوال الصحراء حاملين إليك ، هناك ، رسائلى وتقاريرى شارحًا فيها أدق أسرار أعدائك؟! وألم أكن أنا الذى استأجرت كذلك العبيد ليفجروا قراب الماء بالعجلات الحربية التى كان الحيثيون يهاجمونك بها؟!..

لقد فعلت كل هذا ، وأنت تدريه ولا تجهله، وأنت الذى تجنى اليوم ثماره وفخاره. ولم يكن دافعى إليه مجرد الرغبة فى الجزاء ، ذهبًا كان أو فضة، فالتفكير فى هذا خلال معركة الموت المحيط بنا من كل جانب ، كان ضربًا من الخيال . ولقد اندمجت فى هذه المعركة مجازفًا بحياتى، وكان من الممكن فى أية لحظة أن أكون واحدًا من الألوف الذين لقوا فيها مصارعهم، ولكنى لزمت الأخطار وعشت فيها بائعًا نفسى فى سبيلك، وكان لى أكثر من وسيلة للنجاة لو أننى كنت ممن يطلبون الحياة ويحرصون عليها !.. وقد كان العمل الذى اضطلعت به فى حربك هذه ضخمًا شائكًا اقتضانى الكثير من العناء والمهارة، فداهيت "الحيثيين" ومالقتهم على نحو لا يستطيعه سوى الفدائى الشجاع واسع الحيلة وقد خدعوا بما قدمته لهم من خدمات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، ولا ضير فيها على مصر بحال ، بل لقد كانت فى نتائجها

وآثارها خيراً محضاً لبلادنا، على ما لا سبيل إلى نكرانه، وبهذه الخدعة استطعت أن أحصل على جواز مرور من "عزيرو"، وفي ظل الأمن الذى حاطنى به هذا الجواز ، بلغت أسوار "غزة" وأديت واجبى كاملاً، وتحقق النصر للجيش المصرى بفضل تدابيرى المستترة . وكنت أعتقد ، عندما مرقت إلى المدينة، أن "روجو" سيعرفنى بالعلامة السرية المتفق عليها، ولكنه كان شديد الحذر والارتياب، فلم يثق بى وذهبت عبثًا محاولاتى في إقناعه بأننى من أخلص رجالك، وأبى إلا أن يعدنى جاسوساً عليه، ومن ثم وضعنى ممددًا على عجلة التعذيب ، واضطررت مكرها أن أسمعه الكلمة التى يريدها وهى أننى جاسوس "لعزيرو"!..

وقال "حور محب" ، وهو يضحك في هذه المرة ضحكة الإشفاق: إن هذا العذاب الذى لقيته في سبيلنا ستجزى عليه يا "كابتاح" أحسن الجزاء، ولست أنكر أنك قد صنعت لنا خيراً كثيراً ، ولكننا في ظروف غير عادية لا يستطاع فيها تقديم الذهب الذى لا أغمطك حقك فيه، فلا تضايقنى بطلبه الآن!..

ولكن "كابتاح" ظل يحاوره ويجادله حتى ظفر منه بصك يعطيه الحق فى أن يكون وحده المتصرف بالبيع فى غنائم الحرب وأسلابها فى "سوريا" وأذن له فوق ذلك فى أن يزاول ما شاء من أعمال التجارة والمقامرة والمبادلة على جعة ونبيذ ونسوة أو أى أسلاب أخرى تكون قد وزعت على الجنود...

وكان هذا كله كافيًا ليصير "كابتاح" موفور الغنى ، ولكنه استزاد "حورمحب"، فمنحه الحق نفسه فيما سيحصل عليه الجيش مستقبلاً من الغنائم والأسلاب!..

- ٤ -

ووجه "حورمحب" عنايته إلى إصلاح العجلات الحربية وتجهيزها كلها للعمل، واستدعى القوات الاحتياطية من مصر ، وجمع فى "غزة" كل ما فى جنوب "مصر" من خيول ، وأخذ فى تمرين الجنود، حتى إذا ما استوثق من أن كل شيء أصبح تام

الإعداد والتجهيز، أصدر بيانًا عامًا أعلن فيه أنه إنما جاء إلى سوريا ليحررها لا ليغزوها، فقد كانت تحت حماية "مصر"، تستمتع باستقلالها وتمارس حريتها غير المحدودة فى حياتها وتجارتها وشتى شئونها، وكان على كل مدينة منها ملك من أهلها، ولكنها أخيراً منيت بمطامع "عزيرو" الذى انتقض على "مصر"، وانقض على مدن "سوريا" واغتصب حقوق ملوكها ليستأثر بالأمر كله فيها . وفى سبيل مطامعه حالف "الحيثيين" واستعان بهم فنكلوا بالبلاد وساموا أهلها سوء العذاب، وفدحوهم بما لا طاقة لهم به من ضرائب، ولهذا كان لزامًا على "مصر" أن تعبئ قواتها لترفع عن "سوريا" العزيزة أوقار هذا الشقاء الذى تعانيه، وترد إليها ما سلب الأعداء من حرياتها، وتعيد ملوكها إلى عروشهم، وتمد عليها ظلال حمايتها الأولى، لتنعم بما كان لها من ازدهار حياة وانتعاش تجارة وشيوع أمن . وأن "حورمحب" ابن الصقر ليضطلع بهذه المهمة قويًا موفور العدد والعدة، وقد ألحق بالأعداء فى الجولات الأولى هزائم منكرة وخسائر فادحة، وسيتعقبهم فى كل مكان من هذه الأرض إلى أن يطهرها منهم، وهو يدعو مدن "سوريا" جميعها إلى معاونته فى معركة تحريرها وخلاصها ، وسيولى كل عطفه ورعايته المدن التى تطرد "الحيثيين" وتغلق أبوابها فى وجه "عزيرو"، وأما تلك التى يغلبها الخنوع فتمضى فى ركاب "الحيثيين" مقاومة للمصريين فسيحرقها وينهبها ويدمرها تدميراً ويأسر أهلها ويبيعهم أذلاء بيع الرقيق!..

وعهد "حورمحب" إلى جواسيسه بهذا البيان لينشروه فى كل المدن السورية ، ومضى مسرعًا إلى "يافا" وأمر أسطوله بالإبحار إلى مينائها لمحاصرتها . وكان لهذه الحركة آثارها العاجلة فى أنحاء البلاد، فاختلفت الآراء بين المدن المحتلة، وانتشر القلق والذعر والمنازعات بين الأعداء ، وهذا هو الذى كان يريده، ويستهدفه، "حورمحب"!..

وآثر "كابتاح" البقاء فى "غزة" ابتغاء السلامة ، وابتعاداً عن مواطن الخطر ، إذ كان يخشى هزيمة "حورمحب" أمام "عزيرو" والحيثيين.الذين يعتقد أنهم جمعوا جنودهم ولموا شمل قواتهم واكتسبوا بذلك القدرة على التفوق!..

وأغراه بالبقاء في "غزة" أنه - إلى هذا الاعتبار - قد أصلح ما بينه وبين "روجو" عنق الثور، وأحكم صلته به ، واستطاع أن يخلصه من أوهامه السخيفة عن البرادع المفقودة ، حيث أفهمه أن الجنود لم يسرقوها ، وإنما اضطروا إلى أن يأكلوها تحت وطأة الجوع الشديد أثناء الحصار الطويل ، فقد كانت من الجلد الرقيق الذي يمكن أن يتخذوا منه - في هذه الأزمة العاتية - طعامًا يسكتون به صراخ بطونهم!. واقتنع "روجو" بهذا التعليل، واستراح له ، فهدأت ثورته، وعفا عنهم، بل أعجب بشجاعتهم!..

وقد أقفل "روجو" أبواب "غزة" عقب رحيل "حورمحب" ، وأقسم أنه لن يفتحها أمام أي جنود بعد ذلك، ثم عكف على احتساء النبيذ والتلهي بمشاهدة "كابتاح" وهو يلاعب الحارس العجوز ويقامره على المال الذي يدينه به، وكانت ملاعبة مثيرة، يتخللها الشراب المستمر من الصباح إلى آخر الليل، وقد بدأت بمبالغ صغيرة، وكان الرجل العجوز يخسرها دائمًا ، ولكنه كان يمضي فيها لهجًا ليستردها ، ولا يفتأ "كابتاح" يستثيره ويحضه على الاسترسال. وفي كل دور جديد يلاعبه على مبالغ أكثر قيمة ، ولا تتغير مع ذلك النتيجة، "فكابتاح" هو الكاسب على أية حال!.. حتى إذا جاء رسول "حور محب" منبئًا بأنه اخترق أسوار "يافا"، كانت خسارة الرجل العجوز قد جاوزت كل دينه وأصبح ، على العكس ، مدينًا "لكابتاح" بمئة ألف قطعة من الذهب، فبكى الرجل بكاء شديدا. ولكن "كابتاح"أعفاه من هذا الدين متفضلاً وزاد في تفضله فألبسه ملابس فاخرة وأعطاه مبلغًا من النقود الفضة، ففرح الرجل وبكى من شدة فرحه، وأخذ يدعو "لكابتاح" ويحمد له كرمه!..

ولا أدري كيف تحقق "لكابتاح" هذا الفوز العجيب على ذلك المقامر القديم!.. وقد أخبرني "كابتاح" أن كليهما كان يلعب بمهارة، وأن الحظ هو الذي واتاه وحالفه، وحقق أمله . وربما كان ذلك صحيحًا ، ولكني أشعر في دخيلة نفسي أن الأمر لم يخل من الغش والتمويه ، وكان ذلك ميسورًا "لكابتاح" لما أعلمه من قدرته الفائقة على رماية قطع الزهر وتحريكها حيث يشاء . ولم يكن منافسه ، على سالف مرانه وطول خبرته،

بمستطيع مجاراته أو التفطن لتمويهاته، إذ كان البصر الذى ارتد إلى عينه لا يزال ضعيفًا . على أنه كيفما كان الأمر فقد صار حادث هذه المقامرة ذات الملايين ، حديثا يروى فى كل مكان من "سوريا"، لغرابته ومجاوزته المألوف فى أوساط المقامرة. وقد ارتد الرجل العجوز بعد ذلك أعمى ، فاعتزل الناس معتكفًا بقية حياته فى كوخ صغير بجانب أسوار "غزة"، وكان الناس من البلاد الأخرى يقصدون إليه ليسمعوا منه قصة هذه المقامرة ، وكان على مرور السنين يذكر جيداً دقائق ملاعبته "لكابتاح" فى كل دور من أدوارها، وقد زاده العمى تذكرًا لها، ولم يكن يأسف على نتيجتها ، بل لقد كان يذكرها مباهيًا، لأنه قامر فيها بالملايين ، وهو ما لم يسبقه إليه أحد فى تاريخ المقامرة!.. وكان الناس ، لشغفهم بسماع القصة من صاحبها، يحملون إليه الهدايا، فأوفى هذا بحاجته وعاش به إلى آخر حياته قرير العين سعيدًا!..

وعندما سقطت "يافا" فى يد "حورمحب" ذهب إليها "كابتاح" من فوره، ودخلتها معه . ولأول مرة رأينا هذه المدينة الأثرية ، وقد ترك "حورمحب" رجاله لمدة أسبوعين ينهبونها ويعيثون فسادا فيها ، لأن أهلها لم ينتقضوا على "عزيرو" إلا حينما دخلها "حورمحب" عنوة!..

واغتنم "كابتاح" هذه الفرصة ، فاشترى من الجنود كل ما انتهبوه من السجاجيد الثمينة والأمتعة والتماثيل والآنية وغير ذلك مما كان كثيرًا فى أيديهم لقاء نقود فضية ونحاسية وكئوس من شراب النبيذ ، وأصاب من ذلك ثروة كبيرة!...

وكان جنود "حورمحب" قساة فيما قارفوا بالمدينة من مآثم ورذائل . فإلى السرقة والنهب وحرق الدور وتدميرها كانوا يسبون النساء ويعتدون على أعراضهم، يمعنون فى تعذيب التجار ليكشفوا لهم عن كنوزهم وخزائن أموالهم، وكان من هؤلاء الجنود من يقف على منحنيات الطرق مشرعًا هراوته أو رمحه ليتسلى بقتل كل سورى يمر به، لا فرق عنده بين رجل أوامرأة ، ولا بين عجوز ، أو طفل!..

وقد التاع قلبى لهذه الشرور التى رأيتها بعينى فى "يافا" على أيدى جنود "حورمحب" بمحض رضائه ورغبته لا لشيء سوى أن يزدادوا ولاء لشخصه، فإنها كانت من البشاعة والفظاعة إلى حد لا يقاس عليه ما كان يقع فى "مصر" من مناكر وشناعات بسبب "آتون".

وأزعج هذا الذى وقع فى "يافا" سائر المدن السورية الأخرى، فهبت فى وجوه "الحيثيين" وبذلت أقصى ما تستطيع لطردهم منها اجتنابًا لما عرفوه من بطش "حورمحب" وقسوة جنوده!..

وقد وقعت "سوريا" من هذه الحرب بين شقى رحى، فجنود "حورمحب" من ناحية، والحيثيون من ناحية أخرى ، يطحنونها طحنًا ويعتصرونها عصرًا، ولقد رأيت فيما رأيت مدينة من مدنها كان عدد سكانها عشرين ألفًا، فلم يبق حيًا منهم عندما بلغناها أكثر من ثلثمئة نسمة ، وهكذا كانت حال أغلب المدن.

وكانت حرب خراب وإفناء دامت ثلاث سنين، تداول فيها الفريقان النصر تارة، والهزيمة تارة أخرى. وقد عشت فى لظاها أضمد جراح جنودنا وأشهد مصارعهم، وأسمع أنين احتضارهم، وأتحرق حزنًا على ما أرى من فتك الإنسان بأخيه الإنسان، كما لو كنت بين وحوش الغابات تتصارع فى ضراوة ، ويقتل بعضها بعضًا فى وحشية !.. وكان السوريون، وقد اشتد بهم البلاء، يلجأون إلى الجبال ويختبئون فى كهوفها، مذعورين هربًا من الموت الذى يلاحقهم، وقد امتد الخراب إلى مزارعهم وحدائقهم، إذ كانت القوات المحاربة تغير عليها فلا تدع شيئًا من زروعها وثمارها، وتجتث عمداً كل ما تصادفه من أشجارها حتى لا ينتفع بها الأعداء!..

وعلى ما كان يلقاه "حور محب" من انتصارات فى أكثر المواقع ، فلقد كان أحيانًا لا يقوى على مواجهة عجلات "الحيثيين" فيتحصن ببعض المدن إلى أن توافيه الإمدادات التى لم تكن تنقطع من "مصر" وقد استطاع أن يحتفظ بالمواصلات البحرية إليها، فكانت السفن المصرية رائحة غادية تحمل الرجال والعتاد، وبهذا كان

"حورمحب" كلما استفحلت خسائره، يستعيض عنها بمدد جديد، فينقلب به فى قوة على أعدائه!..

ولا أحتاج إلى إن أقول أن هذه الحرب قد ابتلعت ثروة "مصر"، وهصرت شباب أبنائها، وأودت بأرواح كثرة كبيرة من أهلها. فعلى طول نهر النيل من المملكة العليا إلى المملكة السفلى ، لم تكن هناك مدينة أو قرية لم تصب فيها بكارثة، كما لم تكن توجد امرأة لم تفقد زوجًا أو ابنًا فى "سوريا"!..

وكان ذلك مما ضاعف فى حزنى وكآبتى حتى إننى فى هذه السنين الثلاث كنت أشعر بالشيخوخة تسطو على بدنى سطوا سريعًا ، فتساقط شعر رأسى وانحنى ظهرى وتجعد وجهى كما لو كان قد صار ثمرة ذابلة متجمدة، وأصبحت برما بالناس ضيق الصدر بالمرضى، أصرخ فى وجوههم على الرغم مما أكنه لهم فى قلبى من عطف ورثاء!..

وفى السنة الثالثة ظهر فى "سوريا" وباء الطاعون، وهو يظهر دائمًا فى أعقاب الحروب. وقد أفرخ، كما لا بد أن يكون ، فى كثير من المواضع التى احتشدت فيها جثث القتلى، ومنها استفاض وانتشر ، وصارت "سوريا" كلها إذ ذاك قبرًا كبيرًا لما لا حصر له من ضحايا هذا الوباء الفاتك وبسببه أبيدت أجناس بأسرها وأبيدت معها لغاتها وعاداتها . وقد امتد إلى معسكر "حورمحب" وإلى معسكر "الحيثيين"، فأتى على كثير من جنود المعسكرين ، فتوقفت رحى الحرب بينهما اضطرارا، وهرب من لم يصب به من الجنود إلى التلال حتى يكونوا بمبعدة من خطره.

وقد ألقى هذا الوباء على كاهلى عبئًا ثقيلا، فما كان فى وسعى – وأنا طبيب – أن أقف مكتوف اليدين أمامه وهو يزحف زحفًا شديدًا على الناس جميعًا ، أغنيائهم وفقرائهم بلا تفرقة ، ولم يكن له عندهم من دواء معروف، فكان الذين يصابون به يستسلمون له فى يأس من السلامة ويستلقون على الأرض حيثما كانوا، ويرفعون أذيال أثوابهم ليضعوها على رءوسهم ووجوههم، انتظارا للموت الذى قلما كان يتأخر عن المريض أكثر من ثلاثة أيام!..

ولهذا المرض الخبيث ظواهر شاذة: منها أنه "هوائى" في الإصابة لا يمس إنسانًا إلا سقط فى الحال مريضًا من غير مقدمات، وتلازمه هذه الهوائية في سرعة الفتك بالمصابين، وفى اختلاف تأثيره بالمرضى على غير المألوف في عامة الأمراض ، فلم يكن المريض الذى ينجو منه هو دائمًا الشخص القوى البنية، فثمة فقراء مهازيل لا يجدون ما يأكلونه ، قد نجوا منه بينما لم ينج كثير من الأقوياء الموفورى العافية!..

وكان لا مناص من أن أقوم بما فى استطاعتى الفنية لمقاومة هذا الوباء والتخفيف من وطأته، فأخذت في علاج مرضاه بالطريقة التى لم يكن ميسورًا لى استعمال سواها ، وهى سحب الدم منهم لتلوثه بجرثومة المرض، ومنعهم من تناول الطعام أثناء مرضهم. وقد شفى على يدى كثيرون كما مات كثيرون، ولهذا لا أجزم بما كان للعلاج بهذه الطريقة من فائدة!..

وسرت عدواه إلى "مصر" عن طريق السفن الغادية عليها من "سوريا" ولكن ضحاياه فيها كانوا أقل عددًا، وقد اختفى منها مع ارتفاع مياه الفيضان!.. وما أن أهل الشتاء على "سوريا" حتى كان قد اختفى منها كذلك، ومن ثم راح "حورمحب" يعيد تنظيم قواته، ويستوفى ما نقص من معداته، استعدادًا لمواصلة الحرب!..

وفى الربيع ، اجتاز "حورمحب" الجبال وانطلق بقواته فى السهول حتى بلغ "مجدو" وهناك اشتبك مع "الحيثيين" فى قتال مرير وأوقع بهم الهزيمة!..

وكانت أنباء انتصارات "حورمحب" تترادف على "بابل" فتثير فى حاكمها "بورنابورياش" الحمية والشجاعة ويذكر فى هذه اللحظات حلفه مع "مصر" فيرسل بقواته إلى أرض "ميتانى" لتطرد الحيثيين من أراضى الرعى فى "نهارانى"..

ونظر "الحيثيون" فى الموقف فرأوه يزداد سوءًا فهذه بلاد "سوريا" قد شملها الخراب والدمار ، وليس فى مكنتهم مع هذا أن يقيموا لهم فى ناحية منها سلطانًا ، فما جدوى أن يسترسلوا فى حرب يخسرون فيها خيرة رجالهم وعجلاتهم، وهم أحوج

ما يكونون إلى الرجال والعربات لصد عوادى مملكة ما بين النهرين!.. وكان الرأى الذى انتهوا إليه ، هو أن يعرضوا الصلح على "حورمحب"!..

وتلقى "حورمحب" عرض الصلح مغتبطًا، فقد كان فى الواقع لا يقل عن "الحيثيين" رغبة فى إنهاء هذه الحرب التى أصابت قواته بالاضمحلال والوهن، واعتصرت حيوية "مصر" فى رجالها وأموالها وهو أكثر من ذلك سيجد فى السلام فرصته لتعمير "سوريا" إنعاش تجارتها واستثمار أرضها، فيحصل بهذا على النتائج الحسنة التى تعوضه عن خسائر الحرب وتنسيه متاعبها!..

وقد وافق على الصلح مشترطًا أن يسلم "الحيثيون" مدينة"مجدو" التى اتخذها "عزيرو" عاصمة مملكته وحصنها وتحصينًا قويًا يشق اقتحامه!.. فنفذوا هذا الشرط وسلموه المدينة ومعها "عزيرو" وزوجته وأبناؤه مغللين جميعًا بالسلاسل، لكنهم قبل تسليمها، استولوا على الأموال الطائلة التى جمعها "عزيرو" من "سوريا"، ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم، وطردوا أغنام "العموريين" وأبقارهم من شمال المدينة بعد تسليمها وبعد أن أصبحت تحت السيطرة المصرية، ولم يمنعهم "حورمحب" من هذا أو ينازعهم فيه ، بل إنه ابتهاجًا بالصلح والسلام أقام مأدبة لأمراء "الحيثيين" وزعمائهم وظل يسمر معهم طول الليل على شراب النبيذ!..

وكان مقررًا فى اليوم التالى أن ينفذ الإعدام شنقًا فى "عزيرو" وأفراد أسرته أمام القوات الحربية.

ولم أشترك فى مأدبة الاحتفال بانتهاء الحرب، لأنى كنت محزونًا للمصير الذى سيلاقيه غدا "عزيرو" ، ذلك الذى لم يعد له اليوم فى "سوريا" كلها صديق ولا معين، وهو الذى كان بالأمس المتكثر بالأصدقاء والأعوان ، الذاهب إلى أبعد المدى فى زهو الحياة وأبهة السلطان ، فأصبح فى وحدة موحشة ، يجتنبه الناس ويتنكرون له ، لأنه قد تجرد من القوة والثراء، وحكم عليه أن يموت موت الأذلاء، وهكذا حال الناس دائمًا ، يتعرفون إلى القوة ويتنكرون للعجز، ومن هنا أسيت على حاله وأشفقت على

مصيره، ورأيت نفسى مسوقًا فى الظلام إلى خيمته التى ألقوه فيها مقيداً بالسلاسل والأغلال، وما أملك له من أمر المحنة التى يتردى فيها ، سوى كلمات من العزاء أحاول بها تهيئة نفسه القلقة لملاقاة النهاية الفظيعة التى أعدوها له فى الصباح القريب، فقد كنت أعلم أنه شديد الحرص على الحياة، وأنه يعاني الآن من العذاب فوق ما يطيق. فلألقه إذن كصديق، ولأقل له إن الموت خير من حياة ليست فيما عرفنا منها، وفيما بلونًا من طبيعتها ، سوى سلسلة متصلة الحلقات من الآلام والشقاء، فذلك ما كنت أبغي أن أقوله له ، ترغيبًا فى موت ليس منه فكاك، وتزهيداً فى حياة لا سبيل فيها إلى البقاء ، فلعله إذ يسمع هذا يشعر بالعزاء ، ويتخفف من العذاب ، ويتفتح لفكرة الموت فيقبل عليه إقبال العانى المجهد على الراحة والهدوء!..

وكان الاتصال به فى منبذه محظوراً ، ولكن الحراس لم يقفوا فى طريقى إليه، وقد سمعتهم يقولون، وهم يشيرون إلى : هذا "سنوحى"الطبيب، وهو لا شك موفد إلى "عزيرو" ليؤدى عنده عملاً يتصل بالمراسم القانونية، فليس لنا أن نمنعه، وإلا أصابتنا لعنته، وربما استخدام سحره فى تقليص رجولتنا، ذلك إلى أنه حاد الطبع وله لسان لاذع كأنه العقرب!..

وفى ظلام الخيمة وقفت على الرجل الذى كان يحمل التاج على رأسه يومًا، الرجل الذى هان شأنه وذل، حتى رأى بعينيه الجنود يسخرون منه ويقذفونه بالأقذار حينما جيء به هو وأفراد أسرته مكبلين إلى معسكر "حورمحب" وقلت له: يا "عزيرو" يا ملك "عمورية" !هل تسمح بلقاء صديق قديم فى وحدتك هذه؟!..

وتنهد الرجل من أعماقه، وقال وأنا أسمع قعقعة أغلاله: لم أعد ملكًا، كما لم يعد لى أصدقاء ، ولكن من أنت ؟! يخيل لى أنك "سنوحى" ، فإنى أعرف صوتك حتى فى الظلام !..

قلت له: نعم، إننى أنا "سنوحى".

فقال : بحق "مردوخ" وكل أبالسة الجحيم، لتأتيني ، إذا كنت أنت "سنوحي" حقًا، بمشعل أرى وجهك في ضوئه ، فقد ضقت بهذه الظلمة الداجية في هذا المكان، أولا يكفي أنني سأظل في الظلام بعد الآن وإلى الأبد!... إن "الحيثيين" - عليهم اللعنة - قد مزقوا ملابسي واشتطوا في تعذيبي حتى تيبست أطرافي، وأصبحت من وحشيتهم في حال تثير الرثاء. ولكنك - كطبيب - قد ألفت أن ترى ما هو أسوأ من حالي منظرًا. على أني لست خجلاً من ذلك ، فعند مواجهة الموت لا يبالي الإنسان على أية حال يكون!.. فائتني بالضوء يا "سنوحي" لأراك وأضع يدي في يدك، وإذا استطعت أن تقدم لي جعة قوية التأثير أبل بها أوامي وأرطب ما جف من حلقي، فسأذكر لك هذا الفضل غدا في مملكة الموت!.. ويؤسفني أنني لن أقدر على دفع ثمن هذه الجعة ، فقد سلب "الحيثيون" كل ما أملك إلى أخر قطعة من النقود، حتى النحاسية منها!..

وأشرت إلى الحراس، فجاءوا بالمصباح والجعة، ونهض "عزيرو" من مرقده وهو يتململ ويتأوه من شدة الألم. وفي ضوء المصباح رأيت شعره مشعثًا قد خالط البياض شعيرات منه، وكانت لحيته كذلك كثة الشعر في تهدل وتلوث، وعلى وجهه وجسمه آثار صارخة من التعذيب، فأصابعه وضلوعه محطمة، وأظفاره تعلوها الدماء، وكان يجر أنفاسه بصعوبة وعسر، ويبصق دمًا. وقد عاونته على التماسك في جلسته وأخذت أساقيه شراب الجعة، حتى نال منها أقصى ما يستطيع. وأخيرًا نظر إلى ضوء المصباح وقال: ما أجمل هذا الضوء في عيني بعد أن طال مكثي مسجى هكذا في الظلام!.. ولكنه مع ذلك سينتهي ينطفئ، وهل الحياة إلا ضوء يومض زاهيًا ثم يخبو؟! تلك هي الحقيقية في بدئها ونهايتها يا "سنوحي" وإني لشاكر لك أن أمتعتني في لحظاتي الأخيرة بالضوء والشراب، وقد كان بودي أن أهدي لك شيئًا كفاء هذا، ولكنك تعلم أن أصدقائي "الحيثيين" قد جردوني من كل شيء ، حتى من أسناني الذهبية التي صنعتها!..

وكان الظرف ملائمًا لتذكيره بما كنت قد قلته له من قبل تحذيرًا من غدر "الحيثيين"، ولكنى خشيت أن أنكأ جراحه بهذا ، وقد يحسبنى شامتًا أتظاهر بالحكمة فى ساعة المحنة، فلم أقل شيئًا ، وأخذت يده المحطمة بين يدى ، فانحنى رأسه وتحدرت الدموع من عينيه المحمرتين، وقال : إن الفرق كبير يا "سنوحى" بين أيامى السالفة التى رأيتنى فيها متقلبًا فى مطارف الدعة والرغد، سعيدًا مرحًا ضاحكًا فى استعلاء، وبين يومى هذا الذى ترانى فيه ذليلاً تعسا باكيًا فى استحياء!.. ولكننى لا أبكى حزنًا على نفسى أو على ما زال من مجدى وثرائى، وسعادتى وهناءتى، وإنما أبكى على زوجتى "كيفتيو" الحسناء، وعلى ابنى الكبير والصغير، اللذين يشرقان جمالاً ولطفًا !.. أبكى على هؤلاء الأعزاء يساقون فى وحشية إلى القتل من غير جريرة ولا ذنب!..

وأحسست بأنه يرجو منى أن أصنع لزوجته وولديه شيئًا يحفظ عليهم حياتهم، وذلك ما لم يكن ممكنا، فقلت له : يا "عزيرو" يا ملك "عمورية".. لقد أصبحت "سوريا" قبرًا ضخمًا، يثوى فيه عدد لا يحصى من الموتى الذين ذهبوا ضحية أطماع لا دخل لهم فيها ، فما قيمة الحياة لزوجك وولديك إذا قدر لهم أن يفلتوا من الموت، وسط هذا الركام من الأشلاء؟! وماذا عساهم أن يجدوا من متعة البقاء فى هذه الدنيا الطافحة بالآلام بعد إذ يفجعون فيك معلقًا فوق المقصلة؟! إن موتهم معك خير من حياتهم بعدك!.. على أنى مع ذلك رجوت من "حورمحب" أن يعفو عنهم ولكنه أبى واشتد فى الإباء ، وقرر أكثر من هذا ألا يكون لك قبر معلم، مخافة أن يبقى فى الناس أثر يذكرونك به ويتجمعون عليه ، فهو يريد أن يمحو اسمك وذكراك محوا تامًا، من "سوريا" كلها، فكيف بأقرب الأقربين إليك من أفراد أسرتك؟!..

وقال "عزيرو" فى خيبة أمل : بحق آلهتك عليك إلا ما قدمت يا "سنوحى" القرابين من اللحوم والنبيذ إلى إلهى "بعل" فى "عمورية" بعد موتى ، حتى لا أهيم على وجهى فى مملكة الموت السوداء، معذبًا بالجوع والظمأ!.. وكم يكون فضلك عظيمًا إذا ما فعلت هذا كذلك من أجل "كيفتيو" تلك التى أعلم أنك أحببتها فيما مضى من أيامك ، وأنك منحتنيها كأعز ما يمنح إنسان إنسانًا للدلالة على ما بينهما من وثيق صداقة

ومحبة، وأرجو أن تكون يا صديقي أكثر سماحًا وفضلا في تقديم هذه القرابين باسمي ولدي . فلئن حققت رجائي هذا! فإني - إذن - أستقبل الموت في راحة ، ولست ألوم "حورمحب" فيما اتخذ بشأني من قرار ، فذلك ما كنت سأفعله به لو أنه وقع في يدي ، وكان لا بد من أن تدور الدائرة على أحدنا، ولا رحمة لمخذول !.. وقد كان لا يكرثني ويهيج حزني سوى المصير الفاجع الذي سيلقاه أفراد أسرتي معي ، ولكنني الآن - وبعد أن سمعت حديثك- أشعر بالسعادة إذ نذهب معًا ويختلط دمي بدمائهم في وقت واحد، فما أطيق ، وأنا في العالم الآخر، أن أرى "كيفتيو" من وراء الحجب، بين ذراعي رجل أخر . ولا مناص من وقوع هذا إذا بقيت في قيد الحياة ، فهي جميلة مشتهاة ، ولها معجبون كثيرون، وكذلك لا أطيق أن أرى أولادي الذين ولدوا ملوكًا وتزينوا بشارات الملك في مهودهم، قد أصبحوا أذلاء يباعون رقيقًا في "مصر"!..

وعاد "عزيرو" إلى احتساء الجعة، حتى إذا بلغ منها حد النشوة، أخذ يعبث بيديه فيما كان لاصقًا بملابسه من الطين الذي قذفه به الجند ، ثم رفع رأسه وواصل حديثه قائلاً: لقد قلت يا صديقي إن "سوريا" تحولت إلى قبر كبير ، ولا شك في أنك كغيرك من الناس، تحسب أن هذا قد حدث نتيجة تصرفي الذي تنصب عليه الآن كل اللعنات، ولكن أحدًا لم يكن لينظر إلى النتيجة على هذا الوجه إذا كنت قد كسبت الحرب مهما تكن ضحاياها !.. نعم، لقد أخطأت في ثقتي بالحيثيين الذين خدعوني، وأخطأت لأني لم أدر دفة القتال على الوجه الذي يمكن لي من النصر، وأسلمني هذا الخطأ إلى الهزيمة، ولذلك وقعت، على رأسي وحدي ، كل الشرور التي أصابت البلاد، وأصبح اسمي بغيضًا إلى سائر الناس كما لو كنت طاعونًا انبث فيهم!.. ولو أن الأقدار حولت مجرى النتيجة، ومنحتني فخر النصر، لتحول كل الذي أصابني إلى "مصر"، واحتملت وحدها إصر الشرور واللعنات التي أوقرتني وأودت بحياتي وملكي، والناس من يلق خيرًا قائلون له ما يشتهي!..

واندلعت الجعة برأسه فقال بصوت مرتفع: آه منك يا "سوريا"! .. يا أملي وحبي، ويا عذابي وشقوتي!.. من أجلك فعلت كل شيء، وفي سبيل مجدك وحريتك شببت نار الثورة، وها أنذا - على رباك المزدهر - أتلظى بنارها وأموت في سعيرها!.. وأنت اليوم تشهدين مصرعي غير آسية، وتتخلين عني جاحدة مستنكرة!.. وأنت يا "بابل" الجميلة ، ويا "أزمير" النضرة ، ويا "صيدا" الفاتنة، ويا "يافا" الساحرة.. أيتها المدن التي كنت تتألقين كاللآلئ في تاجي ، فيم إعراضك عني وسخطُك على وجفوتك إياي؟!.. كوني غاضبة أو راضية، مقاطعة أو مواصلة، فإني على سائر الحالات أحبك وأهواك، وأتلقى الموت سعيداً في سبيلك !.. إني أحبك يا "سوريا" لأنك وطني وبلادي، أحبك حتى في قسوتك وخداعك وخيانتك!.. أحبك على الرغم من هذا كله، فما أنت من هذا كله إلا فريسة ظروف ظالمة وأحداث شداد وستعودين يومًا إلى طبيعتك الخيرة، وفطرتك الطاهرة!.. فصبرًا، صبراً يا مدائني الجميلة المتعالية، فما أكثر ما تفنى الشعوب وتبيد ، وترتفع الدول وتنخفض، وتنحل الممالك وتدول ، وما أكثر ما تعبث الرياح بالشهرة والمجد، ولكن ثم حقيقة خالدة لا تزول من هذه الدنيا ، هي أن كل شيء من هذا يعود أقوى قوة ، وأصفى عنصراً ، وأعلى في الخافقين ذكرًا، بالصبر والثقة والإيمان وقوة الاحتمال !.. وإذن فستنجاب عنك هذه السحب الفاشية ، طال الزمن أو قصر ، وأراك غير بعيدة من بعث جديد، تتجلى فيه معالك النضرات ، متلألئة على جبال الساحل الحمراء!.وقد تركت "عزيرو" يرسل نفسه في هذا الخيال الذي يتفرج به من ضيقه وحزنه، حتى إذا هدأ واستراح ، مضيت معه إلى آخر الليل، في ألوان شتى من أحاديث، استروحنا خلالها عبير الماضي وذكرى لقائنا الأول عندما كنت أقيم في "أزمير" وحينما كنا إذ ذاك في مزدهر شبابنا وأوج قوتنا!..

وفي مطلع الفجر ، جاءنا الأرقاء بالطعام الذي لم يشأ الحراس أن يصلوا به إلينا إلا بعد أن أصابوا منه قدراً غير قليل، وكان وفرا من لحم الضأن الدسم الساخن والأرز مطهوا بالسمن، وقدموا إلينا معه نبيذاً فاخرًا من "صيدا" مخلوطًا بالمسك. وبعد أن طعمنا وشربنا طلبت من الأرقاء أن ينطفوا "عزيرو" من الأوساخ

الغاشية على جسمه وملابسه، ويمشطوا شعره ويغطوا ذقنه بشبكة مصنوعة من الخيوط الذهبية . وجئت أنا بوشاح ملكي ، فسدلته عليه مواريًا به قيوده وملابسه الممزقة، وصنع الأرقاء والخدم مثل ذلك لزوجته "كيفتيو" وأولادها، وكانوا منا بمعزل ، ولم يأذن "حورمحب" بأن يراهم "عزيرو" إلا في ساحة الإعدام!..

وحلت الساعة الرهيبة المحددة للتنفيذ، وأقبل "حورمحب" من خيمته مرسلاً في الجو ضحكات عالية، وحوله الأمراء "الحيثيون" وهم سكارى لكثرة ما شربوا من الخمر في ليلتهم ، فدنوت منه وقلت له: لعلك تذكر يا "حورمحب" أنني من أصدقائك الخلصاء وقد أديت لك خدمات كثيرة منها أنني أنقذت حياتك عند ما انتزعت سهمًا مسمومًا من فخذك وضمدت جراحك المميتة في مدينة "تاير". فباسم هذه الصداقة وهذه الخدمات ، أرجو أن توليني اليوم معروفًا وتسدى إلى مكرمة، بأن تدع "عزيرو" يموت ميتة تحفظ عليه كرامته، فلقد كان ملكًا على "سوريا" وقد حارب شجاعًا ، وأنت الغالب المنتصر، وفي وسعك أن تنكل به على ما تشاء ، فمما يرفع من قدرك أن تمنحه الراحة عند الموت، ومن البطولة أن يكون المرء كريمًا مع عدوه عندما يكون قادرًا على تعذيبه، ولقد سامه أصدقاؤك "الحيثيون" من العذاب ما لا زيادة بعده لمستزيد ، فكن أكرم عليه منهم ، وهم حلفاؤه!..

ولكن "حورمحب" تلقى رجائي هذا في غضب وتبرم، إذ كان ما أدعوه إليه يخالف الخطة التي وضعها في عناية وإحكام للتنكيل "بعزيرو" تنكيلا تطول به آلامه قبل موته، على مشهد من الجيش الذي كان قد تجمع – طبقًا لهذه الخطة – تحت سفح الجبل ، وعلى مرأى من الناس الذين كانوا قد أخذوا يتسابقون، ويتدافعون بالمناكب، إلى أقرب الأماكن من آلات التعذيب والإعدام ، وينبغي أن أقرر هنا ، إنصافًا للحقيقة ، أن "حورمحب" فيما أعده من وسائل هذا الموت الفظيع، لم يكن يصدر عن طبيعته التي أعرف أنها لم تكن قاسية إلى هذا الحد، خلافًا لما كان يروى عنه، وإنما كانت تقسره على ذلك وتطوعه له، سياسة الحرب، ومقتضيات الظهور بالقوة لاعتقاده أن الناس لا يهابون الرجل في مركز القيادة من الحرب أو في منصب

الرياسة من الحكم، إلا إذا كان قوياً قاسياً، وهو عندهم الضعيف الخانع الذى لا يؤمن جانبه ولا يرهب سلطانه إذا بدا فيهم ملاينا مسامحًا ، ولهذا اصطنع القسوة للزجر والترهيب، وكان حريصاً على أن تذاع أنباء قسوته مهولا فيها بين الناس ، فى مختلف الأقطار!..

وفى انفعال ، سحب "حورمحب" ذراعه الذى كان يطوق به عنق الأمير الحيثى "شوباتو" ، وتناول سوطه الذهبى وراح يضرب به على فخذه ، وقال : إنك يا سنوحى دائمًا شوكه فى جنبى، ولا تنفك تنفس على من تعرف أنهم من الرجال الذين يعلون ويرتفعون بأنفسهم إلى مراتب السلطة والمجد، ولهذا تبدو مشفقًا على من لا يستحقون الشفقة من أولئك الذين قاتلوا وأفظعوا القتل والنكال فى سبيل أن يسودوا؛ فسقطوا دون أن يبلغوا مبتغاهم من ذلك . ولو بلغوه، لما عرفت الرحمة سبيلا إلى قلوبهم. وإنك لتعلم أننى أعددت لهذه الساعة عدتها ، وأنفقت ما أنفقت فى استقدام مهرة الجلادين من كل أركان الأرض ، وفى إقامة ما ترى من آلات تعذيب دقيقة الصنع والتركيب، ليرى الناس كيف يموت الطاغية الذى أشاع الموت فى أرضهم وبلادهم ، وها هم أولاء ، تحت بصرك، قد جاءوا مصبحين ، فى مثل انهمار السيل وتدفعه ، ليقروا عيونًا بهذا المشهد الرائع، وها هم أولاء جنودنا -- فئران المستنقعات -- يتجمعون كذلك ، ليستمتعوا ساعة من نهار ، بمصرع الرجل الذى رماهم بالكوارث والأهوال ، وأطلق الموت عليهم من كل ناحية ومجال.. أفتحسبنى بعد هذا مستجيبًا إلى رغبتك الطائشة فى هذا الطوفان من المشاعر الفرحة المتلهفة ؟! كلا ، يا "سنوحى" ، فهذا مستحيل!..

وهنا تدخل الأمير الحيثى "شوباتو"، فربت بيده على ظهر "حورمحب" وقال ضاحكًا : إن كلامك يا "حورمحب" لهو الصواب بعينه، فلا ينبغى أن تحرمنا لذة هذا المنظر الجميل منظر "عزيرو" معذبًا ومشنوقًا ، فنحن لمثل هذه الساعة قد أبقينا على حياته، وكان فى وسعنا أن نمزق لحمه ونفرى عظامه، ولكننا لم نزد على أن وخزناه بالإبر، وداعبنا جسمه بالمخارز!..

وضاق "حورمحب" صدرا بكلمات هذا الأمير ، وأنف منه أن يلامسه ويحشر نفسه في أمر "عزيرو" على هذه الصورة ، فقال له متجهمًا : إنك لا تزال تحت تأثير الخمر يا "شوياتو"، ولئن كان في أمر "عزيرو" شيء لا تعرفه ، فذاك أنني لا أبتغي من المجاهرة بتعذيبه إلا أن يعلم العالم قاطبة أن هذا هو المصير الذي ليس منه منتدح لكل من يوالي "الحيثيين" ويثق بهم!.. على أننا ، وقد أصبحنا منذ الليلة الماضية أصدقاء ، وتساقينا معًا كئوس الإخاء، فإني سأولي "عزيرو" ما لا يستحق من رحمة ، وأمنحه ميتة مريحة ، فقد كان حليفكم، ومن حق هذا الحلف أن نرعاه بعد أن جمعت بيني وبينكم أواصر الصداقة والإخوة!..

وشاعت في وجه "شوياتو" سحابة غيظ وغضب، فكأنما قد رماه "حورمحب" بسهم قاتل ، وكان هذا في طبيعة "الحيثيين" ، فإنهم مرهفو الإحساس فيما قد يقع ماسا بشرفهم، وقد لا يتفق هذا مع ما عرف عنهم من أنهم في سبيل منافعهم الخاصة لا يحتفلون بالمواثيق والعهود، ومن أنهم على استعداد في كل وقت لخيانة حلفائهم، بل للانقضاض عليهم كلما اقتضت مصلحتهم ذلك ، فمن اليسير تبرير هذا الخلق بأنه أمر تفرضه عليهم واجبات أو أهداف وطنية تتلاشى أمامها أي اعتبارات أخرى ولعلهم ليسوا بدعا في ذلك ، فتلك حال الأمم عامة، وأخلاق الحكام والرؤساء على غير خلاف ، وما أكثر ما يسمى هذا حذقًا ودهاء وحسن تدبير!..

وكاد "شوياتو" أن ينفجر غضبًا في وجه "حورمحب"، ولكن إخوانه تداركوه ووضعوا أيديهم على فمه ليمنعوه من الكلام ، وذهبوا به بعيدًا عن "حورمحب" وما زالوا ممسكين به حتى اجتر ما في جوفه من خمر ، ومن ثم هدأت أعصابه وسكن هياجه!..

وبإشارة من "حورمحب" جيء "بعزيرو" إلى الساحة في كوكبة من الحراس ، وكان يخطو في كبرياء الملوك. مرتديًا الوشاح الملكي ممشط الشعر، يلمع وجهه بدهان الزيت، مما أثار دهشة "حورمحب" وعجبه إذ كان لا يتوقع أن يراه على تلك الحال من الكبرياء وحسن المظهر ، وزادت دهشته حين رآه، إلى هذا ، مرحًا ضاحكًا وهو مقبل

على موت ليس منه مهرب. والواقع أن "عزيرو" كان قد تناول قبل مقدمه قدرًا كبيرًا من اللحم والخمر، فهان عليه الموقف العسير ، وأعانه ذلك على ملاقاة النهاية المحتومة بالشجاعة اللائقة به كملك عظيم . فلما اقترب من "حورمحب" صاح فى وجهه أمام الجنود قائلاً: "حورمحب" ، أيها المصرى المنكود!.. لم يبق منى ما يخيفك ويزعجك ، فقد صرت مهزومًا مغللاً بالقيود، فلا تتوار هكذا وراء حراب جندك!.. وما ابتغى من شيء الآن إلا أن تدنو منى لأنفض تراب قدمى على وشاحك لكى أدخل فى حضرة "بعل" مطهرًا من قذارة أرض لوثت بمعسكرك، الذى لم أر فى حياتى أشد نجسًا منه!..

فكتم "حورمحب" غيظه، وقال وهو يتكلف الضحك: لا سبيل إلى مبتغاك يا "عزيرو" لسبب بسيط، هو أن الاقتراب منك سيدفع برائحتك النتنة إلى معدتى فتهتاج ألمًا ، وليست بكاره نفسى إلى هذا الحد !.. وإنه لمضحك حقًا أن تستقبل الموت فى هذا الوشاح المسروق الذى دسست به بدنك ليخفى قذارتك، كأنك تأبى أن تموت إلا ومعك الدليل على لصوصيتك!.. ومع ذلك فإنى فى لحظة الموت لا أحرمك من الكلمة التى تود أن تسمعها ، وهى أنك رجل شجاع تقبل على الموت ضاحكًا !.. ولهذا سأمنحك ميتة رفيقة سهلة!..

ثم أمر "حورمحب" حرسه الخاص بأن يشتدوا فى حماية "عزيرو" من الجند ويمنعوهم من قذفه بالطين، فأحاطوا به ودفعوا بمقابض رماحهم كل من حاول الاقتراب منه، وكانوا لإعجابهم بشجاعته قد نسوا حقدهم عليه!..

وجاءوا فى أثره بالملكة "كيفتيو" وولديها ، وكانت قد تزينت وجملت وجهها بالطلاء الأبيض والأحمر، وتقدمت إلى ساحة الإعدام فى هشاشة ، وكذلك تقدم الولدان فى اعتزاز الأمراء وكبريائهم ، يمسك الأكبر منهما بيد أخيه الأصغر!..

وما أن وقعت عين "عزيرو" عليهم حتى اعتراه الضعف وقال "كيفتيو!. كيفتيو!" يا فرسى البيضاء، ويا حبى المصفى، ويا تفاحتى الحلوة!.. إن لحزين ، حزين، إذ

يقضي عليك بأن تتبعيني إلى الموت وأنت ما تزالين في ميعة شبابك، ونضارة جمالك!..

وقالت "كيفتيو" وهي مفترة الثغر: كلا ، لا تحزن يا مليكي، فإني أتبعك راضية كل الرضا ، فأنت زوجي، وقد كنت رقيقة فصيرتني ملكة ، وأولدتني جميلين، فلن يحلو لي عيش بعدك ، ولن يملأ فراغ حياتي رجل سواك. ولقد حرمتك - خلال حياتك - من كل النساء واستأثرت بك لنفسي دونهن ، فمحال أن أدعك تذهب وحدك إلى عالم الموت حيث تستقبلك النساء الجميلات اللواتي سبقنك إليه، فسأتبعك - إذن - سعيدة بالموت، ولو لم يقتلوني معك، لقتلت نفسي بيدي، يا مليكي وزوجي!..

وانتعشت نفس "عزيرو" لكلامها، ونظر إلى ولديه وقال لهما: يا ولدي الشجاعين!. ولا تنسيا أنكما قد جئتما إلى الحياة مجيء أبناء الملوك، فأقبلا على الموت إقبال الأمراء البواسل ، وصدقاني إن أمره جد يسير ، إنه لا يؤلم أكثر مما يؤلم خلع الضرس!..

وقبل أن يمد "عزيرو" عنقه أمام الجلاد ، استدار إلى زوجته "كيفتيو" وقال لها : لقد سئمت منظر المصريين الكريه، وبخاصة منظر رماحهم الملطخة بالدماء، فاكشفي عن صدرك تحت نظري الآن يا "كيفتيو" حتى تتزود عيني من جماله فأمضي إلى الموت هانئًا قرير العين!..

فكشفت له عن صدرها ، وفي هذه اللحظة هوى الجلاد بسيفه الحاد على عنقه، فانفصل رأسه عن كتفيه بضربة واحدة ، ووقع متدحرجًا تحت قدمي "كيفتيو" وتدفقت الدماء غزيرة من الجسد الضخم، وسالت حول ولديه فأصابتهما من هذا المشهد المثير رعدة شديدة، وحملت "كيفتيو"، رأس زوجها المتفجر دمًا ، فضمته إلى صدرها وراحت تقبل شفتيه ووجهه، والتفتت إلى ولديها وقالت :

هيا، تقدما!.. ألحقا بأبيكما في غير خوف، لنسرع ثلاثتنا في الذهاب إليه!..

فانحنى الولدان أمام الجلاد، فأطاح برأسيهما، وكذلك فعل بأمهما "كيفتيو"!... وهكذا لقي الجميع حتفهم، وكانت هذه الميتة السهلة التى منحهم إياها "حورمحب" كرمًا منه وفضلاً!..

وقذفوا بأجسامهم بعد ذلك في حفرة ، عارية لتنهشها الوحوش الضارية، إنفاذاً لأمر "حورمحب"!..

- ٥ -

وبعد أن فرغ "حورمحب" من مراسم إعدام "عزيرو" الذى لم يحاول استجداء حياته، شرع فى معاقدة "الحيثيين" على الصلح. وكان يعلم، كما كانوا يعلمون، أن هذا الصلح في حقيقته لا يعدو أن يكون هدنة لوقف القتال الذى سئمه الفريقان وتلاقت رغباتهم في الراحة منه ولو إلى حين: ذلك لأن "صيدا" و"أزمير" و"بابل" و"قادش" كانت كلها ما تزال تحت سيطرة "الحيثيين" وقد حصنوا موقع "قادش" تحصينًا قويًا لتمتد سيطرتهم إلى شمال "سوريا". وكان "حورمحب" متفطنا إلى هذا، ولكنه مع ذلك آثر مصالحتهم ، لأن الأمور فى "طيبة" كانت إذ ذاك توجب عودته إليها ليتولاها بنفسه، فقد انتقضت بلاد "الكوش" والنوبة" على "مصر" وامتنعت عن دفع الجزية إليها . وكان "توت عنخ آمون" طوال سنين الحرب لا يعنى بشيء من حكم "مصر" إلا ببناء مقبرته، وقد فشت الفاقة في البلاد لكثرة ما استنزف منها فى نفقات الحرب . وكان الأهالي يعدون "فرعون" مسئولا عن ذلك، ولهذا كرهوه ولعنوه، وقال بعضهم لبعض: وماذا ننتظر من خير فى عهد "فرعون" الذى يجرى فى زوجته دم "فرعون" الزائف؟!.. ولم يحاول الكاهن "آى" أن ينفى من الناس هذا الشعور الساخط ، بل إنه - على النقيض - راح ينميه ويجسمه ، ويطلق فيهم شائعات تزيدهم في "فرعون" كراهية ونفوراً ، منها أنه لتفاهة عقله وسوء تدبيره وطغيان أنانيته يعمل على جمع كنوز مصر كلها ليضعها في مقبرته!..

وكنت أنا "سنوحى" قد غبت عن "طيبة" زمن الحرب كله، مرافقًا الجيش في كل مكان سار إليه، وفى كل ميدان حارب فيه، محتملا معه الشدائد والأهوال ، فاشتد شوقى إلى العودة . وقد علمت – فيما علمت – من أنباء "طيبة" على ألسنة الوافدين منها أن فرعون "توت عنخ أمون" قد ألح عليه مرض جعل جسمه هزيلاً ناحلاً وإن من الظواهر الغريبة التي لوحظت عليه أن مرضه كان يشتد إذا جاءت أنباء الحرب إلى "طيبة" معلنة انتصارات "حورمحب" ، فإذا جاءت معلنة هزائمه خف المرض وعادات العافية!.. وقال الناس، فى تعليل هذه الظواهر ، إنها من عمل السحر . ولكن الذى كان يطيل التأمل وينفذ بعينه إلى ما يجرى وراء الأستار، كان يشعر أن للحرب السورية علاقة بمصير "توت عنخ أمون"، وقد صدق هذا الشعور فيما بعد..

وكان "آى" قد ركبه القلق ، فلا يفتأ يرسل إلى "حورمحب" من وقت إلى آخر ، يقول له : لقد طال الانتظار !. أفلا تستطيع أن توقف الحرب وتحصل لمصر على صلح؟! لقد علت سنى وأصبحت شيخًا هرمًا ، فعجل بالانتصار أو الصلح ، فتحقق الأهداف التى تواثقنا عليها مرهون بذلك ؟! ولا تصرفنك شهوة الحرب عن مصلحتنا المشتركة التى توشك أن تضيع فى دوران الزمن ، إذ يجب أن أتبوأ مكانى المتفق عليه قبل أدبار الحياة ، ليجىء دورك فى أثرى!..

لهذه الدوافع مجتمعة ، انعقد الصلح مع "الحيثيين" ، وتقررت عودتنا إلى "طيبة"... وبينما كنا عائدين على السفن المزينة بأعلام النصر ، أنبئنا بأن فرعون "توت عنخ أمون" قد ترك الحياة مبحرًا على مركب "آمون" الذهبى إلى الأرض الغربية!.. وقيل لنا إنه مات أثر أزمة حادة أنتابته عندما وصلت إلى "طيبة" أنباء سقوط "مجدو" وانعقاد الصلح مع "الحيثيين"!..

ولقد كان موت "توت عنخ أمون" موضوع جدال ونقاش بين أطباء "دار الحياة" ، ولم يستقر الرأى على ما إذا كان قد مات موتًا طبيعيًا أومات مسمومًا؟! على أن من الأخبار التى شاعت فى ذلك الحين أن أمعاءه وجدت فى سواد مريب، ولا يكون ذلك إلا أثرًا من سم تجرعه!. أما أغلب الناس فقد ظنوا أنه مات كمدًا وحزنًا

لأن الحرب قد انتهت ، وكان يريدها مشبوبة لا تنتهى، ليطول بها شقاء "مصر" وتعاسة أهلها!..

وقد كان علينا، بعد أن تحققت لدينا أنباء موته، أن نعلن الحداد ونشارك فيه، فموهنا وجوهنا بالسواد، وأنزلنا الأعلام الزاهية من فوق ساريات السفن، وقذف "حور محب" إلى الماء - فى غضب شديد - بأجساد الزعماء السوريين والحيثيين الذين كان قد علقهم من أرجلهم فى شرع سفنه على ما كان يفعل المحاربون حين يعودون منتصرين إلى الفراعين العظام!.. وغاض البشر والابتهاج فى وجوه جنود فرقة "حورمحب" الخاصة، الذين جاء بهم معه ليحتفلوا بعيد السلام فى "طيبة"، لا حزنًا على "توت عنخ أمون" ، ولكن حزنًا على حرمانهم - بسبب موته - من المباهج التى كانوا يمنون بها أنفسهم فى "طيبة"وتمنوا وقتئذ لو أنهم لم يكونوا من خاصة "حورمحب"، ذلك لأن الجنود الآخرين، الذين كان "حورمحب" يسميهم "فئران المستنقعات" قد بقوا - بأمره - فى "سوريا"، لحماية الصلح والاحتفاظ به ، فهؤلاء لا شك أسعد حظًا ، لأنهم سيتمتعون - بمبعدة من "مصر" وأحزانها - بملذات "سوريا" وخيراتها!..

وعلى تلك الحال عدت إلى "طيبة" وقد عقدت النية على ألا أبرحها مرة أخرى ، فحسبى من رحلاتى وأسفارى ما لقيت فيها من شرور فاجعة وكوارث فادحة. ولم يكن ثم شىء بعد، تحت الشمس العتيقة، جديرًا بأن أسعى إليه، وأن أحمله على كاهلى وقرا إلى أوقار. ولهذا قررت أن ألزم "طيبة" وأن أعيش بها، بمنزلى القديم، عيش الفقراء. وقد زهدت فى ثروتى، فكأنما كنت أشم فيها رائحة الدماء ، فأنفقتها فى تقديم القرابين إلى روح "عزيرو"، وذلك الذى كان دائمًا فى خاطرى وخيالى!..

على أن القدر كان يدخر لى شيئًا آخر لم أكن أتوقعه، فانتزعنى من الهدوء الذى أخذت آلفه وأحيا فيه ، ليرمى بى بين يدى "آى" و"حورمحب"، حيث يقسرانى على القيام بعمل فظيع ، ملأ نفسى أسى وجزعا، ولكن لم أستطع الإفلات منه، فقد كان جزءًا هامًا من خطة نسجا خيوطها بإحكام، ليصلا عن طريقها إلى ما

يريدان من سيطــرة وسلطان!.. بيد أن القــدر نفسـه كـان لهمـا بالمرصـاد ، فـإذا الطريق أمـام مبتغاهما وعر شائك، وإذا بالأمل الذى ظناه مواتيًا ، تقف دونهما فيه، نزوات امرأة!..

حور محب

- ١ -

كان الأساس الذى يقوم عليه الاتفاق بين «أى» و «حور محب» ، هو أن يخلف الأول «توت عنخ آمون» على العرش ، ويصبح فرعون «مصر» وحامل تاجها ، وأن يليه الثانى ، بعد وفاته ، عن طريق زواجه بالأميرة «باكيت آمون» ، إذ يتقرر له بهذا الزواج الملكى حق الجلوس على العرش برغم أصله الوضيع !..

إنفاذًا لهذا الاتفاق ، أمر «أى» بالتعجيل بإجراءات تحنيط جثمان «فرعون» ووقف العمل فى مقبرته ، كما اتفق فى الوقت نفسه مع الكهنة على أنه فى نهاية مدة الحداد ، تظهر الأميرة «باكيت آمون» أمام «حور محب» فى زى الآلهة «سخمت» فى معبدها ، وأن تمنحه نفسها حتى يكون زواجهما مباركًا من الآلهة ، ويصبح «حور محب» نفسه مقدسا ..

تلك كانت خطة «أى» ، ولكن الأميرة «باكيت آمون» كانت هى الأخرى قد رسمت لنفسها خطة خاصة ، اشتركت الملكة «نفرتيتى» فى تدبيرها وفتل حبالها ، وهذه الملكة ، كما قد مر بنا ، تنطوى جوانحها على الحقد والكراهية «لحور محب» ، ولا تنى عن التفكير فى الثأر منه . وقد رأت الأميرة وسيلتها إلى هذا الهدف ، فاستمالتها إليها وألقت فى روعها أنها فوق مستوى الناس جميعًا ، وأنها إنما خلقت لتؤدى لمصر أعمالا عظيمة وتحررها من طغيان الدخلاء الذين ليس لهم حظ من شرف الأصل وعراقة النسب .. وكثيرًا ما كانت تحدثها عن الملكة القديمة «حتشيبسوت» التى كانت تضع حول ذقنها لحية ملكية ، وتتمنطق بذيل الأسد ، وتجلس على عرش الفراعنة وتحكم المصريين ! ... وما زالت بها ، هكذا ، تثير كبرياءها ، حتى أصبحت على

درجة كبيرة من الغرور المتهوس ، مستعلية مترفعة ، لا تحفل بأحد ولا تفتح قلبها لإنسان ، إذ لا ترى في «مصر» كلها من هو أجدر منها بذلك ! .. وحينما أيقنت «نفرتيتى» من أنها بلغت من الأميرة «باكيت آمون» هذا الحد من الغرور والاستغلاق دون الرجال ، ودون فكرة الزواج بخاصة ، راحت تذكر لها «حور محب» وتناله عندها بقالة السوء ، وترميه بهجنة الدم والأصل ، وتشككها فى نواياه ومآربه ، وكانت الأميرة قبل ذلك تكتم فى نفسها شعور الإعجاب بقوته ووثاقة بدنه ، ولكنها – متأثرة بأحاديث «نفرتيتى» عنه – باتت تحتقره وتجفوه ، وتلفظ من خيالها زواجه منها ، معتقدة أن هذا الزواج يلوث دمها المقدس ! ..

كانت «نفرتيتى» تستهوى الأميرة على هذا النحو لتجعل منها خنجرا فى صدر «حور محب» الذى تبغضه ، ثم لتحقق لنفسها بذلك غرضًا آخر هو أن تظل صاحبة الشخصية القوية المؤثرة فى المحيط الملكى ، فقد شق عليها – بعد موت زوجها «إخناتون» – أن تصبح غير ذات سلطان ، وألا يكون لها من الشأن أكثر مما لأية سيدة عادية فى البلاط ، وهى ما تزال موفورة الجمال ، على الرغم مما نالت الأيام منه . وكان يلهب اعتدادها بهذا الجمال أن الكثيرين من أمراء المصريين كانوا يتهافتون عليها ويبتغون القرب منها ، فزادها ذلك شعورا بالحاجة إلى أن تبقى سيدة القصر الأولى ! ..

وكان «آى» يشعر فى داخل نفسه أن ابنته «نفرتيتى» تدرك ، لحدة ذكائها ، الغرض الذى يعمل له متعاونا مع «حور محب» ! .. وعلى أنه لم يكن يعلم شيئًا من أسرار الخطة التى حاكت خيوطها مع الأميرة «باكيت آمون» ، فقد كان يتوجس منها شرا ، ويرى فيها خطرا عليه وعلى أهدافه ، ولهذا كان حريصا على أن تبقى داخل القصر الذهبى لا تجاوزه إلى الخارج ، معزولة فيه عن دنيا الناس ، وظن هذا كافيا لإبعادها عن طريقه ! .. ولكنها ، وهى المرأة الواسعة الحيلة المتقدة الذكاء ، الساحرة الجمال ، قد صنعت فى معزلها ومخفاها أكثر مما كان يتوقع وفوق ما كان يحذر ! ..

وأخذت معالم الخطة المستترة تلوح على صورة مفاجئة حين جاء «حور محب» إلى «طيبة» وراح في لهفة ونفاد صبر يدور حول جناح الأميرة «باكيت آمون» ، محاولا أن يلقاها ويتحدث إليها ، ولكنها تمنعت عليه وأبت لقاءه ، وفي الوقت نفسه رأى رجلا من «الحيثيين» يدلف إلى جناحها ويطلب مقابلتها ، فتأذن له في الحال ، ويقضي معها - منفردين - وقتا غير قصير ! ..

ودهش «حور محب» لهذا أكبر الدهشة ، واستثاره الشك والغضب ، فتصدى للرجل الحيثي عند خروجه وأراد أن يقبض عليه ، ولكن الرجل مضى في طريقه لا يباليه ولا يحفل به ، مترفعا كما لو كان ذا نفوذ وسلطان يعلوان على نفوذ «حور محب» وسلطانه! ..

وكان هذا حدثًا غريبًا ومريبًا في الظروف الراهنة ، فأسرع «حور محب» إلى «آي» ، ينقله إليه ويستوضح أمره ، فلم يكن «آي» أقل منه استغرابا له واسترابة فيه ، ومن ثم اتفقا على كشف ما وراءه من أسرار ، وكان أن اقتحمت ، ليلا ، حجرات «باكيت أمون» وفتشت تفتيشًا دقيقًا . وفي رماد مدفأتها وقعوا على ألواح ورسائل خاصة ينبثق منها الضوء الذي يشي بما كانوا يبحثون عنه من أسرارها . وهنا اعترى كلا من «حور محب» و «آي» ذعر وانزعاج ، فأمرا من فورهما بقتل العبيد الذين كانوا يقومون على حراستها ، واستبدال آخرين بهم ، وعهدا إليهم بتشديد الحراسة على الأميرة وعلى «نفرتيتي» كذلك ، حيث أمرا بألا تبرحا غرفتيهما وألا تتصلا بأحد ! ..

وفي الليلة نفسها جاءني «حور محب» و«آي» في منزلي المتواضع ، الذي أعادت «ميوتي» بناءه بما كان يرسله إليها «كابتاح» من نقود فضية . وكانا في مجيئهما يخفيان وجهيهما حتى إن «ميوتي» تجهمت لهما وكادت تردهما عن المنزل ، مستنكرة قدومهما في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، غير أنهما ألحا عليها لتوقظني من النوم لأمر مهم ، فأدخلتهما على كره منها وأشعلت المصباح ، ثم أيقظتني وكنت متعبًا ،

فقليلا ما كنت أشعر بالراحة منذ عودتي من «سوريا» ، لكثرة ما يعتادني من ذكرى المآسي والأهوال التي عشتها هناك . وقد حسبت الرجلين - وأنا أستقبلهما - من المرضى جاءا يطلبان الإسعاف والمعاونة الطبية ، ولكنهما كشفا عن وجهيهما ورغبا في الخلوة بي على عجل . وفي غمرة المفاجأة ، أشرت إلى «ميوتي» لتأوي إلى فراشها ، وكانت قد أحضرت إلينا نبيذا ورأت الرجلين سافرين ، فمضت وهي تحدجنا بنظرات متلصصة ، وهم عندئذ «حور محب» بقتلها ، لخوفه من أن تفضح سر هذه الزيارة التي يعلقان على إخفائها أهمية كبرى ! .. ولكني - وقد سرني أن أراه خائفًا على غير ما أعرف من طبعه - اعترضته قائلا : لا يمكن أن أسمح لك بأن تنالها بسوء في داري ، وأغلب الظن أنك مريض إلى حد أن تخشى امرأة ! ... على أنه ليس هناك ما تخشاه منها ، فهي عجوز ساذجة ، ولا تعرف من تكونان ، وهي أكثر من هذا صماء لا تسمع ، فدع أمرها وخذ فيما قدمتما من أجله ! ..

قال «حور محب » متململا : وهل ترانا جئنا للنقاش في امرأتك هذه ، التي لا قيمة لها ، حية أو ميتة ؟!. إنما جئنا إليك لأن «مصر» في خطر ، وعلينا أن ننقذها ! ..

وقال «آي» مؤيدا «حور محب» : أجل ، يا «سنوحي» ، إن «مصر» في خطر شديد لم يحدث من قبل أن تعرضت لمثله ، وهو يمتد إلى أشخاصنا نحن كذلك ، ومن أجله سعينا إليك ! ..

وفيما كنت أضحك ساخراً من قولهما ، أخرج «حور محب» من بين ملابسه الألواح والرسائل التي عثر عليها في مخفى الأميرة «باكيت آمون» ، وناولنيها لأقرأها ، فما كدت أطلع عليها حتى تولاني الضيق وطار من فمي ورأسي طعم النبيذ ولذته ، إذ كانت ألواحًا ورسائل متبادلة بين الملك «شوبلو ليوما» والأميرة المصرية ، وكانت تقول له في إحدى رسائلها : إنني ابنة «فرعون» ، والدم المقدس يجري في

عروقى ، وليس فى مصر كلها من هو جدير بى ، وقد علمت أن لك أولادا ، فابعث لى بواحد منهم لأكسر معه الجرة ، وأشدد به أزرى فى حكم أرض «كيم» ! ..

وقد فهمت من تسلسل الألواح والرسائل أن الملك «شوبلوليوما» ، وهو الحريص الحذر ، قد ساوره الشك فى صدور هذه الرسالة وأمثالها ، بمثل هذه الصراحة ، من الأميرة ، فأعادها إليها مع رسول خاص ، ليتحقق من أنها مرسلتها حقا ، وليعرف منها شروطها فى الزواج ! ..

وكانت من بين رسائلها ، رسالة أخرى تكرر عرضها وتؤكد فيها أن النبلاء المصريين وكهنة «آمون» يؤيدونها ويقفون وراءها ! ..

وعندما استوثق «شوبلوليوما» من ذلك ، كف عن القتال وعجل بمصالحة «حور محب» ، وراح يستعد لإرسال ولده «شوباتو» إلى «مصر» . وكان من المتفق عليه أن يشخص إليها «شوباتو» من «قادش» فى يوم معين ، حاملا معه هدايا كثيرة إلى الأميرة «باكيت آمون» . وبان مما جاء فى آخر ألواحه إليها أن «شوباتو» كان هو وحاشيته فى طريقهم إلى «مصر» ! ..

وهالنى ما اطلعت عليه من معلومات فى هذه الألواح والرسائل ، وقلت فى دهشة : ذلك شىء غريب ومخيف حقيقة ، ولكننى - وحق آلهة «مصر» جميعًا - لا أدرى ما هى علاقتى بهذا الأمر ، وكيف وعلى أية صورة أستطيع معاونتكما فيه ؟ ! فلست كما تعلمان سوى طبيب ، وفى غير مقدور الطب أن يسيطر على قلب امرأة مجنونة ، ويحوله من اتجاه إلى اتجاه ، أو بالأحرى من «شوباتو» إلى «حور محب» ! ..

وقال «حور محب» : لقد عاونتنا فى كثير من أمور لا صلة لها بالطب والأطباء . والذى مرنت يده على المجداف ، هو الذى يستطيع إنقاذ المركب عندما تتلاطم حولها الأمواج ! .. وسواء لدينا أكرهت أم رضيت ، فلا مناص من أن تسرع من ساعتك لملاقاة الأمير «شوباتو» فى الطريق ، وتحول بينه وبين الوصول إلى «مصر» !.. وإنك لترى

أننا لا نعهد إليك بأمر يخرج عن نطاق عملك كطبيب له فى مثله سابقة ، ولعلك قد فهمت الآن . ماذا يراد منك أن تفعل ... على أنى أقول لك شيئًا أحب ألا تنساه ، هو أن اغتيال «شوباتو» يجب أن يتم فى خفاء ، ودون أن يشعر أحد بأن لنا دخلا فيه ، حتى لا تعود الحرب بيننا وبين «الحيثيين» ، فإن الوقت الملائم لمحاربتهم لم يحن بعد ! ..

وشاعت فى بدنى رعدة قاسية ، لهول هذه المهمة الشريرة التى يفرضانها على فرضًا ، وقلت متلعثما : لا أنكر أنى قد فعلت شيئًا مثل هذا من قبل مع فرعون «إخناتون» ، ولكنى فعلته من أجل نفسى وفى سبيل مصلحة «مصر» الكبرى ، بل فى سبيل مصلحته هو ، إذ كان المرض قد أدنفه وأضناه وأصبح الموت خيرا له من الحياة .... والموقف اليوم غيره بالأمس ، فهذا الأمير لم ينلنى بسوء ، ولم يمسسنى منه ضر ، ولم أره فى حياتى غير مرة واحدة ، عارضة ، ساعة إعدام «عزيرو» ! .. ففيم إذن أقتله ؟ ! وبأى دافع ارتكب معه جرما شنيعًا ؟! ... لا ، يا «حور محب» ، إن الموت أحب إلى مما تدعوننى إليه ، ولست بمستطيع أن أجعل منى هذا القاتل الآثم ! ..

فتعبس وجه «حور محب» وفار غضبه ، فراح يضرب فخذه بقبضة سوطه ، والتفت «آى» إلى وقال : إنك يا «سنوحى» رجل عاقل تحسن تقدير الأمور ، وليس الذى ندعوك إليه أمرا يتعلق بأشخاصنا ، إنما هو أمر هذه المملكة كلها ، وقد رأيت بنفسك دليل المؤامرة الخبيثة التى توشك أن تلقى بالبلاد فى أيدى أعدائها ، تحقيقًا لشهوات امرأة طائشة ، فعلينا بعد أن علمنا سرها أن نقوم فى غير تلبث بما يجب علينا منعًا للخطر قبل أن يدهمنا جميعًا ، وليس ثمة من وسيلة أخرى غير التى أندبك لها ، فهى أحكم وأدق الوسائل وأسلمها عاقبة وأسرعها نفاذا إلى الغاية . وهذا هو الأمير «شوباتو» قادم إلى «مصر» ، ويجب ألا يصل إليها ، ولا نستطيع أن نمنعه لأننا حلفاء ! .. فامض إليه – إذن – وألقه فى طريقه بصحراء سيناء ، ولتكن لك فى مقدمك عليه صفة الطبيب الموفد إليه من الأميرة لترى بنفسك مدى صلاحيته للواجبات

الزوجية . ولا شك فى أنه سيحتفى بك ويتلقاك مرحبا ، ويدنيك منه لتحدثه عن الأميرة ، وعن الرابطة السحرية التى ستجمع بينه وبينها .. إلى آخر ما لابد أن يكون بين عاشق مشوق ، ورسول محبوبته ! .. ومن هنا ستكون مهمتك ميسرة وظروفها مواتية ، ولا تنس وأنت تجرعه الموت أنك تؤدى واجبا وطنيًا ، وأنك مع ذلك ستنال عليه مكافأة سخية تصبح بها من كبار الأثرياء !..

وأردف «حور محب» قائلا فى لهجة صارمة : ولك الآن أن تختار ، فإما حياة أو موت ! .. فإن أبيت أن تمضى إلى حيث نريد ، فقد اخترت بنفسك الموت العاجل ، إذ لن نسمح لك أن تبقى حيا ومعك سرنا . ولن أتردد - أنا صديقك القديم - عن جز رقبتك من الأذن إلى الأذن . وسيحزننى هذا بلاشك ، ولكنه أهون على نفسى من أن أراك محجما عن موافقتنا فى عمل لا نرى سواه سبيلا إلى إنقاذ «مصر» ، وعجيب أن تسميه جريمة ، فى حين أنه واجب لا يقبل الاعتذار منه ، ونحن شركاؤك فيه على أية حال ، ولا أحد سواك يمكننا الاعتماد عليه والثقة فيه ، فعجل برأيك قبل أن يضيع الوقت عبثا ! ..

وكالطير الذى يسقط فى شبكة الصياد ، وجدت نفسى بين هذين الرجلين حبيسا مغللا لا أستطيع الإفلات من أيديهما ، ورأيت مصيرى ، رضيت أم لم أرض ، مرتبطا بمصيرهما إلى الأبد !..

وفى شجاعة متكلفة ، قلت : إنك تعلم جيدًا يا «حور محب» أننى لا أرهب الموت ! ..

ولكنى الآن - وأنا أكتب لنفسى ولا أحاو ل أن أزور موقفى وشعورى حينذاك - أعترف فى كثير من الخجل أن وعيد «حور محب» وتلويحه لى بالموت قد أفزعنى فزعا شديدًا . وهنا بدت لى الحياة جميلة حلوة ، وسرح خيالى بين أفواف زهورها ومراتع لهوها ، وخفق فؤادى حنانا إلى مشاهد الطيور محلقة فى الجو أو متواردة على ماء النيل ، وإلى نبيذ الميناء وطعام الإوز مطهوا بيد «ميوتى» الصناع ، فهاج هذا عندى

حب الحياة ، ويغضني في فكرة الموت التي ستحرمني من كل هذه المتع ! .. وتذكرت عندئذ أنني قضيت بيدى على «إخناتون» ، وكان صديقي ، لتنجو «مصر»لأهين «لحور محب» أن يصد «الحيثيين» عنها بقوة السلاح ، فماذا يمنعني أن أفعل الفعلة نفسها مع ذلك الأمير «شوباتو» ، وهو واحد من هؤلاء «الحيثيين» ، بل هو من كبارهم الذين أرادوا الشر بمصر وأعلنوه حربا عليها ؟! .. إنه لا شك قد ارتكب ضد بلادى أوزارا في الحرب يستحق عليها ألف ميتة لا ميتة واحدة ! .. وإذن فليكن ما يريد «حور محب» و «أي» ، فإنهما إنما يندبانني لعمل غير بعيد من فكرة الدفاع عن «مصر» التي طوعت لي من قبل اغتيال صديقي «إخناتون» ... وعند ذاك خرجت من ترددى وقلت لحور محب : دع خنجرك يا «حور محب» في غمده ، فإني - دون خوف منه وبلا خشية من وعيدك - سأفعل ما تشيران به ، فلست أقل منكما رغبة في إنقاذ «مصر» من سيطرة «الحيثيين» ومطامعهم ومؤامراتهم!.. ومع أني لا أعرف الآن ماذا أنا فاعل على صورة محددة، فإن أغلب ظني أن المحاولة التي سأتقحم أخطارها إلى حياة الأمير «الحيثي» ستكلفني حياتي في حالتي الفشل أو النجاح ! .. فالحيثيون ، لسوء رأيهم في المصريين ، سوف يكونون أشد حذرا على أميرهم حين يخلو به مصري مثلي ، وقد يكتشفون سرى بعيونهم الراصدة قبل أن يموت . وقد تغلبهم الشكوك في أمرى إذا مات ، وهنا تكون النجاة من أيديهم غير مأمولة ولا مأمونة العاقبة . على أني لا أبالي بحياتي حين يكون الأمر متعلقًا بحياة «مصر» ، وسأمضي إلى مهمتي لهذه الغاية وحدها دون نظر إلى ما تعداننى به من هدايا ومكافآت ! .. وليكن ما يكون من وراء ذلك ، فلن يكون إلا ما هو مقدور لي أن ألقاه ، وليس ثمة مفر مما كتب لي على صفحة النجوم ! .. ومنذ هذه اللحظة تستطيعان - أنت يا «حور محب» وأنت يا «أي» أن تطمئنا إلى أن «سنوحي» هذا ، الطبيب الذى لا وزن له - يقدم لكما تاج «مصر» ، محققا به الأمل الذى تطمحان إليه !.. فخذاه ، خذا تاج «مصر» ، من يدى هاتين ، ولا تنسيا أن تباركا اسمي حين تصبحان - أحدكما أو كلاكما - على عرش الفراعنة العظام ! ..

وعندما كنت أقول هذا ، كانت تغالبني عاطفة السخرية والاحتقار لهذين الرجلين ، اللذين يتحفزان للوثوب على عرش «مصر» تحفز الذئاب للوثوب على الفريسة !.. فإني - أنا الذى تجرى في عروقه الدماء المقدسة ، ولى وحدى حق الوراثة الشرعية لهذا العرش الفرعوني - يراد منى أن أخوض معمعة الموت في سبيل أن يعلواه دونى ، وهما الغريبات عنه ، الطارئان عليه ، في هجنة دم وريبة أصل ، فما كان أمرهما - يوم مولدى - يزيد على أن أحدهما وهو «أى» كان كاهنا من كهنة الشمس ، ضئيل الشأن تائها فى غمار الكهنوت ، بينما كان والدا «حور محب» لاصقين بالأرض هوانا وضعة ، لا ينم عليهما بين الأحياء سوى ريح بغيض من روشت الماشية التي يرعيانها! ..

وكاد شعور السخرية بهما يطفر على فمي قهقهة ، ولكني أمسكت عن ذلك ، فقد ومضت فى رأسى صورة المصير الذى يتلهفان عليه ، فأدركت أن الأطماع التى يكتمها كل منهما فى صدره ، ستتولى بنفسها حرمانهما معًا من السعادة التى يبغيانها ، فما علم أن لصا قد سعد بما يسرق ، فكيف إذا كانا لصين يأتمر أحدهما بصاحبه ، ويكيد له ويؤثر نفسه عليه ؟!...

ولكنى بعد أن سبحت قليلا فى هذه الأفكار ، نظرت إلى وجه «حور محب» الطافح بالانفعال وقلت له : يا صديقى ! .. إن التاج - فيما أرى - ثقيل على الرءوس التى لم تألفه ! .. وقد لا تعلم هذا الآن ، ولكنك ستعلمه فى يوم قائظ عندما تتوارد الماشية على حافة النهر لتروى ظمأها ، وعندما لا تقرع أذنيك أصوات غير خوارها ، مختلطا بخرير الماء! ..

وكان كلاما غامضًا لا يخلو من سخرية ، ولكن «حور محب» كان عجلا فقال : هيا أسرع ! .. فالسفينة فى انتظارك ، ويجب أن تلقى «شوباتو» فى صحراء «سيناء» قبل أن يصل مع حاشيته إلى «تانيس» ! ..

وطوعا لأمرهما ، ذهبت إلى السفينة التى أعدها «حور محب» ، فركبتها بليل ، حاملا معي صندوق عقاقيرى وقليلا من النبيذ وبقية الأوزة التى كانت «ميوتى» قد أعدتها لغذائى ! ..

- ٤ -

وأضوتنى فى سفرى هذا وحدة قاسية ، فالمهمة شاقة وفظيعة ، وشرها المطوى فى دخيلة نفسى يلهب رأسى ومشاعرى جميعًا دون أن أجد من يمكن أن أبوح له به لأتخفف من عبئه وأبترد من لظاه ! .. على أن البوح به كان مستحيلا على أية حال ، فلا مناص - إذن - أن أتفرد به مكتومًا على قسوته فى قلبى ، وإلا أرديت نفسى فى ميتة شنيعة بأيدى «الحيثيين» ، ولهذا كان على أن أكون أكثر دهاء من الثعبان ! . على أنه أحيانًا كانت تلح بى الرغبة فى السلامة من الخطر المحيط والخوف الجاثم ، وتجنح به إلى التفكير فى الفرار ، واللجوء إلى أرض بعيدة كما فعل من قبل «سنوحى» بطل الأسطورة الذى سميت باسمه ، تاركا «مصر» للقدر يفعل بها ما يشاء ! .. ولو أنى طاوعت نفسى فى تفكيرها هذا لتغير مجرى الحوادث ، ولتغير كذلك تاريخ «مصر» ! ... ولكنى لم أفعل ... وقد تبينت الآن فى سنى المتقدمة ، أن جميع الحكام سواء ، وكذلك كل الأمم ، لا فرق بين حاكم وآخر ، ولا بين أمة وأخرى ، فالنتيجة فى سائر الأحوال أن الفقراء هم الذين يتحملون كل الألم والشقاء ! ..

وانصرفت عن فكرة الفرار إلى التفكير فى الطريقة التى أقضى بها على حياة الأمير «شوباتو» دون أن ينكشف الأمر ، ودون أن أكون مسئولا عن موته ، ودون أن تكون «مصر» مسئولة كذلك عنه ! ..

وتحت وهج الشمس ، وإلى جانب إناء النبيذ ، جلست أفكر !.. وبدت المهمة فى خيالى معقدة وشائكة ، فالأمير - بلا ريب - محوط فى سفره بالحراسة القوية الملائمة لمكانته ، و«الحيثيون» بطبعهم أهل ريبة وحذر ، وهم لذلك مكتنفون أميرهم بالحفظ

والتقية والحراسة المكينة ، فبينى وبينه منهم حاجز منيع ، وعيون يقظى ، فما السبيل - إذن - إلى الانفراد به ؟ ! إن هذا ممكن إذا استطعت استدراجه إلى صيد الغزال فى الصحراء ! .. إنه فى المهمه القفر سيمضى فى أثر أهداف غير مستقرة ولا معلومة ، والصيد فى الصحراء يقتضى العزلة والانفراد ، والتخفى عن أعين الحيوان والطيور التى يراد الإيقاع بها فى أكنانها ، فهو لن يصحب فى رحلة الصيد حراسا ولا جنودا ، وسأكون وحدى معه ، فمن اليسير إقناعه بأنى جد خبير بفنون الصيد وأساليب المطاردة ، فيرغب فى صحبتى له ، ويستأنس بى فى مجاهل الصحراء ! ... وعندئذ ستتاح لى الفرصة لأريش سهما قاتلا فى ظهره أو صدره ، ولكن هذا سيكون عملا طائشًا ؛ لأن الجريمة سرعان ما تنكشف ، وسيرى قومه أننى أنا قاتله ، فليس يوجد من توجه إليه التهمة سواى ، أنا رفيقه الوحيد ! .. ذلك إلى أننى لست متأكدا من أنهم سيتركونه منفرداً ، فأغلب الظن أنهم سيتعقبونه بعيونهم الراصدة من بعيد أو من قريب ، فالحذر الذى يحاط به وهو بينهم لا يمكن أن يتخلى عنه وهو منهم بمبعدة ، وقد خطر لى وأنا أتصور نفسى خلفه فى الصحراء ، أن أقذف به ، وهو مشغول بمطاردة الحيوان الشارد ، فى غور من الأغوار العميقة ، فيموت وأزعم لهم أنه تردى فيه فجأة أثناء المطاردة !.. ولكننى سخرت من هذا الخاطر كذلك لتفاهته ولاحتمال المراقبة التى تلاحقنا من حراسه ! .. وانتقلت من هذا إلى التفكير فى قتله عن طريق السم مدسوساً فى طعام أو شراب ... ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟! .. إننى أعلم من عادة «الحيثيين» الكبار ألا يتناولوا طعاما أو شرابا إلا بعد أن يتناوله قبلهم عبيدهم الذين يرافقونهم، مأخوذين فى ذلك بغريزتهم المستريبة ، فهذه الوسيلة تبدو كذلك مستحيلة ! .. وهنا وردت على ذهنى ذكرى السم السرى الذى كثيرا ما سمعت أن الكهنة كانوا يستعملونه فى أغراض الاغتيال الخفى بالبيت الذهبى ، وكيف كانوا - على ما يروى - يدسونه فى الفاكهة التى لم تنضج بعد على أشجارها ، فإذا تناول

أحد ثمارها بعد النضج يموت لساعته ، وكيف أن هؤلاء - صانعي السم السرى - كانوا يخلطون الرسائل المغلفة بمواد معينة حتى إذا فضت قتلت ، ومثل هذا كانوا يفعلونه بالزهور ذات الرائحة العطرة ، فلا تكاد رائحتها تنفذ إلى الأنوف حتى ينفذ الموت معها !.. ولكن هذا - على افتراض صحة ما يحكى عنه - كان من أسرار الكهنة ، ولست منه على يقين ، ولا سابقة لى فيه ! .. ثم إننى لو كنت أعرف سره وطريقته ، لما كان فى مستطاعى أن أفعله . فالصحراء التى هى مجال مهمتى ليس فيها أشجار فاكهة خضراء يمكن دس السم فى ثمارها غير الناضجة ، على أنها إن وجدت ، فالوقت وظروف الرحلة غير المتلبثة ، ووجودى إلى جانب الأمير ضيفا عابرا ، وقيام عبيده على تذوق طعامه ، كل هذا يجعل التفكير فى هذه الطريقة ضربا من الخيال ! .. ومستحيل ، بالإضافة إلى ذلك ، التفكير فى طريقة خلط السم بالرسائل أو دسه فى الزهور ، فأمراء «الحيثيين» لا يفضون رسائلهم بأيديهم وإنما يدعون ذلك لكتاب ديوانهم . وليس من عاداتهم شم الزهور ، فهم إذا رأوها نثروها بسياطهم ووطائو بأقدامهم دون أن تمتد إليها أيديهم ! ..

واستغلقت فى عقلى منافذ التفكير فى الوسائل الممكنة للقضاء على حياة الأمير فى سرية غير واشية ، وتولتنى من ذلك حيرة شديدة ! .. وقد عرضت لى فى هذه الحيرة فكرة أن أقدم له السم وهو على فراشه ، فذلك مستطاع لى كطبيب ، ولكن هذا لا يكون إلا إذا كان الأمير مريضا ، وهو لا يشكو من مرض ! .. وحتى لو كان مريضًا فإن الأطباء «الحيثيين» أدنى إليه منى مكانًا ، وسيدعون إلى علاجه ! .. وهكذا عاجلنى اليأس من هذه الطريقة الأخيرة والوحيدة ! ..

واتجه فكرى ، فى هذا الوقت ، إلى «كابتاح» ، فتمنيت لو كان موجودا معى ليخرجنى بدهائه وحيلته من هذه الظلمات الحالكة ، ولكن لم يكن إليه من سبيل ، فهو لا يزال فى «سوريا» مشغولا بجمع الثروة ! ..

وإنما عنيت بشرح أفكارى وخواطرى هنا ، على هذا النحو من التفصيل ، بيانا لما انطوت عليه المهمة التى ندبنى لها «حور محب» من العسر والصعوبة والخطر المخيف ! ..

بلغت «تانيس» مبلبل الفكر مجهد الحواس ، فاستأجرت محفة ومضيت عليها فى الطريق الصحراوى الحربى الذى رسمه لى «حور محب» ، وعلى مسيرة ثلاثة أيام من «تانيس» التقيت بقافلة الأمير وحاشيته ، وكانت إذ ذاك قد رابطت على مشرب ماء . ولفت نظرى أنها مزودة بالعدة الكاملة للحراسة وتأمين السفر ، ففيها عجلات حربية ثقيلة كثيرة العدد ، وعجلات أخرى خفيفة لكشف الطريق وتمهيده وأمامها ، كما رأيت بينها مجموعة كبيرة من الحمير تحمل الكثير من الهدايا إلى الأميرة «باكيت آمون» .

وقد عرفت أن تجهيز القافلة بهذه القوة الظاهرة كان من تدبير الملك «شوبلوليوما» الذى كان يعلم أن رحلة الأمير إلى «مصر» للقاء الأميرة المصرية تقع على غير هوى «حور محب» ، بل هى أمر يبغضه ويثير ثائره ، ولذلك رأى الاستعداد لاحتمالات الهجوم المفاجئ ! ..

واستقبلنى «الحيثيون» بالكثير من الحفاوة ، وكذلك فعلوا مع المصريين الذين جاءوا بى من «تانيس» . ولم أستغرب هذا ، فنحن مصريون وبيننا وبينهم معاهدة صلح ، وهى تفرض عليهم ألا يمدوا أيديهم إلينا بسوء ، ومن عادتهم التجمل أو اصطناع المجاملة لمن لا يستطيعون نيله بأسلحتهم ! .. وقد أخذوا فى معاونتنا فى إقامة مخيم إلى خيامهم لننزل فيه ليلتنا ، ولكنهم أحاطونا بحراسة مسلحة معللين ذلك بأنهم يريدون حمايتنا من اللصوص ووحوش الصحراء ! ..

وحينما علم الأمير «شوباتو» بمقدمى موفدا من الأميرة «باكيت آمون» ، استدعانى إليه فى الحال ، فرأيت فيه شابا شائق المنظر ، ذا عينين حادتين فى جمال

، ووجه ينتضر بالقوة والسعادة ، وأنف كمنقار الطير الجارح ، وأسنان كأسنان الحيوان المتوحش ، وقد استقبلني هاشا مسروراً ..

كان في منظره وحركته يمثل الشباب المزدهر والقوة الفتية في أعلى درجاتهما ، ولم يكن يشوب مظهره أثر من آثار الرحلة المجهدة وسط الصحراء القاحلة ، ذلك أنه على طول طريقها يسير محمولا على محفة وثيرة تحت مظلة ضافية ، محتفلا براحته من جميع الوجوه حتى يلقى الأميرة المصرية موفور العافية فيروق في عينيها ! ..

وتقدمت إليه بالرسالة التي زيفها «أي» باسم الأميرة «باكيت آمون» ، وقد تكلفت في تقديمها مظهر التأدب والخشوع ، فانحنيت أمامه وأرخيت ذراعي إلى مستوى مفصل الساقين إشعاراً له بأني أعامله كما لو كان قد أصبح بالفعل ملكًا على ! ..

وتسلم الرسالة في بهجة ظاهرة وقال لي أهلا بك يا رسول زوجتي المقبلة ، ويا طبيب القصر الملكي ... إنك عندي منذ الساعة لبالمنزلة الأثيرة والموضع الكريم ، فأنت لا شك جدير بهذا إذ وضعت الأميرة ثقتها فيك واستودعتك دون سواك رسالتها ، وإني لموليك الثقة نفسها ومفض إليك بكل ما تريد الأميرة أن تعلمه من خفايا أمري ، فلا ينبغي أن يكون غير التكاشف والمصارحة بين أميرة وأمير يرتبطان برباط الزواج ، وأستطيع من جانبي أن أؤكد لك أنني أعد وطنها ، بهذا الزواج ، وطني ، وأهلها أهلي ، وستكون عادات «مصر» عاداتي . وقد عنيت أكثر ما عنيت بالتعرف إلى هذه العادات وما برحت أجهد نفسي للانطباع عليها حتى إذا ما بلغت «طيبة» كنت منها غير غريب . وإني لمشوق أشد الشوق إلى أن أرى في «مصر» عجائبها التي قيل لي عنها الكثير ، وأن أتصل عن كثب بآلهتها العظيمة التي ستصبح آلهتي أنا كذلك ، وأكثر ما يشغفني ويشوقني إلى «مصر» هو لقاء زوجتي الملكية ، ولا غرو فإنها ستكون شريكتي المحبوبة في الحياة ، وستثمر علاقتنا الزوجية أبناء يحكمون «مصر» ولا شيء الآن هو أشهر وأحب إلى نفسي من أن تحدثني عنها ، فتنبئني ، يا

رعتك الآلهة ، بكل ما تعرفه من صفاتها وسماتها وأخلاقها ، وأصدقني القول حتى عن عيوبها إن كانت ثمة عيوب فيها ! .. فإني أريد أن أعرف عنها كل شيء ، ولا ضير في هذا وإنما هو العلم بما لا أعلم من حياتها الخاصة ، لألاقيها على الصور التي تلائم واقع حالها ومقتضيات طباعها ، ولك أن تطمئن إلى وتثق بي ، فإني جد مطمئن إليك وواثق بك .

وحين كان يرسل كلماته هذه معبرا عن الاطمئنان والثقة ، كان جنوده متراصين خلفي شاهرين سيوفهم ، كما كان الحراس المحيطون بخيمتي يضعون أيديهم على مقابض أسلحتهم ! .. ولكني تعمدت الإغضاء عن هذا المظهر المنطوي على بالغ الريبة والشك ، وكررت الانحناء أمامه على الأرض ، وقلت له : إن سيدتي «باكيت آمون» نسيج وحدها في الجمال ، إنها أجمل نساء «مصر» طرا ، فوجهها كالقمر إشراقا وعيناها كزهرتي اللوتس نضارة وقد حرصت على طهرها وعفتها كما لما تحرص امرأة أخرى ؛ لأن دمها المقدس يعصمها من الدنس . وإني كطبيب أؤكد لك أنها أفضل امرأة هيأتها الآلهة لإنجاب أفضل الأبناء ، ولا يغض من أنوثتها المزدهرة أنها تكبرك بعدد قليل من السنين ... ولقد أوفدتني إليك لأتحقق من أن دمك الملكي خليق بأن يمتزج بدمها ، وأنك من الناحية العامة تستطيع أن تؤدي واجبك كزوج ! .. وهي أخيراً مشوقة إلى لقائك مثل شوقك إلى لقائها .

وهنا انتصب الأمير «شوباتو» ودفع صدره إلى الأمام ورفع ساعديه بإزاء كتفيه وضغط على عضلاته ، مبديا بذلك وثاقة بدنه وقال : انظر ! . فهذان ذراعاي تستطيعان أن تشد أقوى قوس ، وبوسعي أن أطبق بساقي هاتين على الحمار المتوحش فإذا به خامد الأنفاس ! .. وهذا وجهي ، كما ترى ، يفيض عافية ولا يخدشه عيب ، ولست أعرف من المرض إلا اسمه ، فلا أتذكر أبداً أنه ألم بي مرة ! ..

فقلت له : أرى أنه ينقصك ، مع هذا ، المزيد من التجربة والعلم بعادات «مصر» ، فما أميرة «مصر» بالقوس الذي يشد ولا بالحمار الذي تخمد أنفاسه ، وقد كانت على

حق حين أرسلتني إليك لألقنك ما تجهل من خلالها ، وأدر على ما لا تعرف من عادات بلادها . وإن للمصريين لفنونا فى الحب وآدابا فى التعبير عنه ، أشعر الآن أن من واجبى أن أعطيك فيها دروسا تتزود بها فى لقاء الأميرة حتى لا تمنى بالفشل بين يديها ! ..

ومست كلماتى كبرياء الأمير ، فقد كان فتى بادى الغرور ، ظاهر الاعتزاز بنفسه وحيويته . وغاظه - بخاصة - أن ضباطه الذين كانوا يستمعون إلينا لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك ، فامتقع وجهه وأخذ يضغط على أسنانه وكاد ينفجر ثائرًا ، ولكنه كتم ثورته وتحامل على أعصابه وتكلف الهدوء والملاينة وقال : يظهر أنك لم تعرفنى بعد على حقيقتى الكاملة ، فاعلم إذن أن قوتى الذاتية كانت دائمًا المصهر الذى تذوب فيه قلوب أجمل الفتيات ، وما أكثر ما كان لها من سيطرة واقتدار فى هذا المضمار ، وأن للحيثيين فنونا وعادات ستكون مهوى فؤاد أميرتكم ومثار إعجابها ! ..

فقلت له : إنى لا يخالجنى شك فى قوتك أيها الأمير ، ولكنك فيما أرى تعتد بها إلى حد الإسراف ، وآية ذلك أنك تقول إن المرض لم يلم بك أبدا ، مع أنى ، بعين الطبيب ، أرى فى عينيك ووجهك أعراضا تدل على أنك مريض فعلا ، وأستطيع أن أصف لك هذا المرض محددا وإن كنت لا تشعر به كمرض ! .. إنه اضطراب فى المعدة واختلال فى الجهاز الهضمى ، ومن علاماته «الإسهال» المتدافع على خلاف العادة الطبيعية ! ..

قلت هذا فى شيء من الثقة ، مستندًا إلى حقيقة نفسية اكتشفها الأطباء وأقروها فى كل العصور ، وهى أن أيما إنسان ، بالغا من القوة ما بلغ ، يشعر بالضعف والمرض معا ، حينما يقال إنه ضعيف ومريض ، فكيف إذا كان قائل هذا طبيب لا شك فى علمه وفى صدقه ؟!.. وقد اخترت «الإسهال» المعوى المتدافع مظهرًا للمرض الذى أدعيه ؛ لأنى أعرف عن يقين أن مياه الينابيع خلال الصحراء تختلط بها

مواد «البوتاس» و«الصودا» والأمير في رحلته الصحراوية هذه يتناول شرابه منها حتما ، وهي محدثة في المعدة ، بطبيعتها ، تفاعلا يتحول إلى لين فإسهال ! .

ولكن الأمير «شوباتو» بدا دهشا من قولي هذا ، وصاح قائلا : كلا .. أيها المصري «سنوحي » ! .. إنني لا أشعر على الإطلاق بأي مرض ، على أني مع ذلك لا أنكر أني منذ بدأت الرحلة أشعر بأن شيئًا غير عادي قد أصاب معدتي ، فلا أنفك راغبا في الإفراز على صورة لم أعتدها من قبل ، وكثيراً ما يجيء هذا دفقا غير منظم ومتلاحقا غير منقطع ... حتى لقد اضطررت مرات كثيرة أن انتحي جانبا ، وبعيداً عن القافلة ، لقضاء هذه الحاجة الملحاحة ، وعجيب أن تعرف أنت هذا في لمحة خاطفة في حين لم يلحظه طبيبي الخاص الذي يلازمني كظلي ؟!.. فخبرني كيف عرفت ذلك ؟! حقا إنك لطبيب ماهر ! ..

وأمسك الأمير عن الكلام قليلا ، ليتحسس نفسه مارا بيده على عينيه وجبهته ، ثم قال : الواقع أنني أحس بشيء من وخز الألم في عيني ، ولعل ذلك لطول تحديقي في الرمال المحرقة ، غير أني كذلك أحس بأن جبهتي تضطرم بالحرارة ، وتلك علامة الحمى ، فلست إذن على خير حال ! ..

فقلت له : من الخير أن يعطيك طبيبك دواء يريح معدتك لتنام نوما هادئا ، فإن اعتلال الأمعاء في الصحراء يوشك أن يكون مرضا خطيرا سيئ العواقب إذا لم يتدارك بالعلاج . وإني أعلم أن كثيرين من المصريين أصيبوا به أثناء أسفارهم إلى «سوريا» فماتوا به ؛ لأنهم لم يجدوا من يسعفهم بالدواء . ومن المؤسف أنه لا يوجد إلى الآن من يعرف سر هذا المرض ، ومن الناس من يقول إنه نتيجة رياح صحراوية سامة ، ومنهم من يقول إنه جراثيم ينشرها الجراد في الصحراء ! .. وهم جميعًا مختلفون في مصدره وفي نوعه وفي طريقة التداوي منه . على أني لا أشك في أنك ستصبح غدا خيرا منك اليوم إذا استطاع طبيبك الخاص أن يعطيك دواء مناسبًا ! ..

وأدار الأمير نظره فيمن حوله من ضباطه دون أن ينطق بكلمة .. لقد كان شارد الفكر بادى القلق ، وأخيرًا وجه نظره إلى وقال وهو يصطنع الابتسام : هلا أعددت لى أنت هذا الدواء يا «سنوحى» ؟! إنك بلا ريب أكثر من طبيبى علما وخبرة بأمراض الصحراء .

ولكني كنت حذرا ، فرفعت يدى معترضا وقلت له : أرجو إعفائى من ذلك يا سيدى ، فهو أمر لا أستطيعه وإنما يستطيعه خيرا منى طبيبك الخاص ؛ لأنه يعلم ما لا أعلم من دقائق أحوالك الصحية ، وقد لا آمن أن أجهز لك دواء يختلف عما تقتضيه حاجة بدنك فيكون له أثر مضاد عن غير قصد ، وعندئذ تلومني وربما غلبك الشك من جهتي فتظن أننى المصرى الوافد عليك قد أردت بك سوءًا وهو ما لا أطيق أن يكون ! .. فليكن ذلك إلى طبيبك الخاص الذى أحاط علما ببدنك وصحتك ، ولا أرى الأمر يشق عليه ، فهو لا يحتاج إلى أكثر من عقار قابض ومنعش ! ..

فابتسم الأمير وقال موافقا الحق معك ! .. ثم استقدم إليه طبيبه الخاص ، وهو حيثيي شديد الشك الارتياب ، وعرض الأمر عليه ، وأخذنا نتجاذب الآراء الطبية فيه . وقد تفرج من حذره وارتيابه عندما عرف أنى وكلت الأمر إلى علمه وأيقن أنى لست منافسا له ، بل لقد كبرت فى نفسه إلى حد أنه كان لا يخفى إعجابه بى . وفى ثقة واعتداد جهز الدواء الذى أشرت به ، وكان كما قلت ، دواء قابضًا منعشًا ، وقد زاد فيه فجعله ذا قوة غير عادية ، وقبل أن يقدمه للأمير ارتشف قطرات منه ! ..

وواضح أن الأمير لم يكن مريضًا على الصورة التى رسمتها ، ولكننى إنما أردت - عامدا - أن يعتقد هو وأفراد حاشيته أنه كذلك ، واستطعت أن أنصح بالدواء الذى يحدث انقباضا فى معدته ، حتى لا تلفظ ما يدخل إليها فى سرعة ويسر ! ..

وكان الأمير قد رغب فى أن أخلو إليه ليستمع إلى حديثى عن زوجته الملكية ، وقد أمر بإعداد مائدة بخيمته الخاصة لهذا الغرض حيث اتخذت مكانى منها إلى جواره . وكنت قد ذهبت إلى خيمتى قبل ذلك فتناولت قدرًا كبيرًا من الزيت حتى امتلأت معدتى ، وقد أصابنى من هذا غثيان شديد ولكنى غالبت نفسى عليه لأبدو فى حالة طبيعية ، وجئت بقارورة نبيذ فأفرغتها ثم خلطت النبيذ بالسم وعبأت القارورة بهذا المزيج وأحكمت سدادتها كأنها لم تكن قد فضت من قبل ، وحملتها معى إلى مائدة الأمير فى خيمته ، وكانت حافلة بألوان كثيرة من الأطعمة والأشربة فتناولت منها جميعًا على الرغم من امتلاء معدتى بالزيت ، مسايرا الأمير حتى لا أثير شكوكه أو شكوك أحد من رجاله ، ورحت خلال هذه أتحدث إليه فى عبارات مشوقة عن العادات والتقاليد المصرية مما لا علم به ، واستطعت أن أختلب لبه بهذا الحديث ، فأغرق فى الضحك حتى كاد يستلقى على قفاه ، وربت بيده على ظهرى قائلا فى نشوة : إن حديثك لطريف ممتع يا «سنوحى» ... وما كنت أدرى من بين المصريين رجلا على مثالك ! وسوف أجعلك طبيبى الخاص عندما استقر فى «مصر» ! .. حقا لقد نسيت آلام معدتى فى غمرة حديثك العجيب عن عادات الزواج المصرية ، ويلوح لى أن المصريين قد التزموا هذه العادات اقتصادًا فى إنجاب الأولاد ! .. ولكنى أنوى أن أعلمهم عادات حيثية أكثر جدوى ، وسأقيم على الأقاليم المصرية حكامًا من ضباطى ينفذون خططى وتعاليمى فى هذه الناحية ، وسيكون موضع عنايتى – قبل ذلك – أن أعطى الأميرة كامل حقها ! ..

ثم خبط على ركبتيه وأغرق فى الضحك ثملا ، إذ كان قد أصاب كثيرًا من الشراب وقال : لقد شغفنى حديثك عنها حتى صرت أشد مما كنت شوقا إليها ، وأجمل أمنية أتمناها الآن هى أن أغمض عينى ثم أفتحها فأرى الأميرة على فراشى ، حيث نتساقى معا كؤوس السعادة ، وحيث تشعر إلى جانبى بمتعة الحياة كاملة ... وإنى لألمح من قريب المستقبل العظيم الذى ينتظر «مصر» وبلاد «الحيثيين»

بعد أن تظلهما معا رابطة واحدة ، فلن تستطيع مملكة على وجه الأرض أن تبلغ مبلغهما من القوة أو تصمد أمامهما فى مجال المناجزة والنضال ! .. بل إننا بهذا الاندماج سنسيطر على أركان الدنيا الأربعة ! .. ذلك ما سوف يكون ، لا محالة ، وهو أمر يقتضى «مصر» شيئا غير قليل من الجهد والعناء والاكتواء بالنار . ولكن لا بأس عليها من ذلك آخر الأمر ، فكل شىء بحقه ، وقلما يجىء المجد والعظمة بغير تضحية ! ..

وكان الأمير خلال حديثه هذا يتابع الشراب فيزداد ثمله ، وكذلك كان الذين حولنا من الحيثيين ، فصاروا جميعًا مخمورين ، يتضاحكون ويمرحون وتنفك بينهم عرى الحرج والتزمت . وكانت قصصى التى تأنقت فى روايتها ، لتسليتهم ، تعجبهم وتبهجهم وتفتح مغالق قلوبهم فزالت ريبتهم بى وانتفى حذرهم منى ، وألقوا بأنفسهم – جملة – فيما هم فيه من لذة الشراب ومتعة المرح .. وعندئذ اقتنصت هذه الفرصة فقلت للأمير وهو سابح فى نشوته : إن نبيذك يا سيدى الأمير سائغ شرابه ولكنى استميحك العذر إذا أنا تناولت نبيذنا المصرى هذا – وأشرت إلى إناء النبيذ الذى حملته معى – فهو أقوى تأثيراً وأوفر لذة ، ولا أستشعر النشوة فى شراب غيره ، ولذلك فإنى كلما دعيت إلى مأدبة لا أنسى أن أتزود منه بما يكفينى ، ولست بهذا أنتقص من نبيذكم وإنما هى الحقيقة التى أود أن تعرفها يا سيدى ! .. ولو أنك ذقت نبيذ «مصر» – وواضح أنك لم تذقه بعد – لأدركت أن أنبذة الدنيا كلها ، بالنسبة له ، لا تساوى شيئًا ! ..

قلت هذا وأنا أهز فى يدى إناء النبيذ وأفتض ختمه أمام أعينهم ، وأخذت أسكب منه فى كأسى ، وتظاهرت بالسكر فامتلأت الكأس حتى فاضت على الأرض ، ثم رفعتها إلى فمى مترشفا منها وأن أصيح قائلا : هذا هو نبيذ «ممفيس» الجيد ... نبيذ «الأهرام» المعتق ... النبيذ الذى يدفع ثمنه ذهبا ... النبيذ الذى يمضى إلى الرأس مباشرة ، وينفرد بالقوة والعذوبة دون سائر الأنبذة فى الدنيا كلها ! .

وكنت قد خلطت النبيذ بالمسك ففاحت رائحته الذكية ، وثار فضول الأمير فحمل كأسه فارغة واتجه بها نحوى قائلا : لم أعد غريبا عليك ، وسأصبح فى الغد مولاك وسيدك ، فاملأ كأسى هذه من نبيذكم لأتذوقه وأتحقق من مقالتك فيه ! ..

وهنا هولت فى اصطناع مظهر السكران المخمور ، وكنت فى تناولى هذا النبيذ - كأسا فى أثر أخرى - اصطنع المظهر نفسه ، فإذا ملأت كأسى وأدنيتها من فمى حركت يدى كما لو كانت يد مخمور مختلج الأعصاب ، فينسكب أكثر ما فى الكأس على الأرض ، ولا يبلغ فمى منه إلا قطرات قليلة ... وقد جازت هذه الحركة التمثيلية على الحيثيين فعزوها إلى تأثير النبيذ ، دون أن يرتابوا ! ..

ورآنى الأمير أضم إناء النبيذ إلى صدرى كما لو كان شيئًا عزيزًا أحرص عليه أتشبث به ، فكرر طلبه مستنكرًا إحجامى عن تلبيته فى الحال ، ولكننى - استرسالا فى تمثيل دور المخمور - تأبيت عليه وقلت له : لا أستطيع أن أعطيك شيئا ! .. إن هذه القارورة ليس فيها من النبيذ إلا قدر يسير هو دون حاجتى وحدى ، فكيف لو صرنا اثنين ؟ ! . إن هذا يوم عيد لمصر ولبلاد الحيثيين وها نحن أولاء نحتفل به هنا ، وأنا أريد أن أشعر بالسعادة الحقة فى هذه المناسبة الجميلة ، ولا سبيل عندى إلى ذلك إلا بما فى هذه القارورة أدفعه كله إلى جوفى من غير شريك فيه ، فدعه ... دعه لى ، يا سيدى ، بحق الآلهة ! ..

وزاد هذا من فضول الأمير وهاج فيه شهوة الشراب ، فراح يأخذنى بالملاينة والرجاء حتى لم يبق ثمة إلا الامتثال لأمره كيلا تسوء العاقبة ، فقد كان الحيثيون بالخيمة يشهدونه طالبًا ملحًا ، ويروننى متمنعًا آبيًا ، ويتضاحكون ملء حناجرهم . ومثل هذا الموقف غير مقبول ولا مستساغ لدى الأمير الذى اعتاد أن يأمر فيطاع ، وعندئذ كان لا مناص من الوقوف عند هذا الحد ، فملأت كأسه من نبيذى وأنا أتكلف البكاء ، بل لقد كنت أبكى فعلا ، ففى هذه اللحظة كان يركبنى الذعر بحق ، إذ كنت أعلم أننى بهذه الكأس أقدم على المخاطرة الكبرى ! ..

ولكن الأمير في لهفته على هذا الشراب لم يتخل عن طبعه المستريب ، فناولني الكأس - على عادة الحيثيين - قائلا : اشرب من كأسي أولا كصديق وسأشرب أنا كذلك من كأسك ! .. فرشفت منها رشفة ، وأعدتها إليه فأفرغها كلها في جوفه وراح يتذوق طعمها في فمه ، ثم مال برأسه إلى اليمين وقال : حقا إن نبيذك قوى يا «سنوحي» ، وإنه ليصعد إلى الرأس فيديرها ، ويضطرم في الأمعاء كأنه النار ، ولكنه غير سائغ ولا عذب كما تقول ، فإني أحس له في فمي طعمًا مرًا ، ولهذا فإني أوثر الشراب من نبيذ الجبال ! ..

وعاد يواصل الشراب من نبيذه ، وكذلك كنت أفعل حتى بلغ الوقت نصف مقياس من الساعة المائية ، فاستغرقت عند ذلك في التظاهر بالسكر إلى الحد الذي ينبغي أن آوي فيه إلى فراشي ، فنهضت مترنحا واتجهت إلى خيمتي ، ولم أنس أن أدس في ملابسي إناء النبيذ حتى لا يقع في أيدي الحيثيين فيكشف السر إذا ما فحصوه ! ..

وبعد أن أرقدني الحيثيون بالفراش مسترسلين في الضحك وتبادل النكات ، نهضت مسرعا وأدخلت إصبعي في حلقي واجتررت ما في بطني من السم والزيت الواقي ، وكنت خائفًا أشد الخوف لاحتمال أن يكون السم قد سرى في أمعائي وتسلل إلى دمي وفات الوقت المناسب لتدارك مفعوله ، ولذلك عنيت بغسل أمعائي مرات عدة ، وشربت عقاقير مطهرة ، وحملت نفسي على التجشؤ من وقت إلى آخر بدافع الخوف ، ثم غسلت إناء النبيذ بالماء غسلا تاما ، وحطمته بعد ذلك حتى صار قطعًا صغيرة دفنتها في الرمال ...

واستلقيت على الفراش قلقًا مسهدا ... لقد كانت صورة الأمير «شوباتو» لا تفارقني ... فأتخيله في مجلس شرابه محدقًا في وجهي بعينيه الكبيرتين ، مرسلا ضحكاته المستهترة المتكبرة ، وكأنه يسخر من فعلتي التي فعلتها ! .. ويفزعني هذا الخيال أشد الفزع ، ذلك أني كنت قد رتبت الأمر على ألا يظهر أثر السم فيه ألا مع

الصبح ، فأمعاؤه كانت متخمة بالطعام الذى أسرف فى تناوله ، كما كانت منقبضة بالدواء الذى سقاه إياه طبيبه الخاص عملا بنصيحتى ، وهذا من شأنه أن يؤخر مسرى السم وانفعاله إلى أن ينقضى الليل كله . وقد نجحت فى هذه المرحلة الأولى من الترتيب ، فانفض مجلسنا من غير بادرة تشى بالسر الذى أخفيه . ولكن ماذا لو كان قد فطن لمحاولتى فاتقاها ، وجاء الصبح ليلاقنى فيه معافى وليقول لى : ها أنذا قد نجوت من منجلك الخفى الذى أردت أن تحصد به حياتى غيلة وغدراً ؟! ..

لشد ما كان يركبنى من الخوف لهذا الخيال ؟! ..

- ٣ -

وجاء الصبح دون أن يلم بى طيف النوم ، ولم أسمع جديداً من أنباء الأمير ، بل لقد رأيته على رأس حراسه وجنده يصدر أوامره ليتجهزوا لمتابعة الرحلة ، كأن شيئاً لم يحدث ، ثم يتقدم بنفسه إلى محفته فيعلوها ، وتمضى بنا القافلة إلى وجهتها ! ..

ومن هنا زادت مخاوفى وكدت أرى الخيال المفزع حقيقة ماثلة ! .. وعجبت من أمر هذا الأمير ... كيف أصبح هكذا سليماً مع أنى أنا نفسى كنت بادى التأثر من القطرات المخلوطة بالسم التى تجرعتها ثم اجتررتها ؟! ..

لقد كان بدنى يشعر إذ ذاك بالبرودة والرعشة على الرغم من حرارة الجو الطاغية ، فإذا كانت هذه حالى ، بالقلة القليلة من الشراب ، وبالوقاية التى أحكمت صنعها لنفسى ، فكيف - إذن - استطاع الأمير أن ينجو من الكثرة الكاثرة التى التهمها من هذا الشراب نفسه ؟!

لكن عجبى لم يطل ، وكذلك لم تطل مخاوفى .. فلقد كان السم يسرى فى أحشاء الأمير ويلهب بدنه ، غير أنه فى كبرياء الحيثيين كان يغالب آلامه ويكتمها ، فاصطنع العافية فى مشهد من قومه ، وأبى أن يؤجل الرحلة بسبب مرضه أو آلامه ! ... فسار فيها متحاملا على نفسه . وكان ذلك - إلى حد كبير - عاملاً هاماً فى نجاح

الخطة ، فما كاد ينتصف النهار حتى سقط مغشيًا عليه ، فتوقفت القافلة عن المسير ..

واشتركت مع طبيبه الخاص في محاولة إسعافه ، حيث أعددنا له أشربة منعشة وسوائل مطهرة ، وحرصت على أن يتولى طبيبه بنفسه خلط الأدوية وأن يضعها بيده في فم الأمير خلال أسنانه التي تشابك أعلاها بأسفلها ... ثم جئنا بأحجار ساخنة فوضعناها فوق بطنه ، إلى آخر ما كنا نملك وقتذاك من وسائل الإسعاف والعلاج ! ..

إنه الآن في طريقه إلى الموت الذى خشيت أن يفلت منه ... الموت الذى صنعته بيدى مكرها ، وكنت واثقًا من أنه لا فائدة من أى تدبير طبى لاجتناب النتيجة المحتومة . ولكنى ، إمعانًا في التخفي وفى إقصاء الشبهة ، كنت أبدو معنيًا بأمره كطبيب ومبعوث من الأميرة المصرية التى كان ذاهبا للقائها ! ..

وحمل الأمير في المساء إلى خيمته ، وما يزال مستغرقًا في غيبوبته الرهيبة ، والحيثيون في خارج الخيمة يحتشدون جماعات وفى أيديهم الخناجر يطعنون بها أجسامهم ويمزقون ملابسهم وهم يبكون أحر البكاء ... لقد كانوا إلى فرط حزنهم لمرض الأمير ، يرجفون خوفا ورعبا من فكرة موته ! .. إن أباه الملك «شوبلوليوما» سوف يأخذهم بالعذاب النكر في غير رحمة أو إشفاق لا لشيء سوى أنهم لم يدفعوا الموت عن ولده ! ..

ووقفنا ، أنا والطبيب الحيثى ، بجانب الأمير الممدد فى فراشه ، وقد أحسست بقسوة الألم حينما رأيت ذلك الوجه الذى كان بالأمس يتنضر بالشباب والحيوية ويفيض بالبهجة والسعادة ، قد استحال هكذا إلى الصفرة والشحوب ، والذوى والذبول ، ولم يتبق فيه من الحياة إلا أنفاس لاهثة توشك أن تنقطع ، ثم لا شيء بعدها غير الموت ! ..

وكان المشهد بالنسبة لى مؤلما ومثيراً ، ولكن كان عزائى فيه أننى فيما صنعت كنت أؤدى واجبى فى خدمة «مصر» . وكثيراً ما يبذل الإنسان من عواطفه ، ومن نفسه ومن روحه ، ومن سعادته وهناءته فى سبيل القيام بواجبه نحو بلاده ، ومع ذلك لم أشعر ، وأنا أرى الأمير الشاب يلفظ أنفاسه الأخيرة ، بالفخر الذى يشعر به الرجل الذى قام بمثل هذا الواجب ! ..

وأفاق الأمير فى اليوم التالى من غيبوبته الطويلة .. لقد كانت الصحوة التى يرى فيها الموت ملء عينيه ويحس به ملء بدنه ولهذا كان يصيح صيحات التوسل والاستغاثة فى صوت خفيض كالأطفال ؛ خنوع العجزة واستسلام اليائسين ، لانستطيع أن نفعل شيئا .

وأدرك ألا سبيل إلى خلاصه من أنياب الموت فاستجمع قواه المتزايلة ، ليبدو فى ساعة الشدة قويا كما ينبغى أن يبدو أمير ملكى مثله ، واستدعى ضباطه وقال لهم : سأموت دون أن يكون ثمة أحد مسئول عن موتى ! .. افهموا هذا جيدا ... وما كان الموت ليستطيع أن يبلغ منى مبلغه هذا لولا أنه تسلل إلى جسمى فى صورة مرض الصحراء ! .. لقد وفد على وفود الجبان المخادع ، وأخذنى أخذ الخائن الغادر ، ولست بالذى يباليه على أية حال ، ولولا أنها إرادة السموات الغالبة لاستطاع هذان الطبيبان الماهران ، وهما من خير أطباء الحيثيين وأفضل أطباء «مصر» ، أن ينقذا حياتى بما بذلاه فى سبيل إنقاذها من الفن البارع والحكمة العميقة والرعاية المتواصلة ، فلهما تقديرى وثنائى .. ويبقى أن تعلموا أن هذه الصحراء لا تحكمها أرضنا الأم وإنما تحكمها آلهة «مصر» وتجعل منها درعا لحماية أرض «كيم» ، وقد بان جليا أنها غير راغبة فينا معشر الحيثيين ،، وكانت هزيمة عجلاتنا الحربية قبل ذلك ، وهى التى لم تكن لتهزم ، دليلا على غضب الصحراء وثورتها فى وجوهنا ، ولكننا مع الأسف – لم نفطن لذلك !.. فجاءنا الدليل الثانى مرضاً قاتلا تضل فيه عقول الأطباء ! .. فعلى الحيثيين أن يعرفوا هذه الحقيقة وألا يسعوا بعد اليوم لعبور

الصـحـراء ! .. ولا تنسـوا بعـد موتى أن تقـدمـا لهذين الطبيـبين المخلصين الهدايا الجديرة بـهمـا ... وأمـا أنت يا «سنوحى» ، فـاحمل - مشكورا - أطيب تحيـاتى إلى الأميرة «باكيت آمون» وقل لها إننى أحللتها من وعدها ، وإنى أفارق الحياة آسفا حزينًا ؛ لأن أمنيتى العزيزة ، فى أن ألقاها وفى أن أحملها إلى فراش الزوجية ، لم تتحقق ، وها أنذا أموت وفى خيالى من جمالها الخالد صورة لا يبليها الموت ! ..

ومـات «شوباتو» تحت أعيننا ، وعلى شفتيه ابتسامة الذى استراح بعد عناء ، وكنت أنظر إليه وأنا أرتعد ، ناسيـا جنسه ولغتـه ولون بشـرته ، متذكـرًا شيئًا واحدًا كان يؤلمنى ويحز فى نفسى ، هو أنه - وهو أخى فى الإنسانية - يلقى حتفه بيدى ! .. ولهذا اضطرب قلبى وانهمرت الدموع على خدى ! ..

ووضع الحيثيون جثة أميرهم فى نبيذ وعسل ليحفظوها ويحملوها معهم إلى المقابر الملكية حيث تسهر النسور والذئاب على حراستها إلى الأبد ! ..

وقد ظنوا ، لفرط ما بدا لهم أن حزنى وجزعى ، أننى متوجس شرا من الأميرة المصرية حين أعود لأخبرها أن الأمير قد مات ... إذ قد تعدنى مسئولا عن موته ، وفى هذه الحال تأمر بقتلى ، كما جرت بذلك عادة الحيثيين ! .. وهم بعد أن سمعوا مقالة أميرهم يروننى غير ملوم ، ولذلك أشفقوا على هذا المصير فكتبوا شهادة ببراءتى على أحد الألواح الطينية قرروا فيها أننى بذلت أقصى الجهد فى علاج الأمير ، وختموا هذا اللوح بخاتمهم وخاتم الأمير نفسه ! ..

وفارقت الحيثيين منقلبا إلى «تانيس» ومنها إلى «ممفيس» ، وكنت خلال عودتى فى أسوأ حال ، أشعر فى كل خطوة أخطوها كأن الأفاعى تنهشنى وتنفث سمومها فى دمى ، وكان الموت يلاحقنى ويسير فى أعقابى ، فلا أكاد أفكر إلا فيه ، ولا أرى شيئًا سوى صور حالكة السواد ، فهذا أبى وتلك أمى قد ماتا بسبب نذالتى . ومن بعدهما ماتت «مينيا» بسبب ضعفى ، وبسببى كذلك ماتت «ميرييت» ومات صغيرنا «تحوتح» ،

وبيدى مات «إخناتون» ... فهؤلاء جميعًا كنت أحبهم أصدق الحب ، وكنت كذلك قاتلهم أشنع قتلة ، وهذا هو – أخيرا – «شوياتو» ، ذلك الذى أحببته فى الوقت الذى كنت أجرعه السم الزعاف ! .. فيا لها من لعنة تلازمنى ولا تريم عنى ، أنا الذى صرت طبيبا لأعالج الناس من أمراضهم وأستخلص لهم الحياة من بين براثن الموت ! ..

وما أن بلغت «طيبة» حتى أسرعت بالدخول على «حور محب» و«آى» بالبيت الذهبى ، وأنبأتهما النبأ الذى ينتظرانه بصبر نافد ، ففرحا بذلك فرحا شديدا ، وهنأنى على نجاحى فى مهمتى ، ونهض «آى» فخلع القلادة التى تحمل شارة السلطان ووضعها حول عنقى ! .. وطلب منى «حور محب» أن أذهب إلى الأميرة لإبلاغها الخبر بنفسى ؛ لأنها لن تصدقهما إذا أبلغاه إليها ، وقد تحسب أن الأمير مات غيلة بأمر «حور محب» لما تعلم من غيرته منه وحقده عليه ! ..

واستأذنت فى الدخول على الأميرة لأمثل بين يديها أقسى دور فى المأساة ، فاستقبلتنى استقبالا حسنا ، وقلت لها فى عبارات حزينة : إن الأمير «شوياتو» الذى اخترته زوجا قد أصابه مرض الصحراء فى «سيناء» ومات متأثرا به ، ولم تنفع فى إنقاذه كل الوسائل العلمية والفنية التى بذلتها أنا وطبيبه الحيثى الخاص ، وقد أحلك قبل موته من رابطتك به ، وذلك أمر مؤسف غاية الأسف ، ولكن لم يكن ثمة سبيل إلى دفعه ! ..

وتلقت الأميرة هذا الخبر فى هدوء ، وقالت وهى تخلع أساورها الذهبية وتضعها فى يدى ، حسنا ، يا «سنوحى» ! .. فأنباؤك دائمًا سارة ، وإنى لشاكرة لك ، ومن حقك أن تعلم الآن أنى أصبحت كاهنة للآلهة «سيخمت» ، وقد أعددت فعلا ردائى الأحمر الذى سأرتديه فى الاحتفال بهذه المناسبة ، غير أنى مع ذلك لا أريد أن أخفى عنك أنه يثقل على عقلى أن يفهم لماذا أصبح مرض الصحراء فى هذه الأيام هكذا طليقًا لا ممسك له ، يعدو على الأرواح الكبيرة كأنه ينتقيها ، فبهذا المرض عينه مات أخى «إخناتون» الذى كنت أحبه أكثر مما تحب فتاة أخاها؟! وأخيرًا جاء دور الأمير

«شوباتو» وهو فى طريقه إلى أميرة «مصر» وعرشها ؟! وهل هى مجرد مصادفة أن نراك دائمًا إلى جانب هذه الحوادث الجسام ؟! ..

ألا ترى يا «سنوحى» أنك تعبث بعرش «مصر» وتعمل على أن يصبح مرتعًا للصوص والخونة ؟! سحقا لك أيها الشقى ، وعليك اللعنة إلى الأبد ، ولتمح الآلهة قبرك من بين القبور ، واسمك من بين الأسماء ! ..

ولم يسعنى إلا أن انحنى أمامها مادًا يدى فى خشوع ، وأنا أقول : كما تشاء أميرتى ! ..

والتمست طريقى إلى الباب مسرعا بينما كانت الأميرة تأمر خدامها بأن يديروا مكانسهم خلفى إلى آخر موضع تمسه قدمى بالقصر ! ..

- ٤ -

وفى هذه الأثناء كان جثمان «توت عنخ آمون» قد أعد للدفن ، وكان «أى» يلهج فى حث الكهنة على التعجيل بالذهاب به إلى الغرب لمواراته القبر الذى نحت له فى الصخر بوادى الملوك ، فأسرعوا بدفنه ودفنوا معه متاعا كثيرًا ، وكان قد جمع فى حياته ثروة ذهبية ضخمة لتودع معه فى قبره ، ولكن «أى» اقتطع منها جزءا كبيراً ، محتفظا به لنفسه ! ..

وبعد أن أغلقت مقبرة الملك وختمت ، أعلن «أى» انتهاء فترة الحداد وتمت مراسم تتويجه على عرش «مصر» ، من غير أن يلقى هذا اعتراضا من أحد ، فقد استسلم الناس للأمر الواقع ، إذا كانوا قد سئموا الخلافات والثورات مثلما سئموا الحروب والتضحيات ، وصارت «مصر» - لفرط ما عانت من ذلك - فى فاقة عاتية وفقر شديد ، فما يعنى الناس فيها أن يسألوا «أى» عن مدى حقه فى عرش فرعون وإنما يعنيهم أن يجدوا الخبز والجعة والأمن والسلامة ، وقد عرف «أى» موضع ضعفهم هذا ، فراح يسخو عليهم بالهدايا ويوفى لهم حاجتهم من الطعام والشراب ... وكان الكهنة أوفر

عنده حظا من ذلك ، اكتسابا لمودتهم واستمالة لمشاعرهم ، ومن أجل هذا هتف الجميع بحياته ، وأحاطوه بمظاهر التأييد والتعظيم ! ..

وكان «حور محب» إلى جانب هذه المظاهر يحتل برجاله وعجلاته الحربية شوارع «طيبة» عارضا بذلك قوته الرهيبة على الناس ، وقد شعروا بقوته هذه وبما رأوا من بروز شخصيته فى الحوادث الأخيرة ، إنه هو الحاكم ذو السلطان المؤثر فى عرش «مصر» ، وعجبوا ، لذلك ، كيف أنه لم يرق بنفسه هذا العرش ، ولماذا آثر عليه فيه ذلك الرجل العجوز البغيض (أى) ؟!..

ولكن الذى لم يعرفه الناس من موقف «حور محب» أنه لم يدع الأمر لصاحبه زهدا وإيثارا ، وإنما كان يفعل ذلك عن خطة مرسومة وتدبير محكم ، فالمصريون لم يتجرعوا ، بعد ، كأس الشقاء حتى ثمالتها ، وما زال طريق شقائهم طويلا ، فقد تواترت الأخبار السيئة من أرض «كوش» ، وعليه أن يمضى إلى قتال الزنوج لإخضاعهم ، كما أن عليه بعد ذلك أن يعود إلى الحيثيين مجددا حربه معهم لاسترجاع ما بقى من «سوريا» وهكذا تتوالى على المصريين الأعباء الثقال بذلا للأرواح والأموال والأقوات ، وسوف يئودهم ذلك ويشقيهم كما لو يشقوا من قبل ، ومن هنا تنصب نقمتهم على «أى» ويزدادون له بغضًا وكراهية !.. ومن ثم يتطلعون إلى «حور محب» البطل المحارب المنتصر ، ويلتمسون على يديه الخلاص والسلام ! ..

كانت هذه خطة «حور محب» ونواياه المستورة ، ولم يفطن لها «أى» على ما فيه من خبث ودهاء ، إذ كان قد ازدهاه واختلب لبه جلوسه مكان فرعون وارتقاؤه عرش «مصر» ، وذلك مطعمه العتيد وأمنيته العظمى ، فليس يبالى بعد ذلك ماعسى أن يجىء به الغد ، ولهذا كان ينفذ راضيا الاتفاق الذى انعقد بينه وبين «حور محب» يوم وفاة «إخناتون» ! ..

وجاء الكهنة بالأميرة «باكيت أمون» إلى معبد «سيخمت» في احتفال كبير ، فألبسوها الوشاح القرمزي ورفعوها إلى المذبح ، وفي الوقت نفسه كان «حور محب» قادمًا إلى المعبد وحوله رجاله يتعالى هتافهم بانتصاره على الحيثيين ، وأهل «طيبة» على جانبي الطريق يحتشدون لتحيته والحفاوة به . وعندما بلغ موكبه باب المعبد وزع على رجاله القلائد الذهبية وأوسمة الشرف وأذن لهم في الانصراف ليرفهوا عن أنفسهم فانطلقوا فرحين إلى بيوت الملذات وحانات النبيذ ، وكانت «طيبة» يومذاك في أبهى زينتها احتفالا بعيد الإلهة «سيخمت» ! ..

ودخل «حور محب» إلى المعبد متجها إلى المذبح ، فأغلق الكهنة الأبواب النحاسية ليخلو بالأميرة ، التي قضوا مراسم زواجه بها ، وكانت هذه هي اللحظة السعيد التي يرتقبها من زمن بعيد ! ..

وفي مطلع الفجر عاد جنود «حور محب» ليتجمعوا أمام المعبد ، انتظارًا لخروج قائدهم . وبعد قليل فتحت الأبواب وخرج عليهم «حور محب» وفي وجهه وعلى ذراعيه وكتفيه خدوش دامية كما لو كانت قد نهشته أنياب أسد ! .. وهنا صاحوا صيحات البهجة والفرح وارتفعت أصواتهم باللغات الكثيرة المختلفة التي كانوا يتكلمون بها ، وقال بعضهم لبعض : إن قائدنا لذو حظ عظيم ، فقد منحته «سيخمت» بركتها ورعايتها ، وقلما تفعل . ودليل هذا أن رأس الأسد ، وهو شعارها ، قد اتصل بجسد «حور محب» على ما نرى من آثار مخالبه فيه ، ولا يكون هذا الاتصال إلا حين يكون الرجل بطلا مغوارا !! ..

واشرأبت أعناقهم نحو الأبواب ليروا الأميرة «باكيت أمون» التي أصبحت زوجة قائدهم المظفر ، ولكنها لم تظهر لهم ، فقد حملها الكهنة بعيدًا عن الأنظار إلى البيت الذهبي !..

وفى هذه المظاهر انقضت ليلة زواج «حور محب» دون أن أدرى ما وقع له هناك خلف الأسوار ، وأية متعة قد أصابها من الأميرة فى تلك الليلة ؟!..

ولم يطل احتجاب «حور محب» عن أعين الناس بالقصر الذهبى ، فقد خرج منه بعد فترة قصيرة ليجمع جيشه ويذهب من فوره إلى أول خلجان النهر بالجنوب ليتفقد قواته وينظمها ، تأهبا للزحف على أراضى «كوش» . ومن هناك ، وفى غير ما تلبث مضى بقواته المتجمعة إلى ذلك الميدان الحربى الجديد .

وطابت نفس «آى» لانفراده بالنفوذ والسلطان ، وقال لى حين لقيته : هاأنتذا ترى ملء عينيك أنه ليس فى أرض «كيم» كلها من هو أعلى منى - اليوم - مقاما ، سواء عندى بعد ذلك أن أحيا أو أن أموت ، ففرعون لا يموت كما يموت الناس ولا يفنى فناءهم ، وإنما هو - دونهم - يحيا حياة أبدية لا انقضاء لها ، وما يكون موتى على صورته المألوفة فى دنياهم إلا انتقال على قارب أبى «أمون» إلى الغرب حيث الخلود العظيم والراحة الدائمة ... ومن هنا كانت سعادتى بأن صرت على عرش «فرعون» . فلم أعد أرهب الموت أو أخشاه ، بل لعلى أرحب به ، ففيه نهاية لما ينوشنى من خيالات أعمالى فى ظلمات الليل ، وقد غدوت رجلا عجوزًا وشيخًا فانيًا ! ..

وهززت رأسى ساخراً من قوله ، وقلت له : أما إنك عجوز وشيخ فانٍ ، فتلك حقيقة لا ريب فيها ، ولكننى أراك - فيما عداها - مسرفًا فى اعتقادك الخلود والراحة بعد الموت فى الشاطئ الآخر .. ولو كنت أنت - كما أظن - حكيما ، لأدركت أن هذا الذى تتسلفه لنفسك منذ الآن فى الحياة الأبدية لا يكفى لتحقيقه أنك ، بين غمضة عين وانتباهتها ، قد اقتعدت مكان «فرعون» وتبوأت عرشه . فلا هذا العرش ، ولا هذا الزيت الكريه الذى دهنك به الكهنة ، ولا هذه الشعور الملكية التى تعلو رأسك - لا هذا ولا ذاك - يمكن أن يعطيك الخلود المبتغى أو يمنحك السعادة الأبدية المشتهاة ! .. ذلك أنك تعلم أى الوسائل جاءت بك إلى العرش ، وأى الأعمال مهدت سبيلك إليه ! ..

ولهذا فلن تلقى بعد الموت إلا ما يلقاه الرجل ، عاش عمراً طويلاً ثم ذهب عن الدنيا غير مزود بعمل صالح ! ..

فارتجفت شفتاه وتغشت عيناه بغشاوة الخوف ، وقال بلهجة الذى يدافع عن نفسه : كلا ، كلا ، إنك مخطئ يا «سنوحى» ! .. فما صنعت شيئا مما لا يروق لك أو مما تحسبه خطيئة وإثما ، إلا لأكون بالمكان الجدير بى . ولا يعاب على المرء أن يعمل ليكون عظيمًا ، ومن ذا تظنه خيرا منى لذلك ؟! . وكيفما كان الأمر من قبل ، فثمة حقيقة ينبغى أن تؤمن بها : هى أن ارتقائى العرش أخيرًا لم يكن ليحدث إلا ثمرة اختيار الآلهة ورضاهم . وهؤلاء الكهنة بإحاطتهم بى واقبالهم على إنما يمثلون إرادة الآلهة وتأييدهم ، وسيقوم الكهنة بواجبهم لإنقاذى من جحيم الموت ، وسيحفظون جثتى بعد الموت إلى الأبد . ألست فرعون «مصر» ؟! وإن هذا لقمين أن يبرئنى من كل عمل سوء قد سلف ؟! .

ولكن «آى» مع هذه التعلات - ظل بعد ذلك نهب المخاوف ، فقد كانت خطاياه التى أثرت ذكراها فى نفسه تلازمه فى يقظته ومنامه ، وفى قعوده وقيامه ، فلم يستشعر بذلك لذة الحكم ومتاع الملك ، وأصبح أكثر ما يكون انطواء على نفسه ، خائفًا من كل شيء ومن كل إنسان ، فلم يعد يشرب النبيذ ، كما لم يعد يتناول الطعام غير الخبز الجاف واللبن المغلى ، ، وعينه دائماً على كل ما يقدم إليه من شراب وطعام ، خوفًا من السم الذى كان يتوهم أنهم لا بد قاتلوه به . ومن هذا ، صار لا يثق بأحد ولا تخلو علاقته بمن حوله من الشك الكبير ... فكان لذلك قاسيا عليهم متجهما لهم ، فانصرفوا عنه وتجنبوا لقاءه ، وزاد هذا فى مخاوفه وشكوكه ، وألفى نفسه فى وحدة موحشة وشيخوخة متهدمة ، وكان واضحًا أن الرجل يسير حيثيا إلى الجنون ! ..

وفى غيبة «حور محب» ببلاد «الكوش» ، شعرت «باكيت أمون» بأن علاقتها الزوجية به – فى ليلة الزواج – قد أثمرت جنينًا يتحرك فى أحشائها .. فضاقت بذلك أشد الضيق ، وحاولت أن تتخلص من هذا الجنين أكثر من مرة ، ولكن الحياة فيها كانت أقوى من الموت ، ففشلت كل وسائل الإجهاض واستتم الجنين دورته الطبيعية حتى جاءها المخاض فوضعته فى ألم وعسر شديدين ، واضطر الأطباء والعبيد أن يخفوه عنها لما قد عرفوا من رغبتها فى القضاء عليه . وسرى خبر هذا الميلاد فى خارج القصر وتعددت فيه الأقاويل . فمن قائل إنه ولد برأس أسد ، ومن قائل إنه جاء وعلى رأسه خوذة ، إلى غير ذلك من التهاويل المشوبة بالخرافات ! .. على أنى أشهد أن الطفل كان كسائر الأطفال ويزيد عليهم نضارة الصحة والقوة ! .. وقد أطلق عليه «حور محب» بعد ذلك اسم «رمسيس» ! ..

وكان «حور محب» إذ ذاك لا يزال فى معمعة الغزو بأراضى «الكوش» وقد أوقع بعجلاته الحربية خسائر فادحة بين الزنوج ، وأشعل النار فى بيوتهم المصنوعة من القش ، وأرسل أولادهم وزوجاتهم إلى «مصر» كأرقاء ! .. وحين لم يبق ما يخشاه من هؤلاء الزنوج ، قرر أن يستعملهم فى جيشه ، فكانوا فيه شجعانا بواسل ، ولعلهم كانوا كذلك لأنهم وأولادهم وزوجاتهم قد أصبحوا فى قبضة يد «حور محب» ، فكان عليهم أن يؤازره بكل قوتهم إبقاء على حياتهم جميعًا .

ومن أراضى «الكوش» أرسل «حور محب» إلى «مصر» قطعان الماشية ، فساعد ذلك على انبعاث النشاط الزراعى فى أرض «كيم» ، ومن ثم ازدهرت مرة أخرى زراعة الحبوب وزادت غلة القمح وتوافر بها الطعام لمن لم يكونوا واجديه من المصريين ، كما توافرت لكهنة المعابد حيوانات القرابين .

ولسنين طويلة ، بعد ذلك ، ظلت أراضى «الكوش» فى حالة تشبه الإقفار التام ، فقد تلاشى أهلها بين أسرى وغنائم وجنود ، ومنهم قبائل بأكملها أسرعت بالهروب إلى مناطق الغابات وراء حدود «مصر» حيث لا يوجد هناك غير الفيلة والزراف .

وبعد سنتين من هذه الحرب ، عاد «حور محب» إلى «طيبة» مزودا بالكثير من الأسلاب والغنائم ، فأخذ يوزع الهدايا وأقيمت أحفال النصر لمدة عشرة أيام وعشر ليال ، توقفت خلالها كل الأعمال وانطلق الجنود فيها بالشوارع مخمورين يعبثون ويعربدون ويتصايحون كالنعاج وكان من نتائج هذا أن جاء الأطفال الذين ولدتهم نساء «طيبة» ، بعد ذلك ، سود البشرة ! ..

والتقيت «بحور محب» وهو يحمل ابنه «رمسيس» بين يديه يحاول أن يدربه على المشي بقدميه الرخصتين ، وقال لي وهو يغمز بعينه . انظر يا «سنوحي» ! .. فهذا فرع جديد من الملوك قد نشأ من ظهري ! .. إن في عروقه تجري الدماء المقدسة على الرغم من أنني - أنا نفسي - لم أكن كذلك ، أليس الأمر هكذا يا صاحبي ؟! ..

وعندما ذهب «حور محب» لملاقاة «آي» ، أصاب هذا ذعر شديد ، وراح يصرخ في وجهه قائلا : إليك عني !، فإني أنا «فرعون» ولا أحد سواي ، ولا لقاء بيننا ! .. فإنك - ولا أجهل ذلك - إنما جئت لتقتلني وتنتزع التاج لتضعه فوق رأسك ! ..

وضم «حور محب» ملء شدقيه وقال له : لست أنوى قتلك أيها الثعلب العجوز .. فإن بيني وبينك صهرا عزيزا ، وحياتك عندي غالية ، وإني لأعلم أنك في شيخوختك هذه المتهدمة ، وفي ضعفك هذا الذي يتراءى جليا في وجهك المتجعد المرتعش وساقيك اللتين لا تقويان على حملك ! .. إنك فيما أنت فيه من ذلك لم تعد صالحًا للتاج ولا قادرا على الاضطلاع بأعبائه ، ولكني مع ذلك أرى أن تبقى وأن تعيش لفترة أخرى ، فما ينبغي أن يخلو عرش «مصر» من فرعون على مثالك يصب الشعب عليه جام غضبه ، في حين أكون أنا من ذلك بمبعدة ! .. وإذن فلك أن تتماسك وألا يأخذك مني هذا الفرغ الشديد ! ..

وتقدم «حور محب» إلى زوجته بهدايا ذات قاسة ، كانت صناديق محلاة مملوءة بنثار الذهب ، ورءوس أسود صادها وقردة حية ، وقدرًا كبيرًا من ريش النعام ،

ولكنها لم تشأ أن تلقى بنظرها على شيء من هذا كله ، وقالت له بلهجة مشوبة بالصرامة : إني زوجتك أمام الناس وقد ولدت لك ولدا ، وحسبك هذا مني لتكون سعيداً . ولن أسمح ليدك أن تمس جسدي مرة ثانية ، ولئن حاولت ذلك فسأبصق على مخدعك وأخونك كما لم تخن زوجة زوجاً من قبل ! .. وسأمضي حينئذ إلى الحمالين والأرقاء والحمارين لأضاجعهم وأسلمهم جسدي علنا في الأماكن العامة «بطيبة» لينالوا ما شاءوا من لذة ! .. فهل أدركت ما سوف يلحق بك بعد هذا من عار أيها القائد العظيم ؟! .. فمن الخير لك أن تبتعد عني ، ثم إن في يديك وجسمك رائحة الدماء ، وذلك شيء لا أطيقه ! ..

وساءه منها هذا الصدود ولكنه آثر ألا يجادلها وجاءني ينفث همه وهو يتوقد رغبة فيها وقال : أعطني جرعة يا «سنوحي» أذيبها لها في شراب لتهدأ أعصابها ويأخذها النوم حتى أستطيع أن أعرف طريقي إليها نائمة ! .. ولكني أبيت أن أجيبه إلى طلبه ، فذهب إلى أطباء آخرين أعطوه ما أراد ، وتمكن من نيل بغيته منها بهذه الوسيلة ، غير أنها عندما أفاقت عرفت ما صنع بها فقالت له في استنكار وازدراء : إذن لا تنس ما قلته لك ، تذكره جيداً ، فإني فاعلته لا محالة ! ..

ومضى «حور محب» بعد ذلك في رحلة إلى «سوريا» ليجهز جيشه لاستئناف الحرب مع «الحيثيين» ، مبرراً ذلك بأن الفراعنة العظام قد أقاموا أحجار حدود بلادهم عند «قادش» ، فلن يهدأ له بال حتى تدخل عجلاته الحربية إليها مرة أخرى .

وخلال غيابه حست الأميرة «باكيت آمون» بأن بذرة حمل آخر بدأت تتفاعل في أحشائها ، فآوت إلى حجرتها وقررت أن تظل فيها وحيدة لا تتصل بأحد من الناس ، حتى خدمها كانوا – لشدة إصرارها على الوحدة والانفراد – يضعون طعامها على باب الحجرة دون أن تراهم . فلما اقترب موعد الوضع أخذ الأطباء في مراقبتها احتيالا وبطريقة سرية ، فقد كانوا يخشون أن تجهض نفسها لما يبدو من مقتها وخجلها من هذا الحمل . على أنها – عندما جاءها المخاض – استدعتهم وكان

واضحًا أنها تغالب آلامها وتتكلف الابتسام أمامهم ، ووضعت أخيراً ولداً أسمته «سيتوس» دون انتظار للتعرف إلى رأى «حور محب» فى هذه التسمية ! . وكانت نظراتها المسددة إلى هذا الطفل تنم عن الكراهية المريرة ، وقد قالت لمن حولها إنها قد ولدته من «ست» ! ..

وطلبت الأميرة من وصيفاتها ، بعد أن استعادت صحتها عقب الوضع ، أن يدهنها ويلبسنها لباسا كتانيا ملكيا ، ثم أمرت بإعداد قارب خاص استقلته إلى الشاطئ الآخر للنهر . ومن هناك ذهبت بمفردها إلى أسواق طيبة حيث يتجمع الناس من مختلف الطبقات ، وجعلت تتحدث إليهم وتلاطفهم فى إغراء شديد ، وتطلب منهم أن يجمعوا لها - ما استطاعوا - أحجارا تختلف أحجامًا وأشكالاً وألوانًا ، لقاء ما يرتضونه من أجر مهما بالغوا فيه ! ..

وكانت دعوتها لهم مفاجأة غريبة عليهم ، فليس ما تطالبهم به شيئًا يقع فى مهنتهم ، وحسبوها ساخرة تتلهى ببؤسهم ، وانصرفوا عنها فى كثير من العجب والدهشة ! .. بيد أنها لاحقتهم لاهجة فى دعوتها وإغرائها حتى إذا ما استثارت أحاسيسهم ونخوتهم ، عاودا فتجمعوا حولها بعد تفرق وأخذوا ينظرون بعيون متلمظة إلى جمالها الرائع وردائها الخلاب ، يتنسمون - فى نشوة - عطرها الفواح ، ويدافعون فى أنفسهم شعور الرهبة منها ، ويقول بعضهم لبعض : إن شأنها لعجيب حقا ولا نعرف له من قبل شبيها فى النساء ، فلا ريب فى أنها إلهة مبعوثة إلينا لتشعرنا أن الناس - كافة - سواسية ! ... وإنها - يقينا - لا ترسل نفسها هذا الإرسال السافر لأناس فى رقة حالنا إلا عن فكرة مثلى مقدسة ، تريد بها أن نسهم معها فى تجميع كمية كبيرة من الأحجار لتقيم بها معبداً جديداً للإله «باست» .. ومن أجل هذا ، يجب أن نلبى دعوتها لنؤدى بذلك عملا يقربنا زلفى عند الآلهة ! ..

وفى هذا الجو من الحماسة ، أخذوا يتبارون فى جمع الأحجار بكميات وافرة .. وكان قاربها الذى جاءت به أضيق من أن يتسع لها أو يقوى على حملها ، فاستدعت

قارباً آخر أكثر سعة وأكبر حجماً ، وعادت به محملا بأحجارها إلى البيت الذهبى . وقد ودعها أولئك الرجال فى ابتهاج كبير ، وهم يؤكدون لها أنهم جامعون لها فى الغد أحجاراً أخرى أكثر ضخامة وعددا ، وكانت تضاحكهم وهى تثنى على ما بذلوه من جهد ونصب .

وكررت الأميرة جولتها فى اليوم التالى ، فوجدت المزارعين قد انتزعوا درجات سلالم الحانات ، كما جاء الحراس بأحجار مستلة من مبانى الفراعنة . وقد عاونوها فى نقل تلك الأحجار إلى القارب الذى أوقره حمله حتى كاد يغرق لولا ما بذلته الوصيفات من جهد مضن فى التجديف به إلى رصيف البيت الذهبى بالشاطئ الآخر .

وفى المساء نفسه انتشر الحديث بكل أنحاء «طيبة» عن «آلهة» رءوس القطط» التى ظهرت بين الناس . وكان حديثًا غريباً ذهب فيه - مذاهب شتى - من لم يؤمن بالآلهة ومن لم يتصور وقوع شىء من ذلك ، والكثيرون منهم لم يروا فيه غير حديث خرافة لا يقبلها العقل بحال ! ..

وبكرت الأميرة فى اليوم الثالث إلى شاطئ «طيبة» ، وقصدت من فورها إلى الفحامين فى سوقهم ، فاستجابوا لها مؤمنين فرحين . وفى لهفتهم على جمع الأحجار ، ثغروا حوائط المعابد واستلوا أحجارها ! .. وقد فزع الكهنة من ذلك وأخذوا يتصايحون بالشكوى ويتهمون الفحامين بالمروق والإلحاد لجرأتهم المنكرة على حرمة المعابد وقداستها ! .. غير أن هؤلاء الفحامين لم يحفلوا بهذا الاتهام ، بل كانوا يتباهون بما صنعوا فى سبيل العقيدة ! ..

وزاد بذلك شيوع الحديث عن «آلهة رءوس القطط» التى كشفت للناس عن نفسها ، وكثر عدد الذين يروونه عن بينة ، فاضطراب الأمر فى المدينة ، وتمنى كثيرون - حتى من عليه القوم - ولو واتاهم الحظ فاتصلوا بها وقاموا على خدمة أغراضها .

وقد انزعج الكهنة من ذلك واستبد بهم القلق ، وأرسلوا حراسهم ليقبضوا على هذه المرأة التى تحمل الناس من أمرهم رهقا وتشيع الفوضى والقلق بينهم .

واعتكفت الأميرة بالبيت الذهبى لتستريح من ذلك العناء المرهق ، وكانت - فى حديثها وسلوكها - تبدو رقيقة مفترة الثغر على غير المعتاد من طبعها ! .. وكان هذا مثار الملاحظة والعجب فيمن حولها من أفراد الحاشية الملكية . وقد اغتبطوا - على أية حال - بهذا التغير الطارئ فى «طيبة» واستفاضت حولها أقاويل الناس ! ..

وكان أول ما عنيت به - بعد أن استوفت جمامها - هو فرز الأحجام الكثيرة المتجمعة لديها وترتيب أشكالها وأحجامها وتمييز بعضها من بعض ، ثم استدعت إلى حديقتها رئيس بنائى القصر لحظائر المواشى ، وقالت له : لقد جمعت هذه الأحجار بالقرب من شاطئ النهر ، وهى أثيرة عندى ، وأريدك أن تبنى لى بها فى هذه الحديقة «إيوانا» فسيح الجنبات رحب الضواحى عالى الجدران ، لآنس فيه بالظل والهواء وخمائل الأزهار ، فقد أصبحت أشعر بالحاجة إلى الخلوة بمثل هذا الإيوان لما ينتابنى فى مخادع القصر وحجراته من ضيق الصدر فى غياب زوجى .

وكان رئيس البنائين رجلا ساذجًا محدود القدرة الفنية ، فقال لها فى خضوع : أيتها الأميرة العظمية .. إنى - على ما تعملين - غير كفء لإقامة هذا البناء من هذه الأحجار المتباينة الأحجام والألوان ، وأخشى ألا يجىء بيدي موافقا لفكرتك الجميلة ومكانتك السامية ، فهلا عهدت به إلى من هو أكثر منى مهارة وفنا من بنائى المعابد أو المعمارين المتخصصين ؟!

ولكن الأميرة دنت منه وقالت له في وداعه : بل أرى أنك مستطيع ذلك ، وعليك وحدك وقع اختيارى ، فلا حاجة بى إلى هؤلاء البنائين المشهورين ، وأوثر ألا استدعيهم إلى خدمتى لتحقيق رغبة خاصة كهذه ، فإنى هنا - وفيما أحسه من طول

غيبة زوجي - أحيا حياة انطواء وعزلة ، فخذ في عملك غير متردد ، وثق بنفسك ، وسأجزل لك المكافأة .

ولم يسع الرجل أمام هذا الإصرار الهادىء إلا أن أجاب في ابتهاج أمرك مطاع يا سيدتي .. فلم أقبل على العمل متحمسا مفتتنا فيه ، وكأنما ألهمه التصميم علمًا وبراعة لم يكن يعرفهما من قبل في نفسه ، وما زال هكذا حتى بلغ من «الإيوان» غاية الدقة والإتقان ، فجاء تحفة للناظرين .

وقد عرف «أي» نوايا الأميرة من تصرفاتها ، وكان في وسعه أن يتخذ حيالها إجراء صارما ، ولكنه لم يفعل وسكت عنها راضيا ، إذ ستكون تصرفاتها هذه مصدر مضايقة وإيلام «لحور محب» ، وهذا أمر يصادف هواه ، ويوافق مبتغاه .

وكان «حور محب» قد شن الحرب على «سوريا» وتم له الاستيلاء على «صيدا» و«أزمير» و«بيبلوس» ، انتزاعا من أيدي الحيثيين ، وأرسل إلى «مصر» العدد الكثير من الأرقاء والغنائم ، كما بعث إلى زوجته بالهدايا الوافرة النفيسة . وكان الناس جميعًا يتلقون أنباء الانتصارات المتلاحقة وينعمون بثمارها ويشيدون باسم قائد جيشهم المظفر ، ولا يكفون - مع ذلك - عن الحديث في تصرفات زوجته ، ولكنهم - حتى الذين اصطفاهم من رجاله وأقامهم في المناصب الرفيعة - لم يجدوا في أنفسهم الجرأة على إبلاغه شيئًا مما يدور على الألسنة حولها ، وكانوا يعللون ذلك بقولهم . خير للمرء أن يضع لسانه بين شقي الرحى الدائرة من أن يقحم نفسه بين زوج وزوجته ! ..

ومن هنا ، ظل «حور محب» في المعركة لا يسمع شيئًا يسوؤه عن زوجته . وكان هذا ، بلا ريب ، خيرا على «مصر» وأعون على كسب النصر لها في الحرب القائمة ، فلا ينبغي أن يفكر قادة الحروب في شيء سواها .

- ٥ -

أطلت الحديث عما وقع للآخرين في حكم «آي» . ومع أني شاركت في هذه الأحداث وكان لي فيها دورا كبير ، فإنني لم أذكر عن نفسي إلا القليل ، وأشعر الآن في خلوتي بعيداً عن الحوادث ، أن نهر حياتي الذي كان جياشا متدافع الموج قد اعتراه السكون واستحال هديره الصاخب إلى ما يشبه الهدوء الذي يجيء بعد هبوب العاصفة ، فلست أجد عسرا - بعد - في التقاط ما قد رسب في قاعه من ذكريات تلك المآسي التي عشتها وتقلبت في لظاها . وإني لأذكر منها أنني ، بعد الذي أوردته من أحداث ذلك العهد ، انصرفت عن الناس وزهدت أشد الزهد في لقائهم ، تقززا من المناكر التي شاعت فيهم وإنكارا للمآثم التي تدجي ظلامها في دنياهم ، فلزمت داري لا أبرحها . فإذا ضقت بمقامي بها خرجت لأجوب وحدي الطرق الترابية غير المأهولة هائماً على وجهي حتى تكل قدماي ، فأعود إلى الدار لتلقاني فيها «ميوتي» التي ظلت قائمة على خدمتي ورعاية شئوني ، فكانت لي في فراغ وحدتي نعم الرفيق المخلص ، تعد لي الطعام مطهوا بيدها الصناع وتقدم بين يدي شراب النبيذ كلما استشفت رغبتي في شراب لكنها كانت تقدمه في قصد واعتدال حتى لا يرهق أعصابي الإسراف فيه ! .. غير أني لم أكن أستشعر - كثيراً - لذة طعامها هذا الجيد ، كما لم أعد أستشعر في نبيذها ما كان من قبل من نشوة ومرح ، بل كان هذا النبيذ - إذا ما أضواني الليل - يطلق خيالي فيما كان يمضني التفكير فيه من أعمالي السيئة ، فكأنما يطلق على ذئابا تنهشني وتدميني ! .. فما أرى إذ ذاك إلا صورا متكررة من وجه فرعون «إخناتون» وهو يحتضر ، ووجه «شوباتو» وهو يتلوى من الألم ويلفظ أنفاسه الأخيرة ! ..

وفي استعراض هذه الصور البغيضة المثيرة ، كانت تطغى كراهيتي للناس ولنفسي معهم ، وأنظر إلى يدي في ازدراء لتلوثهما بالإثم والجريمة ، وأراهما غير جديرتين بأن تؤديا - بعد - عملا صالحاً . ومن هنا فارقتني الرغبة في استعمالها

لعلاج المرضى ، وكنت فى تثاقل وانقباض لا أستقبل منهم إلا الفقراء من جيرتى ، أولئك الذين لا يملكون ما يعطونه أجرا لأطباء آخرين ! ..

وكثيراً ما كنت أقضى النهار كله قابعًا على حافة البركة الصغيرة القائمة بفناء دارى ، متأملاً الأسماك الملونة التى حشدتها فيها ، تظللنى شجرة الجميز التى أخذت تورق وتزهر ، وأشعر أن هذه الأسماك فى سبحها وهذه الشجرة فى إيراقها وإزهارها ، أسعد منى حالا لأنها تعيش فى عالم غير عالم الناس وشرورهم .

وفى جلستى الطويلة المتأملة على حافة البركة وتحت ظلال الشجرة ، كنت أذهب مع نفسى وقلبى فى مناجاة تتحول أحيانا إلى صراع وملاحاة ، أتلمس مخرجا من الضيق الجاثم على صدرى ومن الجرائم التى توقر ظهرى ، فأزعم لنفسى ولقلبى أنه إذا كان الذى حدث جنونا وشرا ، فإنما يشفع لى فيه أن الدنيا بكل ما فيها ومن فيها ليست إلا الجنون والشر ، وهذا العالم من سائر أقطاره لا يحكمه ولا يسوده سوى الحقد والجشع اللذين يتنزيان من جنون الناس وشرورهم ، فلماذا الأسى على ما كان أو على ما سيكون ، ما داموا - هكذا أبدا - يطاولون بعضهم بعضًا متدافعين متناحرين فى لدد إلى غير حد ، لا تهذبهم الحروب ولا تعظهم الطواعين ، ولا تكبحهم الحرائق والزلازل ، ولا تصلحهم الآلهة والأديان والدعوات الموصولة فى المعابد والمحاريب ؟! وما الرجل الطيب الوحيد إلا إذا الذى يخرجه الموت من غمار هذه الدنيا ! ..

ولكن قلبى ، مع ذلك ، ينهض فى خفق شديد صارخًا فى أذنى : كلا يا صاحبى .. إنك تستطيع أن تجلس جلستك هذه متسليا بالنظر إلى أسماك بحيرتك التى لا تعرف شيئًا من جرائرك ، أما أنا الذى تجاهلتنى وأنا بضعة منك وتصاممت دون صيحاتى وأنا أنصحك وأنهاك ؛ فلن أمنحك السلام والأمن ؛ لأنك لم تمنحنى شيئًا منهما طوال صحبتى لك ! . لقد عذبتنى أشد العذاب بما كنت أراه دائمًا من ضحاياك ! .. فكم من ألوف وألوف ماتوا بسببك يا « سنوحى» أولئك المساكين الأبرياء الذين فتكت بهم المجاعة والطاعون والذين هدرت أرواحهم وتناثرت أشلاؤهم تحت العجلات فى

الصحراء ، والذين ماتوا أجنة فى الأرحام لفرط ما أصاب أمهاتهم من الشدائد والأهوال ، والذين سيقوا كالأنعام لتلهب ظهورهم المقوسة سياط الجلادين ! .. كل أولئك عانوا ما عانوا من عذاب الموت وعذاب الحياة بسببك ، وأنت تخدع نفسك وتحاول أن تخدعني كذلك لتبدو غير مسئول عن هذه الكوارث جميعًا ! .. ولكن عبثًا تطلب الخلاص ، فلن تفلت من قبضة الحقيقة التي ينبعث صراخها من داخل أعماقك ... إن في الدينا خيرا صيرته شرا ، وإن فيها لعدلا وحقا بدلتهما ظلما وباطلا ، وستظل ذكرى أفعالك السود عالقة بأفكارك ، تقض مضجعك وتكدر صفو حياتك ! ..

روعني قلبي في يقظته وحسابه ، ولكني تكلفت القوة لمواجهته قائلا له : ما فعلت شيئًا من هذا الذى تعده ذنوبًا وآثاما ، إلا مكرها فاقد الإرادة فلم تكن لي فيه حيلة أو منه مندوحة ، ذلك أن الحياة مع الناس - كما قلت لك - طافحة بالذنوب والآثام ، فجريت في مجراهم وانسقت مساقهم ، وقد رأيت آخر الأمر ألا نجاء لي منهم إلا في الانفصال عنهم ، وها أنتذا تراني منهم بمعزل ، أوثر العيش بعيدًا عنهم ، إلى جوار هذه الأسماك بل إني لأوثر عليهم ذئاب الصحراء وأسود الأحراش ، إنها جميعًا لم ترزق العقل والحكمة ولكنها - على ذلك - خير من الإنسان في عقله وحكمته ، وأسلم منه عاقبة على أية حال ! ..

ولم يقنع هذا قلبي فيقول ساخرا : تفارق الناس - إذن - لأنهم أوتوا العقول التي يعرفون بها ما يفعلون ! .. هذه حجة عليك يا صاحبي ! . فأنت أحظى الناس بالعقل وأبعد منهم مدى في مجال المعرفة ، فقد تعلمت وارتفعت مداركك وعرفت ما قلما يعرفونه من الحق والخير ، فإن كان لهم العذر؛ لأنهم يفعلون ما يجهلون ، فما عذرك أنت في عملك وإدراكك ؟! . إن هذا لحرى أن يفدح خطاياك ويثقل إصرها ، فتجرع كأس العذاب حتى تمثالتها ، فذلك جزاؤك الحق على ما قدمت يداك ! ..

وخارت قواي ، فاستسلمت إلى هذه النتيجة المزعجة في حوار قلبي ! .. واشتدت آلام نفسي وأخذت أصرخ وأمزق ملابسي وأقول : فلتنزل اللعنة على قلبي ، هذا الذى

يدينني بعقلي وتعليمي ويأبى أن يغفر أو يتسامح لأظل حتى الموت معذبًا شقيًا ! .. فمن لي بمن يجيء بميزان «أوزوريس» لأزن به القلب المجنون ؟! ..

وسمعت «ميوتي» صراخي فهرولت إلى مسرعة من المطبخ ، وحملت رأسي بين يديها وأخذت تمسحه بقطعة من النسيج مبللة بماء البركة ، ثم قادتني وكأنها تجرني جرا إلى فراشي وجرعتني شرابا مرا حتى هدأت أعصابي ، ولم تنس في هذه اللحظة المثيرة أن تسلط على لسانها الحاد لوما وتقريعًا ! ..

وقضيت وقتا طويلا طريح الفراش حليف المرض ، متحدثا في مثل هذيان المحموم عن ميزان «أوزوريس» وعن «ميرييت» وعن الصغير «تحوتح» ، ومع أن هذا كان شيئًا تكرهه مني «ميوتي» ويضيق صدرها به ويرسل لسانها ساخطا لاعنا ، فإنها كانت تقوم على خدمتي بإخلاص باذلة أقصى الجهد في سبيل راحتي . وقد بلغ من عنايتها بي أنها منعتني من الجلوس في الحديقة نهارا إلا في ظل شجرة الجميز حتى لا تمس أشعة الشمس الحارقة رأسي بعد أن سقط الشعر منه ، ذلك أنها كانت تعلم أن ارتيادي الحديقة أمر أرغب فيه أشد الرغبة للاستمتاع بمنظر الأسماك غادية ورائحة في ماء البركة ، ولولا هذا ما سمحت «ميوتي» بأن أغادر الفراش ! ..

وبفضل هذه الرعاية الرتيبة عادت العافية إلى بدني ونفسي أحسست أن المنافرة التي قامت بيني وبين قلبي قد زالت تماما فلم يعد يعذبني ، وأن الآلام التي كانت تثيرها ذكرى «ميرييت» والصغير «تحوتح» قد خفت عندي فكففت عن الحديث عنهما ولو أني لم أنسهما فهما مستقران أبدا في قلبي ، وكان عزائي في أمرهما أخيرًا أن موتهما كان قدرًا مقدورًا لا مفر منه لتطفح كأسي وأصبح وحيدًا ! .. فهكذا شاءت الأقدار لي منذ حملت على النهر وحيدًا في ليلة مولدي !.. ولا شك في أنهما لو أفلتا من الموت لكان ذلك خيرًا وأبعث لسعادتي بالعيش معهما ، ولكن ثمة هذه الوحدة التي فرضتها الأقدار على حياتي ، قد فعلت فعلتها فيهما ، وربما كان هذا خيرا لهما من البقاء لمشاركتي حياة تعسة !..

وذات يوم نزعت نفسى إلى الخروج من عزلتى لمخالطة الناس والتحدث إليهم فيما لم يألفوا الحديث فيه من الأمور الجارية ، فارتديت ملابس خشنة مما يلبسه الفقراء ، وخلعت الصندل من قدمي ، وغادرت المنزل متنكرا على هذه الصورة وقصدت إلى رصيف الميناء ، واختلطت بالحمالين وعملت معهم فى حمل الأثقال حتى أصاب ظهرى الكلال وتسلخت كتفاى ! .. وعندما شعرت بالجوع ذهبت إلى سوق الخضر وتناولت طعامي من بقاياها ونفاياتها المتناثرة ثم عدت إلى ما كنت فيه ، أعمل عمل الأرقاء والحمالين ، وظللت هكذا أحيا حياتهم وأطعم من طعامهم وأشرب من جعتهم حتى توثقت العلاقة بينى وبينهم . وكانوا بعد أن تعرفوا إلى شخصيتى ينكرون على أن أهبط إلى دنياهم هذه الطافحة بالكدح والعناء والفاقة ، وهم يعلمون أنى فى غير حاجة إلى ذلك ، فأقول لهم : وأية غرابة فى هذا أيها الأخوة ؟! إنه ليس ثمة فرق بين إنسان وإنسان .. فالجميع قد ولدوا عرايا وجاءوا إلى هذا العالم على نمط واحد لا يختلف ! .. وهذه الوحدة الشاملة هى حقيقة الحقائق التى لا جدال فيها ، والخطأ الكبير بعد ذلك هو أن يقاس المرء بلون بشرته أو بملابسه أو بما يتزين به من حلى وجواهر ، وإنما يقاس المرء بقلبه وعمله ، ولهذا كان الرجل الطيب فى فقره خيرا من الرجل الشرير فى غناه ، والحاكم العادل أفضل كثيراً من الحاكم الظالم بلا مراء ! ..

وبهذا وبمثله كنت أتحدث إليهم كلما خلوت بهم متجمعين أمام أكواخهم الطينية فى كل مساء ، فى حين كانت زوجاتهم يوقدن النيران فى الشوارع لينضجن عليها السمك الذى تنتشر رائحة شوائه فى الجو ! ..

وكانوا لا يفهموننى فيقولون ضاحكين ساخرين : إذا لم تكن مجنونًا يا «سنوحى» لقيامك معنا بعمل الأرقاء مع أنك تحسن القراءة والكتابة ولك هناك مكان الطبيب العالم ، فأنت - لا شك تبطن أمرا خطيرا وتطوى نفسك على مكيدة قد لا تؤمن عواقبها ، ولهذا جئتنا متنكرا ! .. وإننا لنلمح فى حديثك شيئًا من تعاليم «أتون»

الذى لا يجوز لنا أن ننطق باسمه ! .. على أننا وقد أدركنا نواياك الخفية ، لن نشى بك إلى الحراس فابق معنا - إذن - آمنا ما شئت أن تبقى ، ففى ثرثرتك تسلية لنا .. على أننا نريد ألا تتحدث كثيراً عن الألوان والفوارق والمقاييس ؛ لأننا وإن كنا أرقاء وحمالين ، فنحن ، على أية حال - مصريون فخورون بلوننا ولغتنا وماضينا ، قانعون بحالنا على أمل فى المستقبل ! ..

قلت لهم : هذا كلام لا معنى له ، ولا أكاد أدرى كيف تلتقى هذه المفاخرة وتلك القناعة بما يعرض للإنسان فى عامة حياته من التعذيب بالإغلال والجلد والحراب والطيور الجارحة ؟! . إن هذا الإنسان من حقه أن يعيش حرا ولا يحكمه إلا قلبه ! ..

ولكنهم أغرقوا فى الضحك وخبطوا بأيديهم على ركبهم وقالوا : حقا إنك لرجل مجنون ! .. وكأنك قد نشأت وعشت طول حيات مطويا فى غرارة ! .. إننا - فيما نحن فيه - نشعر أننا أحسن حالا من غيرنا فى بلاد أخرى وهذا حسبنا ، ونحن على ما تراه فينا من فقر وجهل ، مقتنعون بأننا أكثر منك حكمة ودهاء بالرغم من أنك تعرف القراءة والكتابة ! ..

فقلت لهم : إنما أريد أن تميزوا الخير من الشر والعدل من الظلم ، فالحياة لكم وللناس أجمعين ينبغى أن تكون خيراً وعدلا ، ولا مكان للشر والظلم فيها إلا بغفلة الناس وسوء فعالهم ! ..

ولكنهم أجابوا فى مرارة : خير وشر ! .. وعدل وظلم ! .. ما هذا ؟! إننا إذا ذبحنا سيدا ، لأنه يجلدنا ويسومنا سوء العذاب ويحرمنا من طعامنا ويقتل زوجاتنا وأطفالنا ، فذلك عمل حسن ولا ريب ، وهو جزاء حق يلقاه ظالم مستبد ! .. ولكننا ما نكاد نفعل حتى يحيط بنا الجند والحراس فينقبضون علينا ويسوقوننا مكبلين فى الأغلال - إلى قضاة فرعون ليحكموا علينا بالموت بتقطيع آذاننا وأنوفنا وتعليقنا من أعقابنا على الجدران ! ..

قلت لهم إن القتل من أحط الجرائم التى يرتكبها الإنسان ، مهما تكن أسبابه ودواعيه ! .. والمقتول تسقط عنه بالقتل كل خطاياه ، فهذه جريمة لا أقرها بحال ! ..

فوضعوا أيديهم على أفواهم ونظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا : إننا مثلك لا نقر القتل ولا نريده ، ولكن لماذا توجه الحديث إلينا فى هذه الأمور ، إذا كنت تبتغى - حقا - تخليص الناس من الشرور والمظالم وتحيل حياتهم خيرا وعدلا ؟!. فاذهب بدعوتك هذه إلى النبلاء والأثرياء وقضاة « فرعون » فهناك مجال دعوتك ، وليس هنا ! . ونحن غير ملومين يا «سنوحى» إذا كان جزاؤك عندهم قطع أذنيك ونفيك إلى جحيم المناجم ، أو تعليقك من أعقابك على الجدران ! .. فأغلب الظن أنهم فاعلون بك ذلك ، فهذا الذى تقوله خير ، ولو سمع به قائدنا العظيم «حور محب» فإنه قاتلك لا محالة ! ..

وتركت هؤلاء الحمالين والأرقاء ؛ لأنهم لم يفهموا آرائى ، أو لأنى وجدت فيما قالوه أخيراً وجه الصواب ، فما جدوى أن أبشر فيهم بهذه المعانى الإنسانية وهم أنفسهم ضحايا ظلم الآخرين ؟! .

وأخذت سبيلى إلى من ينبغى توجيه الحديث إليهم ، متجولا فى شوارع «طيبة» حافى القدمين مرتدياً ملابس الفقراء ، ولقيت - فيمن لقيت - التجار الذين يخلطون الدقيق بالرمال ليثقل وزنه ويكبر حجمه ، وأصحاب الطواحين الذين يجلدون أرقاءهم ويحرمونهم من الدقيق الذى يطحنونه ، والقضاة الذى يتناهبون أموال القصر واليتامى ويرتشون ليصدروا أحكامًا ظالمة ! .. وتحدثت إلى هؤلاء جميعًا ناعيا عليهم المآثم التى يقترفونها وناصحا لهم بالتزام الحق والعدل والقناعة ، ولكنهم كانوا يستمعون إلى فى دهشة كبيرة ويقول الواحد منهم للآخر : من يكون «سنوحى» هذا الذى يتطاول علينا ويتحدانا بهذه الجرأة العجيبة ؟! فلعله وهو يطلع علينا هكذا بملابس الأرقاء وعلى مثالهم ، أن يكون أحد جواسيس فرعون ، فما كان يمكن أن يفعل ذلك مطمئنا لو لم يكن عينا فرعونية تتلصص علينا ، وإذن فلنحذره ونتقيه ! ..

ولهذا اصطنعوا التفتح لأحاديثي وكأنهم يوافقونني عليها ، ودعوني إلى زيارتهم في بيوتهم ومنحوني الهدايا وقدموا لي الطعام والشراب ! .. وعملا بنصحي أو خوفا مما وراء هذا النصح ، أخذ القضاة يصلحون من سلوكهم في إصدار أحكامهم ! .. وعلى غير المألوف أصبحت الأحكام تصدر لصالح الفقراء ضد الأغنياء ، مما أثار سخط أهل هذه الطبقة المتعالية في «طيبة» وكانوا يقولون : في هذه الأيام لم يعد قضاة فرعون أهلا للثقة بهم ، فقد انحطوا إلى حضيض اللصوص الذين يحاكمونهم ، بل ربما كانوا أقل شرفا منهم ! ..

وكان النبلاء الذين ذهبت إليهم قساة غلاظ القلوب ، فما يكادون يستمعون إلى حديثي حتى يثور غضبهم وينهالون على ضربا بالسياط ويطلقون في إثرى كلابهم ، فما يسعنى إلا أن أفر من هذا العذاب هائمًا على وجهي في شوارع «طيبة» في أثوابي الممزقة والدماء تقطر من ساقي ! ..

ويراني التجار والقضاة على هذه الحال من المهانة ملفوظا من النبلاء وهم الطبقة الأقوى سلطانا ، فيهون أمرى عليهم ويزورون بجنوبهم عني ، فإذا حاولت التحدث إليهم طردني وهم يقولون مهددين : إذا عدت إلينا مرة أخرى فسنطلب القبض عليك ومحاكمتك ؛ لأنك تثير الفتنة وتدعو دعوة السوء !..

وفي يأس عدت إلى منزلي ، آسفا على ما ضاع عبثا من جهودي ، وتحت شجرة الجميز جلست سابحًا بنظري وفكري مع الأسماك الصامتة ، فلست مع غيرها أشعر بالسلام الذي أنشده ...

وعلى غير انتظار جاءني «كابتاح» زائرا ، فقد عاد أخيرا إلى «طيبة» مجازفًا كعادته ، وكان مقدمة إلى منزلي مصحوبا بجلبة وضجيج لا عهد بمثلهما في هذا الحي ، إذ كان يجلس على محفة أنيقة مزخرفة ذات وسائد وثيرة يحملها ثمانية عشر شخصًا من الأرقاء السود مفتولي السواعد ، وقد أفرغ العطور على ملابسه الموشاة

وتدهن بالعقاقير الغالية ، ووضع في عينه العوراء عينا صنعها له صائغ سورى من الذهب والأحجار الكريمة ، وكان مزهوا بها على الرغم من أن وضعها كان غير محكم في تجويف العين ، فكانت تضايقه حتى إنه - فور وصوله إلى منزلي - أسرع إلى إزاحتها من موضعها ! ..

وتلاقينا بعد طوال فراق ، وضمني إلى صدره ضمًا شديدًا ، وقد زاد سمنة وبدانة ، وجاءت له «ميوتى» بمقعد ليجلس عليه ، ولكن المقعد ناء به ولم يقو على حمله وكاد يهوى من تحته ، فاضطر إلى أن يرفع طرف جلبابه ليجلس إلى جانبي على الأرض تحت شجرة الجميز!.. وطفق يحدثني عن حرب «سوريا» فقال : إنها تستشرف نهايتها ، فقد اقترب «حور محب» من حصار «قادش» وراح يذكر ، بكثير من الفخر ، المهمة التي كان يضطلع بها هو بنفسه في «سوريا» ، وأخبرني ، مفاخرا كذلك ، أنه اشترى قصرًا قديمًا في حي الأغنياء واستأجر مئات العمال لإعادة بنائه وتجميله حتى يكون لائقا بمركزه ! ..

واستطرد «كابتاح» فقال : لقد سمعت عنك في «طيبة» أخبارا لا تسر يا سيدى «سنوحي» !.. فأنت - كما يقال - تؤلب الناس على «حور محب» ! .. والقضاة وغيرهم - من الرجال ذوى المكانة والنابهي الذكر - ثائرون عليك ويرسلون ألسنتهم حدادا فيك ، لأنك تنالهم بقالة السوء وترميهم باتهامات الإثم والظلم ! .. ونصيحتي إليك أن تكون أكثر تحفظًا وابتعادًا عن هذا الطريق الشائك الكثير العثرات ! .. وقد لا يفكرون - جديا - في اتهامك بالائتمار «بحور محب» لما يعرفون من علاقتك القديمة به وسابقة عملك في صفوفه ، ولكن ليس ببعيد أن يفجئوك في ليلة مظلمة ليقتلوك ويحرقوا عليك دارك ، فلا سبيل غير ذلك لخلاصهم منك ما دمت سادرا في الطعن فيهم وإثارة الفقراء عليهم ! .. ومع ذلك فنبئني .. ما خبرك ؟! وماذا دهاك وحرك هذا النمل في رأسك ، فلعلي مستطيع أن أساعدك مثلما يساعد خير خادم سيده ؟! ..

فأخبرته بما كان من تفكيرى ومحاولاتى غير مخف عنه شيئًا ، وكان يصغى إلى ويهز رأسه حتى إذا فرغت قال لى : إنى أعرف أنك رجل مجنون وحيد يا مولاى «سنوحى» ! .. ولكنى كنت أحسبك قد برئت أو تخففت من هذا الجنون بفعل السنين ، فكم يؤسفنى الآن أن أراه أشد سيطرة عليك من ذى قبل ، وأعجب ما فى أمرك أنك تعرف جيدًا – أكثر مما يعرف أى انسان آخر – ما وقع من أحداث دامية تحت اسم «أتون» ، وكان خليقا بك أن تتعظ بها وترد نفسك عن مهاويها ، والرأى عندى أن هذه النزوة تعتادك ؛ لأنك تحيا حياة الفراغ وستنجو منها حتما إذا ما عدت إلى عملك من جديد .. وأنت فى مهنتك ، أقرب قربى إلى الخير الذى تدعو له ، فعلاج فقير عان أفضل بكثير من أحاديث تذهب مع الهواء أو تحدث قلقا وفوضى ، أو تدفع بك إلى الموت ! .. فإن كنت قد كرهت عملك كطبيب – ولا أدرى كيف يكون هذا – ففى وسعك أن تقضى وقتك فى أيما عمل نافع ككل الرجال الأغنياء ! .. ومن الممكن أن تجمع الجواهر والتحف المصنوعة منذ عهد الأهرامات ! .. وإنك – لو شئت – واجد وسائل كثيرة لتزجيه الفراغ وملء الوقت بالعمل ، وليست النساء وأشربة النبيد بمبعدة عن هذه الوسائل ! .. فبحق «آتون» إلا ما أنفقت المال والوقت مع الحسان وعلى موائد الشراب ، فذلك أشرح للصدر وأكفل للسلامة والعافية ، واحفظ لحياتك من هذا الهوس الذى لا جدوى منه ولا خير فيه !.. أقول لك هذا وأدعوك إليه مخلصًا لأنى أحبك يا مولاى «سنوحى» ولا أريد أن ينالك مكروه ، وأود أن تفهم أنه ليس فى هذه الدنيا شيء يبلغ مبلغ الكمال ، فقشرة الخبز محروقة ، وما من فاكهة طيبة المذاق إلا ولها آفة ، حتى الذى يقضى ليله فى الشراب مرحًا سعيدًا ، يشعر عند الصباح بالعناء الذى لم يكن يشعر به فى نشوة الليل ! .. ومن هنا تستطيع أن تدرك أنه لا توجد عدالة مطلقة أو خير محض .. وكثيرًا ما تفضى الأعمال الحسنة إلى نتائج سيئة ، وقد يكون من آثارها الموت أو الهزيمة ! .. وفيما كان من أمر «إخناتون» دليل ومثل على صدق قولى ! .. وهأنذا يا سيدى «سنوحى» قد صرت إلى ما ترى ، لأننى

عرفت كيف أمضى فى مسالك الحياة متوافقا مع الآلهة والناس ، حريصا على كسب ثقتهم ورضاهم ... فقضاة فرعون اليوم ينحنون أمامى ، والناس يشيدون باسمى ، بينما أنت ، أنت يا سيدى ، على تلك الحال من القعود والتخلف حتى لتبدو ملابسك فى غمر من قذارة الكلاب ! .. فخذ الحياة كما يجب أن تؤخذ فى سهولة وهدوء ، ولا عليك من أخطاء الدنيا وحماقات أهلها ، فإنها كانت وستظل كذلك ولست مسئولاً عنها ! ..

وتأملت فى مقالة «كابتاح» وبهرنى منه ثراؤه وموفور صحته واتساق عقله ومنطقه ، فقلت له : فليكن ما تقول يا «كابتاح» وسأعود إلى مهنتى من جديد ، ولكنى سمعتك تذكر «آتون» فى سياق حديثك ، وهو زمر - كما تعلم - محظور ، فهل لا يزال فى الناس من يذكر اسمه ؟! وهل يجىء ذكره متوازنًا بالخير أو باللعنة ؟! . نبئنى بهذا يا صاحبى ..

وقال «كابتاح» : إن اسم «آتون» قد زال من الوجود بمثل السرعة التى زالت بها أعمدة «إخناتون» ، على أننى مع ذلك رأيت بعض الفنانين ما برحوا يرسمون - فى حذر وخفية - بطريقة «آتون» ، وفى بعض الأحيان يقع النظر على صليبه مرسوما على الرمال أو على حوائط المباول ، ويقال : إن بين القصاصين من يدسون فى قصصهم إشارات خطيرة ... ولذلك يمكن القول إن «آتون» لم يمت تمامًا ! ..

قلت له : حسنا !. سأزاول عملى طوعا لمشورتك ، وسآخذ فيه نفسى بلون من التجديد غير مسبوق عند غيرى من الأطباء ! .. سأجعله لأولئك الذين لا يزالون يذكرون «آتون» ! ..

ولم يلق «كابتاح» باله لكلامى هذا ، فقد ظنه مزاحا بعد أن لم يعد خافيا عنا - كلينا - أن «آتون» كان شرا أى شر ، على «مصر» عامة وعلى شخصى بخاصة ! ..

ودار الحديث بيننا بعد ذلك في شئون شتى ، وجاءتنا «ميوتى» بالنبيذ فشربنا معا ، إلى أن أقبل الأرقاء فأنهضوا «كابتاح» إذ لم يكن يستطيع النهوض وحده لفرط بدانته ، وأجلسوه على المحفة وعادوا به محمولا على أكتافهم .. وتلقيت منه فى اليوم التالى مجموعة من الهدايا التي توفر الراحة والسعادة لمن يريد أن يستريح ويسعد !! ..

- ٦ -

وعلقت لافتة الطبيب على باب منزلي إعلانا بأني قد عدت لمواصلة عملي ، وتوارد المرضى فى كثرة كاثرة . وكنت أتقبل هداياهم وأجورهم فى حدود قدراتهم وأعفى الفقراء من ذلك . وكان فناء منزلى يحتشد بالوافدين منهم عليه من الصباح إلى المساء .. رفى بعض الفترات كنت أخالسهم فأسألهم فى احتياط شديد عن «آتون» ، فقد كنت أخشى عليهم الخوف إذا صورحوا بأسئلتي ، كما كنت لا آمن على نفسي من الوشاة الراصدين بعد أن أصبحت سيرتي مثار الشك والظنون ، لكني آخر الأمر أيقنت أن «آتون» قد انمحت ذكراه من عامة الأذهان ، فلا أحد يذكره أو يعرف شيئًا عنه ! .. كما أيقنت بعد ، أن الذين يذكرونه هم – ولا غيرهم – مثيرو الفتن وسيئوا النوايا من أهل الظلم والفساد، وأن علامة صليبه لم تكن ترسم إلا فى معرض الطيرة والتشاؤم والإنذار بوقوع الشر للناس ! ..

وعندما انخفضت مياه النيل ، مات الكاهن «أي» وقيل إنه مات جوعا ؛ لأنة خوفه من السم كان يمنعه من تناول الطعام ! .. وما أن انتهى خبر موته إلى حور محب» حتى أعلن انتهاء الحرب فى «سوريا» ، ولم يكن قد استعاد «قادش» فاذن للحيثيين فى أن يحافظوا عليها ، وعاد فى موكب النصر خلال النهر إلى «طيبة» وأقيمت له فيها حفلات استقبال وتكريم كبرى ابتهاجًا بانتصاراته ، وأبى أن يقام الحداد لأية فترة من الوقت بعد موت «أى» وعلل ذلك – فى تصريحات معلنة للشعب – بأن «آى» لم

يكن إلا فرعون زائفًا وكان عهده شؤما ونحسا ، عانت فيه «مصر» ما عانت من خطوب الحرب وفداحة الضرائب ! ..

وكما شاء «حور محب» استقر في أفهام الناس أنه كان لا يريد الحرب وإنما هو قد أكره إكراها ، طوعًا لأمر «فرعون» هذا ، الذي تخلصت البلاد أخيرًا من شره ! ..

بالغ «حور محب» في توكيد هذا المعنى بإعلانه نهاية الحرب فور موت «فرعون» ويغلقه معبد «سيخمت» .

ولطول ما شقى الناس بالحرب وأهوالها وضحاياها ونفقاتها ، فرحوا أيما فرح بانقضاء عهد فرعون الزائف وبعودة قائدهم المحبوب الراغب في السلام .

وأرسل «حور محب» في طلبي عقب عودته ، وقال لي : لعلي أبدو في عينك .. يا صديقي «سنوحي» - أكبر سنا وأكثر كهولة مما كنت تراني يوم أن افترقنا ! .. والأمر في هذا غير مستغرب ، فإني قضيت السنين في أتون حرب مستعرة وما أكثر ما كنت أشعر به من الضيق لاتهامك إياي بأني أحارب حبا في سفك الدماء ، إذ كنت ترى في هذه الحروب ضررا يقع على «مصر» ويوبقها ، ولم يكن الأمر كذلك في رأيي وهانتذا تراني أعود محققًا النصر الذي كنت أرجوه ، مستعيدًا لمصر عظمتها وسلطانها وقد انتفت جميع الأخطار التي تهدد أراضيها وحدودها ، ولم يبق بعد أن قصفت حراب «الحيثيين» سوى «قادش» ، وهذه أدعها لابني «رمسيس» ، فقد شبعت من الحرب وأريد أن أفرغ لبناء مملكة قوية لابني . و«مصر» الآن في مثل قذارة إسطبل لرجل فقير ، وسيكون أول ما أعنى بع معجلا هو تجميع الأقذار والقضاء عليها جملة ، متوخيا وضع الصواب مكان الخطأ وإعطاء كل إنسان حقه كاملا . وبعودتي ستعود لمصر أيامها الأولى وأوضاعها القديمة . وتحقيقا لذلك ، سأصل ما انقطع من سلسلة ملوك «مصر» فأمحو منها اسمي الشقيين «آي» «وتوت عنخ آمون» حتى لا يبقى لحكمها ذكر في تاريخ الفراعنة ، وبهذا يجيء اسمي تاليا لا سم

«أمنحوتب الثالث» ويبدأ تاريخ حكمي من الليلة التي مات فيها هذا الفرعون العظيم ، حينما جئت إلى «طيبة» وحربتي في يدي وصقري يخفق بجناحيه أمامي ! ..

وتوقف «حور محب» عن الكلام ، مسندا رأسه على يده وقد رسمت الحرب خطوطًا على وجهه ، وبدا كأنه يفكر مكتئبًا ، ثم استطرد قائلا : الواقع أن العالم قد تغير عما كان وقت أن كنا صغارًا ، ففي ذلك الوقت كان الفقراء ينالون حقهم غير منقوص ، وكان الرخاء شاملا حتى إن الأكواخ الطينية لم يكن ينقصها الزيت والسمن ، وليس الأمر هكذا اليوم ! .. على أن «مصر» ستبعث بعثًا جديداً وستظلها سحائب الخير والرخاء والغنى كما كانت حالها من قبل ، وسأرسل السفن إلى أراضي «بنت» وسأعيد حركة العمل إلى المحاجر والمناجم لأستطيع أن أبني معابد أكبر ، وأجمع الذهب والفضة والنحاس لخزانة فرعون ! .. وفي عشرة أعوام سترى - يا «سنوحي» - «مصر» أخرى غير هذه ، ليس فيها مستول أو عاذل ، ولا عاجز أو محتاج ! .. ومن اليوم سأطهرها من كل دم مريض ، وأخلق فيها شعبًا قويًا يقوده أبنائي ويسيطرون به على العالم ! ..

وكان «حور محب» - فيما رأيت من اهتمامه بالكشف عن خططه ونواياه - يتوقع أن يسمع مني شيئًا يوافق هواه ! .. ولكنني كنت خلال حديثه أشعر بضيق الصدر وأحس كأن معدتي تسقط إلى ركبتي ، وقلبي تعتصره قشعريرة مميتة ، فتوقفت أمامه جامد الحركة معقول اللسان كأنما قد امتلأ فمي بالماء ! ..

وساء «حور محب» ذلك مني ، وفشا في وجهة القطوب ، والتفت إلي مغضبا كما كان يفعل قديما وقال : كنت أحسبك يا «سنوحي» ، قد تحررت من طبعك المرير ، فإذا بك لا تزال كشجرة الشوك العقيم ، فهل كنت مخطئًا حين قدرت أني سأكون مسرورًا بلقائك ؟!. لقد كنت أنت أول من بعثت في طلبه ، لألقاك قبل أن أمضي إلى لقاء ولدي لأحملهما مبتهجًا بين ذراعي ، وقبل أن أضم زوجتي «باكيت آمون» إلى صدري ! .. ذلك لأن القوة والحرب قد جعلاني وحيداً ، ولم أكن أجد في الناس فردا واحدا

أستطيع أن أكاشفه بأسرارى وأقاسمه أفراحى وأتراحى ! .. وعندما كنت أتكلم ، كان لا مناص من أن أزن عباراتى وأحكمها بمقدار ، وفاق مناسبتها العامة ، فلست أبتغى فيك - فى ظروف وحدتى - إلا الصداقة المجردة تؤنس النفس الموحشة وتريح القلب المتعب ! .. ولكن يلوح لى أنه حتى صداقتك - على عهدنا بها - قد تبخرت وتلاشت ، ويخيل إلى أنك غير مبتهج بعودتى يا «سنوحى» !..

فانحيت بين يديه وقلت له : كيف هذا يا سيدى ؟ وأنا الذى لم يبق لى حيا من أصدقاء الشباب سواك ، وقد أحببتك مخلصًا فى حبى وسأظل كذلك ما حييت ، وبروح هذه الصداقة التى لم تتغير ولن تتغير ، أسمح لنفسى بأن أقول لك : إن القوة الآن ملك يمينك ، غداً ستضع تاج المملكتين فوق رأسك ، وليس هنا أو هناك من يقدر على مطاولتك أو يقف فى طريق قوتك ، ولهذا فإننى أرجو منك يا صديقى «حور محب» أن تبعث «آتون» مرة أخرى ، وفاء بحق صديقنا «إخناتون» وتكفيرا عن جريمتنا المرعبة ، وليصبح الناس جميعًا إخوة لنا ويتحقق السلام ولا تكون هناك ثمة حاجة إلى حرب جديدة ! ..

وقال «حور محب» وهو يهز رأسه مشفقا : كنت يا «سنوحى» مجنونا ولا تزال !.. لقد ألقى «إخناتون» حجرا فى الماء أحدث به رشاشا واضطرابا ، ومهمتى الآن هى أن أعيد الهدوء إلى سطح الماء ! .. ولعلك لم تنس ، بعد ، أن هذه هى الرسالة التى ساقنى صقرى من أجلها إلى البيت الذهبى فى الليلة نفسها التى رحل فيها فرعون العظيم عن هذه الحياة ! .. كان ذلك أمرا مقدورا لكيلا تتردى «مصر» فى الهاوية . فاليوم وقد شهدت الأحداث وعشتها ، ورأيت ما أصاب البلاد من البلايا ، وتعلق مصيرها - أخيراً - بإرادتى ، فليس - بعد - من سبيل غير أن أعمل لأرد إليها ما فقدته من طرائق حياتها الأولى . فالناس كما ترى غير راضين عن حاضرهم ، وهم يرمقون ماضيهم ويحنون إليه مثلما يرمقون المستقبل ويرغبون فيه موصولا بالماضى . ومن أجل هذا ، فسأعيد لهم الرباط المفقود بين أمسهم البعيد

وغدهم المقبل ، وسآخذ من الأغنياء ما يفيض عن حاجاتهم ، وكذلك سأفعل مع الآلهة التي استفاضت وتجاوزت حدودها ، ففي مملكتي ينبغي ألا يزداد الغني غنى ، أو الفقير فقرا ، ولن أسمح لإله أو إنسان أن يزاحمني على سلطاني أو ينافسني في حكمي ... هذه هي خطتي ، وذلك هو منهاج عملي .. ولكنك لا تفهمني ؛ لأنك رجل ضعيف ، والضعيف لا يستحق أن يعيش في هذا العالم ، ولكنه إنما خلق ليوطأ بأقدام الأقوياء وهذه هي حال الأمم والأفراد منذ كانت الحياة ، وستبقى هكذا دائمًا ! ..

وانتهى الحديث بنا عند هذا الحد فافترقنا دون أن تلتقي آراؤنا ، وكان ذلك سببا في انتقاص صداقتنا . ومضى هو إلى ولديه فرفعهما بذراعيه القويتين واحتضنهما فرحا ثم تركهما ذاهبا إلى حجرة الأميرة «باكيت أمون» فابتدرها قائلا : يا زوجتي الملكية .. إن شوقي إليك عظيم ، وقد كنت تطلعين في خيالي قمرا مضيئًا خلال سني فراقنا الطويلة ، وهأنذا قد انتهى عملي كما انتهت غربتي وستجلسين إلى جانبي جلستك الملكية المقدسة ، وأحسبني - وقد سفكت من أجلك الدماء وأحرقت المدائن - أصبحت عندك أهلا للمكافأة ! ..

وفي شيء من الاستحياء، خبطت «باكيت أمون» على كتفه وقالت له في ابتسام حلو : نعم ... لقد استحققت مكافأتي يا زوجي «حور محب» ويا قائد «مصر» العظيم ! .. وإني - اعرابا عن مشاعر تقديري لك - قد أعددت لاستقبالك إيوانا في الحديقة ، شيد على نسق لم يسبق له مثيل ، فكل حجرا في بنائه أحضرته بنفسي وكل جزء أقيم فيه كان بإشارتي ورأيي ، وكان هذا تسليتي المحببة في حنيني الشديد إليك ، فهيا بنا نذهب إليه لأمنحك فيه المتعة المشتهاة ! ..

وتهلل وجه «حور محب» لهذا الاستقبال الجميل ولهذه العبارات المغرية ، وخرج مبتهجا مع «باكيت آمون» إلى الحديقة حيث قادته إلى الإيوان ! .. وقد توارى عندئذ أفراد الحاشية واختفى الأرقاء وسواس الخيول وكادت تقف أنفاسهم في صدورهم

رهبة وفزعا مما يتوقعون حدوثه بعد ذلك ، فهم يلعمون سر هذا «الإيوان» وسر الأميرة ورغبتها فى مكايدة زوجهاو إيلامه ! ..

وعندما احتواهما «الايوان» حاول – في شغفه ولهفته واعجابه – أن يحتضنها ، فردته في رفق قائلة له : اكبح جماح رجولتك لحظة يا «محور محب» حتى أروى لك قصة هذا «الإيوان» وأنبئك نبأ الجهد الكبير الذى بذلته في إقامته ! .. ولعلك تذكر أننى قلت لك شيئًا ليلة أن نلتقى على غير إرادتى ؟!. فانظر – إذن – تر تجسيد وعيدى ! ..

وظنها «حور محب» – أول الأمر – تمزج معه ، ولكنه حين نظر إلى عينيها استبان فيهما الجد ممزوجا بالكراهية المرعبة ، فثار ثورة الجنون واستل سكينا ليهوى بها عى عنق المرأة التي تجاهر بالكيد له ! .. ولم تفزع «باكيت أمون» ، ولكنها واجهته بصدورها عاريا وقالت : اضرب يا «حور محب» فإنما تضرب التيجان التى تهيىء لها رأسك ، فإنى كاهنة «سيخمت» ودمى مقدس ، ولن يكون لك حق – إذا قتلتنى – فى عرش «فرعون» ! ..

وهنا تراخت يد «حور محب» وأحس كانما قيد قده بأغلال ، فارتد عنها فى حسرة قاسية ، مؤثرا اجترا ع كاس انتقامها المسموم على فقد حقه في العرش ، ولم يجرؤ بعد ذلك على هدم «الإيوان» الذى كان ملتقى نظره دائمًا ، غاديا أو رائحًا أو مطلا من نوافذ القصر ، فقد كان هدمه يعنى عند الآخرين أنه يعلم عنه ما يريب .. وهو – بعد التفكير العميق – قد رأى من الخير أن يتظاهر بجهله ، ولا عليه أن يتحدث الناس عن خطأ امرأته ، من وراء ظهره ! ..

وعاش «حور محب» فى القصر الملكى وحيدًا ، فإن يده – بعد ذلك .. لم تعد تمتد إلى «باكيت آمون» ، كما أنها هى نفسها – والحق يقال – لم تعد تفكر فى بناء إيوان آخر ! ..

وعلى غير ما كان يتوقع «حور محب» ، استحال صفاؤه كدرا وابتهاجه اكتئابا ، فلم يشعر بما كان يأمل أن يحس به من المتعة والكبرياء خلال الاحتفال باعتلائه عرش فرعون ، أو عندما كان الكهنة يدهنونه بالزيت المقدس ويضعون على رأسه التاجين : الأحمر والأبيض ! .. لقد كان في مطوى نفسه غير سعيد بكل هذا ، لأنه - لفرط شكه وارتيابه - لم يعد يرى في كل من حوله واحدا جديرا بثقته أو يمكن أن يطمئن إلى دخيلة نفسه ! .. وقد أصبح يعتقد أن كل نظرات الناس إليه ليست في حقيقتها نظرات حب وولاء ، وإنما هي نظرات السخرية والاحتقار ! ..

وهكذا وجد - هو الآخر - العظم في اللحم ، والشوك في الورد ، وغص قلبه بالأسى ولم يعرف السبيل إلى الدعة والسلام ! ..

ولكنه لم يتوقف يائسا أو يرتد عن طريقه مهزوما ، فراح يملأ وقته بالعمل ويذيب فيه أحزانه ، ويحقق به الأهداف التي كان يحدثني عنها ، وهي بناء مملكة قوية ، وتخليص «مصر» من الأقذار وتطهيرها من كل دم مريض ، ووضع الصواب مكان الخطأ ، وإعطاء كل ذي حق حقه كاملا ، وإعادة طرائق الحياة القديمة إلى البلاد ، وغير ذلك مما انتواه وأفاض في ذكره ووعد به ! ..

- ٧ -

ومن الإنصاف أن أشيد هنا بفضائل «حور محب» ، فقد سار قدما على المنهج الذي وعد به في غير انحراف أو ميل ، حتى انطلقت ألسنة الناس بالثناء عليه ، واعتبروه - بعد سنوات قليلة من حكمه - ملكا عظيما يعد في الطليعة من فراعين «مصر» الخالدين . وكان عامة الشعب ، وهم الغالبية العظمى ، أكثر إعجابًا به وتحدثا بأفضاله ومآثره ، لأنه كان يأخذ من الأغنياء ويضرب على أيديهم ، ويعطي الفقراء حقوقهم ، ويعاقب القضاة إذا جانبوا العدل في أحكامهم ، ولم يدع الضرائب

فوضى كما كانت ، بل عدلها ونسقها ووضع لجبايتها نظامها دقيقًا وأجرى على جباتها أجوراً ومرتبات تدفع إليهم فى مواعيدها من الخزانة الملكية ، وبذلك لم يعودوا يستطيعون النهب من الناس والإثراء من الاختلاس والسرقة ! ..

وكان لا يكتفى بإصدار الأوامر والتعليمات ورسم خطط العمل ، بل كان ينزل بنفسه إلى الشعب مرتحلا بلا انقطاع من إقليم إلى إقليم ومن قرية إلى أخرى ، طائفا بين الناس ومتحدثا إليهم وباحثا فيهم عن آثار حكمه وعما يلاقونه من معاملة موظفيه وعماله ، وتحت أعينهم ، كان يقيم المحاكمات للمخطئين والمنحرفين .. فكانت رحلاته تقترن فى أغلب الأحوال بقطع آذان المرتشين وبتر أنوفهم ، ومن ساحات المحاكمة والتنفيذ كانت تنطلق فرقعة السياط وصيحات الألم والبكاء . ولم يكن فيما يصدره من أحكام جائراً أو آخذا إنسانا بغير جريرة ، وانما كانت أحكامه كلها تصدر عن عدالة مطلقة . وكان أشد الناس فقرا يجد السبيل ميسرا للوصول إليه . والإعراب لديه عن حاجته أو شكواه . واتجهت عنايته إلى تجديد ما درس من العلاقات التجارية «بين مصر» والخارج ، فأرسل السفن – ثانية – إلى بلاد «بنت» ، وانبعثت فى الميناء الحركة التي كانت قد انقطعت ، وشوهدات على رصيفه – مرة أخرى – زوجات البحارة وأطفالهم ينتظرون الأزواج والآباء ، لاطمين الوجوه بالحجارة كما جرت بذلك العادات القديمة ، ومن كل عشر سفن تبحر إلى بلاد «بنت» كانت تعود ثلاث فى كل سنة ، محملة بكنوز من الثروات فانتعشت الحياة فى «مصر» وعاد إليها الرخاء وأرف الظل ، ولاحت عليها مظاهر الثراء المطرد ! . وأخذ «حور محب » – إلى جانب ذلك – فى بناء معابد جديدة ، معطيا للآلهة حقوقها .. وكان «حوارس» أكثر الآلهة حظا من عنايته ، وكذلك كان معبد «حتنتست» الذى أقيم فيه تمثال «حور محب» ليعبد كإله ! .. وكان الناس يقدمون القرابين إليه من الثيران ويمجدون اسمه ويروون عنه الأساطير والخرافات ! ..

وأدع قليلا «حور محب» لأتحدث عن «كابتاح» ، ذلك الذى زاد فى هذا العهد ثراء وغنى حتى لم يبق فى «مصر» كلها من ينافسه فى ثرائه وغناه ، لعلة قد أوتى هذا الحظ الكبير منهما ؛ لأن «حور محب» كان يضفى عليه شيئًا من الإسماح والإغضاء ، فلا يتقاضى منه إلا القليل من الضرائب ، على خلاف ما كان يفعل مع الأغنياء الآخرين ! .. وذلك لأن «كابتاح» لم يكن له زوج أو ولد ، فاعتبر «حور محب» وارثه الوحيد ، ومن هنا كان الأمن والسلام مكفولين له بقية حياته ، كما كان ثراؤه يزداد وينمو بلا عائق ! ..

كان «كابتاح» قد أقام منزله وحديقته على مساحة كبيرة تعدل فى اتساعها ورحابتها حيا بأكمله وقد استطاع بماله أن يشترى ما كان يتناثر حوله من منازل الآخرين وأكواخهم ، ثم هدمها وأضافها إلى منزله وحديقته ، وبذلك استمتع بهما فى أمن من الجيران الذين قد يعكرون صفوه أو يقلقون راحته ! ..

ولم يبخل «كابتاح» على نفسه بشىء من ألوان الترف ، فكانت الآكال والطعوم تقدم إليه فى أطباق من ذهب ، كما كانت حجرات منزله الكبير مجهزة بصنابير الماء الفضية والأبنوس ، وكانت حوائط الحجرات وكان حمامه ومستراحه من الفضة والأبنوس ، وكانت حوائط الحجرات مبنية من أحجار مختلفة الألوان جميلة المنظر ، تشكل فى مجموعها لوحات فنية رائعة ، وكانت أكاله وطعومه تقدم طيبة فاخرة ، كما كان شرابه يقدم جيداً معتقا من نبيذ الأهرامات ! .. ولزائريه جميعًا أن يصيبوا منها ما شاءوا وكيفماء أرادوا ! .. وإسرافا فى طلب التسلية واللهو كان إذا ما جلس إلى مائدة الطعام ، أحاط به المغنون واللاعبون ورقصت أمامه أشهر وأمهر راقصات «طيبة» ! ..

وكثيرا ما كان يدعونى إلى منزله لنقضى - معًا - أطول وقت مستطاع ، وقد قال لى ذات مرة : أى مولاى «سنوحى» .. إن ثروتى هذه قد نبعت منك فأنت مصدرها الأول ، ولذلك سأظل أعترف بأنك مولاى ، وثمة حقيقة يجب ألا يفوتنا ذكرها هى أن

الإنسان قلما يكون فقيراً إذا حصل على ثروة معينة ، بل إنه ليزداد ثراء دون أن يتجشم فى سبيل ذلك عناء رفع إصبعه لمساعدة نفسه ، يبدو هذا عجيبًا ولكنه نظام الدنيا ! .. على أن الناس جميعًا ليسوا سواء فى استغلال مواهبهم وثرواتهم ، وهاأنذا مثلا لا ينقصك ما تحتاج إليه لتكون غنيًا ، وربما كان من حسن حظك أنك لم تكن فى شيء من الغنى ، فإنك لو كنت قد أوتيت قدرا منه لما جعلته سبيلا إلى مزيد ، وإنما كنت تجعل منه بذورا للقلق وأسبابا لإثارة المتاعب لك ولمن حولك ...

وكما هى الحال فى مثل بذخ «كابتاح» وترفه ، أقبل عليه الفنانون من كل مكان ، وكان يفسح لهم صدره ويبالغ فى إرضائهم والتحفى بهم ، فنحت المثالون منهم تمثالاً له تأنقوا فى زخرفته وتجميله وأظهروه فيه مظهراً نبيلا ممتازا ، فأعضاؤه رشيقة مسواة ويداه وقدماه صغيرتان دقيقتان ، وعظام خديه متناسقة ذاهبة إلى أعلى ، وعيناه مبصرتان قويتا البصر ! .. وهو – فى تمثاله هذا – جالس جلسة الذى يفكر تفكيرا عميقا وعلى ركبته قرطاس ملفوف وفى يده قلم كأنه يكتب شيئًا ! .. هكذا مثلوه ، وهو ليس فى شى منه لأنه فى سائر أجزاء بدنه أقرب إلى الدمامة والقبح منه إلى شيء قد يسمى جمالا ولو على سبيل المجاز ! .. ثم إن إحدى عينيه مفقودة تمامًا ومن المحال أن تؤتى بصيصًا من النور ، وكذلك هو لم يتعلم ولم يحاول مرة أن يتعلم القراءة والكتابة ، حتى إنه استعمل على تجارته وأمواله كتابا استطاعوا لجهله بأعمالهم أن يجمعوا لأنفسهم – من ورائه – أموالا طائلة ! ..

ومع أن التمثال كان ظاهر الزيف بعيدا عن الواقع ، فإنه قد أعجب «كابتاح» ووافق مركب النقص عنده ، وأجزل المكافأة لصانعيه ... وما زال يجزل العطاء كذلك لكهنة «أمون» للإعراب عن محبته للآلهة ، حتى إنهم سمحوا بأن يقام ذلك التمثال بالمعبد الكبير على نفقة «كابتاح» ! .

وكنت – فى الحق – مسرورا بما أرى من غنى «كاتباح» وسعادته ، وأنا بطبعى أشعر الشعور نفسه بالنسبة لأى إنسان أصاب فى الحياة ما يرضيه ويسعده . وعلى

ما في غرور الناس من سوء خلق ، فإني كنت لا أبغضه ولا أضيق به فيهم ، لأني أراهم يشعرون فيه بالرضا والسعادة ، وما نحن بخاسرين شيئًا إذا تركنا الناس يسعدون بالوسيلة التي لم يتح لهم أن يجدوا سواها ! .. وأحيانا يكون من الرحمة بإنسان أن تقتله دون أن تنتزعه من أطياف أحلامه وخيالاته السعيدة ! .

ولكنني – أنا نفسي – أعيش في قلق دائم وقد أقفرت حياتي من الأمل في هدوء البال واستقرار الحال ، بالرغم من أني في عملي كنت أكثر من ذي قبل توفيقا ونجاحا ، فنال الكثيرون من المرضى شفاءهم على يدي ولم يمت ممن أجريت لهم عمليات جراحة في الجمجمة – على كثرة عددهم – سوى ثلاثة لا غير ! .. وبذلك ذاعت شهرتي كجراح للجمجمة ! ... وكان هذا قمينا أن يشغلني عما سواه ، ويرطب صدري وقلبي بالأمل والرضا . ولكن شيئًا من ذلك لم يخرجني من دنيا الناس ولم يبعد بي عن أخطائهم وعيوبهم وساء ظني بهم جميعًا إلى حد أني لم أكن أنظر إلى وجه إنسان إلا وأرى فيه عيبا أنكره ومنقصة أكرهها ، فالفقراء متواكلون راضون بالذل ، والأغنياء طامعون لا يقنعون ولا يشبعون ، والقضاة قليلو المبالاة بالحق والقسطاس المستقيم ، وهذه كلها عيوب وخطايا تجعلني ساخطا عليهم غير راض عن أحد منهم ! .. حتى «كابتاح» قد صرت أعيب عليه أنه شره مبطان يسرف على نفسه بالطعام ولا يفكر إلا في ملء جوفه منه ! ..

ومرضاي وحدهم ، هم الذين كنت أحنو عليهم وأعنى بعلاجهم وأحس بالسعادة كلما استطعت أن أخلصهم من آلامهم ! .. كذلك أطفال الشارع ، كانت تذكرني عيونهم دائمًا بالصغير «تحوتح» فأطلب إلى «ميوتي» أن توزع عليهم كعكا معسولا ! ..

وقال الناس عني : إن «سنوحي» هذا رجل متعب ، كبده متضخمة وقلبه يطفح حقدا ، فلسانه لا يدور إلا بقالة السوء ، وأعماله السيئة تلاحقه ، فهو لا يجد في حياته لذة إلا في التحدث عن عيوب الآخرين كما تصورها نفسه المريضة ، ومن الخير ألا نعيره اهتماما وأن ندعه إلى نفسه ليموت بالسموم التي تنفثها ! ..

وكان الذى يقولونه حقا ، فإننى كلما أطلقت لسانى فى عيوب الناس ، لا ألبث أن أشعر فى دخيلة نفسى بمرارة وألم موجع ، فأنفجر باكيا منتحباً ! ..

وكذلك ساء رأى فى «حورمحب» فبدت أعماله – فى نظرى – شرا كلها ، ولم أمسك لسانى عنه فتحدثت جهرة عن معائبه وعن حاشية السوء التى يحيط بها نفسه ، والتى تنطلق معربدة فى الحانات وبيوت الملذات وتفحتش فى هتك أعراض بنات الفقراء حتى لم تعد امرأة تستطيع أن تظهر أو تمشى فى شوارع «طيبة» آمنة شرهم ! .. وكان «حور محب» يعلم هذا ولا يلقى بالا للشكوى منه ، حتى خيل لى وللناس أنهم يفعلون فعالهم النكراء بأمره ! ..

وبعث «حور محب» بحراسه – يومًا – إلى منزلى ، فطردوا المرضى من فنائه وأخذونى إليه تنفيذاً لأمره ، وكان الربيع يومئذ قد أقبل وانخفضت مياه النهر ! ..

ورأيت فى «حور محب» عندما بلغت مجلسه ، رجلا تقدمت به السن، وأصبحت عضلاته الفتية كخيوط متشابكة فى جسمة الفاره ، وكان رأسه حينذاك منحنيا ، فرفعه وسدد إلى من عينيه نظرات ملتهبة وقال : لقد حذرتك يا «سنوحى» مرات ذات عدد فلم تكترث لتحذيرى وطفقت ترسل الأحاديث المسمومة فى الناس طاعنا على المحاربين وممتهنا عملهم ومبغضا فيهم ، وقائلا لمن يستمعون لك إن من الخير لهم أن تموت الأجنة فى أرحام زوجاتهم من أن يولدوا ليصبحوا محاربين ! .. ثم تقول لهم كذلك إن ولدين أو ثلاثة فيهم غناء لأية سيدة ، وإن ثلاثة سعداء موفورى الرزق خير من تسعة أو عشرة فقراء قد يموتون جوعًا ! .. ولا تقف يا «سنوحى» عند هذا ، فتقول للناس أيضًا : أن إله فرعون الزائف «آتون» أعظم من كل الآلهة الآخرين ، وإن الناس سواسية فلا يجوز إن يكون منهم سادة وعبيد ، أو أن تنعقد للأرقاء أسواق بيع وشراء ! . وإن الذين يحرثون الأرض ويزرعونها هم أصحابها ويجب أن يملوكها حتى لو كانت أرض فرعون أو الآلهة ! .. وتقول للناس أكثر من هذا : إن حكم «حور محب»

لا يختلف – في قليل أو كثير – عن حكم الحيثيين .. إلى آخر الدعايات السيئة التى تقوم بها من وقت طويل وتتوالى على أنباؤها من حين إلى حين ، فأرد نفسى عنك بالصبر على رجاء أن تثوب إلى رشدك ! .. ولو كان غيرك هو الذى فعل فعلتك هذه ، لعرفت كيف أتخلص منه – من زمن بعيد – بارساله إلى المحاجر أو بأية طريقة أخرى ولكنك كنت يوما ما صديقي ! .. ومن هنا كان صبرى عليك . أما الآن فقد فاضت الكأس ونفد الصبر ، وأصبح لزاما علينا – كلينا – أن نضع حدا لهذه المهزلة أو المأساة ! .. وينبغي أن تفهم أنني كنت في حاجة إليك حينما كان الكاهن «أى» حيا لأنك كنت شاهدى الوحيد عليه ، وقد مات «أى» فلم أعد فى حاجة إليك ، وربما كان وجودك الآن حيا أو حرا بين ظهرانينا مصدر متاعب لي خاصة ، لأنك تعرف من الأسرار ما لا أحب أن يذاع أو يعرف ، ولو لم تكن أحمق يا «سنوحي» لفكرت في موقف كل منا من الآخر ، ولأمسكت لسانك لتعيش عيشة هادئة ! ..

واستطرد «حور محب» يقول فى غضب وهو يخبط على ساقه الرفيعة : إنك لست إلا برغوثا بين أصابعي أو ذبابة فوق كتفي ، ولن أسمح للشجرة العقيم التى لا تثمر غير السم بأن تبقى في حديقتي ، ولهذا كان حقًا وعدلاً أن أقصيك عن «مصر» لتظل إلى آخر حياتك بعيداً عن أرض «كيم» ، وينبغي أن تدرك أن نفيك عن «مصر» خير لك من البقاء فيها ، ذلك لأنى إذا أبقيت عليك اليوم مغضيا عما سلف من سوء فعالك ، فسيجيء عن قريب ذلك اليوم الذى تقتل فيه حتما ، ولا أريد أن يكون هذا مصير الرجل الذى كان في يوم من الأيام صديقي ! .. كما لا أريد أن تبقى هنا لتعبث بأفكار الناس وتروضهم على الفتنة ، فأحاديثك المسرفة قد تكون الشرارة التى تشتعل بها الأعشاب الجافة ، وأنا لا أسمح باشتعال النيران مرة أخرى فى أرض «كيم» لا بسبب الناس ولا بسبب الآلهة ! .. إن نفيك يا «سنوحى» عن «مصر» – إذن – عمل توجبه المصلحة العامة ، هذا إلى أنى لا أراك مصريا خالص المصرية ، وأكبر ظنى أن في دمك مزيجًا مختلطًا يتمثل فى الأفكار المريضة التى تملأ رأسك ! .

ولم أستغرب مقالة «حور محب» ، بل لقد أحسست كأنه يقول الحقيقة ، فلماذا لا يكون عذاب قلبى ناشئا من أن عروقى قد اختلط فيها دم فرعون المقدس بدم «ميتانى» الباهت الضعيف ؟! .

وعلى أية حال فلم يسعني إلا أن أضحك لكلام «حور محب» ، وعلى الرغم من أنه كان مذهلا ، «فطيبة» مدينتى وفيها ولدت ونشأت ، ولا أريد أن أبعد عنها إلى أى مكان آخر ! ..

وغضب «حور محب» من ضحكي ، إذ كان يتوقع أن أخر بين يديه ساجداً ملتمسا رحمته وغفرانه فهز سوطه في يده وصاح قائلا : فليكن الأمر كما قررت أن يكون ! .. إني أنفيك من «مصر» إلى الأبد ، وإذا جاءك الموت هناك فلن تعود جثتك لتدفن هنا ، فسيكون مثواها فى مكان نفيك بجانب شاطئ البحر الشرقي حيث تبحر السفن إلى أرض «بنت» ، وسوف آذن وقتئذ بأن تتخذ الإجراءات التقليدية المتبعة فى تحنيط جثتك ! .. وقد اخترت لك هذا الموضع بذاته ؛ لأني لا أستطيع أن أرسلك إلى «سوريا» ، فالجذوة فيها مشتعلة وليست بحاجة إلى من ينفخ فيها ، كما لا أستطيع أن أرسلك إلى أراضى «الكوش» ما دمت تؤكد أنه لا فرق بين الألوان وأن البيض والسود يقفون على قدم المساواة فى سائر الحقوق ، وليس بعيد أن تدس أفكارك الخطيرة فى رءوس أبناء بلاد «الكوش» ! . ولكن شيئًا من هذه المخاوف لا وجود له في الأرض القائمة على شاطئ البحر الشرقي ، فهى خالية مقفرة وليس فيها من الكائنات الحية سوى أبناء آوى والغربان والثعابين ! .. وفي وسعك هناك أن تتحدث ما شئت إلى هؤلاء وأن تدعوهم إلى ما تريد آمنا ، فلا حساب ولا عقاب ! . وسيحدد لك الحراس نطاق حياتك الجديدة ، فإن جاوزته لخطوة واحدة فإنهم ذابحوك بحرابهم ! . وما أحسبك ستفكر فى الخروج منه أو مجاوزته ؛ لأنه لن ينقصك فيه شيء ! . فسيكون فراشك وثيرا وطعامك وفيرا ، وسيقوم الحراس بتلبية طلباتك المعقولة من فورهم .

ولم يزعجني من قرار «حور محب» أنني سأنفى إلى وحدة موحشة ، فقد ولدت وحيداً وقضيت حياتي كذلك ، ولكن الأسى كان - مع ذلك - يعتصر قلبى ؛ لأننى مقصى عن «طيبة» الحبيبة ، ومقضى على ألا تطأ قدماى الأرض السوداء الناعمة وألا أرتوى - إلى الأبد - بماء النيل ! ..

وقلت «لحور محب» : لم يبق لى من الأصدقاء إلا قلة قليلة في هذا البلد ، فالكثرة الكاثرة من أهلها قد وهنت علاقتي بهم ؛ بل لعلهم قد كرهونى للمرارة التي يحسونها في كلامى ، فليس لي - الآن - من حاجة سوى أن تأذن لى في لقاء الأصدقاء القلائل لأودعهم ، وسوف يسرنى أن أملأ عينى قبل الرحيل بمناظر «طيبة» وأنعم لحظات بالسير في شارع «رامس» ، وأن أتنسم رائحة القرابين بين أعمدة المعبد الكبير ، ورائحة السمك يشوى في المساء أمام الأكواخ الطينية في حى الفقراء !

وقال «حور محب» متأبيا : إني محارب ولا أعرف مثل هذا الضعف في اللحظات الحاسمة ، .. فلن أذن لك بوداع لا أرى فائدة منه ولا حاجة إليه ، ومن الحكمة أن يتم رحيلك عاجلا في غير جهر أو مغالنة ، فإنك معروف في «طيبة» وربما كانت شهرتك فوق ما تتصور ، وقد يؤدى اتصالك بالناس إلى الاضطراب والمظاهرات ، ولذلك فسترحل في محفة مغلقة ! .. على أني إذا كان يوجد بين الناس من يرغب في مرافقتك إلى منفاك ، فإني لا أمنعه من هذا ، على أن يظل هناك حتى لو مت أنت قبله ، فإنه هو أيضًا يجب أن يموت حيث تموت بالمنفى نفسه ! .. ذلك أن الأفكار المثيرة كالأمراض المعدية سريعة الانتقال من شخص إلى آخر ، ولست أريد أن تتسرب عدواها إلى أرض «مصر» مرة أخرى ! .. ومع ذلك فمن هم أصدقاؤك الذين ترغب في توديعهم ؟! . إذا كنت تعني بهم أرقاء الطواحين المتشابكة أصابعهم ، أو بعض الفنانين السكارى الذى يرسمون إلها يجلس القرفصاء على قارعة الطريق ، أو الزنجيين اللذين كانا يترددان على منزلك ، فهؤلاء جميعاً قد انتهى أمرهم ، ورحلوا رحلتهم الطويلة التى لا معاد منها ولا مآب ! ..

وعندئذ ثار فى نفسى شعور الاحتقار والكراهية «لحور محب» وأحسست بأنى أكثر مقتا كراهية لنفسى ، فهاأنذا – مرة ثانية – أرى أشخاصًا آخرين قد صب عليهم العذاب والموت بسببى ! .. ولذت بالصمت فى حزن عميق ، وقبل أن يمضى بى الحراس إلى الخارج فتح «حور محب» فمه مرتين ليقول شيئًا ، ولكنه سكت قليلا ثم عاد ليقول : لقد تكلم فرعون ! ..

ودفعنى الحراس فوق محفة مقفلة ، وحملونى إلى خارج «طيبة» واجتزنا التلال الثلاثة ، ومن شرقيها اتجهنا إلى الصحراء فى طريق مرصوف أنشئ بأمر «حور محب» ، وبعد عشرين يوما وصلنا إلى الميناء التى تبحر منها السفن حاملة البضائع إلى أرض «بنت» وأبعد الحراس بى عن هذا المكان الذى كان يعيش حوله بعض الناس ، وواصلوا سيرهم لثلاثة أيام أخرى على ضفة الشاطئ حتى بلغنا قرية مهجورة كان يسكنها صائدو الأسماك فى وقت ما ، وعندها حطوا رحالهم وقاسوا المساحة المحدودة لى وأقاموا عليها منزلا عشت فيه كل تلك السنين .

وكما قال «حور محب» كان كل شىء موفورا بين يدى ، فعندى أدوات الكتابة وأوراق البردى الناعمة ، وصناديق من الخشب الأسود أودع فيها الصفحات التى أكتبها ، وكذلك أدواتى الطبية ! .. وكنت – أكثر الوقت أو كله – أشغل نفسى بالكتابة ... وكتابى هذا هو آخر كتبى ، ولم يبق ما أستطيع أن أقوله ، فقد نال منى الهرم وفشا فى بدنى الوهن ، وغشيت عيناى فلم أعد أبصر جيدًا حروف الكتابة أو أميز بينها ! ..

وكان عزائى فى هذا المنفى السحيق ، أننى قد وقفت فيه إلى تسجيل تاريخى وتحرير نفسى ، جاهدا فى تعرف أسباب وجودى ! . ولو أنى – وقد بلغت النهاية من هذا الكتاب – أرانى أكثر جهلا بتلك الأسباب منى يوم بدأت الكتابة عنها ! ..

وفي وحدتي هذه كان البحر يبدو لعيني في ألوان مختلفات فهو حينا أحمر ، وحينا آخر أسود ، وفي النهار يصطبغ بالخضرة ، وفي الليل يلتمع بياضا ، وفي الحر الشديد كان يتموج بالزرقة الفاقعة ، وهكذا كان البحر أمامي - أنا الرجل الوحيد - عالمًا فسيحًا رهيبًا متفاعلاً بالحياة ! ..

وهذه التلال الحمراء المحيطة بي قد ألفت فيها البراغيث التي تمجها الرمال ، واطمأننت إلى الحيات والثعابين التي كانت تنبعث حولي من جحورها وتقف دوني كلما سمعت صوتي ، فلم يحدث - مرة - أن لدغتني أو أصابتني بمكروه ! ..

ولست أنسى - في تأريخ هذه المرحلة الأخيرة من حياتي أن «ميوتي» جاءتني من «طيبة» في السنة الأولى مع أول قافلة من السفن الراحلة إلى أرض «بنت» فما أن رأتني حتى أجهشت بالبكاء ثم راحت تلومني قائلة : لقد حذرتك ألف مرة - يا «سنوحي» من عواقب حماقتك ، وطالما قلت لك أن الرجال الذين كنت تخطب فيهم وتتحدث إليهم ، إنما هم أشد صمما من الأحجار فلن يستمعوا لك ، وكأنما كنت أنت كالطفل الغرير الذي يضرب رأسه في الحائط ! .. وحقا ، لقد ضربت الحائط برأسك أكثر مما ينبغي ، فآن لك - بعد - أن تستقر وتسلك سبيل العقلاء ! ..

ومع أني أنست بلقائها وأكبرت فيها أخلاصها لي في محنتي ، فإنني وجهت إليها أشد اللوم على قدومها إلي ، فما كان ينبغي أن تربط حياتها بحياة رجل منفي إلى الأبد ، حيث لا أمل في عودتها إلى «طيبة» بعد ذلك ! .. ولكنها أجابتني بقولها : بل إنني أرى فيما كان ، أفضل ما يمكن أن يكون ، ولا ريب في أن «حور محب» كان صديقا مخلصا لك مترفقا بشيخوختك حين أرسلك إلى هذا المكان الهادئ البعيد عن صخب الناس وضجيجهم ، وأنا نفسي قد ضقت صدرا «بطيبة» وبمن فيها من أولئك الجيران الذين يقترضون أواني الطهو ولا يردونها ، ويلقون بأقذارهم إلى فناء منزلي في غير حياء ، ثم هناك أكثر من هذا مما يدعو إلى الهجرة من «طيبة» ... هناك المنزل

الذى اشتريته أنت من تاجر النحاس ، فإنه بعد الحريق الذى اشتعل فيه لم يعد صالحا للإقامة المريحة ! .. فالكانون فيه يحرق اللحم ، والزيت يتعطن فى الجرار ، وتيارات الهواء تعصف علينا من فرجات الأبواب والنوافذ دون أن تجد ما يمسكها ! .. أما هنا الأمر جد مختلف ! .. ففي استطاعتنا الآن أن نحيا حياة منظمة هادئة ، وأن نبني ما نشاء أن نبني وفق رغباتنا ، فالمكان فسيح ولا يوجد من يزحمنا فيه ، وقد اخترت موقعا حسنا للحديقة ، ومن الغد سأزرع فيه الأعشاب والكرسون المائى ، وسوف يسرك منظر الحديقة - بعد قليل - معشو شبة حاشدة بالزهور والثمار !

والتفتت «ميوتى» ناحية الحراس وقالت وهى تشير إليهم : وماذا يصنع هؤلاء الذين بعث بهم فرعون ليحرسوك ؟! سأهيىء لهم عملا ، فما ينبغي أن يعيشوا على هذا النحو غير اللائق من الجمود والكسل ! .. سأجعلهم يصيدون الأسماك من البحر ويجمعون المحار والكابوريا من الشاطىء ...

وتستطرد «ميوتى» قائلة : وفى هذا المهجر البعيد ، ينبغى أن يكون مستقرنا إلى آخر العمر ، فلا سبيل إلى العودة ، بل لا حاجة بنا إليها . وعلينا أن نختار - هنا - الموضع اللائق لنقيم عليه مقبرة ندفن فيها . فإنك لا تدرى كم عانيت فى البحث عنك وكم شقيت فى رحلتى إليك ، ولم أكن قد جربت فى حياتى شيئًا من ذلك ، فهذه أول مرة تخطو فيها قدماى خارج «طيبة » ! ..

وأعترف بأن «ميوتى» بثرثرتها هذه كانت ترفه عن نفسى ، وتضىء ما قد أظلم من تفكيرى ! .. وأعاننى هذا على متابعة الكتابة التى كان قد أصابنى فيها الكلال ، وكانت هى تستحثنى على ذلك خلافًا لعادتها ، إذ كانت تكره منى فى «طيبة» أن أضيع وقتى فى الكتابة التى تراها عبثا من العبث ، وكنت - إذ ذاك - لا أستغرب ذلك منها ؛ لأنها تجهل القراءة والكتابة ، والإنسان عدو ما يجهل ! ..

وسارت «ميوتى» على الخطوط على التى رسمتها لحياتنا معًا ، فكانت تقوم على خدمتى باذلة ما وسعها الجهد لتوفير راحتى ، مفتنة في طهو ما تعلم أنى أشتهيه من ألوان الطعام ، وكان لا يسرها مثلما يسرها أن ترانى على المائدة مبتهجًا بمأكلها مستمتعًا بتناولها ! ..

واستطاعت أن توثق صلتها بالحراس وتؤثر فيهم وتخلعهم من الحياة الهامدة التى استناموا لها ، فكانوا يعملون ما تشير به عليهم من أعمال ، وقد وجدوا فى ذلك – أول الأمر – مشقة وجهدا ، ولكنهم لم يجدوا فى أنفسهم الشجاعة على عصيان أوامرها أو المخالفة عن إرادتها ، فقد أصبحوا يخشونها لحدة لسانها وقوة حجتها ! .. على أنهم – بمرور الأيام – استأنسوا بها وبعملهم ، فصار العسير عليهم سهلا ومألوفًا ، وأحسوا بصحتهم تتقدم ومعنوياتهم ترتفع بتأثير الحركة التى دفعتهم «ميوتى» إليها ، وبفضل قيامها هى على رعاية شئونهم ! .. فقد كانت تقدم لهم كفاء عملهم خبزا جيدا وتصنع لهم الجعة في جرار كبيرة وتمكن لهم من ارتياد الحديقة ليقطفوا ما طاب لهم من ثمارها ! ..

وكان «كابتاح» يلاحقنا بوفائه وبره ، ففى كل عام يبعث إلينا على السفن المبحرة إلى «بنت» بالعديد من الحمير محملة بالبضائع من «طيبة» ومعها رسائل مكتوبة ، كان يعهد إلى كتبته بأن يشرحوا لى فيها أحداث «طيبة» ووقائعها ومجريات الأمور فيها ، حتى لا أكون – على حد قوله – كمن يعيش داخل زكيبة ! .. وكان هذا الذى يأتينا وافرا من «كابتاح» يذهب أكثره إلى الحراس ، فوق ما كانت تقدمه «ميوتى» إليهم من هدايانا ، فاستطابوا حياتهم بعد أن كانوا يبغضونها ، وخف حنينهم كثيرا إلى «طيبة» ! ..

والآن – وقد عجزت عن الكتابة وسئكتها واشتاقت أطرافى إلى الراحة الدائمة – فإنى أضع قلمى وأبارك أوراقى وأحمد لها أنها أعادتنى صبيًا إلى بيت أبى «سنموت» وسارت بى فى طريق «بابل» إلى جانب «مينيا» وردتنى إلى أحضان

«ميرييت» تطوقني بذراعيها ! .. وهي ذكريات مثيرة أبكتني كثيراً على رفاقي هؤلاء ، وعشتها مرتين : بشخصي مشاركا في أحداثها ، وبقلمي مسجلا لها ! ..

كل هذا كتبته ، أنا «سنوحي» المصري ، لا للآلهة ولا للناس ! .. وإنما كتبته لنفسي أهدهدها وأعزيها ، ولقلبي المسكين يستروح بها نسائم السلام بعد أن تعذب كثيراً في معركة الماضي الطويل ! ..

ولست أعرف ماذا يكون مصير كتبي هذه بعد موتي ؟!. فمن المحتمل - إن لم يكن من الأرجح - أن يعبث الحراس بكل ما كتبت ، وأن يهدموا منزلي على كل ما فيه بأمر «حور محب» ! .. ولكنني - على أية حال - قد عنيت بكتبي جميعاً وحرصت على حفظها ، وشاركتني «ميوتي» في هذه العناية والحفاظ ، فصنعت لكل كتاب غلافا من ألياف النخيل ، وأودعت الكتب كلها صندوقًا فضيًا ثم وضعت هذا الصندوق الفضي في جوف صندوق آخر من الخشب المتين ، وأدخلت الصندوق الأخير في قلب صندوق ثالث من النحاس ! ..

وما يهمني بعد هذا أن تنجو من عبث الحراس أو غيرهم ، أم تستطيع «ميوتي» أن تخفيها دفينة بقبري ! .. فإنني - أنا «سنوحي» - لست إلا إنسانًا من البشر ، عشت في كل انسان جاء قبلي ، وسأعيش في كل إنسان يجئ من بعدي ! .. سأعيش ما عاش البشر ، في دموع الإنسانية وابتساماتها ، وفي مخاوفها وأمنها ، وفي شرها وخيرها ! ..

التصحيح اللغوى : غادة كمال
الإشراف الفنى : حسن كامل
التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد